

هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ

وَعَجَبِي الْقُرْآنَ الْمُبِينِ
وَالْفَهْمَ الْخَبِيرَ لِلْقُرْآنِ



بِقَامِ الْبَاحِثِ
مُحَمَّدٍ وَاسْتِيفَانِ الْبَغْدَادِيِّ
بَعْنَى بِالْمَدْرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

الْجُلْدُ الثَّانِي
مِنَ الْجُزْءِ (٨-١٦) مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
مِنَ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى نِهَآئِهِ سُورَةِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْمَدِينِيَّةِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْمَدِينِيَّةِ

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكًا فَاتَّبِعُوهُ
الجزء ٨ / ١٦٦

وَيْحَى الْقُرْآنِ الْمَدِينِيِّ

الجزء ٨ من القرآن الكريم



من الجزء (٨-١٦) من القرآن الكريم

المجلد الثاني

بقلم الباحثة

مكي قاسم البغدادي

يعنى بالدراسات القرآنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْمَدِينِيَّةِ

مَكْتَبَةُ الْقُرْآنِ الْمَدِينِيَّةِ

وَيْحَى الْقُرْآنِ الْمَدِينِيِّ

وَيْحَى الْقُرْآنِ الْمَدِينِيِّ



قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يونس/١٠٨

وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ

الْفَهْمُ الْحَيَوِيُّ لِلْقُرْآنِ (ج ٢)

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال/٢٩

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَبْرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ النمل / ٩٣

فَسِحْرُ الْقُرْآنِ الْمَلِيسِ

الفهم الحيوي للقرآن

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل / ٨٩
عن النبي (ص): (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالتَّلَاوَةِ، وَلَا الْعِلْمُ بِالتَّوَاتُؤِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ، وَالْعِلْمُ بِالدِّرَايَةِ).

كنز العمال خبر ٢٤٦٢

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

يعنى بالدراسات القرآنية

المجلد الثاني

من الجزء (٨-١٦) من القرآن الكريم

من سورة الأعراف إلى نهاية سورة الكهف

السيرة الذاتية المختصرة للكتاب (هوية الكتاب)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- العنوان (وعي القرآن الميسر) بمعنى : كما أنّ القرآن ميسرٌ نصّاً لكلّ الناس بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/ ٣٢ ، فالمطلوب والمرغوب أن يكون تفسيراً ميسراً لكلّ الناس أيضاً ، ميسراً في معناه ومبناه ، وعميقاً في مغزاه وواسعاً في دلالاته ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟! أي متذكّر ، ومعنى الميسر غير معنى المختصر ، أي تفهّم معنى الآية الكريمة بشكل عام والتركيز على المهم وبأسلوب حيوي سهل الفهم ، وبلا تطويل ممل ولا اختصار غير مستوفٍ، إنّه الفهم الحيويّ للقرآن يبعث الحيويّة والحياة في النفوس والذي يشرح الصدور ويطمئن القلوب ، الذي يعتمد خير الكلام ما قلّ ودلّ ولا يمل ولا يتعد عن القصد قال تعالى ﴿ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام/ ١٥٥ .

- المؤلف : الباحث مكي قاسم البغدادي (يُعنى بالدراسات القرآنية) .

- المجلد الثاني : يحتوي من الجزء ٨ - ١٦ من أجزاء القرآن الكريم من سورة الاعراف إلى نهاية سورة الكهف

- عدد الصفحات المجلد الثاني : ٧٢٨

- قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم

- الإخراج الفني : د. محمد نصيف عباس

- سنة الطبع : ٢٠٢٠ - الطبعة الثانية - مزيدة ومنقحة ومضاف لها مصادر البحث

الناشر : بساتين المعرفة



طباعة - نشر - توزيع / كتب : تراثية ، علمية ، دينية

العراق - بغداد - شارع المتنبي

سوق السراجين قرب مكتبة دار الكتب العلمية

mob: 07902278551

eimal: basatenmaraf@yahoo.com



ISBN 9 78-9922 20-734-6 :الرقم الدولي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣١٠ لسنة ٢٠١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



قال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَكَأَنَّ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الحمد لله وصلوات ربنا وسلامه على سيدنا مُحَمَّد وآله الطاهرين
الحمد لله الذي منّ علينا إتمام هذا المجلد من (وَعْيِ الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرِ) تدقيقاً لغوياً، وجدناه
يستند على منهج سليم في التدبّر الجميل للنص القرآني قال تعالى (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ)
النساء/ ٨٢، فكان منهج البحث يعتمد كيف نعي النص؟ وكيف نتفاعل معه؟، ويكون
الكتاب متوازناً، لا هو مختصر لا يستوفي المعنى، ولا هو مطّول فيكون للخواص والنخب،
وأما كان مُبَسَّرًا بموضوعية واعتدال، ويعتمد المنهج الحيوي المعاصر، الذي تستمتع
النفوس بقراءته، ويستند الأسلوب الأدبي الجذاب، الذي يشوّق النفس بمتابعته، والذي
قاعدته الدلالة القرآنية والعقلية والنقلية والواقعية التي لا تتعارض مع نصوص القرآن، مستعيناً
في شرح معنى الآية الكريمة بآيات قرآنية أخرى تفتح آفاق النص وإبائه، ليكون أفضل
وسيلة لفهم القرآن، أن يفسر القرآن بعضه بعضاً، مستعيناً بأحاديث النبي وآله (ع)
الصحيحة التي لا تتعارض مع آيات القرآن. ويعتمد (وَعْيِ الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرِ) على ما يلي:
١- المنهج العالمي للقرآن (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكوير/ ٢٧، ٢- المنهج الحيوي،
والأسلوب الأدبي المشوّق، الذي يوحد ولا يفرّق، ٣- يعتمد الأحاديث الصحيحة، ٤-
يعتمد البحث على التيسير والتعميق بلا تبسيط ولا اختصار، فكان مبسّراً شفافاً سهل الفهم
بعيداً عن التعقيد، ومبسّراً بطريقة فنية فريدة بعيداً عن التسطّيح. فيكون (القرآن ميزان
دقيق: فمن وقى، استوفى).

اللهم اجعلنا ممن يتذكّر فتنفعه الذكرى، ومن يستمع القول فيتبع أحسنه
وآخر دعوانا (أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/ ١٠

أستاذ اللغة العربية

ضياء الجادري



من مقاصد السورة :

مكية غير قوله تعالى ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ . نزلت بالمدينة، الجزء الثامن، عدد آياتها ٢٠٦ ، من السور الطوال أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، وتبين أصول الدعوة الإسلامية من التوحيد والنبوة والمعاد إلى يوم القيامة وبيان أهمية الوحي والرسول والرسالات، وأهمية القرآن العظيم معجزة محمد (ص) الخالدة فهو يهدي للتي هي أقوم وبغيره الضلال والفساد ، ويبين قصة آدم وحذر من كيد الشيطان وكثره وكيف هبط آدم إلى الأرض ومعنى هذا الهبوط أنه ليس من جنة الآخرة لأنها لا يوجد فيها إبليس وإنما هبط من جنة الدنيا الخاصة إلى الأرض العامة التي فيها السعي والتعب والنصب، وتحدثت عن أهل الجنة وأهل النار ، وعن (أصحاب الأعراف) وسميت باسمها سورة الأعراف.

ومعنى الأعراف : سور مضراب بين أهل الجنة وأهل النار يكون فاصل بينهما ، ووقف على هذا السور عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم يعرفون أهل الجنة بمميزاتهم وأهل النار بمميزاتهم ، وتناولت السورة علماء السوء وصورتهم بأبشع صورة، صورة الكلب اللاهث . وختمت بإثبات التوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت السورة تقوم على وحدانية الله في البدء والختام، وكانت **تسبيحة التوحيد :** تعمل على الربط المميز النموذجي لمنظومة السنن الكونية التي توحد الله تعالى مع حركة السنن الإنسانية الموحدة لله لوجود علاقة بينهما ، فتجعل نظام الإنسان يرتبط مع النظام الكوني الهائل في وحدة واحدة موحدة متحدة ، وبذلك يطمئن قلب الإنسان ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/٢٨ . **فضلها :** عن النبي (ص): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ سِتْرًا وَكَانَ آدَمَ شَفِيعًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وعن الإمام الصادق (ع): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ فِي كُلِّ شَهْرٍ كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) مجمع البيان/٤/٢٣٣ . **ملاحظة عامة:** كل فضل من فضائل سور القرآن كلها يعتمد على مقدار الصدق والعمل من الإنسان ومقدار الرضا من الله عز وجل تجاه الإنسان وليس بالمني والأمانى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿المص﴾

تقدم الكلام في أول سورة البقرة فيما يتعلق بالحروف المقطعة . قيل إنها إشارة إلى إعجاز القرآن إنه مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن

الإتيان بمثله أو بعضه في بلاغته وفصاحته وعلومه وأحكامه وغيرها.. تقرأ : ألف ، لام ، ميم ، صاد.

٢ - ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ تَتَذَكَّرُ بِهِ ذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يَصَوِّرُ الْقُرْآنَ حَالَةَ وَقَعِيَّةٍ مَتَحَرِّكَةً تَتَنَاسَبُ مَعَ حَرَكَةِ إِصْلَاحِ إِجْتِمَاعِي فِي وَاقِعٍ فَاسِدٍ خَطِيرٍ ، وَتَشْمَلُ كُلَّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، تَجِدُ كَلِمَةَ الْحَقِّ غَرِيبَةً فِي بَيْئَةِ فَاسِدَةٍ ، وَثَقِيلَةً عَلَى النُّفُوسِ الْفَاسِدَةِ ، وَمَسْتَنَكِرَةً فِي الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ ، تَسْتَفْتِحُ الْآيَةَ بِأَسْلُوبٍ حَرَكِيٍّ مُؤَثِّرٍ فَتَقُولُ : هَذَا كِتَابٌ مَبَارَكٌ جَلِيلٌ مُحْكَمٌ مَفْصَّلٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، حَامِلاً لِلْبَشَرِيَّةِ نُورَ الْهُدَايَةِ وَمَتَكْفِلاً تَنْظِيمَ الْحَيَاةِ وَاسْتِقَامَتَهَا ، وَوَصَفَهُ بِالْإِنْزَالِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى دَالٌّ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ ، وَجَاءَ الْكِتَابُ نَكْرَةً لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّعْرِيفِ بِهِ وَمَبَالِغَةً فِي تَكْرِيمِهِ وَكَأَنَّهُ بِذَاتِهِ مُسْتَعْنٍ عَنِ كُلِّ تَعْرِيفٍ . (فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) حَرَجٌ مِنْهُ: ضَيْقٌ ، مِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُوَاجِهَهُ كَثِيرٌ مِمَّنْ تَضْرِبُ مَصَالِحَهُمْ ، أَيْ لَا يَضِيقُ صَدْرَكَ مِنْ تَبْلِيغِهِ بِمَا تَلَاقِيهِ مِنْ قُوَى الشَّرِّ وَالضَّلَالِ وَلَا تَحْشَى لَوْمَةَ لَائِمٍ ، فَاللَّهُ مَعَكَ وَفِي عَوْنِكَ فَهُوَ نَاصِرُكَ مَا دَمَتِ نَاصِرُهُ ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ نَجْد/٧ ، (لِتُنذِرَ بِهِ) لِتُنذِرَ بِالْقُرْآنِ كُلِّ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ وَتَذَكِّرَهُمْ وَتَعْظُمَهُمْ وَتَوْثِرَ فِيهِمْ أَثَرَ الْإِنْذَارِ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ سَخَطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ لِلظَّالِمِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا ، فَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى الْمَعَانِدِينَ ، وَيَسْمَى هَذَا الْإِنْذَارُ فِي زَمَانِنَا الْمَعَاصِرِ ، الثُّورَةَ عَلَى الْوَاقِعِ الْفَاسِدِ وَعَلَى الْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَعْمَالِ الضَّالَّةِ وَالْعَمَلِ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ التَّقَالِيدِ الشَّاذَّةِ الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي تَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يَحْسِنُ صِنْعاً ! وَطَلَبَ الْإِصْلَاحَ مِنَ الْأَسَاسِ

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ هُود/٨٨ ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ الضَّيْقُ وَالْحَرْجُ مِنَ الْجُهْلَاءِ وَالغُوغَاءِ ، عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) (لَوْ سَكَتَ الْجَاهِلُ مَا اِخْتَلَفَ النَّاسُ) الْبَحَارُ ٧٨ ص ٨١ (وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ) ذَكَرِي خَاصَةً لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ فِيهَا بُونَ مَقَامٍ رَحِيمٍ فَيَزِيدُ بِذَلِكَ إِيمَانَهُمْ وَعَمَلَهُمُ الصَّالِحِ كَقَوْلِهِ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذَّارِيَاتُ/٥٥ ، لِتَثْبِيَتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفِعْلِ وَلَمَنْ يَرِيدُ الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ وَالْأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ الْمُنْجَذِبُونَ إِلَيْهِ ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَنْ لَا يَخْتَلِفَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِ عَنِ فِعْلِهِ ، وَاعْتِقَادَاتِهِ عَنِ مِمَارَسَاتِهِ ، وَإِدْعَاوَاتِهِ عَنِ حَقِيقَتِهِ . فَائِدَةٌ : بِذَلِكَ يَتَخَلَّصُ الضَّمِيرُ الْبَشَرِيُّ مِنَ (النَّفَاقِ) وَهُوَ أَسْوَأُ صِفَةِ يَكْرَهُهَا اللَّهُ تَعَالَى وَتَضُرُّ بِالنَّاسِ وَتَحْدَعُ النَّفْسَ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ النَّسَاءُ/١٤٥ . جَاءَ الْقُرْآنُ إِذْ نَارًا لِلْمُنْحَرِفِينَ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ ﴿لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ مَرْيَمَ/٩٧ ، قَوْمًا لُدًّا : قَوْمًا أَلْدَاءَ أَعْدَاءَ مُجَادِلُونَ بِشِدَّةٍ وَمُحَاصِمُونَ بِالْبَاطِلِ وَالْعِنَادِ .

٣ - ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ﴾

أيها الناس جميعاً اتبعوا القرآن الكريم المبارك واقتدوا به الذي فيه الهدى والتقى والاستقامة والكرامة والسلامة بلا أية ملامة ولا ندامة ، وهذه كناية عن الدخول تحت ولاية الله سبحانه أولئك ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٨ ، (وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) ليس دون القرآن والرسول (ص) إلا الأهواء والضلال ، فإن لم تتبعوا تبتدعوا ، وكل بدعة في دين الله ضلالة والضلالة في التار ، فلا تتبعوا غير هدى الله وهم أولياء كثيرين لذلك جاءت (أَوْلِيَاءَ) بالجمع ، (أَوْلِيَاءَ) أرباباً وقادة يتولون تدبير الأمور عكس منهج الله فتطيعونهم في معصية الله ، فيكونوا لكم أولياء وأنصار من دون الله ، عن الإمام علي (ع) في نهج البلاغة خطبة ٢٨: (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى) (قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) إِتِّكُمْ قليلاً ما تتعضون ، لو تذكرتم واتعظتم لذقتم طعم الهداية التي لا يعرفها إلا الذي ذاقها واستذوقها ، ولكن ما تتعضون إلا قليلاً ، ومن لا يليق به الرحمن يليق به الشيطان. فائدة: ١ - يلفت القرآن نظرنا بأن أكثر الناس لا يعلمون والأغلبية لا يصغون لكلمة العدل والحق، والقليل من يتعظ ويتذكر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس/٣٢ ، إذاً من الضلال القول (حشر مع الناس عيد) كما قال تعالى ﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الأنعام/١١٦ . ٢ - عن النبي (ص) : (إِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمْ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ) كنز العمال خبر ٤٠٢٧ . ٣ - قوله (وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) ولم يقل (ولا تتبعوا من دوني أحداً) لم يمنع الله تعالى من اتباع المؤمنين والقادة الصالحين ، وإنما يمنع من اتباع من دونه.

(أَوْلِيَاءَ) زعماء من دونه، يمنع من اتباع المتاجرين بالدين باسم الدين ولباس علماء الدين وأصحاب مواقع مؤثرة ومهمة في الدين، وهم منحرفون عن الدين معادون له في الباطن، بقصد أو بدون قصد، والذي لا يرضى بالرب الواحد (ربكم) جميعاً فسوف يرضى بالأرباب المتعددة (أَوْلِيَاءَ) من دونه. ٤ - تشير الآية إلى خطأ مفهوم الديمقراطية الحديثة التي تعتمد على أصوات الأكثرية، أي تعتمد على الكمية دون الكيفية، تعتمد الأكثرية حتى لو كانت الأكثرية خبيثة ، والقرآن ينظر إلى المضمون الحق قبل الشكل والعدد والأكثرية كقوله ﴿لَا يَسْتَوِي الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَبِيثِ﴾ المائدة/١٠٠ .

٤ - ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

(وَكَمْ) للتكثير أي وكثير (مِنْ قَرْيَةٍ) من الشعوب والمجتمعات الفاسدة أصابها الهلاك عندما سلكوا طريقه ، إنها حُمِلت رسالة الله فلم تحملها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ الجمعة/٥ ، واتخذوا أولياء من دون الله ، وإعتبروا هدى الله رجعية وهم تقدميون؟! (فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ بَيَّاتًا) فجاءها عذابنا لهم حال نومهم ليلاً كقوم لوط (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) أو نهاراً في وقت القيلولة وهي منتصف النهار والنوم في الظهيرة كقوم شعيب ، وخص مجيء البأس والعذاب بهذين الوقتين

لأنهما وقتان للسكون والدعة والراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة، في غرر الحكم: (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحس) عن النبي (ص) (عجبت لغافل وليس بمغفول عنه) أمالي المفيد ص ٤٥، ولم يخطر الهلاك على قلوبهم فحين جاءهم العذاب بلا مقدمات استسلموا إليه مدعين فائدة: ١- هذه حقيقة بالغة الأهمية لا يعيها إلا القليل، وهذه الآيات في أول هذه السورة تعد الأمة لحمل مسؤوليتها بقوة وإخلاص وتحذرها من الانحراف والإعراض ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود/١٠٢ . ٢- (قرية) مركز اجتماع الناس أي مركز المدينة وقد تسمى العاصمة في المصطلح الحديث . ٣- قال (أهلكناها) ثم قال (فجاءها بأسنا) فقدّم الهلاك على البأس، وفي العقاب يقدّم البأس على الهلاك، والجواب: حكم الهلاك مقرّر عليهم قبل مجيء البأس، حتى إذا بلغ الكتاب أجله أي حان الوقت المناسب، جاء بأس الله فأخذهم العذاب وهم ظالمون .

٥ - ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ) أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين صدموا وشاهدوا العذاب ورأوا علاماته واستدوقوا لوعته وشدّته (إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) إلا أن اعترفوا بظلمهم وانحرفهم تحسراً وندامة في وقت لا ينفع الندم، بينما نلاحظهم في وقت الأمان استغرفوا في المنكرات ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة/١٣، عن النبي (ص): (لَنْ يَهْلِكَ النَّاسَ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) كثر العمال خبر ٧٦٨٧، إنها إدانة لأنفسهم وحجة يلوم بها بعضهم على بعض، وهكذا الأخطار والبلايا الشديدة تسحق كبرياء الإنسان المعاند وتزيح حُجب الغفلة عن بصيرته وتوقظ ضميره من سباته! ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الروم/٥٧، وهذا درس للشعوب الإسلامية المستضعفة أن ترجع إلى هدى القرآن، فإنه لا تنكشف ظلماتنا إلا بالرجوع إليه ليكون القرآن دستورنا بالفعل والقوة والحقيقة والادعاء.

٦ - ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾

(فَلَنَسْأَلَنَّ) فأقسم بلام القسم ونون التوكيد أنّ هناك مسؤولية عامة على الجميع في الدنيا نُسأل عنها في يوم القيامة ﴿وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ يونس/٦١، يعرّب: يغيب ويبعد . المعنى: لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتهم المرسلين، والمقصود من هذا السؤال التوبيخ للكفار (وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) ولنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وألقوا الحجة الإلهية على الناس وكيف تفاعل الناس مع الرسالة؟ وهكذا تصبح البشرية كلها مسؤولة عن رسالتها ويجب أن تتحمل المسؤولية وتجيّب في ذلك الموقف الرهيب عن كلّ سؤال سواء أكانوا قادة أم أتباعاً، فضلاء أم جهلاء ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر/٣٨، ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ

مَسْئُولُونَ ﴿ الصافات/٢٤ ، عن النبي (ص) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَإِلا مَأْمٌ يُسْأَلُ عَنْ النَّاسِ وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ ، وَالْمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ زَوْجِهَا) صحيح مسلم ١٤٥٩/٣ وهكذا يُسْأَلُ عن كلِّ شيءٍ فلنعدُّ لكلِّ سؤالٍ جواباً . فائدة : قال هنا (فَلنَسْأَلَنَّ) وفي موقفٍ آخر قال ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ القصص/٧٨ ، وقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ الرحمن/٣٩ ، والجواب : يوم القيامة مشاهد كثيرة : وكلُّ مشهدٍ أحداثه الخاصة به ، فهنا الأول في موقف الحساب وفي الثاني موقف العقاب وانتهاء الحساب ، وفي مشهدٍ يحتم الله على الفم فلا يتكلَّم ، وفي مشهدٍ آخر استغاثة واعتراف بالذنوب ، وفي مشهدٍ آخر يُسْأَلُ عن جميع أعماله ، وفي مشهدٍ آخر فيه الصمت ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا ﴾ طه/١٠٨ ، وفي مشهدٍ آخر يُسْأَلُ عن جوارحه وحواسه كقوله ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ الإسراء/٣٦ ، روي : (يُسْأَلُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ : عَنْ شَبَابِهِ فِيْمَ أَبْلَاهُ ؟ و عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَ أَفْنَاهُ ؟ و عَنْ مَالِهِ مِمَّ اكْتَسَبَهُ ؟ و فِيْمَ أَنْفَقَهُ ؟ و عَنْ فَرَاغِهِ كَيْفَ قَضَاهُ ؟ و عَنْ حُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ ؟ لِأَنَّهُ مِنَ النَّعِيمِ ﴾ ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ التكاثر/٨) ، لم يكن السؤال للاستعلام والبيان لشيء مجهول عن الله تعالى ، بل للاخبار بما حدث منهم تأنيباً على إهمالهم في ضلال أنفسهم ، عن النبي(ص) : (الْكَيْسِيُّ الْمَتْرَنُ مَنْ دَانَ (حاسب) نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيُّ) البحار ٧٠ ص ٧٠ .

٧ - ﴿ فَلتَقُصِّنَّ عَلَيْهِمُ عِلْمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

(فَلتَقُصِّنَنَّ) وأقسم بلام القسم ونون التوكيد أي فلنخبرنهم بما قالوا وفعلوا عن علم ، يوضع كتاب الأعمال بصورة مفصلة يوم القيامة بالصورة والصوت والنية فيرون الحقيقة كما هي على أرض الواقع عن ابن عباس : (يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ المجادلة/٦ ، (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) يخبر الله تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وما عملوا من صغيرة وكبيرة وجميل وحقير كقوله ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ الكهف/٤٩ ، والله على كلِّ شيءٍ شهيد ، لا يغيب ولا يخفي عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَائِبِينَ ﴾ المؤمنون/١٧ ، ﴿ وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ النساء/١٠٨ ، فتكون النتائج كالمقدمات ويكون الجزء على ضوء الأعمال . فائدة : (لِنَقُصِّنَنَّ) من القصة التي يتلو بعضها بعضاً ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ القصص/٢١ ، (بِعِلْمٍ) جاء نكرة لبيان علم الله التفصيلي أنه عظيم ودقيق وكامل وشامل مع الحجة الواضحة ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ الأنعام/١٤٩ .

٨ - ﴿ وَالْوَرَيْنِ يَومِئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ قَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

ميزان الدنيا للكمية وميزان الآخرة للكيفية لا للكمية ، للنوع لا للمقدار ، فميزان الدنيا مادي يزن الأشياء وميزان الآخرة معنوي يزن الأعمال ، لأن الحق صفة معنوية عامة لا جور فيه ولا ظلم ، في الحديث : (قَلِيلُ الْعَمَلِ مَعَ التَّقْوَى خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ بِلا تَقْوَى) التفسير المبين ص١٩٣ ، والوزن للعمل دون عامله في الخير والشر لأن العبرة بوزن الأعمال ما اشتمل منها على حق ، فالوزن الذي توزن به الأعمال كلها هو الحق والعدل بلا ريب فلا يوجد جور ولا ظلم هناك فبمقدار اشتمال العمل على الحق يكون وزنه ثقيلاً في الميزان ، وإن لكل عمل ميزاناً ، فللصلاة مثلاً ميزاناً توزن به وللزكاة ميزان وللإنفاق ميزان .. وهكذا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الأنبياء/٤٧ ، موازين دقيقة تزن مثقال الذرة من الخير والشر ويجازى عليها (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) رجحت أعمالهم الحسنة مع الإيمان والتقوى ولم يخبط من أعمالهم شيء ، وجاؤوا إلى الله بقلب سليم وبإيمان وأعمال صالحة وحُلُقٍ حسن ، ووزن إنساني راجح ينفع نفسه ويخدم الناس ويرضي ربه (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون بجزيل الثواب والناجون غداً من العذاب ، وفلاح العيش في الآخرة أعظم فلاح على الإطلاق (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ).

عن النبي (ص): (مَا وَضِعَ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ) البحار ٣٧٤/٧١. في نهج البلاغة خطبة ١٩١ (وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ الدُّنْيَا) فائدة: (الميزان معنى عام) : لكل شيء وسيلة لقياسه مثلاً : الشاقول لقياس درجة انحناء الجدار، والمحرار لقياس درجة الحرارة ، والكيلوغرام لقياس كتلة المادة ، والمتر لقياس الأطوال ، والإنسان المستقيم هو الميزان (القدوة) الذي يقاس به ، عن الإمام الصادق (ع) : في قوله (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ) (الْمَوَازِينُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ) (كمصدق للآية)) الأمثل ٥٢٦/٤ ، ونخاطب الإمام علي في زيارته (السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الْأَعْمَالِ) تفسير النور ١٤/٣ ويكون ميزان المستكبر الظالم يوم القيامة كالهباءة فلا يزن عند الله جناح بعوضة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ الكهف/١٠٥ ، عن الإمام الصادق (ع) (إِنَّ الْخَيْرَ ثَقُلَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ ثِقَلِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ خِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) كنز الدقائق ٤٤٨/٣ .

٩ - ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بَاطِلًا يَظْلَمُونَ﴾

فالسبب خفيفة القدر والوزن لا تسبب ثقلاً في ميزان الأعمال لأن ﴿الْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الأعراف/٨ ، وهم الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم بتضييع الفطرة السليمة أي تلويثها ، عبدوا هواهم وعاشوا مناهم ومتاعهم القليل وطلبوا اللذات والشهوات المحرمة وجعلوا القرآن وراء ظهورهم وقست قلوبهم من كثرة ذنوبهم فحرموا أنفسهم لذة الهداية ونعمة الاستقامة بإصرارهم على أنواع المعاصي إلى نهاية أعمارهم (فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) فرأس ما لهم هو أنفسهم فخسرت أنفسهم فحصل الخسران الكبير ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرَبِحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟ حيث فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم ﴿فَأْوَرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ

الْمُورُودُ ﴿٩٨﴾ هود/٩٨، ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يكذبون بسبب كفرهم بآيات الله وإعراضهم عن منهج الله، فهم ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم وظلموا الحقيقة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١، فإذا كان العلم الحديث كشف لنا موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار واكتشاف النفط والغاز .. إلخ إذن فهناك موازين لأعمال الناس ، عن الإمام علي (ع) : (مَنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَرْجَحَ مِنْ بَاطِنِهِ حَفَّ مِيزَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كَانَ بَاطِنُهُ أَرْجَحَ مِنْ ظَاهِرِهِ نُقِلَ مِيزَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الميزان/٨/١٥٠، وعنه (ع) : (فَالْحَسَنَاتُ تُقَالُ الْمِيزَانَ، وَالسَّيِّئَاتُ حَقْفَةُ الْمِيزَانِ) البحار/٩/١٤١، وهناك فريق ثالث إستوت حسناتهم وسيئاتهم وأمرهم إلى الله ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا تِئَابُ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة/١٠٦. عن الإمام علي (ع) (ليأتي للعظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح البعوضة) كنز الدقائق/٣/٤٤٦، وعنه (ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ فَمَنْ وَفَّى، إِسْتَوْفَى) البحار/٨٤/٢٦٤.

١٠ - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

(مَكَّنَّاكُمْ) سلطناكم أو أسكنناكم ، وهيانا لكم القدرة على تحصيل أسباب كل خير للدنيا أو للآخرة، والتمكين لفظ جامع للتمليك والهيمنة وبه يتميز الإنسان عن جميع الكائنات ، وبه التكرم وبه يتم أمر خلافته على الأرض. المعنى : زود الله سبحانه الإنسان بكل الطاقات والمؤهلات وعلمه ما لم يكن يعلم للاكتشاف والاختراع والإبداع لما هو جديد ومفيد ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٥١ ، ومَكَّنَّاكُمْ من سكنى هذه الأرض والاستقرار فيها والبناء عليها وزرعها والانتفاع منها والخلافة لله عليها ما لم نمكّن أحداً غير الإنسان (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) وأنشأنا لمصالحكم فيها أسباباً كثيرة تعيشون بها وتحبون من أنواع الطعام والشراب مما يخرج من الأشجار والنبات والحيوان ومعادن الأرض وأنواع الصناعات والتجارات ، فإن الله هو الذي هيا لكم كل أسباب التقدم الحضاري ما تكون به الحياة وتنمية الحياة والحفاظة عليها ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرْ﴾ المدثر/٣٧ ، (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ سبأ/١٣ ، والذي يشكر النعم يشكر المنعم ، والذي لا يشكر النَّاسَ لا يشكر الله ، والذي لا يقدر النعم لا يقدر المنعم ، والذي لا يشكر بالعمل لا يشكر باللسان ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣ ، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رِيَّ غَنِيَّ كَرِيمٌ﴾ النمل/٤٠ .

١١ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

والفرق بين الخلق والتصوير ، معنى الخلق إيجاد وإنشاؤه ، ومعنى التصوير إعطاء المخلوق شكله الخاص به بعد إيجاد والمستقل من غيره فيكون نسخة مفردة لا مثل لها ، وفي العطف بـ (ثم) بين

الخلق والتصوير يشير إلى فاصل زمني طويل بينهما أي خلقه على مراحل ، المعنى : لقد خلقنا أباكم آدم بأجل تصوير وأحسن تقويم وأتقن صنع وأعقد تركيب وكرمناه أحسن تكريم فعليه أن يكرم نفسه، وإثما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً لآدم لأنه أبو البشر، في غرر الحكم (رَحِمَ اللهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) وفيه (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) وفيه (رحم الله امرأً عَرَفَ قَدْرَهُ مِمَّا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ) و(رَحِمَ اللهُ إِمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ) ، (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) السجود لآدم بأمر الله فيكون سجود طاعة لله عز وجل ، لأنَّ السجود لأمر الله لا سجود عبادة ، إنَّه سجود تحية وتكريم لا سجود خضوع لأنَّه لا يجوز السجود لغير الله ، وعندما خلق آدم جسد بلا روح لم يأمر الملائكة بالسجود ، ولكن عندما نفخ الله تعالى فيه من روحه المقدسة وجب الأمر بالسجود لآدم تكريماً له ولروحه المقدسة وصار مستعداً ليكون خليفة الله في أرضه ، وهذا يدل : أن الإنسان قيمته بروحه لا بجسده ، قيمته بعقله لا ببطنه ، بفكره لا بشهوته ، قيمته باستقامته لا بضلاله (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

(إِلَّا) استثناء منقطع ، سجد الملائكة لآدم بأمر الله فصار السجود لأمر الله قبل السجود لآدم ، فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ امتنع من السجود تكبراً وعناداً وإعجاباً بنفسه فهو من الجن وليس من الملائكة تعصباً لأصله وحسداً لآدم. فائدة: عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ فَتَجَلَّى فِيهِ) روح البيان ٣٦٧/٥ ، تجلَّى بهذه الروح التي كرمته وصار مستعداً للتجلِّي ، فبمقدار التخلص من جاذبية الجسد والذات والتراب ، تأخذك جاذبية الروح والتألق إلى عالم السماء عالم المعنى والتقوى التي يستحق بها التجلِّي فيستقبل الفيض الإلهي الخاص ، فالإنسان له القابلية على أن يتألق فيكون أفضل من الملائكة وله القابلية على الهبوط والتدهور فيصل إلى درجة كالحيوان أو يكون الحيوان أفضل منه ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/٤٤ .

١٢ - ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

ما دفعك أو أي ما حملك على ترك السجود ؟ وما المانع الذي منعك ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، عندما يُسأل إبليس عن عدم السجود لآدم وهي معصية لله تعالى ، يعلن أنها الأنانية والتعالي والتكبر (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه ، ثم ذكر العلة في الامتناع فقال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) والنار أفضل من الطين والنار جوهر خفيف ولطيف نوراني والطين جسم كثيف ثقيل ظلمياني ، نظر إبليس اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى الأمر الإلهي إنَّه اجتهد في مقابل النص ، ولم يلتفت إلى التشريف والتكريم وهو أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وكرمه أحسن تكريم وفضله على كثير ممن خلق وجعله خليفته في أرضه ، وقاس إبليس قياساً فاسداً ، فيكون إبليس أول من قاس فأخطأ ، لأنَّ القياس يعتمد على الظن وليس على العلم ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس ، والمراد بالسجود سجود

احترام وتحية وتقدير لآدم وخضوع لأمر الله، لا سجود عبادة ، وتتعلم من حوار الله مع إبليس وهو عاصٍ له ، كيف نتحاور مع من خالفنا واعترض علينا ، فإن بالحوار العلمي تنضج الأفكار ويظهر الشطّار وتبين الحقيقة، عن الإمام الصادق (ع) : (الاستِكْبَارُ هُوَ أَوَّلُ مَعْصِيَةِ عَصِيِ اللَّهِ بِهَا) الميزان ٦٠/٨ . فائدة : من قال متكبراً : أنا خير من فلان فهو من حزب الشيطان ، فُربُّ وضع عند النَّاسِ هو رفيعٌ عند الله (إِنَّ اللَّهَ أَحْفَى أَوْلِيَاءَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فَلَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا لَعَلَّهُ يَكُونُ وِلِيًّا لَهُ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ) البحار ٢٧٥/٦٩ ، وعن الإمام الصادق (ع) : (أَصْوُلُ الْكُفْرِ ثَلَاثَةٌ : الْحِرْصُ وَالِاسْتِكْبَارُ وَالْحَسَدُ) البحار ٧٢/١٠٤ .

١٣ - ﴿قَالَ فَاغْبِطْ مِمَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكْبُرَ فِيهَا فَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾

الهبوط : الإخدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ومن منزلة إلى ما دونها فهو هبوط حسي ومعنوي، المعنى : إهبط من الجنة فإنها جنة الأرض وليست جنة الآخرة ، وهي أيضاً منزلة رفيعة ، لأنّ في جنة الآخرة جنة خلودٍ وتشريفٍ لا تكليفٍ ولا يوجد فيها إبليس ولا امتحان ولا بلاء (فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكْبُرَ فِيهَا) فلا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي دار التكريم والتكبر : جعل الإنسان نفسه أكبر ممّا هي عليه (فَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ) الذليلين الحقيرين المهانين ، لما ظهر منه الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار (فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه وضعه) طرد الله إبليس من رحمته إلى لعنته الدائمة جزاء على تكبره ومعصيته ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الأنفال/٥٣ ، وهذا مصير كل المستكبرين الطغاة الذين يظنون أنهم ينازعون الله تعالى كبرياءه وسلطانه وحاكميته فيما خلق. فائدة: ١- ومن التكبر ما هو محمود كالتكبر على أعداء الله بمعنى الاعراض عنهم ، ومنه مذموم وهو التكبر على عامة الناس ، في الحديث : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْشُرُ الْمُتَكَبِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْقَرِ الصُّورِ إِذْ يَطْوُهُمْ النَّاسُ بِأَرْجُلِهِمْ) المراغي ١١٣/٨ ، في نهج البلاغة خطبة ١٩٢ : (فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهَدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ ، عَنْ كَبِيرِ سَاعَةِ وَاحِدَةٍ) من موقف واحد . علمه بالله لم ينفعه واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه ، وكذلك كل من يتلقى أمر الله ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه ، فقد يشترك مع الشيطان في موقفه ومصيره . لقد طرد الله إبليس من رحمته إلى لعنته جزاء على تكبره .

١٤ - ١٥ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿

إنّه لتصوير المشخص لحركات نفس إبليس التي تصرّ على فعل الشرّ على إطلاقه والتصميم على الغواية ، إنّه شر أصيل متأصل وليس عارضاً ولا وقتياً ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾

فاطر/٦ ، فلا بدّ من الحذر الدائم منه وعدم الغفلة عنه . أَنْظِرُنِي : أمهلني ولا تعاقبني ولا تمنني إلى يوم البعث والنشور للحساب والجزاء إذ لا موت بعد الجزاء. (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) قَالَ إِنَّكَ أَحَدُ الْمَهْلِينَ الْمُؤَخَّرِينَ لحكمة يراها الله عز وجل ، وهي فلسفة الابتلاء واختبار العباد ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء/٣٥ ، ومنها أن التكامل الإنساني يحصل من خلال الصراع الحق والهدى ضد الهوى والنفس الأمارة بالسوء والشياطين والطواغيت ، ولما كانت حكمة الله تبنى على الابتلاء والاختبار ليتبين الخبيث من الطيب ، وينكشف من يطيع الله ومن يطيع الشيطان كقوله ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ سبأ/٢١ ، وقوله ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ص/٨٠-٨١ ، في نصح البلاغة خطبة ١: (فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلْسُّحْطَةِ، وَاسْتِسْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ وَانْجَازًا لِلْعِدَّةِ). فائدة: كيف كان كلام الله مع إبليس ؟ كان كلام الله تعالى مع إبليس بواسطة ملك لأنّ كلام الباري لمن كلّمه رحمة ورضى وتكريم وإجلال ، ألا ترى أنّ موسى (ع) كان كليّم الله بحجاب فتميّز عن الأنبياء (ع) .

١٦ - ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قال إبليس (رمز الإغواء والإضلال) عندما أبلس وآيس من رحمة الله ، والإغواء من الغواية وهو الضلال والانحراف عن منهج الله المستقيم الموصل إلى جنّة الآخرة ، المعنى : (فِيمَا أُغْوَيْتَنِي) بسبب عصياني أمرك صيرتني غاويًا ضالًّا عن الهدى محرومًا من الرحمة والجنة ، لأجلهم أقسم بعزتك (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ..) فالقعود كناية عن الاجتهاد الجاد بقصد الإفساد والانتقام من آدم وذريته ، أي لأجتهدن في إغوائهم وإضلالهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم وطردت من رحمة الله ، (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ) قطع إبليس عهداً على نفسه بأن يترصد لهم على طريق الإسلام والاستقامة كما يترصد قطاع الطريق ليقطعه على المارة ، كذلك أجعل العقبات المتنوعة في طريق الإسلام والاستقامة ويصد عنها وينحرف آدم و ذريته انتقاماً منهم فهو عدوهم اللدود الواضح وبذلك يثار لنفسه وبيّن لؤمه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يوسف/٥ ، فالقعود على صراط الله المستقيم كناية عن التردد الحاقد لسالكيه ليخرجهم منه ، فينغص الشيطان عليهم حياتهم ويشوّه وجه خلافتهم لله على أرضه ، وهكذا تنطبق هذه الصورة المتحركة على العديد من شياطين الإنس والجن . فائدة : (فِيمَا أُغْوَيْتَنِي) اختار إبليس الغواية لنفسه ولكنه نسبها إلى الله ، وهكذا يعتمد إبليس أسلوب النفاق والمنطق الملتوي المتلون والمقلوب والمعايير المزدوجة والجرأة على الله جلّ جلاله ، وَالَّذِي لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْعَوَايَةُ!

١٧ - ﴿لَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

كناية عن وسوسة الشيطان وأساليب إغوائه فهو يغري بالمعاصي ويثبط عن الطاعات ، معناه لا يتينهم لإضلالهم من جميع وجوه الحق والباطل وبكل وسيلة ممكنة يحقق فيها هدفه فأكره إليهم الحق وأحب إليهم الباطل (ثُمَّ لَا يَتَيْنَهُمْ ..) من الجوانب الأربعة وهي معنوية لا حسية (مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) وهو ما يستقبلهم من الحوادث مما تتعلّق به الآمال والأمانى مما يجب الإنسان ومما يكره كالفقير والمرضى (وَمَنْ خَلَفَهُمْ) من ناحية الأولاد والأعقاب فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم ويعد لهم ما إستطاع من قدرة ولو بالمعصية يمنع الحقوق الشرعية والزكاة (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ) وهو جانب اليمين والميمون الذي فيه سعادتهم وهو إفساد الدين والأخلاق فيعلمهم البدع والتجرؤ على الفتوى الصحيحة ويستهيئ بعلماء الدين العاملين ولو بلا علم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ويزيئ لهم المبالغة والغلو والتطرف في بعض العقائد الدينية ، والتكلف بما لم يأمرهم به الله وهو اتباع خطوات الشيطان (وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ) وهو خلاف اليمين يزين لهم الفحشاء والمنكر والفساد والأهواء . ذكر الجهات الأربع فلم يقل يأتيهما من فوقهما ولا من تحتها وهذه نقطة ضعف الشيطان وجهله ، لأنّ (من فوقهم) بالتضرع إلى الله الأعلى يخنس الشيطان ويعجز عن الوسوسة ، وكذلك (من تحتهم) يعني التضرع إلى الله في حالة السجود والركوع يخنس الشيطان ويعجز ! (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) مؤمنين مطيعين فلا يشكرون النعم ولا المنعم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ سبأ/١٣ ، لأن القيام بالشكر من السلوك المستقيم وهو يريد إغفاله عنه ، لما علم منهم من الغفلة والجهالة . وقد نبهنا الله على ما عزم الشيطان على فعله لنأخذ حذرنا من مكره الخادع ونحترز من عداوته ومن وساوسه المتنوعة .

فائدة: ١- فهو يأتينا ويغرينا من حيث نحب حتى يصل بنا من حيث يجب هو! والذي يريد هو (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) ، ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سبأ/٢٠ ، ويأتينا من كل شيء ظاهره يغر ويسر وباطنه يضر ، فيزين لهم الدنيا بأنها هي كل شيء فلا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ولا عقاب ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام/٤٣ ، في الدعاء (اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَمِنْ تَحْتِي) المراغي ١١٦/٨ . ٢- عن الإمام الباقر (ع) : في الآية ((لَا يَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) أَهْوَى عَلَيْهِمْ أَمْرَ الآخِرَةِ (وَمَنْ خَلَفَهُمْ) آمُرُهُمْ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ وَالْبُحْلِ بِهَا عَنْ الْخُفُوقِ لِتَبْقَى لَوَرَثَتِهِمْ (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ) أَفْسِدُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ بِتَزْيِينِ الضَّلَالَةِ وَتَحْسِينِ الشُّبُهَةِ (وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ) يَتَحَسَّبُ اللَّذَاتِ إِلَيْهِمْ وَتَغْلِبُ الشَّهَوَاتِ عَلَى قُلُوبِهِمْ) مجمع البيان ج ٣-٤ ص ٤٠٤ ، كقوله ﴿ قَالَ فِعْرَتُكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ص/٨٢-٨٣

١٨ - ﴿ قَالَ آخِرُ مَا مَدَّهُ وَمَا مَدَّ حُورًا لَنْ تَبْعَكَ مِنْهُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ أَجْمَعِينَ ﴾

أخرج من جنة التكريم مذموماً معيباً (مَدْحُوراً) مطروداً من رحمتي محقراً بعيداً عن كل خير ، وهو تويخ عظيم للشيطان وحزبه من الطواغيت والمستكبرين والظالمين من الإنس فهم مطرودون بذلة من رحمة الله ، (لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ) اللام لتوطئة القسم، فمن أطاعك واقترى بك من بني آدم ، فصرت أنت الذي يا إبليس تخطط لهم وهم الذين ينفذون (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) جواب القسم أي أقسم لأملأَنَّ جَهَنَّمَ منك ومن ذرية آدم الشياطين لأنه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين وكفار الإنسان والعصاة منهم ، وهو وعيد بالعذاب لكل من أطاع الشيطان وترك أمر الرحمن ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ق/٢٤ .

١٩ - ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
يبدأ الامتحان الأول بتجربة أولى للإنسان الأول من خلال التعميم ، أمر الله سبحانه آدم أن يسكن هو وزوجته الجنة، وكانت جنة الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر وليست جنة الآخرة ، لأنَّ جنة الآخرة للتشريف لا للتكليف ولا يوجد فيها أوامر ونواهي (فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) أباح الله لهما أن يأكلا من الجنة من حيث شاء وأين شاء ومتى شاء وكيف شاء وكلما شاء (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) النهي عن قرب الشيء أبلغ أثراً من النهي عن الشيء نفسه لأنه من مشى حول المخاطر يوشك أن يقع فيها ! باستثناء شجرة معينة واحدة عينها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى بجد في الوسوسة والمكر والخديعة (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، فتكونا معاً من الخاسرين الذين حرموا نفوسهم الثواب العظيم، والظلم هو ظلم النفس دون معصية لله لأن الأمر إرشادي وليس تشريعياً . فائدة: (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) صار النهي لشجرة واحدة وكلَّ الجنة مباحة وفي ذلك دلالة: أنّ المباحات هي القاعدة العامة والكثيرة والمحرمات هي الاستثناء القليل المحدود ومن الورع التوقف عند الشبهات، عن النبي (ص) (دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ، فمن رعى (تحرك) حول الحمى (المخاطر) يوشك أن تقع فيه) تنبيه الخواطر ص ٤٣ .

٢٠ - ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

فَوَسْوَسَ الشَّيْطَانُ لآدم وحواء معاً ، جاءهما من حيث يجبان حتى يصل إلى ما يجب ، إنها حقاً خطة خبيثة لاستدراجهما! والفرق بين وسوس إليه ووسوس له : إن معنى (وسوس إليه) القى إلى قلبه كلاماً بصوت خفي (ووسوس له): خدعه وتظاهر بالنصيحة وأخفى المكر والخديعة ، (فَوَسْوَسَ لَهُمَا) أي ألقى لهما بصوت خفي ظاهره يغر ويسرُّ وباطنه يضر لإغرائهما بالأكل من الشجرة المعينة المحذورة المخطورة (لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا) ليظهر لهما (مَا وُورِيَ) ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ، وسمى العورة سوءة لأنها تسوء

الإنسان سليم الفطرة من إظهارها ، والذي يلبس الملابس الضيقة ويتظاهر بعورته من الرجال والنساء ، معناه هناك خلل في فطرته وتلوث في نفسيته وشبهات في عقيدته والمقصود نزع لباس الحياء، الْحَيَاءُ مِنَ الدِّينِ، عن الإمام الصادق (ع) (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ) البحار ٣٣١/٧١، ويريد الشيطان ترك التقوى لتشجيعهما على مخالفة الأمر الإلهي ، وإنّ هذا الإغواء والوسوسة يعتمدان على نقاط ضعف في شخصية الإنسان بينما ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء/٧٦ ، والذكر الكثير يعالج الضعف والغفلة حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذّاكر (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) استغلّ الشيطان غفلتهما وطبيتهما وبراءتهما وجاء بإغواء آخر من خلال الاستفادة من نقطة ضعف عندهما، إنهما قبلًا نصيحته ونسبًا عداوته وغفلا عن نهي الله تعالى، في غرر الحكم: (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّمَا فَسَادِ الْحِسِّ) (لَا تَعْقُلْ فَلَسْتَ بِمَعْقُولٍ عَنكَ) والمعنى: أوههما أهما إذا أكلا من هذه الشجرة تحسنت أحوالهما وتغيرت صورتها ويرفع مقامهما إلى مقام الملك العظيم الخالد والعمر الخالد الأبدي كقوله ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ طه/١٢٠ أو (تَكُونَا مَلَكَيْنِ) بفتح اللام أي من الملائكة الخالدين ، فقد قلب الحقيقة لهما فحلف أنه لهما من الناصحين وإذا أكلا من الشجرة يكونان من الخالدين في الجنة، فأراد أن يطردهما من الجنة بغضاً لهما كما طرده الله منها بتمردّه عليه سبحانه ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ فائدة : ولكنّ الشيطان ليس له سلطانٌ على إجبار الإنسان فهو لا يسلبه إرادته وحرّيته ودوره مجرّد وسوسة ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إبراهيم/٢٢. عن النبي (ص) (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨، كنز العمال خبره ٥٤٦

٢١- ﴿وَأَسْمَهُمَا إِنِّي لَكُمَ لِنَاصِحِينَ﴾

وأقسم وحلف لهما بالله على ذلك أنه من الناصحين المشفقين ، وهكذا كلُّ منافق يتكثّر من الحلف ولو لم يشك فيه أحد ، فهو يحاول أن يستر على كذب نفسه بكثرة الحلف . وبالغ في القسم فأغلظ في حلفه حتى خدعهما لأنهما لم يتوقعا أن يحصل الحلف بالله عن كذب ونسبًا عداوة الشيطان وغفلا عن نهي الله لهما ، وغلبت الشهوة على العقل، في غرر الحكم (إذا كمل العقل نقصت الشهوة) (إِذَا كَبُرَتْ الشَّهْوَةُ صَغُرَ الْعَقْلُ ، وَإِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَغُرَتْ الشَّهْوَةُ) ومن غفل عن مكر عدوه حاق به مكره وأصاب به غدره، في نصح البلاغة حكم ٢١١ (وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ) فائدة: عكس اللعين الحقيقة عليهما فأقسم أنّ عاقبة الأكل من الشجرة المحضورة الخلود في الجنة، وهو يعلم بأن الأكل سبب الطرد منها ، وهذا هو المراد بوسوسة الشيطان وحزبه الذين يرفعون شعارات الخير وهم أعدى أعدائه، وينادون بالحرية ويطشون بالأحرار ويدعون بالعدالة ويقتلونهم غدراً ، ويتباكون على وحدة الصّفوف وهم الذين فرّقوا الأمة.

٢٢ - ﴿فَدَلَاهُمَا بُعْرُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

فَدَلَاهُمَا : فأنزلهما ، وتعني إرسال الدلو بجبل في البئر تدريجياً ، وهي عبارة بليغة وكناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل حبل مكره وخطوات خداعه بالتدريج لآدم (ع) وزوجته فأنزلهما من مقامهما الرفيع مقام القرب والحب إلى مقام الخاطئين ، ثم تخلى عنهما متشمتاً بهما ! بُعْرُورٍ : بخداع ، أي خدعهما وغرهما الشيطان المراوغ بوسوسته وبالقسم بالله وأنه ناصح أمين وكان هذا قبل نبوة آدم (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) عوراتهما أي فَلَئَمَا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ظهرت لكل واحد منهما عورته وعورة صاحبه !! فاستحيا وشعرا بالحاجة إلى سترها معنى ذلك : أن الذنوب تكشف العورات الحسّية والمعنوية وتعمل الكربات والنقمت من خلال الجهالات والغفلات واتباع المحرمات (وَطَفِقَا) أخذا وشرعا (يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) يجمعان ويلصقان ورقة على ورقة من أوراق شجر الجنة ليستترا بعد أن كانت كسوتهما من حلل الجنة ، وهذا يدل : على أن ستر العورة واجب إنساني لأنه مع الفطرة قبل أن يكون واجب شرعي، وسميت العورة من العار ، وسميت السوءة من الإساءة للنفس أي ما يسوء الإنسان أن يطّلع عليها أحد (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) ناداهما الله معاتباً لهما لأنهما لم يأخذا بإرشاداته سبحانه قائلاً: ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان للإنسان ؟ أمّا كيف كان النداء وكيف سمعاه فهو كما خاطبهما أول مرّة ، خطاب من وراء حجاب . إذن كيف أكل من الشجرة المحضورة ؟ بسبب براءة آدم وصفاءه يشبه صفاء الطفل وإن كان رجلاً لأنه لم يمر بعد بأية تجربة

و(قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عَلَى قَدْرِ تَجْرِبَتِهِ، وَمُقَدَّرٌ وَخَبْرَتِهِ، وَسَعَةِ كَفَاءَتِهِ) واعتقد أنه لا يمكن من أحد يجراً على الحلف بالله كاذباً كقوله ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَمَنْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ طه/١١٥، وكان النهي عن الشجرة إرشادياً وليس تكليفاً فيه هبوط منزلة وليس عليه عذاب النار ، لذا ندم وطلب الصفح والتوبة عن غفلته واستغفر ربّه وأتاب إليه ، بمجرد تنبيهه وإحساسه بالخطأ عن اشتباهه وليس عن عمد ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الشورى/٢٥ . فائدة :

١- التعرّي وظهور العورات حالة تخلف أخلاقي وتأخر حضاري ، والعفاف رأس كلّ خير للفرد والمجتمع فهو وسيلة تقدّم حضاري وأخلاقي . ٢- الشيطان الذي خدع آدم هو الذي يخدع ذريته ويضلّهم عن سبيل الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ القصص/٥٠ .

٢٣ - ﴿فَلَا مَرَبًا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

من صفات المؤمن الاعتراف بالخطأ وعدم تبريره ، اعترفا بالخطيئة بسرعة وتابا من الذنب بلا تأخير وندما معاً وطلباً من الله المغفرة والرحمة ، (وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا) ما ظلمنا به أنفسنا (وَتَرْحَمْنَا)

بالصفح عنا (لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الهالكين الذين باعوا حظهم في الآخرة بشهوة ساعة ، فكم من لذة منعت لذات وشهوة منعت شهوات ! إذن تتم العودة إلى الله ، بالاعتراف بالذنب بسرعة بدون تأخير والإحساس بظلم النفس والسعي الجاد لطلب الغفران والرحمة فهما المنجيان من الخسران. فائدة: ١- وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ البقرة/٣٧ . ٢- كلُّ معصية هي ظلمٌ للنفس لأنها تعيق الكمال الإنساني ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩ .

٢٤ - ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

الهبوط : النزول بسرعة (الانحدار) وهذا الهبوط هو هبوط منزلة وهو هبوط معنوي ، الخطاب موجّه لآدم وحوّاء وإبليس ولهذا جاء بالجمع ، أي اهبطوا من جنة الدنيا النموذجية إلى الأرض الواسعة وقوانينها ونظامها الذي يعتمد الامتحان والبلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/٣ ، حال كون بعضكم عدواً لبعض لاختلاف الطباع والمصالح والأهداف، فالشيطان عدو للإنسان حسداً له ، والإنسان عدو للشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاطر/٦ ، والإنسان يعيش الصراع من خلاف النفس اللوامة مع النفس الأتمة بالسوء ، ومن خلاف دوافع الهوى مع دوافع الهدى ، ومن صراع جند الرحمن التي تعتمد الحق مع جند الشيطان التي تعتمد الباطل .. إلخ ومن خلال هذا الصراع العام يحصل التكامل الإنساني ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٩-١٠، ثم قال (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) ولكم في الأرض موضع سكن واستقرار معين وتمتع وانتفاع وعمل وإعمار .. إلى حين انقضاء آجالكم عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان/٣٢٢، فائدة: ١- وكأننا نحن ضيوف مؤقتون علينا أن نكون مؤدبين لا نتعدّ حدود الله ولا نعتدّ على حقوق الناس، عن النبي (ص) : (الإسلامُ حُسْنُ الخُلُقِ) كنز العمال خير/٥٢١٥ . ٢- (اهبطوا) يتبين أنّ المعصية (صغيرها وكبيرها) لها آثار سلبية نسبية على الإنسان في العاجل أو الآجل ، وأول هذا الهبوط المعنوي الانحدار والسقوط هو الهبوط النفسي والأخلاقي والعقائدي والبعد عن الله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى/٣٠ . ٣- (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) العداوة معنى عام نفسي ومادّي ومعنوي، والعدو : من الاعتداء والتجاوز على حقوق الآخرين والحذر من شرار الناس ﴿عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن/١٤، تارة العداوة بالكراهية بالقلب وتارة بالتصرّفات وتارة بالإخلال بالعدالة العامة وسوء المعاملة وبخس حقوق الناس وبالاختلافات والتنازعات ، واضطرابات نفس الفرد والمجتمع.

٢٥ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِمَّا تَخْرُجُونَ﴾

ارتباط الإنسان بالأرض التي خلقكم الله من ترابها (فِيهَا تَحْيَوْنَ) مدة العمر المقدر ضمن الآجال المكتوبة (وَفِيهَا تَمُوتُونَ) وتقبرون (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ) بعد موتكم للحشر والنشر والجزاء ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ طه/٥٥ .

٢٦ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُبَازِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الخطاب لكافة الناس (أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ) أي خلقنا بقدرتنا السبب الموجب للباس على اختلاف درجاته وتعدد أنواعه أو خلقنا لكم المواد الأولية لصناعة اللباس من القطن والصوف والحريز وأنواع الخيوط التي مادتها النفط وعلمهم الآت الصنع ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٥١ ، فهناك لباسان مادي (جسدي) ومعنوي (أخلاقي وعلمي وديني) اللباس المادي الظاهري (يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ) يستر عوراتكم ويسد الحاجة الضرورية (وَرِيشًا) للزينة ويسد الحاجة الكمالية ، استعير من ريش الطير وألوانه لأنه لباسه وزينته ، ولباس باطني يزينكم وتتجملون به بالأخلاق والآداب والحكم والعلوم المتنوعة واللباس المعنوي.

(لِبَاسُ التَّقْوَى) يهذب النفس وهو أهم من كل لباس ، لأنه لباس معنوي يستر سواتكم ويصلح عاداتكم ويزينكم ويزيدكم وقاراً وهيبة وجلالاً وبهاءً أفضل من الألبسة المادية الظاهرية، فهناك تلازم بين سعادة الإنسان وتشريع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين لباس التقوى، وكلاهما لباس ، اللباس المادي زينة الجسد واللباس المعنوي (الاستقامة) زينة الروح والعقل والأخلاق (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/١٩٧ ، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال/٣٤ ، في غرر الحكم: (تَوْبُ التَّقَى أَشْرَفُ الْمَلَابِسِ)، و (مَنْ إِتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) فالتقوى حصن حصين ودرع واقى من المآثم، وهي لباس الورع عن محارم الله والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء ، فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر ، وأطلق اللباس على التقوى لأنها هي التي تقي صاحبها من الفساد ومن كل سوء كما يقي اللباس الجسد من الحرّ والبرد (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ) لعلهم يتذكرون أنّ لهم سوءات باطنية تسوؤهم إن ظهرت وسترها أوجب من ستر السوءات والعورات الظاهرية ، تلك النعمة من النعم المنسية هي من آيات الله الدالة على فضله للإنسان فعليه أن يَعْرِفَ قَدْرَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ، وعليه أن يَعْرِفَ حَدَّهُ وَيَقْفَ عِنْدَهُ ، أي عليه شكر المنعم والحذر من الشيطان وهوى النفس، وعدم كشف العورات وعدم الإسراف في استعمال الزينة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف/٣١ .

فائدة: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) شبهت التقوى باللبوس كناية بليغة ذات دلالة واسعة ، فالتقوى من وقى كما أتقى النار كذلك أتقى المعاصي (لِبَاسُ التَّقْوَى) ستر وزينة وتكامل وارتقاء

عن عالم الحيوان العاري ، وارتقاء عن الإنسان الضال عن سبيل الله (وَلِبَاسُ التَّقْوَى) لباس معنوي عالي المضامين كامل بذاته ومكمل لغيره ، بالإضافة إلى جماله وجلاله وهيبته لأنه جمال الروح وجلال النفس وهيبة العقل، إنه لباس العفاف والاستقامة والحياء والعلم والعمل الصالح ، إنه لباس الشرف والعزة والكرامة، إنه لباس ينسجه الإنسان من ذات نفسه لكمال نفسه . فيكون اللباس الظاهري غايته أن يستر العورة الظاهرة ويكون زينة للإنسان، وإذا ترك لباس الجسد تنكشف العورة الظاهرة وإظهارها من العار ، لذلك سمى القرآن العورة بالسوءة لأنها تسوء النفس عند إظهارها ، أما عدم (لِبَاسُ التَّقْوَى) فإنها تنكشف عورته الباطنة وتظهر عيوب نفسه وسوء أخلاقه وعاداته وتفاهة أفكاره وفساد سلوكه وضرره على الآخرين ، عن ابن عباس : في الآية (إنه الإيمانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فَإِنَّهُمَا خَيْرٌ (أهم) مِنَ الرِّيشِ وَاللِّبَاسِ) المراغي ١٢٥/٨ ، والدعوة إلى اللباس هي دعوة إلى التستر للجسم وهو من الله تعالى، ولكن التعري وكشف العورات من الشيطان وعصيان الرحمن وضرر على الإنسان ولو بعد حين .

٢٧ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَتَّبِعْكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

الفتنة : الابتلاء والاختبار. المعنى: حذر الله بني آدم من خبث الشيطان فقال : (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ) لا يغوينكم الشيطان بأساليبه الخادعة ولا تغفلوا عن خطواته المضللة ولا تغفلوا عن وساوسه فإنه ليس بمغفولٍ عنكم، في غرر الحكم: (احذروا العُقْلَةَ فإنها فَسَادِ الحُسْنِ) والغفلة عنه تخرجكم من الاستقامة ومن منزلة الكرامة (كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) وقد حذر الله تعالى أبناء آدم أن يوقعهم الشيطان في شبابه وفتنه ويحملهم على معصية الله ليصدهم عن دخول الجنة كما خدع أبويهما من قبل (يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا) يخلع عنهما اللباس الساتر لتظهر العورات ، ونسب النزاع إلى الشيطان لأنه المتسبب والمحرض ، وهذا هدف الشيطان أن يهتك ستر الإنسان لتحركه شهواته الحيوانية ، وكُلَّمَا إِرْدَادَتْ الشَّهْوَةُ صَعُرَ العَقْلُ، وكُلَّمَا كَبُرَ العَقْلُ صَعُرَتْ الشَّهْوَةُ، في غرر الحكم (إِذَا كَمَلَ العَقْلُ نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ)، ويجاول الشيطان أن يعري الإنسان من جميع الفضائل الحسية والمكارم المعنوية، فكلكم يا بني آدم سوات يسوؤكم إظهارها ويضركم كشفها، لا يسترها إلا لباس التقوى فهي حصن لكم تحصنكم من فتن الشيطان فتحصنوا بها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الرِّزَادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/١٩٧ ، (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) إن الشيطان (يراكم) يراقبكم على الدوام وهو عدوٌ خفي لئيم خطير ويصركم.

(هُوَ وَقَبِيلُهُ) ذرئته وجنوده من الجهات التي لا تبصرونه منها ويأتيكم بأساليب خبيثة لا تفتنونها إليها إذ إن لخبث مسلكه وخفاء جنوده دقة لا تميزها حواس الناس ، لأن الإنسان لا يرى إلا

نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشهوات المحرمة التي لذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة ، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيدته ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشد وأخوف وأضر (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) أَوْلِيَاءَ : أصدقاء ، الذين لا يؤمنون يكونون شياطين أصدقاء مع إخوانهم الشياطين من الجنّ والإنس و(الطِّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ) ، إنّ سنتنا جرت بأن يكون للشيطان أنصار للذين أعرضوا عن الله وضلّوا عن سبيله واتبعوا الهوى أصحاب النفوس القلقة، الذين يستجيبون لهم عن رضا، كأصحاب الأجسام والبنية الضعيفة يستجيبون للأمراض لعدم قدرتهم على الممانعة ، كالمومس إذا دعاها الفاجر العاهر إلى الفاحشة، وهكذا الذي يرفض الرحمن تتلقفه الشياطين، والذي لا تليق به الهداية تليق به الغواية، والذي لا ينفعه الحق يضره الباطل ، والذي لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ولا قدرة للشيطان إلاّ على الذين لا يؤمنون ، لأن من عبد الله صار في هداية الله وحصنه فلم يعبد سواه ، فلا ولاية للشيطان على المؤمنين الواعين لأنهم أسلموا زمام أمورهم لله فلا سلطان له عليهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر/٤٢. فائدة : ١- كلُّ من يكيّد للناس في الخفاء، ويظهر غير ما يضمّر فهو شيطان رجيم. ٢- سؤال : كيف سلّط الله الشيطان على الإنسان وهو يجري منه مجرى الدّم في عروقه؟ الجواب: في خاتمة الآية (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) وقوله ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف/٣٦ . في غرر الحكم: (أَوْهِنَ الْأَعْدَاءَ كَيْدًا مَنْ أظْهَرَ عَدَاوَتَهُ)

٢٨ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الضمير يعود لحزب الشيطان ومؤيديه ، الفاحشة : المعاصي الكبيرة المتناهية في القبح ، كالطواف حول البيت الحرام عراة رجالاً ونساءً . كان المشركون يعملون جرائم منكّرة فإذا سئلوا عن هذا الفعل القبيح ، بالاستغراب والنهي أجابوا (قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا) هكذا وجدنا آباءنا يفعلونها فقلدناهم فهم أعلم منا ، ليعطوا أعمالهم صفة تاريخية طبيعية ، وقد أمهلهم الله تعالى ، وهذا يعني رضاه عنهم وهو أمرهم بها ! ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة/١٣ ، وكان تبرير الذنب أعظم من ارتكابه ! كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ محمد/٢٥ ، ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، في غرر الحكم: (أَعْظَمُ الدَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ دَنْبٌ أَصَرَ عَلَيْهِ عَامِلُهُ).

وفيه أيضاً: (التَّبَجُّحُ بِالْمَعَاصِي أَقْبَحُ مِنْ رُكُوبِهَا) أمّا أهل الجاهلية الحديثة كقولهم نريد العلمانية أي فصل الدين عن السياسة ، وترغم أنّها تحسن صنعاً ! وهذا مطلب خبيث ولثيم ويجدع البسطاء ، والذي يفصل الدين عن السياسة يريد أن يفصل الله تعالى عن خلقه ، ويفصل منهجه عن شؤون

الحياة ، إنه الجهل والهوى والاتباع الأعمى بلا تفكير ولا تدبر ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الروم/ ٢٩ ، وأكثر من ذلك قالوا (وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) من الذي أعلمهم بأمر الله ذاك؟! إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء ، إنكم تفترون على الله الكذب ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة/ ١١١ ، احتجوا بأمرين : تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ، فأعرض عن جواب الأول لظهور فساده ، وردّ الثاني (قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) قل إن الله منزّه عن كلّ نقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوئ الخصال (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) والاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أنكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علم ولا حجة ؟ إنه افتراء وقح وغبي وهو من أقبح الافتراءات ومن أكبر الكبائر ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ الزمر/ ٦٠ ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ (يعود) إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِغَيْرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ مِنْ سُلْطَانِهِ) الميزان ٨/٨٩ ، وعنه (ع) : (لَا يَسْتَيْقِنُ الْقَلْبُ أَنَّ الْحَقَّ بَاطِلٌ أَبَدًا ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ أَبَدًا) البحار ٧٠ ص ٥٨ ، كقوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ البقرة/ ٤٢ ، وكم من ضلالة خبيثة طلبت بالطيب فانطلت على البسطاء ، ولو أن الحق تخلص من لبس الباطل لم يكن إختلاف ولم تحصل شبهات تضلُّ النَّاسُ عن سبيل الله .

٢٩ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) بالعدل والاستقامة ، وهو الاعتدال في جميع الأمور وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ويشمل كلّ جديد ومفيد ، والقاسط من يأخذ قسط غيره وهو جور ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ الجن/ ١٥ ، والإقسط من يعطي قسط غيره وهو عدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات/ ٩ ، والعدل هو الإنصاف في الأمور كلها حتى لا يظلم الناس بعضهم بعضاً و(الْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) وَتَطَوُّرُ الْحَيَاةِ، وَهَنَاءُ الْعَيْشِ، وَجَمَالُ الْإِيمَانِ، (وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) المسجد : اسم مكان السجود أي أقيموا الصلاة عند كلّ مسجد ، وهذا توسيعٌ لدور المسجد ورسالته ليشمل كلّ مكان فيه عبادة حتى يشمل الحياة كلّها . وهي رؤية تعارض الرهبانية والانزعال ، وتعارض أيضاً فكرة فصل المسجد من شؤون الحياة . وإقامة الوجوه إليه سبحانه وحده دون التفات إلى أحد غيره في أي مكان تعبدون الله فيه وتسجدون إليه . (فَتَوَجَّهْهُا إِلَى وَجْهِهِ وَأَجِدْ كَفَاهُمْ الْوُجُوهَ كُلَّهَا، وَتَحَمَّلُوا هَمًّا وَاحِدًا (لِوَجْهِهِ اللَّهُ) كَفَاهُمْ الْهُمُومَ كُلَّهَا) وإدعوه وحده مباشرة من دون وسائط مع إخلاص العبادة لله وحضور القلب وصرف كل شاغل يشغلك عن العبادة (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/ ٢ ، عن النبي (ص) : (أَخْلِصْ قَلْبَكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ) البحار ٧٣/١٧٥ التخلص من جميع أنواع الشرك بانقطاع العبادة لله عن غيره، وهذا هو الذي

يعطي الصلاة ثمرتها المطلوبة منها لأن، عن الإمام علي (ع) (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ دَقِيقٌ) فَمَنْ وَقَى ، (سِتْوَفَى) البحار ٢٦٤/٨، ولهذا اقترن الدعاء بالصلاة وجاء بعدها ليكون التطبيق العملي والأخلاقي مع الناس وتكون الحياة كلها عبادة، وهذا المعنى الحركي للعبادة (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) كما بدأكم من الأرض فرادى لا تملكون شيئاً، تعودون إلى الله تعالى للجزاء وتعودون إلى الأرض فرادى لا تملكون شيئاً ، فالقادر على بدء خلقكم قادرٌ على إعادته ، بل الإعادة أهون من البدء عقلاً ، لذلك شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. في الحديث (يُبْعَثُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خبر ٤٢٧٢٢ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام/٩٤، عن النبي (ص): (إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا) (غير محتونين) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء/١٠٤) نور الثقلين ١٨/٢ .

٣٠ - ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (فَرِيقًا هَدَى) والذي يهدهم الله الذين رغبوا في الهداية والاستقامة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن/ ١١ ، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ محمد/ ١٧ (وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) حَقَّ : أوجب، وهم الذين أعرضوا عن الهدى وزاغوا عنه إلى الضلال والفساد ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥ ، زَاغُوا : انخرفوا ، وهكذا قامت الحياة على الصراع بين الهدى والضلال والذين لا تنفعهم الهداية تضرهم الضلالة (إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين من الإنس والجن أولياء أي نصراء من دون الله يتولون أمورهم فقد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ الحج/٤، (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) يظنون أنهم على بصيرة في عملهم واستقامة في سلوكهم وعاشوا في دنيا الآمال والأحلام ، وأيقنوا بأنه لا دين إلا دينهم ولا إيمان إلا إيمانهم وأغلقوا أسماعهم عن الرأي الآخر، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/ ٨ ، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/١٠٣-١٠٤ ، وهكذا تنقلب المقاييس الصحيحة عند هؤلاء ، فتصوروا الفساد تقدماً وشرطارة والهداية والاستقامة والأخلاق رجعية وسداجة.

في غرر الحكم (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وَالَّذِي لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْعَوَاثِيَةُ، فائدة: ١- الهدى والضلال راجعان للإنسان ، فالهداية تحصل بفضل الله والضلال بخذلان الإنسان لنفسه. ٢- من بذل جهده في البحث عن الحق والحقيقة ثم إتبع ما ظهر له أنه الحق بحسب ما وصلت إليه طاقته، وكان مخالفاً في شيء منه لما في القرآن ، لا يدخل في مدلول الآية ، بل يكون معذوراً عند الله.

٣١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

الزينة على إطلاق معناها ما يبرز جمال الشيء أو الشخص ، وتشمل الزينة المادية والمعنوية ، الظاهرية والباطنية ، زينة الشكل والمضمون ، زينة القول والعمل ، زينة النظافة والجمال ، زينة التصرف وحسن الأخلاق والثياب الحسنة، وهو إغراء بالتنعم وإظهار نعم الله والتجمل بها وأخذ حاجة النفس منها فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/ ١١ ، ومن الزينة ستر العورات وتهذيب النفس ومعالجة الخطأ والاعتراف به وعدم تبريره وحسن السيرة وجمال المعاشرة ، مما يجعل في كيان المؤمن الوقار والجمال والهيبه والإجلال للعبادة والمساجد وحسن تصرفات المصلين. المعنى: البسوا أثواباً طاهرة وفاخرة ونظيفة عند كل صلاة أو طواف أو عبادة ﴿وَتِيَابِكُمْ فَطَهِّرْ﴾ المدثر/٤ ، في أي مسجد حيث يجتمع الناس فلا ينفر بعضهم من ريح بعض ومنظره ، وكأنه يقول إن ملابس العبادة تختلف عن ملابس العمل والشغل ، ولا تلبس المشهور في حسنه أي لباس الخيلاء ، ولا لباس المشهور في قبحه ، وخير لباس كل زمان لباس أهله عن الإمام الحسن (ع): (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، فَأَجْمَلُ لِرَبِّي وَفَرَأُ الْآيَةَ) ، (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) في الأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال أي (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) ما تشتهون وتستلذون من دون تخمة ، لأنّ التّخمة تزيل الفطنة ، وتسقم البدن ومكسلة عن العبادة عن النبي (ص) : (إِنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ كَلِمًا إِشْتَهَيْتَ) تنبيه الخواطر ص ٤٥٦ ، عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّمَا الْإِسْرَافُ فِي مَا أَتْلَفَ الْمَالُ وَأَضَرَّ بِالْبَدَنِ) البحار ٣٠٣/٧٥ ، كل الطعام ليحملك لا لتحمله، كل الطعام للقوة لا للشهوة، فكم من أكلة منعت أكالات، الإسراف خروج عن حدّ الاعتدال وزيادة عن القدر الكافي.

والإسراف: كلمة جامعة كل تطرّف وإفراط في الكميّة والكيفيّة في كلّ شيء ، فإن الإسراف يفسد النعمة ويزيل البركة (ولَا خَيْرَ فِي السَّرْفِ، وَلَا سَرْفَ فِي الْخَيْرِ) البحار ١٦٩/٧٧ في غرر الحكم: (الْإِسْرَافُ مَذْمُومٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا فِي أَفْعَالِ الْبِرِّ)، إنّ الله خالق الأكل والشرب وكل الطيبات فلا تسرفوا فيها ولا تبذروها لأنكم تسألون عنها كقوله ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر/٨ ، ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ الإسراء/٢٧ ، والمبذر : هو الذي ينفق المال في غير موضعه، والمبدرون هم المسرفون وهم أتباع الشياطين لأنهم سلكوا طريقه المكروه عند الله ، والإسراف عدم تقدير النعمة ، والذي لا يقدر النعمة لا يقدر المنعم ، لذلك يعاقب الله على الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه مضار ومفاسد (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) المتجاوزين حدود الله فيما أحلّ وحرم أي ييغض المسرفين ، لأنهم خالفوا سنن الفطرة وخالفوا القواعد الطبيعية والأنظمة

الطبية الصحية ، في الحديث : (إِجْلِسْ إِلَى الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِي ، وَقُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِي)

البحار ٢٩٠٠/٦٢

٣٢ - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الزَّرْعِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

والاستفهام للإنكار والتوبيخ بمعنى المبالغة في نفي التحريم ، الزينة : على إطلاق معناها وشمول مغزاها المادية والمعنوية والعلمية والحلوقية والظاهرية والباطنية .. إلخ ، وإضافة الزينة إلى الله لأنه أخرجها من خزائن أطافه وحقائق أعطافه ، وقد ساوى الحاجة على الزينة كالحاجة إلى الطيبات ، بل قدّم (زينة الله) على (الطيبات من الزرق) لأهمية الزينة العامة في حياة الإنسان. المعنى : قل لأولئك الذين يحسبون أن تحريم أنواع الزينة والتزين والتجمل فإنها ليست محرمة، فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع الله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْأُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف/٧ ، وتدلل على أن خالقها جميل يخلق الجمال ويحبه ويدعو إليه ، فإن إجتنب الزينة والإعراض عن الطيبات بحجة الزهد فهذا ليس بزهد (لَيْسَ الزُّهْدُ أَنْ لَا تَمْلِكَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الزُّهْدَ أَنْ لَا يَمْلِكَكَ شَيْءٌ) ميزان الحكمة ٢٩٢/٩ ، إلا الله. والزينة ضرورة للإنسان الفرد والمجتمع ، من حرم عليكم توفير الحاجات الضرورية والكمالية والجسدية والنفسية من مسكن وملبس وأثاث ووسائل نقل .. إلخ فلا تكون حراماً وقد خلقها الله وهيء أسبابها وسهّل صناعتها وخلق موادها الأولية وظهورها لعباده وهذا خلاف للرهبانية ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد/٢٧ ، (وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الزَّرْقِ) والطيبات على إطلاقها طعاماً وشراباً ومتاعاً من ملبس ومركب وكل ما طاب من حلال وهي ما تلائم الطباع وتنفع الناس، وفيه دلالة على أنّ الأصل في كل الطيبات الإباحة حتى يرد فيها نهي، ومن الذي يجرم ما أحله الله ؟ وجعل الله هذه الطيبات لعباده ليستعينوا بها على عبادته سبحانه ونفع عباده (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لا تليق به الجنة ، لأن الله حرم الجنة على الكافرين (كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) كذلك نوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه في الحلال والحرام.

عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) صحيح الترمذي ٢٥٩/١٠ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ سُمِّيَ حَبِيبُ اللَّهِ مُحَدَّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ فَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ سُمِّيَ بَعْضُ اللَّهِ مُكَذِّبًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ) فروع الكافي ٤٣٨/٦ ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/١١ ، وعنه (ص) : (إِنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّمَا اسْتَهَيْتَ)

تنبية الخواطر ص ٤٥٦، في غرر الحكم: (أَبْعُدْ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ إِذَا كَانَ هُمُّهُ فَرْجُهُ وَبَطْنُهُ)، عن الإمام السجاد (ع) : (جَمَعَ اللَّهُ الطَّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ (كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) وَجَمَعَ نَبِيَّنَا (ص) الطَّبَّ فِي قَوْلِهِ: (الْمَعْدَةُ بَيْنَ الدَّاءِ وَالْحَمِيَةِ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ وَإِعْطِ كُلَّ بَدَنِ مَا عَوَّدْتَهُ)) جمع البيان ٤/٤١٣. فائدة: ١- (هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) تخصيص المؤمنين بالذكر لأنهم يقدرّون النعم الطيبة ويشكرون المنعم، أمّا غير المؤمنين فلا يفرقون بين الطيب والخبيث (الحرام) إذ لا دين لهم يحجزهم عن الخبيث. ٢- (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ) في المعنى العرفاني للآية : من يمنعكم عن طلب الكمالات والكرامات والمقامات لخواص عباده؟ فمن تصدّى لطلبها وسعى سعيها المناسب فيصل إليها في غرر الحكم: (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُوُّو التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) فإن حبّ الزينة غريزة إنسانية تفتح آفاق جديدة ومفيدة في الحياة ومعرفة سنن الله وآياته في الكون والكائنات .

٣٣ - ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي) ستة أنواع من الكبائر والخبائث لما لها من شديد الضرر والخطر على نفس الفرد والأمة ، إنّها تعرقل مسيرة التكامل الإنساني ، وتقدّم في الأنعام/١٥١ ، (الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا) ١-٢ الفواحش الظاهرة والباطنة السرية والعلنية ، التي يقبح فعلها لدى أهل الفطرة السليمة والعقول الراجحة كالزنا واللواط وإتخاذ الصاحبات في السر والعلانية ، (وَمَا بَطَنَ) التي تتعلّق بمركات القلوب كالكبرياء والعجب والرياء والنفاق والحسد والحقد واللؤم والخبث وغيرها ، (وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)، ٣- حرم كل ما يؤدي إلى الإثم والمعاصي من قول أو فعل ، والإثم : مفهوم واسع لكلّ صغيرة وكبيرة من كلّ ذنب والذي يعمل على إخطاط الإنسان في نفسه وغيره ، ويعمل ذلّة وهواناً وسقوطاً كشراب الخمر والقمار ، ٤- (وَالْبَغْيَ) والإعتداء على حدود الله والإعتداء على حقوق الناس وهو الظلم، عن الإمام علي (ع) (مَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ) البحار ٧٧/٢١١، في نهج البلاغة (بِمَسِّ الرَّأْدِ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ) التفسير المبين ص ١٩٧، (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) سلطاناً : حجة قاطعة تؤثر في النفس المفكرة وتفتنعها. ٥- وأن تجعلوا لله شركاء في عبادته بدون حجة قاطعة وبرهان ساطع سواء أكان شركاً جلياً أو شركاً خفياً ، أي شرك في العقيدة أو في العمل أو في الدعاء ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف/١١٠ ، والشرك أقيح الفواحش ورأس الكبائر ، وسميت الحجة سلطاناً لأن لها سلطاناً على العقول فتزيل الشكوك وتثبت اليقين في القلوب وتنشرح لها الصدور ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ المؤمنون/١١٧ ، (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، ٦- القول على الله بغيرعلم ، والافتراء على الله في التحليل والتحريم ، وهو الابتداع في الدين

الحق بالرأي والفتوى بغير علم عن النبي (ص) (أَجْرُوكُمْ عَلَى الْفَتْوَى أَجْرُوكُمْ عَلَى النَّارِ) البحار ١٢٣/٢ كقوله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ النحل/١١٦ . فائدة: (وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) والبغي لا يكون بالحق ، وأفرده بالذكر مع دخوله في الإثم للمبالغة في الزجر عنه وعدم التقرب منه .

٣٤ - ﴿وَكُلُّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهَا لَا يُسْتَخْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) إنها حقيقة مؤثرة تحرك أوتار القلوب وتوقظ النفوس فلا يغرّها امتداد الحياة ، فما دام الأجل مقدر ، وكل مقدر كائن ، وكل كائن آتٍ ، وكل آتٍ قريب ، وكل قريب كاد أن يكون ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ المعارج/٦-٧ . المعنى : هناك أجل لكل فرد وهناك أجل لكل أمة وجماعة ومجتمع ولكل دولة وحزب وحضارة، ومنهم المشركون والملحدون لهم أجل معيّن في الحياة، ولكلّ جيل من الناس له أجل معيّن وحياة مقدّرة ونهضة معينة لعزّها وسعادتها في نفسها وبين الأمم، وهذا محدّد بقواعد السنن التاريخية ، وعوامل الرقي والنهضة الحضارية ، ثمّ الموت المحدّد الثابت في وقته ومكانه المعينين ، وهو الأمد المقدر لقوتها في الأرض وعزتها وإستخلافها ثم تستوفي رزقها فنقطع حياتها بالموت التدريجي المرسوم الثابت الذي لا يتقدّم ولا يتأخر ، وهذا الأجل الجماعي وإن عرفت أسبابه ولكن الله يعلم تحديده بما أوجد له من الأسباب التي تنتهي بمسبباتها وبالمقدمات التي تترتب عليها نتائجها (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) الساعة لغة : أقل مدة من الزمن فإنّها مثل في غاية القلّة فإذا جاء الأجل أي قرب عمي البصر وذُهل البشر وإستسلمت النفوس ، فلا يحصل شيء خلاف ما هو مكتوب ومحدد أي فإذا جاء وقت هلاكهم التدريجي المقدر لهم لا يتأخر عنهم لحظة من الزمن ولا يتقدّم كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود/١٠٢ ، عن الإمام الصادق (ع) : (تُعَدُّ السِّنِينَ ثُمَّ تُعَدُّ الشُّهُورَ ثُمَّ تُعَدُّ الْأَيَّامَ ثُمَّ تُعَدُّ النَّفْسَ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ..) كنز الدقائق ٤٨٢/٣ وهكذا نرى كيف زالت حضارة بابل والفراعنة وقوم سبأ والفرس والروم والعرب والترك وغيرهم ممن سلب ملكهم كلّ أو بعضه .. فعلينا أن نعرف كيف تنهض الحضارات وكيف تنهار؟ لا بقاء لأحد ولا احتلال للحياة من أحد ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠ ، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ الكهف/٥٩ .

فائدة: لكلّ شيء أجل مقدر (بالعمر الطبيعي) وهناك أجل محتوم ثابت ، وأجل مخروم (معلق أو متغيّر) كقوله ﴿قَضَىٰ أَجْلاً وَأَجْلاً مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأنعام/٢ ، عن الإمام الصادق (ع): في الآية (الأجل غير مسمّى (المتغيّر) مَوْقُوفٌ يُقَدَّمُ مِنْهُ مَا شَاءَ وَيُؤَخَّرُ مِنْهُ مَا شَاءَ ، وَأَمَّا الْأَجْلُ

المُسَمَّى عنده (الثابت) فَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى مِثْلِهَا فِي قَابِلٍ فَذَلِكَ قَوْلُهُ (فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (البحار ١٣٩/٥)، وعنه (ع): (يَعِيشُ النَّاسُ بِإِحْسَانِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْيشُونَ بِأَعْمَارِهِمْ، وَيَمُوتُونَ بِذُنُوبِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَمُوتُونَ بِأَجْلِهِمْ) المصدر السابق، وعنه (ع): (مَنْ حَسَنَ بِرُّهُ بِأَهْلِ بَيْتِهِ زَيْدًا فِي عُمَرِهِ) (البحار ٢٠٥/٧٠)، وفي غرر الحكم: (بِالصَّدَقَةِ تُفْسَخُ الْأَجَالُ)، عن النبي (ص): (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَاطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ (يُؤَخَّر) فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةَ) (البحار ٧٤ص ٨٩). من أسباب قلة الوفيات في الأمم: تحسين وسائل المعيشة والاعتدال فيها، وتوقى الأمراض، والأمم الحضارية العاملة بسنن الصحة والسقم تحصي دائماً عدد المرضى والموتى وتضع نسباً حسابية تعرف بها متوسط الأجال في كلٍ منها، فعلى الأفراد والأمم أن تستثمر عمرها للقيام بمقتضى خلافة الله في الأرض.

٣٥ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ مِنْكُمْ بِغُفْرَانٍ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الخطاب لكل بني آدم وجميع الأمم في العالم البشري، المعنى: إن يجيئكم رسلي الذين أرسلت إليكم برسالات هدى ونور (يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) يبينون لكم الأحكام والشرائع وفلسفة الحياة لتكتمل الحجة على كافة الخلق فاتبعوهم ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/ ١٦٥، (فَمَنْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (مَنْ أَتَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته، فمن فعل الطاعات وترك المحرمات وأحسن المعاملات، باعتبار الدين عبادة ومعاملة، أقوال وأفعال، ادعاء وحقيقة، واستقامة في السر والعلانية (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) مما يكون في مستقبل أمرهم (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) من شيء ينغص عليهم حاضرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإذا انتفى الخوف والحزن وحصل الأمن والأمان ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الزمر/ ٣٥. فائدة: الفرق بين الخوف والحزن في الآية: (الخوف) يتعلق بقضايا المستقبل وهو في مقابل الأمن والاطمئنان، أما (الحزن) يرتبط بالماضي وما فات من الإنسان وهو في مقابل الفرح والسرور.

٣٦ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والذين كذبت قلوبهم وأعرضت أنفسهم عن رسالة الله واستكبروا عن العمل بها فقد ظلموا أنفسهم وعرضوها للخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/ ١٢، فَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْبَاطِلُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ، وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الِاسْتِقَامَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهكذا (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي لَا

يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ البقرة/١٧٥ ، الَّذِينَ لَا تَلِيْقُ بِهِمُ الْجَنَّةُ تَلِيْقُ بِهِمُ النَّارُ مَا كُنْتُمْ فِيهَا أَبَدًا ، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/١٤٧ .

٣٧- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ النَّصِيحَةُ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَبِّرُهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا إِلَىٰ مَعَاذٍ لَّهِ لَمَّا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾

الاستفهام للإنكار وهي إخبار وأبلغ في التهديد والتقريع . المعنى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) من أقبح وأشنع ظلماً ممن تعمّد الكذب على الله والتقوّل عليه ما لم يقل كالبدع في الدين، (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) أو كذّب رسله ورسالاته المنزلة أو أعرض عنها واستهان بها واستكبر عن اتّباعها ، واستبدلها بالقوانين الوضعية لتنظيم حياة الناس التي تعارض منهج الله، فهي أعظم الظلم لأنّها من هوى الإنسان ومن خطوات الشيطان، والذي لا يليق به منهج الرحمن يليق به منهج الشيطان (أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ النَّصِيحَةُ مِنَ الْكِتَابِ) والمراد بالكتاب المكتوب، فيه أي أن أعمالهم كلّها مكتوبة في اللوح المحفوظ من مقدّرات الحياة الدّنيا من النّعم المختلفة من عمر ومعيشة وغنى وصحة ومال وولد وغيرها، أولئك يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتِبَ لهم وقدر لهم من الأرزاق وما كتب لهم من الخير والشر، فلا يقطع عنهم رزقهم بكفرهم ، حتى إذا استوفوا أرزاقهم ﴿كُلًّا مُدًّا هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الإسراء/٢٠ ، (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَبِّرُهُمْ) أي جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم وانتهاء مدة آجالهم ومهلتهم في الحياة (قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) في هذه دلالة: أنّ أول ما يسأل العبد بعد الموت عن معبوده ومن هو إلهه وربه؟ أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله سواء أكانت آلهتهم أهواء متبعة أو ثراء من حرام أو مواقع اجتماعية مسؤولة يعملون فيها أنواع الفساد أو أية دعوة كنتم تروجونها من دون الله وتصدون عن سبيل الله، أدعوهم ليخلصوكم من العذاب .

والسؤال للتوبيخ (قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) قال الأشقياء المنحرفون لقد غابوا عنا وتاهوا ، كما تاهوا في الدّنيا ، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء، وفي هذا تحذير من الاتباع الأعمى من دون تفكير (وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) في هذه دلالة : أنّ ضمير الإنسان أول قاضٍ في يوم الحساب ، أمّا قوله ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الأنعام/٢٣ ، إنّ ذلك ظروف مختلفة في ساحة المحشر للحساب ! أقروا واعترفوا على أنفسهم تحسراً وندامة على الخيبة والخسران أنهم كانوا في ضلال مبين وفي كفر مهين فاستحقوا العذاب الأليم، عن النبي (ص) (شَرُّ النَّدَامَةِ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧/١١٥ ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾

يونس/ ٥٤ ، وتقدم في الأنعام/ ٢١ . فائدة: (أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ) مرحلة استجواب الإنسان تبدأ مباشرة بعد موته ، عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٢٢/٣ .

٣٨ - ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُمُ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأْتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

يقول الله تعالى مخبراً عما يقوله في مشهد من مشاهد يوم القيامة لهؤلاء الطغاة المشركين به المفترين عليه المعنى : قال ادخلوا مع أمم أمثالكم (قَدْ خَلَتْ) مضت من الفجرة والغدر والفسقة في نار جهنم من الأمم الماضية من الجن والإنس وفي الآية دلالة : على أنّ من الجنّ أمم يموتون بأجلهم الخاصة بهم باستثناء إبليس الباقي إلى يوم الوقت المعلوم ، ويحاسبون ويعاقبون على كلّ فساد (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) كلما دخلت طائفة في النار لعنت التي قبلها في فسادها يقولون : أنتم بسببكم أوردنا النار فلعنكم الله ، يلعن الأتباع القادة ويلعن بعضهم بعضاً ، وهكذا اللصوص والقراصنة يتعاطفون في السلب والنهب ، حتى إذا افتضحوا وأخذوا للعقاب تلاعنوا وألقى كلّ التبعة والمسؤولية على صاحبه كقوله ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف/ ٦٧ ، وكقوله ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ العنكبوت/ ٢٥ ، (حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا) تلاحقوا واجتمعوا كلهم في عذاب النار عندها يبدأ الجدال والعتب وإلقاء التبعة على صاحبه من الرؤساء والمرؤوسين ، والقادة وأتباعهم الظالمين (قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا) قال الأتباع الذين يتبعون الاتباع الأعمى للقادة والرؤساء أصحاب القرار الذين أضلوهم يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وكرهوا لنا الحق والاستقامة وزينوا لنا الفساد والضلال وطاعة الشيطان (فَأْتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ) كقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ الْعَذَابِ﴾ الأحزاب/ ٦٧-٦٨ ، وقوله ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النحل/ ٢٥ ، قال الله تعالى (قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ) لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة بسبب ضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع بسبب كفرهم وتقليدهم الأعمى (وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) ما لكل فريق منكم من العذاب المتناسب مع فسادكم وكلاً منكم مشغول بنفسه ، ويكون الجزاء من جنس العمل ، والعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ ، وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي ، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ بكرامة! فائدة: الآية تدعو إلى التفكير بعاقبة الأمور ، والتحذير من التقليد الأعمى والاتباع بغير هدى ولا علم من الله تعالى . عن الإمام الصادق (ع) (فَفِ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ) البحار ٢٨٣/٧٨

٣٩ - ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

قال القادة للأتباع رداً عليهم : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال والفساد وفي إستحقاق العذاب الضعف الأليم لأننا رضينا بذلك باختيارنا ، فإن الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ ، وَالرَّاضِي بِهِ ، وَالسَّاكِتُ عَنْهُ ، وَالْمُؤَيَّدُ لَهُ ، وَالْحَاضِنُ لَهُ ، شُرَكَاءُ فِي الظُّلْمِ ، (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) من الظلم والفساد والاعتداء على الناس ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب ولا تلموا إلا أنفسكم فيندموا في وقت لا ينفعهم الندم كقوله (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ) يونس/٥٤ ، عن النبي (ص) (شَرَّ النَّدَامَةِ ، نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧ ص ١١٥ ، وهذا ينتهي ذلك مشهد الحساب الساخر الأليم.

٤٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾

إنَّ تصوير مشهدٍ غريب وعجيب ، مشهد الجمل الكبير تجاه ثقب إبرة خياطة الصغير ! (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) الدالة على وجودنا مع كثرتها ووضوحها واستكبروا عن الإيمان بها وفهم فلسفتها والعمل بمقتضاها (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ) كناية عن رفض أعمالهم وإنما لا يقبلها الله ولا تناولهم رحمته سبحانه ما داموا به كافرين ومكذبين، كما تقبل أعمال المؤمنين الصالحين كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الأعراف/١٤٧ ، فيكون الجزاء من جنس العمل (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل (فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) أي يدخل البعير في ثقب الإبرة !! مبالغة في التصوير وكناية لطيفة على إستحالة هذا الأمر (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام بحيث صار الإجرام وصفاً لهم ، لا من أجزموا جرماً بغضبٍ أو بشهوة ثم يندمون على فعلهم ﴿وَمَ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران/١٣٥ ، عن الإمام علي (ع) : (تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فِي حَمْسَةِ مَوَاقِيْتٍ : عِنْدَ نُزُولِ الْعَيْثِ وَعِنْدَ الرَّحْفِ ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ ، وَعِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مَعَ زَوَالِ الشَّمْسِ ، وَعِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ) كنز الدقائق ج ٣/٤٨٩ . فائدة : ١- (الجمَل) في اللغة يأتي بمعنى البعير وهو المشهور ، ويأتي بمعنى الحبل المتين الغليظ الملتف مع بعضه . ٢- معنى الإجرام : أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة والجرم هو المنفصل عن الصفات الإنسانية والمنقطع عن الأخلاق البشرية . ٣- كيف يجازي الله الكافر المحسن بعد الموت ؟ الجواب : لا يدخل جنّة الخلد أبداً ولا يدخل نار الخلد أيضاً ، فقد يعمل الكافر الخير العام ويكف أذاه عن الناس بل ينفع الناس ويخترع الكهرباء والآلات المفيدة ويكتشف الدواء للأمراض المستعصية وغير ذلك لوجه الإنسانية ، ممّا ينجيه من النار ولا يدخله الجنة ، عن الإمام الصادق (ع) : (فِي قَوْلِهِ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠ ، جَرَتْ فِي الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ

وَالْبَرِّ وَالْقَائِرِ) التفسير المبين ص ١٩٨، إنها قاعدة إنسانية عامة مكافأة الإحسان بالإحسان في الدنيا والآخرة .

٤١ - ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نجزي الظالمين﴾

فَلَهُمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ مِنْ تَحْتِهِمْ (مِهَادٌ) فراش يدعو للسخرية مهاداً ، وما هو مهد ولا لين ولا مريح (وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) غَوَاشٍ : أغطية ولهم من فوقهم منها أغطية تغطيهم وتغشاهم ، والمراد أنها محيطية بالمجرمين من جميع الجهات ومطبقة عليهم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ الهمة/٨، (وَكَذَلِكَ نجزي الظالمين) ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم نفسه وظلم الناس وتعدى حدود الله ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤، والظالمون هم المجرمون، والظالمون هم المكذبون، وبهذا يتعمق الحاجز النفسي بين المستكبرين والمستضعفين وبين المؤمنين والفاستقين فلا تجد نقاط التقاء بينهما!

٤٢ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

والذين صدقوا بمنهج الله وعملوا بما أمرهم به وإستقاموا على طاعته ولم يستكبروا عنها ، وهنا تأكيد القرآن على الدوام على الإيمان والعمل الصالح بمعناها العام ، على العبادات والمعاملات ، تأكيداً على العمل ليكون ترجمان القول ، والقول ترجمان العمل، في غرر الحكم: (الْعَمَلُ بِعَيْرِ عَمَلٍ وَبِأَلِّ، وَالْعَمَلُ بِعَيْرِ عِلْمٍ ضَلَالٌ) (لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق/٧، لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه، بل يكلفه بقدر وسعه ، وهذا تنبيه أن منهج الله وأحكام الله في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم لأن الوسع دون الطاقة ، كقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة/١٨٥ ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/٧٨ . فائدة : إن الجنة مع جلاله قدرها يمكن الوصول إليها بالعمل السهل من غير مشقة، وهي طريق سالكة لمن أراد ، وتحصل عليها بغير ثمن ، بينما الإنسان الجاهل يشتري جهنم ويسلك سبيلها بجد ويدفع عليها أثماناً باهظة، أما الجنة فسبيلها بالجان والجاهل يُعرض عنها عن النبي (ص) : (إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَالنَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ) شرح النهج ص ١٠١٦ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أولئك المؤمنون الآمنون يوم القيامة المستحقون للخلود في النعيم الأبدي ، وهكذا الذي يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ، وهذه الفئة المؤمنة الصالحة المجاهدة هي التي تحمل أمانة رسالة الله ، وتقوم بمقتضيات الخلافة ، وتصارع الطاغوت وتحالف الهوى وتثبت على الهدى ، وتعمل الصالحات بقدرها ، وتصبر على الأذى ، وتتحنن الفرص لمواصلة إعلاء كلمة الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت/٦٩ .

٤٣- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُسُلُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الغل : الحقد والحسد والتباغظ والعداوة والكرهية وهي صفة جامعة لكل السلبيات ، فغلُّ الصدور من أعظم ما ينغص العيش فإذا نُزع الغلُّ طاب العيشُ المعنى : (وَنَزَعْنَا) أي وأخرجنا ، طهرنا قلوب أهل الجنة من كل ما لا يليق بهم من السلبيات والنواقص والعيوب الخلقية والخلقية ، فلا يكون بينهم إلا المودة والرحمة والمحبة والتعاطف والصفاء والسكينة ، وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ، ولماذا يتحاسدون وقد تطهرت قلوبهم من كل شر وملئ الخير نفوسهم وكل ما حولهم ، ليس لأحد منهم حاجة في شيء إلا وجدها بين يديه ، كلهم سعداء برحمته ورضوانه سبحانه لا يجري على ألسنتهم إلا الحمد لله رب العالمين الذي هداهم للتي هي أقوم وأوصلهم إلى هذا المقام العظيم ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ يس/٥٥ ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧ ، (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) تجري الأنهار من تحت قصورهم من غير أخلود زيادة في نعيمهم وتكريمهم (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) وقالوا الحمد لله بألسنتهم وجوارحهم معبرين عن فرحهم لتحصيل هذا النعيم المقيم في جنة الخلد ، والحمد لله الذي أخلصنا لنفسه سبحانه فاستقامت أقوالنا وأفعالنا وتطهرت نفوسنا فلا اعتقاد باطل ولا عمل سيء فكان جزاؤهم.

مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) وما كان من شأننا ولا من قابليتنا أن نتهدي بهدى الله بقدراتنا الخاصة لولا أن هدانا الله إليها بتوفيقه إيانا وإلى نعمة هدايته التي فطر الناس عليها ونحن استجبنا إليها وتذوقنا حلاوتها وصبرنا عليها، أما غيرنا فضل الغواية على الهداية وفضل طريق الشيطان على طريق الرحمن ، وهذه إشارة إلى أن ﴿هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ الأنعام/٧١ ، والناس الهداة أسباب للهدايا ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧، وليس لهم من الأمر شيء ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ حين كانوا يتمتعون بالنعيم التي أخبرت به الرسل وصار (حق اليقين) لهم بعد أن كان (علم اليقين) لهم قالوا : لقد تحققنا ورأينا ما وعدتنا به الرسل ، وإن جميع ما جاؤوا به حق اليقين لا إشكال فيه فأصبح الغيب عندهم مشهوداً (وَنُودُوا) نادتهم الملائكة تحية لهم وإكراماً واحتراماً (أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُسُلُهَا) أي أعطيتموها وصارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله ، الإرث نعمة لغيرك أصبحت إليك ، فقد خلق الله الجنة ليكسبها الإنسان المؤمن بأعماله الصالحة ، فخرج عنها الكافر والمشرك والفاسق بسوء عملهم فبقيت إرث للمؤمنين بفضل من الله ورحمة (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وحسن العمل أحسن وراثه ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ آل عمران/١٣٦ . فائدة : ١- الجنة حق للمؤمنين عبر عنه بالإرث ، وهذا الحق ثابت لهم لا مجرد تفضل . ٢- (وَنُودُوا) عن النبي (ص) : (أَنْ صُحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا، وَإِنْعَمُوا فَلَا تَيَأْسُوا، وَشَبُّوا فَلَا تَهَرَمُوا وَأَخْلُدُوا فَلَا تَمُوتُوا ..) الميزن/١٣٩/٨ عن النبي (ص) : (مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَأَمَّا الْكَافِرُ

فَيَرِثُ الْمُؤْمِنُ مَنَزِلَهُ فِي النَّارِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ يَرِثُ الْكَافِرُ مَنَزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ (أُورِثْتُمُوهَا))
 كنز الدقائق ٣/٤٩٣، وعنه (ص) : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدُكُمْ بِعَمَلِهِ وَإِنَّمَا تَدْخُلُونَهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَفَضْلِهِ) كنز العمال خير ١٠٤٠٧، وفي نهج البلاغة حكمة ١٥٠ (لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ
 الْعَمَلِ).

٤٤ - ﴿وَأَدَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ
 فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

هذا النداء من مشاهد يوم القيامة ، إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ،
 وجاء النداء بالماضي ليعبر عن المستقبل لتحقيق وقوعه أي ينادي أهل الجنة أهل النار استهزاء
 وسخرية منهم كنتيجة طبيعية لفعالهم يقولون : إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا من النعيم المقيم
 والكرامة الأبدية حقاً كما قالت الرسل ورسالات الله، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي
 والهوان والعذاب حقاً ؟ (فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) قال أهل النار مجيبين نعم
 وجدناه حقاً وحقيقة في وقت لا ينفعهم الإعتراف ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء/٨٧،
 إنما صار هذا الحوار بينهما شتماتة بأهل النار وزيادة في غمهم ، واغترباطاً بحال أهل الجنة وشكر الله
 على ما أنعم عليهم (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) نادى منادٍ بينهم من قبل
 الله سبحانه (إنه صوت الوجود كله) أسمع الفريقين، أن لعنة الله وغضبه وسخطه على كل ظالم
 للناس ولأنفسهم ولفطرتهم ، وصدّوا عن سبيل الله فضلوا وأضلوا ، فطردهم الله من رحمته سبحانه
 مع الخزي والإهانة، إنّه تصوير مجسم لنفوس الظالمين، إنّه تصوير حيّ مؤثر يكشف حقيقة هذه
 النفوس ويصف معاناتها الداخلية بدقة ! وطردهم من رحمة الله، عن الإمام الباقر (ع) (الظُّلْمُ فِي
 الدُّنْيَا ظُلْمَاتٌ فِي الْآخِرَةِ) البحار ٣١٢/٧٥ و(مَنْ ظَلَمَ فَقَدْ تَنَعَّصَ عَيْشُهُ، وَكُرِهَتْ أَيَّامُهُ) .

٤٥ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾

ومن صفات هؤلاء الظالمين الذين استحقوا اللعنة في الآية السابقة ، إنهم لا يقتصرون على ظلم
 أنفسهم بل (يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) بمختلف الأساليب الماكرة سواء بقوة السلاح أو بالكتمان
 والإخفاء لحقيقة الدين القيم أو بالإعلام المهرج المشوّه للدين والمؤمنين ، يظلمون الناس ويعتدون
 على حقوقهم ، ويمنعون الناس من إتباع الحق بمختلف أنواع المنع من تهريب وترغيب وتظليل ،
 (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) يطلبون لها زيفاً وانحرافاً عن الصواب بما يلقونه من تحريف ونشر البدع
 والشبهات والغلو والخرافات والفساد والخدع والغش والنفاق ، ويكبرهون الناس بدين الله ويبغون
 ويطمحون أن تكون السبل إلى الله معوجة مملوءة عراقيل ومحاذير ومخاطر حتى لا يتبعها أحد ،
 ويريدون التحرر والعلمانية والمبادئ الوضعية (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) وبالتالي فهم ينكرون المعاد
 إلى يوم القيامة ويجحدون لقاء الله وأعمالهم الإجرامية تدل على كفرهم ! وهكذا الذي ينكر المعاد

يؤمن العقاب فيسيء الأدب و(مَنْ أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبَ) عدم إيمانهم بالبعث والنشور فلا حساب ولا جزاء وهو الذي أوصلهم إلى هذا الانحراف في الفكر والإجرام في السلوك ، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ؟ فائدة : (يَبْغُونَهَا عِوَجًا) إِنَّهُ وصف حركي فيه إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدّون عن سبيل الله ، إنهم يريدون العوج في كلّ شيء ولا يريدون الاستقامة ، فالاستقامة لها صورة واحدة مضيئة ذات كرامة وكلّ ما عداها فهو أعوج وهو إرادة للعوج ، وهذه الإرادة المعوّجة كانت نتيجة الكفر بالآخرة ، فما يؤمن بالآخرة أحد ثم يصدّ عن سبيل الله ويحيد عن نهجه ، إنّه تصوير حركي دقيق لطبيعة النفوس التي تتبع غير شرع الله، في غرر الحكم (أَجُور النَّاسِ مَنْ عَدَّ جُورَهُ عَدْلًا مِنْهُ).

٤٦ - ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يُمْرُقُونَ كَأَلْسِيْمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يُطْمَعُونَ﴾

إنّه مشهد مجسّم آخر من مشاهد يوم القيامة بتصوير حقيقي حي لحالة واقعة لا بدّ منها الحِجَاب : الحاجز والمانع ويقال له الأعراف ، الأعراف : المكان المرتفع وهو أعالي السور وهو الحاجز وهي منطقة الحد الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار ، وهم لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، سِيْمَاهُمْ : علاماتهم ﴿سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ الفتح/٢٩ ، (وَعَلَى الْأَعْرَافِ) أي أعراف ذلك الحجاب أي أعاليه ، والأعراف : ما ارتفع من الأمكنة ومنه عرف الديك وهو أعلى شيء فيه . المعنى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب ومانع وهو السور في قوله ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الحديد/١٣ ، هذا السور والحجاب والأعراف يمنع من وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال الأعراف يعرفون كلّاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم بعلامات مميزة تدلّ عليهم ميزهم الله بها، أهل النار وجوههم مسودة ووجوه أهل الجنة مبيضة مستبشرة (وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) ونادى أصحاب (أهل) الأعراف أهل الجنة وحين رأوهم قالوا لهم : سلام عليكم وهنيئاً لكم وأماناً عليكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الحاقة/٢٤ ، و(السَّلَامُ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ) ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يونس/١٠ ، (لَمَّا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يُطْمَعُونَ) لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون أن يكونوا في وقت من الأوقات معهم بشفاعاة النبي وآله (عليهم السلام) عن الإمام الصادق (ع): (أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ فَإِنْ أَدْخَلَهُمُ النَّارُ فَيَدْنُوهُمْ وَإِنْ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ فَبِرَحْمَتِهِ تَعَالَى) الكافي/٢/٣٨١ . فائدة: الخلاصة: بين أهل الجنة وأهل النار حجاب أي حاجز خارجي ، وعلى الأعراف أي أعلى الحجاب وأعلى السور ، وهو معبرٌ صعب العبور إلى طريق الجنة وهناك رجال الأعراف يقفون في مكان حرج ويقع بين الجنة والنار يسمى بالأعراف وما هو بالنعيم وما

هو بالجحيم ، ولكن باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة وظاهره فيه العذاب وهو ما يلي النار ، ورجال الأعراف مؤمنون مستضعفون قصرُوا في عملهم الصالح.

كقوله ﴿وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ التوبة/١٠٢ ، فاستوت حسناتهم وسيئاتهم ، فعجزوا عن العبور فحبسوا هناك أي في ساحات يوم المحشر ! حتى يحكم الله في أمرهم ! وهؤلاء يرون كلاً من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بعلاماتهم وملامح وجوههم ، وهم يتعمدون النظر إلى أهل الجنة ويسلمون عليهم ويطمعون أن يكونوا معهم ، وإذا وقع طرفهم على أهل النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف/٤٧ ، فهم بين الخوف والرجاء ! إنه عقاب من جنس عملهم ، ثم ينتهي هذا المشهد في تصوير أهل الأعراف وكأتمها صورة حية متحركة، وهذه الآية الوحيدة التي تتحدث عن أهل الأعراف في القرآن ، لذا سميت السورة بهذا الإسم .

٤٧ - ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وإذا تحولت أبصارهم (وهم أهل الأعراف) ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب ، شاهدوا منظراً شنيعاً وهولاً فظيماً (قَالُوا رَبَّنَا) خافوا واستعاثوا بربهم ألا يجعلهم معهم ومثلهم ، وأخسر الناس من كان عبرة للناس ، عن النبي (ص) : (يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ دَخَلَ النَّارَ ، وَمَنْ إِسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ أُؤْتِيَكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) (وَهُمْ آخِرُ مَنْ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ قَالَ أَنْتُمْ قَوْمٌ أَحْرَجْنَاكُمْ حَسَنَاتِكُمْ مِنَ النَّارِ وَلَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَبَبِ سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنْتُمْ عُتْقَائِي فَأِزْعُوا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ) الميزان/١٤٢٨ . فائدة : وفي التعبير (صُرِفَتْ) دليل على أن أكثر أحوالهم النظر ، ولم يكن نظرهم إلا بداعي حب الاستطلاع الكامن في طبيعة الإنسان ، فهو نظر من غير قصدٍ ولا رغبة بل بصارف يصرفهم إليها وهم غافلون .

٤٨ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَمْشُونَ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ قَالُوا مَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) وهذا نداء آخر في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، وهم الشفعاء ومن الأنبياء والأوصياء والشهداء (رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) بعلاماتهم من أئمة الكفر وهم بعض المستكبرين والجبابة الذين تسلطوا على المستضعفين ظلماً وعدواناً وكانوا يعتزون في الدنيا بغناهم وقوتهم ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقيرهم (قَالُوا مَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) والاستفهام للتوبيخ والشماتة بهم ، أي شيء نفعكم كثرة أعدادكم وجمعكم للمال الكثير واستكباركم عن الإيمان وعلى الناس وعلى قبول الحق ، كنتم في الحياة الدنيا تنقصون من

قدر الناس وتهمنون كرامتهم وتتعالون عليهم بما تملكون من جاه ومال ، فكيف أنتم الآن في حالة من الصغار والاحتقار والذلة والهوان ؟

٤٩ - ﴿أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ إِذْ خَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

الاستفهام للتوبيخ ، وهو من تمام قول أصحاب الأعراف للرجال من أئمة الكفر ، أهؤلاء المؤمنون المستضعفون الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَسْحَرُونَ منهم أيها الجبابرة المترفون (الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة (إِذْ خَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) وهذا من كلام أصحاب الأعراف وهم الشفعاء أصحاب المنازل العليا ، يقولون لأهل الجنة المستضعفين المشار إليهم أدخلوا الجنة بأمر الله وتنعموا فيها غير خائفين مما يكون في مستقبل أمركم ولا محزونين من شيء ينعص عليكم حاضرهم ، ولا تحزنوا على ما مضى ، بل آمنوا مطمئنين فرحين بما آتاكم الله من فضله ، وأنتم وعلى أتم النعم وأفضل الكرامة وأحسن العيش (وَأَحْسَنُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْآخِرَةِ) وهذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال .

٥٠ - ﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْكُمْ مِمَّا مَرَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وهو مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، ويرى المشاهد من كلمات الله التي صورت المشهد وكأنه عين الحقيقة ، مما لا يقدر أبرع المخرجين من إخراجه وتصويره وتجسيم الموقف . يخبر الله تعالى عن محاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار ، ينادي أصحاب النار حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ وحين يمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجه يستغيثون بهم فيقولون (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) أغيثونا وصبوا علينا من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله به من أنواع الأطعمة والأشربة (قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) منع الله الكافرين من شراب الجنة وطعامها كما حرم عليهم دخولها إذ ليس لهم إلا ماء جهنم الحميم المغلي وطعامها من الضريع والزقوم لا تقره دابة لنتن ريحه كقوله ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الحاقة/٣٧-٣٨ .

٥١ - ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدُونَ﴾

ثم وصف الله الكافرين الذين هزءوا من دين الله ، وجعلوا دين الله القيم الضروري المنقذ لحياتهم والواجب عليهم الإلتزام به ، جعلوه سخرية ولعباً ، أي أنهم جعلوا بدل دينهم القيم للهو واللعب ، وهكذا عمل الجهلاء يلعبون بالجوهره وكأنها كرة ! فحللوا وحرموا بحسب ما تهوى نفوسهم عن قصدٍ وعمدٍ أم عن جهلٍ وإتباعٍ أعمى ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، (وَعَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) خدعتهم الدنيا بزينتها وأنفسهم بخيانتها وهذا شأن الدنيا مع أهلها تغر وتسر وتضر وتمر ، وتخدع ثم تصرع ، في غرر الحكم: (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ

لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) ، (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) أي يعاملهم معاملة من نسيهم وأهلهم من رحمته لأنه تعالى منزّه عن التسيان لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، أي (نَنسَاهُمْ) نملهم ونعاملهم معاملة الشيء المنسي أي نتركهم في عذاب النار وننساهم ونتركهم من أي وسيلة إنقاذ مثل نسيانهم لقاء الله واليوم الآخر هذا اليوم الرهيب الحاسم الذي يجب ألا ينسى، فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به فلا نجيب لهم دعوة ولا ترحم لهم عبرة ، فَإِنَّ مَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ ذَكَرَهُ ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ﴾ البقرة/١٥٢، (وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) ينكرون ويكذبون لآيات الله في الدنيا ويستهزئون بها فلا شيء أمامهم إلا المصالح حتى ولو سحقت في سبيلها النفوس وأريقت الدماء ، وهذه سيرة المستكبرين على مدى التاريخ . فائدة : عن الإمام الرضا (ع) : (إِنَّمَا يُجَازِي مَنْ نَسِيَهُ وَنَسِيَ لِقَاءَ يَوْمِهِ بِأَنْ يُنْسِيَهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أَي مَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر/١٩ كنز الدقائق ٣/٥٠٤ .

٥٢ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ما زال الكلام عن أهل النار الذين غرهم الحياة الدنيا وظلموا أنفسهم ، لقد جئنا هؤلاء بالقرآن الحكيم كامل البيان كامل بذاته ومكتمل لغيره ، فلا يطلب معه زيادة لمستزيد ، إِنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) التفصيل : جعل المسائل المراد بيانها فصلاً بعضها من بعض بما يزيل إشتباها وهذا القرآن فصلنا آياته تفصيلاً على علم من الله أي بيناه أتم بيان بما يحتاج إليه الناس كافة في هدايتهم في دنياهم وآخرتهم ، حتى جاء قيماً غير ذي عوج ، ليكون تركية لنفوسهم وقلوبهم وسبب لسعادتهم في معاشهم ومعادهم (هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ومصدر هداية ونور ورحمة لمن يؤمن به إيماناً يعثه على العلم والعمل بما أمر به والانتهاه عما نهي عنه ، ولكنهم تركوه وإتبعوا أهواءهم . فائدة : القرآن كتاب هداية ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ يهتدي به التائهون والضالون والجاهلون فيرون فيه الأشياء على حقيقتها ويفهمون فلسفة الحياة وأسباب الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود ، وهو كتاب رحمة وسعادة وإستقامة وتوازن وتقدم واعتدال ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الأنعام/١٣٥ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ الْقُرْآنَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَلَا تُكَدِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ!) كنز العمال خير ٢٨٦١ .

٥٣ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَرْسُلٌ مِّنَّا بِالْحَقِّ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُونَ﴾

يَنْظُرُونَ : ينتظرون ، الاستفهام إنكاري ، تَأْوِيلُهُ : حقيقة الأمر وعاقبته ، إِنَّ كُلَّ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ يُؤُولُ أَمْرَهُ إِلَى الْحُصُولِ وَالْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ ، وكأنه شريط (فلم) متحرك واقعي ذو ثلاثة أبعاد بالصوت والصورة والنية . المعنى : أنتظرون أيها الجاحدون فسوف يظهر للعيان (تأويل القرآن على حقيقته) أي ما تؤول إليه أخباره أن كل ما نطق به القرآن من وعيد وثواب وعقاب وحساب وكتاب .. هو حق وصدق أي هل ينتظرون إلا ذلك اليوم الحاسم حتى يؤمنوا؟! (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ) في يوم القيامة يأتي تأويله وحقيقته بوقوع ما أخبر القرآن عنه حيث يرى كل إنسان جزاء عمله ، ويتبين للكافرين والناس جميعاً صدقه بالعيان والمشاهدة (يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ) وهم نادمون متحسرون، يقول الذين ضيّعوا وتركوا العمل بالقرآن في الدنيا (فَدَجَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) جاءتنا الرسل بالرسالات الصادقة والأخبار المؤكدة وتبين لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم ، وإعترفوا في وقت فائت لا ينفذ الندم وفي مكان لا يفيد فيه إلا زاد التقوى ﴿وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/١٩٧ ، فلا فائدة من هذا الاعتراف فذوقوا ما كنتم به تكذبون (فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا) هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب الرهيب؟ استفهام فيه معنى التمني (أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال، ولو استجاب سبحانه لدعوتهم هذه لبطلت المقاييس والجنة والنار واستوى مصير الطيب والخبيث والمحسن والمسيء.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام/٢٨ ، قال تعالى رداً عليهم (قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) قد خسروا أنفسهم عندما عرضوها للهلاك الأبدي، حيث اشتروا الدنيا الخسيسة الفانية وباعوا نعيم الآخرة النفيسة الباقية ، وخسروا أنفسهم بخسارة ضميرهم وتلوث فطرتهم وفساد دينهم، فما الفائدة أن أربح كل شيء ولكنني أخسر أهم شيء وهي نفسي؟ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٢ ، عن النبي (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنِّ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩. (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الشافعين لهم ، وبطل عنهم أيضاً ما كانوا يفترونه من الأضاليل التي كانت تحجبهم عن القرآن. في غرر الحكم: (مَنْ أَفْنَى عُمْرُهُ فِي غَيْرِ مَا يَنْجِيهِ فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ)

٥٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبْشِرُ اللَّيْلَ إِذَا مَرَّتْ بِطَلْبِهِ حَيْثَا وَالسُّنْسُ وَالْقَمَرَ وَالْجُورِ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

السياق القرآني إيقاع مؤثر قوي عميق بعبودية الوجود كله لبارئه ، إن ربكم وخالقكم ومربيكم هو وحده المتفرد بإيجاد الكون والكائنات لأعلى مثال سبق (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، عن الإمام علي (ع) : (وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهَا فِي أَقَلِّ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ لَخَلَقَ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْأَنَاءَ وَالْمُدَارَةَ مِثَالاً لِأَمْنَائِهِ وَإِيْجَاباً لِلْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ) الاحتجاج ج ١-

ص ٢٥٤ هذه الأيام كناية عن الدفعات أو الأطوار أو المراحل (في ست مراحل من مراحل التكوين) إذ ليست بياناً للزمن فهو سبحانه الذي يحكم الزمن ولا يحكمه ، حيث لا زمان ولا أيام قبل الكون ، وإنّ إنشاء الكون على نظام الدفعات أدلُّ على أن المنظم عليم وحكيم وأنّه مدبّر الأمر ومقدّر المقادير ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/ ٢ ، حتّى يعلم عباده الصبر على إنجاز الأعمال والجدّ والإجتهاد والتأني في الأمور وأهمية الزمن، وهذا ما يتفق مع العلم الحديث ، ويستحيل أن يعلم ذلك مُحمَّد (ص) لو لم يكن نبياً يتلقى الوحي من خالق الكون (ثمّ استوى على العرش) إنه تعالى قد إستوى على عرشه أي على ملكه وسلطانه بعد تكوين هذا الملك ، يدبر أمره ويصرف نظامه بحسب تقديره وتدبيره الحكيم العليم .

بمعنى : (استوى) أي استولى على ما خلق ونفذ أمره واستقرّ ملكه ، والعرش: كناية عن الملك العظيم ومحلّ تجلي القدرة والتدبير بعد تكوينه هذا الملك والسلطان وانفرد في التدبير والتقدير وأمسك بزمام أمور كلّ شيء كقوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ البقرة/ ٢٥٥ ، (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً) (يغشي) يغطّي الليل على النهار ويتبعه فيذهب بضوئه ، ويطلبه (حثيثاً) سريعاً وبجد حتى يدركه ، وهكذا يأتي كل منهما عقب الآخر ليؤدي دوره بلا فاصل ولا تأخير كقوله ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الحج/ ٦١ ، وسنة التداخل بين الليل والنهار سنة كونية تكشف عن سنة إنسانية عامة لعلاقة أحدهما بالآخرى، إنه كما يتداخل الليل والنهار كذلك تتداخل الأشياء ، كتداخل القوة والضعف ، والعزة والذلة ، والزوج والزوجة والصحة والمرض والدنيا والآخرة والحياة والموت ، والروح والجسد والأمل والعمل ، والهدى والضلال والخير والشر ، والشدة والرخاء ، والعسر واليسر .

كقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/ ٥-٦ ، وهكذا لا يوجد شيء ثابت ولا حالة دائمة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن/ ٢٩ ، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/ ١٤٠ ، (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) مذلات جاريات في مجاريهن بتدبيره وتقديره وصنعه خلقهن لمنافع العباد بحكمته من أجل أن تنهياً أمامهم كل سبل الرقي والتقدم الحضاري والكمال الإنساني ، (ألا له الخلق) له الملك والتصرف التام في الكون والكائنات لأنها منه لا من غيره (والأمر) المراد منه السنن والقوانين الحاكمة في الكون والكائنات ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ هود/ ١٢٣ ، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الروم/ ٤ يحكم ما يشاء كيف يشاء متى يشاء وهو ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج/ ١٦ وهو ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد/ ٤١ ، وهو يحكم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/ ٢٦ ، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/ ١٢٨ ، وليس لنا من الأمر شيء ، (تبارك الله ربّ العالمين) وتبارك : من البركة فهو ذو بركات مستمرة دائمة على العالمين ، وتعظّم الله وتمجد الخالق المبدع المصور رب العالمين ، فتبارك في نفسه وكماله

وجماله وجلاله، وبارك لغيره بأنواع البركات وتعالى بالوحدانية عن صفات المخلوقين فهو سبحانه ربه ومالكهم ومربيهم ببركاته ونعمه فعلينا أن نعبده خالص العبودية ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ الزمر/ ٢ . فائدة : (في سِنَةِ أَيَّامٍ) مفهوم اليوم ذو معنى واسع ، مثل عدّة أوقات، يوم القيامة ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج/٤، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج/٤٧ .

٥٥ - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

معنى الدّعاء : العبادة والانقطاع إلى الله ، أدعوا ربكم واعبدوه بتضرّع أي بخضوع وتواضع وإنقطاع وبإخلاص وتذلل وتخشع وعدم العجب والتظاهر والإلحاح في الدعاء جهراً (وَخُفْيَةً) ضدّ العلانية أي سرّاً وهمساً لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الاخلاص وأجمع إلى الجوارح وأدعى إلى سكون النفس وطمأنينة القلب ، والبعد عن التباهي فيما يفعل من خير ويعلنه للناس بقصد أن يعرف فيشهد له بالتضرع والتعبد ، فإن هذا تحد وتعد على الله وعلى الناس ومن أجل ذلك ختم (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) المتجاوزين حدود ما أمر به وما نهي عنه ، فقد نهي الله عن المباهاة بالعبادة في الأقوال والأفعال ، والمبالغة في رفع صوته بالدعاء مما يلفت إليه النظر ، وطلب ما لا ينبغي أو التوجّه إلى غير الله حين الدّعاء فهذا اعتداء على حرّمات الله.

عن الإمام الصادق (ع): (لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُشْرِكًا حَتَّى يُصَلِّيَ لِعَبْرِ اللَّهِ، أَوْ يَدْبَحَ لِعَبْرِ اللَّهِ، أَوْ يَدْعُوَ لِعَبْرِ اللَّهِ) البحار ٧٢ص٩٦، كقوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/ ٢٢٩ ، فصار الدّعاء بالخفية والهمس أقرب إلى الله وأنفع إلى النفس من الدّعاء بالجهر. إلا إذا قرئ الدعاء بصورة جماعية موحّدة

٥٦ - ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ مَرْحَمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) بأي نوع من الفساد المادي والمعنوي ، الظاهري والباطني المباشر وغير المباشر، لا تتخذوا الطرق المعوجة وازدواج الشخصية والتلون والتقلب في الأقوال والأفعال، ولا تؤذوا أحداً من الناس ولا تعتدوا على مخلوقات الله ، ولا يظلم بعضكم بعضاً ولا تعكروا صفاء الحياة بالطمع والجشع ، ولا تفسدوا السياسة والاجتماع والزراعة والصناعة والتجارة بل وتعاونوا على الخير والصالح العام ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/ ٢ ، حَبِّبُوا وَلَا تُنْفِرُوا ، يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا ، حببوا الناس بالله وبرسله وبرسالته (بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) بعد أن أصلح الله الأرض ببعثة المرسلين وإرسال الرسالات وهذا الإصلاح المعنوي ، وكلُّ شيءٍ في الأرض مخلوق بميزان الصلاح وله مقدار كي يتمتع الإنسان بهذه الخيرات المادية الكثيرة طيلة حياته (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وعفوه وثوابه ، لاخوف مطلق ولا رجاء (طمع) في رحمته بلا حدود بل أمر بين

أميرين . عن الإمام الصادق (ع) : (فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ نُورَانِ : نُورٌ حَوْفٍ وَنُورٌ رَجَاءٍ ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا) الكافي ٦٧/٢ ، فالخوف من الله يهذب القلب ويزكيه ، والرجاء يقويه ويثبته (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) تفسير المبين ص ٢٠١ إِنَّ الْفَيْضَ الْإِلَهِيَّ قَرِيبٌ مِنَ الْنُفُوسِ الْمُسْتَعِدَّةِ لَهُ وَهِيَ الْنُفُوسُ الْمَحْسَنَةُ لِنَفْسِهَا وَالْمَحْسَنَةُ لِغَيْرِهَا وَالْمَحْسَنَةُ مَعَ رِهَا .

والمحسنون: الذين يجيبون دعوة الله ويستقيمون على منهجه وينفعون عباده ويحاسبون أنفسهم ويذكرون أخطائها ، فيتبعون الأحسن ولا يصرون على الخطأ ولا يبررونه ، ويرجون الله القبول هم من أهل الإحسان ويجازى الإحسان بمثله وتكون رحمة الله قريبة منهم ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ الرحمن/٦٠ . فائدة: قيل : دعاء العامة بالأقوال ودعاء الزاهدين بالأفعال ودعاء العارفين بالأحوال والدعاء يرُدُّ القضاء المبرم ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ الفرقان/٧٧

٥٧ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُفِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ : أمام رحمته ونعمته وهو ماء الغيث ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ وَيَحْرِكُهَا مَبْشُرَةً بِالْمَاءِ ، وَالشَّمْسُ تَبْخُرُ الْمَاءَ وَتَرْفَعُ الرِّيحَ بِهَذَا الْبَخَارِ إِلَى السَّمَاءِ الْعَالِيَةِ ، ثُمَّ تَجْذِبُهُ الْأَرْضُ إِلَيْهَا بِعَمَلِيَّةِ التَّفْرِيقِ الْإِلَهِيِّ فَيَتَساقَطُ عَلَيْهَا الْغَيْثُ بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَتَحْيَا الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا (حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُفِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) حتى إذا حملت ورفعت الرياح سحاباً ثقلاً بالماء وجهناه إلى أرض يابسة ميتة لا نبات فيها فأزلنا في ذلك البلد الميت الماء الذي تتفجر منه الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الأنبياء/٣٠ ، ويخرج منه كل أنواع الثمرات والخيرات وكل ذلك يسير وفق سنن الله التي أودعها في هذا النظام الكوني الضخم، فإن هذا النظام التكويني قرآن الله المكتوب بإتقان والبدال على وجوده سبحانه وعظمته ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ النمل/٨٨ ، (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) مثل هذا الإخراج للنبات يحصل إخراج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتاً ، لعلكم تعتبرون وتستقيمون وذلك لتقريب حقيقة المعاد . فائدة: ١- كل موضع ذكر الله فيه إرسال الرياح بلفظ الواحد كان للعذاب كقوله ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الأحقاف/٢٤ ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة (الرياح) كما في هذه الآية . ٢- من يموت ليس بمنعدم من الأصل لأن أرواحكم باقية وإن تغيرت أبدانكم كما أن النبات يتغير ويبقى أصله ، فما إحياء الموتى في الحشر يوم البعث إلا إحياء الأرض الميتة . ولقد أتينا بهذا المثال لنريكم أممودجاً من المعاد في هذه الحياة الدنيا الذي يتكرر أمام عيونكم لعلكم تتذكرون فتدركون أن من قدر على هذا قادرٌ

على بعث البشر بعد موتهم ، والسبب واحد ولا فرق إلا في الصّورة والشكل ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء/١٠٤

٥٨ - ﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَإِذَنْ رَرَبِهِ وَالَّذِي خُبَّتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾
 إنَّ هذا التشبيه دقيق ورائع لقلب المؤمن والكافر والبر والفاجر بالأرض ، هناك علاقة بين القلب والترية منبت الزرع ومأتي الثمر ، فالعطاء الإلهي يكون شريطة أن تكون قابلية الإنسان مستعدّة للتلقي ، والإنسان ابن الأرض وبها يشبّه وفي أبنائها النفيس والحسيس ، والكريم واللثيم والقاسي والرفيق ووجه الشبه أن الأرض كلها واحدة من حيث الجنس ، ولكن منها الكريمة الخصبة الطيبة إذا شربت الماء العذب اهتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ، ويخرج نباتها زاكياً وفيراً بإذن ربها (بِإِذْنِ رَبِّهِ) كناية عن خير كثير ومتنوع ورخيص السعر ، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعدة فينتفع بها (وَالَّذِي خُبَّتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا)

نَكِدًا : سيئاً قليلاً لا خير فيه ولا بركة فيه ويخرج بعسرٍ ومشقة ، ومنها الأرض القاسية التي خبثت تربتها كالسبخة المالحة تنأى عن الخير والصلاح ولا تستفيد من الماء العذب، وإذا أتت بشيء من الخير فيأتي ضعيفاً شبه ميت لا ينفع ولا يغني ولا يسمن من جوع ، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعدة كالأرض السبخة لا ينتفع منها (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) إنَّ الله يضرب الأمثال ويصرف الآيات ويكررها ويوضحها على أساليب مختلفة ليعتبر بها الجميع الخبيث والطيب ، ولكنَّ الطيبين هم الذين ينتفعون بها ويشكرون الله عليها فيكون عملهم طيباً كالأرض الطيبة وثمرها طيب ، أما الخبيث فلا ينتفعون منها كالأرض الخبيثة القاسية غير صالحة للزراعة ! فيكون عملهم خبيثاً كالأرض السبخة لا ينتفع بها ، وإمّا خصّ الشاكرين بالذكر لأهمّ المنتفعون بسماع القرآن ، وينبع الشكر من القلب الطيب الذي يحسن التلقي .

٥٩ - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
 لقد أرسل الله نوحاً وهو من أنبياء أولي العزم وشيخ الأنبياء وأطوهم عمراً وأشدّهم معاناة ، أرسله إلى قومه المشركين الأجلاف (فَقَالَ يَا قَوْمِ) أضافهم إلى نفسه ليقبلوا نصحه ، وأحسن قواعد الحوار مع المخالف (أَنْ تَبْدَأُ مَعَهُ مِنْ حَيْثُ يُحِبُّ، حَتَّى تَنْتَهِيَ مِنْ حَيْثُ تُحِبُّ !) (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وحدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأعبدوه كما يريد ولا تعبدوه كما تريدون ، فما لكم إله مستحق العباداة غيره، في غرر الحكم: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَهَمَّهُ حُسْنَ الْعِبَادَةِ). وهكذا اشترك جميع الأنبياء (ع) بالدعوة إلى التوحيد بكافة معانيه العقائدية والأخلاقية والعبادية والنفسية والعلمية والاجتماعية والإقتصادية والسياسية.. إلخ (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) هذا من نصحه(ع) وشفقته عليهم، فإنهم إن لم يكونوا مع الرحمن يتلقفهم الشيطان ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/٢٩. فائدة: لقد تفنّن نوح(ع) في دعوة قومه

إلى التوحيد ولكن بدون نتيجة ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ نوح/٦، وهذا يعطينا درساً أنّ على المرء أن يعمل بلا تقصير والنتائج ليس مسؤولاً عنها .

٦٠ - ﴿قَالَ الْمَلَأِينَ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

المَلَأُ : الوجهاء الذين يملأون العيون هيبة واحتراماً لتجميل منظرهم ، قال القادة والرؤساء وأصحاب القرار وأصل البلاء والداء العياء ، الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون ، أنهم يعيشون الجهل والجهل المركب ، إنهم قالوا لنوح إننا لنراك تتعد عن المألوف والمعروف ، وإن كان سفاهة وسخافة وتخلف ، وإن سكت عنهم صار مثلهم ، عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ شَرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧٥ وَالسَّائِثُ عَنْهُ، وَالْحَاضِرُ لَهُ، شَرَكَاءُ أَيْضاً فِي الْجُرِيْمَةِ ، وإن نهاهم إعتبروه هو في ضلال وهم على حق ، جاءهم نوح (ع) بفكر جديد متألق فحرم ما أحلوا ، وأحلّ ما حرموا وجعل الآلهة المتعددة إلهاً واحداً وهو الذي يستحق العبادة دون غيره ، إنّ هذا لشيء عجاب ، وهكذا حال الفجّار ، إنما يرون الأبرار في ضلالة فتقلب عندهم المقاييس الصحيحة فيرون الحق باطلاً والباطل حقاً ، بل يعارضون الحق ويؤيدون الباطل وهذا هو الانحراف الكبير والخطير !

٦١ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَكَنتِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ردّ الضلالة عن نفسه ووصفها بأنه يحمل رسالة الله وهو رسوله لينقذهم من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة ، فما هو إنسان خفيف العقل وليس له حجة ومنطق ولكنه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ المائدة/١٦ ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ، قالوا له أنت في (ضلالٍ مُّبِينٍ) فلم يقل لهم (أنتم ضالون) بل تسامى عن الخطأ حتى لا يصير مثلهم ورفق بهم بأسلوب لين هين، عن النبي (ص) (وَمَا دَخَلَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ إِلَّا شَانَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠ ، وإنما أنا أحمل رسالة هادية من رب العالمين ، الرب الذي رباكم وهيء لكم وسائل الحياة فاستقيموا على نهجه ، فإن في الاستقامة السلامة والكرامة بلا ملامة ولا ندامة ولم يقل (لست في ضلالٍ مُّبِينٍ) بل جاء في أسلوب حسن (لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ) نفي أن تختلط به ضلالة ما، وهذا أبلغ من نفي الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة .

٦٢ - ﴿أَلَيْسَ لَكُم مَّرْسَلَاتٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

أَبْلَغُكُمْ ما أرسلني الله به إليكم وهي هداية البشر واستقامته وإسعاده وبث روح التعاون ونشر العمل الصالح وتجسيد الأخوة بين الناس (وَأَنْصَحُ لَكُمْ) النصيح : الإرشاد السليم إلى المصلحة بأسلوب سليم وفكر قويم مع خلوص النية الخالية من المكر والخديعة عن النبي (ص) : (الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ) ، وفي غرر الحكم : (مَا أَحْلَصَ الْمَوَدَّةَ مَنْ لَمْ يَنْصَحْ) ومن هنا نفروا لأنهم لا يحبون

الناصحين وهذا دليل على قسوة قلوبهم من كثرة ذنوبهم وشدة ضلالهم وعنادهم (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) علمه الله علماً كافياً لنجاح دعوته وقدرة للوصول إلى غايته ، وعلمه ما لم يكن يعلم وأرسله ليعلمهم ما يحتاجونه من علم في كلِّ شؤون الدنيا وشؤون العالم الآخر، وأن يكون من الرسل مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بشؤونهم ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلم النبوة مما يعجز البشر عن الوصول إليه لما يحمل من صفات التكامل الإنساني القدوة والقيادة . فائدة :

١- ثلاث مراحل الدعوة والتبليغ إلى الله: ١- التذكير ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥، ٢- النصيحة كهذه الآية، ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران/١١٠ وكلُّ مرحلة لها أصولها في الحديث. ٢- الفرق بين تبليغ الرسالة وتقرير النصيحة: إنَّ تبليغ الرسالة معناه أن يعرف أنواع تكاليف الله وأحكامه، والنصيحة المراد بها الترغيب في الطاعة والتحذير من المعصية والإرشاد بالحسنى إلى ما فيه مصالح الناس.

٦٣ - ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

استفهام إنكاري ، ينكر تعجبهم من رسالة الدين الحق وما يذكر به الله وهو المعارف الحقة . المعنى: (أَوْعَجِبْتُمْ) أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم وإليكم رحمة بكم ، وإنما العجب أن يهملكم ويترككم من غير مرشد (لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) ليخوفكم هذا الرسول من المعاد إلى يوم القيامة وما فيه من العذاب إن لم تؤمنوا ، (وَلِتَتَّقُوا) ربكم ظاهراً وباطناً، فإن (مَنْ إِنْتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ) ، وبذلك تنزل عليكم رحمة الله الواسعة، فلم ينجح معهم أي أسلوب للتغيير. فائدة : (عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) كانوا يرون أنَّ الاشتراك في البشرية يقتضي التساوي في جميع الخصائص، وهذا خطأ فضيع ، لأنَّ التفاوت في القابليات المتنوعة واضحة بين البشر وهذا ما يتميَّز به الإنسان عن الحيوان وبهذا يتميَّز العلماء عن الجهلاء ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر/٩

٦٤ - ﴿كَذَّبُوهُ فَأَجْتَبَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

كذبوا نوحاً مع طول دعوته فيهم وتعدد أساليب الموعظة المؤثرة واختلاف الأوقات ولم ينفعهم الترغيب بالجنة ولا التهيب بالنار مع طول إقامته فيهم ، فأجابه الله والمؤمنين معه في (الْفُلْكِ) السفينة (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) إنتقم الله من قوم نوح في الدنيا قبل الآخرة ، فجعل الأرض تتفجّر بحاراً وكان الطوفان الذي أغرق به جميع الظالمين (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ) عميت قلوبهم عن الحق ولم تعم أبصارهم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ ﴿الحج/٤٦﴾، وأشدُّ العمى عمى القلوب ، وماتت بصيرتهم عن الهدى فهم لا يبصرون الحق ولا يستدوقون الهداية ولا يجنون الاستقامة ، وجمدت عقولهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد ، واستفحل عندهم الهوى وقادهم الشيطان إلى الخسران والخذلان (وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) فبعماهم هذا كذبوا وعاندوا، وبعماهم ساقوا أنفسهم إلى الهلاك، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) .

٦٥ - ﴿وَالِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

الأخ: من ينتسب إلى قوم أو بلدة أو صنعة أو صفة كقول العرب في الأخوة يا أبا العرب. المعنى: وأرسل الله تعالى إلى قوم عاد أخاهم هوداً النبي (ع) وإمّا قال أخاهم لأنه أقرب في النسب والتأثير وأبلغ في الحجة عليهم واختار رسولهم منهم أي من قبيلتهم ليكونوا إليه أسكن وبه آنس، وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن وكانت أمة قوية بدنياً وغبية مالياً وكانت الانحرافات العقائدية والمفاسد الأخلاقية متفشية بينهم (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) قال لهم رسولهم وحدوا الله وإستقيموا على نهجه فليس لكم إله غيره ، وهكذا تشترك جميع الأنبياء (ع) في الدعوة إلى التوحيد (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تخافون عذابه وتتقون أي تتجنبون سخطه إن أقمتم على ما أنتم عليه من الضلال والفساد والشرك فلم يستجيبوا لنداء الفطرة لأنهم لم يستدوقوا الإيمان ولم يعوا التوحيد

٦٦ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ بَمَلَأُونَ الْعْيُونَ هَيْبَةً وَوَجَاهَةً وَهُمْ الْقَادَةُ وَأَصْحَابُ الرِّيَاسَةِ مِنْهُمْ (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) إِنَّا نَرَاكَ فِي (سَفَاهَةٍ) جَهَالَةٍ وَخَفَةِ عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَسَخَافَةٍ عَقْلٍ وَفِكْرٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِي ادِّعَائِكَ النُّبُوَّةَ وَإِنَّا حَامِلُ رِسَالَةِ اللَّهِ ، لاستقرار صفة الوثنية والصنمية فيهم بحيث لا يجرؤ أحد على الاعتراض عليها ، وقد انقلبت عليهم الحقيقة واستحكم عماهم بحيث ذموا نبيهم (ع) بما هم متصفون به ، وهو أبعد الناس عن السفاهة والضلالة عن الحق ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٣ !

٦٧ - ٦٨ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِيَّايَ رَبِّيسْ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي وَإِنَّا لَكُنَّا نَاصِحٌ

أَمِينٌ﴾

فأجابهم بوقار النبوة وبحلم الرسالة من دون أن يفعل أو يغضب أو يعتربه حال اليأس ، يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي نَقْصُ عَقْلٍ كَمَا تَزْعُمُونَ وَلَكِنِّي مَرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ وَالنَّجَاةِ وَأَحْذَرُكُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ ، وَأَنَا الرَّسُولُ الْمُرْشِدُ الرَّشِيدُ السَّدِيدُ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام/١٢٤ مثلها آية (٦١) الأعراف ، وهذا التكرير المناسب يعلمنا أساليب

الدعوة وفنون البلاغ الذي يترك أثره المثلث للمؤمنين والمثبط للفاستدين و (التَّكْرَارُ يُعَلِّمُ الشُّطْرَارَ) ، وأن لا يقابل السفهاء بالكلام القبيح ويترفع أن يكون مثلهم ، فبرد الخطأ بالخطأ ، ويقتصر على نفي ما ينسب إليه (أَبْلَغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، وأنا أمين عام على رسالة ربي لا أكذب في طرحها ، وتتعلم من ذلك أدب الأنبياء وكيف يخاطبون السفهاء ؟ وكيف تتزن شخصياتهم في مواقف الإهتزاز ؟

٦٩ - ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِهِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه وهو أن يبعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم وهو معروف عندكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ويشوقكم إلى ثوابه فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين ولكن فمن فرط الجهالة والغباوة عجبوا من كون رجل رسولاً ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً !! (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) واذكروا نعمة الله عليكم حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان بسبب عصيانهم وأبقاكم لينظر كيف تعملون ، واحذروا من التكذيب حتى لا يصيبكم ما أصابهم (وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً) زاد في أجسامكم قوة وضخامة كانوا يقولون ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت/ ١٥ ، (فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ) اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم واشكروا الله عليها لأنه بالشكر تدوم النعم وتندفع النقم وبذلك تفلحون بخير الدنيا والآخرة . وفي الدعاء عن الإمام السجاد (ع) : (يَا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ لِلشَّاكِرِينَ) الصحيفة السجادية/ دعاء (١١).

٧٠ - ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرْ مَا كَانَ يَدْعُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

أَجِئْتَنَا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده (وَنَذُرْ) أي نترك ونهجر عبادة ما الفناه من الآباء والأجداد وتنبأ منها وهذا تضييع لتراث أسلافنا؟! إنه التقليد الأعمى والجهل المركب فلا منطوق لهم ولا حجة إلا أتباع العقل العربي العام في المجتمع المتخلف وقالوا نحن مع الناس و (حشروا مع الناس عيد)، إنهم تعاملوا مع القضايا الكبرى المصرية باستصغار وعناد وإنكار بلا دليل ولا برهان علمي ، كالأطفال الذين يلعبون بالجوهرة على أثمانها كرهة وقالوا (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك إن كنت من الصادقين في قولك ، وهكذا إستعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق ، إنهم آمنوا العقاب فأساءوا الأدب ، وإنهم آمنوا مكر الله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الاعراف/ ٩٩ ، في غرر الحكم: (مَنْ أَعْظَمَ الْمَكْرَ تَحْسِينُ الشَّرِّ).

٧١ - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّمْتُمُوهَا أَنَّهُمْ وَآبَاؤُهُمْ مَا تَزُكُّ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّظَرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾

قَالَ هود بجواب سريع قَدْ وَقَعَ) وجب وقضى عليكم ربكم (رَجَسٌ وَغَضَبٌ) عقاب وعذاب وطرده من رحمة ، فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك ، وكان عذابهم رجساً ذات صوت شديد وقوة عاتية تغلق الناس من الأرض ثم ترميهم بها صرعى ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ القمر/٢٠ ، قد قلع النخل من منابته وزال من أماكنه (أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أخصمونني في أسماء لأصنام حجرية سميتموها آلهة وهي وهمية لا شيء فيها من الإلهية ما أنزل الله بعبادتها من (سُلْطَانٍ) أي حجة أو برهان ومصاديق يصدق زعمكم بأن الله تعالى رضي أن تكون واسطة بينه وبينكم تعبدونها من دون الله (فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) فلنتظر جميعاً ، انتظروا أنتم إن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم ، وانتظر أن يحل غضب الله وعذابه الأليم جزاء تعنتكم ، وستكشف الأيام من هو الأقرب إلى الصواب ، وسوف يندم الخاطيء وقت لا ينفع الندم . فائدة : (في أسماء) هذا سلوك النفوس المتخلفة والمستكبرة ، تبتدع أسماء وتطلق شعارات فارغة وتطرح نماذج وهمية وتسلك مسالك مشبوهة ثم تعمل على زرعها في نفوس العامة حتى تبلغ مآربها . ٢- (مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) تعبير متكرر في القرآن يوحي بتثبيت حقيقة أصيلة عالية المضامين ، أن كل كلمة أو فتوى أو شرع أو عرف أو تصوّر أو قناعة .. إلخ لم ينزله الله فهو خفيف الوزن قليل التأثير سريع الزوال ، وفطرة الإنسان تتلقى هذا كله في استخفاف، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت وأثرت واستقرت في النفوس المؤمنة، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه وكم من مذاهب ونظريات وأحزاب براءة حشدت لها قوى التزيين والتمكين ، ولكنها تذوب أمام سلطان الله سبحانه بالتدرج ضمن أجلها المرسوم. عن الإمام علي (ع) (مَا لَمْ يُؤَافِقْ مِنَ الْحَدِيثِ الْقُرْآنَ فَهُوَ زُحْرُفٌ) لقوله (زُحْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) الأنعام/١١٢ ، الكافي ١ص ٦٩

٧٢ - ﴿فَأُجْحِبَتَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

وجاء الجواب سريعاً ، فخلصنا هوداً والذين آمنوا معه من العذاب بإخراجنا إياهم من بينهم قبل نزول العذاب بهم (بِرَحْمَةٍ مِنَّا) فإن الله برحمته هداهم للإيمان فاستدقوه ، وجعل إيمانهم العملي سبباً ينالون به رحمة الله فأناجهم برحمته لذلك لا ينجي عمل من دون رحمة حتى الأنبياء (ع) (وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا) واستأصلنا الذين كذبوا بآياتنا فلم يبق لهم نسل ولم تبق منهم باقية ، والدابر هو آخر واحد في الركب ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ الذاريات/٤١-٤٢ ، (وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ) ولن يكونوا أبداً من المؤمنين ، أصروا على الكفر والتكذيب وعمل الموبقات فاستحقوا تطهير الأرض من شرهم !

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ كَفَرَ الْأَعْرَابَ لَئِنَّ اللَّهَ لَإِنَّ يَكْتُبُ فِيكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

موقف ثالث يضربه القرآن على الحقيقة التي يريد تقريرها وهي الصراع بين الكفر والإيمان ، والنداء الموحد للأنبياء والموقف الموحد للمكذبين وعاقبة الصراع الواحدة . المعنى : هذا قوم ثمود إذ يُبعث لهم أخوهم صالح ليقول لهم ما قاله نوح وهود من قبل، (وتمود قوم من العرب سكنوا منطقة جبلية بين الحجاز والشام) وليستدل على صدق نبوته بحجة خارقة إلهية واضحة ومعجزة حسية يصعب تكذيبها (قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ) هذه ناقة الله شريفة وفاضلة معجزتي إليكم كما اقترحتم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم كما يقال بيت الله، لأنها خلقت بغير واسطة بطريقة خارقة غير مألوفة وغير معروفة لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها. وإن قوم صالح سألوه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة وأنه سأل ربه ذلك فتمخضت الصخرة كالمرأة يأخذها الطلق فولدت ناقة وهي الجمل، وأنتم تشاهدون خروجها بحسب الصفات التي طلبتموها ذات مميزات خاصة (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) اتركوها وشأنها تأكل من رزق الله ﴿لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ الشعراء/١٥٥، (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولا تتعرضوا لها بشيء من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله وفيها امتحان الله ، وحذرهم من سوء العاقبة أن اعتراضوها بأذى فيعذبهم الله عذاباً أليماً، لأنهم يغلقون باب الهداية على الناس بإطفاء معجزة صالح الدالة على صدق نبوته .

٧٤ - ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

أهلك الله عاداً بالريح العقيم بكثرة ذنوبهم وجبروتهم وأورث ثمود أرضهم وديارهم فذكرهم صالح بنعمة هذا الإرث الذي وهبه الله لهم (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا) : أسكنكم مكنكم الله في استثمار الأرض حيث تشاؤون وتستفيدون من مناطقها السهلة لبناء قصوركم العالية الزاهية (وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) إنهم كانوا يسكنون بيوتهم المحصنة الفخمة المنحوتة من الجبال في أثناء الشتاء لما لها من القوة فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل إنهم في حضارة عمرانية وعيشة هنية وصناعة وزراعة ورفاهية (فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) آلاء : نعم ، تذكروا هذه النعم الكثيرة ولا تبطروكم النعمة وتلهيكم الزينة عن الله وعبادته وشكره فبشكر الله تدوم النعم وتدفع النقم ، ولا تعتوا وتسعوا فساداً شديداً ومبالغاً في الأرض ، وأعظم الفساد الاعتداء على حقوق الناس وكبت حرياتهم وسرقة خيراتهم ونشر الفتن والفوضى الخلاقة بينهم وإثارة الحرب وبث روح الكراهية بينهم

، أي قابلوا النعم بالشكر وليس بالكفر، لا تلهيكم الزينة عن الله صاحب النعمة والفضل، **والعبي**: أشد الفساد الذي يدرك بالحواس لضرره وكثرته وسرعة إنتشاره ، أي لا تتخذوا الفساد طريقاً ونهجاً .

٧٥ - ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

وقال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح (ع) (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ) إنه سؤال سخرية في أسلوب استنكار وتهديد وزرع شبهات وزعزعة الإيمان من نفوس من آمن ، أجابوهم أن الله أرسله إلينا وإليكم (قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) مؤمنون مصدقون عن علم ويقين من رسالة صالح ولم يخافوهم في التهديد والوعيد ، لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم والثقة في نفوسهم أنهم على يقين إذ أمر رسالته معلوم لا يدخله ريب ولا ينفع معه تهديد ولا تكذيب الملاء ، لما أتى به من هذا المعجز الخارق وهي ناقة الله الفاضلة فلا يحتاج إلى زيادة بيان . **فائدة** : (اسْتَضَعُّوا) المستضعف من أصابه الضعف بسبب ظلم الظالمين ، سواء أكان الاستضعاف ثقافياً أو بدنياً أو إقتصادياً .. إلخ ولا يعني الاستضعاف الفقر ، وفي اللغة المعاصرة الطبقة المستكبرة المستغلة للطبقة المستضعفة المستغلة ، وصف السياق القرآني الملاء والرؤساء بالمستكبرين المستغلين ، ووصف الجماهير الكادحة المؤمنة بالمستضعفين المستغلين .

٧٦ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

على الرغم من البيّنات الواضحات أصروا على الكفر ، والذي لا ينفعه الإيمان يضره الكفر ، نستنتج من ذلك أن الاستكبار يتولد من الترف وكثرة المال والجاه وحب الدنيا والعناد والجهل في أمور الآخرة .. هي التي حملتهم على الكفر وأخذتهم العزة بالإثم ، قالوا (إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) ولم يقولوا (إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ صَالِحًا كَافِرُونَ) لأن ذلك يتضمّن إثبات الرسالة ، فلو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكباراً وعناداً إظهاراً لمخالفتهم لصالح ومعجزته كقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/ ١٤ .

٧٧ - ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

وأخيراً سؤلت لهم أنفسهم أن يتحدّوا الله تعالى ويتحدّوا صالحاً ويتحدّوا الوعد والوعيد ، إنّه التبجح الذي يصاحب المعصية ويعبر عن عصيانهم بالعنوا لإبراز صفة التبجح والغرور ، عن الإمام السجاد (ع): (إِيَّاكَ وَالْإِيْتِهَاجُ بِالذَّنْبِ فَإِنَّ الْإِيْتِهَاجُ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ رُكُوبِهِ) البحار ١٥٩/٧٨ **فَعَقَرُوا** : أي نحرّوا الناقة وضربوا قوائمها بالسيف مع تحذيرهم بالعذاب ! وتعدّوا الحدود وأسأوا الأدب واستكبروا (وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) تمردوا وتعالوا عن إمتثال أمر الله وأمنوا مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ

مَكَرَ اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ الأعراف/٩٩ ، (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) إن كنت نبياً فجتنا ما كنت تعدنا من العذاب وسوء العاقبة قالوا ذلك استهزاء به مع العلم أن صالحاً كان ذا جاهٍ في قومه كقوله ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ هود/٦٢ ، فلما دعاهم إلى الله تغيّرت نظرهم إليه وساءت حاله عندهم ! وهكذا الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه ، وهكذا المستكبرون يستخدمون القوة لغرض سلطتهم فتقلب عندهم المقاييس فتأخذهم العزة بالإثم ويجهلون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧ ، لماذا سألوهم أن تعجل بعذابهم؟ والجواب : في فتح البلاغة حكم ٣١: (مَنْ كَثُرَ نَزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَمَنْ زَاعَ (إِنْخَرَفَ) سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ، وَسَكَرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ) . فائدة : (فَعَقَرُوا) : العقر لغة هو قطع عرقوب البعير أي رجله ، وقد سَمَوُ الناحر يعقر البعير أي يقطع أرجله أولاً ليسهل نحره .

٧٨ - ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

(فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ) أي صيحة وصاعقة من السماء وزلزلة شديدة فقطعت قلوبهم ودمرتهم تدميراً (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هامدين خامدين وهلكوا ساقطين على وجوههم وركبهم ، ولم يمهلهم الله إلى يوم يبعثون ، فتحول الكبر إلى ذل ، والتحدي إلى خوف وهلاك ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة/٢٢ ، وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ، عن الإمام علي (ع) : (صُنْ دِينَكَ بِدُنْيَاكَ تَرْجَحُهُمَا ، وَلَا تَصُنْ دُنْيَاكَ بِدِينِكَ فَتَحْسِرُهُمَا) مستدرك الوسائل ٢/٣٢٥ . فائدة : ١- الرجفة والجثوم جزاء مقابل للعتو والتبجح ، والجزاء من جنس العمل ، والعقوبة على قدر الجناية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هود/١٠١ . ٢- اتفق القوم على رجل شقي (من الشقاء) وذو عزة ومنعة في قومه ليعقر الناقة ! ورضوا به وصاروا كأنهم فعلوه جميعاً ، والذي قتل الناقة رجلاً واحداً ولكن جاء السياق بالجمع (فعقروا) وفي ذلك تحويل وتفطيع لأمرهم ، وأن أضراره ستصيبهم جميعاً ويعاقب عليه الجميع كقوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال/٢٥ ، عن الإمام علي (ع) : (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ، شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٧٥/٣١٢ وأيضاً الساكت عنه والحاضن له كلهم شركاء في الظلم .

٧٩ - ﴿قَتَلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ﴾

لما رأى صالح ما حلَّ بقومه من عذاب الاستئصال ، أدبر عنهم وابتعد حزيناً ولسان حاله يقوم هذا الذي جلبوه على أنفسهم بالتكبر والعتو نتيجة الجهل والغرور والعداوة والانغماس في الشهوات المحرمة، لذلك جاء لفظ التولي بمعنى الاعراض إشارة إلى أنه أعطاهم ظهره غير آسفٍ

عليهم بعد أن عزى نفسه هذا العزاء ثم مضى في طريقه (وَنَصَحْتُ لَكُمْ) ، عن النبي (ص) : (إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ مَنَزَلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْشَاهُمْ فِي أَرْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِحَلْقِهِ) أصول الكافي ٢/٢٠٨ ، في غرر الحكم: (مَا أَحْلَصَ الْمَوَدَّةَ مَنْ لَمْ يَنْصَحْ) ، (وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) ولكن فضلتم الغش على النصح وفضلتم بعض الناصحين وعداوتهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فصلت/١٧ ، في غرر الحكم: (لَا تَنْصَحْ بِمَنْ فَاتَهُ الْعَقْلُ وَلَا تَتَّقِ بِمَنْ حَانَهُ الْأَصْلُ ، فَإِنَّ مَنْ فَاتَهُ الْعَقْلُ يَعْشُ مِنْ حَيْثُ يَنْصَحُ ، وَمَنْ حَانَهُ الْأَصْلُ يُفْسِدُ مِنْ حَيْثُ يُصْلِحُ) ، عن النبي (ص): (يَا عَلِيُّ أَشَقَى الْأَوْلِيَيْنِ عَاقِرٌ نَاقَةٌ صَالِحٌ ، وَأَشَقَى الْأَخْرَيْنِ قَاتِلُكَ) روح البيان ٣/١٩٥ .

٨٠ - ٨١ ﴿وَلَوْ أَنِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بل أنتم قوم مسرفون ﴿

وإذ ذكر لوطاً (ع) حين قال لقومه موبخاً لهم ومستنكراً ، أنفعلون (الْفَاحِشَةَ) تلك الفعل الشنيعة الفضيحة القذرة المخالفة للفطرة المتناهية في القبح والشناعة وهي من الذنوب الكبيرة (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) ما عملها أحد قبلكم في أي زمان وهي من مبتدعاتكم في مبالغة الفساد، فإن اللواط اعتداء على حقوق المرأة في المجتمع والاستهانة بحقوق الرجل ، فإنها سنة سيئة فعليكم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، والذي لا تنفعه الفضائل تضره الرذائل . (إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) إنكم تقصدون الرجال في أدبارهم شهوة منكم ، فهو فعل خبيث لا يفعله إلا الخبيث ، وهو مكروه وعمل شاذٌ وغريب على الطبع البشري وحرمه الله أشد التحريم وهو من الكبائر سواء أكان إتيان الأدبار من الرجال أو من النساء ، والاقبال على الأدبار غاية ما يكون في الشناعة والقباحة وهو مكان تخرج منه النجاسات والخبائث الضارة التي يستحي من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقرحها ، ويسمى بالشذوذ الجنسي والفساد الفطري والأخلاقي (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) متجاوزون للحدود المعقولة والمنقولة والمألوفة ، متجاوزون في كل شيء متجرئون على أحكام الله ومحارمه .

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، فائدة : ١- (شَهْوَةٌ) وصف لهم بالبهيمية الصرفة ، فهم أخس من سائر الحيوانات التي لا تشد ولا تنحرف في تناسلها ، ألا ترى أنّ الطيور تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش وتبنيه للإنسان العاقل المكرّم أن تكون الشهوة وسيلة شريفة لغاية نبيلة لطلب الولد ، وقضاء الشهوة من أجل التناسل وليست أريدت الشهوة لذاتها ولذاتها وإنما أريدت لغيرها لشيء أهم منها ، فتكون الشهوة وسيلة نبيلة لغاية شريفة ، لذلك قدّم (الشَهْوَةَ) على العقل وعلى الإستمتاع وعلى السكن والسكينة وعلى المبادئ والأعراف والأخلاق والقيم لذلك (إِذَا كَبُرَتْ الشَّهْوَةُ صَغُرَ الْعَقْلُ ، وَإِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَغُرَتْ

الشَّهْوَةُ) في غرر الحكم: (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتْ الشَّهْوَةُ) ولا يقرب هذه الفاحشة إلا الشاذون عن طبيعة الإنسان السوي ، القذرون في تصرفاتهم المضطربون نفسياً ، ولكن لو كان فيهم شيء من الفضيلة لتركوها . ٢- اللواط حالة رذيلة وخطيرة شاذة عن الطبيعة البشرية فإنها تحرب النسيج الاجتماعي وهي حالة قذرة أبتليت بها الجاهليات المختلفة ومنها الجاهلية الغربية الحديثة وكل الجاهليات المعاصرة ، إنهم شرعوا قانون رسمي بالزواج المثلي ، الرجال بالرجال والنساء بالنساء ! وهو أمر حاربه وحرّمته الأديان السماوية كلها بشدة . ٣- عن الإمام الرضا (ع): في علة تحريم الذكران للذكران والإناث للإناث (لِمَا رَكَّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طَبَعَ عَلَيْهِ الذُّكْرَانِ ، وَلِمَا فِي إِيْتِيَانِ الذُّكْرَانِ لِلذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ مِنْ انْقِطَاعِ النَّسْلِ وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ وَخَرَابِ الدُّنْيَا) كنز الدقائق ٣/٥٣٨ ، وخراب النفوس وخراب الطبائع النبيلة وسقوط العقّة والقيم والمبادئ والأخلاق ، سئل الإمام علي (ع) : (أن يؤتى النساء في أدبارهن ؟ فقال سَفَلَتْ سَفَلَ اللَّهُ بِكَ أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ..) الكافي ٥/٥٤٤ وعن النبي (ص) : (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمٍ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ !) الترغيب والترهيب ٣/٢٨٨ . ٤- والدعوة إلى اللواط في الوقت الحاضر يقودها اليهود لتدمير الحياة الإنسانية العفيفة الشريفة، لغير اليهود بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي ونشر الأفلام الخلاعية والجنسية المفززة ، وكلما انتشر اللواط انتشر بالمقابل السحاق بين النساء!

في الحديث: (سُحَاقُ النِّسَاءِ زِنَى بَيْنَهُنَّ). ٥- ميولهم إلى اللواط جعلهم يمارسون أقبح الأعمال كالقمار وبذاءة الحديث والإعتداء على الآخرين ، والتحرش الجنسي بالمارة ، وكانوا يكشفون عوراتهم في الطرقات والمجالس العامة ، وهذا من الذنوب الكبيرة والخطيرة والمريرة ، والإيتيان في دبر الذكر هو اللواط الكبرى، وفي دبر المرأة هو اللواط الصغرى وفي الحديث : (مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى الْمَرْأَةَ فِي دُبُرِهَا) روح البيان ٣/١٩٨ ، عن الإمام الصادق (ع) (فما كان من شيعتنا .. فلا يكون فيهم من يؤتى في دُبُرِهِ) الخصال ج ١-٢ ص ١٣١ ، وكنز الدقائق ٣/٥٤٠ .

٨٢ - ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَرُونَ﴾

وما كان جواب قومه القذرين إلى نبيهم المعصوم (ع) إذ ونجهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من (قَرْيَتِكُمْ) أي مدينتكم وبلدتكم لأنهم أَنَاسٌ (يَبْطَرُونَ) يطلبون الطهارة من الفواحش أي يتزهون عن اللواط ويتقذرون عن إيتيان الأدبار من الرجال والنساء، فلا سبيل إلى معاشرتهم لما بينهم وبيننا من فوارق في الصفات والقناعات والأخلاق وهم يقولونها بسخرية واستهزاء بلوط وأتباعه ، وعابوهم بما يمدح به الإنسان ، أجل إن الطهر والعفاف جريمة عند العاهر الفاجر والأمانة جريمة عند العميل الخائن ، إنهم شاذون قذرون حتى في سلوكهم النفسي وأسلوبهم الكلامي، إن دعوة الطهارة والترفع عن الشذوذ يعتبر عملاً

إجرامياً يعاقب عليه بالنفي من البلاد والعباد ! ومن هنا نعرف مدى الانحراف الذي أصابهم ، فانقلبت عندهم المقاييس الصحيحة، واختلت عندهم الرؤية لكثرة انغماسهم في الذنوب فحالت بينهم وبين الاستجابة للطهر والعفاف والنقاء ، بل يدفعهم إلى الخبث ومحاربة التطهير ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مجد/٢٥ ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ .
 فائدة : (يَتَطَهَّرُونَ) يترفعون عن اللواط والسحاق إذ كان شائعاً بين نسائهم كما كان اللواط شائعاً بين رجالهم ، يا عجباً من يتطهر يخرج من القرية إخراجاً بالقوة ، ليبقى فيها الشادون المدنسون؟! وهكذا تصنع الجاهلية الحديثة الخبيثة التي تطارد الذين يتطهرون ولا تطيق ان تراهم يتعففون لأنها لا ترحب إلا بالملوثين كقوله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج/٨ ، وهكذا الذي يالف المنكر مهما كان خبيثاً ويعتاد عليه ويمارسه مدة طويلة في حياته فيكون جزءاً لا يتجزأ من عاداته وقناعاته ، فتقلب عنده الموازين والمعايير المستقيمة فيرى المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، بل ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر !! كقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/٨ . في الحديث (سُحَّاقُ النِّسَاءِ زَنَى بَيْنَهُنَّ) روح البيان ٣/١٩٨ .

٨٣ - ﴿فَالْغَابِرِينَ وَالْأَهْلَةَ إِلَّا أُمَّرَأَةً كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

الْغَابِرِينَ : الباقين في الهلاك . المراد بأهله خاصته وهنا جاء بمعنى الأتباع الخالص الذين ينسبون إليه ، من كان معه من المؤمنين سواء أكان رحماً أم من غير رحم . امرأة لوط (ع) وحدها من بين أهله التي هلكت مع الهالكين ولم يصحبها معه حين سرى بأهله بقطع من الليل فراراً من العذاب المنزل الفوري فإنها كانت منافقة متآمرة على زوجها متعاونة مع الفاسقين كافرة بالله ، لرضاها بفعلهم الشاذ وإعانتها لهم على زوجها (مَنْ رَضِيَ بِفَعْلِ قَوْمٍ أُشْرِكُ فِي عَمَلِهِمْ) فهي خاتنه في العقيدة ولم تخنه في الزوجية ، لم تنتفع إمرأته الخسيسة مع صحبتها النفيسة مع زوجها النبي الداعية (ع) ولم تستفد من علمه ولم تتأثر بتقواه ، وتأثرت بالفاسدين ، والذي لم تنفعه الهداية تضرّه الضلالة ، ومن لم يكن له من نفسه واعظ لا تنفعه المواعظ ولم يكن له من الله حافظ ، بينما امرأة فرعون المؤمنة لم تتأثر بكفره وإنما تأثرت بدعوة موسى (ع) ودافعت عنه وتعلقت برحما وماتت شهيدة في سبيله وأصبحت من خيرة النساء وأفضل من كثير من الرجال ، ويضرب بها الأمثال كقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ التحريم/١٠ . فائدة : ١- قال (مِنَ الْغَابِرِينَ) ولم يقل (من الغابرات) لغلبة الهالكين من الرجال على النساء وشمل الهلاك الفتتين . ٢- (إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ) رابطة العقيدة أهم بكثير من رابطة النسب والقرابة ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ الطور/٢١ . عن النبي

(ص) (إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شَهْدَهَا فَأَنْكَرَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَّتَهَا كَانَ كَمَنْ شَهَدَهَا) كنز العمال خير ٥٥٣٧

٨٤ - ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

وشبه العذاب بالمطر لكثرة وفضاعته وغرابته وإنتقامه ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا السوء مطراً منكراً من نوع غريب غير مألوف وغير معروف ، مطر الهلاك إنه مطر الحجارة وليست كبقية الحجارة إنها حجارة انتقام ، الحجارة المدربة الحارة الشديدة الحارقة الرهيبة المرعبة حجارة من سجيل صغيرة الحجم ثقيلة الوزن ، قلبت المدينة وما فيها ظهراً لبطن، وجعل الله عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧ ، وإنها حجارة منضودة أي مهيأة لهم وهي مسومة أي معلمة يعرف كل حجر في أي مكان يقع عليه والأثر الذي يحدثه لتطهير الأرض من رجسهم وقذارتهم (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) إنه عقاب الأمم على كبائرها في الدنيا قبل الآخرة، و الله سُبْحَانَهُ أَمْهَلْ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلْ، وَسَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ غَفْرٌ ، وَأَنْدَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرٌ و(الَّذِي لَا يَتَعَطُّ بِالْمَاضِينَ كَانَ عِبْرَةً لِّلْبَاقِينَ) وَأَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِّلنَّاسِ . وسنن الله مستمرة في الأرض ويكون العقاب على قدر الذنب ، وهذه الأمراض الفتاكة كالإيدز والكآبة وغيره عقوبة لكبائر الذنوب .

٨٥ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأُخْبِرُوا أَنَّكُمْ كَانْتُمْ كَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأُخْبِرُوا أَنَّكُمْ كَانْتُمْ كَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ﴾

مشهد آخر من مشاهد حركة التاريخ في الدعوة الأصيلة إلى الله تعالى ، أهل مدين عرب من مدن أطراف الشام وكان أهلها أهل تجارة وترف وانتشرت فيهم الوثنية ، وكذا الحيلة والتطيف في المكيال والميزان والبخس في المعاملات التجارية ، أما شعيب النبي (ع) كان يقال له خطيب الأنبياء لجمال خطابه وبداعة أسلوبه (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وهم أصحاب الآيكة كما في سورة الشعراء/١٧٦ ، وكان يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وعدم الشرك، وهي دعوة أساسية لكل الأنبياء ، وهي روح ومنطلق النظام الإلهي وهي تبني عليها جميع الأحكام (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)

وجاءت (بَيِّنَةٌ) نكرة لفخامتها وعظمتها ولم يصحح بها كما لم يذكر أكثر معجزات نبينا (ص) وهي معجزة ظاهرة تدل على صدق رسالتي لم يذكر السياق نوع هذه البينة ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصّة في السور الأخرى ، ولكن النصّ يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله ، ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به فقال : (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ، وكانوا يسيئون

المعاملة مع الناس في البيع والشراء وكان ذلك مألوفاً عندهم متفشياً بينهم (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) البخس : نقص الحقوق . قال (أَشْيَاءُهُمْ) ولم يقل (حقوقهم) لأن الشيء أقل من الحق، فإذا كان النهي عن بخس الأشياء فمعنى ذلك أنّ النهي عن بخس الحقوق أولى ، أي لا تظلموا الناس حقوقهم المادية والمعنوية ولا تنقصوهم إياها وأعطوا لكل ذي حق حقه ، وهذا الداء هو داء العصر الحديث أيضاً (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) فالله قد أصلحها في بعثة الرسل ، والفطرة الإنسانية تدعو إلى إصلاحها وبذلك ينتظم أمر الحياة السعيدة ، والإفساد: يشمل كافة المعاصي في الأقوال والأفعال ومع الله ومع النفس ومع الناس ، ويخص الإفساد هنا سلب الأمن العام من المجتمع وسلب الطمأنينة من النفس بالإعتداء على الأموال والأعراض والحقوق (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) فالحياة الاجتماعية تتقدم حضارياً إذا حققوا الأمن والإصلاح فمن يجوز لنفسه أن يخس غيره يجوز لغيره أن يخسه ، فما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في النفوس وفي كل الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين قولي ، وكل ما فيه الخير والصلاح للفرد والمجتمع يؤيده شرع الله كقوله ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ النحل/٣٠ ، في غرر الحكم: (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) وكل ما فيه شر وضر فيحرمه دين الله ﴿وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الأعراف/١٥٧، (شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَضَرَ بِالنَّاسِ) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ التوبة/٩، عن الإمام علي (ع): (لَا حَيَاةَ إِلَّا بِالدِّينِ) الإرشاد للمفيد ص١٥٧، في غرر الحكم: (مَا نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَأَعْنَى عَنْهُ).

٨٦ - ﴿وَلَا تَعْدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِغْوَيْهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

تُوعِدُونَ : تتوعدون وتهددون المؤمنين ، تَصُدُّونَ : تمنعون الناس من المشاركة في العبادات. (المعنى) ولا تجلسوا بكل طريق تحوِّفون المؤمنين بالقتل ، (وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ) كانوا يقعدون على الطرقات المؤدية إلى شعيب فيتوعدون من أراد الحجى إليه ويصدونه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه ، كما فعلت قريش مع النبي محمد (ص) (وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا) تريدون أن تكون السبيل إلى الله معوجة غير مستقيمة وغير ميسرة ومملوءة بالعراقيل والمخاوف والمشاكل فيتركوه إلى سبل الغواية والضلال والفساد ، كما يقول الضالون في عصرنا الحاضر (هذا الدين لا يتماشى مع العصر) لأنه يخالف أهواءهم فيبدلون أنواع القدرة والقوة لقطع الطريق على المؤمنين بكل حيلة ووسيلة بالترغيب والترهيب من إلقاء الشبهات وبالتهديد والوعيد الشديدين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال/٣٠، (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ) واذكروا نعمة الله عليكم ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥ ، إذ كنتم فقراء فجعلكم أغنياء وكنتم ضعفاء فجعلكم أقوىاء وكنتم قليلون فجعلكم كثيرين فوجبت عليكم طاعة

الله وشكره (وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) انظروا وتفكروا ما حلّ بالأمم الماضية حين أصروا على الفسق والفجور كيف انتقم الله منهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ المائدة/٩٥ ، واعتبروا بهم (وَالَّذِي لَا يَتَعَبَّطُ بِالْمَاضِينَ كَانَ عِبرَةً لِلْبَاقِينَ) ، عن الإمام الباقر (ع) : (أَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعَيْبِ (ع) أَبِي مَعْدَبٍ مِنْ قَوْمِكَ مِائَةَ أَلْفٍ ، أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ وَسِتُّونَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ فَقَالَ (ع) : يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ فَمَا بَأَلِ الْأَحْيَارِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ لِأَنَّهُمْ ذَاهِنُونَ أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَعْصِبُوا لِعَظَمِي) البحار/١٢/٣٨٦ ، كقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام/٨٢ ، وَمَنْ ظَلَمَ فِي الدُّنْيَا، سَيَلْقَى ظُلْمَاتٍ فِي الْآخِرَةِ بِقَدْرِ ظُلْمِهِ.

٨٧ - ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (ع) جماعة وصدقوه برسالته وكفر به آخرون ولم يصدقوه (فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) فاصبروا ومن صبر ظفر حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، إذ لا جور في حكمه ، دعاهم إلى موقف عادل هو موقف الانتظار المتبادل حتى يحكم الله ، فدعا شعيب الجميع إلى الإخاء والعيش المشترك بسلام وأن تترك كل طائفة وشأنها ولا يتعرض أحد لأحد بأذى ، سواء اختار الكفر أو الإيمان بالله ثم يتبين حكم الله في الطائفتين بعد ذلك ، وهذا من أحسن الأقوال والأفعال في آداب المحاوراة (أَنْ تَبْدَأَ مَعَهُ مِنْ حَيْثُ يُحِبُّ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ مِنْ حَيْثُ تُحِبُّ) .

الجزء التاسع من القرآن الكريم

٨٨ - ﴿قَالَ أَمْلَأِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾

عندما دعا شعيب الكافرين والمستكبرين من قومه إلى الإيمان بالله ورسله (لِنُخْرِجَكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وجاء قرارهم بإصرار سافر لا يقبل المهادنة والتعايش المشترك ! عندما دعا شعيب (الملا من قومه الذين يملؤون العيون مهابة وهم الرؤساء) بالحل الوسط (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) الكافرون/٦ ، وهي دعوة إلى المسالمة والتعايش الإنساني المشترك الآمن وأن تكون الحرية لكل جماعة أو فرد في اختيار دينه ونموذج حياته غير أن المترفين والرؤساء رفضوا الدعوة الوسط وخيروه بين أمرين أحلاهما مر ، إما أن ينضم إليهم في تقاليدهم الجاهلية الضالة وإما أن يخرج من بلدهم مع الذين آمنوا معه مشردين ، ولم يراعوا إلا ولا ذمة ولا حقاً ولا إنسانية وإنما راعوا أهواءهم لكبرياتهم واستعلائهم واستبدادهم ، (قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) الاستهفام للإنكار والتعجب وهو درس بليغ في أسلوب الدعوة والإرشاد في القرآن ، لماذا هذا الضغط والإرهاب ؟ وهل تقبلونه لأنفسكم وتتخلون عن حريرتكم في الرأي والتعبير ، إن أحاسيسه تكره حياة الكفر والضلال إنما ظلمات الجهالة وحيرة الضلالة ، إنه عاهد ربه على الإيمان بدينه وأي إعراض عن هذا العهد يعني التكذيب يعني ترك الدين، عن الإمام علي (ع) : (لَا حَيَاةَ إِلَّا

بِالِدِّينِ) البحار ٧٧/٤١٨ ، وَإِنَّ حَبَّ الْوَطْنِ لَا يَبْلُغُ مَنْزِلَةَ حَبِّ الدِّينِ وَإِنَّا لَا نُوَثِّرُ حَبَّ الْوَطْنِ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ تَمَكُّنَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي وَطْنِهِ وَإِصْلَاحَ أَهْلِهِ وَمَعَاشَهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ ، وَإِنْ فُتِنَ فِي دِينِهِ فِي وَطْنِهِ وَتَعَرَّضَ لِلضَّرْرِ كَانَ تَرْكُهُ وَاجِباً عَلَيْهِ كَمَا خَرَجَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ (ص) وَكَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ (ع) ، فَلَيْسَ بَلَدٌ أَحَقُّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ خَيْرِ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَشَرُّ الْبِلَادِ مَا تَهَانَ بِهِ كِرَامَةَ الْإِنْسَانَ ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ ! (أُولُو كِنَا كَارِهِينَ) بهذا الموقف الثابت تتجلى طبيعة الإيمان ومنهجه المستقيم ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومنهجها الطاغوتي الكريه ، إثمها طبيعتان متضادتان متنافرتان لا تلتقيان في كلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَا فِي الْوَسَائِلِ وَلَا فِي الْأَهْدَافِ . فِي غُرِّ الْحِكْمِ: (الْحُرُّ حُرٌّ وَلَوْ مَسَّهُ الضَّرُّ ، وَالْعَبْدُ عَبْدٌ وَإِنْ سَاعَدَهُ الْقُدْرُ) ، وَفِيهِ أَيْضاً: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحُرِّيَّةِ أَهْلٌ لِلْعُنُقِ ، وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَحْكَامِ الْحُرِّيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ) .

٨٩- ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِكُمْ أَنْ نَبْعُدَ اللَّهَ حُرُوبًا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾
 (قَدْ افْتَرَيْنَا) أي اختلفنا على الله كذباً عن وعي وشعور (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ) إلى دينكم المشبوه ، إِنْ عُدْنَا إِلَى عَادَتِكُمْ وَتَقَالِيدِكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَقْمُوتَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَنَا اللَّهُ مِنْهَا بِالْإِيمَانِ وَبَصَّرَنَا بِالْهُدَى بِتَوْفِيقِهِ ، لَاحِظُوا الْاسْلُوبَ النَّاعِمَ اللَّيِّنَ أَمَامَ مَلَأِ الْقَوْمِ وَرُؤُسَائِهِمْ فَإِنَّ الْاسْلُوبَ اللَّيِّنَ يَفْتَحُ مَسَامِعَ الْقُلُوبِ وَيُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ بِمَعْنَى أَنَّهَا الْارْتِدَادُ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْوَرَاءِ وَلَا أَعْظَمُ إِثْمًا مِمَّنْ جَعَلَ اللَّهُ شَرِيكًا ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣ ، وَهَذَا تَيْمِيسٌ لِلْكَفَّارِ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى دِينِهِمْ ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كَتَرَ الْعَمَالَ خَبْر ٤٣٥٨٨ ، وَقَوْمٌ طَعَاةٌ قَسَاةٌ (وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رِئْسًا) وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى مِلَّتِكُمْ وَعَادَاتِكُمْ إِلَّا إِذَا شَاءَ اللَّهُ رِئْسًا لَنَا الْإِنْتِكَاسُ وَالْخِذْلَانُ فِيمُضِي فِينَا قِضَاؤُهُ ، وَاللَّهُ أَجْلٌ وَأَعْظَمُ مَنْ أَنْ يَشَاءَ الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ وَكَيْفَ وَقَدْ نَهَى عَنْهُ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ؟ وَيَسْمَى هَذَا تَعْلِيقٌ مَا لَا يَكُونُ عَلَى مَا لَا يَكُونُ أَوْ يَسْمَى (فَرْضُ الْمَحَالِ لَيْسَ بِمَحَالٍ) ، (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَيَعْلَمُ مَا يَصْلِحُ أَمْرَنَا وَنَحْنُ نَطِيعُهُ وَلَا نَعْصِيهِ (عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) اعْتَمَدْنَا عَلَى اللَّهِ لِيَصُونَنا مِنْ شَرِّ مَا نَخَافُ وَيَثْبِتْنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَيَعْصِمُنَا مِنَ الزَّلْزَلِ وَيَسَدِّدُنَا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَّاهُ وَمَنْ إِنْتَقَى اللَّهَ وَقَّاهُ).

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) افْتَحْ : أَحْكَمْ ، فَقَدْ يَيْسُنَا مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ رَبَّنَا افْتَحْ هَذِهِ الْعَقْدَةُ فِي مَشْكَالَةِ الطَّرِيفِينَ وَهَذَا سَوْأَلٌ مِنْ شَعِيبٍ عَلَى هَيْئَةِ دَعَاءٍ وَانْقِطَاعٍ وَرُجَاءٍ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا جُورَ فِيهِ وَلَا ظُلْمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ ، إِنَّكَ تَذَلُّ مَلُوكًا وَتَسْتَخْلِفُ آخِرِينَ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْأَمْرِ بِالْعِلْمِ لَكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق/٣ .

فائدة : (وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا) تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والاستقامة على منهج الله مهما عظمت وشقت أقلُّ وأهونُ من تكاليف العبودية للطواغيت ، لأنَّ تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ولو على المدى البعيد ، وإن كان مقدّمته السلامة على الحياة والمقام والرزق ، إنّ عبادة الطواغيت ظاهرها يسرُّ وباطنها يضُرُّ ، فهي خسارة في النفس والعرض والمال ثم خسارة الآخرة وهي أكبر خسارة ومهما تكن تكاليف العبودية لله تعالى فهي أربح وأسهل من جميع الوجوه وأقوم في الحياة وأثبت للنفس وأفضل في ميزان المؤمنين وميزان الله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة/٥٠

٩٠ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنَّاتُ شَعْبًا أَنْكُمُ إِذَا الْخَاسِرُونَ﴾

قال الملأ الذين يملؤون العيون هيبة وهم رؤساء القوم المستكبرين والفجرة مهددين شعبياً ولما يسوا منه هددوا أتباعه المؤمنين فقالوا إذا تبعتم شعبياً وأجبتموه إلى الاستقامة على منهجه (إِنَّكُمْ إِذَا الْخَاسِرُونَ) (الْخَاسِرُونَ) عمّموا الخسران ليشمل مصادرة كلِّ شيء ، ففي دنياكم خسارة مادية كاملاً والوطن ، وخسارة معنوية كالجاه والعشيرة ، وَالَّذِي لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْغَوَايَةُ، عن الإمام علي (ع): (إِنَّ مِنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، والذي لا ينفعه اليقين يضره الشك) البحار ٢٩٣/٧٧، وهكذا تقلب الضلالة الموازين الصحيحة على أصحابها ، فيفسروا الرقي والتكامل والهداية والاستقامة تفسيراً عكسياً على أنه خسارة ليصدوا المؤمنين عن الحق ! وهكذا المرء يصنع مستقبله بنفسه ، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ، وهكذا تختلف مقاييس الخسران بين المؤمنين والكافرين ، بل تختلف المقاييس بينهما في أغلب الأشياء .

٩١ - ٩٢ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَأَنْ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَأَنَّهُمْ الْخَاسِرِينَ﴾

فَأَخَذَتْهُمُ (الرَّجْفَةُ) الزلزلة العظيمة نتيجة صيحة عظيمة وأخذهم الاضطراب والإرهاب وأكبهم الله على وجوههم فأصبحوا ميتين خاسئين جاثمين على وجوههم وركبهم أذلة ، نتيجة ذلك الاستكبار والتعالي على الحق . ٩٢ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَأَنْ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا) كَأَنْ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا : لم يسكنوا ويتنعموا وقيموا ، أهلك الله المستكبرين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعمين إذا زالوا وزالت آثارهم في لحظات معدودة ! (الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَأَنَّهُمْ الْخَاسِرِينَ) وهذا ما جنوه على أنفسهم فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، فكانت الرجفة والجثوم والخسران جزاء التهديد والوعيد وإرهاب المؤمنين ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٢ ، عن النبي (ص) : (الْخَاسِرُ مَنْ عَقَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، فَمَا الْقَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَمَّهُمْ شَيْءٍ، وَهِيَ

نَفْسِي! تلك عبرة للمعتبرين ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢. في غرر الحكم: (مَنْ أَفْتَى عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ)

٩٣ - ﴿قَتَلْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾
فأدبر شعيب عنهم كما أدبر صالح عن قومه وخرج من بين أظهرهم حين اتاهم عذاب الله ، أوصلت إليكم رسالاتِ رَبِّي وألقيت الحججة عليكم وعرفتم ما أريد (وَنَصَحْتُ لَكُمْ) نصيحة الحريص على هدايتكم فلم تقبلوا نصحي فتغلّب استكبار نفوسكم على عقولكم فلم ترشدوا ، وهكذا الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه (فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ) آسى : من الأسى والحزن والأسف أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه ، إنهم ليسوا أهلاً للحزن لاستحقاقهم ما نزل بهم وإنما الأسى والحزن على من قصر فيما يجب عليه من التصحح لا على من عادى الناصحين

٩٤ - ﴿وَمَا أَمْرُنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾
في قَرْيَةٍ هي البلدة الجامعة للناس ويسكنها الرؤساء (العاصمة) أي (وَمَا أَرْسَلْنَا) لأي مجتمع من نبي ليهديهم سبيل الرشاد فكذبوه (إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) إنَّها تربية بالحنة إلا ابتليناهم وعاقبناهم بِالْبَأْسَاءِ وهي ألوان المصائب والحن المادّية والمعنوية التي تصيب الإنسان في غير ذاته كالأموال والجاه والأهل والأمن والبؤس والفقر وَالضَّرَّاءِ : المصائب التي تضُرُّ الإنسان مادياً ومعنوياً التي تصيبه في ذاته كالمرض وسوء الحال والإكتئاب والهلم والجهل والخوف (لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ) أي يخضعون ، لعلهم يكفون عن استكبارهم وفسادهم ، لكي يخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ويعودوا إلى الله ويتعظوا ويرتدعوا ويعتبر بهم من يأتي بعدهم و(أَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ) ويتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم . من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى ، وأن يرقق القلوب التي طال عليها الفساد ، وأن يتّجه البشر الضعاف إلى خالقهم ليتضرّعوا إليه ويدعوه.

فائدة: ١- القرآن يكشف عن سنة تاريخية متحركة ومستمرّة لتكون عبرة للأجيال المتتالية كلها.
٢- (لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ) الابتلاءات والحن نعم العون لدعوة الأنبياء فإنّ الإنسان غير المؤمن ما دام على التّعمة يشغله ذلك الخير عن التّوجّه إلى من أنعمها عليه وهو الله واستغنى بها ونسي ربّه ، وإذا سلب النعمة عنه أحسّ بالحاجة ، ونزلت عليه الدّلة والمسكنة ، فبيعه ذلك بحسب الفطرة إلى الالتجاء والتضرّع إلى من بيده دفع ذلّته وهو الله عزّ وجلّ ، وإن كان لا يشعر به ، وإذا تبّه إليه ودكره به تعالى كان من المرجو اهتداؤه على الله تعالى كقوله ﴿وَلْيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران/١٥٤ ، وعن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَاللَّهِ فِيهَا

نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا !) البحار ٣٧٤/٧٨، قيل : (فِي الْمِحْنِ مَنِّحٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكْرَامٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ حِزْرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاءٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيْتُ نَهَائِيَّتُهَا الْكِرَامَاتُ! ثم غيرنا الحال إلى رخاء ليختبرهم الله فيه فقال :

٩٥ - ﴿نُمِّدْنَاكُمْ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

المراد بالسيئة: الضيق والعسر وكلُّ ما يسوء الإنسان، والحسنة: مقابلها من السعة وكل ما يستحسنه الإنسان. فلم تنفعهم سنة الابتلاء في الشدة (البأساء والضراء) بدلناها بسنة الابتلاء في الرخاء (بدلنا مكان السيئة الحسنة) فتعلقوا بالشهوات المحرمة وزخارف الدنيا وصادقوا الشيطان وقاطعوا الرحمن قطع الله على قلوبهم ، وهذه سنة المكر وسنة الاستدراج بمعنى يتابع الله عليهم التعم وهم يستمرون بالمعاصي ويغفلون عن المنعم وشكره وفضله كقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ آل عمران/ ١٧٨ ، لقد أمهل الله تعالى حتى كآته أهمل ، ولقد سنر حتى كآته عفر ، وأنه أنذر حتى كآته أعدر !! إنما هو في الحقيقة اختبارٌ وبلاء. ثم حولنا البأساء والضراء إلى نعمة وسراء ورخاء، فحولنا النعمة إلى نعمة والمرض إلى صحة، والفقر إلى غنى حتى كثرت أموالهم وأولادهم (حتى عفاوا) من العفو أي تركوا حتى تناسلوا وكثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ونسوا ما كانوا عليه من الشدة ، ونسوا مقاصد الله من تلك الشدائد (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي أبطرتهم النعمة فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر جارية في الأولين واللاحقين يكونون في فرح وترح حسب الظروف، وقد مس آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء فليس ذلك بجديد وليست بعقوبة من الله وليس الرخاء والعناء والبلاء دليل امتحان إلهي، بل هي طبيعة الحياة الدنيا وتقلباتها ! وليس للإنسان إلا أن يتقدم في العلم ويستخدم وسائل متطورة لمواجهة كل كارثة ، وأخذوا يفسرون سنة الله بجهلهم وحسب أهوائهم كقوله ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/ ٤٣ ، وما أصاب آباءنا من الضراء لم يكن عقوبة على ضلالهم ، وما أكرمهم الله من السراء لم يكن مثوبة على صلاحهم وإنما هي الصدفة كقوله ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة/ ١٣ . إذاً فلنبق على ما نحن عليه ، والغرض : إن الله إبتلاهم بالسيئة والشدائد ليتضرعوا إلى الله فما فعلوا ، ثم ابتلاهم بالحسنة والرخاء ليشكروا الله فما فعلوا ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحاليين فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون)

بغتة: فجأة ، أخذناهم بالعذاب المفاجئ السريع من حيث لا يدرون ، ولا يتوقعون لأن ذلك أشد إيلاماً لهم وعبرة لغيرهم ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

الأعراف/ ٩٩ ، جزاء على اغترارهم بالشهوات واندفاعهم وراء الأهواء وليكونوا عبرة لمن بعدهم ، أخذهم العذاب فجأة لغفلتهم عما يُراد بهم، في غرر الحكم: (احذروا العَفْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) (فَلَا تَعْفَلْ فَلَسْتَ بِمَعْمُولٍ عَنكَ) وإصرارهم على الباطل وهم يظنون أنهم عالمون بمجريات الأمور ليكونوا عبرة لغيرهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/ ٢ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء ويستقيمون في جميع الأحوال. في الحديث: (مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَحَدَةٌ أَسْفٍ (غَضَبٍ) لِلْفَاجِرِ) كنز العمال خبر ٤٢٧٠٣ ، إنهم لم يفهموا سنن الله وقوانينه الجارية في السعادة والرخاء في المجتمعات ولم ينتبهوا من غفلتهم كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١ ، وكقوله ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ الأنعام/ ٤٤ . فائدة : الابتلاء بالشدّة أسهل من الابتلاء بالرخاء ، والابتلاء بالشدّة قد يصبر عليه الكثيرون لأنّ الشدّة تستثير عناصر المقاومة في النفس ، أمّا البلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون لأنّه يُنسي ويُلهي ويُطغي ، عن النبي (ص): (ما قَلَّ وَكَفَى، حَيَّرَ بِمَا كَثَرَ وَأَلْهَى) البحار ١١٥/٧٧ . وتعبير (حتى عفوا) يوحي بحالة نفسية من اللامبالاة حالة الاستخفاف بالتعم والاستهتار فيها فكلُّ شيءٍ يصدر عنهم (عفواً) بلا تَحَرُّج ، ويحسبون أنّ الأمور تمضي جزافاً بلا مدبر قدير ولا مقدر حكيم .

٩٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

إنّه قانون وسنّة إلهية متحرّكة دائمة الفعالية بين الأجيال المتعاقبة . المعنى : وَلَوْ أَنَّ (أَهْلَ الْقُرَى) أي المجتمعات البشرية آمنوا بالله ورسالاته وعملوا الصالحات واتقوا الله في السر والعلانية وتوقّوا المعاصي وتجنبوا الفسق والفجور ، وأحيوا العدل و(الْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) واعتبروا المساواة بين الناس بلا دكتاتورية ولا فساد ولا احتكار ولا حرب ولا نهب بمعنى أحسنوا العقيدة والسلوك والأخلاق (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) لوسعنا عليهم الخيرات والبركات المادّية والمعنوية الكثيرة بكلّ أنواعها من كل جانب كالأمن والاطمئنان والرخاء والمال والثمار والصحة والأولاد وأعطيناهم بعض الخيرات من السماء كالغيث والثلج بالمقدار النافع وبعضها من الأرض من أنواع النباتات والفواكه وعاشوا جميعاً حياة سعيدة طيبة حضارية متقدمة لا شقاء فيها ولا عذاب وبذلك يربحوا خير الدّنيا والآخرة.

فائدة: ١- تكشف الآية القرآنية الترابط الوثيق بين عالم الغيب والشهادة وعالم الروح والجسد والعالم المادي والمعنوي وعالم العبادات والمعاملات وعالم الأقوال والأفعال ، وإنّ الإيمان والتقوى والإنلتزام بمنهج الله ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة وتقدّمها ، بل هناك علاقة متصلة بين

الإيمان والتقوى (السنن الإنسانية) وبين البركات السماوية والأرضية (السنن الكونية) وهذا محض إلى التقدم المادي والحضاري والأخلاقي ، في حين يؤدي التكذيب والانحراف والفساد إلى الضياع والتهيه الحضاري والأخلاقي والقلق النفسي والأرق الليلي ، وما نشاهده اليوم من انحطاط أخلاقي إلا شاهد على هذه السنة الثابتة التي يؤكدتها القرآن (وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) لم يعملوا بمنهج الله بل سعوا في الأرض فساداً بنشر أنواع الظلم والاعتداء ، فجاءهم الجزء من جنس عملهم، وجاءت العقوبة على قدر الجناية ، وجاء العقاب على قدر الذنب ، وجاء هلاكهم على قدر انحرافهم لأنهم كفروا وفسدوا وبتروا وظلموا وسلبوا ونهبوا .. إلخ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال/٤٢ . ٢- في الآية دلالة : على أن افتتاح البركات الكثيرة من آثار إيمان المجتمع وتقواه الذي يغلب عليه ظاهرة الصلاح البارزة ، لا إيمان بعض الأفراد وتقواهم (والمقصود في المجتمع) مفهوم الأكثرية هو ما زاد على النصف ولو بواحد، ٥١% صالحين، ٤٩% منحرفين ٣- سؤال: نرى أمماً يقولون إنهم مسلمون لكنهم مضيق عليهم في الرزق ونرى أمماً لا يؤمنون مفتوحاً عليهم في الرزق ، فكيف إذاً لا تفعل سنة فتح البركات؟! والجواب: إن أولئك الذين يقولون إنهم مسلمون فهم لا يؤمنون ولا يتقون هم مسلمون بالإسم ، بل الذين لعقوا على ألسنتهم ، وفي غر الحكم : (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) عندهم الرزق القليل اليكفي ، خير من الكثير الملهي . أما المجتمعات غير المؤمنة : فتح الله عليهم بركات الرزق الملهي كقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى/ ٢٧ ، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ الأنعام/ ٤٤ ، فهو رزق بيعث على الطغيان والعصيان فهو نقمة في الظاهر ولكنها عذاب نفسي في الباطن ! ولكنهم حرموا أنفسهم من نعمة الإيمان والاطمئنان وكفروا باليوم الآخر ، صحيح أنها مجتمعات مترفة مادياً ولكنها مفتقرة معنوياً وتعاني من الكآبة والأمراض النفسية التي تنعص العيش وتكره الأيام ! وتعاني من الجفاف الروحي والقلق النفسي والأرق الليلي ، والإنسان يسعد بروحه قبل متاع جسده ، وهم فعلوا متعة الجسد مقابل عذاب الروح! ويصوّر القرآن هذه الحالة المهمة بقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾ الجن/١٧ ، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/ ٢١٣ ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ طه/ ١٢٤ ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبِحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَحْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟! ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/ ١٢ .

٩٧ - ٩٨ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

(أَفَأَمِنَ) الهمزة للإنكار ، بَيِّنَاتًا : وقت المبيت. المعنى: هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم (بَأْسُنَا) عذابنا وانتقامنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ (أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) ؟ هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا نهاراً جهاراً وهم يلهون ويلغون ويشغلون بالعمل للدنيا كأنهم يلعبون ؟ فإن من اشتغل بديناه وأعرض عن آخرته فهو كاللاعب ، والعاقل لا يأمن المحبآت والمفاجآت بالغاً ما بلغ من القوة لأن الله قاهر كل قوة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١ ، (يُدَبِّرُ الْمُنَظَّرُونَ وَالْقَضَاءُ يُضْحِكُ) والمنفذ الوحيد تقوى الله (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) فهو خير زاد ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/١٩٧ .

٩٩ - ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

الْمَكْرُ : التدبير الخفي الذي يؤدي بالممكور به إلى ما لا يحتسب ولا يُحمد عقباه، وَالْمَكْرُ: صرف الغير عمّا يقصده بحيلة ، وهو محمود إن تحرى به فعلاً جميلاً ومذموم إن قصد به فعلاً قبيحاً. المعنى: أفأمنوا مكر الله واستدراجه وإمهاله إياهم بالنعمة والسلامة ؟ ومعنى الاستدراج من الله سبحانه لعبده أن يسبغ عليه النعم ولا تقابل بالشكر بل بالاستغراق في المعاصي ، حتى يهلكوا في غفلتهم على حين غرة ! فلا يأمن مكر الله إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أسوأ من البهائم لأنهم ممكور بهم بهذا الأمان المؤقت بعينه ! وهم لا يشعرون أن ما يفعلونه يسوقهم إلى العذاب التدريجي. فائدة: ١- (الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجِلٌ خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ!) وأنه سبحانه يصف حاله بالماكر لأنه يبطل مكر الماكرين ويصف نفسه بالشاكر لأنه يثيب الشاكرين ، وبالتواب لأنه يقبل من التائبين ، أما أنهم الخاسرون فلأنهم أوقعوا أنفسهم في الخذلان والحرمان والخسران بسبب جهلهم المركب وعنادهم في الفساد ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ القلم/٤٥ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يَتَفَقَّدُ الذُّنُوبَ مِنَ النَّاسِ نَاسِيًا لِدُنْبِهِ فَاَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ) البحار ٢٤٦/٧٨ ، في غرر الحكم: (مَنْ آمَنَ مَكْرَ اللَّهِ هَلَكَ) . وفي نهج البلاغة حكم ٣٧٧: (لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ اللَّهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) داعين الله تعالى الثبات على دينه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ آل عمران/٨ ، عن النبي (ص) : (اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) . ٢- (مَكْرُ اللَّهِ) استعارة بلاغية لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب . أمّا المكر بمعنى الاحتيال فذلك لا يجوز على الله ، (مَكْرُ اللَّهِ) : ما يدبره الله ضدّ المستكبرين في ما يمكرون والذين يأمنون مكر الله ويغفلون عنه هم الخاسرون في دنياهم آخرتهم .

١٠٠ - ﴿وَلَعَلَّ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُدُّونَ الْأَمْْرَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ نُنْشَأَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ذُرِّيَةً يَتَرَفَعُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

إنه خطاب قرآني لكل أمة يبسر الله لها أن تمتلك القوة والسيطرة والمنصب والسلطة والجاه لتكون على حذر من عذاب الله إذا تجاوزت الخلافة الإنسانية لله في الأرض . المعنى : (أَوْمَّ يَهْدِ) يتضح ويتبين للذَّيْنِ يستخلفون في الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخِرِينَ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَهْلِهَا يَعْمُرُونَهَا وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم عندما ساروا سيرتهم الفاسدة وعتوا على أوامر ربهم ، وقد علمتم ما حلَّ بهم فما تحذرون أن يحلَّ بكم ما حلَّ بهم ، أن هذه سنة الله الفعَّالة مؤثرة في الأولين والآخرين فهداهم فلم يهتدوا فعاقبهم الله بالران على قلوبهم والدنس ، إنه عذاب معنوي وبلاء خفي يجلب عن قلوبهم الهداية الغالية (وَنَطْبُعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) ونختم على قلوبهم فتقف وتتعطل عن عملها وتتوقف أجهزة الاستقبال عندهم ، ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز تماماً بحيث لا يسمعون معها حقيقة فلا يقبلون موعظة ولا يسمعون تذكيراً نافعاً لهم ، والغرض منه المبالغة في النصيحة والتحذير للعصاة ، وأن يراقب الإنسان نفسه ويحاسبها باستمرار ويتعظ بغيره ولا يغتر بالدنيا وزينتها فإنها امتحان ومسؤولية وجزاء ﴿فَلَا تَعْرَنُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَنُكُمُ بِاللَّهِ الْعُرُوزُ﴾ لقمان/ ٣٣ ، (وَمَنْ لَا يَتَعَطَّ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) . فائدة : عن الإمام الصادق (ع) : (إِذَا أَذْنَبَ الرَّجُلُ حَرْجًا فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءً فَإِنْ تَابَ ائْتَمَحَتْ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى تَعْلَبَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يُفْلِحُ بَعْدَهَا أَبَدًا) كقوله ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ المطففين/ ١٤ البحار ٣٣٢/٧٣ ، أي إن الذنب يصبح عنده عادة وإدمان كقوله ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس/ ١٠١) .

١٠١ - ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَصُ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

الْقُرَى : مكان تجتمع الناس في المدينة أو تسمى العاصمة. المعنى : تلك أهل القرى ذات المجتمعات المختلفة والأزمان المتنوعة والانحرافات المتعددة وهم قصص أهل القرى الخمس قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب التي أهلكهم الله بذنوبهم ، والخطاب أيضاً للمسلمين حتى يتعظوا بالماضين فلا يكونوا عبرة للباقيين ، نروي لك بعض أخبارها وليعتبروا ويحذروا من الإصرار مع فساد وانحراف المنحرفين بطول الإمهال في النعم المتنوعة فإنهم مسؤولون عنها ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر/ ٨ ، (وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) بالمعجزات الخارقة والحجج القاطعة ووضوح كثير من الحقائق (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) ما كانوا ليؤمنوا بما جاءهم به الرسل لتكذيبهم بالبينات والدلالات قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بما فحالتهم الاستكبارية بقية واحدة ولم تؤثر فيهم شيئاً حتى كأن الله لم يرسل إليهم بشيراً ولا نذيراً ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام/ ١١٠ ، (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ) يطبع الله على قلوبهم أي يختم عليها نتيجة الطباع الشديدة الصلبة في نفوسهم المريضة القاسية فيكون الطبع والحتم والران والدنس كناية عن قسوة قلوبهم من كثرة ذنوبهم فتأخذهم العزة بالإثم ، فلا ترتدع عن ضلالها ولا يرجى خيرها ، إنه سبحانه شبه الكفر بالصدأ الذي يأتي إلى القلوب فلا تتأثر بحلاوة الإيمان كقوله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل/٣٣، و(الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ). فائدة: ليست البيئات هي التي كانت تنقصهم ليؤمنوا ، إنما كان ينقصهم القلب المنفتح على الآخر والحس المرهف الذي يطلب الحقيقة، والتوجه إلى الهدى أينما كان، كانت تنقصهم الفطرة الحية التي تستجيب لدعوة الهدى فلما انغلقتوا عن موحيات الهدى ودلائل الإيمان، طبع الله على قلوبهم وأغلقها عقوبة لهم، وهكذا الَّذِي لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْغَوَايَةُ ونسب الطبع إلى الله تعالى لأنه مسبب الأسباب، فالإنسان قام بالأسباب التي تؤدي إلى الطبع والحتم، والله تعالى ثبت عليهم الطبع الذي هم سلكوا طريقه بإرادتهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الكهف/٥٧ .

١٠٢ - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد أي لا يلتزمون بعهد مع الله أو بعهد مع أنفسهم ومع الناس وهو (عهد) الإيمان بمنهج الله والاستقامة عليه والعمل بموجبه ، وأيضاً هو (عهد الفطرة) السليمة التي فطر الناس عليها حيث خالفوها ولو ثوها ، و(عهد العقل) المميز بين القبيح والحسن وبين الهدى والضلال في نهج البلاغة حكم ٢١١: (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أُسِيرَ تَحْتِ هَوَى أَمِيرٍ ؟) أم (العهد التشريفي) الذي أخذه الله من الناس عن طريق الرسل والرسالات بالاستقامة على منهج الله أم (عهد الناس) مع الله حيث يقعون في بلية أن يتوبوا ويؤمنوا! أم (عهد الأصلاب) كان العهد الذي أخذه ربه عليهم وهم في الأصلاب وفي عالم الذر أنه ربهم وخالفهم خالفوه وأشركوا به بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع كقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ الأعراف/١٧٢ ، عن النبي (ص) : (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) المراغي ٩ ص ٢٠ ، (وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) الفسق ثمرة نقض العهد أيًا كان الفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله إلى طاعة غيره ، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله ، فالله تعالى أرسل الرسل وأمر الناس باتباعهم فهو عهده وهداه فلم يمتثل لأمره إلا القليل.

﴿وَقَلِيلٌ مِمَّا هُمْ﴾ ص/٢٤ ، وفي تعبير (أَكْثَرُهُمْ) دلالة إلى أن بعضهم آمن والتزم وبقي على العهد مع الله ومع الناس ومع أنفسهم، وهكذا القرآن يذم الكثرة فقال ﴿فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء/٨٩ ، أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ

فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ الأنعام/ ١١٦ ، في نوح البلاغة خطبة ٢٠١ : (لَا تَسْتَوْحِشُوا طَرِيقَ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهَا). فائدة : امتدح الله تعالى في القرآن الكريم الموفين بعهودهم وذمّ الناكثين لها ، عن النبي (ص) : (لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) البحار ١٩٨/٧٢ .

١٠٣ - ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بَايَاتَنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾
ثم بعثنا من بعد نوح هود وصالح ولوط وشعيب ، موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات التي ترفع الشكوك وتثبت اليقين (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ) أرسلناه إلى فرعون الطاغية (وَمَلَأْنَاهُ) وقومه الجلاوزة الجبابرة الذين يملؤون العيون مهابة ولهم الكلمة المؤثرة (فَطَلَّمُوا بِهَا) فكفروا برسالته وجحدوا معجزاته الباهرة ظلماً وعناداً ، وَمَنْ ظَلَمَ فَقَدْ تَنَعَّصَتْ أَيَّامُهُ ، وَكَرِهَ عَيْشُهُ ، وَالظُّلْمُ فِي الدُّنْيَا ظُلْمَاتٌ فِي الْآخِرَةِ (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) كلُّ من يحكم الناس يحكم من هوى نفسه وينبذ شريعة الله هو من المفسدين ، فهو يفسد بمقدار ما يضل الناس عن سبيل الله . أنظر وتأمل أيها الإنسان ما إنتهى إليه أمر الظالمين المفسدين في الأرض كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في العقوبة لأعداء الله وأقرب لشفاء صدور قوم مؤمنين . فائدة : (فرعون) لقب ملك مصر وليس اسمه كقيصر ملك الروم وكسرى ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة ، كان يلقب بسليل الإله .

١٠٤ - ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
بهذا النداء خاطب موسى فرعون الطاغية من غير تبجيل وتعظيم ، لم يقل يا صاحب الفخامة ولكن ناداه بلقبه في أدب وإعتزاز ، ناداه ليقرّر حقيقة فخمة وضخمة ، إِنِّي رَسُولٌ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِهِ وَمَرْبِيهِ وَالرَّحِيمِ بِهِ دُونَ تَرَدُّدِ وَخَوْفِ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ غَيْرُهُ . الإنسان المستضعف عندما يتوكل على الله تقوى إرادته فيملك أعظم قوة يستطيع بها أن يقارع الطواغيت ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ الطلاق/٣ ، عن النبي (ص) : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) كنز العمال خير ٥٦٨٦ ، وعنه (ص) : (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال خير ٤٣٥٨٨ . فائدة : (رَبِّ الْعَالَمِينَ) تعني ربوبية رب العالمين إبطال شرعية كل حكم وسلطة تحكم بغير ما أنزل الله ، وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له من دون الله . إنَّ قلب الإنسان لا يخدم سيّدين ولا يعبد إلهين ، فمن كان عبداً لله فما يمكن أن يكون عبداً لسواه كقوله ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ ﴾ الأحزاب/٤ ، إنَّه قلب واحد فلا بدّ من منهج واحد يسير عليه ، ولا بدّ له من ميزان واحد يزن به القيم ، إنَّه منح الله المستقيم وغيره مناهج معوجة ، ومنهج الله منهج تحرير الإنسان من التبعية والعبودية لغير الله فلا حكم إلاّ الله ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ الأنعام/٦٢ ، وتحرير الإنسان من حكم البشر وهواه ورآه وجعلها تصبّ في حكم الله .

١٠٥ - ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

حَقِيقٌ : واجب عليّ وجدير بي أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لتقديري لله حق قدره، فهو الأمين العام على الرسالة وسلامتها وبلاغها وهكذا شأن كلِّ رسول مؤتمن على رسالته أن يبلغها كما أمره الله وقد أمره بالحق فصفع به فرعون فلا يخشاه ولا يخاف لومة لائم ، فمن يخاف مقام الله فلا يخشى طواغيت الأرض كقوله ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة/ ١١٢ ، في غرر الحكم: (مَنْ خَافَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ آمَنَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ أَخَافَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) ، (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسَلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي ، أطلب منك خلي سبيل بني إسرائيل ولا تستخدمهم كأرقاء وعبيد حتى يذهبوا معي إلى أرض الله الواسعة ، فطلب منه موسى أن يطلق سراحهم فينهض بهم ، ويحقق الهدف الرسالي المطلوب ويكسر كبرياء فرعون . فائدة فمن التوفيق أن يختار الله الإنسان المناسب ليكون أداة قدرته بين الناس ، وعنصر إرادته ومشيئته ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ المدثر/ ٣١ .

١٠٦ - ﴿قَالَ لَنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأْتِ بِإِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

(قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ) (بِآيَةٍ) بعلامة قطعية من ربك كما تدّعي وما أظنك ، (فَأْتِ بِهَا) فأحضرها عندي (إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ) ليثبت بها صدقك في دعواك وما أظنك تصدق بقصد أن يفضح موسى أمام الناس

١٠٧ - ١٠٨ ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾

إنّما المفاجأة العجيبة الغريبة ! ألقى موسى (ع) عصاه أمام فرعون ومستشاريه فإذا بها حية ضخمة طويلة أكبر من العصا ، فاتحة فمها مسرعة نحو فرعون (فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) حية حقاً وحقيقة ظاهراً وواقعاً لا تمويهاً ولا إيهاماً ! ففزع فرعون وارتعب ولكنه صبر نفسه وتمالك أمره لأنه كان يدّعي هو الرب الأعلى (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) وأخرج يده من جيبه (وهي فتحة قميصه على صدره) فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجبياً كنور الشمس أضاء ما بين السماء والأرض، لقد ألقى موسى بكلّ ما معه دفعة واحدة ليذهل فرعون مباشرة ، فشعر فرعون بالضعف وصغر شأنه عند نفسه فحاولوا قومه أن يخففوا عن سيدهم ، وأعاد يده إلى جيبه عادت يده كما كانت وأخذت رسالة موسى طريقها تؤثر في قلوب الناس حتى يتيقن الجميع بلا شك بأن ذلك معجزة إلهية خارقة عن العادة المألوفة والمعروفة ، وكانت معجزة موسى تتناسب مع ما كان يسود من فن السحر في وقته .

١٠٩ - ١١٠ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ الْعْيُونَ مَهَابَةً وَهُمْ الْمُسْتَشَارُونَ لِفِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَأَذَا تَأْمُرُونَ﴾

قال الملأ الذين يملئون العيون مهابة وهم المستشارون لفرعون وأعضاء حكومته حين بهرهم ما رأوا ، إن هذا عالم بالسحر ماهر خبير فيه ، وقولهم (عَلِيمٌ) مبالغة العلم فهو خبير وفتان وخذاع ، طعنوه

بالسحر شأن العاجز إذا صفعه الدليل وأعجزه المنطق ، وما حدث ليس بمعجزة ، وإنما الغاية منه (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) يريد بأعماله الخارقة وادعائه النبوة أن يحزّر بني إسرائيل من العبودية لفرعون ليتقوى بهم ، ويحاول قلب نظام الحكم ويطل شرعية السلطة الحاكمة ! ويذهب بطريقتكم المثلى ويمتلك مصر (فَمَادَا تَأْمُرُونَ) ماذا نفعل في شأنه ؟ وبأي شيء تشيرون لإفشال خطته والحفاظ على العروش والنفوذ فذلك لدى الظالمين فوق التصديق برسالة رب العالمين . وبهذا يظهر فرعون على أنه رجل حوار ويطلب الشورى وديموقراطي وغير دكتاتوري ومع ذلك يريد فرعون أن يحفظ ملكه وعرشه وأرضه. فائدة: ١- في سورة الشعراء/٣٤ ، أسند سبحانه هذا القول إلى فرعون، وهنا أسنده إلى الملائ ، فما وجه الجمع ؟ الجواب : قال فرعون ووافقه عليه الملائ ، أو قاله الملائ ووافقهم فرعون فهم يحققون هدف مشترك وكأما قالوه جميعاً . ٢- (فَمَادَا تَأْمُرُونَ) فماذا تشيرون ؟ إذا كانت الشورى يعتمدها فرعون والطّغاة فالمؤمنون أولى بالشورى وتلاقح الأفكار ، وتبادل الرأي والرأي الآخر ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى/٣٨ .

١١١ - ١١٢ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَا تُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

تشارورا واستحسنوا آخر الآراء وقدموه إلى فرعون قالوا (أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) أجز أمرها وأجله الآن ولا تقتله وأخيه خشية أن يغضب الجمهور ويحقد عليك الرأي العام ويكون الخطر في هذا الحقد حتى ترى رأيك فيهما (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ) وأرسل الشرطة في أنحاء مدن البلاد (حَاشِرِينَ) حاشدين أي من يجمع لك السحرة المهرة (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) كانت أرض مصر تروج بالسحرة وأنواع السحر في عهد الفراعنة ، يأتوك بكل ماهر في السحر وفتان فيه ليطلوا سحره بسحرهم ويغلبوه، روي: (أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ حِينَ دَخَلَا عَلَى فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ مِنْ جُلَسَائِهِ يَوْمَئِذٍ وَلُدَّ سِفَاحٍ (زنا) كَانُوا وَلُدَّ نِكَاحٍ كُلُّهُمْ (زواج شرعي) وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ وَلُدَّ سِفَاحٍ لِأَمْرٍ بِقَتْلِهِمَا) كثر الدقائق ٥٥٧/٣، وهكذا إذا أراد الله شيئاً هيء أسبابه. فائدة : (السحر) أعمال غريبة وحيل سريعة الحركة تخفي حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم لأسبابها ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ الأعراف/١١٦، والساحر فاشل ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ طه/٦٩، والسحر من الذنوب الكبيرة فلا يجوز تعلمه والعمل به، إن حدّ السحر القتل فهو ظلم عظيم يعادل الشرك بالله .

١١٣ - ١١٤ ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

بعث لطلب السحرة فلما جاؤوا فرعون (قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) إن لنا لأجراً عظيماً ومكافأة كبيرة إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟ كان السحرة في ذلك الزمان يمثلون الدين ويساومون عليه المترفين والملوك والشياطين (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) قال فرعون نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك فأجعلكم من أعز خاصتي وأصحاب مشورتي ومن وعاظ السلطان ، وهي حالة نلاحظها لدى الطغاة في تعاملهم مع المستأكلين باسم الدين وباسم

العلماء وأهل الفتوى! فائدة: ١- إنَّ التقرُّب إلى فرعون في قصره أهمّ من المال ، وحصلت المواجهة التاريخية وهياً السحرة حفنة من العصي والحبال معبأة بمواد كيميائية خاصة تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحوّل إلى غازات خفيفة تحرك تلك العصي والحبال المحجّفة ، فكان موسى وأخوه وحدهما أمام الحشود الهائلة من السحرة والمتفرّجين . ٢- دعم فرعون السحرة لنصرة الباطل، فهل نحن ندعم أهل الحق لنصرة الحق والحقوق وإزهاق الباطل؟

١١٥ - ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تُلْقِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ نَحْنُ الْمُلقِينَ﴾

خيروه بين أن يبدأ هو أو يبدأوا هم ، ثقة منهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة وعدم مبلاتهم بموسى، وإن تخييرهم إياه أدب حسن مع الاعتزاز بالنفس (يُدبِّرُ الْمُدبِّرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ)

١١٦ - ﴿قَالَ أَقْوَامًا لَقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

قال أقوا لا مبالي بهم وبسحرهم ، فلما ألقوا العصي والحبال (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) أي خيلوا إليهم المشهد خدعة للبصر لا حقيقة لها وضلال للعقل على أن يدرك الشيء على ما هو عليه بسبب ما فعلوه من التمويهات كقوله ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ طه/٦٦ ، ونسبة السحر إلى الأعين للدلالة أن سحرهم لا واقع له ولا حقيقة فيه وهو دليل أن سحرهم جاء بطريقة فنية سريعة عالية الإتقان فصوّروا الخيال والوهم لأعين الناس على أنه حقيقة واقعية ، إنهم سرقوا ملاحظة العيون فهو تمويه وتضليل ، وهكذا طبيعة السحر والسحرة والمشعوذين في كلّ زمان ومكان (وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) يهابه من رآه أي خوفهم وأرهبهم إرهاباً شديداً فبهروا أعين الناس فخطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس ، ثم ألقى كلّ رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي فإذا حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً وعلت وجوه فرعون وملئه ابتسامة الرضا . فائدة : معنى السحر : من الأعمال الغريبة وحيل خفيفة وسريعة تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم أسبابها وينتشر بين الجهلاء ، والعقلاء يسمونه شعوذة وإحتيال ، وهي خفة اليدين في إخفاء أشياء وإظهار بعضها بغير صورها ولها تأثير على الأنفس ذات الإرادة القوية في النفس الضعيفة ، ويستعينون بأرواح الجن والشياطين ومنهم من يكتب الطلسمات للحب والبغض، في نصح البلاغة خطبة ٧٩: (الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ) والسحر من الذنوب الكبيرة، التي تضر ولا تنفع .

١١٧ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ لَقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

خاف موسى أن يغتر المجتمعون فيما رأوه من تمويه السحرة وخداعهم وتضليلهم ، فشدّ الله من عزمه وأوحى إليه أنه معه وأن ما جاء به السحرة تضليل وتزوير ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ

سَيَّبَطْلُهُ ﴿يونس/ ٨١﴾ ، وأمره أن يلقي عصاه ولما ألقاها (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) تَلْقَفُ : تبتلع هذا الافتراء فإذا هو هباء ، الإفك : يكون بالقول كالكذب ويكون بالفعل كالسحر وهو صرف الشيء عن وجهه الصحيح ﴿فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفِكُونَ﴾ التوبة/ ٣٠ ، أنى يصرفون عن الحق إلى الباطل ، فلما ألقى عصاه فإذا هي تبتلع بسرعة ثعابينهم الكثيرة المزورة المموهة من الكذب الخادع وأبطلت أثرها وظهر الحق وانقلب السحر على الساحر وتفشل الخطة وتُصَدِّقُ الحشود موسى ، وعرفت السحرة أنّ هذا شيءٌ خارقٌ وعجيب وليس بسحر وإتّما من الله تعالى مدبّر الأمور ومقدّرها، ورجعت العصا كما كانت فهي أكلت كل ما عندهم على كثرتها وبقيت على حجمها ووزنها ونحافتها !

١١٨ - ١١٩ ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغَلَبُوا هَٰلِكَ وَاقْبَلُوا صَاغِرِينَ﴾

إنّ الباطل ينتفش بغوره ويسحر العيون ويستزهب القلوب ويُخيل للنّاس أنّه غالب وجارف ولكن عندما يواجه الحق الهادئ الواثق القوي المستضعف فإنّه يزول كالفقاعة ، فإذا الحق راجح الوزن بارز في الوجود عميق الجذور ثابت القواعد ظهر الحق لمن شهده وبطل كذب السحرة وخداعهم للناس وغلب فرعون وقومه وصاروا ذليلين (وَاقْبَلُوا صَاغِرِينَ) أي مقهورين مهوتين وأسقط ما في أيديهم من هول الصدمة إنهم تصوّروا أنّ هذه الخطة الحيلة الوحيدة التي يفضح فيها أمر موسى ويقوى ملك فرعون ، وحدث اضطراب من الجماهير المتفرّجة وإختلفت ردود الأفعال، منهم من آمن بموسى ومنهم من خاف وهرب ومنهم من صاح ومنهم من أغمى عليه ومنهم من سكت ومنهم من دهش بموقف موسى وصدق به وأخفى إيمانه .

١٢٠ - ١٢٢ ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ، قَالُوا إِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

المفاجأة الصاعقة الثانية لفرعون التي لم تكن بحسابه ، كان ينتظر أن تسجد له الحشود بعد تلك الأضاليل فسجدت لإله موسى وآمنوا برسالته وانقلب السحر على الساحر ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الصافات/ ٩٨ ، ويخرج موسى من هذه المنازلة ظافراً منتصراً مفتخراً بقدرة الله ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/ ٨١ ، فعرفت السحرة أن هذا الشيء الخارق معجزة من تأييد ربّ السماء وهذا ليس بسحر ، السجود والخضوع للحقيقة إنّها صولة الحق في الضمائر ونور الحق في المشاعر ، إنّها مرحلة تهيئة القلوب لتستذوق طعم الهداية للانفتاح على تقبل حكم الله ورسالاته ، وهنا تحول السحرة من التحدي المعلن إلى التسليم المطلق لله الذي يجدونه برهاناً عملياً في بصرهم ونور هداية في بصيرتهم ، وهذا الحقيقة المعنوية المؤثرة لا يفهمها الطغاة . فائدة : ١- العالم في اختصاصه هو أكثر النّاس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له لأنّه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ومن هنا تحوّل السحر من الجحود مباشرة إلى

السجود ، أي إلى الإيمان الذي يجدون برهانه في أنفسهم عين اليقين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/٣٧ .

٢-(ساجدين) إنها صورة قرآنية حيوية لآلية خضوع القلب لله تعالى، خَرُّوا سَجْدًا كَأَمَّا الْقَاهِمِ مَلَقٍ لَشِدَّةِ تَأْثِيرِهِمْ بِقُوَّةِ الْحَقِّ ، أي هناك استعارة بلاغية كلامية تمثيلية متحركة حيث شبه حالهم في سرعة السجود حين شاهدوا المعجزة بحال من لا يتمالك نفسه فسجد تعبيراً عملياً عن الخضوع الصادق الشديد، في غرر الحكم (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ) أعلنوا ذلك أمام الجماهير بالرغم من موقف فرعون الطاغية الرهيب، عن النبي (ص): (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال خبر ٤٣٥٨٨٠

١٢٣ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قِيلَ أَنْ أَذْنُ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أفرتم بصدق موسى وآمنتم به وخضعتم إليه أمامي قبل أن آمركم وأذن لكم ، كما يريدهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق والإيمان بالله وهم أنفسهم لا سلطان لهم على قلوبهم! وهذه طبيعة الطواغيت، يقيدون كل شيء بإذن حكومي ، يريد منهم الطاغية أن يلغوا عقولهم ويتبعوه أتباع أعمى ، يريد منهم أن يكونوا أداة طيعة ذليلة بيده يوجهها حيث يريد لا حيث يريدون، وهو ذاهب إلى الجحيم فيأخذهم معه في نهج البلاغة خطبة ١٥٤ (الْعَامِلُ بَعْدَ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لَا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الصَّوَابِ). وهكذا الطغاة لا يقربون أحداً إليهم إلا أن يتخلوا عن دينهم وعقلهم وضميرهم وفناعاتهم وأمتهم ويتبعوا الاتباع الأعمى ، عن الإمام علي الهادي (ع): (وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨، في غرر الحكم (وَمَنْ كَرُمَتْ نَفْسُهُ صَعُرَتْ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ!) (إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا) المكر: الحيلة، إن عملكم هذا الحيلة مدروسة وخيانة دبرتموها أنتم وموسى في مصر من قبل أن تخرجوا إلى الميعاد، لتخرجوا منها أتباع فرعون وتسكنوا بدلاً عنهم بني إسرائيل وتستولوا على الحكم والسلطة، وقال هذا تمهيداً وإبهاماً للناس لئلا يتبعوا السحرة في إيمانهم وينضموا إلى موسى (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) وهذا تهديد ووعد للتهويل عما سيحصل ويحل بكم، ويفترض فرعون لنفسه أنه مسيطر على نفوسهم وعقولهم كسيطرته على أبدانهم! وقوله مطاع وأمره نافذ في الناس ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وقيل لفرعون ما فرعنك؟ قال لم أجد رادع يردعني! وبهذه الحالة الخانعة الذليلة تنحط الأمم وتستضعف قيمتها وإرادتها وتتخلف عقولها وتعرض لبغض الله وانتقامه كقوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ الزخرف/٥٤

١٢٤ - ١٢٥ ﴿لَا تَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَمْرُ جُلُكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَا صَبِيحَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ، قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾

فلسفة الثبات والجهاد والصمود : عدّة الباطل الخبيث في مواجهة الحق الطيب الصريح ، إنّه التعذيب الوحشي والتشويه الفظيع ، إنهم لا يستطيعون مواجهة الحق علمياً ودفع الحجة بالحجة فيواجهونه بالعنف والطغيان ، ولكن النفس المؤمنة عندما يثبت الإيمان في قلبها وتستندوق حلاوته وتعرف أهميته عندئذ تستعلي على قوة الأرض وتستهن بأساليب الطّغاة الوحشية ، وتنصر فيها العقيدة على الحياة ويعلو حلاوة الإيمان على الإحساس بالعذاب والألم ، ويعلو حبّ الله في النفس على حبّ الذات والأنا ، وتعلو قيم الآخرة على كلّ متاع الدّنيا ، وتحتقر النفس المؤمنة الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ، إنّه الإيمان نعمة النّعم وقمة القمم ، إنّه الإيمان الأصيل الذي لا يتزعزع ولا يفزع كما أنّه لا يخضع ولا يخنع ، وأفضل الإيمان أن يعرف كيف ينتهي حتى يعرف كيف يبدأ (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) إنّه يستيقن من الرّجعة إلى ربّه فيرضاه لنفسه ويستعد لها فيطمئن قلبه إلى جواره سبحانه ، حقاً إنّه الإيمان الخارق الذي ينقل الإنسان من كفر السّحر وضلاله في أوّل النهار إلى نعمة الشهادة ومنازل الشهداء البررة السامية في آخر النهار ، هؤلاء الشهداء فضّلوا الموت في عزّ وكرامة على الحياة في ذلّ ومهانة ، فلا قيمة للحياة مع المهانة والذلّة، والتّاس خوفهم من الدّل أوقعهم في الدّل ، وساعة ذلّ لا تفي بعزّ الدّهر [للتوسعة راجع موسوعة الشهادة تأصيل لا إستصصال/للمؤلف مكي قاسم البغدادي] ، تهديد بقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى ، فإنّ الإنسان يضلّ على الحياة معدّباً ومشوّهاً وقتاً أطول ، وليس كذلك إذا قطعت اليد اليمنى مع الرّجل اليمنى أو العكس هذا من شأنه أن يقضي على الإنسان في الحال ! (ثُمَّ لَا صَبِيحَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ) لا أدع واحد منكم إلاّ صلبته ، تنكياً بكم ولتكونوا عبرة لأمثالكم ، والصلب التعليق على جذوع النخل حتى الموت فقال السحرة الذين آمنوا بموسى (ع) مخاطبين فرعون (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) مُنْقَلِبُونَ: راجعون ، إنّا سنصبر على هذا الأذى مقابل لذة الهدى ، إنّا لا بدّ أن نرجع إلى الله ربنا بالموت الشريف فلا نبالي بالموت ومرحّباً بالموت مادام في سبيل الله فهو شهادة وسعادة ومنزلة عالية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُفْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة/١٥٤ ، قابلوا فرعون بما يبطل كيده ، فما تعدّه أنت جرماً نعدّه نحن غنماً وفوزاً وشهادة وفضلاً كبيراً ، فمن أعطى الله نفسه الغالية (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) أعطاه الله كلّ نفيس وأكرمه أرقى درجات الموت بدرجة امتياز على جناح الشهادة والفداء ما دام في مرضاة الله (رَبِّ حَيَاةٍ عَزِيْزَةٍ سَبَبَهَا طَلَبُ الْمَوْتِ، وَمَوْتُ دَلِيلٌ بَطِيءٌ سَبَبُهُ طَلَبُ الْحَيَاةِ الْحَانِعَةِ) ، في نهج البلاغة خطبة ٥١: (فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَشْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ) لذلك أصبح (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) عن النبي (ص) البحار ج ١٠٠ ص ٨ .

١٢٦ - ﴿وَمَا تَقْصِرُ مِنَّا إِلَّا أَن مَّا بَيَّاتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

إِنَّكَ يَا فرعون (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا) ولا تعيب علينا وما أسخطك علينا ودفعك إلى عقابنا إلا بسبب إيماننا بالله وآياته ورسوله لما جاءتنا كقوله لأصحاب الأخدود ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج/ ٨ ، أرادوا أن يعيخوا عملنا فإذا هو أصل المفاخر والفضائل كلها وهو (الإيمان) الذي لولاه لما عرف للحياة معناها ولا فسر مغزاها (رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ) ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا إلى الله تعالى ، توجهوا إلى وجه واحد يكفيهم الوجوه كلها ، وتحملوا همأ واحداً يكفيهم الهموم كلها ! أفرغ علينا صبراً كثيراً يغمرنا كما يغمر الماء ليملاً الأرض ، ادعنا وصب علينا المقدار الكافي من الصبر عند رهبة التعذيب الفرعوني الجائر ولتثبيت القلب على الإيمان، ولا ينحرف عند الشدة ولا تنهار أعصابهم عند هذه المحنة ، وتوفنا على ملة الإسلام . الإسلام : بمعنى التسليم لمنهج الله وهي منزلة سامية فائدة : ١- جاؤا بالعجب في خطابهم لفرعون الطاغية فلم تخوفهم سطوته بل أعلنوا إرادتهم بقلوب راسخة مطمئنة كريمة يدل على شرف نفوسهم وتسامي حالتهم الروحية المتألقة. ٢- وهكذا المؤمن يتقوى بالله ويسلم أمره إليه ولا يطلب من خصمه السلامة والعافية ، وإنما يطلب من الله وحده ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان وأمام الوعي ، إنه الإيمان الثابت الذي لا يملك أمره إلا الله ، إنه موقف مبدئي حاسم في تاريخ البشرية بانتصار العقيدة على الذات والحياة ، وانتصار العزيمة على الألم ، وانتصار حب الله على حب الدنيا ، وانتصار الإيمان على الشيطان ، انتصار الحرية على طغيان الطغاة ، والحرى يبقى حراً ولو مسه الضر كقوله ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ طه/ ٧٢ . ٣- (أفرغ علينا صبراً) إفرغ الصبر : صبّه صبراً علينا حتى يغمرنا كما يغمر الماء الأرض من قبيل الاستعارة ، شبه الصبر على إرهاب فرعون بالماء الغامر لأن الإفرغ من لوازم الماء وملاءماته ، فإن المحنة قاسية والبلاء شديد ، وذلك أمر يحتاج إلى كثير من إمداد الصبر حتى يمتلى كياننا ، لذلك استعانوا بالله فهو خير معين . ٤- أما موقف فرعون من موسى ، فألقى الله الرعب في قلب فرعون فلم يبادر في تهديده والتحرّش به واعتقاله !

١٢٧ - ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فرعون أَنذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالَّذِينَ قَالُوا سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

لما رأى فرعون من موسى ما رأى خافه وألقى الله الرعب في قلبه ولم يتعرض له بسوء بل خلى سبيله وترك بني إسرائيل أحراراً ، لذلك قال الملأ الذين يملؤون العيون مهابة وهم المقربون لفرعون أتترك موسى وجماعته المؤمنة بالخروج عن دينك وترك عبادة أهلك ، وهم يدعون إلى عبادة الله

وحده واجتمع حوله خلق كثير فخاف الملا على امتيازاتهم بين الناس ، وهذا تحريض على قتلهم وتعذيبهم، وهذا هو دأب حاشية السوء المرتزقة يحرصون حكامهم الطغاة على الشر خوفاً على مصالحهم (وَيَذْرَئُكَ وَأَهْلَتَكَ) أتى يكون لفرعون آلهة وهو القائل ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص/٣٨، والجواب: جعل فرعون للناس أصناماً يعبدونها وجعل لنفسه إله الألهة غوراً واستكباراً لذلك قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ النازعات/٢٤ ، ويصوّر الإمام علي (ع) هذه الحالة، في غرر الحكم: (كَفَى بِالْمَرْءِ غُرُورًا أَنْ يَتَّقَ بِكُلِّ مَا تُسْأَلُ لَهُ نَفْسُهُ) في غرر الحكم (قَالَ سُنُقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) أجاهم فرعون بكبريائه سنقتل أبناءهم الذكور ونستحي نساءهم للخدمة والفجور ، كما كنا نفعل بهم ذلك قبل ولادة موسى وإنا عالون فوقهم بالقوة والقهر والسلطان إنه الطغيان في كلّ زمان ومكان ، تتعدّد أشكاله وتتفق مضامينه ، ولما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد خافوا من فرعون فطمأهم موسى (ع) .

١٢٨ - ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْمَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

قال موسى لقومه (تسلية لهم وفتح باب الأمل أمامهم مما سمعوا) تهديد فرعون فخافوا (استمعينوا بالله) أطلبوا المعونة والتأييد من الله على رفع ذلك التهديد والوعيد من فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم أي استمعينوا بالله بالتوكل عليه (فَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) مِنْ رَحْمَتِهِ، (وَاصْبِرُوا) على حكم الله فمن صبر ظفر ومن لجّ كفر ، وتحملوا الصعاب في مواجهة هذه المحنة ، وفي المَحْنِ مَنَحٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكَارِمٌ، وَفِي الشَّدَائِدِ خِبْرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وَالْبَلَاءُ بَدَائِئُ نَهَائِيَّتِهِ الْكِرَامَاتُ! وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، ووعدهم بالنصر إذا هم صبروا وإتقوا الله (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) معلناً هذا القانون الرائع وهذه الحقيقة الحركية المؤثرة: إن الأرض ملك لله وهو مالك الملك وكل شيء طوع أمره لا لفرعون ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية/١٩ ، والله يعطي ملكه لمن أراد من عباده ، وفق سنّته وحكمته من اتّخاذ الأسباب المناسبة (والله يُهْلِكُ مُلُوكًا وَيَسْتَحْلِفُ آخَرِينَ) ويداول الأرض بين الناس أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) والنتيجة النهائية المحمودة لمن اتقى الله وهذه سنة ثابتة نافذة طال الزمن أم قصر ، ولا يخايل لهم تقلّب الذين كفروا في البلاد فيحسبونهم باقين ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥ .

فائدة: ١- الصبر والصبر الجميل من معانيه تحمّل المكاره للنهوض والتعلّب على ظلم الظالم والتخلّص من مكروه وكيد وشره ورفع التخلف عن الإنسان ، فالصبر رائد الخير وحث على التقدم وتحصيل ما تريد بأقلّ الخسائر ، وصبر على غصّة المعاناة حتى تحين الفرصة المناسبة للفرج، أي الصبر اللازم في الوقت المناسب في المكان المناسب والعمل المناسب لتحصيل هدف مناسب ،

وليس الصبر خنوعاً وخضوعاً تحت الذلة والهوان وإهانة الإنسان وإضاعة الفرص ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان/١٧ ، العزم : الإرادة المتقدمة على الفعل . أي واصبر على ما تلاقيه من الأذى والمشاكل والأضرار فإن ذلك الصبر يعطيك عزم وقوة وإرادة بحيث تظفر بحاجتك ، ويعطيك عزم آخر وخبرة أخرى أن تجتاز الصعاب بشكل أكثر كفاءة في المستقبل ، وبالصبر المناسب تدرك الرغائب ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ آل عمران/١٢٠ .

٢- من وظيفة الإنسان أنه عند القدرة والاستطاعة عليه توفير الأسباب الدافعة عنه كل سوء وأذى الغير بقدر ما يستطيع ، أما عند العجز أن يصبر ويتقي الله ويستعين به سبحانه وينتظر الدور المناسب والفرصة المناسبة .

١٢٩ - ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَسْلُمُونَ﴾

هنا يشكو المستضعفون لنبيهم ظلم المستكبرين قالوا أوزينا بالبلايا النفسية والجسدية وتنغصت معيشتنا قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها فهم في معاناة مستمرة ومكابدة دائمة لم تفارقهم قبل بعثة موسى وبعد بعثته ، فمجيتك إلينا مثل عدمه ! لأنه لم يغير شيئاً من أحوالنا السيئة ! كان ابتلاؤهم القاسي على ضوء طبيعتهم القاسية و(البلاء على قدر الطباع) ! يجيبهم موسى بثقة عالية ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أمل كبير من ربكم أن يهلك عدوكم الطاغية وأعوانه المجرمين ويجعلكم تخلفوهم في أرضهم بعد هلاكهم ويمنّ عليكم بالاستقلال بشرط الصبر الجميل والطاعة الصادقة كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦ ، وحين يتسلمون الخلافة سوف ينظر ماذا تفعل هذه الفئة تجاه مسؤولياتها ، وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ طه/٧ ، ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان ما هو مكشوف من الغيب المستور لعلمه القديم بالأحداث (فينظر) فيكون معنى فينظر أي ليعلم العلم على أرض الواقع المطابق لعلمه في الغيب ، هل تصلحون أم تفسدون ، هل تشكرون أم تكفرون ؟ ثم يجزيكم بما تستحقون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ المائدة/٤٨ ، والغرض خلق لهم الأمل لمواصلة العمل وتحريضهم على طاعة الله ، فائدة : ستبداً بعد انتصاركم مرحلة امتحانكم واختباركم اختبار شعب كان فاقداً كل شيء ثم حصل على كل شيء في ضوء الهداية الإلهية ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الأعراف/١٣٧ ، استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم وليس أنهم أبناء الله وأحباؤه كما زعموا ولا أنهم شعب الله المختار ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ المائدة/١٨ .

١٣٠ - ﴿وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

إنَّهَا إِشَارَةٌ التَّحذِيرِ الْأُولَى ، وَاللَّهُ لَقَدْ أَخَذَنَا أَيِّ ابْتِلَانٍ وَابْتِلَانٍ وَابْتِلَانٍ (آلِ فِرْعَوْنَ) وَخَاصَّتَهُ وَأَتْبَاعَهُ (بِالسِّنِينَ) بِالْجُدْبِ وَالْقَحْطِ وَضَيْقِ الْعَيْشِ (وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ) وَابْتِلَانِهِمْ بِإِذْهَابِ الثَّمَارِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَفَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا أَخَذُوا بِالضَّرَاءِ لِأَنَّ أَحْوَالَ الشَّدَّةِ وَالْحِنَّةِ تَرْفُقُ الْقُلُوبَ وَتَرْغَبُ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ وَتَشْجَعُ عَلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَفَقَّ لِسَنَةِ اللَّهِ فِي تَنْبِيهِ الْأُمَّمِ (لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ) كَيْ يَتَذَكَّرُوا وَيَتَعَطَّوْا وَيَعُودُوا إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَيَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ ، فَصَارَتِ الْحَنُّ وَالشَّدَائِدُ وَالْمُصِيبَاتُ مُوجِبَاتِ الْإِتْبَاهِ وَالِاعْتِبَارِ وَلَكِنْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَوْلِي الْأَبْصَارِ ، أَمَّا أَهْلُ الْعَصْبِيَانِ وَالطَّغْيَانِ لَا تَوْقِضُهُمُ الْحَنُّ وَالنَّعْمُ ! ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ تِلْكَ الْحَنِّ الْمُتَتَابِعَةِ وَالشَّدَائِدِ الْمُتَرَادِفَةِ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَمَرُّدًا وَكُفْرًا لِشَدَّةِ اسْتِكْبَارِهِمْ وَطَغْيَانِهِمْ وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) : (وَمَا قَسَتِ الْقُلُوبُ إِلَّا لِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ) الْبِحَارِ ٥٥٠/٧٠ ، وَهَكَذَا جَاءَ بِلَاءُهُمْ عَلَى قَدْرِ طَبَاعِهِمْ ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آلِ عِمْرَانَ/ ١٥٤ .

١٣١ - ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَيْسَ أَتَانِئُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الْحَسَنَةُ : مَا يَسْتَحْسِنُهُ الْإِنْسَانُ ، وَالسَّيِّئَةُ : مَا يَسُوُّهُ ، فَإِذَا جَاءَهُمُ الْخُصْبُ وَالرِّخَاءُ وَكَثُرَتِ الْخَيْرَاتُ وَسَعَتِ الْعَيْشُ قَالُوا بَغْطَرَسَةً وَكِبْرِيَاءَ (لَنَا هَذِهِ) أَيِّ بِسَبَبِ جِدَارَتِنَا وَحَسَنِ تَدْبِيرِنَا لِلْأُمُورِ ، وَنَحْنُ مُسْتَحِقُونَ لِذَلِكَ الْبَذْخِ وَالرِّفَاهِيَّةِ دُونَ سَوَانَا ، إِنَّهُمْ يَفْسِّرُونَ الْأَحْدَاثَ حَسَبَ شَهْوَاتِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ) التَّشَاوُمُ : التَّشَاوُمُ (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ) وَإِنْ يَصِيبُهُمُ الْجُدْبُ وَالشَّدَّةُ وَالْبِلَاءُ وَالْجُوعُ وَقِلَّةُ الْمَطَرِ وَالثَّمَرِ وَضَيْقِ الْعَيْشِ تَشَاءَمُوا مِنْ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَغَفَلُوا عَنِ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ وَظَلَمِهِمْ لِقَوْمِ مُوسَى (ع) (أَلَا إِنَّمَا طَأْتَرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ) أَلَا إِنَّ مَنْشَأَ كُلِّ شَوْمٍ وَبِلَاءٍ أَصَابَهُمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ الْمُشْوَمَةِ ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الْأَنْبِيَاءِ/ ٣٥ ، (طَأْتَرَهُمْ) كِنَايَةٌ عَمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَأَنَّهَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ ضَمِنَ قَانُونُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ ، وَإِنْ تَشَاءَمُوا مِنْ مُوسَى (ع) جَهْلٌ وَقَبَاحَةٌ وَوَقَاحَةٌ ، أَلَا أَنَّ مَا تَشَاءَمُوا بِهِ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِمْ فَيَجَازِيهِمْ بِهِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) لَا يَتَفَكَّرُونَ لِيَعْلَمُوا سَنَنَ اللَّهِ وَقَوَانِينَهُ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا لِحَقَّهُمْ مِنَ الْقَحْطِ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَعَاصِي تَزِيلُ النِّعْمَ وَتَجْلِبُ النِّقْمَ وَلَهَا آثَارٌ سَلْبِيَّةٌ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشُّورَى/ ٣٠ . فَانْدَةٌ : ١- (يَطَّيَّرُوا) يَتَشَاءَمُوا ، وَسَبَبُ إِطْلَاقِ التَّطْيِيرِ عَلَى التَّشَاوُمِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَوَقَّعُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِمَّا تَرَاهُ مِنْ حَرَكَةِ الطَّيْرِ فَإِذَا طَارَتْ مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ تَيَمَّنَتْ بِهَا وَرَجَّتِ الْخَيْرَ ، وَإِذَا طَارَتْ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ تَشَاءَمَتْ وَتَوَقَّعَتِ الشَّرَّ ، وَسَمَّوْا الشَّوْمَ طَيْرًا وَالتَّشَاوُمَ تَطْيِيرًا . ٢- حِينَ تَنْحَرِفُ الْفِطْرَةُ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، فَإِنَّهَا لَا تَرَى تَدْبِيرَهُ

سبحانه في تصريف سنن الوجود ولا ترى قدره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث ، وعندئذ تفقد إدراكها بسنن الله الثابتة فتفسر الحوادث تفسيرات بعيدة عن هذه السنن فيقعون في الجهل والضلال البعيد كما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص/٧٨، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) وهكذا ينكرون غيب الله وتدييره للأمر ، وهكذا الجهل مُبْتِئُ الأحياء، وَمُخَلِّدُ الشَّقَاءِ وهو الداء العياء ويدفع إلى كلِّ سوءٍ وبلاء ، والقرآن ينهانا عن الجهل فيقول ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الأنعام/٣٥. ٣- (الحسنة) جاءت الحسنة مع الألف واللام (إذا) وذكر (سيئة) نكرة مع (أن) إشارة إلى أن النعم كانت تنزل عليهم بصورة متتابعة ، بينما كانت البلايا تنزل بتقطع يعني بعض الأحيان . عن الإمام الصادق (ع): (الطَّيْرَةُ عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا إِنْ هَوَّنتَهَا تَهَوَّنتْ، وَإِنْ شَدَّدْتَهَا تَشَدَّدَتْ، وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْهَا شَيْئًا لَمْ تَكُنْ شَيْئًا) الأمثل ١٦٠/٥ .

١٣٢ - ﴿وَقَالُوا مَهْمَا نَأْتَانِيهِ مِنْ آيَةٍ تَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

قال قوم فرعون الطغاة لموسى أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات الخوارق لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك فلا تتعب نفسك معنا ! إنهم يزعمون أن موسى يريد أن يسحرهم بها ، وكلمة (لك) تشير أن العناد لدافع شخصي لا مبدئي ، وفي الوقت نفسه اعتراف بالعجز عن مواجهة موسى بالحجة والبرهان ، إنهم تأخذهم العزة بالإثم ، وهذا مجتمع متعالي على الحق ومصاب بأمراض الطغيان والعناد ، ومن ضاق عليه الحق فالطغيان عليه أضيق ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأَبٍ﴾ ص/٥٥ ، وهكذا تتبين سنة الله في الابتلاء على قدر الطباع ، لأنَّ (الْبَلَاءُ عَلَىٰ قَدْرِ الطَّبَاعِ) كلما قسى طبع الإنسان قسى بلاؤه بقدره ، وهذا قانون يشمل الفرد والمجتمع ! فائدة : تدلُّ الآية : أن الإنسان حرٌّ في اختياره كقوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/٣ .

١٣٣ - ﴿فَأمرُسْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

كان جزاء عناد فرعون وقومه أن ابتلاهم الله بعقوبات قاسية حسب قسوة طباعهم ، بخمسة أنواع من العذاب المادي والمعنوي (عذاب نفسي) آيات مفصلات واضحة الدلالة متناسقة الخطوات مختلفة التأثير ، إنَّها خمسة آيات مع أربع آيات سابقة العصا واليد البيضاء والسنين (القحط) ونقص الثمرات فيكون تسع آيات بينات. الطُّوفَانُ كثرة الأمطار المغرقة والسيول المدمرة لكلِّ شيءٍ والمتلفة للزروع والثمار والأشجار فخربت دورهم وكادوا يهلكون وامتلاَّت بيوت القبط ماءً ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة ، فقالوا لموسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا (والجراد) فأنزل الله عليهم في السنة الثانية الجراد فأكل زروعهم وأشجارهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم وكانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل فعجبوا وضجَّوا، وجزع فرعون وقال يا موسى أدع لنا ربك أن يكشف

عنا الجراد فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا (وَالْقُمَّلَ) فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمل وهو يقضي على الحيوانات والنباتات وهو آفة السوس فتخر حيوهم وتعلق بجلودهم وشعورهم ، وكان يدخل القمل بين ثوب أحدهم وجلده ويمص دمه وهو شر ما يكون وأخبثه وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلئ قملاً وقال فرعون لموسى ادع لنا ربك لئن كشف عنا القمل لأكفرنَّ عن بني إسرائيل فدعا موسى حتى ذهب القمل فلم يؤمنوا ، فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة.

(الضَّفَادِعُ) ملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم وفرشهم وأوانيهم وإذا تكلم أحدهم دخل الضفدع إلى فمه فشكو ذلك إلى موسى وقالوا هذه المرة نتوب ولانعود فادع الله فأخذ عهودهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع فلم يؤمنوا ، في السنة الخامسة أرسل عليهم (الدَّم) صارت مياههم دمًا فما يسقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دمًا ، حتى نهر النيل صار لون مائه لون الدَّم فرفضته الطَّباع البشرية ، فكان القبطي يراه دمًا والإسرائيلي يراه ماء وكان القبطي يقول للإسرائيلي خذ الماء في فيك وصبه في فمي فكان إذا صبّه في فم القبطي يحول دمًا وهكذا أصاب فرعون مباشرة ..

(آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) علامات ظاهرات قطعيات الدلالة فيها عبر وعظات كثيرة ، ومن لم يكن من نفسه واعظاً لا تنفعه المواعظ ولم يكن له من الله حافظ ، والجاهل المتكبر لا ينتفع بأي موعظة لأن عليه حجاب من الغرور ﴿وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الحديد/١٤ ، كلّها علامات باهرات متفرقة بينها فواصل زمنية كي تكون هناك فرصة للتفكير واليقظة (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) فاستكبروا عن الإيمان وكفروا بكل المعجزات مع شدة هذه البلايا والكروب ! لغلوهم في الإجمام ولخبت نفوسهم . فائدة : (مجرمين) أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ، وتوسّع معناه لكلّ اكتساب مكروه ويُقال اللحم المجروم أي المفصول عن العظم ، وكذلك المجرم فإنّه أخبت المعتدين فهو منفصل عن الصفات الإنسانية السوية والأخلاق البشرية المعروفة ، في غرر الحكم : (شَرُّ النَّاسِ مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ) .

١٣٤ - ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ

بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

الرِّجْزُ : العذاب الشديد الناتج عن عقوبة رادعة تضطرب لها الناس (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ) المتمثل بالطوفان والجراد والقُمَّل والضَّفَادِعُ والدَّم (قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق من أكرمك بشرف النبوة (لَئِن كَشِفتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقن سراح بني إسرائيل وكانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال وأشققها . فائدة : ١- (بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) المراد بالعهد النبوة وسميت النبوة عهداً للمبالغة في وفاء

النبي لعهد مع ربه فجعلت النبوة نفس العهد حيث لا فرق بين النبوة وعهدا ، ٢- (رَبِّكَ) ولم يقولوا (ربنا) للدلالة على كفرهم مع كثرة الدلائل القاطعة على الإيمان ، وهكذا الذي لا يرضى بالرحمن يرضى به الشيطان ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/ ٣٨.

١٣٥ - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَبْكُونَ﴾

الرجز : العذاب الشديد الذي يضرب له الناس وهو في الأصل انحراف عن الحق ، لكي تتم الحجة البالغة عليهم يستجيب الله دعاء موسى ويكشف عنهم العذاب (إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ) إلى فترة معينة معلومة محدودة كي يمهد لهم سبيل التوبة وقيم عليهم الحجة . في الآية إشارة إلى أنّ موسى (ع) كان يقول لهم : في وقت كذا سيرفع هذا البلاء عنكم ، حتى يتضح أن ارتفاع ذلك البلاء عنهم ليس صدفة عابرة بل هو بفضل دعائه (ع) وبرحمة الله بهم (إِذَا هُمْ يَبْكُونَ) ينقضون عهودهم ووعودهم القاطعة التي منحوها لموسى ويصرون على الكفر والجحود بشكل عجيب وغريب في كل مرة إلى التجربة الخامسة ، والذي لا يلبث به الإيمان يضره الكفر .

١٣٦ - ﴿فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

ونقضهم للعهود المتكررة مع موسى جعلهم مؤهلين لانتقام الله منهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران/ ٤ ، بالإغراق في البحر (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) بسبب تكذيبهم بآيات الله مستكبرين عليها وغفلتهم عنها وعدم مبالاتهم بما يراد منها ، أحسرت الناس من كان عبدة للناس فلا تغفل فليس بمغفول عنك ، في غرر الحكم: (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن) ، في غرر الحكم: (لا تثقن بعهد من لا دين له). فائدة: ١- يربط السياق القرآني بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها وبين هذا المصير المقدر ، ويقرر أنّ الأحداث تجري على ضوء سنن ثابتة ولا تجري مصادفة كما يظن الغافلون. ٢- (فاتقمتنا) فالله أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة ، وأشد المعاقبين في موضع التكال والتقمة ، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة .

١٣٧ - ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكَمَتِ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى

بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾

وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يستذلهم فرعون بالخدمات الشاقة أورثهم أرض مصر وبلاد الشام وفلسطين وملكناهم جميع جهاتها ونواحيها ، مشارقها ومغاربها فكأثم ورثوا منهم ذلك (التي باركنا فيها) بزيادة الخيرات وكثرة الثمرات بزيادة المياه وخصوبة التربة (وكتمت كلمة ربك الحسنَى على بني إسرائيل) وتم تنفيذ وعد الله الصادق بالتمكين في أرض مصر الواسعة العريضة لبني إسرائيل ونصرهم إياهم على عدوهم الظالم ، (كلمة ربك الحسنَى) هي قوله ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص/ ٥ ، (بما صبروا) بسبب

تحملهم المعاناة وصبرهم على الأذى كقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة/٢٤، (ومن صبر ظفر) (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يِعْرِشُونَ) يِعْرِشُونَ : رفع المباني والسقائف للنبات المتسلق كالعنب ، أي وهدمنا وخربنا ما كانوا يبنون من الأبنية والقصور التي كان يشيدها فرعون وجلالوته وما كانوا يعرشون من المزارع والبساتين والأعناب وأنواع الأشجار والثمار . (العبرة من هذه الآيات القرآنية) : كشف الصراع بين الحق والباطل ، معرفة منطق المستكبرين ومنطق المستضعفين ، إنَّ للباطل جولة ومهلة وللحق دولة مستقلة وعزة، ولنصرة الحق دعوة واعية إليه وقيادة حكيمة تقود الجماهير بكفاءة ونزاهة ، ولهذا يجدر ألاَّ تستعظم قوة الدول الكبرى أمام قوة الحق وقدرة أهله ﴿إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ مُجَّد/٧ ، نهاية عصر فرعون المستكبر وبداية عصر حديث من بني إسرائيل المستضعفين في حالة استخلافهم وتمكنهم في الأرض.

فائدة: ١- من هو المستضعف ؟ هو مقابل المستكبر وهو من أصابه الضعف وانحياز الإرادة بسبب ظلم الظالمين ، سواء أكان الاستضعاف نفسياً أو ثقافياً أو بدنياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو غير ذلك أي استضعاف من جميع الجهات وفي جميع النواحي ، وليس المستضعف بمعنى الفقير وإنما هو العاجز عن تحسين أوضاعه للظروف القاهرة عليه، وهناك مستضعف بالفعل والقوة، وهناك مستضعف بالقوة ولكنّه مستكبر في الفعل والحقيقة، يعني أنّه مستضعف في الظاهر مسلوبٌ قوّته وإرادته ولكنّه إذا استلم سلطة أو منصب بالفعل فيكون دكتاتوراً ظالماً فاسداً! وسنّة الاستضعاف مرحلة تربوية بالحنّة لتزكية النفس لإعدادها لمرحلة الاستخلاف، والذي لا تنفعه مرحلة الاستضعاف لا تنفعه مرحلة الاستخلاف واستلام السلطة أو المنصب، كقوله ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الأعراف/١٣٧، ولم يقل (وأورثنا بني إسرائيل) لأن نصرة الله تعالى للمستضعفين لا تخصُّ قوم بني إسرائيل وحدهم، وأنّ القرآن يكشف عن سنّة إلهية فعالة مستمرة شاملة دائمة التأثير والتدبير والتقدير في ظروف مناسبة. ٢- (وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ) (كَلِمَةُ رَبِّكَ) كلمة عامة تشمل المؤمنين الصالحين فهم مخصوصون بدعمنا ونصرنا في كلّ زمان ومكان مناسبين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ النور/ ٥٥ .

١٣٨ - ﴿وَجَاوَرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

انتهت متاعب موسى (ع) مع فرعون وقومه ، فابتدأت متاعبه مع بني إسرائيل وهي أمر وأشد على نفسه من متاعب فرعون أضعافاً مضاعفة . المعنى جَاوَرْنَا : تجاوز الشيء أي تعداه ، عبرنا

ببني إسرائيل البحر وهو بحر القلزم أو يسمّى بحر سوف بين مصر وسيناء سالمين برعاية إلهية خاصة عند خليج السويس الآن ، ونلاحظ (جَاوَزْنَا) عبرناه بعناية الله وتأيدته فكأنه معهم بذاته ومدبراً ومعيناً مصاحباً لهم (فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ) مروا على قوم (يَعْكُفُونَ) أي يلازمون على عبادة أصنام لهم (قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها !! إنهم استحسنوا ذلك وأرادوا أن يكون في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله ، وكأنهم لن يؤمنوا بالله حتى يتجسّد لهم ويروه رأي العين في صورة محسوسة ملموسة مجسدة ! وكأنهم لم يروا المعجزات الكبرى الخارقة بأبصارهم ! وكأنهم نسوا كيف أغرق الله عدوهم فرعون وجنوده ، ولو أنهم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا من موسى (ع) معلمهم التوحيد ومنقذهم من فرعون ومخلصهم من الذل ، يطلبوا منه أن يتخذ لهم آلهة بنفسه وييده ، إنها جلالة اليهود وغرابة طبائعهم ، فلا يجد موسى (ع) من وصفهم بالجهل (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) الجهل من الجهالة ضدّ المعرفة ، والجهل من حماقة ضدّ العقل ، والجهل يزلّ القدم ويسطح الفكر وينقص العيش ويكره الأيام ، تعجب من قولهم القبيح الخبيث الدال على نفوسهم القبيحة فوصفهم بالجهل المطلق المركب الشنيع الفظيع الدال على لؤمهم وسفاهتهم، إنّ انحرافهم عن التوحيد إلى الشرك إنّما ينشأ من الجهل والخساسة والحماقة أي الجهل المركب المضاعف، وأنّ العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد ، والذي لا ينفعه العلم يضربه الجهل. بينما طريق الوثنية وكل طريق دون الله فهو وثنية لسعة مدليلها يؤدي نتيجه إلى الهلاك، وهكذا لا يعرفون قدر ربهم لأنهم لا يعرفون قدر أنفسهم، ومن عرف قدر نفسه عرف قدر ربه في غور الحكم (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِيهِ) وفيه (مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) وفيه (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ) ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩

١٣٩ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ بِآطِلٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

مُتَّبِعٌ : مدبّر ومهدّم ، إنّ هؤلاء ضائعون فاسدون هالكون لأنفسهم ولغيرهم لا ينتج منهم إلّا الضلال والحماقة والدمار ما هم فيه من أوهام واعتقادات الشرك والإلحاد في عبادة الأصنام الحجرية أو (البشرية) (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) باطل عملهم الإلحادي مضمحل لا معنى له وهو ضياع لا هدى فيه وهلاك لا نجاة منه وسبيل معوج وخبيث لا استقامة فيه ولا خير إنه سبيل الشرك ، والشرك الحفي والجلي والتجسيم ، فلا يحقّ أن يميل إلى هذا الضلال إنسان عاقل، وينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك في نهاية المطاف عن النبي (ص) : (إِنَّكُمْ تَرَكَبُونَ سُنْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ، حَتَّى لَا يُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُخْطِئَكُمْ سُنَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، وفي ذلك دلالة: إنّ المسلمين أشبه الأمم ببني إسرائيل في الطبائع والصفات والعادات تتبعون

عملهم، حتى لو أن من أولئك دخل جحر ضب (سبل المناهات) لدخلتموه، ولو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في المسلمين مثله..) الميزان ج ٣ ص ٣٧٩، عن صحيح الترمذي، والدر المنثور، وفي كمال الدين

١٤٠ - ﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أَيْبِيَكُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

أطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة الكامل بذاته والمكتمل لغيره والحال أن الله فضلكم على غيركم تفضيل نعمة لا تفضيل قيمة ، فضلكم على عالم زمانكم ، فكيف يتبغي الإنسان رباً غير الله وهو المحسن والرحيم والمنفصل والمرتب وكل النعم منه تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣، وأيضاً الله فضلكم على العالمين بكثرة الأنبياء وتنوع المعجزات وزيادة الخيرات ، فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر ، وبالشكر تدوم النعم وتدفع النقم ، ولكن قابلتم هذه النعم بالجحود والشرك والفساد وعبادة العجل !! ومن علامات اللئيم مقابلة الإحسان بالعصيان ومن علاماته أيضاً إذا أخذ اللئيم فوق مقداره تنكرت أحواله . فائدة : إن الإله ليس شيئاً مادياً حسيماً يلتمس وتراه العيون، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور/٣٥ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١، تراه البصائر بحقائق الإيمان أكثر وأحسن مما تراه العيون بحقائق الأبصار ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الأنعام/١٠٣ ، (إن الله أجل وأعظم من أن يبلع كنه صفته ، فصمؤه بما وصف به نفسه)، عن الإمام علي (ع): (كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنِ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ) شرح النهج/٧/٢٣٧، في غرر الحكم: (التَّوْحِيدُ أَنْ لَا تَتَوَهَّمْ)، وفيه أيضاً (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ)، واطمئنان القلب واستقامة الفكر والسلوك ، والتوحيد ارتباط بالله تعالى، وإحسان إلى الناس .

١٤١ - ﴿وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل تكريمي لكم بالنعم الكثيرة التي مرّ ذكرها حين أنجيتكم وخلصتكم من فرعون وظلمه وجلاوزته كانوا (يسومونكم سوء العذاب) يذيقونكم أفظع أنواع العذاب بإكراه وإذلال فما كان شيء من ذلك البلاء العظيم جزافاً بلا تدبير ولا تقدير ، ولكنه الابتلاء للاختبار والإيعاظ والتذكير والتحميص والتدريب (يقتلون آبائكم ويستحيون نساءكم) يذبحون الذكور ليضعفوكم باستمرار ويستبقون الإناث لإذلالهن في الخدمات المتنوعة الدليلة ومنعاً للتكاثر (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) البلاء : الامتحان فيتناسب حجم البلاء مع نسبة الطباع، كلما قست الطباع البشرية جاء البلاء متناسباً معها وبقدرها حتى قيل (البلاء على قدر الطباع)! ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩، أي: وفي هذا العذاب اختبار وامتحان من الله لكم عظيم على نفوسكم فنجاكم منه أفلا تشكرونه؟ وفي المحن منح من الله وفي المكآره مكآرم، وفي

(ع): (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَفِيهِ مَشِيئَةٌ وَقَضَاءٌ وَابْتِلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤ كقوله ﴿وَلْيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران/ ١٥٤

١٤٢ - ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قِسْمَاتٍ مَرَّةً بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

المِيقَاتُ : الوقت الذي فيه عمل في مكان معلوم ووقت محدد . المعنى : وعد الله موسى لمناجاته (وتسمى مناجاة الكليم) في جبل طور وبعد مضي ثلاثين لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ لَيَالٍ فتمت المناجاة بأربعين ليلة وذكرت الليالي دون الأيام لأنها الأنسب للتقرب إلى الله وذكره ، وأغلب مناجاة موسى لربه كانت تتم في الليالي ، وكان تكلمه مع ربه بوحي من وراء حجاب ، لإثبات أن الله لا يمكن أن يدرك بالبصر ، روي : أن موسى (ع) وعد بني إسرائيل إن أهلك الله عدوهم أتاها بكتاب من عند الله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة/ ١٥ ، يعرفون فيه منهجه وأمور دينهم وحلاله وحرامه ، فلما هلك فرعون سأل موسى (ع) ربه الكتاب فوعده أن ينزله بعد ثلاثين ليلة من ذي القعدة وأزادها بعشرة ليالٍ من ذي الحجة من إنزال الكتاب ليتأهب لحمل الأمانة وتلقي الرسالة من قبل رب العالمين وتبلغها لبني إسرائيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ المزمل/ ٥ ، وربما كانت هذ المدة أمراً ضرورياً لتهيئة النفوس وإعدادها لهذا الأمر العظيم ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وقبل الذهاب إلى ميقات ربه أوصى موسى (ع) أخاه كُن خليفتي في قيادة الناس إلى أن أرجع، فتقبل هارون نصيحة أخيه الأمين العام على الرسالة ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وأن يكون في إدارته صالحاً نافعاً لهم ما استطعت، في غرر الحكم: (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) وأن يتجنب طريق المفسدين وطبائعهم وإقتراحاتهم في معصيتهم لله في غياب موسى وهو تحذير ضروري بسبب وجود عناصر مفسدة ويؤثر شريعة في بني إسرائيل كان (ع) يعاني منهم لهم حضور سياسي واجتماعي واقتصادي لا يستهان به . فائدة:

١- (أربعين ليلة) إنها عدة معينة لها خصوصية لترويض نفس موسى على اللقاء الموعد وينعزل فيها عن شواغل الجسد ليستغرق في شواغل الروح ، ويعتكف فيها عن الخلق ليزداد قرباً وحباً وجذباً ووداً في الخالق الجليل ، وتصفو روحه وتنشف وتستضيء وتتقوى عزيمته في مواجهة المسؤولية الرسالية الكبيرة لهؤلاء القوم الذي يصعب تحملهم وقيادتهم . فتكون مدة أربعين ليلة من تمام النعمة التربوية التي تحقق غاياتها من التمام والكمال ، فمن خصوصية الأربعين أن لها تأثيراً فاعلاً في شفافية النفس ورقة القلب وتهذيب الطبائع وتخليق الروح ، فتظهر ينابيع الحكمة من قلوب الأولياء كقول النبي (ص) : (مَنْ أَحْلَصَ اللَّهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ) الدر

المثبور ٢/٢٣٧، كقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الأحقاف/١٥، هناك علاقة بين بلوغ الأشد وكمال العقل وبين الأربعين سنة ، وفترة التيه لبني إسرائيل في الصحراء كانت أربعين سنة ، وبعث النبي مُحَمَّد (ص) للرسالة في سنّ الأربعين، وعن النبي (ص): (مَنْ حَفِظَ عَنِّي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِ .. بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمِيهَا عَالِمًا) البحار ٢/١٥٤.

٢- الفرق بين الميقات والوقت : إنّ (الميقات) وقتٌ فيه عمل معيّن مؤقت ضمن زمن محدود كمواقيت الحج ، أمّا (الوقت) تحديد زمن بلا عمل وإن تحدّد الوقت بزمن. ٣- تفاضل درجات الأنبياء (ع) : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ البقرة/٢٥٣ ، ولكنه منع الرؤية عن موسى (ع) ومنهم منع المناجاة عن هارون (ع) وكان هارون شريكه ووزيره ونصيره في الأمر وكان الأكبر سنًا ، ولكن لكلّ مقامٍ رجالاً قال النبي (ص) لعلي (ع) : (أَنْتَ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي) صحيح مسلم ٤/١٨٧.

١٤٣ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أْمُرْ بِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ لِنَ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا) للوقت الذي حدّدناه فيه وناجاه وكلمه ربه تكليماً من وراء حجاب بغير واسطة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الشورى/٥١ ، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ النساء/١٦٤ ، بلا جوارح ولا أدوات ولا شفة وسمعه السبعون الذين كانوا معه قالوا لن نصدّق أنّ هذا صوت الله حتّى نراه عياناً ، وحين سمع موسى كلام ربه اشتاقت نفسه أن يرى ربه (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) أريني يا رب ذاتك المقدسة أنظر إليها ، إني رأيتك بقلبي وعقلي وأحب أن تتجلى لعيني من دافع حب وشوق ليكون أقرب إلى الحس ، لينتقل من عالم الإيمان العقلي إلى الإيمان الحسي وتجاوز درجة علم اليقين ودرجة عين اليقين ليصل الإنسان إلى درجة حقّ اليقين وإطمئنان القلب ، لم يطلب الرؤية لذاتها وإنما طلبها لغيرها لمعرفة القرب من عظمتها ، إذ الرؤية الحسية بمعنى الجسمية والتحديد والتركيب والإحتياج للمكان والزمان وكلها مستحيلة لأن ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور/٣٥، (قَالَ لَنْ تَرَانِي) لأن هذه الرؤية ممتنعة ذاتاً لأن البنية البشرية لا طاقة لها بذلك لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الأنعام/١٠٣ ، (وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي ولكن سأتجلى لما هو أقوى منك وأثبت وأكبر وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه فسوف تراني وثبتت رؤيتي وإلا فلا طاقة لك بها ، فلم يثبت الجبل إذن فالرؤية ممتنعة وغير ممكنة (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) فَلَمَّا (تَجَلَّى) أي ظهر

أمر ربّه أو ظهر من نور الله قدر قليل على الجبل انهار وتفتت الجبل وصار مدكوكاً مفتتاً وسقط موسى (صعقاً) مغشياً عليه وغائباً عن وعيه أي وصعق من هول ما رأى ، ومات السبعون الذين كانوا معه كلهم كقوله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر/٢١ ، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلما صحا من غيبوبته وأدرك مدى طاقته قَالَ (سُبْحَانَكَ) تنزيهاً لك يا رب عمّا لا يليق بك من الرؤية وغيرها وبراءة أن يراك أحد ، إني تجاوزت الحدود فتبت إليك من سؤالي رؤيتك.

(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) من قومي بأنك لا تُرى ، وأوّل المصدّقين بعظمتك وأوّل المبادرين في طاعتك وأوّل المنقادين لجلال وجهك ، وليس المراد (أول المؤمنين بحسب الزمان وإنما المراد أول العاملين بأوامرك وأوّل المبادرين بطاعتك وأوّل السّاعين لرضاك ، وهذا يستدعي إلى التسابق في أعمال الخير حتى يكون دائماً من الأوائل في كلّ شيء صالح ينفع النّاس ، وهذا حس حضاري نهضوي متألّق في التقدم المادّي والمعنوي والأخلاقي والعلمي ..

فائدة : سُئِلَ الإمام علي (ع) : هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فقال (ع) : (وَكَيْفَ أَعْبُدُ مِنْ لَمْ أَرَهُ ، لَمْ تَرَهُ الْعَيْونُ بِمَشَاهِدِ الْعِيَانِ ، وَلَكِنْ رَأَيْتُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ) تفسير النور/٣/١٥٥ فإذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر فإنّ كلّ من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق ولا بدّ للمخلوق من الخالق فقد جعلته إذاً محدثاً مخلوقاً ومن شبهه بخلقه فقد اتّخذ مع الله شريكاً) وعنه (ع) : (مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) تفسير النور/٣/١٥٥ ، في غرر الحكم: (لَوْ كُشِفَ لِي الْعِطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِيناً) ! وعن الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة: (إِلَهِي كَيْفَ تُخْفِي وَأَنْتَ الظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَعِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ)؟!

١٤٤ - ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ) اخترتك وانتقيتكم على الناس من أهل زمانك بتبليغ الرسالة الإلهية وخصصتك بتكليمي إياك من وراء حجاب من غير واسطة ، وهذا شرف عظيم لموسى المخلوق المحدود أمام عظمة الخالق المطلق (فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ) خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والرسالة بجدٍ وعزيمة ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ البقرة/٦٣ ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أشكر ربك على ما أعطاك من النعم الجليلة فقابلها بالشكر العملي والشكر القولي ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم/٧ ، وهنا يحمل موسى أمانة الرسالة ويعمل على تبليغها بقوله وفعله ، لصياغة مجتمع مستقيم خاضع لله ونافع للناس ، وهذا هو الشكر العملي ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣ ، وعليه أن يعمل بمقدار وسعه وليس عليه أن يكون موفقاً ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥.

١٤٥ - ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأَخْذِهَا بِحُسْنِهَا سَاءَ مَا يَكُونُ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) (كُلِّ شَيْءٍ) للدلالة على الكثرة كان بنوا إسرائيل محتاجين إليه في دينهم وديناهم وآخرتهم من المواعظ المتنوعة وتفصيل الأحكام الشرعية وبيان الحلال والحرام وغير ذلك كتبهنا في ألواح التوراة أي صُحُفها لأنه تسمى الصفحة لوحاً (مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) ليتعظوا بها ويستقيموا على نهجها وتفصيلاً لكل التكليف الشرعية (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) لفظ عام أريد به الخصوص وهو شرح لكل ما يحتاجه قومك من العقائد والأعمال والأحكام الشرعية كالحلال والحرام ما ينهض بهم إلى الأعالي فيسبقون زمانهم ويكونون قدوة وقيادة لغيرهم ويفوزون بآخرتهم (فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ) خذ التوراة بجد واجتهاد وبقوة وعزم وحزم وعلم وبنية صادقة ومن دون كسل وتراخٍ كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا كِتَابَ الْقُرْآنِ بِقُوَّةٍ﴾ مريم/١٢ ، (وهذا شأن أنبياء أولي العزم) حرص على العمل بها والدعوة إليها والتفاعل معها واحذر أن يفوتك منها شيء (وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأَخْذِهَا بِحُسْنِهَا) والذي يأخذ بالأحسن هو الأحسن ، كلُّ ما أنزل في كتابه سبحانه هو حَسَنٌ وأحسن، وكانوا مكلفين بالأخذ بالأحسن أولاً ثم بالحسن ثانياً.

(مَنْ إِشْتَعَلَ بِالْمُهْمِ ضَيْعَ الْأَهْمِ) أي وأمر قومك أن يتجنبوا السيئات ويلتزموا ما تهديهم إليه التوراة من الحسنات التي تصلحهم في دنياهم وآخرتهم، أي يأخذوا بأكثرها نفعاً وهداية وأجرًا وثواباً كالعفو أحسن من القصاص المتسرع على المعتدين ، وكظم الغيظ أحسن من التسرع في الغضب ، والعبادة بعلم أحسن من العبادة بجهل كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٨، وإذا خالفتهم هذه التعاليم كنتم فاسقين (سَاءَ مَا يَكُونُ دَارَ الْفَاسِقِينَ) الْفَاسِقِينَ الخارجين عن طاعة الله إلى طاعة غيره ، سترون منازل الفاسقين خالية منهم فإعتبروا أن تكونوا مثلهم وسترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يكون مصيره إلى الدمار ؟ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢، الَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ ، وَأَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ، عن الإمام علي (ع): (السَّعِيدُ مَنْ وَعُظَ بِعَيْرِهِ) البحار ٩٩/١٠. فائدة : (بِأَحْسَنِهَا) معنى الأحسن معنى واسع منه : وأمر قومك أن يعملوا بأفضل ممَّا ترك لهم الخيار فيه ، كمعاقبة المعتدي أو العفو عنه ، والتجاوز عن بعض الحق أو المطالبة به كله ، وهذا يوحي بالالتزام بالمنهج الرباني لكلِّ أمة حسب الكتاب السماوي الصحيح الذي يأتيها ، لأنَّ الالتزام بدين الله القيم أمر عالي المضامين عند الله، فهو قَمَّةُ القمم ، فلا حياة مستقيمة إلاَّ بهذا الدين القيم الذي يجمع لك خير الدُّنيا والآخرة.

﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ آل عمران/١٤٨ ، وهذا الدين بهذه القيمة العليا الكلية يجب أن يؤخذ بقوة وجدية وحسم ووضوح في التطبيق في العبادات والمعاملات العامة ، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة وجهل وإتباع أعمى . وليس معنى هذا هو التشدد والتعقيد ولكن معناه الجد والاجتهاد والعلم والإيمان ، وأن يكون هذا الدين في متن حياتك وليس على سطحها ، في أعمالك ولا يقتصر على أقوالك ، والأحسن دائماً هو القرآن كقوله ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الزمر/٥٥ ، (والأحسن) هو منتهى الكمال والحسن والجمال كالإخلاص لله وتركية النفس ووفور العقل والقدرة على الاستقامة في جميع الأحوال والعمل على نهضة المجتمع حضارياً .

١٤٦- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

(سأصرف) تحذير شديد ومديد لبني إسرائيل ولكن يكشف القرآن من ضلالهم عن سنة إلهية عامة لمن استكبروا في الأرض بغير الحق هؤلاء سيصرف الله عنهم عجائب آياته ويبعد عنهم لذائذ قربه وحبّه وجذبه سبحانه ، ويحببهم الله عن مواقع رحمته ولطفه ، فلاحظ : هذه العقوبة عقوبة معنوية تصيب الروح والفكر وليس الجسد (سأصرف) مثل قوله ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام/١١٠ ، وهذا الصرف والإعراض عن آيات الله والحجب عن مواقع رحمته ومواطن لطفه ، إنّه (عذاب نفسي) خطير ومرير وضلال بعيد على مدى الأيام ، بحرمان نفسها بنفسها من الإيمان (وهو سرّ الحياة وقيمة الوجود) وحرمانها من القرب من الرحمن والابتعاد عن رحمة الله تعالى والتقرب من مواطن نعمته. إذاً : إنّها سنة الله الثابتة أن يسلب الله من المعاندين الهداية لأنهم رفضوا الهداية فانحرفوا عن سبيلها بأنفسهم ، (سأصرف) ونسب الانصراف إلى الله لأنه إليه ترجع جميع الأسباب، ضمن قاعدة الأسباب والمسببات، فالأسباب من الإنسان والمسببات من الله ، والمسببات تترتب على الأسباب، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) ولا يعمل المسبب إلا بوجود السبب كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/٦٣ ، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر، فليست عصاه التي فلق البحر وإنما بسبب عصاه تحرك المسبب ففلق الله البحر ، ومعنى ذلك : يجب أن تعمل بالممكن بقدر استطاعتك والبقية على الله تعالى . هذا النموذج من الناس يرتسم في تصوير حركي مؤثر دقيق في السياق القرآني البليغ ، وكأما يُجسّم الحالة ويصوّرها كأنما نراها حيّة بحركاتها النفسية الدقيقة الظاهرة والباطنة ، يعلن الله تعالى عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون ، الذين يرون أنفسهم أنّها أكبر من الآخرين وأكبر من حقيقتها وأكبر من الخضوع للحق ، حتى يكونوا من الجبارين ويصبح المتكبرون احتقار الناس . (سأصرف) سأمع وأبعد المستكبرين على الله وعلى الناس عن فهم آياتي الكثيرة والصغيرة والكبيرة المنتشرة في الآفاق والأنفس كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/١٤ ، لأنّ الكبرياء يزيد في الأنانية والإعجاب بالنفس والاعتزاز بالأنا بلا معنى فيكون المتكبرون في عمى وضلال بعيدين فيحجبهم الله عن سبل الوصول إليه ، وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ . فلا يتفكرون في عظمتها ولا يتدبرون في أسرارها ولا يخضعون لسلطان الحق ، وأحجب قلوبهم القاسية عقوبة لهم على تكبرهم وكفرهم وتجاوزهم للحدود ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، ويدعهم وضلالهم ولا يجبرهم على الإيمان فيتصوّرون أنفسهم قادرين على إدارة حياتهم بعيدة عن شريعة الله ، فهم لا يعيرون أهمية لدين الله الذي يدعوهم إلى الله تعالى وأن الله تعالى يحفظ دينه وسوف يظهره على الشرك كله ولو كره المشركون ويصرف عنه الطغاة الجبابرة الذين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف/٨ .

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا) وإن يشاهدوا كل آية من آيات الله الكثيرة في القرآن وفي الأنفس وفي الآفاق أو يروا كل معجزة ربانية خارقة لا يصدقوا بها وهكذا يصف الله الطغاة والسفلة أدق وصف ، فالحق والعدل عندهم كلام فارغ ، والحجج والبراهين تصورات وهمية ، والدين والإيمان جهل وجمود ، وحساب الله والحشر والنشر ويوم القيامة خرافات ومغيبات، لا شيء أبداً عندهم في الوجود إلا البطن والفرج وتكاثر الأموال والمتاع فهذا هو التقدّم عندهم ! فصاروا ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/٤٤ .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) وإن يروا طريق (الرُّشْدِ) الهدى والصلاح والاستقامة لا يسلكوه (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) الْغَيِّ: عمل بجهل عن إعتقادٍ فاسد، والغَيُّ ضدُّ الرُّشْدِ وهو الانحراف عن الاستقامة ، وإن يروا طريق الفساد والضلال كالزنا والسلب والتَّهْبِ فهو طريقهم يعملون به وكأنما نفوسهم تعمل بآلية في تركيبها بهذا الإتجاه لا تتخلف عنه! (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) ذلك الانحراف عن هدى الله وشرعه وإرتكابهم أنواع الموبقات بسبب تكذيبهم بآيات الله وانحرافهم عن سبيله (وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) وغفلتهم عن الآيات والعلامات الكثيرة التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون في غرر الحكم: (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّهَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ) كقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/١٧، فائدة: ١- (بَغْيِرِ الْحَقِّ): أي انغماسهم في الباطل والفساد فلا قيمة للحقّ عندهم ولا يبحثون عنه وإذا رآه جحدوه! التَّكْبُرُ دائماً بغير الحق وما تكبر عبدٌ ويكون هناك حق، إلاّ التكبر على أعداء الله هو الاعراض عنهم والتعالي عليهم فهو حق، عن الإمام الصادق (ع): (مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلَّا لِدَلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ) البحار ٢٢٥/٧٣، ومن تكبر وضعه الله ومن تواضع لله رفعه، في غرر الحكم: (التَّكْبُرُ يَضَعُ الرَّفِيعَ) إنما الكبرياء لله وحده ولا يقبل معه شريكاً ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجاثية/٣٧ . ٢- إنهم بمخالفتهم لنداء

الوجدان والضمير والفترة والواقع ابتلوا بالعمى والعناد التام فراحوا يغفلون عما ينفعهم كقوله ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء/٧٢. ٣- إنه صنف من الناس يتجنب الرشد ويتبع الغي بطريقة آلية، فهو متوجه إلى ذلك باندفاع دون جهد منه ولا تفكير، فهو يعمى عن طريق الرشد والاستقامة ويُعرض عنه، وينشرح لطريق الغي والفساد ويتبعه كقوله ﴿أَفَمَنْ رُئِيَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/٨، وإمّا هبط إلى هذا المستوى لأنّ أجهزة الاستقبال عنده لا تلتقط الإيمان بآيات الله فهو لا يراها ولا يتدبرها ولا يعرف إيقاعاتها، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) كقوله ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة/١٢٧ .

١٤٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا يَأْتِيَانَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تهديد بعد تهديد لمن كذبوا بآيات الله ، وجحدوا بما أنزل الله من الرسالات (وَلِقَاءِ الآخِرَةِ) وكذبوا بلقاء الله في الآخرة ولم يؤمنوا بالمعاد إلى يوم القيامة (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) حَبِطَتْ : أي بطلت أعمالهم الخيرية الصالحة التي عملوها في الدنيا وذهبت سدى وفقدت أثرها من إحسان وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لأنها على غير أساس وقد فقد شرطها الرئيس هو الإيمان ولم يعملوا لله تعالى وكل من أنكر الحق بمعنى آمن بالباطل فعمله هباء ووجوده كعدمه حتى ولو صادف الواقع ، إنه خسر كل شيء ولا ثمن لعمله مهما كان ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ الليل/١٩-٢٠ ، مثله كمثل الدابة التي رعت نباتاً ساماً فانتفخت بطنها مرضاً وليس صحة، هذا هو الحبط والضياع للأعمال في اللغة ! (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الاستفهام بمعنى النفي والإنكار يعني لا يجزون على أعمالهم الصالحة ، فالجزاء هو من نفس العمل ، والحبط من الجزاء وإذا كان العمل محبطاً فإحباطه هو الجزاء فتذهب الحسنات وتبقى السيئات فيجازى عليها ، كقوله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى/٤٠ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الفرقان/٢٣ ، وهكذا (الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ) نهج البلاغة خطبة/١٥٤ ، (العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق الصحيح لا تزيد سرعته السير إلا بُعداً عن الصواب) . فائدة : حبط العمل لا يتعارض مع العدل الإلهي لأنه ثمرة أفعال الإنسان (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

١٤٨ - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الرِّبَا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

إنّ موسى ذهب لمليقات ربه لمناجاته سبحانه واستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل ، وبعد أن غاب موسى (ع) واستبطاؤهم رجوعه اغتتموا الفرصة فجمع السامري (وكان عندهم مهيباً مطاعاً) حلي النساء وصنع منها (عِجْلًا جَسَدًا) صنماً من ذهب ، والعجل هو ابن البقر لاروح فيه وقد

احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع (لَهُ خَوَازٍ) أي صوت كصوت الثور وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى فتهافتوا على عبادته فنهاهم هارون بشدة فلم يستجب له إلا القليل ، وهكذا يتلاعب المفسدون بعقائد كل قوم فينعقون مع كل ناعق ! (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) الاستفهام للتوبيخ والتعجب كيف عبدوا العجل المصنوع باليد واتخذوه إلهاً وليس فيه روح ولا حقيقة ولا كلام وليس له صفات مميزة لهديهم إلى سبيل السعادة (اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) جعلوه إلهاً يعبد من دون الله فتعدوا الحدود الحمراء .

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير مواضعها، إنه الخزي والجهل والغباء والإنحطاط والسقوط، وهكذا كثير من الناس بلا غرابة يعبدون صنم الأموال والكراسي والجاه والسمعة والنساء .. إلخ وهكذا حولوا إيمانهم بالله صاحب الفضل عليهم المنقذ لهم بإيمان بعجل مصنوع من حلي القوم ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة/٥٠، وهكذا من لا تليق بهم الفضيلة تليق بهم الرذيلة! وهؤلاء الذين يدعون أنهم (شعب الله المختار)! ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ النساء/١٢٣، وتكرير لفظ (اتخذوا) لمزيد الإنكار والتشنيع عليهم إثم لم يتخذوه عن دليل وبرهان بل إتخذوه عن إتباع أعمى لأصنام الجاهلية

١٤٩ - ﴿وَلَمَّا سَطِ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (ولمَّا سَطِ فِي أَيْدِيهِمْ) ولما أحسوا كناية عن شدة ندمهم وخطئهم الفظيع والخطير بانحرافهم عن الاستقامة تحسروا ندموا على جنائيتهم وازدادت حسرتهم (وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا) توضح ضلالهم بشكل جلي كأنهم أبصروه بعيونهم (قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا) قالوا إنَّ ذنبا لعظيم أي لئن لم يتداركنا ربنا برحمته الواسعة ويعفوا عنا ويغفر لنا (لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) المحرومين من سعادة الدنيا والآخرة أي الهالكين ، وهل هناك خسارة أكبر من ضلالهم ؟ وكان تضرعهم إلى الله دلالة أنه كان فيهم بقية من استعداد صالح ، فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد!

١٥٠ - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَتْلَوْنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا) غضب موسى من المناجاة إلى قومه وأخبره ربه بعبادتهم للعجل (غَضْبَانَ أَسِفًا) غضب وتأسف بشدة وحزن كثيراً ومن حقه أن يغضب فالمفاجأة قاسية فألقى الألواح من يده (قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي) وتَّجَّهَمَ وذمَّهم بما صنعوا وقال هذا أسوأ فعل فعلتموه بعد غيابتي ، تركهم على التوحيد والعزة ولما عاد وجدهم على الشرك والذلة ! إنهم ارتدوا عن دينهم في حياة موسى فكيف يكون الحال بعد موته؟! (أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) الاستفهام للإنكار ، لعدم إنتظارهم موسى

ومخالفتهم عهده ووصاياها ، أي المراد بأمر الله ربكم غياب موسى عن قومه وانتظاره بأمر الله لمناجاته وتمديد مدة الميقات من ثلاثين إلى أربعين ليلة ، والمعنى ما انتظرتم حتى يعود إليكم موسى من المناجاة (وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ) كانت صحف التوراة بيده فوضعها جانباً وهو لا يلقاها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) وأخذ برأس هارون وجره إلى نفسه وقربه إليه ليناجيه ويستفهم منه ماذا حصل حتى يرفع عنه الظن بتقصيره ، وهارون أكبر منه بثلاث سنين ، وغضب موسى كان لله وألقى الملامة على أخيه وكيف يكون ذلك منهم وهو بينهم ؟ وكيف يكون ذلك الشرك الشنيع منهم وقد أمضى عمراً يعلمهم دين الله وعبادة التوحيد وآداب الاستقامة ولا شيء يصح أن يعبد إلا الله.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ ، (قَالَ ابْنُ أُمِّمٌ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي) قال هارون لأخيه وشقيقه من أمه وأبيه وكان صبوراً وليناً وحليماً وطيباً (يَابْنَ أُمَّ) وهو نداء استعطاف وترفق واسترحام مذكراً له بالرحم ، ليكون أرق وأكثر تأثيراً في نفسه لتحريك عاطفته ولاسيما وهو في هذه الحالة الساخنة، وهذه عادة العرب في الاستعطاف والترحم في حالة الغضب، وفي نسبتها إليه بأمه زيادة في الاستعطاف، فيذكره بفترة الطفولة حيث كانت أمه تضمه هو وهارون تحت جناحها فيرقُّ موسى وتأخذ الشفقة به ، وسياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال قادتها وجماهيرها ، فالقائد منهم الشديد الغضب للحقِّ كموسى يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه اللين والحلم والهدوء كهارون ، فالغضب في موضعه لا يتناسب مع الحلم واللين والمسامحة . أي إنَّ القوم استدلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم بشدة وعارضتهم وقاومتهم عن ذلك ، وأروني ضعيفاً عاجزاً عن ردعهم بالقوة ، فأنا أديت واجبي في نهيتهم ولم أقصر في نصحتهم (فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الشماتة: الفرح بالمصيبة أي لا تعنفي فيشمت بي وبك الأعداء ويحزن الأصدقاء ، ولا تجعلني في عداد الظالمين ولا تظهر غضبك عليّ كما أظهرته عليهم ، وهنا يلين موسى (ع) وتأخذ العاطفة والرحمة ورابطة الأخوة. فائدة : (أَعَجَلْتُمْ) الفرق بين العجلة والسرعة : العجلة مذمومة والسرعة غير مذمومة ، العجلة العمل بالشيء قبل وقته وفي غير محله كالذي يقطع الثمرة من الشجرة قبل نضوجها لذلك صارت العجلة مذمومة ، بخلاف السرعة فإنها غير مذمومة بل مطلوبة ومرغوب فيها لذاتها ولغيرها لكونها العمل بالشيء في أول وقته وفي محله ومن دون تهور ، كالذي يقطع الثمرة في وقتها ، فإن لم تقطعها في وقتها فيصيبها الذبول والتراجع عن كمالها . وناجى ربه بقوله :

١٥١ - ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلا أَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

استغفر الله أولاً لنفسه لما كان من شدته على أخيه واستغفر ثانياً لأخيه دون ذنبٍ اقترفاه ولكن مخافة التقصير في ردعهم عن الشرك ، وكان نوعاً من الخضوع لله والإنابة إليه ، ولم يشرك أحداً من قومه في دعائه وطلب أن يدخلهم في حصن رحمته وسعة لطفه وألا يتفرقا عن رحمته سبحانه بل

تسعهما رحمته في الدنيا والآخرة وهو أرحم الراحمين أرحم منا بأنفسنا . عن النبي (ص) : (خَيْرُ الْعِبَادَةِ الْإِسْتِعْفَاؤُ) نور الثقلين ٣٨/٥.

١٥٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَبِيلًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

إنه حكم وتهديد ووعيد لكل من عبد هواه سواء أكان بعجل أم بشخص أم بجذب أم بأموال وجاه وسمعة ، عن النبي (ص) : (مَا عُبِدَ فِي الْأَرْضِ إِلَهًا أَبْغَضُ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهُوَى) ! إن الذين عبدوا العجل إلهاً سيصيبهم غضب من ربهم كما استهانوا بأمره فلم يقبل لهم توبة حتى يقتل بعضهم بعضاً ، ويحرق العجل المعبود وينسفه في اليم (البحر) ويطرد السامري ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان والقتل والإبادة والسبي عبر التاريخ (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) الْمُفْتَرِينَ : الكاذبين ، كما جازينا هؤلاء بالغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افتري الكذب على الله في كل زمانٍ ومكان وبأبي شكلٍ من أشكال الافتراء ، فيكون الجزاء من جنس العمل . عن الإمام الباقر (ع) : (فَلَا تَرَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلَّا ذَلِيلًا ، وَمُفْتَرِيًا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا ذَلِيلًا) تفسير النور ٣/١٦٨ . فائدة: يطرح القرآن هنا قانوناً تأريخياً عاماً، فكل من اتخذوا لهم طريقاً غير طريق الله سيكون مصيرهم الغضب الإلهي والإنحطاط الحضاري والنفسي والأخلاقي ولو بعد حين ، والذلة في الدنيا بالرغم مما يبدو من مظاهر الجبروت والنعمة والرّفاهية والغنى إلا أنه قانون إلهي لا يتخلف كما تؤكد الآيات ويثبتها التأريخ ، وهو جزاء المفتريين الذين يحرفون كلام الله عن مواضعه . أمّا دولة إسرائيل اليوم : فإنّ الله يمهّلها ولا يهملها ولا يسمح لها بالاستمرار، فهي ما زالت تحت رحمة غيرها ولم تستطع حتى الآن أن تقف بمفردها من غير عكازات ، أمّا الستين والسبعين سنة أو القرن ليست شيئاً في عمر الزمن الطويل عن النبي (ص) (إِنَّ الْحَجَرَ الْمَعْصُوبَ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى حَرَابِ الدَّارِ!) الوسائل ١٧/٣٠٩ كما جاء في الحديث كقوله ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل/٥٠٠.

١٥٣ - ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

والذين عملوا المعاصي ثم ندموا واستغفروا وتابوا وأنابوا واستقاموا على الإيمان ورجعوا إلى الله بصدق وداوموا على إيمانهم مع تحمّل المعاناة (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) إن ربك من بعد تلك التوبة النصوحة لغفور لذنوبهم رحيم بهم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ طه/٨٢ ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الشورى/٢٥ . إن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة نصوحة وإنهم يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة حتى انتهوا إلى غضب الله واللعة الدائمة إلى أن يحين وقت الإنتقام منهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران/٤ ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨

١٥٤ - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَمَرْحَمَةٌ لِلَّذِينَ هُمِلُوا مِنْ رَبِّهِمْ لِيُبَيِّنَ

سَكَتَ : سكن وهدأ غضبه على قومه ، والنبي لا يغضب إلا لله والغضب حالة إنسانية وله نسب ومقادير ، ويصوّر القرآن غضب موسى كأنه حالة حية متحركة يغضب ويسكت غضبه بسبب معين ، والمؤمن إذا غضب لا يخرج عن الحق وإذا رضي لا يدخل في باطل ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ الشورى/٣٧ ، في غرر الحكم : (أَفْوَى النَّاسِ مِنْ قَوِيٍّ عَلَى غَضَبِهِ بِجَلْمِهِ) ، (أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً) أخذ ألواح (صحف) التوراة الجليلة التي ألقاها وفيما نسخ وكتب وفيها هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين (لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) الرهبة : أشد الخوف ، وهو خوف هيبة وليس خوف رهبة ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن/٤٦ ، هذه الرحمة خاصة للذين يخافون الله ويخشونه في السر والعلانية ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم/١٤ ، والخوف من الله حاجز عن عصيانه والخشية من الله تفتح القلوب للهدى وتوقظها من الغفلة وتحيء النفوس للاستقامة في الحديث : (مَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ حَفَّ مِنْهُ) روح البيان ٣/٢٤٩ .

فائدة: ١- عبر سبحانه عن إطفاء الغضب بالسكوت تنبيهاً على أن الغضب كان هو الدافع له على ما فعل ، لذلك لم يأخذ الألواح إلا بعد سكون الغضب ، لأن الغضب ردود أفعال وهي تأتي بانفعال ، وكل إنفعال يأتي بفعل غير متوازن ، لذلك صار أقدر الناس على فعل الصواب من لم يغضب أو يسيطر على غضبه ، لأنه يملك منطقته وعقله وحجته . ٢- في غرر الحكم : (سِيَّاسَةُ النَّفْسِ أَفْضَلُ السِّيَّاسَةِ، وَرِيَّاسَةُ الْعِلْمِ أَشْرَفُ رِيَّاسَةِ) وآلَةُ الرِّيَّاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ . ٣- (الغضب) صوّر الغضب بصورة شخص ذي قوة ورياسة يحاول أن يأمر وينهى فيطاع .

١٥٥ - ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتْلُكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ نُضِلُّهَا مَنْ تَشَاءُ وَهَدِيْ مِنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلَكِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَمْرَحْمَنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا) من كبرائهم وخيرتهم ممن لم يعبدوا العجل ، في الوقت والمكان الذي وقته ربه ووعدته الإتيان به للمناجاة وتلقي الوحي ونزول الشريعة وللاعتذار عن عبادة العجل ، صحبتهم معه إلى جبل الطور ليسمعوا كلام الله ويزدادوا إيماناً ، ولما سمعوا كلام الله عز وجل ﴿قَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ النساء/١٥٢ ، فأخذتهم الصاعقة عقاباً لهم على هذه الجرأة والوقاحة لأنهم يؤمنون بتجسيم الإله فتحسه حواسهم (فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) الرَّجْفَةُ : الصاعقة ، رجف بهم الجبل وصعقوا وهلكوا ، وبقي هو وحيداً فريداً فعظم عليه أن يرجع وحده وحرار في أمره بماذا يعتذر؟ وماذا يقول لقومه عنهم؟ (قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ) قال موسى (ع) على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله والخضوع المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد ، لو شئت يا رب أن تهلكننا قبل ذلك لفعلت فإننا عبيدك وتحت قدرتك وأن تفعل ما تشاء ،

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام للاستعطاف ، زيادة في طلب استبعاد الهلاك ، أي ربِّ إله مستبعد عن رحمتك ياربِّ أن (أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) كلاً ، إنَّك أجلُّ وأعظمُّ وأرفع من أن تفعل ذلك إنَّك رؤوف حلِيم، أهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء الجهلاء السبعون (وهم ضعفاء العقول) في قولهم أَرْنَا اللهَ جَهْرَةً ؟ فقام موسى يبكي ويدعو الله : يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ، فيسأل ربّه أن يحييهم خوفاً من أن يتهمه بنو إسرائيل بقتلهم فيرتدّوا عن الدّين وتبطل الدّعوة ! فإذا كان هذا قول الأختيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبت اليهود ! (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) فِتْنَتُكَ : امتحانك لإيمانهم ، ما هذه الحادثة التي حدثت بالرجفة إلاّ فتنة ومحنة وابتلاء من الله يمتحن بها العباد ، فما هو بغافل عن مشيئة ربّه وفعله كالغافلين (تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ) والله سبحانه وتعالى عادل وحكيم ويستحيل في حقه أن يضل أحداً من عباده إلاّ أن يختار الضلال والانحراف والفساد لنفسه بكامل إرادته ولست بالظالم لهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الص/٥ .

(وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ) يهدي الله من يختار الهداية ويطلبها لنفسه ولست بالمانع لهم في توفيقك ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن/١١ ، ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى/٣ ، ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة/١٦ ، في غرر الحكم: (مَنْ اسْتَرْشَدَ عَلِمَ، وَمَنْ عَلِمَ اهْتَدَى، وَمَنْ اهْتَدَى نَجَا)، (أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا) أنت يا رب متولي أمورنا والقائم علينا وليس لنا غيرك فاغفر لنا من السيئات وارحمنا برحمتك الواسعة، وقدم المغفرة على الرحمة لأنّ دفع المضرة مقدّم على تحصيل المنفعة (وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ) أنت ربنا خير من صفح وستر وخير من رحم وغفر ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾ آل عمران/١٣٥ . عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ السَّفَةَ حُلُقُ لَيْمٍ يَسْتَطِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَيَخْضَعُ لِمَنْ هُوَ فَوْقَهُ) البحار/٧٥/٢٩٣ . فائدة: ١- (الفتنة): شأن كلّ فتنة أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها على أنّها ابتلاء من ربهم يجتازونه صابرين عارفين ، وأن يضلّ بها من لا يدركون هذه الحقيقة ومن يمرّون بها غافلين ويخرجون منها ضالين ، وموسى (ع) يطلب من الله العون على اجتياز الابتلاء بنجاح. ٢- (وَإِخْتَارَ مُوسَى) اختيار المناصب الحساسة في الدولة والمواقع المهمة يجب خضوعهم لاختيار دقيق واختيارهم بعناية وكفاءة ونزاهة لأنّ قيمة كلّ امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته وكفاءته ونزاهته. ٣- بعض المواقف قد يتمي الإنسان فيها الموت ويكون أهون من تحمّل ملامة التّاس (لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ) .

١٥٦ - ﴿وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايُ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

وهذا من دعاء موسى (ع) فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حقِّ الرَّبِّ الرَّحِيمِ ، أي وحقق لنا (في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) الحسنة :معنى واسع لكلِّ خيرو صلاح وجمال يستحسنه الإنسان ويشمل خير الدنيا والآخرة ، من علم نافع ورزق واسع وعيشٍ هنيء وعمل صالح وعِبْر عنها (بالحسنة) لأنها مما يُحسِن وقعه وأثره في النفوس (وَفِي الآخِرَةِ) حسنة وهي نعم الآخرة ما أعدّها الله لأوليائه الصالحين (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) هُدْنَا : رجعنا ، أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا والتجأنا إلى حماك وطلبنا نصرتك (قَالَ عَدَايِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ) قال الله تعالى : أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي ممن هو متعرض لأسبابه ويستحقه من المجرمين والعاصين (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وأما رحمتي فقد عمّت خلقي كلهم البر والفاجر ، ونسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيدان بأن الرحمة كتبها على نفسه فتسبق غضبه ، فينالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله لأنها أوسع من أن تحدّها حدود ، وأما العَذَابُ عَلَى قَدَرِ الجِنَايَةِ، وَالجزءُ مِنْ نَفْسِ العَمَلِ. (فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) سأجعل واجب هذه الرحمة خاصة في الآخرة للخوَص من الناس عند الله ، والتي من صفاتهم يتقون الله في الاستقامة على نَهجه ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها الواجبة والمستحبة (مَنْ اتَّقَى الله وَقَاهُ) وللزكاة مفهوم حركي مهم وواسع: (لكل شيء زكاة) فزكاة العلم نشره وزكاة القدرة الإنصاف وزكاة الجمال العفاف وزكاة العين النظر بالعبرة والغض عن الشهوات .. إلخ.

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الآيات) جاءت مطلقة وتعني يؤمنون بشمول الآيات الدالة على وجود الله ، والآيات الإعجازية الخارقة الظاهرة والباطنة وفي الأنفس والآفاق وفي الرسل والرسالات ومعرفة معناها والعمل بمقتضاها هؤلاء هم أهل الرحمة التي كتبها الله لهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فاطر/٤٥ . فائدة ١- وخصَّ الزكاة من بين العبادات لأنها تقدّم المجتمع وتقضي على الفقر وتزيد في الرزق وحصنٌ للأموال . ٢- (عذابي ... رحمتي) كشف الله عن حكم عام يقع على الناس جميعاً وهذا يدلُّ أنّ الله سبحانه لم يشمل بني إسرائيل في هذا الدعاء بشكل خاص بل وضعهم جميعاً تحت الحكم العام الذي يأخذ الله به عباده ، وفي تقديم العذاب على الرحمة إشارة واضحة إلى أنّ العذاب هو الجزاء المرصود لبني إسرائيل وأنّ الرحمة التي تنالهم هي الرحمة العامة التي تسع الوجود كله !

١٥٧ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْتِرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْفِخُهُمُ عَنِ الْمَغْرَمِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَبَصَّرُوهُ وَابْتِغَوْا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هؤلاء الذين تناولهم رحمة الله هم (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) ولا يتدعون ، ويستقيمون على نهج (الرَّسُولِ) مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى (ص) الشريعة الوسط عن إيمان وعلم دون اتباع أعمى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧ ، ورسالته العالمية (القرآن) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ص/٨٧ ، (النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ) الذي لا يقرأ ولا يكتب وبقي على الحالة التي ولدته بها أمه كقوله ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطُلُونَ﴾ العنكبوت/٤٨ ، والأمية وصف خاص به (ص) من دون الأنبياء وهي آية من آياته ، إشعاراً من هذه الأمية إنطلق برسالة عالمية عالية المضامين وخاتمة لتكون دستور الإنسان على هذه الأرض ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ سبأ/٢٨ ، ﴿وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الأنعام/١٩ ، ومن هذه الأمية أخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الهوى إلى الهدى ، لإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة ، ونستدل على ذلك إرتباطه المباشر بالله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم/٣-٤ ، وقد وصفه الله على كل من أدركه من بني إسرائيل وجوب إتباعه . (النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ) هناك روايتان عن أهل البيت (ع) : تفسير الأمي منسوب إلى أم القرى (مكة) وليس الذي لم يدرس ولم يقرأ ولم يكتب ويجيب صاحب تفسير الأمثل إنَّ إحدى الروايتين (مرفوعة) وسندها يفقد القيمة، والرواية الأخرى ضعيفة السند لأنها منقولة عن شخص مجهول . وقوله ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة/٢ ، قالوا كان النبي (ص) يتلوا القرآن على الناس على شيء مكتوب وهذا خطأ لأنَّ التلاوة تطلق على ما هو مكتوب وتطلق على ما هو محفوظ عن ظهر قلب.

إذن : الصحيح الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب. (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) التَّوْرَةُ : كلمة عبرانية بمعنى الشريعة ، الْإِنْجِيلِ : لفظ يوناني معناه البشارة ، مما يذكر أهل الكتاب أن موسى وعيسى (ع) بشروا أممهم ببعثه (ص) وأمروهم باتباعه وفاءً لدينهم وإيمانهم ، الذي يجدونه موصوفاً عندهم في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ قبل التحريف ، ويكشف للناس ما قام به علماءهم من إخفاء هذه الحقيقة لمصالح زهيدة فالويل لهم (يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ) أي يأمرهم بالحق ، يأمرهم بكل شيء يستحسنه الشرع ويفضله طبع الإنسان المؤمن وينسجم مع فطرته السليمة (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو كل شيء قبيح نهي عنه الشرع وتكرهه النفس المؤمنة وترفضه الفطرة السليمة . (وَجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) ويبيح لهم كل الطيبات من المأكول والمشرب والشهوات الحسنة واللذائذ المفيدة الصالحة ويحرم عليهم كل الخبائث والقبايح السيئة الضارة في القول والعمل التي أحلَّوها ميلاً مع أهوائهم ، فكل مفيد طيب فهو حلال وكل ضار خبيث فهو محرم (وهذه قاعدة كلية) (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ) إِصْرَهُمْ : ثقلهم ، كناية عن

التكاليف الثقيلة عليهم، يخلصهم من التكاليف الصعبة الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة والقصاص من القاتل عمداً أو خطأً وقطع موضع النجاسة .. إلخ مما تكلفه علماءهم وأخبارهم ورهبانهم من الأحكام المتدعة المشبوهة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة/ ١٨٥ ، (وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) الْأَغْلَالُ : القيود من الجهل والتعصب والتكبر والظلم والفساد التي كانت تكبل عقولهم وأفكارهم وتنقل عليهم .. عاقب الله اليهود لعصيانهم وتمردهم وسوء أعمالهم بتكاليف شاقة هي بصعوبتها التي يقيد بها الإنسان المجرم أو المتهم بالإجرام ، ويأتي مُجَدِّد (ص) يرفع تلك الأغلال الثقيلة والقيود الشاقة عن قومه ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَلَيْسَ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الحج/ ٧٨ ، عن النبي (ص) : (جِئْتُكُمْ بِالشَّرِيعَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ).

عن النبي (ص) (أحبَّ الأديان إلى الله الحنفيَّة السَّمْحَة) كنز العمال خبر ٢٨٩ ، فائدة : ١ - هذه الآية تلخص الإسلام أنه دين الله دين الحياة لسعادة الإنسان وتنمية حياته ، فأينما يوجد الخير والمنفعة والمصلحة فهناك دين الله وشريعته ومبادئه وقيمه ، وأينما تجد الشرّ والمضارّ والمفاسد في بلاد المسلمين فهناك تجارة باسم الدِّين وفسادٌ باسم المسلمين والإسلام منها بريء ! (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ) فالذين صدقوا بمحمد (ص) (وَعَزَّرُوهُ) أي عظموه وساندوه ووقروه وأعانوه على نشر الإسلام ومنعوا عنه أعداءه ووقوه بأنفسهم (وَنَصَرُوهُ) على قوى الشر وأعداء الإسلام باللسان والسنان، وجعلوا كلمة الإسلام هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى (وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ) واتبعوا قرآنه المنير الهادي وسنة نبيه الصحيحة التي لا تتعارض مع القرآن ، وهما النور في القلوب يهتدي بهما الناس في أمور الدِّين كما يهتدون بالنور في أمور دنياهم (أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون والداخلون في ظل رحمة الله في الدنيا والآخرة يوم لا ظلّ إلا ظله . ٢ - (وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) الإنسان حرٌّ في آرائه وقناعاته وفي اختيار الأسلوب الذي يتلاءم معه في الحياة على أن تنتهي حرّيته عند حرّية الآخرين ومصالحتهم ولا تتعارض مع حرّية الآخرين ، لأنّ الحرّية الخاصة تحمل في طبيعتها الاعتداء على حرّية الآخرين فلا بدّ من تهيئتها، في غرر الحكم: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحُرِّيَةِ أَهْلٌ لِلْعِتْقِ، وَمَنْ قَصَرَ عَنْ أُصُولِ الْحُرِّيَةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ). ٣ - (الرَّسُولَ النَّبِيَّ) الرَّسُولُ أعلى من النَّبِيِّ وأفضل ومعناه أوسع لذا قدّمه ، والرَّسُولُ صاحب رسالة وتبليغها ، والنَّبِيُّ يبنأ بوحى بتبليغ الرّسالة، فكلُّ رسولٍ نبي ولكن ليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

١٥٨ - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

كانت رسائل السماء قبل الرسالة الخاتمة رسائل محلية قومية محدودة بفترة من الزّمان ، أمّا الرسالة النبي (ص) فهي رسالة ممتدة مع امتداد الزّمان . المعنى : الخطاب لكل الناس في أي زمان

ومكان لكل أهل الأرض جميعاً بلا استثناء ، إنه الرسول الخاتم والرسالة الأخيرة الإسلامية القيمة المرنة واليسيرة والمنقذة وتتفق مع الفطرة الإنسانية ، وهي الشاملة الكاملة المتناسبة لكل الأجيال لعموم رسالته (ص) لجميع الخلق بلا استثناء ، إنها رسالة عالمية عالية المضامين ، إنها رسالة العقل والعلم والإيمان والحياة الإنسانية المستقيمة ، وتنتهي عن الجهل بأنواعه وتنتهي عن التقليد الأعمى ، وأنه (ص) رحمة مهداة للناس جميعاً ، فالرسول عالمي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧ ، والرسالة الإسلامية (القرآن) عالمية ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ص/٨٧، والمرسل عالمي (رب العالمين) فإذا كان المنهج الإلهي عالمياً فعلياً أن يكون فهمنا له عالمياً ووعينا له عالمياً وتعاملنا معه عالمياً وتبليغنا له عالمياً ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان/١، (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فإذا كانت رسالة الله لجميع نواحي الحياة ، وما الحياة والأحياء وجميع الكائنات إلا ملك لله خالقها والمشرع الوحيد لها (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) لا رب ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء ، فالهدى حياة والضلالة موت ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال/٢٤ (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) فصدقوا بآيات الله ورسوله المبعوث إلى الناس كافة.

(النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ) آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات والمؤيد من رب السماوات (الأمي) الذي لا يقرأ ولا يكتب (وأعطي جوامع الكلم) (وَكَلِمَاتِهِ) أي المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى الأنبياء الذين سبقوه أي يؤمن بتوحيد الله وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه ، وكلماته التكوينية التي هي مظهر قدرته وإرادته وحكمته (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) اسلكوا طريقه واقتدوا به رجاء هدايتكم إلى خير الدنيا والآخرة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب/٢١ . فائدة ١- (النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ) الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وكونه أمياً من جملة معجزاته فإنه (ص) لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً بأنه ربما طالع في كتب الأولين والآخرين فحصل هذه العلوم ، بينما أتى (ص) بهذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء من غير تعلم كان ذلك معجزة باهرة إنه وحي يوحى إليه من السماء. ٢- الدين الإسلامي يعلن حقيقته دائماً إنه ليس مجرد عقيدة في الضمير وليس مجرد شعائر تؤدي في المساجد بمعزل عن التقدّم والتطور ، إنما هو الاتباع الكامل لمنهج الرسول (ص) الذي هو منهج حياة في كل شؤون الحياة وبغيره الضلال البعيد .

١٥٩ - ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

إنصافاً للحق يعلن القرآن أن الانحراف لم يصب كل أتباع موسى (ع) فكان من بني إسرائيل (أُمَّةٌ) جماعة قليلة من خواصهم مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس ويرشدونهم بالحق وإلى الحق

ويشربون من دون جهد (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) مما أنعم الله عليكم فكفروا بكل هذه النعم ثم حرمهم الله منها، والذي لا تنفعه النعم تضره النقم (وَمَا ظَلَمُونَا) وما ضررنا باستكبارهم وضلالهم فلم يقدروا هذه النعم الجليلة ولم يشكروا المنعم، فالله غني عنهم وعن العالمين ولا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١، في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا) المراعي ١٠/١٦، في غرر الحكم: (عَجِبْتُ لِمَنْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُنْصَفُ غَيْرُهُ!). فائدة: ١- السبط: ولد الولد ذكراً كان أم أنثى وقد غلب على ولد البنت مقابل الحفيد للذكر، والمراد به هنا الفرقة أو القبيلة. ٢- كان لموسى (ع) ﴿أَثْنِي عَشَرَ نَبِيبًا﴾ المائدة/١٢، وكان لعيسى اثنا عشر حوارياً، وكان لمحمد (ص) اثنا عشر إماماً كلهم من قريش. ٣- الطبيعة العصية على الهدى والاستقامة لا تنفعها الرعاية الخاصة بل ينفعها البلاء العصبي الذي يتناسب مع طبيعتها العصية وهذا يثبت أنّ (البلاء على قدر الطباع)! ٤- من ظلم نفسه فهو يجهل أنه ظالم لها إذ يتجلى له في صورة المنفعة وتكون عاقبته المضرة! والأمور متعلقة بالخواصم، تلك الحقيقة يركّز عليها القرآن لكي تعيها البشرية ويجب أن تتوقاها.

١٦١ - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوبْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

وإذكروا إذ قلنا لأسلافهم على لسان نبيهم يوشع بن نون حين خرجوا من عقوبة التيه، (اسْكُوبْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ) أي بيت المقدس وكلوا من خيراته من أي مكان شئتم، الذي رفض آباؤكم دخوله في عهد موسى، لا يُعيّن القرآن اسم القرية لأنه ليس المغزى ذكرها (وَقُولُوا حِطَّةٌ) وقولوا حين دخولكم يا الله حطّ عنا ذنوبنا أي تجاوز عنها واغفرها بخضوع ودعاء وابتهاال واستغفار لتزكية نفوسهم، عن النبي (ص) (وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ) البحار ٧٥/١٢٠ (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) ادْخُلُوا بَابَ الْمَسْجِدِ تَوَاضِعًا وَخُشُوعًا لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ مُنْحِنِينَ لِلَّهِ شُكْرًا، إن فعلتم ذلك (نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ) نزيل عنكم الذنوب السالفة (سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) سنزيد من أحسن عمله منكم واستقام على أمر الله وطاعته فوق الغفران دخول الجنان .

١٦٢ - ﴿قَبْدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْرُسْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ جَنَّا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾
فغيّر الظالمون منهم الاستغفار وطلب العفو بقول (غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) خالفوا الأمر مخالفة تامة، وتجاوزوا قول الله فقالوا كلاماً لا يليق بموسى ولا بالله بل يكشف عن خبث نفوسهم! وكلام المرء عنوان عقله ويكشف عن أصله، والإناء ينضح بما فيه، حيث قالوا بدل (حِطَّةٌ) حنطة وبدل أن

يدخلوا ساجدين شاكرين خشوعاً لله على إخراجهم من عقوبة التيه ، دخلوا يزحفون على أديبارهم استهزاء بأوامر الله ، وهكذا الطباع اللئيمة والنفوس المريضة المملوءة خبثاً تردُّ الإحسان بالإساءة ! (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) فأرسلنا عليهم (ريجزاً) عذاباً من السماء ، تضطرب له القلوب والأوضاع العامة بما يتناسب مع ظلمهم ، فكان عقابهم على قدر جنائيتهم ، فالسماء التي كانت تنزل منها الرحمة عليهم صارت تصب عليهم النقم ! فائدة : الآية تعلمنا أنّ الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة ، وأن نتجنب الظلم والفسق لأتھما الخروج عن سنن الله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾ الجن/١٧ ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ طه/١٢٤ ، الضنك : الضيق المعنوي (الكآبة) والعذاب النفسى .

١٦٣- ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَسْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

وأسأل (يا محمد ص) اليهود يذكرهم بأسلافهم) عن أمر (القرية التي كانت حاضرة البحر) على شاطئ البحر ماذا حلّ بهم لما عصوا الله واصطادوا يوم السبت بعد أن نھوا عنه ؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير ؟ (إذ يعدون في السبت) إذا يتعدون حدود الله ويتجاوزون أوامره وهو اصطيادهم يوم السبت (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً) حين كانت الحيتان (الأسماك الكبيرة) تأتيهم يوم السبت كثيرة (شرعاً) رافعة رؤسها وطافية وظاهرة على وجه الماء ولكنها محرمة عليهم صيدها في هذا اليوم (ويوم لا يستون لا تأتيهم) وفي سائر الأيام التي أبيع لهم الصيد فيها لا تأتيهم بل تغيب عنهم (كذلك نبئهم بما كانوا يفسقون) نبئهم : نختبرهم بامتحان عجيب وفضيع وواضحة يدُ الله فيه، وكان هذا البلاء الصعب على قدر نفوسهم الصعبة المعقدة بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمان الله.

وهكذا نستنتج من ذلك: أن سنة الابتلاء تتناسب مع الطباع فيكون (البلاء على قدر الطباع)! وكلما كانت الطباع شديدة يكون البلاء بقدرها ، وكلما شقت الطباع رق البلاء وخف! وهذه قاعدة وسنة عامة تشمل الفرد والمجتمع . فائدة : فتوصل جماعة منهم إلى حيلة شرعية يخللون بها ما حرم الله ، فحفروا سواقي ماء تنفذ الأسماك فيها وتحبس في أحواض تتصل بالماء ولا تستطيع الخروج فيصطادونها يوم الأحد ، فأنكروا عليهم جماعتهم عن هذا الاحتيال في الدين وحذرهم من سوء العاقبة فلم يتعظوا، وفي نهج البلاغة خطبة ١٥٦، والإمام (ع) يتحدث عن مساوئ الحيل الشرعية: (...وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ فَيَسْتَحِلُّونَ الْحَمْرَ بِالنَّبِيذِ وَ السُّحْتِ بِالْهَدِيَّةِ وَ الرِّبَا بِالْبَيْعِ).

١٦٤ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ
يَتَّقُونَ﴾

انقسم الإسرائيليون في صيد الحيتان يوم السبت ثلاث فرق فرقة عصت وارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت وهم الأكثرية وفرقة (عارضت) وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر واعتزلتهم وهم الأقلية ، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ، عن الإمام علي (ع) : (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ وَالْمُعِزُّ عَلَيْهِ وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧٥ والسكوت عنه علامة الرضى ، وقالت الجماعة الساكنة للجماعة المعارضة الذين نهوا عن المنكر (لَمْ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) لم تنهون هؤلاء العصاة الذين لا ينتهون عن المنكر وقد علمتم أنهم استحقوا العقوبة المهلكة من الله في الدنيا أو معذبهم عذاباً شديداً في الآخرة ، فلا فائدة من نهيكم إياهم (قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ) قال المعارضون التاهون عن المنكر الآمرون بالمعروف ، إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥ وإنا كارهون لما يفعلون ونبذل الجهد اللازم في إبراء ذمتنا في الوعظ (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ولعلهم يتقون ويتقون الله ويخافونه ، ونرجو أن يرتدعوا عن غيهم ويتنفعوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ نحن لم نياس من هدايتهم إلى الحق كما أنتم منهم يائسون ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ والاية تلوم هؤلاء المتقاعسين عن الوعظ وهم يلومون الواعظين !

١٦٥ - ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَبْنَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
فلما تركوا ونسوا ما ذكّرهم به صلحناهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً تاماً (أَنْجَبْنَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَنِ السُّوءِ) أنجينا الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) وأخذنا العصاة الظالمين (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) شديد لارتكابهم المنكر بإصرار (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) بسبب عصيانهم لأمر الله وخروجهم عن حدوده وتمردهم عليه سبحانه. عن الإمام الصادق (ع) : (هَلَكْتُ الْفِرْقَتَانِ وَبِحْتِ الْفِرْقَةِ النَّاهِيَةِ) الميزان ٣٠٣/٨ ، عن النبي (ص) : (لَا تَرْتَكِبُوا مَا إِتْرَكْتُ الْيَهُودُ فَتَسْتَحِلُّوا مَحْرَمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحَيْلِ) الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالرَّاضِي بِهِ، وَالسَّاكِتُ عَنْهُ، وَالْحَاضِرُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الظُّلْمِ .

١٦٦ - ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾
(فَلَمَّا عَتَوْا) أي بالغوا في المعصية الكبيرة والخروج عن حدود الله من غير ترحب ، وتكبروا وتمردوا ولم يتركوا المعاصي المنهي عنها وأصرروا عليها (قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) إنهم عذبوا بعذاب شديد عاجل في دنياهم فلما لم يرتدعوا وتمادوا في العصيان مسخروا قردة (خَاسِئِينَ) مطرودين من رحمتنا مهينين مبعدين أذلاء ، رضوا لأنفسهم الانتكاس الشديد إلى عالم الحيوان والهوان حين تخلّوا عن

خصائص الإنسان بإرادة حرّة مختارة ، عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَمَسِّحْ شَيْئاً فَجَعَلَ لَهُ نَسْلاً وَعَقَباً) مجمع البيان ج ٣-٤ ص ٤٩٣ وَإِنَّ الْمَمْسُوحَ لَمْ يَبْقَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، من لا يحضره الفقيه ٣/٣٣٧، قيل: الظلم مسخهم مسخ (مادّي) مسخُ خَلْقٍ وَجِسْمٍ وشكل ظاهري فكانوا قردة على الحقيقة (أو) هناك مسخُ خُلُقٍ وَنَفْسٍ وَقَلْبٍ (مسخ معنوي) فكانوا كالقردة في طبيعتهم وعاداتهم في الطيش والفساد فلم يوفقوا لفهم الحق ، وهكذا يعيشون مع الناس في أشكال البشر ولكنهم لا يمتلكون الفطرة السوية والطبيعة البشرية ، وتكون طبيعتهم أقرب إلى عادات وطبيعة القردة المتوحشة.

١٦٧- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ لِيَبْعَنَ عَلَيْهِمَ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَيِّنَاتِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (وَإِذْ) : الواو واو القسم ، تَأْدَنَ : أي قضى وحكم وأعلم من الإيذان بمعنى الإعلام ، وأنه قد أقسم بأمر لا بد أن يتحقق على أرض الواقع بمساحة من الزمان مفتوحة إلى يوم القيامة . المعنى : واذكر يا مُحَمَّد حين حكم ربك على هؤلاء من أعمالهم الإجرامية المتكررة أنه قضى وعزم على اليهود في علمه بحكم قطعي وفقاً لقانون الأسباب والمسببات وما قامت عليه نظم الاجتماع وسنن التكوين (لِيَبْعَنَنَّ) واللام فيه لام جواب القسم ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة (مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) يبتغي لهم من يوقع بهم العقاب الشديد من يسومهم ويذيقهم الذلة والهوان بين آونة وأخرى على ظلمهم وفسقهم وفسادهم الكبير في الأرض رغم ما يتظاهرون فيه من سعادة ظاهرة كقوله ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ الإسراء/٨.

وذلك في أجيالهم المتعاقبة ، وقد سلط الله عليهم الفراعنة ثم الفرس ثم خلفاء الإسكندر بختنصر فسباهم وقتلهم وسلط عليهم النصارى فأذلّوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلط عليهم النبي مُحَمَّد (ص) فأجلاهم عن الجزيرة العربية وسلط عليهم هتلر فاستباح حماهم وكاد أن يبدهم بالقتل والتشريد في الأرض ، وسلط عليهم حزب الله اللبناني سنة ٢٠٠٦ فأذل ما يسمى الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر ، ولا يزال وعد الله قائماً بتسليط العذاب عليهم ، ولا ترفع لهم راية عزٍّ ولا ترى دولتهم الاستقرار الكامل والاستقلال الحر بعدم التبعية ، وتعيش القلق المستمر، إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة لتحقيق وعد الله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥، وإلّهم في دولتهم المزعومة إسرائيل لا يزالون في ظلّ إرادة النصارى بقيادة أمريكا عن النبي (ص): (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلُؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً) كنز العمال خبره ٣٨٦٧٥، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ، الأمر الذي يجعل الإنسان يعيش التوازن والاعتدال بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة كقوله ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ الزمر/٩ . في غرر الحكم: (خَيْرُ الْأَعْمَالِ إِعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ)

١٦٨- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
 وَقَطَّعْنَاهُمْ: وزعناهم وفرقناهم في أرض الله الواسعة في العالم طوائف وفرقا مختلفة وجماعات شتى
 مختلفة المذاهب والتصورات ففي كل بلدة قسم منهم ، وليس لهم إقليم ولا وطن يملكونه بسبب
 إعراضهم عن الحق ومعاداتهم له حتى لا تكون لهم قوة وقدرة ، وحاولت الصهيونية أن تقيم دولة
 لهم على الباطل ، وما اجتمعوا في فلسطين هذا الأيام إلا ليكون للباطل جَوْلَةٌ وَمُهْلَةٌ وَلِلْحَقِّ دَوْلَةٌ
 مُسْتَقْبَلَةٌ ، وأن يكون قضاء الله فيهم على أيدي المسلمين ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ
 لَفِيفًا﴾ الإسراء/ ١٠٤ ، جماعات مجتمعة من فئات شتى ، عن النبي (ص) : (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى
 يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ) (مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ) فيهم الأخيار وهم الأقلية وفيهم
 الأشرار وهم الغالبية (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) اختبرناهم بالنعم والنقم
 ونقلبهم بالشدة والرخاء بين آونة وأخرى، فإن فعل النعم تقتضي الشكر حتى تدوم ، وبالشكر
 تَدُومُ النَّعْمُ ، وفعل النقم يقتضي التضرع إلى الله في كشفها (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) عن الكفر والمعاصي
 ويرجعون إلى رشدهم ويتوبون إلى بارئهم . فائدة : ١- وتصريح القرآن بهذه الحقيقة هي من
 المعجزات وتنبؤا بالغيبيات . ٢- (الحسنات) ما يستحسنها الإنسان في نفسه ، والسيئات : ما
 تسوءه وتزعجه ولو بعد حين ، والهدف في الحالتين لتربيتهم وتذكيرهم بالله والعودة إلى منهجه ،
 لأن نسيان الله يؤدي إلى الفسق كقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ
 هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر/ ١٩

١٦٩- ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ
 يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى أَفَلَا
 يَعْقِلُونَ﴾

خلف من بعد ذلك الجيل السلف الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وهم الأسوأ
 ورثوا التوراة عن آبائهم ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ المائدة/ ٤٤ وهجرها ، والخلف بسكون اللام ذم ،
 وبفتحها مدح ، كان المفروض أن يختاروا الآخرة (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)
 عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى المتاع الزائل الخسيس يأخذون ذلك الشيء الدنيء الذي ظاهره يغرر ويسر
 وباطنه يضر ، من المال الحرام كالربا والرشى والغش والفساد والبغاء والشذوذ وتحريف أحكام الله
 والحكم الباطل ، ويقولون : ما دمت أعيش فليهلك العالم ! وكل دنيء وخبيث ويقولون متفخحين
 سيغفر الله لنا ما فعلناه وهذا إغترار وكبرياء منهم وكذب على الله وسوء أدب معه سبحانه والغريب
 أنهم يدعون أنهم شعب الله المختار ! ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة/ ٢٠ ، وليس لهم الحق أن
 يقولوا ذلك وهو يجرتهم على معاصي الله وهدم دينهم ﴿وَرَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 الأنعام/ ٤٣ ، (وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب وكلما لاح

لهم شيء من حطام الدنيا (يَأْخُذُوهُ) لا يباليون من حلال كان أو حرام يأخذونه مرات ومرات غير مترددين ولا مستغفرين ولا عنصرية وجلافة طبع وقسوة قلب تشبه هذه العنصرية وكل من شابههم بالصفات صار مثلهم (أَمْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) الاستفهام للتوبيخ ، ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ ولا يجتالوا على التّصوص فكيف يزعمون أنه (سَيُغْفَرُ لَنَا) مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ) في هذا أعظم توبيخ لهم لأنهم درسوا التوراة وعرفوا ما فيها معرفة تامة من الوعد بالجنة لمن تاب وأناب واستقام ، ومن الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله فيكون من الهالكين (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ونعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا المؤقت للذين يستقيمون على منهج الله ويتقون الله في السر والعلانية بترك المحرمات والتمسك بالطاعات ، ولا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بالعمل للآخرة (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الاستفهام للإنكار أفلا تنزجرون وتفهمون هذه الحقائق الواضحة؟ لو كانوا عقلاء أسوياء كرماء لاستقاموا على نهج الله ولم يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ). فائدة: ١- وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الْعَوَايَةُ. ٢- (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ)

الدراسة لا تجدي نفعاً مالم تخالط القلوب ، وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة إنما يدرسونه ليحرفوا الكلم عن مواضعه ويجدوا المخارج للفتوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا وهؤلاء هم آفةُ الدِّينِ . (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ) لأن الآخرة ميزانٌ دَقِيقٌ فَمَنْ وَتَى ، اسْتَوْفَى. إنَّ اليقين بالآخرة هو الذي يعطي الثبات في المواقف المستقيمة ولاسيما في الظروف القلقة وإلّا خير للمتقين . والدَّارُ الْآخِرَةُ غيب من عالم الغيب فبمقدار إيماننا بالآخرة تثبت النفوس وتطمئن القلوب وبغيره القلق والأرق وفساد الحياة ، فهناك قضية الآخرة وقضية التقوى وهما أساسيتان في العقيدة وفي الحياة وأحداهما يقوّي الآخر وكلّما ازدادت التقوى ازداد الإيمان بالآخرة وازدادت الاستقامة والأخلاق ، وأيضاً كلّما ازداد الإيمان بالآخرة ازدادت التقوى واطمأنت القلوب واستقام السلوك وتحسنت الأخلاق ! هذه الحقيقة يفهمها الذين يعقلون ويطبّقون حقاً لا أولئك الذين اكتفوا بدراسة الحقيقة دون الالتزام بها . تشير الآية إلى أنّ : (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) البحار ٧٣ص ٧، وهو الذي أفسد على بني إسرائيل آخرتهم وأذهب عنهم رشدهم. وهكذا حُبُّ الدُّنْيَا يعمي ويضلُّ الرِّقَابَ عن النبي (ص): (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضُرَّ بِآخِرَتِهِ) البحار ٧٣ص ٨١ .

١٧٠ - ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَكُونُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾

وَالَّذِينَ (يُمَسِّكُونَ) يتمسكون بالقرآن ويعملون به بقدر المستطاع ولا يعملون خلافه ليكون لهم الفرقان الذي يميز الحق من الباطل ، وكل حديث مروى نزهة ونقرنه بالقرآن فما وافقه فنأخذه وما خالفه نرم به عرض الحائط ، لأنّ القرآن أهم مصدر في التشريع الإسلامي بل أساس كلّ مصدر

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٧-١٨ ، عن النبي (ص) : (إِسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كنز العمال خير ٢٩٣٣٩. المعنى : والذين يتمسكون بالقرآن فلا يحرفونه ولا يفسرونه بالرأي ولا يكتمون منه شيئاً ويطبقونه في حياتهم العملية فيهديهم للتي هي أقوم (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) ويحافظون على إقامة الصلاة ، ولم يقل (صلوا) وقال (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) تستدعي إقامة الصلاة أداء شروطها كاملة مع مقدماتها وأوقات فضيلتها ونهيها عن الفحشاء والمنكر فتتحقق بذلك حكمتها وأثرها في استقامة الفكر والسلوك ، أولئك هم المصلحون ، عن الإمام علي (ع) : (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ (دَقِيقٌ) فَمَنْ وَفَّى، اسْتَوْفَى) البحار ٢٦٤/٨٤، وقدّم الصلاة لأنها عمود الدين، ومفتاح لكل خير، وتركية للنفس والمجتمع . (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على إلتزامهم وصلاح أقوالهم وأعمالهم أفضل الجزاء ، وقد سمى الله تعالى الجزاء أجراً فضلاً منه وكان عامل الخير للناس يعمله لله ولنفسه فيستحق عليه الأجر من الله عز وجلّ.

فائدة:

١- تَدْمُ الآيَةُ كُلُّ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِأَحْكَامِهِ وَيَتْرَكَ الصَّلَاةَ خَاصَّةً. ٢- (يَمْسُكُونَ) تصوير مدلوله وكأنه حالة تحسُّ وترى وتتحرك ، إنّها صورة القبض على الكتاب بقوة وعلم وجد وصرامة والصورة التي يحبّ الله أن يؤخذ بها كتابه كقوله ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ مريم/١٢ ، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ البقرة/٦٣ ، ونلاحظ التمسك بالقرآن بقوة وإقامة الصلاة هما طرفا المنهج الرباني لصلاح حياة البشرية ، وهذا يعني تحكيم القرآن في حياة الناس لإصلاح نفوسهم وحياتهم العامة ولا تصلح بسواه (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) وبترك طرفي هذا المنهج الرباني تفسد حياة البشرية كلّها ، إنّه منهج متكامل يقيم الحياة على أساس القرآن ، ويقيم القلب على أساس العبادة ، فتتوافق القلوب مع القرآن وتصلح الحياة، فيصلح الشكل والمضمون ويصلح القول والعمل والسُّرُّ والعلانية (والإصلاح) معنى واسع يشمل كلّ ما فيه نجاح وفلاح ونفع. ٣-

من علامات آخر الزمان ترك العمل بالقرآن .

١٧١- ﴿وَإِذْ نَمَّنا الْجَبَلُ فَوَقَّهٖ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قوله (نَمَّنا الْجَبَلُ) ما هو سبب قلع الجبل ؟ الجواب : عندما قرأ موسى التوراة على بني إسرائيل وما فيها من التكاليف الشاقة على عصيانهم لم يقبلوها فأمر الله تعالى الجبل فانقلع من أصله وقام فوق رؤوسهم كلّهم لتهديدهم في سقوطه عليهم ، حين (نَمَّنا) اقتلعنا جبل الطور أو أي جبل ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه (ظُلَّةٌ) مظلة أو سقف يظلمهم ليقبهم من الشمس ! (وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) وأيقنوا أنه ساقط عليهم إن عصوا لإرهاجم بقدرته الله دون إجبارهم على العمل أي خيرناهم بين العمل بما في التوراة وبين إسقاطه عليهم فأصابهم اضطراب شديد وخوف وفي تلك

الحال قلنا لهم (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) قلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة وصدق عقيدة وتحمل المشاق وأداء التكاليف من دون نسيان وغفلة وتراخي وتسامح (وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أعلموا ما فيه واعملوا به حتى تكونوا في سلك المتقين (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) قبائح الأعمال وتتجنبون رذائل الأخلاق في ظل هذه المعجزة الخارقة (وَمَنْ إِتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ).
فائدة: ١- سؤال:

لماذا صفة الإجبار في أخذ الميثاق؟ الجواب: أخذ الميثاق منهم لألقاء الحجة عليهم ولما ألقيت الحجة عليهم وثبت الميثاق زال الخطر ورجع الجبل كما كان ورجعوا إلى مواصلة اختيارهم في الطاعة أو العصيان حتى يتحقق الجزاء عليهم ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥، ولا معنى للإجبار في الاعتقاد ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦، ولا مانع من الإجبار على التعلّم وإنّ الصبر على التعلّم أهمّ وأفضل من البقاء في ظلمات الجهل، ولا مانع من الإكراه على عملية جراحية مفيدة لصاحبها، بل من المفيد إكراه النفس عن هواها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَىٰ فِئْضِلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦، والهوى إله يعبد من دون الله فهو شريك العمى. ٢- (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) فإن أخذ الأشياء بقوة أي بجزمة وكفاءة وتجربة، ويعلم وعزم وحزم وصبر، إنّ ذلك يعدكم لدرجة التقوى وتكونون أحقّ بها وأهلها، فإنّ قوة العزيمة في إقامة دين الله القيم تزكي النفوس وتهدّب الطباع وتحسّن الأخلاق، كما أنّ التهاون في الدين يجعل النفس حرّة تتبع الشّهوات المحرّمة، وتتأخر عن التقدّم المعنوي والروحي، والرقبي النفسى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٩-١٠، ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦.

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَسْمِعُوا لَهُمْ قَوْلَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

هذه الآية من الآيات المتشابهة. هذه الآية الوحيدة الفريدة التي تبحث في أخذ العهد الأول لكافة البشرية وهم من عالم الدرّ، إنّ مشهد كوني باهر وفريد، مشهد الذرية المكونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل ان تظهر إلى عالم الشهود في الحياة الدنيا وهي منثورة كالذر في قبضة الخالق، إنّ مشهد عجيب فريد حينما يتصوّر تلك الخلايا التي لا تحصى وهي تخاطب خطاب العقلاء وتستجيب استجابة العقلاء ويؤخذ عليها العهد والميثاق وهي ذرّ في الأصلاب! إنّ منظر فوق التصوّر وهو يمتلى هذا المشهد الفريد ذو الآفاق البعيدة. المعنى العام: واذكر أيها الرسول للناس كافة ما أخذه الله من عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهم في عالم الأرواح قبل الدنيا ويمثل أعظم ميثاق وجداني، إذ استخرج من بني آدم كلّهم من ظهورهم ذريتهم وهم مثل الدرّ جيلاً بعد جيل وفي كل زمان ومكان من أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى

الحياة الدنيا ليعرفوا حقيقة أنفسهم فوهبهم الاستعداد للإيمان بتوحيد الله تعالى وأودع ذلك السرّ الإلهي في ذاتهم وفطرهم بصورة إحساس داخلي وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإيمان برّهم فإذا قيل لهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) قالوا بلى (وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ) أي شهد بعضهم على بعض بذلك بما أودع فيهم من عقول وما في الكون من بينات ودلائل على وجوده سبحانه وتعالى قائلاً لهم قول إرادة وتكوين وقدرة لا قول وحي ولا تبليغ.

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال (قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا) أنت ربنا وحدك المستحق للعبادة ، والشواهد على وجود الله سبحانه يحملها الإنسان في جسمه وروحه فضلاً عن شواهد الكون ، ويحمل هذه الشواهد في فطرته حتى ولو كان ملحداً ، وتتجلى فطرة الملحد في الشدائد ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يونس/ ٢٢ ، وبعد هذا الاعتراف ردهم إلى مكائهم ، فالكلام من قبيل التمثيل والتشبيه كقوله ﴿فَقَالَ لَهَا (لِلسَّمَاءِ) وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَبِيٌّ طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا نِجْمَيْنِ﴾ فصلت/ ١١ ، (أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) إنا فعلنا هذا منعاً لإعتذاركم يوم القيامة بأن تقولوا إذا انحرفتم عن سبيل الله إنا كنا عن هذا العهد بالتوحيد غافلين فلم ينبهنا إليه منبه، فلا يقبل منهم الله تعالى الإعتذار بالجهل ، كما أنّ القانون لا يحمي المغفلين عنه كذلك قانون الله وسننه لا تحمي المغفلين والجاهلين بها ! لا عذر لمن شك في الله وهو يرى خلقه.

في غرر الحكم: (فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) فنزل تمكينهم من هذا العلم منزلة الإشهاد والاعتراف على طريق التقريب للواقع. **فائدة: ١-** يرسم القرآن هنا صورة غيبية غريبة يصعب تصورها وكل بني آدم في عالم الذر عالم الأرواح عالم الغيب قبل عالم المادة والجسد ويأتي النداء الإلهي طالباً الإيمان بالله من الفطرة السليمة التي خلقها الله مؤمنة فتشهد عظمة الخالق وهذه صورة فريدة شاملة لكل إنسان في هذا الوجود يمثل أعظم عهد وجداني (إن هذا الوجود أكبر من ظاهره الموجود والمشهود) ، عن النبي (ص) : (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ) البحار/٣/ ٢٧٩ يعني على المعرفة بأن الله عز وجل هو خالقه وهو قوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لقمان/ ٢٥ ، ولكن هذه الفطرة السليمة تتعرض لآفات كثيرة فتتعطل منها القوى المدركة لتوحيد الله كما في الحديث (فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يمجِّسَانِهِ) كنز العمال خير ١١٧٣٠ لذلك فالفطرة السليمة هي التي تتقبل الإيمان ومنهج الله بسهولة ، والفطرة الملوثة هي التي تنحرف عن الإيمان وتضل عن سبيل الله ، وهذه مسألة نسبية بقدر التلوث للفطرة يكون مقدار الانحراف والضلالة.

٢- إنّ حقيقة التوحيد موجودة في فطرة الإنسان وفي فطرة هذا الكون والكائنات من حوله ، وبينهما علاقة موصولة غير منقطعة ، والعلم الحديث يكشف أطرافاً من هذه العلاقة المتبادلة والمتعادلة ، وهو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها في عالم الغيب قبل عالم الشهادة بحيث يكون

حقيقة لا يمكن إغفالها (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) غَافِلِينَ من قبيل التأثر بالواقع الجاهلي المعاصر حيث التقليد والاتباع الأعمى دون التفكير بالاتباع الأحسن أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى .

١٧٣- ﴿أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

أي تقولون غداً يوم القيامة أيضاً في الاعتذار نحن ما أشركنا مباشرة وإنما قلدنا آباءنا واتبعنا مناهجهم الضالة فصرنا مثلهم ، وتكشف الآية أن شأن توحيد الله من البديهيات والمسلمات وليس موضعاً للإجتهد أو التقليد لشدة وضوحه، في نهج البلاغة حكم ٤٧٠ (التَّوْحِيدُ أَنْ لَا تَتَّوَّهُمْ) في غرر الحكم: (التَّوْحِيدُ حَيَاةَ النَّفْسِ) (أَفْتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) أي أتواخذنا فتهلكنا بما فعل من آباءنا المضللين ونحن لم نتفكر ولم نتدبر والفنا المنكر ؟ وليس لنا إلا الاتباع الأعمى لهم من غير علم فقد أودع الله في فطركم ما يدل على أن ما مع آباءكم باطل وأن الحق ما جاءت به رسل الله فلماذا خالفتهم نداء الفطرة السليمة وخالفتهم نداء النفس اللوامة في داخلكم ؟ فإذا أهلككم الله بفأفعالكم لا بأفعال آباءكم . ينهى القرآن دائماً عن الاتباع الأعمى في كل شيء فيقول ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ النساء/ ٢٢

١٧٤- ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

إننا كما بيّنا لكم الآيات والدلالات كذلك نوضحها ونفصلها لغيركم في الآفاق وفي الأنفس (وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلى سلامة فطرتهم وعهدنا مع الله أو يرجعون إلى عقولهم وإلى دعوة الرسل فيقصدون الحق بإرادتهم ، ويكشف لهم ذخائر الإيمان المطموسة في نفوسهم التي غفلوا عنها (وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلى أنفسهم ومحاسبتها من خلال تفصيل الآيات فيتمكنوا من الاستدلال بكل واحدة من هذه الآيات على معرفة الحق ، عن النبي (ص) : (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَرَبُّهَا قَبْلَ أَنْ تُرَبَّنُوا وَتَجْهَرُوا لِلْعَرْشِ الْأَكْبَرِ) البحار ٧٠ ص ٧٣ .

١٧٥- ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخْنَا مِنْهَا فَآتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

إنه تحذير قرآني من حالة خطيرة ومريرة قابلة أن تحصل عند الوجهاء واللؤماء والجهلاء في كل جيل! إنه مثل للانحراف عن الفطرة السليمة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، إنه السياق القرآني الذي يصور الحالة في مشهد حي متحرك ومؤثر وبارز الصفات وواضح الانفعالات بعبارات واقعية موحية، إنه مشهد من المشاهد الواقعية العجيبة ذات العبرة عالية المضامين ، إنها انتكاسة الفرد وهناك انتكاسة مجتمع كقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/ ١٧ ، فكيف يستطيع الهدى من يغلبه الهوى والأنا ؟ ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ إبراهيم/ ٢٧ ، فهو يهبط من الأفق المتألق فيلتصق بحب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة ، فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق. المعنى : (في قصة) وإتلا يا محمد على اليهود خيراً مهماً وقصة ذات عبرة ، ذلك العالم المؤمن من بني إسرائيل الذي علمناه علم بعض كتب الله ولديه مميزات خاصة وكان عابداً زاهداً وله

وجاهة ووزن اجتماعي ورتاسي كبير (فَانَسَلَخَ مِنْهَا) وتجرّد منها وتركها أي ترك آياتنا الخاصّة بمشقة ، كالذي ينسلخ من جلده فتجرّد من غطائه الواقعي ودرعه الحامي ، وتخلّى عن علمه وأعرض عن الآيات التي تعلمها كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها واستتكف منها وتزندق (فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ) فلحقه الشيطان واستحوذ عليه وصار قريباً له فاتبع هواه وأعرض عن هداه حتى جعله في زمرة الضالّين الرّاسخين في الغواية والفساد بعد أن كان من المهتدين، وهكذا الَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الرَّحْمَنُ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/ ٢٩ ، ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/ ٣٨.

فائدة: ١- هو بلعم بن باعورا كان من علماء بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك مدّين داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه وأغراه على أن يترك دين موسى ففعل وأضل الناس بذلك ، وهو مصداق الانحراف عن الفطرة ونقض عهد الله ، في غرر الحكم: (الْعِلْمُ بِعَيْبِ الْعَمَلِ وَبَأَلْ ، وَالْعَمَلُ بِعَيْبِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) ، ٢- والتعبير (فَانَسَلَخَ مِنْهَا) دلالة إلى أنه كان متمكناً من علمه بالآيات ظاهراً لا باطناً، عالماً لا عاملاً ، وهذه الآية عبرة للمؤمنين من أتباع العلماء الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون خلاف ما يقولون ، الذين ظاهرهم يغر ويسر ولكن باطنهم يضر وعملهم يضل، والآية تحذر المؤمنين من إتباع الهوى وحبّ الدّنيا ومن آمن بلسانه ومظهره ولم يؤمن قلبه وحقيقته ، وله فصاحة ولباقة وحكم وخطابة ولكنه لم يستذوق حلاوة الإيمان ، فاحذروا من الانزلاق والسقوط كما انزلق صاحب المثل بحبه للدّنيا ، وهكذا الذي يكبر علمه على إيمانه يصير شيطاناً ، ومن يكبر إيمانه على علمه يكون درويشاً ساذجاً . لذلك القرآن يقمّم التقوى على العلم حتى تكون التقوى صمّام أمان للعلم فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة/ ٢٨٢ ، عن النبي (ص) : (مَنْ كَانَ أَكْثَرَ هِمِّهِ نَيْلَ الشَّهَوَاتِ نُزِعَ مِنْ قَلْبِهِ حِلَاوَةُ الْإِيمَانِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٧.

١٧٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَنْبِ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) لَرَفَعْنَاهُ : الهاء تعود إلى الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها . المعنى : لَرَفَعْنَاهُ إلى منازل العلماء العاملين العرفانيين الأبرار بهذه الآيات والعلوم لارتفعت منزلته وقربناه إلينا (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) ولكنه أخذته جاذبية الأرض والتراب وتخلّى عن جاذبية السماء والقيم والمبادئ ولكنه مال إلى الدنيا ولذاتها وزينتها وسكن إليها واطمأن قلبه لها وآثر لذاتها وشهواتها على لذّة الآخرة ونعيمها المقيم عن النبي (ص) (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضُرَّ بِأَخْرَجَتْهُ) البحار ٧٣ ص ٨١ (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) واتبع ما تحواه نفسه فانخطّ أسفل سافلين كقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ نحد/ ١٤ ، ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان/٤٣ ، والهوى يدفع نحو العمى ويطاع من دون الله وكان ذلك مورداً لإضلالنا إياه ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الصف/٥ ، وتركانه وشأنه ولا نريد أن نجبره على الإيمان لأنه خلاف عدالتنا ثم ضرب له مثلاً (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ) فمثله في الخسة وشدة الضلال كمثل الكلب (إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ).

إن طردته وزجرته يسعى وهو يلهث ، يَلْهَثُ: يخرج لسانه من فمه من التنفس الشديد عطشاً أو تعباً وإن تركته على حاله يلهث ويخرج لسانه من فمه ، فهو لاهث على كلِّ حال في الحرِّ والبرد والتعب والرَّاحة بخلاف سائر الحيوانات ، وكذلك من صادق الشيطان واتبع هواه وتعلق بالدنيا، وحبُّ الدنيا يُعمي ويصم ويذل الرقاب تراه يستمر في ضلاله سواء وعظته أو لم تعضه فهو ضال على كلِّ حال لأنه قلقٌ في كلِّ وقت لا يطمئنُّ قلبه أبداً! (ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) هذا المثل السيِّء لكل من كذب بآيات الله وانحرف عن سبيل الله وأصرَّ على المعصية ولا تنفع معه موعظة ولا تفيده حكمة ، خلعها من نفسه كما يخلع اللباس في نهج البلاغة حكم ٢١١: (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَىِّ أُمِيرٍ!) ، عن النبي (ص) : (مَنْ إِزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْ هُدًى لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) تنبيه الخواطر ص ٢٧٥ ، قال لقمان الحكيم لابنه (يَا بُنَيَّ لَا تَدْخُلَنَّ فِي الدُّنْيَا دُخُولًا يَضُرُّ بِأَخْرَجَكَ وَلَا تَتْرُكْهَا تَكُونُ كَالْغُلَّ عَلَى النَّاسِ) البحار ٧٣/١٢٤.

(فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) حدث النَّاسَ عن المكذِّبين والمنحرفين وما كانت نتيجتهم وإن كان الله يمهلهم ولكنه لا يمهلهم ، والذي لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقيين ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢ ، وأخسر الناس من كان عبرة للناس ، لعلمهم يتعظون ويعتبرون فيستقيمون ولا ينحرفون كما انحرف أسلافهم فتقوم الحجَّة لله ولك عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١.

فائدة: ١- هذا مثل واقعي في حياة البشرية يتكرَّر في كلِّ مكان وزمان ، ليحذِّر الذين أوتوا العلم أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة ، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع وراء زخارف الدنيا، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الفادح الذي لا يظلمه إلا عدو لعدوه ، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية المأساوية ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٢ ، عن النبي (ص): (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ . في نهج البلاغة كتاب ٣١ (من الفسادِ إضاعة الرِّادِ، وَمَقْسَدَةُ الْمَعَادِ) ٢ - (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) تشبيه الإنسان الضَّال بالكلب في أفبح حالاته ، الذي يلهث دائماً تشبيهه دقيق في الشَّكل والمضمون إنَّه هبوط من مكان إنسانٍ مكرَّم إلى مكان حيوانٍ ، كان إنساناً متألِّقاً في فطرته الأولى في أحسن تقويم فإذا هو ينحطُّ منها على أسفل السَّافلين وفي أسوأ حال، إنَّه اللهاث المستمر في كلِّ حال وراء أعراض الدنيا وزخارفها

التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها ، والتعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها ولا يؤدّي شكرها وهو الكفور ، كما أنّ الكلب لا يعرف الإكرام من الإهانة ، وإنما الكرامة عنده كلّها في الإهتمام بطعامه يرمى إليه كذلك العبد السيء الضال الذي خدعته الدنيا وخانته نفسه ، لا يعرف قدر الكرامة ويجهل حقّ التعمة فينسلخ عن اللباس المعنوي لباس التقوى والفضل والعلم والإيمان ويرتدي اللباس المادّي المتمثل في ، عن الإمام الصادق (ع) (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ حَاطِيئَةٍ) البحار ٧٣ ص ٧ ، فهو في شغل دائم وهمّ مستمر كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن / ١٧ ، وكقوله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ النفال / ٦٧ . في غرر الحكم : (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ!) وفيه أيضاً : (مَنْ جَعَلَ مَلِكُهُ حَادِمًا لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمَلِكِهِ طَمِعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ !).

١٧٧ - ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾

سَاءَ : قُبْحٌ وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً ؟ إنّه مثل للعلم الذي لا يعصم صاحبه من دوافع شهوته ورغبات نفسه فيخلد إلى جاذبية الأرض ومتاعها ، وهل أسوأ من الانسلاخ والتخلي عن دين الله والتعري من هدى الله والإعراض عن منهج الله؟ من أسوأ من هذا وهل أسوأ من يأخذه حب الدنيا عن حبّ الله ، وتأخذه جاذبية الأرض عن جاذبية السماء ، ويتبع الهوى ويترك الهدى؟ من أسوأ من هذا؟ (وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ) وما ظلموا بالتكذيب والانحراف عن منهج الله إلا أنفسهم ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَحْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ ، وَهِيَ نَفْسِي؟! في غرر الحكم: (مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَانَ لِعَيْزِهِ أَظْلَمَ ، وَمَنْ أَهْمَلَ الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُصِفُ عَيْزَهُ)!

١٧٨ - ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

من يوفقه الله لسلك سبيل الهداية باستعماله عقله وحواسه بمعرفة الهدف الذي خلقنا الله له حسب إرشادات الإسلام والقرآن فهو ممن أطاع الله ونفع الناس ، في غرر الحكم: (حَيَّرَ النَّاسَ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) فهو المهتدي الذي إستقام على منهج الله وشكر النعم والمنعم ولم يتعدّد حدود الله وكان عند الله مهتدياً فقد فاز بسعادة الدنيا والآخرة (وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وَمَنْ لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْغَوَايَةُ وَالضَّلَالُ ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ يُعْرِضُ عَن سَبِيلِ الرَّحْمَنِ يُثْبِلُ عَلَى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، وَيَأْخُذُ وَسَاوِسَهُ وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ فَيُوسِيءُ إِلَى النَّاسِ وَإِلَى نَفْسِهِ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ كَانَ شَرًّا عَلَى النَّاسِ ، فَهُوَ الضَّالُّ الَّذِي خَسِرَ تِلْكَ الْوَسَائِلَ الْهَادِيَةَ لِتِي هِيَ أَقْوَمُ ، فَالْمُهْتَدِي مِنْ هِدَاةِ اللَّهِ فَقَبِلَ الْهُدَايَةَ وَاسْتَدْوَقَهَا ، وَالضَّالُّ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ فَرَفَضَ الْهُدَايَةَ فَخَلَى اللَّهُ بَيْنَهُ وَمَا إِخْتَارَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَن إِخْتِيَارِهِ ، وَلَوْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَادَةِ وَالسَّادَةِ وَالرِّيَازَةِ

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ النحل/٣٦ ، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/١٧ .

في غرر الحكم: (مَنْ إِهْتَدَى يَهْدِي اللَّهُ أَرْشَدَهُ) . فائدة : ١- ونسبة الهداية والضلال إلى الله لا يدلان على الإجبار وإنما يحصلان ضمن قاعدة الأسباب والمسببات ، فمن أدركته العناية لحقته الهداية، ومن توجهه الله تعالى توجهه الله إليه بالرعاية ، والذي يهديه الله بقدر معين يتناسب مع قدراته، والذي يضلّه الله بقدر معين يتناسب مع حجم ضلاله ، فهو غير مؤهل لقبول الهداية ولا يستذوقها بل هو أهل لهذا الضلال الذي طلبه واشتراه لنفسه ! ٢- الهداية والضلال بيد الإنسان نفسه وباختياره ، فمن يستعد للهداية ويسعى سعيها يهديه الله تعالى بقدر استعداده لها وإقباله عليها ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى/٣ ، ومن يستعد للضلال ويسعى سعيه يضلّه الله بقدر استعداده للضلال وإقباله عليه ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب/٣٦ ، في غرر الحكم : (ضَلَّ مَنْ إِهْتَدَى بِعَيْرِ هُدَى اللَّهِ) ، لذلك قال (فَهُوَ الْمُهْتَدِي) بصيغة المفرد وجاءت (الْحَاسِرُونَ) بصيغة الجمع ، للدلالة أنّ طريق الهداية واحد وهم متحدون مع بعضهم ، بينما يكون المنحرفون متفرقين وسبلهم شتى فهم الخاسرون .

١٧٩- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

ذَرَأْنَا : خلقنا ، اللام (لِجَهَنَّمَ) لام العاقبة أي عاقبتهم جهنم مثل لدوا للموت ، خلق الله سبحانه العقلاء ومنحهم مع العقل الحرية والقدرة وأمرهم ما فيه الخير ونهاهم ما فيه الشر فمنهم سمعوا وأطاعوا فدخلوا الجنة وكثير منهم عصوا وتمردوا وضلوا عن سبيل الله بسوء اختيارهم فكانت عاقبتهم جهنم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فصلت/٤٦ ، المعنى : لقد خلقنا كثيراً من الجن والإنس لسكنى جهنم والمقام فيها واللائقة بهم بسوء أفعالهم ليكونوا حطباء لها ، وخلقنا للجنة مثل ذلك بحسن أعمالهم ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هود/١٠٥ ، ثم بيّن سبب كونهم لائقين لجهنم ومؤهلين لها فقال (هُمُ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) لهم عقول لا يعقلون بها منهج الله لأنهم لا يتدبرون بآياته المنتشرة في جميع الآفاق والأفئدة (وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا) لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر تفكر واعتبار (وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) لا يسمعون بها المواعظ والحكم ولا يتعضون ، وليس المراد نفي السمع والبصر كاملاً وإنما المراد نفي وعيها في دين الله وعدم تدبرها في مستقبلها الأخروي بسبب قسوة قلوبهم من كثرة ذنوبهم فيجازيهم الله من نفس أعمالهم بالطبع على قلوبهم والغشاوة على أبصارهم والوقر والصمم في آذانهم ، هؤلاء انسلخوا من أصلهم الإنساني ولم يكونوا خلفاء لله في أرضه باختيارهم .

(أَوْلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ) أولئك كالبهائم وأشباه الحيوانات في عدم الفهم ، التي لا تعقل أكثر من بطنها وفرجها ولا تفهم عما يراد منها (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) بل هم أسوأ حالاً من البهائم التي تدرك منافعها ومضارها فإنها إذا زجرت أنزجرت وإذا أرشدت إلى طريق إهدتت وتعلمت وهؤلاء الضالون لا يهتدون إلى شيء من منهج الله ، إنهم عطلوا هذه الأجهزة النافعة فلا يميزون بين المنافع والمضار ولا يفكرون بيوم القيامة والجزاء فيها لذلك تليق بهم النار (أَوْلَيْكَ هُمْ الْغَافِلُونَ) الغارقون في الغفلة عما سبلاقوه في الآخرة ، والغافلون عن إستعمال عقولهم وضمائرهم في أفضل ما خلقت لأجله والغافلون عن حياتهم المنحرفة وما ستؤدي بهم إلى سوء العاقبة ، والأمور بالحواسيم ، وَالْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ ، وهو الذي يبني مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه ، وَالْعَقْلُ مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ فَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ) والقرآن ينهانا عن الغفلة ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف/ ٢٠٥ ، كقوله ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم/ ٧ ، في غرر الحكم: (كَفَى بِالْعَقْلِ ضَلَالًا). فائدة: ١- سئل الإمام الصادق (ع) : كَيْفَ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مُطِيعِينَ مُؤَخَّذِينَ وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ قَادِرًا؟ قال (ع) : (لَوْ خَلَقَهُمْ مُطِيعِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ثَوَابٌ لِأَنَّ الطَّاعَةَ إِذَا مَا كَانَتْ فِعْلُهُمْ لَمْ يَكُنْ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ ، وَلَكِنْ خَلَقَ خَلْقَهُ فَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِرُسُلِهِ ، وَقَطَعَ عُذْرَهُمْ بِكُتُبِهِ ، لِيَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَيَعْصُونَ وَيَسْتَوْجِبُونَ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ الثَّوَابَ وَمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ الْعِقَابَ) تفسير النور/ ٣/ ٢١٠ ، لأنهم مختارون والحساب على اختيارهم ! ٢- في الإنسان روح وجسد وقد ركب فيه عقل وشهوة ، فإن كان عقله غالباً على هواه كان أفضل من الملائكة وإن كان عقله مغلوباً للشهوة والهوى كان أرذل من البهائم لأنه باع الآخرة بالأولى والدين بالدنيا . وتركوا طلب المولى فصاروا أضلّ من الحيوانات لإفساد الاستعداد (أَوْلَيْكَ هُمْ الْغَافِلُونَ) عن الله وغافلون عن الكمالات والأسرار ، كما قيل : (عُضُوٌّ أَبْصَارُكُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَرَوْنَ الْعَجَائِبَ ، وَتَنْكَشِفُ لَكُمْ الْأَسْرَارُ ، وَتُنَسِّقُونَ مَعَ الْأَقْدَارِ) ، في غرر الحكم: (العقل والشهوة ضدان ، مؤيد العقل العلم ، ومُزِين الشهوة الهوى ، والنفس متنازعةٌ بينهما فأيهما قهر كانت في جانبه) .

١٨٠- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَمُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أسماء الله كلها حسنة وحسنى وجليلة فهي حسنة بذاتها وحسنة لغيرها وحسنة بمعانيها وبمداليلها وبشرفها وبتأثيرها، لذلك صارت الأسماء معبّرة عن معانيها ، فهي أسماء كثيرة لذاته وصفاته ، وصفاته عين ذاته وتدل على كماله وجماله وجلاله والتي فيها معنى وصفى يليق بساحة الله دون أن يكون لها دلالة على خصوصية جسمانية ، ومنها ما يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر والحي والإله والقديم والسميع والبصير ، ومنها ما هي صفات فعله كالخالق والرازق والمبدع والمحيي

والمميت، ومنها ما يفيد التنزيه عن كلِّ نقص ونفي الصفات السلبية عنه تعالى كالغني والواحد والقدوس .. كقوله ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الحشر/ ٢٣ ، (فَادْعُوهُ بِهَا) فتوجهوا إليه سبحانه بها أي نادوه بأبي اسم شتمت بالعبادة والتضرع والدعاء والذكر . ما هو الاسم الأعظم : ليس الاسم الأعظم لفظاً وإسماً معيّناً محدّداً ، بل كمالاً وجلالاً وصفة معنوية جليلة لله تعالى عالية المضامين ، ولا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/ ١١ ، ولا يوجد اسم الله الأعظم في القرآن الكريم بشكل محدّد وواضح وصريح ، وليس لله اسم أعظم واسم غير أعظم ، وكلُّ أسماء الله تعالى جليلة وعظيمة كقوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ غافر/ ٣ ، ولكنَّ أسماءه تجليات لصفاته وإشارة لحقائق ذاته عزّ وجلّ وأسمائه سبحانه لا يمكن إحصاؤها لأنَّ كمالاته غير متناهية ، وأسماء الله لا حدّ لها ولا حصر ولا تحدّد ب (٩٩) اسماً كما في الروايات ، ويروى : (كان آصف بن برخيا عنده اسم الله الأعظم فاستطاع نقل عرش بلقيس إلى سليمان ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل/٤٠)

لم يكن له اسم واحد فيكون كعصا موسى تعمل العجائب ، وإتما كان لآصف من صفات الله ذات الرّوحية العالية القريبة من الله تعالى المتمثلة بالعلم اللدني الخاص والإيمان التّمودجي ، وإلا لا يمكن لأيّ شخص أن يعرف هذا الاسم فيكون مستجاب الدّعوة ويعمل العجائب وتكون بيده مقدّرات الأمور، وإتما هو تعليم من ذي علم ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف/ ٦٥ ، لبعض خلقه ممّن أعطوا لله تعالى ما يريد فآكرمهم الله فوق ما يريدون وهؤلاء ممّن يصطفاهم الله لذلك بكفاءتهم العالية ونزاهتهم السّامية. (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) ومعنى الإلحاد هنا: انحرافها وتحريفها عن معناها الصحيح ما ينافي وصفها بالحسنى ، (وَذَرُوا) أي واركوا الذين يتطرفون في أسمائه تعالى فينحرفون عن الحق ويعدلون بالصفات الخاصة به تعالى إلى غيره ، فهناك من المؤمنين يلحدون في أسمائه فيثبتون لله من صفات النقص والأفعال الدّينية ما هو منزّه عنه كنسبة الظلم في فعله أو الجّهل في حكمه أو التّقدير في رزقه أو الإمهال في قضائه فهذه جميعاً من الإلحاد في أسمائه (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) سينالون جزاء ما عملوا في العاجل أو في الآجل حيث تتجسّد أعمالهم على صورتها الحقيقية أمامهم لتبقى معهم تؤذيهم وتعذبهم، فمن أظلم ممّن نسب إلى الله ما تنزه عنه.

فائدة : ١- وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة والحاجة ، فيدعى في كلِّ مطلب بما يتناسب مع ذلك المطلوب مثلاً في الغنى يقول (يالطيف) مع تكرار الذكر ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الشورى/ ١٩ ، ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿ الإسراء/١١٠ ، وإن جميع أسمائه بياناً لصفاته وإنها تعود كلها إلى حقيقة (اسْتِغْنَاءُ ذَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاحْتِيَانُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ) . ٢- (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) معنى الإلحاد في أسمائه معنى واسع الدلالة : الإلحاد : الميل عن الوسط حساً أو معنى ، والإلحاد : التطرف في الإعتقاد والميل عن الحق والخوض في الشبهات ، كالذين يدعون له الولد والذين يدعون أن مشيئته سبحانه مقيدة بسنن كونية ، والذين يدعون أنه سبحانه إله في السماء وفي حساب الناس في الآخرة ، ولكنه ليس إلهاً في الأرض ولا في حياة الناس ولا يشرع لهم، إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم بعقولهم وتجارتهم ومصالحهم وهذا كله إلحاد في أسماء الله وصفاته وخصائص ألوهيته ، والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله . ٣- (فَادْعُوهُ بِهَا) عن النبي (ص) : (من أصابه همٌّ وحزن فقال : (اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَإِنُّ عَبْدُكَ نَاصِيتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِي حُكْمِكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ إِسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي) إلا أذهب الله عنه كل همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً) روح البيان ٣/٢٨٤ .

١٨١- ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

في الآية السابقة أشار سبحانه أن كثيراً من الجنّ والإنس من أهل النار ، وفي هذه الآية أكد أن هناك أمة وجماعة في كلّ جيل من أنصار الحق ومن أهل الجنة ، فعبر عن أهل النار بالكثير (إنّ كثيراً) وعبر عن أهل الجنة بأمة (أُمَّةٌ يَهْدُونَ) ليدلّ أن أهل النار أكثر من أهل الجنة ، لذلك صار الخطاب لجهنّم ﴿ هَلْ أَمْتَلَأْتُ وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ ق/٣٠ ، ولم يخاطب الجنة بذلك ! وتعني الآية إنّ الله تعالى لا يأمركم بأمر مثالية غير قابلة للتطبيق ولا خارجة عن طاقة البشر ، فإنّ ممّن خلقنا أمة (جماعة) يرشدون إلى الحق ويدلّون عليه ولا يخلو منهم زمان ، وبه يعدلون في كلّ شيء ، في الحكم وفي التعامل العام لأنّ الله كرمهم بهدايته الخاصة كما جعل من قوم موسى أمةً هاديين ﴿ وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف/١٥٩ جعل أيضاً من هذه الأمة المرحومة كذلك وهم من المصاديق العملية للآية ذات دلالات واسعة ، وكأما تشير إلى أن هؤلاء هم الفرقة الناجية ! عن النبي (ص): (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ) ((ع) نور الثقلين ٢/١٠٥ .

تكشف الآية عن سنة إنسانية عامة ، سنة حركية دائمة ومستمرة وعالية المضامين ، سنة مؤثرة في كلّ زمان ومكان بلا تحديد للاسم وإنما تحديد للصفة إنهم أهل الحق والعدل والهداية لا يخلو منهم زمان ومكان وهم أمة صالحة في نفسها ومصالحة لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق ويعملون به

ويعملون من أجله لتحبیب الناس إليه ، وإنهم شهادة قائمة ودائمة على أهل الضلال وهم وإن كانوا قلة في الناس إلى جانب الكثرة الكثيرة من أهل الضلال فهم جند الله المجهولين في هذه الأرض ، وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ المدثر/ ٣١ ، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح/ ٤ ، ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ المعنى : وبعض ممن خلقنا جماعة فاضلة غير معينة بالحق يحكمون بين الناس ويقيمون موازين العدل فيهم ويستقيمون على منهج الإسلام الأصيل في كل الأحوال كما أنهم يخرجون الناس من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة إلى نور الهداية وجمال الدراية ، فهم امتداد لرسالات الأنبياء (ع) وهكذا ينتصر الإسلام في نهاية الجولة فيعلو ولا يُعلَى عليه وإن كثر الأشرار كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/ ٣٣ .

عن النبي (ص): (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَّهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ) كنز العمال خير ٣٤٤٩٦ ، إنهم جماعة فاضلة كاملة في نفسها مكملة لغيرها، وهي الحارسة لأمانة الله في الأرض ، الشاهدة بعهده على الناس جيلاً بعد جيل ، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة وكل بحسب حاله وعلو منزلته وهم على إختلاف لغاتهم وقومياتهم ومنازلهم العلمية وقدراتهم العملية ولكنهم أمة واحدة موحدة متحدة لهم عدة أدوار ووحدة هدف لذلك قال (أُمَّةٌ يَهْدُونَ) ولم يقل (أمم يهدون) مما يدل على وحدة كلمتهم ووحدة أهدافهم لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد ولا يتجزأ كقوله ﴿وَمَنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/ ١٥٩ ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/ ٧ ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/ ٢٤ ، ومن مصاديق الآية : دور أئمة أهل البيت (ع) في نصره الحقَّ وهداية الناس إليه والدعوة إليه والقيادة بإسمه ، وهم أئمة الهدى ومصايح الدجى وسفينة النجاة كقوله ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الإنسان/ ٣١ ، عن النبي (ص) : (مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَّى وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ) كنز العمال خير ٣٤١٥١

١٨٢ - ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

إنَّه تحذير من مخاطر الاستدراج الخادع ، والاستدراج إلى الشيء هو الإغراء به وتيسير السبل إليه حتى يقع في فخه المشؤوم فيتمادى في طغيانه ذاهلاً عن المخبات والمفاجآت السيئة . المعنى : والذين كذبوا بالقرآن وبكل البراهين الدالة على وجود الله ومنهجه القيم (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) سنأخذهم قليلاً قليلاً وندنيهم من خاتمهم السيئة درجة درجة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون ، وهكذا يقود الهوى إلى العمى ، والهوى يهوي بصاحبه إلى ما لا يُحمد عقباه ، وذلك بأن تتواتر عليهم أنواع النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً في النعم وفساداً في الأرض وعدواناً على الناس حتى تحق عليهم كلمة العذاب.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/ ٨ ، إثم يرون الخير شراً والشرَّ خيراً ! عن الإمام الصادق (ع) : (كَمْ مِنْ مَعْرُورٍ بِمَا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَمْ مِنْ مُفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ) كثر الدقائق ٦٥٩/٣ ، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/١٠٣-١٠٤ . فائدة: الاستدراج: هي القوة القاهرة التي لا يحسبون حسابها ويغفلونها المكذبون ، إثم لا يتصورون أبداً أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون ، فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال/ ٣٠ ، فيزدادوا شراً إلى شرهم وبذلك تزيد عقوبتهم ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ ومنتقمٍ في الحديث : (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي (يعمل) لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) نور الثقلين ٣٩٤/٢ .

١٨٣- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

(وَأُمْلِي لَهُمْ) أمهلهم ولا أمهلهم ولا أعاجلهم بالعقوبة حتى يظنوا أنهم آمنون ولا يعاقبون فيزدادوا طغياناً إلى طغيانهم، (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) إِنَّ كَيْدِي أَي أَخْذِي وَعَقَابِي شَدِيدٌ فِي خَفَاءِ وَشَقَاءِ ، قَوِيٌّ مُحْكَمٌ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ وَلَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ ، إِنَّهَا سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ يَغْفُلُ عَنْهَا الَّذِينَ فَسَقُوا وَيَجْذُرُ مِنْهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَفُوتُنِي عَذَابُهُمْ وَيَكُونُ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَإِنَّ تَقْدِيرِي لِلْأُمُورِ مُحْكَمٌ لَا يَنْقُضُ أَبَدًا ، وَعَذَابِي مَنِيعٌ قَوِيٌّ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ وَلَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ ، وَسَمَاءُ كَيْدٍ لِنَزُولِهِ بِهِمْ بَغْتَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ وَأَيْضًا إِنَّ ظَاهِرَهُ إِحْسَانٌ وَبَاطِنُهُ خِذْلَانٌ ! وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْهَلٌ حَتَّى كَانَتْهُ أَمْهَلٌ ، وَسَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ عَفْرٌ وَأَنْدَرٌ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرٌ ! كَقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا أُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنََّّمَا أُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَذَابٌ مُهِينٌ﴾ آل عمران/ ١٧٨ ، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/ ٩٩ . في نهج البلاغة حكم ٢٥: (يَأْتِيَنَّ آدَمَ ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاخْذِرْهُ) ! وهذا يكشف أن موازين الله ومقاديره تختلف عن موازين الناس ومقاديرهم كقوله ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ، أَيْحْسَبُونَ أَنَّمَا مُدَّتْهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون/٥٤-٥٦ .

١٨٤- ﴿وَلَوْ يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

الْحِجَّةُ : الجنون ، أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون وبقليل من التأمل والتفكير في حياة الرسول العظيم (ص) وإيمانه الكريم وأقواله البليغة وأفعاله الجميلة المستقيمة وأخلاقه القرآنية الفريدة ، يقود الإنسان للإيمان بهذا الرسول الرحمة وبرسالته القيمة، والإيمان بالقرآن الذي يهزُّ مشاعرهم ويوقظهم من غفلتهم ويستنقذ فطرتهم وعقولهم من تحت الركام، (إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) ليس مُجَدِّ (ص) إِلَّا رسول منذر أمره بين واضح ليس فيه أي شك لمن كان له قلب يعمل . كم هو هذا المجتمع منحدر في السقوط والجهل بحيث يصف منقذهم بالجنون؟! وكم هي معاناة هذا المنقذ الرحيم من

انتشال هذا المجتمع المتخلف من الوحل؟! فائدة: ألم يجعل الآلهة المتعددة إلهاً واحداً؟ وثار على تقاليدهم الجاهلية وقال لهم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الأنبياء/٥٤ ، وهكذا شأن كل مصلح لمجتمع متخلف فإنه يرمى بالتهم كما ترمى الشجرة المثمرة بالحجارة ، ولو كان محمد (ص) في هذا العصر الذي ملئ ظمناً وجوراً لقيلاً عنه مخرب إرهابي !! وهكذا يكون حال العفيف الفاضل عند الفاسد العاهر، عن الإمام الرضا (ع): (لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَإِمَامَةُ الْعِبَادَةِ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) الكافي/٢/٥٥. فائدة: والتعبير (بِصَاحِبِهِمْ) يذكّرهم بأنهم يعرفونه الصادق الأمين من أول نشأته كقوله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ الأنعام/٣٣ .

١٨٥- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب ، مَلَكُوتِ : المبالغة في الملك ، وهو الملك العظيم الذي يشمل العالم كله وما خلق الله فيه من أصناف المخلوقات ، أُولم ينظر العقلاء نظرة استدلالية علمية الذي يستخدم الاستقراء والقياس معاً ، يستقري الناظر جزئيات الكون وما فيها من سنن تحكمها وتضبط حركاتها فيقول في الكون نظام وتدبير وتقدير ولكل نظام وتدبير وتقدير ، من مدير ومنظم ومقدّر فللكون خالق عليم ومدير حكيم ، والذي لا ينفعه سبيل الرحمن يكون لقمة سائغة للشيطان (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) وفي جميع مخلوقات الله الكبير منها والصغير والدقيق، إته لم يخلق شيئاً منها عبثاً وإنما هناك هدف نبيل وراء ذلك ، فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكتها ؟ (وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) وأن يتفكروا لعلمهم بموتون عن قريب عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كثر العمال خير ٤٢٧٤٨ ، وعنه (ص) (وَيُبْعَثُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٤٢١٢٣ فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل المحتوم ، فليبادروا إلى الإيمان لئلا يموتوا كفاراً فيصيروا إلى النار ، وهذا الاحتمال يصرفهم عن أتباع الهوى وطول الأمل.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) فبأي حديث بعد القرآن (الذي تلين له القلوب وتخشع المشاعر) يؤمنون ومن لا يهتدي بمواعظ الله وحكمه في القرآن وهو قمة البيان والبرهان فلا يهتدي بشيء . فائدة: القرآن أحسن الحديث والذي يأخذ بالأحسن هو الأحسن، والذي لا يأخذ بالأحسن هو الأسوأ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٧-١٨

١٨٦- ﴿مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

الضال: هو الغافل عن إصلاح عيوب نفسه ، وهو الغافل عن آيات ربه فلا يتدبرها ومن يضلّه الله هو الذي يضل نفسه أولاً ولا يهديه أحد من بعد الله تعالى . المعنى : من انحرف باختياره عن صراط الله المستقيم فهو ضال بقدر انحرافه ، والضلال هو أول الانحراف عن الهداية وأول انحراف

عن الفطرة وأول استجابة للنفس الأتمة بالسوء وأول تأييد للهوى والأنا ، فصار الضلال درجات وبالمقابل الهداية درجات ، إن الله يتركهم كما أرادوا في ضلالهم تغرهم الحياة الدنيا بغرورها وتخدعهم أنفسهم بخيانتها ، ويمهلهم إلى أجل ثم يجازيهم بما فعلوا ، وليس في هذا الإمهال ظلم لأنه جاء بعد إلقاء الحجة الواضحة والتحذير من العصيان وبعد اليأس من هدايتهم . (وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وَيَذَرُهُمْ : ويتركهم في (طُغْيَانِهِمْ) تمردهم وعنادهم (يَعْمَهُونَ) يتحيرون ويترددون يتخبطون في الحيرة ويخلى بينهم وبين ما يشتهون ولا يهتدون سبيلاً للخروج مما هم فيه من عناء وشقاء نتيجة الضلال البعيد ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/١٤ ، الطغيان : تجاوزا الحد في الباطل وارتكاب أنواع الشرِّ والظُّلم ، والعمه : في بصيرة القلب ، والعمى : في بصر العين ، والعمه أشد من العمى لأنه عملٌ بالهوى والأنا من غير هدى الله و(الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) . فائدة:

١- إن الله جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/٢ ، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ ، والقرآن لا يهدي المعاندين الجاحدين ، فمن يفقد الإستعداد للإيمان بهذا القرآن وبهذا الرسول المصطفى فهو الذي يضلُّ نفسه باختياره فيضلُّه الله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥ ، وهكذا الأسباب الضالَّة تؤدي إلى النتائج الضالَّة ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد/١٤ ، هؤلاء مرتت قلوبهم على الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حدِّ العمه في الطغيان وكرهوا الهدى والإيمان ! ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة/٢٦ . ٢- في الآية حثٌ على التَّفكُّر لأنَّ العاقل لو تفكَّر بالعقل السليم لاهتدى ولنحى من النار كقوله ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك/١٠ .

١٨٧- ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَلَمْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآتِيكُمْ إِلَّا بِنَعْتِ سَأَلْنَاكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يسألونك يا محمد سؤال تعجَّب واستغرب ! عن القيامة (الرجوع إلى الله) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المطففين/٦ ، (أَيَّانَ مُرْسَاهَا) متى وقوعها وحدوثها ؟ ولم يعملوا لها فما سؤالهم عنها إلا للجدل السفهية ! وسميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها ولووقعها فجأة وبغته أي بسرعة ملفتة ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ النحل/٧٧ ، سئل رسول الله (ص) متى تقوم الساعة ؟ قَالَ (ص) وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا ثُمَّ يَلْفَتُهُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنِ مَوْعِدِهَا عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِطَبِيعَتِهَا وَحَقِيقَتِهَا وَإِلَى الْإِسْتِعْدَادِ لَهَا (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) في حكم الغيب فلا يحيط بها أحد لأن تحقق ظهورها يلزم فناء الكائنات وخراب الدنيا ، ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول (ص) عن الساعة وهم لا يدركون المرسل والرسول والرسالة (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ) لا يكشف

أمرها ولا يظهرها للناس إلا الله سبحانه فهو المنشئ لها والحاكم فيها ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦، وهو المختص في تحديد وقتها (ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) عظمت وكبرت وقتها على أهل السماوات والأرض من الملائكة والجن والإنس، حيث يشفقون منها ويخافون شدائدتها وأهوالها لثقل وقوعها عليهم، فإنَّ علمها ثقیل ثقل السَّاعة نفسها لثقل تأثيرها التَّبوي على النفوس والمجتمعات، عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كثر العمال خير ٤٢٧٤٨ هذه القيامة الصغرى لكل فرد، والآية تبحث عن القيامة الكبرى للكون والكائنات، تبدأ من نهاية النظام العالمي الدنيوي وبداية النظام الأخروي العلوي الجديد في اسمه ومسماه فإنه (لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) كقوله ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الشورى/١٨، (لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ) فجأة من غير إشعار ولا إنذار فتكون أعظم وأشدَّ هولاً، فالمؤمن من يستعد لها قبل وقوعها ويقول: رب أحسن وقوفي بين يديك واغفر لي يوم العرض عليك (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) الحفي من يسأل عن الشيء بتتابع وإصرار واهتمام للعلم به، فتستعمل الحفي على العالم بها، يسألونك دائماً عن وقتها وكثير السؤال عنها شديد الطلب للعلم بها (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها الله علام الغيوب بها لنفسه ولا يطلع عليها أحداً من الناس نبياً كان أم غير نبي (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) السبب في إخفائها ، وإنما لم يخبر الله سبحانه بوقتها ليكون العباد على حذر منها وتهيؤ لها في كلِّ حال في الشدَّة والرخاء، فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة وأزجر عن المعصية.

فائدة:

١- أصبحت حقيقة الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية وعمقها ووعيتها وانطلاق التصوّر للعالم المعنوي الآخر، وضيق الرؤية وتحجيم التصوّر لحقيقة الكون والكائنات في حدود العالم المادي الحسي، لذلك أكّد القرآن على الآخرة والمعاد إلى الله حتى بات يوم القيامة في حس الأمة الإسلامية عقيدة ثابتة وحقيقة كبرى يقينية لا يعتربها الشك ، وآمنوا أنّ هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود ، بل هي ضرورة حياتية ، والقرآن أكّد على هذه الضرورة إذاً فالقرآن هو ضرورة حياتية .

٢- الإيمان بحقيقة الآخرة إيمانٌ ضروري لضبط النفس وتركيتها وتهذيب أخلاقها وعاداتها وشهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، والآخرة، في غرر الحكم: (ذُرُوءُ الْعَائِيَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُرُوءُ التَّهْذِيبِ وَالْمِجَاهِدَاتِ).

٣- السَّاعة من الأسماء الغالبة عن يوم القيامة وتعدّدت أسماء يوم القيامة إلى (٢٠) اسماً منها : يوم الدّين ، يوم الفصل ، يوم الحسرة ، يوم الجمع ، يوم التغابن ، يوم التناد .. إلخ. ٤- لو علم

الإنسان وقت حدوث السّاعة لحدث أمران : أولاً : إذا كانت السّاعة قريبة الأجل على الإنسان وهو يعرف ذلك فلم يهنأ بعيثه ولم يستطع أن يعمل وينتج ويستقيم في الفكر والسلوك فيكون بمنزلة من قد فنى ماله وقارب فناؤه فيضيق صدره ويتغيّر طبعه وحاله وتُشَلُّ قدراته .. ثانياً : إذا كانت السّاعة بعيدة عنه لوثق بالبقاء وإعتدى على النَّاسِ وانهمك في الشّهوات واللذات المحرّمة ويُقنع نفسه إنّه في آخر عمره سيتوب ، وكذلك أخفى الله ليلة القدر ليجتهد المكلف في العبادة في كلّ وقت ، وأخفى ساعة الإجابة ليكون المكلف مُجِدّاً متواصلًا في الدّعاء ، وأخفى عمر الإنسان عليه حتّى يجِدَّ ويجتهد في كلّ وقت في طاعة ربّه ويكون أصدق في العبودية وبذلك يتبين درجة الإيمان.

٥- (أَيَّانَ مُرْسَاها) والتعبير عن مجيئها بمرساها إشارة إلى أنّها غائب ينتظر مجيئها ، حيث لا يدري أحدٌ متى تطلع وتبلغ الغاية التي تصل إليها وتلقى مراسيها وحمولتها عندها ! ٦- قوله (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) وقوله (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) ما الفرق بين المقامين ؟ الجواب : التعبير (عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) رداً مباشراً على سؤال السائلين للنبي عن ميقات السّاعة وكانوا يحسبون أنّ ذلك ممّا يعلمه التّبي ، فجاءهم الرد بإضافة علم السّاعة إلى ربّ السّاعة وربّ محمّد لا إلى محمّد ، أمّا قوله (عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) فذلك بعد أن جاءهم العلم بأنّ علم السّاعة ليس ممّا يطّلع عليه محمّد (ص) بل هو ممّا استأثر به الله لنفسه وإذن فليعلموا بعد هذا أنّ الله ربّ العالمين . ٧- من علامات السّاعة : قتال المسلمين لليهود وأعوانهم وفتح بيت المقدس ، ونشر الفتن وكثرة الرّنا والفسوق والعصيان ، وظهور المنقذ للأمة وهو (المهدي المنتظر) مثله مثل السّاعة وهو محمّد بن الحسن المهدي العسكري القائم المنتظر ، وهو آخر إمام من أئمة أهل البيت (ع) الذي أذهب الله عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً ، وهو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وهو الذي يحقق وعد الله الذي ذكره في كتابه بقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ النور/ ٥٥ ، ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/ ١٠٥ .

١٨٨- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِذْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قل يا محمّد إنّي فقير إلى الله لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلاّ بمشيئته تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ التكوير/ ٣٠ وليس لي من العلم إلاّ ما علّمني ربّي ، وليس لي من التّصر إلاّ ما أقوم به من نصرة دين ربّي ، فكيف يكون عندي علم السّاعة ؟ (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) لو كنت أعرف أمور الغيب وحقيقته ولو كانت عندي مفاتيح

الغيب حصلت لي كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتهما ومضراتها ولكنك أختار الأفضل دائماً في عمل الدنيا والآخرة لذلك قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ البقرة/٣ ، ولم يقل (الذين يعلمون الغيب) (وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ) ولو كنت أعلم الغيب لا احترست من السوء ولا احترست من أسبابه ولكن لا أعلمه ، فلماذا يصيبني ما قدر الله لي من العسر واليسر ، إذاً عند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله (ص) وتتحدد وظيفته ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الكهف/١١٠ (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) فتلك هي مهمة الرسول (ص) أن يبلغ بوضوح ما أنزل إليه من ربه منذراً بالعقاب لمن عصى ومبشراً لمن اهتدى (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يصدقون برسالي الإسلامية وينتفعون بمنهجها القيم وينفعون بها الآخرين، وليس عليه أن يهدي الناس بالإجبار كقوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق/٤٥، فائدة: ١- (أَعْلَمُ الْغَيْبِ) الغيب قسمان حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن/٢٦-٢٧، وغيب إضافي يعلمه من ذي علم ، لذلك يعلمه بعض الخلق دون بعض ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ هود/٤٩. ٢- (لا أَمَلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) تبين الآية لا يمكن أن يُقصد النبي (ص) ويدعوه خاصة من دون الله لحصول نفع أو ضرر فإنه ليس بيده الضر ولا النفع كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨، ولكن نقصده لقربه من الله وندعوه بجأه عند الله تعالى ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام/٧١، فالنبي ناصر الله والله ناصره فهو حبيب الله، والنبي ليس له قوة من نفسه من دون الله بل القوة كلها من الله كقوله ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ البقرة/١٦٥ ، والله سبحانه يهب لمن يشاء من المواهب والقوة والكفاءة. مثال: لو كان يعلم النبي الغيب لما عرض نفسه على مدينة ثقيف قبل الهجرة فأذوه أشد الإيذاء ، وأيضاً لو كان (ص) يعلم الغيب لما أذن للمنافقين الذين جاؤوا إليه بأعدار كاذبة للتخلف عن غزوة تبوك ، وإنما تكون مهمة الرسل جميعهم كقوله ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

النساء/١٦٥

١٨٩- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا تَرْوِجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَاكَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَنِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَنْ أُرِيَنَّكَ صَالِحًا لَكُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

المعنى العام : تقدم في سورة النساء/١ هذا العالم البشري كله مخلوق من نفس واحدة ، إنما الفلسفة القرآنية الفريدة للنفس الواحدة الموحدة المتحدة ! فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى ، حتى يكون بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف ، وإنما هذا الاختلاف في التركيب السايكولوجي (الجسدي والروحي والتفسي) يؤدي إلى اختلاف في

الوظائف وتنوع المسؤوليات حتى يتحقق من هذا النظام العام نظام آخر خاص هو (لَيْسَكُنْ إِيَّهَا) من السكنية بمعنى الطمأنينة ، ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها ويطمئن ليظل السكون والسكنية وحسن المعاشرة هو الجو السليم للعلاقة الزوجية وهو أعلى مطلب إنساني مشترك بين زوجين متكافئين ولا يحصل بين زوجين غير متكافئين وغير دائمين كقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات/٤٩ ، لأن السكن نعمة دائمة تتناسب مع الزواج الدائم المتكافئ وتتخلخل مع الزواج المؤقت بكافة أسمائه كقوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم/٢١ ، ولم يجعل الإسلام الزواج الهدف منه اللذة العابرة ولم يجعله مبنياً على الصراع والنزاع كما لو كان قلة النساء أو الرجال ، ولم يجعله في تعارض بين المسؤوليات والاختصاصات والوظائف ولا في الحقوق والواجبات ، كما تحبظ الجاهلية في القديم والحديث، وإنما جعله مبنياً على نظام تكويني دقيق متوازن أساسه وحدة النفس الواحدة المتحددة والسكن المشترك ، والذي يجهل هذا النظام الدقيق فإنه يعيش العلاقة الزوجية شكلاً بلا مضمون ، وشهوة بلا ثمرة ولا عيرة، وبذلك يشترك مع غير العاقل ولا يكرم الإنسان نفسه ولا زوجه (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) تَغَشَّاهَا : غطَّاهَا ولا مسها وهي كناية لطيفة عن المقاربة والمضاجعة ، وهو أدب قرآني رفيع إذ يغشى الرجل المرأة أي يكون لها غشاً ساتراً معنوياً رقيقاً ، أشبه بالثوب يلبسه الإنسان أو أشبه بالحصن الذي يتحصن به الإنسان ، لذلك صار الزوج محصن بزوجه وهي محصنة بزوجه أو أشبه بالليل إذا يغش النهار ويدخل عليه فيستر ما فيه من كائنات ويحجب الأعين عنها ، وهو تعبير في عالي المضامين لتصوير المباشرة الزوجية مع جو.

(لَيْسَكُنْ إِيَّهَا) فيظهر امتزاج نفسين قبل التقاء جسدين وكأن هناك نفساً واحدة انشطرت إلى نصفين منذ التكوين وأصبحت في جسدين متكافئين ، وبذلك تفترق العلاقة الزوجية بالإنسان عن العلاقة الزوجية بالحيوان وهذا من مفاهيم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء/٧٠ ، وفي قوله : (حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ) فلما قاربها حملت بالجنين حملاً خفيفاً لا تكاد تشعر به ، والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم ورعايته لهم في إنشائه جميلاً كاملاً جليلاً ، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة (فَمَرَّتْ بِهِ) استمرت به إلى حين ولادته (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) فلما كبر الحمل في بطنها ثقل حمله وحن وقت الولادة (دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا) مربيهما ومالك أمرهما وعاهداه (لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لئن رزقنا ولداً صالحاً كامل الخلقه وجميل الهيئة وحسن الآداب يعمل صالح الأعمال لنشكرنك على نعمائك والانقطاع إليك بإظهار نعمتك ولا نميل إلى سبب دونك لأنّ الولد الصالح نعمة كبيرة والعاق الفاسد شقاء وعناء.

فائدة: ١- هناك نفس واحدة انقسمت بقدره الله إلى قسمين وأصبحت كل قسم لزوج فأصبحا جسدين بنفس واحدة ! وهذا يحصل منذ الخلق الأول والإنسان في بطن أمه كقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين/٤، فهما على مستوى واحد في الحقوق والواجبات وفي الإنسانية والكرامة، فمن السفه وكبرياء الرأي أن يعتقد أفضلية أحد الزوجين المتكافئين على غيره بالجاه والمال والأشكال والجمال وحسن الحال أو بالنسب أو العنصر. ٢- جاء القرآن الكريم بهذه الحقيقة عالية المضامين منذ أكثر من أربعة عشر قرناً يوم كانت الجاهلية تعدُّ المرأة أصل البلاء وتعتبرها لعنة ونجساً وفحاً للغواية فقامت في وأدها وموتها وهي حيّة! ولحدّ الآن لم تدرك البشرية عمق النظرية القرآنية هذا المزيج بين التطوّر العلمي والرتقي النفسي بين الزوجين! ٣- روي : (إن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر) إنّها من الإسرائيليات والتي تتعارض مع القرآن الذي يعتمد (النفس الواحدة) والذي ضعّفها الإمام الصادق (ع).

١٩٠- ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شُرْكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الغرض من هذه القصة تعكس حال الإنسان بما هو طبيعة إنسانية وليس حكاية عن حادثة معينة ، المعنى : فلما وهبهما الولد الصالح السوي واستجاب الله دعوتهما (جَعَلَاهُ لهُ شُرْكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) نسيا الله ما عاهداه عليه ، واطهرا ما كان راسخاً في أنفسهما من الشرك الخفي ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أُكْفَرَهُ﴾ عبس/١٧ ، الشرك : له مقادير ومعايير ونسب وأشكال ، فأعلى الشرك هو الشرك الجلي الصريح أن تجعل مع الله إلهاً آخر تعبده ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣ ، وأدنى الشرك : سئل الإمام الصادق (ع) عن هذه الآية فقال : (يُطِيعُ الشَّيْطَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ) الكافي/٢/٣٩٧، وسئل (ع) عن أدنى الشرك فقال : (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَاحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٩٧، وعن الإمام الباقر (ع) في قوله (جَعَلَاهُ لهُ شُرْكَاءَ) : شرك خفي كطاعة الهوى (إنما كان شركهما شرك طاعة لغير الله) ولم يكن شرك عبادة كثر الدقائق ٦٦٦/٣ (لم يكن شرك معصية) مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أَعْطَى عَدُوَّهُ مَنَاهُ ، وَالهُوَى يَقُودُ إِلَى الْعَمَى وهو إله يعبد من دون الله ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان/٤٣ .

المعنى: (جَعَلَاهُ لهُ شُرْكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) من الولد الصالح حيث دفعتهما المحبة والشفقة عليه أن يتعلقا بكل سبب سوى الله تعالى لحمايته !! فتارة يقولان : إن كان الولد جميلاً أو ذكياً أو قوياً فإنّه اكتسب هذه الصفات السّامية من أبيه أو أمه وهذا هو قانون الوراثة: ولم يقولوا أنّ الله يسبّب لهما هذه الصفات بقدرته ورحمته ، وتارة يقولان: كان غذاؤه والظروف الصحيّة سبباً لكونه كاملاً ! وينسيان أنّ الله مسبّب الأسباب ومدبّر الأمور ومقدّر المقادير ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ

تَقْدِيرًا ﴿الفرقان/٢﴾ ، وهذا هو الشرك الخفي وعلى هذا أكثر النَّاسِ إِلَّا من رحم الله كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦ ، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف/١٠٣ .

عن النبي (ص): (اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ (الخفي) فَإِنَّهُ أَحَقُّ مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ ، وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَحَقُّ مِنْ ذَيْبِ النَّمْلِ ؟ قال (ص) قولوا (اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ) كنز العمال خبر ٨٨٤٩ سرعان ما ينسيان هذه العهود مع الله حيث يعودان إلى الشركاء من حيث لا يعلمون ، والشركاء في عصرنا الحاضر كل القوى المعادية التي تضغط على البشر باتجاهات منحرفة خطيرة كالذي يعيش في المجتمع الفاسد والثقافة الفاسدة وزمرة السلطة الطاغية وأصحاب المال والجاه فأفسداه اجتماعياً حينما أخضعاه للطاغوت ، وأفسداه ثقافياً حيث سلماه بيد أدعياء العلم وزعماء الدين الفاسدين ، وأفسداه اقتصادياً حيث ربطاه بعجلة الرأسمالية ، بينما كان الواجب عليهما (في الآية) أن يشكرا الله ويربوا الولد على أساس الصلاح وهو تحريره من الشركاء وجعله مرتبطاً بالله وبرسالته والله يبارك فيه إلى نهاية عمره ولكنهما أفسدا فطرته عن النبي (ص): (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يَهُودَانِيَهُ أَوْ يُنَصِّرَانِيَهُ أَوْ يُمَجِّسَانِيَهُ) البحار ٣/٢٧٩ ، (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزهه وتقدس الله تعالى أن يكون له شركاء يعملون معه في تدبير ملكه . فائدة : (يُشْرِكُونَ) الشرك أنواع : في الجاهلية القديمة كانت الأصنام الحجرية وفي الجاهلية الحديثة تغيرت أشكال الأصنام فصارت أصنام بشرية وأصنام قومية وأصنام مالية وأصنام سياسية .. إلخ وهي أشد ضرراً وشكراً من ضرر شرك الجاهلية القديمة ، فتغيرت أشكال الشرك وبقيت المضامين المنحرفة الفاسدة هي السائدة ، وهي متنوعة الأشكال والأحوال والألوان .

١٩١- ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾

الاستفهام للتوبيخ ، وبين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك الجلي والخفي فقال : أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً؟! (وَهُمْ يُخْلِقُونَ) فكل ما خلا الخالق مخلوق له مفتقر إليه في كل مراحل وجوده ، فكيف يعبدون المخلوق الضعيف ويتركون الخالق القوي؟!

١٩٢- ١٩٣ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾

إنَّ النصر والغلبة والاعزاز والإذلال بيد الله والذين إتخذوهم شركاء وآلهة من دون الله هم مفتقرون إلى الله محتاجون إليه فلا ينصرون أحداً ممن يعبدها (وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ) فلا يستطيعون ردِّ السوء عن أنفسهم ولا ينصرونها فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟! فهم تحت قبضة الله فكيف يتعلقون بهم؟! ١٩٣- (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ) فلا علم لهم ولا قدرة ولا

إستجابة لكم إذا دعيت إلى خيرٍ وهدىً ورشاد كما يستجيب الله لكم (سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) لافرق بين الصامت والناطق عند الشركاء فلا يشعرون بشيء من الدعاء وعدمه فهي لا تنصر ولا تنتصر ولا تهدي ولا تهدي ولا تدعو أحداً ولا تستجيب لدعوة أحد ومع هذا تُعبُد من دون الله !!

١٩٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

تدعون من دون الله من كلِّ الشركاء وهي الأصنام (عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ) أي لو افترضنا أن الأصنام أحياء عقلاء كما تزعمون أيها المشركون فهم أمثالكم في الشكل لا تفاضل فيما بينكم فكيف تستغيثون بهم عند الحاجة ؟ وكيف تدعوهم وهم لا يسمعون دعاءكم ؟ (فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أمر على جهة التعجيز أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرر إن كنتم صادقين في دعوى أنهم آلهة فأطلبوا منهم هل تستجيب لطلبكم ؟

١٩٥ - ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُلِ سَوَاءٌ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ لَا يَأْتِيهِمْ سَاعَةٌ أَنْ يَأْتَخِطَّ بِهِمْ أَمَّا تُدْعَى إِلَهُاتُهُمْ فَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

الاستفهام للتقريع والتوبيخ هل لهذه الأصنام أرجل يتحركون بها ؟ (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا) أم لهم أيدي تفتك وتبطش بمن أَرادها بسوء ؟ (أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا) أمامهم من أشياء ؟ (أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) الأصوات ؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر لأنها فقدت الحواس وفاقده الشيء لا يعطيه وأنتم أفضل منهم ومع ذلك لم يستحق بعضكم عبادة بعض (قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) قل أدعوا أصنامكم واستنصروا بها عليّ (تُمْ كِيدُونِي) فَلَا تُنظِرُونِ) أي ابدلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق المضرة بي (فَلَا تُنظِرُونِ) فلا تمهلوني طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله ، فما بالكم تأبون قبول الحق من مثلكم وقد فضّله الله عليكم بالعلم والهدى ثم ترفعون ما دونه من شركاء ولا قيمة لهم إلى مقام الألوهية ؟! حقاً إنه أفضل الجهاد كلمة حقّ في مجتمع جاهليّ متخلف .

١٩٦ - ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

هذا من كلام النبي الأعظم (ص) يخاطب به المشركين ، إنّ الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل عليّ القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم فهو حجّة لي عليكم (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) الولي بمعنى الناصر والمؤيد والداعم والحافظ والهادي ، وهو يتولى أمر عباده الصالحين بالحفظ والتأييد والنصرة ليورثهم الأرض ، فالله سبحانه يتولى من يتولاه وينصر من ينصره ويلوذ بحماه ويصدق معه ، وهم من استقامت وصلحت أنفسهم في الأفكار والعقائد والأقوال والأعمال وسلمت من الأوهام والخرافات والانحرافات ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/ ١٠٥ .
فائدة : كان الأنبياء (ع) يدعون أن يُلحقهم الله بالصالحين كما دعا يوسف (ع) ﴿تَوَفَّنِي﴾

مُسْلِمًا وَأَلْحِقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿يُوسُفُ/١٠١﴾ ، ونحن نسلم عليهم في كل صلاة (السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ)

١٩٧-١٩٨ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُبْصِرُونَ وَإِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

تقدم في الآية ١٩٢/سورة الأعراف ، وجاء التكرار لأن النبي (ص) تحدى الأصنام أن تناله بأذى فناسب أن يشير بأنها أعجز من أن تنتقم لنفسها فلا تنصركم ولا تنصر نفسها (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا) وتقدم في الآية ١٩٣/ سورة الأعراف للسبب نفسه (وَتَرَاهُمْ يُبْصِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر. فائدة: ١- وهؤلاء الكافرون تراهم شاخصين بأبصارهم إليك وهم لا يبصرون لشدة ما يشغلهم من شهواتهم وأهوائهم ومتاع الدنيا ، وهكذا تنطبق الوثنية الساذجة في الجاهلية القديمة على كل الآلهة المدعاة من الوثنية الجديدة بألوانها المتنوعة وانحرافات المتعددة في الجاهلية الحديثة تحت شعار التقدم والتطور

١٩٩- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

هذه من الآيات التي تبين النظام الأخلاقي الإسلامي الداعي إلى الاعتدال والرفق في جميع الأحوال في القول والعمل وفي تعامل الفرد مع الفرد ومع الأهل ومع المجتمع سواء أكانوا في القيادة أو القاعدة، وتضمنت ثلاثة آداب نفسية فاضلة مركبة مرنة واسعة الدلالة عالية المضامين ظاهرها أنيق جذاب وباطنها عميق منساب ذو دلالة واسعة ١- (الْعَفْوُ) خذ السهل اليسير ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة/١٨٥ ، ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر/٨٨ ، خذ اليسير السهل الذي لا مشقة فيه ولا عسر في معاملة الناس وأحسن معاشرتهم وعدم التشدد معهم وحبب الاستقامة لهم بفعلك قبل قولك، سواء تعاملت معهم أو عاشرتهم أو صاحبتهن ولا تطلب منهم الكمال ولا تكلفهم ما لا يطيقون واعف عن أخطائهم والعفو في المعاملات الشخصية وليس من الواجبات الدينية والحق العام ، إن جبريل أوصى الرسول (ص) فقال (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَزَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ) جمع البيان ج ٣-٤ص ٥١٢ واستر على من أساء إليك فلا يلح على الإنتقام ولا يتبع العثرات ولا يغضب لنفسه وإنما لله تعالى، والْعَفْوُ: من أخلاق الله ورسوله قال (ص) : (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي) نور الثقلين ٥/٣٩٢، الوسطية في السلوك بلا إفراط ولا تفريط ، وهذا العفو والصَّفْحُ ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/٨٥ ، والتسامح أدى لنشر المحبة والتسامح والرفق بين الناس ، لأنه يشمل تهذيب الأفعال والأخلاق والأقوال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧ ، عن النبي (ص) : (بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا ، يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، حَبِّبُوا وَلَا تُكْرَهُوا) الدر المنثور ١/١٩٢ ، ورد عنه (ص): (مَا حَيَّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا إِخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا) التفسير المبين ص ٤٤٤ ، ٢- (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) وَأْمُرْ بِالْخَيْرِ الْمَعْرُوفِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ عَلَى مَنَاقِشَةٍ وَجَدَالٍ لِأَنَّهُ سَلِيمٌ فِي ذَاتِهِ وَفِي مَعْنَاهُ وَمَارِسْتَهُ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الْجَمِيلُ الَّذِي يَدْرِكُهُ

الإنسان بفطرته، وهو الجميل المستحسن من الأقوال والأعمال والمبادرات في نطاق منهج الله الذي يحث على الخير وكل ما فيه نفع وتقدم وتطور حضاري في المجتمع.

ذكر القرآن المعروف في الأحكام المهمة، وقد يختلف المعروف باختلاف الشعوب والظروف والعادات كقوله ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/١٠٤ ، والعرف: اسم جامع لكل خير ونفع للصالح الخاص والعام ومانع من كل شر لهم ، والعرف ما يتعارف عليه العقل الإنساني الناضج العام ويأمر به ، وفي هذا دلالة على كون الأوامر الدينية تنسجم مع الفطرة السليمة باعتبارها المنظم العام للسلوك العقلائي . تكشف الآية عن سماحة ومرونة هذه الشريعة الإنسانية في صميمها فيكون حسابهم عندها قائماً على طبيعتهم وعواطفهم ومشاعرهم ، فالعرف من المعروف التي تتعارف عليه النفوس الطيبة والفطرة السليمة . وهناك فرق كبير بين ما يتعارف عليه الناس من أهواء وبدع ومفاسد وبين ما يتعارفون عليه من خيرٍ وحق وإحسان ، فما كان العرف فيه بدعاً وضلالاً وإن انتشر بين الناس فهو غريب في موضعه حتى عند المتعاملين به فهو في موطن الشبهات وليس من موارد اليقين، لذلك كان (الإجماع) أصلاً من أصول التشريع لهذه الأمة التي لا تجتمع على ضلالة ، لأن الإجماع يعتمد على الشورى والمشورة وتبادل الرأي ومناقشته وهذا اعتراف من الإسلام في خطه العام في وضع دستور البلاد الذي لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية ، وفرق كبير بين اعتراف الإسلام بالإجماع وبين حق الرئيسي الديني في التشريع . والعرف الذي يربط بين طاعة الله والإحسان إلى الناس ، وهذا دليل على أن.

(الإسلام الشريعة السهلة السمحة) ٣- (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) من الجهالة ضد الرشد ، وضد العلم وهم السفهاء والسذج وليس الأميين كقوله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ الفرقان/٦٣ ، وهم الذين لا ترجى هدايتهم بالحجة والدليل ولا يستفيدوا من المواعظ والسنن والحكم وقد يكون الإعراض عنهم أنفع لمصلحتهم ، وأيضاً لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل اصبر عليهم فإن بالصبر تدرك الرغائب ، والإعراض يكون بترك الجدل واللجاج معهم عن القيل والقال ، وإضاعة المال وكثرة السؤال بلا معنى ، ومن معاني هذا الإعراض وهو التهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات وبساطة الألفاظ وسذاجة الحديث ، والمرور بها مرور الكرام وعدم الدخول معهم في جدال عقيم يضرب ولا ينفع ، فيكون تركهم ترويض لنفوسهم ومحاسبتها في تهذيب أحوالهم ، في الحديث : (الْحَلَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ (واضح) فذم ما يريبك إلى ما لا يريبك) كثر العمال خير ٧٢٩٢ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَجْمَعٌ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ) كثر الدقائق ٦٧٠/٣ ، والإعراض عنهم بالصبر عليهم والحلم عند الغضب وعدم الهبوط إلى مستوى الجاهلين ، فأرد الجاهل بجهل الجاهلين لأكون مثله ، وهذا الخلق والتسامي يوفر الوقت للمؤمنين العاملين عن تبيده في القضايا التافهة!

فائدة: (العفو) فيه عدّة معانٍ ، منها ما عُفي وُصِفَ في نفسه وُصِفَ عن غيره وقبل عذر المعتذر، وسهل في طبعه وفي تعامله ممّا تألفه النَّاسُ وتحمّبه وتفضّله الطبيعة البشرية ، من العفو هو الاعتدال بين التّسامح والتشدد ، فيكون التشدد في موضعه المناسب والتسامح في موضعه المناسب كقوله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ النور/٢ ، في غرر الحكم : (أَحْلَطِ الشَّدَّةَ بِرَفْقٍ ، وَإِرْفَقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَوْفَقَ) كقوله ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران/١٥٩ ، ومن (العفو) الاعتدال أن لا يخرج الغضب عن الحق ولا يدخله التّرف في الباطل، وبهذا (العفو) تنمو مكارم الأخلاق تسعد النفوس وتمضي الحياة سهلة ميسرة ، ومن (العفو) السماحة والعطف من الكبار الأقوياء تجاه الصغار المستضعفين الفقراء ، فالتعامل مع النَّاسِ تألّفه عن النبي (ص) (وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ) كتر العمال خير ٦٧٩ ، عن الإمام علي (ع) (طوبى لمن يألف الناس ويألفونه على طاعة الله) البحار ٧٨ ص ٥٦٠

٢٠٠ - ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

النزع : الدخول في الأمر لإفساده وإغرائه والإثارة ضده دون الوصول إلى صميمه . المعنى : وإما يصيبك يا مُحمَّد من وسوسة الشيطان في نفسك الصافية وحاول أن يمنحك مما أمرتك به ، فاعلم أن ذلك من كيد الشيطان كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مجذ/٢٥ ، ﴿وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فاستجر بالله واعتصم به والجا إليه بقلبك في دفعه عنك إنه سميع لما تقول عليم بما تفعل فائدة : ١- إنه خطاب عام لكلّ مكلف للحذر من خطوات الشيطان عدو الإنسان والحذر من مكره وخبثه وشره والتيقض من وسوسته ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ المؤمنون/٩٧-٩٨ . المعنى : إذا رأيت منكراً من سفيه أو معصية من فاسق وسوء تصرف من جاهل فلا تغضب لنفسك وإغضب الله ، فلا يذهبن الغضب بجملك فاصبر وصابر واهدأ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ النحل/٩٨ ، وخاطبه بالحسنى عسى أن يستجيب لك واعلم أنّ الغضب لغير الله من نزعات الشيطان وإنه بالاستعاذة يخنس ، والوضوء يطفئ الغضب ، في غرر الحكم: (أَقْوَى النَّاسِ مِنْ قَوِيٍّ عَلَى غَضَبِهِ بِجِلْمِهِ) . ٢- (يَنْزِعَنَّكَ) يصيبك ، شَبَّهت الآية الكريمة وسوسة الشيطان الرجيم للناس بوكز الدابة لتسرع ، فالاستعاذة بالله تطرد الشيطان ، وعدم الاستعاذة بالله منه يقترب من الإنسان ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨ ، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/٢٩ .

٢٠١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا سَهَّ طَاهِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

تكشف إجماعات الآية عن حقائق دقيقة وريقة وعميقة يتضمّنها السياق القرآني الجميل ذو المعاني الجليلة ، فنقول : من علامات المتقين الصادقين والصفة النموذجية التي يتميزون بها هي عدم قدرة

الشیطان من السيطرة عليهم مع أنهم غير معصومين للدلالة أنهم من أهل الله ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ص/٨٤ ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) المس : الإصابة ، والطائف : ما يدور حول الشيء ويأتيه من جميع نواحيه ، وهي وساوس الشيطان التي تطوف حول القلب لتؤثر عليه . المعنى : إذا أغراهم الشيطان بمعصية الله أو أصابهم الشيطان بوساوسه وحام حولهم بهواجسه ودفعتهم النفس الأمارة بالسوء (تَذَكَّرُوا) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاطر/٦ ، (وَتَذَكَّرُوا) ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/٢٩ ، (وَتَذَكَّرُوا) ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه ، وهو ربه ومالكهم ومربيهم ويرجع إليه أمرهم فارجعوا إليه أمركم فيدفع عنكم كيد الشيطان ويرفع عنكم حجاب الغفلة (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) يبصرون الحق بنور البصيرة والإيمان ويتخلصون من وساوس الشيطان وأوامر النفس الأمارة بالسوء فيرتدعون عن المعصية.

فائدة: ١- من علامات المتقين بالحقيقة وليس بالادعاء ، إذا اصطدمت عاطفتهم وأعمالهم مع دينهم وقام الصراع بينهما وأوشكت العاطفة أن تتغلب على الدين ، وكادت المصالح الدنيوية المشبوهة تنتصر على القيم والمبادئ والأخلاق (تَذَكَّرُوا) أنهم تجاوزوا الأصول وتعدوا الحدود ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩ ، (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) متذكرون بأن العاقبة للمتقين فكبحوا عاطفتهم بقدرة التقوى النافذة وأمسكوا أنفسهم الأمارة بالسوء بضوابط الدين والعقل والإيمان وقادوها إلى طاعة الله ومعصية الشيطان . ٣- في ختام الآية (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) وفي افتتاح الآية (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) فما علاقة مسّ الشيطان بالإبصار ؟ تفيد الآية أنّ مسّ الشيطان ومقدار سيطرته على الإنسان فإنه يُعمي البصيرة ويطمس المشاعر ويُغلق أبواب الأحاسيس ، فيؤدي إلى مرض معنوي خطير ومرير وتأتي تقوى الله (هذا الدواء الفعال الحصن الحصين) توظف البصيرة من الغفلة وتحرك المشاعر وتحي الضمائر وتشرح الصدور وتطمئن القلوب ، وتذكر المتقين (تَذَكَّرُوا) فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم وتكشفت الغشاوة عن عيونهم (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) نستنتج إنّ مسّ الشيطان وسيطرته على الإنسان عمى ، وإنّ تذكروا الله إبصار ويقضة ، وإنّ مسّ الشيطان ظلمة ، وإنّ تذكر الله نور ، فما للشيطان على المتقين من سلطان ! روي : (ذكر (لا إله إلا الله) تدفع وساوس الشيطان وقراءة المَعْوَدَتَيْنِ أَيْضاً) تفسير النور ٣/٢٣٦ . ٤- قيل المؤمن الذي لا يتمكن الشيطان من إغوائه إلا مثل الجسم القوي لا تجد الميكروبات طريقاً لمرضه لقوة مناعته ، في غرر الحكم: (بِالتَّقْوَى قُرِنَتِ الْعِصْمَةُ) .

٢٠٢- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمُ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ﴾

وإخوان الشياطين وأعوأهم من الجن والإنس (الذين لم يتقوا) (مُدُّونُهُمْ) من الإمداد والإعانة الدائمة ، يمدونهم في (الغِيِّ) الضلال ويغرونهم بالشهوات ويزينون لهم المنكر وما هم فيه من الفساد ورتائل التصرفات كقوله ﴿وَوَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، (ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ) ثم لا

يسكون ولا يكفون عن إغوائهم ولا يتوقفون عن إفسادهم ولا يكلون ولا يسأمون وهؤلاء يسرعون إلى إيجابتهم طائعين لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي ، ومن لم يكن من نفسه واعظ فإن مواعظ الناس لا تنفعه، ولم يكن له من الله حافظ (وَإِخْوَانُهُمْ) وإن الشياطين هم إخوان المشركين المفسدين الظالمين لا يتوقفون عن غوايتهم وتضليلهم لأنهم بعضهم أنصار بعض كقوله ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية/ ١٩ .

٢٠٣ - ﴿وَإِذْ أَنْذَرْنَا نَاهِيَةً قَالُوا لَا أَجْتَبِيهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا لم تجئهم بمعجزة كما اقترحوا أو أبطأت بها (قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا) قالوا هلاً (اجْتَبَيْتَهَا) أي افتعلتها واختلقتها يا محمد واخترعتها من عندك أو طلبتها من ربك وهو على سبيل التعنت (قُلْ إِنَّمَا أَتَّبَعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي) فأنا لا أتى بمعجزة خارقة من عندي ولا في الوقت الذي أريد لأنه ليس لي من الأمر شيء كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/ ١٢٨ ، إنما أنا عبد أمتثل ما يوحيه الله إلي (هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) بصائر : دلائل واضحة من ربكم تبصر قلوبكم بها وتهدي عقول ذوي الضمائر إلى حياة أفضل في الدنيا والآخرة ، أي هذا القرآن الجليل يهدي للتي هي أقوم وفيه براهين نيرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر المضيئة للقلوب كقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام/ ١٠٤ ، به يبصر الحق ويستذوق طعم الهداية ويعرف فلسفة الحياة (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وهدى إلى صراط مستقيم (وَرَحْمَةً) وخير دائم ونعمة قائمة في الدين والدنيا لقوم يؤمنون به ويعرفون قيمته ويعملون على ضوئه . فائدة : يجعل القرآن الناس يبصرون ويعون أمراض أنفسهم ومجتمعهم والأخطار المحيطة بهم وكيف يتوقفون منها . إنَّ هذا القرآن بذاته معجزة ولغيره معجزة وبتأثيره معجزة، إنَّ هذا القرآن الكريم الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه ، إنَّه القرآن ذلك السلطان المؤثر على القلوب التي تريد أن تهدي لأنَّ القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/ ١٨٥ ، والذي لا ينفعه القرآن يضره الشيطان. إنَّ هذا القرآن بصائر للعقول ويحيي النفوس كقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأنعام/ ١٥٥ كنز العمال خير ٢٤٥٤ .

٢٠٤ - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا أمر عام في الصلاة وغيرها في كل من سمع كتاب الله يتلى فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات أمر استحباب مؤكد وليس وجوباً ، والفرق بين الاستماع والإنصات : إن الإنصات هو السكوت والإصغاء والسكون والتفكير بالمعاني فلا يشغله عنها شاغل أما الاستماع هو من كان قاصداً للاستماع والرغبة في القبول والعمل بما فيه ، وهو تركيز السمع وحضور القلب وتحيي النفس للتدبر ما يسمع ، فصار كل إنصات استماع وليس كل استماع إنصات باعتبار الإنصات أهم وأنفع وأشمل وأعمق من الاستماع ، والاستماع أهم من السماع ، فإذا حصل الاستماع والإنصات حصل الخير الكثير والعلم الوفير والتذكير الجميل والإيمان الوفير (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) لهذا رتب الله

حصول الرحمة عليهما ، ليرحمكم ربكم بإتعاظكم بمواعظه ، فمن إستمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر ومن كان كذلك كان جديراً أن يُرحم ، فمن لم يستمع ولم ينصت فإنه محروم الحظ من الرحمة وقد فاته خير كثير . **المعنى العام** : تدبروا القرآن وتفهموه وأكثروا العناية بتدبر معانيه سواء سمعتموه أو قرأتموه أو درستموه أو بحثتم في علومه ، واسكتوا عند استماعه وأصغوا لإجلالاً له وتداولوا معانيه زيادة في الفائدة ، عن النبي (ص) : (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ)
 يثور : يتعمق ويبحث كثر العمال خير . ٢٤٥٤

٢٠٥ - ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾
 ثم تنتهي السورة بالتوجيه إلى ذكر الله عامة في الصلاة وغير الصلاة ، ففي الذكر لذة للذاكرين (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ) مع نفسك مستحضراً عظمته وجلاله عن علم وفهم لمعاني الذكر (تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) من الضراعة أي بخشوع وخضوع ورغبة ورهبة وخيفة مع استحضر مخافة الله للدلالة على معرفة مقام ربه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/٤٦ ، ومن خاف مقام ربه عرف قدر نفسه وكف ظلمه وهذب نفسه ورحم غيره وإستقام فكره وسلوكه ولا يتعد حدود ربه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/٤٠-٤١ ، وإذكر ربك بلسانك وإلهج بذكره بقلبك بالتسبيح والتحميد وقراءة القرآن والدعاء بصوت معتدل (وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) بصوت متوسط معتدل بين الجهر والإخفات ولا تجهر بصوتك فهو سبحانه قريب منك كقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ الإسراء/١١٠ (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) الغدو : جمع غداة وهي بين صلاة الصبح إلى الضحى ، والآصال : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب . أي اذكر الله بلسان الحال ولسان المقال صباحاً ومساءً ومعناه ذكر في كل الأحوال وفي كل حين لتكون من الذين عند ربك .

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر/٥٥ ، (وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) عن ذكر الله وطاعته ومن غفل عن ذكره وطاعته تعالى مرض قلبه وضعف إيمانه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه ! (فَلَا تَغْفُلُوا فَلَيْسَ مَغْفُولٍ عَنكُمْ) ، في غرر الحكم : (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن) ، ولا يدع الغفلة تستقر فيه فتجعله جاهلاً والله ينهى عن الجهل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الأنعام/٣٥ في غرر الحكم : (بِدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنَجَّابُ الْعُقْلَةِ) ، ويندحر الشيطان ويقيد الهوى ويطمئن القلب وينشرح الصدر ويهدب الطبع وتنسقل النفوس ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/٤٥ ، عن الإمام علي (ع) : (مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي السِّرِّ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) البحار ٩٣/٣٤٢ .

فائدة : ١- تدل الآية من رفع صوته في قراءة القرآن والدعاء فقد فعل خلاف الأولى والأحسن وبالخصوص إذا كان مكبر الصوت يزعم النائمين ويؤدي المرضى أو يكون أثره سلبياً على الناس المجاورين ، سئل النبي (ص) : أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ البقرة/١٨٦ ، ينبغي أن تكون قراءة القرآن والدعاء بصورة تحفظ الخشوع

وَتَحْقِيقُ الضَّرَاعَةَ بَدُونَ ضَجَّةٍ وَصَحْبٍ وَصَرَاحٍ فَإِنَّهُ يَخْدَشُ الْخَشُوعَ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (حَيْثُ الذِّكْرُ الْحَقِيقِيُّ) كَنْزُ الْعَمَالِ خَبْرٌ ١٧٧١، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة/١٥٢ .

٢٠٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

العبادة والطاعة والذكر عناصر أساسية في منهج هذا الدين القيم ، وإذا تحقق ذكر الله كثيراً فتكون من الذين عند ربك في المقربين المكرمين ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر/٥٥ ، ولا تخرج من منزلتهم فيكون القرب من الله بمقدار ذكره ، وبه يرتفع الحجاب بينه وبين عبده ، ويحصل ذكر الله بالأفعال والأخلاق قبل الأقوال والألفاظ، في غرر الحكم: (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) (عِنْدَ رَبِّكَ) ويعني قرب المقام وليس قرب المكان ، وهو مقام مفتوح لكل من له مؤهلات تتناسب مع المقام الجليل من مكانة ووجهة عند الله وعطايا ومنافع كثيرة للناس (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) بل يتواضعون في طاعته ويتذللون في عبادته ويتقربون إليه بكل ما أحب ، ويعبدونه كما يريد لا كما نريد ولا يستكبرون على الناس (وَيُسَبِّحُونَهُ) يمجّدونه ويزهونهم عما لا يليق به (وَلَهُ يَسْجُدُونَ) سجود الخاشعين الخاضعين، وأقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق/١٩ ، لا يسجدون إلا لله ، ولا يسجدون لغيره ولا يخضعون لطاعة المخلوق في معصية الخالق، والسجدة في القرآن سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ ، وليس التسييح والسجود مما يختص بالألفاظ والأشكال دون المضامين ، ولا يختص بالأعضاء من لسان وسجود شكلي فحسب بل سجود متفاعل متكامل بكل خفقات القلب وتطلعات النفس وقدحات العقل وخطرات الروح ليكون السجود الجسماني والنفساني والروحاني والتربوي والأخلاقي وبذلك يتحقق الخضوع لله والأدب مع الناس ، وتنسجم الأقوال مع الأفعال والعبادات مع المعاملات ويرتبط تسييح الفرد مع تسييح الكائنات في العالم في نظام كوني ربّاني متناسق مشترك ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء/٤٤ ، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الرعد/١٥ . فائدة : والسجود الواجب للقارئ والمستمع لآيات السجدة من سور العزائم الأربعة وهي (ألم سورة السجدة ١٥ ، وحم سورة فصلت ٣٧ ، والتّجم ٦٢ ، والعلق ١٩) أمّا آيات السجدة الأخرى الأحد عشرة فالسجود فيها مستحب .

وفي الختام نقول : ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ الأنعام/١١٥

وآخر دعوانا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ .

تمّ بعون الله تعالى (وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة الأعراف ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل، فلله الحمد والمثنة، وبالحمد تتمّ الصّالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات ، بتاريخ ١٥/شوّال/١٤٣٤ هـ الموافق ٢/١٠/٢٠١٤ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يُعِينَنَا عَلَى تَكْمِلَةِ بَقِيَّةِ السُّورِ الْقُرْآنِيَةِ الْكَرِيمَةِ ، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ .

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادي

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

من مقاصد السورة :

مدنية غير سبع آيات نزلت بمكة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ الْآيَةِ ٣٠-٣٦﴾ تُعْنَى السُّورَةُ بِجَانِبِ التَّشْرِيعِ وَبِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَبِالْإِرْشَادَاتِ الْحَرْبِيَّةِ وَتَنَاوَلَتْ جَانِبَ السَّلْمِ وَالْحَرْبِ وَأَحْكَامَ الْأَسْرِ وَالْغَنَائِمِ، نَزَلَتْ السُّورَةُ فِي أَعْقَابِ غَزْوَةِ بَدْرٍ حَتَّى سَمَّاهَا الْبَعْضُ (سورة بدر) لِأَنَّهَا تَنَاوَلَتْ الْخَطَّةَ التَّفْصِيلِيَّةَ لِلْقِتَالِ، وَتَمَّ فِيهَا التَّصَرُّعُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قَلَّةِ عَدَدِهِمْ وَضَعْفِ فِي عُدَدِهِمْ ! وَأَنَّ التَّصَرُّعَ الَّذِي حَازُوا عَلَيْهِ كَانَ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ وَنَصْرَةِ الرَّحْمَنِ لَا بِكَثْرَةِ السَّلَاحِ وَالرِّجَالِ وَحَدَّرَتْ السُّورَةُ مِنَ الْفِرَارِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، وَحَدَّرَتْ مِنَ الْخِيَانَةِ وَبَيَّنَّتْ رِسَالَةَ الرَّسُولِ (ص) حَيَاةً لَهُمْ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الْاَنْفَالِ/٢٤، وَوَضَّحَتْ طَرِيقَةَ الْعِزَّةِ وَأَسَّسَ التَّصَرُّعَ، وَخَتَمَتِ السُّورَةَ بِبَيَانِ الْوَلَايَةِ الْكَامِلَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَّ أُمَّةً وَاحِدَةً كَمَا أَنَّ مِلَّةَ الْكُفْرِ أَيْضاً وَاحِدَةٌ، الْجُزْءُ التَّاسِعُ، عَدَدُ آيَاتِهَا : (٧٥) آيَةٌ . (فَضْلِهَا) عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْاَنْفَالِ وَبِرَأْيَةٍ وَتَوْبَةٍ) فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يَدْخُلْهُ النَّفَاقُ أَبَدًا ...) ثَوَابُ الْأَعْمَالِ ص ١٣٢ . مَلاحِظَةُ عَامَّةٌ : رَاجِعْ فَضْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . (كُلُّ فَضْلٍ لِسُورِ الْقُرْآنِ بِشَرْطِهِ وَشُرُوطِهِ وَالتَّمَسُّكُ بِمَنْهَجِ اللَّهِ مِنْ شُرُوطِهِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الْاَنْفَالِ : الزِّيَادَةُ عَلَى الْوَاجِبِ وَمَعْنَاهَا هُنَا الْأَمْوَالُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَالِكٌ كَرُؤُوسِ الْجِبَالِ وَالذِّيَارِ الْخَرِيبَةِ وَتَرَكَةَ مِنْ لَا وَارِثَ لَهُ وَالْمَعَادِنَ وَالْغَابَاتِ وَبَطُونَ الْأَوْدِيَةِ وَالْأَرْضَ الْمَوَاتِ، وَتَطْلُقُ عَلَى غَنَائِمِ الْحَرْبِ بِتَعَبٍ أَوْ بِغَيْرِ تَعَبٍ وَقَبْلَ التَّصَرُّعِ أَوْ بَعْدَهُ، وَسَمَّيْتَ الصَّلَوَاتِ الْمُسْتَحَبَّةَ نَافِلَةً لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْوَاجِبَةِ . الْمَعْنَى : يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ يَا مُحَمَّدٌ عَنِ الْغَنَائِمِ الَّتِي غَنِمْتَهَا مِنْ بَدْرٍ لِمَنْ هِيَ ؟ وَكَيْفَ تَقْسِمُ ؟ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : (الْاَنْفَالُ إِنَّهَا مَا أُخِذَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَقَدْ تَشْمَلُ الْاَنْفَالُ غَيْرَ الْغَنَائِمِ كَالَّذِي انْجَلَى عَنْهَا أَهْلُهَا وَهُوَ الْفِيءُ ..) كَنْزُ الْعُرْفَانِ ١/٢٥٤ (قُلِ الْاَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) قُلْ لَهُمُ الْاَنْفَالُ الْحُكْمُ فِيهَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ لَا لَكُمْ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَحُكْمَهُ لِرَسُولِهِ وَمَا كَانَ لِرَسُولِهِ فَحُكْمَهُ لِامْتِدَادِهِ وَوَصِيهِ وَالْحَرِيصِ عَلَى رِسَالَتِهِ وَالْأَمِينِ عَلَيْهَا وَتَنْفِقُ الْاَنْفَالُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَلِصَالِحِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ (فَاتَّقُوا اللَّهَ) تَوَقَّعُوا مَعَاصِي اللَّهِ وَالتَّزَمُوا بِطَاعَتِهِ وَلَا تَحْكُمُوا بِأَهْوَائِكُمْ وَأَرَائِكُمْ حِينَ تَنَازَعْتُمْ وَعِنْدَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النَّسَاءُ/٥٩، (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أَصْلَحُوا الْأَجْوَءَ الَّتِي بَيْنَكُمْ

بالاتفاق وعدم الاختلاف ضد العدو المشترك، وأصلحو علاقاتكم التي فسدت بسبب الخلاف حول الغنائم (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) من دون قيد أو شرط وفي كل شيء وبالخصوص أطيعوا أمرهما واستسلموا لهما بقلوب راضية مرضية في الحكم بالغنائم (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) مصدقين لأحكام الله ورسوله فأطيعوهما، وتآلفوا ولا تبغضوا وتحابوا في الله ولا تكارهوا وهذا هو شأن المؤمنين، إنهم صورة واقعية عن الإيمان . فائدة : ١- في نهج البلاغة : (إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيِّنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ) تفسير النور ٣/٢٤٨ المستحبة . ٢- ثم بين مصارف الأنفال وكيفية قسمتها في آية الخمس قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ..﴾ الأنفال/٤١، وحدد الله سبحانه المؤمنين الصادقين بالصفات الآتية :

٢ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ نَرَادَ فِيهَا نِهَايَةً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) المتميزون بحقيقة الإيمان في الأقوال والأفعال وفي العبادات والمعاملات، المخلصون فيه لهم خمس صفات نموذجية من بين صفاتهم الحميدة الكثيرة جمعت في آيتين : ١- (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ) وَجِلَّتْ : خافت، فالمؤمن حقاً هو الذي يخشى الله ويخضع لأمره، وإذا ذُكِرَ به خشع قلبه خشية ووجلاً أي خوفاً من مقام ربه وعظمة جلاله، والخوف علامة العارفين، عن النبي (ص) : (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ٧٧/١٣٣ وينشأ من هذا الخوف من الله حالة الورع عن محارم الله والترفع عن المعاصي، في غرر الحكم : (إِذَا خِفتَ الْخَالِقَ فَرَرْتَ إِلَيْهِ، إِذَا خِفتَ الْمَخْلُوقَ فَرَرْتَ مِنْهُ)، لأنه خوف هيبه وليس خوف رهبة ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن/٤٦، وقرن الورع بالتقوى و(مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) وينشأ الخوف من الله عز وجل من حالة الإحساس بالتقصير في طاعة الله تعالى ومن معرفة عظمة مقام الله، فالمؤمن حقاً إذا هم بمعصية وتهيئت النفس اللوامة من مكر النفس الأمانة بالسوء ومن مخاطر الهوى وحب الأنا وتجاوز حدود الله، ردع نفسه واتقى ربه، وإلا بمجرد مظاهر الإيمان من دون حقيقته وترجمته كمعاملات على أرض الواقع فليس من الإيمان المطلوب.

٢- (وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) وإذا تليت عليهم آيات القرآن إزداد تصديقهم ويقينهم بالله لأنهم على بصيرة من دينهم، فازدادوا يقيناً في إيمانهم وزيادة في اطمئنانهم وتهذيباً في سلوكهم ونشاطاً في أعمالهم، والمؤمنون حقاً لهم إيمان متزايد يؤدي ثماره الحلوة أكثر فأكثر فالمؤمنون لا يبقون في مكائهم كالموتى، ففي كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد وعمل مفيد وحُلق رفيع فيجعلهم يواصلون سيرهم التكاملي مما يدل أن للإيمان منازل ودرجات وزيادة ونقصان . ٣- (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يَفُوضُونَ أمرهم إلى الله فيما يحبون ويكرهون، فهم لا يرجون غير الله فيتخذونه سبحانه وكليلاً لهم في جميع ما يهمهم وما يحتاجون فيرضون بما يقدر لهم،

ويلتزمون بمنهجه كاملاً، وينهضون إلى أعمالهم ويبدلون غاية جهدهم ويفوضون أمرهم إلى الله في نتائج أعمالهم، لذلك صار التوكّل على الله على قدر التّقة به ومن وثق بالله توكّل عليه (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاةً) لذلك يعمل المتوكّلون بإتقان وجد واجتهاد وبارادة قوية وبخطى متقدمة في كلّ أمورهم الدّينية والدّنيوية . في غرر الحكم : (أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/٣، حَسْبُهُ: كفيله ومعينه، والتوكّل على الله الأخذ بسنن الله وقوانينه في العمل والسعي بتوفير الأسباب ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ)، عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ الْإِيمَانَ عَشْرُ دَرَجَاتٍ : بِمَنْزِلَةِ السَّلْمِ يُصْعَدُ مِنْهُ مَرْقَاةً بَعْدَ مَرْقَاةٍ) البحار/٦٩/١٦٦. فائدة: يعمل نور الإيمان على رقة القلب وتصفيته من مطالب النّفس الأتّارة بالسوء وشهواتها فيلين القلب إلى ذكر الله ويزداد حبّاً له سبحانه وقرّباً منه ويزداد الاهتمام بمكارم الأخلاق مع النّاس، في غرر الحكم: (دَرْوَةُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْدِيبِ وَالْمَجَاهِدَاتِ).

٣ - ﴿الَّذِينَ يُمِيزُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

وهي الصفة الرابعة للمؤمنين الذين يؤدون الصلاة بكمالها وجمالها وجلالها وبخشوعها وبفروضها وأدائها وأوقات فضيلتها في أول وقتها ويؤدّون مقدّماتها من الطّهارة والوضوء، وبأعمالها الظاهرة والباطنة كحضور القلب الذي هو روح الصلاة، وتتحقّق به حكمتها وأثرها التربوي في النّفس وفي المشاعر والضّمائر والطّبائع والسلوك العام، وبذلك تؤتي الصلاة أكلها وتحصل على ثمرتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت/٤٥، والذي لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر (الذنوب الكبيرة والصغيرة) معناه هناك خلل في الصلاة والمصلي، عن الإمام علي (ع): (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ (دَقِيقٌ) فَمَنْ وَفَى، (إِسْتَوْفَى!) البحار/٨٤/٢٦٤، الصفة الخامسة (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وينفقون بعض أموالهم في الزّكاة وغيرها في طاعة الله مما أعطاهم الله تعالى ينفقونه في محلّه المناسب، ليكون حكم الصلاة والزّكاة واحداً في القرآن.

نستنتج من ذلك : علاقة العبادات بالمعاملات والأقوال بالأفعال والأشكال بالمضامين وعلاقة الدين بالأخلاق وعلاقة الفرد بالمجتمع، والإنفاق على إطلاق معناه : يعني الإنفاق المادي والمعنوي وكلّ إنسانٍ من موقعه وبقدره، كالإنفاق من العلم والجاه والقدرة والقوة والمشورة والنصيحة والأخلاق وحسن السيرة، فإنّ خير النّاس أنفعهم للنّاس ومن عمل الخير تحلّى عن الشرّ ومن يزرع خيراً يحصد خيراً . فائدة : ١- لا إيمان بدون صلاة فهي عمود الدّين والحدّ الفاصل بين الكُفر والإيمان، ومن ترك الصلاة متهاوناً لا جاحداً هو في الآخرة من الخاسرين، ومن ترك الصلاة والزّكاة لا يُعدُّ من المؤمنين . ٢- بإقامة الصلاة نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة ومؤثرة لأنّ الإيمان مشاعر قلبية، والأعمال الصّالحة والأخلاق النّافعة هي الدّلالة الظاهرة للإيمان، والصلاة صلة بين

العبد وربّه لا مجرد قراءة وحركات والقلب غافل، لذلك قال (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) ولم يقل (صلّوا) لأنّ يقيمون من قيام بالأمر على أحسن وجه وأكمله وأجمله وأجلّه بلا نواقص ولا خلل في الأداء ظاهرياً ومعنوياً كقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ البقرة/٢٥٥، الْقَيُّومُ : القائم بإدارة الكون والكائنات بإدارة كاملة متقنة لا عيوب فيها، فدرجة (قيوم) و(يقيمون) هي درجة الأداء الكامل عالي المضامين يصل إلى درجة الامتياز في الرّوعة، وبهذا كلّه تحصل ثمرة الصلّاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر والتحلي بمكارم الأخلاق، فهم يؤدّون كلّ الفرائض وإتّما خصّ الله الصلّاة والرّكاة لعظم شأنهما وتأكيد أمرهما.

٤ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

(أُولَئِكَ) المتصفون بهذه الصفات الصالحة الخمسة وغيرها من الصفات الحميدة النموذجية (هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) وعدلاً، لأنهم جمعوا بين الإيمان وصدق الأقوال وصالح الأعمال وجمعوا بين تطابق الأقوال والأفعال وبين تطابق الحقائق والمدعيّات، فاستقاموا على منهج الله وثبتت شخصيتهم على الإيمان فلا تلوّن عندهم ولا تقلّب ولا نفاق ولا ازدواج الشخصية وكلها صفات تعارض الإيمان، لذلك الإيمان ليس بالتمني وإنما ما وفر في القلب وصدقه العمل ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف/١٣، (هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) لهم منازل رفيعة في الجنة ومتفاوتة في الكرامة بحسب تفاوت الإيمان والأعمال وبحسب درجات القرب من ربّهم ومقدار نفعهم للناس ﴿وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الأنعام/١٦٥، وتفاوت المنازل حسب تفاوت القدرات والإنجازات.

(وَمَغْفِرَةٌ) لذنوبهم ومحو لعيوبهم (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ما أعدّ الله لهم في دار كرامته ممّا لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرٌ على قلبٍ بشرٍ، لذلك عبّر عن الرزق بالكريم بعبء كريم من رب كريم لعبدٍ كريم، ورزقٍ دائم مقرون بالإكرام والتّعظيم، وقد جمعوا بين أعمال القلوب من الخشية والتوكل وبين أعمال الجوارح من صلاة وزكاة وصالح الأعمال كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةٍ أَعْيُنٌ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧، في غرر الحكم : (مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَقَدْ ظَلَمَهَا) . فائدة: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) للإيمان حقيقة مؤثرة لا بدّ أن يستدوقها المؤمن في نفسه، ولا بدّ لهذه الحقيقة الثمينة ألاّ تحتكر في أفراد مؤمنين فلا بدّ أن تخرج من قمم الذات وحدود النفس لتنتقل إلى آفاق الخارج ليراهها الناس ويتأثروا ويرغبوا بها ويستدوقوها (فالإيمان) ليس دعوى ظاهرة ولا كلمات لسان ولا هو تمّيّ وإنما هو حسّ حضاري معنوي يعكس على علم وفهم ورزانة وهيبة واستقامة في داخل النفس تنعكس بين الناس في التّعاملات والأخلاق فتتطابق أقوالهم مع أفعالهم، وحقيقتهم مع دعواهم .

٥ - ٦ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

(قصة بدر) (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ) في المدينة (بِالْحَقِّ) بالصَّوَابِ الذي لا محيد عنه، على كرهٍ من فريق من المؤمنين كذلك (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) لهم في الغنائم وكرهية بعض المؤمنين لتسوية (الأنفال) من خلال القتال في بدر (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج للقتال العدو خوفاً من القتل وعدم الاستعداد للقتال، وكان خروج النبي (ص) للقتال خطوة متقدمة مدروسة لا بد منها وإن كره ذلك بعض المؤمنين، والله يتعامل بما تقتضيه المصلحة وليس بما يرتضيه المؤمنون . (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) يجادلونك فريق من المؤمنين في شأن الخروج للقتال بعد أن توضَّح لهم الحق أي فيه المصلحة وأنه بأمر الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨، فكانوا يريدون أخذ قافلة قريش التجارية ولو عرفنا القصد للقتال لاستعدنا (كَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) فأشار الأكثرون بالمضي للقتال والبعض الآخر يكرهون القتال في بدر كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك لقلّة العدة والعدد والاستعداد، وإن جيش المشركين مسلّح ويبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، فاعتبروا المعركة غير متكافئة وإثما إنتحاراً لا قتال، وهل ينجو من الموت من خافه ويُعطى البقاء من أحبه ؟ كقوله ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة/٢٤٩، ولكن (يُدِيرُ الْمُدِيرُونَ وَالْقَضَاءُ يَصْحَكُ).

٧ - ﴿وَأَذِّنْ لِلْقَائِمِينَ أَلَا يَكْفُرُ الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ

وإذكروا حين وعدكم الله تعالى (إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ) إحدى الفرقتين أهما لكم غنيمة، إما الانتصار في الحرب على قريش ولا قافلة تجارية، وإما القافلة التجارية ولا انتصار (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) الشَّوْكَةُ : القوة والشدة وحمل السلاح ووصف النفير إلى الحرب بأنه ذات شوكة مستعار من الشوك في طرفه حدة كحدة الإبرة أو حدة الرماح، ثم توسّع مدلول الشوكة إلى استعمال كل أنواع السلاح لما فيه من القوة والشدة وأيضاً تعني الشوكة الجماعة المسلّحة وغير ذات الشوكة تعني الجماعة غير المسلّحة، لما يلقاه المسلمون من بلاء وعناء وقتال وقتل، المعنى : وكنتم تحبون أن تلقوا الطائفة التي فيها القافلة التجارية غير المسلّحة لعلمكم أهما غنيمة سهلة، ولكن الله تعالى أراد الخير لهم ولمستقبل الإسلام ففضّل لهم طريق ذات الشوكة بتحطيم كبرياء قريش وطغيانهم (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) يُحِقُّ الْحَقُّ : يثبت الحق ويظهره، والحق هو نصر المسلمين (وَكَلِمَاتِهِ) بقضائه ووعده بنصر أنبيائه وإظهار دينه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِحَقِّ طَعْنِ الْكُفْرَانِ﴾ المجادلة/٢١، إنكم أيها المسلمون الذين كرهوا القتال وأحبوا قافلة قريش التجارية، وأراد الله أن ينصركم على أعدائكم ويقتل بسببكم رؤوس الفتنة وزعماء الشرك في بدر ويظهر الدين الإسلامي الحق ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١، (وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) ويستأصل آخر رؤوس الكافرين ويزعزع

قوتهم ويكسر جبروتهم قتلاً وأسراً، فإذا أخذت الضربة بأولهم وصلت آثارها إلى آخرهم ! والله يريد معالي الأمور وهم يريدون سفاسف الأمور وصغائرهما وشتان بين الهدفين، وعلينا نحن المسلمين أن نفكر بالمصلحة الرسالية وإعلاء كلمة الله على المصلحة الشخصية الضيقة غير متخوفين بالعقبات والمعاناة التي تقف في طريقها كقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إبراهيم/ ٢٧ .

٨ - ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

الحق هنا الإسلام، الباطل : الشرك، والمراد التفريق بين الملحمة التي اختارها الله في غزوة بدر والانتصار الكبير المعجز فيها وهذا معنى (لِيُحِقَّ الْحَقَّ) ويثبتته وبين ما يقدره البعض من مصالح محددة في مغنمة مالية وهذا معنى (يُبْطِلُ الْبَاطِلَ) ويهزقه (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) في خذلانهم وكسر كبريائهم وإبطال باطلهم، وهكذا فإن للباطل مهلة وجولة وللاحق دولة مستقلة ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ الحج/٤٠، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/٣٣ . فائدة : غزوة بدر دستور النصر والهزيمة وتكشف عن الأسباب الحقيقية للنصر والأسباب الظاهرية المادية للهزيمة، إنها سنة من سنن الله الجارية في خلقه باستمرار، وستحقق النصر النهائي بعزة الحق وذلة الباطل ولو كره المجرمون، ومصدق ذلك في زماننا المعاصر دولة الإمام المهدي (عج) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥ .

٩ - ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّيَكُمْ فَأَسْتَجِبْ لَكُمْ أَنِّي مُدْكُمُ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

إذكروا أيها المؤمنون (إِذْ تَسْتَعِينُونَ) إذ تطلبون من ربكم العون والغوث والنصر وتخليصكم من هذه الشدة وينصركم على عدوكم في بدر، يا غياث المستغيثين أغثنا، فضاقت عليهم الحيل وطلبوا مخلصاً ونجاة ودعا النبي (ص) اللهم أنجز لي ما وعدتني بقولك ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد/٧، وعن النبي (ص): (اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ (الجماعة) مِنَ الصَّحَابَةِ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ)! كثر الدقائق ١٥/٤ وعددهم (٣١٣) وكان عدد المشركين يزيد على الألف (فَأَسْتَجِبْ لَكُمْ أَيُّ مُدْكُمُ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) ولما علم الله منهم صحة العزم وصدق التوبة فاستجاب الله دعاءكم بأبي معينكم بألف من الملائكة (مُرْدِفِينَ) متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، فكانت معركة بدر يديرها الله بقدرته ويقودها إلى النصر بإرادته على الرغم من قلة عدد المسلمين وندرة عدتهم مع كثرة عدد المشركين وقوة عدتهم وكان الدعاء سلاحهم وقربانهم إلى الله ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة/٢٤٩، فجاءت الملائكة تكثر سواد المسلمين وتثبت قلوبهم وإرادتهم ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ آل عمران/١٥١، وسلاح الرعب يخذل الأعداء ويسلبهم إرادتهم . فائدة : ١ - تدار المعركة بمشيئة الله وتدييره وتقديره

وهي تسيير بجند الله وتوجيهه، إلا أنّ الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أنّ هناك سبباً يُنشئ نتيجة وإمّا يُردُّ الأمر كُلُّه لله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الأنفال/١٠، حتى لا يتعلّق القلب بسببٍ من الأسباب أصلاً، وإمّا هم أسباب مهمّة تحقّق مسببات أهم. ٢- (بَأْلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) متتابعين، فجاءهم الرّقم الأول بألف وتبعها ثلاثة آلاف إلى خمسة الآف من الملائكة مسوّمين (معلّمين) وتتابع الملائكة نزولها حسب الخطّة المرسومة وحسب الحاجة الملحّة كقوله ﴿يُمدِّكُمْ رَيْبُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران/١٢٤-١٢٥، دور الملائكة في المعركة : (بُشْرَى لَكُمْ) تثبت الملائكة أقدامكم وتربط على قلوبكم وتقوي إرادتكم وتكثر عددكم كما في الأنفال/٤٣، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ الأنفال/٤٤

١٠ - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَنَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وما جعل الله إمدادكم بالملائكة تقاتل معكم بظهر الغيب إلاّ بشارة لكم بالنصر (وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ) ولتسكن قلوبكم وتستقر من شدة الهول الذي عرض لكم وإذا اطمأن القلب قويت الإرادة وجمعت الطاقة، فهل يُخذل من كان الله معه ؟ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وليس النصر إلاّ من عند الله حصراً دون غيره فهو سبحانه مدبر الأمور ومهيء أسباب النصر والفاعل له والمسخر له الأسباب اللازمة الحسية والمعنوية والغيبية، فإذا هيء الإنسان دوره باتخاذ المسببات ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/٦٠، والقوة جاءت نكرة لتشمل عموم القوة اللازمة القاهرة للعدو يستخدم الله قاعدة الأخذ بالأسباب في سنّته الإنسانية، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) والسبب بيد الإنسان تكريماً له والمسبّب هو الله تعالى ولا يعمل المسبّب إلاّ بوجود السبب كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/٦٣، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر، فليست عصاه التي فلقت البحر وإمّا بسبب عصاه تحرك المسبّب ففلق الله البحر، أي فاعمل بالاستطاعة الممكنة والبقية على الله، وينصر الله المؤمنين على قدر حرصهم على نصرة أنفسهم والله معينهم بالقدرة والاستطاعة (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (عزيرٌ) غالب لا يغلب (حَكِيمٌ) يفعل ما فيه الحكمة والمصلحة. فائدة: عليكم المثابرة والجد والحزم والعلم والتباهة، وعدم التكاسل والتخاذل والتخلف والتقهقر والتغافل والجّهل .

١١ - ﴿إِذْ يُنَشِّئُكَمُ النَّعَاسُ أُمَّتَهُ مِنْهُ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُفْرَهُ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيَكْبُرُ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾

(إِذْ يُعَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أُمَّتَهُ مِنْهُ) إذ يلقي عليكم النعاس وهو مقدّمة النوم الهادئ أمناً من عند الله تعالى في وقت الخوف من العدو ليلة المعركة، ولو ترككم الله خائفين لم يأخذكم التّوم ولأخذكم

القلق، والقلق يحطّم الإرادة إلا رسول الله (ص) يصلي ويدعو ويتضرع إلى الله لطلب النصر، فعالج الله تعالى خوفهم بالنوم ولما أن إستيقضوا وجدوا أنفسهم في راحة وطمأنينة وعزيمة، وهذه معجزة لرسول الله (ص) حيث غشي الجميع النوم الهادئ في وقت الخوف المفزع فهي حالة نفسية عجيبة وغريبة يدبرها الله برحمته (وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) بعد أن أخذ المسلمون قسطاً من الراحة بالنوم وجدوا أنفسهم بحاجة إلى الماء قبل وصولهم بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية فشرّبوا وتطهروا وارتاحوا وكان لهذا المطر أربع فوائد : ١- (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) من الحدث الأصغر والأكبر وهو الجنابة.

٢- (وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ) كان الشيطان يوسوس للمسلمين بأساليبه القدرة ويخوفهم من المشركين ومن العطش وقد أذهب الله عنهم التخويف الذي عبر عنه برجز الشيطان، وأذهبه بالنوم والإمداد بالملائكة واطمئنان القلوب بنصر الله تعالى، ٣- (وَلِيُرِيْبَطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) ويقوّي قلوبكم ومعنوياتكم وإرادتكم بالثقة بنصر الله وبزوال الخوف ٤- (وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) وتثبيت الأقدام في ميادين القتال هو العزيمة على النصر وعدم التقهقر والتراجع وتحمل الشدائد، ويتصل المد الروحي بالمد المادّي لإعداد المقاتلين لمواجهة عدوهم بكفاءة واقتدار. فائدة: ١- الطب الحديث يعالج بعض الأمراض النفسية بالنوم وخاصة حالة القلق والخوف والانهيار العصبي . ٢- كقوله ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ محمد/٤ .

١٢ - ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْصُرُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَابِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُ كُلَّ بَنَانٍ﴾
تذكير بنعمة أخرى تدلّل أن الله مدير الأمور وهو الذي يدير المعركة ويده التصّر والظفر . المعنى :
أذكر يا محمد وقت إيجائه تعالى إلى الملائكة بأني معكم بالعون والمدد والنصر، والإيجاء : إلقاء المعنى على النفس من وجه خفي فهو إلهام، وهكذا تشترك القوى الملائكية مع القوى البشرية المؤمنة في المعركة الفاصلة ضد الكفار، وتتجلى الرحمة هنا من جهتين : ١- (فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) بتثبيت قلوبهم وتقوية إرادتهم وتكثير السواد وخلق الأمل فيهم و(لَوْلَا الْأَمَلُ لَوْقَفَ الْعَمَلُ) فلا دلالة في الآية على قتال الملائكة مع المسلمين مباشرة وإنما قامت بعوامل مساعدة معنوية مهمّة يذكر القرآن منها (فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) وهذا التثبيت هو استثمار لكامل الطاقة وهو مفتاح لكل خير مادّي ومعنوي (سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ) وقد أكرم الله نبيّه بسلاح الرّعب الذي يزلزل قلوب أعدائه، وهذا سلاح معنوي ينخر قواهم من الدّاخل من حيث لا يشعرون، فصار المسلمون مع قلة عددهم وعدّتهم ينعمون بالطمأنينة بينما كان عدوهم يكابد مشاعر الرّعب والخوف مع كثرة عددهم وعدّتهم!!، ٢- (سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ) الرّعب : سلاح نفسي فتاك وهبة الله لصالح الرسول (ص) ضد أعدائه . سأقذف في قلوب الكافرين الخوف المزلزل المفزع

الشديد من المؤمنين حتى تنهار قواهم وينهزموا نفسياً وبذلك يتوفر الجو المساعد للهجوم المباغت على الكفار (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ) أضربوا رؤوسهم لأنها فوق الأعناق كقوله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾ نحد/٤، (وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) البنان : رؤوس الأصابع وظاهر الأعضاء، أي اضربوهم على أطراف الأصابع حتى تتعطل أيديهم عن القتال فأمكن أسرهم وقتلهم، والمقصود إضربوهم على أي عضو من أعضائهم ولا فرق بين الضربة على الرأس أو البدن أو البنان ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ﴾ الأنفال/٤٢ .

١٣ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

شاقوا : خالفوا وعاندوا، ذلك العذاب الشديد واقع على الأعداء بسبب شقاقهم ومخالفتهم أمر الله وعرقلة رسالة الرسول وخلق الصعوبات في طريقه كقوله ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم/٣، إنها قاعدة عامة وسنة متحركة (وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ومن يخالف أمر الله ويعرقل مسيرة الرسول فإن الله له بالمرصاد (فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ويعاقبه بشدة وقسوة في الدنيا والآخرة وهو ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧، كقوله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البروج/١٢، وهكذا انتصر الإسلام وأصبح غريباً في مجتمع جاهلي وسينتصر ويعود غريباً في الجاهلية الحديثة، عن النبي (ص): (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) كنز العمال خير/١١٩٢، وهكذا يكشف الله عن سنته القاهرة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف/٨، وهذا تحدي لكل الطغاة . فائدة: (شاقوا الله) إشارة إلى أن كل سعادة وشقاوة وكآبة تحصل للعبد في الدنيا والآخرة، يكون للعبد فيها مدخل وسبب، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) .

١٤ - ﴿ذَلِكَ فَمَا ذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

ذلكم العقاب الشديد المرير (فَذُوقُوهُ) تجرعاً للغصة عن الإمام علي (ع) (مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صُرَعًا) البحار ٧٧/٤٢٠ مع الحزبي والدلة فذوقوه عاجلاً، واعلموا يا معشر الكفار في الدنيا أن لكم عقاباً من نوع آخر في الآخرة وهو عذاب نار جهنم، ويكون جزاءهم من نفس أعمالهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل/٣٣ .

١٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾

الزحف : الدنو قليلاً قليلاً، وهو درسٌ جهادي وحركي للمؤمنين، (زحفاً) إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون ويدنون منكم لقتالكم في أية معركة (فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ) الأدبار : يراد منه الهزيمة المخزية، أي فلا تنهزموا أمامهم ولا تفروا منهم وإن كانوا أكثر منكم عدداً

وعدة بل أثبتوا وإصبروا، لأنَّ بالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرِّغَائِبُ وتسيطر على الصدمة الأولى، ولأنَّ الفرار وهن في الدين وذل للمسلمين وإهانة للرجال ومن كباثر الذنوب وفيه استخفاف بالرسول والرسالات وترك نصرة الحق والحقوق مما يؤدي من جرأة للعدو على قتال المسلمين، وهو عارٌّ وخزيٌّ على السمعة وكأنَّها يكشف سواته وعيوبه لعدوه، عن النبي (ص): (إِجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ (المهلكات): الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَالسِّحْرَ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْعَافِيَاتِ) المراغي ١٨٠/٩ وهذه دعوة للثبات في ساحة الجهاد في سبيل الله وأمامهم خياران (إحدى الحسينين النصر أو الشهادة)، دون أن يدخلهم الشعور بالفرار أو الأسر أياً كان الموقف وأياً كانت قوَّة المشركين .

١٦ - ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَسِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُخَبِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾
ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ) إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى أو فاراً من موقع إلى آخر للهجوم على الأعداء أو بخطة الفر والكر ويسمى بالمصطلح العسكري المعاصر (حرب العصابات) بأن يُخَيَّلَ إلى عدوه أنه منهزم ليغريه ويكيد له وهو من باب (الحرب خدعة) أو مكيدة قتال، وهو نوع من التكتيك القتالي، أو لإعادة وضع خطة جديدة أفضل وفق ظروف جديدة أو تختارون موقعاً أحسن (أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ) أي منحاز إلى جماعة أخرى من المسلمين تقاتل العدو لأنهم بحاجة إليه أو هو بحاجة إليهم (فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) (فَقَدْ بَاءَ) أي رجع بسخطٍ عظيم (وَمَاوَاهُ جَهَنَّمُ) مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ويسوء العاقبة (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) بئس المرجع وبئس الخاتمة .

الخلاصة: أثبتوا أمام عدوكم أيها المسلمون ولا تفرّوا وتجنّبوا إلا أن تختاروا موقعاً أحسن أو تدبروا خطة أحكم بانضمام بعضكم إلى بعض، وإنَّ من فرّ من العدو بلا عذر فقد غضب عليه الله وماواه جهنم فهو اللائق لها واللائقة به .

١٧ - ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
إنَّ الله يكشف عن سنة ثابتة عامة عالية المضامين ومن أهم مبادئ التصوّر الإسلامي، سنة ظاهرها أنيق رقيق جذّاب وباطنها عميق دقيق مناسِب، وهي قانون متحرك في كل زمان ومكان بما يتناسب مع سنتها الإعجازية المؤثرة الخارقة، ذلك أن الله تعالى هو المؤثر الوحيد في الكون والكائنات، فهو الذي يمنح القدرة للفعل الإنساني وهو الذي يأذن له بالتأثير وهي حقيقة عامة في كل شيء ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير/٢٩، (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) ببدرٍ بحولكم وقوتكم وقدرتكم (وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) هيء لكم كل أسباب النَّصْر من الرِّبْط على قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وإمدادهم بالملائكة واللقاء الرَّعْب في قلوب الأعداء، روي : (أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ : أَنَا قَتَلْتُ فَلَانًا وَقَالَ آخَرُ : أَنَا قَتَلْتُ فَلَانًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

(. . الآية، دلالة الآية أعم من سبب النزول، فهي تمثل تدبير الله للمعركة كلها، والله سبحانه وتعالى يتحرك الحركة الغيبية وراء الحركة الظاهرية للتبي والمسلمين، إلا أنها تتجلى في تمكين الله للمسلمين في بدر من عدوهم، وأن يد الله الغيبية هي التي ضربتهم تلك الضربة القاسية وأن المسلمين لم يكونوا إلا أسباباً ظاهرة، نلاحظ انتقال السياق القرآني من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول (ص) المؤيد والمسدد فقال (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) وَمَا رَمَيْتَ يَا مُحَمَّدُ عِنْدَمَا رَمَيْتَ كَفَأَ مِنَ الْحَصَى فَأَصَابَتْ عَيُونَ الْمُشْرِكِينَ فِي الدَّرِ الْمُنْتَوِرِ : (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا وُجُوهَ الْقَوْمِ وَقَالَ شَهِتَ الْوُجُوهُ (فحملت ريح التراب) فَدَخَلَتْ فِي أَعْيُنِهِمْ كُلِّهِمْ!) الميزان ٦٠/٩ بطريقة إعجازية فملئت قلوبهم رعباً، وأقبل أصحاب رسول الله (ص) يقتلوهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله (ص) إلا أن الله سبحانه هو الذي جعل لهذه الرمية تأثيرها وأن الله في الحقيقة هو الذي رمى! كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج/٤٠.

وأن الله هو الذي يدير المعركة ويدبر الأمر كله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١، ولكن من وراء الحركة الظاهرة قدرة تتحرك وأسباب تنهياً، فالإنسان يهيء الأسباب الظاهرة والله تعالى يرتب المسببات منه على ضوء الأسباب التي يوفرها الإنسان . إذن : فإن فوق يد المسلمين كانت يد الله ﴿يُدِ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح/١٠، فلا يحسب المسلمون أنهم بغير هذا المدد السماوي الغيبي قد غلبوا عدوهم وقهروه وهذا كقوله ﴿فَاتَلَوْهُمْ يُعَدِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ التوبة/١٤، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي ليمتحن المؤمنين بالنصر والغنيمة، بمعنى فعل الله هذه الخوارق لإقامة حجته وتأييد رسوله وليقهر الكافرين وينعم على المؤمنين بالنصر والغنيمة وحسن السمعة وهذا ابتلاء للمؤمنين لذلك وصف البلاء (حَسَنًا) ليكون بلاء رخاء كقوله ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف/١٦٨ وهناك بلاء شدة كقوله ﴿وَنَبَلُّوكُمُ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء/٣٥، (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) سميع لأقوالكم واستغاثتكم عليهم بأحوالكم ويجعلكم أداة لقدرته وعنصراً لإرادته وجنوداً لتحقيق وعده متى علم منكم الإخلاص له عن الإمام علي (ع) (بِالإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠.

١٨ - ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُؤْمِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

التدبير الإلهي لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ويصيبهم برمية رسولكم، وإنما يضيف إليه توهين كيد الكافرين وإضعاف تدبيرهم ويجعل تدميرهم في تدبيرهم! رعاية لأوليائهم وتمكينهم على أعدائهم. المعنى: (ذَلِكُمْ) إشارة إلى أن الله هو الذي قام برعاية أوليائه المؤمنين والتمكين لهم من أعدائهم فأوليائهم المجاهدون في سبيل الله محفوفون بنصر الله وتأييده وأن ما يكيده الكافرون من

حيل ومكر وتآمر على الإسلام والمسلمين لم يصل إليهم إلا ضعيفاً واهياً متخاذلاً، وهذا له أثره الكبير في التشجيع على الجهاد في سبيل الله والاستهانة بقوى الأعداء المجتمعة الكثيرة ضدهم لأن الله موهن كيدهم. الوهن: الضعف ﴿وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل/٥٠، تشير الآية: إلى أنّ التأثير والتدبير من الله تعالى والإنسان جنّد من جنوده، فينبغي أن لا يعجب الإنسان بنفسه وعمله وربّه خيرٌ معين له كقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ الواقعة/٦٣-٦٤، وكقوله ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف/١٦٠

١٩ - ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَا كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الخطاب للمشركين الذين حاربوا النبي (ص) في بدر لعلهم يحاسبوا أنفسهم كقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ الدخان/٤٩، المعنى: إنّ المشركين دعوا الله وأخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله أن يجعل الهزيمة على أضلّ الفريقين ويمنح الفتح والنصر للفريق الآخر، فيعلن لهم أنهم إن كانوا يطلبون الحقيقة فقد بدت لهم بكلّ وضوح أنهم قالوا اللهم أنصر أعلى الجندين وأكرم الفتنتين، فأجابه الله (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) إن تستفتحوا تطلبوا الفتح وهو التصر فقد جاءكم الفتح والحكم من الله على سبيل التهكم سؤال: إنّ المشركين إنكسروا فكيف قال الله تعالى لهم (فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ)؟ الجواب: إنّ المشركين كانوا دعوا الله أن ينصر أحبّ الطائفتين إليه فقال الله تعالى لهم: سمعت منكم الدعاء، ونصرت أحبّ الطائفتين إليّ أي إن تستنصروا للأعلى والأهدى فقد إستجاب الله ونصر الأعلى والأهدى (وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فإن انتهيتم عن حرب المسلمين ومخالفة الله والرسول فالإنتهاء خير لكم بعد أن ذقتم من القتل والأسر والهزيمة ما ذقتم (وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ) وإن عدتم إلى الحرب يحلّ بكم ثانية ما حلّ بكم أولاً، وهنا سياسة الترغيب والترهيب (وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَا تَكْثُرَتْ) أما كثرتكم في العدد والعدة التي تغترون بها فقد رأيتم أنّها لا تدفع عنكم الهزيمة والقتل والأسر (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) العاملين بطاعته المجاهدين في سبيله والله هو الناصر وهو مع المؤمنين. كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨ فإن أردتم النصر حقاً فكونوا مع المؤمنين ودعوا الشرك. فائدة: تؤكّد الآية حقيقة كبيرة أنّ النجاة في الإيمان والتسليم لأمر الله، وأنّ الباطل إلى زوال وإن ساعده الإمهال.

٢٠ - ٢١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَامْرُؤَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

جاء الخطاب للمؤمنين بعد مجيء جميع مقدماته وإيحاءاته الإعجازية فقال: داوموا على طاعة الله ورسوله يدم لكم العز والنصر الذي حصل بيدر، وحذرهم فقال (وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ) ولا تعرضوا عن

قيادة الرسول (ص) بمخالفة أمره ولم يقل (ولا تتولوا عنهما) لأن طاعة الله وطاعة الرسول واحدة (وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) تسمعون القرآن ومواعظ الرسول (ص)، في نصح البلاغة خطبة ١٩٣: (خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةٍ وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مَنْ أَطَاعَهُ). (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) ولا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بأذانهم دون قلوبهم، وأنهم سمعوا من دون أن يستمعوا ويصغوا وينتبهوا فسماعهم كأهم لم يسمعوا لأنهم لم يتدبروا ولم يتعظوا ولم يمتثلوا لما سمعوه، وما أكثر الذين يؤمنون بالله نظرياً ويتخذون الشيطان ولياً، أو من يتظاهرون بالطاعة ويضمرون العصيان . سئل الإمام الصادق (ع) : في قوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦، قال (ع) : (يُسْأَلُ السَّمْعُ عَمَّا سَمِعَ وَالْبَصَرُ عَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ وَالْفُؤَادُ عَمَّا عَقَدَ عَلَيْهِ) الكافي ٣٧/٢ فائدة: (الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا) قرن الإيمان بالطاعة لأن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان بل الإيمان عمل كله والقول بعضه، ويكون القول ترجمان العمل كقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف/٣، ومن خالف قوله فعله فهو منافق ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ آل عمران/١٦٧ .

٢٢ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ) شرُّ الدوابِّ على إطلاق معناه كقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ النور/٤٥، وأكثر استعمالها في البهائم ودوابِّ الركب بمعنى : إن شرَّ خلق الله وشرَّ البهائم وشرَّ الناس عند الله التي تدبُّ (تمشي) على وجه الأرض (الصَّمُّ الْبُكْمُ) الصم الذين لا يسمعون الحق ولا يستمعونه ولا يصغون إليه والبكم الخرس الذين لا ينطقون به (الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ) ولا يتدبرون ولا يتفكرون بعقولهم وكأنما فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر ويميز به بين خير الشرين وأهون الضررين، والدواب لها أذان تسمع بها ولكنها لا تفهم الكلام الذي تسمعه ولها ألسنة ولكنها لا تنطق لأنها لا تفهم ولا تسمع منها إلا أصواتاً مبهمه غير مفهومة، وكذلك الإنسان من يسمع كلام الله والرسول ثم لا يهتدي به فمثله كمثل الدابة الصماء البكماء تسمع الكلام ولا تنتفع به والبهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق في حياتها الضرورية وهؤلاء لا تهديهم عقولهم لما ينفعهم فهم شرُّ الدوابِّ كقوله ﴿وَيُنَالُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الجاثية/٧-٨، في غرر الحكم: (شرُّ الناس من لا يتقن بأحد لسوء ظنِّه، ولا يتقن به أحد لسوء فعله) . فائدة : إنَّ الصَّوْرَةَ الْمُنْكَرَةَ السُّودَاءَ الْبَهْمَاءَ لِلْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ عَطَّلُوا أَجْزَاءَ الْاسْتِقْبَالِ عِنْدَهُمْ وَأَصْبَحُوا يَعِيشُونَ لِبَطْوَتِهِمْ وَفُرُوجِهِمْ فَهَبَطُوا مِنَ التَّكْرِيمِ الْإِنْسَانِي إِلَى مَسْتَوَى الْحَيَوَانَ ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/٤٤ .

٢٣ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

ولو علم الله فيهم الإستعداد الدّاتي للإيمان والهداية لأسمعهم سماع تدبر وتفهم ولكنه يعلم أنه لا خير فيهم ولا يليق بهم الإيمان فهم ممن حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَحَاطَتْ بِهِمْ خَطَايَاهُمْ وَتَلَوَّتْ فطرتهم كقوله ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ البقرة/٧، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ النساء/١٥٥، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ولو فرض أن الله أسمعهم - وقد علم أنه لا خير فيهم - لتولوا عما سمعوا وأعرضوا عنه وفروا منه جحوداً وعناداً واستكباراً وغباءً كقوله ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ المدثر/٤٩، إنهم فقدوا الاستعداد لقبول الحق فقدوا تماماً لا فقدوا مؤقتاً عارضاً، لأنّ الشيطان إستحکم على عقولهم فلا يرجى منهم الخير كقوله ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف/٣٦ . فائدة : في الآية دلالة على أن الله تعالى لا يمنح أحداً نعمة الهداية وإنما لا يعطي الهداية لمن يعلم أنه لا ينتفع منها باختياره كقوله ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى/٣، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/١٧.

عن الإمام علي (ع): (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) كنز العمال خبر ٤٤٢٢٥، فهم لا يؤمنون إلاّ بمنافعهم الشخصية فهي عندهم الخير كلّها وما عداها كلام فارغ، بينما الحقيقة أنّ شرّ الناس من عاش لذاته ولذاته وهو يرى أنه أفضل الناس . وفي الآية غاية الدّم للكافرين والعصاة المعاندين بأنهم أشرّ المخلوقات لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم وعقولهم فصاروا لا قيمة لهم.

٢٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَخَشَرُونَ﴾

التعبير القرآني علمي حضاري ببلغ بأعلى درجات البلاغة، فهو ذو كلمات قليلة ولكنها لها إيجازات كثيرة عالية المضامين، إنّه تعبير قرآني رفيع وسامٍ ودقيق في مبناه وعميق في معناه وواسع في دلالاته . الخطاب لكافة المؤمنين أن (يستجيبوا لله والرّسول) يتقادوا ويحيبوا دعوة الرّسول (ص) وهي دعوة الله تعالى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) إذا دعاكم للإيمان والعلم النّافع والعمل الصّالح التي تحيا بها النفوس وتطمئن بها القلوب والمبادرة السريعة إلى ذلك، إذا دعاكم للقرآن الكريم الذي فيه الحياة وتنمية الحياة ومضاعفة الحياة، إذا دعاكم لكل ما فيه الحياة، حياة بعد حياة، حياة تتفجّر منها الحياة، حياة الروح والجسد، حياة القول والعمل، حياة الفرد والمجتمع، حياة التقدّم والتوازن، حياة فيها سعادة الدنيا والآخرة، حياة لكل الأجيال، إنّها دعوة إلى الحياة بكل معانيها وكل مجالاتها ودلالاتها وصورها وكلّ نسبها ومقاديرها ! كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل/٩٧، يدعوهم إلى عقيدة تحي القلوب والعقول، يدعوهم إلى منهج

جديد للحياة متطور، حياة للفكر للقيم والمبادئ والأخلاق، يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم والثقة بدينهم وبرهم، يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لحفظ الإسلام والمسلمين، يدعوهم إلى إخراجهم من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده، يدعوهم للمحافظة على كرامة الإنسان الثمينة التي وهبها الله له فاستلها منه الطغاة، (إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) اللام بمعنى الذي يحكم حياة طيبة، يدعوكم إلى نهضة حضارية مادية ومعنوية وأخلاقية وعلمية والعلم حياة القلوب، يدعوكم إلى إحياء المزارع والمصانع التي تنتج الغذاء والدواء والكساء، يدعوكم إلى بناء المدارس والجامعات والمستشفيات، يدعوكم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية وإلى الإخوة والتعاون في هذا الميدان، يدعوكم إلى التخلص من الجهل والتجاهل والتخلف والخرافة ويشجعكم على الاستقامة على منهج الله في السر والعلانية، فكل من يعمل من أجل نهضة الحياة النفسية والاقتصادية والسياسية والعلمية والصحية وغيرها فإنه يلتقي مع الإسلام في مصب واحد، لأن الإسلام يدعو إلى إعمار كل شيء كقوله ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/٦١، يدعوهم إلى ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم/٣٠، الذي هو منهج حياة متكاملة حضارية تقدمية عصرية .. فاستجيبوا دعوته بعزم وحزم وقوة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الأعراف/١٧١، (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) في القاموس : وكل ما حجز بين شيئين فقد حال بينهما وهو تمثيل لغاية قرب الله من العبد.

بمعنى : يحول أي يتوسط ويحجز بين المرء ونفسه وإرادته، وهو المالك لكم وأقرب شيء إليكم، إنها صورة مجسمة رهيبه للقدرة الإلهية القاهرة الرحيمة اللطيفة، إنه سبحانه يفصل بينه وبين قلب صاحبه ويحجزه ليتصرف به كيف يشاء خالقه لا كيف يشاء صاحبه ! إنه تعبير تعجز العبارات من تصويره بوضوح بكل أبعاده المجسمة ذات الدلالات الواسعة.

إنها صورة متحركة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم من كل هفوة أو زلة أو إنزلاق أو تجاوز للحدود، وليعلم أن هذا القلب في قبضة القاهر فوق عباده، وإن كان يحمل قلبه في صدره وهو أقرب شيء إليه، إنها صورة ظاهرها أنيق وباطنها عميق، إنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء متى يشاء بما لا يقدر عليه صاحبه، فيفسخ عزائمه ويثبط إرادته ويغير نياته ويلهمه أشده ورشده أو يزيغ ويحرف قلبه عن الصراط المستقيم إذ ضل عن الهداية في نهج البلاغة حكمة ٢٥٠: (عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهَمَمِ)، لما هممت حال بيني وبين همتي، وعزمت فخالف القضاء عزمي، فعلمت أن المدبر غيري البحار ٤٣/٣، في الدعاء عن النبي (ص) (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) روح البيان ٣٣١/٣ يملك عليه قلبه ويبدله بالذكر نسياناً والنسيان ذكراً، وبالخوف أمناً وبالآمن خوفاً ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

الأنعام/٦١، وكل هذه النتائج لها مقدمات، وكل هذه الأسباب لها مسببات، فلا بد من سبب يصنعه الإنسان فيرتب الله المسببات على ضوء السبب كقوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤-٨٥، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) ومن هنا صحت النسبة إليه سبحانه، إنها صورة رهيبة حقاً تستوجب اليقظة الدائمة والحذر الدائم والتعلق الدائم بالله سبحانه فإنه لا يصدر من القلب السليم إلا المعنى المستقيم الثابت غير المتقلب، ويحول الله بين المرء وقلبه إذا تعارضت إرادة الإنسان مع إرادة الله، وإرادة الله فوق كل إرادة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير/٢٩، في الحديث القدسي: (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ وَأَنَا أُرِيدُ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، عن الإمام الصادق (ع): في الآية (يُحَوِّلُ بَيْنَهُ وَيَتَرَى أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّ الْحَقَّ بَاطِلٌ) التوحيد/٣٥٨، كمصدق، (وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) تجمعون، فقلوبكم بين يديه وأنتم بعد ذلك محشورون إليه، يدعوكم الله لتستجيبوا استجابة الحرّ المأجور، لا استجابة العبد المقهور ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف/٢٩، فما لكم منه من مفر فيجازيكم بأعمالكم فاستجيبوا لحمل الأمانة الهادية والخلافة الواعية، أمانة الإرادة العارفة ما لها وما عليها . واعلموا أنه لا عذر لمن ترك الاستجابة لله وللرسول بحجة أنه لم يعرف الحق، والله هو الحق، والحق أحقُّ أن يتَّبَعَ، ولا يحاول المنافق أن يظهر الاستجابة بلسانه ويضمّر العصيان في قلبه لأنّ الله أقرب إليه من حبل الوريد .

٢٥ - ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

واحدروا أيها المؤمنون فتنه واتقوا محنة ومصيبة وابتلاء عام، إن نزلت بكم لن تقتصر على الظالم خاصة الذي يباشرها وحده، بل تعم الجميع وتصل إلى الصالح والطالح وفق سنة الله، والغرض منع الناس عن ظلم الناس.

في غرر الحكم: (مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَانَ لِعَيْبِهِ أَظْلَمٌ) لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه أو الرضا عنه، وخصوصاً المنكرات والمفاسد المتعلقة بالسياسة والحكم وبالصالح العام، وفي الحديث: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) المراغي/١٣/٧٨ وأمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم، فإن العامل بالظلم والراضي به والساكت عنه والحاضن له كلهم شركاء في الظلم، فإذا وقعت الفتنة أخذت مجراها وأثرت أثرها على الأتقياء والأشقياء فأضرار الحرب تشمل الجميع، وهكذا الفيضان والأوبئة والإرهاب وأضراره والحرائق ودخائها، أو الفتن الاجتماعية في التنازع على المصالح العامة في السيطرة على الحكم أو التفرق في الدين والشريعة والانقسامات إلى أحزاب دينية وسياسية وظهور البدع وإقرار المنكر الذي يقع بين أيديهم وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون إدارة الدولة عندئذٍ لمن غلب منهم وهم مفسدون فتكون الفتنة قد أصابت الجميع، قيل: (الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَيْقَظَهَا) روح

البيان ٣/٣٣٣، عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلَا يُنْكِرُونَهُ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ) الدر المنثور ٢/٣٠٢، وعنه (ص): (لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ!) تهذيب الأحكام ٦/١٧٦ احذروا فتناً كثيرة كفتن الخلافة والسلطة والنساء والشهوات واللذات، وفتن الآراء والمذاهب الدينية والسياسية المتنوعة (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وهذا وعيدٌ شديد للأمة والأفراد الذين تعارضوا مع سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل وهذا العقاب في الدنيا أو الآخرة للأفراد أو الأمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران/٢٨، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البروج/١٢. فائدة: ١- في نهج البلاغة خطبة ١٨٦: في وصف الله (يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ) (رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِقَّةِ) وفيه خطبة ١٧٩ (لَا يَشْعَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ وَلَا تُؤْلَهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ) وفيه خطبة ١٩٥. ٢- سؤال: قال تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فاطر/١٨، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المذثر/٣٨، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ البقرة/٢٨٦، الآيات تحمل الإنسان ذنبه ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، فكيف هنا جاءت الفتنة تعمُ الجميع؟ الجواب: إنَّ النَّاسَ إِذَا تَظَاهَرُوا بِالْمُنْكَرِ وَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَ قَوْلٍ فَكُلُّهُمْ عَاصٍ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢، كقوله ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ الأعراف/٧٧ فالذي عقر الناقة واحد ولكن جاء بصيغة الجمع لأنهم رضوا بفعله وسكتوا عنه فصاروا مثله! لأنَّ المجتمع الإنساني جسدٌ واحد، فما أصابه من فسادٍ وانحلالٍ فيتأثر به المجتمع كله، كما يتأثر جسد الفرد بفساد عضوٍ من أعضائه. فلا بدَّ أن يعمل المجتمع على حماية نفسه وأفراده من كلِّ سوءٍ يداهمه بسرعة.

٢٦ - ﴿وَذَكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَوَّكِكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَنَصِرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

واذكروا نعمة الله عليكم أيها المسلمون وقت كنتم قلةً أدلةً مقهورين يستضعفكم الكفار في أرض مكة وبنالونكم بالأذى والمكروه (تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ) الخطف: الأخذ بسرعة وسرية، تخافون المشركين أن يختطفوكم بالوان التنكيل بالقتل والأسر والسلب (فَأَوَّكِكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَنَصِرِهِ) (فَأَوَّكِكُمْ) فجعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة (وَأَيَّدَكُمْ بِبَنَصِرِهِ) وأعانكم وقواكم بنصره المؤزر يوم بدر حتى هزمتهم (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) منحكم غنائمهم حالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لتشكروا الله شكراً عملياً على كلِّ هذه النعم الجليلة كقوله ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣.

فائدة: ١- يذكرهم الله تعالى بنعمه على المسلمين قبل الإسلام من الخوف والضعف والذلة وبما هم عليه بعد الإسلام من الأمن والقوة والغنى والعزة لأنهم استجابوا لله وللرسول لما يحییهم، والغرض

من هذا التذكير أن يستمروا على نهجهم المستقيم ليتحملوا أمانة الله وينهضوا برسالة الإسلام. عن النبي (ص): (إِبْعُونِي فِي الضُّعْفَاءِ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنصَرُونَ بِضُعْفَائِكُمْ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ) كثر العمال خير ٦٠١٩. ٢ - (مُسْتَضْعَفُونَ) المستضعف من أصابه الضعف وانهايار الإرادة بسبب ظلم الظالمين، وليس المستضعف بمعنى الفقير، وهناك استضعاف متنوع ثقافي واقتصادي وبدني ونفسي وسياسي .. وغيرها

٢٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أصل الخون النقص كما أنّ أصل الوفاء التمام، والإنسان مؤتمن على أمانات وعهود ووعود وعقود بينه وبين الآخرين فعليه الوفاء بها، فمن الإيمان أداء الأمانات ولا دين لمن لا أمانة له ولا عهد له ولا وعد له ! الخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين الصالحين، في الحديث : (مَنْ قَلَّدَ إِنْسَانًا عَمَلًا وَفِي رِعِيَّتِهِ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ) وعنه (ص) : (يَقُولُ اللَّهُ أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَ حَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا وَجَاءَ الشَّيْطَانُ) روح البيان ٣/٣٣٦. الخيانة: مفهوم واسع الدلالة وفي جميع شؤون الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والأخلاقية .. إلخ فهي تشمل كل أنواع الخيانة والغدر وهي ضد الأمانة والوفاء، والأمانة: هي كل حق مادي أو معنوي يجب عليك أدائه إلى أهله وخصوصاً خيانة الأمانات والأسرار السياسية والعسكرية والأمنية ونفسيها إلى أعدائكم من أجل الحفاظ على مراكزكم وجاهكم.

المعنى: الخطاب للذين آمنوا لا تخونوا الله بترك فرائضه أو تعطلوها ولا تخونوا الرسول بترك سنته وشرائعه أو تحرفوها، ولا تخونوا دينكم وأنفسكم ورسولكم بإطلاع أعدائكم على أسرار المؤمنين ليعمل الكيد لهم، ولا تخونوا الأمة بالخلافات والمشاحنات والانقياد للأدعياء والطغاة، ولا تخونوا مواهب الناس وكفءاتهم فتعزلوهم وتجعلوا بدلاً عنهم أشخاص غير أكفاء لمصالح خاصة كقوله ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ هود/٨٥، ولا تخونوا أنفسكم بتلويث فطرتكم الداعية إلى طاعة الله وتخونوا الحقوق بين الأخوة المؤمنين، الذي لا يحق للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام.

والخيانة: نقض الأمانة واحتقار كرامة الإنسان وهي النفاق والكذب، فمن الخيانة التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة فلا تجعل كلمة الله هي العليا (وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) الأمانات : كل الأعمال المادية والمعنوية التي ائتمن الله عليها العباد يجب عليك أدائها إلى أهلها سواء أكان أهلها فرد أو مجتمع، مسلم أو غير مسلم، وتخونوا ما ائتمنكم عليه من التكاليف الرسالية وهملككم للأمانة الدينية بعدم تزكية النفس وعدم حمل الرسالة علماً وعملاً وتبليغاً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ الأحزاب/٧٢ وكتمان العلم

النَّافِعَ لِلنَّاسِ مِنَ الْخِيَانَةِ الْكَبْرَى كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ البقرة/١٧٤، ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمِ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ النساء/٤٢، وتخونوا بالسكوت عن الذين يفسدون في البلاد والعباد وأنتم على يقين بحقيقتهم، ولا تخونوا النهوض بتكاليف الخلافة لله في الأرض، وتخونوا بعدم رد الناس من عبودية الناس إلى عبودية خالق الناس .. وغيرها وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها وخان نفسه التي هي أمانة عنده، عن النبي (ص) : (آيَةُ (عَلَامَةِ) الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِيَ حَانَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَرَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ) الأمل/٥/٣٦٨، (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) تعلمون أنها خيانة وتعرفون أنها من الكبائر وعليها من تبعات ومسؤوليات فلا يفعل هذه الحيوانات العاقل فضلاً عن المؤمن. فائدة: سمع ابن عباس قوله ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ هود/١١٣، قال : إذا كان هذا حال من لا يصدر عنه إلا مجرد ركون ولم يشرك في قولٍ أو فعلٍ، إذا فالويل كلُّ الويل لمن أطرى وشارك الظالمين وخان البلاد والعباد، فمن أفضل الإيمان أداء الأمانة كائناً من كان وأقبح العادات الخيانة، عن النبي (ص) : (لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنَطْنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَلَكِنْ أَنْظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ) الكافي/٢/١٠٥ وأكد على الأمانات السرية وأحفظها بالحفظ ولاسيما ما يكون بين الزوجين وبين الصديقين وبين الأخوين

٢٨ - ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) إنهما محنة وابتلاء وامتحان ليختبركم الله تعالى كيف تحافظون معها على حدوده وليظهر ما تضره نفوسكم من صلاحٍ وفسادٍ ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء/٣٥، وعن الإمام الحسن العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَاللَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا!) البحار/٧٨/٣٧٤، فهي فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا وتصير حجاباً عن طاعة المولى، فهي فتنة تقودكم إلى الإثم والحرام، فكم من رجل أثر زوجته وأولاده على السائل والمحروم ومنعهما الحقوق الواجبة، فهي فتنة من يقبض من أموال الأغنياء وحقوق الله لأسهم الفقراء ليوصلها إليهم كأمين عليها، فيستأثر بها هو وذووه كأنها ميراث من أبيه أو من كدِّ يمينه ! إذا تعارضت مصلحة الدين مع مصلحة الأولاد والأموال فلا بد أن تتقدم مصلحة الدين على كلِّ مصلحة، عن الإمام علي (ع) : (لَا حَيَاةَ إِلَّا بِالَّذِينَ) البحار/٧٧/٤١٨، في غرر الحكم: (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِإِسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ!)

وفيه أيضاً (الْمُصِيبَةُ بِالَّذِينَ أَعْظَمَ الْمَصَائِبِ) فللمال والأولاد سلطان على النفوس وشهوة غالبية على القلوب ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ الإسراء/٦٤، (شَارِكُهُمْ) : كناية عن الشيطان يشارك الناس في كسب المال من الحرام وإنفاقها في الآثام (الأولاد) يدفعهم إلى الزنا والتربية الفاسدة، ومن هنا كانت لفظة القرآن إلى خطورة هاتين الشهوتين (أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ) وإلفات

الناس إلى الحذر منهما، ومن ينجح في هذا الامتحان ويجاهد نفسه فينفق أمواله في سبيل الله ويربي أولاده على منهج الله فإن الله يؤتیه أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة (أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) وثواب الله عظيم وعطاؤه كريم خير لكم من متاع الأموال والأولاد وكل ﴿مَتَاعِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ النساء/٧٧، فاحرصوا على طاعة الله فإنها مفتاح السداد وصلاح الفساد واستقامة العباد للفردي والمجتمع. **فائدة: ١-** إن الله يخاطب النفس البشرية لتتعلم أنّ الحرص المتزايد على الأموال والأولاد من مواطن الضعف فيها، ومن هنا ينبهها الله إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد، لقد وهبها الله للناس ليلوهم بهما، فهي من زينة الحياة الدنيا أيشكر الله عليها أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها كقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف/٧، فالمتنة تارة تكون في الشدة والحرمان وتارة تكون بالرخاء والرّفاهية والعطاء من هذه الأموال والأولاد والمناصب والسلطة والجاه والنساء .. وغيرها، جاء في الدعاء : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا) .

٢٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الآية الكريمة نتيجة للمقدمة التي مرّت قبل عدّة آيات، أي إذا تحرّرت من الخيانة ومن عاطفة حبّ المال والأولاد وطغيانهما على دينكم وعقولكم يجعل في قلوبكم (فُرْقَانًا) ومَلَكَةً ذاتية دقيقة تميزون بها بين أهون الشّرّين وخير الضّررين، وتكون للمؤمنين فِرَاسَة وينطقون بالحق كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر/٧٥، عن النبي (ص): (إِحْدَرُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ! فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) كنز العمال خير ٣٠٧٣١.

المعنى: الخطاب للذين آمنوا (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ) إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه وصار عندكم ورعٌ عن محارم الله (يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) جاءت فرقاناً نكرة للدلالة على عموم معناها، الفرقان: ما يفرّق به بين شيئين متداخلين وهي القدرة التي يفرّق بها المتقون الملتزمون بمنهج الله بأن يجعل لكم هداية ونوراً وقدرةً في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، وتتوقفون بها عند الشبهات، إنما يمدّ بها الله أولئك الذين يتقونه في كلّ الأحوال ويجرسون أنفسهم ويراقبونها من أن تتعدى حدود الله، وفي الآية دليل : على أن (التقوى) خير الزّاد ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة/١٧٩، التقوى : من الوقاية والحماية التي تقود إلى العصمة وتنور القلب وتشرح الصدر وتزيد في العلم وتهذب النفس ويستقيم السلوك، وتقوى الله تجعل في القلب فرقاناً ذاتياً يكشف له مخاطر الطريق فهي خلق الأنبياء وقمة الأخلاق وراحة النفس، فظاهاها شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن/١٦، عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) ميزان الحكمة ١٠/٦٢٥، في غرر الحكم: (أَمْنٌ حُصُونِ الدِّينِ التَّقْوَى) فمن اتقى الله يؤتیه الله فرقاناً ومَلَكَةً خاصة نموذجية يميز بها بين الحسن والأحسن وبين الرشد من الغي ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿ الزمر/١٧-١٨، (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) ويمحو عنكم (بسبب ذلك الفرقان المبين) وتأثيره الإيجابي ما سلف ومضى من ذنوبكم (وَيَغْفِرُ لَكُمْ) ويسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) والله واسع الفضل على الجميع عظيم العطاء، وفيه تنبيه: إن ما وعد به المتقين فضل من الله وإحسان ورحمة تَفَضَّلَ بها عليهم من دون واسطة وبلا دعاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق/٢-٣، في غرر الحكم: (لِلْمُتَّقِي هُدًى فِي رَشَادٍ وَتَحْرُجُ عَنْ فَسَادٍ وَحِرْصٍ فِي إِصْلَاحِ الْمَعَادِ). فائدة: الفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران) هو أنّ تكفير السيئات التي لها آثار سلبية نفسية واجتماعية للذنوب فهي تُحجب بينهم وبين الكمال الإنساني وتزول بالتقوى (والغفران) هو العفو الإلهي وتيسير الحساب والتّجاة في الجزاء، لذلك قدّم القرآن التقوى على كلّ شيء قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة/٢٨٢.

٣٠ - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ المکر : التخطيط بحيلة والتدبير بخفاء . والآية تذكير بنعمة خاصة على الرسول (ص) بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم . المعنى : أذكر يا مُجَدِّد حين تأمر عليك المشركون في دار الندوة (لِيُثْبِتُوكَ) أي يجسوك ويقيدوك حتى تموت (أَوْ يَقْتُلُوكَ) بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرّق دمه (ص) بين القبائل (أَوْ يُخْرِجُوكَ) من مكة (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ) إنّها صورة مجسّمة ظاهرها أنيق وباطنها عميق التأثير، إنّها صورة ساخرة للماكرين ومفرّعة للمكور بهم فيهنّز بها القلوب ويحرّك بها المشاعر، يتحالفون ويتآمرون عليك يا مُجَدِّد ويدبر ربك ما يبطل مكرهم وكيدهم ويفضح أمرهم ويخيب أملهم ويأتيهم من حيث لا يشعرون، والله لا يمكر إلا ما هو حقّ وصواب في إبطال مكر المجرمين وإذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه (وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ) المدبّرين أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً وفوق كلّ تدبيرٍ وتقدير. أسباب هجرة النبي (ص): تأمرت قريش على الخلاص من النبي مُجَدِّد (ص) فأشار بعضهم أن يجبس فتموت دعوته وقال آخر أنفوه من مكة ثم اتفقوا جميعاً أن يجتاروا من كلّ قبيلة رجلاً ويغتالوه بضربة واحدة مجتمعين وهو نائم في الليل في فراشه فيتفرّق دمه في القبائل ولا يقوى بنو هاشم على حرب الجميع، فأوحى الله إلى رسوله بقصتهم وأمره أن يبيت علي في فراشه، ولما بادر القوم بالهجوم على مضجع الرسول (ص) أبصروا علياً (ع) فبهتوا فرد الله مكرهم، فأثر علي (ع) النبي (ص) على نفسه وفداه بروحه، والإيثار قَمّة المكارم وأعلى المراتب.

عن النبي (ص): (مَنْ آثَرَ عَلَى نَفْسِهِ آثَرَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) نور الثقلين ٥/٢٨٥، كقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ البقرة/٢٠٧، وهكذا يُدَبِّرُ الْمُدَبِّرُونَ وَالْفَضَاءُ يَضْحَكُ، وأبطل

الله كيدهم ومكرهم وهم لا يشعرون. فائدة: ١- (المكر) صرف الغير عما يقصده بحيلة وهو نوعان محمود وذلك أن يتحرى به فعل جميل (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) والعبد يريد والله يريد والله فعّال لما يريد، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١، ومكر مذموم: وهو أن يتحرى به فعل القبيح ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأِهْلِهِ﴾ فاطر/٤٣، عن الإمام الصادق (ع): (إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يَتَفَقَّدُ الدُّثُوبَ مِنَ النَّاسِ، نَاسِيًا لِدُنْبِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ) البحار ٧٨/٢٤٦. ٢- والله لا يمكر ولا يسند المكر إليه إلا عن طريق المقابلة والمشاكلة، ولا يحسن ابتداء لتضمنه معنى الحيلة والخدعة وهي لا تليق بعظمة الله تعالى، وإنّ للخلق مكرًا للحق تعالى مكرًا، فمكر الخلق من الحيلة والخدعة والغدر، ومكر الخالق من الحكمة والمصلحة والقدرة، فمكر الخلق إذا إصطدم مع إرادة الخالق فهو مكرٌ فاشل لأنّ مكر الله بالحق ثابت نافذ يبطل مكرهم .

٣١ - ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا (إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)﴾

وإذا قرئت عليهم آيات من القرآن الكريم التي لا شك في دلالتها أنّها من عند الله (قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) قالوا عناداً وغروراً واستكباراً، قد سمعنا هذا الكلام اليسير ولو أردنا لقلنا مثله إعجاباً بأنفسهم، ولكننا لا نشغل أنفسنا بمثل هذه التفاهات! (إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلاّ (آسَاطِيرُ) أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة الخرافية القديمة مسطورة في كتبهم فبقيت حتى وصلت إلينا وليس كلام الله، وهكذا الجاهل يتعامل مع القضايا الكبرى باستخفاف، كالطفل الذي يلعب بالجوهر الثمينة وكأنها حصى!

٣٢ - ﴿قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وإن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عند الله (فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ) فأنزل علينا حجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط (أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) نهلك به وهذا على سبيل الإستهزاء، وهكذا يفعل الحقد والحسد والكبر إذا تأججت ناره في الصدور، وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ولكنهم استعجلوا العقوبة لسفاههم والسّفاه مصدر الشرّ، عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ السَّفَهَ لَخُلُقٌ لَيْمٌ يَسْتَطِيلُ عَلَى مَنْ دُونَهُ وَيَخْضَعُ لِمَنْ قَوْفُهُ) البحار ٧٥/٢٩٣. فائدة: إنّ هذا القرآن الحق ما يزال يعمل ويؤثر ويهدي للتي هي أقوم ولو كان أمامه كيد شديد كقوله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة/٣٢.

٣٣ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

هذا بيان للسبب الموجب لإمهالهم، إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك وتعظيماً لشأنك يا محمد يا نبي الرحمة (ص) لأنّ العذاب إذا نزل عمّ والرحمة والعذاب ضدّان

لا يجتمعان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ويستأصلها ونبيا فيها بل كان يخرج الرّسل أولاً كما حصل لهود وصالح ولوط ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار المعاندين وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ويتوبون إليه ويدعون به بانقطاع، المطلوب روح الاستغفار وليس لفظ (استغفر الله) فقط وهو صدق العودة إلى منهج الله، فبقي الاستغفار أماناً للمسلمين المستضعفين في كل زمان ومكان فهو محو للذنوب . عن النبي (ص) : (الْعَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ) الميزان/٩/٨٥ .
فائدة: ١- عن النبي (ص): (حَيْرُ الْعِبَادَةِ الْإِسْتِغْفَارُ) نور الثقلين/٥/٣٨ وخير الدعاء وأفضل التوسل الاستغفار فهو يمحو الأوزار ويذهب بالهموم والأحزان . ٢- تكشف الآية عن قانون عام يشمل جميع النَّاسِ، في نَهج البلاغة حكم ٨٨ : (كَانَ فِي الْأَرْضِ أَمَانًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا فَدُونَكُمْ الْأَخْرُ فَمَتَمَسَكُوا بِهِ أَمَّا الْأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ (ص)، وَأَمَّا الْأَمَانُ الْبَاقِي فَالِإِسْتِغْفَارُ وَقَرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ)، وكقوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ هود/١١٧ .

٣٤ - ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءٌ يَعْتَبِرُهُمْ اللَّهُ وَمَا يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الاستفهام للإنكار والتهديد . أي شيء عندهم من دين أو أخلاق يرفع الله العذاب عنهم بسببه ؟ وكيف لا يعذبون وهم في الضلال والعناد ؟ وقد عذبهم يوم بدر وأذلمهم يوم فتح مكة (وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يَصْدُونَ : يمنعون، المعنى : أي شيء يمنع من عذابهم وقد منعوا النبي (ص) والمؤمنين من إقامة الصلوة والتعبّد لله في الكعبة المشرفة وحرموهم الحريّة والأمان، والاطمئنان وكما اضطروا النبي والمؤمنين إلى الهجرة من مكة بكثرة إيذائهم وتعذيبهم (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) ليس المشركون أصحاب المسجد الحرام، ولا هو تركة يرثها الخلف عن السلف فهم ليسوا أولياء الله وما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم بل هم أعداء الله ورسوله (إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) إن أولياؤه بالحقّ والحقيقة إلاّ من اتقى الله (وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ)، إنما يكون مؤهل لولاية البيت من كان براً تقياً لأنه أسس على تقوى الله.

في نهج البلاغة حكم ٩٦ : (إِنَّ وِلِيَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعْدَتْ حُجْمَتُهُ (نسبه)، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرَّبَتْ قَرَابَتُهُ) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) إنّه لا ولاية لهم على الكعبة المشرفة، ولكن أكثرهم جهلة سفهاء فقد قالوا نحن ولاة البيت والحرم نصد من نشاء وندخل من نشاء، وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) إذا كان فيهم من يفهم خطأهم وضلالهم، مثلهم كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه خوفاً من الفتنة، وبهذا يضمن الإسلام

حرية العبادة في المنطقة التي جعلها أمنة لكل المسلمين بعيداً عن بطش الطواغيت وإرهابهم. فائدة : والآية وإن نزلت في المسجد الحرام ولكن دلالتها عامّة تشمل جميع المساجد، ينبغي أن يكون الأماناء عليها المتقون ليجعلوها مدارس للتعليم ونشر الوعي وحفظ القرآن وصالحة لإقامة الصلاة، وتشمل الآية أيضاً الظواهر المستحدثة في إقامة جميع المدائح النبوية أو الحسينية ذات الألحان الموسيقية المطربة وفيها ما يشابه حالات وحركات الرقص التي تعمل على إبعاد الناس عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله (ص) وعن الإمام الحسين (ع)! ولو كانت تحت اسم الشعائر الدينية .

٣٥ - ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

مُكَاءً وَتَصَدِيَةً : صغيراً وتصفيقاً . المعنى : ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند بيت الله الحرام إلا (مُكَاءً) تصفيراً بالفم (وَتَصَدِيَةً) وتصفيقاً باليد فصلاتهم لعب وهو ومرح ومرح وصخب ليس فيه حرمة للبيت وليس فيه توجه لله ولا وقار للكعبة ! وطوافهم حول البيت وهم عراة رجالاً ونساءً ويسمّون أعمالهم هذه عبادة !! وكانوا يصقرون ويصقّفون إذا صلى المسلمون في الكعبة ليخلطوا عليهم صلاتهم ويشوشونها ويشحنوا الأجواء بالإرهاب (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) فإذا كانت هذه عبادتكم الفاسدة فذوقوا عذاب القتل والأسر والخزي بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، والجزءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر .

٣٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَقْبُوهُمُ اللَّهُ ثُمَّ كُنُفُهُمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾

معنى الآية دقيق المبني عميق المعنى واسع المغزى بعيد الدلالة، تبين الآية العداة الدفين والحقد اللئيم للكفار والمشركين ومن عمل عملهم وتولّاهم من المسلمين وسعى سعيهم في كلّ زمانٍ ومكان، في صرف أموالهم في إطفاء نور الله ومحاربة رسالته الإسلامية، كأنّ الآية تكشف عن قانون إلهي متحرّك ومؤثّر في مسيرة الأجيال البشرية المستمرّة، يشمل كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لئيل مقاصدهم الخبيثة ومكرهم السيء فإنّ الله سيطله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر/٤٣، المعنى : إنّ الذين كفروا ليتعاونوا على الإنفاق في الإثم والعدوان، يصرفون أموالهم ويبدلونها بسخاء عن طيب نفس (لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

يَصُدُّوا: يمنعوا، لا لشيء إلا لمنع الناس عن عمل الخير والصلاح ومنعهم عن سبيل الله أي الدخول في دين الإسلام الذي يعلو ولا يعلو عليه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/٣٣، والآن في الجاهلية الحديثة تبذل الملايين على الإعلام الملعوم والتوجيه المسموم وتشويه الحقائق، لتضليل الآراء وانحراف المعتقدات الإسلامية بمختلف وسائل الترغيب والترهيب والتضليل في الحرب الناعمة الخطيرة في زمننا المعاصر، أو إنفاق

المال لتمويل الصّحف التي تنصر الطّغاة أو لتمويل الحروب الجائرة أو لتمويل مرتزقة الحروب، وتدعيم كيان المخابرات وغيرها التي تصدّ عن سبيل الله وتمنع الحقّ والحقوق (فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) فسيفنقون هذه الأموال بسخاء ويخسرونها (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) ثم تصير عليهم ندامة وغمّاً وخيبة أمل وتأسفاً لأنّها تذهب من أيديهم ثم تعود إليهم على هيئة رزايا ونكبات ولا يظفرون بما كانوا يطمعون لأن الظلم والفسق والفساد والانحراف لا يهدي إلى الفلاح والتّجاح ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصّف/٨، (ثُمَّ يُغْلَبُونَ) ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ويغلبهم المؤمنون في كلّ الحروب وهذا إخبار بالمستقبل وكشف عن سنة تاريخية متحركة مستمرة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/٢١ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) والذين ماتوا على الكفر وإن كانوا في الظاهر مسلمين ويتظاهرون بالصلاة والصّيام ولكنهم منافقون خطرون فهم يساقون إلى جهنم التي ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ الليل/١٥-١٦، كما حشروا حشودهم ليطفئوا نور الله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ الأنفال/٤٢ . عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ وَالْوَيْلَ كُلَّهُ لِمَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا أَبْصَرَ وَمَنْ لَمْ يَدْرِ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مُقَيَّمٌ أَنْتَفَعَ هُوَ لَهُ أَمْ ضَرَّرَ) ميزان الحكمة ٤٣٣/٢ فائدة: ١-١ - قد برهنت الحوادث في عصرنا الحاضر على أن الدول الاستكبارية القوية التي تغري مقاتليها بالمال والرغبات المادية كثيراً ما تصاب بالخزي والهزيمة بوجه الأمم المستضعفة التي تقاوم عن إيمان وحقّ وعدالة وعزيمة وعلم وقدرات ممكنة ! ٢- (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) (ثُمَّ) تفيد التراخي، إشارة إلى أنّ الحسرة والهزيمة تكون مع مرور الأيام حتى تكون عليهم محنة ثم تكون نتيجتهم الحتمية الانهيار الحضاري التدريجي الذي يشمل الخسارة الماديّة والمعنوية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣، وهذا يبيّن أنّ الله تعالى هو الذي يدير المعركة لصالح الإسلام ضدّ الكفر ومؤامرات المجرمين (يُدَبِّرُ الْمُدْبِرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ) .

٣٧ - ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

والآية القرآنية تكشف عن سنة إلهية متحرّكة وقانون دائم فاعل (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) ليكون للمؤمنين بفضل الله عليهم قدرة عالية على الفرز بين الخبيث والطيب بكافة أشكاله وألوانه، اللام ب (لِيَمِيزَ) متعلّقة بيحشرون في الآية السابقة، أن يعرف المؤمن من غير المؤمن وليفرق بين جند الرحمن وجند الشيطان ويفصل بين الأبرار والأشرار، وبين العالم العامل وبين العالم غير العامل، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أيّ من ذلك مجهولاً أبداً ولا بدّ في التّهيأة أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض، فلا يستقيم في عدل الله تعالى أن يستوي المجرم والبريء والطيب

والخبيث ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ السجدة/١٨، بل يثيب المؤمن ويعاقب الفاسق ﴿وَيَجْعَلِ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ ويجسّم التعبير القرآني الصورة حتى وكأَنَّها حيّة واقعية في معناها، فَيَرْكُمُهُ : فيجمعه كالركام متركماً، وهذا قانون إلهي عام وهو إلحاق كل صنف بأصله يجمع المؤمنون إلى المؤمنين، ويجمع سبحانه وتعالى غداً أنواع الخبيث المتشابهون في الخبائث والمتساوون في الإجرام والمتماثلون في الرذيلة يجعلهم بعضهم فوق بعض متركمين مهملين لا قيمة لهم ثم يلقي بهم في نار جهنم، تماماً كحزمة من حطب تطرح في المحرقة دفعة واحدة أو التفاية الضارّة من كلّ شيء يلقي بها بلا حساب ولا تقدير للخلاص من شرّها (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أولئك المنفقون ليصدّوا عن سبيل الله هم الخاسرون في الدّنيا والآخرة الذين يواجهون مبالغة الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأُخْسِرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟! ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ العنكبوت/٥٢. فائدة : ١- ومن الصّراع بين الحقّ والباطل والخبيث والطّيب تنكشف الطباع ومعادن النّاس على حقيقتهم وبالزمن يكشف كلّ مستور ويتميّز الحق من الباطل. ٢- والتعبير القرآني البليغ المؤثر يجسّم الخبيث كأنّه كومة من الأقدار يقذف بها في التّار دون اعتبار! في غور الحكم: (المرء حيث يضع نفسه) كقوله ﴿وَأَمْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يس/٥٩، وهذا التمييز بين الأمرين من سنن الاجتماع هو بقاء الأصلح كقوله ﴿فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الرعد/١٧، وأيضاً هذا التمييز من سنن الله الفاعلة في الدّنيا والآخرة .

٣٨ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولَى﴾

خطاب موجه للنبي (ص) أمره أن يعظ الكافرين ويقول لهم : إنّ باب التوبة مفتوح أمامهم وإن الفرصة معهم الآن قبل أن يفوت الأوان، إنصحهم إن تابوا تاب الله عليهم فینتھوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالک ولم يعادوا رسالتک، يغفر لهم (مَا قَدْ سَلَفَ) ما قد مضى من الذنوب، عن النبي (ص): (الإسلام يُجِبُّ (يهدّم) مَا كَانَ قَبْلَهُ) كنز العمال خبر ٢٤٣، من الذنوب قبل الإسلام (وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولَى) إنّ تهديد شديد للكافرين في الدّنيا قبل الآخرة، وإن عادوا إلى قتالک وعداوتک فقد قضت سنتي وتفاعل قانوني ونظامي ومضت قدرتي وجرت طريقي في تدمير المكذبين وإهلاك المقاتلين لأنبيائي ورسالاتي ولو بعد حين ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/٤٣، والمراد بسنة الأولين سنة الله الجارية في الماضين والمستمرّة في الباقين كقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر/٥١، وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق !

٣٩ - ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

خطاب حركيٍّ محفّز ومؤثّر دائم المفعول موجّه للنبي (ص) وللمؤمنين في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم، أمرهم سبحانه وتعالى بأن يقاتلوا الكافرين حتى لا يكون كافراً بغير عهد، لأنّه إذا كان بغير عهدٍ كان عزيزاً في قومه يستطيع أن يدعو الناس إلى دينه فتكون الفتنة (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً) هذه حدود الجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان لا في ذلك الزمان، قاتلوهم لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان للإنسان إلى إعلان العبودية لله وحده (حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً) على عموم معناها وبمختلف أشكالها وصورها ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة/١٩١، بمعنى قاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي تفاجئكم وترهبكم وتصدّ الناس عن سبيل الله بمختلف الأساليب، إنّها ثورة عقائدية شاملة على المبادئ الوضعية الفاسدة في كلّ صورها وأنظمتها، إنّها ثورة جذرية لإعادة تربية الأمة من جديد! (قَاتِلُوهُمْ) حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه فلا تضعفوا عن واجبكم في الجهاد في سبيل الله لإقامة دين الله وخلق جو صالح للمؤمنين، فلا بدّ من قتال رؤوس الفتنة وإضعافهم بالقتال والمواجهة العسكرية حتى لا يغتروا بكفرهم ولا يفتنوا المؤمنين عن دينهم، وهذا يدلُّ أنّه لا تنفع المفاوضات السياسية معهم، كما لا تنفع المفاوضات مع المحتل في حلّ القضية الفلسطينية وغيرها في زماننا المعاصر! (وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) تضمحل الأديان الوضعية الباطلة ويبقى دين الله المتمثل بالإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/١٩، وحتى تكون العبادة كلّها لله خالصة له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/٥٦، ولن تنال البشرية كرامتها وعزّتها ولن يتحرّر الإنسان من سلطة الطواغيت إلا أن (يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) ولهذا الغاية الكبرى يقاتل النبي والمؤمنون من بعده، وبهذه الغاية يستمرّ الجهاد حتى تكون العاقبة للمتقين كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي الصَّاحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥.

والإسلام على عموم معناه بمعنى: التسليم لأمر الله والخضوع لرضاه، وأن لا يدعو أحد إلى دين آخر يخالفه، وهذا يعني الخروج من سلطان البشر الظالم إلى حكم الله العادل، والفرار من عبودية الطواغيت إلى عبودية الله كقوله ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ النور/٥٥، والمطلوب من المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب المنفذة لقضاء الله المحتوم ولحكمه المقسوم، تلك هي المهمة الصعبة التي أبتلي بها المؤمنون (وَالْمُهْمَةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهْمَةِ) (فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فإن انتهوا عن الكفر والقتال وخلق الفتن وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم وبصير بأعمالهم ويثبتهم على إسلامهم وتوبتهم.

فائدة : ١- عن الإمام الصادق (ع) : (لَمْ يَجِيئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَوْ قَامَ قَائِمًا بَعْدَ سَيَرَى مَنْ يُدْرِكُهُ، مَا يَكُونُ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَيُبَلِّغَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكُ (جلي) عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَذَكَرَ الْآيَةَ) الأمل/٥/٣٩٠. ٢- (قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً) لا تتعارض مع

حرية إعتناق الدين الأصيل كقوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦، (لا إكراه في الدين) في حالة (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) عند الناس، أما إذا لم يتبين الرشد من الغي فعندئذٍ يجب الوصول إلى هذا الهدف النبيل حتى لو كان في قتال الطواغيت وإكراه الناس بالقوة على فهم هذا الدين المنقذ لهم لنتاح الأجواء المناسبة للإنسان لكي يختار كقوله ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥، ويكون مسؤولاً عن اختياره كقوله ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أِيْمَانَ هُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ التوبة/١٢، عن النبي (ص) : (مَوْفَقُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ) روح البيان ٣/٣٤٦، ولا بد أن يتحقق (وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) في يوم موعود على يد الإمام المهدي المنتظر (عج) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويحقق قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ النور/٥٥

٤٠ - ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

(وَإِنْ تَوَلَّوْا) وإن أعرضوا عن نعمة الإيمان ولم ينتهوا عن كفرهم وفسادهم ولم يكفوا عن الفتنة فاستمروا بقتالهم، فاعلموا أيها المؤمنون أن الله مولاكم وناصركم ومعينكم عليهم فنقوا بنصرته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧، (نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ تَوَلَّاهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَّاهُ، وَمَنْ نَصَرَ اللَّهَ نَصَرَهُ فَهُوَ خَيْرُ الْحَافِظِينَ وَخَيْرُ النَّاصِرِينَ (مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ) وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَمَنْ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَنْ يَكُونُ مَعَهُ؟! فائدة: ١- قوله (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ) فسبَّح الوجود بحمد الله، وإنضمَّ الوجود كله إلى المؤمنين بقوله ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة/٢٢، وقال الوجود كله (نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) . ٢- قوله (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ) فاعلموا أيها القلوب والأرواح واعلموا أيها الكون والكائنات أنَّ الوجود كله يسبَّح بحمد الله ليكون له نصيبه من تلك الولاية التي تولى بها المؤمنين من عباده، وإنضمَّ الوجود كله إلى المؤمنين وشاركهم في الخطاب الكريم (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ) فقال الوجود كله وما فيه (نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) أما الكافرون فلا مولى لهم ولا نصير، وإمَّا يتركهم الله في طغيانهم يعمهون ويتخبطون فيلاقوا مصيرهم المحتوم المشؤوم.

الجزء العاشر من القرآن الكريم

٤١ - ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ أُمَّتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَافُتِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

آية الخمس، الخطاب للمؤمنين، الغنيمة : ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال، وهي هبة من الله تعالى للمسلمين لذلك ذكر القرآن الغنيمة ضمن آيات القتال، والغنيمة في الأصل معناها كل ربح ومنفعة حتى الخيط والمخيط . والفِيء : ما أخذ بغير قتال من مال وغنائم بعد أن تضع الحرب أوزارها . والأَنْفَال : ما يحصل عليه الإنسان من الغنيمة قبل قسمته . معنى الغنيمة

في اللغة الفوز بالشيء من غير مشقة ومعنى الغنيمة شرعاً ما أخذه المسلمون بالقتال من أموال الكافرين، وقيل الغنيمة: الخير الذي يناله الفرد أو الجماعة بالسعي والجد فتكون الغنيمة ذو معنى واسع كقوله ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾ الأنفال/٦٩ . سبب نزول الآية: غنائم الحرب في معركة بدر وأحكام توزيعها . ولكن المورد لا يخصص الوارد، باعتبار سبب نزول الآية لا يحدد عموم معناها . (أَمَّا غَنِمْتُمْ) تكتب (أَمَّا) مفصولة إنَّ ما (مَا) اسم موصل تدل على عموم معناها هنا (مِنْ شَيْءٍ) بيان لما تدل عليه (مَا) أي (ما غنمتم من كلِّ شيء قليلاً أو كثيراً صغيراً أو كبيراً) (شيء) للدلالة على عموم معنى الغنيمة: فهي أعم من كونها غنيمة حرب كقوله ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ النساء/٩٤، وإنها تشمل المعدن كالنفض والذهب وغيرها، وتشمل الكنز المدفون تحت الأرض إذا لم يعرف له صاحب وتشمل ما يخرج الإنسان من البحر بالغوص كاللؤلؤ، وتشمل المال الذي فيه حلال وحرام ولم يُعلم مقدار الحرام منه ولا صاحبه .. إلخ فيكون للخمس معنى اقتصادي واقعي واسع الدلالة يدخل في الحياة العملية ليعمل نهضة حضارية للأمة ويقضي على التخلف والفقير، وإذا كان الخمس محدوداً في غنائم الحرب معناه لا واقع له الآن، لأنه محدود وضيق في أيامنا المعاصرة، فيكون مثل مسألة العبيد والإماء، إذ لا دولة إسلامية تجاهد الكفار والمشركين في هذا العصر .. وحكم الغنيمة في الآية مأخوذ من سياقها القرآني من غنيمة حربية .

سؤال: هل خمس أرباح المكاسب هو نفس خمس غنائم دار الحرب؟

الجواب: يختلف، حيث أن غنائم الخمس فيها أرباح من غير مشقة ولا تعب، وغنائم المكاسب أرباح جاءت بمشقة وتعب مع نسبة عناء معينة، وهذا البيان يجعلنا نحدد شمولية معنى الغنيمة، فلا تشمل المكاسب والأعمال والتجارات الحالية لأنهم يحصلون على الأرباح بتعب ومشقة مع احتمال الخسارة، ولم يقولوا إنها غنيمة، ولا يجوز وصف الفائض في الأرباح من الأعمال بأنه غنيمة، لكونها أرباح متوقعة ومحسوبة، بينما غنيمة الحرب ينالها الإنسان من غير مقابل، فهناك فرق بين (غنمتم) و(ربحتم) الربح: الزيادة في معاملة البيع.

والغنيمة: الربح بلا معاملة و(نعمة غير مرتقبة) وغير محسوبة والروايات الموجودة في الخمس التي تعتمد مدرسة أهل البيت (ع) فإن لفظ الغنيمة فيها وتعميمه ليشمل أرباح المكاسب والتجارات، فهي ضعيفة السند وتخالف النص القرآني وإما تكون صحيحة السند وغير تامة الدلالة، وإما تكون صحيحة السند وتامة الدلالة لكنها تخالف القرآن، وصاننا رسول الله (ص) كلُّ ما يخالف القرآن نرمي به عرض الحائط فهو ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ الأنعام/١١٢ . إذاً: عموم معنى الغنيمة في الآية تحتاج إلى قرينة وهي غير حاصلة، لأن الغنيمة في الآية تخص الحرب كما تدل عليه في سياقها والآيات السابقة واللاحقة، فلا يجوز تعميمها مع كل فائدة وربح إلا مع قيام الدلالة عليه ووجود القرينة . وعموم استخدام القرآن لمادة (غنم) واشتقاقاتها تؤكد اختصاصها بغنائم الحرب دون أن يكون عاماً لكل فائدة وربح، راجع سورة الأنفال/٦٧-٦٩، الفتح/١٥-١٩ (راجع هل خمس أرباح

المكاسب أصل قرآني؟ للسيد كمال الحيدري بقلم ميثاق العسر)، ومن الجدير ذكره قال مُحَمَّد جواد مغنية في تفسير المبين (ثبت عندنا تخصيصها (تخصيص الغنيمة) بما أخذ من الكفار على وجه القتال والغلبة، ولو ثبت هذا التخصيص عند الشيعة لعملوا بقول السنة (أنَّ الغنائم في دار الحرب) وأيضاً لو لم يثبت عند السنة (أن الغنيمة ذات دلالة عامة لكلِّ فائدة) لعملوا بقول الشيعة (فَأَنَّ لِلَّهِ حُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (فَأَنَّ لِلَّهِ حُمْسَهُ) بعد توزيع الأربعة أخماس على المقاتلين وإبقائها لصاحب المال، ويكون سهم الله تعالى من أجل الغايات التي ترتبط باسم الله كسبيل الله وقوة الشريعة ومساعدة المحتاجين وليس لله حاجة في سهم معين، هذا بيان للذين يستحقون الخمس، حيث لا نبي بعد مُحَمَّد (ص) ولا إمام ظاهر يقسم الخمس نصفين: الأول منها ثلاثة أسهم، سهم لله وسهم لرسوله وسهم لذوي القربى، وما كان لله فهو للرسول وما كان للرسول فهو لقربته وولي القربة بعد النبي (ص) الإمام المعين القائم مقام النبي، فإن وجد أعطي له وإلا وجب إنفاقه في المصالح الدينية، وأهمها الدعوة إلى الإسلام وكل مشروع يرضي الله ورسوله وينفع الناس وينهض بالمجتمع حضارياً وأخلاقياً، أما الصنف الثاني : فهو ثلاثة أسهم أيضاً، سهم لأيتام آل محمد (ص) وسهم لمساكينهم وسهم لأبناء السبيل منهم خاصة لأن الله حرم على آل محمد الصدقة فعوضها بالخمس، وقال آخرون يتسع لكل مسلم من الأصناف هاشمياً أو غير هاشمي.

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ) إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) مُحَمَّد (ص) (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) وفرق الله سبحانه بين الكفر والإيمان بإعلاء كلمة الإسلام على الشرك يوم بدر لأن الله فرق بين الحق والباطل (يَوْمَ اتَّقَى الْجُمُعَانَ) يوم اتقى جند الرحمن بجند الشيطان ودارت دائرة السوء على المشركين (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فهو قادر على نصركم مع قتلكم وضعفكم وهم على كثرهم وقوتهم ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة/٢٤٩ فائدة : ١- (المساكين) جمع مسكين وهو الذي سكن الضر والفقر حركته، وهو الذي لا شيء لديه وهو أشدُّ حالة من الفقير (ابن السبيل) المسافر الغريب المحتاج الذي انقطع عن أهله وماله (اليتامى) اليتيم من مات أبواه قبل أن يبلغ وهو محتاج (ذوي القربى) قرابة الرسول (ص) .

٢- هل الخمس من الزكاة؟ الجواب : قرن القرآن الكريم دائماً الصلاة بالزكاة لأهميتها المتبادلة، ولاقتران العبادات بالمعاملات، وباعتبار الزكاة مفهوم عام فيكون (لكلِّ شيءٍ زكاةٌ) كما في غرر الحكم، وكثر القرآن ذكر الزكاة بينما ذكر الخمس مرة واحدة في هذه الآية فقط، ولسعة مدلول الزكاة فيدخل مفهوم الخمس مع مفهوم الزكاة فيكون الخمس أحد مفاهيم الزكاة، باعتبار الزكاة تزكّي المال وتنميته وتطهره وتبارك فيه . ٣- هل هناك علاقة بين الغنيمة والغرامة؟ ذكرت كلٌّ من (غنيمة) و(غرامة) ست مرّات في القرآن الكريم، فكما أنّ الغرامة معناها واسع لكلِّ خير يقع

عند الإنسان بدون عناء ومشقة، لا تقتصر على خسائر الحرب كذلك مفهوم الغنيمة لا ينحصر في مكاسب الحرب بل لجميع المكاسب لسعة معنى الغنيمة، مما يدل على عمومية لفظ الغنيمة في اللغة، وإن نزلت في خصوص السبب في حرب بدر ولكن أريد لها عموم المعنى . وقد إستخدم القرآن لفظ الغنيمة لغير غنائم الحرب ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾ الأنفال/٦٩، وفي الحديث : (الرَّهْنُ لِمَنْ رَهَنَهُ لَهُ غَنْمُهُ وَعَلَيْهِ غَرْمُهُ) غَنْمه : زيادته ونماؤه . ٤- نستنتج : إنَّ الغنائم في الآية ذات معنى عام واسع يشمل كلَّ فائدة وريح، لأنَّ معنى الغنيمة اللغوي عام ولا دليل على تخصيص الآية في الحرب وأيضاً الغنيمة في الآية ذات معنى عام وإن يكون سبب نزولها في أمر خاص غنائم حرب بدر، فتكون غنائم بدر من مصاديق هذا المفهوم . ٥- معنى الآية بإختصار : (أَمَّا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) إنَّ الآية جاءت في سياق آيات الجهاد إلاَّ أنَّها تقول إنَّ أية غنيمة أو ربح تحصلون عليه سواء أكان غنائم حرب أو غنائم مكاسب أو أرباح مكاسب فعليكم أن تعطوا خمسه لمستحقه . ٦- هذه الغنائم في بدرٍ سمَّها القرآن أنفالاً لأنَّها جاءت للمسلمين على غير تقدير منهم وغير ما يتوقعون ومن غير بلاء وعناء أمَّا الغنائم فهي جاءت لهم بعد عناء وبلاء وجهادٍ وقتال وتضحية . ٧- خلاصة البحث في آية الخمس : عدم تكامل الدليل القرآني عندنا على بيان حكم الخمس على أنه يشمل خمس المكاسب أيضاً لا يعني عدم ثبوته بدليل شرعيٍّ آخر، والمؤشرات والدلائل العلمية تدعمه، ولكن عندما يصل البحث التردد بين الشك واليقين عن النبي (ص) (دَعْ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ) تنبيه الخواطر ص ٤٣، في غرر الحكم : (يَتَكَرَّرُ الْفِكْرُ يُنْجَبُ (ينكشف) الشكُّ) !

٤٢- ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَلَّسَمِيعُ عَلِيمٌ﴾

هذا تصوير مجسَّم لمعركة بدر التي تكشف عن سنة قائمة ودائمة (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا) أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين (بِالْعُدْوَةِ) بجانب الوادي وعلى ساحل الوادي الأدنى القريب إلى المدينة (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) الأبعد أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي على الساحل الأبعد عن المدينة (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) قافلة أبو سفيان التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم (وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) لو خرجتم أنتم أيها المسلمون منذ البداية إلى قتال المشركين متواعدين معهم على ذلك في وقتٍ معيَّن، ما اجتمعتم بمثل هذه الدقة والضبط في المكان والزمان، وهذه بعض الأسباب لانتصار المسلمين في بدر مهَّدها الله لهم، لو علمتم بأنهم أكثر منكم لاختلقتم في الميعاد ولم تذهبوا إلى القتال خوفاً منهم، وكان من تدبير الله تعالى أن ينزل كلُّ طرف في موقعه دون أن يعلم بموقع الآخر، ولو رأى المسلمون أعدادهم رأى العين لها بؤهم ويتسوا من الظفر بهم، (وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله (أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا)، فكان

أمراً متحققاً واقعاً ومقضيّاً عنده، وهو أن تحدث المواجهة ويتنصر المؤمنون (رغم ضعفهم) وينهزم المشركون (رغم زيادة قوتهم وعدّتهم) ليكون ذلك بينة ظاهرة على أحقيّة الحق وبطلان الباطل فيضلاً من يضلُّ بعدها عن بينة من غير شبهة، ويهدي من يهدي عن بينة واضحة، وهذا يدل أن الله هو الذي كان يخطط لمستقبل الإسلام، وهو الذي يدير المعركة بقدرته الخارقة للعادة ليزداد الذين آمنوا إيماناً مع إيمانهم حتى يتمحص الإنسان فيرى يد الله سبحانه من وراء الأحداث ! (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) المراد بمن هلك : من كفر فعبر عن الكفر بالموت وبمن حيّ : بمن آمن وعبر عن الإيمان بالحياة أي إنّ الله نصر أوليائه ليكون ذلك (عَنْ بَيِّنَةٍ) عن حجة قاطعة على أهل الكفر مع الوضوح بأن الله ضدهم، وقهر الله أعداءهم ليكون وهكذا إنها سنة ربّانية فعالة باستمرار كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ الحج/٤٠، (وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) سميع لأقوال العباد وإستغاثتهم عليهم بأحوالهم. فائدة: تثبت الآية أنّ لهذا الدّين الإسلامي ربّاً يحميه وهو ينصر أصحابه المؤمنين متى صدقوا الإيمان وأخلصوا لله وجاهدوا في سبيله وصبروا وثبتوا، ولو كان الأمر ضمن الأسباب الطبيعية وضمن القوى المادّية الظاهرة ما هُزم المشركون ولا انتصر المسلمون هذا الانتصار العظيم. وهكذا أصبحت غزوة بدر الفرقان بين المؤمنين والكافرين، فهي ليست حدثاً مرّ بالتاريخ ولم يعد، وإتّما تعاد سنة الانتصار متى توقّرت ظروفها في كلّ زمان ومكان، وهكذا انتصر حزب الله اللّبناني سنة ٢٠٠٦ على إسرائيل وحطّم أسطورة الجيش الذي لا يقهر!

٤٣ - ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِكُمْ لَيْلِئًا لَوْلَا أَمْرُكُمْ كَبُرَ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
 إذ ذكر يا محمد وليذكر المؤمنون معك حين أراك الله في المنام (ورؤيا الأنبياء وحي) أعداءك قلة لا قوة لهم ولا وزن ! (هذا قبل الحرب)، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم (وَلَوْلَا أَرَاكُمُ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ) ولو أراك ربك عدوك كثيراً على ما كانوا عليه في الواقع ثم ذكرتهم للمؤمنين لجُبُّ أصحابك وخافوا ولم يقدرُوا على الحرب ولأعقب ذلك الفشل والخسران، وأنظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إلى الرسول (ص) لأنه لا يصدر منه ما يؤدي إلى الفشل بل قال (لَفَشِلْتُمْ) لجبتهم، والفشل : ضعف معنوي مع فرع نفسي أي لانهارت عزيمتكم أنتم أيها الأصحاب (وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ) وتفرقت آراءكم واختلفتم بين الثبات والفرار (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) أي أنعم الله عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع وتفطيت الصفوف بإراءتكم قليلاً (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) عليهم بما في القلوب فيعلم ما يقوي القلوب وما يضعفها، فهو مقلّب القلوب ويعيّر الأحوال من حالٍ إلى حال من الشجاعة إلى الخوف وبالعكس وكان هذا تدبير من تدبير الله ﴿يُدْبِرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ السجدة/٥ . فائدة (في مَنَاكِبِكُمْ) عن النبي (ص) : (الرُّؤْيَا

ثَلَاثٌ : فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَالرُّؤْيَا مِنْ تَحْزِينِ الشَّيْطَانِ، وَالرُّؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ) البحار ٦١ / ١٩١ وفي قوله ﴿هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يونس/٦٤، وعنه (ص) : في الآية (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ فَيُبَشِّرُ بِهَا فِي دُنْيَاهُ) البحار ٦١ / ١٧٧، وعنه (ص) : (رُؤْيَا الصَّالِحِينَ بِشَارَةً مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ) البحار ٦١ / ١٧٧.

٤٤ - ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

وإذكروا يا مؤمنين (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا) هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام بعكس الآية السابقة أي حين إلتقيتم في معركة بدر فقلل الله عدوكم في أعينكم (عند اللقاء) لتزداد جرأتكم عليهم وليشد من عزمكم، (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) وقللكم في أعين عدوكم (في أول المعركة) حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لقتالكم، فلما التحم القتال انقلبت الموازين وتغيّرت المعادلات بقدرة ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١، كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبهتوا وهابوا وضعفت شوكتهم فكانت الهزيمة، وشاهدوا ما لم يكن في الحسبان، وهذه من آيات الله الإعجازية في بدر ولطفة بالمؤمنين وإن يد الله هي التي تخطط وهي التي تدبر وتقدر وتخطط وتدير المعركة والمسلمون أسباب، والله مسبب الأسباب التي يصنعها الإنسان بعون الله سبحانه ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ يوسف/١٠٠، (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) فعل الله هذه الخطة فجراً المؤمنين على الكافرين، وحفز الكافرين على المؤمنين لتقع الحرب وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ليتحقق أمر مهم كان مقضياً عنده سبحانه ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ التوبة/٤٠، (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أي مصير الأمور كلها إلى الله يدبرها حسب الحكمة والمصلحة كقوله ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الروم/٤، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨.

فائدة: وإنما كرر (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) لأن التعليل بما في الآية الأولى (في المنام) وقبل المعركة كان للجمع بين المسلمين والمشركين من أجل التحفيز للقتال من غير ميعاد، أما التعليل بما في هذه الآية فقد جاء لتقليل كل فريق في عين صاحبه، وهم على أرض الواقع وعند اللقاء لإظهار الحق بوضوح للطرفين كقوله ﴿بُجَادِلُونَا فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ الأنفال/٦، وهكذا ﴿يُدَبِّرُ الْمُنَافِقِينَ﴾ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ ! وهكذا حصل تدبير الله ما أغرى الفريقين بخوض المعركة، وتحققت غاية التدبير الإلهي ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه، ولا ينفذ شيء في الوجود إلا ما قضاه وقدره ودبره سبحانه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكويد/٢٩.

٤٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

هذه الآية إرشاد في طريق الجهاد في سبيل الله . المعنى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ جَمَاعَةً بَاغِيَةً تَسْعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا (فَاثْبُتُوا) لقتالهم ولا تنهزموا فمن أهم أسباب النصر في المعركة الثبات والصبر وعدم اليأس كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦،

فَأَثَبْتِ الْفَرِيقَيْنِ أَغْلِبَهُمَا ! في الحديث : (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ فَإِذَا لَقِيتُمْوَهُمْ فِإصْبِرُوا) روح البيان ٣/٣٥١، كقوله ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/٢٥٠، ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو توجيه دائم للمؤمن، وذكر بالقلوب والألسن يجب أن يكون الجهاد خالصاً لوجه الله لا للغنيمة أو السمعة واكثروا من ذكر الله بفنون الدعوات وبجميع الأصوات واللغات وفي جميع الحالات ذكراً مرتبطاً بشأن الجهاد وأنّ النصر من عند الله وليس فقط بالأسباب المادّية، والذكر مجالسة المحبوب ولذة الحبين ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرد/٢٨، ولا تفضلوا على ذكر الله شيئاً فالله يقول ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/٤٥، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة/١٥٢، في غرر الحكم: (الذِّكْرُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَنُورُ الْعُقُولِ، وَجَلَاءُ الصُّدُورِ، وَصَلَاخُ النَّفُوسِ)

وفي الآية دلالة: إلى أن النصر في القتال والجهاد لا يتحقق إلا مع النية السليمة والغاية النبيلة والوسيلة الشريفة، وليس بالأشكال والمظاهر. فائدة: ١- وأنّ الله ناصر المؤمنين ومولاهم وأنّ الكافرين لا مولى لهم، وأن مال أمر المؤمنين في قتالهم إلى إحدى الحسينين إمّا التصر على العدو ورفع راية الإسلام وبناء الدولة الكريمة، وإمّا القتل في سبيل الله والانتقال بشرف الشهادة إلى رحمة الله تعالى ومجاورة المقرّبين من أوليائه. ٢- ذكرت الآية سببين للنصر: الثبات (فَأَثَبْتُوا) والإخلاص لله والانقطاع إليه، وإليه أشار ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وذكرت عوامل التصر الحقيقية الأخرى في الآيات التالية كطاعة الله والرّسول، وتجنّب النزاع والشقاق والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرياء والبغي . عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ أَشَدَّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى حَلْقِهِ ذِكْرُ اللَّهِ كَثِيرًا، لَا أَعْنِي سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ... وَإِنْ كَانَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَمَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا) تفسير النور ٣/٣١١.

٤٦ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) في جميع أقوالكم وأفعالكم في سركم وجهركم في حربكم وسلمكم، ولا تخالفوا أمرهما في شيء في كلّ الأحوال وخاصة في الأوامر السياسية والعسكرية، في غرر الحكم: (طَاعَةُ اللَّهِ مِفْتَاحُ كُلِّ سَدَادٍ وَصَلَاخُ كُلِّ فَسَادٍ)، وفيه أيضاً: (أَكْرَمُ نَفْسِكَ مَا أَعَانَتْكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ) (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا) ولا تنازعوا تنازاعاً يكره بعضكم بعضاً، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وتتخلخل نياتكم (فَتَفْشَلُوا) فتضعفوا وتجنّبوا عن لقاء عدوكم (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) وتذهب قوتكم وهيبتكم وعزّتكم وكرامتكم ودولتكم فإن اختلاف الآراء يخل بالوحدة ويوهن القوة ويضعف الإرادة (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) وإصبروا على شدائد الحرب وأهوالها فالله مع الصابرين يمدّهم بتأييده وبنصره في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) وبذكر الله كثيراً تنال المطالب، ومن كان الله

معيناً له فلا يغلبه غالب، إنما يمدهم الله تعالى حين ينفذ زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تضعف إرادتهم. **فائدة : ١-** علينا ان نبدأ كما بدأ الإسلام من جمع الشمل، وانطلق نبي الإسلام من المؤاخاة بين المسلمين ومن هنا يجب أن نبدأ ونطلق، وإلا فلا وزن للمسلمين وإن كانوا مليار ونصف المليار مسلم ولكنهم غناء كغناء السيل! مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحُقُّ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضِيقُ، علينا أن نعتمد أن اختلاف الآراء لا يُفسد الود ولا يقطع الصلة، **٢- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** آل عمران/١٠٥، عن النبي (ص) : (مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِأَطْلَاهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ!) امالي المفيد ص ١٣٨. **٣- ذكرت الآية سببين للتصبر: أ-** الطاعة الواعية لله ورسوله أي التمسك بالكتاب والسنة (والعترة الصحيحة) ب- وتجنب الاختلاف والتنازع والتخاصم والتكاره فإنها تؤدي إلى الفشل وخيبة الأمل وإلى الحرمان والخسران. **٤- (وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ)** استعيرت الآية عن القوة والغلبة بالرياح والهواء المتحرك الشديد الذي يهيج البحار ويقطع الأشجار، وحركة الريح توصل السفن إلى مقاصدها فقد كانت تضرب بها الأمثال في ذلك العصر.

٥- الفرق بين (فَانْتَبَتُوا) في الآية السابقة (وَإِصْبِرُوا) في هذه الآية، حيث أنّ الثبات هو الصمود وثبات القدم الذي يمثل الناحية الظاهرية (الجسمية) أما الصبر فهو أمر معنوي ونفسي بمعنى تخزين الطاقة وتحمل المشاق وضبط النفس في سبيل هدف أسمى .

٤٧ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾
البطر: الدهشة واللامبالاة التي تعتري الإنسان من سوء التعامل مع النعم في غير ما يرضي الله .
والرياء: والرياء هو إظهار الجميل وإبطان القبيح وهو من الصفات المذمومة للنفس وهو أن يعمل المرء ما يجب أن يمدحه عليه الناس، المعنى: ولا تكونوا كطغاة قريش حين خرجوا إلى معركة بدر وهم في عتو وتكبر وطلباً للفخر والثناء من الناس، قال أبو جهل لا نرجع حتى نرد بداراً فنشرب فيها الخمر وتعزف علينا المغنيات (ورِئَاءَ النَّاسِ) قال أبو جهل: نريد أن يسمع الناس بشجاعتنا في المعركة وعظمتنا في المنطقة ويخضعوا لنا ويثنوا علينا (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وكانوا يمنعون الناس من معرفة الإسلام ويزرعون في طريقه الشبهات طائنين أنهم يستطيعون الوقوف أمام قوة الله القادر (الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) (وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) والله عليم بكل ما يعملون ومحيط بأحوالهم كلها إحاطة كاملة علماً وقدره وملكاً وإحصاءً لكل ما يعملون ويجازيهم عليها في الدنيا والآخرة بمقتضى سننه في ترتيب الجزاء على الأعمال.

فائدة : ١- (رِئَاءَ النَّاسِ) تحذر الآية من الرياء والكبرياء والبطر والرّهو والتظاهر والتفاخر إعجاباً بالنفس عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ عَمَلًا فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِئَاءٍ) البحار ٧٢/٣٠٤، في نهج البلاغة خطبة ٨٦: (إِعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ) خفي . **٢- الآية تنصح المؤمنين فلا تخرجوا من دياركم إلى قتال أعداء الدين بهذه النية الدنيوية السيئة، حتى لا يحبط الله أعمالكم ويطفئ نور**

الإيمان من قلوبكم ويخذلكم كما خذل أعداءكم، بل أخرجوا لقتالهم ناوين جعل كلمة الله هي العليا فقط من دون أهداف دنيوية أخرى بعيدة عن هذا الهدف النبيل .

٤٨ - ﴿وَإِذْ نَزَّيْنَاهُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَمْرِي مَا لَا تَرَوْنَنِي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(رَبَّنَّ لَهُمْ) أراهم القبيح جميلاً والباطل حقاً، أي قلب لهم الحقائق وبدّل لهم المقاييس وغير الموازين الصحيحة، وحرّك عليهم الأهواء والشهوات فنظروا إلى أعمالهم الفاسدة بانبهار وإعجاب . المعنى: واذكر أن حسن لهم الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ القبيحة بوسوسته الخادعة وخروجهم لحرب الرسول (ص) وأظهرها لهم بصورة جميلة ظاهرها يغرّ ويسرّ وباطنها يضر (وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ) وقال لهم بما ألقاه في نفوسهم وحيّل إليهم أنهم لا يُغلبون لكثرة عددهم وعدتهم وفوق ذلك (وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) وإني مجيركم وعاصم لكم من عدوكم ومعين وناصر لكم ولا أتخلّى عنكم، وقد أوهمهم بهذه الآمال والوساوس الكاذبة (فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ) نكص : رجع، والنكوص السير بشكل معاكس، فلما تلاقى الفريقان (نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ) أحجم عن القتال ورجع إلى الورا القهقري هارباً متخلياً عن وعوده، معناه كفّ عن تزيينه لهم وتجميل الصورة وقلب الحقائق (وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ) تبرأ منهم وأيس من حالهم وهذا مبالغة في الخذلان لهم (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) إني أخاف الله أن يعذبني وينتقم مني وهو ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧، (وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) كقوله ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود/١٠٢، إِنَّ الشيطان يخدع أتباعه ومؤيدوه ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر/٤٢.

فائدة: ١- من طبيعة الشيطان يشعل النار ويثير الفتن وينشر الكراهية ويخدع الناس، أما الذين غرّهم واغترّوا به فإلى داهية ! كقوله في حماية المؤمنين ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء/٨٣ . ٢- سؤال كيف يعلن الشيطان أنه يخاف الله وهو قائم على عصيان الله بضلالات الناس؟! والجواب : يعترف الشيطان بوجود الله ولكنته مبتلى بكبريائه على بني آدم لإغوائهم وفساد ما بينهم وبين الله وهكذا كان قضاء الله، عن ابن عباس : (إِنَّ إِبْلِيسَ كَانَ يَكْذِبُ فِي دَعْوَاهُ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ) كقوله (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) الحشر/١٦ مع إبراهيم/٢٢.

٤٩ - ﴿إِذْ يَقُولُ الْمَتَابِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

حين قال أهل النفاق (والمشككون والمثبطون) الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ويجهلون أهمية هذا الدين وضرورته في الحياة (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) مرض معنوي في عقولهم ونفوسهم وضمايرهم وخلل خطير وانحراف مرير فيها أدى إلى التخبّط في العقيدة وضعف في الإيمان وتقلّب في المواقف، ويقولون عنهم باستحقار (عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ) إنهم دهشوا حين رأوا إقدام القلّة المسلمة المستضعفة على حرب الكثرة الكافرة المستكبرة ولم يفهموا تفسيراً لهذا الإقدام إلاّ تهوّر المسلمين وغرورهم بعقيدتهم، فهم لا يؤمنون بمدد السماء ومنزلة المجاهد في سبيل الله وفوز الشهيد بالجنّة، وهذا هو الفارق الكبير بين نظرة المؤمنين ونظرة الكافرين، كالفارق بين العالم المادّي والعالم المعنوي. (عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ) اغتر المسلمون بدِينهم، غرّ: خدع، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به ولولا خداع دينهم لهم لم يقدموا على هذه التهلكة الظاهرة الواضحة وهم شردمة قليلون أذلاء لا عدد لهم ولا عدّة، قال الله في جوابهم (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَخْدَعَهُمْ دِينُهُمْ بَلْ اعْتَمَدُوا عَلَى اللَّهِ وَنَسَبُوا حَقِيقَةَ التَّأْثِيرِ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ عَنِ إِيمَانٍ وَعِلْمٍ، ومن يعتمد على الله ويثق بعونه.

(مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاءٌ) فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ فَهُوَ (يَنْصُرُ مَنْ إِسْتَنْصَرَهُ) لَيْسَ النَّصْرُ بِالكَثْرَةِ وَلَا الْخِذْلَانُ بِالْقَلَّةِ فَقَطْ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران/١٢٦، وللنصر عدّة عوامل منها الجهاد والتضحية وإعداد العدد الممكن والعدة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/٦٠، ومن أهم العوامل التوكّل على الله، في غرر الحكم: (مَنْ وَتَقَّ بِاللَّهِ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ) في غرر الحكم: (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ) لأن الله عزيز قادر لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه يضع كلّ أمرٍ موضعه المناسب له . فائدة: (عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ) هؤلاء المشككون لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فهم يرون ظواهر الأمور المادّية دون أن تهديهم بصيرة العلم والإيمان إلى بواطنها وحقيقتها، ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في دين الله والتوكّل عليه سبحانه، ودون أن يشعروا بأن الله هو الذي يخطط وهو الذي يدير المعركة وينصر دينه والمؤمنين الصادقين. عن النبي (ص) : (الإِسْلَامُ يَسْبُكُ الرِّجَالَ كَمَا تَسْبُكُ النَّارُ حَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ) كنز العمال خبر ج ١ ص ٧٨، وعنه (ص): (الإِسْلَامُ دُلُؤُلٌ سَهْلٌ، سَمَحٌ) لَا يَرَكُبُ إِلَّا دُلُؤُلًا! كنز العمال خبر ٢٤٤

٥٠ - ﴿وَلَوْ تَرَى إِدْئِي مَنَى الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَمَّا لَكِ بُصْرٌ مِنْ جُوهِهِمْ وَأَدْبَارُهُمْ وَوَقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

الوفاة والتوفي أخذ الحق بتمامه وتستعمل لقبض الروح، ويبقى الجسد في الدنيا وهذا يدلُّ أنّ قيمة الإنسان وكرامته بروحه قبل جسده، والملائكة هم أعوان ملك الموت . المعنى: التعبير القرآني يرسم صورة منكرة للذين كفروا في مشهد مهين لحالة موتهم، لو رأيت أيها المخاطب حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين يبدأ عذابهم من لحظة الموت، عن النبي (ص) : (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خبر ٤٢١٢٣ وجواب (لو) محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً

فظيعاً وشأناً هائلاً لا يكاد يوصف يردع الكافر عن كفره (يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ) تضرهم الملائكة من أمامهم وخلفهم وعلى وجوههم وظهورهم للدلالة على أن العذاب في جميع جهات الجسم محيط بهم من كل ناحية وهم في ذلة وهوان (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق الشديد .

٥١ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾

ذلك العذاب الحريق بسبب ما كسبتم من الجرائم والاعتداءات وتجاوز الحدود والجزاء من جنس العمل (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ) (ظَالِمٌ) ليست للمبالغة وإنما هي للنسب، أي لا ينسب الظلم إلى الله فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى بصيغة المبالغة، وأن الله لا يظلم عباده ولا يرضى بين عباده الظلم، ومن ظلم كرهت أيامه وتنحص عيشه عن الإمام الباقر (ع): (الظُّلْمُ فِي الدُّنْيَا ظُلْمَاتٌ فِي الآخِرَةِ) البحار ٣١٢/٧٥ بل هم الذين يظلمون أنفسهم في المعاصي ويلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والله تعالى منزّه عن الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ النساء/٤٠، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَا عَبَّادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا) المراعي ١٠ص١٦

٥٢ - ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

كذّاب : كعادة وطريقة، إنّ الله سبحانه وتعالى لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ولا إلى جزاف لا ضابط له وإنما يكلمهم إلى سنة ثابتة لله يمضي بها قدره ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/٤٣ .

المعنى: بيّن سبحانه حال هؤلاء الكفار من قريش وشبههم بفرعون الطاغية وقومه وعملهم وطريقتهم التي دأبوا عليها واعتادوا (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) ومن تقدّمهم من الأمم المكذبة والمعاندة كقوم نوح وعاد وثمود سبقوهم في العصيان والتمرد على الله ورسوله، والأشياء المتماثلة تؤدي إلى النتائج المتماثلة (كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) جحدوا بالرسول والرسالات وجميع الآيات والدلائل على وجود الله (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) أهلكتهم بكفرهم وفسادهم فكانت عقوبتهم على قدر جنائتهم وكان جزاؤهم من نفس أعمالهم (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) إنّ الله لا يغلبه غالب ولا يفلت منه هارب عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ) (بمهله) حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) نور الثقلين ٢/٣٩٤ فهو سبحانه قوي شديد البطش ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ الروح/١٢، لمن يستحق الشدة ﴿وَيُجَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران/٣٠ . فائدة : ما أصاب المشركين يوم بدر من سوء العاقبة لم يكن أمراً استثنائياً مؤقتاً بل هي سنة إلهية دائمة أخذت آل فرعون والذين من قبلهم تجاوزوا الحدود واعتادوا الظلم فأخذهم الله بالعقوبة بسبب ذنوبهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران/٤ .

٥٣ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتَبَرًا تَغْمِرُ أَعْمَاءًا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(ذلك) العذاب الذي أوقعه الله بالأمة المكذبة وأزال عنهم ما هم فيه من أنواع النعم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم نحو الأسوأ، الآية دعوة عامة مفتوحة للناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم طائعتهم وعاصيهم في كل زمان ومكان. في هذه الآية يكشف القرآن عن سنة تاريخية حركية مستمرة عامة كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد/١١)، ذلك العذاب الذي أصابهم ليس بالصدفة وإنما بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحد أو على قوم ولا يسلبها ولا يبدها إلا بسبب يستحق ذلك وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة (حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) حَتَّى يُغَيِّرُوا هم أولاً مَا بِأَنْفُسِهِمْ تجاه الله المنعم وتجاه النعم، حتى يبدلوا نعمة الله كفوراً وعصيانياً فعاقبهم الله بعد إمهال (وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون. فائدة: ١- المراد بالنعمة على عمومها لأنها جاءت نكرة فتشمل النعم المادية كالمال والمعنوية كالشأن والجاه والمنصب والكرامة مثلاً: كان للعرب هيبة وسلطان حين جاهدوا واتحدوا وتعاونوا ولكن لما انحرفوا عن منهج الله وتحاذلوا وتنازعو وتكاسلوا سقوا كأس المذلة والهوان بأيدي الطغاة أراذل الخلق وتوافه الناس، لن تكون أمة فاسدة وقائدها صالح كما لا تكون أمة صالحة وقائدها فاسد، فالحاكم من جنس المحكوم عن النبي (ص) (كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ)! كثر العمال خبر ١٤٩٧٩ وهكذا لكل نتيجة أسباب ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فصلت/٤٦.

٢- فالنعمة أفيضت عليهم لما استعدوا لها في أنفسهم في حمايتها فإذا غيروا الشكر إلى الكفر والطاعة إلى المعصية والإصلاح إلى الإفساد والجهد إلى التناقل وقد تغير ما بأنفسهم من الاستعداد لاستحقاق النعمة، فإن الله يغيرها إلى نقمة ويغير القوة إلى ضعف، ويغير الرفاه إلى ضيق والأمان إلى خوف .. وهكذا . في نهج البلاغة كتاب ٥٣: (لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ)، ٣- هذه الحقيقة الكبيرة تكشف علاقة قدر الله بالإنسان وعلاقة الإنسان بهذا الكون وما يجري فيه من أنظمة لارتباط السنن الكونية بالسنن الإنسانية وبتبين كرامة هذا الإنسان الكبيرة في ميزان الله الدقيق. ٤- وقد يسلب الله النعمة على وجه المصلحة لا على وجه العقاب امتحاناً لمصلحة يعلمها الله ٥- سؤال: نلاحظ بعض الظالمين لم يكن تغيير في أنفسهم من خير إلى شر، فهم دائماً على شر فكيف نفهم الآية؟ الجواب: فهم يتغيرون من سيء إلى أسوأ، ويتحولون من خير إلى شر، ومن شر إلى خير، ومن سيء إلى حسن، والبلاء بالنعمة والرفاهية أشد من البلاء بالشدّة والحاجة، أي تحوّل إيجابي أو سلب في المجتمع ينبثق عن التحوّل الفكري والعقائدي لأفراده (مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)، عن الإمام الصادق (ع): (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ فَسَلَبَهَا إِيَّاهُ حَتَّى يُذْنِبَ ذَنْبًا يَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ السَّلْبَ) البحار ٧٣/٣٣٩.

٥٤ - ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَفْكَرْنَا لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاوُوا

تكررت الآية مع الأنفال/٥٢، (كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ) هذا القانون في تغيير نعم المجتمع المادية أو المعنوية متعلق بتغيير نفوس أفرادها إذا ازدادوا على نصف المجتمع ! وهذه الطريقة مثل طريقة آل فرعون والأمم الذين من قبلهم، غَيَّرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ نحو الأسوأ فغَيَّرْنَا عليهم النعم وحوَّلناها إلى نقم وأهلكناهم بسبب ذنوبهم لأنه اراد بالأول بيان حالهم في إستحقاق عذاب الآخرة وفي الثاني بيان إستحقاقهم لعذاب الدنيا، وكرر المفهوم لزيادة التوبيخ ولتأكيد حقيقة ولتثبيت سنة مستمرة، فإن شأن المكذبين السابقين كشأن وحال المكذبين الحاليين فغَيَّرُوا نفوسهم فغَيَّرَ حالهم فغَيَّرَ اللهُ نعمته عليهم (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) فتكون العقوبة على قدر الجناية (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) وكانوا عبرة للناس وأخسر الناس من كان عبرة للناس (وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ) فكلُّ من كَذَّبَ منهج الله كان ظالماً لنفسه لأنه يقودها للخسران وهو يحسب أنه يحسن صنعا! ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعام/١٢، عن النبي (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩. فائدة : حكي أنّ سليمان (ع) مرّ في موكبه بعباد من بني إسرائيل فقال لسليمان لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، فقال له سليمان (ع) : (لَتَسْبِيحَةٌ فِي صَحِيفَةٍ مُؤْمِنٍ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ فَكُلُّ مَا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ يَذْهَبُ وَالتَّسْبِيحَةُ تَبْقَى) روح البيان ٣/٣٦١.

٥٥ - ٥٦ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 إنّ شرّ ما يدبّ ويمشي على وجه الأرض على عموم معناه، من أكثر المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، ويلقي ظلاً خاصاً حين يطلق على الآدميين مع ظل البهيمة ثم يصبح هؤلاء الآدميون شرّاً من البهيمة التي تدبّ على الأرض، (الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يؤمنون أبداً ومن لا تنفعه الهداية تضرّه الضلالة ولا يتوقع منهم الهداية (الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ) ومن صفات الكافرين نقض العهود الذين عاهدتم يا مُجِدُّ على الآعينوا المشركين ومعاودة على المسالمة وحسن الجوار والعيش المشترك، وهم الذين أعطوه هذا العهد من تلقاء أنفسهم (ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) أن يستمروا على نقض عهودهم معكم مرة بعد مرة ويضمرون الغدر والحيانة (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) الله في نقض العهد ولا يتقونكم ولا يحترمون معاهدتكم معهم، ولا يخشون أن تقتلوهم وتظفروا بهم، يكشف ذلك عن الدرك الأسفل الذي وصلوا إليه فعطّلوا عقولهم ولوثوا فطرتهم فعادوا شر البهائم كقوله ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/٤٤، في غرر الحكم: (لَا تَتَّقَنَّ بِعَهْدِ مَنْ لَا دِينَ لَهُ).

فائدة: ١- سؤال : قوله (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بعد (الَّذِينَ كَفَرُوا) فكيف ينفي الإيمان عنهم وهم كفارون لا يؤمنون؟ الجواب : هناك كفارون ومعاقدون وكافرون ومعاقدون غير معاندين، الآية تعني هؤلاء المعاندين أنّهم شرّ الدواب لإصرارهم على الكفر كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴿البقرة/٦-٧ . ٢- جاء قوله (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) بعد قوله (ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ) وهما فعلا ماضيا مضارعان للدلالة على الاستمرار، في هذا إشارة إلى أنهم متحللون من كل قيد يمسك بهم على خلق كريم وليس لهم مبادئ وأخلاق فهم ساقطون في مستنقع الرذيلة فلا يرجى منهم خير، يربط القرآن قيمة الإنسان بالعقل والإيمان فإذا كفر فقد أخرج نفسه من دائرة العقل ومن حكم الإنسان، لأن الإنسان الحقيقي هو الذي يعقل ويفكر ويؤمن، إذن : فالكافر عند الله أخطأ المخلوقات حتى وإن كان له شأن بين الخلق . روي : (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ : مَنْ إِذَا أُتُّمِنَ حَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ). كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) الانفال/٥٨، نور الثقلين/٤/٩١.

٥٧ - ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾

إنه تعبير عجيب يرفع من مقدرة المؤمنين، يرسم صورة مجسمة للأخذ المرعب والهول المخيف الذي يكفي السمع به الهرب منه والشروع عنه ! فما بال من يحلّ به هذا العذاب الرهيب ! إنها الضربة المروعة الحاسمة يأخذ بها هؤلاء الذين تمرنوا على نقض العهد، وهكذا الإسلام سلم لمن سالمه وحرر شديدة لمن حاربه ! المعنى : (فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ) فإن تظفر بهم في الحرب أو تصادفهم في المعركة (فَشَرِّدْ بِهِمْ) فرقههم وأغلظ عليهم بالقتل والتشريد وخذهم بالشدة والقسوة والاحتقار والجفوة ونكل بهم تنكيلاً بطريقة يشرد ويُفَرِّقُ بهم من بعدهم ويطردهم ويمنعهم من نقض العهد. (مَنْ خَلَفَهُمْ) ليس المراد إضرب اليهود من الخلف بل المراد أن وراء اليهود قوماً مشركين وداعمين لهم ويشدون أزرهم فإذا ضربت اليهود ضربة قاسية موجعة اتعظ واعتبر الذين يتعاونون معهم وأخذهم الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرقون (لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ) لعلهم أي المشركين يتعظون بما شاهدوا ما لنقض العهد من عاقبة مشؤومة وخسارة في الدنيا والآخرة وإجعلهم عبرة لمن يعتبر حتى لا تبقى لهم قوة على محاربتك فيرتدعوا ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢ فائدة : ١- (تَثَقَّفْنَهُمْ) بمعنى تظفر بهم، والسر في تعبير (تَثَقَّفْنَهُمْ) بدلاً من تظفر بهم إشارة إلى أن الحرب ليست كلها انتقاماً واستتصلاً للمغلوب وإنما هي في صميمها إصلاح له وهداية . أما الذين يغدرون بالنبي يستقبلونه مسلمين ويفارقونه محاربين هؤلاء لا يُرجى لهم إصلاح ولا يتوقع منهم خير فيجب معاملتهم بالقوة القاهرة . ٢- إن هذا الدين الإسلامي لا بد له من هيبة وقوة وقدرة وسطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت المجرمين الذين يستعبدون الناس ويضلونهم عن سبيل الله، وبذلك يتم تحرير الإنسان من حكم الطواغيت كقوله ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أِيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ التوبة/١٢ .

٥٨ - ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وَإِن أَحْسَسْتَ وَعِلِمْتَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ خِيَانَةً لِلْعَهْدِ بِدَلَالِ

قطعية وأيقنت أنهم يتخذون من هذا العهد ستاراً يدبرون من ورائه الغدر والإغتيال (فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ : ألق إليهم عهدهم وألغيه، أي عاملهم بالمثل في رد العهد وإنبذه معهم وأعلن الإلغاء جهراً حتى يكون تصرفك معهم وتصرفهم معك بمنزلة سواء، وكلُّ خصم قد أخذ حذره، وبعد ذلك فالحرب خدعة، في نصح البلاغة حكم ٢٥٩: (الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْعَدْرِ عَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْعَدْرُ بِأَهْلِ الْعَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ) هذا من معجز بلاغة القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه، ليعلموا أعداءك انك نبذت (ألغيت) عهدهم كما نبذوا (ألغوا) عهدك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً، ويجب توجيه ضربة استباقية لهم من خلال إلغاء المعاهدة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ وَفَاءٌ وَلَا عَهْدٌ، فَلَا تَخْتَهُمْ بَأَن تَبْدَأَهُمْ بِالْقِتَالِ مِنْ غَيْرِ إِعْلَامِهِمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (لَا تَحْنُ مِنْ حَائِكَ فَتَكُونُ مِثْلَهُ) البحار ١٠٣/١٧٥.

فائدة: ١- لا يبيح الإسلام الغدر في سبيل الظفر وهو يجاهد لأشرف الغايات، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة، وإذا استحلّت النفس وسيلة خسيسة فلا تصل إلى غاية شريفة ولا يمكن أن تحافظ عليها، وليس مسلماً من يبرر الوسيلة الخسيسة بالغاية النبيلة، وهذا من الخيانة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)، عَنِ النَّبِيِّ (ص): (ثَلَاثَةٌ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِيهِنَّ سِوَاءٌ ١- مَنْ عَاهَدْتَهُ فَوَفَّ بِعَهْدِهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا فَإِنَّمَا الْعَهْدُ لِلَّهِ. ٢- وَمَنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَحِمٌ فَصَلِّهَا مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا. ٣- وَمَنْ إِتْمَنَكَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدَّهَا إِلَيْهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا) المراعي ١٠/٢٢، في غرر الحكم: (مَنْ أَحْسَنَ الْوَفَاءُ، اسْتَحَقَّ الْإِصْطِفَاءُ)

٥٩ - ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

سَبَقُوا : أفلتوا، (وَلَا يَحْسِبَنَّ) ولا يظن هؤلاء الكفار أنهم فاتونا وتخلصوا من قضائنا وقدرنا وأفلتوا من قدرتنا فلا نقدر عليهم (إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) إنهم تحت قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج/١٦، فلا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب، فله كمال القدرة وجمالها وجلالها كقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ العنكبوت/٤، والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم، وهذا تهديد إلهي للكافرين والمعجبين بقوتهم وجبروتهم، وهو تطمين لقلوب المسلمين ورفع لطوارق الخوف التي تطرقهم.

٦٠ - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) الخطاب للذين آمنوا في كلِّ زمانٍ ومكان، الإعداد : التهيئة للمستقبل، أي هبوا لقتال أعدائكم جميع ما استطعتم من أنواع القوة المادية والمعنوية، العلمية والعسكرية والتكنولوجية والأمنية والاقتصادية .. إلخ فإنَّ هذا الاستعداد فريضة تصاحب فريضة الجهاد، إذ لا شيء يمنع الحرب إلاَّ الاستعداد للحرب! وإعداد القوة اللازمة والممكنة ويسمى في العصر الحديث (السلام المسلح) وجاءت (قُوَّة) نكرة للدلالة على العموم وكلُّ ما يتقوى به على الأعداء وبأية وسيلة ممكنة فإن (قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عَلَى قَدَرِ تَجَرُّبَتِهِ وَمِقْدَارِ خِبْرَتِهِ)، فابذلوا كامل وسعكم بتوفير جميع أدوات القتال الممكنة واللازمة والمتقدمة التي تقابل قوى أعدائكم، (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) وخص سبحانه رباط الخيل بذكر القوة لأنها كانت آنذاك من أعظم مظاهر القوة، أمَّا اليوم فالطائرات والدبابات والغواصات وأنواع الأسلحة المتطورة، والمراد بهذا الرباط مرابطة الجيش في ثغور البلاد ومداخل حدودها تلك القوة الرادعة وكل ما يتم به حفظ الدولة الإسلامية والنصر على أعدائها وهيبتها في المنطقة بحيث يحسب أعداؤها لها ألف حساب (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) تُرْهِبُونَ: ترعبون وهو الخوف المقترن بالاضطراب، وتخيفون بتلك القوة الرهيبية أعداء الله وأعداءكم وترهبوهم ويجعل أعداءكم لا يعينون عدواً آخر عليكم ويجعلهم يفاوضون سياسياً قبل التفكير العسكري، وهذا يعني أن هذا الرباط العسكري للدولة الإسلامية على صورة محققة لإلقاء الرعب والفرع في نفس العدو، وهذا يعني أيضاً أن الإعداد للحرب هو لإرهاب العدو ولا تحدته نفسه بالحرب حين يرى القوة الرادعة، ومن هنا يتبين أن الإسلام دين سلام وسلم وسلامة وأمان ولا يبتدأ بالحرب وإنما يجيء إليها مكرها يدخل فيها مدافعاً لا مهاجماً.

(وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) لا يكون حساب المسلمين في إعداد القوة الرادعة مقصوراً على عدو ظاهر لهم بل يجب أن يعلموا هناك أعداء آخرين من دونهم لم يظهروا لكم الآن (لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)، وهم في التعبير المعاصر الخلايا النائمة الذين يتظاهرون بالإيمان من المنافقين، وآخرين من المجرمين المستترين الذين لم يظهروا بالاعتداء أو المعارضة ضدَّ المؤمنين بعد بسبب البعد المكاني أو الزماني أو لأيِّ سبب آخر لا تعلمونهم على حقيقتهم (اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) ما يحملون في نفوسهم من حقدٍ ولؤمٍ وظلم على كلِّ مؤمن ومصالح كقوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّى نَعْلَمَهُمُ﴾ التوبة/١٠١.

وهذا يعني أن يبذل المسلمون كثيراً لإعداد هذه القوة للعدو الظاهر والخفي ولكل المفاجآت والمخبات (فَلَا تَعْفَلْ فَلَيْسَ مَعْفُولٍ عَنْكَ). في غرر الحكم: (احذروا العفلة فإنها من فساد الحسن)

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) دعا القرآن إلى البذل والعطاء بسخاء كل حسب طاقته وقدرته في دعم الجهاد والمجاهدين والإنفاق في كل وجوه الخير (يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) تُعطون جزاءه وافياً كاملاً، ويرجع إليكم بالتمام والكمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً لأن نقصانه وضياعه ظلماً لكم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَيْكُ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ . فائدة: ١- (تُرْهَبُونَ) مفهوم الإرهاب في القرآن لإرهاب عدو الله وعدوكم، بينما الإرهاب الحديث اليوم، جاء بلا تعريف ولا تحديد فهم يتاجرون في استخدامه حسبما يريدون، وليس تحديداً للإرهاب ولا للقضاء عليه بل هم أسسوا الإرهاب ودافعوا عنه ! ٢- الجهاد في الإسلام يهدف إلى جعل كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى، وتحرير الإنسان من عبودية العبيد إلى عبودية الله تعالى كقوله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الأنفال/٣٩ . ٣- (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ) والشيء مفهوم واسع يشمل جميع الأشياء المادية والمعنوية كالمال والنفس والفكر والتربية ونقل الأخبار الأمنية المهمة، وإنفاق النصائح المهمة وكل ما ينفع وكل إنسان من موقعه وبقدره . ٤- يقول الملحدون : الإسلام انتشر بالسيف والقوة، الجواب : الإسلام دين السلام واسمه دلالة على مسماه، فهو لا يبدأ بقتال، والحرب عنده دفاعية لا هجومية، وهي وسيلة لإرهاب العدو وليس غاية بذاتها كقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾ الحج/٣٩، أما قوله ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ التوبة/١٢، وقوله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ البقرة/١٩٣، وغيرهما المقصود منها رفع العقبات أمام إلقاء الحججة الإلهية على الناس ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥، فإذا أُلقيت حججة الله بوضوح على الناس رُفِعَ القتال ولا مبرر للحرب كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ البقرة/٢٠٨ .

٦١ - ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْهَا) والتعبير عن الميل إلى السلم بالجnoch تعبير شفاف ولطيف ونظيف يلقي في ظلاله الرقة والرحمة والأخوة . المعنى : وإن مالوا إلى الصلح والمهادنة والمفاوضات فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوه إن كان فيه مصلحة وقائم على العدل، لأن القصد من القتال دفع المعتدين وتأديب المفسدين (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على تشخيص المصلحة (مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاءً) (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السميع لأقوالهم العليم بنياتهم . فائدة : ١- السلم مفهوم عام يشمل ترك الحرب بالهدنة ويشمل الصلح بين المتحاربين ويشمل دفع الجزية والدخول بالإسلام، إنَّ المنهج الحركي للدين الإسلامي يواجه الواقع دائماً بوسائل مكافئة وهو منهج حركي مرن ومتين وواضح، فالآية توضح هدف الجهاد في الإسلام هو العدل، فإذا تحقق العدل بالسلم فيجرح ويميل إليه وإذا تحقق العدل بالحرب فيميل إليه . ٢- كتب الإمام علي (ع)

إلى عامله مالك الأشتر قائلاً (لَا تَدْفَعَنَّ صَلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوَّكَ وَ اللَّهِ فِيهِ رِضًا فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَاً لِحُبُّوْكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ، وَلَكِنَّ الْحَدْرُ كُلَّ الْحَدْرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَعَقَّلَ) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

٦٢ - ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾

وإن أرادوا بالصلح خداعك وخيانتك والغدر بك وبالمؤمنين ليغيروا عليكم في ظروف أخرى مناسبة (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) فإن الله يكفيك دفع شرهم وهو معينك وأنت في أمان الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/٣، ثم ذكره بنعمه سبحانه عليه (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ) والدليل على كفايته تعالى إله هو الذي قواك وأعانك بنصره وشدّ أزرك وسخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات، ونصرك بالمؤمنين وأعانك ولم يعن عليك . فائدة : ١- وفي عطف (الْمُؤْمِنِينَ) على قوله (بِنَصْرِهِ) تكريم لهؤلاء المؤمنين الذين ألقوا بأنفسهم في ساحة القتال وهم على نيّة الاستشهاد في سبيل الله فكانوا جنداً من جنود الله معك ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ المدثر/٣١، وبفضل الله توحدت قلوب المؤمنين لدين الله فلا تستطيع القوة البشرية أن تحققه في أي مجتمع إنساني على تلك الصورة الواحدة الموحدة المتحددة .

٦٣ - ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) : جمع بين قلوبكم على المحبة والألفة، جمعاً حقيقياً ليس بالأشكال وإنما بالمضامين وبالنفوس وبالقلوب، جمع بين قلوبهم المتنافرة على ما كان بينهم في العداوة والبغضاء وأصلح نفوسهم بعد أن كانت شبه مستحيلة كتأليف بين الأوس والخزرج، فأبدلهم بالعداوة حباً وبالتباعد قرباً، وكان جمع القلوب الجاهلية مع العصبية من معجزات النبي (ص) لأن أحدهم كان يُطمع اللطمة فيقاتل عليها، فألف الله بين قلوبهم بالإيمان حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وعشيرته بسبب إعلاء كلمة الله (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من أموال وخيرات ما قدرت على تأليف قلوبهم المتنافرة واجتماعها على محبة بعضها بعضاً (وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ) ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق بين قلوبهم فإنه عز وجل مالك القلوب يقلبها كيف يشاء كقوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال/٢٤، وكقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الحجر/٤٧، (إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) إن الله عزيز لا يعجزه شيء وهو غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن مصلحة وحكمة.

فائدة: ١- من أهم الأسباب لتأليف القلوب وحدة الإيمان والعقيدة كقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠، وكقوله ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ بِالْإِيمَانِ وَرِزْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات/٧، كقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

آل عمران/١٠٣، عن النبي (ص) : (خير المؤمنين من تألفه للمؤمنين ولا حَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ) البحار ٧٥/٢٦٥ . ٢- هناك أسباب طبيعية تعمل على التكاره كالإساءة يتولد منها البغض والكرهية، والإحسان يوجب الإلفة والمحبة كقوله ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت/٣٤، في الحديث : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَخَاهُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ بَعْضُهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى) كنز العمال ج١ ص١٤٣ . ٣- الوحدة الإسلامية لا تقوم على أساس المصالح الوقتية والعوامل القومية أو العرقية أو الجغرافية .. إلخ وإنما تقوم على أساس وحدة العقيدة المؤثرة في الإنسانية . أسباب النزول : إن هذه الآية نزلت في حق علي بن أبي طالب (ع) .

٦٤ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

حَسْبُكَ اللَّهُ : كافيك الله، الله وحده كافيك وكافي المؤمنين من أتباعك، فجعلكم مكتفون بذاتكم وتكفون حاجات غيركم فلا تحتاجون مع الله إلى أحدٍ يزيدكم كفاية وإن قلَّ عددكم، فقد كان الصحابة الأجلاء يفتدون الرسول (ص) بالأرواح وكان الآباء يبارزون الأبناء من أجله، وكانت المرأة تفقد زوجها وأولادها وأباها فتحمد الله على نجاة رسول الله (ص) كقوله ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ الزمر/٣٨ .

٦٥ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

حَرِّضَ : بالغ في الحثِّ والتشجيع، يا أيها النبي حثَّ المؤمنين ورغبهم وشجّعهم بكل جهدك على قتال المشركين الفاسدين دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الحق وأخذ الحقوق وهذا من ضرورات سنة التنازع في الحياة والسيادة (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) إن يوجد منكم يا مؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم بعون الله وتأييده (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وإن يوجد منكم مائة صابرة محتسبة متوكلة على الله تغلب ألفاً من الكفار بقدره الله، بمعنى أن كل جماعة من المؤمنين يغلبوا على عشرة من أمثالهم (بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) لا يفقهون : لا يدركون العامل المعنوي في الحرب، وإن الله هو الذي يدير المعركة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧، (بَأَنَّهُمْ) الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون معنى الشهادة في سبيل الله ومنزلتها السامية، لا يفقهون حكمة الله ولا يفقهون أن النصر من عند الله وإنما إحدى الحسينيين النصر أو الشهادة، فهم يعتمدون على هوى أنفسهم وآمالهم الكاذبة ووسوسة الشيطان وهذا ما لا يدع النفس ثابتة أي يجعلها قلقة في ساحة المعركة.

فائدة: ١- في الآية دلالة: على أن شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم وأقدر وأقوى من الكافرين بكل ما يتعلق من نهضة المجتمع حضارياً بكل ما للنهضة من معنى واسع . ٢- النصر للمؤمنين الصادقين حتى لو ازداد عدد الكافرين عشرة أضعاف عنكم ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة/٢٤٩، وفي هذا بيان فضل الجهاد والترغيب عليه ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ الفرقان/٥٢، فلا بد من قوة الإيمان والصبر والتصابر والبصيرة .

٦٦- ﴿الآنَ حَفَّفَ اللَّهُ عَمَّكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الآن رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم، وفيكم من الضعف في صفاتكم الروحية والإيمانية (وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) أراد ضعف البصيرة والعزيمة والإيمان واليقين، ولم ير ضعف البدن فإن الذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلهم أقوى البدن بل كان فيهم القوي والضعيف ولكنهم كانوا أقوى البصيرة والإرادة والإيمان، ولما كثر المسلمون واختلط بهم من كان أضعف يقيناً وبصيرة وعزيمة نزلت الآية (الآنَ حَفَّفَ اللَّهُ عَمَّكُمْ ..) (فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) بتيسيره وتسهيله إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة بعون الله (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) وإن يوجد منكم ألف صابرون محتسبون يتغلبوا في ساحة المعركة على ألفين من الأعداء (بِإِذْنِ اللَّهِ) بقدرته الله وتيسيره يعني أن الظفر ليس بقوتكم وإنما بعون الله لكم (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) هذا ترغيب في المقاومة المستمرة والثبات على المبادئ وبشارة بالنصر والله معهم بالرعاية والنصرة ومن كان الله معه فمن عليه؟ فهو الغالب.

فائدة: ١- في الآية دلالة أن من سنن الله في الانتصار أن تكون الغلبة للذين هم أكثر صبراً وإيماناً وعزيمة وهكذا (النَّصْرُ صَبْرٌ سَاعَةً) في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يعجزوا بأنفسهم وبدينهم، وعليهم أن يأخذوا بأسباب النصر والقدرة على مواصلة الصبر والعلم بحقائق الأمور ومعرفة سنن الله في خلقه ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦.

٢- قياس الإقدام على الحرب ضمن خطة مدروسة من غرفة العمليات الحربية، على أن لا تكون عملية إنتحارية غير متكافئة، أما قواعد الحرب في عصرنا الحاضر وما فيها من أسلحة متطورة لها حسابات اختصاصية وفنون قتالية أخرى، والآية تبحث في الحرب البرية وفي عالم المبارزة. ٣- (وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) ويقال المقصود ضعف البدن، أما تقييد العلم بالضعف قد يتوهم الفكر انتفاء العلم بالضعف قبل وقوعه، والجواب : والعلم الإلهي في علم الأزل أن في الواحد منكم ضعفاً عن قتال العشرة، والعشرة عن قتال المائة، والمائة عن قتال الألف، فكان علم الله بالضعف قبل الوقوع فبأنه سيقع، وحال الوقوع بأنه يقع وبعد الوقوع بأنه وقع . ٤- عن ابن عباس : قال لما

نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ) شق ذلك على المسلمين فجاء التخفيف (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) قال : فلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ من العدد نقص من الصبر بقدر ما خَفَّفَ عنهم ! ٥- وفي ذلك إشارة : إلى أنّ من سنن الله في الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم، وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يَغْتَرَّوْا بأنفسهم وبيديهم ويظنّوا أنّ الإيمان وحده يقتضي النَّصر ولا بدّ أن يقترن بإعداد القوة اللازمة لكماله . ٦- والآيتان محكمتان لا نسخ فيهما يعني ٦٥-٦٦ .

٦٧ - ﴿مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يُنْخِنُ: يقوى ويشتد ويتقل ويغلظ كناية عن الاستقرار والهيبة والقدرة، نزلت الآية في أسرى المشركين يوم بدر وكانوا سبعين ولم يؤسر أحدٌ من الصحابة . المعنى : ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المنّ والفداء كقوله ﴿فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ٤/٤، أي إمّا أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل وإما يطلق مقابل فدية من مال أو عمل، وهذا لا يحصل إلّا بعد أن (يُنْخِنَ فِي الْأَرْضِ) للدلالة على مبالغة الشدة أي إلّا بعد أن يعظم شأنه بين النَّاسِ ويتم له النصر والقوة بقتل أعدائه وأضعاف البقية الباقية منهم ليعتبر بهم من ورائهم فيكفّوا عن محاربة الرسول ورسالته وحتى يستقر دينه بين الناس وبعبارة أخرى : لا أسرى من الكفار حتى تتم للدين الإسلامي قوته وهيئته وقدرته القاهرة التي يذل بها أهل الكفر والطغيان، وهو عتاب موجّه لمن أسر مشركاً بقصد الغنيمة وأخذ الفدية، وكأمّا عنده أخذ الفدية المالية أهم من نصرة الإسلام ! وهذا تنبيه للمسلمين إلى التركيز على الأهم دون المهم لأنه (مَنْ إِشْتَعَلَ بِالْمُهْمِ ضَيْعَ الْأَهْمِ) فإن الانشغال بأخذ الأسرى مهم ولكن الأهم اندحار العدو والسيطرة عليه والأمن من شرّه.

(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) عَرَضَ الدُّنْيَا : حطام الدُّنْيَا الفاني السّريع، كانت العادة تدفع عن كلّ أسير مبلغ من المال وهو فداء عنه، ليتم الإفراج عنه تقول الآية : تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفدية وهو حطام الدنيا ومتاعها القليل الزائل، والله يريد لكم الأهم بإعزاز دينه وإعلاء كلمته، وقتل أعدائه الذين جاؤوا لقتلكم، وفيه الخير الكثير والنعم الدائمة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) عزيز في ملكه لا يقهره شيء ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١، (حكيم) في تدبير مصالح العباد فائدة : في العصر الحديث نموذج البلاد التي تقاوم الأعداء بالقوة الممكنة، كما حصل بين حزب الله اللبناني المقاوم وإسرائيل سنة ٢٠٠٦، حاولت إسرائيل (الغدة السرطانية في بلاد المسلمين) أن تنكّل بمنطقة حزب الله فخرّبت بلادهم ودمّرت بناياتهم بنيران وقذائف الدبّابات والطائرات وضربتهم بالصواريخ الحارقة الحارقة فلم يبق شيء، وتسمّى بالأرض المحروقة المهذّمة والمفخّخة بالألغام والمتفجرات !

٦٨ - ﴿لَوْ كُنَّا مِنَ اللَّهِ لَسَبْنَاكُمْ لَمَّا خَلَّيْتُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولولا حكم وقضاء في الأزل من الله سابق أن ينصر دينه وبنيه بالفئة القليلة المؤمنة التي جاءت معه بدر وأن ينكل بالكثرة في صفوف الكافرين قتلاً وأسراً ونهباً بأيدي المؤمنين، ولولا قضاؤه الذي سبق لعذب المؤمنين الذين أسروا أعداء الله طمعاً بالفدية المالية وفيها شيء من حب الدنيا أي انشغلوا بالغنائم والأسرى قبل دحر العدو بشكل تام، لأنه تعالى يريد أن يكون العمل الرسالي والجهاد خالصاً لوجه الله الكريم، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ الزمر/٣، في نهج البلاغة خطبة ١٩٥: في صفة الله سبحانه (لَا يَشْعَلُهُ غَضَبٌ عَن رَحْمَةٍ، وَلَا تُوهِنُهُ رَحْمَةٌ عَن عِقَابٍ!) (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى والغنيمة عذاب عظيم، ولكن أخذتموها قبل نزول الآيات المحللة لها

٦٩ - ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فكلوا أيها المجاهدون مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم (طَيِّبًا) من المكاسب الطيبة لأنه ثمرة جهادكم فإن الغنائم لم تحل لأحد قبلكم وهذه إباحة خاصة لكم من الله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ) خافوا الله وتورعوا عن محارمه ولا تحالفوا أمره ونهيه وتمسكوا بطاعته، ولا تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس كفاراً كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم، ولا تجعلوا هدفكم في المعركة هو الغنائم وأموال الفداء (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) مبالغة المغفرة لمن تاب وأناب رحيم بعباده

٧٠ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لهؤلاء الذين وقعوا في قبضة الأسر من الأعداء والمراد بهم أسرى بدر بعد أن أخذ النبي (ص) الفدية من الأسرى أمره أن يقول لهم: (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً وصدقاً في دعوى الإيمان أي هناك دلائل تدل على صدقكم واستقامتكم (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ) يعطكم عطاءً مادياً ومعنوياً أفضل مما أخذ منكم من الفداء (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) ويمحو عنكم من ذنوبكم الماضية (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) واسع المغفرة عظيم الرحمة لمن تاب. فائدة: ١- (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ) الغنائم في هذه الآية بحسب الروايات هي نفسها مبلغ الفدية لتحرير كل أسير والذي كان يتراوح بين ٣ الآف و ٤ الآف درهم عن الأسير الغني، وألف درهم عن الأسير الفقير، وقد ترك المسلمون أموالاً كثيرة في مكة عند هجرتهم فأخذتها قريش غنائم، وكان للمسلمين الحق أن يعوضوا عن خسائرهم في يوم بدر بالفداء. ٢- (حكم الأسرى) الإسلام يستبقي الأسرى لديه ليوظ في نفوسهم أجهزة الإستقبال لتستجيب للهداية والاستقامة وتذوق حلاوة الإيمان.

٧١ - ﴿وَأَن يَرِيدُوا خِيَابَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وإن كان هؤلاء الأسرى الذين أطلق سراحهم يريدون خيانتك يا محمد بنقض ما عاهدوك عليه من عدم العود إلى حربك فليس بمستبعدٍ منهم ذلك بما أظهروا من إدعاء الإيمان وأخفوا العناد والفساد (فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) فقد خانوا الله تعالى قبل غزوة بدر بالكفر وبخروجهم لقتالك في بدرٍ مع المشركين (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) فقوّك ونصرك عليهم وجعلك تتمكن من رقبهم، فإن عادوا إلى الخيانة فيعود الله أن يمكنك منهم أيضاً ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ المائدة/٩٥، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) عالم بجميع ما يجري ويفعل ما تقتضيه حكمته البالغة، في غرر الحكم: (إِذَا ظَهَرَتْ الْحَيَاتُ إِرْتَفَعَتِ الْبَرَكَاتُ)، عن النبي (ص) : (تَنَاصَحُوا فِي الْعِلْمِ ؛ فَإِنَّ خِيَانَةَ أَحَدِكُمْ فِي عِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ خِيَانَتِهِ فِي مَالِهِ وَإِنَّ اللَّهَ مَسْأَلِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) البحار ٢/٦٨.

٧٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِذْ اسْتَبْرَأْتُمْ فِي الدِّينِ فَلْيُكْفِرُوا بِالْإِيمَانِ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

إن الذين صدّقوا الله ورسوله وآمنوا برسالته وتركوا الأوطان وهجروا الديار وبذلوا الجهد بقدر الاستطاعة حباً في الله ورسوله، ويشير سبحانه إلى المهاجرين الأولين وقد ذكرهم الله في العديد من آياته بأكرم الصفات ورفعهم إلى أعلى الدرجات (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس، وقدم الأموال على الأنفس، لأنّ الأنفس أهمُّ من الأموال وبنفقة الأموال المهمة يتمُّ حماية النفوس الأهم (في سَبِيلِ اللَّهِ) بمعنى في السبل التي يرضاها الله وأهمها إعزاز دين الله وخدمة الناس وهدايتهم وهم المهاجرون (وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا) آواه : أسكنه منزله والذين آووا وأنزلوا وأسكنوا المهاجرين في منازلهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار الذين آثروهم على أنفسهم وأولادهم وسالموا من سالمهم وعادوا من عاداهم ولهذا شرفهم الله أفضل تشريف (أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) أولئك المؤمنون حقاً بعضهم أنصار بعض وأعاونهم أي يكفل بعضهم بعضاً وتأسيس نظام التكافل بين المسلمين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠، يشير أن يد المهاجرين والأنصار واحدة على أعدائهم وهم أعداء الإسلام وتحديد العدو المشترك أول وسائل الوحدة والقوة، وأمرهم واحد يتولى كل واحد من شؤون صاحبه ما يتولاه من نفسه نصرةً ودفاعاً، عن النبي (ص) (الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَيَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَذْنَاهُمْ) كنز العمال خير ٤٠٢، وهنا جاءت الولاية بينهم أعم من ولاية الميراث والنصرة والأمن، لأنّه كان يرث بعضهم بعضاً بالهجرة، فكانوا مسؤولين بعضهم عن بعض ويتعهد كل بصاحبه، ولهذا آخى النبي (ص) بين المهاجرين والأنصار فيصبح الجميع عائلة واحدة متضامنة متعاونة متكافلة، والأخ كثير بأخيه في غرر الحكم: (بِالتَّوَّاحِي فِي اللَّهِ تُثْمِرُ الْأَخُوَّةُ) (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَ يُهَاجَرُوا) والذين آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة (مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا) لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية ولا نصرة حتى يهاجروا من بلد الكفر

(وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) وإن طلبوا منكم النصر لأجل إعزاز دين الله فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم أخوانكم بمعنى: أن من يعتدي عليهم لأجل دينهم وعقيدتهم ويجاول أن يردهم عن دينهم، وجب على كلِّ مسلم وجوب كفاية أي إذا قام به البعض وكفى سقط عن الآخرين، أن يبذل كل طاقته للدفاع عنهم وعن دينهم (إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) إن المسلمين الذين لم يهاجروا من ديار الشرك إذا طلبوا منكم أن تنصروهم بالقتال على قوم كافرين بينكم وبينهم عهد موثق على التعايش المشترك فلا تستجيبوا لطلبهم، لأن الإسلام يحرم نقض العهد والميثاق والغدر والخيانة حتى بالكافر إلا إذا هو أخلف ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٤، (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) رقيب على أعمالكم يرى مقدماتها ونتائجها ودوافعها وآثارها وأنتم مسؤولون عن أعمالكم فاحذروا قربه ولا تخالفوا أمره. فائدة: ١- تركز هذه الآية على الجهاد والهجرة من أجل حفظ رابطة العقيدة أهم رابطة إجتماعية قوية بين الناس، لذلك عبّر القرآن عن الدين الإسلامي بالقيم من القيمة العليا والقيمومة الكبرى في حياة الإنسان ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ الروم/٣٠، لأنّ بدين الله الهداية فهو دين الحياة وبغيره الغواية والضلال، عن الإمام الصادق (ع) : (إِذَا عُصِيَ اللَّهُ فِي أَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا فَأُخْرِجْ إِلَى غَيْرِهَا) تفسير النور/٣/٣٤٤، إذا لم تستطع أن تغير، وشُرُّ الأوطان ما تمان بها كرامة الإنسان، عن الإمام علي الهادي (ع) (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنْ شَرَّهُ). ٢- والولي بمعنى القرب والدنو فكأنه قيل بعضهم أولياء بعض وأصدقاء وأعوان وأنصار فهم في جبهة واحدة وكيان واحد على من سواهم يجمعهم هذا النسب الشريف الذي انتسبوا إليه وهو الإسلام الذي يعلو على كلِّ نسب ولا يُعلى عليه .

٧٣ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

تشير الآية إلى الفكر الحركي والمنهج التنظيمي والتضامني بين المؤمنين في القرآن الكريم . المعنى : هم في الكفر ملة واحدة، فهم أحباب فيما بينهم يناصر بعضهم بعضاً على الباطل ويتعاونون على الإثم والعدوان، وإثم حزب الشيطان فلا يتولاهم إلا من كان منهم، ويتفقون يداً واحدة ضد المسلمين على ما بينهم من عداة وتناقضات لأن المصلحة المشتركة توحد صفوفهم للدفاع عن الامتيازات، وأيضاً المسلمون أمة واحدة متكافلة متعاونة يجمعها ولاء واحد لله ﴿اللَّهُ وَئِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ البقرة/٢٥٧، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة/٧١، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَئِي الْمُتَّقِينَ﴾ الحائثية/١٩، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ المنتحنة/١، المجتمع الكافر متضامن من أجل الحفاظ على وجوده ومقاتلة المؤمنين بشكل متضامن، وهذا يستدعي من المؤمنين التضامن والتلاحم والتكافل والتوحد في ما بينهم لمواجهته.

بمعنى: فكما يحاربوننا بالحروب المتنوعة بطريقة منظمة، فعلينا أن نواجههم بطريقة منظمة أيضاً وإلا سوف يواجهنا الخطر (إِلَّا تَفْعَلُوهُ) (إِلَّا) مركبة من إن الشرطية ولا النافية والهاء في (تَفْعَلُوهُ) تعود

إلى التواصل بين المسلمين وتعاضدهم، أي وإن لم تفعلوا ما أمركم الله به من ولاية المؤمنين بعضهم لبعض وقطع ولاية الكافرين (تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا) إنه تحذير خطير وإنذار مرير أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين، بمعنى : إذا تخاذلت أيها المسلمون أو اتخذتم العدو الكافر ولياً وناصرًا وعوناً تؤيدونه أو تطلبون النصر منه أو تقربونه إليكم وتتقربون إليه، فإن لم تقطعوا إرتباطكم بالعدو، ولم تحكموا علاقات الأخوة والتعاون فيما بينكم، تكن مصيبة كبيرة في الأرض بضلالاتكم وكفركم وضعفكم وتسلط الكفار الحاقدين المفسدين عليكم، ويكن فساد كبير وخطير بإختراق الكفار المجتمع الإسلامي ونشر ثقافتهم الفاسدة التي تنزل أسس الإيمان وقواعد الأخوة الإيمانية، فإذا حصل ذلك فقد أعنتم على إهانة أنفسكم وضعف دينكم وجعلتم كلمة الكفر والضلال هي العليا كما هو شأن العرب والمسلمين في عصرنا الحاضر، ولولا تخاذلهم لم يستطع الغرب أن يتقدم حضارياً ويكون في هذه القدرة والقوة، فهم وحدهم الذين أعطوه العصا السحرية أي النفط والطاقة والخبراء والعلماء ورؤوس الأموال، ويحصل أيضاً إن لم توالوا المؤمنين وتعارضوا الكافرين وإلا وقعت فتن كبيرة في الناس وهو التباس الأمر وإشاعة الشبهات واختلاط المؤمنين بالكافرين المشبهين الذين يعتمدون أنواع الإرهاب، فيقع بين الناس فساد كثير سريع الانتشار كقوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة/٢٥١، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ الحج/٤٠ .

٧٤ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

أعاد الله هذه الآية المذكورة (الأنفال/٧٢) فمدح المهاجرين والأنصار أصحاب السبق إلى الإسلام في أصعب الظروف، ليكونوا قدوة لغيرهم، وخير الناس من كان قدوة للناس (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) الكاملون في الإيمان المتحققون في مراتب الإحسان، فهم المؤمنون الصادقون مع ربهم ومع الناس وهم التزموا بأمر الله وبولاية المؤمنين والبراءة من أعدائهم، فهذا الدين إن هو إلا تشكيل أمة مؤمنة وجماعة متضامنة مترابطة متواصية تمثل تجمعا حركياً ورسالياً واعياً متضامناً يعمل على إقامة حكم الله في أرضه وتهتدي الناس بهدى الله ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ البقرة/١٢٠، (هُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وجاء نكرة يراد بهما العموم والتنوع، وعدهم بالمغفرة وطيب الرزق من كل شيء في الدنيا والآخرة وهناء العيش والتقدم المادي والمعنوي الكريم وبدون التضامن المشترك تفقد الأمة خصائصها وهيتها وقدرتها وتفقد دورها السياسي والحضاري المفروض، عن النبي (ص): (الْهَجْرَةُ هِجْرَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجَرَ السَّيِّئَاتِ وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجَرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) كنز العمال ٤٦٢٦٢ لحفظ دينك وتحمي كرامتك. فائدة: ١- ليس في هذين الآيتين تكرار، فالآية السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذه الآية تضمنت الثناء والتشريف لهم وعاقبتهم الحسنى و (هُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ٢- (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) الذين صدقوا بإيمانهم بتطابق أقوالهم وأفعالهم في سرهم وعلانياتهم، لا الذين يكرزون التسبيح والتحميد بعدد حبات المسابح وهم

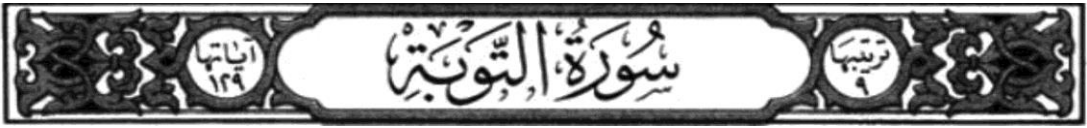
يحسبون أنهم مؤمنون حقاً ! لاحظ الرسول (ص) رجلاً في المسجد يعبد من الفجر حتى العشاء فسأله (ص) مَنْ يَسْعَى عَلَيْكَ وَيَبْرُكُ؟ قال أخي، قال (ص) له : إِذْهَبْ وَاعْمَلْ، أَخُوكَ أَعْبُدُ مِنْكَ !

٧٥ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هذا قسم رابع، وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والولاية المشتركة بينهم، والأقسام الثلاثة المهاجرون والأنصار والذين لم يهاجروا الذين سبق ذكرهم (فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) كل من عمل أعمال الصالحين السابقين ويقصد به وجه الله ورضاه فهو مثلهم ومنهم واليه من حيث الحسنات والمنازل وإن تأخر إيمانهم وهجرتهم لأسباب معقولة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الحشر/١٠، والله يضاعف الثواب والخير لمن عمل مضاعفاً في نصرة دين الله وتقدم الإنسانية (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) وأولوا الأرحام بعضهم أحق ببعض بالميراث وغيره من الأجناب في حكم الله، بمعنى : أصحاب القرابات يكون الأقرب إلى الإرث هو الأقرب في النسب، ومن كان أقرب إلى الميت نسباً فهو أولى بميراثه من الأبعد سواء أكان الأبعد ذا سهم بنص القرآن أم لم يكن، وسواء أكان عصبه أم غير عصبه، فبنت الميت تحجب أخاه عن الإرث لأنها أقرب منه إلى المورث، وأخته تحجب عمه لنفس السبب، وقوله (فِي كِتَابِ اللَّهِ) معناه في حكم الله، وليس المعنى أن أصحاب الفروض المنصوص عليهم في كتاب الله يرثون بالفرض المنصوص فقط، ولا يرثون بالرحم والقرابة على وجه العموم كما قيل، والأرحام مشتقة من رحم المرأة وهو موضع الولد، وسمى به الأقارب لأنهم من رحم واحد كقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ النساء/١، فهناك تقوى الله وهناك تقوى الأرحام وقرنت تقوى الأرحام بتقوى الله لأهميتها، عن النبي (ص) : (إِنِّدَا بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنَّ فَضْلَ شَيْءٍ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ) المراغي ٤٥/١٠، (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أحاط بكل شيء ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ غافر/٧ . روي : (أخى رسول الله بين أصحابه وأصبحوا أولياء في النصرة وفي الميراث أيضاً، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب) أي تم استبدال التوارث بالمؤاخاة وعاد التوارث بالرحم والقرابة. فائدة: ١- تكلمت الآية السابقة عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامة (بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) أما هذه الآية فتؤكد الإرث في الأرحام والأقارب (والأقربون أولى بالمعروف) يقدّم الأقرب فالأقرب. ٢- (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) لعل ذلك باعتبارهم امتداداً طبيعياً لذويهم ليكون الدافع الذاتي للتملك مستمراً حتى آخر لحظة من حياة الإنسان المؤمن، مما يؤدي إلى إعمار الأرض والإنسان بشكل متواصل . جاء في الحديث : (إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَيَبْدَكَ شَتْلَةٌ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَزْرَعَهَا فَاِزْرَعَهَا)

وفي الختام نقول : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأنعام/١٥٥،
 وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠.
 تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة الأنفال، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل،
 فلله الحمد والمِنَّة، وبالحمد تتمُّ الصَّالِحَات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ١٥/ذي
 القعدة/١٤٣٦ هـ الموافق ٢/١١/٢٠١٤ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-
 الكاظمية، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السُور القرآنية الكريمة، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ
 مجيب الدُّعاء .

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادي



من مقاصد السورة :

كلها مدنية وقال بعضهم غير آيتين (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..) إلى آخر السورة ، تعنى
 بالتشريع ، فنزلت السورة في السنة التي خرج فيها رسول الله (ص) لغزو الروم في (غزوة تبوك) في
 السنة التاسعة من الهجرة ، وكانت في حرٍّ شديد وسفرٍ بعيد ، فكانت ابتلاءً لإيمان المؤمنين
 وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، وهذه السورة هدفان أساسيان مع جانب الأحكام الأخرى : ١-
 بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين وأهل الكتاب، ٢- إظهار ما كانت عليه النفوس
 حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم ، حدّرت السورة كثيراً من (الطابور الخامس) المندس في
 صفوف المسلمين وهم (المنافقون) الذين هم أشدُّ خطراً من المشركين ، حتّى وصل بهم التآمر
 على المسلمين وتفتيت وحدتهم في بناء (مسجد ضرار) فأمر الرسول (ص) في هدمه وحرقه ،
 لأنّه كلمة حق يراد به باطل! الجزء العاشر، عدد آياتها ١٢٩ ، وهي من أواخر السور التي نزلت
 وهي سورة مستقلة وليست تتمة لسورة الأنفال. ونزلت السورة بدون بسملة لنعلم أنّ البسملة
 جزء من كلّ سورة وليست إضافة تشريفية تستهلّ كلّ سورة.

فضلها: عن النبي (ص) : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةَ أَنَا شَفِيعٌ لَه) مجمع البيان ٥ص٤٤، و(مَنْ قَرَأَ
 سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةَ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يَدْخُلْهُ نِقَاقٌ أَبَدًا) الامثل ٥/٤٧١. لها عشرة أسماء أشهرها :
 التوبة وبراءة والفاضحة ، وسميت التوبة لكثرة ما فيها من لفظة التوبة، وسميت براءة لأنها افتتحت
 بكلمة (براءة) وسميت الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ولها أسماء أخرى منها : المثيرة والمخزية
 والحافزة والمُنكِّلة والمدممة وسورة العذاب والمبعثرة لأنها تبعثر أسرار المنافقين وتكشفها...
 وغيرها ، عن الإمام علي (ع) : (إِنَّهُ لَمْ تَنْزَلْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) عَلَى رَأْسِ سُورَةِ بَرَاءَةَ لِأَنَّ

بِسْمِ اللَّهِ لِلْأَمَانِ وَالرَّحْمَةِ وَنَزَلَتْ بَرَاءَةً لِرَفْعِ الْأَمَانِ) تفسيرالنور ٣/٣٥١ نزلت لتعلن السخط والغضب الإلهي ضدَّ المشركين الذين لا عهد لهم ولا أمان وصاروا خطراً على الإسلام والمسلمين. وهذا لا ينسجم مع البسملة. ويعلن القرآن البراءة من الشرك ويرفض التعايش مع المشركين الناكثين أمّا الآخرون يلتزمون بالعهد ، ويكون التعامل معهم مختلفاً إلى انتهاء مدّة العهد ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التوبة/٤.

١ - ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فتح النبي (ص) مكة في العام الثامن الهجري ، وفي العام التاسع نزلت هذه السورة تعلن البراءة بوضوح من المشركين، وهذا الإعلان دليل القوة والقدرة. البراءة : التبرؤ والقطيعة والمجافاة وقطع الصلّة مع العهود والتخلّص منها مع الناكثين لها. هذه براءة من المشركين ومن عهودهم صادرة من الله ورسوله، إنّما يبرأ الله من المشركين لأنهم برؤوا منه وصدّوا رسالته ومعنى براءته سبحانه منهم طردهم من رحمته، وتركهم للأهواء والضلالات المتسلطة عليهم ، أما براءة رسول الله منهم قطع العلاقة معهم وترك العهود والمواثيق معهم ورفع الأمان عنهم لأنهم كانوا حرباً على الله ورسوله ورسالته وعلى المؤمنين فهم لا أمن فيهم ولا أمان منهم ، فهم لا يعرفون إلّا جهل الجاهلية ونقض العهود والخيانة. عندما أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله (ص) فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ، فبعث النبي (ص) أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ، ثمّ أخذها منه بأمر الله وقال (لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِثِّي) ذخائر العقبى ص٦٩ وأعطاهما علي بن أبي طالب (ع) ليعلم الناس البراءة فقام الإمام علي (ع) فنادى في الناس بأربع : ١- ألا يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك ، ٢- وألا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ، ٣- ومن لم تكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر ، ٤- ومن كان بينه وبين رسول الله عهداً فأجله إلى مدّته ، والله بريء من المشركين ورسوله ، فأمره الله تعالى بنقض عهودهم التي لا يفون معها كقوله ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ الأنفال/٥٨ ، فانْبِذْ إِلَيْهِمْ : إلق إليهم عهودهم وألغى. فائدة : نزلت هذه السورة في وقت عظم فيه أمر الإسلام ، وبقي جيوب للشرك وحتى لا تكون موضع قلق للمسلمين في بث الفتن ، أمر الله نبيه أن يعلن البراءة من المشركين وأن ينذر بالحرب على كلّ مشرك يقيم في الجزيرة العربية حتى يدخل في الإسلام.

٢ - ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

(فَسِيحُوا) أي فسيروا آمنين أيها المشركون حيث شئتم سائحين متجولين في الأرض والسياحة هي الجولة الهادئة ، بعد إمهال أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه وفكروا في أنفسكم وحددوا موقفكم من الإسلام فإن تبتم عن الشرك خلالها دخلتم مع المسلمين ، فإن أسلموا بعدها فقد

أسلموا وإلا فجزأؤهم القتل ، وهذا حكم لا يُقاس عليه لأنه استثنائي خاص لسبب خاص في ظروف خاصة ، والحكم خاص لا يعمم (وَاعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ) وإعلموا أيها المشركون إن أعرضتم عن الإسلام (إِنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ) أي أنكم لا تفوتون من حكمه سبحانه ولا تفلتون من سيطرته ولا تخرجون عن قدرته وإن أمهلكم هذه المدة (وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ) مذلمهم في الدنيا بالأسر والقتل والضياع وفي الآخرة بالعذاب الشديد ، فلا تهلكوا أنفسكم بالاستكبار والتعرض للانتقام الله وسخطه كقوله ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخُرْبِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر/٢٥-٢٦ . فائدة : قوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة/٢٥٦ ، فلماذا يكره المشركين على الإسلام ؟ الجواب : أصبح المشركون مصدر خطر على الإسلام والمسلمين فلا أمان لعهدهم وقد غدروا وخانوا ولا تعايش بأمان معهم ، فلا بدّ من حسم التعامل معهم فلم ينفع الترغيب معهم فسوف ينفع التهيب !

٣ - ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَذَانٌ﴾ وَأَذَانٌ أي إبلاغ وإعلام إلى كافة الناس في نداء عام يوجه إليهم ، في وقتٍ يسهل فيه ذلك

التبليغ والإعلام في يوم الحج الأكبر بتبرئ الله تعالى ورسوله من المشركين (يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) أنه يوم العاشر من ذي الحجة وهو أفضل مناسك الحج وفيه تنتهي فرائض الحج يوم عيد الأضحى يوم النحر أو إتمام جميع أيام الحج ، والسبب بتسميته الحج الأكبر لأنه اجتمع في ذلك العام جميع الطوائف من المسلمين والمشركين بمنى ، ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، ولأن يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج وتجتمع فيه الحجاج لإتمام مناسكهم ، ووُصفَ الحج بالأكبر تعظيماً له ولأهدافه السامية التي تجتمع الناس من كل فج عميق لأداء مناسك مشتركة وهيئة واحدة في ملابس الإحرام البيضاء فلا يُعرف غني من فقير ولا قائد من مقود ولا عربي ولا أعجمي.. الكل متساون وكأنا هم في يوم المحشر وتذكير بيوم القيامة يوم النشور وتمهيد له والتعرّف على أجوائه ومناسك الحج من شعائر الله ﴿وَمَنْ يُعْظَمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج/٣٢ .

ووصف يوم الحج بالأكبر لأن الله يعلن براءته من المشركين وعهودهم ورسوله ثم تجيء براءة المؤمنين منهم بعد ذلك (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) فالمراد بالمشركين المعاهدون الناكثون ورفض التعايش معهم (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فإن تبتم عن الكفر ومن الشرك في هذه المدة أربعة أشهر ورجعتم إلى الإسلام (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) حيث يكون لكم ما للمسلمين

وعليكم ما عليهم وهو خير من التماذي في الضلال كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الشورى/٢٥ ، (وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ) وإن أعرضتم عن الإسلام وبقيتم على الشرك فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ولا تعجزونه هرباً ولن تفلتوا من حكمه وسننه ووعده لرسله بالنصر كقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/٢١ ، وإلى أين يفلتون ويهربون فيعجزون الله عن طلبهم وهم في قبضته سبحانه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١ ، (وَيَشِرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ) بشر الكافرين بعذاب موجه يحل بهم ، وجعل الإنذار فيما يسوء ويكره بشارة على سبيل الاستهزاء بهم وفي هذا وعيد عظيم لهم. فائدة : ١ - الآية الأولى كانت إعلان براءة خاصة إلى المشركين أنفسهم ، وفي هذه الآية إعلان براءة شاملة من المشركين إلى عامة الناس ٢ - لا بد للداعية الإسلامي أن يعرف في دعوته أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب والظروف المناسبة والحديث المناسب مع المجتمع المناسب في سماع الدعوة المناسبة (يوم الحج الأكبر).

٤ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَكَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ وَعَاهَدُوا إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

استثناء منقطع ، استثنى سبحانه هؤلاء وأمهلهم إلى مدتهم جزاء على وفائهم بالعهود ، ولا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر ، إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتوا إليهم عهدهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر (ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا) لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً (وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا) ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم (فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ) وقوا العهد كاملاً إلى إنقضاء مدته جزاء على وفائهم إن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٤ ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) حفظ واحترام المواثيق والعهود والعقود والوعود أحد مصاديق التقوى ، والله يحب المتقين لرحم الموفين لعهدهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣.

٥ - ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(فَإِذَا انسَلَخَ) أي انقضى ومضى (الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) أي الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم التي هي مدة الأمان (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) تحقيق البراءة منهم فدم المشركين هدر باستثناء من أمروا بالوفاء لهم إلى مدتهم، فأقتلوا الناكثين للعهود مرات ومرات والمعاندين على الشرك في أي مكان أو زمان من حلال أو حرم (وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ) وطاردهم وحاصروهم وأسروهم واحبسوهم وامنعوهم من أخذ كامل حريتهم في البلاد وهذا يستدعي تشكيل أجهزة

أمنية قوية ترصد المتآمريين بدقة (وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ) مَرْصِدٍ : طريق ، أفعدوا لهم أي ترصدوا لهم في كلِّ طريق يسلكونه ولا تدعوا أحداً يفلت منهم ، وهذا تنبيه على أن المقصود مضايقتهم وإيصال الأذى إليهم بكل وسيلة ممكنة حتى يهاجروا من بلادهم قبل انتهاء المدّة أو يضطروا للقتال ويتم استئصالهم في الحرب بعون الله، وخلص الناس من شرهم فلا خيار لهم إلا أن يتوبوا إلى الله (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) فإن تابوا عن الشرك وأظهروا الإسلام وأدوا ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم ، وإكتفى بذكرهما عن بقية العبادات لكونهما رئيسي العبادات البدنية والمالية وبذلك تشترك العبادات مع المعاملات ، مع النفس ومع الله ومع الناس (فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) ولا تتعرضوا لهم بسوء فهم في أمان كأمان المسلمين (إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ) واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ، فهي حملة هداية لا حرب إبادة لإلقاء الحجّة الرسالية على الناس. فائدة : ١- عن النبي (ص) : (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا شَهِدُوا وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا وَصَلُّوا صَلَاتَنَا فَقَدْ حَرَمَتْ عَلَيْنَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا هُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ). ٢- لماذا هذه الشدة ؟ الجواب : لأن منهج الإسلام وخطته الأولى منذ انطلاقاته تثبيت عقيدة التوحيد وإزالة الشرك والوثنية من جذورها بأي ثمن كان وكيف ما كان إذن : فهؤلاء لا يقتلون غدرًا ولا يؤخذون بغتة، وأمهلهم وقتاً كافياً، وعلموا سلفاً ما ينتظرهم. كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَاءِ يَوْمٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥

٦ - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استجارك : إستأمنك وطلب جوارك أي (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) طلب منك الأمان من القتل بعد الأشهر الأربعة (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ) فأمنه على نفسه وماله حتى يسمع القرآن ويتدبره ويطلع على أهداف الإسلام ويتفكر فيه بكامل الحرية ، وأن يدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن ، فإن الإسلام حسن الخلق ، وغايته صرف الناس عن سبيل الشرك والضلال إلى صراط الرشده والهدى ، فلذلك يجب سلوك السبل المرنة الأخلاقية المناسبة لنيل هذه الغاية السامية لترتفع عن المشرك غشاوة الجهل وتتم عليه الحجّة ﴿لِقَاءِ يَوْمٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ ، (ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) حتى يبلغ منك أمناً تاماً في مكان أمين حتى لو اتصله إلى حيث يأمن عند قومه إذا هو لم يسلم ، فإن الأمان النفسي يبعث العقل على التفكير وتفتح النفس للإيمان.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك الأمر بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة الإسلام وأهدافه السامية فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويعلموا ويعملوا ، وكان هذا يوم كان الإسلام قوياً بأهله ، أما اليوم فأهله يستجبرون بأعدائه لذلك هم في ذلة وهوان. فائدة : ١- هذا صنيع الإسلام مع

أعدائه غير المحاربين ولا المعادين له ، فهو إسلام سلم وسلامة وإنسانية ﴿فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/١٩٣ ، والجرمين منهم الذين يقولون إن الإسلام دين قام على السيف وإراقة الدماء وتسمى عند بعض المفسرين هذه الآية آية السيف (أو الآية ٢٩/التوبة. ٢- (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) تشير الآية إلى أن التقليد في الدين أو للعلماء المجتهدين غير كافٍ، فلا بد من النظر والتعلم وأن يسمع كلام الله ويفهم القرآن والإسلام بقدر معين يستطيع من خلاله أن يستمع القول فيتبع أحسنه كقوله ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر/١٧-١٨. ٣- وهكذا تتوازن وتتساوى كفتا الشدة في الآية (٥) والرفق واللين في الآية (٦) وهكذا سبيل التربية العام القائم على الترغيب والترهيب. في غرر الحكم : (أَحْلَطِ الشِّدَّةَ بِرِفْقٍ ، وَإِرْفِقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَوْفَقَ).

٧ - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

الاستفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد ، أي كيف يكون لهم عهد معتد به ومقبول عند الله ورسوله وهم لا يدينون الله بالعبودية ولا لمنهجه بالتطبيق وهم الناكثون لعهودهم والناقضون لوعودهم (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) ولم ينقضوا عهدهم (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) فما داموا مستقيمين وثابتين على عهدهم فاستقيموا واثبتوا لهم على الوفاء به (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) يجب من إتقى ربه ووفى عهده وترك الغدر والخيانة وتجنب نقض العهود ، عن النبي (ص) : (لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ، وفي نهج البلاغة حكم ٢٥٩: (الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْعَدْرِ عَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْعَدْرُ بِأَهْلِ الْعَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ) ، في الحديث : (لِكُلِّ عَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرِفُ بِقَدْرِ عَدْرِهِ) روح البيان ٣/٣٩٠.

٨ - ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تحذير للمؤمنين من أن يأمنوا جانب المشركين أياً كانوا ، حتى الذين لم يظهر منهم غدر أو خيانة للمسلمين ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ آل عمران/٧٣ ، يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ: يظفروا بكم ويغلبوكم، يَرْقُبُوا: يراعوا ويحفظوا ، إِلَّا: قرابة أو حلفاً ، ذِمَّةً: عهداً أو حقاً ، وضمير (يَظْهَرُوا) يعود إلى الناكثين بالعهد وقد وصفهم الله باللؤم والشراسة. المعنى : أي كيف يكون لهم عهد صادق وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ويغلبوكم لفعلوا فيكم الأفاعيل (لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا) لا يراعوا فيكم قرابة ولا يحفظوا فيكم حلفاً ، والقرابة توجب رعاية القريب (وَلَا ذِمَّةً) ولا عهداً ولا حقاً، والذمة ما يذم الرجل على إضاعته من عهد (يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) وصفهم الله بالنفاق والفسق أي يرضونكم بالكلام الجميل المزوق المعسول إن كان النصر لكم عليهم (وَتَأْبَى

قُلُوبُهُمْ) وتمتنع قلوبهم أن يدعونا بتصديق ما يبدوه لكم بألسنتهم كقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفتح/١١ ، أي تأبى قلوبهم إلاّ العداوة والغدر وطلب الانتقام لشدة حقدهم (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) وأكثرهم غدارون ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله وليس لهم صفة إنسانية سليمة ، والغدر من شيمة اللئام ، ومن لا دين له لا عهد له ، والغدار لا عهد له ولا دين له ، ومع هذا فإن قليلاً منهم فيه بقية من خير فكم من ملحد يوجد خلل في فكره ولكنه يملك نفساً لا تحون ولا تغدر وتوفي بعهداها إذا عاهدت ، وكم من أدعياء الإيمان والمتاجرون بإسم اللّدين لهم نفوس فاسدة تحون وتغدر ولا تفي بعهداها إذا عاهدت ولا تؤدي أية أمانة إذا إتممت ! في غرر الحكم : (مَنْ جَعَلَ مُلْكُهُ حَادِمًا لِذِيهِ إِتْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمَعٌ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ).

٩ - ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

باعوا دين الله إلى الشيطان بأبخس الأثمان ، استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا القليل الزائل الذي لذاته قصيرة وتبعاته طويلة (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) فَصَدُّوا : فمنعوا أي ، منعوا الناس من إتباع دين الإسلام بما يستطيعون من المنع بتقليب الأمور وتسميم العقول ونشر الشكوك وإشاعة الفاحشة وغير ذلك (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ، فساء عملهم وضل سعيهم وساءت عاقبتهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، إنهم رفضوا الإسلام وحاربوه وأعاقوا حركته ومنعوا انتشاره خوفاً على مصالحهم الشخصية المحدودة ، التي فضلوها على القرآن وما جاء به لهداية الناس ، وتشمل الآية الذين يحرفون الدين الإسلامي وفقاً لأهواء المستغلين والمتنفعين بمواقفهم الاجتماعية ومواردهم الإقتصادية.

١٠ - ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَاةً وَأَوْلِيَاءَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ﴾

لا يَرْقُبُونَ : أي لا يحفظون ولا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه (إِلَّا) لا قرابة ولا حلفاً (وَلَا وِلَاةً) ولا عهداً ولا حقاً ، فهم أعداء اللّداء لكل طيب ومخلص لا للنبي وأصحابه فقط ، وهذا هو الفرق بين هذه الآية والآية (٨) كما تقول لصاحبك فلان لا يجبك بل لا يجب الخير على الإطلاق، إنهم أعداء الكفر للإيمان والباطل للحق ، فصفة الاعتداء أصيلة فيهم فهم يكرهون الإيمان والمؤمنين ويقفون في وجوههم (وَأَوْلِيَاءَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ) وَأَوْلِيَاءَ الخائنون الغدارون الجامعون لكل صفات الذم والحقارة والقسوة واللؤم هم المتجاوزون على حدود الغير، والمعتدون بلا رحمة بما يضمرون من العداوة والبغضاء ويسترون الطبيعة الخائنة الشرسة الحاقدة، فإذا كان هذا حالهم فلا تحسبوا لو نقضتم عهدهم أنكم اعتديتم عليهم بل هم المعتدون، إن عداة المشركين للمسلمين عداة مبدئي لا شخصي ، إنه عداة الكفر للإيمان والباطل للحق والغواية للهداية والظلمات للنور، فلا

تجعلوا العداوة طبيعتكم تملون بها مع الهوى والأنا ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/١٩٣، في غرر الحكم: (رَأْسُ الْجَهْلِ مُعَادَاةُ النَّاسِ)

١١ - ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِيلُ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

فإن رجعوا إلى الله بالإيمان وتابوا عن الكفر وأنابوا واستقاموا وأقاموا أهم قواعد الدين العبادية (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) وهي الصلة بالله بإقامة فريضة الصلاة أي أدوها بكامل شروطها وأركانها ومقدماتها وأعطوا نفقة أموالهم ، وهما من أقوى أركان المجتمع الإسلامي تجمع فيهما العبادات والمعاملات والأخلاق (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) فصاروا إخوانكم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠، وعلى قدر التقوى تكون الأخوة ، فهم مساوون لكم فالأخ مع أخيه من مادة واحدة فهما متساويان، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم (وَتَفْصِيلُ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ونبين الحجج والأدلة لأهل الفكر والعقل والفهم والتدبير ، ليعلم من جهل ويؤمن من علم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها ، وفيها حث على التأمل والتدبر. فائدة : ١- والفرق بين هذه الآية والآية (٥) هو في جواب الشرط حيث جاء الجواب هناك (فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) أما الجواب هنا (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)، عن الإمام الصادق (ع): (حُبُّ الْأَبْرَارِ لِلْأَبْرَارِ ثَوَابٌ لِلْأَبْرَارِ ، وَحُبُّ الْفُجَّارِ لِلْأَبْرَارِ فَضِيلَةٌ لِلْأَبْرَارِ ، وَبُغْضُ الْفُجَّارِ لِلْأَبْرَارِ زَيْنٌ لِلْأَبْرَارِ ، وَبُغْضُ الْأَبْرَارِ لِلْفُجَّارِ خِزْيٌ عَلَى الْفُجَّارِ) البحار ٢٨٠/٧٤، وعنه (ع): (لَا تُذْهِبِ الْحِشْمَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ وَأَبْقِ مِنْهَا، فَإِنْ ذَهَابَ الْحِشْمَةُ ذَهَابَ الْحَيَاءُ، وَبَقَاءُ الْحِشْمَةِ بَقَاءُ الْمُؤَدَّةِ!) البحار ٢٥٣/٧٨ . ٢- الحرب في الإسلام أريدت لغيرها وليست لذاتها ، والحرب ليست لحساب أحد ، وإنما هي من أجل نصرة الحق والحقوق ونصرة هذا الدين القيم وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه السفلى ، من أجل نقلة البشرية من عبادة العبيد إلى عبادة الله الواحد القهار ، ومن أجل إلقاء حجة الله على الناس بوضوح ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل/٣٥

١٢ - ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِالَّذِينَ بَدَلُوا مِيثَاقَهُمْ فِي يَدَيْكُمْ فَكَفَرُوا مَعَكُمْ يَوْمَهُمْ فَمَا تَتَلَوْنَ كَلِمَتَهُمْ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ عَهْدِهِ وَطَعَنَ فِي دِينِكُمْ فَكَيْفَ نَكْفُرُ بِهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (وَإِنْ نَكَثُوا) أي نقضوا عهودهم الموثوقة بالإيمان وخالفوا موافقتهم معكم (وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) عابوا الإسلام ودموه وقدحوا فيه (فَكَفَرُوا بِالَّذِينَ بَدَلُوا مِيثَاقَهُمْ فِي يَدَيْكُمْ) ومعنى (أَيْمَانَهُمْ) جمع إيمان وهو القدوة والقيادة (إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ) ولا عهود ولا أيمان جمع يمين أي لا أقسام يوفون بها (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) كي ينتهوا عن الطعن في الإسلام ويكفوا عن الإجمام ، يشير إلى أن القصد من القتال هو ردع المشركين عن الإصرار على قتال المسلمين. فائدة : ١- (فَكَفَرُوا) غرضكم في مقاتلتهم الإنتهاء عما هم عليه وليس إيصال الأذى بهم ، ولا يعارض الإسلام أي إنسان في دينه أو يضطهده من أجله ، بل يبيّن له طريق الرشده من الغي بوضوح وبعدها لا إكراه في الدين ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام/٥٢ ، لهم الخيار في الكلام

شريطة عدم الطعن في الإسلام ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام/٥٢ ، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ﴾ الكافرون/٦ ، والقتال في الإسلام لا يكون من دوافع الهوى أو إرادة منافع الدنيا من سلب ونهب وانتقام ، وهذه ميزة الإسلام إذ جعل الحرب ضرورة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. ٢- عن الإمام الصادق (ع) : (وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ) (مَنْ طَعَنَ فِي دِينِكُمْ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ) ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ نِوَارِ الثَّقَلَيْنِ ١٩٠/٢. وسئل الإمام علي (ع) : لماذا تتبعت الفارين في معركة صفين ولم تتبعهم في معركة الجمل ؟ فقال (ع) : (فِي صِفِّينَ كَانَ رَأْسُ الْكُفْرِ لَمْ يَزَلْ حَيًّا وَقَدْ جَمَعَ حَوْلَهُ أَتْبَاعُهُ لِيُعِيدُوا الْكِرَّةَ ، أَمَا فِي مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ فَإِنَّهُ بِمَقْتَلِ قَائِدِ الْجُنْدِ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحْوَرٌ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ وَهَذَا مِنْ مَصَادِقِ ((فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ)) تفسير النور/٣٦٥/٣.

١٣ - ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَرُوا آيَاتَهُ وَمَسُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتُخْشَوْنَ اللَّهَ أَلَمْ تَخْشَوْهُ لَأَنْ تَكُونَ مُمِينِينَ﴾ (أَلَا) أداة تخصيص أي تحريض على قتالهم أي هلا تقاتلون قوماً (نَكَرُوا آيَاتَهُمْ) نقضوا العهود والأيمان وطعنوا في دينكم ؟ (وَهُمْوَا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ) عزموا على تهجير الرسول (ص) من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجهم من بين أظهرهم (وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وهم البادئون بالقتال والبادئ أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟ (أَتُخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَوْهُ) أتخافوهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تجاوزتم حدوده (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه ، فالمؤمن لا يخشى إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه ولا تأخذه في الله لومة لأثم. فائدة : ١- الآية بليغة وفي غاية الفصاحة لأنها جمعت بين التقرير والتشجيع. ٢- في الآية دلالة إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلامهم همة فإن مهمته على قدر همته ، لأنه لا يخشى إلا الله تعالى. عن النبي (ص) : (مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنْ اللَّهِ أَحْوَفَ) البحار/٧٠/٣٩٣ وعلى قدر الثقة بالله يكون الخوف منه ، وكل من خاف من الله هرب إليه ، وكل من خاف من أحد هرب منه ! وعنه (ص) : (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار/٧٧/١٣٣ ، فصار خوف الله يحجز عن المعاصي ويكف الاعتداء ويدفع إلى الطاعات ، وعنه (ص) : (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةُ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) البحار/٧٧/١٨٠ ، وأعرف الناس بالله سبحانه أخوفهم منه ٣- (أَتُخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَوْهُ) ومعنى هذا أن الذي يؤثر الخوف من الناس على الخوف من الله تعالى فهو كالذي يطيع المخلوق في معصية الخالق ، والخوف من الله خوف هيبه وليس خوف رهبة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/٤٦.

١٤ - ١٥ ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِبُهُمْ وَيَمْنُكُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيُسَبِّحُ اللَّهَ عَلَىٰ مِنْ شِئْءٍ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

قاتلوا أعداءكم الذين يقاتلونكم فقتالكم لهم جهاد في سبيل الله وينالوا عذاب الله بأيدي المؤمنين فهم يحققون عذابهم بالحرب والأسر والقتل في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا

يتحقق وهذا هو نفي المعلوم. فإنه سبحانه يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم في الغيب ليجازي على قدر العمل في أرض الواقع (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) وَلِيجَةً بطانة وأصدقاء السوء وأعداء الخيانة والغدر في علاقات سرية خفية ، أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا أعواناً وأنصاراً خونةً يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، فيكون أفضل الطاعات جهاد الفساد والمفسدين وأكبر المعاصي الركون إليهم ، وعلى كل مؤمن بالله حقاً أن يكشف هوية من يسعى في الأرض الفساد وإجراء الإجراءات اللازمة تجاهه (وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) يعلم جميع أعمالكم السرية والعلنية لا يخفى عليه شيء منها.

فائدة: ١- في الآية دلالة على تحريم موالاة الكفار والفساق وعدم الألفة إليهم وعدم طلب العون منهم، عن ابن عباس : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ الْبَاطِنُ خِلَافَ الظَّاهِرِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ الْإِسْتِقَامَةَ). ٢- تشير الآية إلى أن الإيمان قول وعمل ، فيكون القول من خلال العمل ويكون العمل مطابقاً للقول، ولا قول فحسب ، فمن ادعى الإيمان ابتلاه الله بالعمل ، في غر الحكم : (الْعِلْمُ بَعِيرُ الْعَمَلِ وَبِئَالٍ، وَالْعَمَلُ بَعِيرُ الْعِلْمِ ضَالٌّ) ، وعن الإمام الصادق (ع): (الْإِيمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضُ ذَلِكَ الْعَمَلِ) البحار ٦٩ ص ٢٣. ٣- الابتلاء سنة إنسانية عامة قبل أن تكون سنة إيمانية خاصة ، بمعنى كل إنسان يبتلى بقدره كقوله ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت/٢

١٧ - ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

هذا أمر مستنكر ومستغرب منذ الابتداء. لا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمرؤا شيئاً من المساجد بالبناء والتأسيس أو الترميم أو التأثيث أو الزيارة والحضور فيها للعبادة والصلاة والدعاء أو يتولى أمرها بصدق ويرعاها، إذ لا يستقيم لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين ، عمارة أماكن العبادة والكفر بالله وعبادته (شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ) حال كونهم مقرين بالكفر ناطقين به علناً بأقوالهم ، معترفين به بأفعالهم وإن لم تنطق بالكفر ألسنتهم (أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) حبطت : بطلت ، فبطل أثرها ، والعمل إنما يؤتى به لأثر مطلوب مفيد ، بينما العمل الحابط (الباطل) عمل غير مفيد ولا تعقبه سعادة ولا جنة بل (وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) فأعمالهم الخسيسة تقودهم إلى الخلود في النار.

فائدة: ١- في الآية دلالة على أنه لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله ولا عمل مقبول إلا بنية صادقة لله تعالى فإذا فقد النفع والصدق حبط العمل ، وإن الله لا يقبل مع الشرك عملاً لأن الشرك أحبط جميع أعمالهم على فرض وجود لهم أعمال حسنة. ٢- العبادة تعبير عن العقيدة ،

فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشيء ما لم تعمر القلوب بالإيمان والعلم الصحيحين وبالعمل الصالح النافع للناس ، فإن سعادة المرء بقدر ما ينفع ، وسميت مساجد: لأنها مكان السجود والعبادة لله وحده كقوله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ الجن/١٨. وإن كان سبب نزول الآية الكريمة عمارة المسجد الحرام إلا أن حكمها يشمل جميع المساجد ، لذلك استعملت صيغة الجمع (أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ) عامة المساجد.

٣- (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) أولئك الكافرون المفسدون قد (حَبِطَتْ) بطلت أعمالهم التي يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وإكرام الضيوف وصلة الرّحم.. إلخ فلم يبق لها أثر ما في إصلاح أنفسهم ما داموا مفسدين ومشركين ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٨٨، ولكن يكرمون في الدنيا ويخفف عنهم الحساب في الآخرة.

١٨ - ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

إنما تليق وتستقيم عمارة مساجد الله وبنائها وتنشيط أهدافها التربوية عالية المضامين (مَنْ آمَنَ) صدق بوحداية الله والموقن بالعالم الآخر وبالخشع والنشر (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) وأقام الشعائر الدينية وأهمها إقامة الصلاة بمحدودها وشروطها وأدى الزكاة بشروطها فأقام العبادات وأحسن المعاملات (وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) الخشية : خوف مع تعظيم وخضوع ، خاف الله ولم يرهب أحداً سواه وخشية الله هي أصل كل خير لأنها شعار العارفين عن النبي (ص) (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار/٧٧/١٣٣، في غرر الحكم : (إِذَا خِفتَ الْحَالِقَ فَرَزْتَ إِلَيْهِ ، إِذَا خِفتَ الْمَخْلُوقَ فَرَزْتَ مِنْهُ) ، لأن خوف الله خوف هيبه وليس خوف رهبة ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن/٤٦ ، (جَنَّاتٍ) جنة يثاب بها على عمله وجنة يتفضل بها ربه عليه. عن النبي (ص) : (طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ خَوْفُ اللَّهِ عَنِ خَوْفِ النَّاسِ) ، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة/٥٤ ، (فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) فَعَسَى : فيرجى ، وتفيد اليقين ، وعسى من الله تعالى بحكم الواجبة في المنظور القرآني ، فإن من جمع هذه الصفات فقد تأهل للهداية كقوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التغابن/١١، والهداية نعمة كبيرة ، وفي السياق ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة. فائدة : عن النبي (ص) : (إِنَّمَا عُمَارُ الْمَسَاجِدِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ) ، وعنه (ص) : (إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ) تفسيرالنور/٣/٣٧١. بدأت الآية ب (إنما) لتدلّ على أن عمارة مساجد الله خاصة بالمسلمين، وأن يكون متولي المساجد والمسؤول عنها من أنزه الناس وأتقاهم ، وليس كما هو الحال في كثير من البلاد أن يتولى مساجدها من ليس لها أهلاً، وينبغي أن تكون المساجد مركزاً لتجمع الشباب

المؤمن للنهوض الحضاري ، لذلك سميت المساجد بالجوامع لأنها مركز لتجمع المؤمنين وتعاونهم وتواصيهم.

١٩ - ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الاستفهام للإنكار والتوبيخ. (أَجْعَلْتُمْ) يا معشر المشركين (سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) خدمته ومن عنده مفاثحه وهما يفتقدان الإيمان ، (كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ)؟ وهو ردُّ على العباس حين قال لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة ، فأنا أسقي الناس الماء في الحج وهذا فخر كبير وتفاخر شبيهة بعمارة المسجد الحرام وقال علي بن أبي طالب (ع) لَقَدْ صَلَّيْتُ إِلَى الْقِبْلَةِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَبْلَ النَّاسِ وَأَنَا صَاحِبُ الْجِهَادِ فنزلت الآية (كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فأعلمهم الله تعالى أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله (مَنْ إِشْتَغَلَ بِالْمَهْمِ ضَيَّعَ الْأَهَمَّ) ، كقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت/٦٩ ، في نهج البلاغة/خطبة الجهاد: (إِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِحَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ، وَدَرْعُ اللَّهِ الْحُصَيْنَةُ ، وَجَنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ) ، (لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وهذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤ ، لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ويطوفون حول الكعبة عراة ، وهذا اعتراض لحكمهم السابق.

٢٠ - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

هذا زيادة توضيح لأهل الجهاد والإيمان بالأفضلية المعنى : إِنَّ الَّذِينَ طَهَّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ دَنَسِ الشَّرِكِ بِالْإِيمَانِ وَطَهَّرُوا أَبْدَانَهُمْ بِالْهَجْرَةِ مِنْ بَلَدِ الشَّرِكِ إِلَى بَلَدِ الْإِيمَانِ ، وَبَدَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، هَؤُلَاءِ بِيْذَلِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَفِيسٍ وَتَحَمَّلُوا الْمَشَاقَّ فِي ذَلِكَ (أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) أَكْبَرُ أَجْرًا وَأَعْلَى رَتْبَةً وَأَكْثَرُ كِرَامَةً وَأَرْفَعُ ذِكْرًا مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَالْمَاءِ وَعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَخِدْمَتِهِ وَهُمْ بِاللَّهِ مُشْرِكُونَ فَلَا يَزُكُّوْنَ مَعَ الشَّرِكِ عَمَلًا (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْتَصِمُونَ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ. فائدة : وفيها دلالة أن الأعمال الصالحة من غير الإيمان بالله لا فضل لها عند الله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ الليل/١٩-٢٠ ، وإن ميزان الفضل عند الله هو الإيمان به والجهاد في سبيله والاستقامة على منهجه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، أما الرتب والمناصب المجردة

عن طاعة الله لا وزن لها ولا ثمن في حساب الله وكلمة (أَعْظَمُ دَرَجَةً) لا تعني المفاضلة وإنما تعني ثبوت الفضل للمؤمنين لأن الكافرين لا شيء لهم عند الله ، فلا يفوز ما عند الله إلا بطاعته .

٢١ - ٢٢ ﴿يَسِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

اتصف المؤمنون بثلاث صفات الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال فقابلهم الله بثلاث نعم الرحمة والرضوان والجنان، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، والرضوان هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، والجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان (وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) وجنات عالية قطوفها دانية ولهم نعيم دائم لا زوال له ولا اضمحلال (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) ماكثين في جنات النعيم إلى الأبد الذي لا نهاية له (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) ثوابهم عظيم تعجز العقول عن وصفه كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة/٧٢ ، عن ابن عباس : (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ) المراعي ٣٠/١٣٥ ، في غرر الحكم: (مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَعِيمٍ الْجَنَّةِ فَقَدْ ظَلَمَهَا). فائدة : ١- والأصل والأساس لكل منقبة وفضيلة هو الإيمان الأصيل الثابت الذي لا يتزلزل ، ويعطيك الإيمان الاستهانة بالمال والعيال والديار وبالحياة الدنيا من أجل الحياة الآخرة ، فإن الحياة الدنيا دنيا الحياة والآخرة عليا الحياة كقوله ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت/٦٤ ، ومعنى (الحيوان) مبالغة الحياة ومضاعفتها لشدة ما فيها من النعيم والسعادة الأبدية ، إنها الحياة الحقيقية الإيجابية الدائمة بلا سلبيات ولا منغصات ولا صعوبات .

٢٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبَبْتُمْ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الخطاب للمؤمنين لأنهم الأكثر استجابة ، إن هذه العقيدة الربانية لا تتحمل لها في القلب شريكاً ، فإما تجرد لها وإما انسلاخ منها ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب/٤ ، إنما تريد هذه العقيدة القيمة أن يخلص لها القلب وتكون هي المسيطرة والحاكمة والحركة للمؤمن فلا يتعارض معها شيء من متاع الدنيا ، فإذا تعارض معها شيء فيجب ترك هذا الشيء من أجل حفظ هذه العقيدة في النفس وفي الواقع لأن العقيدة أثنى شيء . المعنى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين (أَوْلِيَاءَ) أنصاراً وأعواناً تودوهم وتحببهم ، الوفاء للأهل والأصدقاء فضيلة (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ) ولكن بشرط أن لا يكون هذا الوفاء فيه ضرر على الدين وانحراف بالإيمان وإلا تحوّل إلى رذيلة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة/٥١ ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ آل عمران/٢٨ ، عن الإمام علي (ع) : (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ

وَالْإِخْوَانَ وَالْقُرَابَاتِ (المشركين) فَمَا نَزَدَا عَلَىٰ كُلِّ مُمْسِكَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا وَمُضِيًّا عَلَىٰ الْحَقِّ وَتَسْلِيمًا لِأَمْرِ وَصَبْرًا عَلَىٰ مَضَضِ السِّلَاحِ)

روي: (لما أمر الله تعالى المؤمنين بالهجرة وأرادوا الهجرة فمنهم من تعلقت به زوجته ومنهم من تعلق به أبواه وأولاده فكانوا يمنعونهم من الهجرة فيتركون الهجرة لأجلهم فيبين سبحانه أن أمر الدين مُقَدَّمٌ عَلَى النَّسَبِ وَإِذَا وَجِبَ قَطْعُ قَرَابَةِ الْأَبَوَيْنِ فَلَا جُنْيَ الْمُؤْمِنِ أَوْلَىٰ) ، (إِنْ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ) إِنْ اسْتَحْبَبُوا) إِنْ آثَرُوا وَفَضَلُوا الْكُفْرَ وَإِخْتَارُوهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَأَصْرُوا عَلَيْهِ (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنفسهم والباخسون حقها لأنهم وضعوا الموالاة في غير موضعها فإن موضعها أهل الإيمان الصحيح ، أي من رضي بالشرك فهو مشرك لأنه من تعاون معهم في معصية الله فأولئك الذين ظلموا أنفسهم وكل من ظلم نفسه ساهم في ظلم غيره ، في غير الحكم: (لَا عُدْوَةَ لَكُمْ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا عَاجِزَ عَجِزَ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ فَأَهْلَكَهَا). فائدة : ١- يعمل القرآن الكريم على رفع أحد أعظم الموانع في طريق المؤمنين وهي مسألة الولاء للأسرة بالنسب والأسرة فاسدة ، إن الولاء لهم يستقي جذوره من العاطفة ، والعاطفة إذا التهبت غلبت الوعي والعقل ، فيجب أن تهدب العاطفة لتعمل منسجمة مع العقل والعقيدة الواعية. ٢- ومن هنا ينهى القرآن الكريم عن الولاء للآباء والإخوان الذين يرححون الكفر على الإيمان ، لأن الولاء لهم مضاد للولاء لله ، والخضوع لهم يضرب بالمسيرة العقائدية الهادفة.

٢٤ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

قل يا محمد للمؤمنين إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان والزوجات ومن سواهم من (وعشيرتكم) أقربائكم من المعاشرة وهي المخالطة وجماعتكم التي تستنصرون بهم (وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا) اكتسبتموها وجمعتموها (وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا) تجارة تخافون بوارها وعدم بيعها (وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا) ومنازل أنيقة تعجبكم الإقامة فيها (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) بمعنى : إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من طاعة الله ورسوله والهجرة إلى الله ورسوله (وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ) وأحب إليكم من الجهاد لإعلاء كلمة الله (فَتَرَبَّصُوا) (فَتَرَبَّصُوا) فانتظروا ، بِأَمْرِهِ : بحكمه فيكم ، أي إنتظروا وهو وعيد وتهديد بعقوبة مختارة عاجلة أو آجلة ، وتكون العقوبة على قدر الذنب (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) والله لا يهدي ولا يوفق القوم الخارجين عن طاعته ولا يستقيمون على نجهه إلى طريق سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا تهديد شديد لمن آثر أهله أو ماله أو وطنه على الهجرة والجهاد في سبيل الله. فائدة : ١- عن النبي (ص) : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) روح البيان ٤٠٤/٣ ، وعنه (ص) : (لَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ طَعَمَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَيَبْعَثَ فِي اللَّهِ).

٢- الآية تحدّد المؤمن بوضوح ، فمن آثر الحق على مصلحته الخاصة عند اصطدام مصلحته بالحق فهو مؤمن صادق الإيمان ، ومن آثر مصلحته على نصرة دينه فهو مدّعي الإيمان ، وهذا هو مفتق الطريق بين المؤمن الحقيقي والمؤمن المدّعي الإيمان ، كل ما جاء في ذم الدنيا من كتاب وسنة ، هي دنيا الشيطان أما دنيا الله طاعته والاستقامة بين الناس فهي السبيل إلى رضوانه ، قال رجل للإمام الصادق (ع) إني أحب الدنيا قال (ع) فماذا تصنع بها ؟ قال أتزوج وأحج وأنفق على عيالي وأنيّل إخواني وأتصدق قال الإمام (ع) ليس هذا من الدنيا هذا من الآخرة التفسير المبين ص ٢٤٤ . فمعنى الآية للإنسان أن يجب المال والأرحام والعيال وكل ما لذ وطاب على أن لا يتجاوز حدود الله ولا يعتدي على حقوق الآخرين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف/٣٢ .

٢٥ - ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذَبِّحِينَ﴾

لقد نصركم الله في مشاهد كثيرة وحروب عديدة بلغ تعدادها ٨٠ مؤطناً ، رغم ضعفكم وقلة عددكم وعددكم (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) حنين وإد بين مكة والطائف ، بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتزاركم بأنفسكم وإعجابكم بكثرتكم (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا) حين أسرتكم كثرة عددكم وأخذكم الغرور والعجب وقتلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، فساء ذلك رسول الله (ص) ، فانقطعتم عن الاعتماد على الله والثقة بنصره واستندتم إلى الكثرة في العدد والعدة وكنتم اثني عشر ألفاً وأعدادكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم عدوكم شيئاً (وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) وضافت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف وقد أحاط بكم العدو ولم تجدوا من الأرض موضعاً للفرار إليه فدفعتم الثمن غالياً من دمائكم وسمعتكم ومنيتم بأسوأ الهزائم وتحملتكم أكثر الحسائر وضافت عليكم أنفسكم حتى أن الأرض على سعتها لم تجدوا فيها مأمن لكم ! (ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذَبِّحِينَ) ثم وليتم على أديباركم منهزمين . فائدة : فكانت الهزيمة عقوبة على هذا الغرور ، وتربية للمؤمنين حتى لا يغتروا بالكثرة فإن الكثرة أحد أسباب النصر وليست هي كلُّ النَّصْر ، ولا هي العامل الوحيد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الأنفال/١٠ ، وإنما النصر يعتمد على عدّة عوامل من أهمها : مقدار الإيمان وصدق العقيدة وقوة الإرادة والعدّة اللازمة والعدد المطلوب والتدريب المحترف وعدم التخاذل وغيرها ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/٦٠ ، وإعتماد القوة المستندة على قاعدة الإيمان ، عن الإمام علي (ع) : (كُنَّا إِذَا إِحْمَرَّ الْبَأْسُ اشْتَدَّ الْقِتَالُ) وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ (ص) ، فَمَا

يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ) ، عن النبي (ص) : (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ) البحار ١٦/٣٢٣.

٢٦ - ٢٧ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم أنزل الله بلطفه بعد الهزيمة النكراء في حنين سكينته أي أمنه وطمأننته في القلوب على رسوله وعلى المؤمنين حتى سكنت نفوسهم واستقرت (وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) بإنزال الملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ المدثر/٣١ ، ﴿وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح/٤ ، وكل شيء هو من جنود الله حتى الرعب والجبن.. إلخ من أسباب الضعف والهزيمة (وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالقتل والأسر وسبي النساء والذاري (وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ) ذلك عقوبة الكافرين بالله (أو) ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء من المسلمين التائبين من فرارهم ، والمشركين التائبين من شركهم. ٢٧- (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) ثم يتوب الله عليهم ليتوبوا وليرجعوا إلى الله ويؤمنوا بمنهجه في الحياة ويدخلوا في الإسلام الذي هو دين الحياة (أو) (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) من المسلمين التائبين من فرارهم ، والمشركين التائبين من شركهم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) عظيم المغفرة واسع الرحمة. فائدة : ١- إنزال الله سكينته على النبي (ص) بقاؤه ثابتاً في قلب المعركة بالرغم من فرار جيشه ولم يبق منهم ثابت إلا نفر قليل لا يتجاوزون عشرة مقاتلين الذين ثبتوا مع نبيهم ولم يفروا، هؤلاء هم الذين أنزل عليهم سكينته فأزال الرعب من نفوسهم ، فإن السكينة والراحة النفسية هي التي تعطي قوة الإرادة ، وهي المصدر للصبر والأساس للثبات في كلِّ ساحة جهاد في سبيل الله. ٢- السكينة : حالة معنوية قلبية توجب سكون النفس وثبات القلب وقوة الإرادة مع زيادة الإيمان إلى إيمانهم ، وهي حالة نفسية خارقة للعادة وموهبة إلهية بحيث يقوى حدس الإنسان وتقوى فراسته فينظر للأحداث بدقة بعين نافذة فإنه ينظر بنور الله كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر/٧٥، أي المتفرسين ، والسكينة رحمة إلهية وحالة من الاستقامة الذاتية ، وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ارتكاب الكبائر ، وتمنع عن الإصرار على الصغائر، فإن السكينة تردع عن الصغائر والكبائر معاً لشدة الاستقامة الذاتية وثقة الإنسان بفكره واطمئنانه إلى برهانه وإيمانه كقوله ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ الفتح/٢٦ ، وتطلق السكينة على التفاؤل بالخير والاطمئنان بالبرح والفوز ، وعبر الله عن سكينته بالنزول وكأنما السكينة رداء ينزل من السماء فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الانفعالات الثائرة، فتكون سكينة الله الدواء المناسب المشافي المهدئ في الظروف القلقة المضطربة المتزلزلة ، وهي من نعم الله المعنوية الغالية العظيمة ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣.

٢٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

خطاب الآية للمؤمنين تؤكد لهم (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) أي قدارة لخبث باطنهم وهو تشبيه لهم لتقريب واقعهم بأنهم كالنجس، والنجس هو كل ما تنفر منه النفس الإنسانية السليمة ، والنجس نوعان : نوع حسيّ مادي يدرك بالحواس، ونوع معنوي نفسي غير حسيّ يدرك بالعقل والبصيرة ، لذلك نهى الله عن نكاح المشركات وتزويج المشركين، كما نهى الله عن تناول المسلمين من طعام المشركين ، لذلك يجب تجنب الشرك كما أجنبّ النجاسات (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) المشركون نجس في ذاتهم ونجس لغيرهم ونجس في فكرهم ونجس في منهجهم ومحاربتهم الدين الإسلامي ونجس في سلوكهم وأعمالهم ، وتحسيم التعبير (نجاسة) نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس يستقذروهم الحس الإنساني ويتطهّر منه المتطهرون ، وهو النجس المعنوي لا الحسي الذي يستتبعه النجس المادي (الجسدي) لأنهم يجهلون قواعد التطهر ، فأجسامهم إذا تطهّرت تصبح غير نجسة بظاهرها ولكن نجسة بفكرها وسلوكها، لذلك جاء التعبير القرآني ببلاغة عالية بتجسيم النجاسة للمشركين على أن شركهم ظلّم عظيم كقوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء/١١٦ ، والشرك معنى واسع فيه الظاهر والباطن ، والجلي والخفي.. إلخ وجاء شركهم على التشبيه بمنزلة النجس لخبث نفوسهم وفساد إعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم الحقير! (فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) تلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام والسبب بأنهم نجس والمسجد الحرام طهور بذاته ومطهر لغيره لمن يفتح عليه ، والآية وراء الحكم بعدم ملاقاتهم وأيديهم رطبة نجسة وناقلة للنجاسة ، وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها الإمام علي (ع) بالبراءة من المشركين كما في الآية/١ سنة تسع من الهجرة (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) وإن خفتم (عَيْلَةً) فقراً بتعطل أسواقكم بسبب منعهم من الحج الذي فيه رواج التجارة وازدهار الأسواق فلا تخافوا فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطرق أخرى من فضله وعطائه ، فيطعمكم من جوع ويؤمنكم من فقر وخوف ، لأن أسباب الرزق عنده سبحانه كثيرة بعدد أنفاس الخلائق لا تنحصر في سبب واحد (إِنْ شَاءَ) يغنيكم بإرادته فيبيده الأسباب التي يصنعها الإنسان والله يعينه عليها، الإغناء ليس واجباً على الله تعالى بل هو متفضّل في ذلك بمشيتته (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) عليم بما يصلحكم حكيم في ما حكم في المشركين. فائدة : سماهم (نَجَسًا) : لأنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضؤون ، فمنعهم من دخول المسجد لأنه لا يجوز للجنب دخوله.

٢٩ - ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

قيل : إنها تسمى في بعض كتب التفسير (آية السيف) كما قيل في الآية/٥، إنها آية السيف أيضاً ، وهو تعبير بعض المفسرين. المعنى : الخطاب للذين آمنوا أن يعتبروا أهل الكتاب حداً وسطاً بين المسلمين والكافرين والمشركين، أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله ولا باليوم الآخر وإن زعموا الإيمان فإن إيمانهم غير مقبول لأنه منحرف عن الصواب والدين الأصيل وأعمالهم تدل على ذلك وهذا مما يُنفي عنهم الإيمان بالله تعالى بشكل صحيح ، ثم إنهم لا ينسجمون مع المجتمع الإسلامي الذين يعيشون فيه ولا يطبقون تعاليمه وشعائره العامة ولا يعترفون بشرائعه الحقّة ، لذلك فإن وجودهم عقبة كأداء في قيام المجتمع الإسلامي المستقيم الذي يعتمد القرآن دستوره ، فمن الطبيعي أن يرفض الإسلام هذا الوجود الغريب والمخيف ويطلب مقاتلته حتى يذعن للحكومة الإسلامية ويعطي ضريبة الجزية مستسلماً غير مستكبر على أن يحترم الشعائر الإسلامية حتى يمكن القبول بهم مواطنين مسلمين ، وهذا حكم خاص بأهل الكتاب.

أما المشركون والكافرون فلا يقبل منهم إلا الإسلام لأنهم لا يستطيعون الانسجام مع المسلمين بشركهم ، وأيضاً فإن اليهود يقولون عزيز ابن الله والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث وينسبون إلى إلههم التجسيم مما لا يليق بجلال الله تعالى ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو كافر أمر الله المسلمين بقتاله ، أما (أهل الكتاب) إن الأمر بقتال المشركين كان حكماً خاصاً لسبب خاص وهو أن المجتمع الإسلامي كان في بدء تكوينه وأن المشركين كانوا طابوراً خامساً يكيّدون للإسلام وأهله فاقتضت المصلحة إخراجهم من الجزيرة أو قتلهم ، والأمر هنا بقتال أهل الكتاب أمر خاص لسبب خاص وهو أن أهل الكتاب كانوا يتحالفون مع المشركين وجيش الروم على محاربة الإسلام (وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) في كتابه ولا رسوله في سنته بل يأخذون بما شرعه لهم الأحرار والرهبان الشريعة المحرّفة ويطيعونهم طاعة عمياء وكأثم آلهة ! ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وغيرهما مما يفسد إقترافه نفسية المجتمع الإنساني (وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) ولا يعتقدون بدين الإسلام هو دين الحق والهدى كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/١٩ ، المنطبق مع الفطرة الإنسانية السليمة ، فهو دينٌ ثابت نسخ ما قبله من الأديان (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ) : واليد السعة والقدرة حتى يدفعوا لكم الجزية منقادين مستسلمين ومقدارها حسب القدرة والاستطاعة وتسقط عن الفقير العاجز عن العمل (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أذلاء حقيرون مقهورون بمهية الإسلام وسلطان قدرته.

فائدة : (الجزية) وسميت جزية من المجازاة مقابل حفظ نفوسهم وأمنهم ، وهي ليست تحقير لأهل الكتاب وإهانتهم وإنما من أجل أمنهم واستقلالهم والجزية إنها ضريبة سنوية تدفع جزاء الأمن الذي توفره الحكومة الإسلامية للأقليات المذهبية غير الإسلامية وإعطائهم حريتهم في دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين ، وتصرف هذه الجزية في حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وإدارة أمورهم كما إن المسلمين يدفعون الحقوق الشرعية والزكاة ويحصلون على الخدمات والأمن والمواطنة ، ويستون (أهل الذمة) إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله (و الجزية) دلالة على تمكن دولة المسلمين من أعدائهم بقدرتهم وقوتهم التي يعلو بها المسلمون على غيرهم وتقوم دعائم القوة في الإسلام على الالتزام بحدود الله وعدم الخروج على أحكام الشريعة (وهم صاغرون) خاضعون مقهورون ، ليس معناها امتهان أهل الذمة وإذلالهم بقدر ما هو تحريض للمسلمين على اكتساب القوة والحفاظة على القدرة العامة ، فهي قوة رحيمة عادلة تدافع عن الحق والحقوق وتجعل كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى .

فائدة: ١- الغرض من قتال أهل الكتاب أن لا يظهر في الناس التجاهر بالمحرمات من غير مانع يمنع شيوعها، والاسترسال فيها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأكل مال الناس بالباطل كأكل الربا بأساليب فنية متنوعة خادعة للناس ، يقاتلهم المسلمون ليدخلوا في ذمة الدولة فلا يتجاهرون بالفساد بصورة خفية علنية، ويحتبس الشر فيما بينهم بصورة خفية خاصة وغير متجاهرة (وهم صاغرون) المراد بصغارهم خضوعهم للقوانين الإسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الإسلامي ، فلا يتحدون المسلمين بقناعتهم الخاصة المنحرفة في التصور الإسلامي . **٢- الفرق بين المشركين وأهل الكتاب:** يفرق القرآن الكريم في بعض أحكامه بين المشركين وأهل الكتاب ويعتبرهما صنفين لا صنفاً واحداً، وقد عطف المشركين على أهل الكتاب في أكثر من آية كقوله ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ البقرة/١٠٥، ويمكن أن تكون أنصار الرأسمالية الغربية الحديثة هم بحكم المشركين وليسوا من أهل الكتاب في شيء وإن تستروا بقناع المسيحية، وهم يتسلطون على الناس بقوة إقتصادهم وتسليحهم العسكري وإعلامهم المشبوه القوي.

٣٠ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) وعزير هو الذي جدّد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وهو أحد كبار علماء اليهود ويسمونه منقذ اليهود وإنما قالوا (ابن الله) لأنه لم يبق فيه بعد بخت نصر ملك بابل من يحفظ التوراة لأنه خرّب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذريتهم وأخذ ضعفاءهم معه إلى بابل فبقوا هناك ما يقرب من قرن ثم عادوا إلى بلادهم ، فلما

أحيا الله عزير بعد مائة عام من الموت ، أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا لأنه ابن الله ! (وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) قالوا لأنّ عيسى ولد بدون أب ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب فلا بدّ أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) ذلك القول الشنيع المخالف للتوحيد الذي جاءت به جميع الرسل، هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا حجة ولا برهان (يُضَاهَهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم الملائكة بنات الله.

(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) البقرة/١١٨ ، وملة الكفر واحدة (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) قَاتَلَهُمُ اللَّهُ : دعاء عليهم جميعاً باهلاك وكأتما نصبوا حرباً لله فحاربهم الله وقتلهم ! أي أهلكهم ولعنهم الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا الله ولداً ! والصيغة للتعجب من شناعة قولهم. فائدة : عزير في العربية عزرا ، مثلما عيسى معرّب يستوع ويحي معرّب يوحنا.

٣١- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَمُرَبِّيَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أطاع اليهود أحبارهم (رؤساء الدين) وهم علماءؤهم الكبار وأطاع النصارى رهبانهم وقساوستهم وهم متنسكوهم وعبادهم، وهم عادة لا يتزوجون رسمياً ولا يزاولون الكسب والعمل ، فيطيعونهم العوام في الحلال والحرام وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله ، (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي كالأرباب من باب التشبيه البليغ وتقريب المعنى أي أطاعوا علماءهم وعبادهم فيما أمرهم به طاعة العبيد للأرباب، فإن عقوبة محرّم الحلال كعقوبة محلّل الحرام ، وهو كفر بالله لأنّه يشّرّع بدل عن الله ، فلا يحقّ لأيّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قيدٍ أو شرط لأنّ هذا الأمر مساوٍ لعبادته ، وإنّما يصحّ إتباع الإنسان قيادته الحكيمة متى كانت متفقة مع منهج الله ، والطاعة بلا قيد ولا شرط فهي أقرب للشرك والعبودية من دون الله. وهذا النوع من الشرك (عبادة أفكار صنيمة) أخطر بكثير من عبادة أصنام حجرية في الجاهلية ! عن الإمام الصادق (ع) : (أَمَا وَاللَّهِ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ لَمَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَامًا وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)، وعنه (ع) : (مَنْ أَطَاعَ رَجُلًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَهُ) الكافي ٣٩٨/٢ ، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة من دون الله (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) اتخذته النصارى رباً معبوداً من دون الله وهذا شرك بالله وهو الغلو في الدّين وخروج عن الاعتدال والاستقامة (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا) وما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كلّ شيء (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هو الله وحده لا إله غيره وهكذا صرّحت به جميع الرسل لا معبود بحق سواه

(سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً سواء أكان الشرك في العبادة والطاعة أو التطرف والغلو. فائدة: ١- يروى: (أن عدي بن حاتم قال لرسول الله (ص) لسنا نعبدكم فقال (ص) أَلَيْسَ يُحْرِمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحْرِمُونَهُ وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟ قال بلى قال (ص): فَبَلَّغْ عِبَادَتَهُمْ كَقَوْلِهِ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء/٩٧-٩٨) مجمع البيان ج ٥-٦ ص ٢٤ ومن يتخذ الله شريكاً فهذا الشرك إما أن يسد نقصاً وهذا ينافي الكمال المطلق لله وإما أن لا يؤثر أثراً فيكون وجوده لغواً ٢- يسوي النص القرآني في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، أو اتخاذ القادة في الدين أو السياسة يتبعونهم إتباع أعمى من دون الله أو مع الله فيكون فاعلها مشركاً بالله لأنّ الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته! كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦.

٣٢ - ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَبِّحَهُ وَتُؤَكِّرَهُ الْكَافِرُونَ﴾

تكشف الآية الكريمة وعد الله الحق الدال على نفوذ سنته القاهرة التي لا تبدل ولا تتحول ولا تتغير في نصرته دينه على الدين كله ، سواء نصرته على الأديان السماوية السابقة المحرفة أو نصرته على الأديان الوضعية والأنظمة العلمانية الحاكمة المتنوعة الحالية.. إنه وعد تطمئن له القلوب المؤمنة ليكونوا أداة فاعلة من أدواته لتنفيذه ، إنه إشارة عالية المضامين تضي النفوس إلى مستقبل الإسلام الذي فيه الأمن والسلام وهو دين المستقبل.

المعنى: نُورَ اللَّهِ: دين الله وهو الإسلام والقرآن (منهج الله) ، يريد هؤلاء الكفار والمشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور القرآن والإسلام بأفواههم بمجرد جدالهم وشكوكهم وافتراءاتهم فهم محاربون لنور الله، ويحاولون القضاء على الإسلام بالدسائس والأكاذيب وتحريض أتباعهم على الحرب الإرهابية والحرب الناعمة على الإسلام وإطفاء حججه تعالى الدالة على وحدانيته ، فكان مثلهم في ذلك مثل من يحاول إطفاء النور الذي انتشر في الكون بنفخة من فمه القاصر! (بِأَفْوَاهِهِمْ) بالأساليب المضلة بالدسائس والافتراءات والأكاذيب وبث الشكوك وخلق الفتن والإعلام الخبيث المضلل ، إنه من عجيب البيان وبلاغة البرهان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الأنوار العظيمة ، هذه الأفواه التي تنطق بالضلال مما يُضلل عامة الناس ويفتنهم في دينهم ، إنّ هذه الأفواه الحاقدة هي التي تكيد للإسلام بكل الوسائل الممكنة وعلى الدوام ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ، فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤِيدًا﴾ الطارق/١٥-١٧ ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة بفمه ! ولا سبيل إلى ذلك وهكذا هو الواقع والبرهان على مدار التاريخ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١ ، وإن كان هذا النص يراد به تحفيز قلوب المؤمنين على نصرته الإسلام ،

ثم شبهت الآية الإسلام بالنور الإلهي الذي هو أساس الحياة والأحياء لاشتراكه بسنن الحياة وتمييزها، فالإسلام أصيل في هذا الوجود فأهميته كأهمية الحياة ! فما قيمة مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله ؟ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ الأحزاب/ ٣٨ ، قال هنا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ وجاء في سورة الصف/ ٨ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ والفارق بينهما فيه لطيفة بلاغية مهمة ، فالآية الأولى تشير إطفاء نور الله بدون مقدمات بهجوم صريح وعلني ومباشر ، أما الآية الأخرى محاولة إطفاء نور الله بهجوم متدرج وخفي وغير مباشر وضمن أسباب ومقدمات ومكر خبيث وخطط مدروسة ومؤمرات محبوكة، ويريد القرآن أن يقول سواء اتخذوا الأسباب المباشرة قصيرة الأمد وغير المباشرة طويلة الأمد فلن يفلحوا أبداً ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَ نُوْرَهُ وَيَرْفَعُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء/ ٨٧ ، وهو الوعد الحق الجميل الصادق من الله الدال على سنته التي لا تتبدل ولا تتحول في نصرته هذا الدين القيم ويظهره في مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره كل قوى الكفر والطغيان ، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/ ٨٣ ، إنه وعد يدل على أن الله هو الذي يدير المعركة بين الإسلام وأعدائه ، إنه وعد تطمئن له قلوب المؤمنين على تحمل مسؤولية تبليغ هذا الدين بشكل واع لأن المستقبل له ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/ ١٠٥ ،

فائدة: ١- جاءت (يُرِيدُونَ) بالفعل المضارع المستمر وجاء (يَأْتِي) أيضاً بالفعل المضارع المستمر (بمعنى) مقابل ومضاد ، أي كلما يريدون يأتي الله لما يريدون من المؤامرات المستمرة ، وإن الله لهم بالمرصاد كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/ ٤٧ . ٢- الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضياؤها فعبّر القرآن عن الإسلام بنور الله من باب الاستعارة وهي من لطائف الاستعارات البلاغية لأنه دين الله يستنار به في ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/ ١٩ ، في نهج البلاغة/ الخطبة : ١٩٨ : (إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي إِصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَإِصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ وَأَصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى حَبِيبَتِهِ، أَدَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزِّهِ وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ).

٣٣ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ هذا توكيداً لوعد الله الحق الذي لا بد أن يتحقق على الرغم من كل مؤامرات المشركين ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ التوبة/ ٣٢ ، أرسل محمداً (ص) بالهداية والدراية والدين الكامل دين الله وهو الإسلام العقلي في عقيدته ، الإيماني في محتواه ، الإلهي في شريعته ، العلمي في تجربته ، الحركي في تطبيقه الحياتي في عطاياه ، الأخلاقي في معاملاته (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) (لِيُظْهِرَهُ) واللام لام العلة ، ليجعل كلمة الإسلام (الدِّينِ الْحَقِّ) هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى كقوله ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلْيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴿٥٥﴾ والنور/ ٥٥ ، وقوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/ ١٠٥ ، وقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر/ ٥١ ، فالآية تحمل الوعد الصادق بالغلبة لهذا الدين القيم والمهيمن على جميع الأديان السماوية والأنظمة الوضعية، وعلى المؤمنين الإعداد للوعد الحق وتهيئة أسبابه والاستعداد والنهوض لهذه المهمة ، و(الهِمَّةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهْمَةِ) كقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران/ ١٣٩ ، (وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وذلك مما يسوء المشركين وأهل الضلال فلترغم أنوفهم لتأكل الحسرة قلوبهم ولينتظروا ماذا سيحل بهم؟ ﴿وَلَا يَجِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر/ ٤٣ .

فائدة: ١- سؤال : كيف تحقق الآية وعدها ونحن نلاحظ الناس يعرضون عن رسالة الله، ونلاحظ سيطرة الفساد على الصلاح في الأمة ؟ الجواب: العقل الحديث الذي بُعِدَ عن الدين إنما بعد عن الخرافات والانحرافات باسم الدين ، لأن الدين حاجة ضرورية في حياة الإنسان بل الدين هو الحياة، عن الإمام علي (ع): (لَا حَيَاةَ إِلَّا فِي الدِّينِ) الارشاد ص ١٥٧ والإنسان لا يستغني عن الحياة بل يستغني بها ويعيش معها ويكون منها ويرجع إليها ويحافظ عليها. في نهج البلاغة/الخطبة: ١٩٨: (إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ، الَّذِي إِصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَدَّلَ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ). ٢- عن الإمام الصادق (ع) : في هذه الآية (وَاللَّهُ مَا نَزَلَ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ وَلَا يَنْزِلُ تَأْوِيلُهَا حَتَّى يَخْرُجَ الْقَائِمُ (عج)، فَإِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ لَمْ يَبْقَ كَأَفْرِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) نور الثقلين ٢/٢١١ ، وعن النبي (ص): (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدُونًا ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَتْرَتِي فَيَمْلُؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُمْ ظُلْمًا وَعُدُونًا) كثر العمال خبر ٣٨٦٩١ . ٣- لقد وردت هذه الآية الكريمة نفسها في سورتين أخريين وهما الفتح/٢٨ و الصف/٩ . ٤- (أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَايَةِ ، والهداية أساس الحياة (وَدِينِ الْحَقِّ) فهو دين الله الحق نبع من الحق ومع الحق وفي الحق وإلى الحق وعلى الحق ولأجل الحق ، والحق أحق أن يتبع فهو أقوى نصير وأحسن ظهير ﴿بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء/ ١٨ ، فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان والأنظمة الوضعية لأن قاعدته الحق والله ينصره بقدرته والله هو الحق كقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج/ ٦٢ ، ولا يصدر من الله الحق إلا الحق.

٣٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
الخطاب للذين آمنوا إنّ كثيراً من علماء اليهود البارزين (الأحبار) وعلماء النصارى المؤثرين (الرهبان) هذا الحكم على الكثير ولكن القليل منهم لا يزاول هذه الخطيئة ، سواء أكان من

الأخبار والرهبان أم كانوا من المسلمين (لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) ليحتالوا على الناس بأساليب خادعة ظاهرها يغر ويسر وباطنها يضر ، ليسهل لهم أخذ أموال الناس بالحرام ، (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ويمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام بأساليب منها تسطيح الفكر وكتمان العلم وفقدان الوعي وتحجر العقل وإشاعة الشبهات وأخذ الرشوات وبيع صكوك الغفران، ونشر أنواع الفساد كالربا والزنا والغلو والخمور الذي يؤدي إلى إنحطاط المجتمع ، والمقصود التحذير من علماء السوء الذين يربون الجماهير الشعبية على اتباعهم اتباعاً أعمى كأنما هم أرباب، فيجعلون الدين سلماً للدنيا ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً هَوَاً وَعَزَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأنعام/٧٠، (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ) كنز المال: جمعه ولم تؤد زكاته ، وما أدى زكاته فليس بكنز ، ولفظ الذهب والفضة عنوان خاص ولكن أريد به حكم عام، أي الذين يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ويمنعون جريانها بين الناس في وجوه المعاملات لينمو ثمناً حسناً بحيث يتم الانتفاع بها (وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ولا يؤدون زكاتها وحقوقها الشرعية الواجبة ولا يبذلون منها في وجوه الخير في مصالح الناس ونصرة دين الله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) لأنهم آثروا أنفسهم على ربهم وعلى أمتهم وقدموا المصلحة الخاصة على المصلحة العامة وهذه خيانة لله ورسوله.

فائدة: ١- عن النبي (ص): (مَنْ مَنَعَ مَالَهُ مِنَ الْأَخْيَارِ اخْتِياراً صَرَفَ اللَّهُ مَالَهُ إِلَى الْأَشْرَارِ اضْطِرَّاراً!) البحار ١٣١/٩٦ . ٢- إنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً على الكانزين ودلالة على أنّ من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله سواء في العذاب الأليم. ٣- (لِيَأْكُلُونَ) ليأخذون أموال الناس بأساليب خادعة محرمة فاسدة ، وإنما عبّر عن الأخذ بالأكل، مع أن المذموم منهم مجرد أخذ الأموال بالباطل سواء أكلوا مما أخذوه أو لم يأكلوا ولكن الأكل معظم الغرض من الأخذ.

٣٥ - ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

يَوْمَ تُحْمَى كنوزهم بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية إنّه مشهد مفرع مروع (فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) فتكوى بتلك الأموال والكنوز المحماة والتي منعوا حق الله فيها ، وإنما خص هذه الأعضاء وأريد بها جميع البدن كناية عن شدة العذاب والكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجنب ألم وأوجع ، فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأعضاء ، وهذا كقوله ﴿سَيُطَوَّفُونَ مَا جَلُّوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران/١٨٠ ، (هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) يقال لهم تقريباً هذا ما كنزتم لمنفعة أنفسكم فكان سبب مضرتها وتعذيبها ، فقد أخذوا المال من غير حقه وكنزوه من غير نفعه فكان جزاؤهم من نفس العمل وعقوبتهم على

قدر جنائيتهم، هو سوط العذاب الذي يعذبون به من حيث كان يرجى أن يكون مصدر نفع وخير لهم. وهذا تأكيد أن أعمال الإنسان لا تذهب سدى بل تبقى وتتجسد له يوم القيامة وتكون مدعاة سروره أو شقائه. في غرر الحكم: (شُرُّ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يُخْرَجْ مِنْهُ حَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ).

فائدة: ١- دلالة الآية على ثبوت حق الفقراء في أموال الأغنياء في نهج البلاغة حكم ٣٢٨، عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَىٰ أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمُ الْقَدْرَ الَّذِي يَسَعُ فُقَرَاءَهُمْ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتَّعَ بِهِ غَنِيٌّ)، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ المعارج/٢٤-٢٥

٢- (فَدُوْقُوا) عبّر عن العذاب بالتذوق الإحساس العميق بالشيء، فهم يتذوقون العذاب بذاته ومحتواه كما يتذوقون الطّعام!

٣٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَلُونَكَ كَأَنَّكُمْ آخِسُونَ بِاللَّهِ الْمَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ) المعتدّ بها عند الله في شرعه وحكمه ليست من وضع الإنسان وأفكاره وإنما هي نتيجة حتمية لسنن الكون ونظام الكائنات لعلاقة السنن الكونية بالسنن الإنسانية، فإن للاثني عشر شهراً وجوداً حقيقياً في عالم الطبيعة لا في عالم التشريع كالحلال والحرام (في كتاب الله) كتاب الخلق والتكوين لهذا الوجود فهناك كتاب التدوين وهو القرآن وهناك كتاب التكوين وهو نظام الكون والكائنات، وهو نظام ثابت بقريته قوله (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) يوم خلق الله تعالى المجموعة الشمسية بنظامها الخاص كانت السنة والأشهر، والسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دوارناً كاملاً والشهر عبارة عن دوران القمر حول الأرض دوارناً كاملاً (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ) ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ومُتَّيْت حُرْمًا لأنها محترمة ومعظمة ومكرّمة ويحرم فيها انتهاك المحارم أكثر من غيرها ويحرم فيها القتال، وتحريم هذه الأشهر أن لا يبدأ فيها قتال أما إذا حصل اعتداء على المسلمين فعليهم الدفاع والقتال (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ) المستقيم ذو قيمة عليا وذو قيمة كبرى على كلِّ الأديان السماوية الأخرى وله الهيمنة على جميع ما ينتجه البشر من نظريات وأنظمة وضعية وله السيطرة عليها ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨، فإنَّ تحريم ما حرّمه الله هو دلالة على الدين القويم، لذلك يقوم هذا الدين القيم بمصالح الناس المهيمين على إدارة شؤونهم، وتحريم القتال في هذه الأشهر غايته شيوع الأمن وأن يرجعوا إلى ربهم بالعبادات، وكانت حرمة هذه الأشهر من شريعة إبراهيم (ع) (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) بهتك حرمتهم وإرتكاب ما حرم فيهنّ، بعدم رعاية حرمتها باستحلال القتال فيها، ولا بالاعتداء بعضكم على بعض فمن اعتدى فقد بدأ بظلم نفسه وظلم غيره، وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَكَرِهَ عَيْشُهُ (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ

كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) : مجتمعين ، وقاتلوا المشركين أو المنافقين جميعاً متساندين موّحدين مجتمعين على قتالكم متعاونين متناصرين أمام عدوكم لتكونوا كالبنيان المرصوص (كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ مجتمعين متعاونين، وقاتلوا عدوكم بنفس السلاح الذي يقاتلكم فيه ونفس الطريقة التي يحاربكم بها ، وليكن قتال المشركين بنفير عام مع وحدة الكلمة وعدم التخاذل والتفرق.

بمعنى: كونوا أقوىاء حتى تتمكنوا من قتلهم جميعاً لأنهم يقاتلونكم جميعاً فلا يستثنون منكم أحداً لأن هدفهم القضاء على الإسلام والمسلمين ، فهل استجبنا نحن المسلمين لأمر الله ونصحه؟ (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (مَنْ إِيْتَى اللَّهَ وَقَاهُ) المتقون الذين استجابوا لأمر الله ووحدوا صفوفهم ضد عدوهم ولم يتفرقوا وكانوا في مستوى المسؤولية وجبهة واحدة في قتال العدو ، ومن كان مع الله كان الله معه ، ومن كان الله معه فمع الله عليه ؟ كقوله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣، وكقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/٢١. فائدة : ١- وردت كلمة (شهر) في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة ، كما أنّ السنة اثنا عشر شهراً ، وعدد (١٢) مبارك، فهو عدد نقباء موسى من بني إسرائيل، كقوله (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) المائدة/١٢، وعدد العيون التي فجرها الله من الحجر بعصى موسى ، وعدد حواريو عيسى، وعدد أئمة أهل البيت (ع). عن النبي (ص) (إِنَّ عِدَّةَ النَّبِيَّاءِ بَعْدِي عِدَّةُ نُقَبَاءِ مُوسَى) كنز العمال خير ١٤٩٧١ ٢- وقد قيل عنها (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) إنّها آية السيف والتوبة/٢٩ والأنفال/٥.

٣٧ - ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

النَّسِيءُ : التأخير ، حرمة شهر إلى شهر آخر في ذلك ، زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ : كفر عملي بتجاوز لحدود الله مع كفر عقائدي بالله. المعنى كان عرب الجاهلية أصحاب حروب وغارات ويعتقدون بتحريم القتال في الأشهر الحرم ، فإذا اضطروا إلى الحرب في شهر منها كالحرم مثلاً قاتلوا فيه وحرّموا بدلاً عنه شهر صفر الذي لا يحرم فيه القتال ، وهذا هو المراد بالنَّسِيءِ هنا (زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) يضم تحليل الحرام إلى الشرك أو إلى الحرب العدوانية بشن الغارات (يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا) يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم (يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا) يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا وبالعكس ، والدين عندهم أهواء تتبع وأحكام تتبدع (لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) ليوافقوا عدد الأشهر الأربعة المحرمة ، كأن المهم هو عدد الأشهر المحرمة لا نفسها (فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ) فيستحلوا بذلك ما حرّمه الله (زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ) زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ، (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) لا يرشدهم إلى طريق سعادتهم ، لأن فسقهم يجرهم هداية الله فيضلوا عن سبيل الله لأنهم ستروا قلوبهم عن نور الهداية وستروا دلائل الهداية عن قلوبهم، والذي لا تليق به الهداية تليق به الغواية ، وهكذا الأهواء تعمي صاحبها عن الحق فتزيه الشرَّ خيراً ، والحسن قبيحاً.

٣٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَمْ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

الاستفهام للتوبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك لقتال الروم. المعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا جدَّ الجد وقيل لكم انفروا وأسرعوا للقتال في سبيل الله أخرجوا لجهاد أعداء الله (اثَّاقَلْتُمْ) تباطؤتم وتثاقلتم وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق الجهاد ومتاعه ، وهم قسم من المؤمنين وكأهم لا يريدون شرف الجهاد لبعدها المسافة ولشدَّة الحر وكثرة العدو ؟ (أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) فعاتبهم الله على هذا الثقال أَرْضِيْتُمْ بنعيم الدُّنْيَا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) فما التمتع بلذات الدنيا بأنواعها في جنب نعيم الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له.

فائدة: ١- (اثَّاقَلْتُمْ) أبلغ من (تثاقلتم) حيث الأولى تمثل مبالغة الثقل بكافة دلائله النفسية والمعنوية والمادية (اثَّاقَلْتُمْ) من التثاقل : التباطؤ الذي يجمع التثاقل مع التباطؤ والتكاره والانزعاج والتراجع في المواقف بينما (تثاقلتم) من وزن الجسم وصعوبة الحركة والثقل مقابل الخفة (اثَّاقَلْتُمْ) تمثل الجسم المسترخي الثقيل الذي لا ينهض إلا برافعة ترفعه في جهد ومشقة ، إنها شهوات النفس وميوها إلى تراب الأرض وجاذبيتها وتعلقها بالحياة الدنيا السفلى إنها نفس محرومة من جاذبية الروح وميوها إلى الحياة العليا ، إنها نفسٌ تثاقلت فمالت إلى الأسفل ولم تتطَّع إلى الأعلى ، نفس لم تستدوق جاذبية السماء وطاعة الله وقربه وجذبه ، فأخذتهم جاذبية الأرض ذات المتاع القليل والمحدود وحرمان أنفسهم من جاذبية السماء ذات المتاع الكبير الممدود اللامحدود ، إنَّ النفور للجهاد في سبيل الله هو التخلص من جاذبية الأرض وارتباط الجسد بالتراب إلى التحلُّق بجاذبية السماء ذات المعنى السامي العلوي المعنوي الذي أساسه القيم والإيمان والعلم والمبادئ والأخلاق. عن النبي (ص) : (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي هَذَا اليمِّ (البحر) فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرَجَعُ) البحار ٧٣ ص ١١٩ . ٢- وعنه (ص) : (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ شُعَبِ النَّفَاقِ). صحيح مسلم ٣ ص ١٥١٧ في غرر الحكم: (اعلموا أنَّ الجهادَ الأكبرَ جهادُ النفسِ، فاشتغلوا بجهادِ أنفسكم تسعدوا) ٣- (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) كناية تشبيهية عما يستولي على الإنسان من مشاعر التحير والانحزام حين يواجه امتحاناً عسيراً لم

يكن مهياً له من قبل ولم يكن على نية صادقة وعزيمة مجتمعة لخوض غماره قال (إِثْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) ولم يقل (إِثْقَلْتُمْ عَلَى أَوْ فِي الْأَرْضِ) قد أصبح بهذا التثاقل في عداد الكائنات التي تدبُّ على الأرض من الحشرات والحيوانات فتكون (إلى الأرض) أبلغ وأوضح للصورة من (على الأرض) أو (في الأرض) لأن (إلى الأرض) إنّ المتثاقلين ينحدرون انحداراً إلى الأرض ويهوون هويماً سريعاً من على إليها أي يحصل لهم تساقط سريع إلى الأرض، وهم المؤمنون بالله في مستوى من الروحيات التي ينبغي أن يتعلقوا بمطالب السماء والروح أكثر من مطالب الأرض والجسد، فما أصابهم؟!!

٣٩ - ﴿لَا تَفِرُّوا بِعَدَابِ اللَّهِ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الآية تكشف عن سُنَّة الاستبدال ، سُنَّة فعالة مؤثرة قاهرة خطيرة. المعنى : إن لا تخرجوا إلى الجهاد والقتال في سبيل الله يعذبكم عذاباً أليماً موجعاً لتقاعسكم عن دفع ثمن العزة وقيمة الكرامة ، باستيلاء العدو عليكم وحبس المطر عنكم في الدنيا وبنار جهنم في الآخرة (وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) يهلككم أو يهمل أترككم في الواقع ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم بأية وسيلة من وسائل الاستبدال ، يكونون أسرع استجابة للجهاد وأكثر منكم طاعة ومطاعة ولا يتثاقلون في امتثال أوامر الله والقتال في سبيله كأهل اليمن وأبناء فارس (وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً) ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه عز وجل غني عن العالمين بل تضرون أنفسكم كقوله ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت/٦ ، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم وفي ذلك زجرٌ شديد ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ نحمد/٤. فائدة : الخطاب لقوم معينين ولكنه ذو دلالة عامة ، إنهم بتقاعسهم عن الجهاد الواجب يقدمون على مذبح الذل والهوان أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة ، وقد جرت سُنَّةُ الله بأنَّ الأمم الذليلة التي لا تدافع عن نفسها لا تستحق البقاء وتكون طعاماً للآكلين وغذاءً شهياً للمستعمرين كقوله ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ نحمد/٣٨ ، فتلك هي سُنَّةُ الله في عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١.

٤٠ - ﴿لَا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَامِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إن لا تنصروا رسوله أيها المؤمنون فإن الله ناصره ومسخر له أسباب النصر باعتبار لكل شيء سبب (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فقد أظهر الله نصرته له حين لم يكن أحد ينصره ويدفع عنه وقد أحاط الأعداء به من كل الجهات ، وذلك حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، عندما تأمر الكفار على قتله (ص) وهو نائم في فراشه وجعل مبيت علي (ع) مكانه حتى اضطر (ص)

إلى الهجرة في سفرة شاقة لم يكن معه أنصارٌ ولا أعوان (ثَابِتِي اثْنَيْنِ) رسول الله وأبو بكر (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) إذ هما وحدهما في غار جبل ثور قرب مكة (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ) إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ حين رآه حزينا لا تحزن مما تشاهده من شدائد ، خاف أبو بكر فطمأن النبي (ص) صاحبه (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) بالمعرفة والتأييد وبيده النصر والتسديد ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ مَجْد/٤ ، روي : (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ بَيْنَا أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) فِي الْغَارِ وَأَقْدَامُ الْمُشْرِكِينَ فَوْقَ رُؤُوسِنَا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ لِأَبْصَرْنَا فَقَالَ (ص) يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ يَا ثَنَيْنِ اللَّهُ تَأَلُّهُمَا؟) المراغي ١٠/١٢١ ، (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) أنزل الله في أشد الحالات الإرهابية السكينة والطمأنينة على رسوله (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) قوّاه بجنود من عنده من الملائكة يجرسونه ويصرفون القوم عنه بمختلف الوسائل لم يبصرها الناظرون (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى) جعل كلمة الشرك تائهة حائرة مغلوبة غير مؤثرة (وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) وكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وإظهار دين الله وإتمام نوره هي القاهرة العالية الغالبة أعرّ الله بها المسلمين وأذلّ المشركين ﴿وَوَقَّمتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ الأنعام/١١٥ .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وَاللَّهُ عَزِيزٌ لا يغلب ، وحكيّم لا يجهل ولا يخطأ في ما يشاء ويفعل ، بل لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ومن حكمته نصر نبيه وأظهر الإسلام دين الله القيم على جميع الأديان ولو كره المشركون ، وهذا يدل أن الله هو الذي يدير الأمور .

٤١ - ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(انفِرُوا) أخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله إذا توقف الردع والحرب على التّفير العام وتعبئة الجماهير (خِفَافًا وَثِقَالًا) إنّه مفهوم شامل وواسع الدلالة ، أي خفيف المتعلقات وثقيل المتعلقات والارتباطات من يستطيع الجهاد بيسر ومن يستطيع الجهاد بصعوبة ومشقة ، أخرجوا للقتال بجميع الأشكال والأحوال مشاة وركبانا شباباً وشيوخاً وكهولاً ونساءً وفي جميع الظروف والحالات في اليسر والعسر في الراغب والراهب أغنياء وفقراء المحبين والكارهين متزوجين وغير متزوجين ، مبتلين بشيء وغير مبتلين ، اصحاب تجارة وزراعة أو لستم من أولئك ، دون أن تتخذوا أعداراً لترك الجهاد كالتعلق بالمال وحب الأهل وحب الدنيا وأن تنصرفوا عن أي عمل شغلتم به أنفسكم (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) جاهدوا بكل ما في وسعكم من مالٍ ونفس في سبيل الله ، ومعنى في سبيل الله في الأهداف التي تنفع الناس وترضي الله ، بأية وسيلة ممكنة ، وقدم جهاد الأموال على الأنفس لإعلاء كلمة الله ، لا في سبيل قومية أو عصبية ولا رياء ولا سمعة ولا تحت راية جاهلية ، وإذا حقق الجهاد بالمال أولاً غرضه سقط الجهاد بالنفس والاستعداد للقتال والتضحية والشهادة في سبيل الله (ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) هذا الجهاد ومشقاته خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها وخير من متاع الدنيا كلها مهما كان

كثيراً فهو قليل في حق الله إن كنتم تعلمون، وخير في الدنيا بالنصر على العدو ووراثة الأرض وحكمكم بالعدل فيها ، وخير في الآخرة بالفوز والرضوان من الله أكبر. فائدة: ١- إن أي عدو يعتدي على الدين بتحريف كتاب الله وبصد المسلمين عن إقامة الشعائر والفرائض أو بالاستيلاء على بلد من بلادهم وعجز أهله عن صدِّ هذا العدو ومقاومته ، وجب الجهاد المقدس العام والدفاع عن كلِّ مسلم بشكل كفائي لا عيني ، فما على العاجز من حرج ولا على المريض من حرج ، كلٌّ حسب طاقته وقدرته مادياً ومعنوياً ولا يتوقف هذا الجهاد العام على إذن الإمام أو نائبه، وهذا النفير العام عزة للإسلام وخير للمسلمين في دنياهم وآخرتهم. ٢- الجهاد لا ينافي كون النبي (ص) نبي رحمة : كون النبي (ص) مأمور بإيصال الحجة الواضحة إلى الناس ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا لَكُمْ آيَاتٍ لَّئِن لَّمْ يَظْهَرْ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ يَنْصُرُونَ بِرَبِّكُمْ أَذْهَبَ اللَّهُ بَارِئَاتٍ لِّلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ رَبَّهُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٤٢ - ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

لَوْ كَانَ ما تدعوهم إليه (عَرَضًا قَرِيبًا) نفعاً دنيوياً سهل المآخذ ، وغنيمة قريبة باردة سهلة المنال (وَسَفَرًا قَاصِدًا) وسفراً وسطاً ليس ببعيد وغير شاق (لَاتَّبَعُوكَ) لخرجوا معك للجهاد لا في سبيل الله بل طمعاً في الغنيمة (وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) ولكن بعدت عليهم (الشُّقَّةُ) المسافة الشاقة البعيدة المتعبة فتشبثوا ، ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق (وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ) وسيحلفون لكم معتذرين بالأيمان الكاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم كقوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ القلم/١٠، في غرر الحكم: (كَيْفَ يَسْتَلِمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمُسْرِغُ إِلَى الْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ؟!)، وحصل كما أخبر القرآن، قال تعالى تكذيباً لهم (يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ) يوقعون أنفسهم في مواطن يحصل فيها هلاكهم كأيمانهم الكاذبة وامتهان اسم الله بالحلف الكاذب لستر نفاقهم ، وكل من يعصي الله في شيء يسيء إلى نفسه و(الْجَاهِلُ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَعْمَلُ الْعَدُوُّ بِعَدُوِّهِ) (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) لكاذبون في دعواهم وإعتذارهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا تكاسلاً.

٤٣ - ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنكَ لَمْ تَأْمُرْنَاهُمْ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّونَ وَإِن كَانَ لَهُمُ الْغِيظُ فَغِيظِهِمْ﴾

أسلوب بلاغي رائع في السياق القرآني الفصيح يعرضه بتلطف في عتاب النبي (ص) حيث قدم العفو بأسلوب رقيق على العتاب من ربِّ رحيم إكراماً له (ص) لبيان علة مكانة النبي (ص) عند

ربه حتى لا يقع تحت مشاعر الألم لحظة واحدة والمعنى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) سأمحك الله وغفر لك يا مُحَمَّد (لَمْ أَذْنَبْ) لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك إلى غزوة تبوك بمجرد الاعتذار !! (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) قال له سبحانه كان الأولى أن تترث في الإذن لهم حتى تنكشف حقيقتهم ، وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره عن الكاذب المنافق فإنهم يفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به، فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم الرسول (ص) ولولا الإذن لظهرت هذه النية الخبيثة المبيتة وأفتضح أمرهم بعصيانهم أمرك. فائدة : المراد بالعمو هنا العتاب من الله الرحيم إلى رسوله المختار الكريم صاحب الخلق العظيم الذي كلما ازداد الإنسان منه قرباً ازداد حباً ، إنه كان يعلم بقصد هؤلاء المنافقين، ويريد (ص) أن يفتضحوا بالتدريج من عدة مواقف أمام المسلمين لذلك أذن لهم ، وتريد الآية فضحهم بسرعة أمام الجميع. ويؤكد القرآن أن خروجهم كان سيضر الرّحف الإسلامي بعد بضع آيات كقوله ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ التوبة/٤٧. راجع قوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ التوبة/١١٧ ، ويونس/٩٤ ، والمائدة/٤٨.

٤٤ - ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِلَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَاطِينُ﴾

يتولى القرآن كشف الصادق من الكاذب بإعطاء قاعدة لا تحطى في كل زمان ومكان ، يعلم المؤمن أن الجهاد في سبيل الله الواجب المأمور به من الله تعالى حاله حال بقية الفرائض كالصوم والصلاة ، فالمؤمن لا يطلب إذناً لأداء الواجب أو من أجل التخلص من الواجب فإنه هو مهياً في كل لحظة لأداء الواجب ولا يتردد في تلبية الواجب بل يسارعون إليه خفافاً وثقلاً كما أمرهم الله إبتغاء لرضاه، وإن مجرد طلب الإذن بالتخلف عن الجهاد تهاون بالدين وجرأة على المعصية كما أطلب الأذن بالفسق والفجور! (أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) إنهم يعلمون ما أعدده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه ؟ وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم فضلاً عن الإذن لهم (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) عليهم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان في الشدة والرخاء في السر والعلانية فيلبون الواجب في كل حال ، أما المنافق فقد صفة التقوى فارتاب قلبه بمنازل المجاهدين ووهن قلبه عن الجهاد فاستأذن كقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات/١٥. فائدة : تشير الآية أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء الواجبات ولا فضائل العادات وسائر أعمال الخير.

٤٥ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمْرًا تَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَصْرَفُونَ﴾

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ يَا مُحَمَّدُ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ الْمُقَدَّسِ (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) والذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم (وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) شكّت وقلقت قلوبهم في الله وثوابه للمجاهدين فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون ، فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير ولا يجزمون بأمر وهذه من صفات المنافقين ، وبعد هذا التردد يجبون التطرّف فيسيؤون التصرف فيستأذنون في التخلّف عن الجهاد ، والقرآن يذمّ التقلّب والتذبذب لأنّ كلّ متذبذب متردد وكلّ متردد مرتاب وقلق وشكّك وهي حالة مرضية معنوية خطيرة ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَاءٍ وَلَا إِلَى هُوَاءٍ﴾ النساء/١٤٣.

فائدة: (التردد داء الحيرة والقلق والذهول) : القرارات الخاطئة خير من التردد ، وكثير من الرجال المفكرين وصلوا إلى المعالي رغم كثرة أخطائهم وقلما نجد متردداً قوياً أدرك أحلامه وحقق آماله ! في نهج البلاغة كتاب ٥٣: في التوازن في مطالب الإنسان (إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأَمْرِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوْ التَّقْسُطِ (التأخر) فِيهَا عِنْدَ امْتِكَانِهَا أَوْ اللَّجَاجَةِ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرْتَ أَوْ الْوَهْنِ (الضعف) عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحْتَ). ٢- الشك نتيجة الجهل ومن يتردد يزدّد شكاً وحيرةً ومن كثر شكّه كثر شركه وفسد دينه ولا يأمّن شره. عن الإمام علي (ع) : (لَا تَرْتَابُوا فَتَشْكُوا ، وَلَا تَشْكُوا فَتَكْفُرُوا وَلَا تُرْحَصُوا لِأَنفُسِكُمْ فَتُدْهِنُوا) البحار ٢ ص ٥٤.

٤٦ - ﴿رَوُّ أَمْرَادُوا الْخُرُوجَ لَعَدُوَّهُ عِدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له وهيئوا أسبابه بالعدة والعدد والسلاح والزراد والهمة فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلّف (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ) ولكن كره الله خروجهم معك حتى لا يكونون من جند الله لسلوكهم طرق الضلالة والخيانة وتفريق الصفوف لأنهم إنما يخرجون للفساد والفتنة كما فعلوا في غزوة حنين تحاذلوا وانهمزوا وأضرّوا بجيش المسلمين (فَثَبَّطَهُمْ) كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل والخمول والفسل والملل وحب القعود كقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال/٢٤ ، بمعنى سلبهم التوفيق في المشاركة في هذا الجهاد المشرف لا المنع العملي (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعدار وهذا إهمالهم وذم لهم لأنهم إختاروا لأنفسهم الخمول والتخلّف ولهم القدرة على الجهاد، والآية تسلية للنبي(ص) على عدم خروج المنافقين معه لأن خروجهم مضرة وأذى، وهكذا حال المسلمين الآن حيث يقع الذنب عليهم ولا ذنب على الإسلام في كلّ ما يعانونه من مشكلات.

٤٧ - ﴿وَأَخْرَجُوا فِيكُمْ مَا كُنْتُمْ لِآخِلَابِكُمْ وَأَضَعُوا خِلالَكُمْ يَمِينَكُمْ فَتَشْتَكُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا (خَبَالاً) اضطراباً في الآراء وخلخلة في الصفوف وفوضى في العمل ونشر الشر والفتن والفساد (وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ) أسرعوا في الشر بينكم وسعوا بينكم بالنميمة والفتنة (يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ) يطلبون لكم البلاء والحنة بإلقاء العداوة والبغضاء بينكم وخلق الفرقة بين الصفوف واختلاف الكلمة (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ) وفيكم ضعفاء الإيمان والقلوب وبسطاء العقول (السذج) يصغون إلى قولهم ويتأثرون بهم ويقبلون منهم ويطيعونهم من دون تفكر! وهؤلاء ينعمون مع كل ناعق، وقد يكون فيكم جواسيس ينقلون حديثكم إليهم! (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم، وكفى الله المؤمنين الفتنة بترك المنافقين قاعدين.

٤٨ - ﴿لَقَدْ ابْتِغَاوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَارِهُونَ﴾

أقسم لقد (ابْتِغَاوُا) طلبوا لك (الْفِتْنَةَ) الشر والفساد بتشتيت شمك وتفريق أصحابك عنك قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول رأس المنافقين حين انصرف أصحابه يوم أحد (وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ) ودبروا لك المكائد والحيل من كل وجه في إبطال أمرك كتحرير الناس على المعصية وخذلانهم عن الجهاد ونشر الجواسيس بينهم ولكن الله خذلهم وقد خاب من إفتري (حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ) حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلت كلمته على سائر الأديان (وَهُمْ كَارِهُونَ) وهم كارهون لنصرة الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١.

فائدة: ١- (ربط الماضي بالحاضر): كان النفاق والشقاق والآن في زماننا المعاصر تسمى باسم الحرب الباردة أو الحرب الناعمة أو ما يسمى بالفوضى الخلاقة أو الحرب الإعلامية (الحرب النفسية) بنشر الشائعات المغرضة وتجريح الوطنيين وإثارة الفتن بين المسلمين ووصم المؤمنين المقاومين للإستكبار بالإرهابيين وتناهم عمليات الاغتيالات والمؤامرات وتشويه السمعة بطريقة محكمة ومنظمة والمطلوب ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/٦٠، قوة محكمة ومنظمة لردهم تقف بوجههم عن الإمام علي (ع): (أَعْدُوا لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا)، ٢- (وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ) كانوا يريدون وجهاً من الكيد فإذا لم يتم ذلك تركوه وطلبوا المكيدة في غيره وهم في خطط متقلبة ومتلونة ومستمرة.

٤٩ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنذِرْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

ومن هؤلاء المنافقين مَنْ يَقُولُ لك يا محمد أُنذِرْ لِي في القعود (وَلَا تَفْتِنِي) ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان وعدم الخروج إلى الجهاد ومشقاته ومعاناته (أَوْ) (وَلَا تَفْتِنِي) بالغنائم والنفائس ومشتريات الأنفس، سبب نزولها: بحادثة خاصة وهي أن الجد بن قيس كان من شيوخ المنافقين وقد اعتذر من الذهاب إلى تبوك بأنه يحب النساء، ويخشى إن هو رأى الروميات الفاتنات أن يقع بغرامهن فنزلت الآية (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) والتعبير القرآني يرسم مشهداً

متحركاً كأن الفتنة هاوية يسقط فيها المفتنون ، أي قَرُوا من سيء إلى أسوأ وسقطوا في عين الفتنة هو التخلف عن الجهاد وانكشاف كفرهم ونفاقهم ، وتعبير السقوط في الفتنة تنزيل تدريجي للهلاك واستدراج للخسران ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/ ١٨٢ ، ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ القلم/ ٤٥ ، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم في الدنيا والآخرة من كلِّ جانب إحاطة كاملة كإحاطة السوار بالمعصم وفيه وعيد شديد ، وهكذا (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ). فائدة : إنما تحيط النار بما أحاطت بهم خطاياهم حتى لا رجاء في توبتهم منها كقوله ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة/ ٨١ ، وتكون الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ.

٥٠ - ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَفُؤُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْهُ فَرِحُونَ﴾

إن تصيبك في بعض الغزوات (حَسَنَةٌ) ما يحسن وقعه على النفس من ظفر أو غنيمة يسؤهم ولا يفرحهم ذلك لحسدكم وحقدكم ! ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ وإن تصيبك مصيبة من نكبة وشدة أو هزيمة ومكروه في النفس والمال يفرحوا بذلك (يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ) : يَقُولُوا في أنفسهم أو لبعضهم بعضاً ، قد احتطنا كثيراً لأنفسنا وأخذنا الحذر واليقظة الكاملة فلم تقع في الشر أو مآزق! كما وقع الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر ! وينصرفون إلى بيوتهم وهم فرحون مستبشرون بما أصاب النبي (ص) والمؤمنين (وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) بنجاتهم مسرورون بحالهم. وهذا شأن الحسود اللئيم يموت غيظاً إذا رأى نعمة لغيره ، ولا يشمت بالمصيبة إلا كلَّ خسيس وضعيف سافل كقوله ﴿إِنْ تَمَسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ آل عمران/ ١٢٠.

٥١ - ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(في القضاء والقدر) رداً على المنافقين في الآية ٥٠ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ ، قل لن يصيبنا خير ولا شر ولا خوف ولا رجاء ولا شدة ولا رخاء ولا صغير ولا كبير ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ القمر/ ٥٢-٥٣ ، الزُّبُرُ: صحيفة الأعمال ، مُسْتَطَرٌّ : مكتوب (إلا ما كتَبَ اللهُ لَنَا)، كل ما يصيبنا فهو نتيجة أعمالنا التي إختارناها بأنفسنا لأنفسنا من دون إكراه وما يكتبه الله من أعمالنا التي لا تخفى عليه كقوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى/ ٣٠ ، ولكن ليس هو مسببه ، الإنسان هو فاعل السبب والله مسبب الأسباب على ضوء السبب الذي يفعله الإنسان، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) والسبب بيد الإنسان تكريماً له والمسبب هو الله تعالى ، ولا يعمل المسبب إلا بوجود السبب كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/ ٦٣، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر ،

فليست عصاه هي التي فلقَت البحر ، وإنما بسبب عصاه تحرك المسبب ففلق الله تعالى البحر ! أي عمل بالاستطاعة الممكنة والبقية على الله عزّ وجلّ وكل شيء مكتوب عند الله من أمرنا بحسب سنن الله تعالى في خلقه وبحسب تدبير الله لأمرنا كقوله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ السجدة/٥ ، وكلّ ما هو مدبّر مقدر وكلّ ما هو مقدر واقع ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ ، والمسألة لا تخضع لتمنيات الأصدقاء أو لشماتة الأعداء، في غرر الحكم: (إنّ الله سبحانه وتعالى يُجْرِي الْأُمُورَ عَلَى مَا يُفْتَضِيهِ لَا عَلَى مَا تَرْضِيهِ)، وعنه (ع): (أمره قضاءٌ وحكمةٌ ورضاهُ أمانٌ ورحمةٌ يُفْضِي بِعِلْمٍ وَيَعْفُو بِحِلْمٍ) نهج البلاغة خطبة ١٦٠. قضى الله سبحانه أن تكون حرية الإنسان ضمن حدود مشيئة الله وإرادته ، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرته وحكمته عز وجل **والمسلم الضعيف** يبرر ضعفه بالقضاء والقدر أما المؤمن القوي الواعي هو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره المتحرك الذي لا يرد ! ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكوير/٢٩ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إنّ الله إذا شاء شيئاً أرادَهُ ، وإذا أراد شيئاً قدرَهُ ، فإذا قدرَهُ قضاءهُ ، فإذا قضاهُ أمضاهُ) البحار/٥/١٢١ ولا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقضى وأمضى الميزان/١٣/٧٥، في نهج البلاغة خطبة ١٩١: (الَّذِي عَظَّمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى) ، في غرر الحكم: (يَتَّبِعِي لِمَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ)، في غرر الحكم: (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ) (هُوَ مَوْلَانَا) أي ناصرنا وحافظنا ومتولي أمورنا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ محمد/١١ ، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله تعالى ولا يعتمدوا على أحدٍ سواه ، وأن لا يقصروا في العمل المطلوب والسعي المرغوب ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المذثر/٣٨ ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم/٣٩-٤١ ، في غرر الحكم : (العِلْمُ بِعَيْزِ عَمَلٍ وَبِأَلِّ ، وَالْعَمَلُ بِعَيْزِ عِلْمٍ ضَلَالٌ) وهكذا تكون النتائج على قدر المقدمات، والجزاء على ضوء العمل، في غرر الحكم: (والمرء حيث يضع نفسه).

فائدة : (إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) قل لن يصينا شيء إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ ، وكونه مكتوباً عند الله أي معلوماً مقضياً عند الله ، ويمكن أن يتغير ما قضى الله به كقوله ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد/٣٩ ، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ الأنفال/٤٢ ، وعن النبي (ص) : (الدُّعَاءُ يُرَدُّ الْقَضَاءُ) الكافي/٢/٤٦٩ ، وعنه (ص): (مَنْ عَلِمَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدْرِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ)

(لَوْ اِطَّلَعْتُمْ عَلَى الْعَيْبِ لَرَضِيْتُمْ بِالْوَأْفِعِ) ، وعنه (ص) : (السَّعِيدُ سَعِيدٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَالشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) كنز العمال خير ٤٩٠ ، وهذه نتيجة أعمالهم باختيارهم. مثال : كتب الله تعالى

النصر للمؤمنين بشرط أن ينصروا الله كقوله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ مجذ/٧ ، فإذا حققنا الشرط وهو نصر الله بنصرة دينه فيحقق الله وعده لنا فينصرنا نصراً عزيزاً في النهاية ويثبت أقدامنا في نصرنا. (القضاء والقدر والأخذ بالأسباب) : نحن مسؤولون عن بناء مستقبلنا الدنيوي والأخروي بكامل إرادتنا مع الأخذ بسنن الله ومقدار سعي الإنسان ، مع إعداد الأسباب اللازمة وجعل نتائج الأسباب السلبية والإيجابية محكومة حسب تهيئة الأسباب كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ لأنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الفرقان/٣ ، إلا بالله تعالى وكقوله ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الحديد/٢٣ ، نَبْرَأَهَا : نخلقها ونوجدتها ، وكلُّ إنسان يقضي الله له أو عليه ضمن مقادير تناسبه حسب كفاءته وقدرته وجدارته التي اكتسبها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد/٨.

٥٢ - ﴿قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا قَتَرْتُمْ أَوْ بَأْيَدِنَا قَتَرْتُمْ أَوْ بَأْيَدِنَا قَتَرْتُمْ﴾

قُلْ هَلْ (تَتَرَبَّصُونَ) تنتظرون بنا إلا إحدى (الحُسَيْنَيْنِ) الكرامتين العاقبتين الحميدتين إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والسعادة ، وكل واحدة منهما نعمة حسنة بحسب المنظور القرآني الرباني ، فيكون المؤمن أمره كله خير فلم التقاعس عن الجهاد في سبيل الله وهو مهر الجنة وفيه رضا الله تعالى ، في الحديث : (مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ) روح البيان ٤٤٧/٣ ، المعنى : أن المقاتل من غيرنا قد ينجح وقد يفشل فيكون الكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدي المؤمنين أما المقاتل منا في سبيل الله فهو الراجح الناجح على كلِّ حال ، لأنه إن تغلب على خصمه فذاك النصر المعهود والمطلوب والمرغوب وإن قُتل فهذا وسام (الشهادة في سبيل الله) الذي هو أرقى أنواع الموت ، الموت الشجاع لنصرة القيم والمبادئ والحقوق والأخلاق ، الموت الذي لا تفرقه الحياة ، والموت المملوء بالحياة ، الموت الذي يهب الحياة السامية عن النبي (ص) (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ ص ٨ ، عن النبي (ص) : (فَوْقَ كُلِّ ذِي بَرٍّ بَرٌّ حَتَّى يُقْتَلَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيْسَ فَوْقَهُ بَرٌّ!) المصدر السابق، كقوله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة/١٥٤ ، ينتقل الشهيد من حياة أدنى إلى حياة أعلى وأسمى ، ينتقل من جوار الناس إلى جوار الله ورضوانه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ القمر/٥٥ ، (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا) ونحن (نَتَرَبَّصُ) ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به وجودكم وتطهير الأرض من شركم أو نقتلكم بأيدينا أو نتنصر عليكم وإما البقاء في الدلِّ والخزي لكم ، والإسلام لا يأمر بقتل المنافق ما دام يتظاهر بالإسلام وإقامة شعائر الله، عن الإمام علي (ع) : (مَنْ

صَارَعَ الْحَقُّ صُرْعًا) البحار ٧٧/٤٢٠ (فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) فإنتظرونا إننا معكم منتظرون ، انتظروا ما يحل بنا ونحن نتظر ما يحل بكم والأمور المتعلقة بالخواصم ، وكلُّ كائن آتٍ ، وكلُّ آتٍ قَرِيبٌ.

٥٣- ﴿قُلْ أَتَقْتُلُونَهُمْ وَأَنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

قل يا محمد للمنافقين ، بأي دافع أنفقتم أموالكم في سبيل الخير (طَوْعًا) طائعين مختارين أو (كَرْهًا) كارهين ، إنما للحصول على المنافع أو لدفع المضار فالفعل لغو لا يترتب عليه أثر لأنه شكل بلا مضمون ومظهر بلا جوهر ، للناس وليس لله (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) فلا قبول لفعلكم لماذا ؟ (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) وصفهم بالفسق وهو علة عدم قبول المال ، السبب لرد إنفاقهم لأنكم كنتم طغاة خارجين عن طاعة الله والذي يخرج عن إطار العبودية لله لا أثر لأفعاله ، في غرر الحكم: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ ﴿إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة/ ٢٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَخَذُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فَأَنْفَقُوهُ فِيمَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ مَا قَبِلَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْ أَخَذُوا مَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ فَأَنْفَقُوهُ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مَا قَبِلَهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ حَقِّ وَيُنْفِقُوهُ فِي حَقِّ) وسائل الشيعة ٦/٣٢٦.

٥٤- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلْ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾

إنها صورة المنافقين في كلِّ زمان ومكان يعرضها التعبير القرآني بدقة وهو يحلل ويكشف شخصيتهم بصورة واقعية ، حاول المنافقون أن يبذلوا المال حتى يقول الناس إنهم بذلوا لله وهم كافرون بالله وبالبدل معاً ، فالنفاق والرياء وحب السمعة هو السبب في عدم قبول ما يبذلون ، ولو بذل الملحد مثلاً بدافع الشفقة الإنسانية كما تقتضيها الفطرة السليمة لصح أن يجازى الإحسان بالشكر أما المنافق فهو أسوء، فكيف تقبل أموالهم ولا تُحبط أعمالهم ؟ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ النساء/ ١٢٣ ، (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) فهم يؤدونها حركات ظاهرة بلا إقامة ولا استقامة ولا خشوع ، يأتونها متناقلين وهذه من علامة نفاقهم ، وهم لا يصلون لله وإنما يراؤون الناس ولأغراض خاصة محدودة وخسيسة.

عن النبي (ص): (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ عَمَلًا فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِئَاءٍ) تنبيه الخواطر ص ١٥٣، عن الإمام علي (ع): (لِلْمُرَائِي أَرْبَعُ عَلَامَاتٍ يَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ وَيَنْشَطُ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ وَيَزِيدُ فِي الْعَمَلِ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ وَيُنْقُصُ مِنْهُ إِذَا لَمْ يُثْنِ عَلَيْهِ) شرح النهج ٢/١٨٠ ، (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ) لأنهم يعدونها خسارة كقوله ﴿مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم/ ١٧، نصح

البلاغة حكم ١٣٨: (مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادًا بِالْعَطِيَّةِ). فائدة: ذكر من أعمال البر الصلاة والنفقة لأن الصلاة عبادة وصله بالله وتهدب السلوك الإنساني، والنفقة في سبيل الله من أشرف المعاملات، فصار الدين حسن عبادة مع الله وحسن تعامل مع الناس، فإذا حصلت العبادة من دون حسن معاملة حصل الخلل في العبادة والمعاملة معاً، في الحديث: (لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ إِعْتَادَهُ وَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِذَلِكَ وَلَكِنْ أَنْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ) الكافي ١٠٥/٢، عن الإمام علي (ع): (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ: فَمَنْ وَفَى، اسْتَوْفَى) البحار ٢٦٤/٨.

٥٥ - ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾
الخطاب للنبي (ص) والمراد جميع المؤمنين، المعنى: لا تفتتن أيها المؤمن بما أوتوا المنافقون من زينة الدنيا وبما أنعمنا عليهم من متاعها من الأموال والأولاد ولا تنظر إليهم بعين الإعجاب، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ويحاسبهم حساباً عسيراً في الآخرة، فإنها لم تجمع بطرق مشروعة ولا تنفق بطرق مشروعة، وما يتمتعون به من نعم فإنها متاع قليل زائل ويحاسبون عليها كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢، وقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ آل عمران/١٧٨، (وتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) تَرْهَقَ: خروج النفس بصعوبة ومعاناة وحسرة، يموتوا كافرين مضطربين مستدرجين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم كقوله ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ التكاثر/١-٢، وهكذا الذي لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ؟، عن النبي (ص): (ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُخٌّ (بخل) مُطَاعٌ وَهَوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ) الترغيب والترهيب ٨٦/١. فائدة: ١- (لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا) يعذبهم بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والحزن عليها وكل هذا عذاب. ٢- الأموال والأولاد قد تكون نعمة عندما يوفق الإنسان على تقديرها وشكر منعمها، وقد تكون نقمة عندما يُساء استخدامها فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوّل حياته جحيماً وإذا حرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ويؤذيه ويشقى بها، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأُخْسِرَ أَهَمَّ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟! كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧.

٥٦ - ﴿وَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَئِنَّمَا لِنُكُودًا وَمَا هُمْ بِمُنْكَرُونَ﴾
والآية تفضحهم وتمزق ثوب النفاق عنهم المستترين به. المعنى: ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم، وهم ليسوا مؤمنين بالله كما أنتم كذلك وهم خرجوا بالكفر وقد دخلوا به ولا يجتمع النفاق مع الإيمان (وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ) الفرق: شدة الخوف من افتضاح أمرهم تكاد قلوبهم

أن تتفرق وتتلاشى ، (وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ) أي يخافون منكم أن تقتلوهم أو تأسروهم إن لم يظهروا الإيمان ، فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالإيمان الفاجرة خوفاً من قوّة وهيبة المسلمين ، إنهم جنباء ، والتعبير القرآني يرسم هذا الجبن ويجسّمه في حركة مخزية مذلة كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣ ، ثم ذكر شدة خوفهم فقال :

٥٧ - ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْحَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾

لَوْ يَجِدُونَ (مَلْجَأً) حصناً يلجأون إليه ويتحصنون فيه منكم (أَوْ مَغَارَاتٍ) جمع مغارة يغورون فيها فيتوارون عن الأنظار في ثقوب الجبال تحميهم من بطشكم (أَوْ مَدْحَلًا) نفقاً يدخلون فيه ولو ضيقاً مما يبعدهم عن الأعين (لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) يسرعون كالفرس الجموح السريع ، لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً وأعرضوا عنكم وتخلّصوا منكم ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين لو قدروا على الهروب من المؤمنين ولو في شرّ الأمكنة وأخسها لفعّلوا لشدة بغضهم لهم ، فلا تعتروا بأيامهم الكاذبة وبمظاهرتهم الخادعة ، فقد امتلأت قلوب المنافقين خوفاً ورعباً من قوة المسلمين. إنهم مذعورون مطاردون ، يطاردتهم الفرع النفسي الداخلي ويزلزلهم الجبن الرّوحي وكأنّ الله كذف في قلوبهم الرّعب فخر قواهم ! إنّا صورة متحركة لا يرسمها بهذه البلاغة إلاّ الأسلوب القرآني الرّبّاني الفتيّ الرّوحي العميق الفريد المحرّك للمشاعر والضمائر. كقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا﴾ الإسراء/٢٢ .

٥٨ - ﴿مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾

يَلْمِزُكَ : يعيب عليك عدالتك في توزيع الصدقات ، اللمز : الغمز بالقول والإشارة بالعين والطعن في الوجه مع كلام خفي. المعنى : ضمير (مِنْهُمْ) يعود إلى المنافقين أي بعض المنافقين من يعيبك يا محمّد في قسمة الصدقات وعدم العدالة في التوزيع في أموال الرّكاة المفروضة ليس انتقادهم فيها بالقصد صحيح وإنما مقصودهم أن يعطوا منها (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا) فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنتوا فعلك واعترفوا بعدل التقسيم (وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ) وإن لم تعطهم منها بكمية ترضيهم سخطوا عليك وعابوك وأنّه لا يعدل في التوزيع ، وهذا هو مقياس الحق والعدل عندهم أن يأخذوا ولا يعطوا ، إذن فمن السفه أن تخاطب بمنطق الدين والعقل من لا يؤمن بشيء إلاّ بذاته ومصالحته. كان رسول الله (ص) يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين فقال يا محمّد والله لعن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال النبي (ص) : (وَيْلَكَ إِنْ لَمْ أُعْدِلْ فَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِي ؟) وقال (ص) : (إِحْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ) تفسير الرازي ١٦ص ٩٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْآيَةِ أَكْثَرُ مِنْ ثُلُثِي النَّاسِ) الكافي ٢/٢٢٨ ، أمّا المؤمنون يرضون بقسمة الرسول ، وعن النبي (ص) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ). فائدة : ١- لا ينبغي للإنسان أن يكون رضاء وغضبه تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد بل ينبغي أن يكون لمرضاء ربه. ٢- اللمز : العيب والطعن في الوجه، والهمز :

الطعن في الغيبة كقوله ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة/١ ، أي كثير الطعن في أعراض النَّاسِ، في نهج البلاغة خطبة ١٧٦: (طُوبَى لِمَنْ شَعَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ غُيُوبِ النَّاسِ).

٥٩ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَمَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَمَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾
ولو أن هؤلاء المنافقين الذين عابوك يا مُحَمَّدُ رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة ، وإن قلت وجواب (لو) محذوف تقديره لكان خيراً لهم وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتحويل (مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَمَرَسُولُهُ) وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) كفانا فضل الله وإنعامه علينا وأغنانا من سائر الأسباب (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَمَرَسُولُهُ) سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) إنا إلى طاعة الله وإحسانه وفضله لراغبون وقد كفانا سائر الأسباب وهو وحده تعالى رب الأسباب. فائدة: ١- تحت الآية الإنسان أن يكون قانعاً بكسبه وورقه طموحاً نحو الأحسن وعفيفاً عما في أيدي الناس ويتوكل على الله مع السعي اللازم والعلم القائم وكَدَّ اليمين وعرق الجبين، عن الإمام علي (ع): (كَأَدُّ الْعَفِيفِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ) المبين ص ٢٥١، وعنه (ع) : (أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِفَافُ) الكافي ٧٩/٢ ثم ذكر الله تعالى مصرف الصدقات.
٢- (رَاغِبُونَ) ورغبه ورغب فيه : أي أحبّه، ورغب عنه: كرهه ، ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه.
٣- وأمثال هؤلاء يوجدون في كلِّ مجتمع وفي كلِّ زمانٍ ومكان.

٦٠ - ﴿إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَامِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

(الزكاة والتكافل الاجتماعي) المراد مصارف الصدقات هنا الزكاة المفروضة في هذه الأصناف الثمانية، في نهج البلاغة حكم ١٤٦: (حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ) ، سميت الزكاة صدقة لدلالتها على صدق العبد في عبوديته لله تعالى. وأيضاً (الصَّدَاقُ) أو المهر هو علامة على صدق محبة الزوج لزوجته ، والزكاة عنوان اقتصادي عام ، في غرر الحكم : (لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْعِلْمِ نَشْرُهُ ، وَزَكَاةُ الْعَقْلِ إِحْتِمَالُ الْجَهْلِ) ، والفقير الشرعي من لا يملك بالفعل أو بالقوة مؤونة سنة كاملة له ولعياله مع أنه يعمل ويكتسب ولكنه لا يكفيه والمسكين الذي لا شئ له وهو أشدُّ حاجةً من الفقير وهو العاجز عن العمل وقيل : الفقراء يتعففون ولا يسألون لعة نفوسهم ، والمسكين يسألون لحاجتهم الملحة ومهما يكن الفارق بينهما فهما يشتركان في العجز عن قوت سنة وقيل : الفقير الذي يمتلك حاجاته الضرورية دون كمالية ، والمسكين الذي لا يمتلك كل شيء ، الذي دنا فقره إلى درجة المسكنة والدلة ، وهما بالتالي مصطلحان نسبيا يُعرف معناه حسب الزمان والمكان والحالة الحقيقية والظروف الواقعية بحيث لا يحكم عليهما من الشكل دون المضمون ، مثلاً الفقير في البلد الغني غير الفقير في البلد الفقير في الحال والمال.

(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا) الجباة الذين يجمعون الصدقات ويدخل فيه أيضاً الذين يسعون في إقامة أحكام الدين وتأمين رواتب القضاة وغيرهم (وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبُهُمْ) وهم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى الإسلام وخدمة المسلمين ، فهي وسيلة لتأليف القلوب وجذبها وخاصة من الزعماء والرؤساء ، في غرر الحكم: (قُلُوبُ الرِّجَالِ وَخَشَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ) وهم من وخذوا الله ولم تدخل المعرفة قلوبهم فكان رسول الله (ص) يتألف قلوبهم ويعلمهم كيما يعرفوا ويسلموا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات كي يرغبوا في دفع بهم العدو ويستعين بهم في خدمة الإسلام عن طريق الإحسان إليهم (وَفِي الرِّقَابِ) تبذل الزكاة لتحرير العبيد من الرق ، وفي هذا الزمان لا يوجد عبيد وإماء والحمد لله ، والقرآن عالج الرق وشجّع على أسباب العتق لحفظ كرامة الإنسان والتخلص من الإحساس بالذلة ويشمل أيضاً تحرير السجناء والأسرى (وَالْغَارِمِينَ) هم الذين عليهم غرامة مالية وتحملوا ديوناً عجزوا عن وفائها بدون تقصير منهم وإنما قصور وظروف قاسية ، بشرط أن لا يكونوا صرفوها في موارد غير شرعية ولا فيها إسراف (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) في طريق مصالح الناس العامة وهو عنوان شامل وواسع ، وكل ما يحث على التقدّم الحضاري المشروع كبناء المساجد والمراكز الخيرية الصادقة وفي خدمة المجاهدين وإعداد السلاح والعتاد وكل عمل ينفع الناس ويرضي الله (وَأَبْنِ السَّبِيلِ) الغريب الذي انقطع في سفره عن أهله وماله وبلده على أن لا يكون سفره في معصية (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ) فرضها عز وجل وحددها من أموال الأغنياء لصالح الناس المخصوصين (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (عَلِيمٌ) بمصالح العباد ومراتب استحقاقهم (حَكِيمٌ) لا يفعل إلاّ الحكمة. فائدة : ١- كقوله ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة/١٠٣ ، لو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم الواجبة على الوجه القرآني لم يبق فقير ولا مسكين ولا حاجة في المجتمع المسلم ، وهي بذلك تعبّر عن التكافل الاجتماعي العام بكلّ شؤونه اللازمة في العمل السياسي والعلمي والعسكري.. وغيرها ، عن الإمام الباقر (ع) : (الرِّكَاءُ تَزِيدُ فِي الرِّزْقِ) البحار ٧٨/١٨٣.

عن النبي (ص) : (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ) كنز العمال خبر ١٦١١٤ . ٢- (الْمَوْلَفَةَ قُلُوبُهُمْ) وهم طوائف ولهم مفهوم واسع ، منهم من دخل الإسلام حديثاً ويراد تشيبتهم عليه ، ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا ، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويُرْجى تأليف قلوب أمثالهم في قومهم ليسلموا حين يرون إخوانهم يكرمون ويرزقون ، ومنهم تعطى خوفاً من شرهم وأماناً من كيدهم ، يشمل هذا المفهوم كل من يمكن استمالاته إلى الإسلام من الكفار والمشركين والمنافقين والعصاة والطّغاة والبعاة وغيرهم ، لا يعني شراء إيمانهم بالأموال وإنما وسيلة تكريم ومساعدة للإطلاع على حقيقة الإسلام. ٣- أهمية الزكاة في النظام الإسلامي : صورة مشرقة لدعم الاقتصاد الإسلامي ولدعم كل تقدّم حضاري نهضة المجتمع ومعالجة كل تخلف وتأخر

اجتماعي ، وتقلل من الفوارق الطبقيّة وتذهب بالبغضاء في نفوس الفقراء تجاه الأغنياء ، وتزيد من الرغبة في التعرّف على الإسلام، والزكّاة لا تختصّ بالإسلام المحمّدي وحده ، قال عيسى (ع) : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ مريم/٣١ ، وقال موسى (ع) : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ البقرة/٤٣ ، وجعل القرآن الكريم ذكر الزكاة إلى جانب الصلاة لبيان أهمية حسن العلاقة مع الله ومع الناس ، يبيّن قانون الزكاة أنّه قانون منظم ومدروس وحكيم يقضي على الفقر والتخلّف ، فليس الإسلام دين عبادة مع الله فحسب وإمّا هو نظرية حياة عامة وشاملة لهضة حضارية أيضاً.

٦١ - ﴿ وَمَنْهُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إنّه سوء أدب في حقّ الرسول (ص) وهو غير صورة اللمز في الصدقات ، ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم (وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ) يسمع كل ما يقال له ويصغي إليه ويصدقّه ! ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول الشريعة الإسلامية فظنّوا أنّه يصدّقهم ، إنّها نقطة قوة في أخلاق النبي (ص) واعتبرها المنافقون نقطة ضعف ، كأنهم غفلوا عن ان القائد إذا أراد أن يجبه الناس عليه أن يملك قلوبهم ويألفهم ويألفوه ويحبهم ويحبوه ويقبل عذرهم ويستتر عيوبهم ويهدّب نفوسهم ويكسر جميع الحواجز النفسية بينه وبينهم ، عندما يسمعهم ويتقرب منهم ويعالج مشاكلهم ويخفف معاناتهم بشرط أن لا يستغلها من تسوّّل له نفسه ، فردهم القرآن مباشرة (قُلْ أُوذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ) إنّهُ نِعَمَ الأُذُنُ لأنّه لا يسمع إلّا ما ينفعكم ولا يضرّكم ذلك في مصلحتكم ولمنفعتكم ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، ويسعى لوحدتكم ومودتكم ولا يستمع إلى ما فيه ضرر عليكم ويخفف من معاناتكم بمعالجة مشاكلكم كالغيبية والنميمة والبهتان واللغو والهلو بالباطل ولا يقبل أخبار المنافقين والظالمين ، فهو أذن خير لا أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ويشجع عليه ولا يعمل الشر إذا سمعه وينهى عنه (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ)

يسمع الوحي من الله ويصدقّه ويسمع من المؤمنين ويصدّقهم لعلمه بإخلاصهم ويعرف مستوى علمهم ومن حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يصدقّه فيما لا ضير فيه على الآخرين حتى يثبت العكس ، وكلّما أُلقي إليه منهم خير يحمل فعله على الصّحة وعدم رميه بالكذب وسوء النّية من غير أن يرتب أثراً على كلّ ما يسمعه ويستمع إليه وإلّا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين (وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) فتصديقه لكم خير لكم ورحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم وهو الذي أنقذهم من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة وسلك بهم سبيل الفطرة السليمة وحفظ لهم الدين الهادي كقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ الشورى/٥٢-٥٣ ، الدّين الذي يحمي

الفرد والمجتمع ومن ثم هو رحمة مهداة للعالمين ومنقذ للناس أجمعين كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧ ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة/١٢٨ ، (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) والذين يؤذون الرسول الكريم بأي نوع من الأذى أو يعيبونه ويقولون ما لا يليق بمقامه الشريف فهم يؤذون الله والمؤمنين وهم الذين يعادون الحق ويتعدون على حقوق الناس ، لهم عذاب موجه في الدنيا والآخرة في غرر الحكم: (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ).

فائدة : ١ - أذى رسول الله (ص) من أذى أهل بيته لقوله (ص) : (يَأْ عَلِيٌّ سِلْمَكَ سِلْمِي وَحَرْبُكَ حَرْبِي). ٢ - وعنه (ص) : عن فاطمة الزهراء (ع) (مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي). تفسير النور ٤٢٨/٣
٣ - (أُذُنٌ) وإنما سمّوه أذناً مبالغة في وصفه باستماعه كل ما يقال حتى صار كأنه نفس الأذن السامعة ، يريدون بذلك إنّه ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب سريع الاعتراض بكل ما يسمع!

٦٢ - ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

لا يزال الحديث عن المنافقين : يخلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان الكاذبة خوفاً منكم أيها المسلمون ، إنما يصغر من يعرضون عن الله ويعيشون ذلّة في نفوسهم فيخشون من دونه من عباد الله ويخضعون لهم أذلاء (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وتعظيم مقام النبي (ص) (إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا الله ورسوله ، وإفراد الضمير من أدب التوحيد في القرآن ، قال (لِيَرْضَوْكُمْ) ولم يقل (ليرضوكم) إشعار بأن إرضاء رسوله هو عين إرضائه تعالى ، وصوناً لمقام الله الجليل من أن يعدل به أحد. فائدة : من يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق فله حصة من النفاق.

٦٣ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِّثُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

يُحَادِّدُ : يخالف ويعادي ويعاند ويتجاوز الحد في العداء. المعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله ورسوله وتجاوز حدود الله وتجراً على محارمه ، والاستفهام للتوبيخ والتأنيب ، أي إذا كانوا قد آمنوا كما يدعون فكيف لا يعلمون ؟ (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا) جزاء إسقاط الله ورسوله (ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) والهوان الشديد والذل الكبير المقرون بالفضيحة على رؤوس الأشهاد.

٦٤ - ﴿يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَنْزِلُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾

لم يحذر المنافقون حقيقة وواقعاً من نزول الوحي في شأنهم لأنهم لا يؤمنون بالله حتى يؤمنوا بوحيه ورسوله ، ولكن قال بعضهم لبعض ساخراً احذروا أن تنزل سورة في شأنكم والدليل على ذلك

قوله تعالى بلا فاصل (قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجٌ مَا تَحَدَّرُونَ) مُخْرِجٌ : مظهر ، وقد فضح الله سبحانه أمر المنافقين وأظهر ما في نفوسهم من النفاق في هذه السورة وغيرها ، وسمى الله نفاقهم استهزاء ، في غرر الحكم: (نِقَاقُ الْمَرْءِ مِنْ ذُلِّ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ). فائدة: ومن هذا سميت سورة التوبة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين.

٦٥ - ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

ولكن سألت لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمرح ونلعب للترويح عن النفس فيكون الكذب والباطل في حقه وفي حق الإسلام يقولون لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمرح ونلعب للترويح عن النفس فيكون الكذب والتبرير الأسلوب الدائم عند المنافقين. روي : من المنافقين من قال في غزوة تبوك يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات هيهات فأطلع الله النبي (ص) على ذلك فدعاهم فأخبرهم بكلامهم فقالوا (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) ونمرح غير مجدين ! وحلفوا على ذلك فنزلت (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) الاستفهام للتوبيخ ، أتستهزئون بدين الله وشرعه وكتابه ورسوله ؟ فكان عذرهم أقبح من ذنبهم ! وهل أرسل الله أنبياءه للسخرية والاستهزاء ؟ فهم يعتذرون عن سيئة قبيحة بسيئة أخرى أشد! وهو الاستهزاء المؤذي إلى الكفر ﴿كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ التوبة/٦٦ ، كقوله ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ الزخرف/٨٣ ، ولا فرق بين هؤلاء المنافقين الذين استهزؤا بالله وكتبه ورسله وبين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه والذين يحرفون الدين عن مقاصده والذين يكتمون حقائق الدين عن الناس تبعاً لأهوائهم لأن كلاهما أبطن غير ما أعلن وقال غير ما فعل.

٦٦ - ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

لا تعتذروا ولا تشتغلوا بالاعتذار أيها المنافقون بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد انكشاف أمركم فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان (إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) إن نعف عن فريق منكم لتوبتهم النصوح سواء أكانوا رؤساء أو مرؤوسين (نُعَذِّبُ طَائِفَةً بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والشقاق والإجرام وإن كانوا رؤساء وزعماء. فائدة : قبل أن يعترفوا بالاستهزاء كانوا كافرين واقعاً مسلمين ظاهراً كونهم نطقوا بالشهادتين ، فجرى عليهم حكم الإسلام وبعد الاعتراف بالاستهزاء صاروا كافرين واقعاً وظاهراً فجرى عليهم حكم المرتدين.

٦٧ - ﴿الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُتَكَبِّرِ وَيُهَيِّجُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المتافقون والمتافقات من الرجال والنساء (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) من صنف واحد في الوصف والعمل والخلق ، ومن طينة واحدة وطبيعة واحدة يتشابهون في الصفات والأهداف وتختلف أفعالهم

وأقوالهم ولكنها ترجع إلى طبع واحد وتنبع من هدف واحد ، يجمعهم النفاق ويؤلف بينهم ويوحد كلمتهم من رجال ونساء وكبار وصغار وكأنهم أفراد أسرة واحدة ، تشترك في جبهة واحدة و يجمعهم خبائث الصفات والأعمال ويشتركون في مساوئ الأخلاق وسوء الطوية ولوم السرية والغمز واللمز والدس والضعف عن المواجهة والجبن عن المصارحة ، وأريد (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) نفي أن يكونوا من المؤمنين تلك صفاتهم الذاتية أما سلوكهم فهو خبيث (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) يأمرون بالكفر والنفاق والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة لله والرسول والوقوف بوجه الإصلاح والمعروف (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) يمسكون أيديهم بالبخل عن الإنفاق في سبيل الله ولكنهم يبذلون عطاياهم في سبيل الشيطان (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) تركوا طاعته وأعرضوا عن ذكره سبحانه فتركهم وما هم فيه من ضلال أي تركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسيين ، وحرمتهم من التوفيق والتسديد واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان فلا وزن لهم ولا اعتبار (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الْفَاسِقُونَ : أي الخارجون عن طاعة الله إلى طاعة غيره ، تعددت الأسماء والهدف واحد ، كلاهما خالفا للرحمن واتبعا للشيطان وخرجا عن قواعد العبودية لله فصارا عبيداً للشيطان ! كقوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ النساء/ ١٤٢ ، عن الإمام الصادق (ع) : (أَرْبَعٌ مِنْ عِلْمَاتِ النِّفَاقِ : فَسَاوَةُ الْقَلْبِ ، وَجُمُودُ الْعَيْنِ ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى الدَّنْبِ ، وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا) البحار ١٧٦/٧٢ ، فائدة : ١ - لم يكن المنافقون وحدهم بعضهم من بعض وإنما الظالمون كذلك ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الجاثية/ ١٩ ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأنفال/ ٧٣ ، وكذلك ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة/ ٧١ ، فإذا تحققت ولاية الباطل فلا بد أن تتحقق ولاية الحق ، ٢ - (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) إن الله تعالى لا ينسى ولا يلهو ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مريم/ ٦٤ ، وإنما هو بالمعنى المجازي أن يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم ومصالحتها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر/ ١٩ ، عن الإمام علي (ع) : (يَعْنِي بِالنِّسْيَانِ أَنَّهُ لَمْ يُنْبِتْهُمْ كَمَا يُنْبِتُ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ كَانُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا) تفسير النور ٤٣٥/٣ - ٣- تشير الآية إلى التأثير الكبير والخطير للنساء المنافقات في المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

٦٨ - ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكُفَّارِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

وعد الله الذين يخفون الكفر وهم أهل النفاق رجالاً ونساءً والمتجاهرين بالكفر نار جهنم جزاء وفاقاً (خَالِدِينَ فِيهَا) هي المكان اللائق بهم والدائم لهم.

(هِيَ حَسْبُهُمْ) هي جزاء أعمالهم وهي التي تكفيهم في العذاب ولائقة بذنوبهم ولا يحتاجون عقوبة غيرها ولا يتعدى عذابها إلى غيرهم وهي كل ما لهم عند الله ولا شيء لهم غيرها كقوله

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ المطففين/١٥، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم وأهانهم وطردهم من رحمته وَالَّذِينَ لَا تَلِيْقُ بِهِمُ الرِّحْمَةُ تَلِيْقُ بِهِمُ النِّقْمَةُ ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنْ تَحِدْ لَهُ نَصِيرًا﴾ النساء/٥٢، (وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) دائم لا ينقطع ولا يخف وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ؟ في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ)، عن النبي (ص): (مَنْ خَالَفَتْ سَرِيْرَتُهُ عَلَانِيَتُهُ فَهُوَ مُتَأَفِّقٌ كَأَنَّكَ مَنْ كَانَ) البحار/٧٢/٢٠٧. فائدة وقدّم المنافقين والمنافقات في الوعيد على الكفار لبيان أنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال المسلمين يبقون شرّاً من الكفار! ولا سيما المتدينين منهم الذين يتظاهرون بسيماء الدين ولكنهم يعتمدون الفكر الديني المنحرف المملوء بالغلو والفساد المبطن الذي ظاهره يغرّ ويسرّ وباطنه يضر!

٦٩ - ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَنْتَعْتُمْ بَخْلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يذكر القرآن الناس بمصير الماضين ويحذّرهم ألا يكونوا عبرة للباقيين كقوله ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الإنسان/٢٩، وقوله ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة/١٢. المعنى: (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) حالكم أيها المنافقون كحال من سبقكم من المكذبين في الشرّ والقبح والضلالة، علماً أنّ أولئك (كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً) كانوا أقوى منكم أجساماً وأشدّ بطشاً وأقوى سلطاناً (وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا) وكانوا أوفر أموالاً وأكثر أولاداً ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحلّ بكم ما حلّ بهم (فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ) تمتعوا (بِخَلْقِهِمْ) أي بنصيبيهم المقسوم لهم وحظهم من زينة الحياة الدنيا كثيراً أو قليلاً وصرفوا أعمارهم فيها وآثروها على نعم الآخرة ثم أهلكناهم بذنوبهم رغم قوتهم بالأموال والأولاد (فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ) فَاسْتَمْتَعْتُمْ مثلهم بنصيبيكم بزينة الحياة الدنيا ولذاتها وشهواتها المؤقتة كما استمتع الذين سبقوكم بنصيبيهم منها.

(وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) أي ودخلتم في الباطل وسلكتم سبيل الضلال وآثرتم الدنيا على الآخرة وانحرفتم عن سبيل الله كما خاضوا هم فاحذروا سوء العاقبة التي حلّت بهم، مع أنّكم أضعف منهم وأقلّ مالاً وولداً (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) حَبِطَتْ: بطلت، ذهبت حسناتهم وأعمالهم الصالحة باطلاً بعدم الثواب عليها في الآخرة، ولا ينالون عاقبة حسنة وكأهم شجرة بلا جذور ولا ترفع شانهم عند أهل الإيمان في الدنيا (وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الخاسرون الحقيقيون للدنيا والآخرة وأنتم أيضاً أخطأتم مثلهم فكونوا على حذر، فمن لا ينفعه الحق يضرّه الباطل ومن لا ينفعه الهدى تضرّه الضلالة لأنهم ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الزمر/١٥، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أُرِيحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَهْمَ

شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟! فاتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم ، وَأَحْسِرُ النَّاسَ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ. روي عن النبي (ص) : (أَنْتُمْ أَشْبَهُ الْأُمَمِ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّبَاعِ وَالصَّفَاتِ تَتَّبِعُونَ عَمَلَهُمْ حَذْوَ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ حَتَّى لَوْ أَنَّ مِنْ أَوْلِيَّكَ مَنْ دَخَلَ فِي جُحْرِ ضَبِّ (سبل المناهات) لَدَخَلْتُمُوهُ!! وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مِثْلَهُ..).

عن النبي (ص): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ حَتَّى لَا تُحْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُحْطِئُكُمْ سُنَّةَ (طريقة) بَنِي إِسْرَائِيلَ) الميزان ج ٣ ص ٣٧٩ عن صحيح الترمذي، والدر المنثور، وفي كمال الدين، وفي مدلول الآية قوله ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/١٠٣-١٠٤. فائدة: سمي النصب خلافاً لأنه مشتق من الخلق بمعنى التدبير والتقدير أي ما قدر لصاحبه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد/٨ ، ونصيب كل واحد هو الخير المقدر له كقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ﴾ هود/١٥.

٧٠ - ﴿الْمُرَاثِمَةُ بَأْسَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُنَّ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

أَمْ يَأْتِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ خَيْرَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ كَانُوا أَطْوَلَ مِنْهُمْ أَعْمَارًا وَأَعْمَرَ دِيَارًا وَأَبْعَدَ آثَارًا ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَمْتَعُونَ غَيْرَ شَاعِرِينَ أَنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِي طَرِيقِ نَتِيجَتِهِ الْهَلَاكِ ، وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّحْذِيرِ ، حِينَ عَصَوْا الرِّسْلَ مَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ؟ وَالَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيَيْنِ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيَيْنِ (قَوْمِ نُوحٍ) قَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِالطُّوفَانِ وَقَوْمِ هُودٍ (عَادٍ) الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِالرِّيحِ وَقَوْمِ صَالِحٍ (ثَمُودَ) الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِالصِّحْيَةِ (وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ) الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِسَبَبِ النِّعْمَةِ أَي بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا ، وَهَلَكَ نَمْرُودٌ بِبِعُوضَةٍ (وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ) قَوْمِ شَعِيبَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِعَذَابِ الرَّجْفَةِ يَوْمَ الظَّلَّةِ (وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) الْمُنْقَلِبَاتِ عَلَى أَهْلِهَا وَهِيَ قَرَى وَدُورِ قَوْمِ لُوطٍ ائْتَفَكَتْ بِهِمْ أَي انْقَلَبَتْ بِهِمْ فَصَارَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا (أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ بِالْمُعْجَزَاتِ فَكَذَّبُوهُمْ فَأَهْلَكُوا (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ) فَمَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ظُلْمًا إِنَّمَا أَهْلَكَهُمْ بِإِجْرَامِهِمْ لِأَنَّهُ بَيْنَ لَهُمُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَمِيزَ الرَّشْدَ مِنَ الْغِيِّ وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَكَانَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. أَفَأَمَّنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَطْبُقَ عَلَيْهِمْ سُنَنُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ؟ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ غافر/٨ /الفائدة : ١- النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تتفكر وتعميها النعمة فلا تتبصر ، وما تنفع عِظَاتِ الْمَاضِي إِلاَّ مِنْ تَفْتِيحِ بَصَائِرِهِمْ لِإِدْرَاكِ سُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَحْوَلُ وَلَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ. ٢- إِنَّمَا الْغَفْلَةُ وَالْعَمَى وَالْجَهَالَةُ نَرَاهَا تَصَاحِبُ الْقُوَّةَ وَالنِّعْمَةَ وَالرِّخَاءَ إِتْمَا حَالَةَ نَرَاهَا كُلَّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِلاَّ مِنْ رَحْمِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

٧١ - ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض إذ كانوا طبيعة واحدة ، نساءً ورجالاً ومصالح مشتركة (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) نساءً ورجالاً ولاية مشتركة فكلٌّ منهم يسدّد الآخر وينصره ويتولى أمره في جوٍّ من الإخاء والمودة والثقة المتبادلة ، فكلٌّ من المرأة والرجل دور في إصلاح المجتمع وتشملهما رحمة الله (أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) فهم إخوة في الدين ، وربّ أخٍ لم تلده أمك ، فبعضهم يتعاون مع بعض في أغلب أمور الحياة ولاسيما في النصرة كقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠ ، أَوْلِيَاءُ : ولاية نصرة وأخوة ومودة وتوافق وتعاون وتراحم والدفاع عن الحق والحقوق وإعلاء كلمة الله ، عن الإمام الصادق (ع) : (الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِنْ اشْتَكَى شَيْءٌ مِنْهُ وَجَدَ أَلَمَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ جَسَدِهِ، وَأَزْوَاجُهُمَا مِنْ رُوحٍ وَاحِدَةٍ) البحار ٢٦٨/٧٤ ، أما المنافقون والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض ، ولكن يشبه بعضهم بعضاً في الخلق والسلوك وفي الشكوك ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة وفيهم البخيل والجبان فلا ينصر بعضهم بعضاً ببذل المال والنفس ، وعملهم التعاون بالكلام وما لا يشق من الأعمال كقوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ الحشر/١٤ ، والتعبير القرآني الدقيق يركز الأضواء على أسرار الشخصية المؤمنة ذات الطبيعة المتكافئة المتراحمة المتضامنة عن النبي (ص) : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) عن النبي (ص) (الْمُؤْمِنُونَ كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ) المراعي ص ١٧ (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الْمَعْرُوفِ : ما استحسنته الشرع ورغب فيه ، الْمُنْكَرِ : ما استقبحة الشرع ونهى عنه ، وإقامتهما تحقيق الخير للجميع ودفع الشر عن الأمة ، وهذا يحتاج إلى الولاية والنصرة والتضامن والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فتقف الأمة صفاً واحداً ولا تدخل بينها عوامل الفرقة وحيثما وجدت الفرقة بين المؤمنين فمعناه دخل بينهم الشيطان وهو عنصر غريب ومرض خطير ، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) يؤدونها على الوجه الأكمل وهي صلة مشرفة بينهم وبين الله تعالى فتتحقق بها حكمتها وأثرها في الشعور الفردي والسلوك الاجتماعي ، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) الفريضة العملية التي تعطى لمستحقيها لوجه الله تعالى ولا يبخلون بها وهي التي تربط المؤمنين بأممتهم المسلمة لما بينهم من الولاية والنصرة فتتكامل الولاية مادياً وروحياً، ودائماً تقرن إقامة الصلاة بالزكاة في القرآن دلالة على أن الإسلام دين حُسن عبادة وحُسن معاملة.

دين قول وعمل دين شكل طاهر ومضمون فاخر (وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) في كلِّ صغيرة وكبيرة وفي السرِّ والعلانية ، فهم يتبعون ولا يتدعون ، فلا يكون لهم هوى وأنا غير أمر الله ورسوله ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله وبذلك يوحدون نهجهم وهدفهم فلا تتفرق بهم السبل ، والمنافقون فاسقون خارجون عن طاعة الله ورسوله (أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) أولئك يدخلهم الله في رحمته ولهم حسن العاقبة وعظيم الجزاء على جميل أعمالهم وصفاء نفوسهم ويتعهدهم برحمته في الدنيا، ويثبتهم على الصراط المستقيم وتطمئن قلوبهم ، وفي الآخرة بالمغفرة والرضوان والجنة ويقابل هذه الرحمة نسيانه تعالى للمنافقين من رحمته ولعنه إياهم (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (عَزِيزٌ) لا يمتنع عليه شيء و (حَكِيمٌ) يضع الأمور مواضعها.

فائدة : (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) يتجهون بهذه الولاية المشتركة وهذه الحماية والرعاية المتبادلة والمتعاونة والمتوازنة إلى تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الله وتحقيق الوصاية بين المؤمنين ، وقبل هذا كله يقدمون النصائح الكافية بأساليب إعلامية واعية ومؤثرة كقوله ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف/٦٨ ، ويذكرون الناس بأساليب شقافة كقوله ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥.

٧٢ - ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَمِنْ رِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ..) وعدهم وعد تكريم على إيمانهم وعملهم الصالح بجنت النعيم التي يصعب وصفها لجمالها وجمالها ، وفي ذلك فليستسبق المتسابقون ، هذا في مقابلة قوله ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ التوبة/٦٨ ، الجنات : البساتين الملتفة الأشجار التي تجن وتظل ما تحتها وتغطيها وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها ، وهي جنت إقامة دائمة وسعادة باقية لتكريمهم وإعزازهم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧، في غرر الحكم: (مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَقَدْ ظَلَمَهَا) (خَالِدِينَ فِيهَا) لا يثنى فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها ولا ينقطع (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) ومنازل متكاملة الجمال والجلال يطيب فيها العيش وتحلو فيها الحياة في جنتِ عَدْنٍ حيث النعيم والتكريم والإقامة والخلود.

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) إته رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ يغمر هذه الأرواح الصافية، ورضوان فرض الله لا يقدره بشر لأن رضواناً يسيراً منه تعالى أكبر من نعيم الجنة كلها لأنه مبدأ جميع السعادات ومنشأ تمام الكمالات ، وعلى قدر رضا الله يكون النعيم ، وبمقدار الطاعة يكون الرضا ، وبمقدار العلم والإيمان تكون الطاعة والعبادة (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وذلك رضوان الله الذي هو الفوز كل الفوز بدرجة امتياز ، وهو النعيم كل النعيم فيغبطه عليه أهل الجنة ، فالرضوان هو حقيقة كل فوز

وعلى قدر الرضوان تنال درجة الفوز وكلما زاد الرضا ازداد مقام الفوز حتى يصل إلى الفوز العظيم بالنعيم الجسماني والروحاني الذي يفوق وصفه بالكلمات. فائدة : ١- عن النبي (ص) (جَنَّتِ عَدْنِ دَارِ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ وَلَا يَسْكُنُهَا غَيْرٌ ثَلَاثَةَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَقُولُ اللَّهُ طُوبَى لِمَنْ دَخَلَكَ) الأمثل ٦/١١٤، كقوله ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين ٢٦ ، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ الصافات ٦١. ٢- وعدهم وعداً شاملاً فيه المفاجأة والمخبة لكل واحدٍ منهم على اختلاف طبقاتهم في الفضل كيفاً وكماً. ومعنى وعدهم أي أخبرهم بالمنافع قبل وقوعها.

٧٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المصير﴾

(جَاهِدُ) الجهاد : من استفراغ الجهد والوسع وبذل الطاقة اللازمة في مواجهة العدو ، استعمل النبي (ص) اللين مع المنافقين كثيراً فبلغ الحلم غايته ، بل جرأهم التسامح على الطعن فيه والقول بأنه (أُذُن) ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ويلحقهم بالكافرين على السواء ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفاً غليظاً لا رحمة فيه ولا تسامح بل فيه الشدة والخشونة والرهبنة والرعبة ، فإن للين مواضعه وللشدة مواضعها ، فإذا انتهى العلاج باللين فليكن العلاج بالشدة ، ولكن لم يبين النص نوع الجهاد هل هو بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر ؟ ومعنى هذا إن الله تعالى ترك الخيار للنبي (ص) في نوع الجهاد الشديد بما يراه من الحكمة والمصلحة ، يروى : لما نزلت الآية أمر رسول الله (ص) أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه ، فليلق بوجه مكفره. عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) لَمْ يُقَاتِلْ مُنَافِقًا قَطُّ إِتْمًا كَانَ يَتَأَلَّفُهُمْ) ، لأن المنافقين لا يظهرون الكفر فلا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان مجمع البيان ج ٥-٦ ص ٥٠، وهذه السياسة الحكيمة الهادئة كانت سبب توبة كثير من المنافقين وإسلام كثير من الكافرين (وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المصير) كقوله ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الفرقان/٦٦. في غرر الحكم: (إِخْلَطِ الشَّدَّةَ بِرِفْقٍ ، وَإِزْفِقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَوْفَقَ) ، عن الإمام علي (ع) (إِذَا كَانَ الرَّفْقُ حَرْقًا كَانَ الْحَرْقُ (الغلظة) رِفْقًا ، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً ، وَالدَّاءُ دَوَاءً) شرح نهج البلاغة ١٦/ص ٩٧.

٧٤ - ﴿خَلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَكُلُوا وَمَا قَعُوا إِلَّا أَنْ أَعْتَاهُ اللَّهُ وَمِنْ سُوْلِهِ مَنْ فَضَّلَهُ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعِدْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَمْرِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
يخلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من كلمات مؤذية إليك (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ) ما ذكر سبحانه كلمة الكفر التي نطقوا بها كيلا يقرها الناس فلا ينبغي ذكرها ، وإتخاذ كلمة سوء في النبي (ص) والوحي والمؤمنين أطلقها المنافقون حين خلا بعضهم إلى بعض (وَكَفَرُوا بَعْدَ

إِسْلَامِهِمْ) أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام فلم يدخل الإيمان في قلوبهم (وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) هَمَّ نفر من المنافقين بالفتك بالنبي (ص) عند عودته من تبوك ولم يوفقوا لتحقيقه وكانوا خمسة عشر رجلاً (وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) وَمَا نَقَمُوا: أي وما كرهوا وما عابوا على الرسول وسبب نعمتهم عليه ، وماله عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، حيث كانوا فقراء فصاروا أغنياء من غنائم الحرب وعطاء الرسول (ص) وبسط عليهم المال والزفاهية ، فجعلوا موضع الشكر لهذه النعمة موضع الكفر فقابلوا الإحسان بالإساءة وهكذا في غرر الحكم: (اللَّيِّمُ إِذَا أُعْطِيَ فَوْقَ مِقْدَارِهِ تَنَكَّرَ تَنَكَّرَتْ أَحْوَالُهُ)

كقوله ﴿بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ إبراهيم/٢٨ ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب ، ثم دعاهم الله تعالى إلى التوبة (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ) فَإِنْ يَتُوبُوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم (وَإِنْ يَتَوَلَّوْا) يعرضوا ويصروا على النفاق (يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) في الدنيا بالقتل والأسر أو بالاستدراج ، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار (وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ليس لهم من ينقذهم من العذاب ولا من يشفع لهم فيخلصهم يوم الحساب. فائدة: ١- هل توجد في عالمنا المعاصر دولة مستعدة أن تعامل المنافقين الذين يسعون لإسقاطها كما عاملها الإسلام في حكمته مهما ادّعت من ديمقراطية وحرية ؟ فمن أظلم الذين يرمون الإسلام بأنه دين القوة والإرهاب والخشونة ٢- (وَمَا نَقَمُوا..) الإحسان يقطع اللسان، ولكن أن تتوقع من الذي تحسن إليه أن يغدر بك ، والغدر من صفات اللئام ، إنها نفسية خسيصة ساقطة، عن الإمام علي (ع): (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) ، في غرر الحكم: (مُتَّقِي الشَّرِّ كَفَاعِلِ الْخَيْرِ).

٧٥ - ٧٦ ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

ومن المنافقين من أعطى الله عهده الموثق (لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ) لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق (لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) لنصدقن على الفقراء والمساكين ولنعملن بعمل أهل الخير والصلاح. ٧٦- (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله (بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وتكفروا للوعد ومنعوا حق الله وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ، عن النبي (ص) : (لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) البحار ٧٢/١٩٨ ، في غرر الحكم: (لَا تَنْفَرَنَّ بِعَهْدٍ مَنْ لَا دِينَ لَهُ). أنظر سبب النزول في الآيتين ٧٧-٧٨

٧٧ - ٧٨ ﴿فَأَعْتَبَهُمْ نَفَاثَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

جعل الله عاقبتهم وعقوبتهم معنوية (فَأَعْقَبَهُمْ) أي تبعهم النفاق في الطريق الذي ركبه مطرودين من رحمة الله فرسخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله إلى يوم موتهم وهم محرومون من التوبة ! (بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ) هذا هو السبب الأول لنفاقهم نقضهم للعهد ومخالفتهم للوعد (وَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وهذا هو السبب الثاني لنفاقهم كذبهم في دعوى الإيمان وهما السبب إلى سوء عاقبتهم (أَمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) الاستفهام للتوبيخ ، والنجوى الكلام الخفي بين اثنين أو أكثر ، ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرار أنفسهم وخفايا أحوالهم ويعلم نجواهم وما يحدثون به نبيهم وما يتحدثون به بينهم من الطعن في دين الله (وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس؟ **القصة (٧٥-٧٨) نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري** وهو صحابي فقير يصلي في المسجد: قال لرسول الله (ص) أدع الله أن يرزقني مالا كثيرا فقال له (قَلِيلٌ تَوَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ) تفسير النور ٤٤٦/٣ (أو) قَلِيلٌ يَكْفِي خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِي) ، وصار يلح عليه وأقسم ثعلبة لعن رزقه الله ليعطيني لكل ذي حق حقه فدعا النبي (ص) فاتخذ غنما فتكاثرت بسرعة فلما كثر ماله تباعد من المدينة فاشتغل بذلك فلم يحضر الجمعة والجماعة وامتنع عن أداء الزكاة، وقال ما هذه إلا أخت الجزية ! فقال النبي (ص) يا ويح ثعلبة فنزلت الآيات ، عن النبي (ص) : (أَرْبَعٌ مِنْ عَلَامَاتِ الْمُنَافِقِ (وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ) إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ (وَإِذَا أُتْمِنَ خَانَ)) البحار ١٧٦/٧٢ ، وعن الإمام الهادي (ع) : (البخل أدم الأخلاق) البحار ١٩٩/٧٢ . **فائدة:** في الآية دلالة أن خُلف الوعد وكذب الحديث من أسباب النفاق وعلاماته في قلب الإنسان ، عن النبي (ص) : (مَنْ مَدَحَ أَحَاهُ الْمُؤْمِنِ فِي وَجْهِهِ وَاعْتَابَهُ مِنْ وَرَائِهِ فَقَدْ انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْعِصْمَةِ) البحار ٢٤٩/٧٥ . نزلت الآية في خصوص السبب ولكن أريد لها عموم المعنى ، ليشمل كل من أخلف عهده وعقده ووعده كقوله ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ صُرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يونس/٢١ .

٧٩ - ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **التطوع** : التبرع ، الَّذِينَ يَلْمِزُونَ أي يطعنون ويستهنئون ويعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين الأغنياء في صدقاتهم ويعطون الشيء الكثير ويصفونه بالرياء ويقولون لهم إن الله لغني عن صدقة هؤلاء! وهذه من صفات المنافقين (وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) ويعيبون الفقراء الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ من المال ليتصدقوا به (إِلَّا جُهْدَهُمْ) أي إلا طاقتهم فيتصدقون بالقليل فيهزؤون منهم (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) جازاهم على سخريتهم فكانت عقوبتهم على قدر جنائيتهم وكان الجزاء من نفس العمل (وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) جزاء لمزهم وسخريتهم **فائدة** : سئل النبي (ص) :

(أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ (ص) جُهِدُ الْمُقْبِلِ) الأمثل ٦/١٣٣، عن الإمام الرضا (ع) : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْحَرُ وَلَا يَسْتَهْرِي وَلَا يَمَكُرُ وَلَا يُجَادِعُ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُجَارِيهِمْ جَزَاءَ السُّحْرِيَّةِ وَجَزَاءَ الْإِسْتِهْرَاءِ وَجَزَاءَ الْمَكْرِ وَالْحُدَيْعَةِ) النور ٣/٤٤٩، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، نور الثقلين ١/٥٦٥، كقوله (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأعراف ١٤٧ (والعقوبة من جنس العمل).

٨٠ - ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

أمر ومعناه الخبر ، أي سواء استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم لأنه لا سبيل لهم إلى التوبة (إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً، والسعون جار مجرى المثل للتكثير والمبالغة لا للعدد كقوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ المنافقون/٦، لم تذكر الآية عدداً معيناً (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفرة شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ولا ينفع الاستغفار مع الكفر (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) لا يوفق للإيمان الخارجين عن الإيمان ولا يهديهم إلى سبيل سعادة الدنيا والآخرة لأنها فسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة/٦٧. فائدة: ١- القلب البشري حين يصل إلى حدٍ معين من الفساد لا يصلح، والضلال حين ينتهي إلى أحدٍ معين لا يرجى بعده الاهتداء، والله أعلم بالقلوب.

٨١ - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ) الذين تخلفوا عن الجهاد وهم المنافقون وابتهجوا مع الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم عن الغزو وبقوا مع القاعدين أصحاب الأعدار ، مخالفة لأمر النبي (ص) حين سار وهم تخلفوا وبقوا بعده فأصبحوا هم المتروكون والمرفوضون لا التاركون ولا الراضون ولا المحترمون (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة وخوف التضحية بالأموال والأنفس لما في قلوبهم من الكفر والنفاق (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) قال بعضهم لبعض وقالوا للناس عامة (لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحرِّ الشديد ، وهي مقولة الإنسان المسترخي الناعم الذي قوله أكثر من فعله ، فقد جمعوا ثلاث خصال سيئة : الفرح بالعود ، وكرهية الجهاد ونهي الآخرين عن الجهاد فقال الله تعالى رداً عليهم (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من حرِّ الصيف ، وإنَّ حرَّ الصيف يزول وحرُّ جهنم لا يفتت ، ومن فرّ من الحر فهو من السيف أفر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ وهي أولى بأن تتقوها (لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) لو كانوا يفهمون

ويعقلون لخرجوا مع رسول الله (ص) في الحر ليتقوا به حرَّ جهنم ، في غرر الحكم: (لَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ إِلَّا التَّارِكُ عَمَلَهَا). **فائدة** : والتعبير القرآني يلقي ظلَّ إهمالهم كما لو كانوا متاعاً يخلف أو شيء لا قيمة له فيترك ويهمل !! فرحوا بالسلامة والراحة وحسبوا أنهم الغاية المهمة التي يجب أن يحرص عليها الرجال، إنهم يفضلون السلامة الذليلة المؤقتة على المتاعب العزيرة الشريفة !

٨٢ - ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

الأمر بالضحك والبكاء معناه الإخبار أي فسيضحكون قليلاً في القريب العاجل وسيكون كثيراً ، إن المنافقين وإن فرحوا بقعودهم عن الجهاد فإن هذا الفرح مؤقت ، وتفرح أشكالهم وتخزن قلوبهم كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧ ، والعذاب هو العذاب النفسي، وهذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما سيلقونه من الخزي والذل في الدنيا وهم في الآخرة أدل وأخزى. (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) تكون العقوبة على قدر الجناية ، جزاء لهم على سوء أعمالهم وخبث نفوسهم ، **فائدة** : عن النبي (ص) : (لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَلَّمْ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) نور الثقلين ٢/٢٤٩ ، وعنه (ص) : (إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةُ الضَّحِكِ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ) البحار ٧٦ ص ٥٩ ، عن الإمام علي (ع) : (بُكَاءُ الْعِيُونِ وَحَشْبَةُ الْقُلُوبِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَإِذَا وَجَدْتُمُوهَا فَاغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ) البحار ٩٣/٣٣٦ .

٨٣ - ﴿فَإِنْ رَجَعَكُ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾

فإن ردك الله يا محمد من غزوة تبوك إلى المدينة وفيها طائفة من المنافقين الذين تخلّفوا بغير عذر (فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ) طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) لن تخرجوا معي للجهاد أبداً وهذه المقاطعة والعزل من أشد العقوبات المعنوية وقعاً على النفوس حرمانهم من صحبة النبي (ص) بمعنى عزلهم اجتماعياً (وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) وهو خبر معناه النهي للمبالغة جار مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ، والمعنى : لن تقاتلوا مع المؤمنين في صف واحد ، ولن تنالوا شرف القتال معي لأعداء الله (إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) إنكم فضلتم القعود على الجهاد معي في سبيل الله في ساعة العسرة أول مرة في غزوة تبوك (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) فأقعدوا مع المتخلفين عن الجهاد بعذر، من النساء والصبيان والشيوخ والمرضى ، وبهذا ألزمهم سبحانه بما الزموا به أنفسهم ، اختاروا لأنفسهم الهوان يدعهم الله وما اختاروا لأنهم فضلوا القعود مع المتخلفين من غير عذر و(الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ). **فائدة** : ١- دلت الآية على أن الرجل إذا ظهر له من بعض متعلقه مكر وخداع وكيد ، فإنه يجب عليه أن يقطع العلاقة معه ويكون على حذر من لقائه. ٢- قال (إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) ولم يقل رجعت إليهم ، لأن بعض الذين تخلّفوا ندموا وتابوا إلى الله توبة نصوحاً

٨٤ - ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقْدُ عَلَى قَبْرِ وَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

لا تصلِّ يا مُجِدِّ ولا يصلي أحدٌ غيرك على أحدٍ من المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك رحمة وهم ليسوا أهلاً للرحمة وهذه خطوة لطردهم من المجتمع الإسلامي وهو نهي للمسلمين جميعاً (وَلَا تَقْمُ عَلَى قَبْرِهِ) لا تقف على قبره لدفنه أو لزيارته والاستغفار والدعاء له كما تقوم بالصلاة على المؤمنين قبل دفنهم (إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر فلا معنى لتكريمهم بأية كرامة (وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان.

فائدة: ١- الصلاة على المؤمن الميت للإستغفار له وتسهيل حسابه ورفع عنه وحشة القبر عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خبر ٤٢١٢٣، وعنه (ص) : (إِسْتَعْفِرُوا لِأَخِيكُمْ (المؤمن عند الصلاة عليه) وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيثَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ). ٢- تشير الآية إلى أن النبي (ص) كان يصلي على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء والإستغفار والزيارة والتّرحم عليهم ٣- عن النبي (ص) : (ادْفِنُوا مَوْتَانِكُمْ وَسَطَ قَوْمٍ صَالِحِينَ فَإِنَّ الْمَيِّتَ يَتَأَدَّى بِجَارِ الشُّوِّ كَمَا يَتَأَدَّى الْحَيُّ بِجَارِ الشُّوِّ) كنز العمال خبر ٤٢٣٧١. ويروى: الأرض المقدسة لا تقدس أحداً وإمّا يقدّس المرء عمله الصالح.

٨٥ - ﴿وَلَا تُسْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

تقدّم في التوبة/٥٥ الخطاب للتبّي والمراد به الأمة. المعنى : تحقير للمنافقين واستخفاف بالنعم التي أنعمها الله عليهم من الأموال والأولاد وإن كثرت فإنها ليست منحة ومحبة من الله لهؤلاء المنافقين ! لم تكن مبعث سعادة ورضى لهم في دنياهم كما يبدو ذلك من ظاهر الحال ، لكنها في الحقيقة امتحان واختبار ومثار قلق وإزعاج متصل لهم في الدنيا والآخرة ، أموالهم تصرف غالباً في المعاصي ونشر الفساد والظلم بين الناس ، وأولادهم في طريقهم سائرون وفي أنواع الانحرافات الأخلاقية ممتحنون وهو من أسباب البلاء والامتحان لهم كقوله ﴿وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ آل عمران/١٧٨ ، وهذا يثبت أن (قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحْسِنُهُ) نصح البلاغة حكم ٨١، وليس قيمته بما يملكه ، وليست سعادة المرء بكثره المال والجمال وحسن الحال وإنما سعادته بمقدار ما يحسن لنفسه وللأئمة وللآخرين ويرضي ربّه ، وكلما كثر نفعه كثرت سعادته وما قيمة المرء من دون أن ينفع ؟ وإذا لم ينفع فإنه سوف يضر (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا) لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يشغلهم ويعذبهم بما في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ ، (وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) وتخرج أرواحهم بصعوبة وحسرة وهي ملوثة بالكفر ولا ينظرون إلى عواقب الأمور ولا يتدبرون في فلسفة الحياة ، ومنشغلين بالمهم من الأموال والأولاد عما هو أهم من العلوم والمعارف والأخلاق السامية و (مَنْ إِشْتَعَلَ بِأَلْمِهِمْ ضَيَّعَ الْأَهْمَ). فائدة : ١-

(وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ) الذين يظنون أن حقيقة سعادة الإنسان هي الثروة والأولاد فإذا ملكها الإنسان فقد تمت سعادته ، ولكن حقيقة الأمر ليس قيمة الإنسان بما يملكه وإنما بما يحسنه من صالح الأعمال . ٢- قوله (وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) وقوله في الآية التي قبلها (وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) إشارة إلى أنّ الكفر والفسق من واحدٍ وأنّ الكافر فاسق والفاسق كافر ، إذ الفسق هو الخروج عن طاعة الله ، والكفر معادة منهج الله .

٨٦ - ٨٧ ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ الْأَمْنِ بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

تنكير سورة للتفخيم وتبجح عن المنافقين ، وإذا أنزلت آية سورة من القرآن (أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ) بأن آمنوا بالله بصدق وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعادة الحقوق وإعزاز الدين (اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ) استأذنتك في التخلف عن الجهاد (أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ) أصحاب الغنى والثروة والترف والسيادة والجاه الاجتماعي والقدرة البدنية منهم حيث يرون لأنفسهم حقوقاً مقدّسة يمتازون بها على الفقراء ويقال لهم في عصرنا الطبقة الرأسمالية (وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) قَالُوا ذَرْنَا أي دعنا نكون مع الذين لم يخرجوا للجهاد من المعذورين (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) رضوا بأن يكونوا مع (الْخَوَالِفِ) مع النساء والصبيان والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت وعذرهم الشرع من الجهاد، وهذا تقييح لأعمالهم وذم لتصرفاتهم بأن يرضوا لأنفسهم أن يتساوى المعذورين مع غير المعذورين دون أن يستشعروا ما في هذا القعود الدليل من صغار وهوان ما دام فيه السلامة ! (وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) ختم على قلوبهم لإحاطة الكفر بها وطبع الإعجاب بأنفسهم والزهو والغرور ، والقلب الذي يختم عليه يكون مغلقاً قاسياً (فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) لا يفهمون ولا يعقلون ما في الجهاد من قوة وكرامة وسعادة وما في التخلف من ضعف ومهانة وضلال . فائدة : ١- (فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) إنه لا طبقات مالية واقتصادية في دين الله ولا فوارق اجتماعية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، والإسلام يساوي بين البشر دون النظر إلى الجنس والغنى والشكل والفقير ، إنّ الله لا ينظر إلى أشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وحسن أعمالكم ، والإسلام يرفض تقسيم الناس على أساس الطبقات من الفقراء والأغنياء ولكن يساوي بين الجميع في الإنسانية والكرامة في الحقوق والواجبات، والأفضل الذي يُرضي ربه وينفع الناس ويستقيم في حياته ولا يعتدي على أحد . ٢- إن للذلّ ضريبة كما أنّ للكرامة ضريبة ، وإن ضريبة الذلّ فادحة كما أنّ ضريبة الكرامة الصبر على الاستقامة ، والناس حَوْفُهُمْ مِنَ الذَّلِّ أَوْقَعَهُمْ فِي الذَّلِّ ، وساعةُ ذلٍّ لا تُعَادِلُ العُمَرَ كُلَّهُ ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ كِرَامَتُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرُّهُ وَمَكْرُهُ! ٣- (وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وخصّ القلب بالطبع أي بالحثم لأنّه مركز الحواس ومحلّ الإحساس ويقاس على هذا طبع الإنسان وطبيعته وعاداته وتقاليده التي اعتاد عليها. في غرر الحكم: (سَاعَةُ ذلٍّ لا تَقِي بِعِزِّ الدَّهْرِ)

٨٨ - ﴿لَكِنَّ الرُّسُلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

لما تحدث عن حال المنافقين بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه ، حيث بذلوا النفيس والنفس في سبيل رضوان الله والتقرب إليه فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدّوا واجب الإيمان وعملوا للعة والكرامة التي لا تنال بالقيود والأعداء ، وهكذا من أعطى الله كل ما يملك أعطاه الله كل ما يريد وفوق ما يتوقع (وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ) هُمُ الْخَيْرَاتُ المادية والمعنوية على عموميتها ليكون لهم فيها المفاجأة ، لهم منافع الدنيا ومنها النصر والغنائم وراحة الضمير ومنافع الآخرة الجنة والكرامة والنعيم المقيم (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون بدرجة امتياز حيث فلاح الدنيا وفلاح الآخرة لأنهم عملوا على تغيير مسيرة الجاهلية إلى الإسلام ، في غرر الحكم: (إِنَّ الْمُجَاهِدَ نَفْسِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَنْزِلَةٍ بِرَّ شَهِيدٍ).

٨٩ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ) على صدق إيمانهم وجهادهم أماكن لائقة بهم في مقصورات الجنة تجري من تحت مساكنها وأشجارها الأنهار المطردة بأنواع الأشربة التي تسعد بها النفوس (خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) لاثنين في النعيم المقيم أبد الأبد لا انقطاع له ذلك الفوز الذي يفوق الوصف ، وهذا يحقق أقصى ما يطمح إليه الإنسان بطبيعته ﴿هُمُ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الزمر/ ٣٤ ، فائدة : ١- (أَعَدَّ اللَّهُ) أعد لهم من قبل كل ما يستحقون من مقام جليل وكرامة مميزة دلالة على مدى الاحترام وفائق التقدير ، ٢- وعبر بالإعداد دون الوعد لأن الأمور بخواتيمها ، فلو كان وعداً لكان عهداً وقضاء حتماً واجب الوفاء ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ الإسراء/ ٣٤ ، سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم أم غيروا وبدلوا ، وفي هذا المعنى الدقيق إشارة إلى هناك من سيخالف ويغير فلا يكون الإعداد له. ومثل ذلك الآية/ ١٠٠ و الآية/ ١١٧ من سورة التوبة ، ومثل الحديث (العشرة المبشرة بالجنة) لا يمكن أن تتم البشارة لهم وتستمر في الجنة وهم غير معصومين ومعرضين إلى الخطايا.

٩٠ - ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب من أهل البادية بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ). المعنى : أي جاء المعتذرون من أهل البادية فمنهم المؤمن الصادق في عذره ومنهم المنافق، من الأعراب الذين هينوا الأعداء واختلقوها وتخلفوا عن الجهاد في نفيه العام (لِيُؤْذَنَ لَهُمْ) لينالوا رخصة في ترك الجهاد ، كما يريدون رخصة في ترك الصلاة! (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وقعد المعتذرون عن الجهاد الذين اختلقوا الكذب على الله ورسوله في دعوى الإيمان وأنهم تظاهروا بالإيمان إيهاماً للناس من دون إعتقاد صادق ،

وهناك قوم لم يجاهدوا ولم يعتدروا عن تخلفهم الذين في قلوبهم مرض ، إليهم أشار قوله (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وعيد شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين عن الجهاد الكاذبين في دعوى الإيمان، عذاب أليم قريب في الدنيا بالقتل والأسر وعذاب بعيد في نار جهنم في الآخرة. فائدة: ١- الأعراب: أهل البادية واحده أعرابي وهم البعيدون عن أيّة حضارة وتمدّن، وهذا غير العربي المنتسب إلى بلاد العرب. ٢- أمّا الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعلّ لهم مصيراً غير هذا المصير. ٣- (كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) منهم أي من الأعراب أو من المعذرين (منهم) من تبعضية على الأغلب لا بيانية، إذ ليس كلّهم كفرة وأن بعض الأعراب سيؤمن ، وإن بعض المعذرين يعتذر بكسله لا لكفره ، ومنهم السفهية الوقح ومنهم من لا يعرف له عذراً إنهم أشكال متعدّدة.

٩١ - ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى) أي ليس على الشيوخ المسنين ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعذر حقيقي فيهم (ولسان الحال أصدق من لسان المقال) (وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ) ولا على الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ولا يجدون من يبذلها لهم (حَرَجٌ) ضيق أو مسؤولية وتكليف وإثم في القعود (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) إذا أخلصوا الإيمان والعمل الصالح وعملوا لنصرة الإسلام ولم يسلكوا سبيل المنافقين ولم يثبطوا الناس عن الجهاد ولم يثيروا الفتن ، فهم غير قادرين على حمل السلاح بل لديهم سلاح الكلمة المثلى في ترغيب المجاهدين وحماية المدينة ، فليس على هؤلاء حرج وإثم إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعدار صحيحة فهم يكونون بذلك محسنين (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) وما عليهم من طريق إلى معاتبتهم وتوبيخهم إنّما العتاب على المسيئين (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) السبيل : الطريق أي ليس لأحدٍ أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم ، فكلُّ السبيل مسدودة لمعاتبتهم كقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ البقرة/ ١١٢ ، كل من قام بواجبه كاملاً دون تقصير فهو محسن بنظر الإسلام وكلُّ من أخلّ فهو مسيء ، المعنى : ليس عليهم إثم ولا إلى معاتبتهم سبيل وهو جار مجرى المثل ، وصفهم بالمحسنين لأنهم أحسنوا من موقعهم ولم يسيئوا ، بأن يؤدوا ما عليهم من واجبات كحراسة المدينة والمحافظة على عوائل المجاهدين الغائبين وأموالهم.. إلخ ورفع عنهم العقوبة واللوم، وهذا من بليغ الكلام وله أصل شرعي عام يتفرّع عليه العديد من الأحكام فائدة : ١- (مثال) قاعدة فقهية لها تطبيقات عامة (الإحسان ونفي الحرج) أن تستودع مالا عند آخر فإذا تلف فلا يضمن الوديع إلا إذا ثبتت بالبينة الشرعية أنه

قَصَّرَ وَتَهَوَّنَ (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) عظيم المغفرة والرحمة بهم حيث وسَّع على أهل الأعدار الصحيحة كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة/٢٨٦ ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/٧٨. ٢- (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) كلمة (نصح) جامعة شاملة لكل شكل من أشكال طلب الخير ، والسعي في بذل الجهد اللازم في تفعيله.

٩٢ - ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ عَلَيْهِمْ قُلْتُمْ لَا أُجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ نزلت الآية في جماعة الفقراء الذين لا لوم عليهم إذا ما أتوك بشوق وطلبوا إليك بإصرار أن تعطيتهم مطايا توصل إلى ميدان الجهاد ، إنهم أرادوا الغزو مع رسول الله بصدق ولم يجد الرسول (ص) ما يحملهم عليه فنولوا وهم يبكون وسموا البكاؤون السبعة من الأنصار ونزلت الآية فيهم ! (قُلْتُمْ لَا أُجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) قُلْتُمْ ليس عندي ما أحملكم عليه من وسيلة نقل من الدواب ونفقة الجهاد (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا) إنصرفوا وأعْيُنُهُمْ تسيل دمعاً من شدة الحزن (أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) لأنهم لم يجدوا ما يُنْفِقُونَهُ ولا ما يركبونه لغزوهم في سبيل الله لجهاد أعدائهم فهؤلاء معذرون لا إثم عليهم.

عن النبي (ص): (إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًّا وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ قَالُوا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ (ص) نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ) تفسير النور/٣/٤٦٠، وعنه (ص) (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) كثر العمال ٢٤٦٨٤، وعنه (ص) : (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ميزان الحكمة/٢/١٣٤ ولما بين من لا سبيل ولا حجة عليهم وتقبل أعداؤهم في تلك الحال ، ذكر من عليهم السبيل الذين لا تقبل أعداؤهم. فائدة : ١- بمثل هذه الروح الصافية إنتصر الإسلام وعزّت كلمته، فلنظر أين نحن من هؤلاء ، أين روحنا من روحهم أين إخلاصنا من إخلاصهم ، وبالإخلاص يَكُونُ الْخَلَاصُ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣. ٢- (لَا أُجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) في عصرنا الحاضر يدخل في إعداد العدة اللازمة من مراكب نقل برية وبحرية وجوية حديثة ، ويتحقق العذر بفقد اللازم من العدة ويفقد العذر بوجوده.

٣- (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) قد ذم الله تعالى أهل التفاق بالفرح والاستهزاء ، ومدح أهل الإخلاص بالحزن والبكاء ، وأدّى ضحك أولئك إلى البكاء الكثير ، وبكاء هؤلاء إلى الضحك الوفير.

٩٣ - ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ مَرْضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن نفى الله سبحانه المسؤولية عن الفقراء والمرضى أثبتتها على الأغنياء الأصحاء الذين يتخلّفون عن الجهاد بلا عذر. المعنى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ) بالمعاقبة والمعاقبة والمؤاخذاة والإثم والحرَج

على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد و متمكنون على الإنفاق لغناهم وقوتهم (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) رضوا بأن يكونوا مع النساء والشيوخ والمرضى والعجزة بدون عذر والجهاد في حالة نفير عام واجب على الجميع (وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أي ختم عليها فأصبحت قلوب مغلقة قاسية لا تعلم عاقبة ما تفعل ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢، وأغلق فيهم منافذ الشعور والعلم عطّل أجهزة الاستقبال عندهم فلم يدركوا الحقيقة وأعرضوا عن الحق بما كسبت أيديهم بحسب سنن الله في الخلق، من ساء عمله ساءت عاقبته (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصْرِهُ الْبَاطِلُ) (فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ما يفوتهم من خير بقعودهم وما سيلاقيهم من سوء، عن النبي (ص): (إِيَّاكُمْ وَاسْتِشْعَارِ الطَّمَعِ فَإِنَّهُ يَشُوبُ الْقَلْبَ شِدَّةَ الْحَرِصِ، وَيَحْتُمُّ عَلَى الْقُلُوبِ بِطَائِعِ حُبِّ الدُّنْيَا) البحار/٧٧/١٨٢.

الجزء الحادي عشر من القرآن الكريم

٩٤- ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَعْيُنِنَا رِسْمَ الَّذِي أَنْتُمْ كُفِرْتُمْ بِهِ وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وهذا من إنباء الله لرسوله (ص). المعنى : يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون المنافقون عن غزوة تبوك إذا رجعت إليهم من جهادكم ويبلغ عددهم ثمانين رجلاً (قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ) قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ولا نقبل منكم عذراً ولن نطمئن إليكم (قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَعْيُنِنَا رِسْمَ الَّذِي أَنْتُمْ كُفِرْتُمْ بِهِ) (وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) آل عمران/١١٨ ، (وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) وتكون نتائج أعمالكم حسب مقدماته ، ومعنى الرؤية هنا : هو العلم القائم على واقع الحال في غرر الحكم: (وثمره العمل الصالح كأصله وكذلك ثمرة العمل السيء كأصله) ويكون الجزاء على ضوء العمل وإن صدقتم بالتوبة فالأفعال تصدقكم قبل الأقوال وسيبقى باب التوبة مفتوحاً أمامكم بمقدار صدقكم (تَمُّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) ثم ترجعون بعد مماتكم ونهاية مهلة حياتكم إلى الله عز وجل الذي يعلم العوالم المشهودة ويعلم ما وراءها من العوالم المعيّنة ، ويعلم السر والعلانية ولا يخفى عليه خافية الغيب : ما لم يكن وهو عالم غاب عنك علمه ولم يدرك بالعقول والحواس والشهادة : ما كان وهي الحضور في عالم الدنيا المادّي الذي يخضع للحواس والعقول وهو ما يشهدونه ويعرفونه (فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فيخبركم عند وقوفكم بين يديه سبحانه بأعمالكم كلها ظاهرها وباطنها فهم يعلمون ما كانوا يعملون والله أعلم منهم بما لبتنتم هو بها ، وكم من دافع خفي للعمل يخفى على صاحبه وهو يفعل والله أعلم به منه ! ويجازيكم عليها جزاء الحق والعدل ﴿لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية/٢٢.

٩٥ - ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآءُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

سيحلف المنافقون بالله لكم (إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ) إذا رجعتم إليهم من تبوك معتردين بالأعدار الكاذبة (لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) لتصفحوا عنهم وتعرضوا عن ذمهم (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ) وهذان التعبيران المتشابهان لفظاً المختلفان في المعنى البليغان في المبنى ، أي إعراض كراهية واجتناب واحتقار وترك السلام والكلام معهم ثم ذكر الله تعالى السبب (إِنَّهُمْ رَجِسٌ) أرجاس أنجاس لخبث باطنهم بل هم النجاسة بعينها لا ينفع فيهم التوبيخ ، وأنتم أطهار لسلامة قلوبكم فينبغي أن لا تقربوا منهم لأنهم كالجثة المنتنة في وسط الأحياء تؤذي وتعدي ! إنها الصورة المجسمة الحسية للدنس المعنوي إنها صورة أشد بشاعة وأبين قذارة لمعنى الرجس اللغوي (وَمَآءُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) هم يظنون أنهم يكسبون بالتخلف ويرجون بالعود السلامة والراحة لكن الحقيقة أنهم احتفظوا بالدنس في الدنيا (إِنَّهُمْ رَجِسٌ) فأضاعوا الدنيا والآخرة ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبِحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأُخْسِرَ أَهَمَّ شَيْءٍ، وهي نَفْسِي ! التي مأواها جهنم مسكنهم اللائق بهم هي حسبهم وتكفيهم جزاء لهم على نفاقهم في الدنيا وفسقهم وآثامهم فيها.

٩٦ - ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

يخلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ومن علامات المنافق كثرة الحلف لشعوره أنه متهم بالكذب ! وكره لبيان كذبهم والتحذير من الاعتراض بمعاذيرهم الكاذبة (فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فإن رضيتهم عنهم فإن رضاكم لا ينفعمهم لأن الله ساخط عليهم أي رضيتهم عنهم بخلاف رضى الله ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه ، فالآية أبلغ كناية عن التهي في رضى المنافقين. فائدة : ١- في الآية دلالة على أن من طلب بفعله رضا الناس ولم يطلب رضا الله سبحانه فإن الله يسخط الناس عليه ، وأيضاً إن رضا المؤمنين لا يعني دائماً هو مطابق لرضا الله تعالى ! عن النبي (ص) : (مَنْ اِتَّمَسَ رِضًا اللَّهُ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسُ ، وَمَنْ اِتَّمَسَ رِضًا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ) كنز الدقائق ٤/٢٥٧ ، وفي الحديث : (مَنْ رَضِيَ بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّخْلِ فِيهِمْ مَعَهُمْ). المبين ص ٢٥٨ ٢- حلف المنافقون في المرة الأولى طلباً للصفح وخوفاً من العقاب لقوله (لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) وحلّفوا في المرة الثانية طلباً للرضا وطمعاً في الغنائم كقوله ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لَتَأْخُذُوا بِهَا دُرُونا نَتَّبِعُكُمْ﴾ الفتح ١٥/٣- تدعو الآية إلى تأمين الأمن الاجتماعي بمراقبة المنافقين والمندسّين بين الناس من الجواسيس والخونة ، ومعرفة خططهم الشيطانية وتأمين شرهم.

٩٧ - ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِئَافَاءً وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

الأعراب (البدو) أهل البادية أشدُّ كُفراً وأعظم نفاقاً وأقبح جهلاً من أهل المدينة المتحضرين ، لجفائهم وغلظة طبعهم وسوء أخلاقهم وقسوة قلوبهم ، لبعدهم عن سماع القرآن وعدم مخالطة العلماء وقلة مشاهدتهم لأخلاق المؤمنين وأهل الصلاح فقد نشؤوا في بيئة خشنة فصارت طبائعهم خشنة (وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) وهم أولى وأحرى بألا يعلموا أحكام الإسلام والشرائع والفرائض والجدارة بعدم العلم بما أنزل الله على رسوله ناشئة من ظروفهم القاسية (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) عليم بخلقهم وطبائعهم حكيم في صنعه ، عن الإمام الصادق (ع) : (عَلَيْكُمْ بِالتَّقْوَى فِي دِينِ اللَّهِ وَلَا تَكُونُوا أَعْرَابًا فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يُرَكِّ لَهُ عَمَلًا) الكافي ٣١/١ . فائدة : ١ - ليس هذا تقسيماً للناس على أساس البداوة والحضارة ، ولو كانت البداوة إثماً لحرمها الله ، وإثماً الآية تشير إلى ما للظروف والبيئة من تأثير كبير على الطباع والعادات، وإثماً تفعل بالأرواح كما تفعل بالأجسام، وإن الظروف القاسية تصنع الإنسان القاسي ، فيأتي بلاء الإنسان على قدر طباعته ، كالشجرة البرية أقوى عوداً وأشدُّ جلوداً من الشجرة الحضرية. ٢ - معنى الأعراب لا يعني أنهم سكان البادية فقط ، وإثماً تعبر عن ارتباطها بطريقة التفكير المتطرفة الخشنة البعيدة عن القيم والمبادئ والخلق الإسلامي وإن كانوا من سكان المدن والتحضّر ، أما الذين يسكنون البادية ولهم إيمان وعلم بالأحكام الإسلامية العامة فليسوا بأعراب ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَهُوَ أَعْرَابِيٌّ) الكافي ٣١/١ . في المثل (مَنْ بَدَأَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَاءً وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيِّدَ عَقَلَ وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ إِفْتَتَنَ) تفسير المراغي ١١ ص ٨ .

٩٨ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَنْرَيْسُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ومن صفات هؤلاء الأعراب في البادية أنهم جهلاء يعدّون ما يصرفونه في سبيل الله ويتصدقون به (مغرمًا) أي غرامة ظالمة وخسراناً لحق به لا مساعدة للمجاهدين ولا نصرة للدين ، وأن الثواب والجزاء عليها يوم القيامة حديث خرافة وإذا أنفق شيئاً أنفقه رياءً وخوفاً ويأكراه ! (وَيَنْرَيْسُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ) أي ينتظر بكم أن تحل بكم (الدوائر) الكوارث ومصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ويستريح من الزكاة (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ) عليهم يدور العذاب والبلاء الذي تمنوه للمؤمنين كقوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر ٤٣ ، وهو دعاء على المنافقين وكأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم وتدور عليهم فلا تدعهم ، وذلك من باب التجسيم المعنوي وتخيله الذي يُعَمِّقُ وقع المعنى ويحييه (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم .

٩٩ - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَخَذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْ خِلْهُمْ اللَّهُ فِي مَرْحَمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ومن أعراب البادية من يصدّق بتوحيد الله من غير شرك ويكون سليم العقيدة ويؤمن بعالم الغيب وبالبعث والنشور والحساب والجزاء بعد الموت على عكس أولئك المنافقين (وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ

قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ) قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ : جمع قربة وهي طلب الثواب والكرامة من الله بحسن الطاعة كالقرب في المكان ، ويجعل ما ينفق في سبيل الله ما يتقرب به إلى رضوان الله وينال محبته وقربه (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أي دعواته المقبولة عند الله والقربى منه ورضاه سبحانه بمعنى ويقربه من دعاء الرسول واستغفاره له (أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ) (أَلَا) أداة استفتاح للتنبية على الاعتناء بالأمر ، أي ألا إنَّ هذا الإنفاق قربة عظيمة مقبولة تقرهم لرضا ربهم ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً حيث أنفقوها طوعاً لا كرهاً وبإخلاص كقوله ﴿حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة/١٠٣ ، (سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) مبالغة في المغفرة والرحمة سيدخلهم الله في جنته التي أعدّها للمتقين ، ويجسم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم ! وذلك في مقابل تجسيم (دَائِرَةُ السُّوءِ) على الفريق الآخر الذي يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ) غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم لطاعته كقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الرعد/٦. فائدة : إيمان أعراب البادية فيه دلالة أن نور الإيمان يحل في كلِّ القلوب الطاهرة أينما كانت في كل قوم وزمان ومكان ، ويكون حجة أينما كان المؤمنون هداة لقومهم كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧، وكقوله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/١٨١ ، وكقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤.

١٠٠ - ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

من صفات هؤلاء النخبة السبق إلى الفضيلة في أجواء جاهلية صعبة (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) في الهجرة والنصرة الذين سبقوا إلى الإيمان قبل بدر وهم أهل بدر وبايعوا بيعة العقبة والرضوان وهاجروا قبل صلح الحديبية (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) (من) تبعضية ، أي طلائع المسلمين وصلو إلى القبلتين وساهموا في تقوية أساس الدين وإعزاز الإسلام وإضعاف أعدائه ، إلى آخر عمرهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الأنفال/٤ ، ومؤمنون صدقاً في أقوالهم وأفعالهم ، أصحاب القيم والمبادئ والأخلاق ، وأصحاب الإرادة الصلبة التي تتحدى صعاب الجاهلية ولا تستسلم للأمر الواقع الفاسد ولا تخضع لضغوط الطغاة ولا تشتبه أمام الإعلام الفاسد المضلل ، وإتباع مدحهم بالسبق لأنهم السابقون إلى الإيمان وإلى نصرة الإسلام فأسسوا قواعد الدين ، ولأنَّ السابق إلى الشيء يتبعه غيره فيكون متبوعاً وغيره تابع له ، فهو إمام فيه وداع له وإلى كلِّ خير بسبقه له ، وكذلك من سبق إلى الشر يكون الأسوأ حالاً لهذه العلة. تدلُّ الآية على فضل السابقين ومزيتهم على غيرهم : لأنهم تحمّلوا المشقة في نصرة دين الله ، وفارقوا عشائرهم وأقرباءهم وأولادهم من أجل القضاء على الجاهلية مع قلّة العدد وكثرة العدو وشدة الصعاب (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

سلكوا طريق السابقين واقتدوا في سيرتهم الحسنة قولاً وعملاً حتى وفاتهم وهم التابعون أولئك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) وعدهم بالغفران والرضوان أي ﷺ بطاعتهم وإخلاصهم وأرضاهم من رحمته ونعمته المادية والمعنوية ، وهذا الرضا المتبادل والمتعادل الدال على قبول طاعتهم وتجاوز عن سيئاتهم ، هذا المستوى نال أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/٢٦، ﷺ لطاعتهم إياه ورضوا عنه لما أعطاهم من الثواب الجزيل على صدق إيمانهم واستقامة سلوكهم على منهج الله في جميع الأحوال والأشكال في الشدة والرخاء (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) وأعد لهم في الآخرة جنات (على قدر رضاه تعالى عنهم ينالون إرتفاع الدرجات) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وقصورها الأنهار المختلفة الألوان والأشكال والأنواع ، وعبر بالإعداد دون الوعد ، فلو كان وعداً لكان عهداً واجب القضاء (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) مقيمين فيها من غير إنتهاء (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك الفوز النموذجي المميز الذي يتصاغر أمامه كل فوز ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ الصفات/٦١ ، فائدة: ١- لا تدل الآية على أن من صدق عليه أنه مهاجر أو أنصاري أو تابعي نال منزلة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

والتابعي: هو كل من آمن وعمل صالحاً فهو من التابعين في أي زمان ومكان ، عن الإمام السجاد (ع): (اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِصَالِحٍ مِنْ مَضَى وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحٍ مَنْ بَقِيَ وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ). لا تدل الآية أنه ﷺ دائماً أبداً بتزكية مطلقة ثابتة غير قابلة للتغيير ، رضا لا سخط بعده سواء أحسنوا أم أساءوا ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى/٤٠ وإذا آمنة بذلك جداً على ظاهر المعنى لآمنة بعصمتهم التي تمنعهم من كل سوء وخطأ ، وهذا لم يحصل ولا تدل عليه الآية ، إذن : الآية تدل أنهم بإيمانهم وأعمالهم الصالحة السامية نالوا كل هذه الدرجات والامتيازات ، ولكن إذا اختلت عندهم قواعد الإيمان وساءت الأعمال وفسدت النوايا (بعد ذلك التكريم) فتتغير الدرجات والامتيازات بتغير رضا الله عنهم ، لأنهم لم يرضوه فلم يرضهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة/٩٦ ، في غرر الحكم: (رِضًا اللَّهُ مَقْرُونٌ بِطَاعَتِهِ) ويكون الجزاء على قدر العمل. ٢- وإنما ميّز السابقين على غيرهم لما لاقوه من عذاب شديد ومشقة في سبيل نصرته الإسلام ، أما الذين دخلوا بعدهم في الإسلام فقد وجدوا أمامهم الطرق معبّدة ولم يلاقوا المشقة. ٣- (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فسبحان الله ما أعظم لطفه وأكرم عطاءه حيث يتبادل الرضى معهم ، الرضا بين الخالق القوي والمخلوق الضعيف. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو الرضى والثواب والتكريم والتقدير ، ورَضَاهُمْ عَنْ اللَّهِ هو الاطمئنان إليه سبحانه والثقة بقدرة وحسن الظن بقضائه والشكر على نعمائه والصبر على بلائه والاستقامة على نهجه تعالى إلى آخر أجلهم. والتعبير بالرضى المتبادل والمتعادل والمتوازن في وروده وصدوره بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، يرفع من شأن هذه

الصفوة فهم في جو امتياز وفي نفوسهم امتياز وفي أعمالهم امتياز ، عندئذ لا تمتلك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ، ذلك حالهم الدائم مع ربهم في جميع مواقفهم مع أنفسهم ومع ربهم ومع دينهم ومع الناس وفي مختلف الأحوال في الشدة والرخاء في السر والعلانية ، هم أصحاب النفوس المطمئنة والتي هي أعلى النفوس وأطهرها كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ الفجر/٢٧-٢٨ .

٤- (اتَّبِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) فمتابعة السابقين هي إحسان مؤكّد لهذه المتابعة المصطفاة ، وهذا يعني أنّ ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار هو إحسان كلّ، فمن تابعهم وتأسّى بهم على ما كانوا عليه من صفات إسلامية عالية المضامين فهو محسن كلّ الإحسان في أي زمانٍ ومكان ! عن الإمام الصادق (ع) : (فَبَدَأَ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِيَّيْنَ عَلَىٰ دَرَجَةِ سَبْقِهِمْ ثُمَّ تَتَىٰ بِالْأَنْصَارِ ثُمَّ ثَلَاثَ بِالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، فَوَضَعَ كُلُّ قَوْمٍ عَلَىٰ قَدَرِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ عِنْدَهُ) الكافي ٤١/٢ ، وإنّ خديجة الكبرى (ع) زوج النبي (ص) هي أول امرأة آمنت .

وعلي بن أبي طالب (ع) أول رجل دخل في الإسلام وهو صبي تفسير القرطبي ٣٠٧٥/٥ ، والآية الكريمة لم تحدّد من هم السابقون بالأسماء وإنّما ذكرت صفاتهم وتجسيد صفاتهم أهم بكثير من تجسيد الذات والمطلوب تهذيب الذات وليس تجسيدها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ الشمس/٩ . ٥- لا تدلّ الآية أنّ رضا الله عنهم رضا لا سخط بعده أبداً ، وأوجب في حقهم المغفرة والجنّة في جميع أحوالهم سواء أحسنوا بعد ذلك أو أساءوا اتقوا أم فسقوا ، ومعنى رضاه تعالى عنهم فإنّما هو من أوصافهم الفعلية دون الذاتية بمعنى أي يرضى بأفعالهم الحسنة ، بمقدار إحسانهم يكون رضاه عنهم ، وبمقدار الإساءة يكون السخط عليهم ، كقوله ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الفتح/١٨ ، فإنّ رضا مقيّد بزمانٍ خاص بعملٍ خاص وليس رضا مختوم دائم ومحتوم ومستمر حتّى مع الإساءة

١٠١- ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدْنَاهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

ومن حولكم يا أهل المدينة منافقون من أعراب البادية منازل بعضهم قريبة من منازلكم (ومن أهل المدينة) منافقون أيضاً يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر (مردوا على النفاق) اعتادوا على النفاق وأتقنوه وتمرسوا عليه وتفنونوا فيه واستمروا عليه وإحترفوه وأصبحوا خبراء فيه حتّى لا يكاد يطلع عليهم أحد حتّى من المقرّبين (لا تعلمهم نحن نعلمهم) لا تعلمهم يا محمد للدلالة أنّه لا يعلم الغيب ، لا يعلمهم مع كلّ فراسته وتجربته فكيف يكون هذا النفاق؟! لمهارتهم في فنون النفاق والتلون بحيث يخفى أمرهم على كثيرين لأنهم يظهرون لك المودة وتباعدهم عن مثار الشبهات ، إنهم صحابة في الظاهر لكنهم منافقون أعداء ألداء في الباطن لذلك يجب التمييز بين الصحابة

الأجلاء وغيرهم (نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) ما يضمنون لك من كيد وحقد وهكذا مع كل صالح وناصح ، لأن الله أقرب إليهم من حبل الوريد (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) مرة بالدنيا بالفضيحة والتشهير بهم وعذاب القلق النفسي التازل بهم ومرة ثانية عذاب القبر لأن قبر الكافر حفرة من حفر جهنم وقبر المؤمن روضة من رياض الجنة كقوله ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الأنفال/٥٠ ، (ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) وهذا العذاب الثالث في الآخرة يوم القيامة كقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ محمد/٢٩-٣٠ ، في غرر الحكم: (وَرَعَ الْمُنَافِقُ لَا يَظْهَرُ إِلَّا عَلَىٰ لِسَانِهِ).

١٠٢ - ﴿وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقوم آخرون أقروا بذنوبهم وتخلفوا عن غزوة تبوك ذات النفير العام ، لا لنفاقهم بل لكسلهم ثم ندموا على ما فعلوا وإعترفوا بذنوبهم وتابوا توبة نصوحة ولم يعتذروا بالكاذب كالمنافقين ، في الحديث : (مَنْ رَأَىٰ أَنَّهُ مُسِيءٌ فَهُوَ مُحْسِنٌ)، وعنه (ص) (اتَّبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا) المراعي ١١ص ١٥ في نهج البلاغة حكم ٤٦ : (سَيِّئَةٌ تَسُوُّكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ)، (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) أحسنوا أحياناً وأساءوا أحياناً ، عن النبي (ص) : (إِنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ حَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) الدر المنثور ١/٢٦١ .

(عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) إن كانت كفة الحسنات أثقل أو استوت الكفتان على الأقل ، فإن تابوا وأصلحوا أنفسهم وصدقت نياتهم واستقام سلوكهم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الشورى/٢٥ ، و (عَسَى) للترجي ومن أعطى التوبة لم يجرم القبول (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ذو عفو لمن تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب ترجيح لجانب الرجاء كقوله ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف/٥٦ . فائدة سبب النزول : ثلاثة نفر من الأنصار تخلفوا عن رسول الله (ص) في تبوك وأحسوا بالذنب فربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يجلهم إلا رسول الله (ص) فلما أنزل الله تعالى هذه الآية بقبول توبتهم وأطلقهم الرسول (ص) فإنطلقوا فجاءوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها وتصدق بها فنزل قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة/١٠٣ . قيل : هذه الآية من أرجى آيات القرآن الكريم لأنها فتحت التوبة أمام المذنبين ودعت التوابين إلى الاستغفار ، ٢- تكشف الآية أن الصحابة لم يكن كلهم صالحين عادلين وإنما هم متفاوتون منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ومنهم منافقون ومنهم ضعفاء الإيمان والنفوس ، ومنهم من زنى ومنهم من سرق ومنهم من إرتد لذلك يجب التمييز بينهم بدقة ونصفهم كقوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح/٢٩ ، الآية تصف

الصحابة بأهم (أشداء على الكفار) ولكنهم رحماء متعاطفون فيما بينهم كآهم بنيان مرصوص.

٣- وهذان الفريقان يوجدان في كل زمان ومكان، وأشد المنافقين هم أعوان الطغاة المفسدين

١٠٣- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

خُذْ يَا مُحَمَّد (ص) من هؤلاء الصحابة المؤمنين الذين إعترفوا بذنوبهم وصدقت توبتهم صدقة تُطَهِّرُهُمْ بِهَا من بعض أموالهم ، صدقة من أصناف أموالهم المتنوعة وهي النقدان الذهب والفضة والأنعام الثلاثة الإبل (الجمال) والبقر والغنم والغلات الأربع الحنطة والشعير والتمر والزبيب ، صدقة من الزكاة المفروضة عليهم وعلى سائر المؤمنين والمؤمنات، صدقة تطهرهم بها من دنس البخل والذنوب ويزكيهم بها وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم وتطهر نفوسهم وطبائعهم وتهذب عاداتهم السيئة حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ، فعلى الأغنياء أن يعطوا هذا الحق لأهله بنفس راضية في كل زمان ومكان (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) المراد بالصلاة هنا الدعاء وبالسكن الراحة النفسية والطمأنينة القلبية، أي وأدع لهم بالمغفرة وترحم عليهم بالخير والبركة كما هي عادتك فإن دعائك واستغفارك (سَكَنٌ لَهُمْ) طمانينة وسكينة لهم ورحمة عاجلة في نفوسهم (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) سميع لقولهم ولدعائك لهم عليم بنياتهم وأحوالهم.

فائدة: ١- (صَدَقَةٌ) ما ينفقه المؤمن قربة لله تعالى وأهمها مفهوم الزكاة باعتبار (لكل شيء زكاة) كقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ البقرة/١١٠ ، وهذا يدل أن الإسلام يسمح بالملكية الخاصة، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ، وَلَا زَكَاةَ لِمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ) البحار ٢٥٢/٨٤ ، في نصح البلاغة حكم ١٤٦: (حَصِّصُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ). ٢- أما النهي القرآني عن تزكية النفس كقوله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ النجم/٣٢، فذاك في تزكية النفس ومدحها والثناء عليها أمام الناس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها. ٣- الصلاة من الله على عباده رحمته لهم، والصلاة من الملائكة إستغفار للناس ، والصلاة من المؤمنين لله ولرسوله وهو الدعاء والانقطاع، كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الأحزاب/٥٦.

١٠٤- ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ إِذَا يُنَادَى لَهُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخَفُوا قَدُ بُدِّعُوا وَإِنِّي مُبْعَثٌ قَبْلَ قَوْمِكُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِيُبْعَثَ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾

الاستفهام لتقرير حقيقة مهمة ، أي ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل التوبة من تاب بصدق من عباده ودعاهم إليها مرة بالترهيب ومرة بالترغيب ، وقد فتح باب التوبة ويسر أسبابها لجميع عباده لأنها تطهر القلوب وتغسل الذنوب وتستنزل الرحمة وترفع النعمة (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) يقبل الزكاة من أخلص النية وأعطاه عن رضا نفس ويشيب عليها كقوله ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ المعارج/٢٤-٢٥ ، وقوله ﴿إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ التغابن/١٧ ، في الحديث : (تَقَعُ الصَّدَقَةُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي كَفِّ السَّائِلِ) الأمثال/٦/١٨٩ ، (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ) وأن الله وحده قابل التوبة بسعة رحمته فهو سبحانه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ غافر/٣ ، التَّوَابُ : أي كثير الرجوع إلى عباده ،

يرجع إليهم بالهداية والرعاية والرحمة والتوفيق للتوبة إلى الله وقبولها والرحيم بأوليائه ، عن النبي (ص) : (إِنَّ كُلُّ بَنِي آدَمَ حَطَّاءٌ وَخَيْرُ الحَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) الدر المنثور ١/٢٦١ ، في غرر الحكم: (التَّنَزُّهُ عَنِ مَعَاصِيِ اللَّهِ عِبَادَةُ التَّوَّابِينَ).

فائدة: ١- تدلُّ الآية على أنَّ التصدَّق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة. ٢- إنَّ إنفاق المال في سبيل الله هو عدل الجهاد بالنفس وهو تطهير وتركية للمتصدَّق. ٣- (صَلَاتُكَ سَكَنٌ لَهُمْ) أدب قرآني من مكارم الأخلاق ينبغي أن يتأدَّب المسلمون به ، فيلقون إحسان المحسن بالحمد والشكر فإن ذلك أقلُّ ما يجزى به كقوله ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠ ، وبهذا يستمر الخير وتفتتح النفوس وتتشجع على فعل الخير وتنميته.

١٠٥ - ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

صيغة أمر للمبادرة لإنتاج عمل حضاري نافع واسع الفوائد ظاهر لكل من له عينان ، أي من يعمل الخير وينفع الناس فهو مرضي عند الله والرسول والطيبين في غرر الحكم: (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) ومن يعمل الشر ويضر الناس فهو مكروه عند الله والرسول والطيبين ، وشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَضُرُّ النَّاسَ كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فصلت/٤٠ ، وعلى قدر الأعمال تكون الدرجات والمنازل عند الله في الخير وفي الشر ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء/٢١ ، المعنى : الآية تخاطب كل الناس من مؤمن وكافر ومنافق أن اعملوا فحقائق الأعمال من خير وشر يحصيها الله عليكم وسيرى حقيقة عملكم ويراهنا رسولهُ والمؤمنون من أئمة الهدى وهم شهداء الأعمال ، لا يختص تأثيرها من فائدة أو مضرّة في زمن حدوثها بل يبقى تأثيرها من جيل إلى جيل ، فأعمال المؤمنين النافعة كلما كانت أكبر وأوسع كانت أحسن ، بما فيها من فوائد وآثار كإصلاح شؤون المجتمع العامة وتوفير خدماته اللازمة الضرورية والكمالية والقضاء على فقره وجهله ، ومن أفضل الأعمال الحضارية النافعة تنشيط موارد الزكاة بمعناها العام المادّية والمعنوية ، فزكاة العلم إنفاقه وزكاة القدرة الإنصاف وزكاة الجمال العفاف وزكاة الشجاعة الجهاد في سبيل الله وزكاة الجاه الشفاعة وزكاة الموقع المسؤول قضاء حاجة الناس. (فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) أي تكون الأعمال تتطابق مع الأقوال فتكون كل هذه الأعمال الزاكية النامية يعلمها ويراهنا الله وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ والناس أجمعون على أرض الواقع كقوله ﴿أَبِي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ آل عمران/٩٥ ، (وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) وستردون إلى الله عالم كل العوالم الغائبة عنا والمعلومة عندنا (فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) فترون حقيقة أعمالكم الكبيرة والصغيرة الصالحة والطالحة السريّة والعلنية ويجازيكم عليها، فإن سعادة المرء بمقدار ما يعمل صالحاً وتعاسته ما يعمل فاسداً، في غرر الحكم: (إِنَّكُمْ إِلَىٰ إِغْرَابِ الْأَعْمَالِ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَىٰ إِغْرَابِ الْأَقْوَالِ)، وعن الإمام علي (ع): (أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ عَلَيْهِ

نَفْسُكَ) البحار ٧٨ص ٦٩ فائدة : ١- يجب عليكم مراقبة أعمالكم ومحاسبة أنفسكم على أقوالكم وأفعالكم ونياتكم ، وحاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا ! ٢- (اعْمَلُوا) يدلُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخَيَّرَ فِي أَعْمَالِهِ لَا مُجْبِرَ . ٣- إذا عرف الإنسان أن أعماله يراها الله فسيَتَوَقَّى من الذنوب ويجذر منها.

١٠٦ - ﴿وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

مُرْجُونَ : مؤجلون مؤخرون. ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة أربعة أصناف ١- السابقين إلى الهجرة والنصرة، ٢- والتابعين لهم بإحسان، ٣- والمنافقين، ٤- والمعترفين بذنوبهم، وأشار في هذه الآية إلى أناس خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً لم يحدد لهم بأسمائهم وهم مؤجلون إلى أن يظهر أمر الله فيهم (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) فلا سبب عندهم يرجح جانب العذاب أو جانب المغفرة والتوبة، فأمرهم موكول إلى الله وحده ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام/١٤٩، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ البقرة/٢١٠، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) عليهم بأحوالهم حكيم بما يتناسب معهم من حكم وهم كرجال الأعراف ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الأعراف/٤٦، فائدة: (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) إمَّا للشك والله منزّه عنه، فالله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم ، ويرجع هذا التردد إلى العباد فيكون أمرهم فيهم بين الخوف والرجاء ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف/٥٦، وقد أُبْهِمَ الأمر في نيتجتهم ليكون الجزاء من جنس العمل وتكون العقوبة على قدر الجناية، كما خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً كذلك خلط لهم الخوف والرجاء، وهذه حكمة التأجيل.

١٠٧ - ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِمْرًا صَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

ومن المنافقين جماعة بالغوا في الجريمة حتى أسسوا مجمعا يدبرون فيه الشر وسموه مسجداً لإضرار المؤمنين وإشتهر (بمسجد ضرار)! والإسلام يحرم أي ضرر من الأضرار المحرمة (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ)، (وَكُفْرًا) نصرة للكفر الذي يخفونه وأهم يعرفون نفس الشعارات لأنصار الحق لتغطية مقاصدهم العدوانية والتي هي تفريق كلمة المسلمين والإضرار بهم (وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) يفرقون بواسطته روابط المؤمنين ويصرفونهم عن مسجد قباء (مسجد رسول الله (ص)) (وَإِمْرًا صَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) أي ترقباً وانتظاراً لقدم أبي عامر الفاسق وكان قد تنصّر وهو رئيس قومه ، الذي أمرهم ببناء مسجد ضرار ليكون معقلاً له للتعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين ! (وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى) وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان والتوسعة على المصلين والضعفاء من المسلمين ! ويحلف المنافق لأنه يشعر في أعماق نفسه أنه مفتري كذاب فيستتر بكثرة الحلف كقوله ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ خَلَافٍ مَهِينٍ﴾ القلم/١٠، (وَاللَّهُ

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) في حلفهم واللام في (لَكَاذِبُونَ) لزيادة التوكيد فأمر رسول الله (ص) بهدم المسجد وأن يتخذ مكاناً لإلقاء القمامة والزباله.

فائدة: ١- وفي عالم اليوم مئات من مساجد الضرار ولكن بأسماء تسر وتغر ولغايات تضرر، وهناك باسم معاهد للدراسات أو نادي الثقافة والرياضة أو الجمعية الدينية أو المكتبة الثقافية العامة في شكل كتاب أو صحيفة أو محاضرة وما إلى ذلك مما يهدف إلى زرع الخلافات بين المسلمين، وزيادة التنازع بينهم وتسمى في أيامنا المعاصرة (الفوضى الخلاقة) ! وإرهاب المجتمع الإسلامي ومحق الدين والوطن وسحق كرامة المواطن وإهانة القيم الإنسانية والمبادئ الدينية. ٢- التعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة مجسمة حركية تحتم كشف مساجد الضرار الكثيرة الخادعة اليوم، وإنزال اللافتات الكاذبة عنها، وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها من إجرام كعصابات داعش اليوم، التي تتستر باسم الدين وهي تقتل الدين والمتديتين ! وما هي إلا خطة صهيونية خبيثة برعاية وهابية للقضاء على الإسلام باسم الإسلام !

١٠٨ - ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ مِنْ جِبْرِالٍ يُحِبُّ أَنْ يُطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾
 نهى الله تعالى رسوله (ص) عن الصلاة في مسجد ضرار ، أي لا تصل فيه أبداً لأنه بني للفتنة وليكون مكاناً لتجمع أهل النفاق (لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) اللام لا م القسم أي لمسجد قباء الذي بُني على تقوى الله وأسس على طاعته (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) كان الدافع في بنائه منذ وضع أساسه بنية سليمة خالصة لوجه الله وعليها تقوم دعائمه (أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) : هنا بمعنى حقيق وجدير وأولى وأجدر وليست للتفضيل بين مسجد التقوى ومسجد ضرار أي مسجد التقوى أحق أن تصلي فيه من مسجد ضرار (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يُطَهَّرُوا) في مسجد التقوى رجال يركون أنفسهم، أتقياء يحبون الله ويطيعوه ويعملون الصالحات ويحبون أن يطهروا أبدانهم بالماء عن النجاسات، ويطهروا أرواحهم بالتوبة ويطهروا من الذنوب والنقائص ويتخلصوا من العيوب والعيادات الذميمة (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) المتطهرين المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة (البدنية والنفسية) والطهارة المادية والمعنوية ولا صلاة إلا بطهور الجسد الذي هو مفتاح لطهارة الروح والعقل والفكر. فائدة: في غرر الحكم: (إِنْ كُنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مُتَطَهِّرِينَ فَطَهَّرُوا مِنْ دَنَسِ الْعِيُوبِ)، في نهج البلاغة حكم ٢٥٢: (فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطَهُّيراً مِنَ الشِّرْكِ)، وعبر سبحانه وتعالى عن الصلاة بأنها طهارة وتربية وتركية وتهذيب لاسيما صلاة الجماعة لأنها تطهر النفس من العيوب والذنوب ومسائير العادات ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت/٤٥. عن النبي (ص) : (مَنْ بَنَى مَسْجِداً لَا يُرِيدُ بِهِ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ) وسائل الشيعة ٣/٤٨٥، في الحديث:

(اتَّقُوا الْبُولَ فَإِنَّ عَامَةً عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبُولِ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ فِي الْقَبْرِ!) روح البيان ٥٠٩/٣

١٠٩ - ١١٠ ﴿أَفَنُؤَسِسُ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي هل من أسس بُنْيَانَهُ أي دينه وعقيدته وقناعاته على علم وإيمان وعلى تقوى وخوف من الله تعالى ومراعياً مرضاته والالتزام بمنهجه (خَيْرٌ أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ) هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بُنْيَانَهُ ودينه على (شَفَا) حافة وطف (جُرْفٍ هَارٍ) وادٍ متصدع مشرف على السقوط والإهيار ؟ (فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) فسقط به البناء والباقي في نار جهنم.

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) لا يوفق الظالمين إلى السداد ولا يهديهم سبيل الرشاد بل يتركهم وما اختاروا كقوله ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ البقرة/١٥ ، وهو تشبيه لعمل المؤمنين وعمل المنافقين (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) ريب القلوب : هو اضطراب النفس وتردد الوهم والشك والحيرة فيها أي لا يزال في قلوب المنافقين أهل مسجد ضرار (رِيبَةً) شك ونفاق وغيظ وقلق وارتباب بسبب هدمه ولا يزالون في ارتياب وغيظ ، (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ فيموتوا فتتلاشى الريبة بتلاشيها ! أي سيقون على هذا الريب والقلق حتى الموت أو المعنى إِلَّا أَنْ يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) والله سبحانه عليهم بأحوال المنافقين حَكِيمٌ في تدبيره إياهم.

فائدة : ١- عن الإمام الصادق (ع) : (لَا يَزْجَعُ صَاحِبُ الْمَسْجِدِ بِأَقْلٍ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا دُعَاءٌ يَدْعُو بِهِ يُدْخِلُهُ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَإِمَّا دُعَاءٌ يَدْعُو بِهِ فَيُصْرِفُ اللَّهُ عَنْهُ الْبَلَاءَ ، وَإِمَّا أَحْسَنُ سِتْفِيدُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) تحف العقول ص ١٦٩ . ٢- المعنى العام : ليس البناء القائم على أساس قوي متين مادياً ومعنوياً كالبناء القائم على أسس منهارة ، هذا الفرق بين البنائين كالفرق بين المؤمن والمنافق والمخلص والخائن وعلى كل مجال من مجالات الحياة كالفرق بين علاقات الاقتصاديين والسياسيين والحكومات والمؤسسات والشركات والصدقات المتنوعة وجميع العلاقات التي تبنى على تبادل المصالح . ٣- قصة مسجد ضرار يعلمنا ان لا نكون سطحيين ساذجين فنرى الشكل ونغفل عن المضمون ونصدّق بالقول الجميل ونغفل عن العمل المشبوه ، أو نلاحظ الحق الظاهري، ونغفل عن الأهداف الباطلة المستترة الخبيثة وراءه. عن النبي (ص) : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ! فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر/٧٥) ، قال : المتفرسين، الميزان ١٢/١٨٦ والذي لا يمتلك الفراسة الكافية لا يمتلك الإيمان المطلوب والمرغوب . ٤- يرسم التعبير القرآني الفريد صورتين

متقابلتين متحركتين مجسمتين : صورة مسجد ضرار المنهار ، وصورة الرّيبة والقلق القلبي ، وعدم الاستقرار النفسي للمناققين ، تلك صورة مادية ظاهرية وهذه صورة شعورية معنوية ، وهذا هو الإعجاز البلاغي الذي يرسم الواقع النفسي بريشة الجمال الفتي ، وهكذا لن يفهم القرآن حق الفهم إلا من يدرس منهجه الحركي المؤثر ، ولن يفهمه إلا أناس يتحركون بمنهجه مثل هذه الحركة المؤثرة ، لأنّ القرآن منهج واقعي ولا يفهم إلا من خلال فهم حركة الواقع ، ونزل القرآن تدريجياً من خلال حركة الواقع ، فينبغي أن يفهم الواقع ثم يفهم القرآن من خلال الواقع المتحرك المتغيّر ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه وعون أخيه وعون مجتمعه.

١١١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

هو تمثيل وتقريب لحقيقة مهمة بأسلوب مجازي مشوق للنفوس ، إنّها لبيعة مباركة مع المؤمنين الصادقين، إنّها تجارة لا نظير لها رابحة في كل الأحوال بلا خسران ، إنّها سياق قرآني في ذروة البلاغة وحسن البيان لأجر المجاهدين ، مثل الله تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأنفس والأموال في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء ، أنظروا إلى كرم الله بايع عباده فأغلى لهم الثمن ، أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها ثم وهبها ثم إشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة ، فكان المشتري هو الله عز وجل والبائع المؤمنون والتمن الجنة والتمن الأنفس والأموال والطريق هو الجهاد والقتل والقتال ، والتّهاية المرسومة إحدى الحسينيين هي النّصر أو الشهادة في سبيل الله ، والواسطة بين البائع والمشتري نبي الرحمة محمد (ص) فهل من صفقة رابحة أركى من هذه وأبقى؟ في نصح البلاغة حكم ٣٨٧: (كُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْفُورٌ ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَاقِبَةٌ) الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ذات صفات نموذجية مميزة ، إنه ترغيب في الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة ، إنّ الجهاد في سبيل الله وحده بيعة معقودة بعنق كل مؤمن (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته وهذا هو العرض الذي اشتراهم لأجله ، ومعنى (في سبيل الله) في سبيل خدمة الناس بالأساليب التي ترضي الله تعالى ولا تتجاوز حدوده وتدافع عن الحق والحقوق (فَيُقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ) أمامهم إحدى الحسينيين لا ثالث لهما إما النصر والظفر بالأعداء بقتلهم وهذا هو المطلوب والمرغوب ، أو الشهادة في سبيل الله عن النبي (ص): (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ص ٨ فهي عارض في طريق النّصر وليست هدفاً ولا غاية ، تشير الآية إلى أن من شأن المؤمن أن يكون له يد ظاهرة متمكنة على عدوه وأنه قبل أن يقتل لا بد أن يقتل من عدوه ويضعف شأنهم ويساهم في وهن إرادتهم وتفتيت قوتهم فتكون الشهادة أحد سبل النصر ووسيلة شريفة من وسائله ، فيكون النصر هو الغاية والشهادة وسيلة عارضة في الطريق المقصود (وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا) وعد الله سبحانه المجاهدين وعداً قطعاً بالجنة فصارت حقاً لهم على

الله تعالى بهذا الوعد خاصة بعد أن سجّله (في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ) وعداً ثابتاً في الكتب المقدسة الثلاثة ومعنى التوراة: بالعبرية أي الشريعة ، الإنجيل: يونانية معناها البشارة (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) لا أحد أوفى من الله جلّ في علاه ، إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه كرام الناس فكيف بالله الغني الكريم الذي لا يجوز عليه القبيح؟ لذلك صار الاستفهام إنكاري بمعنى التّفي، وهو ترغيب في الجهاد بصورة مشوقة (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) أبشروا بذلك البيع الراجح وافرحوا به غاية الفرح وهذا تأكيد آخر للوعد الصادق بالجزاء الجزيل (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) هو أقصى درجات الفوز.

فائدة:

١- كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...﴾ الصف/١٠-١١ . ٢- في غرر الحكم: (الْجِهَادُ عِمَادُ الدِّينِ وَمِنْهَا جُ السُّعْدَاءُ)، وفيه أيضاً: (زَكَاةُ الشَّجَاعَةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، وعنه (ع) : (إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا) البحار ٧٨ ص ١٣ . ٣- والغرض من هذا التأكيد على أن يكون المجاهدون على يقين من الجزاء وعظيم من الثواب حتى كأنهم يرونه رأي العين فيستبشرون كقوله ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة/٢٥١ . ٤- سؤال : لماذا قدّمت الآية الأنفس على الأموال هنا خلاف المواضع كلّها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين ؟ الجواب : في هذه المبايعة يطلب الله الأنفس قبل الأموال لأنها هي الأهم ولا قيمة للأموال من دون النفس في هذه الحالة فقدّم الأهم على المهم، حتى يسترخصوا النفس إلى جانب المال (والجود بالنفس أقصى غاية الجود)

١١٢ - ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ثم وصف الله هؤلاء النخبة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته بتسع صفات أصيلة مميزة تؤهلهم لأن يبائعوا الله تعالى : ١- (التَّائِبُونَ) الراجعون إلى الله بتركهم كل ما يبعد عن مرضاته ، فيعملون التخلية من السلبيات والتخلية بالإيجابيات وهم أصحاب تزكية النفوس ، ٢- (الْعَابِدُونَ) لله وحده المخلصون في جميع عباداتهم ، وكل عمل صالح ونافع لوجه الله والخير فهو عبادة ، وكف الأذى عن الناس وقضاء حوائجهم من أفضل العبادات ، في غرر الحكم: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَهْمَهُ حُسْنَ الْعِبَادَةِ) ، ٣- (الْحَامِدُونَ) لله في السراء والضراء المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ويحمدون الله في جميع الأحوال والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والحمد لله على كلّ حال ، ٤- (السَّائِحُونَ) ذو معنى عام ، من السياحة وهي السفر الهادف المفيد في بلاد العالم للعة والاعتبار ولطلب العلم والاختصاص بمهنة نافعة للمجتمع والسفر للحج والعمرة والجهاد وصلة الأرحام ولطلب الرزق أو للتجارة في الحديث : (إِنَّ أْبَعْضَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ الصَّحِيحُ الْفَارِعُ) شرح النهج ١٧/١٤٦ ، ومن أحسن مَنْ قال: (مَا نَفَعَلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُجِدُّ مَا لَدَيْنَا، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي

أَوْقَاتٍ فَرَاغًا يُحَدِّدُ مَا نَكُونُ) والإنسان يعيش بين العمل والفراغ، فالعمل عنوان أصله، والفراغ دليل على مستقبله! وحث القرآن كثيراً على السير في الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت/ ٢٠ ، وفُسِّرَت بسياحة القلب في أبعاد آفاقه العلمية والإيمانية في معرفة الله والحياة والأحياء ٥ - ٦ (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) المكثرون من الصلاة وخص الركوع والسجود بالذكر لما فيهما من التواضع والخضوع والتذلل والعبودية لله تعالى هذه هي صفاتهم في حياتهم الشخصية الخاصة أما صفاتهم في حياتهم الاجتماعية العامة فهم، ٧ - (الآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) الداعون إلى الإيمان وجميع أعمال الخير والبر والصلاح ، ٨ - (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو جميع ما نهى الله عنه ورسوله ويعتبر الأمر والنهي أنجح وسيلة من وسائل الإعلام المتنوعة لذا حث عليها الإسلام ، ٩ - (وَالْحَافِظُونَ حُدُودَ اللَّهِ) لها دلالة عامة شاملة أي المحافظون على فرائض الله المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام وأوامر ، وينتهون عن كل النواهي مع أنفسهم ومع الناس وفي سرهم وعلانيتهم وفي الشدة والرخاء (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) بشارة مطلقة لكل مؤمن بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، وأما مقدارها وصفتها وكيفيةها وكميتها فإنها بحسب حال المؤمنين من قوة إيمانهم أو ضعفه.

فائدة:

١ - عن الإمام الصادق (ع) : (لقي عباد البصري الإمام السجّاد (ع) في طريق مكة ، فقال له : يا علي تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينته إن الله يقول (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) فقال الإمام السجّاد (ع) : إِذَا رَأَيْتَنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ فَالْجِهَادُ مَعَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ) الكافي/ ٥/ ٢٢٠ - ٢ - هذه هي الحياة النامية التي يدعى إليها المؤمنون بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال/ ٢٤ .

٣ - وفي الجمع بين هذه الصفات دون أن يقوم بينها حرف عطف ، ما يشير إلى أنّها جميعاً بمنزلة صفة واحدة ، إنّ تحقيق أي صفة منها داعية لتحقيق جميع الصفات ، فالذين يتصفون بتلك الصفات هم من الذين اشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم.

١١٣ - ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لا ينبغي للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر والذين لا يوحدونه ولا يعترفون بما نُزِّلَ على أنبيائه (وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ) ولو كان المشركون من أقرب الناس إليهم كأن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو غيرهم (مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) من بعد ما توضّح لهم بتيقن أنهم أعداء الله ومن أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، فيكون الإسلام هو العروة الوثقى التي تلتقي فيها سائر الأواصر البشرية ! كقوله ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾ المجادلة/ ٢٢ ، عن الإمام

الصادق (ع): (لَا يَمَحُضُ رَجُلٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمَنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ) البحار ٧٠ ص ٢٤٤، سبب النزول: قال المسلمون للنبي (ص) ألا نستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهلية فأنزل الله الآية، عن النبي (ص): (مَنْ كَثُرَتْ هُمُومُهُ فَعَلَيْهِ بِالْإِسْتِغْفَارِ) فروع الكافي ٨/٩٣.

فائدة: ١- وقيل اشتباهاً نزلت في أبي طالب لأنه مات على غير الإسلام وهذا مخالف للحق وأبعد ما يكون عن الواقع، لأن النبي (ص) حين مات عمه أبو طالب بكى وطلب له من الله الرحمة والمغفرة وأمر ولده علياً بتغسيله وتكفينه ودفنه، روي: (أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِيُؤَدِّهِ عَلِيٌّ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَدْعُكَ إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ فَالْزَمَهُ) المبين ص ٢٦٢، وسئل الإمام زين العابدين (ع) عن إيمان أبي طالب فقال (ع): (واعجباً إن الله سبحانه نهي رسوله أن يقر مسلمة على كافر ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ المتحنة/١٠، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات للإسلام ولم تنزل تحت أبي طالب حتى مات، ولسان حال أبي طالب أصدق من لسان مقاله فهو كمؤمن آل فرعون يكتنم إيمانه، ولو أظهر إيمانه وأعلنه لما استطاع أن ينصر محمداً ويحميه، وبكتنم مؤمن آل فرعون إيمانه استطاع أن ينصر موسى (ع) وبلغه بتصميم فرعون على قتله حتى هاجر وترك بلاده، كقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران/٢٨، كما اتقى عمارة ابن ياسر من عذاب المشركين.

١١٤ - ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه بقوله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ..﴾ المتحنة/٤، أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ) إلا من أجل وعدٍ تقدم له، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ظن أنه ليس بعدو معاند لله وإن كان مشركاً فاستعطفه بوعده فاستغفر له (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) فَلَمَّا تَبَيَّنَ لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر وصار بمنزلة أنه عدو لله لأن الكفر عدو الإيمان، فانقطع رجاءه وتبرأ من أبيه تماماً فضلاً عن الاستغفار له، ثم بين تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو زيادة ترحمه على أبيه وصبره عليه (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ لَأَوَّاهٌ: كلمة مبالغة من شدة الإيمان والإيقان من خشية الله أي كثير التأوه والبكاء والدعاء خوفاً من الله وطمعاً في رحمته وتحسراً على ما يراه من أحوال الناس الضلالة والخاصع كثير التضرع والرجوع إلى ربه من زيادة الرحمة ورقة القلب وسلامته (حَلِيمٌ) صبور ويتحمل الأذى لا يستغفّر الغضب ويصفح عن زلات الناس لذلك حلم عن أبيه مع توعده له ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ﴾ مريم/٤٦، روي: (مَنْ حَلَمَ إِبْرَاهِيمَ (ع) أَنَّ رَجُلًا قَدْ آذَاهُ وَشَتَمَهُ فَقَالَ لَهُ هَذَاكَ اللَّهُ).

١١٥ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال (بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) بعد أن وفقهم الله للإسلام وللإيمان (حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) حتى يبين لهم ما هو الواجب اتباعه فيما يرضيه سبحانه وما هو الواجب اجتنابه فيما يسخطه تعالى ، فإن خالفوا بعد النهي استحقوا أن يظلموا كعقوبة كقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل/ ١٢٥ ، (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) عليم بجميع الأمور ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ومن يستحق الغواية. فائدة : إن المؤمنين إذا عملوا عملاً وجعلوا أنه حلال أم حرام كما لو استغفروا لمشرك أو ترحموا عليه جهلاً بالتحريم فإن الله لا يؤاخذهم حتى يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه ، فإن عصوا بعد البيان إستحقوا العقاب ولا عقوبة بغير بيان سابق على الفعل ، ويكون الحساب على قدر الذنب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١.

١١٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

هو خالقهما ومالكهما ومدبر أمرهما ومقدّر كل شيء فيهما وكل من فيهما عبده ومملوكين له (يُحْيِي وَيُمِيتُ) بيده وحده حياتهم وموتهم مادياً (جسدياً) ومعنوياً (روحياً وفكرياً وعقائدياً) أي يجيهم بالهداية ويميتهم بالضلال باستحقاقهم ! (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) وما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه وتستعينون به وتتوكلون عليه ليتولى أمركم ويحفظكم وينصركم ويقضي حوائجكم. فائدة : ١- في الآيات الأربع ١١٣-١١٦ نهي عن تولي أعداء الله مع وجوب التبري منهم وعدم التعاون معهم ونصرتهم ، سواء أكان التولي بالاستغفار أو بغيره ، وسواء كان العدو مشركاً أو كافراً أو منافقاً أو غيرهم من أهل البدع ، الكافرين بمنهج الله المصيرين على عداوة رسالة الله وعبادة المؤمنين بها أو المصيرين على بعض الكبائر كالمراي المحارب لله ورسوله ورسالاته. ٢- عن الإمام علي (ع) : (كُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ) نصح البلاغة خطبة ٦٥.

١١٧ - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

وذكر النبي (ص) هنا في التوبة وهو لم يقع منه شيء يتوب منه والله تعالى يصفه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى/ ٥٢ ، ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الزخرف/ ٤٣ ، وقد قرأ الإمام الصادق (ع) (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ..) والتوبة على النبي (ص) كقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ التوبة/ ٤٣ ، وكقوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الفتح/ ٢ ، وكقوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ غافر/ ٥٥ ، فليست ذنوب النبي ارتكاب ذنب وإنما ترك ما هو أولى ، قيل (سَيِّئَاتُ الْمُفْرَرِينَ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ) فكيف بالنبي (ص) الرّحمة المهداة للبشرية المعصوم بذاته والمعصوم من الخارج بالوحي أن يذنب فيتوب الله عليه ؟ المعنى : فالمراد بالتوبة على النبي (ص)

والذين أطاعوه في ساعة العسرة والحنة الشديدة ، أي لقد تاب الله ورجع برحمته على النبي والمهاجرين والأنصار ورضي عنهم نتيجة الجهاد والمعاناة الشديدة في طريق الجهاد العسير (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة والشدة والمشقة الفائقة (وسمي جيش العسرة) في شدة الحر وقلة الزاد وطول الطريق والضييق الشديد ومعاناة الجوع والعطش حتى أن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه!

(مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) يَزِيغُ : ينحرف أو يميل أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب وتشك لما أصاب المسلمون قسوة وشدة ، فكان العشرة يتنادبون على بعير واحد والرجلان يقتسمان ثمرة واحدة فأنارت أعصاب بعض الصحابة وهما أن يفارقوا الرسول (ص) ولكنهم لم يفعلوا بل صبروا واحتسبوا (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) تكرير (تَابَ) لتوكيد التوبة وتيسير المعونة أي وفقهم للثبات على الحق وعصمهم من الزلل ورحمهم في تحمّل المعاناة وتاب عليهم لما ندموا وصبروا ورضي عنهم لما استقاموا وواصلوا الجهاد كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/ ١٨٦ ، (إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ) رَعُوفٌ : لطيف معين للضعفاء بالفرار والهروب وترك الرسول (ص) ، والمراد بالتوبة عليهم أنه تعالى يعاملهم معاملة الذين لم يهّموا عن الجهاد كقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ التوبة/ ٤٣ .

١١٨ - ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ولقد تاب الله كذلك على الثلاثة أفراد الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق بل عن تهاون وتكاسل وهم ال ﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ التوبة/ ١٠٦ ، فلما رجع رسول الله (ص) إلى المدينة عتب عليهم وأمر الناس بمقاطعتهم (حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) الأرض على سعتها كأهم لا يجدون فيها مقراً ولا ممراً ، وهذا مثل للحيرة الشديدة والضييق في أمرهم بإعراض النبي (ص) والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم في كل مجلس وكل حديث ، ثم ترقى وانتقل همهم من ضيق الأرض عليهم إلى ضيق أنفسهم (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ) وقع في نفوسهم ندم وحسرة وضييق شديد فلم تحتملهم أنفسهم من شدة الوحشة والغم والهلم لأنهم فقدوا كل شيء يسكنون إليه لكثرة همومهم وغمهم وهجرهم الناس وتركتهم حتى زوجاتهم فلا يقربوهن ، فخرجوا إلى رؤوس الجبال وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم (وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) أبداً لا أحد ينال ما عند الله إلا بمعونته لهم ورحمته بهم فهو خير معين ، وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه وسخطه إلا بالرجوع إليه سبحانه بالقلب والقالب والإنابة والتوبة الخالصة وإستمرت

هذه المعاناة خمسون يوماً حتى قبلت توبتهم (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ لِكَيْ يَتُوبُوا وَرَجَعَ عَلَيْهِم بِالرَّحْمَةِ لِيَسْتَقِيمُوا عَلَى التَّوْبَةِ دَائِماً وَأَبَداً (إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) المبالغ في قبول التوبة المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة فهو يرجع إليهم بالهداية للتوبة ثم يقبل توبتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحج/٦٥. فائدة: في غرر الحكم: (التَّوْبَةُ نَدْمٌ بِالْقَلْبِ، وَإِسْتِعْفَاؤٌ بِاللِّسَانِ، وَتَرْكُ الْجَوَارِحِ، وَإِضْمَارُ أَنْ لَا يَعُودَ). (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) عندما (وَضُنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) أي أيقنوا أن لا ملجأ ولا منجأ من الله إلا إليه بالتوبة والإنابة ، فلما كان ذلك كله منهم تاب الله عليهم ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه ، فيقبل توبتهم ، فهو سبحانه مهَّد لهم طريق التوبة إنَّه هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

١١٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

الخطاب للذين آمنوا (اتَّقُوا اللَّهَ) راقبوا الله وتحسسوا قربه منكم وتورعوا عن محارمه والتزموا بطاعته في جميع أقوالكم وأفعالكم وفي سركم وعلانيتكم (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وكونوا مع أهل الصدق والعدل والصلاح والإنصاف في جميع أحوالهم وأشكالهم ، وهم الذين لا يكذبون في قول ولا فعل ولا في شدة ولا في رخاء ، ويؤمنون بالمقدسات ويعملون بموجبها كقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات/١٥ ، عن النبي (ص) : (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً) كنز العمال خبر ٦٨٦١.

فائدة : ١- ومن المصاديق العملية للآية النبي مُحَمَّدٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ٢- (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) قائلين بالحق العاملين به والتناصرين له فيبقى يصدق ويصدق ويصدق حتى يكون (صديقاً) أي مبالغة الصدق ويتصف ويعرف به وهذه منزلة سامية جداً عالية المضامين (أو) (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) أو في الصادقين أو في صحبة الصادقين، لأنَّ (مع) للمصاحبة (وفي) للوعاء والتعميق والتحقيق (ومن) للتبعض ، فإذا كان المجاهدون في سبيل الله والمتقون في جبهة الصادقين فهم يجمعون المعاني الثلاثة السامية أي كونوا في جملة الصادقين ومصاحبين لهم أو لبعضهم لتكسبوا منهم ثباتهم على الصدق ، وهذه منزلة لا ينهاها إلا من زكى نفسه وطهرها من العيوب وهذبها من العادات السيئة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس/٩ ، وفي غرر الحكم : (ذَرُورَةُ الْعَلَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُوؤُ التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) ولا رخصة في الكذب إلا لضرورة كما في الحديث : (كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا رَجُلًا كَذَبَ فِي حَدِيْعَةٍ حَرَبٍ أَوْ صِلَاحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ رَجُلًا يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ لِيَرْضِيَهَا) المراغي ١١/٤٤٠

١٢٠ - ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَعْغِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

إذا قاد الرسول الأعظم (ص) أو نائبه بالحق جيشاً لنصرة دين الله والحق ، فعلى كل مسلم أن يُسرع إليه ويضع نفسه وما ملكت يدها رهن إشارته وخطته. المعنى : ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن غزوة تبوك مع رسول الله (ص) ذات التفير العام بغير عذر مشروع (وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) يقال (رغبت عنه) أعرضت (رغبت فيه) أحببت (ورغبت بنفسي عن نفسه) أحببت لنفسي أكثر من نفسه.

بمعنى : لا يترفعوا ولا يفضلوا أنفسهم عن نفسه (ص) ولا يؤثروا راحتهم ومصالحهم ويدعوه يكابد الشدائد والمصائب من دوهم بأن يجبوا لأنفسهم ما لا يجبوه لنبئهم ويكرهوا لأنفسهم ما لا يكرهوه لنبئهم ، وأن لا يشتغلوا بحماية أنفسهم عن حماية نفس نبئهم فيتركوه عند مخاطر الحروب وفي تعب الجهاد كقوله ﴿التَّيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأحزاب/٦ ، ويجعلوا أنفسهم وقاية وحماية لنفس النبي الكريم لما له من الحقوق عليهم بل عليهم أن يقدوه بالنفس والنفيس وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والشدائد ، وأن يصحبوه على البأساء والضراء ويكونوا معه في جميع الأحوال ، علماً بأن نفس النبي (ص) أعزّ نفس على الله وأكرمها عليه (الخلاصة) على كل مؤمن أن ينصر الحق وأهله ويكافح الباطل وأهله ولا يؤثر منافعه الخاصة ويقدم مصالحه الشخصية على المصلحة العامة متعللاً بالأكاذيب كما فعل المنافقون (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ) ذلك إشارة إلى النهي عن التخلف عن نصرته الحق ، بل يجب عليهم الجهاد في سبيل الله واتباع الحق مع كل ما يصيبهم في جهادهم الحق من معاناة وأذى ك(ظمأ) قلة ماء وعطش (وَلَا نَصَبٌ) ولا تعب لبعد المسافة (وَلَا مَخْمَصَةٌ) ولا مجاعة شديدة تجعل الرجل خميص البطن أي ضامرة (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) في طريق الجهاد الذي يرضاه الله (وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا) ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم (يَعْغِطُ الْكُفَّارَ) يغضب الكفار وطؤها (وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا) ولا يصيبون أعداءهم بشيء من قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة قليلاً كان أو كثيراً (إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) إلا كتب لهم بكل واحد عملاً صالحاً وقرى إلى الله وطاعة مرضية رفيعة يجزون عليها بالثواب العظيم ويكونون من المحسنين لأنّ الجهاد الفضيل إحسان (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) إنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وهذا تحريض على الجهاد وأعمال الخير ، وما أباح الإسلام الجهاد إلاّ دفاعاً عن الحق ونصرة الحقوق ولغاية سامية. فائدة : أصعب شيء لقلب الإنسان الحر الشريف أن تطأ قدم عدو خبيث تراب أرضه وبلده ، ولا فرق عنده أن يطأ تراب وطنه أو يطأ رأسه وقلبه رغماً على أنفه ، والمؤمن الكريم والتبيل الشريف يستهين بالموت والمال

والعيال في سبيل المقاومة الصادقة والجهاد الحق وما أباح الإسلام حرباً إلا جهاداً ودفاعاً عن غاية أفضل وأكمل.

١٢١ - ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

هو عطف على ما سبق من الأعمال الصالحة التي تكتب للمجاهدين ، فأية نفقة في سبيل الله صغيرة أو كبيرة قليلة أو كثيرة ، ليست العبرة بالكمية وإنما بالكيفية وحسن النية (وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ) ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً إلا أثبت لهم أجر وثواب ومنزلة ذلك (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ليجزيهم الله على كل عمل لهم جزء أحسن أعمالهم، وأحسن أعمالهم جهادهم في سبيل الله ، فتكون (أحسن) وصف لأفعالهم ووصف لجرائهم ، ويكون الجزاء على ضوء العمل كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ الأحقاف/١٦ .

١٢٢ - ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للمجاهدين للغزو بحيث تخلو منهم البلاد ، لأن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وكذلك طلب العلم والتفقه في الدين والاختصاص به تماماً كالتجارة والصناعة والزراعة (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) (فَلَوْلَا) كلمة تفيد الحضور والحث وتفيد الأمر والوجوب فلولا بمعنى فهلاً (التفقه) التعلّم بدين الله القيم (الإسلام) بمعنى التسليم الذي قاعدته القرآن بحيث لا نفهم الدين بعيداً عن القرآن أو معارضاً له ، فلا بد أن ينفر ويخرج من كل بلد ويذهب من كل قبيلة (فِرْقَةٍ مِنْهُمْ) الجماعة الكثيرة (طَائِفَةٌ) جماعة قليلة من كل بلد (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) تتخصص في فهم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً ويعملوا به قولاً وعملاً ويعلمونه ليكونوا مصادر هداية للأمة كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧ ، ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران/١٠٤ ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤ ، عن النبي (ص) : (يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ) كنز العمال خبر ٢٨٧١٥ ، بحار الأنوار ٢/ص ١٤ ، (وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) وليرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم ويعلموهم القرآن والسنة ، وهم مؤهلون للإرشاد والتبليغ وعلى المتعلم أن يسمع ويتعلم ويعمل بما يعلم ، في غرر الحكم: (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأَلٍّ ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) وعن النبي (ص) : (كُونُوا لِلْعِلْمِ وُعَاةً (رُعَاةً) وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُؤَاةً) كنز العمال خبر ٢٩٣٣٥ ، فإن رواية العلم كثير ورعاته قليل ، وعن الإمام الصادق (ع) : (تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ مِنْكُمْ فِي الدِّينِ فَهُوَ أَعْرَابِيٌّ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)) الكافي ١/٣١١ ومعنى فهو إعرابي أي له صفات خشنة من أهل البادية كقوله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ التوبة/٩٧ ، فائدة: ١ - (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

ومعنى (لعل) هنا الطلب لا الترجي، أي يجب عليهم أن يسمعو من المرشدين ويطيعوا ، أي لعلهم يتورعون من مخالفة أحكام الدين والحذر من إبتاع هوى النفس ومن تجاوز حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، دون أن تأخذهم الدنيا بغورها وأنفسهم الأمانة بالسوء بخيانتها فيفضلوا التصدّر والرياسة والتشبه بالظلمة في ملابسهم وماكلهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً في الثراء ، والتقصير في حق التبليغ والمبلغين ، وعلى الأمة مسؤولية الوعي فيما تسمعه، فعليها أن تفرز الصحيح من الخطأ ، فإذا لم تستطع أن تفرز ذلك بنفسها فعليها أن تسأل أهل الاختصاص ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/٤٣ .

قال تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر/١٧-١٨ ، عن النبي (ص) : (اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كنز العمال خبر ٢٩٣٣٩ وهذا ترغيب في طلب العلم.

في الحديث: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) البحار/١٧٧/١ كفريضة الجهاد. ٢- (لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) ليس النفر محدوداً في الجهاد وفي طلب العلم وإنما هو نفر ونهضة علمية وحضارية عامة لإعمار البلاد وإصلاح العباد ، وفي جميع ميادين العمل النافع والصالح للفرد والمجتمع ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/٦١ ، (لِيَتَفَقَّهُوا) التفقه ليس علماً محدوداً مخصصاً بالفقه والأصول ، وإنما هو فقه الحياة فقه فلسفة الدنيا في شؤونها العلمية المتنوعة، وفقه دين الله في معناه القيم ، ومعرفة مواطن نهضة الأمة الحضارية في جميع الميادين مع البقاء على الإلتزام بمنهج الله تعالى المستقيم.

عن النبي (ص) : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَقَهَّهُ فِي الدِّينِ وَأَهْمَهُ رُشْدَهُ) كنز العمال خبر ٢٨٦٩٠. ٣- تدلّ الآية على أنّ الخروج إلى الجهاد غير واجب ابتداءً على طلبة العلوم الدينية. ٤- (الفقه الإسلامي الحركي) لا يؤخذ هذا الدين إلاّ عن فقيه يدرك الواقع وحريص على الإسلام والمسلمين ويسعى لنصرة الدين في واقع الحياة، ولا يكتفئ شيئاً من أحكام الإسلام على الناس ، يقول الحق ولو على نفسه ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة/٥٤ ، وأن لا يترفع على عامة الناس ويكسب أموالهم ، ويطلب الرّعامات والمناصب والتشبه بالجبّارين ، فيتخذ الدين سلماً للدنيا ويكون من وعاظ السلاطين فيخسر الدنيا والآخرة.

١٢٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يَلُونَكُمْ : من بجواركم من الكفار من كانت بلادهم قريبة لبلدكم ، أي قاتلوا الأقرب فالأقرب منكم إلى الكفر والشرك أو الأقرب بالنسب أو الدار أو الجوار ، والذين تتصل أرضهم بأرضكم ، وطهروا ماحولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم حتى يصلوا الأبعد فالأبعد ، إلا أن

تكون هناك هدنة متفق عليها. تحت الآية على تحصين حدود المسلمين وصيانتها من كلِّ عدو لا يؤمن شره ، وبناء الخطوط الدفاعية على الحدود، عن الإمام السجاد (ع): (اللَّهُمَّ حَصِّنْ تُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ) الصحيفة السجادية الدعاء (٢٧)، (وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) وليجد هؤلاء الكفار منكم (غِلْظَةً) قوة وصلابة وشدة عليهم في ذات الله لأنهم عقبات في طريق المسلمين ، وليجدوا فيكم توحيداً للصفوف وجمع القلوب وتمام العدة وكمال العدد بحيث يهابكم العدو فالؤمن يكون رقيقاً بالؤمن غليظاً على عدوه كقوله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح/٢٩ ، (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) الذين يتقون حرامه ولا يتعدون حدوده ويعملون بحلاله ، أي الذين آمنوا بالإسلام بصدق وأخلصوا في قتال أعداء الله ، وإعلموا أن (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) ومن كان مع الله كان الله معه بالنصر والعون ، وهذا تنبيه إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في ما بينهم وبين عدوهم.

فائدة:

١- هناك آيات قرآنية في الجهاد دفاعية وهناك آيات هجومية لتأمين مستقبل بلاد المسلمين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الأنفال/٣٩ ، فكان الجهاد الهجومي لضمان حرية الاعتقاد ، ينطلق الإسلام بالقوة ليحطم الأنظمة الطاغوتية التي تفرض الكفر على المسلمين بلسان الحال قَبْلَ لِسَانِ الْمَقَالِ كقوله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ التوبة/٣٢. ٢- (وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة/٧٣ ، الغلظة والشدة في الحرب مما تقتضيه المصلحة للنهي عن القبيح وهذه حالة خاصة ، أما القاعدة العامة هي الرِّفْقُ واللِّينُ والشفافية فإنها مفتاح النجاح في مداراة الناس وفي غرر الحكم : (إِخْلُطِ الشِّدَّةَ بِرِفْقٍ ، وَإِرْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفُقَ)، كقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران/١٥٩ ، والذي لا ينفعه الرِّفْقُ تنفعه الشدة! (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) يجب أن تكون تقوى الله هي الأساس في حربهم لعدوهم ، فلا يتعرضوا للمدنيين والنساء والأطفال والشيوخ بأذى ولا يتبعوا هارباً ولا يقضوا على جريح ولا يمثلوا بقتيل ولا يقطعوا شجراً ولا يحرقوا دوراً ولا يقتلوا حيواناً.. فليس في هذا كله عدو لهم ، إنما عدوهم هو الذي حمل السلاح وقتلهم به ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الأنفال/٦١ ، في الحديث: (أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النَّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلُ الْجِهَادِ) المحجة البيضاء/١/١٤١ ولكن مِدَادُ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ مِنْ دِمَائِ الشُّهَدَاءِ. ٣- (يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) مفهوم الأقرب فالأقرب ، وإعطاء الأولوية للأقرب في جميع المسائل كالإنفاق والصدقات والفقير ولذوي

القربى وفي الطعام والضيافة، تكون الأولوية لذوي القربى والوقوف في الصف الأول في صلاة الجماعة هو الأقرب للتقوى وإمامة الصلاة.. وهكذا.

١٢٤ - ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً) من سور القرآن (فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا) فمن هؤلاء المنافقين من يقول للحاضرين استهزاءً أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ على وجه الاستخفاف (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً وعلماً وهدى وإيماناً لأن نفوسهم طاهرة نقية تتلقى بسرعة ولم تدنّسها الأهواء القذرة كنفوس المنافقين الهازئين ، ولأنهم تتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وهم يفرحون لنزولها لأنها تعمل لهم تحلية من السليبيات والنقائص ثم تحلية بالإيجابيات والمكارم أي تجعلهم يسرون في سلم التكامل الإنساني، فائدة: ١- الآية ذات دلالة عامة ، كم رأينا من حسود حقود يستخف بعلوم أهل الفضل وينعتها بكل قبيح ، ولو كان له عشر منها لتفاخر بها بين الناس!

كما قال الشاعر: قَدْ تُنَكِّرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنَكِّرُ الْقَمَّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ!
٢- سؤال: هل أن سور القرآن فقدت تأثيرها فهجرها الناس؟ الجواب : إنّ تسمم أفكار الناس ومرض قلوبهم ووجود الحجب في نفوسهم من كثرة المعاصي وأكلهم للحرام وتساخهم في الحرام، أدت إلى خلق حالة عدم الإهتمام بدستورهم (القرآن) والمنقذ لهم ويهديهم التي هي أقوم كقوله ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الإسراء/٤٦. وقوله (وَدَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) الأنعام/٧٠

١٢٥ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾
وأما المنافقون والشكاكون (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) النفاق وفي عقولهم الشك وفي نفوسهم الجهل والعناد والتخلف في دين الله وضعف في الإيمان والتدين والأخلاق (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) رِجْسًا : قذارة وضلالاً ، أي فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وشكاً إلى شكهم وضلالاً فوق ضلالهم (وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) قد ملأ الشك والجحود قلوبهم حتى ماتوا عليه كقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزخرف/٤٠. فائدة : عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ مِنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْبَقِيَّةُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) كنز العمال خير ٤٤٢٢٥. فائدة : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) كلٌّ من إبتعد عن الحق واستمدَّ إيمانه من هواه وخياله وذاته ومصالحه الشخصية فهو مريض القلب وصغير العقل وضحل التفكير وإذا دعي إلى الحق والاستقامة كره ذلك وأعرض عنه وإزداد حقدًا وكرهاً ونفاقاً ويعتبره تزييف ورجعية.

١٢٦ - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾

الهمزة للتوبيخ ، أولا يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفضح سرائرهم وتظهر حقيقتهم لدى الجميع (يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) يمتحنون بالجهاد مع رسول الله أو بفضيحتهم وبكشف أسرارهم في كل عام مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي ؟ فيشاهدون آيات نصر الله لهم بدوئهم ووحدرة المسلمين وقوتهم وعظمة أخلاق النبي (ص) (ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ) والعجيب أنهم رغم هذه الحقائق لا يرجعون عن نفاقهم ولا يتوبون إلى الله ولا يعتبرون ولا يتعظون بهذه الحقائق وقد أعمت الأهواء قلوبهم والشهوات عقولهم ، والذي لا يعتبر بالماضين كان عبرة للباقيين ، وأخسر الناس من كان عبرة للناس . فائدة : كان المنافقون يتآمرون على النبي (ص) للقضاء عليه وكان الله يخبره بكل مؤامرة في كل عام مرة أو مرتين ، فكان عليهم أن يتعظوا ويؤمنوا لأن معرفة النبي بأسرار مؤامراتهم الخفية هي معجزة تدل على صدق نبوته (ص) وصلته بوحي السماء .

١٢٧ - ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

هذه حالة المنافقين في كل زمان ومكان ، إذا عجزوا عن مجابهة الحق ومواجهة الحجة بالحجة ، تبادلوا نظرات اللؤم والحقد وتغامزوا وتفاهموا بالحركات والإشارات . المعنى (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً) من القرآن وشخصت فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي (ص) (نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) وتكلموا بلغة العيون وغمزها متسائلين (هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا) هل يراكم أحد من المسلمين إن قمتم؟ أم مشغولون بخطاب النبي (ص) ولغلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار أمام الجميع ثم قاموا فأنصرفوا (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) فأعرضوا عن الهداية والرحمة ونور الإيمان وأبعد عنهم الفوائد التي يستفيدها المؤمنون من مائدة الإيمان كقوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف/١٤٦ ، وختم على قلوبهم وهذا دعاء إلهي عليهم (بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون الهدى فهم جهلاء حمقى ، عطّلوا قلوبهم عن وظيفتها، والمرء حيث يضع نفسه! ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/٤٤ ، والذي لا تليق به الفضيلة تليق به الرذيلة كقوله ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال/٤٢ . فائدة : قيل : للقلب ست أحوال : حياة وموت وصحة وسقم ويقظة ونوم، فحياته الهدى وموته الضلالة وصحته الصفاء وعلته الحرام ويقظته الذكر ونومه الغفلة! روح البيان ٥٤١/٣ .

١٢٨ - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

هذا خطاب لكل إنسان يبحث عن الحقيقة ويريد الهداية فالرسول يهديه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ﴾ الشورى/٥٢-٥٣ ، لقد جاءكم أيها الناس رسول عظيم القدر رحمة

للعالمين بعثه هادياً للناس أجمعين لينقذهم من حيرة الجهالة ويخلصهم من ظلمات الضلالة ، لم يقل (جاءكم رسول منكم) ولكن قال (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) من جنسكم من البشر ، أمّا وحدة النَّفْس كقوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ آل عمران/ ١٦٤ ، وهي أشد حساسية وأعمق صلة وأدل على نوع الرابطة القوية القريبة التي تربطهم به فهو منهم ومعهم وإليهم ومن أجلهم فهو بضعة من أنفسهم يتصل بهم صلة النفس بالنفس ، وهي كلمة بليغة في غاية البلاغة ، فهو يعلم الآمهم وأمالهم وما يصلحهم ومطّلع على مشاكلهم يعمل لمصلحتهم ، يبلغكم رسالات ربهم وينصح لهم (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) عَزِيزٌ عَلَيْهِ يشق عليه ويصعب عليه (مَا عَنِتُّمْ) العنت : الشدّة والمشقة ، مشقتكم ويسعى لتخفيف معاناتكم ولا يرضى أن يلقي كائن على وجه الأرض مكروهاً.

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) حريص على خيركم وسعادتكم وصلاح أمر الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ سبأ/ ٢٨ ، وحريص على هدايتكم لتكونوا مؤهلين لتنالوا شرف حملكم للرسالة الإسلامية القيمة لتنالوا بها خير الدنيا والآخرة (بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ) الرأفة : الشفقة ، والرّحمة: الإحسان، أي رؤوف بالمؤمنين رحيم بالناس أجمعين شديد الشفقة والرحمة عليهم ، والرؤوف الرحيم من أسماء الله وسمّاه بإسمين من أسمائه ، فالرسول (ص) يسع جميع الناس حتى الجاني الغليظ المتوحش فعليكم أن تطيعوه وتتبعوا سنّته الصحيحة التي لا تعارض القرآن (قصة) جاءه (ص) إعرابي وشدّه بقسوة حتى أثرت حاشية ملابسه على عاتقه وقال يا مُجْدٍ إِحْمَلْ لِي عَلَى بَعِيرِي هَذِينَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَإِنَّكَ لَا تَعْطِينِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ ، فقال (ص) المال مال الله وأنا عبده يؤاخذك الله بما فعلت ، قال الأعرابي لا قال النبي (ص) ولم قال لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة ، فضحك رسول الله (ص) وأمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

فائدة : ١- قال جعفر الطيار للنجاشي : (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا مِّنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِفَتَهُ وَمَدْحَلَهُ وَخَرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ) ، وعن النبي (ص) : (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمِيحَةِ) بحار الأنوار ٢٢/٢٦٣ ،

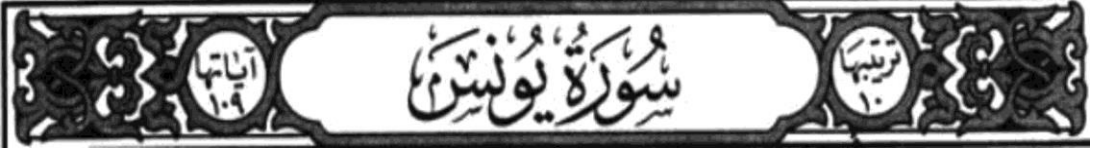
٢- (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) محبّ لكم ، لا يلقي بكم في المهالك فإذا كلّفكم بالجهاد في سبيل الله ، إنّما هي الرّحمة في صورة من صورها ، الرّحمة من الذلّ والهوان ، الرّحمة بكم من الذنب والخطيئة، الحرص عليكم ليكون لكم شرف حمل الدّعوة إلى النّاس كافة وشرف قيادة المؤمنين لنيل إعلاء كلمة الله. ٣- (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ) إنّهُ (ص) هدية عظيمة وتحفة جسيمة ورحمة مهداة من الله الجليل إلى كافّة النّاس ، ولا يعرض عنها إلا الكافرون الذين لا يعرفون قدر أنفسهم فلا يعرفون قدر هذه الرّحمة.

فإن أعرضوا عن الإيمان وانحرفوا عن الاستقامة مع حرصك عليهم (ومن ضاق عليه الإيمان فالضلالة عليه أضيّق) (فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) فقل يكفيني ربي ويتولى أمري (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) لا معبوداً سواه ولا اعتصاماً إلا به فقد تقطعت الأسباب من دونه (مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَأَهُ ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهُ جَزَأَهُ ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته ونستغفره من أي تقصير (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) إتخذته وكياً وكفياً يتولى تدبير أمري ولا ثقة بالأسباب الظاهرية لوحدها فبيده كل الأسباب ، ولكل شيء سبب (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) صاحب الملك والسلطان والتقدير العظيم ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض رب العرش المحيط بكل شيء لكونه أعظم من أن توصفه الكلمات.

فائدة : ١- (رَبُّ الْعَرْشِ) العرش مركز تدبير أمور الخلق ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ يونس/٣ ، وعظمة العرش من عظمة الرب الذي استوى عليه ودليل أنه وحده الإله المستحق للعبادة. ٢- (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) هذه هي مسؤولية الرسل والأنبياء (ع) التبليغ للرسالة بشكل واضح ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل/٣٥ ، وهي مسؤولية خلفاء الرسل وورثة الأنبياء (ع) وهي مسؤولية كل مبلغ عن رسالة الله أن يعرض الناس بالأسلوب الواعي مع الحجّة الواضحة ، ومن يعرض عن هذا البلاغ المبين (فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) ، ولا يياس منهم ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨.

وفي الختام نقول : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف/١٠٨ ، وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠. تم بعون الله تعالى (وَعِيُ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة التوبة ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ١٥/ذي الحجة/١٤٣٦ هـ الموافق ٢/١٢/٢٠١٤ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إن ربي سميعٌ مجيب الدعاء.

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

مكية تعنى بأصول العقيدة الإسلامية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخرهن ، بينت أنّ سنّة الله تعالى في الأوّلين والآخريّن أن يلقي الله الحجة الشرعية على النّاس ببعثة الرّسل والرسالات وبيان حقيقة الألوهية والعبودية ، ومقدار إخلاص العبودية تكون الصّلة بالله تعالى ، وبينت السّورة موقف المشركين من رسالة الإسلام ومنهج القرآن وعرفت السّورة بصفات (الإله الحق) بذكر آثار قدرته ورحمته الدّالة على التّديير الحكيم ألا وهي (عظمة الله تعالى) وسلطانه ومعظم السّورة تهدف إلى بيان هذه الحقيقة الكبرى بأساليب متنوعة. وتحدّثت السّورة عن قصص بعض الأنبياء وخصّصت قصة نبي الله (يونس) وسمّيت السّورة باسمه وكل قصص الأنبياء (ع) لبيان سنّة الله الكونية المرتبطة بسنن الله الإنسانية في إهلاك الظالمين ونصرة المؤمنين ، وكيف رفع الله العذاب عن قوم يونس حين آمنوا ؟ في الجزء الحادي عشر عدد آياتها ١٠٩ . (فضلها): عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُونُسَ كُلَّ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ لَمْ يُخَفْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ وَكَأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) نور الثقلين ٢/٢٩٠. ملاحظة عامة : كل فضل من فضائل السور القرآنية بشرطها وشروطها والالتزام بمنهج الله من شروطها راجع فضل سورة البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الرَّتِّكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَكِيمِ﴾

(الر) تقرأ (ألف ، لام ، راء) هي من متشابهات القرآن ، إنّها إشارة إلى إعجاز القرآن ، حيث أنّه مؤلّف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر ، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه في الفصاحة والبلاغة وعلومه المتنوعة. الحروف المقطعة في أوائل السور تقدّم الكلام عليها في أول سورة البقرة. (تلك آيات الكتاب الحكيم) هذه آيات القرآن المحكم الناطق بالحكمة والعلوم القيمة والموعظة الحسنة الذي لا اعوجاج فيه ولا تناقض ، الذي لا يأتيه الباطل والفساد والتعارض من أي جانب من جوانبه وهو دستور دائم المفعول للناس وفيه فصل الخطاب. (تلك) إشارة إلى آيات هذه السورة أو آيات الكتاب على وجه العموم تشتمل على الحكمة النّافعة وذات العبرة المفيدة ، ووصف الكتاب بالحكمة هو وصف لائق به من أوصاف الكمال والجلال ، حكيماً أي حاكماً يحكم على الكتب كلّها ولا يحكم عليه كتاب أبداً لا سماوي

ولا أرضي كقوله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ ، وإختص هذه الأمة بالاصطفاء عن سائر الأمم وأورثهم هذا الكتاب ومعنى الوراثة أنه يكون باقياً في هذه الأمة يرثه بعضهم من بعض ولا ينسخه كتاب كما نسخ هو جميع الكتب. فائدة : (تلك) اسم إشارة للبعيد و(هذه) اسم للقريب ، (تلك) كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن لأنَّ المطالب اليسيرة يشار لها غالباً باسم الإشارة القريب وفي المطالب المهمة يشار إليها باسم الإشارة البعيد.

٢ - ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مَرْجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾

الهمزة للإنكار ، عجيب من أمرهم أن ينكروا إنزال الوحي على رجل منهم مشهور بالصادق الأمين، من أقرب الناس إليهم ويتخذوه أعجوبة بينهم ويستغربون منه كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إيَّاه بالنبوة والرسالة ؟ (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) كافة وخوفهم من عذاب جهنم إذا عصوا، وبشَّرتهم بالجنة إذا أطاعوا ، وأعلمهم بالتوحيد والاستقامة واليوم الآخر وسائر الرسالة الإسلامية ، مع التخويف بعاقبة ما هم فيه من كفر وظلال ، ولا يجوز أن يترك الله عباده في الضلالة والجهالة بلا هادٍ ولا راعٍ وليس من عدله أن يعاقب بلا بيان (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (قَدَمٌ صِدْقٍ) تعبير مجازي يراد به مكان الصِّدْق ومنزلة الصِّدْق ، إذا كانت القدم هي الساعية بالصِّدْق ، أي وبشَّرتهم للذين آمنوا وحدهم بأن لهم (قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) سابقة حسنة وسيرة طيبة ثابتة وأعمالاً صالحة استوجبوا بها الثواب عند ربهم ، ومنزلة رفيعة نالوها بصِّدْقِ القول وإستقامة السلوك وحسن النية، وهو يبشَّرتهم بالطمأنينة والثبات والاستقرار تلك المعاني التي توحى من (قَدَمٌ صِدْقٍ) في جو الإنذار والتخويف والزلال وهناك قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ، يقال لفلان له قدم السِّبْق في الإسلام أو في الحرب و في العلم وهؤلاء عندهم قدم صدق.

(عِنْدَ رَبِّهِمْ) في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة في ساعات الحرج والاضطراب (قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) إتهام للنبي الصِّدْقِ (ص) بالسحر لأنَّه جاء بأعمال خارقة للعادة، وجاء بالقرآن المعجزة وقد وجدوه خارقاً للعادة آخذاً بمجامع القلوب ومؤثراً بالنفوس، وأنكروا كونه وحياً من عند الله وعجزوا أن يأتوا بسورة مثله وهكذا الأحمق الذي لا يقدر قيمة الجوهرة ولا يعرف ثمنها فيقول إنها حصى ! فائدة : ١- (قَدَمٌ صِدْقٍ) وهناك (مقعد صدق) و(مدخل صدق) و(مخرج صدق) والصدق هنا التحلِّي بسائر الفضائل والصدِّق في الأقوال والأفعال. ٢- استكثر الجاحدون أن يتصل الله بعباده ويختار واحداً من دونهم ، فإذا لم يتصل الله بهم فمعناه لا يتصل بغيرهم ! وجهلوا اتَّصل الله بعبده محمَّد (ص) كأنَّه اتَّصل بعضهم ببعض.

٣ - ﴿إِنَّ مَرِبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ سبحانه ومالك أمركم الذي ينبغي أن تعبدوه وحده هو الذي خلق عجائب الكون والكائنات في مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الدنيا ، ولو شاء لخلقهن في لحظة سريعة في دفعة واحدة ، ولكنه أراد تعليم العباد قانون الصبر في إنجاز الأعمال والتأني والتثبت في الأمور ، وأن الأشياء تسير ضمن قانون الأسباب والمسببات ، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) وكذلك تصريف الإنسان حالاً بعد حال وإخراج الثمار والأزهار بقدر مقدّر شيئاً بعد شيء وفي بقاء المولود في بطن أمه تسعة أشهر وهكذا كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ ، مع قدرته على ذلك في أقل من ملح البصر (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (ثُمَّ اسْتَوَى) أي استولى على الملك وأمسك بزمام أمور كل ما خلق إستواءً يليق بكماله وجلاله كناية عن مقام القدرة وعرش السيطرة الثابتة الراسخة المقدّرة والمدبّرة والمنظمة (يُدَبِّرُ الْأُمْرَ) يدبر كل أمرٍ على إطلاقه في الكون والحياة والكائنات يدبره على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة لا على ما يرضيه الإنسان، ولا يشغله في تدبير خلقه شيء، في نهج البلاغة خطبة ١٩٥: (لَا يَشْعَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُوهِنُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ) ويدبر بلا حركة ولا تعب ولا جهد (مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) ما من شئ من شئ أو سبب أو واسطة أو قدرة تؤثر في الوجود إلا من بعد إذنه سبحانه لأنه مسبب كل شيء ، وأيضاً لا يشفع عنده شافع على إطلاقه يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له الله في الشفاعة ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ الزمر/٤٤ ، في غرر الحكم: (شَافِعُ الْخَلْقِ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ، وَلِزُومُ الصِّدْقِ) (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) ذلكم الله ربكم الذي رباكم في كل مرحلة من حياتكم وحياة العالم لا رب سواه فهو عظيم الشأن فاعبدوه وحده ولا تشركوا في عبادته أحداً (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أفلا تتعظون وتعتبرون ؟ أفلا يدلکم فکرمکم إلى أن يستنير بنور التوحيد ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ محمد/١٩ ، حثهم سبحانه على التذكّر والتفكّر لأنّ التفكّر حياة القلوب وينير النفوس ويرفع الغفلة.

فائدة: ١- (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ولم يقل (فاعرف أنه لا إله إلا الله) لأنّ التوحيد يجب أن يعتمد على العلم ودقته والقناعة الشخصية التامة بلا شكوك ولا تردد ولا جهل ، بعد ذلك يكون الإيمان بهذا العلم وبهذه القناعة ، وعلى قدر العلم والإيمان تكون قوة التوحيد وصفائه ، حتّى لا تتحوّل عقيدة التوحيد إلى تقليد جاهل واتباع أعمى بلا تفكّر ولا تعلّم ولا إيمان ، وعلى أساس العلم بحقيقة التوحيد الخالصة واستحضارها في بناء النفوس تبدأ كلّ التوجيهات الرّسالية الأخرى التي تبني على هذه القاعدة الأساسية في التوحيد الخالص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣، في غرر الحكم: (التوحيد حياة النفس) وعلى قدر العلم تكون معرفة الله تعالى. ٢- (سِتَّةِ أَيَّامٍ) اليوم في اللّغة الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه وإن كان مقداره ألوف السنين من أيّام الدنيا التي وجدت بعد خلق الليل والنّهار.

٤ - ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً) بعد الموت لا لغيره كقوله ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف/٢٩ ، تذكير بالمعاد بعد تذكير ببدأ الخلق وهذا يعلمنا أن الذي يعرف كيف ينتهي يعرف كيف يبدأ ، وهكذا عرفنا القرآن رحلة الإنسان من بدايتها حتى نهايتها بكلّ وضوح ، لا بد من الرجوع إلى الله كل المخلوقات يوم القيامة (وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً) وكلّ أقواله سبحانه وأفعاله حق لا وعده فقط ، وعداً من الله ثابت لا يتبدل ولا يتحول (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) كما ابتداء الخلق بالحكمة والمصلحة كذلك يعيده بالحكمة والمصلحة للحساب والجزاء بعد موته ﴿وَلْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجنّة/٢٢ ، لأن من ينكر البعث والنشور يرى الدنيا فوضى وفريسة للأقوى ، ومن الحماقة عنده أن يضيّع أية فرصة للسلب والنهب إذا ضمن السلامة وأمن العقاب ، عن النبي (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، في غرر الحكم: (مَنْ أَفْنَى عَمْرَهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ، فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ) عن الإمام علي (ع) : (عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٤٢/٧ ، فإعادة الشيء إلى أصله بعد فنائه أهون من خلقه ابتداءً من غير مثال سبق كقوله ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ الأنبياء/١٠٤ .

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) ليكافئ المؤمنين الذين التزموا بمنهج الله بالعدل ويوفيهم أجورهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فلا يستقيم في عدل الله أن يستوي مصير الصالح والظالم ! ودائماً يقرن القرآن الإيمان بالعمل الصالح للدلالة على أن الإسلام عبادات ومعاملات وأقوال وأفعال ، فلا قيمة للعبادات من دون حسن معاملات في ميزان الله والناس (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ)

والذين جحدوا الإسلام وانحرفوا عنه وضلوا وفسدوا واعتدوا لهم في جهنم شراب (من حَمِيمٍ) شديد الحرارة يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم (وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) ولهم عذاب أليم من نوع آخر نتيجة إصرارهم على الكفر، يحتويهم العذاب من داخلهم ومن الخارج ليس الكفر كلمة تقال بلا مدلول وإتّما هو ضلال في الفكر وضلال في العمل، وكل عمل مع الكفر وإن كان صالحاً في مظهره ولكنه نتج من ضلال وظهر من فساد في الفكر والنفس ، فهو باطل لا خير فيه عند الله ولا وزن له لأنه لم يركه الإيمان ، فهو أشبه بالحيوان الطيب لحمه الحلال أكله ولكنه يموت حتف أنفه فيصبح خبيثاً حراماً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ﴾ النور/٣٩ .

فائدة: ١- الدار الدنيا دار ابتلاء وعمل ولا حساب ، والدار الآخرة دار حساب ولا عمل والدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة حصاد ما عمله في الدنيا (الجزء من جنس العمل). ٢- يقول الراغب الأصفهاني: (فلو لم يكن للإنسان غاية ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً

وهماً وحرزاً ولا يكون بعدها حال مغبوبة، وحياة أخرى للجزاء، لكان أخسَّ البهائم أحسن حالاً من الإنسان!)! التفسير القرآني للقرآن ١١/٩٤٩.

٥ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
 الآية تكشف عن قدرة الله ووحدانيته فهو صاحب التقدير والتدبير لكل شيء ، وجاء بأوضح شيء فجعل الشمس مضيئة كالسراج الوهاج فهي مصدر النور في النهار تستفيدون منه في جميع شؤون حياتكم (وَالْقَمَرَ نُورًا) وجعل القمر منيراً بالليل يعكس أشعة الشمس يستفاد منه ، نسي نعمتهما لطول الألفة ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار (وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ) وقدر سير القمر في فلكه منازل ينزل كل ليلة في واحد منها لا يجاوزها ولا يقصر دورها (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تُعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام تستفيدون منها في معاملاتكم الدينية والدينية (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) لحكمة عظيمة وفائدة جليلة لاعتبث فيها ولا باطل ولا خلل كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ الأنبياء/١٦، (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ويتدبرون حكمته فيستدلون بذلك على مبدعها عز وجل وقد خلق كل ذلك لتدبير شؤون حياتكم وشؤون معادكم لا معبود سواه ، وفيه إشارة إلى أنّ العلم هو المفتاح الذي يفتح مغالق هذا الكون. فائدة: في غرر الحكم: (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فِإِعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَحُذْ مِنْهُمَا) عن النبي (ص) (اغتنم خمساً قبل خمس: فَبَادِرِ يَاسْتِثْمَارِ شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَقُوَّتِكَ قَبْلَ ضَعْفِكَ) كنز العمال خبر ٤٣٤٩٠

٦ - ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾
 إنّ في تعاقبهما يأتي وقت الليل فيذهب النهار تدريجياً ، ويأتي وقت النهار فيذهب الليل تدريجياً ، ويشمل كذلك إختلافهما طولاً وقصراً من بقعة لأخرى ومن فصل لآخر ، وإختلاف دورهما إختلافاً منظماً يؤدي إلى الفصول الأربعة للسنة ، وإن تعاقب الليل والنهار سنة كونية تكشف لنا عن سنة إنسانية لعلاقة أحدهما بالأخرى ، إنه كما يتداخل الليل بالنهار كذلك يتداخل الضعف بالقوة والشدة بالرخاء والعزة بالذلة والصحة بالمرض والصح بالخطأ ، ويتداخل الجسد بالروح والدنيا بالآخرة والحياة بالموت والأمل بالعمل والعسر باليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦ ، فلا عسر دائم إلا ويصحبه يسر (وبالعكس) وهكذا سنة الحياة ، وأيضاً في تعاقب الليل والنهار يؤدي إلى نشوء الأيام والأسابيع والشهور والسنين (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وما أوجد فيهما من أصناف المخلوقات المنوعة التي لا تحصى وكل الخلق

يدل على نظام واحد متقن يديره مديرو واحد أحسن تدبير فيتصل بعض أجزائه ببعض بأنظمة متقنة ، وإن لهذا النظام منظم قادر حكيم وحده يستحق الطاعة والعبادة (لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) لآيات عظيمة وبراهين جلييلة على وجود الصانع الجليل الجميل الكامل ، ففيه دلالة على ربوبية واحدة تُرَبِّ كل شيء لقوم يتقون الله و(مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ).

٧ - ٨ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، أُولَئِكَ مَاؤُهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ لا يَرْجُونَ : لا يتوقعون الجزاء بعد الموت ويقولون من مات فقد فات. المعنى : إن الذين لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم فقد أعمتهم الشهوات واللذات عن التصديق بعالم الآخرة عالم ما بعد الموت ، إنهم لا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة وأن الدنيا ليست النهاية وإنما الدنيا ممر لدار مقر وهي مزرعة الآخرة (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ورضوا بدنيا الحياة عوضاً عن رقي الحياة في الآخرة وآثروا النعيم المؤقت العاجل على التعميم الآجل الدائم ، والذي يرضى بأدنى الحياة هو الأدنى ويمتلك أدنى النفوس ، والذي يسعى لعليا الحياة هو الأعلى ويمتلك أجمل النفوس (وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا) فرحوا بالدنيا وسكنوا إليها وفضلوها على طلب الآخرة ، فهم يضحكون في الدنيا والحقيقة الكبرى في الآخرة تضحك على عقولهم الساذجة الصغيرة (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) وهم عن الأدلة الكثيرة المنتشرة في كل شيء الدالة على وجود خالق غافلون لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ، عن النبي (ص) : (عَجِبْتُ لِغَافِلٍ وَلَيْسَ بِمَعْفُولٍ عَنْهُ) امالي المفيد ص ٤٥ في غرر الحكم: (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّهَا مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) ، والذين لا يفكرون يكونون ضحية الذين يفكرون ويكونون جسراً يعبرون عليهم فإن كانوا خيراً فإلى خير وإن كانوا شراً فإلى شر ، وعن لقمان الحكيم (بِعِ دُنْيَاكَ بِأَخْرَجَتْكَ تَرْجُحُهُمَا جَمِيعاً، وَلَا تَبِعْ أَخْرَجَتْكَ بِدُنْيَاكَ فَتَحَسَّرْهُمَا جَمِيعاً) البحار ١٣/٤١٢ (أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ) هي مقامهم المناسب وهذا جزاء من كذب باليوم الآخر واتخذ إلهه هواه غير مبالٍ بحق ولا بعدل (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من الآثام والجرائم ، والجزاء مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ فِي غَرْرِ الْحُكْمِ: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) كقوله ﴿وَلْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية/٢٢. فائدة : عن النبي (ص) : (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ) تفسير النور/٣/٥١٥، كقوله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الكهف/١١٠ ، (وبالعكس) من كره لقاء الله

٩ - ١٠ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدُهُمْ رَبُّهُمُ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَمْدُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا فِي سَلَامٍ﴾

نلاحظ صفات المؤمنين تختلف تماماً عن صفات الكافرين ، وهكذا القرآن يصوغ الإنسان المؤمن صياغة نموذجية يسعد بها في الدنيا والآخرة. إن الذين أعطوا للإيمان حقه من التدبر بمخلوقات الله

ولم يغفلوا عن آيات الله الكثيرة التي غفل عنها الغافلون ورجوا لقاء ربهم وخافوا حسابه وعقابه وعملوا صالحاً ضمن القدرة والإستطاعة (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) إِنَّه قانون عام منفتح على كل شؤون الحياة كقوله ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الأنعام/ ١٢٢ ، يهديهم ربهم في الدنيا والآخرة بإخلاصهم في أعمالهم الصالحة النافعة ، ويفتح بصائرهم إلى كل خير بوحى من شفافية المشاعر وسلامة الضمير ، وأيضاً يهديهم ربهم بسبب إيمانهم صراطه المستقيم في كل ما يعملون وينتهي ذلك بهم إلى دخول الجنة ، وهذا يدل أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز بالجنة والوصول إلى أقصى الغايات النبيلة (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) تجري من تحت قصورهم الأنهار وهم مقيمون في جنات خالدة (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) دعاؤهم في الجنة بلسان الحال ولسان المقال.

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) اللَّهُمَّ ننزهك تنزيهاً عن كل نقص وحاجة، وعن كل شريك يجذب قلوبنا ويشغلنا عن ذكرك ، في الحديث : (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ) الرازي ١٧ص ٤٦ تنزيهاً وتقديساً وتعظيماً لك يا الله عن النبي (ص) (إذا قال العبد (سبحان الله) سبّح كل شيء معه ما دون العرش، فيعطي قائلها عشر أمثالها) الميزان ١٠ص ٢٠ (وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) وتحية بعضهم بعضاً في الجنة لرفقائهم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ (سلام عليكم) في دار السلام غبطة ومحبة فإنهم يتحدثون عن صفاء وسلام وأمان ، الدالة على السلامة من كل مكروه وهي تحية المؤمنين في الدنيا وتحية الله لهم كقوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الأحزاب/ ٤٤ ، وهي تحية الملائكة لهم كقوله ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر/ ٧٣ ، التحية التكرمة بالحالة الجليلة ، أصلها أحياك الله حياة طيبة تتناسب مع طيبة نفسك (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه إلا وتراه عيونهم نعمة من الله سبحانه ، فكلما وصفوا شيئاً من الأشياء كان وصفهم لقدرة ربهم وجمال صفاته فيكون ثناء منهم عليه وحمداً له عزّ وجلّ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا قَالُوا فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَتَاهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) المراغي ١١/٧٢ ، وعن الإمام علي (ع) : (إِنَّ أَطْيَبَ شَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ وَالَّذِي حُبُّ اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) البحار ٦٩/٢٥ والسلام، تلك الآفاق الجامعة اللاتمة بكمال الإنسان ، وأيضاً في الجنة فلا تكليف ولا عبادة وما عبادة أهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويمجدهوه وإنما يلهمونهم فينطقون به تلذذاً بلا كلفة.

١١ - ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لْفَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَبَدَّ الَّذِي لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ المراد بالخير هنا ما ينتفع به الإنسان في هذه الحياة ومن أجل هذا يستعجل به ، والمراد بالشر ما يتضرر به وهو يكرهه بفطرته ، والله سبحانه يستعجل الخير ويؤجل الشر ليفسح في ذلك المجال لمن إنحرف عن طريق الحق لعلّه يعود فيستقيم. المعنى : ولو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر

وفيما عليهم من مضرة كدعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب اللهم أهلكه اللهم لا تبارك فيه ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به (اسْتَعْجَاهُمْ) من التعجيل وهو تقديم الشيء قبل وقته (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) هللكوا وعُجِّل لهم الموت قبل وقته الطبيعي ، كاستعجال مشركي مكة بالعذاب كقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةً﴾ العنكبوت/٥٣، ولكن الله سبحانه أرحم بهم من أنفسهم ، وقد يكون المعنى : ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه من الفساد في الأرض لأهلكهم كقوله ﴿وَلَوْ يُوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فاطر/٤٥ ، (فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) فترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ويخرجون عن دين الله (في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) طُغْيَانِهِمْ : تجاوزهم للحد في الشر أي نتركهم في تمردهم وكبريائهم متحيرين فلا يميزون بين الحق والباطل ولا يهتدون سبيلاً لسعادتهم أي لا تعجل الشر عليهم لعلهم يتوبون أو ليزدادوا إثماً على إثمهم. فائدة : ١- العمه : عمى البصيرة ، والعمى : عمى البصر ، والعمه : التحير والتردد في الضلال فلا يهتدي إلى طريق الحق والهدى أبداً. عن النبي (ص) : (لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ وَعَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُؤَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا). ٢- (فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) كلُّ نافرٍ من الحق مكابر للنصح يترك وما اختار لنفسه حتى يلقى ربه ولا عدوان عليه في الدنيا إلا أن يعتدي ، هذي هي شريعة القرآن للإنسان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦

١٢ - ﴿وَإِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وإذا أصاب الإنسان الضر المادي أو المعنوي من مرض أو فقر أو شدة.. إلخ (دَعَا لِحَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) كناية عن خضوعه وانكساره في جميع حالاته وحركاته وسكناته أي دعانا متضرعاً على الدوام في جميع الحالات مضطجعاً لجنبه أو قاعداً أو قائماً لشكف ذلك الضر عنه ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة ، وقدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان أشدَّ عجزاً وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى ثم التي يليها ثم التي يليها (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ) فلما رفعنا عنه ما أصابه من ضر (مر) استمر على عصيانه ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ونسي ذكر الله ودعاءه واستمر على عاداته وفسقه بدون مبالاة ، وهو عتاب لمن يدعوا الله عند الضر ويغفل عنه عند الرخاء والعافية كقوله ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾ عبس/١٧ ، وهذا مزاج الكافرين والمُسْرِفِينَ (كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض

عنه عند الرخاء كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجماع ما كانوا يعملون من الاعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات كقوله ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ الإسراء/ ٨٣ ، فالشيطان يزين للمسرفين كقوله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/ ٤٣ ، وهكذا طبيعة اللقيم يجحد الجميل بصلافة وينكر المعروف بكل وقاحة. عن النبي (ص) : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ عِنْدَ الْكَرْبِ وَالشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّحَاءِ) الرازي ١٧/٥٠ ، وفي غرر الحكم : (وَيُحِ الْمُسْرِفِ مَا أَبْعَدَهُ عَنِ إِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَإِسْتِدْرَاكِ أَمْرِهِ).

١٣ - ﴿وَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ) الأمم الذين يعيشون في عصر واحد ، أي لقد أهلكنا الأمم مِنْ قَبْلِكُمْ أيها المشركون (لَمَّا ظَلَمُوا) أنفسهم بالكفر وأشركوا وتمادوا في الانحراف والإسراف والفساد (وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم (وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/ ١٧ ، فكان سبب هلاكهم شيئان عدم إيمانهم أدى بهم إلى ظلم أنفسهم وظلم غيرهم وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها فلم يعودوا مهيين للإيمان ، وقد مرنوا على الكفر وأحبوا المحرمات والجاه والرياسة والظلم والفسق (كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) مثل ذلك الهلاك تجزي كل مجرم ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَا عَدَّبَ اللَّهُ أُمَّةً إِلَّا عِنْدَ اسْتِهَانَتِهِمْ بِحُقُوقِ فَقَرَاءِ إِخْوَانِهِمْ). فائدة : ١- عدة أمور تهلك الإنسان : بخل مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، والتولع بحب النساء وسرعة الغضب وطاعة الشهوة المحرمة ، والحسد والحقد والكذب... إلخ. ٢- هلاك الله للأمم إما عذاب الاستئصال أو بالعذاب التدريجي في الاستيلاء الأمم القوية على الأمم الضعيفة كقوله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الأنبياء/ ١١ ، وإما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في المحرمات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق ، وإما ظلم الحكام الذي يفسد إرادة الأمة ويهين قوتها وكرامتها.

١٤ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

خَلَائِفَ : جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء ، تمضي أمة وت خلفها أخرى من بعد إهلاك الأمم الفاسقة الماضية التي تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) لننظر ماذا تعملون في خلافتكم فنجازيكم به أي لننظر أتعلمون خيراً أم شراً فنعاملكم بما تستحقون ونجازيكم حسب أعمالكم ، وأن الله تعالى عالم بأعمالكم من قبل ولكن يختبركم ليتبين في الواقع ما علمه تعالى أولاً كقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا ﴿ الكهف/٧، فائدة: ١ - (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) إنه شعور الإنسان بالرقابة الإلهية التي تحيط به من كلِّ جانب وفي كلِّ زمانٍ ومكان تجعله في حذر شديد ، يدفعه إلى الرغبة في الإحسان وفي النجاة من ابتلاءات الدنيا والبقاء على منهج الله. ٢ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ) في الآية بشارة لهذه الأمة بأنَّها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت واستقامت كقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ النور/٥٥، ويكون هذا الاستخلاف مشروط بالأعمال (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

١٥ - ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبَّاتِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بُرْآنٌ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وإذا قرأت على المشركين آيات القرآن الواضحة الدلالة (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) قال الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء ولا يرجون الثواب والعقاب (إِنَّتِ بُرْآنٌ غَيْرِ هَذَا) إعطنا يا محمد كتاباً آخر غير هذا القرآن ليس فيه ما نكرهه من عيب أهتنا وتسفيه اعتقادنا أو أبقه ولكن إحدف منه ما نكره ، (أَوْ بَدَّلَهُ) إنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية ، بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان تسفيه أهتنا مدحهم ومكان الحرام حلالاً (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي) قل لهم ما ينبغي ولا يصح لي وليس من حقي أن أغير أو أبدل شيئاً من رغبات نفسي (إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) لا أتبع إلا ما يوحيه إليّ ربي ، فأنا عبد مأمور ورسول مبلّغ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وبعد ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إِنِّي أَخَشَىٰ إِنْ خَالَفت أمره وبدلت وحيه عذاب يوم شديد الفرع والخوف هو يوم القيامة كقوله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ الحاقة/٤٤-٤٦ ، وهكذا المفسد المضلل يتخذ من هواه مقياساً للحق والإيمان وكل ما عداه زور وهذيان! فائدة: إنَّ هذا القرآن دستور حياة شامل يفي بمطالب البشرية جميعها والله أعلم بما يصلح البشر فلا يحق لأحد أن يغيّر أصل القرآن وتأويله حسب ما يريد وعقوبته خطيرة.

١٦ - ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾

قُلْ للمعترضين عَلَى الْقُرْآنِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وما تلوته إلا بمشيئة الله تعالى لأنه من عند الله وليس من عندي (وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ) أَدْرَاكُمْ : أعلمكم ، ولا عرفكم بالقرآن على لساني ، أي ولو شاء الله ألا يُعلمكم به بإرسالي إليكم لما أرسلني ولما أدراكم وعرفكم به ولكنه شاء أن يمتن عليكم بهذا العلم النافع وتكونوا بهدايته خلفاء الله في أرضه (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ) فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا فكيف أتلو عليكم ما أجهله ، فلو كان القرآن من أفكاره ، لعرض صوراً مختلفة عن أفكاره خلال هذه

الفترة (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أَفَلَا تحركون عقولكم بالتدبر والتفكير لِتَعْلَمُوا أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْكِتَابِ الْهَادِي الْمَعْجَزِ النَّمُودَجِيِّ لَيْسَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ لِي مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

١٧ - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾

إِسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٍّ بِمَعْنَى النَّفْيِ ، أَيْ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ (افْتَرَى) إِخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَقَالَ أَوْحِي إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحِ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ ، وَالْمَعْنَى نَفْيُ الْكُذْبِ عَنِ مَقَامِهِ الشَّرِيفِ (ص) حَيْثُ زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ صَنْعِ مُحَمَّدٍ (ص) (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الرَّسَالِيِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ أَوْ اخْتَلَقَ بَدْعَةً فَأَحَبَّ عَلَيْهَا أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهَا ، فَهِيَ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) لَا يَفُوزُ بِالسَّعَادَةِ مِنْ إِرْتِكَابِ الْإِجْرَامِ وَكَذَّبَ الرَّسُلَ الْكِرَامَ ، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : (الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ (ص) مِنَ الْكِبَائِرِ) الْكَافِي ٢/٢٣ ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ مِنَ الدِّينِ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ) الْبَحَارُ ٢/١٢١ فَائِدَةٌ: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ نَسَبَ إِلَى دِينِ اللَّهِ مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ، (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) أَنْكَرَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا هُوَ مِنْهُ فِي الصَّمِيمِ ، وَهَذَا الْبَدْعَةُ كَمَا قَالَ عَنْهَا الرَّسُولُ (ص) (كُلُّ بَدْعَةٍ فِي الدِّينِ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ) الْبَحَارُ ٢/٣٠١ .

١٨ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْتَعِمُونَ بِهِ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وَيَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ الْأَوْثَانَ أَلْهَةً اتَّخَذُوهَا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهِيَ أَصْنَامٌ حَجَرِيَّةٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ إِلَيْهِمْ إِنْ عَبَدُوهَا أَوْ دَفَعُ ضَرِّ إِلَيْهِمْ إِنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهَا (وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) وَيَقُولُونَ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزُّمَرُ/٣ ، وَيَقُولُونَ إِنَّا أَصْحَابُ ذُنُوبٍ لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَعَلِينَا أَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ تَعَالَى بِأَحَبِّ خَلَاتِقِهِ وَهُمْ أَرْيَابُ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ فَوَّضَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَمْرَ تَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَنَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ بِأَصْنَامِهِمْ وَإِنَّمَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ لِيشْفَعُوا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ لِتَجْلِبَ إِلَيْنَا الْخَيْرَ وَتَدْفَعُ عَنَّا الشَّرَّ ! كَقَوْلِهِ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مُحَمَّدٌ/٢٥ ، وَهَذَا افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ (قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّهْكُمِ وَالْهَزْءِ بِهِمْ ، قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَتَحْبِرُونَ اللَّهَ بِشْرِيكَ أَوْ شَفِيعِ كَائِنٍ فِي السَّمَوَاتِ أَوِ الْأَرْضِ لَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ؟ وَإِذْنِ إِتِّكُمُ الْمَفْتَرُونَ (سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) نَتَزَّهُ اللَّهُ وَتَقَدَّسَ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَيُنَسِبُهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : (لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ هِيَ السُّجُودُ وَالرُّكُوعُ (فَقَطْ) إِنَّمَا هِيَ طَاعَةُ الرَّجَالِ ، فَمَنْ أَطَاعَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عَبَدَهُ) الْبَحَارُ ٧٢/٩٤

١٩ - ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وَمَا كَانَ النَّاسُ كُلَّهُمْ (إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً) إِلَّا عَلَى فِطْرَةِ سَلِيمَةٍ وَطَبِيعَةِ نَفِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ هُوَ الْإِسْلَامُ (بِمَعْنَاهُ الْعَامِ) هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ مُتَّفَقِينَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ بِلَا

إختلاف، من لدن آدم إلى نوح (فَاخْتَلَفُوا) في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً تبعاً لتعدد المعبود وإختلاف الآلهة باتباع الأهواء والأخذ بالأباطيل ووساوس الشيطان ! عن النبي (ص) : (كُلُّ مَوْئُودٍ يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) روح البيان ٢٧/٤ (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ : ولولا قضاء الله وحكمته بتأخير الجزاء والحساب إلى يوم القيامة ليختار كلُّ منهم طريقه بحرية تامة ، لأنَّ الدُّنْيَا عَمَلٌ بِلا حِسَابٍ وَالْآخِرَةُ حِسَابٌ بلا عمل (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) لِعَجَلِ عِقَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِاِخْتِلَافِهِمْ فِي الدِّينِ الْقِيمِ الَّذِي يَجِبُ عَدَمُ الْاِخْتِلَافِ فِيهِ، فائدة: ١- كقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران/١٠٥ ، عن الإمام علي (ع) : (مَا اِخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِأَطْلِقِهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) شرح النهج ١٨١/٥، ولو لم يؤخرهم الله للحساب وأجبرهم على الوفاق وعدم الاختلاف فيبطل حينئذ الثواب والعقاب والجنة والنار ولتناقض مع قوله ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ . ٢- في الآية وعيدٌ شديد على اختلاف الناس المؤدِّي إلى العدوان والنزاع والشقاق ولاسيما الاختلاف في الكتاب الذي أنزل لإزالة الشقاق.

٢٠ - ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون هلا أنزل على مُجَّد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من معاجز الناقة والعصا واليد، كلَّ الآيات المثبوتة في القرآن وفي الأكوان وفي الكائنات لا تكفيهم وهم يريدون معجزة حسب أهوائهم كقولهم ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ البقرة/١١٨ ، (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات والمعاجز إلا هو ، إنما المعجزات من الغيب المختص بالله وليست بيدي وإنما أنا مبلغ رسالة ربي كقوله ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف/١٨٨ ، (فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ) فإنظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك فليظن أي الفريقين أحق بالأمن. فائدة : حَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بَيْنَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَذِبُوا، وبين إنظارهم والصبر عليهم فاختر إنظارهم كما حلم عنهم أكثر من مرة (ص)، في غرر الحكم: (الْحَلِيمُ مَنْ إِحْتَمَلَ إِخْوَانَهُ) بلا تكلف ولا مضايقة، وعلى قدر علمه وحلمه يكون وقاره وعلو همته ، و(الْهَمَّةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهَمَّةِ).

٢١ - ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ مَرَحَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمَةٍ إِذَا هُمْ مَكْرُوفٍ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَشْكُرُونَ﴾

وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاء بعد شدة وخصباً بعد جذب (إِذَا هُمْ مَكْرُوفٍ فِي آيَاتِنَا) للمكر معان، والمراد به هنا ترك الشكر على النعمة أي إذا لهم إحتيال في دفعها والطعن في دلالتها الربانية، بمعنى: إذا جعل الله عسر الإنسان إلى يسر ورخاء ، جحد نعمة الله عليه وكذب آياته ومكر فيها وأنكر بأن الله هو السبب في كشف الضر والبلاء وينسب ذلك إلى الصدفة أو غيرها ،

كقولهم إِنَّ التَّعَمُّ والشَّدَائِدُ من طبيعة الحياة وهي ليست آيات لها دلائل إلهية غيبية ، بل يعاند ويعتدُّ بنفسه وينسب نجاحه إلى ذكائه ونشاطه كقول قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص/ ٧٨ ، (قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) أعجل عقوبة على جزاء مكرهم فهو سبحانه دبر عقابهم قبل أن تدبّروا كيف تطفثون نور الله، أي عقاب الله أسرع وصولاً إليكم ممّا يأتي منكم من دفع الحق ، وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرهم ، والمراد بمكر الله تدييره الخفي الذي يقوّت على الماكر المخادع مكره وخداعه بمعنى : قل إنه تعالى يجازي الماكرين على مكرهم ويعدّ لهم العذاب الأليم من حيث لا يشعرون وإنّ الله أسرع منكم تدييراً لردّ كيدهم (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) إنّ الملائكة الحفظة مراقبون لكم يكتبون مكركم ويسجلون إجرامكم فيحصي الله تعالى أعمال الماكرين ويجازيهم عليها بما يستحقون أي بمجرد ما عملتم عملاً حفظ عليكم وتعيّن جزاؤه لكم قبل أن يؤثر مكركم أثره. فائدة : ١- (أَذَقْنَا) الذوق إدراك الطعم بالفم ويستعمل في إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والتّعمة والعذاب والتّقمة ، فهم استذوقوا طعم الرّحمة استذوق الطعام الطيب الشهي . ٢- المكر : التديير الخفي الذي يصيب الممكور به إلى ما لا يتوقعه، (مكر الله): تدييره الذي يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم وكلّه عدلٌ وحق فإن ساء الناس سمّوه شراً، وإن أحسنوا كان جزاء عدلاً!

٢٢ - ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

في الآية السابقة أخبر الله سبحانه عن وضع الإنسان إذا انتقل من عسرٍ إلى يسر ، وفي هذه الآية أخبر عن وضع الإنسان وحاله إذا انتقل من يسرٍ إلى عسر ، في الحالة الأولى ينسى الله ولا يحمده وفي الثانية يستغيث بالله جزعاً منقطعاً إليه ! الله تعالى الذي سخر لكم ويسر من الأسباب وهداكم إليها ووهب عباده القدرة على السير في طريق البر والبحر، والغرض من ذلك هو التذكير بفضله ونعمه لتكون له من الشاكرين ، وإنّ الله سبحانه يمنح عبده العقل والإرادة والقدرة ، وبالعقل يميز وبالإرادة يختار وبالقدرة يفعل وعلى هذا الأساس عرفنا أن تنسب إلى الله أفعال العباد بالكامل (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ) الْفُلُكُ : السفن ، حتى إذا كنتم في البحر على ظهر السفن (وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) لينة هادئة التي تسيّر السفن (وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ) وفرح الركاب بتلك الريح الطيبة المعتدلة والأجواء الهادئة وفجأة جاءت بها ريح شديدة عاصفة وخطيرة (وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) وأحاطت بهم أمواج البحر الهائج المتلاطم من كل جهة (وظنّوا أنّهم أُحِيطَ بِهِمْ) أي أيقنوا أنّهم قد أشرفوا على الهلاك ولم يكن لهم منقذ إلاّ الله (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) انقطعوا إلى الله وحده بالدعاء الخالص وتركوا ما كانوا يعبدون ، وإنّ الخلق

يرجع إلى الله في الشدائد ، وإنَّ المضطرَّ يَجِبُ دَعَاؤُهُ وإن كان كافرًا لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى رب الأرباب (لَنْ أَنْجِيَنَّاهُ مِنْ هَذِهِ لَنْكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) وهذا عهد عاهدوا الله عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/ ٣٤ ، لئن أنقذتنا من هذه الشدة والمحنة لنكونن من الشاكرين على نعمائك والانتقاع إليك في أمرها لا نغفل إلى سبب دونك ولا نتعلق بشيء سواك. **فائدة** : وقد يشتدُّ انحراف الفطرة وفسادها فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ولكن يلجأ إلى بعض مخلوقاته يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، ففي كلِّ محنة لا منجى غير الله ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الروم/ ٤ ، ويمكن اتِّخاذ وسائل شريفة قريبة إلى الله ، نتوسَّل بهم بجاههم عند الله أن يقضي حوائجنا ، وهذه الوسائل لا نعبدها ولكن لتتقرب بها إلى الله ، وإِذَا عبدوا الأصنام وقالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر/ ٣ ، وهذه العبادة شرك ، وإِذَا يتقرب النَّاسُ إلى مقابر أولياء الله ليتقربوا إلى الله لا ليعبدوا غير الله كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة/ ٣٥ ، فالطرق إلى الله كثيرة بعدد أنفاس البشر ، بشرط أن تكون وسيلة خالصة لوجه الله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/ ٣.

٢٣ - ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

فلما خلصهم من هذه الشدة وأنقذهم منها نقضوا عهدهم مع الله ، ولم يَضُرُّوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وقد بغوا عليها ، والفاء في (فَلَمَّا) للدلالة على سرعة الإجابة إِذَا هُمْ (يَبْغُونَ) يعملون في الأرض بالبغي والعدوان والفساد والمعاصي وظلم الناس ويدعون غير الله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) وبالبغي عليكم وظلمكم مرتدُّ على أنفسكم في الدنيا قبل الآخرة كقوله ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ الروم/ ٤٤ ، ولا يجني ثمرته المرة إِلَّا أَنْتُمْ و (الْبَغْيُ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ يَرْجِعُ عَلَى صَاحِبِهِ) عن الإمام علي (ع) (مَنْ سَلَ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ) البحار ٢١١/٧٧ (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات والمحرمات التي فيها الحسرات والنقمة (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إلى الله مَرْجِعُكُمْ الحتمي بعد الموت إِلَيْنَا ونجازيكم على أعمالكم ونخبركم بتفصيلاتها كقوله ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الشورى/ ٢٢ ، عن الإمام الصادق (ع) : (ثَلَاثٌ يَرْجِعْنَ عَلَى صَاحِبِهِنَّ : النَّكْتُ وَالْبَغْيُ وَالْمَكْرُ ثُمَّ تَلَا الْآيَةَ) كنز الدقائق ٤/٣٤٨. **فائدة** :

١- تشير الآية بأن وجود الله مستقر حتى في نفس الملحد وفطرته ، وأن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح حين تضيق بالملحد مسالك النجاة وتسد في وجهه المنافذ ، لأن الحجب ترفع بكاملها في ساعة الضيق ، كما هو الشأن عند نهاية الأجل وحضور الموت ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل/ ٦٢ . ٢- (بَغْيُ الْحَقِّ) تأكيد لواقع الاعتداء الذي هو بذاته قبيح وغيره

قبيح ، لأنه لا يوجد بغي وإعتداء في الأرض بالحق ، وإنما بغيرِ حَقٍّ وعند أنفسهم بغيرِ حَقٍّ أيضاً لأنه ظلمٌ ظاهر لا يخفى على أحدٍ قبحه كقوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ البقرة/٦١ .

٢٤ - ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَارِيٌّ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

شبهه الله تعالى الحياة الدنيا في سرعة تقلبها وانقضائها وزوالها واغترار الناس بها (مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) هي أشبه نبات الأرض في جفافه بعد خضرته ونضرتة ونزول الماء من السماء (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) فنبتت بسببه أنواع النباتات مختلط بعضها ببعض كقوله ﴿اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج/٥ ، (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) مما يأكله الناس من أنواع الحبوب والثمار والبقول والأنعام من الحشائش والتبن والشعير (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ غَايَةَ زِينَتِهَا وَحُسْنَهَا وَجَمَالَهَا وَتَزِينَتْ بِأَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ كَالْحُبُوبِ وَأَنْوَاعِ الثَّمَارِ وَالْأَزْهَارِ ، فصارت بهجة للناظرين ، وعبرة للمتبصرين وهو تمثيل بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب الجميلة ذات الألوان المختلفة (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها محصولون إنتاجها وحصادها من غير معارض وبعد هذا الزهو والغرور (أَتَاهَا أَمْرٌ نَارِيٌّ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) أي في خطفة جاءها قضاؤنا بشكل غير متوقع مملوء بالآفات والهلاك ما عليها من النبات والمحاصيل ، إما ليلاً أو نهاراً وهم غافلون سواء بالبرد القارص أو الثلوج الكثيرة أو السيول الجارفة.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) فجعلنا زرعها شبيهاً بالأرض المحصودة (كَأَنَّ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ) كأن لم تكن عامرة زاهية على ظهر الأرض قبل ذلك (كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) مثل ما بيّنا حقيقة الحياة الدنيا نبين الآيات القرآنية أو نفصل الآيات التكوينية ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذا الأمثال الواقعية ، أما العاقلون الفاسدون لا تنفعهم هذه هي صورة الحياة الدنيا متاع قليل مهما كثر فهو قليل ، لأنه لا تأخذ منه إلا بقدر حاجة الجسم ومقدار العمر وبالتالي إلى زوال، وإن من اعتمد عليها فقد اعتمد على أوهام لا حقيقة فلا يمكن أن أضيع الآخرة مقابل متاع قليل ، قال لقمان لابنه : (إِنَّ الدُّنْيَا لَبَحْرٌ عَمِيْقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيْرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِيْنَتَكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهَ، وَحَشْوَهَا الْإِيْمَانَ، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ، وَقِيْمَهَا الْعَقْلَ، وَدَلِيْلَهَا الْعِلْمَ، وَسَكَّانَهَا الصَّبْرَ) الكافي ١ ص ١٦ . فائدة : تشير الآية بالتلميح قبل التصريح إلى ظهور الإمام المهدي (ع) ، فمتى ما إمتلأت الأرض زخرفها وأزبنت وأصاب أهلها الغرور بأنهم قادرون عليها مادياً بالسيطرة عليها (أَتَاهَا أَمْرٌ نَارِيٌّ) وفجأة جاء أمر الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، بثورة شاملة بقيادة الإمام

المهدي (ع) تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً كقوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥.

٢٥ - ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

والله لا يدعو عباده إلى دنيا دنية وإنما يدعوا إلى (دَارِ السَّلَامِ) المادي والمعنوي ، الروحي والجسدي، والسلام معنى واسع الدلالة وأحد أسماء الجنة وأحد أسماء الله الحسنى فإن الله يُجِيبُهُم بِالسَّلَامِ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ يس/٥٨، و(دَارِ السَّلَامِ) دار عليّة وهي الجنة دار سلامة وسلام وأمان واطمئنان دائم شامل مطلق ، وسميت دار السلام لأنها سالمة من كل شر وخالية من جميع السلبيات والمكروهات والشوائب والنقائص والأمراض والمنغصات كقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الأعراف/٤٣ ، والمملوءة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهي دار الكمال والجمال والجلال والسرور الدائم ودعوة الله إليها منذ التكوين والتشريع الأول وهو إيجاد الجنة يريد لها لعباده وكأنه يدعوهم إلى ما يريد كما انه دعوة تشريعية وهو تكليف الناس بما يريد من دين قيم والعلم والإيمان والعمل به والالتزام بمنهجه (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ويوصل من يريد ويرغب ومؤهل فيشأ الله هدايته إلى دَارِ السَّلَامِ وطريقها طريق الاستقامة والكرامة بكل أمان وسلامة وبلا أية ندامة وملامة ، إنه الهداية إلى الإسلام كقوله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس/٩ ، في نهج البلاغة خطبة ١٥٢: (الإِسْلَامُ إِسْمٌ سَلَامَةٌ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَقِي وَكَفَايَةُ الْمُكْتَفِي) والذي تليق به دَارِ السَّلَامِ هو مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ لِسَلَامَةِ قَلْبِهِ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء/٨٩ ، فالله أول من دعا إلى نفسه وطاعته واتباع أمره ، في نهج البلاغة خطبة ١٦: (الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مُضِلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى (دَارِ السَّلَامِ) هِيَ الْجَادَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ التُّبُوءِ وَمِنْهَا مَنْفَعُ السَّنَةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ). فائدة : (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أصل الهداية الدلالة إلى الشيء بلطف ، والهداية إتما تشريعية عبر الرسالات وإتما بالتوفيق والتمسك بمنهج الله كقوله ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١.

٢٦ - ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَسْرٌ وَلَا ذُلٌّ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) (في الدنيا مع كثرة معاناتها) الْحُسْنَى : كلمة جامعة لكل معاني الحسن والأحسن وهو كل ما كان محبوباً للفترة مثل حسن العقيدة حسن القول والفعل والأخلاق والصبر الجميل وقصد جميل وهدف نبيل أي أدركوا الطريق الأحسن إلى دَارِ السَّلَامِ كقوله ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الصفات/٨٤ ، وفيه الخير والشعور بالذنب والحاجة إلى التزكية ومحاسبة النفس.. إلخ فكل هذه محبوبة لله والفترة وهو سبحانه يكافئ عليها بالحسنى المثوبة الحسنى أو العاقبة الحسنى وهذه

الآية كقوله ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠ ، (وَزِيَادَةٌ) والمراد (بِالزِّيَادَةِ) يثيب الله تعالى الذين أحسنوا بأكثر مما يستحقون ولهم فضلٌ من الله لا يخطر ببالهم (وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ) وَلَا يَرْهَقُ : ولا يغشى وجوههم ولا يغطيها (قَتْرٌ) غبار ولا سواد وكدره اللون من شدة الحزن والضيق والحسرة والندامة وهم في ساحة المحشر كما يعترى وجوه أهل النار ، وأيضاً لا يعترىها ذلة وهوان وصغار وهو كناية عما يظهر في الوجه من الخوف والهلع ، فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) دائمون لا زوال لنعيمها ولا نهاية لإقامتها بخلاف الدنيا وزخارفها الموقته ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق/٣٥ ، هَذِهِ الْجَنَّةُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ وَعَمَلَهُمْ لِلَّهِ وَحَدَهُ وَتَكُونُ وُجُوهُهُمْ صَاحِكَةً مُسْتَبَشِرَةً ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣.

٢٧ - ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وَالَّذِينَ عملوا السَّيِّئَاتِ فعصوا الله وتجاوزوا الحدود فكانت هي رأس ما لهم في الآخرة (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) فسيجزون على السيئة بمثلها من العقوبة لا يزدادون على ذلك بل ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ المائة/١٥ ، فالحسنات مضاعفة بفضل الله والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى كقوله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مِثْلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلِهَا﴾ الأنعام/١٦٠ ، (وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) تغشاهم وتركبهم وتكرهم وتغطي وجوههم ذلة وهوان من شر الفضيحة (مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) عَاصِمٍ : مانع ، ليس لهم أحدٌ يعصمهم ويمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه كقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ الانفطار/١٩ ، (كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ، هنا يرسم القرآن صورة حسية للظلام النفسي الذي يكرب النفوس (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أولئك المسيئون الذين تجاوزوا الحدود والأصول هم أصحاب النار لا يخرجون منها أبداً لأنه ليس لهم مكان لائق بهم سواها ، عن الإمام الباقر (ع) : في الآية من مصاديقها (أهل البدع والشهوات المحرمة) تفسيرالنور/٣/٥٣٣ كقوله ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، صَاحِكَةٌ مُسْتَبَشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ عبس/٣٨-٤٢ .

٢٨ - ﴿يَوْمَ نَخَشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلُّوا بِهِمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ﴾

إنه مشهد من مشاهد يوم القيامة ، ويوم نخشر جميع الناس إلى يوم المحشر ونجمعهم من كل زمانٍ ومكانٍ إلى موقف القيامة الموحد في صورة متحركة بليغة عالية المضامين ، نجمعهم بكل تأكيد

للحساب من أساء ومن أحسن ومن آمن ومن كفر (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ) ثم نقول للذين أشركوا بالله إلزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم من دون الله حتى تنظروا ما يفعل الله بكم (فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) ففرقنا وميزنا يوم الحساب بين الخلائق بين المؤمنين وغيرهم ويظهر كل واحد على حقيقته بوضوح كقوله ﴿وَأَمَّا زُورُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّمَا كَانُوا هُمُ السُّرَّاءُ يَجْعَلُونَ لِكُلِّ أَسْتَفْهَامٍ أَهْوَاءً مِمَّا يهْتَمُونُ بِهِمْ وَأَنزَلْنَا لَهُمْ مِن آيَاتِنَا آيَاتٍ مُّخْتَلِفَةً أَلْفًا مِّنْ آيَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا كَثِيرٌ إِلَّا أَغْرَيْنَا ذُلًّا بَيْنَهُمْ وَسَبَّحُوا بِالْحَمْدِ وَالَّذِينَ يَدَّبَعُونَهُمْ وَسَاءَ يَوْمَئِذٍ حُتَيْبًا شَتَّىٰ﴾ (س/٥٩ ، ورفعنا الأوهام التي حجبت الحقيقة (وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَجَّارُونَ) تبرأ منهم الشركاء (مهما كانوا) الذين عبدوهم من دون الله ، وقالت لهم آلهتهم إنكم ما كنتم تعبدوننا وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وهم يتقابلون وجهاً لوجه ليدلي كل فريق بحجته ، وعندئذ يتبين لكل من أشرك بالله ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران/١٥٤ ، وأنهم كانوا يعبدون الشيطان من حيث لا يشعرون وهو الذي أمرهم أن يتخذوا لله أنداداً كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد/٢٥ ، وكقوله ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة/١٦٦. فائدة:

١- (وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ..) حين أوقف الله المشركين والذين يعبدون الأصنام (الشركاء) ويجعلهم في موقف واحد ويكونون وجهاً لوجه قال هؤلاء لأولئك، ما كنتم لنا عابدين وإنما حُيِّلَ ذلك إليكم وصُورت لكم الأوهام، إنَّ لله شركاء، وإنَّا نحن أولئك الشركاء الذين لا وجود لهم إلا في مخيلتكم فأنتم في الحقيقة تعبدون لا شيء!! وهكذا حال الذي يعبد الأصنام البشرية أو الأصنام الفكرية والمالية والشهوانية وغيرها!. ٢- قال (فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) ولم يقل (فرقنا) لأنَّ مع التفريق بقية أمل في الاجتماع ، أما التزييل فهو غروب إلى الأبد واختفاء لا ظهور بعده.

٢٩ - ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾

يقول الشركاء المعبودون للمشركين العابدين في ساحة يوم القيامة ، حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم فهو العليم بحالنا وحالكم (إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) إننا كنا في غفلة عن عبادتكم لنا لا نتفكر فيها ولا نشعر ولا نعلم بها وإنما ما دعوناكم إلى عبادتنا كأجسام وإنما كانت عبادتكم بالأفكار المنحرفة والعقائد الضالة والطاعة الفاسدة.

٣٠ - ﴿هَٰذَا لِكُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

أَسْلَفَتْ : قدمت ، في ذلك الوقت الرهيب في ساحة المحشر (تَبَلُّوْا) من البلوى والاختبار أي تختبر كل نفس وتجد ما قدمت من خير أو شر وتنال جزاء ما عملت كقوله ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ آل عمران/٣٠ ، فنكتشف لكل نفس حقيقة أعمالها وتشاهدها مشاهدة عيان بالصورة والصوت والنية ، وكأما تعرض على شاشة فلم حقيقي مجسم ذو أبعاد ثلاثة كقوله ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوهَا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ ، (وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ) المتولي جزاءهم بالعدل والقسط والصادق بربوبيته فهو بذاته حق وبحكمه حق وبقضائه حق

، فيكون الحق منه وله ومعه وفيه (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وضاع وزهد عنهم ما كانوا يزعمونه من أن شركاءهم يشفعون لهم ، وَأَخْسَرُ النَّاسُ مَنْ كَانَتْ عِبْرَةً لِلنَّاسِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ الكهف/١٠٥ .

٣١ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

في الآية دلالة على توحيد الله وربوبيته ، قل يا مُجِدُّ لهُؤَلَاءِ المعاندين من ينزل لكم الغيث من السماء ويخرج لكم أنواع الزرع والثمار والحيوان وهذه أرزاق يتقوّم بها الوجود الإنساني ؟ (أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) من ذا الذي يملك أسمعكم وأبصاركم التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردّها لكم إذا أراد الله أن يسلب نعمته عنكم كقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ الأنعام/٤٦ ، وخص هاتين الحاستين بالذكر لأهمّهما أساسيتان في حياة الإنسان ودخول المعلومات إلى المخ عن طريقهما كما يقول الإمام علي (ع):

(سُبْحَانَ مَنْ بَصَّرَ بِشَحْمٍ وَأَسْمَعَ بِعَظْمٍ وَأَنْطَقَ بِلَحْمٍ وَلَمَّا كَانَتْ حَاجَةٌ الْإِنْسَانِ إِلَى السَّمْعِ وَالْبَصْرِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى الْكَلَامِ خَلَقَ اللَّهُ لَهُ أُذُنَيْنِ وَعَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا)! روح البيان ٤/٤٣ لِيَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا يَقُولُ (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)؟ الساكن الهامد هو الميت والنامي المتحرك هو الحي ، فإنّ في البذور والنوى والبيض والملي حياة وكلّها خرجت من مادة ميتة هي الأرض اليابسة ، ولكنّ الحياة الأولى هي من خلق الله الحي بذاته الحي لغيره هو الذي يستحقّ العبادة لوحده من يخرج النبتة من الحبة والحبة من النبتة ، ويخرج الفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ، ويخرج الإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ومن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.. ؟ ولا مجال للنقاش أية منهما السابقة؟ هل الفرخ أم البيضة وما دمنا نعتقد بأنّه سبحانه يقول للشيء (كن فيكون) ويجعل من العدم وجوداً ومن الوجود عدماً (وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ) ومن الذي يدبر جميع الأنظمة ويقدر جميع الأمور في السماء والأرض بشكل محكم ليس فيه خلل ، وما فيهما من خلائق وكائنات على ما توجه الحكمة والمصلحة ؟ (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) الوثنيين يعترفون بأنّ الله هو الذي تنتهي إليه جميع التدبيرات والتقديرات في الإنسان وغيره إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أفلا تحافون عقابه ونقمته وأنتم تشركون مع الله غيره في العبادة ؟

فائدة : إن الناس يبهرهم جهاز يصنعه الإنسان لا يقاس في شيء إلى صنع الله ، بينما يمرون غافلين بالبدائع والأنظمة الإلهية في الآفاق الكونية وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ! ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/٢٠-٢١ ، في دعاء الحسين (ع) في يوم

عرفة : (إلهي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ، أَيْكُونُ لِعَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونُ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ ، مَتَى غَبْتِ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ، وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَاثُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيباً ، وَحَسِرْتَ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً ، مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً وَلَقَدْ حَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً، كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْأَحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْأَمْنَانِ ، إلهي كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيْبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ).

٣٢ - ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

هذا الذي يخلق هذه المخلوقات بالغة الدقة في الخلق والتدبير والتقدير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ ، هو الله ربكم الحق المرئي لكم بنعمه والمدير لأموركم والمستحق للعبادة دون سواه (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) استفهام إنكاري ، فمن تخطى الحق وتجاوزه الذي هو الله ومنهجه وعبادته واتباع رسوله وقع في الضلال ، والحق واحد لا يتعدد لذلك جاء بصيغة المفرد، ومن تجاوز الحق الواحد فقد وقع على الباطل المتعدد والضلال المتنوع لذلك جاء بالجمع ، والمعنى : مجرد أن تترك (الحق) الواحد الموحد المتحد تقع في (الباطل) الكثير والمختلف الذي يغر ويسر في الظاهر ويضر في الباطن (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) فإلى أين تذهبون ؟ وإلى أي مهلكة واردون ؟ أي فكيف تصرفون عن الحق وتتركونه الذي معه الهدى إلى الضلال الذي معه الباطل والردى ؟ وكيف ترون الأمور على خلاف حقيقتها؟! عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْبَقِيَّةُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح النهج ١١/٢، فائدة : وكذلك قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الأنعام/١٥٣ ، وجاء (صِرَاطِي) بصيغة المفرد للدلالة على أن صراط الله المستقيم وحدة واحدة موحدة متحدة لا يتجزأ ، وجاءت (السُّبُلُ) بصيغة الجمع للدلالة على أن مجرد أن تترك صراط الله الواحد المستقيم تقع في (السُّبُلُ) المتعددة التي لا حصر لها ، فلماذا نختلف في الحق الواحد الثابت بذاته والمثبت لغيره ؟ ولماذا كل منا له صراط خاص به يلبسه حسب مقاسه ومزاجه ويترك صراط الله الواحد الذي لا يتجزأ فصرنا ملل ونحل وطوائف ومذاهب و﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ المؤمنون/٥٣.

٣٣ - ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) كذلك اسم إشارة إلى ما تقدّم من أنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، حَقَّتْ : وجبت أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق (عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا) وخرجوا عن

طاعة الله وتعدوا الحدود الإلهية وتجاوزوا الأصول الإنسانية ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق/ ١) ، (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) لا يصدقون بتوحيد الله فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لصلافتهم، أي قدر الله في سننه وقوانينه إن الذين يفسقون ويخرجون عن طاعة الله وينحرفون عن منطق الفطرة السليم والفكر القويم لا يؤمنون (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) لا لأنه يمنعهم من الإيمان فهذه دلائله في الآفاق الكونية ، وهذه مقدماته قائمة في إعتقادهم ، ولكنهم هم يجيدون عن الإيمان ويجحدون المقدمات التي في أيديهم ويعطلون منطق الفطرة القويم والفكر السليم فيهم ، فتكون النتائج كالمقدمات.

٣٤ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُو الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ قُلْ اللَّهُ يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ﴾

قل لهم على جهة التوبيخ وقدّم لهم احتجاجاً آخر ، هل من الأوثان والأصنام من يُنشئ الخلق من العدم على غير مثال ثم يفنيه ثم يعيده ويحييه للحساب ؟ فهم لا يقدرّون على ذلك فهم في دعوى اتخاذ الأرباب كاذبون (قُلْ اللَّهُ يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ) قل لهم يا مُجِدُّ الله وحده هو الذي يحي ويميت ويبدأ الخلق من العدم ثم يفنيه ثم يعيد له الحياة بعد الموت في الآخرة ، وليس أحد من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك (فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ) فكيف تتقبلون وتتحوّلون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ كيف تنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ومن لا يليق به الحق يليق به الباطل !؟

٣٥ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

استفهام إنكاري ، قل هل من هذه الآلهة التي تعبدونها (سواء أكانت حجراً أم بشراً) من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائرًا؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة من دون خطأ أو اشتباه ؟ (قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) فالله هو القادر على هداية الضال وبيان الحق بهداية تكوينية وتشريعية فينزل كتاباً ويرسل رسولاً ، وإلقاء الحجّة بكتاب الحق (القرآن) وكتاب الخلق وهو كتاب الكون وعجائبه كقوله ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه/ ٥٠ ، (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ) أفمن يرشد إلى الحق ويدل على الله عز وجل أحق بالاتباع (أَمْ لَا يَهْدِي) بتشديد الدال بمعنى لا يهتدي هو بنفسه إلا أن يهديه غيره؟ أم هذه الأصنام الحجرية التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها (أو المراد) أم هؤلاء الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا (فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ما لكم أيها المشركون تؤمنون بالخرافات والضلالات، وكيف تفكرون فتسوون بين الأصنام ورب العالمين وتحكمون بهذا الباطل الصّراح بما تقتضي بدهة العقل بطلانه؟ وهو إستفهام إنكاري، وهذا الآية لا يفهمها إلا ذو قلب سليم وعقل مفكر وعلم متنور بعيد عن التحجّر، لأنها توجب التوحيد وتبطل الاتباع الأعمى ولا يجوز تعطيل العقل عن التفكير، في غرر الحكم: (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأُلِّ ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ

ضَلَالًا)، عن النبي (ص) : (يَا عَلِيُّ إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ لِحَالِقِهِمْ بِالْبِرِّ فَتَقَرَّبَتْ أَنْتَ إِلَيْهِ بِالْعَقْلِ ، فَإِنَّهُ بِقَدْرِ الْعَقْلِ تَكُونُ الْعِبَادَةُ) مشكاة الأنوار ص. ٢٥١

٣٦ - ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

الظن هنا ضد اليقين بمعنى : وما يتبع أكثر الضالين عن منهج الله إلا اعتقادات غير مستندة لدليل ولا برهان بل مجرد ظنون وأوهام باطلة وخرافات فاسدة وانحرافات خطيرة ومبررة تقليدًا لأبائهم وزعمائهم لحسن ظنهم بهم ، ثم هم يتبعونهم إتباع أعمى بلا تدبر ولا تحقق ، وظن الإنسان يبين مقدار عقله وقدر نفسه وميزان فكره وشاهد على أصله (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) الحق هو الثابت الأصيل الذي لا ريب في أصالته ، والشك متغير دخيل لا أصالة له من علم وحجة قاطعة ، ولا يقوم مقام اليقين ، فصار الظن ميزان عقل الإنسان وبيان رشفه كقوله ﴿إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ النجم/ ٢٣ ، في غرر الحكم: (سُوءُ الظَّنِّ يُفْسِدُ الْأُمُورَ، وَيَبْعَثُ عَلَى الشُّرُورِ) (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالانْحِرَافِ وهو وعيد على اتباعهم للظن وإعتمادهم على الأوهام والخرافات وإعراضهم عن الحجة والبرهان وأقاموا بناخهم على شفا جُرْفٍ هَارٍ فَإِنَّهَا رَ بِهْمٍ إِلَى الضَّلَالِ فسأت أعمالهم. في نهج البلاغة حكم ١٥٠: (لَا تَكُنْ مِمَّنْ تَعْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ وَلَا يَعْلِبُهَا عَلَى مَا تَسْتَيْقِنُ)، فائدة ١- أكثر المنحرفين عن منهج الله يعبدون أهواءهم ويتبعون شهواتهم ولذاتهم المحرمة ، وعبر الله سبحانه عن عبادتهم لأهوائهم بالظن مع أنهم كانوا على يقين بأنها نافعة ومؤنسة لهم ، لأن يقينهم هذا لا يستند إلى أساس علمي صحيح وكل يقين جار مجرى العرف يستند إلى التقليد الأعمى ويكون التعبير عنه بالظن. ٢- ونسب اتباع الظن إلى أكثرهم لأن الأقل منهم على يقين من الحق لا اشتباه فيه. ٣- (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي) وهذا دليل قاطع على أن التحليل أو التحريم لا يجوز بحال إلا بالعلم الصحيح المبني على حجة قطعية فيها إطمئنان إنه أتباع وليس ابتداءً. ٤- الآية تمنع من اتباع الظن والاعتماد على الظن في أمور الدين إلا بحجة يقينية.

٣٧ - ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا مَرَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

لا يصح ولا يعقل ولا يستقيم لذي عقل سليم أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله وليس من الله ويُنسب إليه ، والسبب لأنه كلام الخالق وفوق كلام المخلوق وفوق طاقة البشر لإعجازه في الأسلوب والعلوم والأخبار ولما فيه من قواعد علمية وشريعة إنسانية وآداب اجتماعية وقوانين اقتصادية وإخبار بالغيب.. وغير ذلك مما يستحيل معه أن يكون من عند غير الله ، فالقرآن بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال في تناسقه وبهذا الجلال في العقيدة التي جاء بها وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده وبهذا اليسر في الأحكام وبهذا السياق الفني في الأسلوب البلاغي والعلمي ، وبهذا التصوير لحقيقة الألوهية وطبيعة البشر في فهمها ، وبهذا الطرح الدقيق المتوازن بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة وبين مطالب الروح والجسد وبين الحياة والموت والأمل

والعمل كقوله ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الحجر/١٩ ، لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأنَّ حقائقه الكثيرة ممَّا يعجز عنها البشر فهو فوق قدرة البشر كقوله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ البقرة/٣ ، (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) ولكنه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزرور الأصلية (وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) وفيه تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام وفيه بيانٌ كافٍ وافٍ لأحكامه تعالى (لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) لاشك فيه أنه نازل من عند الله وأنه معجز لا يقدر أحد على مثله والمهيمن على كافة الكتب ، ولا يوجد فيه أي تضاد وتناقض في آياته ولا مع أهداف الأنبياء السابقين (ع) ولم يكن مُجَدِّ النبي الأمي يعلم شيئاً من ذلك لولا الوحي عن الله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/٨ ، وكقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ إِلَّا وَهُ أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنْ لَا تَبَلُّغُهُ عُقُولُ الرِّجَالِ) العاديين، الكافي/١/٦٠ . فائدة : ما كان من شأن القرآن أصلاً أن يفترى ، فليس الافتراء هو المنفي ولكن جواز وجوده هو المنفي وهو أبلغ في النفي وأبعد.

٣٨ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

بل يقولون اختلق مُجَدِّ وإفعل هذا القرآن من قبل نفسه ؟ ولم يكن من عند الله سبحانه وهو استفهام إنكاري (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) إن كان الصحيح كما زعمتم فجيئوا بسورة من مثله في بلاغته وفصاحته وأسلوبه البليغ وقوة حجته وحلاوة بيانه وإخباره بالمغيبات وعدم التناقض فيه وذكر تأريخ السابقين بدون خطأ.. وغيرها من الخوارق وأنتم من أهل العربية والفصاحة ، وجاءت (سُورَةٌ) نكرة للدلالة على العموم فإنها تشمل كل سورة ولو كانت قصيرة، وتارة القرآن يتحدى أن يؤتى بمثل كل القرآن وأحياناً بعشر سور وأحياناً بسورة قصيرة واحدة ، وهذا يوضح أن جزء من القرآن أوكله ، إعجاز كله من أوله إلى آخره.

(وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وأطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله من استطعتم من خلقه من الإنس والجن من جهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الإنسانية بأنواعها ليساعدوكم في معارضته (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في دعواكم أن مُجَدِّاً (ص) إفتراه، فإذا عجز الجميع في مختلف الطاقات والأزمان والكفاءات أن يأتوا بسورة مثله ، فالواحد منهم أن يأتي بالقرآن كله أعجز كقوله ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء/٨٨ ، فإذا عجزتم فاعلموا أن هذا القرآن ليس من كلام البشر وإنه منزل من عند الله تعالى وهذا غاية في التحدي للعرب وغيرهم والناس أجمعين. فائدة : أبعاد الإعجاز القرآني : فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير والأسلوب وحده ولكنَّه الإعجاز المطلق من جميع جوانب القرآن الذي يلمسه الخبراء في هذا ، إنَّ الأداء

القرآني يمتاز ويتميز عن الأداء البشري إنّ له سلطاناً عجيماً على القلوب الشفافة ، لأنّ له بعد عالمي وواقعي ونفسي ويعرض لك فلسفة وجودك في الحياة من البداية حتى النهاية بكلّ وضوح .

٣٩ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَاءَ بِأَيْمِهِ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾
 بل كذب المشركون بالقرآن العظيم (بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ) قبل فهمه وسارعوا إلى الطعن فيه قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ويعلموا ما فيه حتى يوقنوا به ويصدقوه ، إنه طيش هؤلاء وحمقتهم وجهلهم و(النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا) إنّ اعتداء على حقّ العقل في التفكير والتدبر والتثبت (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) الحقيقي ، ولو أنهم عقلوا تعاليمه وأحكامه وأهدافه لصدقوا به إن كانوا من طلاب الحقيقة كقولهم ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ص/٥ ، وفيه دليل على أنهم مقلدون بلا تفكير، (وَلَمَّا) تفيد التراخي وامتداد الزمن. المعنى : القرآن لا يفرغ منه المرء في قراءة سريعة عابرة وإنما هو آيات الله قد أودعت كلماته وآياته أسرار هذا الوجود ونظام المجتمع الإنساني ومناهج سعادته فيجب أن يقف المرء طويلاً معه وأن يعطيه ملكاته كلها وحرصه على التعلّم منه ، عن النبي (ص) : (مَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَعَّرَ عَظِيمًا وَعَظَّمَ صَغِيرًا) البحار ٩٢ ص ١٣ (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وهكذا طبيعة الجهلاء الحمقى في كلّ زمان ومكان أنهم ذو طبيعة ساذجة طائشة واحدة يكذبون بسرعة بلا تدبّر ولا تأمل (بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ) قبل أن يعرفوا تأويله وقبل أن يقفوا على معانيه وتفسيره ، وهكذا الجاهل يتعامل مع الجوهرة النفيسة وكأنها حصى لا قيمة لها ! (فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً ﴿فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ العنكبوت/٤٠ ، وهذه سنّة جارية غير متوقفة .

وفي هذا دليل :

على وجوب التثبت والتأكد في الأمور وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً (وأيضاً) من الخطأ أن أعتمد الظن في العقائد قبل أن أتأكد من صحتها وأصل إلى علمها باليقين ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يونس/٣٦ ، عن النبي (ص) : (إِسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كنز العمال خير ٢٩٣٣٩ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر/١٧-١٨ . فائدة: الجاهل يكذب بسرعة في كلّ شيء وفي كلّ زمان ومكان ، فهم يكذبون ويسمّون الكذب صدقاً ، ويظلمون ويسمّون الظلم عدلاً ، ويمكرون ويسمّون المكر عقلاً ، ويهدرون ويسمّون الهدر علماً ، و لو سَكَتَ الْجَاهِلُ مَا حَصَلَ خِلَافٌ ! عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ اللَّهَ حَصَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِآيَاتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ أَنْ لَا يَقُولُوا إِلَّا مَا يَعْلَمُونَ ، وَأَنْ لَا يَرُدُّوا مَا لَا يَعْلَمُونَ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الأعراف/١٦٩ ، الأمثل ٦/٣٣٧ وقوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦) .

٤٠ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا مُجَّد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنتفع بما أرسلت به (وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ) وهم المفسدون ، جهلاً أو خوفاً على مكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الشخصية هؤلاء هم الذين هددهم الله بقوله (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) وهنا قرن عدم الإيمان بالفساد أي وربك الذي ربي جميع الخلائق فهو أقرب منهم من أنفسهم فهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه حسب استعداده ومن يستحق الضلالة فيضله حسب اندفاعه للفساد وفيه دلالة على أنّ الإنسان مخير لا مسير. فائدة: هناك علاقة بين الضلال والفساد ، كلما وقع الضلال وقع الفساد بأنواعه، وكلما حصل الفساد في الأرض بسبب العبودية لغير الله ، وهذه العبودية المزيفة تفسد أخلاق الناس وأرواحهم وأفكارهم وتصوّراتهم وتفسد مصالحهم.

٤١ - ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وإن أصروا على تكذيبك عناداً فقل لي عملي هو البلاغ المبين الواضح والإنذار الشديد والتبشير بالمطيعين بالجنة وما أنا بمسيطر عليهم ولا جبار ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ق/٤٥ ، (وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) وهو الانقياد في الضلال والظلم والفساد ثم تجزون به يوم القيامة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يونس/٥٢ ، (أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) لا تؤاخذون بعلمي ولا أوأخذ بعملكم وتركهم لمصيرهم منفردين ، وكلّ يلقى جزاء عمله ، كقوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلي دِينِ﴾ الكافرون/٦ ، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ النمل/٨١ ، في غرر الحكم: (أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ ذَنْبٌ صَغُرَ عِنْدَ صَاحِبِهِ). فائدة: إنهم أغلقوا أنفسهم عن الهداية وهي أعظم شيء لهم فأضروا بأنفسهم من حيث لا يعلمون كقوله ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨ .

٤٢ - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾

وهنا ربط القرآن بين الأذن والعقل أي من المشركين أو المكذبين من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن بأذانهم فقط أما عقولهم فغائبة عنه وقلوبهم فهي مقفلة ، كمن يستمع إلى الطائر يغرد على غصن الشجرة فيلتد بصوته ولا يفهم معناه ! ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ مُجَّد/٢٤ ، والاستماع طلب السمع فهم كانوا يطلبون السمع للرد لا للفهم فلذلك لزمهم الذم فإنهم إذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يستمعوه حيث لم يصغوا إليه وقلوبهم مشغولة لا تعي شيئاً مما تقرأه وتسمعه (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) علام تتعب نفسك وتشغل قلبك من غير جدوى فلست قادراً على إسماع من عطّل عقله ، فإن الغاية من حاسة السمع الاستفادة منها فإذا لم تتحقق هذه الغاية كان وجود الحاسة وعدمها سواء ، فكانوا من شدة الصمم لا

يعقلون. فائدة : والآن نرى من المسلمين من يستمع القرآن وبأصوات حسنة ويلتذُّ بترتيله وأنغامه ولكن لا لينتفع بعطائه وعلومه وعِبره ولا ليفهم عقائده وأحكامه !

٤٣ - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾

ثم ذكر انسداد طريق النظر أيضاً ، منهم من ينظر إليك بأبصارهم بعين الحقد والحسد ، وهم يعاينون دلائل نبوتك الواضحة ولكنهم عمي البصائر لا ينتفعون بما رأوا ولا يميزون ما نظروا ، إنَّ من هؤلاء لكثير في كلِّ زمانٍ ومكان ! ولكنهم لا يعرفون قدرك ومقامك وأهمية اتباعك حتى كأنهم بلا أبصار (أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ) كما أنك لا تقدر أن تجعل الأعمى سمياً والأعمى بصيراً كذلك لا تستطيع أن تهدي بالقرآن من يستمع إليه وينظر إليك من خلال أهوائه وأغراضه والهوى يُعمي ويصمُّ ، شبههم بالعمي كناية عن تعاميمهم عن الحق وكأنَّ حواسهم معطّلة لا تؤدّي وظيفتها والمراد تسليية النبي (ص) كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به فكذلك لا تقدر أن توقِّق هؤلاء الأجلاف للإيمان ، لأنَّ هداية الدِّين والإيمان به كهداية الحواس والمشاعر والأفكار والعقول والنفوس ولا تكون إلاّ للمستعد بهداية صادقة من قوة الرِّغبة والحاجة الماسّة إليها وهذا بلسان الحال قبل لسان المقال ، والله أعرف بالحال فصارت الهداية من عنده سبحانه. فائدة

١ - (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَجاء معها (لا يَعْقِلُونَ) ؟

أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ ؟ وجاء معها (لا يُبْصِرُونَ)) تشير الآيتين ٤٢-٤٣ أن القناعة الدينية الراسخة لا ترسخ في النفس إلاّ إذا تناولها الإنسان بنفسه ونظر إليها بعينه وصغى إليها بقلبه وأدركها ووعاها بعقله ، ومن هنا يستذوق حلاوة الإيمان ويعرف قيمة الهداية ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن/ ١١ ، ومن هنا يحرم الإسلام القهر والقسر والإكراه في الدِّين وفي كلِّ شيء لأنه بغي وعدوان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/ ٢٥٦ . ٢- وفي تكذيب الشيء المهم قبل التحقق والبحث والدراسة ، شناعة في ضحالة الفكر وقصر النظر وضيق الأفق، وفيه دليل على أهمّ يتبعون اتباعاً أعمى ويكونون مع العقل الجمعي مقلّدين بلا تفكّر، إن أحسن الناس أحسنوا وإن أساءوا أساءوا ولم يكن لهم القدرة إن أساء الناس أحسنوا فهم كما يصفهم النبي (ص) (إِمَّعَةً) يعني بلا موقف مثل الهمج الرِّعاع الذين ينعقون مع كلِّ ناعق، عن أبي موسى (ع) (أَبْلَغُ خَيْرٍ وَقُلُّ خَيْرٌ وَلَا تَكُنْ إِمَّعَةً، قلت وما الإمّعة؟ قَالَ (ع) لَا تَقُلْ أَنَا مَعَ النَّاسِ وَأَنَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هُمْ نَجْدَانِ (طريقان واضحان) نَجْدٌ خَيْرٌ، وَنَجْدٌ شَرٌّ، فَلَا يَكُنْ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ) البحار/٧٨/٣٢٥ . ٣- نلاحظ أنّ القرآن ربط بين السَّمع والعقل ، ولم يصل بين النظر والعقل أو القلب ، بل جعل مجرّد تعطيل أداة النظر عن أداء وظيفتها حجراً عن الخير وعزلاً عن الهدى ، لذلك قرن عدم العقل بعدم السمع ، وبعدم البصر عدم الإدراك.

٤٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَعاقِبُ أَحَدًا بِدونِ ذنبٍ ولا يعتدي على أهل مملكته ولا يؤاخذهم بألوان العذاب (وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ولكنهم يظلمون أنفسهم برفضهم الهداية والاستقامة وإتباعهم الهوى والشيطان فعمّلوا عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن إتباع الحق ، بتعديهم حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/ ١ ، وإنّ الله تعالى لم يسلب من هؤلاء الإيمان ابتداءً بغير جرم ارتكبه فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم لأن الإيمان يتناسب مع القلب السليم ولا يستقر الإيمان ولا يقبل النفس التي تحمل الشرّ ، والإيمان لا يثبت في القلب السقيم والنفس اللئيمة الفاسدة.

فائدة: ١- إنّ الله سبحانه أعطاهم القدرة وبَيَّن لهم الخير والشر ونهاهم عن الشر وعاقبهم عليه وأمرهم بالخير وأثابهم عليه ، وجعل الخيار بأيديهم ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/ ١٠ ، فمن أطاع واستقام فقد إختار لنفسه النجاة ومن عصى فقد إختار لها طريق العذاب كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/ ١٧ ، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/ ٢١٣ . ٢- عن النبي (ص) : (فيما يرويه عن ربه عز وجل : يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا) ، وعن الإمام الباقر (ع) : (إِنَّ اللَّهَ الْحَلِيمَ الْعَلِيمَ إِنَّمَا عَضُّهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ رِضَاءَهُ، وَإِنَّمَا يَمْنَعُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ عَطَاءَهُ ، وَإِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ هُدَاهُ) الكافي/ ٨/ ٥٢ . ٣- إنّ العمى عن رؤية الحق والصمّ تجاه كلام الله كما في الآيتين ٤٢-٤٣ ليس شيئاً ولدوا عليه وليس أنّ الله تعالى قد ظلمهم بذلك ، بل إنّ العمى والصمّ نتيجة طبيعية لسوء أعمالهم، و(الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وهذا يدلُّ أنّ الإنسان مختار وليس مجبراً.

٤٥ - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

إنّهُ مشهدٌ حسيٌّ من مشاهد يوم القيامة ، أي لا ينبغي للعاصين أن يغتروا بالحياة الدنيا ويستكثروا الأمد ويستبطلوا الأجل وفيه تذكير وتحذير لمن يتمادى في ضلاله. المعنى : نجمع هؤلاء المشركين يوم المحشر للحساب يتذكروا كأنهم ما أقاموا في الدنيا (إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) قضوها في التعارف بعضهم على بعض كما كانوا في الدنيا ، يضرب بالساعة المثل في القلة ، وهي كناية وتشبيه على أن الحياة وإن طالَّت وطابت وعزّت وسرّت فهي قصيرة الأمد لأنها إلى زوال وإثماً مدّة قصيرة مقابل عالم الخلود في الآخرة ، هذا تذكير وتحذير لمن يتمادى في الغي والضلال ، فعليه أن يعرف أن (الدُّنْيَا سَاعَةٌ، فَإِجْعَلْهَا طَاعَةً، وَالنَّفْسُ الطَّمَّاعَةُ، فَعَوِّدْهَا الْفَنَاعَةَ) (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) غداً يوم المحشر يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا من غير أن ينكره أو ينساه ، يعرف المجرم زميله المجرم والطيب أخاه الطيب في موقف من مواقف يوم القيامة ، يقول الواحد

للآخر أنت أضللتني وليس تعارف محبة ومودة كقوله ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف/٦٧ ، ثم ينقطع التعارف ويشتغل كلٌ بنفسه لتراكم الأهوال وثقل الأغلال (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) خسروا الدنيا لأنهم صرفوا أنفسهم في المعاصي وآثروا الخسيس الزائل على النفيس الدائم (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) فيما اختاروه ، وخسروا الآخرة لأنهم حرموا أنفسهم نعيم الآخرة الخالد أي خسروا كل شيء ، لم يجدوا غير الحسرة والندامة كقوله ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يونس/٥٤ ، و(أَشَدُّ النَّدَامَةِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، عن الإمام علي

(ع): (الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِعَيْرِهَا وَمَنْ تُخَلِّقْ لِنَفْسِهَا) شرح النهج ٢٠/١٨١

٤٦ - ﴿وَمَا نُرِيكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّئُكَ فَإِذَا جَاءَ مَرْجِعُهُمْ لَمَّا اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾

إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا فينالوا الخزي والذل على تكذيبهم وهو واقع بهم لا محالة في حياة الرسول أو بعد وفاته (فَالْيَوْمَ نَرْجِعُهُمْ) والمرجع إلى الله في ساحة المحشر في عالم الآخرة في كل حال فيعذبهم على سوء أعمالهم (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) وهو سبحانه شاهد ومطلع على أفعالهم لا يغيب شيء منها عن علمه وسيجازيهم عليها بما يستحقون كقوله ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ ، في نصح البلاغة حكم ٣٢٤ : (اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ).

٤٧ - ﴿وَكَلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

ولكل أمة من الأمم رسول ورسالة ودعوة لهدايتها يبشرها وينذرها حيث لا عقاب بلا بيان كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤ ، (فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ) وبلغهم ما وجب عليهم من أمور الدين وأمور استقامتهم في الدنيا ولم يبق عذر لمعتذر فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها (قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) بالعدل، فيحكم لمن استجاب لله ولرسوله بالفوز والثواب وعلى من أعرض وتمرد بالخذلان والعقاب (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فلا نقصان من ثواب من أطاع ولا زيادة في عقاب من عصى كقوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء/١٥. عن النبي (ص) : (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ) فأتمته تقدم في الحساب يوم القيامة بشرف رسوله (ص) وإن كانت آخر الأمم.

٤٨ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ لَئِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

ويقول الكفار متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً يقضي علينا وينجيك مع المؤمنين بك؟ على سبيل السخرية والإستهزاء

٤٩ - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

قل لهم يا محمد لا تستطيع أن أدفع عن نفسي ضرراً ولا أجلب إليها نفعاً وليس ذلك لي ولا لغيري كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنْ الْحَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف/١٨٨ ، (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فالأمر إذن لله تعالى يحقق وعيده في الوقت المناسب في المكان المناسب في الكيفية المناسبة بالأسلوب الذي يشاء هو لا ما يشاء غيره كقوله ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران/١٥٤ ، (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) لكل أمة وقت معلوم هلاكها وتزول فيه كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام/٦٧ ، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ النبأ/٢٩ ، وتقدّم في الأعراف/٣٤ ، إنّ الأمم لها أعمار وآجال كما للأفراد أعمار وآجال ، وأجل الأمم أجل لوجودها وحياتها وحضارتها وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم ، بمعنى كيف تنهض الأمم والحضارات وكيف تنتكس وتموت ، وهناك أجل مادي وأجل معنوي وكل له أسباب ومسببات ، وأجل الأمم قد ينتهي بالهلاك الحسي واستئصالها بالعذاب كما وقع لبعض الأمم الماضية ، وقد ينتهي بالهلاك المعنوي التدريجي كقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ .

وقوله ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ سبأ/٣٠ ، هلاك الهزيمة والضياع وهو ما يقع للأمم فيصيبها إما موت جزئي فتنهض مرة ثانية من جديد وإما موت اضمحلال بذهاب القوة والعزة والهيبة لتنمحي شخصيتها وإن بقيت كأفراد وكل أولئك وفق سنة الله التي لا تبدل ولا تتحول ، فالأمم التي تأخذ بأسباب الحياة وتقدمها تحيا وتتقدّم مؤمنة كانت أو كافرة ، والأمم التي تنحرف عن أسباب ديمومة الحياة وحضارتها تضمحل أو تموت حسب انحرافها ، والأمة الإسلامية حياتها وتقدمها في إتباع منهج ربها ورسوله أمّا منهج ربها فالقرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وأمّا منهج رسولها يدعوها لما يحييها ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال/٢٤ ، وإذا انخرت جاءها أجلها وفق سنة الله لها (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) فإذا جاء أجل هلاكهم وحن موعده فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه مدة قليلة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يمكنهم يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ، وأنتم أمة من الأمم تشملها سنة الموت القاهرة فلا تستعجلوا ما سيحل بكم (وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ) .

فائدة : (لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً) إذا كان التبي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فمن باب أولى لا يملكها للآخرين. سؤال : لا يمكن أن ندعو الرسول لطلب حاجة أو دفع ضرر وهو لا يملك من الأمر شيئاً؟ الجواب صحيح لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فهو يملك بمشيئة الله كل ما يريد لنفع الناس ، فهو حبيب الله والوسيلة إلى الله والشفيع إلى الله فلا يتعارض من أن نطلب منه شيئاً يجاهه عند الله ، وإنّ الله لا يرُدُّ طلبه في حياته وبعد موته ، فهو شهيد

وحِيٌّ يَرْزُقُ فِي مَقَامِهِ الْمَحْمُودِ النَّمُودَجِيِّ الْمُمَيِّزِ ، فَالشَّهَادَةُ جَمِيعاً أَحْيَاءُ كَرَمَاءُ عِنْدَ اللَّهِ يَرْزُقُونَ ، فَكَيْفَ بِمَقَامِ النَّبِيِّ (ص) الَّذِي تَهْتَدِي بِسُنَّتِهِ الْبَشَرِيَّةُ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى السَّوَاءِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ يَرْزُقُ وَحِيٌّ عِنْدَ النَّاسِ جَعَلَ أَفْتَدَةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِ ، فَهُوَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا حَيّاً وَمَيْتاً ! فَكَيْفَ نَقْبَلُهُ حَيّاً وَلَا نَقْبَلُهُ مَيْتاً وَهُوَ مُؤَثِّرٌ فِي النَّاسِ فِي الْحَالِينِ؟! وَالْعِظْمَاءُ لَا يَبْقُونَ أَفْرَاداً وَإِنَّمَا يَتَحَوَّلُونَ مِنْ فِعْلِ فَرْدٍ إِلَى فِعْلِ قُوَّةِ جَمَاعَةٍ فَاعِلَةٌ كَمَا قَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ﴾ [النحل/١٢٠] ، وَكَذَلِكَ النَّبِيُّ كَانَ أُمَّةً وَلَا يَزَالُ أُمَّةً فِي تَأْتِيرِهِ وَسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ فَهُوَ قِدْوَةٌ وَأَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ حَيّاً وَمَيْتاً ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/٢١] .

٥٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾

بَيَّاتاً : فَجْأَةً لَيْلاً وَقَدْ نَوِمَ ، إِثْمًا لَمَسَةً وَجِدَانِيَّةً تَحْرُكُ الْمَشَاعِرَ ، أَيُّ قَلٍ لِأَوْلَئِكَ الْمَكْذِبِينَ أَخْبِرُونِي إِنْ جَاءَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً وَأَنْتُمْ أَيْقَازُ أَوْ نِيَامٌ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ ؟ ثُمَّ أَيُّ عَذَابٍ تَسْتَعْجِلُونَ أَيُّهَا الْحَمَقِيُّ وَكُلُّ عَذَابٍ مَكْرُوهٍ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ ؟! (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) اسْتَفْهَامٌ لِأَجْلِ التَّهْوِيلِ وَالتَّعْظِيمِ أَيُّ مَا أَعْظَمَ مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ؟ وَهَلْ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ الْمَفْرَمَةَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ؟ فَانْدَدَةٌ : يَقُولُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ مَرْحُومَةٌ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الدُّنْيَا إِكْرَاماً مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِمْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، فَهَمَّ فِي مَأْمَنٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَإِنْ إِنْهَمَكُوا فِي الْآثَامِ وَالْخَطَايَا مَعَ أَنَّهُ لَا كِرَامَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالتَّقْوَى كَقَوْلِهِ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال/٢٥] .

٥١ - ﴿أَنْعَمَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

أَهْنَالِكُ إِذَا وَقَعَ عَذَابُ اللَّهِ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ صَدَقْتُمْ بِهِ فِي حَالٍ لَا يَنْفَعُكُمْ فِيهِ التَّصَدِيقُ (أَلَا الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) الْآنَ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ تَوْمَنُونَ وَقَدْ كُنْتُمْ قَبْلَهُ تَحْزَرُونَ وَتَسْخَرُونَ وَتَسْتَعْجِلُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ ؟ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ لِإِيْمَانِهِمْ بِهَذَا الْيَوْمِ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . بِمَعْنَى : حَذَرْنَاكُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ فَسَخَرْتُمْ وَلَمْ تَحْتَاطُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَهَكَذَا الْأَحْمَقُ إِذَا أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبَ ! وَمَنْ سَارَ حَوْلَ الْحَمَى (الْخَطَرِ) يَوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ .

٥٢ - ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

ثُمَّ يَقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا غَيْرَهُمْ ذُوقُوا الْعَذَابَ الْخَالِدَ الدَّائِمَ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا فَنَاءَ وَلَا تَخْفِيفَ وَلَا انْقِضَاءَ (ذُوقُوا) وَإِنَّمَا شَبَّهُوا الْعَذَابَ بِالذَّائِقِ وَهُوَ الَّذِي يَسْتَذِيقُ الطَّعْمَ بِالْفَمِّ وَهَذَا يَسْتَذِيقُ الْعَذَابَ بِالْحَسِّ لِأَنَّهُ أَشَدُّ أَلْماً ! (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) سَيُشْمَلِكُمْ الْعَذَابُ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَبِقَدْرِ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، فَتَكُونُ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الذَّنْبِ ، وَالْقَصَاصُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ .

٥٣ - ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَإِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ : أي ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من حشر ونشر بعد الموت والمعاد والقيامة والحساب والكتاب والثواب والعقاب ؟ (أَحَقُّ هُوَ) أَحَقُّ ما جئت به من القرآن والنبوة والشريعة السهلة السمحة ؟ (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ) قل نَعَمْ وحق الله إنه لحق لا بد أن يكون ولا شك فيه (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) وما أنتم بخارجين عن قدرة الله ، يقال أعجزه الأمر : فاته ، لستم بفائتين الله سبحانه بهرب أو إمتناع بل أنتم في قبضته وتحت قهره وسلطانه كقوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ الطور/٧-٨.

٥٤ - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسًا ظَلَمَتْ نَفْسَهَا وَغَيْرَهَا لَوْ أَنَّ لَهَا مَا فِي الدُّنْيَا جَمِيعًا مِنْ خَزَائِنِهَا وَأَمْوَالِهَا وَأَنْوَاعِ الْمَلِكِ وَصَنُوفِ النِّعَمِ (لَا فَتَدَّتْ بِهِ) لَدَفَعْتَهُ فِدْيَةً لَهَا عَنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي تَعَانِيهِ ، وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بَهْتُوا حِينَ رَأَوْا مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ مِنْ هَوْلِ الْعَذَابِ وَشِدَّتِهِ الَّذِي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ تَنْخَلَعُ الْقُلُوبُ وَتُخْرَسُ الْأَلْسِنَةُ ، وَلَكِنْ هِيَئَاتُ أَنْ يُقْبَلَ كَقَوْلِهِ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ آل عمران/٩١ ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ فِي نَدَمٍ وَأَسْفٍ وَحَسْرَةٍ شَدِيدَةٍ (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ) أَسْرُوا : أَحْفُوا ، نَدَمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ سِوَاءَ أَسْرِهِ (كَتَمُوهُ) أَوْ أَعْلَنُوهُ كَقَوْلِهِ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ الزمر/٥٦ ،

عَنِ النَّبِيِّ (ص): (شَرُّ النَّدَامَةِ نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) الْبَحَارُ ١١٥/٧٧ وَأَحْفُوا الشَّدِيدَةَ لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ وَخَوْفَ الشَّمَاتَةِ وَالتَّعْيِيرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالحَزْنَ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالمُقْرَبِينَ (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) وَقُضِيَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فِي جَزَائِهِمْ وَحِسَابِهِمْ وَلَا يَعَاقِبُونَ إِلَّا بِذُنُوبِهِمْ وَبِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَيَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ كَقَوْلِهِ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الْفِرْقَانُ/٢٧-٢٨ . عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع): (قِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ، قَبْلَ أَنْ تَفْعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ) بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٧٨/٢٨٣

٥٥ - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(أَلَا) كَلِمَةٌ تَنْبِيهُ لِلسَّمَاعِ ، أَيِ إِنْتَبَهُوا لِمَا أَقُولُهُ لَكُمْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَلِكًا كُلِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَالِقَهُمَا وَمُدَبِّرَ أَمْرَهُمَا وَمُقَدِّرَ نِظَامِهِمَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ وَلَا شَيْءَ فِيهَا لِأَحَدٍ سِوَاهُ وَلَا يُوَثِّرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ (أَلَا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا) إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فِي كُلِّ مَا وَعَدَ لَا مَرْدَ لَهُ وَهُوَ حَاصِلٌ وَلَا يَمَازِجُهُ بَاطِلٌ وَلَا شَكَّ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الرَّعْدُ/٣١ ، كَقَوْلِهِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ النُّورُ/٥٥ ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ وَعْدُ اسْتِخْلَافِ

المؤمنين ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء/٨٧ ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم وعلومهم وإستيلاء الغفلة عليهم لا يعلمون هذه الحقيقة عن الله تعالى ولا عن قدرته وحكمته فتتفرق بهم السبل، وأيضاً إن أكثر الذين يعلمون ويؤمنون بتلك الساعة لا يعملون ولا يستقيمون ، والحصلة إن الذين يؤمنون ويعلمون ويعملون ويصدقون ويستقيمون غاية في القلّة كقوله ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص/٢٤٠

٥٦ - ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

إن الله تعالى هو وحده خالق الموت والحياة مادياً ومعنوياً ، ففي الهداية حياة معنوية وفي الضلال موتٌ بطيء ، وهو الذي يهب الحياة وهو الذي يستردها لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة ثم إليه ترجعون للحشر والحساب والجزاء على أعمالكم وإذا وعد أنجز وعده بكل تأكيد، وفي الآية دلالة على أنه لا يقدر على الحياة إلا الله سبحانه لأنه تعالى تمدح بكونه قادراً على الإحياء والإماتة.

٥٧ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الأوصاف الأربعة الموعظة والشفاء والهدى والرحمة هي أوصاف القرآن الكريم الدستور الإلهي الجامع للبشرية جميعاً. المعنى : خطاب لكل الناس في العالم قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظة لكم (مِنْ رَبِّكُمْ) الموعظة : الحسنة بالترغيب والترهيب بأساليب علمية محرّكة للمشاعر يرق لها القلب فيبعثه على فعل الخير وترك الشرّ وكلّ سوء ، (مَوْعِظَةٌ) من خالقكم ودستور حياتكم وهداية في طريقكم ومنهج حضاري لسعادتكم وليس كتاباً مفترى (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) من الأمراض المعنوية الخبيثة ومن الصفات السلبية والعادات الخاطئة السيئة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء وتحرمه خير الدنيا والآخرة كالجهل والشك وسوء الخلق والنفاق والأهواء والخرافة والحقد والحسد (شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) الشفاء بمعناه العام ذو الدلالة الواسعة التي تهدّب النفوس والمشاعر والضمائر ، شفاء يدبّ في القلوب ديبب الشفاء في الجسم المعلول ، يدبّ في القلوب بتوجيهاته المؤثرة التي توظف أجهزة الاستقبال الحسيّة والفطرية والشعورية ، فتفتّح وتتلقّى وتستجيب ، فتسكب الطمأنينة في القلوب فيغلب عليها الخير وحسن السلوك كقوله ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء/٨٢ ، وإنّ مخاطر الأمراض الرّوحية (التّفسية) أشدّ فتكاً من أمراض الجسم المادية كقوله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج/٤٦ ، عن الإمام الصادق (ع) : (كان رسول الله (ص) إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً) ، و في نهج البلاغة الخطبة ١٧٦: (فَاسْتَشْفَوْهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ (أمراضكم) وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى وَلَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْثَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَ النَّفَاقُ وَ الْعِيَّ وَ الضَّلَالُ).. إلخ (وَهُدًى)

يدلكم القرآن على المعارف الحقة والأخلاق الرفيعة والأعمال الصالحة والتقوى المنقذة كقوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ الإسراء/٩، ويرفعكم درجة درجة حتى يصل بكم منازل المقربين (وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) خاصة المتورعين عن محارم الله ، الطيبين الذين يحبون الخير للناس ويعملون الصالحات لوجه الله ، ويُعيد القرآن ما افتقدوه من الصحة الروحية والاستقامة الإيمانية ، فينزلكم الله برحمته دار الكرامة مع عباده المقربين ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر/٥٥. فائدة:

١- فمن رفض القرآن فقد رفض مبادئه التي هي الموعظة والشفاء والهدى والرحمة و (مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الْهَدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) ، عن الإمام علي (ع): (تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ رَيْعُ الْقُلُوبِ وَ اسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) البحار ٢٧٧/٢٩٠ من أمراض الوسواس الشيطانية ومشبهات الأمور. ٢-

الإسلام لا يحقر زخارف الدنيا ليهجرها الناس ويهد فيهما، عن النبي (ص): (فَلَيْسَ الرَّهْدُ أَنْ لَا تَمْلِكَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الرَّهْدَ أَنْ لَا يَمْلِكَكَ شَيْءٌ) ميزان الحكمة ٢٩٢/٩ إلا الله تعالى مالك الملك كقوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف/٣٢ ، آفاق المؤمنين أسمى من متاع الدنيا ، والإيمان عندهم هو التعمة ، والواقع الذي يريدونه هو الاستقامة على منهج الله.

٥٨ - ﴿قُلْ فَضَلِ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

قل لهؤلاء الفرحين بزخارف الدنيا المعتدين بها الجامعين لها ، إذا فرحتهم فافرحوا بالقرآن الكريم والإسلام العظيم وبالرسول المصطفى الأسوة الحسنة فإنكم تحصلون بها نعيماً مقيماً وهداية عظيمة في الدنيا بالاستقامة وفي الآخرة منازل الكرامة والتجاة من النار ومن كل بليّة ، فبذلك فليفرحوا (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) من المال والعقار والذهب والفضة.. الخ وكل خير الدنيا متاع قليل مؤقت محاسب عليه ولكن فضل الله بالإيمان والعلم ورحمته بالقرآن والعمل هو خير مما يجمعون ، في غرر الحكم: (مَا بَكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ!).

٥٩ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلِ اللَّهُ اذْنُ لَكُمْ أَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ تَقْتَرُونَ﴾

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أي أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال الطيب جميعه (فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا) فحرمتم بعضه وحللتم بعضه بأهوائكم ومن دون إذن من الله لكم، كالبحيرة والسائبة في الجاهلية من الحيوانات أي أنكم شرعتم لأنفسكم الحلال والحرام وتجاوزتم بذلك حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، لأنكم شرعتم وحكمتم وكأنتم أرباب (قُلْ أَللَّهُ اذْنُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَقْتَرُونَ) قل لهم أخبروني : أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحرير ، فأنتم فيه ممثلون لأمره أم هو مجرد افتراء وبهتان على الله تعالى ،

والاستفهام للإنكار، وهناك في عصرنا الحاضر من يحلل ما حرمه الله ، فهم أسوأ حالاً من أهل الجاهلية كقوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ الشورى/ ٢١ ، وعن النبي (ص): (أَجْرُؤُكُمْ عَلَى الْفِتْوَى أَجْرُؤُكُمْ عَلَى النَّارِ) البحار ١٢٣/٢ ، وعنه (ص) : (اسْتَفْتَيْتَ نَفْسَكَ وَإِنَّ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كنز العمال خير ٢٩٣٣٩.

٦٠ - ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَمُتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾
 قل هؤلاء المشركين أي شيء ظنهم في ذلك اليوم الذي تجزي فيه كل نفس ما عملت ؟ أيعظون ويتصورون الذين يخللون ويحرمون من تلقائهم أنّ الله يتركهم بلا عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله ، كلا بل سيصليهم سعيراً وهو وعيد شديد للمفترين (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) لذو إنعام عظيم على العباد جميعهم حيث رحمهم بكل شيء وأمهلهم كثيراً ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/ ٥٣ ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر/ ٣٦ ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) لا يشكرون هذه النعم ولا يحمدون المنعم ولا يعملون بتوجيه العقل بل يجحدون ويسيوون وما يسيوون إلا لأنفسهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المذثر/ ٣٨.

٦١ - ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

إنه مبنى دقيق وتعبير عن حقيقة عميقة المعنى : الخطاب للرسول (ص) مَا تَكُونُ يَا مُحَمَّدُ مشغولاً (في شَأْنٍ) من شؤون الحياة الخاصة أو العامة ، في أمر من الأمور المهمة ولا عمل من الأعمال مما تعالج بها شؤون الأمة بدعوتها إلى الله تعالى (وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ) وما تقرأ من أجل ذلك الشأن شيئاً من القرآن (وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ) ولا تعملون من عمل من خير أو شر والخطاب هنا للأمة الإنسانية على شمولها في شؤونها العامة (إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) تُفِيضُونَ فِيهِ: تخوضون وتمضون فيه مشغولين به مسرعين فيه ، إلا كنا شاهدين رقباء نحصي عليكم أعمالكم بالصورة والصوت والنية وفي كل صغيرة وكبيرة فتكون بعلم الله وللدلالة على قربه من الناس ورعايته لهم ورقابته إليهم ، حين تندفعون وتخوضون فيها باهتمام (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ) وما يغيب ولا يبعد ولا يخفى على الله (مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) يسبح الخيال في تصوّره لمثقال ذرة من وزن هباءة من الغبار الدقيق في الوجود السفلي والعلوي وفي سائر الكائنات (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) ولا شيء أصغر من الذرة مما تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ولا أكبر من ذلك إلا وهو معلوم ومحصي عنده سبحانه (في كِتَابٍ مُبِينٍ) عظيم الشأن وهو اللوح المحفوظ وهو كتاب تكتب فيه مقادير الموجودات كلها ، كمالاً للنظام العام ، ويكون الجزء من جنس العمل وفي معنى ذلك قوله ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ النمل/ ٧٥ ، عن النبي (ص) : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ) كنز العمال خير ٥٢٥٠. فائدة: وفي التعبير (فِي شَأْنٍ) وهو الأمر المهم دلالة على أن جميع أمور النبي (ص) كانت عظيمة حتى ما كان منها مجرى العادات لأنه كان فيها قدوة صالحة ، (تُفِيضُونَ فِيهِ) وفي التعبير بالإفاضة وهو الاندفاع بقوة وبكثرة وبرغبة دليل على أن ما يفيض الإنسان من أعماله وأقواله مهتماً به مندفعاً فيه ، وهذا جدير ألا يُغفل عن مراقبة ربه واطلاعه عليه وقربه منه ، (وَمَا يَعْزُبُ) والتعبير بـ (يَعْزُبُ) الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عن الإنسان ويخفى أمره عليه لكنه لا يغيب عن علم الله كقوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج/ ٧٠ ، الآية تعني شمول العلم وشمول الرعاية وشمول الرقابة ، والقرآن يؤكد عدم الغفلة ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف/ ٢٠٥ ، فَلَا تَعْفَلْ فَلَيْسَ بِمَعْفُودٍ عَنْكَ ، في غرر الحكم: (احذروا الغفلة فإنها من فساد الحسن) في غرر الحكم: (بِدَوَامِ الذِّكْرِ تَنْجَابُ (تتكشف) الغفلة).

٦٢ - ٦٣ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(ألا) للتنبيه أي انتبهوا أيها الناس وإعلموا أنّ أحبب الله والمقربين إليه ، من اتخذ الله ولياً وناصرًا وهادياً ومعيناً وعمل صالحاً لا خوف عليه في الآخرة من عذاب الله ولا يحزن على ما فاته في الدنيا. أَوْلِيَاءَ اللَّهِ : الذين يتولون الله بالطاعة ويتولاهم بالكرامة الذين يجعلون ولاءهم ووفاءهم وانتماءهم واتباعهم وإخلاصهم لله وحده فهم أولياء الله ، والله سبحانه وليهم وكفيلهم ومعينهم ، ولا تتحقق الولاية الخالصة لله إلا الإحساس بمراقبته والثقة به واتفاء محارمه والتوكل عليه والرجاء فيه والخوف منه وقطع كل رغبة فيما سواه (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ من شيء ينغص عليهم حاضرهم ! وذلك هو الذي يحقق (التقوى) وقد بين تعالى هؤلاء الأولياء .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (ومن إتقى الله وقاه) والتقوى : من الوقاية كما اتقى النار خوفاً من الإحراق كذلك أتقى الله هيبته لمقامه فأتورع عن محارمه والتمسك بنهجه في جميع الأحوال ، فهؤلاء الأولياء هم الذين تعلقوا بالله وداموا على التقوى وتورعوا عن محارمه ، فجدبهم الله إليه وأنزلهم منازل رحمته ورضوانه كقوله ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفُرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ الأنبياء/ ١٠٣ ، وقد دخل فعل وعمل التقوى في حيز الماضي (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فكانت التقوى متأصلة فيهم وعاشوا التقوى منذ القدم كما حدث منهم الإيمان الصحيح من قبل ، فصار الإيمان أولاً ثم التقوى ثم الولاية يجيء بعضها إثر بعض على هذا الترتيب المتدرج فلا ولاية بغير التقوى ، ولا تقوى إلا بعد الإيمان ولا إيمان متكامل من دون علم ، ولا علم مؤثر من دون عمل صالح ، خيرهم مأمول وشرهم مأمون وبذلك

استحقوا صفة (أَوْلِيَاءِ اللَّهِ) ، فائدة : سئل الإمام علي (ع) عن الآية فقال : (قَوْمٌ أَحْلَصُوا لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ ، وَنَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حَيْثُ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا فَعَرَفُوا آجَالَهَا حَيْثُ عَرَّتْ الْخَلْقَ سَوَاهِمُ بِعَاجِلِهَا ، فَتَرَكُوا مَا عَلِمُوا أَنَّ سَيِّئَتُكُفَّهُمْ ، وَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيِّئَتُهُمْ) نَجح البلاغة حكم ٤٣٢ وأولياء الله زالت الحجب عن قلوبهم فهم يرون الله ببصائر قلوبهم بحيث لا يجد الشك طريقاً إلى تلك القلوب المحبّة لله ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال/٣٤ ، عن النبي (ص) : (ثَلَاثُ خِصَالٍ مِنْ صِفَةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ : التَّقِيُّ بِاللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَالْعَنَى بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَالِافْتِقَارُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ) البحار ١٠٣/٢٠ ، وعن الإمام علي (ع) : (إِنَّ اللَّهَ أَحْفَى وَلِيِّهِ فِي عِبَادِهِ فَلَا تَسْتَصْعِرَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَلِيِّهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ) البحار ٦٩/٢٧٥.

٦٤ - ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

تلك المنن العظيمة التي إمتن الله بها على أوليائه - جعلنا الله منهم - (هُمُ الْبُشْرَى) فجعل البشرى المحاطة برضا الله تنزل عليهم بما يكشف لهم منازلهم الرفيعة عند الله وما سيلقون في نعيم جناته من كرامة وتكريم مستمرين ، والبشرى التي يبشر بها أولياء الله في الدنيا كثيرة منها معنوية ومنها مادية وظاهرة وباطنة وحسية وغير حسية وعاجلة وآجلة ، منها ذكرهم الحسن بين الناس وحسن سيرتهم بينهم ، ومنها رضى الله عنهم ورضاهم عنه ومنها اطمئنان قلوبهم وسكينة نفوسهم في السراء والضراء على السواء ، وهذه علامة على حسن عاقبتهم ولا تغلق كل أبواب الأمل في وجوههم لأنهم بتوكّلهم على الله فيكون الله حسبهم ومعينهم وكفيلهم ، ومنها حين يشرفون على الموت ، يجدون الموت راحة لهم فهو تحفة وريحانة وغنيمة وكفارة ، في غرر الحكم: (فِي الْمَوْتِ رَاحَةٌ السُّعْدَاءِ) ، وفيه أيضاً: (أَفْضَلُ تُحَفُّهُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ) ، وأما بشرياتهم في الآخرة يوم تتلقاهم الملائكة عند خروجهم من القبور مهتئين بالنجاة ، فلهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧ ، ﴿هُمُ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الزمر/٢٤ ، عن النبي (ص): (ذَهَبَتِ النَّبُوءَةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ) وهي الرؤيا الصالحة، البحار ٦١/١٧٧.

وعنه (ص): (هُمُ الْبُشْرَى) (هِيَ فِي الدُّنْيَا الرُّؤْيَةُ الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ لِنَفْسِهِ أَوْ يَرَى لَهُ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ) الدر المنثور ٣/٣١١ (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) لا اخلاف لوعده ولا تبديل لعده كقوله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ الأحزاب/٣٧ ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هود/١٠٧ ، (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراه والظفر بالمقصود وفوق المأمول. فائدة : (هُمُ الْبُشْرَى) في الحياة الدنيا ، وبشرى عند الموت ، وبشرى في الآخرة ، وبشرى في القيامة وبشرى مطلقة غير

محدّدة ، وبشرى للمفاجأة المخبّاة، وبشرى النفس التي تشعر بالغبطة والسعادة إذا كانت على ثقة علمية من دينها ومعتقداتها وإستقامتها فكرها وسلوكها.

٦٥ - ﴿وَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لا يؤلمك ولا يزعجك يا مُجِدِّ تكذيبهم وقولهم لست نبياً مرسلأً ونعتوه بما هم به أولى فاستشعر النبي الألم والحزن من نفوسهم المريضة ، فإن الله وحده هو المعز المذل (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (إِنَّ الْعِزَّةَ) إن القوة الكاملة والغلبة الشاملة لله وحده سبحانه لا المال ولا الجمال ولا لحسن الحال ولا للسلطة، بل لله جميعاً والرسول والمؤمنون يستمدونها منه سبحانه، أي فالله هو ناصرك ومانعك ومعينك ، والله المنفرد بالعزة ويمنحها أوليائه ويمنعها أعداءه، وإذا كان الله تعالى كلُّ العِزَّة فلا تعباً بما اعتزّوا به من العِزَّة الوهمية المؤقتة الظاهرية التي باطنها الذلّة، عن الإمام علي (ع): (كُلُّ عَزِيزٍ دَاخِلٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ فَذَلِيلٌ) تحف العقول ص ١٥٣، في غرر الحكم: (مَنْ إِعْتَزَّ بِعَيْزِ اللَّهِ أَهْلَكَهُ الْعِزُّ)، وعن الإمام الصادق (ع): (الْعَزِيزُ بِعَيْزِ اللَّهِ ذَلِيلٌ) البحار ٧٨ ص ١٠، (هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السميع لأقوالهم العليم بأعمالهم. فائدة : (وَلَا يَخْزُنُكَ) ، عن الإمام الصادق (ع): (الْأَحْزَانُ أَسْقَامُ الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ الْأَمْرَاضَ أَسْقَامُ الْأَبْدَانِ) البحار ٢٨٠/٩٥، عن الإمام علي (ع): (مَنْ قَصَرَ فِي الْعَمَلِ أُبْتُلِيَ بِالْحُزْنِ) البحار ١٩١/٨١، في غرر الحكم: (لَا تُشْعِرُ قَلْبَكَ الْهَمُّ عَلَى مَا فَاتَتْ، فَيُشْغَلُكَ عَنِ الْاِسْتِعْدَادِ لِمَا هُوَ آتٍ).

٦٦ - ﴿إِلَّا إِلَهٌ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْبِغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ كلُّ شيء في قبضة الله عز وجل والجميع له عبيداً وملكاً وخلقاً ، ومن كان له هذا الملك فهو القادر على نصرته دينه ونبيه والانتقام من أعدائه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ آل عمران/ ٤ ، (وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ) وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله (شُرَكَاءَ) آلهة على الحقيقة وليس لله شريك بل يظنون أنها تشفع وتنفع وهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً وليس عندهم حجة ولا دليل ولا برهان على كلامهم ، في غرر الحكم : (ظَنُّ الرَّجُلِ عَلَى قَدَرِ عَقْلِهِ) ، (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) وما يتبعون في عقائدهم المنحرفة إلا الظنّ والشكّ كقوله ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يونس/ ٣٦ ، ويعيشون الأوهام وليسوا على يقين ممّا هم فيه ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ النجم/ ٢٣، (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) الخرص : هو كلّ قول أطلق عن ظن أو تخمين أي يكذبون ويخدسون ويخمنون ويظنون الأوهام على أنها حقائق ، في غرر الحكم: (مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ سَاءَ وَهْمُهُ)

٦٧ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾

يربط المنهج القرآني بين المشاهد الكونية والحقائق الإلهية والسنن الإنسانية لوجود علاقة بينهم. المعنى: من دلائل قدرة الله المحيطة بكل شيء الدالة على أنه واحد أحد فرد صمد ، أن جعل لكم

أيها الناس كافة نعمة عامة على شكل ظاهرتين كونيتين شديديتي الإتصال بحياتهم ، الليل للسكينة والراحة والاسترخاء لأبدانكم تستريحون فيه من نفضات التعب والنصب في طلب المعاش ، سواء أكانت سكينة روحية أم جسمية (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) لعلامات ودلائل على قدرة الله الواحد لقوم يسمعون ويعتبرون ، سماع تدبّر وتفكر أن الله الملك والتدبير والتقدير، في غرر الحكم: (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فِعْمَلٍ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَحُذْ مِنْهُمَا) وعن النبي (ص) (اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وقوتك قبل ضعفك، وحياتك قبل موتك) كنز العمال خبر ٤٣٤٩٠ فائدة: هذا التداخل بين الليل والنهار يكشف عن تداخل السنن الكونية مع السنن الإنسانية لوجود علاقة رئيسة بينهما ، فكما يتداخل النور مع الضلام كذلك يتداخل التعب والراحة ، والشدة والرخاء والأمل والعمل والدنيا والآخرة والروح والجسد والصحة والمرض والعزة والذلة والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦.

٦٨ - ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

نسب اليهود والنصارى لله ولداً فقالوا عزيز ابن الله والمسيح ابن الله وقال كفار مكة الملائكة بنات الله ، يا له من جهل مركب وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى عز وجل ما يتنزه عنه رهبان النصارى ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون! (سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) تنزه الله وتقدس عما نسبوا إليه عما لا يليق بربوبيته فإنه المستغني عن جميع الخلق واستغناء الخلق جميعهم به (يَا مَنْ يُسْتَعْتَبُ بِهِ وَلَا يُسْتَعْتَبُ عَنْهُ) فهو الغني في ذاته وصفاته عن كل شيء ، وكل شيء يفتقر إليه ، عن الإمام علي (ع) : (لَمْ يَلِدْ فَيَكُونُ مَوْلُودًا وَلَمْ يُؤَلَدْ فَيَصِيرُ مَحْدُودًا) شرح النهج ٦٩/١٣ ، (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) الجميع خلقهم الله وملكهم ودبر أمرهم وقدر حياتهم ونظم شؤونهم (إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) سلطان : دليل قوي وبرهان قاطع ، أي ليس عندكم من الدلائل ما يؤيد صحة اعتقاداتكم المنحرفة، فلا دليل علمي بل الدليل على خلافة ، إذن فهم الفقراء والله هو الغني الحميد كقوله ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم/٩٣ ، (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) تويخ لهم ، فالقول من غير علم يستقبحه العقل في كل أمر ، ولا سيما فيما يرجع إلى رب العزة. فائدة : في الآية دلالة إلى أن كل قول أو إعتقاد لا دليل علمي عليه فهو جهالة وضلالة ، وأن العقائد الدينية لا بد فيها دليل قاطع وأن التقليد الأعمى بلا تدبر ولا

تفكر هو استدراج إلى الخسران كقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القلم/٤٤، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة ذات الحجة والحاجة وإن جهلها الناس الضالون فصاروا ضحية جهلهم.

٦٩ - ﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُلْحِقُونَ﴾

قل يا محمد إن الذين يكذبون على الله بأنه اتخذ ولداً أو شريكاً أو شقيقاً لا يفوزون ولا ينجحون ولا يصلحون بل أمامهم سوء العاقبة في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) ، في غرر الحكم: (الْكُذِبُ فَسَادٌ كُلُّ شَيْءٍ) الفلاح الحقيقي هو السير بشكل متوازٍ مع سنن الله الصحيحة لا بشكل متعارض الذي هو مجرد الإنتاج الصناعي المادي مع تحطيم القيم الروحية وخلق الأزمات النفسية.

٧٠ - ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

متاع قليل في الدنيا وكل متاع الدنيا قليل مهما كثر لأنه زائل ومحدود النفع ومحاط بالهم والغم والمغصات ، فهذا المتاع يتمتعون به مدة حياتهم التي مهما طالت فهي قصيرة مقابل التعميم في حياة الآخرة (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب حتى يكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب (ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) ثم في الآخرة نذيقهم العذاب المتناسب مع ذنوبهم فتكون العقوبة على قدر الجناية. فائدة : ١- تشير الآية : إن المتاع الدنيوية المادية والمعنوية وإن كانت كثيرة فهي متاع قليل بالنسبة إلى ما في الجنة من عجائب التعميم الدائم ، عن الإمام علي (ع) : (فَلَا يَعْزُنْكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا) البحار ١١٨/٧٣ . ٢- (نُذِيقُهُمُ) الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْحَسِّيَّ وكأهم يستدوقونه بألسنتهم كما يستدوقون الطعام والشراب! وهذا التعبير أبلغ من المشاهدة وأبلغ من اللمس، لأن الاستدواق عذاب حسّي يشمل جميع المشاعر بل يشمل كيان الإنسان من داخله وخارجه.

٧١ - ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ بَنَاتُ نُوْحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ وَلَا يُكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾

وتحدث يا محمد مع المشركين خير أخيك نوح في تجربته الرسالية مع قومه المكذبين على كثرتهم وقوتهم (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ) حين قال لقومه الجاحدين يا قوم إن كان كبير وثقل عظم وشق عليكم (مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ) طول إقامتي بينكم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ العنكبوت/٤٤ ، وتخويفي إياكم بعقوبات الله ثم عزمتم على قتلي وطردني فأمرني إلى الله (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) على الله وحده اعتمدت وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/٣ ، عن النبي (ص): (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) كنز العمال خبر ٥٦٨٦ ، (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) فأعزموا أمركم على رأي واحد وادعوا أعوانكم

والذين تعبدون ودبروا ما تريدون لمكيدتي (ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) الغُمَّة : الكربة وضيق الأمر وهي الستر واللبس وعدم الاهتداء للأمر. أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً ومغطى ، بل كونوا على بصيرة واضحة وما عزمتم عليه مكشوف وإن كنتم أكثر عدداً وأقوى عدة (ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون) ثم انفذوا ما تريدونه في أمري (وَلَا تُنظِرُونَ) لا تنتظروا ولا تؤخروني ساعة واحدة وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة بوعيدهم ، وثقة بالله بنصرته والله لا يخلف الميعاد بالتصر. فائدة: ماذا كان مع نوح من قوة وعدة؟ كان معه الإيمان بالله القوة التي تتصاغر أمامها القوى وتتضاءل أمامها الكثرة.

٧٢ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري ، وجواب الشرط محذوف وتقديره فلن تضروني بشيء ، فليس لأني طلبت منكم أجراً ، مادياً أو معنوياً على تبليغ رسالتي حتى أتضرب من إعراضكم ، حتى تمتنعوا بل إنكم ضالون ضائعون لا تليق بكم الهداية (وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تُضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) (إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) وما أطلب جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا (وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) من المستسلمين لأمر الله ممن أسلم وجهه لله المستقيمين على منهجه المنقادين لأوامره سبحانه مهما كانت الظروف صعبة والتحديات قاسية ، فائدة : ١- كل أنبياء الله (ع) جاءوا بالإسلام العام وهو التسليم والاستسلام لأمر الله ولدينه ولرسالته كقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ آل عمران/ ٦٧ ، وإسلام محمد (ص) هو الإسلام الخاص المفصل الخاتم الجامع لكل الأديان السماوية الأساسية. ٢- المبلغون لرسالة الله لا يأخذون الأجر المادي أو المعنوي من الناس لقاء دعوتهم الرسالية وإنما أجرهم ومعاشهم على بيت المال لا بالاحتياج إلى الناس كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس/٢١.

٣- نتائج التبليغ ليست بيد المبلغ وإنما واجب المبلغ صحة تبليغه ووضوحه، وعلى المرء أن يسعى بمقدار جهده وليس عليه أن يكون موفقاً كقوله ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ يمكن أن يأخذ المبلغ الرسالي المتخصص الكفو هدية غير معينة وغير مشروطة للتكريم والتدعيم ، وليس أجراً على التبليغ والتعليم حتى لا يكون التعليم تجارة شخصية مبتذلة ، أو تجارة بالدين فسيئاً كل بعلمه ، وحتى لا يصبح الأجر المادي أهم من التعليم العام ، لأن (عَلَى قَدْرِ الْعِلْمِ تَكُونُ الْعِبَادَةُ)، عن النبي (ص) : (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بَعَمَلِ الْآخِرَةِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) البحار ٧٣ص ٦١.

٧٣ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّتْهَا وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَافًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

فأصروا على التكذيب لرسالة نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في (الْفُلْكِ) السفينة المنقذة (وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ) خَلَائِفَ : خلفاء لمن هلكوا ، جعلنا مع نوح من المؤمنين سكان الأرض وخلفاء ممن غرق وبدأت البشرية بالتكاثر من جديد بعد طوفان نوح (وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وأهيننا عصر المكذبين بالطوفان وتطهرت الأرض من رجسهم (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كان عاقبة المصيرين على الضلال في كل زمان ومكان ؟ (والعامل بغير علم هدى كالتسائر على غير الطريق الصحيح لا تزيد سرعته السير إلا بعداً عن الصواب) نصح البلاغة خطبة ١٥٤ ، و أَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ .

٧٤ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

ثم أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعبياً (فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) بالدلالات والمعجزات الباهرات (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) ما كانوا ليصدقوا بما جاءهم به الرسل حتى بعد مجيء المعجزات ووضوح كثير من الحقائق ، ولم يتعظوا بالماضين ليكونوا عبرة للباقيين، ولهذا السبب نغلق قلوب المعتدين على حق أنفسهم وحقوق غيرهم (كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) كَذَلِكَ (نَطْعُ) أي نختم على قلوب المتجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد في كل قوم ، والقلب الذي يختم يكون مغلقاً محتوماً عليه أي يصبح قاسياً لئيماً فيفضّل الضلالة على الهداية كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/ ١٤ ، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/ ٦٢ ، وختم القلب عماء ، عن النبي (ص) (شَرَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ٧٧/١١٤ . فائدة : بحسب سنة الله في كلّ جيل في أنّ القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على الإغلاق ويجمد ويتحجر فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال لنور الحق والهداية ، لا أنّ الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء. (الطبع على القلوب) بمعنى عدم قبولها شيئاً جديداً غير ما رسخ فيها ، وعبر السياق القرآني عنهم بأنهم (الْمُعْتَدِينَ) المتجاوزين لحدود الحق إتباعاً لهوى أنفسهم وشهواتها.

٧٥ - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملائته (وَمَلَئِهِ) الزعماء الذين يملأون العين مهابة وأعضاء حكومته (بِآيَاتِنَا) بالبراهين والمعجزات الباهرات (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) تكبروا على الإيمان بما وكانوا مفسدين لتعودهم ارتكاب الجرائم الفضيعة واعتمادهم الإرهاب ضد الإنسانية ، وهكذا الذي لا تليق به الهداية تليق به الغواية كقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/ ١٤ .

٧٦ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾

فلما توضّح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من عند الله من أنواع المعجزات الباهرات قالوا لاستكبارهم وعنادهم هذا سحر ظاهر أرادوا به موسى أن يسحرنا.

٧٧-٧٨ ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ الْحَقُّ لَنَا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾، قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

وَكُنُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾

الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق الواضح إنه سحر ؟ والسحر يزيّف الواقع ويحرف الحقيقة بطريقة فنية سريعة ، ثم أنكروا عليهم باستفهام آخر (أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) أسحر هذا الذي جئتكم به مع وضوحه أنه معجزة خارقة والحال أنه لا يفوز الساحرون المشعوذون الدجالون وإنما هو تمويه على البسطاء (قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) أَجِئْنَا (لِنُلْفِتَنَّا) لتصرفنا وتغيّر عاداتنا وتقاليدنا وعقيدتنا عن عادات الآباء وتقاليد الأجداد وعقائدهم وتلك هي آفة الجاهلين وداء السفهاء (التمسك بالقديم) والاتباع الأعمى مع العقل الجمعي ، وألفة عادات المجتمع كيفما كانت ولو فيها الشر وأغلقوا عقولهم عن الأحسن وعطلوا تفكيرهم عن التطلّع إلى آفاق جديدة ومفيدة (وَتَكُونُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ) تكون لكما (الْكِبْرِيَاءَ) العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ، وسمّي الكبرياء بالملك لانصاف الملوك بالكبرياء والاستعلاء (وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به من النبوة تحت ستار الدين لتجعلوه سلماً للسلطة تدار بقيادتكما! بل مقاومين ومحاربين دفاعاً عن منافعنا وامتيازاتنا، وهكذا الطغاة يقدمون المصالح الشخصية على كل المصالح الأخرى.

٧٩ - ٨٠ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾، فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾

أتوني بكل ساحر ماهر عليم بفنون السحر ، وهو لا يعلم ما يجنبى الدهر له ، قيل (يُدَبِّرُ الْمُدَبِّرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ) فصار تدميرهم في تدميرهم ! (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) فأنوه بالسحرة فلما جاؤوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون عن حبالكم وعصيكم.

٨١ - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

ما جئتم به الآن هو السحر لا المعجزات التي سمّاها فرعون سحراً والسحر : هو إظهار الشيء بغير صورته بحركة فنية سريعة تخدع العين وتلعب بالعقول (إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ) إِنَّ اللَّهَ سَيَمْحَقُهُ وَيَنْهِي مَفْعُولُهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ حَقّاً وَيُظْهِرُ بَطْلَانَهُ لِلنَّاسِ (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) إِنَّهَا سِنَّةُ اللَّهِ

الثابتة أنّ لا يصلح الله عمل من سعى بالفساد لنصرة الفساد لا يجعله صالحاً للبقاء ولا دائم التأثير ، إِنَّ لِلْحَقِّ دَوْلَةً، وَإِنْ كَانَتْ لِلْبَاطِلِ جَوْلَةٌ وَمُهْلَةٌ.

٨٢ - ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

يظهر ويثبت الله الحق (بِكَلِمَاتِهِ) ويقويه بحججه وبراهينه وكلماته التكوينية (كُنْ فَيَكُونُ) أو كلماته هي آياته وبيناته وهذه سنة إلهية كونية نافذة المفعول (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) ولو كره ذلك الفجرة الغدرة وكراهيتهم لا تعطّل قدرة الله ومشيتته ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/١٨، والله يعمل بما تقتضيه الحكمة لا ما يرتضيه الناس ، وفي ذلك إشارة إلى أن الحق مستند بذاته إلى قوة غالبية لا تُهزم وهي قوة الله سبحانه وأن الحق مؤيد ومسدد بتلك القوة ومستند إليها (وَكَلِمَاتِهِ) هي القوى العاملة في هذا الوجود المتصرفه فيه ، في غرر الحكم: (إِلْزَمَ الْحَقُّ يُنْزِلُكَ مَنَازِلَ أَهْلِ الْحَقِّ يَوْمَ لَا يَفْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ).

٨٣ - ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ

الْمُسْرِفِينَ﴾

فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفر قليل من أولاد وشبان بني إسرائيل لأنّ الشباب من كلّ قوم يتحمّسون لكلّ جديد ويبحثون عن الأحسن وحياة أفضل (عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) مَلَيْهِمْ : رؤسائهم. المعنى : إيمان على تخوف وحذر من بطش فرعون وأعدائه أن (يَفْتِنَهُمْ) يعذبهم ويصرفهم عن دينهم هو دين موسى (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) طاغية مستكبر طاغٍ باغٍ معتدٍ ظالم مفسد في البلاد والعباد (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) المتجاوزين الحد في التعذيب والظلم بادعاء الربوبية وطغيانه وإعتدائه على حقوق الإنسان لا يقف عند حد. فائدة : ١- (عَلَىٰ خَوْفٍ) الناس خوفهم من الذل ، أوقعهم في الذل وساعة ذل لا تعادل بعز العمر، عن الإمام الهادي (ع) : (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨. ٢- صار الإيمان بموسى قبل العصا وبعدها ، فقبل العصا آمن شباب وشابات بني إسرائيل على خوف ، وبعد العصا آمن السحرة وخلق كثير وهم خائفون فكنتموا إيمانهم ، ولكنّ السحرة تحدّوا فرعون وفضلوا الشهادة في سبيل الله على الحياة بذلّة مع فرعون.

٨٤ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِيَّاكُمْ آتَمَّتْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

(وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ) لا قوّة لي ولا بكم تصدّ طغيان فرعون عنكم ، لما رأى تخوف المؤمنين من بطش فرعون قال يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وآمتم بآياته (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) على الله تعالى وحده إعتمدوا وثقوا و(مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَأَهُ) فإنه يكفيكم كل ضرر ويخلصكم كل شر ، وثقوا بوعد

أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ، وَالتَّوَكَّلْ : اتَّخَذَ الْأَسْبَابَ الْإِلَازِمَةَ وَأَنْ تَعْمَلَ بِقَدْرِ الْوَسْعِ وَتَطْلُبَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَسْخَرَ لَكَ مَا لَا تَسْتَطِيعُ فَوْقَ قَدْرَتِكَ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/ ٣ ، (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَسْلِمِينَ لِحُكْمِ اللَّهِ مُسْلِمِينَ وَجُوهَكُمْ اللَّهُ مُنْقَادِينَ لِشَرْعِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ جَاءُوا بِالْإِسْلَامِ الْعَامِّ وَمَعْنَاهُ الْإِسْتِسْلَامُ لِمَنْهَجِ اللَّهِ وَجَاءَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ (ص) بِالْإِسْلَامِ الْخَاصِّ الْمَفْصَّلِ الْخَاتَمِ الْجَامِعِ لِأَهَمِّ رِسَالَاتِ الْأَنْبِيَاءِ (ع). فَائِدَةٌ : ذَكَرَ لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَوْصَافٍ: (الْإِيمَانَ) وَهُوَ التَّصَدِيقُ فِي الْقَلْبِ (وَالْإِسْلَامَ) وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِأَمْرِ اللَّهِ (وَالتَّوَكَّلَ) وَهُوَ الْإِخْلَاصُ وَتَفْوِيضُ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ ، فَمَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ.

٨٥ - ٨٦ ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

أَجَابُوا قَائِلِينَ عَلَى اللَّهِ رَبَّنَا اعْتَمَدْنَا وَبِهِ وَثِقْنَا فَهُوَ يَدْبِرُ أَمْرَنَا كَمَا يَدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ: (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَحُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدْرِ ثِقَتِهِ بِهِ) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فِتْنَةٌ : امْتِحَانًا وَاجْتِبَارًا ، دُعَاءٌ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ أَلَّا يَعْضِبَهُمْ لِلْبَلَاءِ وَالضَّرِّ عَلَى يَدِ الطَّغَاةِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا يَفْتِنُهُمْ وَيَمْتَحِنُهُمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَيَخْتَبِرُ الظَّالِمِينَ بِهِمْ فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَتْنَا عَلَى الْبَاطِلِ فَيَفْتِنُونَا وَنَفْتِنُ بِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ الفرقان/ ٢٠ ، بِمَعْنَى : رَبَّنَا إِنِّزْ عَلَيْنَا لِبَاسَ الضَّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالْهَوَانِ ، فَضَعْفَ الضَّعْفَاءِ إِغْرَاءً لِلْأَقْوِيَاءِ الظَّالِمِينَ ، فَالضَّعِيفُ فِتْنَةٌ وَإِجْتِبَارُ الْقَوِيِّ الظَّالِمِ دَاعِيْنُ اللَّهِ أَنْ يَخْلُصَهُمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ وَالذَّلَّةِ بَزْرَعِ الْقُوَّةِ فِيهِمْ وَالْقُدْرَةَ وَالْعِزَّةَ ، عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : (الْعِزُّ : أَنْ تَدُلَّ لِلْحَقِّ إِذَا لَزِمَكَ) البحار ٧٨/٢٢٨ ، (وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) وَخَلَصْنَا وَأَنْقَذْنَا بِفَضْلِكَ وَإِنْعَامِكَ عَلَيْنَا مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَأَعْوَانِهِ الْمُجْرِمِينَ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/ ٢٥٤ ، عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ (ع) : (الظُّلْمُ فِي الدُّنْيَا هُوَ ظُلْمَاتٌ فِي الْآخِرَةِ) البحار ٧٥/٣١٢ وَمَنْ ظَلَمَ فَقَدْ تَنَعَّصَتْ أَيَّامُهُ، وَكُرِهَ عَيْشُهُ.

٨٧ - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَجْعَلُوا لِي فِيهَا مَسْجِدًا وَذِكْرًا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَإِقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

تَبَوَّأَ : اتَّخَذَا مَسْكَنًا ، وَقَلْنَا لَهُمَا : لَا تَخْرُجَا مِنْ مِصْرَ وَابْقِيَا بِهَا وَاتَّخِذَا لِقَوْمِكُمَا بَيْتًا فِي مِصْرَ تَكُونُ مَسَاكِنَ خَاصَّةً ثَابِتَةً وَمَلَاجِئَ يَعْتَصِمُونَ بِهَا وَيَأْوُونَ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلسَّكَنِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمَشَاوِرَةِ (وَاجْعَلُوا لِي فِيهَا مَسْجِدًا) مَسْجِدًا : مَقَابِلَةٌ وَمُتَقَابِرَةٌ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَيُقَابَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، أَيِ اسْكُنُوا جَمِيعًا فِي حَيٍّ وَوَاحِدٍ مُتَعَاوِنِينَ وَفِي الْإِتِّحَادِ قُوَّةً ، حَتَّى تَقِيمَا مَجْتَمَعًا صَالِحًا وَمُسْتَقْلًا وَمُتَرَابِطًا وَمَعزُولًا عَنِ مَجْتَمَعِ الْفِرَاعِنَةِ الْفَاسِدِ ، حَتَّى يَتَيَسَّرَ لَكُمْ الْاجْتِمَاعُ فِي الصَّلَاةِ وَيَحْصُلَ التَّشَاوُرُ فِيهَا فَإِنَّ فِي التَّشَاوُرِ لِقَاحَ الْعُقُولِ (وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ) كَانُوا خَائِفِينَ فَأَمَرُوا أَنْ يَصَلُّوا

في بيوتهم سرّاً في أوقات الصلاة المفروضة بشرطها وشروطها وأركانها على الوجه الأكمل تتحقق بذلك حكمتها في تزكية النفس وتهذيب الفكر والسلوك ، متجهين فيها إلى جهة واحدة، لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب، والصلاة رمز الصلة بالله والإخلاص له وهي تجمع القلوب ضمن أحساس متحد (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) بالنجاة والنصر والغلبة على الطاغية وقومه الأشرار الأعداء الألداء وهذا إعلام بالغيب قبل وقوعه. فائدة : تلك هي التعبئة الروحية مع التعبئة النظامية وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات وأنّ القدرة الحربية لا تساوي شيئاً في ساعة العسرة.

٨٨ - ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ رَبِيحَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وقال موسى ربنا إنك أعطيت الطاغية فرعون ورؤساء حكومته وأعوانهم زينة من متاع الدنيا وزخارفها وأثاثها وأنواعاً كثيرة من الأموال والثراء والغنى ، مع البطر يولد الطغيان ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ ص/٥٥ ، كقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ ، ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ لِيُضِلُّوا اللام لام التعليل أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة فكانت سبباً لإضلال الناس عن دينك ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك وقد ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إبراهيم/٢٨ ، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ اطْمِسْ : إحقق ، إتلف ، والطمس محو الأثر حتى لا يعرف (وهو عذاب مادّي خارجي) وسأل موسى ربّه أن ينزل الشدائد على قلوبهم والأزمات النفسية في صدورهم (وهذا عذاب معنوي داخلي) دعاء عليهم بالانتقام أي أهلك أموالهم يا الله وبدددها ﴿وَاشدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ زدها قسوة على قسوتها وإصراراً وإطبع عليها بطابع العمى عن النبي (ص): ﴿شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ﴾ البحار ١١٤/٧٧ حتى لا تنشرح للإيمان ، لأن الإيمان لا يليق بهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فَلَا يُؤْمِنُوا نتيجة الترف والسرف حتى يواجهوا الشدائد ويدوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا يقبل الإيمان عندئذٍ ، والأحمق إذا أمن العقاب أساء الأدب ، وإنما دعا عليهم موسى لطيغائهم وشدّة ظلمهم وعنادهم وقسوة قلوبهم وإصرارهم على الطغيان ، وما قَسَتِ الْقُلُوبُ إِلَّا لِكَثْرَةِ الدُّنُوبِ ، وكان موسى يدعو وهارون يقول آمين ، فنسبت الدعوة إليهما ﴿قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ يونس/٨٩.

فائدة: ١- حالة يصورها القرآن الكريم لمن يطغيهم الغنى ويغيرهم الجاه ويفسد نفوسهم الحكم والسلطة ويغلق عقولهم عن التفكير السليم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ العلق/٦-٧ ، لو كانت الدنيا تعادل عند الله جناح بعوضة ما مَتَعَ اللهُ الكافر شربة ماء. ٢- ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى

أَمْوَالِهِمْ) بقطع الموارد الاقتصادية للعدو وقطع طريق التمويل وقطع جريان النفط وإغلاق الطرق التجارية والعسكرية وإحراق مخازن العتاد للعدو ووسائل تنقلاته.. وغيرها.

٨٩ - ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَاستَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قال الله تعالى قد استجيت دعوتكما على فرعون وأعوانه ، فأخذ بالانتقام منهم بإنزال الآفات وتعدد المعاناة وزيادة النقمات والمصاعب والشدائد المتنوعة على فرعون وقومه وما يملكون كقوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف/ ١٣٠ ، ﴿فَاستَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن عليهما أن يستقيما على طريقهما المستقيم وأن يدعوا إلى منهج الله بالتي هي أحسن وأن يحتملا في سبيل الله جميع المعاناة وكل ما يعرض لهما من ضر وأذى ، ولا تسلكا طريق الجهلة من بني إسرائيل الذين لا يفهمون سنن الحياة فيستعجلا الأمر قبل ميقاته فإن لكل شيء مدة وأجلا كقوله ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام/ ٦٧ ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/ ٣٨ ، ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ سبأ/ ٣٠ .

٩٠ - ﴿وَجَاوَرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

وَجَاوَرْنَا : عبرنا وقطعنا ببني إسرائيل البحر وكان قعره يابساً ، بحر سوف بين مصر وسيناء (بحر السويس) سالمين غامنين ، ويقال عبروا نهر النيل وأطلق عليه اسم البحر لعظمته ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدُوًّا﴾ لحقهم فرعون الطاغية مع جنوده (بَغِيًّا وَعَدُوًّا) ظلماً وعدواناً وطلباً للاستعلاء والخيلاء (حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ) حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قال أقررت وصدقت (في لحظاته الأخيرة) بأنه لا إله إلا الله رب العالمين الذي آمنتم وأقرت به بنو إسرائيل (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) وأنا ممن أسلم وجهه لله واستسلم لأمر الله وأخلص في إيمانه ، وهذا هو الإسلام العام الذي جاءت به جميع الأنبياء (ع) وجاء النبي مُحَمَّد (ص) بالإسلام الخاص المفصل الخاتم الجامع لكل رسالات الأنبياء كقوله ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ النساء/ ١٨ . فائدة : إن إسلام فرعون عندما رأى علامات الموت ، إسلام لا قيمة له لأنه إسلام اضطرار لا اختيار وباب التوبة مغلق أمامه وأمام أمثاله ، وهذا شأن الخسيس اللئيم يتعاضم عند النعماء ويتصاغر عند البأساء .

٩١ - ٩٢ ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، فَالْيَوْمَ نَجْعَلُكَ بَدَلِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

الاستفهام إنكاري ، الآن تؤمن حين لا ينفع الإيمان حين يئست من الحياة وقد عصيت الله وإعتديت على خلق الله وطغيت وبغيت قبل نزول نعمة الله بك (وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) في البلاد والعباد تقتل الناس وتذبح الأطفال وتدعي الربوبية (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ) فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الميت الذي لا روح فيه (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً) لتكون آيةً عبرة لمن بعدك من الأجيال القادمة وليشاهدها من كان يعظم ويرفع من شأنك ، حتى لا يطغى الناس مثل طغيانك ، وَأَحْسِرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ ، وَالَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ ، وقد شكك بعض الناس آنذاك في موت فرعون وتصوّروا أنّ فرعون لا يهلك أبداً ، فألقاه الله على ساحل البحر ليتحققوا من هلاكه (وَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) وغير المغفول عنهم ، إنهم معرضون عن حججنا وأدلتنا وعن فهم سنن الحياة ونظام الأحياء ، ويعيدون عن التأمل في مخلوقات الله ولا يتفكرون في حقيقة الدنيا ولا يعتبرون بها ، بل ويحاربون دين الله ، وما أَكْثَرَ الْعِيْرَ وَأَقْلَّ الْعَبْتَارَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ النازعات/٢٦. فائدة: ١- تشير الآية إلى ذم الغفلة وعدم التفكر في سنن الله والأحداث الواقعة والحوادث المتكررة وعواقبها وبيان العبرة منها ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢، الاعتبار يفيد الرّشاد والجاهل قليل الاعتبار. ٢- وهكذا يلتقي ميلاد موسى بهلاك فرعون ، وهكذا سنّة الله أمام فرعون موسى ، وأمام كلّ نمرود إبراهيم وأمام كلّ معاوية علي وأمام كلّ يزيد حسين وأمام كلّ طاغية من يقول له لا للطغيان وهم من أباة الضيم كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤.

٩٣ - ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَوْأً صِدْقٍ وَرَمَرَفْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يُبْضِئُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

المبوّأ : مكان الإقامة الأمين وإضافته إلى الصّدق تزيده أماناً وثباتاً ككثبات الصّدق كقوله ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الإسراء/٨٠ ، وَلَقَدْ (بَوَّأْنَا) أنزلنا وأسكننا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم الطغاة (مُبَوَّأً صِدْقٍ) منزلاً صالحاً مرضياً وفي مكان معزز مرموق في بيت المقدس والشام (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) من اللذائذ الطيبة النافعة وسعة الرزق مع الحرية بعد حرمانهم من كثير من التعم مدة طويلة كانوا فيها أسرى في أيدي الأقباط ، فوحدنا شعبهم وجمعنا شملهم ولكنهم ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ إبراهيم/٢٨ ، (فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين ، والدين يجمع ولا يُفَرِّق ويوحد ولا يشتت ، بمعنى حرّفوا الدين وتاجروا باسم الدين وإتخذوا الدين سلماً للدنيا ، كانوا قبل أن يبعث النبي محمد

(ص) مجمعين على نبوته ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ البقرة/٨٩ ، بعضهم وآمن بعض فلم يكن اختلافهم بسبب غموض أو شبهة أو جهل وإنما عن علم فقد أوجد الاختلاف علماءهم وهم رأس الفتنة بسبب الحسد والحقد والعداوة وطلب الرئاسة والجاه وزخارف الدنيا ، ولكن إختلافهم لن يبقى من دون حساب ، عن النبي (ص) : (مَا اِخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِأَطْلَهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أمالي المفيد ص١٣٨ ، وكان اليهود قبل نزول التوراة متفقين جميعاً على دين الشيطان وفساده وضلاله ، وبعد التوراة اختلفوا في البديهييات فرقاً وشيعاً (والاختلاف في البديهييات من أشكال المشكلات!) في غرر الحكم : (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ!) (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، حيث لا كذب ولا نفاق إلا الحق في ذلك اليوم الحاسم ويظهر حكم الله العادل للجميع واضحاً لا جدال فيه. فائدة : ١- وهذا تحذير للمسلمين من الخلاف بعد العلم ، عن النبي (ص) : (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرٍ ضَبَّ لِابْتِعْتُمُوهُمْ!) ، وعنه (ص) : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرَكُبَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوً النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ حَتَّى لَا تُحْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُحْطِئُكُمْ سُنَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الميزان ٣/٣٧٩ عن الدر المنثور وفي ذلك دلالة : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَشْبَهَ الْأُمَمَ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ فِي الطَّبَائِعِ وَالصِّفَاتِ تَتَّبِعُونَ عَمَلَهُمْ ، لذلك تكررت قصة بني إسرائيل لتذكير المسلمين والحذر من عادات اليهود ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس/٩٢ ، يرى فرعون إنفلاق البحر هذا المنظر المهول العجيب ، ويرى أرض البحر يابسة بإعجاز ، ولا يسأل نفسه كيف حصلت هذه المعجزة الخارقة؟! وهكذا الطاغية يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء فهو أعمى القلب عن النبي (ص): (شَرَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ٧٧/١١٤ كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ .

٩٤-٩٥ ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُسْأَلُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَسَبِّحِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

الخطاب في ظاهره للنبي (ص) وفي واقعه لكل من يشك بما أنزل الله في القرآن ، غير محمد الذي أدرك الغاية القصوى باليقين ، وأحاطت به رعاية الله في كل لحظة كقوله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور/٤٨ ، عن الإمام علي (ع) : (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) البحار ٧٧/٢٩٣ وهو كقوله ﴿لَنْ أَسْرُكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الزمر/٦٥ ، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ القصص/٨٦ ، وعن الإمام الصادق (ع) : (نَزَلَ الْقُرْآنُ بِآيَاتِكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ)

الكافي ٦٣١/٢ **المعنى** : هذا الشك على سبيل الفرض والتمثيل ، أي لو شك لعلمه الله منه كأنه قيل فإن وقع شك مثلاً وحيّل لك الشيطان خيلاً تقديراً فسل علماء أهل الكتاب ، أو يكون الخطاب للأمة (فإن كنتم في شكٍ ..) على قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة ، وفي الحقيقة أن النبي (ص) كان يتلقى الوحي مع الشهود والمشاهدة الحسية مما لا يبقى أي معنى للشك وكيف وهو يرى ملكوت السماء عياناً؟ وكيف وقد ثبت الله قلبه وأخلاه من كل وسواس؟

كقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧ ، وقوله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ البقرة/٢٨٥ ، وكيف يشك وهو احتمال في سبيل رسالة الله ما لا تحتمل الجبال الرواسي؟ وكيف يشك وهو القائل (وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ؟!) كيف يشك وهو القائل (ص): (يَأْرَبُ لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَلَا أَطْلُبُ الْحُجَّةَ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بَلْ يَكْفِينِي مَا أَنْزَلْتَهُ عَلَيَّ مِنَ الدَّلَائِلِ الْحَقِّةِ) وفرق كبير بين قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾ سبأ/٥٤ ، بإثبات الشك المؤكد وبين قوله (فإن كنت في شكٍ) قد تكون للنفي أي ما كنت في شك ، أو تكون بمعنى الفرض والتمثيل والتقدير لأنه محفوظ من الشكوك ومعصوم من الشبهات ونلاحظ التعقيب عليه (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) لقد جاءك يا مُجَّد البيان الحق والخبر الصادق الذي لا يعتربه شك ، وفي هذا ما يكفيه لليقين ، وهذا يبين ما وراءه من شدة الموقف الذي يعاني منه (ص) وتأزمه في الواقع ومعاناته في نفسه الشريفة (ص) (فَأَسْأَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) فاسأل علماء التوراة والإنجيل عن الأخبار التي وردت في القرآن فإنها كذلك وردت في التوراة والإنجيل (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) البيان الحق الصادق الواضح الذي لا شك فيه ولا ريب (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) الشاكين المترددين ، نهي عن الشك والبقاء عليه ، بلغ الناس يا رسول الله أن من يشك أو يكذب بالحق الذي أنزل عليك فهو من الضالين الخاسرين المعذبين .

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ) وعبر الله سبحانه عن هذا المعنى بنهي النبي (ص) عن الشك والتكذيب ليقول مُجَّد (ص) للناس : أنا بشر مثلكم وواحد منكم أحاسب وأعاقب كأني إنسان يشك أو يكذب بآيات الله إذا أنا شككت وكذبت !! وهذا الأسلوب من أبلغ الأساليب وأنجحها في الدعوة إلى الحق الذي تتساوى فيه جميع الناس كقوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ/٢٤ ، وكقوله ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آل عمران/٦٤ ، ثم قال تعالى (فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وهكذا كل شك يقود إلى الخسران لأنه يجبط الإيمان ويفسد الدين ويقلق النفس، في غرر الحكم: (مَا إِرْتَابٌ مُخْلِصٌ وَلَا شَكٌّ مُؤَقِّنٌ).

فائدة: ١- (فإن) الشرطية إنما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض لإمكان شيء منهما ، كيف لا وقد يكون كلاهما ممنوعاً باعتبار (فرض المحال ليس بمحال) وكقوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف/ ٨١ ، وفيه تنبيه : على أن من خالجه شبهة في الدين ينبغي التسارع في حلها. ٢- وإنّ التصديق بآيات الله الدالة على المعارف الإلهية من أرباح المتاجر إلى الله عز وجل ، وتكذيبها من أخسر المكاسب الإنسانية وأنغص طرق العيش كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/ ٢١٣ ، وكقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/ ١٧ ، وكقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ طه/ ١٢٤ ، وكقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ الإسراء/ ٢٢. ٣- قد جرت عادة العرب أن يقَدِّروا الشكَّ في الشيء لينبؤوا عليه ما ينفي إحتمال وقوعه ، فيقول أحدهم لإبنه إن كنت ابني فكن شجاعاً ، وفي قول المسيح ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ المائدة/ ١١٦ ، يقال الشكُّ أول مراتب اليقين ، أي لا يحصل اليقين إلا إذا انتفى كل شك ، روي : (لَا يَنْتَشِرُ الْهُدَى إِلَّا مِنْ حَيْثُ انْتَشَرَ الضَّلَالُ) أي تخلص من كل ضلال حتى تصل إلى الهداية الخالصة، أي مراحل البحث عن الحقيقة تبدأ بالشك ثم مرحلة البحث العلمي الجدّي ثم مرحلة القناعة والقطع بالدليل والبرهان وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المائدة/ ٤٨ ، إنّ النبي (ص) لا يحكم إلاّ بالحق ومحال أن يتبع هوى مخلوق كيف وأقواله وأفعاله سنة تتبع ، ولو افترض أنّ محادعاً حاول أن يخدع الرسول (ص) فالله يسدده ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكُّنُ فِيهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ الإسراء/ ٧٤ ، لو نفترض أنّ الرسول (ص) كان شاكاً في نبوته لكان شكُّ غيره في نبوته أولى ، وكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته ، فيكون المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الشكوك عنهم في تكثير المناظرات.

والمعنى: إن كنت أيها الإنسان في شك كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الطلاق/ ١ ، الخطاب للنبي والمقصود كل مكلف ، لأنّ النبي (ص) لم يطلق زوجة في حياته بل هو بيان قانون عام لذلك أصبح نهاية السورة خطاب لكلّ الناس ولو كانت هذه الآية خطاب للنبي ، كقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ يونس/ ١٠٤ ، وهنا أعلم الله سبحانه الناس أن نبيه ليس في شك وإتّما الناس لو كانوا في شك فعليهم أن يعالجوه بسرعة ، والشك لا يليق بالمؤمن لأنّه يفسد إيمانه وتكثر حيرته ويقبل اطمئنانه ومن يشك يزدد شكّه ، وأساس الشك الجهل وقوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ التوبة/ ١١٧ ، ولم يقع منه شيء يتوب منه ، ويصفه الله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى/ ٥٢ ، وقد قرأ الإمام الصادق (ع) (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ) والتوبة على النبي (ص) كقوله

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ التوبة/٤٣ ، فليست ذنوب النبي إرتكاب ذنب ، وإنما ترك ما هو أولى قيل (سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ).

٩٦ - ٩٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَأَوْجَاءُ نُهُمْ كُلِّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
 إِنَّ الَّذِينَ (حَقَّتْ عَلَيْهِمْ) ثبتت عليهم ، استحقوا عذاب ربك بإرادة الله الأزلية وهم الذين (لا يُؤْمِنُونَ) لا يصدقون ولو جاءتهم المعجزات الباهرات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ غافر/٢٨ ، في غرر الحكم: (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى؟!) (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) آية: معجزة ودلالة ، أصرّوا على الضلال والعناد والاستكبار حتى لو قام ألف دليل ودليل، اللهم إلا أن يشاهدوا العذاب الأليم عندئذ لا ينفعهم إيمانهم بعد فوات الأوان ، كيإيمان فرعون عند الغرق ولا إيمان بلا طاعة ورضا ، وهكذا (الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ)

٩٨ - ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَمَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَسَتْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾
 فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكتها ، تابت عن الكفر والفساد وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت الحاسم (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ) غير قوم يونس فإنهم آمنوا قبل نزول العذاب حين رأوا علاماته (لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) لما تابوا عن الكفر ولم يعاندوا على الضلال وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الدنيا ونجيناهم من عاره (وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) وأخرناهم مع متاع الدنيا إلى حين انتهاء آجالهم الطبيعية ، خلاصة قصته : وصف الله يونس (ع) بصاحب الحوت وبذي النون أي الحوت ووصفه بالمغاضب لقومه المشركين لأنه دعاهم إلى الإيمان فلم يستجيبوا له ورحل عنهم يائساً من إيمانهم ، أما قوم يونس فقد زاد عددهم على مئة ألف ، فكانوا يسكنون بنينوى من أرض الموصل وأنهم كانوا يعبدون الأصنام فنهاهم يونس عن الكفر وحبب إليهم الإيمان فأصروا على الشرك فيئس منهم وضاق صدره وارتحل عنهم ودعا عليهم ، أنتهم علامات العذاب والهلاك من السماء فخافوا وطلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصحراء جميعهم وأظهروا التدم وأخلصوا التية وتضرعوا وتابوا إلى الله ودعوه مخلصين له في الدعاء أن يكشف عنهم العذاب فاستجاب لهم وكشف عنهم ورحمهم ومتعهم إلى حين ، أما يونس فراجع قصته الصفات/١٣٩-١٤٨ .

أما حال يونس فرحل عن قومه حتى وصل إلى ساحل البحر فصعد في سفينة ، فلما توسطوا البحر صاروا في خطر فأرادوا التخفيف من حمولة السفينة فاتفقوا على الإقتراع فوق السهم على يونس فألقى بنفسه في البحر ، فبعث الله إليه حوتاً فابتلعه فحفظه الله في بطنه بتضرعه إلى الله

وهو في جوف الحوت ثم نبذه الحوت على ساحل البحر بعد أن لبث في جوفه ما شاء الله أن يلبث وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين يستظل بها

٩٩ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ الْمَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمُ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

ولو شاء ربك مشيئة تكوينية لآمن الناس جميعاً ولا يستطيعون الكفر بحال ، ولكن لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة حيث لا إنسانية من دون حرية ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، ولو فعل لبطل الثواب والعقاب ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان اختيار لا إجبار ولا إكراه لأنه لا كرامة إنسانية مع الإجبار والإكراه (أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) تَكْرِهُ : تجبر ، فلا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير ، ليس الإيمان لقلقة لسان وإنما هو فهم القلب للإسلام وصدقته الأعمال الصالحة ، ولا سلطان على القلب إلا الذي خلقه وجعله في حماية حتى من صاحبه ، عن النبي (ص) (الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان) شرح النهج ١٩ ص ٥١ والله لا يريد الإيمان بالإكراه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ق/٤٥ ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦ ، والنبي لا يقدر عليه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص/٥٦ ، والنبي لا يهدي الهداية الخاصة النموذجية إلا من هو مؤهل لها ، والله لا يقبل الإيمان بالإكراه بل يريده بالاختيار ، وتعدّد الخيارات وتعدّد القناعات تكون الاختلافات كقوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود/١١٨ - ١١٩ ، ليس لأحد غير الله أن يحاسب أو يعاقب إنساناً على رأي أو عقيدة إلا أن يعتدي فيفسدك دماً أو يفسد في الأرض أو يفسد في النفوس بزرع الفكر المنحرف فيها والتي تسمى في العصر الحديث (الحرب الناعمة).

١٠٠ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أهل الأرض خلقوا أحراراً في اختيارهم ، وفق سنة الله في الماضين والباقيين ، ما من نفس تؤمن بالله وتستقيم تلقائياً من دون سبب موجب ، لأن للإيمان أسباب ومسببات ، والتي منها أن يمنحه العقل والإدراك والإقبال على ذلك الإيمان من تلقاء نفسه دون إكراه ولكنها غير مستقلة في اختيارها بل مقيدة (بِإِذْنِ اللَّهِ) بنظام السنن الإلهية والمشيئة الربانية أي لا تستطيع نفس أن تؤمن باختيارها إلا بإذن ربها لأنه أعلم بالمهتدين كقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القلم/٧ ، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس/٩ ، فلا تصل أي نفس إلى الإيمان وقد سارت في طريق آخر مغاير ومعارض معه ، في نهج البلاغة خطبة ١٥٤: (العاملُ بغير علم، كالسائر على غير الطريق الصحيح لا تزيدُهُ سرعة السير إلا بُعداً عن الصواب) وكل من سار على الدرب الصحيح من الإيمان وصل إليه بمعونة الله ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن/١١ ، على

قدر الصفاء يكون الإيمان ، وعلى قدر الإيمان تكون الهداية ، ثم قال (وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) الذين عطّلوا عقولهم عن التدبّر من أهل العناد والحجود ، فلا يأذن في إيمانهم ، ويجعل الرجس عليهم.

الرجس: صفة جامعة لكل السلبيات والنقمت والقدارات ومنها قذارة الشك والضلال والدنس الروحي فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التّعقل والتدبّر وإنتهائهم بهذا إلى التكذيب والكفران كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف/١٠٣ ، ووضع (الرجس) في مقابل (الإيمان) إشارة إلى أن الإيمان طهر وتزكية للمؤمن على خلاف الكفر والعصيان فإنه نجس وقدر يشين صاحبه عندما يعمله وقال (لا يعقلون) بدل الذين (لا يؤمنون) لأن الكفر والعصيان والطغيان والانحراف عن منهج الله وليد الجهل والجهل المركب بعدم استعمال العقل وتوجيهه إلى التدبر في آيات الله الكثيرة والإيمان بالله عن طريقها ، إذن : الذي يُعطل عقله يُعدّب نفسه ويجعل الرجس عليه من نفسه، في غرر الحكم: (المرء حيث يضع نفسه).

١٠١ - ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قل يا محمد هؤلاء الكفار أنظروا نظر تفكر وتدبر وتذكر واعتبار ، نظرة علمية فاحصة لا نظرة سطحية ساذجة ، ما الذي في السماوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وجمال صنعه وجلالة قدره عز وجل ؟ والتي كل آية منها مقدّرة ومدبرة تدعو إلى الإيمان (وَمَا تُعْبِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) وما تنفع الآيات الكثيرة المنتشرة في الأفاق الكونية وفي أنفسكم الدالة بوضوح على الوحدانية وهم عازمون على عدم الإيمان ، وعليه يكون الكافر مقصراً ومستحقاً للعقاب لأن الله بيّن له الدليل القاطع فأعرض عنه وأبى أن ينظر فيه ، والذي لا يَلِيْقُ بِهِ الْإِيْمَانُ يَلِيْقُ بِهِ الضَّلَالُ ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصْرُهُ الْبَاطِلُ. فائدة : هناك علاقة مترابطة بين السنن الكونية والسنن الإنسانية ، أي بين الفطرة البشرية وبين نظام هذا الكون الدقيق لغة معنوية مؤثرة حركية منظمة خفية غنية يدرکها المؤمنون المفكرون ويغفل عنها المنحرفون كقوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/٢٠-٢١.

١٠٢ - ﴿قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

استفهام إنكاري : فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم وأراد به وقائع الله في عاد وثمود وقوم نوح وعاقبة أهل الفساد والضلال عاقبة سيئة سواء أكانوا من الأوائل أم الأواخر وعبر عن الهلاك بالأيام كما يقال أيام فلان يراد به أيام دولته وأيام محنته (قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) قل فانظروا حكم الله فيكم مثل هذه الأيام الحاسمة القاسمة التي تفصل بيننا وبينكم ، وهذا تهديد لمن كذب محمداً (ص) بسوء العاقبة ، وإنّ حسن العاقبة للمتقين. من علامات حسن

العاقبة: أن تعلم أن ما تأتيه من خير فبفضل الله ورحمته ، وما تأتيه من سوء فيأمهال الله إياك وحلمه عنك.

١٠٣ - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين ننجي الرسل والمؤمنين ، إنهم مع رُسل الله، عن النبي (ص): (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) كثر العمال خير ٢٤٦٨٤ ينجيهم لأنهم كانوا مصدر خير لأمتهم في جميع مجالات الحياة (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) كذلك حقاً ثابتاً علينا من غير شك ننجي المؤمنين المجاهدين في سبيل الله في كل زمان ومكان ، الذين يعتز الإسلام بعلمهم وجهادهم وتضحيتهم ونزاهتهم وكفاءتهم ، وعداً حقاً علينا لا نخلفه ، ومن طريق الحكمة قد أوجهه الله على نفسه فضلاً وكرماً كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧ ، وكقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/٢١ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨ ، فائدة : ١- تشير الآية : أن نجاة الرسل والمؤمنين ليس بعوامل طبيعية وبأسباب ومسببات مألوفة ومعروفة لأنه إن كان كذلك شمل النجاة الجميع ، بل النجاة بقدرة الله الخارقة بأسباب غيبية ، وهذا يدل أن الله هو الذي يقود المعركة بين الإيمان والكفر ! ٢- في الآية تلميح أبلغ من التصريح إلى أنّ النبي (ص) لا يدرك هذه الحقيقة كلّها في حياته وإنما تقع بعد إرتحاله ، حيث ذكر (نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) ولم يقل (ننجي الرسول والمؤمنين) مع أنه تعالى ذكر في السابقين نجاة رسله مع المؤمنين بهم. (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) إنّها كلمة الرمز المتحرّك المؤثر في حركة السنن التاريخية إنّها الشفرة السريّة الخاصة التي تكمن وراء الأحداث المتغيرة ، إنّها الحقيقة التي يجب أن تتحقق في وقتها المناسب ، إنّها الكلمة الحقّة التي لا بدّ أن تظهر إلى النور التي كتبها الله على نفسه كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/٩ . ٢- سؤال : قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال/٢٥ ، هنا الفتنة تأخذ الجميع كالفيضان يأخذ الجميع بينما قوله (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) كيف تكون النجاة هنا وهناك فتنة عامة تأكل الأخضر واليابس؟ الجواب: إذا كان المؤمنون مدهنين لأهل المعاصي ولا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، عن الإمام علي (ع): (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ) وَالسَّائِكُ عَنْهُ، وَالْحَاضِرُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الظُّلْمِ، البحار ٣١٢/٧٥ ، فيشملهم العذاب مع المعذبين! ولكنهم إذا عملوا طبقاً لمسؤوليتهم الإلهية إذا بدأ بالتذكير والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنّ الله ينجيهم من الفتنة العامة.

١٠٤ - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكِنِ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمُ
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المراد بالناس جميعاً وبالخصوص المشركين. قل لهؤلاء المشركين إن كنتم في شك من رسالتي لأنكم تجهلون حقيقتها، فديني هو في منتهى الوضوح (فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) فلا أعبد ما تعبدون من هوى النفوس وحب الدنيا والتعلق بحب المال والحياة التي تجهلون فلسفتها ولكن أعبد الله وحده الذي بيده محياكم ومماتكم، وقدم النص (يَتَوَفَّاكُمْ) بالخصوص لأنه يملك آجالكم وأعماركم لأن الذي يحاسب ويعاقب بعد الوفاة هو الله وحده (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً بالله موحداً لا أشرك معه غيره، وإن النبي يبدأ بنفسه في كل ما يدعو الناس إليه باعتبار (كُنْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَأَحَبُّ لَأَخِيكَ مَا نُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَكْرَهُ لَهٗ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ). فائدة: عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدَخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار ١٠٥/٢.

١٠٥ - ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وأمرت بالاستقامة في الدين في القول والعمل وفي جميع الأحوال ، استقامة كاملة على الحنيفية السهلة السمحة ، ملة أبينا إبراهيم (ع) وأمرني سبحانه أن أتجه إليه (ع) معتنقاً الإسلام الأصيل سائراً على نهجه المستقيم دون سائر الأديان والملل والنحل والأنظمة الوضعية. إن إقامة (الوجه) لدين الله كناية عن توجه النفس وإقبال القلب بكله إلى عبادة الله عز وجل والإعراض عما سواه ، (والحنيف) مفهوم حركي عام واسع المعنى عالي المضامين ، بمعنى المائل عن الضلال إلى الحق والمعرض عن الشرك الجلي والخفي إلى التوحيد الخالص ، مع تحمّل الأجواء الفاسدة والسائدة والثبات في الاستقامة ، إشارة إلى أن أكثر الطرق هي طرق الضلال ، وخروج إنسان مستقيم من بين الناس الضالين وميله عن الجماعات الضالة الكثيرة ويبقى على الصلاح ، هو أمر يحتاج إلى مؤهلات خاصة وكمالات مميزة ، ومكابدة وعناء ، وهذه هي الحنيفية الإبراهيمية المطلوبة لذاتها والمطلوبة لغيرها.

في غرر الحكم: (دَرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) وقيل لي : (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) لا في العقيدة ولا في العمل ولا في الدعاء ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه آلهة أخرى ظاهرة أو باطنة ، مادية أو معنوية ، سرية أو علنية ، حسية أو غير حسية ، حجرية أو بشرية أو فكرية ، مقصودة أو غير مقصودة، فمن الشرك أن يطيع الإنسان الشيطان أو هواه كقوله ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الفرقان/٤٣ ، أو النفس الأمارة بالسوء من حيث لا يعلم فيشرك كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦ ، عن الإمام الصادق (ع) : في الآية (هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلَا فَلَانٌ هَلَكْتُ وَلَوْلَا فَلَانٌ لَضَاعَ عِيَالِي ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا

فِي مَلِكِهِ يَرْزُقُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ ، الصَّحِيحُ أَنْ تَقُولَ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِقُلَانٍ لَهَلَكْتُ) كثر الدقائق ٦١/٥ فائدة: ١ - (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الخطاب للنبي (ص) والمقصود الأمة عامة عن الإمام الصادق (ع) (نزل القرآن بإتيك أعني وإسمعي يا حجارة) الكافي ٦٣١/٢، راجع سورة يونس الآية/٩٤ بالتفصيل، والله يعلم أنّ نبيه الكريم أعدى أعداء المشركين ، وعليه فليس النهي هنا للزجر ، بل للبيان والتحذير من الشرك بأنَّ ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُشْرِكًا حَتَّى يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَدْبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَدْعُو لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) البحار ٧٢ص ٩٦.

١٠٦ - ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

النبي (ص) سيد المؤمنين ولي المتقين وقائد رسالي نحو التوحيد فهو لا يدعو أحداً من دون الله ومحال أن يدعو لسواه سبحانه ، وإنما القصد الإخبار بأن من يدعو إلى غير الله فهو من الظالمين الخاسرين (فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) الضارين بأنفسهم ، فميزان الله لا يساوم وعدله لا يلين ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١، في غرر الحكم: (مَنْ أَهْمَلَ الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ظَلَمَ نَفْسَهُ) ، وعن الإمام الصادق (ع): (كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ يَا أَبَا ذَرٍّ أَطْرَفْنِي بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ وَلَكِنْ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ تُحِبُّهُ فَافْعَلْ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا يُسِيءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ ؟ فَقَالَ نَعَمْ ، نَفْسِكَ أَحَبُّ الْأَنْفُسِ إِلَيْكَ فَإِذَا أَنْتَ عَصَيْتَ اللَّهَ فَقَدْ أَسَأْتَ إِلَيْهَا!) الكافي ٤٥٨/٢ ، وكتوبه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤.

١٠٧ - ﴿وَإِنْ يَسْسُوكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) يَمْسَسْكَ : يصيبك ، فإذا تعرّض الإنسان لأسباب الضرر أصابه الضرر، والخير كذلك بمعنى : إن يصيبك الله بضر أيها الإنسان كمرض يصيبك بمخالفة سنن الله في حفظ الصحة أو نقص في الأموال والثمرات بأسباب لك فيها عبرة أو ظلم يقع عليك من غيرك ، قد يتضرر الإنسان لا من صنع يده ولا من سوء تصرفه ولا من مجتمعه الفاسد ، وإنما كان الضرر بسبب خارجي صاعقة من السماء نزلت عليه أو زلزال ابتلعه.. هذا النوع من الضرر هو المراد بالآية، وقد يتضرر الإنسان بما كسبت يده ، كما لو ترك العمل ولم يطلب المعاش مع قدرته عليه أو أقدم على عمل ما هو بأهل له ، هذا الضرر لا تصح نسبته إلى الله لأنه تعالى أمر بالعمل والإعداد له ونهى عن الإضرار والتكاسل بأنواعه وقد يتضرر الإنسان لا من كسبه ولا من مجتمعه ، وإنما بأسباب أخرى كما لو ولد له ولد ناقص الخلقة أو كان بليداً أو ضالاً لا يهتدي ، وهذا النوع من الضرر هو المراد من الآية (فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) فلا تلجأ لغير الله فتدعوه ليكشف عنك الضرر كما يفعل المشركون.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر/٣ ، وجعل الله تعالى للأشياء أسباباً يعرفها الناس بقدر تجاربهم ، وقيمة كل امرئ على قدر خبرته ومقدار تجربته وسعة علمه ونوع اختصاصه ، كمعالجة الأمراض بمعرفة تشخيصها ودواءها المناسب ومعرفة أسباب كل شيء ومسبباته ، ونأتي البيوت من أبوابها وأطلبوا كل شيء علمه المناسب ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٥ ، أي تركوا الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة والاستعانة بالله إلى تركها إن كانت مجهولة ، ولو اتبع الإنسان الأسباب المناسبة وأدى ما عليه بكل جد واجتهاد لم يقع في انتكاسة ، والباقي على الله ولو شاء الله أن يكشف الضر من أية جهة أتى لا يكشف وزال لأنه على كل شيء قدير (وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) أما الخير فتصح نسبته إلى الله تعالى بشتى أنواعه لأنه تعالى يريد الخير ويأمر به ويثيب عليه وهو الذي مكن الإنسان عليه فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذي تعلق به إرادته سبحانه فلا ترجو أحداً غير الله تعالى لأنَّ الخير بفضله سبحانه وليس باستحقاق الإنسان (يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) بكسب أو بغير كسب حسب السنن العامة لتحصيل الأشياء وفق مشيئة الله العامة وسنته الماضية الفاعلة ، وفضله عام لعباده بعموم رحمته وسعتها ، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب جناه الإنسان على نفسه بجهله أو غفلته أو تقصيره (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) هو سبحانه الغفور لذنوب عباده الرحيم بأهل الرشاد ، وإن المغفرة والرحمة من الله لعباده هي من شأنه في خلقه عموماً ، حتى ما يقع بهم من مكروه وضر هو محفوف بالمغفرة محمول بيد الرحمة.

فائدة : ١- ذكر مع الضر الفعل (يَمَسُّنَكَ) ومع الخير الفعل (يُرِدُّكَ) والسبب في ذكر المس مع الضر والإرادة مع الخير ، لأنَّ ما يريده الله سبحانه يصيب وما يصيب لا يكون إلا بإرادته تعالى ، لبيان بأن الخير مقصود لله تعالى بالذات وهو المسبب له والمدبر إليه، بينما الضر يكون بسبب أعمال الإنسان الخاطئة وليس بسبب الله كقوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى/٣٠. وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١، أي تغيير التعم متعلق بعمل الإنسان ، في دعاء كميل : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُعَيِّرُ النَّعَمَ). ٢- قال (بِضُرٍّ) ولم يقل (بشرٍ)، ممَّا يدل أنه ليس كل ضر هو شر ولا كل مكروه هو شر ، لعل الحوادث المؤلمة تكون موقظة للفطرة ومحركة للمشاعر وابتلاء للإنسان ، عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا لِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار ٣٧٤/٧٨ فيكون في المحن منح من الله، وفي المكاره مكارم، وفي المشقات خبرات، وفي المعاناة هبأة، وفي البلائيا بدايات نجاتها الكرامات! ٣- خطاب الآية إلى النبي (ص) بمعنى أنه خاضع لهذا القضاء مع قرب من الله تعالى ، فما يصيبه من خير هو من عند الله وإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، فكيف بمن هم ليسوا على هذه المنزلة عند الله من قرب وحسب؟

١٠٨ - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُنُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُ وَارْتَعِبُوا أَعْيُنَكُمْ لَهُ وَمَا لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ أَنْ يَرَوْا كُرْهُهُ إِذَا خُمِّتِ الْأَعْيُنُ عَنْ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَدَّتْ الرِّجَالُ وَرَبَّتْ الْعِظَامُ وَتَبَدَّلَ الْمَوْجِدُ مِنْ تَحْتِهَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾

قل يا محمد مخاطباً كل الناس في هذا العالم ممن سمع هذه الدعوة الحقّة ومن ستبلغه عنك ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يونس/٣٢ ، بمعنى قد جاءكم القرآن العظيم الذي تجلّى الله به لخلقه فلم يبق لكم عذر ولا عليه سبحانه حجة والذي ﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء/١٠٥ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰئِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء/٩ ، عن النبي (ص) : (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر ٢٤٥٤ ، (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) وللإنسان أن يختار لنفسه فمن اهتدى بنهج الله المستقيم وسلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله فإنما يهتدي لنفسه وفائدة ذلك عائدة إليه ويفوز في دنياه وآخرته من دون سائر الناس (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) ومن خرج عن سبيل الحق وأعرض عن كتابه فإنما وبال ضلاله على نفسه من دون سائر الخلق فلا يلومنّ إلا نفسه (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) بحفيظ ، وَمَا أَنَا بِمُوكَلِّمٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ بِأَمْرٍ كَمَ إِذْ لَيْسَ الرَّسُولُ وَكِيلاً عَنْكُمْ يَعْطَلُ لَكُمْ كَمَا يَعْمَلُ الْوَكِيلُ لِمَنْ يُوَكِّلُهُ عَنْهُ وَلَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مَّبْلَغٌ إِلَيْكُمْ أَمْرٍ رَبِّكُمْ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النور/٥٤ ، فليس أحد مغنياً عن أحد ولا أحد موكلاً عن أحد بل هي المسؤولية الذاتية يحملها كل إنسان عن نفسه كقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ الإنفطار/١٩ ، وفي هذا تكريم للإنسان وتسليم بحقه فلا يقبل منه أن يلغي نفسه ويفكر لها غيره ويعمل له سواه ، والنبي (ص) على عظمته فليس له أن يكون وكياً عن أحد وإنما كل إنسان مسؤول عن نفسه و (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وليس النبي مسؤولاً أن يدخل الإيمان في قلوبكم قسراً ولا أن يحفظ مصالحكم صغيرها وكبيرها كقوله ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِذَا مَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ الطور/٢١ ، قيل (مَنْ زَانُوا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ظَلَمُوهُ وَمَنْ زَانُوا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ أَنْصَفُوهُ) ، عن النبي (ص) : (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِاللَّأْوَةِ وَلَا الْعِلْمُ بِالرَّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمُ بِالذَّرَايَةِ) كنز العمال خبر ٢٤٦٢

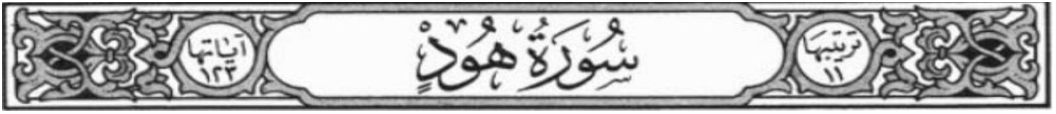
١٠٩ - ﴿وَإِتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

وَإِتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ فِي جَمِيعِ شَأْنِكَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَتَّىٰ لَوْ كَفَرَ النَّاسُ ، وَاَعْمَلْ بِهِ وَعِلْمَهُ أَمْتِكَ بِالرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ الْمَعَانَاةِ الَّتِي تَعَانِيهَا ، فَإِنْ مِنْ إِتَّبَعْتَ فَقَدْ اهْتَدَيْتَ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ يَتَّبِعْ وَيَضِلُّ نَفْسَهُ وَيَضُرُّهَا عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) : (مَنْ لَا يَسْتَقِمُ بِهِ الْهُدَىٰ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) البحار ٢٩٣/٧٧ . عن النبي (ص) : (إِيَّاكَ أَنْ تَسُنَّ سُنَّةَ بَدْعَةٍ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ لَحِقَهُ وَرْهًا وَوَزُرٌّ مِّنْ عَمَلٍ بِهَا) البحار ١٠٤/٧٧ (وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ) وَاَصْبِرْ عَلَىٰ مَا تَعَانِيهِ مِنْ مَشَاقٍ وَأَذَىٰ فِي سَبِيلِ نَصْرَةِ دِينِكَ وَإِيمَانِكَ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَهَذِهِ هِيَ مَهْمَةٌ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ الأحزاب/١٣٩ ، (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وخير القاضين فلا يحكم إلا بالحق ، عن النبي (ص) : (فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكَرَّرَ خَيْرٌ كَثِيرٌ) البحار ١٣٧/٨٢ .

وفي الختام نقول : ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ المزمّل/١٩
وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ .

تمّ بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّر) لسورة يونس ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ،
فلله الحمد والمِنَّة ، وبالحمد تتمُّ الصَّالِحَات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتأريخ
١٥/محرم/١٤٣٧ هـ الموافق ١/١/٢٠١٥ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في
بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السُور القرآنية الكريمة ، إنّ
رَبِّي سَمِيعٌ مُّجِيبُ الدُّعَاء.

بقلم الباحث : مكّي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

مكية كلها إلا قوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ..﴾ فإنها نزلت بالمدينة ، تُعنى بالعقيدة
الإسلامية وهي التوحيد والنبوة والرّسالة والبعث والجزاء ، وعرضت لقصاص الأنبياء بالتفصيل ،
وعرضت موازنة بين فريق الهدى وفريق الضلال ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ وذكرت
قصة هود (ع) الذي سمّيت السورة باسمه تخليداً لجهوده الكريمة في الدّعوة إلى الله ، وذكرت قصة
صالح ثمّ قصة لوط وشعيب وموسى وهارون (ع) والعبّر والعظاات منها ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ
أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ، الجزء الحادي عشر ، عدد آياتها ١٢٣ آية ، ترتيبها ١١ .
فضلها: عن الإمام الباقر (ع): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ
وَحُوسِبَ حِسَابًا سَيِّئًا) مجمع البيان/٥/٢٦٣ ، عن النبي (ص) : (شَيَّبَنِي سُورَةُ هُودٍ لِأَنَّ فِيهَا قَوْلَهُ
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ هود/١١٢) روح المعاني/٢/٢٠٦ فكيف يضمن (ص)
استقامة من تاب معه ؟ ملاحظة : كلّ فضل من فضائل سور القرآن كلّها يعتمد على مقدار
الصّدق والعمل من الإنسان ، ومقدار الرّضا من الله سبحانه وتعالى تجاه الإنسان ، وليس بالمنى
والأمانى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الرَّكَنُ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

(الر) تقرأ (ألف ، لام ، راء) ، إنّها إشارة إلى إعجاز القرآن حيث أنّه مؤلّف من جنس هذه
الأحرف العربية التي يستخدمها البشر ، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في
الفصاحة والبلاغة ودقة العلوم ورفي الأهداف. تقدّم الكلام في الحروف المقطعة في أول سورة

البقرة (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) كتاب القرآن (أُحْكِمَتْ) أي أتقنت آياته ونظمت نظاماً محكماً لا خلل فيه ولا اختلاف في اللفظ أو المعنى فجاءت قوية البناء دقيقة الدلالة سامية الأهداف متوازنة المطالب ، هذا كتاب عظيم القدر محكم النظم بليغ المباني واضح المعاني عميق الدلالة واسع المغزى لا يقبل شكاً ولا عوجاً وليس فيه تناقض ولا ضعف ولا خطأ ، وكأنه في حصن منيع لا يتطرق إليه خلل (ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ) (ثُمَّ فَصَّلَتْ) ثم بُيِّنَتْ آياته وجعلت واضحة في ما يحتاج إليه العباد في أمور دنياهم وآخرتهم ، وآياته من عند الله فصلها وبينها الخير العالم بكيفيات الأمور لذا كانت محكمة أحسن إحكام ومفصلة أحسن تفصيل من عند إله حكيم في أفعاله خيرٌ بحاجات خلقه. فائدة : ١- إنَّ الله كتابين نرى قدرة الله فيهما أحدهما كتابٌ تكويني وهو نظام هذا الكون والكائنات ، والآخر كتابٌ تدويني وهو هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وكل منهما يقول الآية/٢ :

٢ - ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

فالدعوة للناس إلى الإيمان بالله وإخلاص العبادة له وحده ، في غرر الحكم: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَهْمَهُ حُسْنَ الْعِبَادَةِ) والعبادة: معنى واسع يشمل جميع الوجوه التي يطاع الله منها مع حسن النية ، وترقى العبادة بالمعرفة، عن الإمام الهادي (ع): (عَلَى قَدْرِ الْعِلْمِ (العقل) تَكُونُ الْعِبَادَةُ) تحف العقول ص ٣٥٨ ، (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) وقل للناس إنني مرسل من عند الله تعالى أنذركم بعذابه إن كفرتم وأبشركم بثوابه إن آمنتم واستقمتم كقوله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل/٣٦

٣ - ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا مِنْ رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَسْتَعْمِدْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

الاستغفار : الستر والعفو ، فقد يكون العفو قبل المغفرة ، وقد تكون المغفرة قبل العفو ، استغفروا ربكم الذي رباكم وأنعم عليكم استغفروه من الذنوب الصغيرة والكبيرة وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بدوام الطاعة والفرق بين الاستغفار والتوبة إن (الاستغفار) طلب العفو عما مضى بصرف النظر عما يأتي ، وطلب العفو عن كل ذنب بقصد وبدون قصد في السر والعلن في حدود النفس أم في حدود الآخرين أما (التوبة) طلب الغفران والندم عن الماضي مع العهد على ترك المعاصي في المستقبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة/٢٢٢ ، (يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا) يهينكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ورغد العيش واطمئنان القلب أو يكون متاع معنوي من حرية وكرامة وتحصيل العلوم وراحة البال بحيث يستحسن حياته كقوله ﴿قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ نوح/٩-١٢ ، (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى وقت محدد هو إنتهاء أعماركم (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) الفضل: هو زيادة التكريم ، سيجد فضله الذي قدمه

للناس حاضراً بين يديه ، ثم يجزي الله أهل الفضل والإحسان فضلاً من فضله وإحساناً من إحسانه سبحانه في الدنيا والآخرة ، أما في المجتمعات غير الدينية - إن كانت مدنية حضارية راقية - فالناس ينقسمون إلى طبقات مستكبرة مستعلية قاهرة وأخرى مستضعفة مستعبدة مقهورة ، ولا يسوي ويعالج هذا الاختلاف إلا دين التوحيد الذي يساوي (بالقدر وليس بالقدرة) بين الفقير والغني والضعيف والقوي والرجل والمرأة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ الحجرات/ ١٣ ، في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) في غرر الحكم: (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ)، (وَإِنْ تَوَلَّوْا) وإن تعرضوا عن منهج الله القيم فتقبلوا على منهج الشيطان اللئيم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/٢٩، (فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المطففين/٦ ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة والكثيرة والمتنوعة! كقوله ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ الإنسان/٢٧. فائدة: (مَتَاعًا حَسَنًا) ليس من الضروري أن يكون حسن المتاع مادياً رزقاً وسعة فقد يكون معنوياً حرية وكرامة ، وأن لا يسلط علينا طاغية يهلك العباد ويفسد البلاد ، وثنم الحرية وحفظ كرامة الإنسان أعزُّ وأثمن من المال وحسن الحال ، وقد يكون المتاع الحسن بالنعوية والكيفية والكمية بيان لثمرة الإيمان بالله ودوام الاستغفار والتوبة عند المفوات والزلات ففي ذلك ضمان لسلامة الإنسان واطمئنان قلبه واستقامة سلوكه فهو بهذا ممتع متاعاً حسناً ، فتكون النتيجة كالمقدمة. سؤال : يوجد من المؤمنين المستغفرين مضيّق عليهم في الرزق فأين إذن المتاع الحسن ؟ الجواب : قد يكون المتاع الحسن المتاع المعنوي والاطمئنان النفسي وأنهم يمشون على الصراط المستقيم ولهم حسن العاقبة ، وضيق حالهم يدلُّ أنهم في مجتمع متخلف لا يسوده النظام الإسلامي القائم على العدل ، ولا يحترمون حقوق الإنسان وأيضاً يفهم المتاع الحسن في مقابل المعيشة الضنكى للبعيد عن الله ، وإن كانوا يتمتعون بالرفاهية في الظاهر ولكنهم يعانون الأزمات النفسية والكتابة في الباطن! كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣ ، ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧.

٤ - ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إلى الله رجوعكم بعد الموت جميعاً أمماً وأفراداً لا يتخلف منكم أحد من الأولين والآخرين ، وهناك تلقون جزاءكم بالعدل وهو سبحانه قدير على كل شيء فلا يعجز عن إحياكم بعد الإماتة كقوله ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر/٩٩ ، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١. فائدة : يؤكّد القرآن على يوم القيامة لأهميته البالغة فهو أصدق الحقائق ومن أقوى البدييات ويقره العقل السليم ويثبته الدليل ويصدق العلم وتؤيده الأديان السماوية.

٥ - ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ : يطوونها ويخفونها على ما بداخلها من شر وعداوة للنبي والمؤمنين (يخفون المؤامرات السرية) (يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) يتغطون ، استغشى الثوب : تغطى به وهي كناية تشبيهية لطيفة عن أخفى الحالات وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي الظاهري والباطني. المعنى: إنَّ قوماً كانت تنطوي قلوبهم على العداوة والبغضاء لرسول الله (ص) وكانوا يخفون ذلك عنه، فأخبره الله بحقيقتهم وأنه تعالى يعلم بنبضات قلوبهم وجميع حالاتهم ، فهم يجهلون أنَّ الله أقرب إليهم من حبل الوريد !. أي إنهم أصحاب منكرات ولؤم وكراهية يخفونها في صدورهم حتى لا يطلع عليها أحد وقد بلغ سوء ظنهم بالله (لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) محاولة الخفاء ، يظنون أنَّ أمرهم يخفى على الله ، أي أنهم يحاولون بين الله وبين أن يعلم ما هم عليه من منكر حتى لا يفتضح أمرهم (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ يَبْطِنُونَ وما يظهرون وإن حاولوا ستر نفاقهم بمظاهر المؤمنين وثياب الصالحين ، بمعنى : لا تظنوا أنَّ تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : عليم بحقيقتها عالم بما يدور في القلوب من أسرار وما تخفي الصدور فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور ، ومع ذلك فالله يعلم خفاياها وأسرارها كقوله ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ طه/٧ ، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم تعيشون التلون والتقلب والتذبذب وازدواج الشخصية فإنها النفاق وسوء الخلق ، إنَّها حالة دقيقة أن يشعر الإنسان بخلوة وأنه وحيد لا يراه أحد ولكن الحقيقة تهز وجدانه هزاً عنيفاً وهو يسهو عنها فيخيل إليه لا أحد يراه ولكن عين الله تراقبه بدقة لا تخفى عليها خافية كقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ العلق/١٤. سبب النزول : عن الإمام الباقر (ع) : (إِنَّ الْمُشْرِكِينَ إِذَا مَرُّوا بِرَسُولِ اللَّهِ (ص) طَأَطَأَ أَحَدُهُمْ رَأْسَهُ وَظَهَرَهُ وَعُطِّيَ رَأْسَهُ بِتَوْبِهِ حَتَّى لَا يَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ) كنز الدقائق/٤/٤٣٥.

الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم

٦ - ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ مَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

ما من شيء يدب أي يمشي على وجه الأرض من إنسان أو حيوان أو حشرة أو زاحفة إلا تكفل الله برزقه المادي والمعنوي المستمر ومن الرزق الضروري والكمالي ، ومهما كان حجم الدابة المخلوقة ، جاء في الدعاء على سعة مفهوم الرزق (اللَّهُمَّ أَرْزُقْنِي قَلْبًا حَاشِعًا وَلِسَانًا ذَكِيرًا وَعِلْمًا نَافِعًا) البحار ٢٥٨/٩٥ ، تفضلاً منه تعالى وكرماً لا رزق واجب عليه لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فكما كان الله هو الخالق كان هو الرزاق برحمته وحسن تدبيره وتقديره ﴿رَبُّنَا الَّذِي

أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ طه/٥٠، واختصاص دواب الأرض بالذكر لأنها هي التي تشاركنا الحياة على الأرض ومقومات الحياة، عن الإمام علي (ع) : (الرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ يَطْلُبُكَ وَرِزْقٌ تَطْلُبُهُ) شرح النهج ١١٢/١٦ الرزق الذي يطلبك هو المحدد بالأجل، والرزق الذي تطلبه هو رزق الرفاهية الذي بحاجة إلى سعي وخبرة وتجربة واختصاص ، ويتفاوت الرزق حسب تفاوت السعي والخبرة ، وقيمة كل امرئ بمقدار خبرته وتجربته ، وفي ذلك دلالة : على سعة علم الله في جميع أحوال كل دابة على كثرتها تتحرك على الأرض كل الأرض وعلى توفر الرزق منه تعالى ، وليس المقصود رزق يأتيك عن الكسل والبطالة ، وإنما الرزق مقسوم وموجود وميسر ولكن بحاجة إلى جهد وسعي وخبرة كقوله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم/٣٩-٤١ ، وتكون النتائج على قدر المقدمات لأن الرزق متعلق بقاعدة الأسباب والمسببات (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) المستودع : المكان الذي كانت فيه قبل أن تدب على الأرض ، والمستقر : المكان الذي قرت فيه بعد الدبيب ويعلم تقلبها وتنقلها من مكان لآخر ويوصل الله إليها أرزاقها ، سواء أكانت حيوانات بحرية أو طائفة كبيرة أو مجهرية لا ترى بالعين المجردة ، فإنه تعالى يرزق الجميع بحسب حاجته وحالته ، وقيل : مستقرها : المكان الذي تعيش فيه ومستودعها : المكان الذي تموت فيه فتدفن (كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وهو كتاب واضح الدلالة وهو في اللوح المحفوظ، كل من الأرزاق والأقذار والأعمار وكل هذه التفصيلات بشأن كل مخلوق مسجلة في اللوح المحفوظ! الذي فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وهو في علم الله لا يغيب عن علمه شيء ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يس/١٢ . فائدة : ١ - عن النبي (ص) : (لَا يَحْمِلَنَّكُمْ إِسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَسَمَّ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ خَلَالًا وَلَمْ يُقْسِمَهَا حَرَامًا فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَصَبَرَ أَتَاهُ اللَّهُ بِرِزْقِهِ مِنْ حِلِّهِ) الميزان/١٠/١٧٨ . ٢ - جعل الله في أرضه نعمًا لا تحصى وأودع في الإنسان طاقة يسيطر بها على الطبيعة ويكشف ما فيها من موارد ويجوؤها لمصلحته وسدّ حاجاته ، ومعنى هذا أنّ الرزق من الله وعلى الله ، ولكن عن طريق السعي والعلم والاختصاص والعمل ، وعلمنا القرآن أنّ سنن الله في الخلق وأسباب الرزق لا تكون إلاّ من خلال سنن الله تعالى في ارتباط الأسباب والمسببات ، والأسباب بيد الإنسان والمسببات من الله على ضوء توفر الأسباب، عن الإمام العسكري (ع) : (لَا يَشْعَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ، عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨ .

٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَلْوِكَ بِهِ إِكْرَامًا أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَنْ نَقُولَ إِنَّكَ مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُبِينٌ﴾

تقدّم في سورة الأعراف/٥٤ خلقهما في مقدار ستة أيام وستة أوقات أو ست مراحل من مراحل التكوين أي بالتدرج مع قدرته أن يخلقهما في لمح البصر وفيه الحث للعباد على معرفة أهمية الزمن واستثمار الوقت ، وعلى الصبر في إنجاز الأعمال والتأني في الأمور وإنها جارية في التدبير والتقدير

على أساس منظم زمني دقيق مبني على الحكمة والمصلحة (سِتَّةَ أَيَّامٍ) بمعنى ما مقداره ستة أيام لأنه لم يكن هناك أيام بعد فلا يصحُّ أن تقدّر أيام الله بأيامنا كقوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج/٤٧ ، ونستدل من ذلك : على علاقة وحدة السنن الكونية مع وحدة السنن الإنسانية في نظام مشترك واحد موحد متّحد ، فكما يتم الجنين الإنساني بتسعة أشهر تم خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، فخلق السماوات والأرض أشبه بالكائنات الحية في الخلق والتكوين وتحديد الأجل ونهاية العمر بالموت (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) المراد بعرش الله تعالى كناية عن ملكه وسلطانه (عالم الوجود). كان الملك مستقراً على الماء وهو أصل الحياة ومنه خلق كل شيء حي كقوله ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ الأنبياء/٣٠ ، فقدره تقديراً ودبره تدييراً ، ولا آية ولا رواية تنص على أصل نشأة الكون وعناصره ، ولا شيء لدينا إلا الإيمان بقوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/٨٢ ، (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) لِيختبركم ، ولم يقل (أكثر عملاً) وإنما قال (أَحْسَنُ عَمَلًا) لأنّ في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) لَيْسَ قِيَمَتُهُ بِمَا يَمْلِكُهُ ، والأحسن يأتي من الإنسان الأحسن ، والأحسن على إطلاقه ، خلقهن لحكمة بالغة لِيختبركم ﴿حَتَّى يَمَيَّزَ الْحَيِّثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران/١٧٩ ، وبذلك يتحقق للخلق فلسفة وجوده كقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف/٧ ، ويجازيكم حسب أعمالكم وعدّ الإنسان المحسن غاية للخلقة لأن في الإنسان كمال الصنع وعليه أن يؤدي كمال التكليف لينال الأجر عن النبي (ص) : (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلاً ، وَأَوْرَعُ عَن مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ) مجمع البيان ١٠/٦٩ (وَلَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ) ولئن قلت إنكم ستبعثون حتماً مقضياً بعد موتكم للحساب ليجزيكم فيما ابتلاكم إشارة إلى ما كشف عنه هذا الابتلاء والامتحان فقد كشف عن بعض نفوس خبيثة تنكر حقيقة العالم الآخر والجزاء ، فأتمت العقاب فأساءت الأدب وتعدّت الحدود ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ النجم/٣١ ، (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) ليقولن الكفار ما هذا القرآن إلا سحر واضح تسحر به العقول ، فما أعجبه من قول أن تقولوا للحق لما جاءكم إنه سحر مبين.

فائدة: ١- عن الإمام الكاظم (ع) : (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَعَلِمَ مَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ ، فَأَمَرَهُمْ وَنَهَاَهُمْ فَمَا أَمَرَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلَ السَّبِيلَ إِلَى الْأَخْذِ بِهِ ، وَمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلَ هُتَمَ السَّبِيلَ إِلَى تَرْكِهِ وَلَا يَكُونُونَ آخِذِينَ وَلَا تَارِكِينَ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَمَا جَبَرَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ بَلْ اِخْتَبَرَهُمْ بِالْبَلْوَى كَمَا قَالَ (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)) كنز الدقائق ٤/٤٤٣ . ٢- وفي العلم الحديث : إنّ الهواء عند تكاثفه الشديد يستحيل ماء ، وإذا تكاثف الماء يصبح أرضاً

وإذا زاد تكاثفه يصبح صخراً ! ٣- (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) كقوله ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فصلت/ ٩ ، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فصلت/ ١٢ ، وخلق ما على الأرض من أنواع الحيوانات والنباتات والمخلوقات في يومين. ٤- (لِيَبْلُوكُمْ) اللام العلة عقلاً ، ولام الحكمة والمصلحة شرعاً.

٨ - ﴿وَلَكِنَّ آخِرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وأقسم لمن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب إلى (أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) إلى حين من الزمن مقدر في علمنا وهو مقتضى سننا في خلقنا كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/ ٣٨ ، أي إلى مدة من الزمن قليلة (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) (مَا يَحْبِسُهُ) : ما يؤخره ، ليقولن استهزاءً ما يمنعه من النزول ؟ لماذا يتوقف العذاب ولماذا لا يجل بنا لأنه لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب ، فإن من الخطر الكبير أن نتعامل مع القضايا الكبرى بجهل وتجاهل وبغفلة وتغافل فَإِنَّ الْعُقَلَاءَ مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ (أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) ألا فليستبهاوا فإنه يوم يأتيهم العذاب بعد انتهاء المدة المحددة ليس مدفوعاً عنهم حتى يبيدهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأنعام/ ١٤٧ ، (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (وَحَاقَ بِهِمْ) أي نزل وأحاط بهم العذاب من كل جانب الذي استخفوا منه وسخروا به قبل وقوعه ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة/ ٨٢ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْهَلٌ حَتَّىٰ كَانَتْهُ أَهْمَلٌ ، وَسَتَرَ حَتَّىٰ كَانَتْهُ غَفْرٌ ، وَأَنْذَرَ حَتَّىٰ كَانَتْهُ أَعْدَرٌ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/ ٩٩ ، في غرر الحكم: (مِنْ أَعْظَمِ الْمَكْرِ تَحْسِينُ الشَّرِّ).

٩-١٠-١١- ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفٌ كَفُورٌ ، وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهْزِئِينَ﴾

ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

إنها صورة متحركة تجسم نفسية الإنسان القاصر الذي يعيش لحاضره ، وتتقلب نفسيته كما تتقلب حالاته ، وتتقلب مواقفه مع تقلب نفسيته ، وليست كلُّ نعمة من الله لعباده دلالة على محبته لهم (وبالعكس) في سلب النعمة لا يعني غضب الله عليه ، بل هو في الحالتين ابتلاء كقوله ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلَّا﴾ الفجر/ ١٥-١٧. المعنى : ولئن أنعمنا على الإنسان (الذي لم يترب تربية ربانية) بأنواع النعم التي لا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إبراهيم/ ٣٤ ، مثل الصحة والأمن والرزق والعلم والمواهب والملكات.. إلخ واستدوق طعمها ولذتها كما يستدوق

طعم الطّعام والشراب اللّذيذين (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) ثم سلبنا تلك النعم منه يعني خرج من يسر إلى عسر بسبب سوء عمله.

(إِنَّهُ لَيَبْئُوسٌ كَفُورٌ) يَبْئُوسُ : إنّه شديد اليأس وكثير الكفران ونكران النعمة والمعروف إنه قنوط من رحمة الله ويسيء الظن بالله ، وكأنّه يرى تلك النعمة من حقّه الثابت علينا ويرانا غير المالكين لها وظالمين له فيها إذا أخذناها منه . ١٠ - (وَلَنْ أَدْفِنَاهُ نَعْمَاءً) ولنن منحنا الإنسان نعمة فأدرك خيرها واستدوق نعمتها وطعمها وظهر أثرها على حياته (بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ) مضرة تظهر حاله ، من بعد ما نزل به من الضر وما أصابه من البلاء كالفقر والمرض والشدائد والمعاناة يعني خرج من عسر إلى يسر (عكس الحالة الأولى) (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) ارتفعت المصائب والشدائد والبلايا عني ولن تنزل ولن تعود ولن يصيبني منها شيء أبداً ، لأنني أخذت كلّ الاحتياطات اللازمة لعدم تكريرها فينسى الله وتبطره النعم ونسي ما كان فيه بالأمس القريب كقوله ﴿فَلَا تَعْرَتَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرَتُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ فاطر/٥ ، (إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ) إنه بطر بالنعمة مغتر بها وينفتح قلبه بما يلتذ به ، الفرح إذا أطلق في القرآن كان للذم ، وإذا كان للمدح يأتي مقيداً بما فيه خير كقوله ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ آل عمران/١٧٠ ، (فَخُورٌ) يتناول بتعديد المناقب ، وفيها مظاهر التكبر على الناس والاستعلاء عليهم ، مشغول بالنعم عن شكر المنعم ، والآية ذم لمن يقنط عند الشدائد ويبطر عند النعم. ١١ - (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) هو استثناء في هذا الحكم العام الواقع على الإنسان أي هذه عادة الإنسان غير المؤمن على العموم إلاّ المؤمنين الصالحين الذين يصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير في النعماء ويشكرون الله على كلّ حال ، فهم في حالي المحنة والنعمة مستقيمون محسنون لا يتجاوزون حدود الله ولا يعتدون على أحد ، ويمتازون عن سائر أفراد الإنسان بالاستقلال في شخصيتهم والإخلاص لدينهم والثبات على عقيدتهم في السراء والضراء ويقابلونها بشجاعة وعلم من غير تأفف (أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) لأولئك الموصوفون بالصفات عالية المضامين لا يغتزون عند وفور النعم ولا ينسون الله ولا ييأسون عند الشدائد فيكفرون بالله هم يمثلون الشخصية الإسلامية المستقيمة على دين الله في الرضا والغضب وفي السراء والضراء ويتحملون كل المعاناة وتكون مواقفهم في جميع الأحوال والأشكال غير متقلبة ولا متغيرة ولا متذبذبة أولئك لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير ورفع منزلة في الآخرة ، ووصف الثواب بأنه (كَبِيرٌ) في الجنة بلا حدود ولا قيود حتى يفوق الخيال ، إنّه كبير في مقياس الله لا في مقياس الناس.

فائدة : ١ - هذه الأوصاف اليأس والكفر والفرح والفخر هذه أوصاف ليست ذاتية ثابتة في الإنسان ولا تحديداً لطبيعته وإلاّ شملت الأنبياء (ع) ولما صح الاستثناء (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا..)

وإنما هي تفسير لسلوك الكثير من الناس الذين يتأثرون بما يحيط بهم من ظروف ضاغطة ، فهم ضعفاء الإيمان يتغيرون مع تغير الظروف، في نوح البلاغة: (إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا وَ إِنْ نَالَ رَحَاءً أَعْرَضَ مُعْتَرًّا تَعْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ وَلَا يَعْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِهِ إِنْ اسْتَعْنَى بَطْرَ وَفِتْنٍ وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ) التفسير المبين ص ٢٨٥، في غرر الحكم: (إِنَّمَا يُعْرِفُ مَقْدَارَ النَّعَمِ بِمُقَاسَاةِ ضِدِّهَا). ٢- بلاء النعمة أشد من بلاء المحنة ، كثير من الناس تصبر على المحنة ولكن القليل منهم من يصبر على النعمة فلا يعتر ولا يبطر. ٣- وعبر عن النعمة بالرحمة (مِنَّا رَحْمَةً) لأنها من فيض رحمته التي وسعت كل شيء ، وعبر عن زوال النعمة بالنعز (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) لدلالة على تشبث الإنسان بها فينزع النعمة منه نزعاً دالاً على القوة والشدة والقدرة وبسبب لم يؤد حق النعمة بالشكر ، فاعتدى على حقوق الناس وتعدى حدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١. ٤- قال (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) ولم يقل عن الإمام الصادق (ع): (آمنوا وعملوا الصالحات) لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد) الكافي ١/٨٩، فالصبر يقوي الإيمان ، والإيمان ينتج الصبر الجميل ، ويعصم النفس من اليأس في الشدة كما يعصمها من البطر في الرخاء ، والمؤمن صبور في الشدة شكور في الرخاء ، وليس ذلك إلا المؤمن كما عن النبي (ص). ٥- (أَذْفَنَاهُ) أضاف سبحانه إذافة النعماء إلى ذاته الكريمة (بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه) ومس الضراء يرجع بسبب الإنسان لا إلى الله تعالى ، تنبيهاً على أن القصد الأول إيصال الخير إلى العباد تفضلاً منه تعالى ورحمة، ومساس الشر من سوء تصرفه وما كسبته يدها كقوله ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ النساء/٧٩ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الشورى/٣٠.

عن الإمام علي (ع): (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللَّهِ وَصَلَّ إِلَيْهِ) البحار ٧١ ص ٩٥.

١٢ - ﴿فَلَعَلَّكَ تَامِرٌ يُؤْحَى إِلَيْكَ وَصَاقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا أَلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِثْلَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى مُوسَى إِنَّكَ عَلَى شَيْءٍ مُبِينٍ﴾

(فَلَعَلَّكَ) هنا تحمل معنى الاستفهام أي هل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم كي لا يقابلوه بالإعراض ، كان النبي (ص) يتلو على المشركين آيات القرآن داعياً إلى الإيمان بالوحدانية واليوم الآخر، وكانوا يهزأون حيناً ويقترحون معجزات عليه حيناً آخر ، وكان موقفهم هذا يجزئه ويؤلمه فقال له الله تعالى مخففاً عنه : إمض في دعوتك ولا تبال بما يقول المستكبرين ويقترحون، وماذا تصنع لتمنعهم من تعنتهم. المعنى : (فَلَعَلَّكَ) يا محمد أي هل تترك بعض ما يوحى إليك من تبليغ القرآن ما يرضي رغباتهم ومصالحهم ودفعاً لأذاهم ؟ كلا ، إنك لن تفعل ذلك ولن تترك بيان الحق إلى الخلق وهو أمانة في عنقك فلماذا الحزن إذن وضيق

الصدر ؟ (وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ) كناية عن الغم والحزن ، ويضيق صدرك وينقبض من تبليغ المشركين ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب ، والغرض تحريضه (ص) على البلاغ المبين وتوضيح الرسالة وعدم المبالاة بمن عانده وعاداه (أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ) لأجل أن يقولوا (لَوْلَا) هلا أنزل عليه كنز وتمطر السماء عليه ذهباً وفضة أو يفجر العيون والأنهار تفجيراً (أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) أو يأتي ملك من الملائكة يشهد بنبوته ، قال تعالى محمداً مهمة النبي (ص) ومسؤوليته (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) لست يا محمد إلا منذراً تخوف المتجاوزين حدود الله من عذاب الله ولا تكترث بسفاهة السفهاء وجهل الجهلاء وسخافتهم فإن ذلك لا يعينك (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) حفيظ أي يحفظ ما يقولون ، والله الموكول إليه تدبير العباد والرقيب عليهم والقائم بشؤونهم ويعرف كيف يحاسبهم ويفعل بهم ما يستحقون، وينبغي من العبد أن يتوكل على الله ويستعين به (مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَّاهُ) كقوله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النور/٥٤. فائدة : وقد تعطي معنى (تارك) أي مؤخر البلاغ القابل للتأخير ويكون وقته موسعاً كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة/٦٧.

١٣ - ١٤ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) اختلقه وألفه أي اختلق محمد هذا القرآن المعجز وإبتدعه واخترعه من عند نفسه ونسبه إلى الله؟ (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَاتٍ) إن كان الأمر كذلك فاتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة والحكمة وحسن النظم والإخبار بالغيبيات وسائر المعجز الأخرى مفتريات مبتدعات فأنتم عرب فصحاء (وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) استعينوا بمن شئتم من البلغاء العارفين بأساليب الكلام وبلاغته وفصاحته غير الله سبحانه (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في أنّ هذا القرآن العظيم مفترى وإنه ليس من الله (فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء/١٠٥ ، فإن لم يستجب لكم (معاشر المسلمين) من دعوتهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المشركون أن ذلك العجز دليل على أنّ هذا القرآن نزل بعلم الله ولم يفتري عليه (وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وإعلموا أيضاً أن ما أدعوكم إليه من التوحيد حق ، لا رب ولا معبود إلا الله الذي أنزل هذا القرآن المعجزة (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) لفظة استفهام ومعناه أمر ، أي فأسلموا واستلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة بأنّ القرآن حق نزل من عند الله ليكون حجة الله عليكم ؟ إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك بغير التسليم ، وتقدّم في سورة البقرة/٢٣. فائدة : تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا ، وبعشر سور فعجزوا

وبسورة واحدة فعجزوا أيضاً، ولا سر لهذا العجز إلا أن كلام الله جلّ في علاه فوق كلام المخلوقين ، كما أن ذاته وصفاته فوق ذاتهم وصفاتهم ، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره كقوله ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء/ ٨٨ ، وعن أهل البيت (ع) : (إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّىٰ فِي كَلِمَاتِهِ وَفِي كِتَابِهِ لِعِبَادِهِ) ، والكلام صفة المتكلم تفسير المبين ص ٢٨٦ ، عن النبي (ص) : (أَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ) ميزان الحكمة ٤٤٨/٨ ، في غرر الحكم : (أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا زَانَهُ حُسْنُ النِّظَامِ، وَفَهْمُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ).

١٥ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

تأتي الأرزاق نتيجة السعي والتدبير وحسن التقدير لا ينقصها كفر ولا يزيدا إيمان ، وإتّما الأرزاق حقُّ المخلوق على الخالق. المعنى : من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط لأنه لا يعتقد بالآخرة ، أو تفضيل نعيم الدنيا العاجل على نعيم الآخرة الآجل ويأساً منه (وَرَبَّنَّهَا) من رزق كثير لا يهتم من حلال أو حرام أو شهوة أو منصب أو وجاهة ولا يحسب حساب للآخرة (نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) نوصل إليهم كمال حقهم ونعطيهم أجور أعمالهم بما يجبون فيها من الصحة والأمن والرزق (وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) وهم في الدنيا (لَا يُبْخَسُونَ) لا ينقصون شيئاً من أجورهم وحقهم، فأعمالهم توفى إليهم حسب نظام الأسباب والمسببات ، لا بحسب ما يقصده الفاعل بفعله ، من كانت الدنيا أكبر همه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم في الآخرة ليس له حسنة يكافئ عليها ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩. فائدة : (نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) ليس المراد بأعمالهم أعمال كلِّ النَّاسِ فإنه لا يجد كلُّ متمنٍ ما تمناه فإنَّ ذلك متعلق بالمشيئة الإلهية كقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ الإسراء/ ١٨ ، والذين لا يؤمنون بالآخرة يؤتيهم الله في الدنيا بعض ما يرغبون مقابل خدماتهم واختراعاتهم واكتشافاتهم ولا نصيب لهم في الآخرة ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ وَأُخْسِرَ أَهْمَ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِي؟ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

١٦ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

لأن الشهوات المحرمة والملذات أعمت عقولهم عن الحق وأصمّت آذانهم عن طريق الله المستقيم (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) وبطل وفسد وخرب ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تأكيد لما سبق أي باطل في نفسه لا وزن له في ذاته ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ، ولا أثر لأعمالهم لأنهم لم يعملوا للآخرة شيئاً ولم يريدوا بأعمالهم الحسنة وجه الله ، وسيكتشفون قبيل موتهم أن أعمالهم إنما كانت سراباً خادعاً لا حقيقة له كقوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ الليل/١٩-٢٠ ، فإن

العمل للأخرة يكون بتزكية النفس والتقوى و(مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) فائدة : الدين يبيح التمتع بالطيبات والزينة من غير سرف ولا تبذير ولا خيلاء ، ويشكر الله على كل نعمة ، وبالشكر تدوم النعم وتُدفع النقم ، لأن بالشكر تعرف قيمة النعم وفضل المنعم.

١٧- ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَٰنٍ مَّرِيَّةٍ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّ لَهُ مِوْعِدَهُ ۗ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه من يعمل حياة الدنيا منصرفاً عما سواها ، ذكر من يعمل لله منصرفاً عما سواه ويدعو إليه على بينة من أمره مقتدياً بالصالحين الهمة للإنكار يعني استفهام إنكاري. (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ) نور وبصيرة وبرهان واضح من الله تعالى في أموره كلها (والبينية) الحجة والبرهان هي النبي والقرآن ، بمعنى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) وهو النبي والقرآن والمؤمنون العاملون وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً واختلافاً كثيراً ، فلا يستوي من أراد دين الله ومعه البينة الواضحة ومن أراد الدنيا وزينتها (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) ويتبعه شاهدٌ من نفسه يشهد بصحته وإستقامته ويتبعه شاهد من الله بصدقه ، وأطلق الشاهد ولم يحدده ، وقيل إنها الفطرة السليمة والعقل المتنور وقيل أنه جبريل أو القرآن أو كل مؤمن صادق وقدوتهم علي بن أبي طالب لحديث (عَلَيَّْ مِثِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ) كما ورد في البخاري وغيره (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً) ومن قبل القرآن شاهدٌ آخر يؤيدك وهو كتاب التوراة الأصلية الذي أنزله الله على موسى (إِمَامًا) قدوة في الخير ويُصلح المؤمنين والعاملين به في دنياهم وآخرتهم (وَرَحْمَةً) وفضل وإحسان لمن نزل عليهم لأنه يهدي إلى الحق يشهد على نفس الأمر ، ومن ذلك البشارة بمحمد (ص) وصدق رسالته (أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أولئك إشارة إلى الذين يعملون بدلائل الحق وبيناته كالقرآن وتوراة موسى وإنجيل عيسى الصحيحتين ، هؤلاء المشار إليهم لم يذكرهم القرآن بأسمائهم ولكنهم مذكورون فيه بأوصافهم (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّ لَهُ مِوْعِدَهُ) ومن يكفر بالقرآن وبمحمد (ص) من أهل الملل والأديان فله نار جهنم يردها لا محالة ، فإن من لم يهده القرآن فيضله الشيطان ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/٢٩ ، أما المراد بالأحزاب فهم الذين أجمعوا على عداوة محمد (ص) فإن كان الأمر كذلك (فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) الخطاب للرسول (ص) ومعناه للأمة فلا تَكُنْ (في مِرْيَةٍ مِّنْهُ) في شك أيها المكلف من هذا القرآن العظيم الذي هو كنز السماء في الأرض الذي تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ، في غرر الحكم: (عَلَيْكَ بِلُزُومِ الْيَقِينِ وَجَنُوبِ الشَّكِّ فَلَيْسَ لِلْمَرْءِ شَيْءٌ أَهْلَكَ لِدِينِهِ مِنْ غَلْبَةِ الشَّكِّ عَلَى يَقِينِهِ) (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) الذي يربيك في دينك ودينك إنه الحق الثابت المنزل من ربك الذي لا شك فيه إنه حقٌ بذاته وحقٌ من ربِّه وحقٌ للناس (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) إيماناً كاملاً لا يصدقون أنه تنزيل رب العالمين لقصور إدراكهم وضيق فهمهم ، عن الإمام علي (ع): (إِنَّ مَنْ لَا يَسْتَقِمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ

يَضْرُهُ الشُّكُّ) شرح النهج ٩١/٢. فائدة: الخلاصة : لا ينبغي لأصحاب العقول أن يشكوا في الإسلام الذي فيه السلام والأمان ، لسهولة فهمه وسلامة أدلته وسعة شريعته الهادفة إلى خير الناس كلهم ورعاية مصالحهم في دنياهم وآخرتهم وروحهم وجسدهم والتيسير عليهم والعدل فيما بينهم.

١٨ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

لا أحد أظلم ولا أظلم لنفسه ولغيره ممن اختلق وافتعل الكذب على الله في أقواله وأفعاله وأحكامه، إذا كان شر القول الكذب على المخلوق فكيف إذا كان الكذب على الخالق؟! والافتراء على الله يكون بأشكال مختلفة منها : جعل شركاء لله بشكلٍ جلي أو خفي ومنها التحليل والتحریم بلا دليل من كتاب وسنة والإعتداء على حقوق الناس ، ومنها إتخاذ قيادات أرباباً من دون الله ، ومنها السلب والنهب بإسم الدين والفضيلة والسماحة.. إلخ (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) أولئك الأظلم الذين إفتروا على الله كذباً ، يعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم في موقف عصيب ورهيب ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١ ، (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) الذين يشهدون يوم القيامة على أعمال أمهم في الدنيا الصالحة والطارحة ويقولون الأشهاد يوم المحشر وهم الملائكة والنبيون والمؤمنون الصالحون من كل عصر (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) المحسن إليهم والمدبر أمرهم بالافتراء على ربهم وأخذهم العقائد الباطلة ، وأضافوا إلى الدين ما ليس من الدين وحسبوه للناس من دين الله وأظلم الناس من تلاعب في دين الله ، و (هَؤُلَاءِ) إشارة إلى تحقيرهم والتشهير بهم وشدة حسرتهم ، وأن الله لا يحتاج إلى شهود وهو خير الشاهدين لأنه يعلم كل شيء ويحكم بعلمه وعدله والغرض فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الأشهاد والتشهير بهم ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ ، أما شهادة الأنبياء وشهادة ألسن المكذبين والضالين والأيدي والأرجل والجلود كقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لَوْلَا دَرَمُ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصلت/٢٠-٢١. أما هذه كلها فالمقصود أن يكون المجرمون على يقين بأنه لا حجة لهم ولا عذر يلجأون إليه ولا مفر لهم من لعنة الله وعذابه (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) اللعن: الطرد من رحمة الله وتكريمه.

فائدة : ١- ومفهوم اللعن في القرآن يكون للصفات وليس للذات ، ويكون بصفة العموم وليس للأشخاص والأسماء ، ويكون اللعن للذين تفننوا بالكذب وقلبوا وجوه الحقائق الدينية وشوهوها !

٢- (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) يتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولا تُعرض قبائح أعمالهم على الله تعالى ولا يكشف سترهم على الخلائق يوم المحشر !

١٩- ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الذين يمنعون الناس ويصرفوهم بكل وسيلة ممكنة عن إتباع الحق ويضعون العراقيل في سبيل الهدى إلى الله بالقوة أو بالدعايات الكاذبة ويسعون لتلويث فطرة الإنسان السليمة ويضعون الشبهات في دين الله ويفسرون القرآن بالرأي وإخفاء الحقائق على عامة الناس ويشوهون تشريعاته وبمختلف أنواع المنع من ترهيب أو ترغيب أو تضليل أو إشاعة الرعب بين الناس (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) يريدون أن يكون دين الله معوجاً ملتويًا ومنحرفاً عن الاستقامة وعن الصواب بما يلقونه من التحريف أو البدع أو الشبهات التي تصوّر طريق الله المستقيم الحق طريقاً أعوج ومكروهاً في نظر الناس ، وسلوك طريق غيره من الطرق الاجتماعية المتنوعة الاتجاهات ، ويؤولون الدين بحسب أهوائهم ويضعون القوانين الوضعية غير مراعين حكم الله فهم محرفون منحرفون سواء اعترفوا بالخالف أم لا (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) كفرة عقيدياً أو عملياً، جاحدون باليوم الآخر منكرون للبعث والنشور ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤، ويكرّر (هم) مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير. فائدة: ١- (عِوَجًا) مفهوم واسع مثلما يفعل المضللون في أيامنا حيث يسمون الإستغلال ديمقراطية ، والإحتكار حرية ، والسلب والنهب شطارة.. إلخ. ٢- (في سبيل الله) دينه القيم وهو معنى عام يشمل كل طريق يخدم الناس ويرضي الله.

٢٠-٢١ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

مُعْجِزِينَ : لا يمكنهم أن يهربوا من عذاب الله ، وليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ، ولا يتمتعون منه إذا أرادهم ولا يفوتونه هرباً إذا طلبهم. المعنى : هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا بالذين يعجزون بهم بهربهم منه في أرضه إذا جاء عقابهم ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم من دونه (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ) ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله مما يريد إيقاعه بهم في الدنيا من المكاره وفي الآخرة من أنواع العذاب ، (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) مضاعفة العذاب كناية عن شدته وهوله ، أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وتجاوزهم للحدود ولأنهم ظلّوا وأظلموا غيرهم (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) ثم بين السبب في مضاعفة العذاب عليهم ، لأنهم ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم ولا يصغون إلى القرآن ولا يتدبرون فيه وأغلقوا أسماعهم عن سماع كلمة حق لشدة كراهيتهم له ، لاستحواذ الباطل على أنفسهم وأكل الحرام في بطونهم ورين الكفر والظلم على قلوبهم حتى قست قلوبهم فلم

يَنْتَفِعُوا بِمَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَوَاسٍ كَقَوْلِهِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فصلت/ ٢٦ ، (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) وهي أفدح الخسارة وأشدُّ المرارة ، حين أضاعوا أنفسهم للدنيا وكأهم مخلوقون لها وليس للآخرة ، خسروا سعادة الدنيا والآخرة وخسروا راحة أنفسهم بتعريضها لعذاب جهنم كقوله ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/ ١٢ ، فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرَبِحَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَخْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ ، وَهِيَ نَفْسِي ؟! (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) بعد أن خسروا أنفسهم بقي ما كان بين أيديهم من مفتريات وأباطيل (وَضَلَّ عَنْهُمْ) وضاع رصيدهم من الأكاذيب ، فقد صفرت أيديهم ولم يبق لهم إلا ما أعقب من الحسرة والندامة !

٢٢ - ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾

(لا جرم) أي حقاً وحتماً ولا شك أنهم يوم القيامة من أخسر الناس ولا ترى أحداً أكثر خسراناً منهم ، لأنهم حملوا ذنوبهم وذنوب من أظلمهم وخسروا الدنيا والآخرة كقوله ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النحل/ ٢٥ ، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي ، لا يعرف كيف يبدأ ! والجَاهِلُ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَعْمَلُ الْعَدُوُّ بَعْدُوهُ ! عن النبي (ص): (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء/ ٧٢ ، في نهج البلاغة كتاب ٣١: (مَنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ)

٢٣ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

إن الذين استقاموا على منهج الله فلم يتقلبوا ولم يتذبذبوا ولم يعيشوا النفاق ، فجمعوا مع الإيمان العمل الصالح كما جمعوا القول مع العمل والعبادات مع المعاملات والشكل مع المضمون والادعاء مع الحقيقة في كل الحالات في الشدة والرخاء (وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) والإخبات : الثقة والتسليم وهدوء النفس وسكون القلب والاطمئنان إلى الله عز وجل والخشوع والخضوع والتسليم له والإنقطاع لعبادته وإطمأنوا إلى حكمه وقضائه وقدره وكل ما جرى وتجري به في سنن الله الكونية والإنسانية بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان به فلا ينحرفون ولا يرتابون ولا يعتدون (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أولئك هم سكان الجنة هم أهلها والمؤهلون لها والخالدون فيها أبداً ، وهم صفوة المؤمنين من أهل البصيرة.

٢٤ - ﴿كُلُّ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(الأمثال تُضْرَبُ لِإِعْتِبَارِ) صورة حسية تجسم حالة الفريقين ، فريق المؤمنين وفريق الكافرين (الظالمين) (كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين

العمى والصمم أي عطلها ولم يستفد منهما وهم الكافرون، ومن جمع بين السمع والبصر أي استفاد منهما وهم المؤمنون (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) استفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً في كل شيء في الذات والصفات والعواقب ، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضياءه كحال من يتخبط في ظلمات الجهالة وحيرة الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ، ومن لا يعرف الباطل من الحق أو يعرف وينحرف عن الحق فهو كالأعمى والأصم الذي لا ينتفع بسمع وبصر، أمّا من يعرف الحق ويعمل به فهو سميع بصير يشع نور الهدى في قلبه ولسانه وفعله ، لا يستويان مثلاً إنّ بينهما تفاوتاً كبيراً (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أفلا تعتبرون وتتعضون فيما بينهما من التفاوت الكبير؟ في غرر الحكم: (لأهل الاعتبار تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ) ، وعنه (ع) : (مَنْ إِعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ وَمَنْ فَهَمَّ عَلِمَ) البحار ٣٢٧/٧١ الفريق الأول (كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ) وهو الكافر وما شابهه من المنافقين والفاستقين لا ينتفع بجواسه كما لا ينتفع الأعمى بعينه والأصم بأذنيه ، والفريق الثاني (الْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) وهو المؤمن بكافة مستوياته ينتفع بهما معاً خير إنتفاع ، سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها واضحة، لا تحتاج إلى أكثر من التذكّر

٢٥ - ٢٦ ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ

الْأَلِيمِ﴾

أرسلنا نوحاً رسولاً من أولي العزم إلى قومه الذين ملؤوا الأرض بشركهم وشروهم وعنادهم في عبادة الأصنام (إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) إِنِّي لَكُمْ منذر ومحوّف من عذاب الله إن بقيتم على شرككم وتخلّفكم (وليس لي من الأمر شيء) إلاّ أني أبلغكم رسالة ربكم وأنصح لكم (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده وهذا قوام الرسالة والإنذار، ورسالة التوحيد أساس مشترك في دعوة جميع الأنبياء(ع) وعلى قاعدة(كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة) فإذا طبقت الأمة هذه القاعدة الحركية النموذجية فلا تنحني رؤوسها لسائر الأصنام المصنوعة المادية والمعنوية مثل عبادة الأفراد والأنانية والهوى والشهوات والجاه.. وكان قومه أول من أشرك بالله وكان نوح(ع) أول رسول إلى أهل الأرض، وظهر الرفق بهم والإشفاق عليهم (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْأَلِيمِ) هو عذاب الاستئصال ، فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار في هذه الكلمات القصار ذات دلالات كثيرة ممّا يدلّل أنّ الرّسالة الإسلامية العامة التي جاء بها الأنبياء يكون ظاهرها أنيقاً رقيقاً مناسباً وباطنها عميق دقيق جدّاب !

٢٧ - ﴿فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِي نَحْنُ هُمُ أَمْرَآدُنَا بَادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

(فَقَالَ الْمَلَأَ) وهم الزعماء والكبراء الذين يملؤون أعين الناس ويهابوهم (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا فلا موجب لاتباعك وهذا الإنكار دون تفكير بما هو

أصلح (وَمَا تَرَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا) : ضعفاءنا والخسيس الديني منا وهم الذين لا جاه لهم ولا مال وليس مرغوباً بهم لسوء حالهم وفقدهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه وقيمة كلِّ امرئٍ ما يملكه ولكن الصحيح (قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحْسِنُهُ) نهج البلاغة حكم ٨١ (بَادِي الرَّأْيِ) في ظاهر الرأي من غير تفكير وتثبت وقبل التأمل في باطنه أو رويته بل بمجرد دعوتهم اتبعوك من دون بصيرة من أمرهم ، (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة واستحقاق القيادة والسيادة، فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه ولم تسبقونا أنتم إليه (بَلْ نَطْنُكُمْ كَاذِبِينَ) جميعاً لكون دعواكم واحدة. فائدة : ١ - (هُمْ أَرَادُوا) هكذا ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يأتوا المال والسلطان ، الحقُّ في ذاتِهِ عَزِيزٌ وَلِغَيْرِهِ عَزِيزٌ عن الإمام العسكري (ع) : (مَا تَرَكَ الْحَقُّ عَزِيزاً إِلَّا ذَلَّ، وَلَا أَخَذَ بِهِ دَلِيلٌ إِلَّا عَزَّ) البحار ٢٣٢/٧٢ - ٢ - الملاء من قوم نوح كالملاء من قوم كلِّ نبي تعميمهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية الخصائص العلوية السامية ، عن الإمام الصادق (ع) : (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) البحار ٧٣ص٧.

٢٨ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِي فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مَوْتًا وَأَنْزِلْكُمْ كَارِهُونَ﴾

قال لهم نوح في سماحة ومودة (أَرَأَيْتُمْ) أي أخبروني يا قوم إن كنت على (بَيْتَةٍ) برهان وحجة وبيان من ربي بصحة دعواي، فالرسالة نوع من الاتصال بالغيب الخارق للعادة لا تثبت إلا بغيب خارق للعادة وأعطاني بينة خارقة للعادة ، تلطف نوح معهم في الأسلوب اللين لاستمالتهم إلى الإيمان (وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِي) ورزقي هداية خاصة من عنده سبحانه وهي النبوة والرسالة (فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) خفيت أي فخفي الأمر الرسالي عليكم لعدم تدبركم فيه ، لاحتجابكم بحب الدنيا عن نور الإيمان وعجزتم عن فهم رسالة الله تعالى لجهلكم وغروركم وتكبركم وكرهتكم للحق (أَنْزِلْكُمْ مَوْتًا) أي أنكرهمكم على قبولها وأنتم كارهون لها إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم وأجبركم على الإيمان برسالة الله (وَأَنْتُمْ هَا كَارِهُونَ) وإذا كره القلب عمي عن رؤية الحق عن النبي (ص) : (شَرَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ١١٤/٧٧ فأنتم لا تؤمنون طغياناً ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/ ٢٥٦ ، ونلاحظ (أَنْزِلْكُمْ مَوْتًا) أي أنجبركم على قبولها ! والعقيدة لا بد لها من حرية الاختيار ، الكلمة تصوّر جو الإكراه النفسي والمادي في حالة نفسية قاهرة كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون؟! ومع هذا التعبير يتلطف نوح (ع) في توجيهه أنظارهم لإدراك القيم الخفية عليهم في أمر رسالة السماء التي يغفلون عنها.

٢٩ - ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَمَلِي وَاللَّهُ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَمْرًا كُفُومًا تَجْهَلُونَ﴾

لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني وحتى تكون الدعوة خاصة بالأثرياء وبعيدة عن الفقراء ، فالناس كلهم في رسالتي سواء ، ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء ، ومن يتكلم باسم دين الله فلا يطلب أجراً من سواه إن كان صادقاً في دعوته وكلامه ، والمرزقة باسم الدين الذين يتخذون الدين سلماً للدنيا ، هم الذين يسألون الناس أموالهم وصدقاتهم كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس/٢١ ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ طلب الطّاعة من نوح أن يطرد المستضعفين أنفة من الاجتماع معهم فرفض ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ولا بطاردهم عني كما طلبتم ، وما هو السبب لطردهم؟ إلا لأنهم فقراء؟ وليس الفقر ذنباً عند الله ولا عيباً عند الناس ، أو لأن إيمانهم مزيف (إِنَّهُمْ مُلَافُوا رَبِّهِمْ) فهم ذاهبون إلى ربهم وهو أعلم بمقاصدهم وفائزون بقربه فكيف أطردهم؟ (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ) ولكنكم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم وتظنون أنكم خير منهم و(النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا). في غرر الحكم: (الجاهلُ ميّتٌ بينَ الأحياء)

٣٠ - ﴿يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

من يدفع عني عقاب الله إن طردتُهُمْ فأكون ظالماً لهم وهم أكرم على الله كقوله لمحمد (ص) ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الأنعام/٥٢ ؟ (أفلا تذكرون) أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه؟ وكيف يتذكر من جهل ولا يخشى العواقب؟ فائدة: الفرق بين (التفكر) و (التذكر) : التفكر : معرفة شيء أجهله ولم يكن لي فيه علم وخبرة من قبل، وأما التذكر : معرفته من قبل ونسيانه فيأتي التذكر ليعيد المعرفة من جديد.

٣١ - ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لِنَ الظَّالِمِينَ﴾

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ولا أقول لكم عندي المال الكثير حتى تتبعوني لغناي ولا أنا مكلف بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى ، ولست مسؤولاً في التصرف في نظام السماء والأرض وسائر أجزاء الكون كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الكهف/١١٠ ، (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) ليس من شروط النبي أن يعلم الغيب ، حتى تظنوا بي الربوبية وحتى أخبركم بما كان وما يكون ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف/١٨٨ ، (وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) ملائكة أرسلت إليكم فأتربع عن حوائج البشرية فلا آكل ولا أشرب ولا أتزوج فأكون كاذباً في دعواي (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي (تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ) تحزؤون بهم واحتقرتموهم لفقيرهم لن يمنحهم الله خير الهداية والتوفيق بل يمنحهم الله خير الدنيا والآخرة ، إن نوحاً (ع) يقيس بمقياس الله وهو

التقوى والإيمان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، ولا يقيس بمقياس الجاه أو المال والتعالى على الفقراء (الله أعلم بما في أنفسهم) وعلى فرض أنهم أراذل وأهم أتبعوني طلباً للدنيا الله أعلم بسرائرهم وضمائرهم ولكن ظاهرهم يدعو إلى التكريم (إني إذا لمن الظالمين) إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب ولست من النبيين

٣٢ - ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَاكُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لما أفحم قومه بالحجة والبيان وعلى مدة طويلة مئات السنين ، ضاقوا به ولم يجدوا أية وسيلة يتذرعون بها لإنكارهم إلا أن يتحدوا نوحاً ، إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدى ! بأن ينزل عليهم ما خوفهم به من العذاب الأليم (فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فاعمل عمل من يأس من السمع والطاعة. فائدة : (جادلنا) الجدل نوعان : مذموم وممدوح ، الجدل المذموم هو الجدل بلا دليل وهو الجدل العقيم ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ الحج/٣ ، ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ غافر/٥ ، والجدل الممدوح هو المطلوب بالخلق والحجة والبرهان ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ النحل/١٢٥ ، عن النبي (ص): (مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أَوْثَقُوا الْجَدَلَ) البحار ١٣٨/٢

٣٣ - ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

أمر تعجيل العذاب إلى الله تعالى لا إليّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء (وما أنتم بمُعْجِزِينَ) ولستم بفائتين الله هرباً ولا أنتم بخارجين عن إرادته سبحانه لأنكم في ملكه وسلطانه ، والله لا يعجزه شيء لأن كل شيء في علمه وتحت قبضته وهو المدبّر لأمركم والمقدّر لحاكمكم لا مفر لكم من لقائه ، أدى الرسالة في لطفٍ ولين.

٣٤ - ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فلا تنفع النصيحة ما دتم مصرين على معصية الناصح الشفيق الحق مهما بالغت واجتهدت في النصيحة في غرر الحكم : (النصيحة من أخلاق الكرام) ، (إن كان الله يريد أن يغويكم) أي يضلكم أي يثبت ضلالكم بحسب ما تريدون ، لا لشيء إلا لأنكم رفضتم الهداية فتليق بكم الغواية كقوله ﴿فلما زاعقوا أزع الله قلوبهم﴾ الصف/٥ ، وهكذا (من لا تنفعه الهداية تضره الضلالة) وكما أهلك الله تعالى من شرب السم القاتل عن طيب نفس ورفض النهي عنه والنصح بتركه (هو ربكم وإليه ترجعون) هو ربكم وإليه تدبير أموركم وإليه المرجع والمصير وعليه الجزاء والحساب فيجازيكم على أعمالكم. عن النبي (ص) : (من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) البحار ٣٣٩/٧٤ وعنه (ص) : (إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه) الكافي ٢٠٨/٢. فائدة: ١- (أنصح لكم) هناك مراتب متعددة في التعامل مع

انحراف عامة الناس واختلاف مقادير الانحراف واختلاف القدرة على التغيير : فهناك مرحلة التذكير ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥ ، ومرحلة النصيحة كما هذه الآية ، ومرحلة القدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران/١١٠. ٢- (إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ الْغَوَايَةَ فِي الْإِنْسَانِ وَلَوْ فَعَلَ لَسَلَبَهُ إِنْسَانِيَّتَهُ وَكَرَامَتَهُ، وَلَكِنْ قَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّ مَنْ سَلَكَ بِإِرَادَتِهِ طَرِيقَ الْغَوَايَةِ كَانَ حَتْمًا مِنَ الْغَاوِينَ وَالضَّالِّينَ ، وبهذا الاعتبار صححت نسبة الغواية إلى الله تعالى ولكنها ليست بسبب الله وإنما بسبب الإنسان نفسه.

٣٥ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ لَنْ أَفْتَرِيَهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾

افتراه : اختلقه واخترعه من عند نفسه وهو الكذب على الله وتحريف دين الله هو إجمام (قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي) الجرم : كل اكتساب مكروه قل لهم إن كنت فعلته فعلي تبعته ، وأنا أعرف أنها جريمة كبرى فمستبعد أن ارتكبتها (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) أَنَا بَرِيءٌ مِنْ تَهْمَةِ الْاِفْتِرَاءِ عَلَيَّ وَبَرِيءٌ مِنْ ذُنُوبِكُمْ فِي الشَّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ ، عن الإمام الصادق (ع) : (الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ (ص) مِنَ الْكِبَائِرِ) الكافي/٢/٢٣٩ ، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام/١٤٤ ، فائدة: ١- إنهم يريدون تشويه موقف نوح (ع) ولكنه يبقى في اتزان وهدوء ولا يخضع للاستفزاز ويحافظ على صفاء نفسه وفكره من جميع أساليب التجريح والتشكيك ، ويرد التحدي بعقل منفتح هادئ. ٢- هناك ذنبٌ وهناك جرمٌ ، والجرم أقصى درجات الذنب ، وأصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، ويُقال لحمٌ مجرمٌ أي مفصول اللحم عن العظم ، كذلك الإجمام انفصال الإنسان عن حسنه الإنساني والعقلي والشرعي أي تجاوز الحدود الحمراء وموارد الخطر والضرر.

٣٦ - ﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

وأوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدق برسالتك (إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) من قبل فيظل على إيمانه ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) الإبتئاس : الحزن ، فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وهذا إشارة إلى أن مهمته قد إنتهت، بعد أن أدَّى الرِّسَالَةَ عَلَى وَجْهِهَا الْأَكْمَلِ وَالْقَى الْحِجَةَ عَلَى مَنْ أَعْرَضَ وَتَوَلَّى وَتَحَمَّلَ مَا تَحَمَّلَ مِنْ شِدَّةِ الْمَعَانَاةِ حَتَّى قَالَ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح/٢٦.

٣٧ - ﴿وَاصْصَلِّ النَّاسَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

وإصنع السفينة المنقذة (سفينه النجاة) (بِأَعْيُنِنَا) كناية بليغة وشفافة ومحركة للمشاعر أي تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا الكاملة للدلالة على شدة المراقبة والعناية والحماية (وَوَحِينَا) وتعليمنا أي هداية عملية لتسديد صنع السفينة ومؤيدة بروح القدس كقوله لمحمد (ص) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور/٤٨ ، وقوله لموسى ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ طه/٣٩ ، (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) ونهاه عن التوسل إليه في شأن الذين ظلموا أنفسهم وتقرر مصيرهم لا تسألني في أمرهم شيئاً تدفع به الشر عنهم فلا شفاعه لهم (إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ) فالقضاء فصل والحكم حتم.

٣٨ - ﴿وَيَصْعُقُ الْفَلَكُ وَكَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأً مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فأخذ يصنع نوح السفينة كما علّمه ربه في أرض هو الآن مسجد الكوفة (وَكَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأً مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) كلّم مرّ عليه جماعة من زعماء قومه هزئوا منه وضحكوا لأنه صنعها في مكان من الأرض اليابسة بعيداً عن الماء (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا) إن تهزءوا منا اليوم (فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) فإننا سنسخر منكم في المستقبل القريب فأنتم أولى بالسخرية ، وهكذا (يُدِيرُ الْمُدِيرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ) والجاهل لا يحسب حساب للمخبة والمفاجأة.

٣٩ - ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ بَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وعيد وتهديد ، أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) عذاب يذله ويهينه وهو الغرق (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) ينزل عليه عذاب آخر مقيم دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم

٤٠ - ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَئَلَّا أَهْلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

حتى إذا جاء أمرنا بالطوفان (وَفَارَ التَّنُورُ) للتنور معانٍ في اللغة منها وجه الأرض وهو المراد هنا ، إذا رأيت يا نوح الماء ينبع من على وجه الأرض وكأنها عيون تفور من كل مكان فاركب أنت ومن معك في السفينة كقوله ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ القمر/١١-١٢ ، (قُلْنَا أَهْلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) احمّل في السفينة من كل صنف من المخلوقات اثنين ذكرًا وأنثى (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) وإحمّل قرابتك ايضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه والمراد به ابنه الكافر وأمه (وَمَنْ آمَنَ) واحمل من صدقك واتبعك من قومك (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) إلا نزر يسير على مدار مئات السنين مع طول إقامته بينهم وهي مدة (٩٥٠) سنة.

٤١ - ﴿وَقَالَ امْرُكُوبًا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال نوح لمن آمنوا به وركبوا السفينة معه (بِسْمِ اللَّهِ) حين تجري وحين تُرسي (أي) حين تسير وحين تقف (بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) سيرها وثباتها في أي وقت وفي أي مكان (وبِسْمِ اللَّهِ)

في كلِّ الأحوال ، فتعليق الفعل على اسم الله صيانة له من الهلاك (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ساتر لذنوب التائبين ورحيم بالمؤمنين ، عن النبي (ص) : (أَمَانٌ لَأُمَّتِي مِنَ الْعَرْقِ إِذَا رَكِبُوا الْفَلَكَ أَنْ يَقُولُوا (بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)) المرادي ٣٧/١٢ أي بمقتضى رحمته ومغفرته يحفظ السفينة من أي خلل حتى ننجو بذلك من العرق.

٤٢ - ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى ابْنَهُ نُوحٌ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بَنِيَّ امْرُكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

والسفينة المنقذة تجري بهم في موج يشبه الجبال في ارتفاعها وارتفاع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كلَّ شيء وتطهرت الأرض من كلِّ رجس وشرك (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ) ونادى نوح ابنه الكافر قبيل سير السفينة وكان في مكان منعزل بعيد عنهم لم يركب مع المؤمنين (يَا بَنِيَّ امْرُكَبْ مَعَنَا) ولا تهلك نفسك بالعرق المحتوم (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) الظالمين فتغرق معهم. فائدة: كيف دعا نوح (ع) ابنه إلى سفينة النجاة وهو يعلم بكفره وتمرده ؟ (والجواب) دعاه أولاً أن يؤمن ثم يركب ولا سيما في أوقات الحرج والدليل عليه قول أبيه (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) ولم يقل (ولا تكن من الكافرين) عندما رفض الإيمان ورفض الأب أن يصحبه كافراً لأن الدين فوق الرحم وأعز من النسب، عن النبي (ص) : (مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةٍ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَّى وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا عَرِقَ) كنز العمال خير ٣٤١٥١.

٤٣ - ﴿قَالَ سَاءَ مَا يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَمَنْ نَلْفَظُ مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

قَالَ سَأَصْعَدُ إِلَى رَأْسِ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ (يَعْصِمُنِي) يحميني أتحصن به من العرق (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ) لا نجاة تعصمك من عذاب الله إلا من رحمه الله بحصن الإيمان وطاعة الرحمن فلا عاصم لا جبل ولا غيره (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) وأبوه ينظر إليه أسفاً لا من أجل حياته بل لموته على الكفر، وهكذا ينجو الأب بسفينة الإيمان ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء/٨٨، ويهلك الابن بظلمات الكفر ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤.

٤٤ - ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ بِمَاءِكَ وَاسْقَاهِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

أمر الله عز وجل الأرض أن تبتلع الماء وأمر السماء أن تكف عن الصب ، فكفت هذه وابتلعت تلك بإرادة تكوينية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/٨٢ ، (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ) ويا سماء أمسكي وكفي عن هطول الماء (وَغِيضَ الْمَاءِ) نقص وتسرب وذهب الماء الذي ملأ الأرض فدخل في أعماقها (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) ثم أمر الله بإغراق من كفر ونجاة من آمن (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) استقرت على جبل الجودي بالقرب من الموصل في شمال العراق (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) وقالت الملائكة بُعْدًا لِلظَّالِمِينَ لأنفسهم ولغيرهم الذين كذبوا بالحق مع وضوحه فأبعدهم الله عن رحمته، وتطهرت الأرض من رجسهم

وخبائثهم وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى! عن الإمام الصادق (ع): (مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَجْرَامُ الْعَظِيمَةَ مُنْقَادَةٌ لِتَكْوِينِهِ) سبحانه فائدة: في الآية من بدائع الفصاحة، وعجائب البلاغة، ودقة في البديع وجمال في الاستحسان، تصوّر الآية ما جرى في الواقع الخارق، إنه فوق كلام المخلوق أنه كلام الخالق.

٤٥ - ﴿وَأَدَّى نُوحٌ نَوْحَهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْأَهْلِ وَإِنِّي وَعَدُّكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

ودعا نوح ربه وتضرّع إليه لنجاة إبنه من أهله (وَإِنِّي وَعَدُّكَ الْحَقُّ) وعدك حق لا خُلف فيه (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) وخير الحاكمين. فائدة: فالأهل في ميزان الله ليس قرابة الدم وإنما هم قرابة العقيدة، فهذا الولد لم يكن مؤمناً فليس إذن من أهله، ولا ولاية ونصرة بين المؤمن والكافر.

٤٦ - ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم في سفينة النجاة (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) بين الله سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح فهو يلتزم الفساد ويعارض الصلاح (فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) لا تطلب مني أمراً لا تعلم صوابه من خطئه؟ ولا تعلم يقيناً أنه موافق للحكمة والمصلحة أم معارض؟ نلاحظ هذه الجملة فيها من الشدّة في الجواب (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين أو أن لا تكون بطلبك ذلك من الجاهلين، وليس في ذلك وصف بالجهل بل فيه الوقاية منه وهذه الجملة فيها من الرّفق في الجواب، فجمع الله في رده على سؤال نوح (ع) بين الرّفق والشدّة! فائدة: ١- تشير الآية إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب اللازمة والتوفيق فيها، والهداية العلمية لمعرفة الجاهيل والمخفيات واكتشافها فإنها من سنن الحياة الحضارية ونظام الأمر التقدمي، ٢- إنّ حقيقة هذا الدين العظيم أن يجعل رابطة العقيدة والإيمان والاستقامة على منهج الله أهم وأقوى من رابطة النسب والقرابة، فإنّ أهل الأنبياء هم المتّقون وإن بعد النسب وأن أعداءهم المفسدون وإن قرب النسب كقوله ﴿إِنِّي أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقِينَ﴾ الأنفال/٣٤، في نوح البلاغة حكم ٩٦: (إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعَدَتْ حُكْمَتُهُ (نسبه)، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ (ص) مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرَّبَتْ قَرَابَتُهُ) (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) عن النبي (ص): (مَنْ عَشَّ مُسْلِمًا أَوْضَرَهُ أَوْ مَكَرَهُ فَلَيْسَ مِنِّي) البحار ١٠/٣١٧، وعنه (ص): (مَنْ أَصْبَحَ وَمَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ) البحار ٧٤/٣٣٩، وعنه (ص): (مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ شَرِّهِ فَلَيْسَ مِنِّي) سفينة البحار ٢/٣١٨ و٦٩١.

٤٧ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

خشى نوح أن يكون قد زلَّ في حق ربه أو تجاوز الأدب معه فيلجأ إليه ويعتصم به ويطلب غفرانه ورحمته ، (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ) أستجير وأعتصم بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ولا علم لي بحقيقته ، وأحمدك على ما أنعمت به عليّ من التعليم والتأديب (وَالْأَلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنُّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) والَّا تغفر لي زلتي وتنداركني برحمتك بحيث يطمئن قلبي ببيان وجه الصواب لكنك من الخاسرين ، أكن ممن خسر نفسه وآخرته وهو أشد الخسران ، فائدة : من علامات المؤمن أن يستغفر ربه ويسأله العفو والصفح والرحمة ولو بدون ذنب، حتى أتقى الأتقياء كما هو شأن الأنبياء (ع)، في نهج البلاغة خطبة ١٩٣ (عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَعَّرَ مَا دُونَهُ فِي عَيْنَيْهِمْ).

٤٨ - ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمْسِسْتَهُمْ نُسْرًا مِنَّا وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
قال الله تعالى يا نوح اهبط من السفينة بسلامة وأمن وبتحية السلام على كل مؤمن ومؤمنة من ذريتك (وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ) ونعم كثيرة وخيرات عظيمة نازلة منا عليك ، وعلى ذرية بيتي تكوينهم ممن معك من أهل السفينة وزيادات في الرزق والتسل والخير ، ودخل في هذه البركة كل مؤمن ومؤمنة صادقة إلى يوم القيامة (وَأُمَّمٌ سَمَّتِيَهُمْ) وأمم أخرى من ذرية من معك سندعهم يلتذون وتمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم ممن ينحرف ويضل ويكفر كقوم عاد وثمود (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) ثم نذيقهم في الآخرة العذاب المتناسب مع ذنوبهم، فيكون القصاص على قدر الجناية. فائدة : ١- في الآية إشارة إلى أن المتمتعون في الدنيا بإسراف وتجاوز الحدود تكون عاقبتهم وخيمة ، لأن الجهل يغلب عليهم والغفلة فلا يتفكرون إلا في الدنيا وملادها. ٢- كقوله (سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصفات/٧٩ عن ابن عباس : (نُوحٌ آدَمُ الْأَصْغَرُ ، فَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ الْآنَ مِنْ نَسْلِهِ) وعن النبي (ص): (نوح أحد الأبوين) كثر الدقائق/٤/٤٩٥.

٤٩ - ﴿تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
الخطاب للنبي محمد (ص) ، هذه القصة وأشباهها من أخبار الماضي التي غابت عن علمك ولم تشهدا ، وسنن الماضين عبرة للباقيين (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) نعلمك بها يا محمد (ص) بواسطة الوحي لتأخذ الدروس والعبر منها في تبصرة لك وتكثيراً لمعجزاتك (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) لم يكن عندك ولا عند قومك علم بها من قبل هذا القرآن والذي عند أهل الكتاب منها محرف مقلوب عن وجه الصواب (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة الرسالية كما صبر نوح وهو من أولي العزم كقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف/٣٥ ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية للنبي (ص) على تحمل أذى المشركين ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف/١٢٨.

٥٠ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالَّذِينَ هُمْ يُعْبُدُونَ﴾

عطف سبحانه قصة هود على قصة نوح ، ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود وأراد (أَحَاهُمْ) لانتسابه وإياهم إلى رأس قبيلة واحدة وإن هوداً أخا عاد بالنسب (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وحدوا الله في عبادته دون عبادة الآلهة الأخرى (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) ليس لكم رب يُعبد ويستحق العبادة غيره (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) ما أنتم في عبادتكم غير الله واتخاذكم الآلهة شركاء لله وشفعاء عنده إلا كاذبون على أنفسكم وخادعون لها بأهوائكم وعلى الناس وعلى ربكم لأنه لا إله سواه ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد/٢٥. فائدة : تشترك جميع الأنبياء والمرسلين في دعوتهم إلى قومهم إلى توحيد الله عز وجل وتوحيد الكلمة ، والتوحيد حياة النفس وانسراح الصدر وأساس الدين وثمره العلم واستقامة الفكر والسلوك.

٥١ - ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

لا أطلب منكم جزاءً ولا مالاً حتى تتهموني أي أستدر نفعاً لنفسي وإن أضر بكم (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني وأوجدني من العدم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الاستفهام للإنكار أي أنغفلون عن هذه الحقيقة ولا تعقلوها إنه من يدعوكم إلى الخير في دنياكم وآخرتكم دون طلب جزاء منكم هو لكم ناصح أمين؟ فائدة : ما من رسولٍ إلا خاطب قومه بعدم أخذ الأجر إزاحة للتهمة وإعطاء قوة للدعوة وقدرة للنصيحة فلا تؤثر الدعوة إلا إذا كانت خالصة لله ليس فيها شيء من المطامع الدنيوية كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس/٢١، عن النبي (ص): (يَا إِبْنَ آدَمَ عَلِّمْ مَجَانًّا كَمَا عَلَّمْتِ مَجَانًّا) كنز العمال خير ٢٩٢٧٩، وعنه (ص): (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بَعَمَلِ الْآخِرَةِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) كنز العمال خير ٢٩٠٦٧، وهناك نهي عن (الاستكثار بالعلم) ومعناه : أن تلبس لباس أهل العلم وتحتل موقعهم وتفتي وتعلم الناس بغير علم ولا هدى من الله عز وجل.

٥٢ - ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا مِنْ رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِبِينَ﴾

اطلبوا من ربكم العفو والمغفرة مما أنتم عليه ، وسيقوا على أنفسكم إلى أين أنتم ذاهبون ، فإن الاستغفار سلاح المذنبين (ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والندم على الخطايا وتجاوز الحدود ، والفرق بين الإستغفار والتوبة أن (الاستغفار) طلب العفو عن الماضي مع صرف النظر عن الآتي ، أما (التوبة) الندم عما مضى وطلب العفو من الله مع التعهد بترك المعصية فما يأتي (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) فإذا فعلتم ذلك فإنه يرسل عليكم الغيث (مِدْرَارًا) غزيراً متتابعاً نافعاً، في الآية دليل على أن التوبة والاستغفار وطاعة الله بشكل عام سبب للرحمة ونزول الغيث (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) ويزدكم عزاً وقدرة مادية ومعنوية فوق عزكم

وقدرتكم حتى قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ فصلت/ ١٥ ، (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) لا تعرضوا عما ادعوكم إليه مصرين على الإجرام وإرتكاب الآثام كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/ ٩٩. فائدة : ١- عن النبي (ص) : (مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) البحار ٢٨٤/٩٣ . ٢- وهناك علاقة بين الحوادث والسنن الكونية والأعمال الإنسانية ، فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات، وفي المقابل الأعمال الطالحة تستدعي البلايا والمحن ولو بعد حين كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/ ١٧.

٥٣- ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

ما جئتنا (ببَيِّنَةٍ) بحجة واضحة ومعجزة تدل على صدقك تهاواها أنفسنا (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ، وهذا يكشف شدة عماهم عن الحق (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك ، وهذا يدل أن ألفتهم للمنكر يصبح عندهم المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

٥٤ - ٥٥ ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

ما نقول إِلَّا (اعْتَرَاكَ) أصابك بعض آلهتنا بجنون وذهاب عقلك واقتصمت منك وعاقبتك لأنك سببتها ونهيتنا عن عبادتها ، ومن كلامهم يدل أنهم جفاة قساة بغاة وبلهاء (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ) قال هود إني أشهد الله على نفسي (وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (مِنْ دُونِهِ) من آلهتكم التي تزعمونها خبلتني وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريء مما تشركون في عبادة الله من الأوثان (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) فاحتالوا وتأمرؤا في هلاكهم إن استطعتم أنتم وآلهتكم (ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) ثم لا تمهلوني طرفة عين ! وقد تحدى لوحده بقوة عقيدته قوماً غلاظاً شداداً وهو ينسف عقيدتهم ويؤنبهم ويثير نفوسهم ، حقاً إنها من أعظم الآيات أن يواجه رجل واحد بهذا الكلام أمة عفيفة جاهلة وذلك لثقتة بربه وأنه يعصمه من شرهم ! في غرر الحكم: (أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) من أَفْضَلِ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ فِي مَجْتَمَعٍ مُتَخَلِّفٍ ، وَكُلُّ مَجْتَمَعٍ مُتَخَلِّفٍ تَسُودُ قُوَّتُهُ عَلَى عَقْلِهِ !

٥٦ - ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

إني لجأت إلى الله وفوضت وسلّمت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ذو القدرة عليّ وعليكم وعلى كلّ مخلوق يدبّ على الأرض (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) ما من كائن يمشي ويتحرك على الأرض إِلَّا هو (آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) الناصية مقدّم شعر الرأس أي فهو في قبضته وتحت

إرادته ومالك التصرف فيها ، والأخذ بالناصية تمثيل للملك تصوير حسني للقدرة والعلم الشامل والقهر والقوة آخذة بناصية كل دابة ، إنها صورة حسية متحركة تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم وصلابة أجسامهم وتناسب غلظ حسّهم ومشاعرهم ، وإلى جانبها تقرير استقامة السنّة الإلهية في اتجاهها الثابت الذي لا يجيد (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إني ربّي حق بذاته وحق مع غيره وعادل يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وسنته عادلة ثابتة غير متغيّرة عن نصرة دينه ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ غافر/ ٣١ ، ولا يوجد خلل في تديّره وتقديره ، يمهّل الظالم ولا يهمله وهو له بالمرصاد.

٥٧ - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَلَقْنَا بِكُمْ مَا أَمْرُسُتْ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (فَإِنْ تَوَلَّوْا) فإن تتولوا وتعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربّي وتمت عليكم الحجّة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النور/ ٥٤ ، (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم يأتون بعدكم وهذا تهديد ووعيد ، ومن لا يتّعظ بالماضين صار عبرة للباقيين!

(وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) لا تضرون الله شيئاً بإعراضكم بعبادة غيره فإنه لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه كقوله ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ الزمر/ ٧ ، (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) على كل شيء إنه سبحانه حفيظ : يحصي أعمالكم ويجازيكم بها، رقيب على كل شيء وهو يحفظني من شركم وينجيني من مكرهم ويحفظ دينه وأولياءه ونظام سننه الثابتة من الأذى والضياع ، وهو سبحانه يراقب كل شيء ويدبره بعلمه ويقدره بحكمته. فائدة : (وَيَسْتَخْلِفُ) قانون الاستخلاف والاستبدال سنة الله في خلقه وقانونه العام في عباده وهي سنة حركية ثابتة لا تتغير ولا تتحول ولا تتبدل في كل زمان ومكان كقوله ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ محمد/ ٣٨ ، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ الإنسان/ ٢٨.

٥٨ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولما جاء أمرنا وحكمنا بالعذاب وهو إنزال بهم الريح العقيم (نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) نجينا هوداً والمؤمنين بفضل عظيم وبرحمة واسعة (وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) خلصناهم من ذلك العذاب الغليظ الثقيل الشديد وهي الريح المدمرة التي كانت تدمم المساكن وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل حاوية أي ، كأنهم جذوع نخل فارغة متأكلة الأجواف من شدة العذاب مع قاماتهم الطويلة وأجسامهم القوية. فائدة: (عَذَابٍ غَلِيظٍ) وصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ الشداد ، فيكون الجزأ من جنس العمل ، والعنقوبة على قدر الجنائية.

٥٩ - ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

تلك آثار المكذبين من قوم عاد وديارهم الخالية فاتعظوا بما أيها الجاحدون (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) ولم يقل عصوا رسوله ، لأن من عصى واحداً من أنبياء الله ورسله فقد عصى الجميع بالنظر إلى أن رسالة الكل واحدة وهي الدعوة إلى دين الله ، الذي يقول : لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً ! (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وأطاعوا وخضعوا لأمر كل مستكبر على الله وهم رؤساؤهم (جَبَّار) يقهر الناس بإرادته (عَنِيد) معاند لا يقبل الحق و صلف في التعامل ، وهكذا شبيه الشيء منجذب إليه ، والطيور على أشكالها تقع ، عن الإمام علي (ع) : (لَا يُؤَادُّ الْأَشْرَارُ إِلَّا أَشْبَاهَهُمْ).
فائدة : هذا درس قرآني إلهي مهم للمستضعفين أن يقفوا صفاً واحداً في وجه من يستبد ، ولو علم الظالم أن المظلوم يستमित دون حقه لكف عنه و (الْمُسْتَمِيتُ لَا يَمُوتُ) و مَا ضَاعَ حَقٌّ وَرَأَهُ مُطَالِبٌ ، ومعنى هذا أن المظلوم مسؤول عن الدفاع عن نفسه وحقه بكل ما يملك من قدرة.

٦٠ - ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

وألقوا باللعنة وهي الطرد من رحمة الله في الدنيا (وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ) وجعل اللعن رديفاً لهم ومتابعا ومصاحباً في الدنيا والآخرة فإنهم سنوا سنة الإشراك والكفر بعد الطوفان لمن بعدهم ، فعليهم وزرها ووزر من عمل بما إلى يوم القيامة (أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ) هذا تشنيع لكفرهم أي ألا فانتبهوا إن عاداً كفروا بربهم إذ عبدوا غيره وجحدوا نعمته إذ كذبوا برسوله فاستحقوا اللعنة في الدنيا وفي الآخرة (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) أبعدهم الله من الخير ومن رحمته وأهلكهم عن آخرهم ، وهو تعبير بالهلاك واللعنة، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) و الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! فائدة: اللعن في القرآن غالباً ما يكون للعموم وليس للخصوص ، للصفات وليس للأشخاص ولا بالأسماء ولا بتحديد الذات ، وإتباع اللعن للأشخاص الذين يتصفون بصفات مذمومة تستحق اللعن في كل جيل وكل زمان ومكان.

٦١ - ﴿وَلَقَى ثَمُودَ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ رَبِّي إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُجِيبٌ﴾

أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم في النسب وهو صالح (ع) فهو وإياهم ينتمون إلى رأس قبيلة واحدة ويتكلمون العربية (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) بعث الله تعالى كل الأنبياء إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فإن توحيد العقيدة يؤدي إلى توحيد الصفوف إنه المنهج الرسالي لكل الأنبياء الذي لا يتبدل (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) فخلق آدم من تراب الأرض ثم ذريته من نطفة (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) بمعنى العمران وليس الاستعمار ، جعلكم عمّارها وسكانها وينتفعون من

خيراتها ، ومنحك من القوى الجسدية والعقلية ما يمكنكم من عمارتها والاستخلاف فيها على قاعدة التوحيد الخالص . (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) استغفروه من كل ذنب وارجعوا إليه بالطاعة والعبادة له وحده ولا تشركوا في عبادته أحداً (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) إنه سبحانه ربي الذي رباني وعلمني قريب الرحمة مجيب الدعاء .

٦٢ - ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

كنا نرجو أن تكون فينا (مَرْجُوًّا) سيداً ونرجو فيك الخير قبل تلك المقالة الرسالية لما نرى فيك من قوة العقل وأصالة الرأي وحكمة التصرف وكنّا نتوجه إليك لحلّ مشاكلنا ونستشيرك في أمورنا فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك (أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) استفهام إنكاري فأنت تبطل سنة الآباء وعادات الأجداد وتمحو مظاهر القومية العرقية والعادات والتقاليد الاجتماعية (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) وإنما لشاؤون في دعواك وأمرك مرِيب يوجب التهمة وسوء الظن بنواياك الحقيقية من هذه الدّعوة . فائدة : يكثر التقليد في الآراء والمعتقدات بين الناس وبخاصة للآباء والأجداد وفي الدين ، فهناك تقليد سليم فهو وفق العلم والحق والعقل كاتباع المريض للطبيب ، وهناك تقليد سقيم وفق الجهالة والضلالة والاتباع الأعمى ، ومعنى هذا أن الذين يهتدون ويعلمون ويعملون لله ويعون ويصدقون يجوز التعلم منهم واتباعهم بشرط عدم تعطيل العقل ، وهكذا مهمة كل العلماء والمصلحين إرشاد الناس بصدق إلى الحق والهداية كقوله ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٧-١٨ ، عن النبي (ص) : (إِسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ) كنز العمال خير ٢٩٣٣٩ . فائدة : رسالة الأنبياء جميعاً تبيّن أنّ عقيدة التوحيد هي دعوة للتحرر الكامل من عقال التقليد البليد والاتباع الأعمى ، والتخلّص من أنواع الخرافات والسخافات التي لا تستند إلى دليل علمي . في غرر الحكم: (التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ)

٦٣ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِي كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَفَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (أَرَأَيْتُمْ) أي أخبروني إن كنت على (بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي) بصيرة وبرهان وحجة واضحة من ربي وأنه أرسلني إليكم تنبئ عن صحة دعوتي (وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ) وأعطاني النبوة وعلوم الرسالة وسبيل الهداية (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره وكنتم رسالته ؟ وقد أيدني الله بآية ومعجزة وأمرني بتبليغ الرسالة (فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) مبالغة في الخسران ، فما تَزِيدُونَنِي إذا وافقتكم على ترك الدّعوة إلى الله وعصيت أمر ربي غَيْرَ (تَخْسِيرٍ) التظليل والخسران والبطلان لكلّ أعمالي وهذا خسارة الدّنيا والآخرة بإيثار ما عندكم على ما عند الله ،

واشتراء رضاكم بسخط الله تعالى. المعنى : إن سكت عن إرشادكم وإلقاء الحجمة عليكم فقد قصرت في واجبي، في الحديث: (السَّاكِثُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أُخْرَسَ) تفسير الكاشف ٣٢/٥.

٦٤ - ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوْهَا سِوَهُمْ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾
أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها ، لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم ، وهم يشاهدون خروجها بطريقة إعجازية وبحسب الصفات التي طلبتموها ، وهي ناقة (جمل) نموذجية ومميزة عن سائر الإبل في أكلها وشربها وجميع شؤونها قد جعلها لكم الله آية ومعجزة تدل على صدق النبي صالح وكانت تنتج لبناً مباركاً لذيذاً كامل المواصفات ويكفي أهل القرية جميعاً وبدون حاجة الناقة إلى رعاية من أحد ! (فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) فاتركوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها (وَلَا تَمْسُوْهَا سِوَهُمْ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) لا تناولوها بأذى فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ، إنهم لم يستمعوا نصحه.

٦٥ - ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَسْعَوْنَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾
فكذبوه فَعَقَرُوهَا أي ضربوا قوائمها ليقتلونها وينحروها وهذا معناه اللغوي ، وقد سموا النحر عقراً لأنَّ النَّاحِرَ يعقر البعير أولاً ويذبحه ، فقال لهم صالح استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام من المهلة ثم تهلكون ، إنما عقرها واعتدى عليها واحد منهم وأضيف الخطاب إلى الكل فقال (فَعَقَرُوهَا) بصيغة الجمع والسبب أنَّ الجميع قد اشتركوا في قتل الناقة، التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْسِ عن الإمام علي (ع) (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ، وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ، وَالرَّاضِي بِهِ (وَالسَّاكِثُ عَنْهُ، وَالْحَاضِنُ لَهُ) شُرَكَاءُ فِي الظُّلْمِ) البحار ٣١٢/٧ (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ) ووعد الله حق ولا يخلف الله وعده ، وأمهلهم ثلاثة أيام أملاً في أن يؤمنوا ويتوبوا ولكنهم أصروا على الكفر ، وهذا دليل على قسوة قلوبهم ورعونة تصرفاتهم واستهتارهم بالمعجزة (الْأَحْمَقُ : إِذَا أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبُ).

٦٦ - ٦٧ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ أَلْفَاظُ الْقَوِي الْعَزِيزِ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بهلاكهم (نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) بنعمة خاصة وفضل من الله (وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) القوي في بطشه العزيز في ملكه لا يغلبه غالب (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) من السماء وهو صوت صاعق هائل صيحة ليست كبقية الصيحات ، إرتجفت لها قلوبهم وإضطربت الأرض من تحتهم فماتوا خوفاً ورعباً أي جمد الدم في عروقهم من شدة الرعب (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وأصبحوا جثثاً هامدة مكبوبة على وجوههم في مشهدٍ مخزٍ كقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فصلت/١٧.

٦٨ - ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يسكنوها ولم يعمروها وكأثم بسرعة زوالهم لم يقيموا في ديارهم أبداً! (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات رحيم فسحقاً لهم وبعداً وهلاكاً ولعنة عن رحمة الله.

٦٩ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ مَرُوسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالُوا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

قصّة لوط متّصلة بقصّة إبراهيم كما اتصاهما بنسبٍ قريب ، ولقد جاءت جماعة من الرسل الملائكة دخلوا على إبراهيم (ع) في صورة بشر ليبشروه بإسحاق وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكروبييل وهم في صورة بشرية (قَالُوا سَلَامًا) سلّموا عليه (سَلَامًا) تحية الإسلام (قَالَ سَلَامٌ) ردّ عليهم التحية بمثل تحيتهم عليكم سلامٌ طيبٌ زاكٍ (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) فَمَا لَبِثَ : أسرع ولم يتوقف ويتردد ولا تأخر في مجيئه ظناً منه أنهم أضياف ، حتى جاء بعجل وهو ولد البقر (حَنِيذٍ) مشوي ناضج بالحجارة المحماة دون أن تمسه النار مباشرة والذي يقطر دسمه ، وكان إبراهيم معروفاً بالكرم وحب الضيف والضيافة من مكارم الأخلاق.

٧٠ - ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾

فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه لأنهم ليسوا بشراً أنكرهم ولم يعرف حقيقتهم وهذا دليلٌ أنه لا يعلم الغيب ولم يوح إليه بذلك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ آل عمران/١٧٩ ، (وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) أحسّ منهم الخوف لأنهم ليسوا كما ظن ، كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وذلك علامة العداوة والشرّ (قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا) ملائكة ربك لا نأكل (أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) وقد أرسلنا ربك لإهلاك قوم لوط الشاذّين ولا نريد بقومك سوءاً ، ونحن منزّهون عن الأكل والشرب لأنّ ذلك من لوازم البدن المادي.

٧١ - ٧٢ ﴿وَأَمْرًا تَقَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا

بِعَلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

وامرأة إبراهيم (سارة) قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط وسروراً بزوال الخطر (فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) بشرتها الملائكة بأنّها ستلد إسحاق ويولد لإسحاق يعقوب ابناً لولدها وكلاهما من أنبياء الله ، وفيه دلالة أن ولد الولد ولد عزيز (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بِعَلِي شَيْخًا) قالت سارة متعجبة من هذه الخارقة العجيبة (يَا وَيْلَتَا) كلمة للتفجيع والأصل يا ويلى : ومثلها يا عجباً يا أسفاً يا عجباً ألد وأنا امرأة مسنة وهذا (بِعَلِي) زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) غريب لم يألفه الناس

ومخالف لسنن الله التي سلكها في عباده. فائدة: (قَائِمَةٌ) وهذا يكشف عن طبيعة حب الاستطلاع عند المرأة وتحب أن تتعرف ما يدور حولها مما يتصل بها أو لا يتصل بها.

٧٣ - ﴿قَالُوا أُنْعِمِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾

أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ كيف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/٨٢ ، (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) رحمكم الله وبارك فيكم دائماً يا أهل بيت إبراهيم الخليل وقد خصكم بمواهب عالية تتفردون بها من بين الناس ، وهذه نعمة أخرى مختصة بكم ، كما جعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم وآواه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وجعل النبوة والصالحين تتوارث في نسلكم إلى يوم القيامة ! (إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) إنه تعالى محمود في صفاته وذاته ومستحق للحمد في كل الأحوال ويستحق التمجيد من عباده ، وهو الفضل والجود وكثير الخير والإحسان على من يشاء من عباده حتى قبل استحقاقها (إِذَا أَعْطَىٰ آدَهَشَ). عن النبي (ص) : (قُولُوا لِلَّهِمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) كنز العمال خير ٢١٥١٠.

عن النبي (ص): (الصلاة عليّ نُورٌ على الصراط) كنز العمال خير ٢١٤٩.

٧٤ - ٧٥ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ (الرَّوْعُ) أي الخوف الذي أوجسه في نفسه فاستوحش واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة وعرف مهمتهم (وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى) وجاءته البشارة بالولد والحفيد (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط يريد صرف العذاب عنهم أو يمهلهم فترة أخرى ، والقرآن لم يفصل في هذا الجدل (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ) صبور ويتأني ولا يثور، غير عجول في الانتقام من المسيء إليه لعله يندم ويستغفر ويستقيم (أَوَّاهٌ) كثير التأوه والتضرع في الدعاء ، والتأسف على الجهلاء وكثير التأثر من ضلال الناس وفسادهم وحلول الهلاك بهم ، رقيق القلب والرأفة على الناس مما يشاهده من سوء حالهم (مُنِيبٌ) يرجع إلى الله سريعاً في كل أمر ومتوكل عليه في كل شيء والمخلص في عمله لله عز وجل ولكن الله سبحانه لو علم فيهم خيراً لأمهلهم ولأسمعهم كقوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنفال/٢٣

٧٦ - ٧٧ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَخْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ، وَلَمَّا جَاءَتْ مَرْسَلْنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

قالت الملائكة يا إبراهيم دَعْ عنك الجدل في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) جاء أمر الله بهلاكهم لليأس منهم ومن توبتهم (وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) نازل بهم

عذاب خاص لا يدفعه دافع ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١ ، ﴿لَا مُعَقِّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ولما جاءت الملائكة لوطاً النبي (سِيءَ بِهِمْ) أصابه سوء وضجر من مجيئهم لأن الملائكة جاءوا في صورة غلمان حسان الوجوه ! ابتلاء من الله لقوم لوط كي تكون لله الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عليهم فخاف عليهم من قومه (وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا) وضاق صدره غمماً بمجيئهم لأنه يعجز عن حمايتهم ، خشية عليهم من شذوذ قومه (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) شديد في صعوبته لأنهم كانوا يتعاطون الفاحشة الخبيثة الشاذة بإتيان الرجال شهوة من دون النساء جهراً لا سراً ، وفي صورة جماعية من دون حرج أو خجل وهذا غاية التدهور الأخلاقي في الإنسان الذي يترقع عليها كثير من عالم الحيوان ، إذا امتنع عنهم اغتصبوه قهراً حتى لو كان من الضيوف الشرفاء !! عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ شَهْوَةَ الْمُؤْمِنِ فِي صَلْبِهِ، وَجَعَلَ شَهْوَةَ الْكَافِرِ فِي ذُبُرِهِ!) البحار ٧٩ ص ٧٣ .

٧٨ - ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ (يُهْرَعُونَ) يسرعون ويهرولون إليه لطلب الفاحشة الشاذة الخبيثة بالضيوف ! كأنهم يندفعون إلى غنيمة ثمينة دفعاً وذهلوا عن المحبآت والمفاجآت كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ ، (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم الشاذة الخبيثة إتيان الرجال من دون النساء وعمل الفاحشة لا يردهم عن هذا القبيح استحياء ! ولا ينزجرون بموعظة أو ملامة أو مذمة لأن العادة تسهل كلَّ صعب وترين كلَّ قبيح ! وكان سبب إسرعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الضيوف وجمالهم هي التي أخبرت قومها بذلك (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) قال لهم لوط : هَؤُلَاءِ (بَنَاتِي) نساء البلدة أزوجكم بهن حلالاً طيباً فذلك أَطْهَرُ لَكُمْ وأفضل من الشذوذ والتلوث برجس اللواط ﴿وَرَبِّنَ هُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، وإنما قال بناتي لأن كلَّ نبي أب لأُمَّته في التربية والشفقة كالوالد في أسرته أو في عشيرته (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي) فَاتَّقُوا اللَّهَ بإيثار الحلال على الحرام واحشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي .

(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) استفهام توبيخ ، أَلَيْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ذو رشدٍ في الفكر عاقل يمتنع عن القبيح ويأمركم بالمعروف وينهاكم عن هذا المنكر

٧٩ - ٨٠ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ، قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ مَرْكَنٍ

شَدِيدٌ﴾

قال له قومه الشاذون لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من رغبة وليس لنا فيهن ميول ولا شهوة (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) وأنت تعلم غرضنا من هذا الهجوم وهو إتيان الذكور ، صرحوا له بغرضهم

الخبيث لأنهم ألفوه واعتادوا عليه وأصبح عندهم المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، وهذا يشير إلى أنّ هذا المرض الخبيث يعدي الجهلاء كما يعدي المرض الجسدي، وهكذا عندما تتلوث الفطرة وتقلب المقاييس وتتعلّط العقول ، تصبح الاستقامة هي الغريبة والمنكر الشاذ القبيح هو الأمر الطبيعي المألوف، لذلك أصبح نبهم لوط غريباً بين القوم الشاذين وليس له من قوة ولا عشيرة تحميه من هذا الموج الهائل من ظلمات الشذوذ المنتشر كقوله ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ النمل/٥٦ ، (قَالَ لَوْ أَنَّنِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ) لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها أو ألقاها إلى عشيرة تحلّصني منكم وأنصار تنصروني عليكم أو ليت لي قوّة رجل منكم رشيد متزن ينضمُّ إليّ وينصروني فأدفعكم به ، فالله هو ناصره ومؤيده فهو ركنه الرشيد وسنده السديد، عن الإمام الجواد (ع) : (الثِّقَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى تَمُنُّ لِكُلِّ عَالٍ ، وَسُلَّمٌ إِلَى كُلِّ عَالٍ) البحار ٣٦٤/٧٨.

٨١ - ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلما بلغ الأمر هذا الحد في التسابق على الشذوذ ولو بالقوة والإكراه ، قال ضيوف لوط وهم الملائكة إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وإهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ، روي : (أَتَمَّ دَخَلُوا الْبَيْتَ بِالْقُوَّةِ أَخَذَ جَبْرِيلُ بِأَصْبَعِهِ نَحْوَهُمْ فَذَهَبَتْ أَعْيُنُهُمْ كَقَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ القمر/٣٧) (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) فَأَسْرِ : فِسر ، أي أخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك (بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) ببقية من ظلام الليل أو في بعض ساعاته واترك القرية بسرعة.

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ) لا ينظر أحد منكم وراءه ليجدوا في السير إلى حيث يأمرك الله إلا أَمْرَاتُكَ الخائنة فإنها ستهلك مع القوم الشاذين والمَرَّةُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ! (إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) إنه يصيب أمراتك ما تستحق من العذاب والعقوبة على قدر الجناية ، ويكون عذابها من عذاب قومها (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) إن موعد هلاكهم الصبح قال لهم لوط أهلكوهم الساعة قالوا (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) فهو كائن لا بد منه وكلُّ مُقَدَّرٍ كَائِنٌ، وكلُّ كَائِنٍ آتٍ، وكلُّ آتٍ قَرِيبٌ، وكلُّ قَرِيبٍ كَادٌ أَنْ يَكُونُ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، لأن الأرض ستضطرب حال خروجكم وستبدأ مقدمات العذاب المُهين. أما السبب في عدم الالتفات : قد تكون الحكمة من أنّ القرية شاذة ينبغي أن يقطع المؤمن كلّ مشاعره نحوها فلا يتبعها بصره وعاطفته وكل ما تركتم وراءكم من وسائل الحياة وأن تنجوا بأنفسكم كقوله ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ التحريم/١٠.

٨٢ - ٨٣ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾

أمر الله : حكمه وقضاؤه ، فلما حان الوقت المناسب واللازم للعذاب المهين وهذا يدل أن كل شيء مقدر ومدبر كقوله ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر/٤-٥ ، قلبنا بهم الأرض فجعلنا كل ما على وجه الأرض في قعرها وأسفلها كما قبلوا الفطرة السليمة وقلبوها المقاييس الصحيحة ، وفضلوا الهمجية على الإنسانية فكان الجزء من جنس العمل ، إثم ارتكبوا ذنباً قبيحاً يعفُ الحيوان من ارتكابه ! (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ) أرسلنا على هؤلاء الأشرار الأنجاس حجارة (من سجيل) كلمة فارسية تعني الطين المتحجر صغيرة الحجم ثقيلة الوزن صلبة شديدة من نار وطين ، شبهها بالمطر لكثرتها وشدتها (منضود) متتابعة مترادفة بعضها أثر بعض. فائدة : ١- وجاءت كلمة (المطر) في القرآن بمعنى الشر (والغيث) بمعنى الخير ، (مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ) معلمة للعذاب بعلامة قد كتب على كل حجر اسم من يرمى به ويستحقه ولا تخطئ هدفها الذي رميت عليه (عِنْدَ رَبِّكَ) وربك الذي ربها وعلمها ودبرها وقدرها وهي ليست من حجارة الأرض (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ) عن ظالمي المسلمين وغير المسلمين إن عملوا ما عمل قوم لوط ببعيد ! وإن اختلف العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم وضرره وأثره في الأمة ! إذا هذه الآية تكشف عن سنة متحركة وقانون متداول يتناسب مع من يستحقه في كل زمان ومكان كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ الأحزاب/٣٨ ، وقد صار موقع تلك المدن الشاذة بجزراً لا حياة فيه ولا أسماك ولا نبات يعرف ب (البحر الميت) والأرض التي تليه قاحلة لا نبات فيها. ٢- عن النبي (ص) : (إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَحَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ عَمَلٍ قَوْمٌ لُوطٌ!) الترغيب والترهيب ٢٨٥/٣ وعنه (ص) : (مَنْ أَلَحَّ فِي وَطْئِ الرَّجَالِ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَدْعُوَ الرَّجَالَ إِلَى نَفْسِهِ) البحار ٦٧/٧٩ ، عن الإمام علي (ع) : (مَا أَمْكَنَ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعًا يَلْعَبُ بِهِ إِلَّا أَلْفَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَهْوَةَ النِّسَاءِ!) المصدر نفسه ٣- أنزل الله على قوم لوط عذابين الخسف في الأرض والمطر المدمر بحجارة من السماء. ٤- عن النبي (ص) : (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلٍ قَوْمٍ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ) الترغيب والترهيب ٢٨٨/٣.

٥- اللواط قذارة وشدوذ، ولا يتعاطاه إلا القذرون الشاذون الساقطون.

٨٤ - ﴿وَالِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْكِيَالَ وَالْمِيزَانَ لِيَبْأَرَكُمْ بِخَيْرِ رَبِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾

هذه القصة السادسة من القصص القرآنية ، عطف الله قصة شعيب على ما تقدمها من قصص الأنبياء (ع) فقال وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً لأنه من نفس القبيلة ولهذا قال أخاهم ،

وهي مدينة تقع شرق خليج العقبة (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أعبدوا الله وحده فلا رب سواه ، وهكذا جاءت جميع الأنبياء برسالة التوحيد وإسلام الوجه لله وهزيمة الطواغيت ، وفي حالة عدم التوجه لله فسوف يتلقفكم الشيطان ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/٢٩، والقرآن يصوّر هذه الحالة الخطيرة ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣، ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا﴾ الإسراء/٢٢ ، (وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) وهما بمعنى واحد ، ولا تنقصوا الناس حقوقهم في كل شيء لاسيما في المكيال والميزان حال البيع والشراء لأنهم اشتهروا بتطيف الكيل والوزن وبخس الناس أشياءهم (إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ) إِنِّي أُرَاكُمْ فِي سَعَةِ الرِّزْقِ وَكَثْرَةِ النِّعَمِ وَرِخْصِ الْأَسْجَارِ تَغْنِيكُمْ عَنِ نَقْصِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، فلا حاجة لكم إلى هذه الدناءة واختلاس اليسير من أشياء الناس ظلماً وعتواً لتردادوا غنىً من الحرام (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) إن لم تتوبوا ، أي يوم مهلك لا مخرج منه ولا مفر ولا دافع ولا ناصر ولا خلاص منه لأحد ، وصف اليوم (مُحِيطٌ) من الاحاطة والشمول أي يحل بكم العذاب جميعاً ويغمركم فيه فلا يفلت منكم أحد وهو عذاب الاستئصال سواء في الدنيا أو في الآخرة أو كلاهما.

٨٥ - ٨٦ ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

إعطاء الحق بتمامه وأوفوا حقوق الناس في الكيل (وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) بالعدل و (الْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ) (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) لا تنقصوا الناس من أشياءهم شيئاً المادية أو المعنوية ، أي لا تظلموا الناس شيئاً سواء الظلم للفرد أو للجماعة أو للظلم النفسي والجسدي ، لم يقل (لا تبخسوا حقوقهم) وإنما قال (أشياءهم) لأنها أصغر الحقوق فالشيء الصغير قيمته هو لاشيء ، لا تنقصوه بل قدره بين الناس وأعطوهم أشياءهم ومنازلهم ، والذي يعرف قدر الأشياء هو الذي يعرف قدر نفسه ، في غرر الحكم: (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) فالذي يعرف قدر نفسه يعرف قدر الناس وأشياءهم ، ثم قابل بخس الناس أشياءهم بالفساد بالأرض (وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) وَلَا تَعْنُوا : ولا تفسدوا ولا تسعوا بنشر الفساد الكثير والمرير والخطير في الأرض وأنتم لا تعرفون سوء عاقبته وسرعة انتشاره.

والعشي: أشد الفساد وأسرع كالفساد المادي والمعنوي والأخلاقي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي بحيث يفسد الإنسان تدييره ويبتل تقديره فيختل بذلك نظام المجتمع ويتأخر تقدمه ونهوضه الحضاري والأخلاقي بسلب الأمن العام منه وإشاعة المكر والحيلة والفساد والقتل والتسقيط بحيث تتهدد الأنفس ويتنغص العيش وتكره الأيام وتفسد الحياة ٨٦- (بَقِيَّةُ اللَّهِ) إِنَّمَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ وَسِعَتْ الدَّلَالَه.

تُطلق على كل وجود مبارك يظل منافعه للبشرية جمعاء بإذن الله تعالى كقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً) الكهف/٤٦، وفي مريم/٧٦ (وَخَيْرٌ مَرَدًّا) بمعنى ما يبقى لكم هو الربح الباقي الحلال للبايع بعد تمام المعاملة (خَيْرٌ لَكُمْ) من المال الحرام الذي تأخذونه بنقص الناس أشياءهم (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فالمؤمن ينتفع ويقنع من المال الحلال المشروع الذي ساقه الله إليه خير مما تجمعونه من الحرام بالبخر والتطيف ، فقليل يكفي من حلال خير من كثير يلهي من حرام ، في غرر الحكم: (مَنْ يَكْتَسِبْ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، يَصْرِفُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ)، (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) وما أنا حافظ نعم الله تعالى عليكم أن يزيلها عنكم فأطلبوا بقاء التعممة بطاعة الله وشكره ، والمعاصي تزيد النعم أو ولست بريقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها ولست بمسؤول عن إجبار أحد على شيء وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذر من أنذر والخيار التهائي لكم. فائدة: (بَقِيَّةُ اللَّهِ) ما أبقاه الله لكم من الرِّيح الحلال أو من ثواب الطاعة مفهوم عام ، عن الإمام الباقر (ع): (أَوَّلُ مَا يَنْطِقُ بِهَا الْقَائِمُ (ع) حِينَ يَخْرُجُ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ وَيَذَكَرُ الْآيَةَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وهو أحد أسمائه (ع) ونقول عند السلام عليه: (السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ) كنز الدقائق ٤/٥٣٨.

٨٧ - ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَسْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
كان شعيب معروفاً بالتدين وكثير الصلاة لله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾
العنكبوت/٤٥ ، أمر قومه بعبادة الله وترك عبادة الأصنام ونهاهم عن الكسب الحرام واستغلال الناس والثراء على حساب الفقراء. المعنى: قال له قومه استهزاء وكبرياء (أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَسْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) أهي صلاتك وطاعتك لرَبِّكَ التي أمرتك بأن نترك ما ألفناه من عبادة الآباء والأجداد؟ وإن هذا الاتباع الأعمى لا يصدر عن عاقل مفكر رشيد (أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) وتأمرك صلاتك أو دينك أن نترك تطيف الكيل والميزان وأن تتدخل في شؤوننا الخاصة وتقيّد حرّيتنا في التصرف في أموالنا بما نشاء ، فهل ملكتنا حتى تأمرنا بما أحببت أو تنهانا عن ما كرهت؟! أليس هذا سفهاً في الرأي؟!

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) إنك العاقل المتزن المتصف بـ (الحلِيم) وهو الصبور الذي لا يعجل في زجر من يراه مسيئاً والانتقام ممن يراه مجرماً حتى يعرف وجه الصواب (الرَّشِيدُ) العارف بالحكمة والمصلحة ولا يقدم على أمر حتى يتأكد من سلامته فلا يوجد فيه ضلال ولا فساد ، وخطبوه بذلك على وجه السخرية فكيف أقدمت على مثل هذه السفاهة؟! وهل أنت تقول ذلك عن رشدٍ ووعي؟! فائدة: الجاهلية الحديثة اليوم ليست أفضل من الجاهلية الأولى ، ما زالت الجاهلية تفتك بالمجتمعات البشرية وتوردها موارد الهلكة ، ولكن كان ذلك تحت شعار التقدم والتطور والحداثة وحقوق الإنسان والديمقراطية وغيرها !

٨٨ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِي كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَمَرَرْتُمْ مِنْهَا مِرْفَقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ لِي أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(أَرَأَيْتُمْ) أي أخبروني يا قوم في تودّد وتقرّب كالأهل ، إن كُنْتُ عَلَى (بَيْتَةٍ) على بصيرة برهان من ربي وهو الهداية والنبوة (وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) وأيدني بمعجزة واضحة دالة على صدق دعواي وخصّني بوحى الشريعة ، جواب الجملة الشرطية محذوف وتقديره فهل أنا سفيه في رأيي ؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفيه ؟ وهل في ذلك تحكّم مني عليكم أو سلب منّي لحرّيتكم ؟ فإنّما هو أمر الله خالقكم والمالك لكلّ شيء ولستم بأحرار مقابل إرادته بل أنتم عباده يأمركم بما شاء وفي هذه المشيئة مصلحتكم. وعندني من المال الحلال الطيب ما يغني عنكم وعن أموالكم (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ) بل أنا مثلكم في العمل به أبدأ بنفسي قبل أي إنسان ، وكيف أنهاكم عن شيء ولا أنتهي عنه ، وهو الشرط الأساس في كل مصلح ، أن يعمل ما يقول ولا يقول ما لا يعمل ، ويكون عمله ترجمان لقوله ولا يخالف قوله فعله ، في نهج البلاغة خطبة ١٢٩ : (لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ ، وَالتَّاهِيَيْنِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ) ، (إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) هذا شعار حركي عام عالي المضامين وعنوان لكلّ مصلح ، وقانون مستمر لكل الأنبياء والأتقياء ومن يريد الإصلاح بمعناه الواسع بمقدار وسعه وموقعه ووعيه فإن (الهُمَّةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهْمَةِ) الإصلاح على إطلاقه المادّي والمعنوي والفكري والأخلاقي وغيره ، الإصلاح العام للحياة والمجتمع والنفوس الذي يعود خيره على كل فرد ، إنها مسؤولية لكل فرد مصلح فعليه أن يتعلم نظام الإصلاح ومقاديره المادية والمعنوية ، النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. الخ

كل إنسان بقدره وهكذا قال الإمام الحسين أبي الضّيم (ع) (إِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِي) (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ) التوفيق: الفوز والنجاح أي وما نجاحي وصلاحي وفلاحني وفوزي في كل عمل أريد إصلاحه ، وأذكر النَّاسَ بِالْخَيْرِ وأمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر ، وهذا يتوقف على ملكاتي ومؤهلاتي وقدراتي وجهدي وجهادي وتيسير الأسباب اللازمة للإصلاح وذلك إنّما يكون بمعونة الله وهدايته وتأييده (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : أرجع ، عليه توكلت في أداء ما كلفني و (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ) وعلى الله اعتمدت في جميع أموري وإليه سبحانه (أُنِيبُ) أرجع بالتوبة والإنابة عن كل خطأ وتقصير لا أرجع إلى غيره.

عن الإمام الصادق (ع) : في (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ) (إِذَا فَعَلَ الْعَبْدُ مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ الطَّاعَةِ كَانَ فِعْلُهُ وَفَقًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَمِيَ الْعَبْدُ مُؤَفَّقًا ، وَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَدْخُلَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ فَحَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ فَتَرَكَهَا كَانَ تَرَكُهُ لَهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَتَى حَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ خَدَلَهُ وَلَمْ يُؤَفِّقْهُ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ آل عمران/١٦٠) التوحيد ص ٢٤١.

فائدة : (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) إرادة الإصلاح والهداية في الأنبياء ليست مجرد شعار أو صفة طارئة تأتي وتذهب ، بل هي درجة رفيعة تصل من مقومات وصفات العصمة عن الخطأ أو الخصائص العلمية المستقيمة المميزة القريبة من العصمة ، وبعض الناس أو أديعاء الدين ووعاظ السلاطين ينعنون أنفسهم بالإصلاح دون ان ينظروا إلى معناه العميق والدقيق، وإثم يسعون باسم الدين فتركه الناس الدين! و (مَنْ زَانُوا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ظَلَمُوهُ ، وَمَنْ زَانُوا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ أَنْصَفُوهُ) ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ (الصَّحِيحَةَ) زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يُزُولَ) البحار ١٠٥/٢ في غرر الحكم: (أفضل السعادة استقامة الدين)

٨٩ - ٩٠ ﴿يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ، وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

(لا يجر منكم شقائي) : لا يحملتكم معاداتكم لي ، أي يا قوم إحدروا أن يكسبكم خلافي معكم في العقيدة ومعاداتي في اكتساب الجرم وإتيان المنكرات عندئذ تستحقون (أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) لا يحملنكم معاداتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة وترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم وأخسر الناس من كان عبرة للناس ، والذي لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقيين ، ومن لم يكن من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ ولم يكن له من الله حافظ (وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) في المكان والزمان ألا تعتبرون ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢ . ٩٠- (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) استغفروا الله الذي رباكم وصاحب الفضل عليكم منذ نشأتكم أطلبوا منه الصفح عما مضى من كل الآثام والخطايا الظاهرة والباطنة وأنه سبحانه يقبل التوبة النصوحة ممن عاهد وإستقام وصمم على طاعة ربه فيما يأتي (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) إن ربي تعالى (رَحِيمٌ) عظيم الرحمة (وَدُودٌ) كثير الود والمحبة لمن استغفر وتاب بالإنعام عليهم والنصح لهم. فائدة: (الْوَدُودُ) صيغة مبالغة في المحبوب بذاته والمحب لغيره والرحيم به ، والود : هو الحب العملي الذي تظهر آثاره وعلاماته على من أحب.

٩١ - ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا مِرْهَطًا لَرَجْمَتِكَ وَمَا نَتَّعِنَا بِعَمْرٍ﴾ قالوا لنبيهم شعيب الورع الخلق الصبور البليغ خطيب الأنبياء ومن أشرف قومه على وجه الاستهانة (مَا نَفَقَهُ) ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به ، جعلوا كلامه البليغ المملوء بالحكم والمواعظ وأنواع المعارف من قبيل الهديان الذي لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه ! (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) مستضعفاً نبطش بك ساعة نشاء فلا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فالحق عند البلهاء مجرد عضلات مفتولة وسواعد ضاربة ولا وزن عندهم للعلم والعلماء (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجْمَتِكَ) رَهْطُكَ : عشيرتك ، ولولا جماعتك وأقاربك وأنصارك الذين يتفقون معنا في الرأي لقتلناك رجماً أي رمية

بالحجارة وهكذا حدث مع سيد المرسلين (ص) فلولا عمه أبو طالب سيد البطحاء لرحمه جبارة الشرك ، عن النبي (ص) : (مَا زَالَتْ قُرَيْشُ كَاعَةً (أي ممتعة) عَنِّي حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ حَامِي الرُّسُولِ) التفسير المبين ص ٢٩٨ (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى تمتنع من رجلك وإنما يمنعا ذلك معزة عشيرتك ، وشتان بين أدب النبوة الرفيق ، ومنطق السفهاء الغليظ ! وكل ينفق مما عنده والإناء ينضح بما فيه . وهذا هو منطق القراصنة الأشقياء الذين يقدمون قوة العضلات على قوة العقل ، ويفضلون الإرهاب على الحوار ، في كلِّ زمان ومكان ، ويجاهون به قول الحق ويقولون إنَّ الحق كلام فارغ لا يحتوي على مدلول!

٩٢ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِي إِذَا تَرَكْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ فَأَتْتُمُوهُ فَسَأَلْتُمُوهُ قَالُوا لَسْتَ عَلَيْنَا مَحِيطٌ﴾

هذا توبيخ لهم أي أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني لأجل ربي عز وجل ، فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم ؟ والله هو الذي أرسلني لدعوتكم (وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا) وجعلتم الله خلف ظهوركم لا تعظمونه ولا تهتمون به وتغفلون عنه فلا تظنوا أنَّ الله غافل عنكم (فَلَا تَغْفُلُوا فَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْكُمْ) في غرر الحكم: (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّمَا فَسَادِ الْحِسِّ) وهكذا يصنع الجهل بأهله عندما يجعلون الله نسياً منسياً و (مَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر/ ١٩ ، (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) محيط علماً بأعمالكم كلها، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ غافر/٧، والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

٩٣ - ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ لِي إِذَا جِئْتُمُوهُمْ يَكْتُمُوا مَا لَكُمْ لَنْبَةً أَنْ يُدِخَلَ سِتْرِي عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَلَىٰ أُولَئِكَ أَصْحَابُ عَذَابٍ يُحْزَنُونَ﴾ الكافرون/٦ ، (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) أنا أم أنتم (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) وارتقبوا: وانتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم لا أفارقكم. وفي هذا تهديد ما يوحي بنتفته بالمصير، كما يوحي بالفارق الكبير بين الطرفين وافتراق الطريق بينهما. فائدة: (أَرَهْطِي أَعَزُّ) لا ينبغي مراعاة حقوق الناس والجماعات والأحزاب والحقوق الدولية إذا كانت على حساب الحق الإلهي، لا يجوز تهمة منهج الله في السياسة والاجتماع وفي كلِّ شيء، ولكن أكثر الناس اليوم لا يخافون مقام الله ولا يتحسسون بقربه في أقوالهم وأعمالهم !

٩٤ - ٩٥ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِبِينَ، كَأَن لَّمْ يَتَوَفَّوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدٍ كَمَا بَدَعْتُمْ نَمُودًا﴾

ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيب والمؤمنين معه برحمة عظيمة مناهم (وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) العذاب الشديد ، صاح بهم جبريل صيحة العذاب (دلالة على القدرة) فخرجت أرواحهم من أجسادهم (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) موتى هامدين مكبوبين على وجوههم مهانين (كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا) يَغْنُوا : يسكنوا ، كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلك (ألا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ) ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نعمته كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم.

٩٦ - ٩٧ ﴿وَلَقَدْ أَمَرْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾
 هذه القصة السابعة وآخرها في هذه السورة ، لقد أرسلنا موسى بشرائع التوراة وأحكامها (وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) سلطة غيبية إلهية واضحة وعزناه ببراهين منطقية قاطعة منعت فرعون من قتله ، أي وأيدناه بمعجزات باهرات وقدرات خارقات واضحات (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) إلى فرعون ذي السلطان وجلالته ورؤسائه قومه (فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) فأطاعوا أمر فرعون لأنه شبيه الشيء منجذب إليه عن النبي (ص): (كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ) كنز العمال خبر ١٤٩٧٩ ، والحَاكِمُ مِنْ جِنْسِ الْمَحْكُومِ ، وعصوا أمر موسى الممثل عن الله (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) بسديد وليس فيه رشد ولا هدى وإنما جهل واستبداد وعمى. فائدة : ١- في غرر الحكم : (إِذَا مَلَكَ الْأَرَادِلُ هَلَكَ الْأَفَاضِلُ) سلطان الحجة أنفذ من سلطان القوة ، وإذا كانت الحجة حقاً وجب اتباعها (إذا استولى اللئام أضطهد الكرام). ٢- ذكر اسم موسى (ع) في القرآن أكثر من (١٣٠) مرة في أكثر من ثلاثين سورة لأهمية هذه القصة في حياة المسلمين كقول النبي (ص) : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرَكِبَنَّ سُنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ حَتَّىٰ لَا تُحْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا تُحْطِئُكُمْ سُنَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الميزان ج٣ ص٣٧٩-٣٨٠ عن صحيح الترمذي (وفي ذلك دلالة : إن المسلمين أشبه الأمم ببني إسرائيل في الطباع والصفات تتبعون عملهم حتى لو أن من أولئك من دخل في جحر ضبٍ لاتبعتهم !! ولو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في أمي مثله ! لذلك تكررت قصة موسى لتحذير المسلمين من هذا التساقط الخطير والمرير !

٩٨ - ٩٩ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ، وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بُسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾

(يَقْدُمُ) يتقدم فرعون أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ) الْوَرْدُ : بلوغ الماء ، الْمَوْرُودُ : الماء بالذات واستعمل هنا في النار مجازاً ، فأدخلهم نار جهنم وبئس المدخل المدخول فيه هي النار ، لأن وارد الماء يطفئ ظمأه ووارد النار يحرق نفسه ، وجاء التعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ)

وألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا ، ومصداق هذا اللعن الآثام والسيئات التي تكتب عليهم والذي هم سببها ما دامت الدنيا إلى يوم القيامة ، عن النبي (ص) : (مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) كقوله ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ البقرة/١٥٩ ، بإبعادهم عن رحمة الله ولطفه (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) ملعونون بلعنة أخرى (بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ) الرَّفْدُ : العطاء ، الْمَرْفُودُ : المعطى ، وقد سمى الله هذه اللعنات رفداً تهكماً بهم ، بئس العون المعان والعطاء المعطى لهم وهي اللعنة المضاعفة في الدارين وساءت عطاء ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ القصص/٤٢ ، وذلك من بدائع التعبير والتصوير القرآني الدقيق. فائدة : لو لم يجد فرعون أنصاراً لما تجرأ وقال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ النازعات/٢٤ ، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص/٣٨ ، وهكذا هلك فرعون ، وهناك فراعنة في كل عصر يغوون الناس ويجدون الأنصار والأتباع ويردون موردتهم، (إنَّ الحقَّ والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن إعرِفَ الْحَقَّ تَعَرَّفَ أَهْلُهُ، وإعرِفَ الْبَاطِلَ تَعَرَّفَ أَهْلُهُ) نصح السعادة في مستدرک نصح البلاغة/١/٢٩٨ (مَنْ زَانُوا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ظَلَمُوهُ، وَمَنْ زَانُوا الرِّجَالَ بِالْحَقِّ أَنْصَفُوهُ) ولن تكون أمة فاسدة وقائدها صالح ، كما لا تكون أمة صالحة وقائدها فاسد، فالحاكم من جنس المحكوم كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١، في الحديث: (كَمَا تَكُونُوا يُؤْتَى عَلَيْكُمْ) كنز العمال خبر ١٤٩٧٩، عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ (الصحيحة) زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار ١٠٥/٢ ومن دخل في أي أمرٍ يجهل تصرّف بجهل وخرج منه بجهل أو بقي فيه بجهل. ٢- عن ابن عباس في الآية : (الوَرْدُ الدُّخُولُ وَقَدْ ذُكِرَ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ (بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ) ، (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) مريم/٧١ ، قال : والله ليردن جهنم كل برٍّ وفاجر ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ مريم/٧٢). ٣- العبرة في الآية أنّ في البشر فراعنة كثيرين يغوون الناس ويطيعونهم ويدلون لهم ذل العبيد (لَا تَكُنْ عَبْدًا غَيْرِكَ وَقَدْ خَلَقَكَ اللَّهُ حُرًّا) البحار ٢١٤/٧٧ والناس خوفهم من الدّل أوقعهم في الدّل ، وساعة ذلّ لا تعادل الدهر كلّه ، في غرر الحكم : (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ).

١٠٠ - ﴿ذَلِكِ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي نَفَّضَ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

ذلك القصص من أخبار الأمم التي أهلكتها بكفرهم وانحرافهم وتكذيبهم الرسل نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي (مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) من هذه الأمم ما هو (قَائِمٌ) عامر قد هلك أهله وبقي بنيانه لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة وال عمران ، ومنها (حَصِيدٌ) خراب قد إنذر بأهله فلم يبق له أثر كالزروع المحصود كقوله ﴿وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ الحج/٤٥.

١٠١ - ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَتِيبٌ﴾

وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ولكن ظلموا أنفسهم بأنفسهم ولم يظلمهم أحد ، ظلموها بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ، وفي غرر الحكم : (مَنْ لَمْ يُهْدَبْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ) (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آهْتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ما نفعتهم آهتهم التي عبدوها من دون الله ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله (لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) حين جاء قضاء الله بعذابهم (وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) وما زادتهم تلك الآلهة (غَيْرَ تَتْبِيبٍ) غير تخسير وتدمير ، ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ ﴾ المسد/ ١ ، أي خسرت ولفظ (تَتْبِيبٍ) أقوى بنائه اللفظي وجرسه المؤثر المشدد من التخسير (وَمَا زَادُوهُمْ) فزادوا استهتاراً وتكديباً فزادهم الله نكالاً وتدميراً !

١٠٢ - ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّأَنَّهَا أَخَذَتْهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

مثل ذلك الأخذ العنيف والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المفسدين المكذبين ، يأخذ الله تعالى بعذابه الفجرة الظلمة ، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ (بمهله) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ) جمع البيان ج ٥-٦ ص ١٩١ كقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف/ ١٨٢ ، (إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) إن عذابه موجه شديد بعد انتهاء كلِّ وسائل الهداية. فائدة : يكشف الله بهذه القصص عن سنة متحركة وقانون فاعل مؤثر في كلِّ زمان ومكان وليس هذا الحكم مخصوص بالأمم السابقة ، فليعتبر الظالمون ولا يغتروا بالدين الذي ينتسبون إليه دون أن يعلموا أنهم على يقين من سلامة إعتقاداتهم فرما كان ذلك إمهال واستدرج لهم دون أن يشعروا ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ الأنفال/ ٤٢ ، عن الإمام علي (ع) : (لَيْسَ لِهَالِكٍ هَلَكٌ مَنْ يَعْرِضُهُ فِي تَعَمُّدٍ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا هُدًى ، وَلَا فِي تَرْكٍ حَقِّ حَسِبَهُ ضَلَالَةً)! البحار/ ٣٠٥

١٠٣ - ١٠٤ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾

إنَّ في هذه القصص القرآنية (لآية) لعظة وعبرة لمن خاف الله واليوم الآخر والحساب ، فتفتتح بصائرهم بهذه التقوى التي تجلو البصائر والقلوب فتؤمن ما وراء المرئيات (ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ) ذلك اليوم القائم الحاسم حقيقة ثابتة مؤكدة يجتمع الخلاق كلُّهم للجزاء والحساب على غير إرادة منهم (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) يساق الجميع إليه يشهده الأولون والآخرون والأبرار والفجار وأهل السماء والأرض من الملائكة والجن والإنس (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ) لوقت معلوم مقدّر عند الله ، أي وما تؤخر ذلك اليوم الذي يقوم الناس لرب العالمين إلا لزمان معين سبق به قضاء الله لا يتقدّم ولا يتأخر ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد/ ٨ ، وهكذا لكل شيء مدة وأجل ينتهي إليه ، أحصاه الله وحدده حتماً قبل خلقه فلا يأتي إلا لأجله كقوله ﴿ لِكُلِّ

أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ الرعد/ ٣٨ ، والأجل المحتوم لا يتقدّم ولا يتأخر وهو مكتوم أيضاً لا يعلمه إلا الله كقوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ النبا/ ٢٩

١٠٥ - ١٠٧ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنهَى شِقِيٍّ وَسَعِيدٍ ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِئْسَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب والوعد الثابت ولا بدّ أن يأتي لأنه حقيقة ثابتة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى كقوله ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يس/ ٦٥ ، ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ المرسلات/ ٣٥ ، (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) كقوله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى/ ٧ ، شقاوة الإنسان وخذلانه غداً أو فوزه وسعادته إنما تكون بعمله في الدنيا وكما يزرع يحصد ، لا بقضاء الله وبسببه وقدره كقوله ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الجاثية/ ٢٢ ، قيل : علامة الشقاوة (من الشقاء) خمسة أشياء : قسوة

القلب وجمود العين والرغبة في الدنيا وطول الأمل وقلة الحياء ، وعلامة السعادة خمسة أشياء : لين القلب ووعي الأشياء والزهدي في الدنيا وقصر الأمل وكثرة الحياء فالسعداء درجات والأشقياء دركات (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِئْسَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ) فأما الأشقياء الذين سلكوا طريق الشقاء والعناء باختيارهم وطريق الهوى والشيطان وتركهم طريق الهدى والرحمن فإنهم في نار جهنم لهم من شدة كربهم (زَفِيرٌ) تنفس المكروب من شدة الهم والغم المسموع صوته وإخراج النفس إلى خارج الرئة مع شدة الضيق (وَشَهيقٌ) النشيج في البكاء إذا اشتد تردده في الصدر بسحب الهواء إلى داخل الرئة مع شدة الأنين وارتفع به الصوت وهو كناية عن أحزان وآلام وحسرات أهل النار (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) خالدين في جهنم أبداً دائماً مدة دوام السموات التي تظلمهم والأرض التي تقلهم في عالم الآخرة المبدلة الباقية التي لا تنفى كقوله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ إبراهيم/ ٤٨ ، (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) استثناء من مفهوم الخلود الدائم في النار وهم العصاة من المؤمنين وإدخالهم الجنة بالشفاعة فتجري عليهم أحكام التبديل والتحويل الذي هو سنة الله في خلقه كقوله ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن/ ٢٩ ، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد/ ٣٩ ، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف/ ١٨٨ ، (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ومشيعته تعالى إنما تتعلق بما سبقه به علمه واقتضته حكمته ﴿لَا مُعَقَّبَ حِكْمِهِ﴾ الرعد/ ٤١ . فائدة : (لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ) في ساحة المحشر عدّة مشاهد فتارة يؤذن لها بالكلام والدفاع وفي موقف آخر لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

١٠٨ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾

أما الأبرار السعداء فإنهم مستقرون في الجنة لا يخرجون منها أبداً دائماً مدة دوام السماوات التي تظلمهم والأرض التي تقلهم (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) علق الخلود في الجنة بمشيئة الله تعالى إشارة إلى قدرته وعظمته ما لم يصطدم بمشيئته سبحانه شيء ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الإنسان/ ٣٠ ، (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ) عطاء غير مقطوع عنهم بل هو نعيم دائم لا نهاية له. عن النبي (ص) : (يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَّمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَداً) ، وَالَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي ، يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ، وَالْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنِ بِنَاءِ مُسْتَقْبَلِهِ الدُّنْيَوِيِّ الْمُؤَقَّتِ ، وَالْآخِرِيِّ الدَّائِمِ .

١٠٩ - ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ لا تكن (في مِرْيَةٍ) في شك من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ظلمات جهالة وحيرة ضلالة ، بمعنى لا تشك في فساد دينهم الخطاب للنبي (ص) والمقصود الأمة على قاعدة (إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) عن الإمام الصادق (ع) (نزل القرآن بإيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) البحار ٣٨٢/٩٢ ، في غرر الحكم: (الشُّكُّ يُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ ، وَيُحْبِطُ الْإِيْمَانَ) وَيُفْسِدُ الدِّينَ ، وَيُقْلِقُ النَّفْسَ (مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير دليل ولا برهان ، إنه الاتباع الأعمى والسير مع العقل الجمعي الضال ، وهذه تسليية للرسول (ص) ووعد ضمني له بالانتقام منهم (وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) وإن الله سبحانه سيعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص عن استحقاقهم له ، فإن العقوبة على قدر الجناية والذنب ، وأيضاً وإننا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا وافياً تاماً لا ينقص منه شيء كما وفينا آباءهم ، فأعمال الخير يوفون جزاءهم عليها بسعة الرزق وكشف الضر جزاءً تاماً وافياً ولا يجوزون عليها في الآخرة. فائدة : (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ) راجع يونس/ ٩٤ ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾

١١٠ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ لا يجزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك القرآن فاختلف في ذلك الكتاب ، فكذب به بعضهم وصدق به بعضهم كما فعل قومك كقوله ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْغِيًا بَيْنَهُمْ﴾ آل عمران/ ١٩ ، (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقضي بينهم حسابهم في الدنيا (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب ، والريبة أقوى من الشك ، لهم إذ لا يدرون أحق هو أم باطل ؟ وَالَّذِي لَا

يَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ يَتَلَقَّه الشَّيْطَانُ ، وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهِدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ ، وكذلك اليهود لفي شكٍ من التوراة الحاضرة لعلمهم بكثرة ما تعرّضت للتحريف ، ونظيرها الإنجيل .

١١١ - ﴿وَإِنْ كُنَّا لَنَاقِفُهُمْ رَبُّكَ أَغْمَاهُ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وإن كلا من المؤمنين وغيرهم من الجاحدين سيوفيهم ربك حتماً جزاء أعمالهم في الآخرة (إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) عليهم بأعمالهم جميعاً من الخير أو الشرّ ومحصيتها عليهم وسيجازيهم عليها

١١٢ - ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الاستقامة : كلمة جامعة مانعة ، جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل والإيمان والأخلاق الفاضلة، ومانعة من الجهل والكسل وسوء الخلق ، فإن في الاستقامة السلامة وحفظ الكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة. فاستقامة الإنسان صلاحه وفلاحه في نفسه وفكره وسلوكه بحيث لا يتطرق إليه فساد أو نقص ، فكن ثابتاً على الاستقامة في الدين وداوم عليها في جميع الحالات في الأقوال والأفعال في السرّ والعلانية في الضعف والقوّة في الصحّة والمرض في الشدة والرخاء على السواء ، موفياً لحق الدين وفق ما أمرت بالاستقامة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود/٥٦ ، وقلت : إن هذا الشيء مستقيم فمعناه أنه معتدل متوازن قد وضع الموضوع اللائق به ، والاستقامة من الإنسان في القول والعمل هي السلوك الرضي من الله والناس لأنه موافق للفطرة كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ فصلت/٣٠ ، يتلخص الإسلام بكلمة واحدة (الاستقامة) وهي الاعتدال إن تتبع ولا تتبدع ، فإذا لم تتبع تتبدع من حيث تعلم أو لا تعلم، (وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) المعنى العام استقم يا محمد كما أمرك الله ومن تاب من الشرك والانحراف وآمن معك من المؤمنين (وَلَا تَطْغَوْا) فتجاوزوا حدود الله بالزيادة أو التقصان في الدين فخرجوا عن حدّ الاستقامة بارتكاب المحارم والغلو في الدين ، فإن الخروج عن أصول الدين الحنيف وقواعد الشرع الصحيح وأن تدخل في الدين ما ليس فيه ، فإنه زيغ وانحراف عن صراط الله المستقيم .

وفي ذلك إشارة إلى وجوب التعلم في اتباع النصوص من القرآن والسنة الصحيحة ، واجتناب الرأي المبتدع والتقليد الأعمى عن النبي (ص) : (طَلِبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) البحار ١/١٧٧ ، (إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) إنه تعالى مطلع على أعمالكم ويجازيكم عليها ، عن ابن عباس : (مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) آيَةٌ كَأَنَّتْ أَشَدُّ وَلَا أَشَقُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ) الرازي ١٨ ص ٧١ ، وعن النبي (ص) : (شَيْبَتُنِي هُوْدٌ وَالْوَاقِعَةُ) مجمع البيان ١٩٩/٥ لأنه أراد هذه الآية من سورة هود ، لأن أمته أمرت بالاستقامة وهي بحاجة إلى يقظة دائمة وتدبر مستمر وتزكية النفس بشكلٍ دائم ،

وضبط الانفعالات البشرية والتوترات العصبية ، ولتكن في شغل دائم مبني على العلم والإيمان معاً في كل قول وعمل وفي كل حركة من حركات الحياة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة/ ٢٨٢ ، في غرر الحكم: (ثَمَرَةُ الْعِلْمِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ)

١١٣ - ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾
 وَلَا تَرْكَبُوا : الركوب إلى الشيء الميول إليه الاطمئنان به والاعتماد عليه والتعاون معه ، والركون إلى الظالم عدو المؤمنين ظلم كقوله ﴿وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة/٥١، (وَلَا تَرْكَبُوا) ولا تميلوا أدنى ميل ولا تطمئنوا ولا تعتمدوا على الذين ظلموا مهما تكن قوتهم وقدرتهم ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤ ، لا تميلوا أدنى ميل إلى الظلمة من الطغاة والفسقة والفجرة وغيرهم ميولاً نفسياً وعملياً بالموودة والطاعة والنصيحة والرضا بأعمالهم والاعتماد عليهم والتشبه بهم، من القادة والمسؤولين وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكهم نار جهنم التي تمسهم بالركون إليهم ، وهذا نهي عام عن مولاة الظالمين ومناصرتهم واتباع سبيلهم ! والركون : الميل اليسير، أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل كأنكم رضيتم عن أعمالهم فتمسكهم النار بركونكم إليهم ، ويعني هذا الركون إقرارهم على هذا المنكر الذي يزاولونه ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الخطير ، فإذا كان الميول اليسير ظلماً فكيف بالاندماج معهم وطلب النصرة منهم !؟ كقوله ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ آل عمران/١١٩ ، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ النساء/١٣٩ ، ﴿وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة/٥١ ، (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ليس لكم من يمنعكم من عذاب الله تعالى ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء المتراكب ، فليس لكم إلا الله فتدعونوه فلا يجيبكم وتستنصرونه فلا ينصركم ، وأما صحبة الظالم على التقية فمستثناة من النهي بحال الاضطراب والظروف الإرهابية الاستثنائية مع الحذر الشديد من تجاوز الحدود (والضرورات تقدر بقدرها) كقوله ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران/٢٨ ، عن النبي (ص) : (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِحَيْرٍ مَا أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا نَزَعَتْ عَنْهُمْ الْبَرَكَاتُ وَسُلِطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا مَعِينٌ) وسائل الشيعة ١١/٣٩٨. فائدة: الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه والتحذير منه، فإن الظلم يحزب القلوب.

١- أما الميل إلى شيء من ظلمهم وإدخاله في الدين ويكون تداوله في المجتمع الإسلامي أو إدماج عادات الظالمين في الحياة الشخصية فهذا ليس من الركون إلى الظالمين فحسب بل هو دخول في زمرة الظالمين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء/٢٢٧ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ مُفْتَاخُ الرِّذَالِ، وَيُرِلُّ الْقَدَمَ وَيَسْتَلُبُّ النَّعَمَ، وَيُنزِلُ النَّعَمَ وَيَهْلِكُ الْأُمَّمَ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

يوسف/٢٣، في غرر الحكم : (ظَلُمَ الْمُسْتَسْلِمُ أَعْظَمَ الْجُرْمِ). ٢- عن ابن عباس حول الآية : (إِذَا كَانَ هَذَا هُوَ حَالٌ مَنْ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا مُجَرَّدُ زُكُونٍ ، وَمَنْ يَشْتَرِكْ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ أَطْرَى وَشَارَكَ!) وقال آخر : لا يحسبن الذين يسكنون عن الظالم أنهم في منجاة من سوء المنقلب ، فإن العقوبة لا تترك في ديار الظالمين وحدهم بل تتعداهم إلى الساكت عنهم والراضي بهم والحاضن لهم فهم شركاء في الظلم ، ويمكن التقية في مجتمع ظالم كقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران/٢٨ ، كمؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ غافر/٢٨ ، والتقية عند الضرورة (وَعِنْدَ الضَّرُورَاتِ تُبَاحُ الْمَحْضُورَاتُ) عن النبي (ص) : (جَامِلُوا الْأَشْرَارَ بِأَخْلَاقِهِمْ تَسْلَمُوا مِنْ عَوَائِلِهِمْ (شَرِّهِمْ) وَبِأَيْبُوهُمْ (خالفوهم) بِأَعْمَالِكُمْ كَيْلًا تَكُونُوا مِنْهُمْ) البحال ١٩٩/٧٤ ، عن النبي (ص) : (لَا تَزْكُنْ إِلَى ظَالِمٍ وَإِنْ كَانَ حَمِيمًا قَرِيبًا) تفسير النور/٤ ، وعنه (ص) (مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) كثر العمال خبر ٧٥٩٣.

١١٤ - ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَمَرْتَفَعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ لم يقل (صلوا) وإنما قال (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) المكتوبة المفروضة على تمامها وكما لها بشرطها وشروطها وجميع مقدماتها مع حضور القلب (طَرَفِي النَّهَارِ) صباحاً ومساءً ، أي أول النهار صلاة الصبح وآخره إلى وقت العصر وتقام صلاتي الظهر والعصر لأنها طرفا النهار (وَمَرْتَفَعًا مِنَ اللَّيْلِ) الساعات الأولى منه القريبة من آخر النهار والزلف : جمع زلفة تعني القرب في نهاية وقت العصر مع أول وقت المغرب وغياب الشمس وفيها صلاتي المغرب والعشاء كقوله ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ﴾ الإسراء/٧٨ ، وتحدّد الآية الصلوات الخمس بثلاث أوقات، دلوك الشمس وقت زوالها يعني صلاتي الظهر والعصر (غَسَقِ اللَّيْلِ) ظلام الليل يعني صلاتي المغرب والعشاء (وَقُرْآنِ الْفَجْرِ) صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ) إِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَأَهْمَهَا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَكْفُرُ الذُّنُوبَ الصَّغَائِرَ مَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ ، لأن الصلوات حسنة زكيات تطهر النفوس وتهذب الطباع وتذهب بآثار المعاصي ، وفي التعبير عن الصلاة بالحسنات لها دلالاتها النفسية المؤثرة الشفافة (ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ) ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلوات عظة للمتعتظين وإرشاد للمسترشدين. فائدة: ١- عن النبي (ص): (جعلت الصلوات كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر) صفة التفاسير ٣٦/٢ ثم قال (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ) كقوله ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ النساء/٣١. ٢- السيئات نوعان مع الله ومع الناس ، السيئات مع الله يتوب الله عليها إن تاب بصدق ، ولكن السيئات مع الناس كالاغتداء على حقوقهم لا يحوه شيء حتى التوبة إلا أن يؤدي حقوقهم الخاصة ، في غرر الحكم:

(جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُقُوقَ عِبَادِهِ مُقَدِّمَةً عَلَى حُقُوقِهِ ، فَمَنْ قَامَ بِحُقُوقِ عِبَادِ اللَّهِ كَانَ ذَلِكَ مُؤَدِّيًّا إِلَى الْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ). ٣- كما (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) كذلك من السيئات الكبيرة من يذهبن بالحسنات كقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد/٢٨.

١١٥ - ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(وَاصْبِرْ) الصبر على إطلاق معناه ، والصبر في كلِّ شيءٍ للثبات على الاستقامة ، أي الصبر في الأخلاق والصلاة وفي جميع العبادات والتعاملات من أعظم الأركان ومن أهم الأسس التي يستعان بها على النوائب والمكاره ، فالصبر والتصابر والصبر الجميل يحفظ النفس من القلق والجزع والإهزام والصلاة تزكي النفس وتهذب السلوك وتنسي المكاره (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) الْمُحْسِنِينَ : الذين يؤدون الأعمال الصالحة على أحسن وجه غير مكتفين بالقدر الواجب منها ، أي لا يضيع أجر المصلين وثواب الصالحين. فائدة : دلالة الآية أن من يستقيم على صراط الله المستقيم لا بد أن يعترضه الكثير من المصاعب من أهل الجهل والضلال وإن الصبر في جهادهم من أفضل الطاعات وأحب الحسنات تشير الآية أن الصبر من باب الإحسان ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت/٣٥.

١١٦ - ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

(فَلَوْلَا) فهلا كان (مِنَ الْقُرُونِ) من الأمم الماضية قَبْلِكُمْ (أُولُوا بَقِيَّةَ) أولوا عقل وفضل ودراية ، وجماعة أخيار أبرار فضلاء علماء ينصرون الحق وينهون الأشرار عن انتشار الفساد في الأرض ولكن لا أمر لمن لا يطاع كقوله ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/١٠٤ ، (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) استثناء منقطع أي لكن قليلاً منهم نهوا عن الفساد فنجوا ، (ولولا) في الآية للتخصيص والحث على الفعل صحبها معنى التأسف والتفجع كقوله ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ يس/٣٠ ، والغرض التأسف على تلك الأمم الضالة المفسدة (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) واتبع أولئك الظلمة شهواتهم وما نَعَموا به من الاشتغال بالمال وحسن الحال والجمال واستعملوها في الفساد وآثروها على حب الله واليوم الآخر ، فيكون الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام كقوله ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء/١٦ ، (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) وكانوا قومًا معاندين أغلقوا نفوسهم عن الهدى فساقهم هواهم إلى الردى ، وقيل (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) إن هؤلاء تاركوا التهي عن المنكرات لأنهم اكتفوا بالعيش الهنيئ ورفضوا ما وراء ذلك! فائدة : دلالة الآية على وجوب فريضة النهي عن المنكر ،

لو نهي الكثير كما نهي القليل لما هلكوا، في الحديث : (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُنْكَرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يُعَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ) الترغيب والترهيب ٢٢٩/٣ ، ومعنى هذا لا ينبغي أن نسكت ونتهاون مع المذنب المفسد المخرب ، وإنّ مسؤوليتنا تحتم تكوين جبهة معارضة مقاومة للفساد والمفسدين ، تحاسب المعتدي حساباً عسيراً وإلاّ إنتشر فساد كالباء يأتي على الجميع! في الحديث (إنّ الله لا يُعذّبُ العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكروا، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله العامة والخاصة) روح البيان ٢٠٠/٤ .

١١٧ - ﴿وَمَا كَانَ مَرْبُكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

لم يكن من سنته سبحانه ذلك لأنه ظلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ ، والله سبحانه ينهى عن الظلم في عباده ويعاقب عليه ، بل يأمر وينهى في مصلحة العباد حتى يخلصهم من الظلم والعذاب، وحاشا لله سبحانه أن يهلك فرداً أو قوماً وهم صالحون مؤمنون ولهم قدرة يصدّون بها الظلم والفساد ، فالسنة الإلهية تقضي بهلاك الأمة التي تخرج عن أصولها الإنسانية المكرمة والتي يقع فيها الفساد كظاهرة إجتماعية عامة ، ومنه تعبيد الناس لغير الله بأية صورة من الصور ، إذا لم ينهض من صالحى الأمة من يدفع الشرك والشّر والظلم والاعتداء والفساد عنهم. وهذه إشارة تكشف عن سنّة متحرّكة من سنن الله في الأمم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧ ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤ ، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/١٨١ ، فمن شدّد عن هذه القاعدة الكليّة أي مجتمع سيتعرّض لسنن الهلاك إن عاجلاً أو آجلاً كقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ ، فهي أمة ناجية ، فإذا لم يكن في الأمة مصلحين ينهون عن الفساد فيهلك الجميع بذنوبهم بالاستدراج.

١١٨ - ١١٩ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنْ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَكَذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَنَزَّلَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

ولو شاء الله (مشيئة تكوينية) لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، لرفع الاختلاف بين الناس وجعلهم أمة واحدة لا يختلفون في الدين كقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ المائدة/٤٨ ، ولو جعل الناس على نسق واحد وباستعداد واحد نسخاً مكررة لا تنويع بينها وهذه ليست طبيعة الحياة الدنيا لكنّه لم يشأ ذلك لو شاء افتراضاً لسلب عنهم صفة البشرية المكرّمة المختارة وكانوا أشبه بالحيوانات أو الملائكة المفطورين على طاعة الله لا يتحمّلون آية تبعة ولا يحاسبون على أعمالهم ، ولكن تحققت مشيئته سبحانه في حمّل الناس مسؤولية اختيار الهدى والضلال ، فقد شجعهم على الهدى وأثامهم عليه ونهاهم عن الضلال وعاقبهم عليه ، وقد فطّرهم وخلقهم على معرفة الله وتوحيده ولكنهم اختلفوا في الدين الحق بغياً بينهم ، لا يتدخل الله سبحانه بإرادة الإنسان وتصرفاته ولو شاء فعل ، ولكنه لا يشاء ولن يشاء حتى تبقى للإنسان إرادته وحرّيته التي يكون بها مكرّماً ومسؤولاً عن نفسه

ويستحق المدح والثواب إن استقام ، والذم والعقاب إن أساء ، وبذلك يتحمل تبعه ما يختار ، وضمن حدود قدرته كقوله ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الدهر/٤ ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الشمس/٧-٨ ، وتقدم في المائة/٤٨ (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) وسيستمرون مختلفين على أديان وقناعات شتى لاختلاف عقولهم وقدراتهم واتباع أهوائهم ، عن النبي (ص) : (النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَيَّنُوا (تفاوتوا) فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا) التفسير القرآني للقرآن ١٢/١٢١٨ فإن الاختلاف نتيجة طبيعية لجعل الإنسان مخيراً غير مسير . هذا إخبار وحكاية عن أهل الأديان والمذاهب والملل والنحل والأهواء الشتى وليس تعبيراً عن قضاء الله وقدره (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) إلا الذين ادركتهم رحمة الله واهتدوا إلى الحق والحق أحق أن يتبع والحق لا يتعدد ولا يتغير ولا يتبدل فاعتصموا به واتفقوا عليه ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس/٣٢ ، بتك التعصب والنعرات الطائفية والكراهية والتكفير ، وهم الذين يبحثون عن الحقيقة بإخلاص وتجرد ويأخذون الحكمة من أي وعاء خرجت ، ويطلبون العلم ويرغبون في الهداية والاستقامة فكانوا كيانياً واحداً تجمعهم أهداف سامية مشتركة وإن اختلفت أدوارهم وأساليبهم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص/٢٤ ، وهؤلاء لا يختلفون على حطام الدنيا وإذا اختلفوا فإنما يختلفون في وجهات النظر وتعدد الآراء (وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ) وَلَدَلِكْ اللام لام العاقبة أي خلقهم ليرحمهم وليترحموا فيما بينهم لا ليتلاكموا ويتآمروا ويتنازعوها ويتباغضوا ، وإنما تشملهم رحمته إذا طلبوا الحق لوجه الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/٥٦ ، خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته فيرحمهم ، عن الإمام الصادق (ع) : (خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْنَ آدَمَ لِيَتَدَبَّرَ وَيَسْتَحِقَّ رَحْمَتَهُ)

خلقهم للرحمة والهداية والعبادة ووحدة الصفوف ولم يخلقهم للاختلاف والتشتت والتكراه (وَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) اللام لام القسم في (لَأَمْلَآنَ) ، (وَمَتَّ) أي وتحققت كلمة ربك وجاءت على تمامها وكما لها ، حق أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً بما ظلموا وتجاوزوا الحدود وكانوا يعتدون ، وبما اختلفوا في الحق الذي يوحدهم ولا يفرقهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. فائدة: ١- يفهم من الاية أن الذين استذوقوا طاعة الله بإرادتهم وأدركتهم رحمته سبحانه لهم مقام الجنة يمتلئ بهم، كما تمتلئ جهنم بالضالين المعاندين لأهل الحق من الجنَّة والنَّاسِ أَجْمَعِينَ. ٢- (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) ونحانا القرآن عن الاختلاف لأنه يهدم الرأي الصائب كقوله ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم/٣٢ ، وقوله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى/١٠ ، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

وعن النبي (ص) : (مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا بِأَطْلَاهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ!) شرح النهج ١٨١/٥ ، وعن الإمام علي (ع) : (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْبَقِيَّةُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) البحار ٢٩٣/٧٧ ، وعنه (ع) : (إِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِنْ مَضَى وَلَا يَمُنُّ بِقِي) شرح النهج ٣٣/١٠ . والاختلاف المنهبي عنه: هو التفرق بين الناس والتنازع والكرهية بينهم فهو من عمل الشيطان، الذي يوقع بينهم العداوة والبغضاء. والاختلاف الذي تشير إليه الآية ويحدث به الرسول (ص) ليس بالاختلاف الذي يفرق بين الناس وإنما هو اختلاف في القدرات والملكات والحظوظ واختلاف في الطول والقصر وبالقوة والضعف ، والاختلاف في الوجوه والسيما والأشكال والألوان واللغات، واختلاف في الآراء والاجتهادات التي تريد إصابة الحق بعيداً عن الباطل ، وباختلاف وجوه الآراء يعرف مواطن الصواب ، لذلك حث القرآن على الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران/١٥٩ ، إذن : الناس فريقان : فريق اتفقوا في الدين فجعلوا القرآن حكماً بينهم فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله ووفاهم شر الاختلاف، وفريق اختلفوا في الدين والدنيا فكان بأسهم بينهم شديداً فذاقوا عقاب الاختلاف في الدنيا والآخرة ورحمهم الله من رحمته.

١٢٠ - ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَليكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نَبَّيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين إنما هي بقصد كشف سنن الله في الماضين والباقيين (مَا نَبَّيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ) نُعَبِّتُ : نقوي ، وتثبيتك على أداء الرسالة ليطمئن قلبك ليكونوا لك أسوة حسنة فتصبر كما صبروا على احتمال أذى قومك ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور/٤٨ ، (وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ) وجاءك في هذه الأنباء التي قصصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) وجاءك في هذه الأخبار ما فيه ذكرى وتذكرة وعظة وعبرة للمعتبرين ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢ ، وخص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن. فائدة : تكشف الآية عن سنن الله في خلقه ، فالذي لا يتعظ بالماضين كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِينَ ، والسعيد مَنْ اتَّعَظَ بِعَيْرِهِ كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ الأحزاب/٣٨ .

١٢١ - ١٢٢ ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾

وقل يا محمد للذين لا يؤمنون (اعملوا على مكانتكم) على طريقتكم ومنزلتكم وحالتكم وما تحسبونه خيراً لكم ، إنا عاملون على طريقتنا طبقاً لمنهج ربنا كقوله ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى

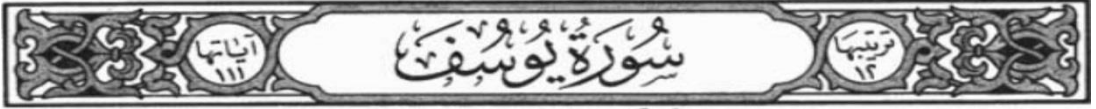
شَاكِلْتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿ الإسراء/٨٤ ، شَاكِلْتِهِ : طريقته ، تَيْتَهُ ، وهو أمر معناه التهديد (وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) إنتظروا ما يحل بنا إنا منتظرون ما يحل بكم أيها الجاحدون من عذاب الله ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ الأنعام/١٣٥ .

١٢٣ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
 وَلِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ عِلْمٌ مَا غَابَ وَخَفِيَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَظْهَرْ فِيهِمَا كَلَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ وَبِعِلْمِهِ ، فَكُلُّ سِرِّ عِنْدَهُ عِلَانِيَةٌ وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ وَيَخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَهُوَ عِلْمٌ مَا غَابَ فِيهِمَا عَنِ الْعِبَادِ وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ عِلْمُهُ فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَعْمَالُ عِبَادِهِ ؟ كَقَوْلِهِ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام/٥٩ ، وَقَدْ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ أَبْوَابِ الْغَيْبِ لِأَنْبِيَائِهِ كَقَوْلِهِ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن/٢٦ - ٢٧ ، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾ إِلَيْهِ يَرُدُّ أَمْرُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام/١٤٩ ، وَلَا شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ الْمُحَرَّبُ مِنْ سُلْطَانِهِ وَكُلِّ الْخَلْقِ خَاضِعُونَ لِلَّهِ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكْ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا ، وَأَفْوُضْ إِلَيْهِ أَمْرَكَ (فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاءً) وَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ وَلَا تَتَوَكَّلْ وَتَعْتَمِدْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَسْبَابِ دُونَهُ ، لِأَنَّهَا أَسْبَابٌ هِيَ مُسَبِّبُهَا غَيْرُ مُسْتَقَلَّةٍ مِنْ دُونِهِ (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَلَا يَغْفُلُ عَنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، إِنَّهُ رَقِيبٌ وَمَحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقَرِيبٌ مِنْهُ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ النجم/٣١ ، (فَلَا تَغْفُلْ فَلَيْسَ بِمَعْفُولٍ عَنْكَ) عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) : (فِيهَا لَهَا حَسْرَةٌ عَلَى ذِي عَقْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً) نَجْحُ الْبَلَاغَةِ خُطْبَةٌ ٦٤ .

فائدة: ١ - الغيب: ما غاب عن الحس وهو قسمان : قسم لا دليل عليه كقوله ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الأنعام/٥٩ ، وَقَوْلُهُ (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) آل عمران/١٧٩ ، وَقِسْمٌ لَهُ دَلِيلٌ كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ .. ، وَهَنَّاكَ غَيْبٌ غَابَ عَنْكَ ، وَغَيْبٌ غَبَتْ عَنْهُ ، فَالَّذِي غَابَ عَنْكَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ وَهُوَ مَعَكَ ، أَمَّا الَّذِي غَبَتْ عَنْهُ بِالْوُجُودِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الحديد/٤ ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِنْكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق/١٦ . ٢ - (وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وَمَعْنَى التَّوَكُّلِ : أَنْ تَعْمَلَ بِالِاسْتِطَاعَةِ الْكَامِلَةِ مِنْ دُونِ تَقْصِيرٍ وَتَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ مَا فَوْقَ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ مِمَّا لَيْسَ لَكَ سَبِيلٌ إِلَى الْحَصُولِ عَلَيْهِ ، وَالتَّوَكُّلُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِدَّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ ، وَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَطَاعَةِ ، وَبِدُونِ ذَلِكَ يَكُونُ التَّوَكُّلُ تَوَاكُلًا وَكَسَلًا وَعَجْزًا وَتَمَيُّيًا كَاذِبًا ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ

الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَنْتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَّتْ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ (المراعي ١٢/١٠١، في غرر الحكم: (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَحَسُنُ تَوَكُّلُ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ). وفي الختام نقول: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ الحاققة/ ١٢، وآخر دعوانا (أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/ ١٠. تم بعون الله تعالى (وَعِيُ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرُ) لسورة هود ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمثمة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ١٤/١٤/١٤٣٧ هـ الموافق ٢/٢/٢٠١٥ م مع تصحيحها عدة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السّورة :

مكية غير أربع آيات نزلت بالمدينة ، ثلاث من أولها والرابعة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ﴾ تناولت السورة قصة يوسف (ع) وما لاقاه من أنواع البلاء والشدائد من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر وفي السجن وفي تأمر النسوة حتى نجاه الله من ذلك كله ، والمقصود بها تسلية النبي (ص) بما مرّ عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد ، وأسلوب السورة فذ فريد مؤثر في البلاغة ، يسري تأثيرها مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري بسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد ، بحيث لا يسمعها محزون إلاّ استراح إليها. وكان الله تعالى يقول لنبيه (ص) لا تحزن يا محمد من إيداء قومك لك ، فإنّ بعد الشدة فرجاً وبعد الضيق مخرجاً ، أنظر إلى أخيك يوسف فإنه كما مرّ بصنوف البلايا حتى جعله الله عزيزاً حاكماً في مصر وكذلك أنت يا محمد (ص) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف/ ٣٥ ، فلا بدّ من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/ ٨٣ ، وفي السورة دروس وعبر كثيرة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف/ ١١١ الجزء الثاني عشر/عدد آياتها ١١١. فضلها : عن النبي (ص) : (أَيُّمَا مُسْلِمٍ تَلَاهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ ، هَوَّنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ أَنْ لَا يَحْسُدَ مُسْلِمًا) مجمع البيان/٥/٣٩٥. ملاحظة عامة : راجع فضل سورة البقرة ، وكل فضائل سور القرآن يعتمد على مقدار الصدق و إخلاص العمل من الإنسان ومقدار الرضا من الله سبحانه تجاه الإنسان ، وليس بالملنى والأمانى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الرَّتْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

(الر) تقرأ ألف لام راء ، الأحرف المقطعة إشارة إلى متشابه القرآن وإعجاز القرآن ، حيث أنه مؤلف من جنس هذه الحروف العربية التي يستخدمها الناس ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في الفصاحة والبلاغة والمحتوى العلمي. وتقدم ذكر الحروف المقطعة في أول سورة البقرة (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) الْمُبِينِ : الواضح في نفسه الموضح لغيره ، تلك آيات القرآن المعجز في بيانه الساطع في برهانه الواضح في معانيه الواسع في دلالاته لا تشبهه حقائقه ولا تلتبس دقائمه ، ظَاهِرُهُ أَيْقُنْ رَقِيقُ جَدَّابٌ، وَبَاطِنُهُ دَقِيقٌ عَمِيقٌ مُنْسَابٌ ، لَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ، وَلَا تَقْفِي غَرَائِظُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ ، ولا تنال الأمة الإسلامية عزتها إلا بالرجوع إليه. **فائدة :** (تِلْكَ) اسم إشارة للبعيد يشار بها إلى عظمة هذه الآيات في رفعتها ومنزلتها السامية ، كقوله أول سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ البقرة/٢ ، للبعيد وللتعظيم أيضاً.

٢ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) باللغة العربية البليغة مؤلفاً من هذه الأحرف العربية (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) لكي تعقلوا وتذكروا أن الذي يصنع من الكلمات المألوفة هذا الكتاب المعجز الذي يَهْدِي لِيَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، ليس بشراً وإنما هو إله قدير تجلّى بالقرآن إلى خلقه ، وهو وحي منزل من رب العالمين ليعقلوا معانيه ويفهموا مبانيه ويدركوا دلالاته ويعملوا بها. **فائدة :** دلالة الآية أن من يجهل اللغة العربية يتعسر عليه أن يعقل الإسلام على حقيقته الشاملة الكاملة وإن ترجم إلى لغات متعددة ولكن يبقى فرق بين النص القرآني العربي البليغ والترجمة ، وتبين الترجمة جزء من القرآن ولكن لا تبين كل شيء ، وتبقى الترجمة محاولة للفهم خير من عدم وجودها ولا سيما إذا كانت الترجمة معتمدة. وأيضاً العمل على انتشار اللغة العربية في بلاد غير عربية هي أفضل وسيلة لمعرفة الإسلام والقرآن الكريم (قُرْآنًا عَرَبِيًّا) دليل على شرف اللسان العربي ، في الحديث : (أُحِبُّ الْعَرَبَ لِثَلَاثٍ: لِأَنَّ عَرَبِيًّا، وَالْقُرْآنَ عَرَبِيًّا، وَكَلَامَ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيًّا) ، وفي الحديث : (إِذَا ذُلَّتِ الْعَرَبُ ذُلَّ الْإِسْلَامُ) روح البيان/٤/٢٠٩.

٣ - ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

نحن نروي لك ونحدثك يا محمد أخبار الأمم السابقة بأصدق كلام وأحسن بيان وأفضل قصص وهي أبناء الرسل التي جاءت حقائقها في القرآن الكريم لما فيها من العبر والحكم والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وكشف عن السنن التاريخية (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) بإيجازنا إليك هذا

القرآن المعجز بأبلغ الإيجاءات والعبادات وأحسن الدلالات والنظم (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) كنت غافلاً عن هذه الأنباء ولم تلتفت إليها لأنها حدثت منذ قرون وهي مجهولة ولا يعرف عنها أحد شيء ، ولم يكن هناك تأريخ يدوّن الأحداث ، وإنّ ما ذكره القرآن الكريم من جملة الأدلة على صدق الوحي للرسول الأعظم (ص) كقوله ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الشورى/ ٥٢ ، وقوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ الضحى/ ٧. فائدة : ١- التربية بالقصص أحد وسائل التربية والتعليم للناس ، ومن أهم الأساليب لتهديب وتركيب النفس. ٢- (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) إشارة إلى مجموع القرآن في قصصه ومحتوياته هي الأحسن من كلّ شيء كقوله ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الزمر/ ٢٣ ، عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ وَأَبْلَغَ الْمُوعِظَةِ وَأَنْفَعَ الذِّكْرِ كِتَابُ اللَّهِ) الكافي/ ٨ ص ١٧٥.

٤ - ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَعْقُوبُ يَا أَبِي إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي رُؤْيَا غَرِيبَةً ، رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا مِنْ كَوَاكِبِ السَّمَاءِ خَرَّتْ سَاجِدَةً لِي (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) سجدة تحية لا سجدة عبادة ، ويطلق لفظ السجود على وجه التعظيم والإكرام والتواضع والخضوع ، ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدين لي مع الكواكب ، فكانت الرؤيا وحياً والكواكب الأحد عشر كانت إخوته والشمس والقمر أبواه ، فلما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله وحده الذي نصر عبده وأعز جنده وصدق وعده ، حين نظرنا إليه وهو عزيز مصر. فائدة : ١- الرؤيا في المنام والرؤية في اليقظة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يونس/ ٦٤ ، هي الرؤيا الحسنة فيبشر بها المؤمن في دنياه ، عن النبي (ص) : (الرُّؤْيَا لَا تُقْصُ إِلَّا عَلَى مُؤْمِنٍ خَلَا مِنْ الْحَسَدِ وَالْبَغْيِ) البحار ١٧٤/٦١ ، وكان يوسف (ع) عمره وقتئذ لم يتجاوز تسع سنين وكان غلاماً على درجة كبيرة من الجمال الأخاذ ، الجمال بجميع معانيه الظاهرة والباطنة ، جمال الخلق وجمال الخلق ، وجمال الهيئة ، وكان مضرب المثل بالجمال وبهاء الطلعة وبمكارم الأخلاق. ٢- وتعبير الرؤيا علم كبقية العلوم يعلمه الله من عباده من يشاء كقوله ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يوسف/ ٢١ ، في ظروف وحالة هو في أمس الحاجة إليها ، عن النبي (ص) : (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بِشْرَى مِنَ اللَّهِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبُوءَةِ). البحار ١٩٢/٦١

٥ - ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قال له يعقوب (بحسّه وبصيرته) إنّ وراء هذه الرؤيا الصادقة شأناً عظيماً لهذا الغلام ، لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك فإنهم سيحسدونك (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) فيحتالوا لإهلاكك حيلة خبيثة لا تقدر على ردّها ، بإغراء من الشيطان عدوّ الإنسان الذي تمكّن من قلوبهم ليشير الفتنة والحسد بينهم ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/ ٣٨ ، فأمره بالكتمان ، عن الإمام علي (ع) : (اسْتَعِينُوا عَلَى حَوَائِجِكُمْ بِالْكَتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُوذٌ) شرح النهج ٣١٦/١ ، وعنه (ع) : (قَمَرَةُ الْحَسَدِ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ) غرر الحكم (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) إنّ الشيطان ظاهر

العداوة للإنسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاطر/٦، وقد أرشد إلى هذا يوسف بقوله ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ يوسف/١٠٠.

فائدة: ١- أدرك يعقوب أنه سيكون ليوسف شأن لأن هذا المنام له دلالات وإشارات وبشارات حقيقية، فالمنام آية من آيات الله فلو كان كله صادق لاعتمدت الناس عليه ولو كان كله كاذب لكان خرافة وأضغاث أحلام، فهو بينهما لذلك فهو من آيات الله، عن النبي (ص): (الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَتَحْرِيْقٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، الَّذِي يُحَدِّثُ بِهِ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ) البحار ١٩١/٦١. ٢- الحسد أصل الشرور والكوارث بين الناس، والحسود لا يسود، وليس لحسود راحة، ولا يطمئن له قلب!.

٦ - ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرْسِلْ نَفْسَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَ عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وكما اصطفاك ربك وأراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك (يَجْتَبِيكَ) يختارك ربك للنبوة ويصطفيك للرسالة ويفيض عليك بأنواع الكرامات فلا يكون فيك نصيب لغير الله (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) ويعلمك علماً مؤثراً يلهمك إياه إلهاماً تحتاجه أنت وأمتك وهو التفسير الحقيقي وليس الظني للرؤيا في المنام ، وإن الله سيعلمه من علمه اللدني ما لم يكن يعلم كقول يوسف (ع) ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ يوسف/١٠٠ ، (وَيُرْسِلْ نَفْسَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ) ونعم الله لا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إبراهيم/٣٤ ، ويتم فضله عليك وإنعامه على ذرية أبيك يعقوب بالنزول في مصر واجتماع الأهل والملك والعزة والنبوة ، (كَمَا أَنْتَ عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) كما أكمل النعمة على جدك إبراهيم وإسحاق بالرسالة والاصطفاء وآتاهما خير الدنيا والآخرة (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) وإتما يصنع ربك ذلك بك لأنه عليم بمن هو أهل للفضل حكيم في تدبيره لخلق لا يفعل إلا ما ينبغي عمله.

فائدة: ١- ومعنى إتمام النعمة من الله فلا يبلغها الإحصاء بحيث تمتد نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ٢- (تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) تفسير الرؤيا ، وكلّ عمل أو حديث يصل إلى الهدف التّهائي في معرفة حقيقته يطلق عليه تأويل ، وتحقق الرؤيا في الخارج مصداق للتأويل ، والتأويل : ما تقول إليه وتصل إليه الحوادث المصوّرة في نوم أو يقظة. ٣- لقد أعطى يوسف (ع) تأويل الأحاديث وأعطى إبراهيم (ع) النجاة من النار وأعطى نوح (ع) سفينة النجاة وأعطى موسى (ع) العصا واليد البيضاء وأعطى عيسى (ع) إحياء الموتى ، وكانت كلُّ عطية نعمة مناسبة لصاحبها فقط لا ينتفع بها غيره من الأنبياء ، وهذا يدلُّ أن إتمام النعمة تحصل للإنسان المناسب للنعمة المناسبة في الوقت المناسب في المكان المناسب فهي نعمة مقدرة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد/٨.٤- (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أي إعطاؤه هذا العلم الخاص ويلهمه إياه إلهاماً وكشفاً لبصيرتك لما يراد من خفايا الأمور ، أو فراسة خاصة فيها.

٧ - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾

لَقَدْ كَانَ فِي خَيْرِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ الْأَحَدِ عَشَرَ (آيَاتٍ) عبر وعظات كثيرة (لِلْسَّائِلِينَ) عن أخبارهم وللراغبين في كشف السنن التي مرت بهم ، وهي تستحق أن يسأل عنها الناس ، إنها آيات على قدرة الله وجميل صنعه بأوليائه ، فالقصة تبين أن من أخلص العبودية لله أخلصه الله لنفسه وتولى أموره والله يرفعه ولا يضعه مهما كانت العقبات أمامها ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣ ، في قصة يوسف أنواع الدلائل على قدرة الله وحفظه ليوسف وحكمته في إدارة السنن التاريخية ، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها : فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في البئر ولو لم يلقوه في البئر لما وصل إلى عزيز مصر ولو لم يعتقد العزيز أمانته لما أمّنه على بيته ، ولو لم تراوده امرأة العزيز لما ظهرت أمانته ولو لم يمتنع من مرادتها لما وضع في السجن ولو لم يوضع في السجن لما عرف الملك صدقه في رؤياه وعفته ولو لم يعلم الساقى للملك تعبيره للرؤيا الصادقة ما أنقذ مصر وأبويه وإخوته من الجوع ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الرعد/٨-٩ . فائدة: وكذلك كانت للنبى محمد (ص) وكلّ نبى آيات للسائلين تكشف عن سنن الله في خلقه وهو سبحانه الذي يدبّر هذه السنن بحكمته.

٨ - ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ أَبَائِنَا وَنَحْنُ عُصْبَتُهُ لِنَأْتِيَنَّهُ بِالْقُرْآنِ الْكَبِيرِ﴾

حين قَالُوا فيما بينهم لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ بِنِيَامِينَ (لأبيه وأمه وكان أصغر إخوته) أَحَبُّ مِنَّا عِنْدَ آبَائِنَا ، وزيادة محبته لهما أمر حقيقي لا شبهة فيه ، وإنما قَالُوا (وَأَخُوهُ) وهم جميعاً إخوة من أب واحد وتعدد الأمهات ، فكانت أم يوسف وبنيامين واحدة ، وهذه المحنة الأولى ليوسف (ع) عندما حسدوه (وَنَحْنُ عُصْبَتُهُ) جماعة إخوان يتعصب بعضهم لبعض ، ونحن رجال أقوىاء أكبر سنناً متعاضدون نقوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق (إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) إثم حكموا على أبيهم بسرعة ، إنه في خطأ (مُبِينٍ) واضح لإيثاره يوسف وأخيه من أمه علينا بالحبة ويشغل بهما دوننا ويقبل عليهما بالإعراض عنا ! وهو ضل طريق المساواة بوضوح فكيف يفضل غلامين ضعيفين صغيرين على أخوة عصابة أولي قوة تقوم بالتدبير.

فائدة: ١- لم يريدوا ضلال الدين وإنما أرادوا ضلال التدبير والخطأ في التقدير في إيثار اثنين صغار على عشرة كبار. ٢- وجوب عناية الوالدين برعاية الأولاد على المحبة واجتناب تفضيل بعضهم على بعض ، واتقاء التحاسد والتباغض بينهم. ٣- قريهما يعقوب لصغرهما فاستثقلوا ذلك ، والحقيقة أنّ يعقوب إنما كان يحبُّ يوسف وأخاه في الله سبحانه لما كان يتفرّس فيهما من النباهة والتقوى والكمال على صغر سنّهما ، ولم يكن حبّه لهما عن هوى نفسٍ أبداً ٤- هذه بداية تأريخ بني إسرائيل وهم أول جيل نشأ من بني إسرائيل وهم أولاد النبي يعقوب ، بدأت بالطعن في أبيهم النبي المعصوم وأنه في ضلال مبين ، والغدر بأخيهم ، والبكاء المنافق الكذاب أمام أبيهم والافتراء

على يوسف المحسن لهم بأنه خائن وسارق ، وما استسلموا إلا مقهورين مرغمين وهذا هو تأريخ بني إسرائيل من أول يوم إلى آخر يوم.

٩ - ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهه أبيكم وتكفوناً من بعده قوماً صالحين﴾

تأمروا على قتل يوسف والقتل المتعمد بغدرٍ وحقدٍ وحسدٍ وخيانة من أكبر الكبائر بعد الشرك (أو اطرحوه أرضاً) أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة لا يقدر أن يعود إلى بيت أبيه وهو طفل صغير وديع يبلغ تسع سنوات من عمره مما يدل على قسوة قلوب إخوته ، وبمرور الأيام ينسى اسم يوسف ويمحى رسمه ! (يخل لكم وجهه أبيكم) فعند ذلك يخلص ويصفو لكم حب أبيكم فيقبل عليكم بالمحبة والتكريم بعد أن يبأس من عودته ، وهذا هو منطق الاحتكار لعطف أبيهم من دون يوسف وهذا هو اللؤم والجرم أن أقتل وأشرد حتى الأرحام والأصدقاء حرصاً على الأرباح والمكاسب !! وهكذا كانت إسرائيل مع الفلسطينيين ولكن ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ فاطر/٤٣ ، ولو بعد حين (وتكفوناً من بعده قوماً صالحين) وهكذا يسؤل الشيطان للنفوس التي تفقد صحّة تقديراتها للأحداث ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ الأنعام/٤٣ ، وتتوبوا من

بعد هذه الجريمة الكبيرة وتصبحوا قوماً صالحين !! بمعنى إصلاح الأمر مع أبيهم أو نقوم بإصلاح ديننا ، وهذا يدل على أنهم يحترمون أمر الدين ولكن غلبهم الحسد والحقد وخبت السرية. فائدة : ١- أما التوبة في هذا المورد لا تقبل لأنها لتبرير الجريمة بزينة الشيطان ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ النساء/١٧ . ٢- كان أول تاريخهم محاولة قتل أخيهم يوسف الجميل ، واستمرّ تاريخهم بالفساد والقتل للفلسطينيين ، وإنّ دولتهم المزعومة الغدّة السرطانية لا بدّ أن تزول من الوجود وإن طال بها الزمان كقوله ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ الكهف/٥٩.

١٠ - ﴿قال قاتل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾

قال لهم أخوهم يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب لا تقتلوا يوسف فإنّ القتل ذنبٌ عظيم بل ألقوه في (غيابة الجب) قعر البئر حياً لا يرى ما فيه من الظلمة لعمق غوره وسمي به لأنه يغيب عن الأنظار (يلتقطه بعض السيارة) يأخذه بعض (السيارة) بعض المارة والمسافرين الذين يسرون في الأرض للتجارة فيذهبون به إلى ناحية أخرى (إن كنتم فاعلين) إن كان لابد من الخلاص منه فاكتفوا بذلك، وكان رأيه أهون شراً من رأي غيره.

١١ - ١٢ ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإننا لَناصِحونَ ، أمرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون﴾

الاستفهام إنكاري ، استأذناوا أباهم بأسلوب فيه عتب واستنكار خفي ، وهي بادرة ماكرة خبيثة ، بمعنى أي شيء حدث لك يا أبانا حتى لا تأمننا وتثق بنا على أخينا يوسف ونحن جميعاً أبناؤك ؟ (وإننا له لَناصِحونَ) لمخلصون المشفقون عليه ، ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه ولا نريد له إلاّ الخير! (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) أرسله معنا غداً إلى البادية (يرتّع) يتنزه ويتسع في أكل ما

لذَّ وطاب ويلهو ويلعب ولا تخف عليه شيئاً (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ونحن نحفظه من كلِّ سوء ومكروه وأكدوا كلامهم بأنَّ التوكيد و اللام مع أنهم كاذبون.

١٣ - ١٤ ﴿قَالَ إِنِّي يَحْزُنُنِي أَنَّ ذِمِّي بِي وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَنْ عَصَبْتَنَا إِذَا لَحَّاسِرُونَ ﴿١٤﴾ قال لهم أبوهم يعقوب وهو يتحسس من سوء العاقبة وقلب الحر دليله ، ولكن ليس عنده يقين وقطع فيما سيقع ، إنه ليؤلمني فراقه وهو طفل صغير تल्प في الجواب معهم لئلا يهيج عنادهم وحقدهم (وَإِخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) لاهون ، وكأنه لفتهم الحجة (إِنَّ الْبَلَاءَ مُؤَكَّلٌ بِالْمُنْطِقِ) روح البيان ٤/٢٢٢ ، عن النبي (ص) : (لَا تُلْقُوا الكَذِبَ فَتُكذَّبُوا فَإِنَّ بَنِي يَعْقُوبَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الذِّبَّ يَأْكُلُ الْإِنْسَانَ حَتَّى لَقْنَهُمْ أَبُوهُمْ !) جمع البيان ٥/٤١٦ ، وقد وضع بين أيديهم السلاح الذي يستعملونه في تنفيذ أمرهم الذي دبروه عن الإمام الصادق (ع) : (قَرَّبَ يَعْقُوبُ هُمُ الْعِلَّةَ فَاِعْتَلُّوا بِهَا فِي يُوسُفَ) علل الشرائع ٢/٦٠٠ . ١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) اللام موطئة للقسم ، والله لئن أكله الذِّبُّ ونحن جماعة أولو قوة وأشداء إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالحرمان والخسران ، فاستسلم الشيخ الحريص بقولهم ولهذا الإحراج والإلحاح والتوكيد وأرسل معهم يوسف وكانوا خائنين ، ليتحقق قدر الله عندما يأتي الفرج من حيث الكرب ، ويأتي اليسر من حيث العسر ويأتي النور من قلب الظلام كما يأتي النهار من قلب الليل، نستنتج : إِنَّ فِي الْمَحْنِ مَنَحٌ مِّنَ اللَّهِ وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَبْرَاتٌ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَبَاةٌ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَايَا تَهَيِّئُهَا الْكَرَامَاتُ!! ﴿نَبَلُوكُمْ بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ الأنبياء/٣٥ ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَا مِنْ قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ إِلَّا وَفِيهِ مَشِيئَةٌ وَقَضَاءٌ وَابْتِلَاءٌ) التوحيد ص ٣٥٤ ، وهذا يدل أن يعقوب لا يعلم الغيب ولو كان نبياً ، وهذا النبي مُحَمَّد (ص) يقول ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف/١٨٨ ، ولكنه الحدس والفراسة والتسديد واستقراء الواقع ومعرفة تأويل الأحاديث كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر/٧٥ ، المتوسِّمون : المتفرسون، عن النبي (ص) : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) كنز العمال خير ٣٠٧٣١ .

١٥ - ﴿فَلَمَّا ذَمُّوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وجواب (لَمَّا) محذوف أي فأرسله معهم فلما أخذوه إلى البادية وابتعدوا به عن أبيه (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ) عزموا وصمموا على إلقائه في قعر البئر البعيد غوره ، غير ملاحظين غضب الله وعقوق الوالدين.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وأوحينا إلى يوسف وألقى الله في روح يوسف أنه ناج وسيعيش ولتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الخياني الذي مكروا بك حسداً ولؤماً وهم

لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ، وفائدة هذا الوحي تأنيس نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه واطمأن لحسن مصيره ، وسيحصل له الخلاص من هذه المحنة عن الإمام علي (ع): (في الإخلاص يَكُونُ الْخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠ ، وفوض يوسف أمره إلى الله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا﴾ غافر/٤٥ ، وتوكل على الله و﴿مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَّاهُ﴾ ، وقوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال/٣٠ ، فإثم يروونه نفيًا لشخصك وإنساء لاسمك وإطفاء لنورك وحقاً لقدرك ، وهو في الحقيقة تقرب لك إلى عالم العزة وعرش المملكة وإحياء لذكرك وإتمام لنورك ورفع لقدرك.

١٦ - ١٧ ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾

رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يتظاهرون بالبكاء إنّه تباكٍ وليس بكاءً ، ليلبسوا الأمر على أبيهم فيصدقهم فيما يكذبون ويزورون (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) نتسابق ونترامى بالنبال (وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) وتركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها وجاء الذئب فافترسه (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين ، وهذا القول منهم بيعث على الارتباب والشك والقلق (يَكَاذُ الْمُرِيْبُ أَنْ يَقُولَ حُدُوبِي) ، فائدة : جاءت امرأة إلى القاضي تخاصم في شيء فجعلت تبكي فقالوا إنها محقة أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون ! ويتباكون ويدرِفون الدموع الزائفة ليلتبس على أبيهم الأمر. في الحديث : (مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

١٨ - ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

جاؤوا على ثوبه بدم كاذب ، ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص وسيظل هذا الكذب طبيعة اليهود إلى آخر حياتهم كقوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ النحل/١٠٥ ، فلما جاؤوا يعقوب قال كذبتُم لو أكله الذئب لمزق قميصه ! (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) سَوَّلَتْ زينت لكم أنفسكم أمراً خسيساً في يوسف الصديق وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ، عرف يعقوب المؤامرة ولم يؤمن بصحة الدم الذي جاءوا به للتمويه ، ولم يبق له إلا تفويض أمره إلى الله سبحانه واكتفى بقوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) سأصبر صبراً جميلاً في هذا الأمر حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ، ولم يكن ليعقوب (ع) إلا طريق الصبر وعدم الجزع وبالصبر تدرك الرغائب في فتح البلاغة حكم ١٨٩ : (مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجُرْعُ) وإستعان بالله وصبر ، والصَّبْرُ الْجَمِيلُ : الذي يكون في مكانه

المناسب وزمانه المناسب ولا شكوى فيه لمخلوق ، ومن لا يصبر على الحق فسوف يصبر على مر الباطل ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان/١٧ ، وقال يعقوب (ع) ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ يوسف/٨٦ ، (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) وأستعين بالله عليكم لكشف هذه المكيدة الثيمة المحرمة ليكون الله عوناً لي فهو نعم المولى ونعم النصير ، فيعقوب استسلم للبلاء والعناء فلا يجزع ولا يفزع ويحاول أن يعالج المشكلة بحكمة وهدوء ولا يكبرها ، وهكذا الحكيم لا يجعل المشكلة الواحدة إلى عدة مشاكل وإنما يحاول أن يعالج المشكلة الواحدة ولا يوسعها فائدة :
 ١- ومن عقوبة الكذّاب يتتلى بالنسيان وليست لديه حافظة ، فلم يلتفتوا إلى تمزيق القميص بعد وضع الدم الكاذب عليه . ٢- يقرر علم الإجرام أن المجرم مهما كان ذكياً حذراً موهماً جرمته ، لا بد أن يترك أثراً يدلُّ عليه ، وأن يقع في تدبيره خلل ما يكون مفتاحاً للكشف عنه !

١٩ - ٢٠ ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَمْرٌ سُلُوًا وَأَمْرٌ دَهْمٌ فَأَذَىٰ ذُلُوهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَشَرُّهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

وَجَاءَتْ (سَيَّارَةٌ) قافلة مسافرة للتجارة مروا بذلك الطريق وكان البئر بعيدة عن العمران (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) بعثوا من يستقي لهم الماء الخبير بمواقعه (فَأَذَىٰ ذُلُوهُ) أرسل دلوه في البئر فتعلق يوسف بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى (قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ) على سبيل الدهشة والتعجب من شدة السرور لتبشير نفسه وجماعته حيث فازوا بنعمة جلييلة غير متوقعة (وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً) أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً رقيقاً كالبضاعة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) والله لا تخفى عليه أسرارهم وما عزموا عليه في بيع يوسف (وَشَرُّهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ) شَرُّهُ : باعوه واشتراه : أخذه بثمنه ، أولئك التجار المائة الذين استخرجوه من البئر بثمن قليل زهيد وهو عشرون درهماً ، وكان الذين باعوه من الراغبين عنه الذين ييغون الخلاص منه لئلاً يظهر من يطالبهم به لأنه حر ، وهذه المحنة الثانية في حياة يوسف الصديق وهي محنة الاسترقاق (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وتعجلوا التخلّص منه ، وباعوه بأبخس الأثمان لئلا يتهموا بسرقة ويكون عبداً عاصياً فينتزعه سيده من أيديهم.

٢١ - ٢٢ ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَلْدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَانًا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ وَكَلَّمَتْهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَابٍ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وقال الذي اشتراه (وهو عزيز وخازن ومستشار ملك مصر وكبير وزرائه) قال لزوجته أَكْرِمِي مَثْوَاهُ : مقامه في قصرنا وأحسني معاملته ولكن التعبير أعمق لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ولكن مكان إقامته ، وهي مبالغة الإكرام (عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَلْدًا) عسى أن يكفينا

بعض المهمات إذا كبر أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد بسبب عقم العزيز ، وقد تفرّس العزيز في يوسف الرشد والذكاء (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) كما نجيناه من البئر بتدبيرنا كذلك جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بجز وأمان ، إنّ الشدة والرخاء يسيران بشكل متوازٍ ومن ثمّ إنهما صديقان كقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الانشراح/٦-٧ ، (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) ونعلمه من لدنا علماً ليعرف تفسير الأحلام ونوفقه لتعبير بعض المنامات (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) فكل شيء ينقاد لله تعالى وغالب على جميع الأسباب الفعالة بإذنه ليس لها إلاّ السمع والطاعة ، فلا يعجزه تعالى شيء ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج/١٦ ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سنن الله في خلقه ولطائف صنعه ودقة تدبيره وتقديره وخفايا فضله ، وذلك لظنهم أن الأسباب ظاهرة ومستقلة في تأثيرها فعالة بذاتها فإذا ساقطت الحوادث إلى شيء لم يحوله عن وجهته شيء وقد أخطأوا ! في الحديث القدسي : (عَبْدِي أَنْتَ تُرِيدُ وَأَنَا أُرِيدُ وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا أُرِيدُ) ، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء/٣٥ ، عن الإمام الصادق (ع) (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الْأُمْتَلُ فَالْأُمْتَلُ) الكافي/٢/٢٥٢ ، عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَاللَّهُ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار/٧٨/٣٧٤ وها هو ذا يوسف أراد له أخوته أمراً مهيناً وأراد الله له أمراً عزيزاً ، ونفذ أمر الله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ). ٢٢- (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) ولما بلغ رشده وقوته وأصبحت صفات الرجولة ظاهرة عليه في العقل والفكر وحسن السلوك وقوة الجسم (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) أعطيناه الحكمة وهي موضع كل شيء مكانه ، وعلماً لا يخالطه جهل وهدى رباني لا يخالطه هوى نفساني ودافع شيطاني في غرر الحكم : (قُرِنَتْ الْحِكْمَةُ بِالْعِصْمَةِ) ، والتعبير القرآني عام ويشمل الكثير ، وآتيناه فهماً وفقهاً في الدين وعلماً في شؤون الحياة العامة وقدرة على القضاء الصائب في الأمور الدينية والدنيوية (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) لقد أحسن يوسف بصيره وطاعته لله فأحسن الله إليه كقوله ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الكهف/٣٠ ، بمعنى : وعلى هذا النحو نجزي كل محسن بنفسه ومحسن لغيره من أمثال يوسف ، والمحسنون : الذين يأتون بالأعمال الصالحة قولاً وعملاً على أحسن وجه ولا يكتفون بالقدر الواجب منها ، وهكذا شأن المخلصين من عباد الله الصالحين في كل زمان ومكان ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ ، عن الإمام علي (ع) : (فِي الْإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَالِصُ) تتببه الخواطر ص ٣٩٠ لذلك يرى المخلصين برهان ربهم فهم أعطوا الله كلما يريد فصاروا في حصنه وتحت رعايته وهذه هي العصمة الربانية، في غرر الحكم: (الإخلاصُ غاية، وأشرف نهاية).

٢٣ - ﴿وَمَا وَدَّعْتُهُ أَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَوْلَىٰ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ﴾

وَرَأَوْدَتُهُ : المطالبة بالمضاجعة برفق ولين وإلحاح مع شيء من المخادعة والتلطف والحرص عليه ، مع شيء من صراع الإرادات ، فتريد منه غير ما يريد منها ، غير ما أراد الله من فوقهما ، فكان يوسف مع الله وكان الله معه ، (مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَمَنْ عَلَيْهِ؟ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَنْ مَعَهُ؟!) وهذه الكلمة بمفردها غاية في الاحتشام والأدب في التعبير ويعني ما يكون سرّاً بين الرجل والمرأة ، وفيه إعجاز بلاغي في التعبير (في بَيْنَتِهَا) للدلالة على أن الأوضاع كانت مهياً للمرأة العاشقة المحبة له لتحاصره في مكان مغلق يصعب الفرار منه ، ويدل أن الأمر عليه شديداً وبلاءً كبيراً ، لأنها ذات سلطان عليه وإنّ لها أن تأمر وأن عليه أن يطيع ، المعنى : طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها ودعته برفق ولين أن يواقعها وتوسلت إليه بكل وسيلة ممكنة (وَعَلَّقْتُ الْأَبْوَابَ) وغلقت سبعة أبواب وأحكمت إغلاقها ثم دعته إلى نفسها (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) هلم وأسرع وأقبل وبادر إلى الفراش فقد تهيأت لك وكون طوع أمري فلا تخش من شيء (قَالَ مَعَادَ اللَّهِ) عياداً بالله والتجاءً إليه واعتصاماً به من فعل السوء الهائل والخيانة الكبرى وهذا من الذنوب الكبيرة طالباً الاستعانة بالله للخلاص من هذه المكيدة ، فأراه الله من البرهان الساطع على أن في هذا العمل غاية القبح (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أَحْسَنَ مَثْوَايَ أي أحسن مقامي ورباني وأكرمني وأحسن إليّ فكيف أخونه وأسيء إليه بارتكاب هذه الفاحشة في حرمه ، وكذلك كيف أخون الله تعالى ربي الذي خلقني ورباني وأنقذني من هذه الشدة وأحسن مثوأي ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠ ، (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون بالإحسان بالسوء والخيانة ولو اقرت هذا الظلم لخرجت من ولاية الله إلى ولاية الشيطان فأكون في حرمان وخسران. قصة مراودة يوسف عبرة مشتركة بين الرجال والنساء في كل زمان ومكان : ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً بامرأة العزيز للكثرة الكاثرة من النساء والرجال الذين ينقادون بالعاطفة ويؤثرون الشهوة على الحق ويفضلون لذة مؤقتة على لذة الدين والعقل والاستقامة و(كَمْ مِنْ لَذَّةٍ مَنَعَتْ لَدَاتٍ، وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ) وأيضاً ضرب مثلاً للقلة القليلة بيوسف الصديق الذي يؤثر الحق والخير والهدى على كل أنواع الباطل والشر والهوى ، ويدوب في طاعة الله ويجعل ميوله وجميع غرائزه مع منهج الله كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُ﴾ الأنعام/٩٠.

٢٤ - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم عزمًا جازمًا على الفاحشة ، ودعته إلى الإسراع إليها مما اضطره إلى الهرب إلى الباب (وَهُمَّ بِهَا) مالت نفسه إليها أولاً بموجب الطبيعة البشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الكهف/١١٠ ، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث النفس الأمانة بالسوء دون عزم وقصد ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾

يوسف/٥٣، وهناك فرق بين همتها وهمه وفرق كبير ، والهـم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع ، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه وتقواه (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) جوابه محذوف أي لولا حفظ الله ورعايته ليوسف وعصمته له بتحسينه بالورع الذاتي لمضى ما حدثته به نفسه ، ولكن الله عصمه من الزلل وسدده في القول والعمل (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ) ثبتناه على العفة والحشمة وقد ألهمه الله بها والركون إليها أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور ، وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهَا، فسّماه الرسول (ص) الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ ! كقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت/٦٩، عن النبي (ص): (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله تعالى) كثر العمال خير ١١٢٦٥ وهذه حجة قاطعة على أن يوسف (ع) لم يقع منه همّ بالمعصية ولو كان كذلك لقال (لنصرفه عن السوء والفحشاء) فلما قال (لِنَصْرِفَ عَنْهُ) دلّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه بما منحه من موجبات العفة والحشمة والنزاهة والعصمة عن الخطأ (وَالْفَحْشَاءَ) لنصرف عنه الزنى الذي تنهى قبحة ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء/٣٢ ، وقد صنعنا به ذلك (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) الذين أخلصهم الله لطاعته وإصطفاهم لوحيه واختارهم لرسالته عندما أخلصوا أنفسهم إليه ، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان ، ولا تستطيع أنفسهم الأمانة بالسوء أن تغريهم بالمنكر فهم تعلقوا بالله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة/١٦٥، فلا يتعلقون بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعيم الآخرة وليس في قلوبهم إلا الله سبحانه ولا يريدون إلا رضاه ولا يعملون إلا له عن النبي (ص): (مَنْ آتَرَ حَبَّةَ اللَّهِ عَلَى حَبَّةِ نَفْسِهِ كَفَأَهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ) كثر العمال خير ٤٣١٢٧، و (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَأَهُ ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَأَهُ ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) مِنْ رَحْمَتِهِ.

فائدة: ١- حقيقة عصمة الأنبياء نزاهتهم وبعدهم وتساميمهم عن المنكرات التي بعثوا لتزكية نفوس الناس منها ، وليس معناها أنهم فوق البشر لا يعانون من ضغط الشهوة ، ولكن كلما كبر العقل صغرت الشهوة ، وكلما كبرت الشهوة صغر العقل ، كان الله أقرب إلى يوسف من شهوة نفسه إلى امرأة العزيز ، كان يوسف (ع) في أعلى معارج العفة ، وَالْعَفَافُ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ وَأَحْسَنُ عَادَةً ، فهو خير سلاح ونعم الصديق ، وكلما ازداد العقل ازدادت العفة ، وَقَدَّرَ الرَّجُلُ عَلَى قَدَرِ هِمَّتِهِ وَمُهْمَّتِهِ ، وَعِفَّتِهِ عَلَى قَدَرِ غَيْرَتِهِ. في غرر الحكم: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَفَّ بَطْنَهُ وَفَرَجَهُ) ، عن الإمام الصادق (ع) : (عَفُّوا عَنِ نِسَاءِ النَّاسِ تَعَفُّوا نِسَائِكُمْ) البحار ٧١/٢٧٠. ٢- القرآن دستور إلهي للإنسان ، واقعي غير خيالي لأنه نزل من خلال حركة الواقع، والأنبياء بشر مثلنا يعيشون

الواقع ويتأثرون بالمؤثرات التي يتأثر بها الواقع، وهنا يأتي دور الدين القيم ليرفع الأنبياء علمياً ونفسياً ومعنوياً وحُلقياً عن الواقع المنحرف.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ القصص/١٤. ٣- (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) البرهان : هو السلطان المعنوي والورع الذاتي عن محارم الله ، المهيمن على القلوب المؤمنة الذي يريه الله عباده المخلصين ، وهو نوع من العلم اليقيني الممزوج بالإيمان الواعي الذي يملئ النفس الرغبة في طاعة الله والبغض لمعصيته ، وهذه سنة عامة من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربه وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم ولا يهتمون بمعصية بما يريهم الله من برهانه ولذة قربه ووجهه وجذبه ولذة طاعته وجمال رضاه عز وجل (وهذه هي العصمة الإلهية) ، في غرر الحكم: (مَنْ أُوْهِمَ الْعِصْمَةُ أَمِنَ مِنَ الرَّزْلِ).

وفيه أيضاً (أَذِيْتُ النَّاسِ مَنْ لَمْ تُفْسِدْ الشَّهْوَةَ دِينَهُ)

والعصمة ملكة إنسانية ورعاية ربانية واستقامة ذاتية مستمرة في القول والعمل ، وعنه (ع) : (كَيْفَ يَصْبِرُ عَنِ الشَّهْوَةِ مَنْ لَمْ تُعِنَهُ الْعِصْمَةُ ؟) المصدر السابق كقوله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١ ، المصدر السابق: (بِالتَّقْوَى قُرْنَتِ الْعِصْمَةُ). ٤- (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا..) إِنَّ الْهَمَّ لَا يَنَافِي الْعِصْمَةَ ، لأن المراد من (الهم) ليس أنه اندفع إليها لارتكاب القبيح، ولكن صار عنده انجذاب إليها كما يجذب الحديد إلى المغناطيس وكما يجذب الجائع إلى الطعام الشهي (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) لولا ملكة الورع عن محارم الله في عقله وقلبه ، فالتبي يجذب ولا يندفع وهناك فرق بينهما ، كان يوسف لا يعيش الاستغراق في عالم الحس والشهوة بل كان يعيش الاستغراق لنداء الروح والعقل والتقوى ﴿إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/ ٢٠١ ، وهكذا قال ما يشابه ذلك الشيخ الطوسي في التبيان ١٢١/٦ ، وما قاله السيد المرتضى في تنزيه الأنبياء ص ٧٣-٧٥ قال فإذا كانت وجوه هذه اللفظة (هَمَّ بِهَا) مختلفة المعنى متسعة على ما ذكرناه ، فبيننا عن النبي ما لا يليق به وهو العزم على القبيح وأجزنا باقي الوجوه. ٥- عندما جمعت امرأة العزيز نسوة المدينة ، وقلن ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ يوسف/ ٣١ ، وهن يغازلنه ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ.. وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يوسف/ ٣٢-٣٣ ، هي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يغتر بعصمته ويعرف حدود قابليته ومقدار صبره ، فالتجأ إلى ربه بالدعاء وهو سلاح المؤمن لطلب المزيد من عنايته عز وجل ليصرف عنه هذا البلاء ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ يوسف/ ٣٤. ٦- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ مبدأ عام كذلك (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) مبدأ عام لكل مؤمن برهان ربه معه وهو رصيده وسلاحه القوي في كل زمان ومكان.

٢٥ - ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَاصِمَةٌ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدًا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تسابقا نحو باب القصر يوسف للهروب وهي للطلب لترده إليها (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبتته فشقت قميصه (وَأَلْفِيَا سَيْدَهَا لَدَى الْبَابِ) وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوانه وكأنه حسّ بشيء ، وبمهاراة فائقة وبجمل إبليس قلبت المرأة الوضع وغيّرت الحقيقة أمام زوجها فأصبح الظالم مظلوماً والبريء متهماً (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) ولم تقل (من فعل بأهلك سوءاً) تبرئة له وتبرئة لها أيضاً من الفعل ، وإنما النزاع عن الإرادة والمراودة ، قال هذا بأعصاب هادئة وبحالة طبيعية غير مرتبكة وطلبت من زوجها بعد تلك المخادعة والمكيدة الوقحة (إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

٢٦ - ٢٧ ﴿قَالَ هِيَ مَرَأَتِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

قال يوسف مكذباً لها هي التي دعيتني إلى مقارفة الفاحشة لا إني أردت بها السوء ، وامتنعت بشدة ومرت منها فلحقت بي وجرتني إليها ومزقت ثوبي كما ترى (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) ولسانُ الحال أبلغُ من لسانِ المقال ، وبرز شاهد من أسرتها أو من هو حجة عليها بهذا المنطق الوجداني السليم وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) إن كان ثوبه قد شق من أمام فهي صادقة وهو كاذب (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) وإن كان ثوبه شق من وراء فهي كاذبة وهو صادق للدلالة على أنه قرّ وتعلقت به.

٢٨ - ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

قلما رأى زوجها أن الثوب قد شق من وراء أيقن براءته وكذبها ، ولكنه رأى الستر والكتمان أولى من الفضيحة قال (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) إن هذا الأمر من جملة مكرن واحتيالكن أيتها النسوة (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) فقد أوتين من أسباب الجاذبية والتأثير والإغراء ما يكون معه في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال الذين يميلون إليهن ، فيكون لهن التصرف في إرادتهن من حيث لا يشعرون ، وتعرف النساء بالكيد فهو طبيعة عامة فيهن (وهذا يدل أنهن غير ناقصات العقول) وكيد النساء عظيم لا قدرة للرجال به ولا يفتنون لحيلهن ، ولا يسوء المرأة أن يقال لها (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) بل إنه وصف يُعجب النساء لأنه شهادة بذكائهن ولاسيما تفننها في هذا المجال التي هي سيدته وقائدة له والمؤثرة فيه ، وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها لما أرادت وفعلت ومرت به يوسف، وفي المقابل جاء التلطف في مجاهدة السيدة فيما يشبه الثناء والوصف. فائدة :
١- يمكن الاستدلال بهذه الآية على جواز الحكم بكل وسيلة عقلية ممكنة وقرينة قطعية وإن لم يرد فيها نص بالخصوص ، ولم تخالف هذه الوسيلة قواعد الشرع إضافة إلى عموم معنى الحكم كقوله ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء/٥٨ . ٢- وكيد النساء في الحق أو الباطل ،

وأنواع الكيد المعروفة عند النساء فهو سنة عامة فيهن ، فهن يجتهدن في التبري من خطاياهن ما وجدن إلى ذلك سبيلاً ، قال تعالى في الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء/ ٧٦ ، وقال في الرجال ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ إبراهيم/ ٤٦ .

٢٩ - ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

يا يُوسُفُ أكتُم هذا الأمر ولا تذكره لأحد ، وهذه صورة الطبقة الثرية المترفة التي تعتنى بالمظاهر البراقة وهي تغطّي الفضائح والحيانات الجنسية وهذا نموذج الحياة المترفة بلا دين ! وهذا من كلام العزيز وكان أمره هيناً وطبعه ليناً فقال لزوجه (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) اطلبي المغفرة والتوبة من هذا الذنب القبيح من معبودك وصنمك وأريحينا ، وأنت يا يوسف أكتُم هذا الأمر ، وكأن المهم هو المحافظة على الظاهر وليس عقّة الضمائر (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) من المتعمدين للذنب فإنّها ظلمت نفسها وغيرها. فائدة : ١- وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانتته وتدّيس فراشه بالفجور ، فإن غيرة الرجل على قدر عفّته ، وغيرته على قدر شرفه ، وشرفه على قدر نزاهته ، ونزاهته على قدر كفاءته ، وكفاءته على قدر عقله ، وعقله على قدر إيمانه ، وإيمانه على قدر علمه. ٢- (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) تدل على أنّ إقامة العلاقات الجنسية غير المشروعة المبنية على الشهوات المنفلتة عمل غير مقبول حتى من قبل الذين لا يؤمنون بالقيم والمبادئ والأديان الإلهية. ٣- قوله (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) ولم يقل (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئَاتِ) ليخفف على نفس زوجته وقع هذه التهمة التي واجهها بها ، فلا يجعل تلك الخطيئة مقصورة على بنات جنسها وحدهن ، بل يشاركهن الرجال فيها وهو منهم ، فلا عليها إذن أن تستغفر لذنبها هذا لأن الرجال والنساء معرضين له. وهكذا الذي يزيني تزني نساؤه ! بينما الإسلام يعلمنا العفاف أحسن عادة وأفضل عبادة ، كقوله ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْفَنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ النور/ ٦٠ ، وعن الإمام الصادق (ع) : (عَفْوًا عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ تَعَفَّ نِسَاؤُهُمْ!) البحار ٧١/٢٧٠ لأن العفاف تزكية النفس عن الدنيا.

٣٠ - ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

إنّ تلك الواقعة الفضيحة شاعت في البلد واشتهرت بين الناس وتحدث بها النساء (امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ) امرأة العزيز تطلب من (فَتَاهَا) خادمها وعبدها أن يواقعها بصراحة ووقاحة وتحادعه وتمكره لقضاء شهوتها منه ، وعبر ب (تُرَاوِدُ) للدلالة أن ذلك صار طبيعة لها فهي دائماً تحادعه عن نفسه لأن الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار في الطلب ، وإضافة المرأة إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، والنفوس تميل لسماع أخبار ذوي الجاه (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) شغاف القلب : غشاؤه الرقيق ، المغلف به على هيئة كيس ، بلغ حبه شغاف قلبها وهو حجابها وغلافه الرقيق ومزقه أي ملك قلبها كلّ ، تولهت وتعلقت وافتتنت به حتى وصل حبه لها حجاب قلبها وغاص

في سويدائه ، فسيطر الحب على القلب وسيطر العشق على العقل ، وفقدت الهدى واتبعت الهوى ، ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين .

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) إنا لنعتمد أنها في ضلال عن الرشد وبُعد عن الحق بشكل مبين واضح بسبب حبها إياه ، ومن الصلافة أن تراود المرأة الرجل وهي متزوجة بعزير مصر ، فيجب أن ترعى شرفها وبيتها وسمعتها ولكنها كبرت شهوتها فصغر عقلها ، وازداد العشق على قدرة العقل ، وكبرت النفس الأمانة بالسوء وقويت على النفس اللوامة ، فأصبحت نفسها قلقة فاقدة للتوازن فراودته فامتنع ، فألحت فاستعصم، وكل ذلك من أقبح الضلال في تصرفاتها وهكذا حب الشهوات المحرمة يُعمي ويصم ويذل الرقاب ، ومن أصعب الأمور على قلب المرأة من إشاعة هذا التجريح والتشنيع عليها ، ولم يكن قولهن هذا إنكاراً للمنكر ولا كرهاً للذيلة ولا نصراً للفضيلة بل قلنه مكرراً وحيلة ليصل الحديث إليها فيحملها ذلك على دعوتهن في قصرها وقد وصلن إلى ما أردن وأرادت أن تبرر فعلتها أو تقتصص منهن

٣١ - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِ مِنْ أُمَّرْسَكَ إِلَيْهِنَّ وَاعْتَدَتْ لَهُنَّ مَتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُنَّ أَكْبَرْتَهُنَّ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

فلما سمعت بحديثهن وباغتيابهن وفضحهن لها بين الناس ، وسمّاه مكرراً لأنه كان في خفية وشماتة كما يخفى الماكر مكره (أرسلت إليهن) تدعوهن إلى قصرها لحضور وليمة فخمة وعنيت بما عناية كبيرة، ودعت أربعين امرأة من زوجات رجال الدولة المقربين المترفات (واعتدت لهن متكا) وهيأت لهن ما يتكمن عليه من الفراش والوسائد المريحة الناعمة (وآتت كل واحدة منهن سكيناً) وقدمت لهن الطعام وأنواع الفواكه ثم أعطت كل واحدة منهن سكيناً حادة لتقطع به اللحم والفاكهة (وقالت اخرج عليهن) وهن مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن ، فلم يشعرن إلا ويوسف يمر في المجلس أمامهن ومن بينهن (فلما رأينه أكبرنه) أعظمته وأجللته وهُتّن من حسنه وجماله وبهائه ودهشن من طلعه الجليلة المهيبوبة الأخاذة للقلوب والعقول (وقطعن أيديهن) جرحن أيديهن بالسكاكين مكان الفاكهة التي كن يردن قطعها من غير شعور ومن غير إحساس بالألم لفرط المفاجأة ولشدة الدهشة وهو قد احمرّ وجهه خجلاً وضح جميعاً (وقلن حاش لله) تنزه الله عن صفات النقص وتعالق قدرته في إتقان صنعه في أرقى أنواع الجمال والجلال والكمال ﴿صنّع الله الذي أتقن كل شيء﴾ النمل/ ٨٨ ، ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ السجدة/ ٧ ، (ما هذا بشراً) ليس هذه الطلعة البهية المملوءة بالهيبية والوقار التي تأخذ مجامع القلوب وتدهش العقول في مظهره وجوهه وفي خلقه وحلقه ، ليس هذا من صفات البشر إنّه خارق عن ما يألّفه البشر (إن هذا إلا ملك كريم) ما هو إلا فوق البشر إنه ملائكة السماء في صورة بشر! لأن جماله لا يوجد له شبيهه ولا مثيل يقاربه في حسنه وعفته.

فائدة: ١- (وَقَالَتْ اخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ) خرج عليهن يوسف (ع) بجماله وبهائه وهيبته فدهشن منه وتعلقن به وإندجن معه ، وأخذت كل واحدة منهن تقطع يدها وهي تعتقد أنها تقطع الفاكهة !! لأن قلوبهن جميعاً شغفن بيوسف ولشدة التعلق ولكثرة الإندهاش بالجمال والجلال والكمال الأخاذ، أخذت السكاكين تقطع الأيدي ولم يشعرن بالتقطيع إلا حين رأين الدماء تندفق من الأيدي، فغطى الحب وكبر الجمال على قوة الشعور بالأنا الفردي والإحساس بالألم ، فأصبح التعلق بجمال يوسف ١٠٠٪ وأصبح الإحساس بالذات والشعور بالألم صفرًا ! لذلك لم يشعرن بجرح أيديهن ! وهكذا الحب مع الله تعالى فإذا كان جمال يوسف من جمال الله ، والله جميل خلق الجمال ويجب الجمال ويدعو له ويدافع عنه ، فهو له الأولوية بهذا التعلق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة/١٦٥، عن النبي (ص) : (مَنْ آثَرَ حُبَّةَ اللَّهِ عَلَى حُبِّهِ نَفْسِهِ كَفَأَهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ) كنز العمال خير ٤٣١٢٧. ٢- استعمال السكاكين في الأكل للدلالة على الترف والحضارة المادية المتطورة منذ الآف السنين. ٣- إنه موقف صعب للغاية يهد الجبال الراسيات ، ولكن فِي الْمِحْنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ ، وَفِي الْمَكَارِهِ مِكْرَامٌ ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَبْرَاتٌ وَتَعْقُبُهَا رَاحَاتٌ ، وَفِي الْمَعَانَاةِ هَيَاةٌ ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيَاتٌ نَهَائِيَّتُهَا الْكِرَامَاتُ ! عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا لِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار ٧٨/٣٧٤.

٣٢ - ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ صرحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بانها انتصرت عليهن ! قالت هذا هو العبد الذي رأيتموه في الجمال الخارق الذي يصعب السيطرة أمامه هذا الذي لُمْتُنِّي فِي حبه ، فقد رأيتن ما أصابكن لرؤيته مرة واحدة فكيف ألام وأنا أنظر إليه ليل نهار لقلتن لامرأة العزيز كل العذر (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) لقد أردت أن أقضي شهوتي معه ، فامتنع بشدة وأبى ببطنة وأصبح الكلام على المكشوف ، والاستعصام : لغة مبالغة تدل على الامتناع الشديد ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يوسف/٢٣ ، والتجأ إلى الله ليعصمه من الزلل ويسدده في القول والعمل ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١ ، في غرر الحكم: (مَنْ إِعْتَصَمَ بِاللَّهِ عَزَّ مَطْلَبُهُ، وَمَنْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ، وَنَجَّى) (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) يسمع يوسف (ع) هذا الإصرار والتبجح والإغراء الجديد في ظل التهديد والوعيد ، وفي مجتمع النساء المبهورات بجماله المبديات لمفاتهن في مثل هذه المناسبات الخاصة ، وهو شاب في عمر المراهقة والفورة الجنسية ، ولكن غلب عليه العفاف والحشمة ، وزكاة الجمال والعفاف فهو خير عبادة ، وبه تزكو الأعمال وتطهر النفوس. المعنى : ولئن لم يطاوعني لِيُعَاقِبَنَّ بالسجن وليكون من المهانين والمحتقرين بعد العزة والكرامة ! وزوجي لا يخالف لي رغبة ولا يعصيني في أمر ، فاستعاذ بالله من شرهن وكيدهن، فتعلن للنساء في حفلها أنها به مفتونة حقاً كما هنّ أفتتنّ به ، ثم عاودت مرادته

بمحضر منهن وهتكت جلباب الحياء عن الإمام الصادق (ع): (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ) البحار ٣٣١/٧١، وتوعدت بالسجن إن لم يفعل ، ولم تعد تخشى لوماً ولا قولاً ، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه. **فائدة: ١ - (فَاسْتَعْصِمَ)**: سميت العصمة عصمة لأنها تمنع من المنكر وتعصم من إرتكاب المعصية ، لأن يوسف ملئ قلبه حب الله فلم يعد فيه مكاناً لحب غيره وقد أنصفته باعترافها له بالعصمة وأنصفت نفسها باعترافها بالخطيئة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة/١٦٥. ٢ - وقد تبين أنها كانت تملك قلب زوجها لحبه لها ، وتمتكن من أن تصرفه إلى ما تريد وكيفما شاءت فلما رأى يوسف إصرارها وتهديدها اختار السجن على المعصية ، والمعصية داء والسجن بلاء، فاختار البلاء على الداء !

٣٣ - ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

لجأ يوسف إلى ربه ليستعين به في هذا الظرف الصعب وجعل ينجيه : رب خيروني بين أمرين أحلاهما مرٌّ ، ومن العقل أن أختار أهون الضررين ومن الحكمة أن أختار أهون الشرين ، قَالَ رَبِّ السِّجْنِ ومعاناته آثر عندي وأحبُّ إليَّ من داء المعصية واقتراف الفاحشة وأسند الفعل إليهن (مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) بصيغة الجمع بالسجن لأنهن جميعاً مشتركات فيه ، وهن نهيته عن إلقاء نفسه في السجن ، وكنَّ يدعونني إلى مطاوعة سيدهته ويرغبه فيها ويخوفه انتقامها وهو أمامهن غير ملتفت إليهن ولا متكلم معهن بحرف ، وبعد ذلك بدأت كل واحدة منهن على انفراد تسرُّ إليه (بمختلف الحيل) الدعوة إلى نفسها وإبداء عواطفها وإظهار مفاتنها وتقديم مختلف المغريات له إن استجاب وتهديده بالانتقام منه إن يرفض ، فلما اشتد الأمر عليه وازداد الضغط استعان بالله ولجأ إلى ربه وقال (وَالْأَيْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ) وإن لم تُعني وتنقذني وتدفع عني (يا رب) شرهن وتعصمني منهن (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) أمل إلى إجابتهن فإني لا قدرة لي أن أتحمل فوق طاقتي وأنا بشر محدود الطاقة وأيضاً هو إنسان يعرف قدر نفسه ولا يغترُّ بعصمته في غرر الحكم: (رَحِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) في غرر الحكم: (رحم الله امرئ عرف قدره، لم يتعدَّ طوره) (وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) إني أخشى أن تضعف إرادتي ويقل صبري ووعيي وأكون محروماً من مساعدتك يا رب لي فأكون من الجاهلين ، وسأل ربه أن يكشف السوء عنه الذي وعده به ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ يوسف/٢٤ ، وأن يعصمه من الزلل ويسدده في القول والعمل ، وفي دعاء الإمام السجاد (ع) : (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً فإنَّ وُكَلَّتِي إلى نفسي عجزتُ عنها ولم أقم ما فيه مصلحتها..) الصحيفة السجادية، هذه هي لغة الأظهار إنهم في الشدة والرِّخاء لا يثورون ولا ينفعلون ولا يفقدون التوازن، إذا عرض عليهم مغريات الحرام إنهم يلجأون إلى الله يسألونه دوام طاعته والصبر على ما يرضيه ، وأن لا يقع بأحدهم مما ابتلي به العصاة.

٣٤ - ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فأجاب الله دعاءه فنجاه من مكروهه وثبته على عصمته وعفته وإستقامته ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ غافر/٤٥، كما استجاب له من قبل ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سميع الدعاء للمستغِيثين به من خلقه سواء بلسان الحال أو بلسان المقال، والعليم بأحوال الداعين وحقيقة حاجاتهم. وهكذا اجتاز يوسف (ع) شدة محنته الثالثة بلطف الله ورعايته ﴿وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/٢٢، وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع): (الدُّعَاءُ: مِفْتَاحُ الرَّحْمَةِ، وَمِصْبَاحُ الظُّلْمَةِ) البحار ٣٠٠/٩٣.

٣٥ - ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

ثم ظهر للعزير وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف الصديق (ع) ونزاهته وعصمته ، وهل النزيه يسجن أم يكافأ؟! قرروا سجنه إلى مدة غير معلومة لينسى الناس اسمه وشخصه وليشيع بينهم أنه المذنب الحقيقي فسجنوه ، روي : إن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف (ع) ويئست من استجابته ، قالت لزوجها : إن يوسف قد فضحني في الناس فيما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس وأبرر موقفي وإما أن تجسسه فعند ذلك بدأ له سجنه لتخف التهمة عنها وتسكت الألسن عن زوجته. عن النبي (ص) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.. وَرَجُلٌ دَعَتْهُ إِمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَتْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) وهذه بداية المحنة الرابعة والأخيرة. وهكذا جو القصور والحكم وجو الأوساط الأرستقراطية جو الإباحية البعيدة عن عفة الدين وجمال الاستقامة. فائدة: وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة المغرورة من سلطان على زوجها تقوده حيث شاءت، حتى فقد الغيرة عليها، فهو يجري وراء هواها، ويستجلب رضاها!

٣٦ - ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئًا بِنَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أدخل يوسف السجن بهيته وجماله وبراءته ودخل معه فتیان خباز الملك وساقيه ، أهما بأهما أرادا أن يسمّاه فحبسهما (قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) قال الساقى إِنِّي (أَرَانِي) أي رأيت في المنام أني أعصر عنبا ثم يؤل إلى خمر وأسقي الملك (وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) وقال الخباز : إِنِّي رأيت في منامي أني أُحْمَلُ على رأسي طبقاً فيه خُبْرٌ والطَّيْرُ تَأْكُلُ مِنْهُ (نَبِئًا بِنَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمره (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) في قولك وفعلك وحسن سيرتك مع أهل السجن ، وأنت من ذوي القلوب الطاهرة السليمة الذين يحسنون تفسير الرؤيا ، فاكتسب ثقتهم وحبهم عندما دعاهم إلى الله ومنهجه

، وهكذا يكون المؤمن كالمصباح وظيفته الضياء ونور الهدى سواء وضع في البيت أو في الشارع أو في السجن ، فيكون المؤمن يختلف عن غير المؤمن في أغلب الأشياء حتى في مظهره وسمائه وجوهه وعاداته وتقاليده وقوله وفعله. فائدة: في قاموس الكتاب المقدس: اِكْتَسَبَ يُؤْسَفُ (ع) ثِقَّةَ السَّجَانِ (مسؤول السجن) فَجَعَلَهُ وَكَيْلًا عَلَى جَمِيعِ الْمَسْجُونِينَ.

٣٧ - ٣٨ ﴿قَالَ لَا يَا بُنَيَّ كَمَا طَعَمْتُ رِزْقَانِي إِلَّا بِنَاتِكُمَا بِنَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

فراى يوسف أن يدعوها إلى التوحيد قبل أن يسعفهما بطلبهما فهي فرصة مناسبة للدعوة إلى الله ، فشرع يذكرهما بما بيديه من المعجزات ليكون دليلاً على صدقه فيما يدعو إليه فقال لهما : لا يَأْتِيَكُمَا شَيْءٌ مِنَ الطَّعَامِ تُرْزَقَانِيهِ مِنْ أَهْلِكُمَا إِلَّا أَخْبَرْتُمَا بِنَوْعِهِ وَكَمِيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمَا ، أَخْبَرَهُمَا بِمَعْجَزَاتِهِ وَعَلَّمَهُمَا بَعْضَ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ وَالْعُلُومِ ، حَتَّى تَكُونَ مَدْخَلًا إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَالِدِينِ الْقَوِيمِ وَهَكَذَا طَرِيقَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) ذلكما الذي أنبأتكما به بعض ما عَلَّمَنِي رَبِّي علماً لَدُنِّيَاً خَاصاً بُوْحِي مِنْهُ مِنْ سَبْحَانِهِ ، لَيْسَ بِكُهَانَةٍ وَلَا تَنْجِيمٍ وَلَا تَحْمِينٍ وَإِنَّمَا هُوَ إلهَامٌ وَتَسْدِيدٌ وَوَحْيٌ مِنَ اللَّهِ وَإِنَّهُ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى نُبُوَّتِهِ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ أَوْتِيَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ كَقَوْلِ عِيسَى (ع) ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ آل عمران/٤٩ ، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن/٢٦-٢٧ ، وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنْ وَحْيِ الرِّسَالَةِ جَاءَهُ فِي السَّجْنِ (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) خصني ربي الكريم بذلك العلم الخاص في تأويل الأحاديث وغيره من العلوم الدينية والدينية لأنني من بيت النبوة ، وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله وهم بيت العزيز وحاشية الملك وزعماء القوم والشعب الذي يتبعهم (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) يكذبون بيوم القيامة (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) واتبعت دين الأنبياء لإظهار أنه من بيت النبوة حتى يتقوا بكلامه (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ما ينبغي لنا - معاشر الأنبياء - أن نشرك بالله شيئاً مع إنعامه علينا بعقيدة التوحيد (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) ذلك الإيمان وتلك العصمة من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم وفي ذلك تذكيرهم إذا نسوا وتعليمهم إذا جهلوا وتقويمهم إذا انحرفوا (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) لا يشكرون النعم ولا المنعم بل يقابلون النعم بالشرك وكفران النعم وتغطية نعمها والذي لا يشكر يكفر. فائدة: سؤال : لقد سألاه عن تعبير الرؤيا فأجابها بأنه يخبر عن الغيب ، وهذا لا يمت إلى السؤال بصله

(الجواب) أجل ليس هذا تعبيراً للرؤيا ولكنه تمهيد له ، فلقد أراد يوسف أن يغتنم هذه الفرصة ليثبت لأهل السجن أنه نبي مرسل مسدد ومؤيد كما أمره الوحي أن يبلغ بذلك ، وفي ذلك دلالة أن يكون التبليغ الإسلامي كل إنسان من موقعه وبقدره حتى تتحقق سنة الله في خلقه في قوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧.

٣٩ - ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُنْفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

وتلطف يوسف في حسن الاستدلال على فساد عقيدة الشرك فقال : يَا صَاحِبِي فِي السِّجْنِ السَّاكِنَانِ فِيهِ مَعَ يَوْسُفَ (ع) أَلْهُةٌ مَجْرِبَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ لَا تَسْتَجِيبُ لِدَعَائِكُمْ خَيْرٌ أَمَ عِبَادَةُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ ، وَهُوَ الْفَرْدُ الْمَتَفَرِّدُ بِالْعِظْمَةِ وَالْجَلَالِ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَهُوَ يَسْتَجِيبُ الدَّعَاءَ لِمَنْ دَعَاهُ ، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنكَارِي لِتَقْرِيرِ مَا بَعْدَهُ. فائدة : ١- سؤال يحرك الفطرة ويهزها بشدة إنّ الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ، فلماذا إذن نتبع تعدد الأرباب؟ فالعقيدة التي توحد خير من التي تفرق ، والتي تعلّم خير من التي تبهم. ٢- (أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ) إنّّه يضرب بذلك الأمثال أي أَرَبَابٌ ورؤساء وقادة مُتَفَرِّقُونَ وما يقتضيه التفرق والتخاصم والتنازع والاختلاف في الأفكار والأعمال التي تفسد النظام العام خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي مِنْهُجُهُ مُسْتَقِيمٌ ، وَالْحَيَاةُ مَعَهُ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالَّذِي لَا يِعَارِضُهُ أَحَدٌ فِي أَمْرِهِ ، وَالْجَوَابُ وَاضِحٌ لَا خَيْرَ فِي التَّفَرُّقِ وَكُلِّ الْخَيْرِ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ.

٤٠ - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

مَا تَعْبُدُونَ يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ إِلَّا أَسْمَاءَ فَارِغَةً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ أَلْهُةٌ ! وَهِيَ لَا تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِي عِبَادَتِهَا مِنْ حِجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ وَلَا يَلِيْسُ لَهَا مُسْتَنْدٌ مِنَ الْعَقْلِ وَلَا الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) مَا الْحُكْمُ فِي أَمْرِ الْعُقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَدْيَانِ إِلَّا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالْحُكْمُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا مَنْ يَمْلِكُ كِمَالِ التَّنْصِيفِ وَلَا مَالِكٍ لِلتَّنْصِيفِ وَالتَّدْبِيرِ لِلتَّنْصِيفِ وَالْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ إِلَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ ، فَلَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمُ دُونَ الْحُكَامِ مِنَ السُّلْطَانِينَ وَالطَّوَاغِيْتِ وَفِي ذَلِكَ اخْتِصَاصُ اللَّهِ بِالْحُكْمِ تَحْقِيقاً لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعِبَادَةِ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، فَلِلَّهِ تَعَالَى السُّلْطَانُ وَالْحُكْمُ وَالطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ وَمَنْ نَازَعَهُ إِحْدَاهُمَا كَفَرَ بِتَنْحِيَةِ التَّشْرِيْعِ عَنِ الْحَاكِمِيَّةِ (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ لَهُ الْعِظْمَةُ وَالْجَلَالُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ مَصْدَرُ التَّشْرِيْعِ وَلَا يَلِيْسُ لِلْأَفْرَادِ وَلَا الْجَمَاعَاتِ حَقُّ التَّشْرِيْعِ ، وَلَا سُلْطَةٌ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ وَهُوَ الْحَمْلُ وَالْحَرَمُ ، وَأَيُّ حُكْمٍ مُخَالَفٍ لَا يَعْزُبُ عَنِ إِرَادَةِ اللَّهِ فَهُوَ كُفْرٌ وَظَلْمٌ وَفَسْقٌ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ المائة/٤٤ ، الظالمون ، الفاسقون ، والحاكمية من خصائص الإلهوية ومن ادّعى الحق في حاكمية الناس على هواه وبحسب المبادئ الوضعية نازع الله سبحانه ألوهيته ومن نازع الله الحكم تخرجه من دين الله! (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فلا دين قيما سوى هذا الدين ذلك إشارة إلى الذي أدعوكم إليه من حصر التشريع والعبادة لله ، هو الدين القيم المحكم الثابت القويم المستقيم مع الفطرة والذي يؤيده العقل والقائم بالأمر القوي في تديبه ، والقائم بذاته والمقوم لغيره وهو دين الإسلام ، وصالح للفرد والمجتمع، ذو القيمة العليا وذو القيمومة الكبرى على كل ما تنتجه البشرية من نظريات وضعية كالأسمالية وغيرها، وفي هذا الدين المحكم الهدى من غير ضلال ، والحق من غير باطل كقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/١٩ ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) لا يَعْلَمُونَ أهمية الدين القيم ويغفلون عن عظمة الله ويجهلون قدرته لأنهم تعلقوا بزخارف الدنيا المؤقتة ، فقدوا سلامة القلب والفطرة واستقامة العقل والسلوك كقوله ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم/٧.

٤١ - ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْتَفِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضِي الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

(يَا صَاحِبِ السِّجْنِ) أمّا الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه عمله من سقي ربه أي سيده الخمر (وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) وَأَمَّا الْآخِرُ الذي رأى على رأسه الخبز فيقتل ويلق مصلوباً على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه أثناء بقاءه مصلوباً، روي : أنه لما أخبرها بذلك جحدا وأنكرا وقال ما راينا شيئاً فقال يوسف (ع) (فُضِي الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) الاستفتاء في اللغة : السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه أي انتهى وتم قضاء الله صدقهما أو كذبهما فهو واقع لا محالة. فائدة : ١- في هذا دلالة على أنه كان يقول ذلك على جهة الإخبار الحقيقي عن الغيب بما يوحى إليه لا عن طريق الظن والتخمين. ٢- تطلق كلمة (رب) على الحاكم والمالك والمرتبّي والسيد وصاحب الأمر كقولك : ربّ الدار ، وتطلق على الله تعالى لأتّه رَبُّ الْعَالَمِينَ.

٤٢ - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وقال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقى ، والظن هنا بمنزلة اليقين (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) عند سيدك وأخبره عن ظلامتي وبراءتي ودخلت السجن من غير ذنب ومن دون محاكمة (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فلم يذكر أمر يوسف للملك (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) مكث يوسف في السجن (بِضْعَ) من ٣-٩ وقيل سبع سنين ، وفي الآية دليل على ضرورة التعلق بالأسباب فإن الأمور بيد مسببها، في غرر الحكم: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) ، وعن النبي (ص): (عَجِيبٌ مِّنْ أَخِي يُوسُفُ

كَيْفَ اسْتَعَاثَ بِالْمَخْلُوقِ دُونَ الْخَالِقِ ؟) ، ولولا قوله (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) ما لبث في السجن طول ما لبث الأمثل ١٩٣/٧ ، أما تعليقنا على هذه الرواية: إن يوسف (ع) لم يغفل عن الله تعالى لحظة فلا يستغيث بالمخلوق دون الخالق وهو متعلق قلبه كله بالخالق ، وإنما كان يوسف (ع) يحاول الخلاص من السجن بأي سبب مشروع وممكن ، والله تعالى أمرنا باتّباع الأسباب اللازمة كقوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤ ، والله تعالى أمرنا بالتعاون كقوله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/٢ ، وهكذا استعان ذو القرنين بقومه بقوله ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ، أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الكهف/٩٥-٩٦ ، ويستعين الغريق ولو بقشة ، ويستعين ربّ العمل بالعمّال ، وهكذا الإنسان يعمل بالممكن يأخذ بالأسباب ويطمح نحو الأحسن ، وهو حسنٌ إنساني عام وبقى المؤمن بعلاقة دائمة بالله. والمؤمن لا يستعين بغير الله استغناءً عن الله وإنما يستعين بالله بالأسباب التي هيئها الله تعالى .

٤٣ - ٤٤ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَمْرِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ لِنَ أَنْ كُنْتُ لِرُؤْيَا تَعْبُرُونَ ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾

رأى الملك رؤيا عجيبة غريبة خوفته وحيرته وقد تكررت أكثر من مرة مما أثارت انتباهه على أهميتها البالغة ! رأيت في منامي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خرجن من نهر يابس وفي أثرهن سَبْعَ بَقَرَاتٍ (عِجَافٍ) هزيلة ضعيفة ، فابتلعت الضعيفة السمينة ، شيء غريب أنّ بقرأ يأكل بقرأ والضعيف يأكل القوي ! فأيقن أن الرؤيا تنذر بالخطر ولكنه جهل حقيقته وتفصيله فتشوّق إلى معرفة ذلك ليأتي دور يوسف (ع) (وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) ورأيت سبع سنبلات خضراء قد انعقد حبها ، وسبع سنبلات يابسات قد حصدت ، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلتهن في حقل واحد وهذا شيء مدهش ومحير (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) يا أيها الزعماء الاختصاصيون وهم الملأ الذين يملؤون القلوب هيبة والعيون زينة وجمالاً ، أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ، وهم أكبر المعبرين والمفسرين للأحلام فلم يستطيعوا تأويلها وهم حاشية الملك وكهنة دولته (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) تجيدون تعبيرها وتفسرها وتعرفون مغزاها جعل الله تعالى رؤيا الملك سبباً لخلاص يوسف من محنته وإذاً أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا هَيَّئِ أَسْبَابَهُ (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) قالوا أحلام مختلطة ملتبسة ومضطربة كاذبة ، رؤيا لا حقيقة لها ولا معنى فيها (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة ، عن الإمام الصادق (ع) : (الرُّؤْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ وُجُوهِ : بِشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) البحار ١٨٠/٦١ .

٤٥ - ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَنْسِلُون﴾

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنَ السِّجْنِ وَهُوَ السَّاقِي (وَادَّكَرَ) أَي وَتَذَكَّرَ (الدال أجد من الذال) ما سبق له مع يوسف (بَعْدَ أُمَّةٍ) أَي بَعْدَ حِينٍ ، بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَانِ (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) أَنَا أَخْبِرْكُمْ عَنِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ عِنْدِهِ عِلْمٌ بِتَأْوِيلِ الْمَنَامَاتِ (فَأَرْسَلُونِ) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْهِ لِأَتِيَكُمْ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا ، وَخَاطَبَ الْمَلِكَ بِلَفْظِ التَّعْظِيمِ .

٤٦ - ٤٩ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ﴾

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) وَهُوَ مَبَالِغَةُ الصِّدْقِ ، وَسَمَّاهُ صِدِّيقًا لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ جَرَّبَ صِدْقَهُ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا فِي السِّجْنِ وَرَأَى سِيرَتَهُ الْحَسَنَةَ الْمَحْبِبَةَ إِلَيْهِ (أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) أَخْبَرْنَا عَنْ تَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا ذَاتَ عِبْرَةٍ (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) لِأَرْجِعُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ وَأَخْبِرُهُمْ بِهَا لِيَعْلَمُوا فَضْلَكَ وَعِلْمَكَ وَيَخْصُوكَ مِنْ مَحْنَتِكَ . ٤٧- (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا) أَي تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ (دَابًّا) مَتَوَالِيَاتٍ

بِاسْتِمْرَارٍ وَبِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ وَعِزْمَةٍ وَعَلَى الدَّوَامِ ، وَتَكُونُ هَذِهِ السِّنِينَ خَصْبَةً طَيِّبَةً كَثِيرَةً خَيْرَاتِهَا ، وَهِيَ الْمَشَارُ إِلَيْهَا بِالْبَقَرَاتِ السَّمَانِ وَالسَّنَابِلِ الْخَضِرِ . (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ) فَمَا حَصَدْتُمْ مِنَ الزَّرْعِ (فَذَرُوهُ) فَاتْرَكُوهُ فِي سُنْبُلِهِ لِثَلَاثِ سِنِينَ عِنْدَ الْإِدْخَارِ وَالْحَزَنِ لِلسَّبْعِ الشَّدَادِ (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) إِلَّا مَا أَرَدْتُمْ أَكَلَهُ فَاطْحَنُوهُ وَاتْرَكُوا الْبَاقِي فِي سُنْبُلِهِ . ٤٨- (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ) ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ سِنِي الرِّخَاءِ سَبْعَ سِنِينَ مِنَ الشَّدَةِ مَجْدِبَاتٍ وَقَحْطٍ عَلَى النَّاسِ (يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) تَأْكُلُونَ فِيهَا كُلَّ مَا إِدْخَرْتُمْ أَيَّامَ وَسِنِينَ الرِّخَاءِ (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ) وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِي تَخْزِنُونَهُ لِلْبَدْوِ وَتَدْخِرُونَهُ لِلزَّرْعَةِ وَتَحْفَظُونَهُ لِتَدْبِيرِ الْأُمُورِ . ٤٩- (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ) ثُمَّ بَشَّرَهُمْ يُوسُفُ (ع) بِأَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ سِنِي الْقَحْطِ وَالْجُدْبِ الْعَصِيْبَةِ عَامَ رِخَاءٍ وَخَيْرٍ فِيهِ (يُغَاثُ) يُمَطَّرُ النَّاسُ عَامَ خِصْبٍ ، وَفِيهِ إِنْقَازٌ لَهُمْ مِنَ الْقَحْطِ ، فَيَنْبِتُ الزَّرْعَ وَيَنْمُو الشَّجَرُ وَالثَّمَرُ ، وَيُغَاثُونَ بِأَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ الْفَوَاكِهِ وَالْأَعْنَابَ وَغَيْرَهُمَا وَفِيهِ يَجْلِبُونَ ضُرُوعَ أَنْعَامِهِمْ لِكثْرَةِ خِصْبِهِ وَبِرَكَاتِهِ ، عَادَ السَّاقِي إِلَى الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ

يُوسُفُ (ع) فَرَأَى فِيهِ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَالذِّقَّةَ وَالْمُصَلِحَةَ . فائِدة : ١- ذَكَرَ يُوسُفُ (ع) لَهُ تَفْسِيرُ الْمَنَامِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِيفٍ لِلْفَتَى فِي نَسْيَانِهِ مَا أَوْصَاهُ بِهِ ، وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ قَبْلَ ذَلِكَ وَبِدُونِ شَرْطٍ أَوْ أَجْرٍ وَذَكَرَ مَا يَنْبَغِي عَمَلُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ! ٢- وَتَكُونُ السِّنِينَ الْخَصْبَةَ هِيَ الْمَشَارُ إِلَيْهَا بِالْبَقَرَاتِ السَّمَانِ وَالسَّنَابِلِ الْخَضِرِ كُلِّ سُنْبُلَةٍ وَبِقِرَّةٍ تَرْمِزُ إِلَى سَنَةِ ، وَهَذَا الَّذِي أَطْلَعَهُ اللَّهُ لِيُوسُفَ (ع) مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ اللَّدِّيِّ الْخَاصِّ أَوْحِيَ إِلَيْهِ لِيَكُونَ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ وَمِنْ عِلَامَاتِ

تأييد الله له وتسديده سبحانه وتعالى بمعجزة قاطعة لكل شك في رسالة يوسف (ع) السماوية.
٣- لم يقل (ويعلمك فن الفروسية وفن القتال) وإنما قال:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يوسف/٦ ، يختار الله تعالى له العلم المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب للمجتمع ، المناسب الذي يستفيد يوسف منه أكثر في مستقبل حياته وسيكون بحاجة إليه ، وهذا يدل على رعاية الله الخاصة إليه ﴿وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/٢٢ ، ورعاية الله سبيل مفتوح للمحسنين. ٤- إن القمح في سنبله لا يقع فيه سوس ولا يتلف وإن بقي مدة من الزمان وإذا طحن وديس وصقي أسرع إليه السوس والتلف !

٥٠- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوبِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ولما رجع الساقى إلى الملك وعرض عليه تفسير يوسف لرؤياه استحسنت ذلك فقال : أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسى (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ) فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ إِلَى يَوْسُفَ (ع) ليخرجه أبى أن يخرج من السجن من دون أن يعرف ما هو ذنبه الذي أدخله السجن؟! أو كشف موجات الشك من حوله حتى عند الملك وأصرّ على إعلان براءته قبل كل شيء! (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) قَالَ يَوْسُفَ (ع) لِلرَّسُولِ ارْجِعْ إِلَى سَيِّدِكَ الْمَلِكِ.

(فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) هل يعلم أمرهن وهل يدري لماذا حبست ودخلت السجن؟ أبى ورفض (ع) أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحتها من تلك التهمة الشنيعة ، يطلب يوسف (ع) الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ! وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبس بلا ذنب ، حبس ظلماً وعدواناً ، نجد يوسف (ع) السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج ، لقد أدبه ربّه فأحسن تأديبه ، لقد اطمأن قلبه بذكر ربّه فلم يعد عاجولاً ! (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) إنه تعالى عالم بمخفيات الأمور وبما دبرن من كيد ومكر لي. فائدة : ١- هناك فارق واضح بين موقفين ، الموقف الذي يقول يوسف (ع) فيه للفتى (ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) لينقذه ، والموقف الآخر الذي يقول له فيه (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) ليتدبّر أمره في غرر الحكم : (دَرُوزَةُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا دَرُوزُ التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهَدَاتِ) !

٥١-٥٢ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ أَنْ اذْمَرْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنِّي لَأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْبُءْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾

قال يوسف (ع) لرسول الملك إرجع إليه وقل له فليحقق مع النسوة ويسألهن عن شأني وشأهن ، جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن وبدأ بالتحقيق : فسألهن عن أمر يوسف (ع) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ؟ ما شأنكن أي كيف دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ الخطب : الشأن العظيم لغرابته أو لإنكاره (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء ، فاعترفن ببراءة الصديق القديس ، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ولقد حبس مظلوماً بلا ذنب ! (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ إِنِّي لَأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ) أي الآن ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه

من جانب واحد (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ يوسف/ ٢٦ ، وهذا اعتراف علني صريح ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد.

٥٢- (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لما وصله براءة النسوة له في حضرة الملك ، ويقال : إنَّه من كلام امرأة العزيز بعدم خيانة زوجها في غيابه. المعنى : ذلك الأمر الذي فعلته من رد الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها وتساميت عن طلبها مع شدة الضغوط والإلحاح والإغراء لي (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه ولا يوصله لغايته وأنه سبحانه سيفضحه لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً وهي من سنن الله الثابتة ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ الأنبياء/ ٧٠ ، والذي لا يخون هو الأمين المؤمن الذي يجب أن يحترم ويكرم وليس يعاقب ويسجن! وهذه مقدمة لطلبه ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ يوسف/ ٥٥ ، فائدة : ١- هناك فرق كبير بين موقف امرأة العزيز الأول حين قالت لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ يوسف/ ٢٥ ، وموقفها الثاني (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) لنعلم أن الإنسان ينقلب بحسب الظروف ، فهو في بعضها معتدٍ أثيم وفي الآخر رؤوف رحيم فلا تحكم على الإنسان بسرعة من موقف واحد وتجاهل خصائصه الكامنة وصفاته المتعددة التي لا تبرز للوجود إلاّ بالمحك والمفاجآت والمخبات. ٢- ظهر يوسف مثلاً للكمال الإنساني النموذجي في عفته ونزاهته وصره وتقواه كقوله ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/ ٩٠. ٣- لم تقل النسوة (ما رأينا عليه من سوء) وإنما قلن (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) تأكيداً لظهره وعفته ، فإنَّهن لم يرين منه ما يسوء ولم يعلمن من أمره ما يشين. ٤- والآية دلالة على أنَّ الخيانة من الصفات الذميمة الخسيسة كما أنَّ الأمانة وحفظ الشرف والعفة والنزاهة والترفع عن المنكر من الخصال المحمودة النفيسة الفاضلة.

الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم

٥٣- ﴿وَمَا أَتَيْنَا نَفْسِي إِلَّا نَفْسًا كَاتِمَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذا من كلام يوسف (ع) في رأي أكثر المفسرين وأنه (ع) أراد الدعاء والشكر لله على أنه مع وجود النفس الأمارة بالسوء وفترة المراهقة وضغط الشهوة وإغراء الشيطان ولكنه لم يرد العزم على المعصية ، أي لا أبرئ نفسي ممَّا لا تخلو منه طباع البشر وإنما امتنعت عن الفاحشة بحول الله ولطفه وهدايته لا بقوة نفسي وإنما بمساعدة ربِّي وقد كره تركية نفسه والتفاخر بها. المعنى : لا أزكي نفسي ولا أنزهها ولا أعجب بها فإن الإنسان ميال إلى شهواته وأهواء نفسه ويجب ذاته ولذاته وإيَّي لم استعصم من الفاحشة تركية لنفسي وعجباً بها ، فإنَّ النفس بطبيعتها تميل مع الأهواء أمارة بالسوء إلاّ النفوس التي يرحمها الله فيعصمها من الزلل ويسددها في القول والعمل ، قاله يوسف

على وجه التواضع وإنها صفة الإنسان لئلا يركي نفسه ويُعجب بحاله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ النجم/ ٣٢ ، (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) إِلَّا من رحمه الله بالعصمة عن الخطأ ، في غرر الحكم: (وَبِالتَّقْوَى فَرِنَتِ الْعِصْمَةُ)، (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) غفور يستر كل نقص الملازم للطبع (رَحِيمٌ) يظهر الأمر الجميل.

فائدة : ١- (إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ) مبالغة الأمر لكثيرة الأمر وتلح بالأمر أي تدفع وتلح بعمل السوء لما فيها من دواعي الشهوات وحب اللذات وتحسيد الذات والهوى ، وإنها مركب الشيطان ومنها يدخل ليوسوس للإنسان ، والذي لا يستجيب لأوامر النفس الأمامة بالسوء فمعناه يستجيب للنفس اللوامة التي تلومه على محاولة فعل أي منكر ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ القيامة/ ١- ٢ ، فهي مانعة للشرا دافعة للخير وترفعه إلى منازل عليا فيصل إلى منزلة النفس المطمئنة، معناه يستجيب لمنطلق العقل والاستقامة وحسن السيرة ، وإذا استجاب لدواعي النفس الأمامة (يحصل العكس) فإنه يستجيب لمنطق الشهوة المحرمة التي لذاتها قصيرة وهمومها كبيرة وتبعاتها كثيرة ويعيش معاناة النفس الأمامة بالسوء، النفس الماكرة القلقة الضالة غير المتوازنة ، ٢- (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) إِنَّ النفس الأمامة تأمر بالسوء وتدفع إليه وإن أغلب الناس تبع لما تأمرهم به أنفسهم الأمامة ، ولكن قلما من يصغي لمطالب النفس اللوامة الملتزمة المستقيمة إلا ما أراد الله دفعه عنهم من سوء ، رحمة منه ولطفاً بعباده ممن يؤهل نفسه ويعدها لتتناسب معه رَحْمَةُ اللَّهِ ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف/ ٥٦ ، ٣- من مناجاة الشاкин للإمام السجاد (ع) : (إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْأَلُكَ بِي مَسْأَلِكَ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ) الصحيفة السجادية.

٥٤ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَمْسَيْتُ بِهٖ اسْتَخْلَصْتُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

إئتوني بيوسف الصديق (ع) (أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) أجعله من خاصتي وخلصائي المصطفين عندي يعاونني في تدبير الأمور ويشير عليّ في أموري لأنه موضع ثقتي ، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه وأمانته وهو في أشد الحالات وأصعب المواقف (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) فلما أخرجوه من السجن وأُتي به إليه وكلمه يوسف بكلامه البليغ ومنطقه الفصيح ذي الحجّة والبيان والبرهان الدال على وفور عقله وتوازن سلوكه ، و (كَلَامُ الْمَرْءِ عُنْوَانُ عَقْلِهِ، وَتُرْجُمَانُ نَفْسِهِ) بيان أصله ، وأحسن القول ما صدق بعضه بعضاً ، وشرّ القول ما نقض بعضه بعضاً ، (قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) مَكِينٌ : ذو مكانة رفيعة ، قريب المنزلة رفيع المكانة مؤتمن على كل شيء والزعيم المتمكن والأمين العام ذو الأمر النافذ ! وهو قد أظهر من صفات الجلال والكمال والجمال ما أدهش العقول وأبهر النفوس وتعلقت به القلوب ! فأصبح

جميلاً في مظهره وجوهه في خلقه وحُلُقِه. فائدة : قال يوسف (ع) للملك عليك أن تزرع كثيراً وتبني المخازن للحبوب ، فيأتيك النَّاسُ من كلِّ صوب ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ، فقال الملك من لي بهذا ؟ عندئذِ قَالَ : (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ).

٥٥ - ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾

قال يوسف (ع) ولني مسؤولية خزائن أرض مصر إني حَفِيظٌ عليها فلا تقع فيها خيانة ، إني أمين عام على ما استودعني عَلِيمٌ بوجوه التصرف ، وإنما طلب منه الولاية العامة على الأرض رغبة في العدل وإقامة الحق والإحسان بين الناس ، وهذا المنصب ليس مطلوباً لذاته وإنما مطلوب لغيره لشيء أهم منه ، وليس هو من باب تركية نفسه بدافع الفخر ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النجم/ ٣٢ ، وإنما هو للإشعار بجنكته ودرابته لإستلام وزارة المالية ، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب ، في غرر الحكم: (حَيَّرَ الْأُمْرَاءَ مَنْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ أَمِيرًا) ، في غرر الحكم : (مَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ) وفيه أيضاً (سِيَاسَةُ النَّفْسِ أَفْضَلُ سِيَاسَةٍ) ، وإنه يعلم أنه سيأتي على البلاد سنين مجاعة فلا بد أن تكون الخزينة بيد إنسان أمين قدير ليصل الحق إلى صاحبه ، وللمحاسن الكثيرة التي يتمتع بها يوسف (ع) فوافق الملك على اقتراح يوسف (ع) وجعله أميناً عاماً على خزائن المال والاقتصاد وأصبح الرئيس الثاني للبلاد بعد الملك ، ثم أسلم الملك على يديه وأسلم جمع غفير من الناس ، ولما رأت امرأة العزيز يوسف في موكبه قالت : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمُلُوكَ بِالْمَعْصِيَةِ عَيْدًا ، وَجَعَلَ الْعَبِيدَ بِالطَّاعَةِ مُلُوكًا ، عن الإمام علي (ع) : (لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَاقَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا ائْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدِ الْمَعْلَمِ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرِ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ) شرح النهج ٨/ ٢٦١. فائدة:

سؤال: لماذا تعاون يوسف (ع) مع الحكومة الكافرة ويقول القرآن الكريم ﴿وَلَا تُزَكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هود/ ١١٢؟ الجواب: لم يكن قبول يوسف بالمسؤولية نصرة للظالم ، وإنما هداية الملك وحاشيته وتعريفهم بالإسلام وتسخيف عبادة الأصنام، ثم ليجتاز النَّاسُ مرحلة المجاعة وشدائدها، فقدم يوسف الموضوع الأهم وأجل المهم. عن الإمام الصادق (ع) : (كَفَّارَةُ عَمَلِ السُّلْطَانِ قَضَاءُ حَوَائِجِ الْإِحْوَانِ) من لا يحضره الفقيه ٣/ ٢٣٧.

٥٦ - ٥٧ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَوُّ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا أَجْرَ الْآخِرِ وَخَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

وهكذا برعايتنا وحسن تدبيرنا (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) ملكنا يوسف (ع) في أرض مصر وجعلنا له العز والسلطان بعد الحبس والضييق والامتحان (يَبْتَوُّ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) يسكن وينزل ويقيم ، فصار له مطلق المشيئة له أن يأخذ أية بقعة من الأرض يرغبها بلا معارض ولا منازع (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ) نخص بإنعامنا وفضلنا ورحمتنا من نشاء من عبادنا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ الأعراف/ ١٢٨ ، (وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَنَفَعَ النَّاسَ مِنْ أَمْثَالِهِ مَهْمَا طَالَتِ الْمُدَّةُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، بَلْ نَضَاعِفُ أَجْرَهُ وَنَكْرَمُهُ أَحْسَنَ تَكْرِيمٍ ، فَهُوَ قَانُونٌ عَامٌ لِكُلِّ الْمُحْسِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الكهف/ ٣٠. ٥٧- (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وخير الآخرة أفضل من خير الدنيا ليس لكل الناس وإنما للذين يؤهلون أنفسهم للإيمان والتقوى والأعمال الصالحة ومداومين على اتقاء المعاصي ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/ ٤٦ ، و(مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ).

فائدة: ١- استطاع يوسف (ع) بعون الله أن يوازن بين الإنتاج والاستهلاك والادخار مما يعجز عن مثله أقطاب الاختصاص في الاقتصاد في عصر التطور ، وسر ذلك الأمانة والكفاءة وعون الله فتمكن من إنقاذ البلاد والعباد من التهلكة والمجاعة. **٢- في الآية دلالة على جواز تولي القضاء والسلطة والمركز المهم وغيره من جهة الحاكم الظالم إذا يتمكن بذلك من إقامة العدل والحق بين الناس، وإقامة أحكام دين الله. ٣- (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) إِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ (ع) لَوْلَمْ يَحْسُدُوهُ مَا أَلْقَوْهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ ، وَلَوْلَمْ يَلْقَوْهُ لَمَا وَصَلَ إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ ، وَلَوْلَمْ يَعْتَقِدِ الْعَزِيزُ بِفِرَاسَةِ يُوسُفَ (ع) وَأَمَانَتِهِ وَصَدَقَهُ لَمَا أَمَنَّهُ عَلَى بَيْتِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ ، وَلَوْ لَمْ تَرَاوِدْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ عَنْ نَفْسِهِ وَيَسْتَعْصِمَ لَمَا ظَهَرَتْ مِنْ نَزَاهَتِهِ وَعُرْفِ أَمْرِهِ ، وَلَوْلَمْ يَتَفَقَّنِ النِّسَاءَ عَلَى السِّجْنِ مَا أُلْقِيَ فِي السِّجْنِ لِإِخْفَاءِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَوْلَمْ يَسْجُنْ لَمَا عَرَفَهُ سَاقِي الْمَلِكِ وَعَرَفَ فَضْلَهُ وَعَلِمَهُ وَصَدَقَهُ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ، وَلَوْلَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ مِنْهُ السَّاقِي مَا عَرَفَهُ مَلِكُ مِصْرَ وَلَمْ يَجْعَلْهُ عَلَى خِزَانِ الْأَرْضِ ، فَمَا مِنْ حَلْقَةٍ فِي هَذِهِ السَّلْسَلَةِ إِلَّا كَانَتْ مَتَمِّمَةً لِمَا بَعْدَهَا ، وَيَأْذَنُ اللَّهُ كَانَتْ سَبَبًا لِلْوَصُولِ إِلَى مَا يَلِيهَا ، فَكَانَتْ فِي بَدَايَتِهَا شَرًّا وَفِي عَاقِبَتِهَا فَوْزًا وَنَصْرًا مَبِينًا ، وَهَذَا يَدُلُّ بِأَيْتِكَ النُّورِ مِنْ قَلْبِ الضَّلَامِ وَيَأْتِيكَ الْيَسْرُ مِنْ قَلْبِ الْعُسْرِ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الإنشراح/ ٥-٦.**

٥٨ - ٥٩ ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾

وجاء إخوة يوسف (ع) وهم يقصدون عزيز مصر ليشتروا منه حبوب القمح كغيرهم حين أضر بهم القحط بفلسطين أرض كنعان حيث يقيم نبي الله يعقوب (ع) ، فدخلوا على يوسف (ع) فعرف أنهم إخوته (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) ولكنهم لم يعرفوه لهيبة الملك وطول العهد وتغير الملامح وامتد زمن الفراق بينهم حوالي (٢٢) سنة ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ) جهاز الإنسان : ما يحتاج إليه المسافر ، والمعنى : بعد أن هيا يوسف لإخوته ما جاءوا من أجله ، حمل لكل واحد منهم بعبيراً بعدته من الطعام والحبوب (قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) إئتوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم (أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ) أي أتم الكيل من غير نقصان (وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) وأنا خير من يكرم الضيف لأنه أحسن ضيافتهم.

٦٠ - ٦٢ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ، قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ، وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

فإن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم مؤونة ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، إنهم يعلمون أن أباهم لا يأتمنهم عليه بعد فعلتهم النكراء بيوسف (ع) لذا (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) قَالُوا سَنُرَاوِدُ : سنحاول سنخدع برفق سنحرص ونتفنن ونجتهد لإقناع أبيه في طلبه منه وإنا لفاعلون ذلك رغم الصعوبات ، فائدة : عندما أحسن ضيافة إخوته حدثوه عن حياتهم وأن لهم أخواً من أبيهم أصغر منهم ، فقال يوسف إئتوني بهذا الأخ الأصغر حتى أوفي الكيل له أيضاً (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ) رِحَالِهِمْ : جمع رَحْل وهو ما يوضع على ظهر الدابة ، قال يوسف (ع) لغلمانة الكياليين اجعلوا (بِضَاعَتَهُمْ) المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم من حيث لا يعلمون لمساعدة أبيه والعائلة في سنين المجاعة (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) لكي يعرفوا هذه اليد الكريمة التي أعطت ولم تأخذ (إِذَا انْقَلَبُوا) أي إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لعلهم يرجعون إلينا ويأتون بأخيهم إذا رأوها طمعاً في الضيافة والتكريم .

٦٣ - ٦٤ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

فلما عادوا إلى أبيهم قَالُوا يَا أَبَانَا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً ولم ير الناس مثله حكماً وعلماً ولئن كان لك شبيه فإنه يشبهك ! وقالوا لقد أئذرونا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخي الصغير بنيامين (فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلُ) نَكْتُلُ : نأخذ الطعام بالكيل ، أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وإنا نحفظه من أن يناله مكروه (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ) قال لهم يعقوب (ع) : كيف آمنكم وأثق بكم ويطمئن قلبي إليكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه واطمأنت إليكم في أخيه من قبل ثم خنتم العهد؟ فأخاف من مكركم فأنا لا أثق بكم (فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فحفظ الله خير من حفظكم والله أرحم من والديه وإخوته ، ويترحم على الضعيف المستسلم الذي فوّض إليه سبحانه أمره وتوكل عليه ، فأرجو أن يمنّ عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين .

٦٥ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَسَاعِدَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ مَرَدَّةً إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا مَرَدَّةً إِلَيْنَا وَبِئْسَ أَهْلًا وَحَفِظًا آخَانًا وَتَرَدَّادًا كَيْلَ بَعْرِ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ﴾

أنظر إلى روعة النظم القرآني في تصويره لهذا الإغراء العجيب الذي جاء محمولاً إلى يعقوب (ع) في قولهم (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا...) معنى (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) : المتاع جمع أمتعة وهو كل ما يتمتع

باستعماله، ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها مؤونتهم وجدوا ثمن الطعام في متاعهم قد رُدَّ إليهم (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي) ماذا نَبْغِي؟ وأي شيء نطلب من إكرام الملك لنا أعظم من هذا التكريم (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) هذا ثمن الطعام قد رُدَّ إلينا من حيث لا ندرى، فهل هناك مزيد إكرام فوق هذا الإحسان! أن يقوم حاكم أجنبي في ظروف القحط والجفاف بمساعدتنا وبيع الحبوب والمؤن لنا ثم يرد إلينا ما دفعناه ثمناً لها ويكون رُدُّ بضاعتنا على نحو خفي بحيث لا يستشير فينا الخجل، أليس هذا غاية الجود والكرم؟ فما من سبب للتأخير، أرادوا بذلك إستنزال أبيهم عن رأيه (وَمُبِيرُ أَهْلِنَا) نأتيهم بالميرة لعيالنا وأولادنا وهي الطعام المجلوب من بلد إلى بلد (وَنَحْفَظُ أَخَانًا) نحفظه من المكاره ونكون جادين في حفظه وكرروا حفظ الأخ مبالغة في حفظه والتأمين على إرساله (وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ) ونزداد باستصحابنا له حمل بعير فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضروا أخوهم (ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) سهل على الملك إعطاؤه لسخائه.

٦٦ - ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتِيَنِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِيََنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾
وبعد إلحاح شديد اضطرَّ يعقوب أن يقول: لن أرسل معكم بنيامين حتى تعطوني عهداً مشروطاً مؤكداً مغلظاً وتحلفوا بالله لتردونه عليّ سالمًا (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) إلا أن تغلبوا أو يحيط بكم عدوكم فلا تقدرُوا على تخليصه ولا يبقى لكم طريقة أو حيلة إلى ذلك (فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ) فلما أعطوه العهد الموثق المؤكد (قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) فليكن الله شهيداً رقيباً على ذلك يجربها على رسلها ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الفتح/١٠.

٦٧ - ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

فلما تجهزوا للسفر واصطفوا أمامه للوداع خاف عليهم من العين والحسد إذا دخلوا مجتمعين وهم أصحاب هيبة وجمال، فقال لهم يا أولادي لا تَدْخُلُوا مصر من بابٍ واحدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ، خاف عليهم نظرة الحسد والعين وكثرة التساؤلات والشبهات حولهم (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) لا أَدْفَعُ عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضاه الله عليكم فإن الحذر لا يدفع القدر والحذر يدفع الضرر والخطر وعلى الإنسان أن يعمل بالممكن ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ النساء/٧١، والاحتياط سبيل النجاة (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) ما الحكم والتدبير والتقدير إلا لله عز وجل وحده لا شريك له ولا يمانعه شيء وما تؤثر هذه الأسباب الظاهرية إلا أن يشاء الله ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الروم/٤، وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) عليه وحده اعتمدت وبه وثقت و (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ) (وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان

وليفوضوا أمورهم إليه وعلى قدر الثقة بالله يكون التوكل عليه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق/٣، (فَهُوَ حَسْبُهُ) فهو كافي له لأنه السبب الأعلى الذي تنتهي إليه الأسباب.

٦٨ - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ودخلوا إلى مصر من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم (مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً (إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) كانت هناك حاجة تدور في نفسه ما أراد أن يعلنها وهي وراء الأسباب العادية في الاحتياط بسلامة بنيامين أولاً وسلامتهم جميعاً ثانياً ولكنه قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها وهي خوفه عليهم من إصابة العين ومن أن ينالهم مكروه وبذلك أزال الاضطراب عن قلبه وأذهب القلق عن نفسه (وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) وإنَّ يعقوب لدو علم واسع لتعليمنا إياه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة ويؤديه بأداب الله ومنها الصبر الجميل على البلاء والعناء والتوكل على الله في السراء والضراء وعدم اليأس من رحمته ، وتدبير الله فوق تدبير العباد وأن يتخذ الأسباب المناسبة ليصل بها إلى النتائج المقصودة وأن لا يقصّر في عمله ثم يتوكل على الله لمزيد من التسديد ، لتسخير ما لم يصل إليه علمه (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يعرفون مثل هذه الأسرار والحكم التي نعلّمها رسلنا ، أي إن الواجب الجمع بين أخذ العدة والقدرة اللازمة والعلوم الواجبة والمستلزمات الرئيسة والسعي المناسب في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة للمقصود وبين التوكل على الله، وهو ما فعله يعقوب (ع) ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه.

٦٩ - ٧٠ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى أَيْتَاهُمَا الْعِرْ لِيَكُ لِسَامِرِقُونَ﴾

وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف (ع) ومعهم بنيامين رحب بهم وأكرمهم (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) واختلى به وضمّ إليه أخاه الشقيق الشقيق بنيامين وجعله يقيم عنده (قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ) أنا أخوك يوسف ، أخبره وطلب منه كتماننا الآن (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فلا تأسف ولا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجعنا بخير، ثم أنزل إخوة يوسف على مائدة مشتركة الطعام وجعل كل أخ يقابل أخاه من أمه وبقي بنيامين وحيداً ، فقال هذا لا ثاني له فيكون معي ، فدبّر لهم خطة محكمة تجبرهم على تركك عندي والرجوع من دونك ! ٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِالطَّعَامِ وَعَدَّةِ السَّفَرِ (جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ) الرجل : ما يوضع على البعير للركوب، أمر يوسف (ع) بأن تجعل السقاية بالسر (وهي إناءٌ للشرب من ذهب مرصع

بالجواهر جعل صاعاً للكيل) في متاع بنيامين وهم منصرفون (ثُمَّ أَدَّانَ مُؤَدَّنًا) نادى منادٍ (أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) يا أصحاب (العبر) أي القافلة إنكم قوم سارقون فالساقية مفقودة عند بعضكم ، ودُهِش أولاد يعقوب (ع) لهذه التهمة ، وقد أعلم يوسف بنيامين بهذا الكيد وأن يوسف أراد أن يأخذه إليه ، فلم تكن تسميته بالسارق تهمة حقيقية بل توصيفاً صورياً لمصلحة لازمة ، فلا هو كذّب ولا هم سرقوا.

فائدة: سئل الإمام الصادق (ع) عن التورية (مختصر) كقوله (أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) ؟ فقال (ع): (مَا سَرَقُوا وَمَا كَذَّبَ ، إِنَّهُمْ سَرَقُوا يُؤَسَّفَ مِنْ أَبِيهِ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا (قَالُوا نَفَقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ) وَلَمْ يَقُولُوا (سَرَقْتُمْ صَوَاعَ الْمَلِكِ) وَمِثْلُهُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ (ع) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ الأنبياء/٦٣ ، مَا فَعَلُوا وَمَا كَذَّبَ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ (ع) (إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) إِنْ نَطَقُوا فَكَبِيرُهُمْ فَعَلْ ، وَإِنْ لَمْ يَنْطِقُوا فَلَمْ يَفْعَلْ كَبِيرُهُمْ شَيْئاً فَمَا نَطَقُوا وَمَا كَذَّبَ إِبْرَاهِيمُ (ع)) الكافي ٣٤١/٢ ، ميزان الحكمة ٣٥٧/٨ والمؤمن يُعِينُهُ إِيمَانُهُ عَنِ الْكُذِبِ ، لأن الكذب : خيانة ، وشرُّ القول ويفرق المجتمع، ويفقد الثقة بينهم.

٧٥ - ٧١ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ مَاذَا تَفْقِدُونَ ، قَالُوا نَفَقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَكِن بَجَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ، قَالُوا فَمَا جَزَاءُوهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ، قَالُوا جَزَاءُوهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُوهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

وهو مشهد مثير حافل بالانفعالات والمفاجآت ، إلتفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم. ٧٢- (قَالُوا نَفَقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ) ضاع منا (صواع) وهو الساقية أو مكيال الملك الثمين المرصع بالجواهر ونظن أنه عندكم (وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) ولمن جاءنا بالمكيال ورده إلينا كافأناه حمل بعير من الطعام كجائزة له (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أنا كفيل ضامن بهذه الجائزة بشرط أن يرجع السارق المكيال من تلقاء نفسه! ٧٣- (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ) قسم فيه معنى التعجب ، والله لقد علمتم أيها القوم بما رأيتم من أمانتنا وحسن سيرتنا في سفرتنا السابقة وفي هذه السفارة وما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) ولسنا بمن يوصف بالسرقة قط. ٧٤- (قَالُوا فَمَا جَزَاءُوهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في إدعاء البراءة. ٧٥- (قَالُوا جَزَاءُوهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُوهُ) جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسْتَرَقَ ويصبح رهينةً وأسيراً ورفيقاً مملوكاً للمسروق منه ، وهي شريعة نبي الله يعقوب (ع) جزاء على فعله ليكون هذا الاعتراف حجة عليهم إذا أخذ يوسف (ع) أخاه (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) كذلك نجازي من تعدى حدود الله كقوله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ

ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿ الطلاق/ ١ ، وإعتدى على حقوق النَّاسِ بالسَّرقة وأمثالها ، لذلك جاز ليوسف أن يأخذ أخاه ويضمه إليه ، ولا يحق لهم أن يمانعوا ويعترضوا.

٧٦ - ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

فَبَدَأَ بتفتيش أَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ بنيامين كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش ، وهذا من أساليب الذكاء والحيلة الجميلة ودفع التهمة للتمويه ، وكان يوسف يستغفر الله مما كذفهم به ، حتى بقي صاع بنيامين وهو أصغر الإخوة ، فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا والله لا نترك حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه (ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) بنيامين فلما أخرجها منه نكس الأخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه بشدة (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) وكذلك دبرنا ليوسف تدبيراً خفياً بذكاء في أخذ أخيه ، وهو كيد الله تعالى له بمعرفة أسبابه كقوله ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ الطارق/ ١٥-١٦ ، ألهمنا يوسف هذه الخطة ليستبقي أخاه عنده، وسمى هذا كيداً لأن ظاهره غير واقعه ، وجاز شرعاً لأنه لا يحل حراماً ولا يجرم حلالاً ، وسمى كيداً لأنه تورية ، والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو الشر سواء ، وهو من دقائق التعبير القرآني، وبذلك يحصل عقاب إخوة يوسف بما فرطوا في يوسف (ع) (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين وشريعة ملك مصر ، لأن جزاء السارق عنده أن يُضْرَبَ وَيُعْرَمَ ضَعْفَ مَا سَرَقَ وليس فيها استرقاق للسارق (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) إِلَّا بمشيئته تعالى وإذنه أخذ أخاه بشريعة أبيه يعقوب ، فأخذه منهم بحكم اعترافهم إلزاماً لهم بما يدينون ولا يحق لهم الاعتراض. (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ) نرفع بالعلم والتقوى والأخلاق والتوفيق منازل من نشاء من عبادنا في الدنيا كما رفعنا يوسف (ع) ، فيكشف القرآن عن سنة عامة وليست خاصة بيوسف (ع) وفي هذا إشارة إلى أنّ العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) فالعلم ليس له حدود ، فوق كلّ عالم من هو أعلم منه في جميع أنواع العلوم والاختصاصات الدينية والدنيوية، حتى ينتهي إلى ذي العلم المطلق وهو رب العالمين ، والله العليم الخبير فوق كل علم وعالم. فائدة : ١- فإذا كان العلم درجات ومنازل متفاوتة فعلينا اتباع الأحسن، وأن يكون لنا القدرة على الفرز بين الحسن والأحسن والسيء والأسوأ وهكذا ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/ ١٧-١٨ ، عن النبي (ص) : (اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُتَتُونَ) كثر العمال خبر ٢٩٣٣٩ ، ٢- (فِي دِينِ الْمَلِكِ) عبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بآثها (الدين) فإذا كان عن الله فهو دين الله وإن كان عن الملك فهو دين الملك ، يعني الدين له منظور عالم يشمل كل شؤون الحياة القانونية والقضائية والاقتصادية والسياسية وغيرها، فهو أكبر من أن ينحصر مفهوم وتطبيق الدين في العبادات

والعقائد والفقه والأصول، بل الدين : هو علم الحياة السعيدة المستقيمة المتوازنة التي تجمع لك حياة ومطالب الروح والجسد ، والأمل والعمل والدنيا والآخرة.

في غرر الحكم: (أَدِينُ النَّاسِ مَنْ لَمْ تُفْسِدْ الشَّهْوَةُ دِينَهُ). ٣- قال (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ولم يقل (اتَّبِعُوا الْأَعْلَمَ) ! لأنه لا يوجد (الأعلم) كقوله ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/ ١٥١ ، أي (يُعَلِّمُكُمْ) بإستمرار في كلِّ ميادين الحياة لذلك جاء يُعَلِّمُكُمْ بالمضارع المستمر، فمتى يكون الأعلم وهو في تعلّم بإستمرار ؟ فالعالم يسمّى عالماً ما زال يطلب علماً فإن قال اكتفيت فقد جهل ! فإذا كان العلم واسعاً وليس له حدود ، ولا يحدد بشخص معيّن في جميع الاختصاصات العلمية الدينية والدنيوية. إذن : لا يوجد مفهوم (الأعلم) في أي علم من العلوم إلاّ ويوجد من هو أعلم منه وقد أحاط الله تعالى بكل العلوم ، ولا يوجد شخص في العالم البشري من يجمع كل العلوم وهذا يخالف قوله تعالى (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ! قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/ ٤٣ ، ولم يقل (فاسألوا الأعلم إن كنتم لا تعلمون) أي فاسألوا الأحسن فكراً وعلماً وإيماناً والأكثر تجربة وخبرة وكفاءة في اختصاصه ، وقيمة كلِّ إفريءٍ على قدر تجربته ومقدار خبرته وعلمه ووَعْيِهِ ، وهنا جاء (أَهْلَ الذِّكْرِ) بصيغة الجمع وليس المفرد ، أهل الذِّكْرِ بهذه الخصوصية على سعة معناها أي اسألوا أهل الاختصاص، أهل القرآن ، فاسألوا حملة علوم الدين الأكفاء العاملين المخلصين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/ ٣، (أَهْلَ الذِّكْرِ) بلا تحديد ولا تقييد بالأعلم وهم حملة القرآن والسنة الصحيحة الذين يعملون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته ، وهم يعملون أكثر ممّا يقولون مجرّد كلام ! في غرر الحكم : (الْعِلْمُ يَغَيِّرُ الْعَمَلَ وَبِأَلِّ ، وَالْعَمَلُ يَغَيِّرُ الْعِلْمَ ضَلَالٌ). ٤- تشير الآية إلى جواز التوصل إلى الأهداف الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف نصاً قرآنياً وشرعياً ثابتاً واضحاً.

٧٧-٧٩ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلِ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَكَرِهَ يَدَهَا هُمْ قَالَ أْتُمُ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ، قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

إن سرق الصاع فليس ببعيد منه فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف (ع) فهما يتوارثان السرقة من ناحية أقمهما ! (فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَوَمَ يُبْدِيهَا هُمْ) فَأَسْرَهَا : فكتمها ، أخفى يوسف (ع) هذه التهمة السيئة في نفسه ولم يظهرها لإخوته تطفأً معهم وهذه آداب الله لأنبيائه (قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) أنتم شر منزلة ممّن تتهمونه بالسرقة لما في أقوالكم من التناقض وفي نفوسكم من غريزة الحسد الظاهرة ، حيث سرقتم أحاكم من أبيكم وتفترون على البريء ، هذا الكلام كان يحدث به نفسه (وَمَ يُبْدِيهَا هُمْ) (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) أعلم بما تتقولون وتفترون، والمؤمن الحق لا يزعجه الكذب عليه ما دام على ثقة من حقه وعدله وعلم الله تعالى به. ٧٨- (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا) استعطاف واسترحام يا أيها السيّد المبجل الكريم إنّ أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه (فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ) خذ بدله واحداً ممّا فلسنا عند أبيه بمنزلته من

القرب والحب والجذب (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أتم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان.

٧٩- (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ) قال يوسف (ع) : نعوذ بالله ونلتجئ إليه من أن نأخذ أحداً بجرم غيره كقولهِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الزمر/٧ ، فنأخذ البرئ بذنب المسيء (إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ) إذا أخذنا غيره نكون من الظالمين. فائدة : ١- وفي الآية دلالة : أخذ البريء بالجرم ظلم في غرر الحكم : (ظَلُمَ الْمُسْتَسْلِمُ أَعْظَمَ الْجُرْمِ) ، ومن فعله كان ظالماً ومن ظلم تنغصت أيامه وكره عيشه واضطربت نفسه وساءت حياته. ٢- قال تعالى عن يوسف (ع) : (إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ) ولم يقل (إِلَّا مَنْ سَرَقَ مِنَّا مَتَاعَنَا) لذلك كان يوسف دقيقاً في عبارته حتى لا يقع في خطأ أو كذب.

٨٠ - ٨٢ ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَإِنَّا لَكُنَّا فِيهَا وَانَا لَصَادِقُونَ﴾

فلما يسسوا من إجابة طلبهم ياساً تاماً وعرفوا أنّ لا جدوى من الرجاء (خَلَصُوا نَجِيًّا) انفردوا متناجين يسرُّ بعضهم إلى بعض ، أي اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) قال أكبرهم سناً أو عقلاً أو أحسنهم رأياً ليس قد أعطيتهم أباكم عهداً وثيقاً برِّدِ أخيكم ؟ (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) (وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) ومن قبل تفريطكم وتقصيركم في حق يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟ (فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي) فَلَنْ أَبْرَحَ : فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها (أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي) يحكم لي بخلاص أخي ونجاته من هذه المصيبة من طريق لا أحاسبه، أو يموت أو غير ذلك! (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وهو سبحانه أحكم الحاكمين فلا يحكم إلا بالحق والعدل.

٨١- (ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) أخبروا آبائكم بحقيقة ما جرى (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا) ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا صاع الملك في رحله (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق. ٨٢- (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث فكلّهم سمع حديث السرقة (وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) واسأل أيضاً أهل القافلة التي جئنا معهم وهم قوم كنعان قالوا هذا لأبيهم (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فيما أخبرناك من سرقة واسترقاقه لذلك.

٨٦ - ٨٣ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ، قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ، قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

سَوَّلَتْ : زَيَّنَتْ والتسويل تزيين النفس ما ليس بحسن كقوله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ .

المعنى: قال ليس الأمر كما تقولون بل زَيَّنَتْ وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً خبيثاً فنفذتموه، اتهمهم بالتآمر على بنيامين لما سبق منهم في أمر يوسف (ع) (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) فسأصبر صبراً جميلاً أكظم حزني فيه ، هو الصبر الذي يكون في محله المناسب ويكون كالدواء المناسب وليس فيه تحوُّر ولا جزع ولا شكوى إلى أحد من الناس و(مَنْ صَبَرَ ظَفَرَ، وَمَنْ لَجَّ صَجَرَ وَحَسِرَ) ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ يوسف/٨٦ ، وليس أمامه وسيلة إلا الصبر في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبَ) وتحمل الغصة حتى تحين الفرصة وتنكشف المشكلة وتتوضح المؤامرة ، قال (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) حين غاب عنه بنيامين ومن قبل قال حين غاب عنه يوسف (ع) ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يوسف/١٨ ، إنه شعار الصالحين ولغة المؤمنين ! (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً) عسى أن يجمع الله شملي بهم ويقرَّ عيني برويتهم جميعاً (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) العالم بحالي الحكيم في تدبيره ، وعندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج. ٨٤- (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ) أعرض يعقوب (ع) عن أولاده واعتزلهم كراهة لما سمع منهم (وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ) وقال في حرقه وحسرة يا لهفي ويا حزني على يوسف (وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ) فقد بصره وعشي من شدة البكاء فكانت غشاوة على عينيه حزناً على ولديه (فَهُوَ كَظِيمٌ) (كَظِيمٌ) بمعنى كاظم وهو المملوء غيظاً وهماً وحبسه في قلبه لا يظهره لأحد ، بل يتجرَّعه ويتجلَّد على حساب سلامة جسمه وأعصابه كقوله ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ آل عمران/١٣٤ ، وإذا ظهر حزنه للقريب العزيز فيحزن عليه ، وإذا ظهر حزنه للبعيد اللئيم فيشمت به! تجرَّع الغيظ وحبس الحزن في قلبه فهو مغموم مهموم لتلك الداهية.

٨٥- (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ) تَفْتَأُ: كلمة حانقة مستنكرة ، قَالُوا (تَاللَّهِ تَفْتَأُ) بمعنى نقسم بالله لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه منذ سنين لا تكفُّ عن ذكره (حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) حتى تكون (حَرَضاً) : يهدِّك الحزن عليه وتكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك بالهم والغم والحسرة وتموت بلا جدوى لأنَّ يوسف لن يعود. ٨٦- (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) بَثِّي : مشتق من البث وهو النشر ، والمراد بالبث هنا الهم والغم والحزن الذي يتحدث به لأهله وللإنسان المناسب ولا يقدر صاحبه على كتمانها فيبيته بلسانه ليخفف الهم عن نفسه ! لست أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكوه إلى الله ، فهو الذي تنفع الشكوى إليه ،

والشكوى لغير الله مذلةً لأنها لا تدفع ضراً ولا تجلب نفعاً والأحسن ذكر قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة/١٥٦-١٥٧ ، (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) علمني الله من حقيقته والهمني علوماً لا تعلمونها أنتم برحمته وإحسانه إليّ ومعرفتي بصدق رؤياه ، فأرجو أن يرحمني ويتلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب.

فائدة: ١- عن النبي (ص) : (مَنْ بَثَّ شَكْوَاهُ لَمْ يَصْبِرْ ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾).
 ٢- إن يعقوب لم تنزل به شدة بلاء قط إلا آتاه حسن ظنه بالله من وراء بلائه كقوله ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ محمد/٤ ، عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا لِلَّهِ نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا)! البحار/٧٨/٣٧٤ ، في نهج البلاغة حكم ٤٢٧ : (مَنْ شَكَأَ الْحَاجَّةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّهُ شَكَأَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ شَكَأَهَا إِلَى كَافِرٍ (غَيْرِ مُؤْمِنٍ) فَكَأَنَّمَا شَكَأَ اللَّهَ). ٣- لا ينبغي للإنسان أن يضطرب ويهتز عند البلايا والمحن بالجزع والضجر ، ولا أن ييأس من روح الله ورحمته. قال النبي (ص) عند موت ولده إبراهيم : (إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْشَعُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ مُحْزُونُونَ) الرازي/١٨/١٩٤.

٨٧ - ﴿يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾
 طلب يعقوب من أولاده أن يسيروا إلى مصر للحصول على الطعام وأن يتحسسوا من يوسف وأخيه بحواسكم ويتفحصوا عنهما وأن يبذلوا جهداً في التفتيش والسؤال عنهما لعلكم تظفرون بهما ، وهذا يدل أنه لا يعلم به وبأخباره فهو لا يعلم الغيب (وَلَا تَيْسَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ) ولا تقنطوا (مِنْ رُوحِ اللَّهِ) من رحمة الله وفرجه وتنفيسه (إِنَّهُ لَا يَيْسَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ) لأن المؤمن لا ييأس وأيضاً العاقل لا ييأس ، بل يحاول ويناضل وكلمة (رُوحِ اللَّهِ) بمعنى دون يأس من رحمة الله وفرجه ولكن (رُوح) أدق دلالة وأكثر شفافية ، ففيها ظل الاسترواح النفسي من الكرب الخانق ، وإن المؤمن لفي روح في ظلال إيمانه وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في مضايق الشدة ومخائق الكرب ! فإنه لا يقنط من رحمته سبحانه إلا الجاحدون المنكرون ، لقدرتهم سبحانه ، وهذا دليل أن القنوط من رحمة الله من الذنوب الكبيرة لأنه انقطاع عن الله تعالى.
 فائدة: وأيضاً العاقل أبي الضيم الطموح لا ييأس من رُوحِ اللَّهِ بل يحاول أن يقاوم ويجاهد ويصبر باستمرار ويأمل الخير ، أما الكسول الجبان الفاشل هو الذي يبرر لخطئه ويلوم نفسه وحظه ولا يعيب كسله وفشله وعيوبه ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِيَّاكَ وَخِصَلَتَيْ الصُّجْرِ وَالْكَسَلِ ، فَإِنَّكَ إِنْ ضَجَرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَقِّ ، وَإِنْ كَسَلْتَ لَمْ تُؤَدِّ حَقًّا) البحار/٧٣/١٥٩.

٨٨ - ٨٩ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ، قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿

رجعوا إلى مصر للمرة الثالثة فدخلوا على يوسف وقالوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ (مَسَّنَا) أصابنا وأهلنا الشدة والحاجة والمجاعة من الجذب والقحط (وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ) وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ (مُزْجَاةٍ) رديئة وقليلة لا قيمة لها ولكنها أقصى ما لدينا، أظهروا له غاية الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً بعكس ما كانوا طغاة بغاة عتاة قساة عندما ألقوه في البئر ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَهُمَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠، فياله من درس لمن يستصغر الضعفاء ويتحرك بكبرياء؟ (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) أتم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا (وَتَصَدِّقْ عَلَيْنَا) بالمساحة عن رداءة البضاعة وبرد أخينا إلينا (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) يثيب المحسنين أحسن الجزاء ، ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الضيق والانكسار والاسترحام أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)؟ قَالَ هَلْ تَذَكَّرُونَ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ حَالِ شَبَابِكُمْ وَطِيَشِكُمْ؟ فإنه أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبحه قاله تحريضاً لهم على الاستغفار والتوبة وشفقة عليهم ، إنه عتاب شفاف يحمل في باطنه النصيح والرحمة من غير توبيخ ومؤاخذة. فائدة :

١- عن الإمام الصادق (ع) : (كُلُّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ الْعَبْدُ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا فَهُوَ جَاهِلٌ ! حِينَ حَاطَرَ بِنَفْسِهِ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ، فَقَدْ حَكَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَ يُوسُفَ لِأَخَوْتِهِ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) فَنَسَبَهُمْ إِلَى الْجَهْلِ لِمَحَاطَرَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى) كثر الدقائق ٣٣/٥ ، وإن كانوا متعمدين ومصرين على الجريمة !. ٢- روي : (أَتَّهُمْ حِينَمَا قَدَّمُوا رِسَالَةَ أَبِيهِمْ يَعْقُوبُ (ع) إِلَيْهِ ، شَاهِدُوا فَتَحَّ الرِّسَالَةَ بِرِقَّةٍ وَاحْتِرَامٍ وَقَبَلَهَا وَوَضَعَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ وَبَدَأَ يَبْكِي وَيَتَنَحَّبُ حَتَّى بَلَغَتْ دُمُوعُهُ الْقَمِيصَ الَّذِي عَلَيْهِ ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ) مجمع البيان ٥/٥٠٦ .

٩٠ - ٩٢ ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَمَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ، قَالَ لَا تَشْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿

قال إخوته مستغربين أنت يوسف حقاً؟ (قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) الشقيق (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) بالخلاص من البلاء ، والإجماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة ومن علينا بكل خير (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَيَصْبِرْ عَلَى الْبَلَايَا وَالْحَنِّ وَيَبْقَى عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَلَا يَنْحَرِفُ (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء، جعل من صفات المحسنين الجمع بين التقوى والصبر كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦ ، وهذه دعوة مفتوحة لإخوته ولغيرهم إلى الإحسان المبني على التقوى والصبر. ٩١- (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) اعتراف بالخطيئة ، وأقسموا بالله (لَقَدْ آتَرَكَ) لقد فضلك الله علينا واختارك من بيننا بصفات نموذجية في الخلق والخلق مميزة كالنبوة

والعلم والحلم والجمال والصفح والتقوى والصبر وحسن السيرة ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/ ٨٥ ، (وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) مذنبين فيما فعلنا معك، لذلك أعزك الله وأذلنا وأكرمك وأهاننا ورفعك ووضعنا، والاعتراف بالخطأ فضيلة والإصرار على الخطأ ذليلة. ٩٢- (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) قال لهم يوسف (ع) (لَا تَثْرِيبَ) لا عتب ولا لوم ولا تأنيب ولا تعنيف عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو من مركز القوة والقدرة وموقع السلطان ، لأنه لا يعمل لنفسه بل لرعاية الإنسانية جمعاء ، وهكذا رجل الحق يكون مرناً مع الناس كقوله ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر/ ٨٨.

عن النبي (ص): (إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا رَأَاهُ، وَلَا تُرِغُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَأْنَهُ) البحار ٧٥ ص ٦٠، في نهج البلاغة حكم ١٠: (إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ) ، (يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ) دعاء لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم وفيه دلالة : أن قلب يوسف لا يحمل الحقد على أحد وخاصة الذي آذوه (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وهو الله المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة وهو أرحم بعباده من كل أحد وهو أرحم لأنفسهم من أنفسهم. فائدة : وهكذا فعل النبي (ص) يوم فتح مكة فقال للذين آذوه : (وَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) لَا عِقَابَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، إِذْهَبُوا فَاتُّمُّوا الطُّغَمَاءُ) الأمل ٧/ ٢٦٠.

٩٣ - ﴿إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

قال اذهبوا بقميصي هذا الذي بلته دموع عيني فارموه على وجه أبي يرتد بصيراً سالماً من كل مرض! ذلك ممّا علّمه الله ، والمفاجآت والمخبات تصنع فعل الخارقة ، ولاسيما حين تقع لنبي كيعقوب من نبي يوسف (ع) وهذا يكشف أن ما يجمله الباحثون أكثر ممّا يعرفونه ، وأنّ الذي ذهب يبصر يعقوب هو شدة الحزن ، وأنّ الذي أعاد إليه بصره الذهاب هو شدة الفرح. المعنى : رجعوا إلى أبيهم بالبشارة الكبرى إلى النبي يعقوب الحزين الصابر المحتسب ، رجعوا يحملون حياة وخير يوسف (ع) وسلامة بنيامين ونور عيني أبيهم ، وهي نفس المعجزة والقدرة الخارقة التي جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، هي ذات القدرة التي أعادت النور والرؤيا إلى عيني يعقوب (ع) وهكذا من كان مع الله كان الله معه (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) وجيئوني بجمع الأهل والإخوة.

٩٤ - ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ مَرْحَ يُونُسَ لَوْلَا أَنْ تُنذِرُونِ﴾

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ) ولما خرجت القافلة من مصر متجهة إلى فلسطين لرؤية أهلهم (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) قال يعقوب لأهله وبعض من بقي من أولاده ، إني لأشم (ريح) رائحة يوسف عن طريق هبوب رياح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسافة بعيدة بين مصر وفلسطين ، وإمّا أن تكون الريح هذه المشاعر والخواطر والأحاسيس التي مثلت له يوسف (ع) قريباً منه (لَوْلَا أَنْ تُنذِرُونِ) تهزءون ، الفند : الكذب والسفه وضعف الرأي ونقصان العقل من

الهرم ولاسيما قد غابت أخبار يوسف عنهم مدة طويلة. المعنى : لولا أن ترموني بضعف الرأي فلا تدعنوا لقولي ، وجواب (لولا) محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي وبخير وسوف نلتقي به قريباً.

٩٥ - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾

قال حفدته ومن عنده : والله إنك لفي خطأ وبعيد عن الصواب لأنه ما زال يرجو أن يعود يوسف ويأمل بحياته ولقائه ، إنه الضلال الذي كان عليه قديماً بقولهم في بداية القصة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف / ٨ ، لفي بعدك عن الصواب كما كنت قديماً ! وهذا عقوق وإساءة أدب مع أبيهم ! مرادهم بالضلال تجاوز الحد في حب يوسف وأنهم أحق منه بالحب والرعاية ، ولا يعنون الضلال في الدين فيصيروا كافرين.

٩٦ - ٩٨ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ، قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

فلما جاء المبشر بالخبر السار الذي حمل قميص البشارة هو نفسه الذي حمل قميص الدم الكذب في أول القصة (أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) طرح البشير القميص على وجه يعقوب (فَارْتَدَّ بَصِيرًا) عاد بصيراً وبرئت عيناه مما كان فيهما من أمراض ، وقيل عادت إليه سائر قواه ، بسبب الفرحه والسرور والدهشة من هذا الخبر المفرح المفاجيء ! (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال يعقوب لأبنائه ألم أخبركم بأبي أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف والله سيرده عليّ وهو مرفوع الرأس وتحقق الرؤيا الصادقة ؟ ٩٧- (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) فخر إخوة يوسف (ع) على يدي أبيهم يقبلونها ويطلبون الصفح الجميل عنهم ، طلب أبنائه أن يستغفر لهم الله ويعفو عنهم لما فرط منهم (إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) مخطئين فيما ارتكبناه مع يوسف وأخطأنا في حقلك وفي حقّ الله وفي حقّ أخينا وقد أذنبنا متعمدين و (الإِعْتِرَافُ بِالْحُطْأِ فَضِيلَةٌ ، وَالِإِصْرَافُ عَلَيْهِ رَذِيلَةٌ). ٩٨- (قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) وعدهم أبوهم بالاستغفار ، وأخره إلى وقت السحر ليكون أقرب إلى الإجابة ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الذاريات / ١٨ ، وعبارته (سَوْفَ اسْتَغْفِرُ) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مجروح ونفس متألّمة تجرّعت غصص المحنة (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الساطر للذنوب الرحيم بالعباد المستحق منهم للرحمة وغير المستحق. فائدة : ١- لا عجب أن يرتد بصر يعقوب بمجرد البشري ، فكثيراً ما شفى السرور والفرح من الأمراض ، وتجارب الطب شاهد على ذلك. ٢- (إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) لِلظَّالِمِ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ يَوْمٌ لِلْقُدْرَةِ وَيَوْمٌ لِلْمُهَلَّةِ وَيَوْمٌ لِلنَّدَمِ ، وَلِلْمَظْلُومِ أَيَّامٌ ثَلَاثَةٌ يَوْمٌ الْحُسْرَةِ يَظْلَمُ فِيهِ وَيَوْمٌ الْحَيْرَةِ يَتَدَبَّرُ لِنَفْسِهِ ، وَيَوْمٌ النُّصْرَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ تفسير النور / ٤ / ٢٧٥.

٩٩ - ١٠٠ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

فخرج يعقوب وآله من أرضهم وساروا إلى مصر في فرح وسرور ، وكان يوسف في استقبالهم خارج مصر ، فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلهم على يوسف (ع) (آوَى) ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما فضمَّهما إلى بيته وعائلته ، وأنزل إخوته في مكان آخر ، ماتت أم يوسف عند ولادة بنيامين ، وعليه فالمراد بأمه في الآية امرأة أبيه وقيل إنَّها خالته أخت أمه (وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ) من كلِّ مكروه ، وإتَّما قال (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) تبركاً بالله وثقة بعبائه وباعتبار ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ سبأ/٢٣-٢٤ . ١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) أجلسهما على سريرته الخاص سرير الملك والحكم (وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا) والمراد بالسجود هنا الانحناء والخضوع تعظيماً وتكريماً، سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه ، وكان السجود عندهم تحية وتكريماً وإعظماً واحتراماً وعرفاً اجتماعياً لا سجد عبادة ، لأن العبادة لا تجوز إلا لله في جميع الأديان السماوية ، عن الإمام الباقر (ع) : (لَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَجَدُوا شُكْرًا لِلَّهِ وَحَدَّةً) ، وطاعة وتحية ليوسف (ع) كما كان السجود من الملائكة لآدم (ع) إنَّه سجد احترام للأمر الإلهي الذي أراد به تكريم آدم، مجمع البيان/٥/٥١٣ .

فائدة: بقي يعقوب مع يوسف (ع) في مصر (١٧) سنة (وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ) وعندها إنَّفت يوسف (ع) إلى أبيه وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير، ممَّا يدلُّ أنَّ رؤيا الأنبياء وَحْيٌ يُوحَى (قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا) وصدقاً وكانت بشارة تكشف عن حقيقة غيبية تدل على أن الله هو الذي كان يدبر الأمر ويقدره على أسباب التي كانت مع يوسف (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) أنعم الله عليَّ بإخراجه من السجن بعد تلك الفرية، في نهج البلاغة: (لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيَّ أَحَدٌ إِلَّا إِزْدَادَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظْمًا) التفسير المبين ص ٣١٨ (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) من البادية في فلسطين لأنهم كانوا أهل رعي للإبل والغنم ، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من حياة البادية الصحراوية إلى حياة الرخاء الحضرية والمدنية وإجتمع شمل الأسرة بمصر (مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) مِنْ بَعْدِ أَنْ (نَزَعَ) أفسد الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي بوساوسه اللَّعِينة الخادعة (عن طريق الحسد) ، وذكر هذا القدر من أمر إخوته بدون تفصيل لأن النعمة إذا جاءت بعد بلاء وشدة كانت أحسن وقعاً على مشاعر النفس (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) إن ربي لطيف بعباده كلهم يحقق تدييره لهم وينفذ إرادته بهم بلطف ورحمة ودقة خفية لا يحسَّها الناس بأيديهم ولكن يشعرون بها بدقة تفكيرهم وبتشغيل

عقلهم وحواسهم بعيداً عن الغفلة والجهل كقوله ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ الشورى / ١٩ ، (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (الْعَلِيمُ) بخلقه وبوجوه المصالح (الْحَكِيمُ) في تدبيره وتقديره والذي يفعل كل شيء على أساس الإحكام والمصلحة. فائدة : روي : (أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِيُوسُفَ (ع) : يَا بُنَيَّ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعَ بِكَ إِخْوَتُكَ ؟ قَالَ يَا أَبَتُ دَعْنِي وَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ صَنِيعِ إِخْوَتِي بِي وَسَلْ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ بِي) مجمع البيان / ٥ / ٢٦٥ . ٢ - (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) يدبّر أمور من يريد تدبيرها ويجعل من المكروه محبوباً ، ومن المحبوب مكروهاً ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران / ١٤٠ ، وكقوله ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة / ٢١٦ ، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الإنشراح / ٥ - ٦

١٠١ - ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَكَرِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

بعد أن تحدّث يوسف (ع) عن نعم الله عليه توجه إليه تعالى شاكراً حامداً ما بسط له من الملك وما خصّه به من النبوة وفضّله بصفات نموذجية عالية المضامين قائلاً : رَبِّ قَدْ أَعْطَيْتَنِي الْعِزَّ وَالْجَاهَ وَالسُّلْطَانَ وَذَلِكَ مِنْ نِعْمِ الدُّنْيَا (وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) تفسير الرؤيا الصحيحة وذلك من نعمة العلم (فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يا مبدع السموات والأرض وخالقهما وموجدهما من العدم على غير مثال سابق ، وهو الذي خلقك وخلق كل الكائنات (أَنْتَ وَكِرِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) متولي أموري وقاضي حوائجي في الدارين وأنا تحت ولايتك التامة لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً إلا بك (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) اقبضني إليك (مُسْلِمًا) مستسلاً لأمر الله موجهاً وجهي لله مستقيماً على منهج الله وثابتاً على الإسلام إلى أن أموت ، وهذا مفهوم الإسلام العام الذي جاءت به جميع الرسل ، والإسلام الخاص الخالص والأصيل والكامل هو إسلام دين مُحمَّد (ص) ، وإبتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه فيحيا مسلماً ويعمل مسلماً حتى يموت مسلماً ويُحشر مسلماً ويحاسب مسلماً ، وهذا يستدعي أن يكون في كل وقت مسلماً ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران / ١٩ ، (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) وأن يلحقه بصالح من مضى من آباءه ويجعله من صالح من بقي ويكون قدوة وأسوة حسنة للصالحين في زمانه وفي كل زمان ومكان ، لم يسأل ما هو زائل وإنما طلب ما هو أبقي وأغنى وأقنى طلب حسن الخاتمة (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) وهكذا قال نوح (ع) : ﴿وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس / ٧٢ ، وقالها سليمان (ع) : ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ النمل / ٣١ ، وقالها إبراهيم (ع) : ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ الحج / ٧٨ .

١٠٢ - ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

ذلك الذي قصصناه عليك يا محمد من قصة يوسف (ع) بدقائقها من الأخبار المغيية عنك لم تكن تعلمها وإنما نعلمك نحن بها بوحى يوحى على أبلغ وجه ليظهر صدقك في دعوة الإسلام (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف (إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) حين تأمروا على أخيهم وهم يحتالون على أبيهم ليرسله معهم حتى يلقوا أخوهم يوسف في البئر ، لتخبر عنه بدورك ويكون إخبارك هذا حجة الله ولك على من جحد برسالتك السهلة السمحة.

١٠٣ - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وهدايتهم وبالغت في إرشادهم ونصيحتهم بمؤمنين بمستقيمين على منهج الله ، بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر والضلال ، وهذا تسلية للنبي (ص)، وهكذا الناس يغلب أهل الشر على أهل الخير ويطغى سفاؤهم على العقلاء فيهم ، وإنه مهما حرص النبي (ص) على هداية الناس فإن أكثرهم يتبعون الهوى والمصالح الشخصية وينعقون مع كل ناعق ، فإن حرص الداعي لا يغني شيئاً إذا كان المدعو لا يجيب كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء/ ٨ ، وكقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء/ ٨٩ ، وقوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص/ ٥٦ ، عن النبي (ص) : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كثر العمال خبر ٥٤٦ ، كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/ ١٢٨ ، على الرغم من خُلُقك العظيم وإخلاصك ومعجزاتك ورحمتك وأنت في غنى عنهم وعن إيمانهم لا يؤمنون، فإن الإنسان إذا إنقاد لهواه وشهواته ولذاته وأغلق عقله ولوث فطرته فإنه يفضل الباطل على الحق، والغواية على الهداية، والذبي لا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، في هُج البلاغة ٢١١: (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ، تَحْتَ هَوَىِّ أَمِيرٍ!) فائدة: ١ - لقد اثبتت رسالة النبي محمد (ص) سموها وكمالها وجمالها فهي الشَّرِيعَةُ السَّهْلَةُ السَّمْحَةُ ومع هذا بقيت الكثرة الكاثرة على جحودها ، والسبب أن الإنسان ينقاد إلى مطالب شهواته ولذاته ويطنه وفرجه لا ينقاد إلى عقله وفطرته وعلمه وفكره ، والمرء حيث يضع نفسه كقوله ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الطور/ ٢١ ، إنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين في الآفاق وفي أنفسهم فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه؟ ٢ - سؤال : فما فائدة التكليف والأمر بما يعلم عدم وقوعه ؟ الجواب : فائدة التكليف تمييز وفرز من له استعداد ذلك لتظهر السعادة والشقاوة وأهلها كقوله

﴿حَتَّى يُمَيِّزَ الْحَبِيبَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران/ ١٧٩ ، سؤال : لم كان الكفرة أكثر مع أنّ الله تعالى خلق الخلق للعبادة ؟ هذا يكشف أنّ الناس مختارون فيتبعون أهواءهم أكثر من عقولهم ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الفرقان/ ٤٣ . ٣- (وَلَوْ حَرَصْتَ) جاء الوصف بجرص النبي (ص) على إيمان الناس بشوق ولهفة لأنّه رحمة للعالمين ، فالنبي (ص) حقق دوره كهادٍ ولكن بقي دور المهتدي وإستعداده الذاتي.

في نهج البلاغة خطبة ٢٠١: (لَا تَسْتَوْحِشُوا طَرِيقَ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ) ، على المؤمن الواعي ألا يصاب بالإحباط من الواقع الجاهلي من حوله وعدم إمكانية التغيير والهداية نحو منهج الله ، ولكن يبقى فشل التجربة لا يعني فشل فكرة التغيير وضرورة هداية الناس.

١٠٤ - ١٠٥ ﴿وَمَا سَأَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وما تطلب منهم على نصحتهم أجراً حتى يتقل عليهم ، وتصدّهم الغرامة المالية عن قبول دعوتك والإيمان بك كقوله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس/ ٢١ ، فحالك حال من سبقك من الرسل فهم لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ ، وفيه إشارة : إلى أنّ الدّعوة والإرشاد وسائر أفعال الخير لا يُطلب فيها المنفعة من الناس ، فإنّها لله تعالى وما كان لله لا يجوز أن يشوبه شيء من أعراض الدنيا ، فكما تعلّمت مجاناً أيضاً علّم الناس مجاناً. (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ما هذا القرآن إلاّ عظة وتذكير للناس أجمعين في العالم ، يذكرون به ما أودع الله في فطرتهم من العلم من بعد ما أنستهم الغفلة والإعراض وحبّ الدّنيا ، إذأ هذا القرآن الكريم يوجه العقول إلى آيات الله وهي مبدولة للعالمين لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة فائدة عامة مفتوحة للجميع ، فالقرآن منهج عالمي للإنسان، كل إنسان على هذه الأرض ، فعلياً أن نفهمه عالمياً وتعامل معه على أنه دستور إنساني عالمي ، ونُصدّره للعالم أجمع بطريقة علمية عالمية مؤثرة. ١٠٥- (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (وَكَأَيِّنْ) أي وكم من الآيات الكثيرة والعلامات الدقيقة الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ووحدانيته ، الكائنة في الأنفس وفي الآفاق وفي السماوات والأرض وسائر ما فيهما من عجائب الخلق (يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) يمرّون عليها في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي جميع الأحوال وهم لا يتفكرون ولا يعتبرون ، في غرر الحكم: (وَمَنْ جَهِلَ قَلَّ اعْتِبَارُهُ) وَمَنْ قَلَّ اعْتِبَارُهُ قَلَّ فِكْرُهُ، وَمَنْ قَلَّ فِكْرُهُ قَلَّ اسْتِنْبَاطُهُ ، وَمَنْ قَلَّ اسْتِنْبَاطُهُ صَغُرَ عَقْلُهُ ، وَمَنْ صَغُرَ عَقْلُهُ كَانَ تَبَعٌ لِعَبِيرِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم/ ٣٤ .

فائدة : الذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ! يمتعون عقولهم بلدّة العلم ولكن يجرمون أرواحهم من لدّة الدّكر لله ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون

فائدته نافعة في الآخرة إلا بذكر الله ، والذكر لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الذكر والفكر والعلم ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/ ٢٨ ، في غرر الحكم: (الدِّكْرُ لَدَّةُ الْمُحِبِّينَ).

١٠٦ - ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُ النَّاسِ بِاللَّهِ حَقًّا صَافِيًّا وَحَقِيقَةً تَوْحِيدِيَّةً خَالِصَةً إِلَّا وَأَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ ، فَهَمَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ كَمَعْتَقِدِ نَظَرِي وَلَكِنْ يَشْرِكُونَ بِهِ كَمَمَارَسَةِ عَمَلِيَّةٍ وَتَطْبِيقِ ، فَهَمَّ مُشْرِكُونَ فِي فَهْمِهِمْ لِلْأَحْدَاثِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْحَيَاةِ ، مُشْرِكُونَ سَبَبًا مِنَ الْأَسْبَابِ مَعَ قُدْرَةِ اللَّهِ ، مُشْرِكُونَ بِقُوَّةِ أَرْضِيَّةٍ غَيْرِ قُوَّةِ اللَّهِ مِنْ حَاكِمِ طَاغِي ، مُشْرِكُونَ فِي رَجَاءٍ يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ ، مُشْرِكُونَ فِي تَضْحِيحَةٍ يَشُوْهُهَا رِيَاءٌ ، مُشْرِكُونَ فِي جِهَادٍ لَيْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُشْرِكُونَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَتْ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ ، مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَرْكًَا خَفِيًّا بِالرِّيَاءِ أَوْ الْمَعَاصِي أَوْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَدْ يَتَصَوَّرُ أَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَهَمَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلَصِينَ وَلَكِنْ غَالِبًا مَا تَوْجِدُ جَذورَ الشَّرْكِ الْخَفِيِّ فِي أَفْكَارِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَنَفْسِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ ، فَالِإِيْمَانِ الْخَالِصِ يَحْتَاجُ إِلَى يَقِظَةٍ دَائِمَةٍ وَوَعْيٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْفِي عَنِ الْقَلْبِ كُلِّ وَسُوسَةِ شَيْطَانِيَّةٍ وَكُلِّ دَافِعٍ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وَتَكُونُ كُلُّ حَرَكَاتِهِ خَالِصَةً لِلَّهِ وَمِنْ اللَّهِ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَالِصَةً لَهُ دُونَ سِوَاهُ ، وَلَا تَبْقَى فِي الْحَيَاةِ عِبُودِيَّةٌ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الَّذِي لَا رَادَ لِمَا يَرِيدُ ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ : (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعِنَقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أُصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِّ ! كَقَوْلِهِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر/ ٦٥ ، وَعَنِ النَّبِيِّ (ص) : (إِيَّاكَ أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ طَرْفَةً عَيْنٍ وَإِنْ نُشِرْتَ بِالْمِنْشَارِ أَوْ قُطِّعَتْ أَوْ صُلِبَتْ أَوْ أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ) البحار/ ٧٧/ ١٠٧ ، وَعَنْهُ (ص) : (يَقُولُ اللَّهُ أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ) ! الْمَطْلُوبُ تَوْحِيدَ اللَّهِ الصَّادِقِ كَقَوْلِهِ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/ ٣ ، كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/ ١٣ ، وَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء/ ١١٦ .

عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (الشُّرْكَ فِينَكُمْ أَحْقَى مِنْ دَيْبِ النَّهْلِ) وَبِتَعْبِيرِ آخَرَ : مَنْ جَحَدَ بِاللَّهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ ، وَأَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ هُمُ وَالْجَاهِدُونَ بِمَنْزِلَةِ سِوَاهُ ! لِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيَشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ كَقَوْلِهِ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر/ ٣ ، فَهَمَّ لَا يُوحِدُونَ اللَّهَ حَقَّ التَّوْحِيدِ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ أَنْ لَا تَتَوَهَّمُ وَلَا تَجْعَلَ لِلَّهِ جِسْمًا وَلَا صُورَةً وَلَمْ يَشْبَهِ الْخَلْقَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/ ١١ ، وَالشُّرْكَ أَعْظَمُ مِنَ الْإِحْدَادِ ، وَالشُّرْكَ أَشْكَالٌ وَأَلْوَانٌ مُتَنَوِّعَةٌ : مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْحَجَرِيَّةِ وَالْأَصْنَامِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَوَى وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ ، وَمِنْ الرِّيَاءِ وَعِبَادَةِ الْمَالِ وَالنِّسَاءِ وَجِهَابِ وَحَبِّ الظُّهُورِ وَعِبَادَةِ الذَّاتِ وَحَبِّ السَّمْعَةِ وَعِبَادَةِ الشَّهَوَاتِ الْحَرَمَةِ ، وَشُرْكَ

النعم وعدم شكر المنعم، فهذا شرك لم يصل إلى الكفر، عن الإمام الباقر (ع) في الآية: (شَرِكْ طَاعَةً وَلَيْسَ شَرِكُ عِبَادَةٍ، وَالْمَعَاصِي الَّتِي يَزْتَكِبُونَ فَهِيَ شَرِكُ طَاعَةٍ، أَطَاعُوا فِيهَا الشَّيْطَانَ فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ الطَّاعَةَ لِعَبِيرِهِ، وَلَيْسَ بِإِشْرَاكِ عِبَادَةِ أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ)، عن الإمام الصادق (ع) في الآية: (هُوَ الرَّجُلُ يَقُولُ لَوْلَا فَلَانٌ لَهْلَكْتُ وَلَوْلَا فَلَانٌ لَأَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَوْلَا فَلَانٌ لَصَاعَ عِيَالِي، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي مُلْكِهِ يَزُرُّهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا قُلْ: لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِفُلَانٍ لَهْلَكْتُ) كثر الدقائق ٦٠/٥، عن النبي (ص): (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا يُدْهَبُ عَنْكَ صَغِيرٌ ذَلِكَ وَكَبِيرُهُ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ) كثر العمال خير ٨٨٤٩، عن الإمام الصادق (ع): (يُطِيعُ الشَّيْطَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ فَيُشْرِكُ) كقوله ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الفرقان/٤٣. فائدة: ١- (الشرك أشد من الكفر) لأن الشرك كفر مبطن بالإيمان، وهو باسم الله ولكنه مع الهوى والشيطان، والشرك طاعة ظاهرية لله لا قيمة لها لأن قاعدتها الكفر المبطن. ٢- عن الإمام الصادق (ع): ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/١٨٠، يلحدون جهلاً بغير علم، فالذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم، ويكفر وهو يظن أنه يحسن ثم قال (ع): (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيصعقونها غير مواضعها، كقوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف/١١٠).

١٠٧ - ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

أفامن هؤلاء المكذبون (أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ) كارثة وعقوبة من عذاب الله تغشاهم وتشملهم وتحيط بهم جميعاً أو أفراداً ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩، (أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أَوْ تَأْتِيَهُمُ (السَّاعَةُ) القيامة بأهوالها (بَغْتَةً) فجأة من غير مقدمات من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون بآياتها غير مستعدين لها؟ والاستفهام إنكاري عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٢٢/٣، وعنه (ص): (يُبْعَثُ الْمَرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خير ٤٢٧٢٢. وعنه (ص): (مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) كثر العمال

خير ٤٢٧٢١

١٠٨ - ١٠٩ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكذَامِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

إنه المنهج الإسلامي الحركي الشامل القائم المؤثر الذي يربط الدين بالسياسة والسياسة بالدين، في غرر الحكم: (مَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يوسف/٤٠، الدين

المستقيم ذو القيمة العليا والقيمومة المثلى على جميع الكتب السماوية السابقة وجميع النظريات الوضعية اللاحقة، دين إلهي عالي المضامين ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه وأعرض عنه قاده إلى النار ! به الهداية والدراية والاستقامة والسلامة والكرامة وبغيره الجهل والتجاهل والضلال المبين. فمن اتبع القرآن والسنة الصحيحة فقد عرف الحق وكان على هدىً وبصيرةً من ربه وأحاديث السنة الشريفة تدعم القرآن ولا تعارضه ، وكل حديث يروى عن النبي وآله وهو يعارض القرآن الكريم فإضربوا به عرض الحائط ، لأنهم (ع) حملة القرآن والأمناء عليه ، وما خالف القرآن فهو زخرف القول غروراً وغير صحيح ، وهم لم يقولوا شيئاً يخالف القرآن ، وما خالف القرآن ليس من سنة الرسول (ص) فهو من خطوات الشيطان ، عن النبي (ص): (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالتَّلَاوَةِ وَلَا العِلْمُ بِالتَّرْوِيَةِ ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمَ بِالدِّرَايَةِ) كنز العمال خبر ٢٤٦٢ ، عن الإمام الحسن (ع) : (وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُهُ) إرشادالقلوب للدليمي ص ٧٩.

المعنى العام: قل يا محمد لكل من يهّمه الأمر ، هذه طريقي ومنهاجي وأساليب دعوتي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة لأني على هدى ونور من ربي ، أعرف طريقي جيداً وأعمل بواجبي على بصيرة وعلم ودراية كقوله ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ الأنعام/ ٧١ ، (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ) البصيرة : الحجة الواضحة واليقين والمنطق الواعي ، أدعوا إلى عبادة الله وطاعته والاستقامة على منهجه بصدق وإخلاص عن الإمام علي (ع): (بِالإِخْلَاصِ يَكُونُ الخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠ ، وأدعوا إلى الله تعالى بعلم وبيان وبرهان واضح لا شبهة فيه لا على وجه الجهل والتقليد والإتباع الأعمى ، أنا ومن اتبعني من المؤمنين نمشي على تلك السنة الواضحة ليس فيها إبهام في الهدف والطريقة (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) وأنزه الله سبحانه عن الشركاء والأنداد سواء أشركوا في ذاته أو صفاته أو أفعاله ، فأنا مؤمن موحد لله أعبده وحده ولا أشرك به شيئاً (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) لا في العقيدة ولا في الفكر ولا في العمل ولا في الدعاء ولا شركاً جلياً ولا شركاً خفياً ، عن الإمام الصادق (ع): (لَا يَكُونُ العَبْدُ مُشْرِكاً حَتَّى يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) البحار ٩٦/٧٢ ، هذه طريقي فمن شاء فليتابع ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم فإن في الاستقامة السلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة كقوله ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ النحل/ ١٢٥ ، هذا هو الإسلام في جوهره في مبناه ومعناه ومغزاه ودلالاته الواسعة. ١٠٩- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ) وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً أوفياءً أنبياءً لا نساءً ولا ملائكة ﴿يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الفرقان/ ٢٠ ، نوحى إليهم آياتنا للدعوة إلى طاعة الله (مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ، وإنما كان الأنبياء (ع) من أهل المدن لأنهم أعلم وأفهم وأحلم وأكثر حضارة وأرق حاشية وذو طبيعة لينة ومتفهمة للدعوة والهداية ، وأهل البادية (البدو) فيهم الجهل والجفاء والقسوة

والغلظة عن النبي (ص): (مَنْ بَدَأَ جَفَاءً ، وَإِتَّبَعَ الصَّيِّدَ غَفَلًا ، وَمَنْ لَزِمَ السُّلْطَانَ افْتَتَنَ) الترغيب والترهيب ١٩٤/٣ ، وقوله (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) قلنا لم يكن يعقوب (ع) وبنوه من أهل البادية ولا من أهل القرى بل خرجوا إليها لرعي مواشهم. (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أفلم يسر هؤلاء المكذوبون ويسافروا في أنحاء الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر وعبرة ما حلّ بالأمة السابقين ومصارع المكذبين فيعتبروا بذلك؟ والذين لا يعتبرون بالماضين صاروا عبرة للباقيين ، والاستفهام للتوبيخ ، وسنة إهلاك الجبارين جارية في السابقين واللاحقين من الطاغين لا تتخلف ولكن بأشكال مختلفة (يُهْلِكُ مُلُوكًا وَيَسْتَحْلِفُ آخَرِينَ) (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ من جميع الوجوه للمؤمنين المتقين لأنها دار الاستقرار خير من الدار الدنيا التي هي مزرعة الآخرة وهي ليست دار قرار وإنما دار اختبار (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أفلا تتفكرون فتؤمنون بهذه الحقيقة عالية المضامين؟! فائدة : ١- عن النبي (ص): (الْحَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، في نهج البلاغة كتاب ٣١ (من الفساد إضاعة الرّأى، ومفسدة المعاد) ٢- (عَلَى بَصِيرَةٍ) الدّعوة إلى الله هي الدّعوة إلى الاستقامة في القول والعمل ، ودعوة للعلم والعقل والحق والعدل والخير في حياة كلّ النّاس أفراداً وجماعات ، ديننا دين حجة وبرهان وأمن وأمان واطمئنان ، الأمن العام للمجتمع مع اطمئنان القلوب وانسراح النفوس.

١١٠ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنْ نَّبِيِّ مِّنْ نَّسَائِهِمْ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ﴾

حَتَّىٰ إِذَا بَدَأَ الْيَأْسُ يَرَاوِدُ قُلُوبَ الرُّسُلِ مِنْ إِيمَانٍ قَوْمَهُمْ (وَوَظَّنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا) أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم مع طول فترة التبليغ مع فنون أساليب الدعوة وألم الانتظار للفرج والنصر والظفر بعد الشدة كقوله ﴿وَوَزَّلْنَا لَهُمْ الْقُرْآنَ فَذَكَرَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ﴾ البقرة/ ٢١٤ ، (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) أتاهم النصر عند اشتداد الكرب وزيادة الشدة وبعد أن طال الانتظار وضاق الحال ، جاءهم فجأة من غير احتساب ، ولا يبقى أمل إلا الله وعونه ، في هذه اللحظة العصبية يجيء النصر حاسماً فاصلاً وإن نصر الله آت لا ريب فيه ويأتي في وقته المناسب كقوله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ آل عمران/ ١٢٦ ، وقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/ ٢١ ، وقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر/ ٥١ ، (فَنَجِّي مَن نَّشَاءُ) فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) ولا يُرَدُّ عذابنا وبطشنا عن القوم المجرمين ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ الرعد/ ١١ . فائدة : ١- في نهج البلاغة حكم ٣٥١: (عند تنأهي الشدة تكون الفرجة ، وعند تضائق حلق البلاء يكون الرخاء) ، تلك سنة الله في دعوة الأنبياء لا بد من المعاناة حتى لا تبقى بقية جهد ثم يجيء النصر من عند الله بعد اليأس من كلّ أسبابه الظاهرة التي يتعلّق بها الناس ! وقوله (اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ، وَظَنُّوا) كناية عن ألم الانتظار وطول مدته وتحمل معاناته . ٢- تلك معاناة التصرّكي لا يكون التصرّ رخيصاً

فتكون الدعوات هزيلة ، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعي بدعوة لا تكلفه شيئاً ، ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً ، فإنما هي مناهج ينبغي صيانتها من الأعداء. ٣- (حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ) إثمهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به من النصر ، ولكن هناك أحوال بالغة الشدة تأخذ على الرسول في تقديراته وتقلب أوضاعه وتزلزل نفسه ، ثم تبقى فترة عصبية معينة يتلى فيها الرسل والمؤمنون بهم ثم تزول ، وعندها تهب رياح النصر ويحيى إمداد السماء هذه سنة الله في جميع الأمم، يرسل إليهم الرسل بالبينات حتى إذا عاندوا رسل ربهم وامتدت مدة كيدهم واشتد البلاء على الرسل وتراخى علامات النصر ، جاءهم نصر الله فجأة.

١١١ - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

لقد كان في قصة يوسف وإخوته وقصص الرسل كافة مع أقوامهم لمواعظ وعبر كثيرة وتذكرة (لأولي الأبواب) لأولي العقول المفكرة والمميزة والمتدبرة لهذه المواعظ والتي منها أن العاقبة للذين اتقوا وصبروا ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/ ١٨٦ ، ومن يعس من أمر وعجز عن فعل شيء وإعتمد على الله وحده وأخذ وعمل بالممكن تكون عاقبته إلى خير ، فيكون الله وليه ولو بعد حين ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الأنفال/ ٤٠ ، و (الَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ، كَانَ عِبْرَةً لِّلْبَاقِيْنَ) في نهج البلاغة خطبة ٨٦: (وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِعَيْرِهِ) (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) كل ما جاء في القرآن هو حقٌ وصدق ، ما كان هذا القرآن أخباراً تروى كذباً أو أحاديث تفتعل ويتقوله بشر لكنه كلام رب العالمين فقد تجلّى الله لعباده بكتابه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء/ ٨٧ ، (وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل كالتوراة والإنجيل (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) تبيان كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمر الله ونهيه وبيان دينهم القيم الضروري في حياتهم الذي عليه بناء سعادتهم في الدنيا والآخرة ، في كل شؤون الحياة مهما تطورت الحياة وتقدمت الحضارات (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وهداية من الضلالة إلى السعادة والفلاح ، ورحمة واقية من العذاب لقوم يصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه ، وَمَنْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ وَحَقْدٍ وَحَسَدٍ وَلَوْمْ كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمْنُ﴾ الأنعام/ ٨٢.

فائدة: ١- التربية بالقصة في القرآن أحد وسائل التربية والتعليم بل من أهم الوسائل ٢- إن دائرة السوء تدور على الطغاة المفسدين أصحاب المكر والخديعة وإن طال بهم الزمان (يُدْبِرُ الْمُدْبِرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ)! ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر/ ٤٣ ، ٣- عن الإمام الجواد (ع) : (الْبَقَّةُ بِاللَّهِ تَعَالَى ثَمَّنْ لِكُلِّ عَالٍ ، وَسَلَّمَ إِلَى كُلِّ عَالٍ) البحار ٣٦٤/٧٨ ، في غرر الحكم: (دَرُوءَةُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا دَرُوءُ التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ). ٤- فالقرآن بخصائصه الموضوعية وأساليبه التعبيرية النموذجية التي جاء بها وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية وفي تصوير طبيعة البشر

والحياة والكون لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله. ٥- (وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الهدى والرحمة يقعان بعد الإيمان وهما أمران ذاتيان ثابتان في هذا الكتاب الكريم للذين يؤمنون به ، وأما تختلف حظوظ الناس بحسب استعدادهم لتقبل الهدى حتى يكونوا مهيين للرحمة ، فهناك علاقة متبادلة ومتعادلة بين الهدى والرحمة والإيمان واستعداد الإنسان ومقدار إقباله عليها (وَهْدَىٰ) لمن تدبره ومرشد إلى الحق ويشجع على عمل الخير والصالح (وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) رحمة عامة للمؤمنين خاصة كقوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾ ق/٤٥ ٦- (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) في القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين ، وقد أسهب وفصل في موضوع الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز.

وفي الختام نقول : ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الإنسان/١٩ .

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠. تم بعون الله تعالى (وَعِيِ الْقُرْآنِ الْمَيْسَرِ) لسورة يوسف ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ١٧/ربيع الأول/١٤٣٧ هـ الموافق ٢٠١٥/٣/٣ م مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ حَمِيدٌ الدُّعَاءُ.

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

سورة مكية ، سميت بسورة الرعد لحديثها عن تسبيح الرعد بحمده ، تناولت عظمة القرآن الكريم والتوحيد وخلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الفاكهة والنباتات بأنواعها وهي تسقى بماء واحد ، وذكرت المعاد والعدل الإلهي ومسؤولية الناس والوفاء بالعهد وصلة الرحم وتجنب الانتقام والحث على الصبر، والمكذبون لهم عاقبة الخسران والحرمان. ملاحظة: قال الزمخشري (مختلف في نزولها منهم من قال مكية ومنهم من قال مدنية ، والراجح أنها مكية حسب نظمها ومضامينها التي عليها الطابع المكي) ، الجزء الثالث عشر ، عدد آياتها (٤٣) آية رقمها (١٣) فضلها: عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ سُورَةِ الرَّعْدِ لَمْ يُصِبْهُ اللَّهُ بِصَاعِقَةٍ أَبَدًا ، وَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا شُفِعَ فِي مَنْ يَعْرِفُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَإِخْوَانِهِ) مجمع البيان ٦ص٣. ملاحظة عامة : راجع في فضل سورة البقرة. كل فضل من فضائل سور القرآن كلها يعتمد على مقدار الصدق والإخلاص في العمل من الإنسان ، ومقدار الرضا من الله سبحانه تجاه الإنسان ، وليس بالملئ والأمانى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الْمُرْتَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(المُر) إشارة إلى إعجاز القرآن ، وهي من المتشابهات والمبهمات ، حيث القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف العربية التي يستخدمها البشر ، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في البلاغة والفصاحة والمحتويات المتنوعة عالية المضامين ، دلالة على أنه من وحي الله وهو كتاب الله تعالى وهو حق ومن الحق يدعو إلى الحق. وتقرأ (ألف لآم ميم راء) ، وتقدم في أول سورة البقرة توضيح الحروف المقطعة (تَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ) هذه آيات القرآن المعجز الذي فاق كل كتاب ، فإن الله تجلّى لعباده بكتابه (تَلِكُ) إشارة للتعظيم ليحصل التأمل والانفتاح على القرآن (وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) والذي أوحى إليك من ربك يا مُجَدِّد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلبس بالباطل ، والقرآن حق ولا حق وراءه لأنه كتاب الله المجيد ولا يحتمل الشك والتردد فاعتصم به واعمل بما فيه (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) كدّب به أكثر الناس مع وضوحه وإعجازه ولا يؤمنون بحقائقه لتركهم تدبيره، عن الإمام علي (ع): (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَصُرُّهُ الشُّكُّ، وَالَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَصُرُّهُ الضَّلَالَةُ..) شرح النهج ٩١/٢ ، في نهج البلاغة: (الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم) كتاب ٤٧.

٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمُورَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَلْبَثُ مِنْكُمْ بِمَقْعَدٍ تَرْجَوْنَ﴾

الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ مرتفعة البناء قائمة بقدرته (بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) لا تستند على شيء حين تشاهدونها، وتنظرونها بغير عمد ودعائم وليس لها أعمدة محسوسة وملموسة ومرئية ، وذلك دليل على وجود الخالق المبدع الحكيم كقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨ ، في مستدرک نهج البلاغة : (رَفَعَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَبَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى الْهَوَاءِ بِغَيْرِ أَرْكَانٍ) التفسير المبين ص ٣٢٠ نحن أمام ارتفاع في الفضاء المنظور يقابله ارتفاع في الغيب المجهول ، وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير وحسن التدبير (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) علا واستولى فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ، والعرش كناية عن الملك العظيم والسيطرة على نظام هذا الكون يدبره بعلمه وحكمته (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) (وَسَخَّرَ) أي ودلّل الشمس والقمر لمصالح العباد ، وسخّرها بانتظام كما ترى الأعين وخلقها لغاية معينة كما تدرك العقول ، فلا الشمس تأتي أن تمدّ الأرض بنورها ولا القمر يخالف غايته المسخر لها ، فحركة كل كائن في هذا الكون جزء من نظام محكم يتكامل مع غيره ، فالقمر يجري حول الأرض في شهر والشمس تقطع فلکها في سنة ، والقمر والأرض والكواكب تدور حول الشمس وكل في فلك يسبحون ويسبحون ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

(لَأَجْلِ مُسَمًّى) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) وبالتدبير والإحكام والهيمنة أي ينظمه بلا اختلال ويصرف بحكمته أمور الخلق والكائنات وتدبير أمر العالم ، لا يشغله تدبير شيء عن تدبير آخر ولا شأن عن شأن ، نظم كل شيء ليصل إلى الكمال الخاص به ضمن مقادير خاصة كقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/٢ ، ومنتهى ذلك يرجع إلى عظمة الله جلّ في علاه (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) القرآنية بينها ويوضحها ويشرحها ، أو يفصل لكم الآيات التكوينية وينظمها وينسقها ويميز بعضها عن بعض فيخرج من كل شيء ما هو كامن مستخف في باطنه ، فيفصل النور من الظلمة والحق من الباطل والصالح من الطالح لكي تتفكروا وتدبروا فيها (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) لتصدقوا بقاء الله وتوقنوا بالمعاد إليه لأن الذي يقدر على ذلك كله فهو القادر على إحياء الإنسان بعد موته ليحاسبه ربه على ما صنع ، قال (تُوقِنُونَ) بدلاً من (تؤمنون) إشارة إلى أن هذا الإيمان يجيء عن طريق النظر والتأمل والتفكير ويوصل إلى اليقين.

فائدة: في هذا دلالة على وجوب النظر والتفكير العلمي في أسرار النفس وعجائب الكون والكائنات المؤدي إلى معرفة الله تعالى ، ويدل على بطلان التقليد بلا وعي وبطلان الإنباع الأعمى كالقول المشهور : (ومن الخطأ أن أجعل الأمر بيد العالم فأخرج منه سالماً) ولولا ذلك لم يكن لتفصيل الآيات معنى، عن النبي (ص) : (أَفْضَلُكُمْ إِيمَانًا أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً) البحار ٣/١٤ ، في غرر الحكم: (لَوْ كُشِفَ الْعِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا) في الحديث : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) البحار ١/١٧٧ ، في غرر الحكم: (اِكْتَسَبُوا الْعِلْمَ يُكْسِبْكُمْ الْحَيَاةَ).

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾

بعد أن ذكر سبحانه نظام السماوات ذكر نظام الأرض والغرض واحد كيف تستدل بعجائب المخلوقات على خالقها ، ومن خلق هذا الكون بأرضه وسماؤه قادر على أن يرسل الرسل وينزل الكتب لإلقاء الحججة على الناس ، المعنى : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) بسط الله بقدرته الأرض وجعلها واسعة فسيحة ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ولو كانت كلها جبلاً وودياناً لما أمكن العيش عليها ، ولا يتعارض لفظ بسط الأرض مع تكويرها ، لأن تكوير الأرض لكل الأرض بينما مدّ الأرض بسطها لجزء منها ولسعة الأرض لا يحس الإنسان بكرويتها (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ) جبال ثابتات راسخات شامخات من أجل أن تتوازن حركة الأرض ولا تضطرب بأهلها (وَأَنْهَارًا) قرن سبحانه الأنهار بالجبال لأن الماء يتفجر من تحتها أي بسبب الجبال تنشأ الأنهار الجارية العذبة الصافية على وجه الأرض (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) جعل الله تعالى من كل نوع من أنواع الثمرات صنفين وجعل من كل ثمرة زوجين اثنين ذكراً وأنثى فالثمرة (أية ثمرة) لا تكون إلا بالتقاء الذكر والأنثى ، وعلى أية صورة من صور الالتقاء ، سواء في ذلك عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان وغيرها من العوالم ، حتى اثبت العلم الحديث أن في الطبيعة (قانون

الزوجية العام) كقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات/٤٩ ، وأيضاً (جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) أي وخلق فيها من كل الثمرات صنفين إثنين كالحلو والحامض أو الصيفي والشتوي أو الرطب واليابس.

(يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) يغطّي ظلمة الليل ضياء النهار عندما يحين وقت الليل، فيدخل الظلام في النهار بنظام دقيق عجيب يسمّى بسنّة التداخل التدريجي المنظم في الأشياء، فيأتي الليل بظلمته ويذهب النهار بضيائه وكأنما يستره ويذهب دوره ويغطيه ليسكن الإنسان والحيوان ويرتاحوا ، ثم يأتي وقت النهار فنقلب المعادلة المتوازنة والكونية باستمرار كل يوم ، فيأتي بضيء النهار ليمحو ظلام الليل ويذهب دوره وينصرف الناس فيه لطلب الرزق فتعتدل بذلك حرارة الأرض ، إنّه حادث عجيب تهوّن الألفة من وقعه في الحواس والمشاعر ولكنه في ذاته عجب من العجب (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) إنّ في عجائب صنع الله الذي أتقن كل شيء دلالات باهرة على قدرة الله ورحمته وحكمته والتي تدلّ أيضاً على توحيد الله وقدرته وعلمه وسائر أسمائه وصفاته لمن تفكر وتدبر وتذكّر ، وخص (المتفكّرون) بالذكر لأن عجائب الكون الكثيرة لا تدرك إلا بالتفكر ، وبالتفكر حياة القلب وجلاء العقل وإنشراح النفس ، والتفكّر يزيل الغفلة ويفتح آفاق العلم ولدّة المعرفة وجمال الإيمان وروعة الاطمئنان. فائدة : كما يتداخل الليل والنهار كذلك تتداخل جميع الأشياء المادية والمعنوية ، كما يتداخل البناء والتعمير بعضه مع بعض وكما يتداخل الظلام والنور يتداخل الأمل والعمل والعزّة والذلّة والصحة والمرض والشدة والرخاء والقوة والضعف ويتداخل الذكر والأنثى، والدنيا والآخرة والروح والجسد والموت والحياة والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦ ، لا عسر مستمر ولا يسر مستمر وإتّما يتداخل العسر واليسر ، ومن قلب العسر يأتيك اليسر ، كما أن من قلب الظلام يأتيك النور ، وهذه سنة كونية وسنّة إنسانية مشتركة في جميع الأشياء لعلاقة أحدهما بالآخرى.

٤ - ﴿وَفِي الْأَمْزِضِ قَطْعٌ مُسْبَاوِمَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْتَابٍ وَمَرْزِقٌ وَنَخِيلٌ صَوْنَانٌ وَغَيْرُ صَوْنَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَضْلٌ بَعْضُهُا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

النفس التي تتأثر بالأنظمة الأرضية الدالة على قدرة المنظم وتستقيم على منهجه ، هي النفس التي ترجع إلى سلامة أصلها وحيوية فطرتها وسلامتها من أي تلوث ، والاتصال بالكون الذي هي قطعة منه ، انفصلت عنه لتأمله ثم تعرف قدرها ولا تتعدّد طورها ثم تندمج فيه مرة ثانية ! (وَفِي الْأَرْضِ) بقاع مختلفة متقاربات مختلفات في التفاضل كل أرض لها خصائص معينة ، أرض طيبة خصبة وأخرى سبخة نكدة ، تنبت هذه ، وأخرى بجنبها لا تنبت ومنها أرض صخرية صلدة ، وكل واحدة من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات متفاوتات واستعداد في تربية نوع خاص من

النباتات لكل نوع من الأرض ، فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب؟! (وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ) وبساتين كثيرة من مسلقات الأعناب المتنوعة الأصناف والألوان والطعم والحجم وغير ذلك، وتسمي العرب العنب الكرم لكرم ثمرته وكثرة حمله وأصل الكرم الكثرة والجمع للخير وبه سمى الرجل كريماً من الكرم لكثرة خصال الخير فيه ، وأعلم أن قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بهذا الاسم (وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْبُرٌ صِنَوَانٌ) وفي هذه القطع المتجاوزة أنواع الزروع والحبوب من القمح والشعير وغير ذلك والنخيل ، منها (صِنَوَانٍ) الفرع الخارج من الشجرة نفسها أي ما ينبت منه من أصل (عود) واحد غير متنوع شجرتان فأكثر وهي النخيلات يجمعها أصل واحد الأُمّ وفسيلاهما ومنها.

(عَيْبُرٌ صِنَوَانٍ) : متفرقات مستقلات متنوعات ما ينبت منه شجرة واحدة بلا فروع ، وخصّ الله سبحانه الأعناب والنخيل بالذكر لأهما الثمر الغالب في ذلك العصر في الجزيرة العربية (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ) أنواع الأشجار تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ الأنبياء/ ٣٠ ، والتربة واحدة والهواء واحد ولكن ثمار مختلفة الطعوم والأشكال والألوان والأحجام والروائح والفوائد ، والله جميل يحبُّ الجمال ويخلق الجمال الطيب ويدعو له (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) إِنَّ فِي ذَلِكَ النظام الدقيق علامات ظاهرة وباهرة لمن تدبّر وتفكر ، فدقة الصنع تدلُّ على عظمة الصانع كقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ النمل/ ٨٨. فائدة : ١- مثل ضربه الله عز وجلّ لقلوب بني آدم أصلهم واحد وهم مختلفون في الأشكال والألوان والذكورة والأنوثة وكلُّ إنسان يختلف عن الآخر في الشكل والصورة والمضمون وأيضاً مختلفون في القدرات والقناعات والطباع وفي الإيمان والكفر ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ الليل/ ٤ ، كاختلاف أنواع الثمار التي تسقى بماء واحد ، ٢- (وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ) تفضيل في الطعم والمذاق والرائحة والحلاوة والحموضة ونوع الفائدة بقدرة القادر ، كما يفضل الله المؤمن على الكافر ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءُهُ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الأنفال/ ٣٤ ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/ ١٩٤.

٥ - ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِنَّمَا لَنَا تَرَابٌ أَتْنَا لِنَفْسٍ خَلَقَ جَدِيداً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وَإِنْ تَعْجَبْ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ مَعَ قُوَّةِ الْحُجَّةِ فِي رِسَالَتِكَ فَاسْتَغْرَبَكَ فِي مَحَلِّهِ ، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ عَجِيبٌ فِعْلاً فَهَمْ يَعِيشُونَ التَّنَاقُضَ ، فَعَجِبَ تَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهَذَا أَعْجَبٌ وَأَغْرَبٌ قَوْلُ الْكُفَّارِ أَئِنَّمَا مَتْنَا وَأَصْبَحْنَا تَرَاباً هَلْ سَنَبْعَثُ مِنْ جَدِيدٍ؟ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنَ الْبَعْثِ؟ فَإِنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ الْكَائِنَاتِ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ، (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) الذين أنكروا يوم القيامة هم الجاحدون لقدرة الله ، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة وأن جحدها الجاحدون (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) الْأَغْلَالُ الطوق تشدُّ به اليد إلى العنق ، وَأُولَئِكَ مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال والهوى والجهل والعناد في أعناقهم ، تصدَّهم عن النظر في الحق والبعد عن الهداية عن الإمام الصادق (ع): (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) البحار ٧/٧٣ وأيضاً في يوم القيامة توضع الأغلال في أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالأغلال (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ؟ في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) والذي بدأ الخلق بإتقان فإعادته عليه أسهل وإتقان أيضاً.

فائدة: ١- ذكر سبحانه (أُولَئِكَ) ثلاث مرات مبالغة في التهديد والوعيد والتعبير عن غضبه وسخطه وفضخ لهم على رؤوس الأشهاد حتى كأن كل إشارة من تلك الإشارات الثلاث (أُولَئِكَ) طوق من حديد يطوقون به ليعرفهم جميع من في المحشر وقد وُسموا بتلك السمات الفاضحة ومن جمع بين الإيمان بالله تعالى وبين الإيمان بعجزه سبحانه عن إحياء الموتى فقد جمع بين النقيضين، إذن : هم منكرون لله في واقعهم وممارساتهم وإن اعترفوا بالله بألسنتهم، عن الإمام السجاد (ع): (الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى، وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٧ ص ٤٢ . ٢- (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) الكفر برهم وإنما هو بسبب أغلال العقل والقلب فالجزء هو الأغلال في الأعناق ، تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ، فقد عطّلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمهم الله ، فتكون الْعُقُوبَةُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

٦- ﴿وَسْتَعْلَمُونَكَ بِالْحَسَنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ويستعجلك المشركون يا مُحَمَّد (بِالْحَسَنَةِ) من السوء الذي يسوء الإنسان مثل البلاء والعقوبة قبل (الْحَسَنَةِ) والحسنة : ما يستحسنه الإنسان مثل الرخاء والعافية وطلب الرِّحمة من باب الاستهزاء ، وهكذا الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدوِّ بعدوِّه (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ) (الْمَثَلَاتُ) هي عقوبات أمثالهم من المكذِّبين ، وقد مضت عقوبات الماضين أمثالهم من المكذِّبين فما لهم لا يتعظون ؟ ومن لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقيين ، والسعيد من إتعت بتجارب غيره. في نهج البلاغة حكم ٣١: (مَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ) (وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ) المراد بالمغفرة هنا الإمهال أي وإن ربك لذو صفح عظيم للناس كقوله ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/ ٨٥ ، لا يعجل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ولا يهملهم، ويفتح لهم باب التوبة قبل فوات الأوان لعلهم يرشدون ويهتدون (وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) شَدِيدُ الْعِقَابِ لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه. السياق

القرآني يقدم هنا مغفرة الله على عقابه في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية ، ليدو الفارق الضخم بين الخير الذي يريده الله لهم والشر الذي يريدونه لأنفسهم ، ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة وعمى القلب والانتكاس الشديد الذي يقوده إلى درك النار ، كقوله ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ الحجر/٤٩-٥٠ ، ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فاطر/٤٥ . قرن الله تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى المؤمن بين الرغبة والرغبة وبين الخوف والرجاء .

﴿ تَحْذِرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الزمر/٩ ، عن الإمام الصادق (ع) : (أُرْجُ اللَّهُ رَجَاءً لَا يُجْرِيكَ عَلَيَّ مَعَاصِيهِ ، وَخَفِ اللَّهُ خَوْفًا لَا يُؤْسِئُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ) البحار ٧٠ ص ٣٨٤ . فائدة : ١ - جمعت الآية بين الخوف والرجاء وهما وصفان لا يفصل أحدهما عن الآخر ، فمن صحَّ رجأؤه لرحمة الله صحَّ خوفه من نعمته ، ومن صحَّ خوفه من نعمته صحَّ رجأؤه لرحمته ، أما من خاف عقابه ويمس من رحمته (أو) رجأوته وطمع في رحمته دون أن يخاف عقابه ، فقد أَمِنَ الْعِقَابَ فَأَسَاءَ الْأَدَبَ وَتَجَاوَزَ الْحُدُودَ ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ الطلاق/١ ، وما هو من الإيمان في شيء . ٢ - (الْمَثَلَاتُ) واحد مثله وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثراً قبيحاً كقطع أذن أو جلع أنف أو سمل عين ، وهم المعاندون أصحاب النفوس المريضة التي تُفَضِّلُ الهلاك على قبول الحق فصاروا (الْمَثَلَاتُ) أي مثلاً للاعتبار ، وأخسر النَّاسِ ، مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ .

٧ - ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَكُلُّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

ويقول الكفار (لولا) هلاً أنزل على محمد (آية من ربه) معجزة خارقة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى يقولون تعنتاً وجحوداً ، يطلبون آية واحدة والكون حولهم كله آيات ، ولو أرادوا الهداية فعندهم القرآن أفضل هداية، والذي (يؤمن) قليل الدليل يكفيه والذي لا يؤمن فكل الدلائل لا تكفيه حتى يرى العذاب الأليم (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) جواب لما اقترحوا أي لست أنت يا محمد إلا محذراً ومبصراً وتندر الطغاة والعصاة من سوء العاقبة شأنك شأن كل الرسل قبلك فليست لك قدرة غيبية مطلقة على فعل كل ما تريده كقوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ آل عمران/١٢٨ ، أما المعجزات فهي بأمر الله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) فالأرض لا تخلو من هادٍ يهدي إلى الحق إنما نبي منذر وإما هادٍ غيره يهدي بإذن الله ، أي لكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الهداية وطرق الخير ، ليمت إجراء السنة الإلهية وتشريع الله وأحكامه وهي التي تهدي كل شيء إلى كماله المطلوب ، وقال النبي (ص) : (الْمُنذِرُ أَنَا وَالْهَادِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع)) بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بَعْدِي) تفسير الرازي ١٩ ص ١٤ وهذا مصداق الآية .

فائدة : ١ - تؤكد الآية على صفتين (مُنذِر) لكل ضال (و هَادٍ) للذين آمنوا يهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ يونس/٩ ، وبذلك يتحرك خط الدعوة إلى الله بين الترغيب

والترهيب وبين الخوف والرجاء وبين منذرٍ وهادٍ ليحتوي الأمة كلها فلا يترك موقعاً في الإنسانية بعيداً عن نشاطها ، حتى يملأ المواقع كلها بالمبلغين الواعين ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ الأحزاب/ ٣٩ ، ٢- جاء في الآية (الْقَوْمِ) (والهادِ) على العموم ، وفي ذلك دلالة حركية عالمية وسنة إلهية إنسانية عامة ، على أن الأرض على سعتها في أي بلد وأية أمة وقوم وجماعة لا بد لها من هاد يهدي للحق بمؤهلات خاصة ، وعن طريق الفطرة السليمة من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وقد جرت سنة الله هذه باستمرار في عباده جميعهم ، وقد شاء الله أن يجعل هؤلاء الهداة على عمومهم يشتركون بالهداية عن طريق الصفات وليس بالأشخاص والأسماء المعينين، كي تكون سنة مستمرة ولا يترك الناس سدى ، وهؤلاء الهداة إما أنبياء أو أوصياء أو حكماء أو علماء أكفأ أمناء خلفاء الرسل وورثة الأنبياء. وهكذا مسؤولية (الْمُنذِرِ) لها صفة العموم كقوله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/ ١٨١ ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/ ٢٤ ، وهكذا يكشف القرآن هذه القاعدة والسنة الحركية العامة المؤثرة بشفافية في كل زمان ومكان ومع جميع الأجيال البشرية ، حتى حصلت في قصر فرعون الذي قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ النازعات/ ٢٤ ، وإذا في هذا القصر (هادٍ ومنذر) مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه وهو وزير فرعون ، وكذلك زوجة فرعون آسية بنت مزاحم من النساء المؤمنات النموذجيات وهكذا لا تخلو الأرض من حجة ظاهرة أو باطنة تعرّف الناس الحلال والحرام وشريعة الله وتلقي الحجة على الناس ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/ ١٦٥ ، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء/ ١٥ ، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيَمَيِّتَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا﴾ الأنفال/ ٤٢ ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ التوبة/ ١١٥ ، فتكون حجة الله تصاحب الإنسان في كل الأحوال ، في غرر الحكم: (قُوَّةُ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ سُلْطَانِ الْقُدْرَةِ)

٨ - ٩ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمَسْأَلُ﴾

كانت الجولة القرآنية في آيات الآفاق الكونية ، والآن الجولة في آيات الأنفس والمشاعر والأحياء كقوله ﴿سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت/ ٥٣ ، وقوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/ ٢٠-٢١. المعنى : إنها علاقة السنن الكونية بالسنن الإنسانية علاقة طردية متصلة غير منفصلة (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ) في غيابات الأرحام لكل أنثى في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف (كُلُّ أُنْثَىٰ) بهذا الشمول من إنسان أو حيوان.. إلخ يعلم من ذكر أم أنثى ، واحد أو متعدد ، تام أم ناقص ،

حسن أم قبيح (وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ) تَغِيضُ : تنقص أي وما تنقصه الأرحام بإلقاء الجنين قبل تمامه ، أي يتم الوضع لأقل من تسعة أشهر (وَمَا تَزْدَادُ) وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر أو تزداد من عدد الولد فقد يكون واحداً أم إثنين أو أكثر كقوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ لقمان/٣٤ ، (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) كلُّ شيء على الإطلاق عند الله له ميزان محدد ومعيار معين وقدر مقدر محدود لا يتجاوزه كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ ، فلا يخلق مخلوقاً عبثاً بل لكل شيء نظامه وقدره ودوره وتدييره وكماله وجماله وجلاله وعلى ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، كقوله ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الحجر/١٩ . ٩ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الغيب : ما غاب عن حس العباد ، والشهادة : ما كان مشاهداً منظوراً في عالم الحضور وتدركه العقول والحواس أي فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي ولا يخفى عليه شيءٌ ولا يغيب عنه شيء ، فهو سبحانه يعلم السر والعلانية على حدٍ سواء ويعلم ما لم يكن وما قد كان وما سيكون على حدٍ سواء ، لأن لا غيب عند الله تعالى ولا يغيب عن علمه شيء عن الإمام الصادق (ع) : (الْغَيْبُ مَا لَمْ يَكُنْ، وَالشَّهَادَةُ مَا قَدْ كَانَ) تفسير النور/٤٣٠٩ ، وعنه (ع) : (عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيَّ فَاِسْتَحْيَيْتُ) الأمثل ٣١٣/٧ ، (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) الكبير في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو السيد القادر على جميع الأشياء وكلُّ شيء دونه ولا شيء فوقه لكمال صفاته وجلال ذاته وجمال نوره ، فالله جميل يحب الجمال ويخلق الجمال ويدعو إليه (الْمُتَعَالِ) العالي الذي لا شيء فوقه وكل شيء دونه والمتره عما يقوله المشركون والملحدون ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النحل/٣ ، فلا يساويه قدر ولا قدرة ولا قادر ولا مقتدر ، فكيف يساويه قدر وهو خالق كلِّ قدر ؟ فائدة : هنالك علاقة (وَمَا تَغِيضُ) بـ (كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) إته من بدائع التعبير القرآني والتصوير الحركي في السياق بالغ الأهمية، صوّر القرآن علم الله بالغيض والنقصان والزيادة في مجال عالم التكوين الإنساني ، عقب بأن (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ونلاحظ التناسق الواضح بين كلمة (مِقْدَارٍ) وبين النقص والزيادة في (وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) وذلك لا يكون كل شيء في الأرحام ناقصاً عن حدوده أو زائداً عن وقته إلا بمقدار مقدر وعمل مدبرٍ وحكمة ومصلحة معينة.

١٠ - ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (سَوَاءٌ مِنْكُمْ) يستوي في علمه سبحانه (مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) في نفسه وأخفاه وما أضرته القلوب وما نطقت به الألسنة وأعلنه أمام الناس ، والسر والعلانية عنده سواء كقوله ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ النمل/٢٥ ، (وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) : بارز ظاهر وجاري بسرعة أي ويستوي عنده سبحانه كذلك من هو مستتر بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء ، ومن هو ذاهب في طريقه بسرعة لوضوح النهار وهو في غاية الظهور

، والمعنى : إنه سبحانه يرى ما أخفته ظلمة الليل كما يرى ما أظهره ضوء النهار على السواء، وفي هذه الصفات الإلهية دلالة واضحة أنها تختلف عن صفات المخلوقين كقوله ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ طه/٧.

١١ - ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾

مُعَقِّبَاتٌ : ملائكة يعقب بعضها بعضاً في حفظ الإنسان ليلاً ونهاراً ، وضمير (لَهُ) و (يَدَيْهِ) و(خَلْفَهُ) يعود إلى الإنسان أي لهذا الإنسان ملائكة موكلة به يتعاقبون ، تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار وملائكة النهار ملائكة الليل وهم (المُعَقِّبَاتُ) الحفظة يحفظون على العبد عمله ، ويحفظونه من المهالك ومن كل سوء ، حتى ينتهوا به إلى المقادير المقدّرة فيحيلون بينه وبين ما قدره الله له ويتكفرونه للقضاء والقدر كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الانفطار/١٠، وأيضاً (المُعَقِّبَاتُ) هي حواس الإنسان وغرائزه كالسمع والبصر والعقل والإدراك والمشاعر.. وغيرها لتحرسه وتصونه، فبالإدراك يميز الإنسان بين النافع والضار ويميّز بين كل شيء ، وبالبصر يعرف طريق السلامة وبحب نفسه يحفظها من التهلكة (مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ) ملكان يحفظانه ويجرسانه ، واحد من أمام الإنسان ومن ورائه واحد ، وهناك على اليمين ملائكة لكتابة الحسنات وعلى الشمال ملائكة لكتابة السيئات وهم حَفَظَةُ الأَعْمَالِ الأَمْنَاءِ على الكتابة والحفظ كقوله ﴿عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ق/١٧ ، وإذا علم الإنسان هذه الحقيقة الكبرى كان حذراً من وقوعه في المعاصي (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أي بأمر الله وإذنه وجميل رعايته لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد أن يحفظ أحداً من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه عن الإمام الصادق (ع) : (مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ فَإِذَا جَاءَ الأَمْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَلِيئاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ) الأمل/٧/٣٥١،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) إنه قانون عام وسنة إنسانية مؤثرة أي إن الله لا يزيل نعمته عن قوم أي قوم ولا يغيّر أحوالهم وأوضاعهم إلا إذا بدّلوا أحوالهم النفسية والروحية والفكرية والعقلية الجميلة بأحوال قبيحة وأعمال سيئة كأن يغيروا الشكر إلى الكفر ، والطاعة إلى معصية ، فيغير الله النعمة إلى نقمة والهداية إلى ضلال والسعادة إلى شقاء كقوله ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البُورِ﴾ إبراهيم/٢٨، البوار: الهلاك، وأنه سبحانه يُثَقِّي الإنسان الكسول في البؤس والهوان الذي هو يعانيه، ما دام يرضى في جموده وركوده لا يقاوم باطلاً ولا يجرّك ساكناً للتخلّص من بؤسه وهذه من السنن التاريخية في الاجتماع وهي سنن عامة تخص الإنسان بغض النظر عن دينه وهي لا تخص الفرد وإنما الأغلبية، إن الله لا يغيّر ما بقوم من نعمة وعافية وأمان ورفاهية فيزيلها عنهم حتى يغيروا ما بأنفسهم بإساءة النوايا والمقاصد بظلم بعضهم

بعضاً، عن النبي (ص): (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْتَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ) المراغي ٧٨/١٣، وكقوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال/٢٥، وأيضاً لا يغير الله ما بنا من جهل حتى نبني المدارس والجامعات ونعد الكفاءات وأنواع الاختصاصات ، والله لا يغير ما بنا من فقر حتى ننشئ المزارع ونقيم المصانع وننهض بالحضارة، والله لا يغير ما بنا من ذل وهوان وعبودية حتى نوجد كلمتنا وننظم أمرنا ونتعاون ولا نتخاصم ونخلص التّوايا ونزيل الحواجز النفسية ، ونجاهد يداً واحدة ﴿كَانَهُمْ بُيُوتًا مُرْصُوصًا﴾ الصف/٤ ، ضد العدو المشترك الظالم الطاغوي الإرهابي المستبد، والله لا يغير ما بنا من تمزق وتنازع حتى نتحرر من المصالح الشخصية ونقدّم المصلحة العامة عليها، ومن أراد أن ينهض ببلده عليه أن لا يكون عميلاً للخونة والمستكبرين..

وهكذا كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل/٩٧، (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) وإذا أراد الله تعالى هلاك إنسان أو جماعة أو قوم أو عذابهم أو إزالة النعمة عنهم بما يستحقون على تجاوزاتهم ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، (فَلَا مَرَدَّ لَهُ) فلا يقدر على ردّ ذلك أحد ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١، (وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) ليس لهم من دون الله (مِنْ وَالٍ) من والي ومعين وولي يدفع عنهم العذاب ويخلصهم من البلاء والعقاب ، لأنه لا ولي لهم يلي أمرهم من دونه سبحانه ، والله عادل وحكيم لا يؤدّب ولا يعذّب إلاّ بحق وسبب موجب كقوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى/٣٠. فائدة: ١- يبرز السياق القرآني حقيقة مهمة تلقي على البشر تبعة ثقيلة ، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله على تصرف البشر أي يقضي الله سبحانه أن تكون حرّية الإنسان ضمن حدود مشيئة الله وإرادته ، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرة الله وحكمته وهذا يحمل معنى التكريم لهذا المخلوق الذي إقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه. ٢- عن الإمام السجّاد (ع) يشير إلى هذه الآية : (الدُّنُوبُ الَّتِي تُعَيِّرُ النَّعْمَ البغي (الإعتداء) عَلَى النَّاسِ، وَكُفْرَانُ النَّعْمِ وَتَرْكُ الشُّكْرِ) نور الثقلين ٤٨٧/٢.

١٢ - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ كُنُوزَ الْبَرْقِ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

هو الله الذي يريكم أيها الناس هذه الظاهرة الكونية نظام البرق ، وهو النور اللامع الخاطف من خلال اصطدام السحب ، هذا بيان لآثار قدرته في الكون (خَوْفًا وَطَمَعًا) خوفاً من الصواعق المحرقة المدمرة وطمعاً في الغيث الذي به حياة البلاد والعباد (وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) وبقدرته يكون السحب الكثيفة الثقيلة المحملة ببخار الماء ويرفعه من الأرض إلى طبقات الجو العليا، وهو

مسبب الأسباب ثم إن الله تعالى يسند الأسباب إليه مباشرة لأنه خالق كل شيء ومدبره ومقدره. **فائدة:** البرق يبشّر بنزول الماء من السماء ويكون خيراً إن أنبت الزرع وامتلاً الذرع ، ويكون شراً إن يك حسوماً ومموماً وأضراراً، عن الإمام علي (ع): في صلاة الاستسقاء (اللَّهُمَّ اسْقِنَا ذُلَّ السَّحَابِ دُونَ صَعَائِهَا فَإِذَا رَأَيْنَا الْبَرْقَ رَجَوْنَا أَنْ يَكُونَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَخَفْنَا أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا بَعْدَآيِهِ فِي آنٍ وَاحِدٍ) التفسير المبين ص ٣٢٢.

١٣ - ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ﴾ (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) تنزيهاً له عن النقص وتعظيماً لقدرته ووجوب حمده ، يسبح الرعد بجمال صنعه بلسان حاله وعلى قدره وقدرته وبلغته وطريقته الخاصة ، والرعد هو الصوت المسموع من خلال اصطدام السحب ، في غرر الحكم: (لِسَانُ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ) فالله سبحانه يستحق الثناء والحمد دائماً على حسن فعله ، حمداً من جميع خلقه وتنزيهاً لله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، أما في ظواهر الكون فكل شيء خاضع لنظام متقن فهو يدل على خالقه بوضعه ، وكل مخلوق يثني ويسبح لله بلسان حاله كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء/٤٤ وقوله ﴿كُلُّ لَهْ قَانِتُونَ﴾ البقرة/١١٦ ، (وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) وتسبح له الملائكة بطريقتها وبقدرها وتخاف من عظمة الله وجلال مقامه وكمال صفاته وجمال ذاته ، خوف هيبه وليس خوف رهبة ، وللخوف من الله له إيقاعه على النفس ! كقوله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن/٤٦ ، وفي غرر الحكم : (إِذَا خِفتَ الْخَالِقَ فَرَزْتَ إِلَيْهِ ، إِذَا خِفتَ الْمَخْلُوقَ فَرَزْتَ مِنْهُ) ، الخوف جلباب العارفين ، ومن صفات المتقين ، وعن النبي (ص) : (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) البحار/٧٧/١٨٠ ، وعنه (ص): (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار/٧٧/١٣٣ ، وأيضاً تخاف الملائكة من تقصيرهم في حق الله وتقصيرهم في تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم. (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ويرسل القطع النارية المدمرة النازلة من السماء ، والمذنبات نقمة يهلك بها من يشاء ممن يستحق النقمة ويصرفها عن من يشاء ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ) ومع هذا كله والكفار يجادلون في وجود الله وقدرته على البعث مع ما يشاهدونه من الآيات والدلالات (وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ) وهو تعالى شديد القوة والنكال والأخذ والكيده والمكر والبطش لأعدائه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إبراهيم/٤٧ ، (الْمِحَالِ) المكايده لأعدائه مع فنون المكر ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود/١٠٢.

١٤ - ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَاْفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

الله هو الحق والله تعالى دَعْوَةٌ واحدة موحدة مَتحدة هي الحَقُّ ، والحق لا يتعدّد ولا يتحوّل ولا يتبدّل ولا يتجزأ و﴿مَادَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس/٣٢ ، وهنا جاء (الحق) بالمفرد والضلال بالجمع للدلالة أنّ الحق لا يتعدّد ومجرّد أن تتركه تقع في الضلال المتنوع الذي لا حدود له ! وهي الدعوة التي تستحق أن تستجاب ، إنها دعوة الله فهو المستحق للعبادة والدعاء والتضرع والالتجاء إليه والاعتماد عليه والتمسك بمنهجه (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) وأي إله يدعو الإنسان من دون الله (لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) لا يستجيبون لهم الدعاء أمّا ما ينتظره الإنسان من مساعدات من المستكبرين الطغاة ليطلبوا منهم العزة ، فإنهم لم يقدموا له مساعدة لوجه الله إلا بمقابل ، والذي يأخذونه أكثر بكثير ممّا يعطونه ! وينهى القرآن عن هذه العلاقات المشبوهة كقوله ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ آل عمران/٧٣ ، وقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ النساء/١٣٩ ، وقوله ﴿هَاتِنْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ آل عمران/١١٩ ، (إِلَّا كَبَّاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعو ويناديه ليصل الماء إلى فمه ، والماء لا يمس وهو تشبيه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً ، بحال عطشان لا يدري ما يفعل يريد أن يشرب الماء وليس الماء ببالغ فمه لكون الماء لا يشعر بكلامه ، يحسب الدخان سحاباً والسراب ماءً فيمد كفيه مفتوحتين ليملاهما بالماء ويفتح فاه ليشرب وإذ لا ماء (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) وما دعاؤهم لآلهتهم إلا في (ضلالٍ) أي في ضياع ولا يفيد ، وكل شيء لا يفيد ولا ينفع فهو يضر. عن الإمام الصادق (ع) : (أَدْنَى الشِّرْكِ: مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي ٢/٣٩٧ ، وكأنما كان مشرّعاً للناس مع الله تعالى ، فيكون ندّاً لله تعالى.

١٥ - ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا بِالْبُغْدِ وَالْأَصَالِ﴾

ولله وحده (يسجد) أي يخضع وينقاد لأمره وقضائه سبحانه وتعالى أهل السّموات والأرض ويقر بوجوده كل الكائنات لدلالة المصنوع على الصانع ، فإنّ السياق القرآني يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز العبودية لله تعالى في العاقل وغير العاقل ! (طَوْعًا وَكَرْهًا) طائعين وكارهين (مضطرين) ، المؤمن يسجد طوعاً بكامل إرادته سجوداً تشريعياً اختيارياً ، والكافر يسجد سجوداً تكوينياً قسرياً في حالة الفزع وشدة المرض وعند الخطر والاضطرار كالموت (وَظِلًّا بِالْبُغْدِ وَالْأَصَالِ) ظِلًّا لهُمُ : من الظل وهو خيال الجسم يسجد في الصباح والمساء ، (بِالْبُغْدِ) الغدو جمع غداة وهي ما بين صلاة الصبح إلى الضحى ، (وَالْأَصَالِ) جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب. المعنى : حتى ظلال الأشياء تنقاد لأمره تعالى في أول النهار وآخره ، وهو بيان لقدرة الله الذي دان له كل شيء حتى ظلال البشر تسجد لله وتخضع بطريقة معينة ، والكلُّ

خاضعون مستسلمون لأمره تعالى بلسان الحال أم بلسان المقال ، وهو كناية عن عموم الخاضعين لأمر الله تعالى ، كل كائن بقدره ومقداره وكيفيته لبيان عن عظمة ملك الله عز وجل وأنه ينقاد له كل الكائنات ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد للظل والتقلص فيهما. عن الإمام الصادق (ع) : (السُّجُودُ مُنْتَهَى الْعِبَادَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ) البحار ١٦٤/٨٥ كقوله ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يونس/٢٢.

١٦ - ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَمَا وَلَا ضَرَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

قل من خالق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ومالكهما ومدبر أمرهما ؟ وواضع نظامهما الله أم غيره أو وجدت صدفة ؟ (قُلِ اللَّهُ) واحداً أحداً قبل أن يجيبوك بشيء ، لأن هذا السؤال يحمل في طبيعته الجواب ، لأن لكل نظام منظم ، تدبر في مخلوقات الله تجدد الله كقوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الزمر/٣٨ ، (قُلْ أَفَأَتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا) الاستفهام إنكاري ، قل لهم (إلزاماً لإقامة الحجة عليهم) أجعلتم الله (أَوْلِيَاءَ) شركاء وعبدتموهم من دونه على أساس أنهم يدبرون الأمور ، وهم لا يقدرُونَ على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) هذا تمثيل واسع الدلالة لضلالهم في عبادة غير الله ، والمراد بالأعمى الكافر الذي لا يميز بين الهوى والهدى والبصير المؤمن الذي يفرق بينهما ، وبالظلمات كناية عن الضلال والفساد وبالنور كناية عن الهداية والصلاح ، المعنى : كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر واضح ظهور الفارق بين النور والظلام (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) وهذا الاستفهام إنكاري أيضاً ، وهذه حجة قاطعة أم إتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات حية كالتى خلقها الله فالتبس الأمر عليهم ، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم ؟ وهذا استنكار عليهم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك سخافة وسذاجة عقول المشركين كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ الحج/٧٣ ، (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره وهو المنفرد بالألوهية والربوبية ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١ ، وجميع الأشياء تحت قدرته وهي

مستجيبة لإرادته وطوع أمره وهكذا الذي لا ينفعه الرحمن يضره الشيطان كقوله ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ النساء/٧٨.

١٧ - ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ النَّاسُ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

ضرب الله تعالى في هذه الآية مثالين : مثلاً للحق في ثباته وفوائده ومثلاً للباطل في زواله ومفاسده وهي عملية تشبيه الأمور العقلية والعلمية بالأدلة الحسية المنظورة الواضحة. المعنى : أنزل الله تعالى من السماء ماءً فجرت مياه الأودية والأنهار والسواقي (بِقَدَرِهَا) بمقدار سعتها ، فالكبير بمقدار كبره والصغير بمقدار صغره (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) حمل سيل الماء رغوة عالية فوقه. وهذا مثل للاعتبار ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر ، فمثل الحق في ثباته وفوائده والباطل في زواله ومفاسده ، مثل الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض ، فحمل سيل الماء رغوة عالية فوقه ، فالحق هو الماء النافع الباقي الذي يمكث في الأرض والزبد الذي هو الغطاء والرغوة الفارغة الذي لا نفع فيها هو الباطل ، وهذا أحد مثلي الحق والباطل ، والمثل الآخر قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) ومن الذي يوقد عليه النار من المعادن كالذهب والفضة والنحاس مما يذاب في النار ليصاغ منها الحلبي وأنواع الزينة فهناك رغوة تطفو فوق المعادن المذابة ، وهذا الزبد (الرغوة) يزول كما يزول الزبد الذي يحمله سيل الماء لعدم الانتفاع منه (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) كذلك يضرب الله المثل للحق والمثل للباطل ، فمثل الحق في ثباته والقرآن في نزوله كمثل الماء الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس ، وشبه القلوب بالأودية فمن تدبر في القرآن وتفكر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه كالوادي الكبير الذي يأخذ الماء الكثير المفيد ، ومثل الباطل في زواله كمثل الزبد والغطاء (الرغوة) الذي يقذف به الماء يتلاشى ويزول ومعنى هذا أن الباطل لا يثبت أمام قدرة الحق ، عن الإمام علي (ع) : (مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعهُ) البحار ٧٧/٤٢٠ ، كقوله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء/١٨ ، في غرر الحكم : (الْمَعْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ ، الْعَالِبُ بِالشَّرِّ مَعْلُوبٌ !) إِنَّ لِلْبَاطِلِ جَوْلَةً وَمُهْلَةً وَإِنَّ لِلْحَقِّ دَوْلَةً مُسْتَقَلَّةً. فالباطل يطفو ويعلو ولكنه زبد لا تماسك فيه ، والحق يظل هادئاً ساكناً قد انزوى ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحي والمعدن المفيد ، وكذلك يقرر مصائر الدعوات ومصائر الاعتقادات ومصائر الأعمال والأقوال.

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) فأما الرغوة الذي لا خير فيها مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل بعيداً ويتفرق وهذا تشبيه وساوس الشيطان وهوى الإنسان بالزبد الفارغ يعلو الماء

ولا ينفع التربة (وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكْتُ فِي الْأَرْضِ) وأما ما ينفع الناس من الماء الصافي والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ).

في غرر الحكم: (لأهل الاعتبار تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ) وتضرب الأمثال لإيضاح الشبهات. فائدة: تصوّر الآية المسلم الحقيقي أنه الذي ينفع الناس على الدوام في غرر الحكم: (حَيَّرَ النَّاسَ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيَمَةُ كُلِّ إِمْرِيٍّ مَا يُحْسِنُهُ) وإن كل من نفع وعمل من أجل نهضة حضارية ويعمل من أجل حرية الإنسان وحفظ كرامته وأمنه وإطمئنانه ، فإنه يلتقي بعمله هذا مع أهداف الإسلام ، وإن لم يكن مسلماً بقوله ولكنه مسلم بفعله، في غرر الحكم: (لِسَانَ الْحَالِ أَصْدَقُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ) لأنه كالماء والمعدن الذي ضربهما الله مثلاً للحق كقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة/ ١١٢ ، وإن كل من عمل لشقاء الإنسان فما هو من الإسلام في شيء لأن المسلم من سلّم النَّاسِ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ، واستسلم لمنهج ربه ، فهو ليس بمسلم وإن صامَ وَصَلَّى وَحَجَّ وَرَكَعَ ! عن النبي (ص) : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) البحار ١٩٨/٨٢

١٨ - ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْأَحْسَنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ أَوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

للمؤمنين الذين استجابوا لدعوة الله وخضعوا لمنهجه بالإيمان والعلم والاستقامة وعملوا لمنفعة البشرية والسعي نحو حياة أفضل ، لهم المثوبة الحسنی ولهم الجزاء الأحسن في الدنيا والتوفيق لخير الدنيا ، وفي الآخرة النعيم المقيم و﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الإنشاق ٨ ، (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ) والذين لم يجيبوا ربهم وخرجوا عن طاعته وتعدوا حدوده فهم كالزبد الذي يطفو فوق الماء ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق ١ ، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ الكهف/ ١٠٥ ، عن الإمام الصادق (ع) : (هُوَ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ حَسَنَةً وَلَا يُعْفِرَ لَهُمْ سَيِّئَةً) فإنهم يلاقون من الهول والفرع الأكبر (لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال وأنواع النعم التي تلذذ بها النفس وهو غاية ما يمكن لإنسان أن يأمله ويتمناه ، ثم أضف إليه (وَمِثْلَهُ مَعَهُ) وضعفه معه (لَاقْتَدُوا بِهِ) لبدلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله الأليم الذي سيحل بهم (أَوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) يحاسبون بذنوبهم كلها لا يُعْفِرُ لَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ ، يعني يحاسبون ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ الطلاق/ ٨ ، بالعدل القاطع وبالحق الساطع بلا رحمة ودون عفو ومساحة (وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم وبئس هذا المستقر والمسكن الذي يمهده لآنفسهم ، وَالْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ ، عن النبي (ص) : (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ) البحار ٧٠ص٧٣، وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ.

١٩ - ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الاستفهام للإنكار ، هل يستوي من آمن وصدق بما أنزل عليك يا مُحَمَّد من كتاب الله وعقلوه وحاولوا تطبيقه ، ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل كالتائه الحيران ؟ (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) إِنَّمَا يَعْتَظُّ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَعْتَبِرُ بِهَا (أُولُو الْأَلْبَابِ) ذوو العقول السليمة المفكرة والقلوب الواعية والبصائر المدركة. فائدة: (كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) : هو عمى القلب ، والضال عن دين الله أعمى القلب، وأشدُّ العمى عمى القلب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج/٤٦ ، لم يقل (أفمن يعلم أن هذا القرآن على الحق كمن لا يعلم) وإنما يقول (كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) ؟ وهذه إشارة لطيفة إلى أنه من غير الممكن أن لا يعلم أحدٌ بهذا الحق وهو القرآن إلا أن يكون أعمى القلب ، وتحث الآية على طلب العلم ومحاربة الجهل ، لأنه عدّ الفرد الفاقِد لعلم القرآن ولو الأساسية منها كمن هو أعمى ! فينبغي أن يتذكر أُولُو الْأَلْبَابِ ، إثمهم هم حملة القرآن وعلمه والأمناء عليه وإلا فقدوا هذه الصفة المشرفة (أُولُو الْأَلْبَابِ) ثم عدّد الله تعالى صفات أصحاب العقول التسعة العالية المضامين الجامعة المانعة فقال :

٢٠ - ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّخِذُونَ الْمِيثَاقَ﴾

وأُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ (يُوفُونَ) يؤدون ما عهد الله إليهم وألزمهم به وهي أوامره ونواهيها التي كلف بها عباده على عمومها سواء أكانت عهود تكوينية أم تشريعية (وَلَا يَتَّخِذُونَ الْمِيثَاقَ) الْمِيثَاقُ : العهد المؤكّد وهذا تأكيد للوفاء، لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله وبين الناس ، ولا يخالفون الله في كل كبيرة وصغيرة، عن النبي (ص) : (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) البحار ١٩٨/٧٢. فائدة : ١- (يُوفُونَ) الوفاء بمعناه العام بشتى فروعهِ وأنواعهِ، من الخلق الجميل وهو من أمّات الفضائل ، والوفاء للعقيدة دليل على صدق الإيمان ورسوخه، والوفاء للأهل ، والوفاء في العمل ، والوفاء للوطن يوحى بالأصالة والأمانة ، والوفاء مع الصديق يبعث على حبّ النَّاس والثقة بهم ، والوفاء في العقود.. إلخ والوفاء مع الله ومع الناس ومع النفس.. كقوله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٤. ثم تترتب على العهد الإلهي والميثاق الربّاني كل العهود والمواثيق مع البشر ، والوفاء أخو الصدق وقرين الأمانة وهو من أخلاق الأنبياء ، في غرر الحكم : (مِنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ).

٢- (بِعَهْدِ اللَّهِ) وعهد الله يشمل العهود الفطرية التي عاهدوا بها ربّهم في عالم الذر كقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الأعراف/١٧٢ ، وعهد الرسول كقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَّكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ المائدة/٧ ، كالفطرة على التوحيد وحب الحق والعدالة والمواثيق الفعلية والعقلية التي يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقل لعالم الوجود

والمبدأ والمعاد ، وعهد الإنسان مع ربه حين يقع في بلية أن يتوب ويؤمن والعهد الذي أخذه الله تعالى من الناس عن طريق سنة أنبيائهم بالالتزام بالتكليف الدينية والوفاء بالعهد الشرعية والقانونية والأخلاقية مع الناس كل الناس ، لذلك ذكر الله الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعاً من القرآن عناية بأمره وإهتماماً بشأنه (وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) فأصبح نقض الميثاق من صفات الخائنين والفاجرين في الحديث : (آيَةُ (علامة) الْمُنَافِقِ أَرْبَعٌ: إِذَا عَاهَدَ عَدَرَ، وَإِذَا حَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) البحار ٧٥/٩٤ قوله ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الرعد/٢٥ .

٢١ - ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾
 وأولوا الألباب هم (الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) بهذا الإطلاق وبلا تفصيل إنها قاعدة تربوية ضخمة عالية المضامين والتي يقوم عليها بنیان الحياة ككله ، وبقررها في كلمات بليغة واسعة الدلالة ، فكل ما أمر الله به أن يُوصَلَ يصلونه ، أي إنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة والعلاقات القائمة بلا انقطاع ، والسير على منهج الله بلا تلون وتقلب وازدواج الشخصية ، لهذا ترك الأمر مجملاً ولم يفصّل لأنه واضح ومن مصاديقه : صلة الرحم والتعامل مع الأقرباء بالحسنى ، فإن صلة الرحم تطيل في العمر وتزيد في الرزق ، ورعاية الأيتام والتواصي مع الإخوان في أمور الدين والدنيا، وعن النبي (ص): (مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ) الكافي ١٦٤/٢ ، تعني الآية باختصار مناصرة الإنسان لأخيه الإنسان والتعاون معه على كشف الضر عنه وجلب النفع له سواء أكان قريباً أو غريباً (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) يهابون مقامه وعظمته وقربه منهم ومعرفته المفصلة عنهم ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/٤٦ ، حتى صار ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/٢٨ ، عن النبي (ص): (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ٧٧/١٣٣ وكلما إزداد العلم بالله إزداد الخوف منه سبحانه، إنه خوف هيبه لا خوف رهبة ، وفي غرر الحكم : (إِذَا خِفتُ الْحَالِقَ فَرَزَّتْ إِلَيْهِ، وَإِذَا خِفتُ الْمَحْلُوقَ فَرَزَّتْ مِنْهُ) والخوف مقياس العارفين، إنه خوف هيبه وليس خوف رهبة، إنه خوف رغبة وحب وليس خوف رعب (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) بمعنى أنهم يتجنبون السوء صغيره وكبيره في القول والعمل في السرّ والعلانية خشية لله وخوفاً من الفضيحة على رؤوس الأشهاد يوم الحساب لأن الأعمال مكتوبة محفوظة في صحيفة الأعمال ومدعومة بالصورة والصوت والنية وما ساء منها ساء وزرّها وحملها ونتائجها وساء حسابها.

٢٢ - ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءً وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

وأولوا الألباب هم الَّذِينَ صَبَرُوا على كلّ فروع الصبر ، وصبروا على كلّ أمرٍ يحتاج إلى صبرٍ جميل ، والصبر بمعنى حبس النفس والسيطرة على إرادتها عن نيل ما يريد ، وهي الصبر عند المعصية والصبر

على الطاعة والصبر عند المصيبة ، والصبر على الجهاد في سبيل الله بفرعيه جهاد النفس وتزكيتها وجهاد العدو الخارجي ومخاطره ، ويصبرون على معاناة الجهاد وآلامه ويبتغون في ذلك وجه الله ومرضاته وحده ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى وَجْهِهِ وَأَجِدْ كَفَاهُمْ الْوُجُوهَ كُلَّهَا، وَتَحَمَّلُوا هَمًّا وَاحِدًا (لِوَجْهِ اللَّهِ) كَفَاهُمْ الْهُمُومَ كُلَّهَا ! إثم صبروا إبتغاء رضوان ربهم ، لا رجاء في نفع من وراء هذا الصبر ولا دفعاً لضرر يأتي به الجزع إثم صبروا إبتغاء وجه الله التسليم لأمر الله لأن الأمر يقتضي الصبر الجميل (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) على وجهها الصحيح بصورة كاملة تتحقق به حكمتها وأثرها في النفس والأخلاق والقول والعمل ، هذه الصلاة التي تهذب الأخلاق وتركي النفوس وتطمئن القلوب وتشرح الصدور كقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ المؤمنون/٢ ، فتكون إقامة الصلاة وفاءً لعهد الله وتنهى عن الفحشاء والمنكر عن النبي (ص) (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) البحار ١٩٨/٨٢ ، فهو يصلي إسقاط واجب ولكنه لا يقيم الصلاة لتزكية النفس ولا يؤدي شرطها وشروطها ولا يأتي بمقدماتها في أوقاتها المحددة (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية حسب ما تقتضيه المصلحة ، وهو حق اجتماعي مفروض وليس إحساناً وتفضلاً ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ المعارج/٢٣-٢٤ ، والنفقة هنا عامة واجبة ومستحبة ، مادية ومعنوية ، بمعنى النفقة لا تخص المال فحسب وإنما تشمل كل شيء معنوي قابل للإنفاق من علم وجاه وموقع اجتماعي مسؤول وقوة ونصرة ونصيحة سرّاً وعلانية ، سرّاً مخافة الرياء أو السمعة أو الإهانة أو إذهاب ماء الوجه ، وأنفقوا علانية لدعوة الناس إلى منهج الله تعالى على سعة معناه (وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) وَيَذَرُونَ أي يدفون، ومعنى الحسنة هو كل ما يستحسنه الإنسان ، والسيئة هي كل ما يسيء له ويكرهه ، أي ويدفون الجهل بالحلم والأذى بالصبر ، ويدفون بالأعمال الصالحة الأعمال السيئة ، عن النبي (ص): (وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا) جمع البيان ٣٦/٦ (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) وكقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود/١١٤ ، وقوله (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت/٣٤ من صفات هؤلاء إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفاوا وإذا قطعوا وصلوا ، في نهج البلاغة حكم ١٥٨: (عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَأَزِدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ!) في الآية إشارة مفيدة خفية : إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا دفع السيئة لا طمعها وقوتها وطغيانها وإستعلاؤها (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ) فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع والقوة ، ويحتاج الشر إلى الدفع والمقاومة ، فلا مكان لمقابلة السيئة بالحسنة ، عندئذ يكون الإنسان المحسن صغيراً وضعيفاً ولثلاً ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي. في نهج البلاغة حكم ٣١٤: (رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ، فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ) ، عن الإمام علي (ع) : (إِذَا كَانَ الرَّفْقُ حُرْقًا كَانَ الْحُرْقُ (الغلظة) رِفْقًا ، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً) البحار ٧٥ ص ٥١ ، شرح نهج البلاغة

١٦/ص ٩٧ ، في غرر الحكم : (أَخْطِ السِّنْدَةَ بِالرِّفْقِ ، وَارْفِقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَوْفَقَ) ، (أَوْلَيْكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) أَوْلَيْكَ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ وَالْحَاتِمَةُ الْمَشْرِفَةُ وَلَهُمْ حَسَنُ الْجِزَاءِ .

فائدة: ١- (وَالَّذِينَ صَبَرُوا) في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبَ) وبالصبر تقام الصلاة ويؤدي الإنفاق ويدفع الأسلوب الخاطئ بالأسلوب الأصح ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ طه/١٣٢ ، ٢- (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا) وهكذا تقرن الصلاة بالزكاة والإنفاق لوجوب التلازم بينهما حتى يكون الدين حسن عبادات وحسن معاملات ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ) البحار ٢٥٢/٨٤ (وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) وإذا صادفوا سيئة عملوا مقابلها حسنة تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئة فإن كانت السيئة صدرت من أنفسهم دفعوها بحسنة يأتون بها أو دفعوها بتوبة وإستغفار إلى ربهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة/٢٢٢ ، وإن صدرت السيئة إليهم من غيرهم دفعوها بالعتق والإحسان وحسن الخلق وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان/٦٣ ، ويدفعون بالكلام الحسن الجميل ما يرد عليهم من سوء و غضب غيرهم عليهم، هؤلاء حسن عاقبتهم الجنة التي من صفاتها :

٢٣ - ٢٤ ﴿جَنَّاتٌ عُدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّرُؤَاهُمْ وَزَوَّجْنَاهُمُ الْغُلَامَ الْكَافَّةَ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

(جَنَّاتٌ عُدْنٌ) جنات إقامة خالدة ونعمة دائمة يدخلها أولئك الأبرار الصالحون بذواتهم والصالحون لغيرهم ، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب ، ويدخل معهم من كان صالحاً ومستحقاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم ليأنسوا بلقائهم ويكرمون بتجمّع شتاتهم ، ويتم بهم الفرح والسرور ويتذكرون أيام الدنيا ويشكرون الله على الخلاص من همومها أما إذا اختلفت الأعمال فتختلف المنازل فتقطع الأنساب والأسباب بينهم ولا يرى كل منهم الآخر وفي جو التجمع والتلاقي يقول (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) والملائكة تدخل عليهم مسلمين ومهنيين بالفوز بالجنة دار السلام وعز المقام فيدخلون عليهم من كل باب مع التكريم والتعظيم يقولون لهم . ٢٤- (سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) أمان عليكم من المكارِه والمخاوف في الجنة وسلمكم الله من الآفات والحنن والمعانة بصبركم على شدائد الدنيا ومحنها في طاعة الله تعالى كقوله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ يس/٥٨ ، (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) يهنئوهم بهذه العاقبة الحسنة حيث منازل التكريم والإحترام كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ (أَنْقَصْنَاهُمْ) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الطور/٢١ ، لما ذكر تعالى من أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة الفاسدين ومصيرهم المشؤوم وهم على الضد من صفات المؤمنين .

فائدة: ١- عن النبي (ص): (عَدْنٌ دَارُ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلَا يَسْكُنُهَا غَيْرُ ثَلَاثٍ: النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ) مجمع البيان ٩٥/٥ .

٢٥ - ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيُقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

والذين نقضوا وفسخوا ولو ثوا عهد الفطرة السليمة التي تقضي بالتوحيد والاستقامة والنزاهة ويخالفون منهج الله بعد إعترافهم به وإقرارهم بصحته (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) على وجه العموم والإطلاق ، قطعوا الصلة بالإيمان وقطعوا الرحم والشرف والأمانة والأيتام والإخوان في الدين وكانوا حرباً على المؤمنين وعوناً للكافرين (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) لا يعرفون إلاّ الغش والغدر ولا يناصرون إلاّ البغي والجور ويملاؤون الأرض شرّاً وفساداً على سعتها للدلالة على سرعة انتشار الفساد كتشويه الحق وسلب الحقوق وإثارة الفتن ونشروا الكفر والظلم (أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ) الطرد من رحمة الله ورضوانه، والبعد عن خيري الدنيا والآخرة فينالهم الخزي والهوان والحرمان من كلّ خير وفضيلة ، واللعن في القرآن يعتمد على الصفة دون الذات ، وله صفة العموم دون التخصيص وتحديد الأشخاص (وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) سوء العاقبة وهو عذاب جهنم، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) عن النبي (ص): (يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خبر ٤٢٧٢٢، وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! في الحديث : (مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ ، وَلَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ) البحار ١٠٠ ص ٤٦.

٢٦ - ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

الله (يَبْسُطُ) أي يوسع الرزق على من يشاء من عباده (وَيَقْدِرُ) أي يضيق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة كقوله ﴿وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ الطلاق/ ٧ ، وحسب قانون الأسباب والمسببات كقوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/ ٨٤-٨٥ ، عن الإمام الصادق (ع): (أَبَى اللَّهُ أَنْ يُجْرِيَ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا) الكافي ١/ ١٨٣ ، ومن هذه الأسباب الخبرة والتجربة في جمع المال ، ولو إطلع الإنسان على أسرار الغيب لرضي بالواقع ، وسعة الرزق وتقديره ليس له علاقة بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية فقد يضيق على المؤمن امتحاناً لصبره وتكفيراً لذنوبه ورفعاً لدرجاته وتهدياً لنفسه ، ويوسع على الكافرين استدراجاً كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/ ١٨٢ ، كقوله ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران/ ١٤٥ ، وما الغنى والفقر إلاّ حالان يمران على البر والفاجر كما يمر عليهما الليل و النهار والبرد والحر والشدة والرخاء والصحة والمرض والقوة والضعف ، والإنسان رهين سعيه وخبرته وتجربته وإرادته وقصده وقيمة كلّ امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته واختصاصه ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ النجم/ ٣٩ ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر/ ٣٨ ، على قدر السعي تكون النتائج ، وتكون النتائج على قدر المقدمات ، وتكون المقدمات على ضوء التخطيط والتنظيم والإختصاص والاجتهاد وإذا صحت المقدمات صحت النتائج ، وبدون ذلك وقع الإنسان في الكسل.

عن الإمام علي (ع): (إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا أَرْدَوْجَتْ أَرْدَوْجَ الْكَسَلِ وَالْعَجْزُ فَنَجِحًا بَيْنَهُمَا الْقَفْرُ) الكافي ٥/٨٦، فسعة الرزق من حيث طبيعة العمل ونوعه وظروفه ومقدار الخبرة فيه والتجربة معه والحاجة إليه والموقع في عرضه ووسائل الإنتاج والإعداد إليه ، صحيح (إذن) الرزق من عند الله ولكن بسعي الإنسان وخبرته وكفاءته لأن أسباب الرزق بيد الإنسان كقوله ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الملك/١٥ ، كما ان الهداية من الله ولكن باستعداد الإنسان ونسب الله التوسعة والتضييق إليه سبحانه لسيطرته على القوانين والسنن التي تحكم الحياة ، ويبقى اختيار الإنسان يتحرك ضمن هذه السنن الإنسانية إذا سار معها بشكل متوازٍ ولم يصطدم معها فاز قصده ، وإن تعارض سعي الإنسان واصطدم مع هذه السنن خاب سعيه ، عن الإمام العسكري (ع): (لَا يَشْغَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ، عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨، وعن النبي (ص) : (مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْلَى) البحار ١١٥/٧٧.

عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ رَضِيَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَعَاشِ، رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ) البحار ٦٩/٤٠٦، وعنه (ع) : (إِنَّ اللَّهَ فَسَمَّ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَفْضَلَ فَضْلًا كَبِيرًا لَمْ يُفَسِّمُهُ بَيْنَ أَحَدٍ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء/٣٢) البحار ٥/١٤٧ ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الإسراء/١٢، وعن الإمام علي (ع) : (الرِّزْقُ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ) شرح النهج ١٦/١١٢، (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) إنَّه استخفاف بهم وتسفيه لأحلامهم ، فرحوا بما أوتوا من الحياة الدنيا بيسر الرزق وهي دنيا الحياة العاجلة وأهملوا الدار الآخرة وهي الدار العليا أسمى الحياة الآجلة ، والذي يفضل الأدنى هو الإنسان الأدنى وفرحوا بالدنيا فرح بطر وطغيان لا فرح شكر وسرور بذكر الله وإنعامه عليهم ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يونس/٥٨ ، لذلك حقر الله الدنيا بقوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) مَتَاعٌ : متعة لا تدوم ولها تبعاتها الكثيرة ، وما نعيم الدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة إلا شيء يسير يتمتع به وهو نعيم غير دائم ولدَّةً هنيئةً رخيصة مؤقته ، لأن الدنيا ممر لمقر فهي مزرعة الآخرة ، وهي مطلوبة لغيرها ولم تُطلب لنفسها.

فائدة: ١- لذلك ذكر (مَتَاعٌ) بصيغة النكرة لبيان تفاهة هذا المتاع مهما كان كثيراً ومتنوعاً وثميناً فهو قليل لأن لذاته قليلة وتبعاته كثيرة ، ومنافعه محدودة وهمومه ممدودة ، ولبيان تفاهة الدنيا مقارنة مع الآخرة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ التكاثر/٨ ، وعن النبي (ص) : (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي هَذَا الْيَمِّ (البحر) فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ) البحار ٧٣/١١٩، عن الإمام الكاظم (ع) : (إِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِظُ الْعَبْدَ النَّوَامَ ، إِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِظُ الْعَبْدَ الْفَارِعَ) من لا يحضره الفقيه ٣/١٠٣ . ٢- جعل الله سبحانه أرزاق الناس بالأعمال لينصرف الفلاح إلى حقله والعامل إلى معمله والتاجر إلى متجره والطبيب إلى عيادته ، وهكذا ، لو أنّ الله تعالى رزقهم من غير عمل مللوا

الحياة واشتغل بعضهم في أذى بعض ، وتلَّهوا بالفسق وقضاء الشهوات بالمحرّمات وعملوا بأعمال لا فائدة منها كقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الشورى/٢٧.

ولو وسَّع الله الرِّزق لجميع عباده ولم يبق فقير لبطروا في معيشتهم ولطغوا وتجبروا وأسرفوا وفسدوا في الأرض ، وَلَكِنْ يُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ من الرِّزق وكمية معينة لأنّه بعباده خبير بصير ، فيعلم ما يستحقه كل عبد وما يناسب حاله وما يصلحه من غنى أو فقر. أمّا الثراء الفاحش الحرام فهو بالعيش والاحتكار والسلب والنهب فهو من رزق الشيطان لا من عطاء الرحمن ، والذي يثري بالحرام يصرف ماله بالحرام ثمّ يدخره لغيره ويحاسبه الله حساباً عسيراً. عن النبي (ص) عن جبريل عن الله تعالى : (إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ صَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الصِّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنِّي أُدَبِّرُ لِعِبَادِي بِعِلْمِي بَقُلُوبِهِمْ) نور الثقلين ٤/٥٧٩ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لِيَحْذَرَ عَبْدِي الَّذِي يَسْتَبْطِئُ رِزْقِي أَنْ أَعْضِبَ فَأَفْتَحَ عَلَيْهِ بَاباً مِنَ الدُّنْيَا!) البحار ١٩٤/٨١

٢٧ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾

ويقول الكفار (لولا) أي هلاًّ أنزل على محمد معجزة خارقة من ربه مثل معاجز الأنبياء التي اقترحتها عليه حتى تهتدي نستجيب له؟ ويتركون القرآن وهو الآية العظمى ، والذي يريد أن يؤمن فقليل الدليل يكفيه والمعاند لو جنته بكل دليل ودليل لا يؤمن فقل لهم ما أجهلكم (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ) رجوع عن العناد ورجع إلى الله بالطاعة، للهدى والضلال أسباب موجبة لهما ، فمن سلك طريق الضلالة والانحراف عن منهج الله بإرادته وسوء اختياره فهو مسؤول عن ضلاله ومحاسب عليه لضلال فكره وفساد نفسه ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنفال/٢٣ ، (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ) ومن سلك سبيل الله طريق الاستقامة بإرادته وأقبل على الحق وأعرض عن الباطل يسر الله له الإيمان وعاش مع نعمة الهداية وإستدوقها ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ مريم/٧٦ ، وهذا دليل أن الله تعالى يعامل العبد بما يختاره لنفسه ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨.

٢٨ - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَطَمَنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

إنّها صورة مؤثرة شفافة رقيقة للقلوب المؤمنة السليمة ، إنّها في جوٍّ من الطمأنينة والأنس والانشراح والبشاشة والسلام والأمان ، يهدي الله أهل الإنابة والتوبة وهم الذين آمنوا وصلحت نفوسهم

وتسكن قلوبهم وتستأنس بطاعة الله وحبه وقربه وجذبه ، فلا يشعرون بقلق واضطراب نفسي ، **(تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) (تَطْمَئِنُّ)** تأنس وتثق وينشرح الصدر ، وجاءت بالمضارع المستمر للدلالة على دوام الاطمئنان في جميع الأحوال والأشكال وهي أعلى قيمة إنسانية ، والاطمئنان من أفضل النعم وأعلى مراتب الإيمان حيث تطيب النفس وتستقر الروح وتركن إلى الله وحده ولا ترضى بغيره بديلاً **(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** تؤكد هذه الحقيقة المهمة عالية المضامين ، من علامات أهل الإيمان أنهم إذا ذكروا الله أو ذُكِّروا به إطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم واستدوقوا القرب مع الله واستدوقوا حبه وجذبه كقوله **﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** الزمر/ ٢٣ ، وهذه حقيقة عميقة يستدوقها أهل العرفان الذين خالط الإيمان النقي قلوبهم فاتصلت بالله ، والاطمئنان نعمة معنوية لا يعرف حقيقتها إلا من عاشها ، فهي حقيقة أكبر من أن تترجم بكلمات ، إنَّه شعور السلام الملازم لحركة هذا الوجود ، فيشعر المطمئن أنه ليس مفرداً بلا أنيس فكل ما حوله صديق له لأنَّه من صنع الله الذي هو في حماه.

ودعاء الإمام الحسين (ع) في مناجاته لله في شعبان يقول **(إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْتَ أَبْصَارُ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّىٰ تَحْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ، فَتَصِلَ إِلَىٰ مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ، وَتَصَيِّرَ أَرْوَاحَنَا مَعْلَمَةً بَعِزِّ قُدْسِكَ).** **فائدة: ١ - فلسفة اطمئنان قلوب المؤمنين :** سمي القلب قلباً لسرعة تقلبه وكثرة تحسسه ، فلا يسكن إلا بذكر الله ، لأن القلب يتحسس الأحداث والوقائع ويشعر بما يدور حوله ، فهو مصدر التأثير والتأثير ومدخل الحب والتقدير والكرهية والتنفير ! لذلك يشعر القلب بكل ما يصدر من الإنسان على نفسه أو ما يصدر من الخارج على الإنسان ، أي يحس بإحساس فردي وجماعي ، فإن انحرف القلب قلق واضطرب وإن استقام أمن واطمأن بذكر الله وهذا الذكر العملي ، لأنه يعمل على ربط نظام القلب الذاكر بنظام الكون المسيح لله ، فترتبط السنن الإنسانية بالسنن الكونية بوحدة واحدة موحدة متحدة بذكر الله تعالى ، فيشعر القلب أنه اندمج مع النظام الكوني العام المطيع لله وكان منهم ومعهم وإليهم ، وأنه لا يخرج عن طاعة الله كما هم ثابتون على طاعته **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** الإسراء/ ٤٤ ، لذلك يطمئن القلب بذكر الله ، كقوله **(فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ)** البقرة/ ١٥٢ في غرر الحكم : **(الذِّكْرُ لَدَّةُ الْمُحِبِّينَ) والذِّكْرُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ** ، عن الإمام السجّاد (ع): في مناجاة الذاكرين **(وَأَسْتَعْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَعِيْرَ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بَعِيْرَ أَنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُورٍ بَعِيْرَ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بَعِيْرَ طَاعَتِكَ).** **٢ - الشقي الخاسر من حرمة الله نعمة الاطمئنان ،** ليس أشقى ممن ينطلق في الحياة وهو مفصول الصلّة بالله ومفصول العلامة بما حوله من السنن الكونية فيشق طريقه فريداً وحيداً لا يشعر بالسكينة ويعاني من الأزمات النفسية ومعناة الكتابة لذلك يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين ، وفي الحياة مواقف وساعات تعصف بالإنسان فلا

يصد أمامها إلا الذاكرون المطمنون بذكر الله ، في الحديث : (عَلَامَةٌ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَلَامَةٌ بُغْضِ اللَّهِ بُغْضُ ذِكْرِ اللَّهِ) روح البيان ٤/٣٧٤.

٢٩ - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾

لافصل بين الإيمان والعمل الصالح وهو توكيد للذين تطمئن قلوبهم بذكر الله ، فمن صفاتهم أنهم يحسنون العبادات والمعاملات معاً ، في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) وليست قيمة كلِّ امرئ ما يملكه ، فيحیی حياة طيبة في أسبغ السرور وأفضل الكرامة وأتم العيش (طُوبَى لَهُمْ) من طاب وأطيب (طُوبَى) للتفخيم والتعظيم ، وهي تأنيث الأُطيب وتعني العيش الطيب. أو هي شجرة في الجنة وكل مؤمن له غصن من أغصانها فإذا طلبه أتاه ، فلهم فرح وقرّة عين ولهم أطيّب الحياة وأفضلها ولهم حُسن العاقبة (وَحُسْنُ مَا بِ) حُسْنُ مرجع ، ونعم ما يلقون من سعادة في المرجع والمنقلب. فائدة : وكلّما أحسن الإنسان في نفسه وأحسن فكره فيحسن عمله وكلّما إزداد في إحسانه أي إزداد في نفعه للناس ، وكلّما نفع النَّاس أحسن وأكثر وأزيد وإستمر نفعه ودام خيره، كلما كان إيمانه وعمله الصالح من البَقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ كقوله ﴿وَالْبَقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مريم/٧٦.

٣٠ - ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلَوَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾

كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك في أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مضت قبليها أُمَّ كثيرة ، أمتك آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء (لَتَلَوَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) وأرسلناك لهؤلاء لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم وتعرفهم سنن الله في خلقه وتلقي الحجّة عليهم (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) فَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ أي برحمة إلهية عامة وشملت رحمته كل مكان وزمان وشملت المؤمن والكافر ، استشعار رحمته الكبرى ، تضمن لهم خير الدنيا والآخرة لو أخذوا منهجها واستقاموا عليه لسعدوا في الدنيا والآخرة (قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) قُلْ لهم إنّ الرحمن الذي عمّ فضله الذي كفرتم به هُوَ رَبِّي الذي رباني ومدبّر أمري فأمنت به لا معبود لي سواه (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) عليه وحده اعتمدت فاتخذة وكيلاً في كلّ الأحوال (مَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاءً) (وَإِلَيْهِ مَتَابٌ) مَتَابٌ : من تاب أي رجع، وإلى الله توبتي وإليه إنابتي ومرجعي فيثيبني على مصابرتكم. فائدة : (قُلْ هُوَ رَبِّي) هذا هو إيمان المصطفى محمّد (ص) وهذه هي رسالته ودعوته ، يؤمن بالله وحده ويلتجئ إليه في جميع أموره ولا يرى غيره من سلطان ، ويدعو النَّاس جميعاً إلى هذا الإيمان الخالص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣.

٣١ - ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْفُ نَفْسٍ بِرَأْسِهَا لَرَأَى اللَّهُ الْكُفْرَ وَلَئِن لَّمْ يَرَهُ اللَّهُ لَوَاقِحٌ﴾

لَهْدَى النَّاسِ جَمِيعًا وَلَا يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْيِبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَابَرَةً أَلْوَحُلٍ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْفِي الْمِعَادَ

تبحث الآية في كيفية تفكير الطغاة والمعاندين. المعنى : ولو فرضنا فرضاً صعباً محالاً وفرض المحال ليس بمحال ، ولو نزل عليهم القرآن العظيم تخرج منه آيات ومعجزات مادية خارقة محسوسة ، فتسير بهذا القرآن الجبال وتقلع من أماكنها ومشت تلقائياً كما فُعلَ بجبل الطور لموسى (ع) ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ شققت وتصدعت وجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أو كلم أحد به الموتى في قبورهم بأن أحياهم بقراءة القرآن فتكلم معهم وإستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ، لو حصل هذا الشيء المعجز لكان في ﴿هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء/ ٩ ، لكونه غاية في الهداية والتذكير ونهاية في الإنذار والتخويف وكفاية للمنصفين بفعل ذلك ، وجواب (لَوْ) محذوف وتقديره لو حدث كل ذلك لما آمنوا بالقرآن ولا بمحمد (ص) لغلوهم في الطغيان والعناد والإستكبار وتماديهم في الفساد كقوله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر/ ٢١.

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بما اقترحوه من الآيات لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلم الله أن قلوبهم قاسية لا تلين مع الحق وإنما تنساق مع شهواتها ولذاتها ، فالذي يريد أن يؤمن فأقل دليل يكفيه والذي لا يريد أن يؤمن فكل دليل ودليل لا يكفيه ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ النساء/ ١٥٥ ، ﴿أَفَلَمْ يَئْتَسُ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أفلم يقنط ويأس المؤمنون الحركيون من إيمان الطغاة وهداية الناس جميعاً حيث تمنوا متلفهين لذلك ، والاستفهام هنا تقريرى أفلم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم بالإجبار والإكراه ولكن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/ ٢٥٦ ، وإقتضت حكمة الله أن يكون بناء التكليف على الاختيار كقوله ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأعراف/ ١٨٦ ، لأن بالاختيار يكون التكريم ويكون الجزاء ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف/ ١٠٣ ، ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ الْمَكذِبِينَ من غير تأديب بل ينزل عليهم (قَارِعَةٌ) الكوارث والدواهي حيناً بعد حين تفرعهم بصنوف البلاء والعناء من القحط والقتل والخوف بسبب عدائهم للإسلام وللرسول (ص) ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ﴾ أو تحل الداهية أو المصيبة قريباً من ديارهم فيفزعون منها ، ويستمر سبحانه بهذا التنبيه بأساليب متنوعة ليعتبروا ويرجعوا إلى الله ، وهذه التربية بالترغيب والترهيب قائمة منذ القدم (حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) بإظهار الإسلام (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) نعم صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/ ٣٣.

فائدة: لقد صنع هذا القرآن العظيم في نفوس المؤمنين أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى ، لقد صنع في هذه النفوس المؤمنة وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في شكل الأرض، فكم غير الإسلام والمسلمون في بناء المجتمعات وجعل لها صفات إسلامية مميزة عن غيرهم. في طبيعة هذا القرآن قوة مؤثرة نافذة في المشاعر والعقول فسيروا ما هو أضخم من الجبال، إنهم سيروا تأريخ الأمم والأجيال ، وقطعوا ما هو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود العادات والتقاليد ، وأحيوا ما هو أحمَد من الموتى ، وهو مرض الشعوب الذي قتل روحها الطَّغيان والأوهام ، إنَّ منهج القرآن في النفوس والحياة أضخم بكثير من تحوُّل الجبال عند رسوخها وتحوُّل الأرض عن جمودها وتحوُّل الموتى عن موتهم وخمودهم !! وهكذا يعمل القرآن العظيم عندما تملأ الأرض ظلماً وجوراً فيملؤها قسطاً وعدلاً على يد منقذ البشرية التي تعاني من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة ، بقيادة الإمام المهدي المنتظر (ع) ويتحقق قوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّاحِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥.

٣٢ - ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَوْمِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

ولقد استهزأ الطغاة برسولهم كما استهزؤا بك يا محمد ، إصبر وامض في دعوتك وهون عليك أمر الذين كذبوك وسخروا منك (فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ) فَأَمَلَيْتُ : فأمهلتهم وتركتهم في أمن ودعة كما أترك البهيمة في المرعى ، ليستيقظوا ويعودوا إلى طريق الهداية ثم أحللت بهم العذاب بذنوبهم (فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ ؟ ألم أذقهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولي الألباب ؟ وأخسر الناس من كان عبرة للناس، عن النبي (ص): (إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِسْتِدْرَاجٌ) البحار ١١٧/٧٨، كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢. فائدة : (فَأَمَلَيْتُ...) من خير وشرّ يحفظه عليها فيجازيها به ، والاستفهام هنا إنكاري ، والهزمة بمعنى أي ، والله سُبْحَانَهُ أَهْمَلُ حَتَّى كَانَهُ أَهْمَلُ ، وَسَتَرَ حَتَّى كَانَهُ عَفَرَ ، وَأَنْدَرَ حَتَّى كَانَهُ أَعْدَرَ ! كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩.

٣٣ - ٣٤ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ أَمْ تُبَيِّنُونَ بِنَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ نَزَّلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ، لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) (قَائِمٌ) أي رقيب حفيظ مهيمن مدير مقدّر مدوّن مسجّل مشرف على كلّ نفس وعلى كلّ عمل لكلّ إنسان لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد صالحهم وطالحهم كقوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الحديد/٤ ، لأنه محيط علماً ورحمة بكل شيء وهو الله تعالى ، ويحاسب كلّ نفس بما كسبت ، ولكن التعبير القرآني البلاغي الفتيّ يصوّر الرقابة الإلهية

ويشخص السيطرة والعلم في صورة حسية متحركة ، فلتتصور كل نفس أنّ عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مهيمناً مراقباً بدقة يحاسبها بما كسبت وهو الله عزّ وجلّ ، إنّ التعبير القرآني يجسّم الصورة للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيّات أكثر ممّا يتأثر بالنظريات ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس له بهذه الصفة ؟ وترك جوابه لأنه معناه معلوم ، أفمن يكون بهذه الصفات تجعل الأحجار شريكة له ؟! وقد بينه بعد هذا بقوله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ) هل الله كشركايم ؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يونس/٣٥ .

(قُلْ سَمُوهُمْ) سَمُوهُمْ لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله أو الشفاعة عنده ؟ (أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ) أم تحبسون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ (أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) أم تسموهم شركاء بظن باطل وقول فارغ من المعنى ، لا حقيقة له لفرط الجهل وسداجة العقل (بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ) زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد/٢٥ ، في الحديث : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ لِي مِنَ الْهُدَىٰ شَيْءٌ ، وَخَلِقَ إبْلِيسُ مُزَيَّبًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ)! كنز العمال خبره ٥٤٦٠٤٠ ، كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) منعوا عن طريق الهدى وغرقوا في الضلالة والغوياة وابتعدوا عن الحق بقدر إغراق أنفسهم في الضلالة ! (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) فقد أضلهم الله بذنوبهم فلم تلق نعمة الهداية بهم ولا هادي لهم من دونه و الذي لا تليق به الهداية تليق به الضلالة ! ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ المائدة/٤١ .

٣٤- (هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) هؤلاء المعاندين عذاب عاجل في هذه الدنيا ، وعذاب جاء نكرة للدلالة على عمومته وتنوعه سواء أكان عذاباً حسي أو عذاباً نفسي أو كلاهما (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا (وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) وواق : حافظ ، وما لهم من الله من حافظ وليس لهم من يحميهم من عذاب الله ، نهج البلاغة حكم ٨٩: (مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَعَظْمٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ).

٣٥- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ

الْقَامِرِ﴾

صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المتنوعة الأشكال والألوان (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) (أُكُلُهَا) ثمرها دائم ونعيمها لا ينقطع كما فاكهة الدنيا فصلية ، وظلها كذلك لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ، لأنه ليس في الجنة حرٌّ ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَفَهَرًا﴾ الإنسان/١٣ ، فالمراد بدوام الظل دوام الاستراحة والاستقرار (تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) تلك الجنة عاقبة المتقين والمتقون : هم الذين يناصرون الحق وأهله ويقاومون الباطل وأهله (وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) والذي لا تليق

به الجنة تليق به النار ، هذه مقابلة بينهم وبين المؤمنين والفوارق الكبيرة والكثيرة بينهم ، ليس المراد بالكافرين من جحد بالله أو أشرك به فحسب ، بل كلّ من عادى الحق وعانده ويعمل ضده وهو به عليم ، وهكذا يكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب ، والمَرءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ ، عن النبي (ص) : (يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتَّبُولُونَ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّقْسَ) روح البيان ٤/٤٧٣ ، روي : (ليس في الجنة أشياء عديدة : منها توقّف عجلة الزمن ، وليس فيها هرمٌ ولا نومٌ ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا خروج من الجنة أي لا نهاية فيها ، وليس في الجنة فقرٌ ولا جوع ولا شبعٌ ولا عطش ولا مرض ولا إنجاب ولا تكليف ولا حساب ولا عمل ولا لغوٌ ولا كذب ولا كراهية ولا ضعفٌ ولا كسل ولا ملل ولا فشل ولا خيبة أمل ولا خطأ ولا اشتباه ولا غلٌ ولا لومٌ ولا خبتٌ ولا شرٌّ وبخلاصة : في الجنة كلّ الإيجابيات الدائمة البعيدة عن كلّ السلبيات كقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الحجر/٤٧ ، في غرر الحكم : (الجنة غايّة الصالحين، والنار غايّة المفرطين).

٣٦ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَبَآئِجُ الْكُلُوبِ﴾

يقول سبحانه لنبيه (ص) (وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ) من أسلم منهم أي إنّ الذين أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن النصارى كالنجاشي وأتباعه ، يفرحون كثيراً بالآيات التي تنزل عليك من ربك لأنها تزيدهم إيماناً وثقة بدينهم الجديد وفي كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به والتعبير بالفرح هنا (يَفْرَحُونَ) حقيقة نفسية لها دلالاتها الكبيرة في القلوب الصافية من صحابة الرسول (ص) والمؤمنين في كلّ زمان ومكان ، وهو فرح الالتقاء على الحق وزيادة اليقين بصحّة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد ومناصرته له دلالة الإيمانية كقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ البقرة/١٢١ ، (وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) ومن أهل الملل المتحيزين عليك بالعداوة وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة لأنه مخالف لهواهم ولعاداتهم وتقاليدهم ، ويعترفون بما يتوافق، وفي النتيجة أن اعترافهم وإنكارهم بمنزلة سواء ما دام الحق عندهم هو ما تشتهي نفوسهم كقوله ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْمِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ البقرة/٨٥ ، (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) فمنهجي التوحيد والاستقامة على منهج الله وأن لا أشرك مع الله أحداً لا شرك في العقيدة ولا في الفكر ولا في العمل ولا في الدعاء (إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَبَآئِجُ الْكُلُوبِ) إلى الله ومنهجه المستقيم أدعو الناس على بصيرة من أمري ، (وَإِلَيْهِ

مآب) ولا أرجع في أي أمر من أموري إلا إليه سبحانه ثم إليه مصيري ومرجعي وعليه حسابي وعنده كتابي.

٣٧ - ﴿كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاوٍ وَلَا وَاقٍ﴾
(حُكْمًا عَرَبِيًّا) يحكم القرآن في قضايا الناس بلسان عربي بليغ واضح ليسهل لهم فهمه ويتيسر حفظه وتداوله وتطبيقه.

والمعنى: المراد بالحكم هنا القرآن لأنه حكم الله الحاكم المهيمن ذو السلطان على جميع الكتب السماوية السابقة وجميع الكتب الوضعية اللاحقة ومهيمناً عليها بالحجة والبرهان كقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ ، وأنه عربي رفع لقدرها ولشرف لغتها وقوة فصاحتها وبلاغتها ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ الزمر/٢٨ ، التي حملت حكم الله الحكيم العليم على الإنسانية جمعاء ، أي وكما أرسل الله تعالى كل نبي قبل محمد (ص) بلغة قومه كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إبراهيم/٤ ، كذلك أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن العظيم بلسانك العربي الفصيح الواضح ، حاكماً بين الناس في جميع قضاياهم كقوله ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة/٥٠ .

(وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) تحذير النبي من اتباع أهواء أهل الكتاب لما فيه من باطل خطير ينبغي أن تتوقاه ، مع ما يملك النبي من عصمة ذاتية وعصمة وحي ومع ما يحوطه من رعاية الله ، فإن من اتبع أهواء هؤلاء تقرّب من الشيطان وتعرّض لنقمة الرحمن (مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاوٍ وَلَا وَاقٍ) ليس لك ناصر ينصرك ويقيك من عذاب الله ويحميك منه، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس ولو كانوا أكثرية ، لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس، عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ نَبِيَّهُ بِإِيَّاكَ أَعْنِي وَإِسْمِعِي يَا جَارَةَ) بحار الأنوار ٣٨١/٩٢ ، كقوله ﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الأنعام/١١٦ .
فائدة : ١- وسمي القرآن حكماً أي فصلاً للأمر على وجه الحق وهو فرقاناً بين الحق والباطل، والقرآن (حُكْمًا عَرَبِيًّا) صدر من (حاكم عليم حكيم) وهو الله جلّ في علاه وقد تجلّى الله لعباده بكتابه. ٢- (وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) والله يعلم أن النبي لا ولن يتبع أهواءهم من أول انطلاقاته في الدعوة ، ولا يحكم إلا بالحق ولا يتساهل فيه ، والغرض من هذا النهي أن يثبت ويستمر في الدعوة إلى الحق ، ولا يخشى في الله لومة لائم كيف وأقواله وأفعاله سنة تتبّع وميزان يقاس به الحق والعدل ، كيف وهو القائل (وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ) ، وهكذا نهي النبي (ص) عن الشك بقوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ يونس/٩٤ ، وقوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ التوبة/١١٧ ، وغيرها بمعنى نهي النبي (ص) عن الشك والتكذيب ليقول محمد (ص) للناس أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أحاسب وأعاقب كأى إنسان يشك أو

يكذب بآيات الله إذا أنا شككت وكذبت ! وهذا الأسلوب من أبلغ الأساليب وأنجحها في الدعوة إلى الحق ، بالأسلوب الأحسن الذي يتساوى فيه جميع الناس كقوله ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ/٢٤ ، وقوله ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آل عمران/٦٤ ، فليست هذه ذنوب كقوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ غافر/٥٥ ، أو ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ التوبة/١١٧ ، ولم يقع منه شيء يتوب منه والله يصفه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى/٥٢ ، وقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ﴾ التوبة/٤٣ ، فليست ذنوب النبي (ص) إرتكاب ذنب وهو المعصوم عن الخطأ ذاتياً وعن طريق الوحي ، وإنما كما قيل (سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ) وهذا التأكيد على النبي (ص) من باب تحذير الأمة وتأكيد على الاستقامة في كل الأحوال.

٣٨ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾

أرسلنا قبلك الرسل الكرام إلى قومهم (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) وجعلنا لهم الزوجات ويولد لهم الأولاد ، ترد الآية على من أنكر نبوة محمد (ص) لأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويأتي النساء ويولد له ذرية عن النبي (ص) : (أَنَا أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَنَا مٌ وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) المراعي ١٣/١١٤ ، وكل الرسل بشرٌ مثلكم لهم حاجات البشر ولكن الفارق بالوحي كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الكهف/١١٠ (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) لم يكن لأي رسول أن يأتي قومه بمعجزة مقترحة إلا إذا أذن الله له فيها لأنه لا يملك قوة غيبية قديرة على ما أراد زعماء القوم منه كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، وقوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/٤٩ ، والله سبحانه إنما ينزل الآيات إذا اقتضت الحكمة والمصلحة وليست الأوقات مشتركة في الحكم ومتساوية بالمصالح بل (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) إنه قانون عام وشامل وغير محدد أي، في نفع البلاغة حكم ١٨٨ : (لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ وَأَجَلٌ) معينين، ووقت معلوم عند ظهوره وعند ضموره وإنتهائه أي كل شيء مرهون بوقته ، معجزة كانت أو عذاباً أو نعمة أو سلطة أو جاهاً أو صحّة أو مرضاً أو قوة أو ضعفاً أو عزة أو ذلّة أو غنى أو فقر.. وهو أجل مكتوم بعلم الله لا يعلم ظهوره أو نهايته إلا بأجله المحدود من عند الله تعالى ، لكل وقت محدد حكم مقضي مكتوب يناسبه ويلائمه وهو مقدّر معيّن في ذلك الوقت حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة لا يتقدّم ولا يتأخر ، شأنه في هذا شأن الثمار إذا نضجت والمواليد التي تولد والأحياء التي تموت كقوله ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام/٦٧ ، وقوله ﴿وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ النبا/٢٩ ، فالشرائع معينة عند الله بحسب الأوقات والحوادث ، والمعاجز والنهضة الحضارية كلها لها وقت للظهور ووقت للأفول ، فليس

الأمر على إرادة الكفار بل على حسب السنن والقوانين والأنظمة المقدرة التي قدرها الله فأحسن تقديرها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩ .

٣٩ - ﴿يُحَوِّ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

إنها سنة شاملة مؤثرة فعالة على الدوام، وقانون عام حركي عالي المضامين، دقيق المبني عميق المعنى واسع الدلالة ، يتسع لكل شؤون الحياة فما انقضت حكمته يمحوه كقوله ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الفرقان/٧٠ ، وما هو باقٍ مفعوله يثبت كقوله ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ ق/٢٩ ، (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) أي أصل الكتاب المتضمن لكل ما يثبت وما يمحوه كناية عن سعة علمه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون. المعنى العام : المراد بالحو والإثبات هنا هو ما يقع في الوجود من آثار قدرة الله وتصرفاته في المخلوقات من إحياء وإماتة ومن بناء وهدم ومن زيادة ونقص وزرع وحصاد ، وتقلب الأحوال من حال إلى حال، يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله ، ويمحو الله المحن والمكاره بالدعاء المستجاب ، ويمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها ، فله في كل وقت حكم وقضاء كقوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن/٢٩ ، هو في شأن محو وإثباتاً كقوله ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ الطلاق/١ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١ ، وهو تعالى يمحو ما يشاء من هذه الأحكام والأقضية ، ويثبت ما يشاء ، أي يغير القضاء الثابت الصالح في ظروف معينة لأجيال معينة فيضع في ظروف أخرى قضاء آخر صالح له دون أن يختلف علم الله في ذلك كله ، وعنده أصل الكتاب الذي ترجع إليه هذه الكتب ، وتقدم الحديث عن النسخ في سورة البقرة/١٠٦ ، الخلاصة : إنَّ الله سبحانه ينسخ ويثبت كلاً أو بعضاً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، وهو سبحانه عالم بما يصلح العباد وما يفسدهم فينهاهم عن هذا ويأمرهم بذلك دائماً أو مؤقتاً على مقتضى علمه بالضرر والنفع ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام/٥٩ ، وتقدم الحديث عن النسخ في البقرة/١٠٦ ، وهو سبحانه وتعالى يمحو ما يرى ضرورة محوه أو إنقضت حكمته يمحوه أو الأمور غير الحتمية كقوله ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ الإسراء/٨ ، من هذه الأحكام والأقضية في ظروف معينة ، ويثبت ما لا بد من إثباته وما هو نافع وفاعل في ظروف أخرى كقوله ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ ، يُشَاهِدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ المطففين/٢٠-٢١ ، أي يغير القضاء الثابت في وقت ، فيضع في وقت آخر مكانه قضاء آخر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) وعنده أصل الكتاب ، أي علم الله الثابت ، ولكن عنده بالنسبة إلى كل وقت قضاء لا يتغير ولا يقبل الحو والإثبات ، وهو الأصل الثابت المحفوظ الذي ترجع إليه الأقضية الآخر وتنشأ منه وهو (اللوح المحفوظ) وهو علم الله الثابت ، فيمحو الله تعالى ويثبت على حسب ما يقتضيه ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ البرج/٢٢ ، فإن الحكمة تقتضي اختلاف الأحكام على حسب اختلاف

العصور والأمم والأجيال والعقول والحضارات ، كما يختلف الدواء الذي يصفه الطبيب للمريض من حالة إلى أخرى ومن مريض إلى آخر ، عن الإمام علي (ع) : (صَلِّ رَحْمَكَ يَزِيدُ اللَّهُ فِي عُمْرِكَ) البحار ٧٤ص ٨٩ ويسقط الله في رزقك وينفي الفقر عنك ويدفع البلاء ويتزكى العمل ويتحسن الخلق وتطيب النفس ، وعن الإمام الصادق (ع) : في الآية (كُلُّ أَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْعَهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَبْدُو لَهُ إِلَّا وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْدُو لَهُ مِنْ جَهْلٍ) الكافي ١/١٤٨/١ وعنه (ع) : (هُمَا أَمْرَانِ مَوْقُوفٌ وَمَحْتَمُومٌ ، فَمَا كَانَ مِنْ مَحْتَمُومٍ (ثابت) أَمْضَاهُ وَمَا كَانَ مِنْ مَوْقُوفٍ (متغير) فَلَهُ فِيهِ الْمَشِيئَةُ يَقْضِي فِيهِ مَا يَشَاءُ) مجمع البيان ٥٣/٦ بحكمته ، وعن النبي (ص) : (الصَّدَقَةُ عَلَى وَجْهَيْهَا وَبُرُّ الْوَالِدَيْنِ وَإِصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ يَحْوِلُ الشَّقَاءَ سَعَادَةً ، وَيَزِيدُ فِي الْعُمْرِ ، وَيَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ) الميزان ١١/١٩١ . عن الإمام الصادق (ع) : (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب ، فكتب ما كان ، وما هو كائن إلى يوم القيامة) كنز الدقائق ٥/١٤٢ ، (ما شاء منه مح ، وما شاء منه أثبت ، وما شاء منه كان ، وما لم يشأ منه لم يكن) كنز الدقائق ٥/١٤٣ .

٤٠ - ﴿وَأَنْ مَانَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ سَوَّيْتِكَ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

سواء أريناك من عذابهم في حياتك أم توفيناك قبل ذلك ، فإن مهمتك الرئيسة (فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ) أن تبلغ الناس رسالتك الإسلامية على وجهها المطلوب والمرغوب ولست مسؤولاً عن نتيجة بلاغك ، (وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) وما عدا ذلك علينا حسابهم وجزاؤهم لا عليك كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الغاشية/٢١-٢٢ ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ق/٤٥ .

٤١ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبِرَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

إنه مفهوم واسع الدلالة ، المراد بنقص الأرض من أطرافها أي من جوانبها يعني نقص أهلها وما يطرأ عليها من تغيير وتبديل وتحويل ، وما يصيب الناس في أحوالهم وأرزاقهم وأعمارهم ، حضارات تحيا وأخرى تموت وإهلاك دول كبرى ونهاية أمة عظيمة وإماتة شخصيات تاريخية مؤثرة ، ومملك يقوم وآخر يزول ، ولايدوم بؤس ولا يبقى نعيم ، وإن يد الله لبادية الآثار فهي تأتي الأمم القوية الغنية المفسدة فتنقص من قوتها وراثتها وقدرها وتحصرها في رقعة من الأرض بعد أن كانت ذا سعة وسلطان وإذ حكم الله عليها بالانحسار والتراجع (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبِرَ لِحُكْمِهِ) (لا مُعْتَبِرَ لِحُكْمِهِ) لا زاد لحكمه ، والمعقب هو الشيء الذي يعقب الشيء فيبطله كقوله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف/٢١ ، حكم الله نافذ ، ليس يتعقب حكمه أحد ولا راد لقضائه بنقض أو تغيير ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ ، (وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) وهو سبحانه سريع الانتقام ممن عصاه لمن يريد الانتقام منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ آل عمران/٤ ، عن الإمام الصادق (ع) : (نَنْقُصُهَا بِذَهَابِ عُلَمَائِهَا وَفُقَهَائِهَا وَأَخْيَارِهَا) الأمل ٧/٣٨٧ ، وإن العاقل المتبصر يتعظ بهذه التقلبات والتغيرات كقوله ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠ ، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنْ

التَّذَكِرَةُ مُعْرِضِينَ ﴿ المدثر/٤٩. فائدة: ١- (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) يحدث نقص في الأموال والأنفس والثمرات باعتبار هذا مقام الذي يهتم له الإنسان ، ونقص الأرض بذهاب خيراتها وبركاتها ومياهاها ، ونقص الأرض بذهاب الثقة بين الناس وهجران العلم والعلماء والفضلاء وتتوجه الناس إلى الطغاة والمفسدين ، وهو مقام تهديد بنقم الله وبمكر الله للماكرين ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف/٩٩ ، إن هذا القانون العام لنقص أهل الأرض من أطرافها يسري على كل المجتمعات البشرية ، فهي كافية لإيقاظهم وهدايتهم وعودتهم إلى الله تعالى ، إذن : فليفيقوا من غفلتهم ؟ فَإِنَّ الْعَقْلَةَ مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ ، فَلَا تَعْقُلُ فَلَسْتَ بِمَعْقُولٍ عَنْكَ !. ٢- (سَرِيعُ الْحِسَابِ) لو أراد الله سبحانه حساب الناس جميعاً في طرفة عين لكان ذلك كما أراد ! فلا يشغله محاسبة أحد عن محاسبة غيره ، في نهج البلاغة خطبة ١٩٥: (في صفة الله تعالى) (لَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلَا تُؤَلِّهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ).

٤٢ - ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

الدَّارِ ﴿

المكر : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وهو محمود إن قصد به فعلاً جميلاً ، ومذموم إن قصد به فعلاً قبيحاً. المعنى : لقد مكر الكفار بالأنبياء السابقين كما مكر كفار قريش بك يا محمد ، ووضعوا الخطط المتنوعة لإيقاف الدعوة إلى الإسلام ، فلم ينفعهم مكرهم لأن الله مكر بهم (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم بإرادته ويبطل مكر كل ماكر ، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ويعاقبهم عقاب الماكرين ، فلم يقدرُوا على صدنا من أن تأتي الأرض فننقصها من أطرافها فليعتبروا وهو (يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) من خير وشر فيجازي عليه ، وهو واسع عليم لا تخفى عليه خافية (وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) لمن تكون العقاب الحسنة في الآخرة كقوله ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ ﴾ القمر/٨ ، ومن الجهل أن يعلم الإنسان الحقيقة بعد فوات الأوان عندئذ لا ينفع الندم ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النمل/٥٠-٥١.

٤٣ - ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

أنكروا رسالة محمد (ص) رغم البينات والدلالات ، ومن لا تليق به الهداية تليق به الغواية والضلالة ، أنكروا الرسول والرسالة لأتهما مع الضعفاء والفقراء والمظلومين وثورة على الظلم والطغيان ، وثورة على الجهل وكل أتباع أعمى يحول بين الإنسان وعقله وحرية وسعادته (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) بأبي رسوله الأمين ويحكم بأنكم على غي وضلال ، وأيضاً يشهد لي على مدى حركة التاريخ كل مؤرخ منصف وكل عالم محايد بأبي رسول الخير ورحمة مهداة للإنسانية جمعاء كقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء/١٠٧ ، وأعداء أهل الخير هم أهل الشر والضّر والجاهلية وأن يشهد لي أيضاً (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) حملة علم

الرَّسَالَةَ وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب المنصفين يشهدون بأن فيها بشارات عن نبوتي ورسالتي وأيضاً هم العالمون بعلم الكتاب وهو القرآن الكريم المعجز في بيانه والبلغ في سياقه أن هذا الكتاب لا يمكن نزوله إلا من قبل الله تعالى ، روي عن الباقر والصادق (ع) في الآية : (هُم عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَئِمَّةُ الْهُدَى) الأمثل ٣٨٨/٧ ، عن النبي (ص): (عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٤/٣ وهذا من مصاديق الآية. فائدة: ١- (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وهو الذي علّمه الله القرآن وعلّمه البيان وعلوم القرآن وأسراره وبلاغته ، فبذلك علم حقيقة الإسلام وعظمة القرآن كقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/٤٣ ، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الأنعام/٢٠ ، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ القصص/٥٢ . ٢- إستطاع صاحب سليمان (ع) إتيان عرش ملكة سبأ في طرفة عين وكان عنده علم من الكتاب ، فما بالك في ما يستطيع فعله من لديه علم الكتاب كله (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)؟! وفي الختام نقول : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/١٧-١٨ .

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ تم بعون الله تعالى (وَعِيِ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة الرعد ، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ١٩/ربيع الآخر/١٤٣٧ هـ الموافق ٢٠١٥/٤/٢ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إن ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى



من مقاصد السورة :

مكية إلا آيتين مدينتين ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقُرْآنُ﴾ تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة ، الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث والجزاء ، وتناولت دعوة الرسل الكرام وبيّنت وظيفة الرسول ، ووضّحت معنى وحدة الرسالات السماوية ومسؤولية الرسل الكرام إخراج البشرية من الظلمات إلى النور وهدفهم واحد وإن اختلفوا في الفروع والأساليب ، وتحدّثت السورة عن رسالة موسى (ع) وضربت الأمثال بالمكذّبين للرسل من قوم نوح وعاد وثمود ، وتحدّثت السورة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان وكلمة الضلال بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة ، وسمّيت السورة (سورة إبراهيم) تخليداً لموقفه الجهادي في تحطيم الأصنام وحمل راية التوحيد ، وجاء بالشرعية السهلة السّمحة ودين الإسلام الحنيف القيم الذي بعث به خاتم

المرسلين. الجزء الثالث عشر ، عدد آياتها (٥٢) ، رقمها (١٤). فضلها : عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجَرَ فِي رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ وَلَا جُنُونٌ وَلَا بَلْوَى) جمع البيان ٦١/٦. ملاحظة عامة : راجع فضل سورة البقرة. وكلّ فضل من فضائل سور القرآن كلّها يعتمد على مقدار الصدق وإخلاص العمل من الإنسان ، ومقدار رضا الله سبحانه تجاه الإنسان ، وليس بالمني والأمانى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الرَّكِبِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (الر) تقرأ (ألف ، لام ، راء) وهي من المتشابهات والمبهمات ، قيل إنّها إشارة إلى إعجاز القرآن حيث أنه مؤلّف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه أو بسورة قصيرة في الفصاحة والبلاغة والدلالة ، تقدّم الحديث حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) لم تنشئ القرآن أنت وإيّما أوحيناه نحن إليك لغاية (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) إنّ وراء هذا التعبير البليغ لآفاقاً بعيدة الحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل والقلب وفي عالم الحياة والواقع ، فهو أكبر من أن تحصيها الكلمات ، لتخرج الناس جميعهم على الكرة الأرضية باعتبار القرآن منهجاً عالمياً كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سبأ/٢٨ ، لتخرجهم من ظلمات الجهل والضلال والتخلّف وسوء العادات والتقاليد الجاهلية، إلى نور العلم والإيمان والاستقامة والحياة الفاضلة والتقدّم الحضاري ، التور الذي يكشف هذه الظلمات ، يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير ثم يكشفها في واقع الحياة (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) بأمر ربهم وتوفيقه لتهدئهم إلى طريق الله المستقيم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام القيم ، وفي الاستقامة السلامة والكرامة بلا أية ملامة ولا ندامة كقوله ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يونس/٢٥ ، (العزير) الغالب على أمره المتمكن من سلطانه (الحميد) المحمود بكل لسان المشكور في كلّ مكان الموجود في كلّ أوان والمسبح في كلّ جنان. فائدة :
١- وجاءت (الظُّلُمَاتِ) بالجمع و(النُّورِ) بصيغة المفرد أي (الظُّلُمَاتِ) تجمع أنواع الخرافات والانحرافات والضلالات والغلو والتفسير بالرأي والأحكام الوضعية المختلفة الضالة بكلمة (الظُّلُمَاتِ) بينما (النُّورِ) من الهدى والهدى من الحق، والحق واحد وأحق أن يتّبع لأن الحق وحدة واحدة موحدة متحدة ، لا يتجزأ ولا يتعدّد لذلك جاء بالمفرد ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يونس/٣٢ ، وهذا يعني مجرّد أن تترك الحق الواحد فسوف تقع في الضلال المتعدّد والمتنوّع عندئذ يصعب الرجوع إلى الهداية. ٢- والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً منهج حياة كامل تتعلق الروح به لأنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده والتخلّص من ربوبيات الطغاة والاستعلاء

على حاكميتهم. ٣- (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) ليس في قدرة الرسول إلاّ البلاغ المبين ، أمّا إخراج النَّاسِ من الظلمات إلى النور فإمّا يتحقّق بإذن الله وفق سنّته من اتّخاذ الأسباب ، والرسول يحاول أن يوقّر الأسباب بقدر المستطاع. ٤- تارة تتحدّث آيات القرآن عن إخراج النَّاسِ من الظلمات إلى النور ، فمنها ما نسب إلى الله تعالى كقوله ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة/٢٥٧ ، ومنها ما نسب الإخراج إلى الأنبياء كقوله ﴿أَنْ أُخْرَجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ إبراهيم/٥ ، ومنها ما تنسب إلى الكتاب كقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وكلّها من مصدر واحد وهو الله عزّ وجلّ.

٢ - ٣ ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

الله بدل من (العزیز الحمید) الآية/١ ، أي الله عز وجلّ الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض، الغني عن الناس المسيطر على الكون والكائنات (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) هلاك ودمار للكافرين وتهديد لهم من عذاب الله الأليم المادي والمعنوي سيحل بهم لتماديهم في الضلال والفساد. فائدة : خسارة كبرى لمن لم يخرج نفسه من ظلمات الجاهلية في المجتمعات الفاسدة إلى نور الهداية والاستقامة والصلاح ، ثم وضّح صفات أولئك الكفّار ومن شابههم في أعمالهم بقوله ٣- (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) الذين (يَسْتَحِبُّونَ) يختارون ويؤثرون ويفضلون الحياة الدّنيا الفانية (العاجلة) على الحياة الآخرة الباقية (الآجلة) وما فيها من كمالات وسعادات ، ويؤثرون الباطل على الحق لا لشيء إلاّ لأنهم ينقادون بمعدتهم وشهواتهم لا بعقلهم وفطرتهم وهذا يصطدم بتكاليف الإيمان (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) يمنعون الناس عن طريق الحق بمختلف أنواع المنع من ترغيب أو تهيب أو تضليل إعلامي ويزرعون الشكوك والشبهات في طريق الهداية والاستقامة وكانوا بذلك ضالين مضلين وفاسدين مفسدين قد ضلّوا وأضلوا كثيراً عن سواء السبيل المستقيم (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) يطلبون أن يكون الطريق إلى دين الله معوّج مملوء بالخرافات ليوافق أهواءهم ، ومملوء دين الله بالتحريف والتزييف والدس والكذب والغلو والغش والمؤامرات والتعاون المشبوه مع الطّغاة ، ولا يختص هذا الإجرام بالملحدّين والمشركين ، فإن كثيراً من المسلمين يكذبون ويخونون وينحرفون ويتآمرون على الإسلام والمسلمين ويتعاونون مع أعداء الإسلام والمسلمين.

كقوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ الكهف/٥ ، (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أولئك المتصفون بتلك الصفات الخطيرة على عمومها في بعدٍ عن الحق كبير وفي ضلال أكيد بعيد المدى لا يُرجى لهم الصلاح ولا النجاح لأنهم انغمسوا في الرذائل وبلغوا في الفساد غايته وتفننوا وأصبحوا خبراء فيه ضالّين مضلّين فانقلبت عندهم المقاييس الصحيحة ، عن النبي

(ص) : (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَّةِ الْمُضَلُّونَ) كنز العمال خير ٢٨٩٨٦، وعنه (ص) : (مَنْ إِزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْ هُدًى لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) تنبيه الخواطر ص ٢٧٥.

٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
وما أرسلنا من رسول في الأمم الماضية إلا بلغة قومه ولهجتهم (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) شريعة الله ويفهمهم مراده ليعرفوا حقوقهم وواجباتهم وما يسعدهم وما يشقيهم فيفهموه ويفهموه غيرهم ، لتتم الغاية من بعثة الرسل والغاية من الرسالة وعند البيان الواضح تنتهي مهمة الرسول كل رسول (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ) فيضلُّ الله من جحده وإتبع هواه وشهوته وأعرض عن هذا البيان ، ولا يشاء الله بضلال أحد إلا بعد إلقاء الحججة عليه ووضوح البيان وهو بادر بالعصيان واعتمد الضلال كقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ التوبة/ ١١٥ ، (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقد قضت سنة الله الثابتة أن يهدي من يريد الهداية ويتدبر ويتعقل ويتبع الحق ، وفيه دلالة على حرية الإنسان في الاعتقاد والاختيار ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة/ ١٦ ، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) لا يضره ولا يغلبه من ضلَّ منهم وهو الذي لا يغلب في إرادته (الْحَكِيمُ) قضاؤه متقن محكم مستمر ومستقيم في أفعاله. فائدة : (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ..) فالضلال - إذن - يقاس بمعصية الله ، والهداية بطاعته ، فالذي يشاء الضلال ويريده هو الإنسان ، وثبت الله عليه ما أراد لنفسه من الضلال ، وكذلك الهداية كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/ ٢٣ ، بمعنى : فيضل الله من يريد الضلال لنفسه ، ويهدي الله من يريد الهداية لنفسه (وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) وبهذا الاعتبار صحت نسبة الهدى والضلال لله تعالى.

٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

(بِآيَاتِنَا) بالمعجزات الباهرات التسع الدالة على صدق نبوته (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الكفر والضلال والجهل إلى نور العلم والإيمان والتوحيد (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ) خصوص لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد (ص) ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ إبراهيم/ ١، مما يدل على أن الرسول رحمة مهداة للناس جميعاً ورسالته عالمية شاملة ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ص/ ٨٧ ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/ ١٠٧، ولكن الغاية الشريفة لكل الأنبياء واحدة وقد تكرر الحديث عن بني إسرائيل عشرات المرات مما يدل على مبالغتهم المضاعفة في الضلال والإفساد ، مبالغة لم تصادف أن كانت في بشرٍ سواهم فهم شخصيات شاذة ومعقدة وخطيرة وماكرة، وهذا تذكير للمسلمين أن يتعضوا بهم وأن لا يتأثروا من طباعهم

القاسية المعدية و(الَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) وَأَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِبْرَةً لِلنَّاسِ فِي نَجْحِ الْبَلَاغَةِ خُطْبَةُ ٣٢:

(اتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ) (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) وكلَّ الأيَّامِ أَيَّامِ اللَّهِ ، ولكنَّ المقصود هنا الأزمنة والظروف والأحداث المميزة البارزة التي يظهر فيها أمر الله جلياً واضحاً وظهور نعم الله ليس فيه لغير الله صنع، كخروج نوح (ع) ومن معه في سفينة النجاة ، ويوم نجاة إبراهيم من النَّار ويوم التحرر من ظلم فرعون وأسرهِ وعذابه ، وإنزال المن والسلوى ، وكيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خبر٤٢٧٤٨ ويوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ الإنفطار/١٩ ، وكلَّ يوم ينتصر فيه للحق والعدل وينتهي فيه حالة الظلم والجور ، هو من أَيَّامِ اللَّهِ كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥ ، وقد جاء في الروايات عن أهل البيت (ع) أنَّ من (أَيَّامِ اللَّهِ) ظهور الإمام المهدي (ع) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً...

وهكذا أَيَّامُ اللَّهِ : سنن الله وأفعاله وحكمه في عبادته من إنعامٍ وانتقامٍ واستدرج ، وكفى بالأيام عنها لأنها ظرف لها جامع لكل منها (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ) مبالغ في الصَّبْر ، التذكير بِأَيَّامِ اللَّهِ يكشف عن نظام سنن الله المتحركة في الناس باستمرار! وفي ذلك لعلراً ودلالات لكل عبدٍ منيب صابر على البلاء وعن ملهيات الدنيا طلباً للتأمل في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق (شُكُورٍ) كثير الشكر على النعماء أي عود نفسك على شكر الله مانح النعم ، والذي شكر النعم شكر المنعم ، والذي شكر الناس شكر الله ، فائدة : الصَّبْرُ الشُّكُورُ هو الذي يدرك هذه الآيات وما وراءها ويجد فيها عبرة له وعظة لأنَّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، جدير بالمؤمن أن يتعظ ويصبر ، ويشكر عند الرخاء ويصبر عند البلاء ، ومع بذل الجِدِّ والجهد والاجتهاد والذكاء في التخلص من المعاناة ، وهذه من فوائد التذكير (بِأَيَّامِ اللَّهِ). فائدة : روي : (أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى مُوسَى أَنْ حَبَّبَنِي إِلَى عِبَادِي فَقَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَحْبَبْتَنِي إِلَى عِبَادِكَ وَالْقُلُوبُ بِيَدِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ ذَكِّرْهُمْ نِعْمَائِي) البحار ٧٠ص ٢٠

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

اذكروا نعم الله الجليلة والكثيرة والكبيرة عليكم (إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) حين نجاكم من ذلِّ فرعون واستعباد زبانيته (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب (وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) يذبحون الذكور عند ولادتهم لئلا يخرج منهم النبي الموعود ،

ويستبقون الإناث أحياء مع الذل للاسترقاق والخدمة ومنعاً للتكاثر (وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) وفي تلك المحنة ابتلاء لكم مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (وَالْبَلَاءُ عَلَى قَدْرِ الطَّبَاعِ) كلما قست طبائعهم قسى بلاؤهم وهذه سنة تاريخية عامة ! وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل كل مولود ذكر! ومع كل هذه النعم وخلصهم من فرعون وظلمه، لم يذكروا ولم يشكروا الله بل توردوا على موسى ، والآن في عصرنا الحاضر ينشرون أنواع الفساد كقوله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الصف/٨.

٧ - ﴿وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

تَأَذَّنَ : أعلم وأخبر من الأذان وهو الإعلام والإخبار ، المعنى : واذكروا أيضاً حين أعلمكم ربكم في كلِّ الرِّسالات السماوية إعلاماً واضحاً لا شبهة فيه : لَئِن شَكَرْتُمْ نعمائي بالإيمان والطاعة والاستقامة وحُسن الخلق لأزيدنَّكم من فضلي ورحمتي في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما (بِالشُّكْرِ تَدْوُمُ النَّعْمِ وَتُدْفَعُ النَّقْمُ) كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدَآءُ﴾ الجن/١٧ ، وقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣ ، حقيقة الشكر استعمال النعمة بذكر المنعم المتفضل وشكر إحسانه الذي يؤدي إلى الإيمان والاستقامة ، وهذا الشكر موجب لمزيد من النعمة كقوله ﴿وَمَا أَفْقَرْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ/٣٩ ، (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) لَئِن كَفَرْتُمْ : من الكفران لا من الكفر ، والكفران : تغطية فضل المنعم وعقوق النعم والتكبر لنعمة الله ، المعنى : ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي لشديد في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما ، قابل عدم الشكر بالكفر أي الكفران ، والذي لا يشكر فضل الله عليه لا يشكر فضل الناس عليه ، زينة النعم شكرها ولا يعرف قيمة النعم إلا شاكرها ، عن الإمام الصادق (ع) : (شُكْرُ النَّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمُحَارِمِ) نور الثقلين ٥٢٩/٢ ، في نهج البلاغة حكم ١٣٤ : (مَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُجْرَمِ الزِّيَادَةَ) ، في غرر الحكم : (شُكْرُ الْمُؤْمِنِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ) (الشكر العملي) وَشُكْرُ الْمُتَأَفِّقِ لَا يَتَجَاوَزُ لِسَانَهُ ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣ . فائدة : نقف أمام حقيقة كبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر. إنَّ شكر النعمة وشكر المنعم دليل على استقامة الفكر والسلوك والمقاييس الصحيحة في النفس البشرية، وهي النفس التي تتحسس قرب الله منها وفضله عليها ورحمته بها واستجابة دعائها عند التضرع والانقطاع، فكما أنَّ الله قريب منها فهي أيضاً قريبة منه ، وهذا التقارب المتبادل بينهما يزيِّي النفس ويظهرها فتشكر الله بمقدار قربها وحبها وجذبها منه سبحانه ، عن الإمام الباقر (ع) : (لَا يَنْقَطِعُ الْمَزِيدُ مِنَ اللَّهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنَ الْعِبَادِ) ميزان الحكمة ١٤٤/٥ كقوله ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ﴾ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿الحجر/٤٩-٥٠ وكذلك حبَّ الشكر يساعد على حبِّ الفداء والتضحية وزيادة في العزم والإرادة ، كما يحصل من دم شهيد

واحد يبعث الله إرادة المجاهدين ، ومن دم الشهيد تنبت شجرة التوحيد (لا إله إلا الله) (والعذاب الشديد على كفران النعمة) قد يتضمّن ذهاب النعم أو سحق آثارها في الشعور فكم من نعمة تكون بذاتها نعمة يشقى بها صاحبها ، وكم من نعمة تنعص العيش وتكره الأيام وتقلق النفس ، أما عذاب الآخرة فهي حقيقة مؤكدة للمؤمن.

٨ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنسَمُومَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾

بعد أن يغس موسى (ع) من إيمان بني إسرائيل قال لهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق ، جواب الشرط محذوف وتقديره، فلن تضروا الله شيئاً (فإن الله لغني حميد) هو سبحانه غني عن شكر عباده فلا ينتفع بشكرهم ، إنّه تعالى حميد مستحق للحمد بذاته وفي جميع أفعاله ، وهو المحمود في كلّ لسان (ولا يُحمد على مكرهه سيّاه) ولا يتضرر بكفر من كفر ، والكون والكائنات كلّها مطيعة له طاعة تكوينية ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء/٤٤ ، وإمّا يعود التّع والضرر إلى الإنسان فيما أتى به ، وأتّه تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمده باللسان وإمّا يحمده بالضمائر والمشاعر والأحاسيس ، وبلسان الحال قبل لسان المقال ، ولاسيّما في حال الأزمان الخانقات، عن النبي (ص) : فيما يرويه عن الله عز وجل (يا عبّادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبّادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً..). ومثله الميزان ٢٥١/١٢ ، روح البيان ٤٤٣/٥ .

٩ - ﴿الْمَآئِنُكُمْ بآ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فَوَرَنُوحٍ وَعَادٍ وَنُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

من كلام موسى (ع) ، والاستفهام للإنكار أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة وهو واعظ ومحذّر كفوم نوح وعاد وثمود ماذا حلّ بهم لما كذبوا بآيات الله ؟ وكلّ من أعرض عن الرحمن استقبله الشيطان وصار من جنده (والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) والأمم الذين جاءوا بعدهم (لا يعلمهم إلا الله) لا يحصي عددهم وعدد رسلهم إلا الله ولا يعلم بحقيقة حالهم وما فعلوه وما فعل الله بهم من العقوبات تفصيلاً إلا الله (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالحجج الواضحات والدلائل الباهرات أفلا تعتبرون بالأمم السابقة (والَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَآضِيْنَ، وَعَظَّ اللَّهُ بِهِ الْبَاقِيْنَ) (فردوا أيديهم في أفواههم) منعوا رسلهم أن يتفوهوا بالحق وسدوا عليهم طريق التكلّم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا ويكفّوا عن التكلّم بالحق كقوله ﴿عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَمَلِ مِنَ الْغَيْظِ﴾ آل عمران/١١٩ ، (وقالوا إنّنا كفرنا بما أرسلتم به) كفرنا بالرسول والرسالة (وإنّا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مريب) مريب : موقع من الريبة والتّهمة وسوء الظنّ أي إنّنا لفي شكٍّ عظيم من دعوتكم وقلق وإضطراب من دينكم. فائدة : (لا يعلمهم إلا الله) لا يعلم عدد أنبياء الله إلا الله ولكنهم كثيرون ، وفيه

تكذيب لمن حدّد عددهم ب(١٢٤) ألفاً مع قوله ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْضُصُهُمْ عَلَيْكَ﴾ القصص/١٦٤ ، وقوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ المؤمنون/٤٤ تترًا : متتابعين ، وعن ابن مسعود : قال في قوله (لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد.

١٠- ﴿قَالَتْ مَرْسُلُهُ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَسْمَاءَ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله وتوحيده وعجائب خلقه وإتقان صنعه شك ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، ينبغي أن لا يكون في وجود الله شك ، لأنّ الشك في البديهيات والواضحات من أشكال المشكلات ! فيكون الشك في الله مستنكراً ، لأنّ الشك يحبط الإيمان ويطغى نور الاطمئنان ، ومن قوي إيمانه لم يشك ، عن الإمام علي (ع) : (لَا تَرْتَابُؤْا فَتَشْكُؤْا وَلَا تَشْكُؤْا فَتَكْفُرُؤْا وَلَا تَرَحَّصُؤْا لِأَنفُسِكُمْ فَتَدَهِنُؤْا..). البحار ٢/٥٤ (أفي الله شك) أي لا شك في الله ، إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه ، يجب الإمام الحسين الشهيد (ع) في دعائه بيوم عرفة لأمثال هؤلاء (مختصر)

(كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيْ كَوْنُ لِعَيْزِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المَظْهَرُ لَكَ ؟ مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تُكُونَ الآثَارُ هِيَ الَّتِي تُؤْصِلُ إِلَيْكَ ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا وَحَسِرَتْ صَفْقَةٌ عَبْدٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا ، ... مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ لَقَدْ حَابَ مَنْ رَضِيَ ذُنُوكَ بَدَلًا وَلَقَدْ حَسِرَ مَنْ بَعَى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً ، ... تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهَلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَارَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ أَمْ كَيْفَ تَغِيْبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحَاضِرُ) (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فَاطِرُ : خَالِقُ موجد أي خلقهما ومبدعهما في أعلى الأنظمة كونهما من العدم على غير مثال سابق (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) إنّ هذا الخالق العظيم يَدْعُوكُمْ إلى الإيمان لتستقيموا ليغفر لكم بعض ذُنُوبِكُمْ (وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) إن آمنتم أمدّ في أعماركم (إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم بسرعة على ذنوبكم فأمهلكم عن الإمام الصادق (ع) : (يَعِيشُ النَّاسُ بِإِحْسَانِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُونَ بِأَعْمَارِهِمْ ، وَيَمُوتُونَ بِذُنُوبِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَمُوتُونَ بِأَجْلِهِمْ) البحار ٥/١٤٠ (قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا (تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) تُرِيدُونَ أَنْ تصرفونا عن عبادة الآباء والأجداد وهم أعز عليهم من الله ، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) فَأْتُونَا بمعجزة خارقة وبحجة ظاهرة على صدق نبوتكم تبطل ما نحن فيه . فائدة : (وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) للإنسان أجلين كقوله ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأنعام/٢ ، أحدهما (أجل غير مسمّى) وأجل معلق غير محتوم وغير

ثابت يتغيّر بالزيادة أو التقصان نتيجة للأعمال الصالحة أو الطالحة ، والأجل الآخر مسمّى ثابت لا يتغيّر مطلقاً وهو أقصى ما قدره الله للإنسان من البقاء في الدنيا كقوله ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المنافقون/ ١١ ، والأجل المسمّى بالنسبة إلى الفرد من الإنسان يوم موته ويسمّى الأجل المحتوم، وبالنسبة إلى الأمة يوم انقراضها كقوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف/ ٣٤ ، وبالنسبة إلى عامة البشر يوم نفخ الصّور ، وقيام الساعة.

١١ - ﴿قَالَتْ لَهُمْ سُرُسُوهُ إِنَّ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْعَلِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَأَنْتُمْ كُنُوسُلْطَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قالت الرسل نعم نحن كما قلمت بشرٌ مثلكم (ولكن الله يمنُّ على مَنْ يشاء من عباده) يتفضّل على مَنْ يشاء بالنبوة والرسالة ، إنه تعالى يختار من عباده البشر من هو مؤهل وكفو لوحيه وحمل رسالته، كما يختار أحدكم من هو أهل لوديعته وأمانته ؟ كقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام/ ١٢٤، فهناك اختلاف في صفات الكمال والجمال والجلال بين أفراد البشر (وما كان لنا أن نأتيكم بسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية ومعجزة مما اقترحتموه علينا إلا بإذن الله (وعلى الله فليتوكّل المؤمنون) على الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم وعلى قدر الإيمان يكون التوكّل ، في غرر الحكم: (حسُنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ تَقَاتِهِ بِهِ) والقلب الذي يحس أنّ يد الله سبحانه تهديه إلى السبيل المستقيم ، هو قلب سليم موصول بالله لا يخطئ الإيمان بالله ولا يشكُّ بوجوده أيّاً كانت العقبات والمعاناة.

١٢ - ﴿وَمَا كُنَّا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

قالت الرسل أي مانع يمنعنا من التوكّل على الله ؟ إنّها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه (وقد هدانا سُبُلَنَا) وقد بصّرنا طريق النجاة وحذرنا من طريق الضلال (ولنصبرنَّ على ما آذيتُمونا) في سبيل الدعوة إلى الله وإلقاء الحجّة الرسالية عليكم بوضوح فلا نضعف ولا نتهاون ولا نتراجع عن هدانا الكبير (وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون) وعلى الله يستند المؤمنون ويستعينون ويفوضون أمورهم كلّها إليه سبحانه كقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ النساء/ ٤٥ ، (ومَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ). فائدة : ١- ليس مفهوم التوكّل تكريراً وإمّا معناه الثبات على التوكّل فليستمرّوا وليثبتوا عليه في كلّ الأحوال. ٢- التوكّل الأول في صدر الآية كان من أجل الشكر لله على هدايته لدينه ، أما التوكّل الثاني في آخر الآية فهو للاستعانة بالله على معاناة الأذى والصبر عليه ، في غرر الحكم : (أصلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ).

١٣ - ١٧ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَا لَكِنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسَكِّبَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ، وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، مَنْ

وَمَرَاتِهِ جَهَنَّمَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ، يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ مَرَاتِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٦﴾

قال الكفار للرسول الأطهار (لنُخْرِجَنَّكُمْ) : لنطردنكم من منطقتنا (أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا) أو لترجعن إلى ديننا واعتقادنا وعاداتنا وتقاليدينا كقوله ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ الأعراف/ ٨٢ ، عندما تنقلب المقاييس الصحيحة بحيث يرى القبيح حسناً ، والحسن قبيحاً ، هذا ذنب الطاهر عند العاهر والمخلص عند الخائن، إنهم عجزوا عن الحوار وأفجموا فلم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة الظالمة والعنف مع أنبيائهم (وَأَمَّا يَخْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفِ) ، في غرر الحكم : (مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ ظُلْمُ الْكِرَامِ) (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) أوحى الله إلى الرسل وأقسم لنُهْلِكَنَّ أعداءكم الكافرين المتجبرين الظالمين المهتدين لكم بالتهجير من الأوطان الذين لا يفقهون لغة الكلام ولم يؤثر فيهم الدليل والبرهان. ١٤- (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم (الذين هددوكم بالإخراج من أرضكم) ، في الحديث : (مَنْ آذَى جَارَهُ وَرَثَتَهُ اللَّهُ ذَارَهُ) روح البيان ٤/٤٠٥ ولو بعد حين (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) وَعِيدِ : وعيدي بالعذاب ، ذلك النصر للرسول وإهلاك الظالمين لمن خاف مقام ربه وخاف هيئته ومراقبته له وخاف عذابه ووعيديه ، فلم يتناول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر وخاف وعيد ربه فحسب حسابه واتقى أسبابه وحرماته وعظم شعائره فلم يفسد في الأرض ولم يظلم في الناس ، فهو من ثم يستحق الاستخلاف ويناله باستحقاق. ١٥- (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وَاسْتَفْتَحُوا : طلبوا من الله الفتح والنصرة ، إستنصر الرسول بالله على قومهم لما إنقطعت بهم الأسباب من كل جانب ، وبلغ بهم ظلم الظالمين وتكذيب المعاندين مداه فأعطاهم ذلك ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ معاند وهو عذاب الاستئصال، وخاب وخسر وهلك كل متجبر متكبر معاند للحق ١٦- (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الكافر الطاغية الفاسد جَهَنَّمَ أي بين يدي الجبار العنيد ونتيجة عمله أو من وراء حياته وهو ما بعد الموت فيكون وراءه ، وَيُسْقَى فيها بعنف مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ هو من قيح ودم يسيل من أجساد أهل النار. ١٧- (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) يَتَجَرَّعُهُ : يتلعه بإكراه وتكلف مرة بعد مرة لشدة مرارته وقذارته وحرارته ، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكرهته (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) ويأتيه الموت ويحيط به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة ومن كل مكان ، ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه إلى ما يشاء الله ! (وَالْعَذَابُ عَلَى قَدَرِ الْجَنَائِدِ ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ) كقوله ﴿لَا يُفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فاطر/ ٣٦ .

(وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) وله عذاب آخر غليظ مؤلم أغلظ وأشد من الذي كان قبله كقوله ﴿وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرًّا مَآبٍ﴾ ص/٥٥ ، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا يُعَاتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الكهف/ ٢٩ ، الْمُهْلُ : المائع القاتل. فائدة : ١- إنه مشهد عجيب وصورة فظيعة حيث الخيبة

والخذلان لكلِّ جبارٍ مبالغٍ في العناد فيصوّر مكانه في جهنم وهو خائب مخذول ، وهذا العذاب مقابل الإرهاب الذي كانوا يهددون به المؤمنين كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ العنكبوت/٥٢ ، وهكذا الإنسانُ الجَاهِلُ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَعْمَلُ الْعَدُوُّ بَعْدُوهُ ، إنّه درس بليغ لمن يعتدي على عرضٍ أو نفسٍ أو حرّيةٍ أو مال... ، وهكذا الإنسانُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي ، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ ، في غرر الحكم: (المرءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ)! عن السيّد المسيح (ع): (مَادَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ)؟! (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) هذا وصف حال كلِّ جبارٍ عنيد وهو في الدنيا ، وهذا كشف عن ﴿سُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/٢٣.

١٨ - ﴿مَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

(تَضَرَّبُ الْأَمْثَالُ لِلِاعْتِبَارِ) مثلُ أعمالِ الكفّار الصّالحة التي عملوها في الدنيا كتوفير للخدمات المتعدّدة ودفع الصدقات وصلّة الرّحم.. وغيرها في بطلانها ، مثل رماد عصفت به الرّيح العاصفة القوية فجعلته هباءً منثوراً قال (كِرْمَادٍ) ولم يقل (كتراب) لأنّ الرّماد أخف ولا قيمة له ، والتراب أثقل وقيّمته أكثر ، وكل من يعمل الخير بدافع شيطاني لا إنساني فهو بحكم الذين كفروا فلا ثواب له ، عن الإمام علي (ع): (إِعْمَلُوا بِغَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلُهُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنْ عَمِلَ لَهُ) البحار/٧٢/٢٦٦ (لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ) لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر كقوله ﴿وَحِطُّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هود/١٦ ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الرّيح ، من عمل عملاً ليس فيه لله رضا ولا للإنسان صلاح لا ينتفع بعمله ويكون هذا العمل كالرّماد الذي تذروه الرّياح الشديدة ، وصاحبه في خسران وحرمان ، (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) هو الضياع البعيد ، الخسران المبين لأنه بعيد عن حقيقة الهداية وبعيد عن الله كقوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الفرقان/٢٣ ، فلا ينتفع بعمله غداً لأنه كالرماد المتطاير في الهواء ، في نهج البلاغة خطبة ١٥٤: (العاملُ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَىٰ غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الصَّوَابِ). فائدة: (أَعْمَالُهُمْ كِرْمَادٍ) فأنظر كيف حمل هذا التشبيه من روعة التصوير لدقّة المعنى ، وجمال المطابقة بين المشبّه والمشبّه به ، وكأنّ روحاً واحدة تلبس جسدين ، إنه مشهد مثير يُجسّم معنى ضياع الأعمار والأعمال سدى من غير هدى ، إنه مشهد عاصف ناسف ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير البلاغي الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بدداً.

١٩ - ٢٠ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَسْأَلُ زُجَّاجَكُمُ رَبَّاتٍ خَلَقَ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

(أَلَمْ تَرَ) أي ألم تعلم علم اليقين أيها الإنسان كل إنسان بعين قلبك وتفكير عقلك وتتأمل ببصيرتك مع تركيز بصرك، أن الله الخالق العظيم انفرد في خلق السموات والأرض وما بينهما ، على أكمل وجوه الحكمة والتدبير وحسن التقدير عن عزة منه وقدره وغنى ، لتستدل على عظمة الخالق بعظمة المخلوقات ؟ لم يخلقهن عبثاً وبلا معنى وإنما خلقهن لأمر عظيم لحكمة جليلة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ آل عمران/١٩١ ، والفعل الحق أن يكون لفاعله غاية مهمة مطلوبة ومصالحة معينة وهدف محدد عالي المضامين ، فكل خلق متوجه لغاية مؤجلة ، فالنبات ينتفع بالعناصر الأرضية والحيوان ينتفع بالنبات وخلق السموات والأرض يخلف عالماً باقياً آخر بعد زواله هو غايته ، فلا تزال المخلوقات تقع مرحلة بعد مرحلة وتنال غاية بعد غاية حتى تصل إلى نهاية الغايات فلا غاية بعدها وذلك رجوعها إلى الله سبحانه ، ولو لم يكن كذلك كان باطلاً ، عن الإمام علي (ع) : (الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِعَيْرِهَا وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا) شرح النهج ٢٠/١٨١ (إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) إنه سبحانه في غنى عن الناس جميعهم وعن أعمالهم ، ولو شاء لأبادهم جميعاً وأتى بأمر غيرهم يعملون لله ويطيعونه وحده كما جاءوا هم بعد زوال أمم غيرهم قبلهم وهو على كل شيء قدير ، وتسمى هذه السنة سنة الاستبدال كقوله ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ نوح/٣٨ .

٢٠- (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) ليس ذلك على الله بعزير بصعب على الله ، وما إهلاككم والإتيان بخلق جديد بممتنع على الله تعالى ، والله تعالى لا حاجة به إلى أحد من خلقه ، بل الخلق محتاجون إليه فائدة : الانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السموات والأرض هو انتقال طبيعي في المنهج القرآني ، كما أنه انتقال طبيعي في مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج القرآني الفريد ، إن بين فطرة الكائن الإنساني وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الإبتحاح إليه والتقاط إيقاعاته ودلالاته. والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإجاءات هم أفراد معطلوا الفطرة وفي كياهم خلل.

٢١- ﴿وَمِرَرُوا لِلَّهِ جَسِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنَّا مُعْتَبَرِينَ عَنْنَا مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيسٍ﴾

أخبر سبحانه أن الخلق جميعهم يبرزون يوم القيامة لله تعالى أي يظهرون ويخرجون من قبورهم للحساب لا يستترهم عن الله ساتر فإذا كان يوم القيامة زال كل ساتر متوهم وشاهدوا أن لا حاجب هناك يحجبهم عنه تعالى ، لا في الدنيا ولا في الآخرة كقوله ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ القمر/٧ ، فاللفظ للماضي والمراد به الاستقبال للتحقيق وصحة الوقوع ، وهو مشهد من مشاهد يوم القيامة (فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) فقال ضعفاء التفكير والعوام ذو الشخصيات الضعيفة الذين يتبعون الاتباع الأعمى البؤساء ، لقداهم الطغاة

والمستكبرين وعلماء السوء القياديين في طرق الضلال الذين أضلّوهم عن سبيل الله في دنياهم وحاربوا الحق بكلّ سلاح ، وحاربوا الدّين بلباس الدّين بقصد أو بدون قصد ! (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا) كُنَّا أَتْبَاعًا لَكُمْ نسير خلفكم ونأتمر بأمركم ولا رأي لنا أمام رأيكم من غير أن نسألكم حجة على ما تأمرونا به و(الطِّيُّورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَفْعُ) و(شَبِيهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ) (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) هل أَنْتُمْ (مُغْنُونَ عَنَّا) دافعون عَنَّا شيئاً من عذاب الله ؟ والاستفهام للتوبيخ ، أين قوّتكم التي كنتم تشمخون بها وتعالون؟ (قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ) قال القادة معتردين : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لِلْإِيمَانِ سَبِيلَ التَّجَاةِ لَهْدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ ، ولكن عشنا في الضلال فأضللناكم ولم نستجب لنداء الهدى فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع وليس أمامنا نجاة ولا خلاص ، هم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله ، وهم يتهَيَّبون من تبعة الضلال والإضلال ، يرجع الأمر لله ، إثم مكر خبيث ! والله لا يأمر بالضلال كقوله ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ الأعراف/٣٠ ، ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الأعراف/٢٠٢ ، لقد أضلّهم الله لأنهم أرادوا الضلال واستحبوا العمى على الهدى (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) انتهى كلُّ شيء ولا ينفذ جدال ولا عتاب ، لأن المقام مقام حساب وعقاب ، لا دار أقوال وأفعال وعتاب (مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ) ليس لنا (مِنْ مَّحِيصٍ) من مهرب أو ملجأ أو منجى .

فائدة: ١- حثّ الله في هذه الآية على التحقق والتدبر ، وحذّر من التقليد والاتّباع الأعمى ، عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْحَيَاتُ قَبْلَ أَنْ يُرْوَلَ) البحار ١٠٥/٢ ، في غرر الحكم: (مَنْ جَعَلَ مُلْكُهُ حَادِمًا لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمِعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ) ، ٢- (فَقَالَ الضُّعْفَاءُ..) هذا الضعف والتخلّف ليس عذراً بل جريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً هو يدعو الناس كلّهم إلى حماه وعزّته فليحفظ الإنسان كرامته الثمينة ، فالقلة المستكبرة لا تتمكن من استتباع الكثرة المستضعفة إلاّ بتنازل الضعيف للقوي ويصبح تبعاً ومسلوب الإرادة عن الإمام علي (ع): (وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا) البحار ٢١٤/٧٧ ، في غرر الحكم: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحُرِّيَّةِ أَهْلَ لِلْعِتْقِ ، وَمَنْ قَصَرَ عَنْ أَحْكَامِ الْحُرِّيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ) ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، والناس خوفهم من الذل أوقعهم في الذل ، لكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولا تستطيع الطغاة أن تملك أكثر من الجسد أما النفس والعقل والفكر والقناعة وقوة الإرادة فلا يملك أحد أن ينال منها إلاّ أن يسلمها صاحبها للذل مختاراً ، عن الإمام الهادي (ع): (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرُّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨ ، في غرر الحكم: (كُلِّ عِزٍّ لَا يُؤَيِّدُهُ الدِّينُ مَدَلَّةٌ) ، والمقصود بالدّين هو الدّين القيم الأصيل الواحد الموحّد المتحد.

٢٢ - ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُهُمْ فَأَخْلَفْتُمُوهَا وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا آتَاكُمْ بِضُرِّ خِيَارٍ وَمَا أَنَا بِمُضِرِّ خِيَارٍ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أُشْرِكُ بِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إنه مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، وهنا يتكلم الشيطان ربما كان أقسى عليهم من العذاب الحسبي ! وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة في الأعماق ولا يملكون أن يردوها عليه . المعنى : وهنا يخطب إبليس مصدر الغواية في خطبته البتراء القاصمة في محفل الخائبين (لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ) ولما فرغ من الحساب والحكم بين الخلائق وجاء الحق وزهق الباطل وفاز المؤمنون ودخلوا الجنة وخسر المبطلون وأدخلوا النار في يوم القيامة قال (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ) في كتبه وعلى لسان رسوله وَإِنَّ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَحَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَى وَلَوْ كَانَ سَيِّدًا قُرَشِيًّا ، فقد وعد أهل الإيمان والصلاح حياة طيبة كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل/٩٧ ، ووعده المعرضين عنه مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَقَلَقًا نَفْسِيًّا وَمَعَانَاةَ الْكَاتِبَةِ كقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي فَسَاءَ قَرِينًا﴾ طه/١٢٤ ، ووعده جميع الخلق بعثاً وحساباً وجنةً وناراً في الآخرة ، فقد وعدتكم بالأهواء اللذيذة والآمال الطويلة وأنسيتم الموت وصرفتكم عن البعث والحساب وخوفتكم الفقر والذلة وملامة الناس وزينت لكم الأماني وحبب الدنيا كقوله ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨ ، (وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ) ووعدتكم خلاف ذلك فغششتكم كقوله ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء/١٢٠ ، وقلت لكم أن الجنة والنار حديث خرافة والضلال خير من الهدى فكذبتكم رسل الهدى وأخلفتكم الوعد (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) تسلط ، لم يكن لي قدرة قاهرة أو حجة ظاهرة أو قوة متسلطة عليكم فأجبركم على الكفر والمعاصي ولا أمتلك القدرة على سلب اختياركم وإرادتكم ، وهذا هو الشيطان في واقعه الخبيث وهذه هي حدوده وقدرته ﴿وَرَبِّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ، كالتاجر يعرض بضاعته في الأسواق على المستهلكين ويدعوهم إليها بكل ما يملك من وسائل الإعلام والدعاية والإغراء والرواج ، والبقية على المستهلك أن يختار ، ولكن العاقل لا يأخذ بشهادة أصحاب المنافع الخاصة بل ينظر ويبحث ويدقق ولا يشتري إلا بعد العلم واليقين ، ودعوة الشيطان وإغراءاته زور وبهتان باعترافه هو ﴿لَا غُوبِيَّ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ص/٨٢-٨٣ ، (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) إلا دعوتي إياكم إلى الضلالة والفساد بالوسوسة والتزيين فاستجبتكم لي باختياركم وبنفس راضية مرضية إذن (فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ) فلا ترجعوا باللوم عليّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم لأنكم تركتم الحجة اللازمة الكافية واتبعتم الحجة الضالة الخادعة

(مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِيٍّ) مَا أَنَا (بِمُصْرِحِكُمْ) بِمَغِيثِكُمْ وَمَعْنَى عَنْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ (بِمُصْرِحِيٍّ) بِمَغِيثِيٍّ وَمَعْنَى عَنِّي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئاً وَلَيْسَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ آيَةٌ صَلَةٌ.

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ) كَفَرْتُ بِإِشْرَاكِكُمْ لِي مَعَ اللَّهِ فِي الطَّاعَةِ دُونَ شَرِكِ الْعِبَادَةِ كَقَوْلِهِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فاطر/١٤ ، (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مؤلم لأهم ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١. فائدة: ١- تشير الآية إلى أن كل قول ظاهره الرحمة والصلاح وباطنه النقمة والفساد فهو من تحريض الشيطان أياً كان قائله كقوله ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ محمد/٢٥. ٢- وتدل الآية: أَنَّ الشيطان لا يقدر على أكثر من الوسوسة والإغواء وتزيين المنكر ولا يستطيع على الإكراه والإكراه ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ النساء/٧٦ ، وأي شيء يزين للإنسان عمل السوء المحرم ويرغبه في الشر والفساد ويزين له المنكر فهو شيطان ، سواء أكان من الإنس أو من الجن أو كان مალأً أو جاهأً أو هوى نفس أمارة بالسوء.. إلخ.

٢٣ - ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ لما ذكر تعالى أحوال الخاسرين ذكر بعده أحوال الفائزين ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة وبين الخوف والرجاء. المعنى : أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة المتنوعة الأشكال والألوان ماكتين فيها أبداً بأمره سبحانه وتعالى كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت/٧ ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ العنكبوت/٩ ، ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأنعام/٤٨ ، (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) تحييم الملائكة بالسلام والإكرام والأمان والترحيب والتقدير تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم ، والسلام الدائم والأمان من كل أذى مادي أو معنوي ، والسلام يأتيهم من الله تعالى كقوله ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ النور/٦١ ، والسلام من الملائكة ومن بعضهم البعض.

٢٤ - ٢٥ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

(أَلَمْ تَرَ) ألم تعلم علم اليقين أيها الإنسان - كلُّ إنسان - بعين قلبك وتفكير عقلك وتتأمل ببصيرتك مع تركيز بصرك ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة لتصوير سننه الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة كقوله ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران/١٧٩ ، (الأمثال تُضْرَبُ لِلإعتبار) المعنى : هذا مثل ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة السوء ، يقرب من أفهام السامعين والقارئین ترغيباً للخلق في إتباع الحق ،

فمثل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة المثمرة النافعة ، ولكلمة السوء بالشجرة الخبيثة المضرة ، **وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**: ذات معنى عام وهي كلمة الحق والخير والصلاح التي تتفرع عليها سائر الاعتقادات الحقة وتنمو عليها الأخلاق الزاكية أي البرامج العلمية الطيبة والعاملين النافعين من المؤمنين التي تَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وتدفع بالحياة إلى ما هو فيه التقدم والتطور نحو الخير (أصلها ثابت) راسخ مؤثر عميق الجذور لا تزعزعها السيول والعواصف وأعاصير الشكوك والشبهات ولا تقوى عليها موجات الأكاذيب والافتراءات ولا معاول الدس والمؤامرات (وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ) وأغصانها عالية ممتدة نحو السماء بعيدة عن تلوثات الأرض وأقذارها وتنسجم مع حركة النظام الكوني العام. ٢٥- (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) تعطي (أُكْلَهَا) أي ثمرها الطيب المفيد كل وقت بتوفيق خالقها وحسن تكوينها ، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعمله الصالح النافع يصعد إلى السماء كل مؤمن بقدره وله الأجر والثواب والبركة والخير النافع للناس في كل وقت (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لعلهم يتعظون بتدبرها فيؤمنون كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر/١٠.

فائدة: ١- فيشبه المعنى الباطن المعنوي غير المحسوس بالمعنى الظاهر المادي الواضح المحسوس ، ليفهم الناس الهداية فيتبعوها والضلال فيجتنبوه، فالهدف من تشبيه الكلمة بالشجرة هو تجسيم الحقائق الواقعية وصبها في قالب الحواس ليسهل التفاعل معها. ٢- يشبه سبحانه كلمة الإيمان بشجرة طيبة نافعة عميقة الجذور تثبت عروقها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء وهي ذات ثمر طيب نافع في كل حين ، ذاك أن الهداية إذا استقرت في قلب فاضت منه وانتشرت إلى قلوب مؤمنة كثيرة فكأنها شجرة أثمرت كل حين. ٣- ضرب الأمثال هي أسهل الطرق لتبيين الحقائق الدقيقة وتقريبها إلى إفهام الناس كافة فيفهمها العالم والعامي كل على مستواه. ٤- الخير الأصيل كالمنهج الإلهي النقيس لا يموت ولا يذوي مهما زاحم الشر وأخذ عليه الطريق ، والشر كالمنهج الوضعي الخسيس ، كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به فلا تبقى منه بقية ، عندئذ يتهالك الشر ويتهشم مهما تضخم وإستطال، في نهج البلاغة حكم ٣٨٧ : (مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ ، وَ مَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْفُورٌ ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَاقِبَةٌ). في الحديث (خَيْرُ الشَّرِّ مَا أَصَابَ الْأَشْرَارَ ، وَشَرُّ الْخَيْرِ مَا أَصَابَهُ الْأَشْرَارُ). وبهذه الكلمة الطيبة المباركة يرتفع الإنسان فوق جاذبية الأرض وأكبر من الميول بهذا التراب وعدم التعلق بحب الدنيا ، فيتعلق بجاذبية السماء ويلتحق بالملا الأعلى روحاً قبل الجسد فإذا هو من أهل هذا الملا المبارك ، ويُشرف من عل على هذا الوجود الأرضي فيرى كل شيء فيه صغيراً كما في نهج البلاغة خطبة ١٩٣ : (عَظْمُ الْحَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) !

٢٦ - ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾

الكَلِمَةُ الخَبِيثَةُ : ذات معنى عام ، وهي كلمة السوء والباطل والشر والفساد وما يتفرّع عليها من سائر الاعتقادات الباطلة وينمو عليها من الأخلاق الذميمة وتنشأ منها الأعمال الطالحة ، وكل كلام يضر الناس ولا ينفعهم فهو خبيث لعين سواء صدرت من مسلم أم غيره ، من قائد أم من العوام ، بل إن سكوت القيادة عن فساد الباطل وعدم مناصرة الحق من أعظم الجرائم، في الحديث: (السَّكَيْتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَحْرَسَ) تفسير الكاشف ٣٢/٥ (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ) بشمارها وآثارها (اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها في أعماق الأرض ولا في أعماق النفوس ولعدم نفعها وضرر وجودها فظاهاها يعرّو ويسرّو وباطنها يضر.

(مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) ليس لها استقرار وثبات ، وكذلك كلمة السوء لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة ولا خير فيها ، وهذا أصدق مثل للباطل وأهله ، الذين يتعالون ويتعاضمون ويحيل للجاهل أنهم شيء عظيم وأنهم أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، وما هم إلا كشجرة ضخمة ولكنها بلا أصول ولا جذور في أعماق الأرض والنفوس (اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) فسرعان ما يصبح عاليها سافلها إذا هبت ريح قويّة عليها ، وأنهم بينون من غير دعائم وأساس عميق فإذا هبت رياح الحق أتت على بنيانهم من القواعد لأنه ليس له أصل ثابت في الأرض ولا في النفوس، ولا فرع في السماء ويتناقض مع النظام الكوني والإنساني العام كقوله ﴿بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء/١٨ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/٨١. فائدة : النفس الخبيثة الأمارة بالسوء كالشجرة الخبيثة تتولد منها الكلمة الخبيثة ، وهي كلمة مؤذية تتولد من النفس الخبيثة الظالمة لنفسها بسوء اعتقادها وبسوء تصرفها فتكون ظالمة لنفسها ومعتدية على غيرها.

٢٧ - ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

هذه الآية نتيجة عمل أصحاب الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ والخَبِيثَةِ ومصيرهم النهائي. المعنى : الْقَوْلِ الثَّابِتِ : الذي ثبت في نفوسهم وتمكّن من قلوبهم ، المراد بالمؤمنين هنا الذين ترجعوا لإيمانهم بالإخلاص والعمل الصالح واستقاموا ، ومعنى تثبيتهم بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة التوحيد المتمكنة في قلوبهم بالحجة القطعية والدليل ، وما يتفرّع عنها من عقائد وأخلاق وأعمال في الحياة الدنيا أن الله سبحانه قد أخبرهم في كتابه وعلى لسان نبيه أنهم في ظلّ رحمته وتحت رعايته وعنايته ، وأنه هو كفيلهم وحافظهم وناصرهم كما شجّعهم وأثنى عليهم باعتمادهم الصّدق والإخلاص وما إليهما من الفضائل كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل/٩٧ ، (وَفِي الْآخِرَةِ) أما تثبيتهم في الآخرة بإطمئنائهم بحسن العاقبة

كقوله ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزُنُونَ﴾ الزخرف/٦٨ ، (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) بحرامتهم من طريق الهداية فلا يهتدون إلى حياة مطمئنة في الدنيا ولا إلى نعمة باقية ورضوان من الله في الآخرة ، بسبب فسادهم وطغيانهم وكفرهم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة/٢٦ (وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) من ثواب الصالحين وعقاب الفاسدين ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء/٢٣ ، عن النبي (ص) : (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (ص) ثم ذكر الآية). فائدة : (الْقَوْلُ الثَّابِتُ) لأنَّ إيمانهم لم يكن سطحياً ، وقولهم وعملهم وأخلاقهم لم تخرج عن الاستقامة فهم ثابتون على منهج الله في كل الأحوال كالجبال الرواسي الثابتة ، والله تعالى يحفظهم من الزلات ومن الطغاة ومن شياطين الإنس والجن ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ خَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف/٦٤ ، ويكون الحفظ والثبات على الاستقامة في كلِّ حياتهم لذلك جاء الفعل (يُثَبِّتُ) بالمضارع للدلالة على الاستمرار. (الْقَوْلُ الثَّابِتُ) : الدائم في ظروف الاهتزاز وفي الفساد له دلالته العميقة في حركة الواقع.

٢٨ - ٣٠ ﴿الَّذِينَ يَدَّبُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُنُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقِرَارَ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَسْعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

استفهام للتعجب ، أي ألا تعجب أيها الإنسان من أولئك الذين غيروا نعمة الله بالكفر والفساد فلم يقدروا النعمة ونسوا المنعم أو جحدوا به واختاروا الضلالة على الهدى ، واستعملوا النعمة على سعة معناها في غير ما يرضي الله واتبعهم قومهم في ذلك ، فاستحُفَّ بأقدارهم وسقَّه تصرفاتهم عندما جعلوا النعمة نقمة وبلاء عليهم وهم من المصاديق العملية للشجرة الخبيثة ، عن النبي (ص) : (أَحْسِنُوا مُجَاوَرَةَ النَّعْمِ لَا تَمَلُّوْهَا وَلَا تَنْفَرُوْهَا، فَإِنَّهَا قَلٌّ مَا نَفَرْتُ مِنْ قَوْمٍ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ) البحار ١٧١/٧٧ كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١ ، في نصح البلاغة حكم ٣٣٠: (أَقْلُ مَا يَلْزَمُكُمْ اللَّهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) (وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) وأنزلوا قومهم دار الهلاك. ٢٩- (جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقِرَارُ) هذه دار الهلاك هي جهنم التي يقاسون عذابها وبئس المستقر النهائي. ٣٠- (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) ومن أقبح أنواع كفران النعم أنهم جعلوا لله شركاء وأمثال وأهله من الجن والإنس ونسبوا إليهم أمر العالم ، ثم عبدوهم خوفاً وطمعاً ليستعبدوا الناس ويحرفوهم عن سبيل الله ويلوثوا فطرتهم ويظلوا أفكارهم عن علم وتصميم منهم بما يعملون لا عن غفلة ولا عن خطأ وهم يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ! (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) تمتعوا بما أنتم فيه من متاع مادي فإن مرجعكم إلى النار كقوله ﴿تَمَتَّعْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لقمان/٢٤ ، وهكذا الإنسان الجاهل يبني مستقبله البائس بيده ، والمِرَّةُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ. فائدة : ١- (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) جعلوا لله

قيادات مماثلة لله مساوية له يعبدونهم كعبادة الله، ودانوا لهم بالولاء والوفاء والإتباع ليضلوا أنفسهم والناس عن سبيل الله الذي لا يتعدّد ولا تتفرّق به السبيل، وهكذا تتجدّد الأنداد بتجدّد أنواع الجاهلية ! ٢- إنّ الكفران سبب لزوال النعمة كما أنّ الشكر سبب لزيادتها.

٣١- ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾
 قل لعبادي المؤمنين الصالحين بكل لطف ورحمة وشفقة وأضافهم الله إلى القسم نفسه الكريمة ، فليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل بكل شروطها ومقدماتها وهذا معنى إقامة الصلاة، هذه الصلاة التي تبعث في المصلي روح الحرّية وتزكية النفس وطهارتها وعدم العبودية لغير الله، في غرر الحكم : (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعِبُودِيَّةِ أَهْلٌ لِلْعِتْقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنْ أُصُولِ الْعِبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ ، لذلك القرآن يحث دائماً على إقامة الصلاة كقوله ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ النمل ٣ ، أي داموا عليها ولم يقل (صلوا) فصارت (الصلاة مِيزَانٌ فَمَنْ وَفَى ، إِسْتَوْفَى) البحار ٢٦٤/٨٤ ، عن الإمام علي (ع): والصلاة تذكّر المصلي بالله فيطمئن قلبه بذكره وتجعل فيه حسناً تربوياً رادعاً ذاتياً عن الاثام والمنكرات فلا يرتكب الجرائم إن كان حقاً من المؤمنين ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت/٤٥ ، عن النبي (ص): (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) كنز العمال خير ٢٠٠٨٣ .

والصلاة من أفضل التّعم والنعم تستحق الشكر فليشكروا ربهم بإقامة الصلاة ، فهي أخص مظاهر الشكر لله (وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفية وجهراً ، الإنفاق السري يشمل كل ما هو مستحب كالصدقة ، والإنفاق العلني يتعلّق بما هو واجب كالزكاة، وقدم السر على العلانية لأنّه الأفضل ، وإنفاق الأموال في سبيل الله لخدمة المجتمع والصالح العام عزة للإسلام وقوة للمسلمين ، وإنفاق الزكاة أخت إقامة الصلاة وهي تقترن بها ، عن الإمام الصادق (ع): (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ ، وَلَا زَكَاةَ لِمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ) البحار ٢٥٢/٨٤ وهي تذكّر المرء بالله وتقربه من رضاه (مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) من قبل أن يأتي يوم القيامة يوم الحسم الذي لا انتفاع فيه بمبايعة (وَلَا خِلَالٌ) ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة ، وسمّي الصديق خليلاً لأنّ كلاً من الصّاحبين المتحابين يتخلّل صاحبه ويدخل إلى مشاعره ويعرف خصوصياته لقربه منه كقوله ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف/٦٧ . المعنى: من أنفق من ماله في سبيل الله إنتفع بهذا الإنفاق في اليوم الاخر ، ومن بخل به كان عليه حسرة وعذاباً ولا يفيد شئ في ذلك اليوم حيث لا فدية ولا صداقة وإتّما ينفع الإيمان والعمل الصّالح التّافع . فائدة: (وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) الإنفاق عام مادّي ومعنوي ، هذا ينفق من ماله وهذا ينفق من جاهه وآخر من ينفق من علمه وآخر ينفق من سلطته وكلّ إنسان ينفق بقدره وبقدرته ومن موقعه

٣٢ - ٣٤ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِيَّانِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

أبدعهما وأتقن نظامهما واختراعهما على غير مثال سابق (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وأنزل من السحاب الماء العذب كثير الخير والبركة والحياة بحيث لا تحصى منافعه (فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد (وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) وذلل لكم الفلك أي السفن الكبيرة لتسير على نظام الطوفان الذي وضعه الله سبحانه (وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ) الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا زروعكم. ٣٣- (وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ) وذلل لكم الشمس والقمر (دَائِبِينَ) دائمين يجريان باستمرار وبانتظام لا يفتران لصالح أنفسكم ومعاشكم (وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) لتسكنوا في الليل لمنامكم، ولتبتغوا من فضله بالنهار لمعاشكم. ٣٤- (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) والخطاب للنوع البشري العام، وأعطاكم وهياً لكم كل ما تحتاجون إليه وما يصلح أحوالكم الضرورية والكمالية، المادية والمعنوية التي تعلقت بها أمانيتكم وطموحاتكم من أنعام واختراعات واكتشافات وأنواع الزراعات والصناعات... إلخ كقوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الأعراف/ ٣٢ ، ومنحكم من كل ما سألتموه بلسان الحال أو بلسان المقال أي سواء أسألتموه أم لم تسأله بلسانكم وإنما بجوارحكم ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/ ١٥١ .

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر/ ٣٦ ، (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) لا تُحْصُوهَا : لا تطبقوا عدّها لعدم تناهيتها فضلاً عن القيام بشكرها ، جاء التعبير القرآني (نِعْمَةَ اللَّهِ) بالمفرد ، ولم يقل (نعم الله) بالجمع، وفي ذلك بلاغة قرآنية عالية ، أن النعمة الواحدة هي بذاتها تستبطن نعم كثيرة لا تحصى وأن أياً منها وإن بدا صغيراً لا يستطيع الإنسان أن يحصي عجائبه ودقة نظامه وإتقان صنعه فلا يؤدي لله حق شكره ، فكيف ونعم الله تغمرنا ظاهراً وباطناً مادياً ومعنوياً ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/ ٥٣ ، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان/ ٢٠ ، ومع هذا فإن الإنسان لا يحمد الله ويشكره على ما أسبغ عليه من نعم بل يرى دائماً أنه مغبون ، ولهذا جاء (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) إِنَّ الْإِنْسَانَ (غير المؤمن) لكثير الظلم لنفسه بالمعاصي وكثير الظلم للنعمة بترك شكرها شديد الكفران بها والنكران لها ولمنعها ، إنه يظلم نفسه بجزءها عن مواقع الهدى ويحجبها عن سبل الاستقامة فلا يرى ما لله عليه من فضل ، فيكفر بالله ويتعدّد حدوده ويبالغ في الظلم والكفر لنفسه ولغيره كقوله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴿البقرة/٢٢٩﴾ ، (ظُلُومٌ) في الشدة يشكو ويجزع و(كَفَّارٌ) في النعمة يجمع ويمنع ، فهو شديد الكفران والجحود بها.

فائدة: ١- (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) ليس المراد منه أن كلَّ إنسان أوتي سؤاله كما جاء في دعاء الافتتاح: (وَأَعْلَى الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ) ، ولو توفرت لكل إنسان حاجته لما اجتهد وسعى وضحى ، والحاجة أم الاختراع ، ولما تفتق عقله عن هذه العلوم والمعارف التي كشف بها عن أسرار الطبيعة ، وإتِّمَّ المراد منه ما سحر الله للإنسان من قوى العقل والتفكير والتدبير والتقدير. الذي به يحصل على كلِّ ما أُراده وما سألَه بلسان الحال أو بلسان المقال ، فبين أيديهم كل ما يحتاجون إليه من أنواع المنافع التي يجهلها الناس، وهي معدة لهم وليس عليهم إلاَّ العمل بعلم وبجد وخبرة وتجربة ، فإنَّ الهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهْمَةِ ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ النجم/٣٩ ، وقيمتُهُ كُلُّ امْرِئٍ عَلَى قَدَرِ خَيْرَتِهِ وَمَقْدَارِ تَجَرُّبَتِهِ ، في نصح البلاغة حكم ٣٨٧ : (الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ) ، وفي غرر الحكم : (الْعِلْمُ يَغَيِّرُ الْعَمَلَ وَبِئَالٍ ، الْعَمَلُ يَغَيِّرُ الْعِلْمَ ضَلَالًا). ٢- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/١١ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) صحيح الترمذي ١٠/٢٥٩. ٣- سؤال : لماذا يعيد القرآن الكريم ويكرِّر الآيات الكونية وهي واضحة ؟ الجواب : لأنَّ الآيات الكونية لها علاقة بالآيات الأنفسية لإيقاظ البصائر والأبصار ، لكي تستدل على نظام المخلوقات على خالقها ومنظمها.

٣٥ - ٣٦ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِي فِيهِ رَسُولًا مِنْ رَبِّي فَأُنصِتُ لِلرَّسُولِ وَأُبْرِحُ مِنْهُمْ وَإِنِّي مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) وهو مكة (آمِنًا) دعاء منه (ع) لتشريف مكة بالأمن ، وهو الأيمن التشريعي لا التكويني وقد أجاب الله دعوته فنعمة الأمن نعمة أساسية في حياة الإنسان ، عظيمة الوقع في حسنه ومشاعره متعلّقة بمرصه على سلامة نفسه ، إبراهيم يسأل ربّه أن يشرّع الرسالة الإسلامية لأرض مكة ولأهلها بعد أن تجعلها آمنة (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) اجنُبني : أبعدني واحمني يارب وأولادي من هذا الداء العياء عبادة الأصنام ، وثبتنا على التوحيد والإسلام. أصبحت عبادة الأصنام ظاهرة إجتماعية عامة شائعة في الجاهلية تقلب الموازين الصحيحة على أهل التوحيد، فلا بُدَّ من الاستعانة بالله بالدعاء على الثبات على منهج الله ، حتى لا تأخذه موجات الإلحاد والفساد والباطل المتفشي على الحق الناهض الجديد. ٣٦- (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ) لارتباط الإضلال بالأصنام وإن لم يكن ارتباطاً شعورياً علمياً بل هو ارتباط

بتقليد اجتماعي أعمى ، تقليد بلا وعي ، عندما تصبح عبادة الأصنام ظاهرة اجتماعية عامة (سواء أكانت أصنام حجرية أو بشرية أو فكرية أو عبادة مال وجمال وحسن حالٍ وجاهٍ وغلو) فإنها تكون كالموج الهائج والمرض المعدي الخطير الفتاك ، فلا يقف أمامه إلا أصحاب الإيمان القوي والوعي الثاقب المميّز والإرادة الصلبة هؤلاء القلة والنخبة في كلّ أمة.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧ ، أما أغلب الناس تقلّد ما هو موجود ، ليس لها القدرة أن تستمع القول فتتبع أحسنه ! ليس لها مؤهلات العصمة عن الخطأ وليس لها القدرة على التطلّع إلى آفاق واسعة (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) فمن اتبعني على هدى الله وأطاعني على التمسك بنهجه وسار بسيرتي فإنه من أهل ديني ، كناية عن أنّ القريب من الله ورسله من قربه من الدين الجليل والخلق الكريم (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ومن خالف أمري وترك طريقي كلّها أو بعضها ، فإنّك يارب أعرف سبب مخالفته فأفوض أمره إليك فإنك يارب غفار الذنوب رحيم بالعباد ، وكأنّ خليل الرحمن يسترحمه ويناشده العفو عمّن عصاه وخالف أمره ، هذا هو ربّ العباد ، وهذا كتابه الكريم وهؤلاء رسله وأنبيأؤه ، رحمة وسعت كلّ شيء.

٣٧ - ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

كّر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والإلتجاء إلى الله تعالى ، أي يا ربنا إني أسكنت بعض أهلي ولدي إسماعيل وزوجتي هاجر (بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) بوادي مكة ليس فيه زرع ولا ماء وشيء إلا في جوار بيتك المحرم والذي شرفه الله بحج الناس إليه والطواف حوله وسمي محرماً لأنّه عظيم الحرمة ، حرم الله التّعريض له بسوء وحرّم فيه القتال والاصطياد وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) قلب المؤمن حرم الله فلا تجعل في حرم الله غير الله ، لذلك صار المؤمن أعظم حرمة من الكعبة ومن الملائكة ومن الشّمس والقمر كما في الحديث القدسي: (لَا تَسْغِي لِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَإِنَّمَا يَسْغِي قَلْبِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ) مواهب الرحمن ٩/٢١٥ ، وفي الحديث القدسي (حُلِفْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ ، وَحَلَقْتُكَ لِأَجْلِي) (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) يا ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة على أكمل وجه ولا تشغلهم شواغل الدنيا ، أسكنتهم بهذا الوادي ، فاجعل (أَفْئِدَةً) أي قلوب بعض الناس تنشدُ وتحن وتنجذب وتتأثّر وتسرع إليهم شوقاً بالمشاركة والمساكنة معهم أو تحنّ إلى أداء فريضة الحج فيأنسون بهم ، وهكذا جاء الدّعاء فاجعل العوض عن الزّرع والثمر هو توافد بعض النّاس إلى البيت الحرام للعبادة أو للتجارة ، ويلزم ذلك حمل الزّاد والمتاع والفاكهة وكلّ أسباب الحياة

٣٩-٤١ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

الحمد لله الذي رزقني على كبر سني واليأس من الولد إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ للحاجة النَّفسية الفطرية إلى الامتداد في الحياة. (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) مجيب الدعاء من دعاه ٤٠- (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) رَبِّ اجْعَلْنِي بلطفك مؤدياً إقامة الصَّلَاة بكامل شروطها الواجبة والمستحبة وبعض ذُرِّيَّتِي كذلك ، صلاة خليل الرحمن صافية نقية تقية بنفسه الطاهرة الصافية النقية التقية ، وإقامة الصلاة بإعطائها أهميتها في مظهرها وجوهرها في مقدار صلتها بالله وأداء حركاتها وتفاعل القلب معها في أوقات فضيلتها وإخلاء النفس من الشواغل التي تشغل عنها ، وهذه الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأيضاً دعاءه لذريته بأن يقيموا الصلاة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ طه/١٣٢ ، عن الإمام علي (ع): (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ دَقِيقٌ) فَمَنْ وَتَى، (إِسْتَوَى) البحار ٢٦٤/٨٤ ، (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي) رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ واستجب دعائي، وهذا ما يطمح إليه المؤمن أن يكون مستجاب الدعوة عند الله للدلالة على قربته منه ورضاه عنه ورحمته له. ٤١- (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) ختم إبراهيم دعاءه الخاشع بالاستغفار له ولوالديه لدلالة أن (أزر) عمه أو جده لأمه ، وهو قد تبرأ من أزر فيما سبق لأنَّه مشرك وكانت أمه مؤمنة. وفي الآية دلالة : على أنَّ أبوي إبراهيم (ع) لم يموتا على الكفر لأنَّ إبراهيم طلب لهما المغفرة يوم القيامة، وحاشا لني أن يطلب المغفرة لمن مات كافراً. ومن الجدير ذكره: ليس من الأهمية أن نعتقد أنَّ أبوي إبراهيم (ع) كانا مؤمنين، ولكن المطلوب أن نؤمن نحن ونعمل صالحاً بما أمرنا الله به.

٤٢ - ٤٣ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَنْتُمْ هَوَاءٌ﴾

لا يظنُّ أحد أن الله (غَافِلًا) ساه عن أفعال الظالمين بما تشاهد من تمتعهم وإترافهم في العيش وإفسادهم في الأرض، وأنه لا ينتصر للمظلومين ، فإن سنَّة الله إمهال العصاة ولا يهملهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر في أجله المكتوب والمحدّد ، فإن الله ليس من صفاته أن يغفل بل هم غافلون عن الله وسننه بل هم غافلون عن مصلحة أنفسهم (فَلَا تَعْقُلُوا فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنْكُمْ) في غرر الحكم: (احذروا العُقْلَةَ فَإِنَّهَا مِنْ فِسَادِ الْحِسَنِ) (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) تَشْخَصُ : ترتفع ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ وحسابهم وعقابهم إلى يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ذلك

اليوم الرهيب العصيب الذي تنقلب فيه طبيعتهم وتكون فيه الأبصار شاخصة مرتفعة مفتوحة مدهولة مبهوتة لا تطرف ولا تغمض أجفانهم هول ما ترى في مشاهد ذلك اليوم العسير على الكافرين غير يسير. ٤٣- (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) مُهْطِعِينَ : مسرعين تلبية لدعوة الداعي لا يلتفتون إلى شيء (مُقْنِعِي) رافعي أي رافعين رؤوسهم إلى السماء من الفزع بدون إرادتهم لا ينظر أحد إلى أحد ! (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) لا يطفون بعيونهم ولا يرمشون بجفونهم ، بل تبقى شاخصة مفتوحة لا تطرف ، من هول ما يشاهدونه من مشاهد مرعبة (وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً) قلوبهم خواء لا تتذكر ولا تحفظ شيئاً ، خالية من التعقل فارغة من التدبر والتفهم لشدة الفزع والهلع ، لفرط الدهشة والحيرة.

٤٤ - ٤٥ ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَكِيلَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ، وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيْنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾

إنه مشهد من مشاهد يوم القيامة ، أي خوِّفوا الناس العصاة وبينوا لهم حقيقة أهوال يوم القيامة حين يحين وقت العذاب الشديد (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ) فيتوجه الظالمون يومئذٍ إلى الله تعالى بالرجاء يقولون ربنا أمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ، بالأمس كانوا يسخرون من البعث واليوم يتذللون (نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ) ثم هل الخضوع بالعصا يسمى طاعة ؟ (أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) ويقال لهم تويخاً : ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى للجزاء وتكفرون الحشر والنشر كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام/ ٢٨ ، وهذا مصير من تأخذه كبرياء نفسه وشهوة بطنه وفرجه عن التفكير بالعالم الآخر الكبير المتعال.

٤٥- (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وسكنتم في ديار الظالمين الطغاة بعد أن أهلكناهم وسمعتهم بأخبارهم وكان الأجر أن تتعظوا بهم قبل أن يتعظ الناس بكم (الَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) عن الإمام علي (ع): (السَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) البحار ١٠/ ٩٩ (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) تبين لكم بالأخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الفتح/ ٢٣ ، (وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) وضربنا لكم بهم الأمثال فلم تتعضوا ، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبداً ، والآن حيث لا رجعة للدنيا تقولون أخرجنا قليلاً !! والآن علينا أن نعرف (مَا نَفَعَلُهُ خِلَالَ سَاعَاتِ عَمَلِنَا يُحَدِّدُ مَا لَدَيْنَا ، وَمَا نَقُومُ بِهِ فِي أَوْقَاتِ فِرَاعِنَا يُحَدِّدُ مَا نَكُونُ).

٤٦ - ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾

المكر : التدبير السيء ، وقد كادوا كيدهم في إبطال الحق وتثبيت الباطل والصد عن سبيل الله بمختلف الوسائل من ترغيب وترهيب وتظليل إعلامي والتي تسمى (بالحرب الناعمة)، كيدهم الخطير الذي استفرغوا فيه كل جهدهم وأحكموا أسبابه وتآمروا على الرسول والمؤمنين (وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) والله محيط بمكرهم وعليم بكل ما دبّروا ومجازيهم عليه وقادر على دفعه ومعذبهم من حيث لا يشعرون (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) مهما بلغ كيدهم ومكرهم من القوة والإحكام والتأثير الكبير حتى لو أزاح الجبال الرواسي أثقل الأشياء وأصلبها وأبعدها عن تصوّر التحرك والزوال، فلن يضر دين الله شيئاً وعصم الله دينه ووقاه وحفظه وحماه، بل يعود عليهم بالهلاك والوبال. كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/٣٣. فائدة: المكر حيلة خبيثة فيها لؤم وخديعة وهو بعيد عن الإيمان ودافعه الشيطان ﴿وَلَا يَجِيءُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأِهْلِهِ﴾ فاطر/٤٣، في غرر الحكم: (مَنْ أَعْظَمَ الْمَكْرَ تَحْسِينُ الشَّرِّ).

٤٧ - ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفًا وَعْدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

فإذا كان مكر الماكرين بهذه الشدة فلا تظنن أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر كقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ المجادلة/٢١ ، وأخذ الظالمين وهو القائل ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة/٢٢، في وقته المناسب في مكانه المناسب في كفيته المناسبة كقوله ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ سبأ/٣٠ ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨، والله سبحانه أَمْهَلَ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلُ ، وَسَرَّ حَتَّى كَانَتْهُ غَفْرًا ، وَأَنْدَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرَ !! (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ تَعْدَى حُدُودَهُ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ لَا تَخْلَفُ مَشِيئَتُهُ (ذُو انتِقَامٍ) مِمَّنْ اسْتَكْبَرَ عَنِ الْحَقِّ وَتَعَالَى عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، وَيَنْتَقِمُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ فِي ظُرُوفِهِ الْمُنَاسِبَةِ وَأَسَالِيْبِهِ الْإِلَازِمَةِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. فائدة : كلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر ، فالظالم الماكر يستحق الانتقام جزاء ظلمهم ومكرهم تحقيقاً لعدل الله في الجزاء وكذلك العُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ كقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة/١٧٩.

٤٨ - ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

ينتقم الله تعالى من المجرمين يوم الجزاء ، يوم تتبدل هذه الأرض أرضاً أخرى لم يُعمل فيها ذنب ولم يسفك فيها دم ، وتتبدل السموات سماوات أخرى ويتغير النظام الكوني جميعه الحالي ، وينشأ نظام كوني جديد وتشرق الأرض بنور ربها الجميل الجليل إشراقاً غير إشراقها بالشمس لتصبح عالماً خالداً (وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) برزوا : ظهوروا ، خرجت الخلائق جميعها من أول الخلق

إلى آخرهم من قبورهم ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ﴾ القمر/٧ ، ومنتلوا أمام أحكم الحاكمين في أرض المحشر أمام الواحد القهار ، لكل ما سواه لا يسترهم ساتر ولا يقيهم واقٍ ولا مغيث غير الله تعالى. فائدة : ﴿وَبَرُّوْا لِلَّهِ﴾ ومعنى بروزهم وظهورهم لله يومئذٍ ، مع كون الأشياء بارزة غير خفية عليه دائماً ، هو سقوط جميع الأسباب والعلل التي كانت تحجبهم عن الله تعالى ما داموا في الدنيا ، ولفظة (القهار) هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبارة وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ.

٤٩ - ٥١ ﴿وَمَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

في ذلك اليوم الرهيب الحاسم تشاهد المُجْرِمِينَ في مشهدٍ مذلٍ (مُقَرَّنِينَ) مشدودين مع شياطينهم مربوطين (في الأصْفَادِ) أي بالقيود والأغلال ، تربط بالقيود والسلاسل ملائكة العذاب أرجل المجرمين وأيديهم وأعناقهم بعضها ببعض أو مشدودين مع بعضهم البعض (والطيور على أشكالها تقع) كقوله ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ التكوير/٧ ، ويكون كل صنف إلى صنفه ويضم كل إلى مثله في كفره وسوء عمله (وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) والجزاء من نفس العمل ، والعقوبة على قدر الجناية. ٥٠- (سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ) ثيابهم التي يلبسونها وقمصانهم التي تلي أبدانهم ، (مِنْ قَطْرَانٍ) وهي مادة سريعة الاشتعال تطلّى بها الإبل الجربى فيحرق الجرب بجره وكويه ، وهو أسود اللون منتن الريح (وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ) تعلقها وتحيط بها النار جزاء مكرهم واستكبارهم وفيها من الذل والتحقير ما يتناسب مع طغيانهم في الدنيا.

٥١- (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) برزوا يوم القيامة لأحكام الحاكمين ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف/٢٦ ، ليجازيهم على أعمالهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ولكل جريمة عقوبتها الخاصة بها ومن أجل هذا تفاوتت العقوبات وتنوعت كما وكيفاً كقوله ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأنعام/١٦٠ ، وهم كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) يحاسب الله تعالى جميع العباد في السرعة الممكنة لا يشغله حساب عن حساب ولا يشغله شأن عن شأن فيوقى الجزاء كل بحسبه وبالسرعة المتناسبة مع علمه وقدرته التي لا يعجزها شيء ، وقيل : يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهلة ويحفظه بالصورة والصوت والنية ، وفيه دلالة إلى : أنّ الجزاء واقع من غير فصلٍ ولا مهل إلا أنّ ظرف ظهوره هو ذلك اليوم الحاسم.

٥٢ - ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيَذَكِّرُوا الْأَلْبَابَ ﴾

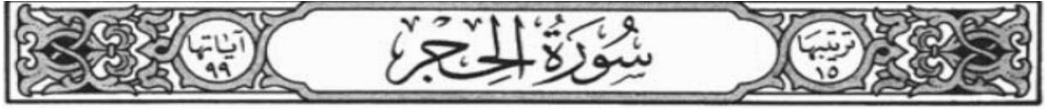
بلاغٌ : الكفاية ، ومنه البلاغة وهي البيان الكافي في العظة والتذكير . المعنى : هذا القرآن الكريم (معجزة السماء في الأرض) فيه من التعاليم ما يكفل للإنسان سعادته في دنياه وآخرته ، وفي القرآن الكريم البلاغ المبين والحجة البالغة والدليل القاطع ، وفيه من الترغيب والترهيب والحكم والمواعظ ما فيه البلاغة الكفاية والدراية والحماية والهداية للإنسان وفيه الحجة البالغة ، إذا هو أدرك معناه وفهم مبناه وعرف مغزاه وعمل بمقتضاه ، بشرط أن يكون بكلمة الله ونص قرآنه وبوضوح بيانه ، لا بكلام المفسرين والشارحين له واجتهاداتهم (وَلِيُنذِرُوا بِهِ) لكي ينصحوا به ويحذروا من عقاب الله (وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) ولكي يتحققوا ويتعمقوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على أن الله لا إله إلا هو واحد أحد فرد صمد كقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت/٥٣ ، (وَلِيَذَكِّرُوا الْأَلْبَابَ) وليتعض بهذا القرآن المؤمنون (أُولُوا الْأَلْبَابِ) أصحاب العقول التي تحسن التفكير والتذكير وأصحاب القلوب السليمة وهم الفائزون في دنياهم وآخرتهم كقوله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد/٢٤ ، وتخصيص التذكر بأولي الألباب أعلاه لشأنهم العلمي واستقامة سلوكهم . فائدة : في الآية دلالة على أنه أراد الله من الجميع التفكر والتدبر والتذكر ، فإن في التفكر سعة العقول وحياة القلوب وجلاء النفوس وانسراح الصدور كقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/١٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (تَفَكَّرْ سَاعَةً حَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةِ) البحار ٧١/٣٢٦ .

وفي الختام نقول :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/٣٧ ، وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ . تم بعون الله تعالى (وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة إبراهيم ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢٥/جمادى الأولى/١٤٣٧ هـ الموافق ١/٥/٢٠١٥ م مع تصحيحها عدة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إن ربي سميع مجيب الدعاء .

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادي

الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم



من مقاصد السّورة :

السّورة مكيّةٌ إلاّ قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ وقوله ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ، تُعنى السّورة بالعقيدة الإسلامية ، التوحيد والتّبوّة واليوم الآخر ، ومحور السّورة يدور حول مصارع الطّغاة والمكذّبين لرسول الله في شتى الأزمان ، عرضت السّورة لدعوة بعض الأنبياء من نوح (ع) إلى بعثة خاتم المرسلين (ص) وقد بيّنت سخرية المكذّبين برسالة أنبيائهم (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأُولِينَ ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) ، ثمّ بيّنت عجائب هذا الكون الفسيح الذي يشهد بعظمة الخالق الجليل وعرضت السّورة أسس الهدى والضلال ، وخلقه آدم وعدوّه اللدود إبليس اللعين ، وسجود الملائكة لآدم ، وسمّيت السّورة الكريمة (بسورة الحج) لأنّ الله ذكر ما حدث لقوم صالح وهم قبيلة ثمود الذين استحبّوا العمى على الهدى. الجزء الرابع عشر/عدد آياتها (٩٩) آية ، رقمها (١٥)

فضلها : عن النبي (ص) : (مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) مجمع البيان ١١١/٦. ملاحظة عامة : كلُّ فضلٍ من فضائل سور القرآن جميعها يعتمد على مقدار الصّدق وإخلاص العمل من الإنسان ومقدار الرّضا من الله سبحانه تجاه الإنسان ، وليس بالمنى والأمامي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿الرَّتْلِكُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾

الر ترقرأ (ألف لام راء) ، وهي من المتشابهات والمبهمات ، الحروف المقطّعة إشارة إلى إعجاز القرآن وهو مؤلف من أمثال هذه الحروف العربية التي يستخدمها البشر ، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في الفصاحة والبلاغة والعلوم المميّزة ، وتقدّم الحديث عن الحروف المقطّعة في أول سورة البقرة (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الجليل الكامل في الفصاحة والبيان ، المتعالي عن قدرة البشر ، إنّ الله تجلّى لعباده بكتابه (وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) واضح، قرآن إلهي مقروء ، عظيم الشأن واضح العبارة ميسر الفهم دقيق النظم واسع العلم هدفه الهداية والاستقامة، لا خلل في علومه ولا إضطراب في مفاهيمه وهو الفرقان الذي يميز بين الرشد والغي ويفرّق بين

الحق والباطل والحلال والحرام والصح والخطأ ، في نهج البلاغة كتاب ٤٧: (اللَّهُ اللهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ). **فائدة** : (تِلْكَ) اسم إشارة للبعيد لبيان عظمة المشار إليه ، وأنه في موضع بعيد عن كل ما لا يليق به ، عالي الأفق معجز التنسيق ، وهو محفوظ بحفظ الله ، لذلك خاطبه الله تعالى مخاطبة الإنسان العاقل المميز المحترم للتفخيم!

٢ - ٣ ﴿مَرْبَايُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَعْمُوا وَيَلْبَهُهُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾
 (رُبَّمَا يَوَدُّ) يتمنى يوم القيامة الكفار لو كانوا في الدنيا مسلمين الذين آمنوا واستقاموا وأسلموا وجوههم لمنهج الله ، لأن في يوم القيامة تظهر لهم الحقيقة فيتمنوا ما تمنوا بعد فوات الأوان ، والتمني رأس مال المفلسين كقوله ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يونس/٥٤ ، عن النبي (ص) : (شَرُّ النَّدَامَةِ نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ١١٥/٧٧ . ٣ - (ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَعْمُوا) دعهم واتركهم يا محمد يأكلوا من الطيبات كما تأكل الأنعام والبهائم ويتلذذوا بالثروات والشهوات ، والعمر يمضي والفرصة تضع والأمل يلهي والمطامع تغر ، فاعتنموا الفرصة قبل أن تكون غصّة ، ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين لأنهم لا منطوق لهم ولا يفهمون لغة الكلام ، فاتركهم وما هم فيه من غفلة عما يراد منهم ، إنهم آثروا التمتع بالحياة على اتباع الحق ، في غرر الحكم: (مَنْ كَانَتْ هُمَّتُهُ بَطْنَةً، قِيَمَتُهُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ!) (وَيَلْبَهُهُ الْأَمَلُ) يشغلهم الأمل والأمني الكاذبة بطول الأجل عن الإيمان والتفكير فيما ينجيهم من عذاب الآخرة فيصدّهم عن الحق ويستغرق في هذا الأمل وينسيهم الحساب والجزاء (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة أمرهم ، وهذا تهديد لكل من لا يشعر بالمسؤولية ويعتدي على حقوق الآخرين ويفضّل الباطل على الحق ، **فائدة** : **الأمل** : صادق وكاذب ، فالأمل الصادق رفيق مؤنس ورحمة مستمرة ولولا الأمل لوقف العمل ، ولولا الأمل الصادق ما أَرْضَعَتْ أُمَّ وَلَدَهَا ، والأمل الكاذب هو الخادع كالسرّاب غار ضار فلا يجده من رجاء ، هذا هو الأمل القاتل الذي يلهيهم ، في غرر الحكم: (الْأَمَلُ سُلْطَانُ الشَّيَاطِينِ عَلَى قُلُوبِ الْعَافِلِينَ) ، وفي نهج البلاغة : (إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَحَافُهُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ إِيْتَابُ الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا إِيْتَابُ الْهُوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ) تفسير النور ٤/٢٥٠

٤ - ٥ ﴿وَمَا أَمَلَكُنَا مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا وَكَيْلًا كِتَابٌ مُعْلَمٌ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾

وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله وصدت عن سبيل الله (إِلَّا) وَلَهَا كِتَابٌ مُعْلَمٌ (إِلَّا) وَلَهَا (كِتَابٌ) أي أجل محدود مكتوب معين مقدّر في اللوح المحفوظ لإهلاكها لا بد أن تبلغه ، ولا يعاقب الله تعالى إلا بعد البيان الواضح وقيام الحجة اللازمة ، وهذا الأجل معلق بسلوكها الذي تنفذ به سنة الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل ، أي **الأجل على نوعين** (حتمي) غير قابل للتغيير (وغير حتمي) يمكن تغييره بالدعاء والصدقة وصلة الرّحم والأعمال الحسنة كقوله ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام/٦٧ ، وقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ . ٥ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا) لا يتقدّم هلاك أمة قبل مجيء أوّانه (فيما مضى وفيما بقي) ، وأوانه أن لا تبقى فيها بقية

من خير يرجى كإيمان بعضهم أو من ذرياتهم (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) ولا يتأخر عنهم بل تهلك حين تستوفي ذلك الأجل فلا يغرتهم تحلف العذاب عنهم قليلاً ، فكما للأفراد أجل ثابت كذلك لكل أمة أجل ثابت، والأجل الجماعي بمعنى كيف تنهض الحضارات وكيف تموت ؟ وكيف تقوى الدول وتكون كبرى وكيف تضعف وتنهار؟! وتقدم في الأعراف/٣٤ و يونس/٤٩. فائدة : سؤال : كيف نفهم إنَّ أمماً لا تؤمن ولا تعدل وهي مع ذلك قوية ثرية باقية ؟ الجواب : لا بد لها من بقية من خير في هذه الأمم ، مثل : خير الخلافة في الأرض بعمارتها ، خير الصلاح المادي والإحسان المحدود، خير خدمة المجتمع وتقدمه، فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفذها فلا تبقى فيها من الخير بقية ترجى ، ثم تنتهي حتماً بعد أن تستوفي نفسها من الحظوظ ما يبطل الحقوق.

٦ - ٨ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾

قالوا استهزاءً لمحمد (ص) والذِّكْرُ : القرآن ، يا من ادعى أن القرآن نزل عليك إنك حقاً مجنون ومخالف لمعتقداتنا الجاهلية المألوفة ، وفي توهمك أننا نؤمن بك ، وهذا منطوق يشمل كل من اتخذ من ذاته ومصطلحه الخاصة مقياساً للحق وميزاناً للعدل ، وعادة المجنون يرى كل الناس مجانين ، وأيضاً التعصب والعداء والكرهية تعمي وتصم ، فيرى صاحبه الصادق الأمين أنه سيد الفاسدين! ٧- (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) هلاً جئتنا بالملائكة لتشهد أمامنا لك بالرسالة إن كنت حقاً رسول الله ، رد الله عليهم. ٨- (مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) ما نزل ملائكتنا إلا لإثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأيضاً نزل الملائكة بالعذاب لمن أردنا إهلاكه باستحقاقه ، ولو نزلنا الملائكة تلبية لطلبهم واستجابةً لاقتراحهم ما كانوا إذاً ممهلين بل يأخذهم الهلاك لإصرارهم على الضلال (وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ) ممهلين ، أي عندئذ لا إمهال ولا تأجيل لحظة واحدة. فائدة: ٩- المؤمن من دليل واحد يكفيه وغير المؤمن المعاند لو تأتبه بكل دليل ودليل فلا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الحجر/١٣

٩ - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

بهذا التوكيد القاطع (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) مؤكداً لهذا التوكيد كحقيقة يقينية غير قابلة للشك ، المعنى: إِنَّا نَحْنُ بِيَارِدَاتِنَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ (الذِّكْرَ) أي القرآن يا محمد بالتدرج من خلال حركة الواقع ليتدبرونه ويهتدون به ، فهو قرآن واقعي حركي قبل أن يكون دستوراً نظرياً ، ونحن الحافظون له بنصوصه ، نصونه عن الزيادة والنقصان والتبديل والتغيير والتحريف ، كما جرى في غيره من الكتب السماوية المنزلة فإن حفظها موكول إلى أهلها ، فطرق إليها الخلل لقوله ﴿ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ المائدة/٤٤ ، وهناك فارق بين حفظهم لها وحفظ الله للقرآن. فائدة : (حفظ القرآن) المراد منه ، كل ما فيه حق ثابت وراسخ مدى الأزمان ولا يمكن الطعن فيه بالحجة

والبرهان، وهو كلما تقدمت العلوم وتطورت العقول ظهرت أدلة جديدة على صدق القرآن وعظمته إنه كتاب الله كنز السماء في الأرض، فهو ذكر حي خالد يهدي للتي هي أقوم لا يتحول ولا يتبدل، والقرآن محفوظ في كل وقت وفي كل عصر، مما لا يليق الطعن والتحريف فيه، وذكرت (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) بصيغة مطلقة وغير محددة بشيء، أي محفوظ بحفظ الله من جميع التواحي المادية والمعنوية و محفوظ على الدوام في شكله ومضمونه بكل الأساليب اللازمة والجازمة كقوله ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ الواقعة/٧٧-٧٨، مَكْنُونٌ : محفوظ ومصون ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت/٤٩، أما روايات التحريف فهي موضوعة ولا قيمة لها ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلًا مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت/٤٢.

﴿سُنْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت/٥٣، أما كل من يحاول تحريف القرآن وطباعته بطبعة محرفة فسرعان ما ينكشف هذا التحريف ويصان القرآن منه، وهكذا ظل القرآن الكريم في حراسة الله وعنايته وحفظه بغرسه في صدور المؤمنين وبكثرة انتشاره وسعة توزيعه وتعدد أساليب انتشاره في وسائل الإعلام المختلفة وسيبقى محفوظاً على الدوام، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ يُجَدِّدُهَا دِينَهَا) ، وعنه (ص) : (إِقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَاسْتَظْهِرُوهُ (إحفظوه) فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنِ) روح البيان ٤/٤٤٤ . فائدة: احتوت الآية على قصرها على ستة أنواع من التأكيد ، ثلاثة منها تتعلق بنزول القرآن الكريم وهي (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) وثلاث أشارت إلى حفظ الذكر (وَإِنَّا لَهُ) واللام في (لَحَافِظُونَ) لام التوكيد. وسمي القرآن ذكراً لأنه يذكر بالله واليوم الآخر ويعترفك قدر نفسك، في غرر الحكم: (رحم الله امرأ عرف قدره لم يتعد طوره)، ويعرف قدر كل شيء. كقوله (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) القيامة ١٧-١٩ تكفل الله تعالى بهذا القرآن وحيأ وحفظاً وجمعاً وبياناً، وقد أسنده الله إليه بكليته وليس على الرسول (ص) من أمره إلا حمله وتبليغه واستنطاقه.

١٠ - ١٣ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ سِنْتَهُنَّ، كَذَلِكَ سَأَلْنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾

أقسم ولقد أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً وأنبياء (في شيع) في طوائف وفرق الأمم الأولين السابقين على أمتك هذه وحالهم هذا الحال (شيع الأولين) فرقمهم وأحزابهم الماضية ، وشيع من شيعة وهي الفرقة المتفقة على طريقة ، وسمو بذلك لأن بعضهم يشايح بعضاً ويتابعه ومنهم شيعة الإمام علي (ع) وقالوا إنه الإمام الوصي بعد رسول الله (ص)، وإن الإمامة على عموم معناها ، نظام الإسلام والمسلمين وبها تتوحد الأمة ويعز المؤمنون وتصلح الدنيا كقوله ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ الصافات/٨٣ . ١١ - (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وما جاءهم رسول إلا سخروا

منه لشدة جهالتهم وغبوتهم ، وهذه تسلية للنبي (ص) فكما فعل بك هؤلاء المشركون كذلك فُعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن واصبر كقوله ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦ . ١٢- (كَذَلِكَ نَسْأَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) كَذَلِكَ (نَسْأَلُكُمْ) ندخله أي نلقي القرآن في قلوب المجرمين ونفهمهم إيّاه تأكيداً للحجّة عليهم وأنهم مع ذلك لا يقبلوه ويرفضوه لأنه ليس في نفوسهم استعداد لتلقيه وأجهزة الاستقبال عندهم معطلة تجاهه، ولا تنشرح نفوسهم بنور هدايته (وَالَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الْهِدَايَةُ تُضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) والذي لا يهديه الرحمن يضلّه الشيطان. ١٣- (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) بيان وتفسير لنسلكه في قلوب المجرمين، لا يؤمنون بهذا القرآن وهذا ليس بجديد وَقَدْ (خَلَتْ) مضت سنة الله وفعله وقصاصه بإهلاك الكفار المكذّبين فما أقرهم من الهلاك وتكون العاقبة الحسنة للمؤمنين كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/٢٣ ،

والخلاصة: إن إعراضهم عن القرآن لا يمنعنا من أن نسلكه ندخله ونفعله في قلوبهم تأكيداً للحجّة عليهم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال/٤٢، فالمكذّبون أمة واحدة من طينة خبيثة واحدة فلا تنقصهم دلائل الإيمان فهم معاندون بلا حياء (وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ).

١٤ - ١٥ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ولو فرضنا (وفرض المحال ليس بمحال) أننا أضعدهم إلى السماء بلا سفينة فضاء (صعود بإعجاز) وفتحنا لهم باباً من أبوابها ويسرنا لهم الدخول في عالمها فظلوا (يَعْرُجُونَ) يصعدون فيه حتى شاهدوا أسرار الغيب وعجائب الملك والملوك. ١٥- (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا) هذا بيان لشدة عناد الطّاعة ومكابرتهم للحق أي لقالوا (بسبب عنادهم وطغيانهم) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ : إنما سدّت أبصارنا وحُدعت وغطّيت بهذا الارتقاء والصعود فشاهدت أموراً لا حقيقة لها ! فهي لا ترى بل تتخيّل! (بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) سحرنا مُجْدٌ وَحَيْلٌ إلينا ذلك وقلب علينا الحقيقة وما هو إلاّ سحرٌ مبين كقوله ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ القمر/٢.

فائدة: ١- فالذي يرفض الإيمان مستكبراً عليه فكل دليل ودليل لا يكفيه لأن ذاتهم المستكبرة والأنانية أكبر من كلّ دليل ، فهم ينظرون إلى القائل لا إلى القول فيرفضون كلّ قول ولو كان حقاً وصدقاً ، أما الذي مستعدٌ للإيمان فقليل الدليل يكفيه. ٢- في الآية دلالة أنه لا جدوى من الجدل مع كلّ معاند لأنه مكابر بلا حياء وبلا مبالاة بالحق الواضح (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ) أمّا قول العلماء والحكماء خذ الحكمة أتى كانت وتكون ، فكلام فارغ لا قيمة له في نفوسهم ، إنّه نموذج بشري للمكابرة الذي يثير مشاعر الاشمئزاز والتحقير تجاههم. ٣- (قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) السحر من الذنوب الكبيرة لا يجوز تعلّمه وتعاطيه ، وكذا تعلّم الشعبة والتنجيم ،

لأنه يعتمد الشرك على اعتقاد التأثير بالسحر من دون الله تعالى ، عن النبي (ص): (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهِنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ) روح البيان ٤/٤٤٧ ، في نصح البلاغة خطبة ٧٩: (الْمُنْتَمِئُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ).

١٦ - ١٨ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾
 وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ (بُرُوجًا) منازل تسير فيها والشمس والقمر والكواكب والأفلاك وهي اثنا عشر برجاً المعروفة في الفلك ، دالة باختلاف خواصها وأدوارها مع تساويها في الحقيقة والأهداف ، إنه يشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ، ويكشف عن دقة التنظيم وجمال التقدير وجلال التدبير كما يكشف عن عظمة القدرة الخالقة (وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) وزينها بالنجوم ليسر الناظر المفكر إليها. ١٧- (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) أي حفظنا السماء الدنيا وحرصناها مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ لعين مطرود من رحمة الله. ١٨- (إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ) إلا من اختلس السمع من شياطين الإنس أو الجن واختطف شيئاً من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة في الملأ الأعلى من أحاديث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث وغيرها ، (شَهَابٌ مُبِينٌ) فإنه يتبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين فأحرقه ولم يصل إلى معرفة شيء مما هو مدبر ومقدر في ملكوت السماوات كقوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ الصافات ٨ ، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها أما السماء فهي رمز السمو والارتفاع فهو مطرود عنها لا يناها ولا يدنسها لذلك لا يوجد في الجنة شيطان. فائدة: يعتقد بعض الناس أن لكل كاهن شيطاناً يأتيه بأخبار السماء فكذبه الله تعالى وإنها من دوافع الجهل وسبات العقل إلا من سرق السمع وأخذة بخفية ، وهو كناية عن أن شيطان الإنس والجن وإن صعدوا إلى القمر والمريخ وغيرها في سفينة الفضاء ، فإنهم أعجز وأحقر من أن يسترقوا السمع كالسرقة ويأخذوه من ملائكة السماء، فهذا الجمال الباهر في السماء محفوظ لا يناله دنس ولا رجز ولا يخطر فيه شيطان رجيم إلا طورد وحيل بينه وبين ما يريد كقوله ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ الصافات ٧ ، مَارِدٌ : خارج عن الطاعة يرمى بالشهب.

١٩ - ٢٠ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مَرَاوِسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ

بِمَرَافِقِينَ﴾

الآية الكونية العلمية هنا تتجاوز الآفاق إلى عالم الأنفس. المعنى : وَالْأَرْضَ (مَدَدْنَاهَا) بسطناها ووسعناها فصلحت للزراعة والسكن وجعلنا فيها (مَرَاوِسِي) جبلاً ثوابت لأجل أن تحفظ وتتوازن حركة الأرض (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (مَوْزُونٍ) كلمة ذات ثقل علمي واسع الدلالة دقيق المبني عميق المعنى ، أي (أَنْبَتْنَا) وأنشأنا وأثبتنا (فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) على إطلاقه (مَوْزُونٍ) مقدر بقدر معلوم محسوب في نوعيته وجميع خواصه ، ومدبر بتدبير محكوم بميزان العلم والدقة والحكمة والمصلحة شكلاً ومضموناً مادة وروحاً أي كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت خصائصه

تقديرًا محكمًا ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه/٥٠، والمؤزون : المقدار المقدر الدقيق الواقع حسب الحاجة في كل شيء ، فلا يكون ناقصاً عنها ولا زائداً عليها ، وكلُّ شيء مُراعَى فيه كمية المواد وكيفية الشكل والهدف المخلوق لأجله مع قدره المناسب في الجمال والجلال والكمال ، ولو اختلف هذا الميزان الدقيق العام بزيادة أو نقص لما صلحت الحياة على هذه الأرض ، وبهذا يوضع نظام التوازن العام في الطبيعة للإنسان والنبات والحيوان وللأشياء كلها ومنها المعادن وأنواعها ، عن الإمام الباقر (ع) : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْبَتَ فِي الْجِبَالِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْجَوْاهِرَ وَسَائِرَ الْفَلِزَاتِ) الأمثل ٤٨/٨، كقوله ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ الرحمن/٧-٨ ، وبذلك نعرف عظمة الله تعالى وأنه لم يخلق شيئاً عبثاً ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد/٩. ٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) مَعَايِشَ : جمع عيش وجاءت نكرة لسعة معناها ، أي هيئنا لكم في الأرض ما تعيشون به من زرع وثمار ومطاعم ومشارب وجميع الوسائل والمستلزمات التي تتطلبها حياة الإنسان الحضارية وتقدمها (وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) كما جعلنا لكم في الأرض معاش أيضاً جعلنا فيها لغيركم من سائر المخلوقات الحية معاش فإن رزقها على الله لا عليكم كالنباتات والحيوانات مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ لأن الله يخلق طعامهم وشرابهم ، كما حدّد أجلهم حدّد رزقهم ، كما وهبهم الحياة وهبهم أسباب ديمومتها. فائدة : إنّ الله سبحانه أودع في الأرض أسباب الرزق والعيش بشتى صنوفها، ومع الأيام تطوّرت هذه الأسباب مع تقدّم العلم حتى زاد الإنتاج وتحسّن دخل الفرد ، ولولا الاحتكار والإسراف وسوء التدبير والفساد لما تخلفت أمة ولما جماعت.

٢١ - ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

ما من شيء مادّي أو معنوي على إطلاقه من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم بكل أشكالها وألوانها وأحجامها وخصائصها كالمواهب والملكات والقابليات والقدرات المادّية والمعنوية ، الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة إلا عندنا خزائنه ومستودعاته التي لا تنفذ (وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ولكن لا ننزله إلا حسب حاجة الخلق إليه ضمن الحكمة والمصلحة كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر/٤٩، عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً قَدَرَهُ ، فَإِذَا قَدَرَهُ قَضَاهُ فَإِذَا قَضَاهُ أَمَضَاهُ) البحار ١٢١/٥ فلا يعطي سبحانه الرزق والمال والجمال والجلال وحسن الأشكال والكمال الإنساني وكلّ نعمة اعتباراً وجزافاً بل (كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) وبسبب يستدعيه ويوجبه كقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣ ، (بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) بميزان معين دقيق معروفة معايره محكمة تدايره ضمن المصلحة كقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ الشورى/٢٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (قَالَ مُوسَى (ع) يَا رَبِّ أَرِنِي خَزَائِنَكَ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّمَا خَزَائِنِي إِذَا أَرَدْتُ شَيْئاً أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) الميزان ١٤٨/١٢ ليس لله صناديق وخزائن يدخر فيها الأرزاق للمستقبل كما يفعل البشر ، وعليه فالخزائن هنا حالة تشبيهية وكناية تمثيلية على قدرة الله عزّ وجلّ التي تفوق التّصوّر.

٢٢ - ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ﴾

توصف الرياح باللواقح أي تعمل التلقيح ، إنها تحمل السحاب المحمل ببخار الماء إلى الشجر والنبات وأيضاً الرياح تنقل لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والفاوكة (فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً عذباً طاهراً جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ونباتكم وحيواناتكم (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ) بحافظين أي لستم بقادرين على خزنه بكميات كبيرة وإن خزنتموها تحوّلت إلى مياه آسنة ، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والجبال والآبار والأنهار ثم نخرجه من العيون بقدر الحاجة ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في أعماق الأرض ولم تكن هناك أنهارٌ عذبة ولا عيون مياه فهلكنم عطشاً ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ الملك/٣٠

٢٣ - ٢٥ ﴿وَأَنَا لَكُنْ نُحْيِي وَيُسَبِّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

كشف لبعض قدرة الله وتدييره للكائنات وتقديره لكل شيء ، ويبد الله جلّ في علاه الحياة والموت والحشر والتشر وأنه ليس لهذه الحياة بقاء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص/٨٨ ، والله سبحانه يرث الأرض ومن عليها (وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) بعد موت الخلائق كلّها فلا يغترّ أحد بهذه الدنيا وإن أعطاه الله الكثير من زهرتها وهو متاع قليل وإلى زوال. ٢٤- (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) أخطأنا علماً بالخلق أجمعين بجميع أحوالهم، الأموات منهم والأحياء ، والأمم السابقة والأمم اللاحقة والغرض أنه تعالى محيط بعلمه بكل شيء بمن تقدّم ومن تأخر مع كمال قدرته وعلمه ، عن الإمام علي (ع) : (عَلِمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعَلِمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعَلِمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعَلِمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى) التفسير المبين ص ٣٤٠-٢٥ (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) وإنّ الموت المحكوم به على الناس بالحق ليس هو نهاية الحياة بل هو نقلة إلى حياة أخرى في عالم آخر بعد الحياة الدنيا ينالون فيها جزاء أعمالهم ، لا يقدر على ذلك سوى الله تعالى كقوله ﴿أَلَا لَهُ الْخُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ الأنعام/٦٢ ، إنه (حَكِيمٌ) في صنعه (عَلِيمٌ) بخلقه.

٢٦ - ٢٧ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُورِ﴾

ولقد خلقنا آدم (مِنْ صَلْصَالٍ) من طين يابس غير مطبوخ (غير مفخور) ويُسمع له صلصلة أي صوت إذا نُقر (مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) الحمأ : الطين المتغير إلى السواد ، والمسنونون : المصبوب الذي يمكن تصويره على أية صورة على هيئة الإنسان ، وأصل الإنسان تراب وماء ونفخة من روح الله فصار حياً مكرماً مقدراً مدبراً. ٢٧- (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ) والجن بدأنا

خلقه قبل آدم ومنهم الشيطان (مِنْ نَارِ السَّمُومِ) من نار حارة شديدة التي تنفذ في المسام تؤثر تأثير السم. فائدة: اكتشف العلم الحديث نوعاً من الحشرات لا تحيا إلا بالهواء السام، ونوعاً آخر يحيا في آبار البترول والمواد الملتهبة، وقد يكون في الشمس أحياء تنفق في تكوينها مع حرارة الشمس، ونحن نؤمن بعالم الجن لأن القرآن أثبتته والعقل لا ينفية، ولكن الجن لا يرى وعالمهم غير عالم الإنس كقوله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن/٦.

٢٨ - ٣٣ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾

اذكر يا محمد وقت قول رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينِ يَابِسٍ أَسْوَدٍ مُتَغَيِّرٍ. ٢٩- (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) سويت خلقته وصورته وكلُّ إنسان له صورة خاصة به وجعلته إنساناً كاملاً مكرماً ونفخت فيه من الروح الإلهية القدسية الكريمة فصار بشراً حياً، فهذه الروح أعطت لهذا الجسد الطيني قيمة كبرى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين/٤، (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) خروا له ساجدين، سجدوا تحية وتكريم لا سجدوا عبادة وخضوع، سجدوا للأمر الإلهي، وإنما أضاف الروح إليه تعالى (مِنْ رُوحِي) على سبيل التشريف والتكريم وخصَّ به هذا التشريف على سائر المخلوقات كقوله: بيت الله، ناقة الله، شهر الله، وهي من إضافة الملك إلى المالك والصنعة إلى الصانع. ٣٠- (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) سجد لآدم جميع الملائكة تلبية لأمر الله لم يمتنع منهم أحد. ٣١- (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) سجد جميع الملائكة لكن إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي وإبليس خلق آخر غير الملائكة فهو من نار وهم من نور، وهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم/٦ وهو أبي وعصى. ٣٢- (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) الاستفهام للتوبيخ، وهنا بدأ حوارٌ بين الخالق الأمر وإبليس العاصي، ما المانع لك من السجود؟ سأله الله تعالى ليأخذ إقراره من فمه. ٣٣- (قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) قال إبليس لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طين يابس متغير وأنا مخلوق من نار فكيف يسجد العظيم للحقير والفاضل للمفضول؟ رأى عدو الله نفسه أكبر من أن يسجد حسداً وحقداً وعداوة لآدم وذريته، ونسي أن الكرامة للأمر الإلهي لا للطين، وأنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، عن الإمام علي(ع): (عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَائِنِهِ) البحار ٧٠ص ٩٥.

٣٤ - ٣٨ ﴿قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ مَرْجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْتَبُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

قَالَ أُخْرِجْ مِنْ رَمْتِي. ٣٥- (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي أَيْ الْإِبْعَادِ وَالطَّرْدِ مِنْ رَحْمَتِي إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَاللَّعْنَةُ هِيَ عِنَانُ الْإِثْمِ وَالْوَبَالِ الْعَائِدِ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فَلِذَلِكَ قِيدَتِ اللَّعْنَةُ بِأَنَّهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمُ جَزَاءِ بِلَا عَمَلٍ. ٣٦- (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قَالَ اللَّعِينُ: (أَنْظِرْنِي) أَيْ أَمْهِلْنِي وَأَخْرِنِي إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ لِيَفْعَلَ غَوَايَتَهُ لِلنَّاسِ. ٣٧ ، ٣٨- (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) قَالَ لَهُ اللَّهُ إِنَّكَ مِنَ الْمَوْجَلِينَ إِلَى حِينَ مَوْتِ الْخَلَائِقِ قَبْلَ يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ يَوْمَ انْتِهَاءِ التَّكْلِيفِ ، فَصَارَ دَوْرَ إِبْلِيسَ امْتِحَانٍ حَتَّى يَمَيِّزَ اللَّهُ بِهِ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَهُوَ سَبْحَانَهُ عَالَمٌ بِسِرَائِرِ الْقُلُوبِ وَلَكِنَّهُ أَبَى سَبْحَانَهُ أَنْ يَثِيبَ إِلَّا مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ الْعَنْكَبُوتُ/٦. فَائِدَةٌ : إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَجَاوِرُ إِبْلِيسَ وَهُوَ عَاصٍ ، فَكَيْفَ بِنَا لَا تَمْلِكُ قَوَاعِدَ الْحَوَارِ الرَّصِينِ وَالنَّقَاشِ الْعِلْمِيِّ اللَّطِيفِ؟! كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سَبَأُ/٢٤، وَقَوْلِهِ ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آلِ عِمْرَانَ/٦٤

٣٩ - ٤٠ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ قَالَ رَبِّ (بِمَا أَغْوَيْتَنِي) بِمَا خَبَيْتَنِي أَيْ خَابَ ظَنِّي بِمَا أَمَرْتَنِي وَتَرَكْتَنِي أَغْوَى وَأَضَلَّ ، بِمَا ابْتَلَيْتَنِي وَامْتَحَنْتَنِي بِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ الَّذِي أَوْعَيْتَنِي فِي الْغِيِّ وَالْمَعْصِيَةِ وَخَبَيْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ ، وَكُونَ أَدَمَ وَذَرَيْتَهُ سَبَبًا لِشَقَائِي (لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ) لِأَخْبَيْتَنَّهُمْ أَيْضًا وَلَا زَيْنَ لَذِيَّةِ أَدَمَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَلَا ضَلَمَهُمْ أَجْمَعِينَ بِإِلْهَائِهِمْ بِمَتَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْمُنْتَوَعَةِ فَيَنْشَغَلُونَ عَنْ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ وَيَكْفُرُونَ بِنِعْمَتِكَ ، قَطَعَ إِبْلِيسَ عَهْدًا عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْتَقِمَ لِمَأْسَاتِهِ وَخَسَارَتِهِ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي كَانَ السَّبَبَ لَطَرْدِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَى لَعْنَتِهِ ، وَهَكَذَا لَا يَجْتَرِحُ الْإِنْسَانُ الشَّرَّ إِلَّا وَعَلَيْهِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَسِيلَةَ تَرْبِنِهِ وَتَحْمَلُهُ كَقَوْلِهِ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ مَجْدُ/٢٥. ٤٠- (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) الْمُخْلَصِينَ : بِنَفْحِ اللَّامِ ، الْمَخْلَصُ هُوَ الْخَالِصُ النَّقِيُّ سَلِيمُ الْقَلْبِ ، اللَّهُ تَعَالَى يَسْتَخْلَصُ لِنَفْسِهِ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يُخْلَصُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزُّمَرُ/٣ ، عَنْ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع): (فِي الْإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَالِصُ) تَنْبِيهُ الْخَوَاطِرِ ص ٣٩٠ ، وَيَجْرِدُونَهَا لَهُ وَحْدَهُ بِلَا شَرِيكَ مَعَهُ ، وَيَعْبُدُونَهُ كَأَنَّهُمْ يَرُونَهُ ، هَؤُلَاءِ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ وَأَحْبَبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قَلْبِهِمْ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾ الْبَقَرَةُ/١٦٥ ، فَأَحْبَبَهُمُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُمْ إِلَيْهِ وَجَذَبَهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَاسْتَخْلَصَهُمْ لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجْعَلُوا فِي قُلُوبِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ وَهُمْ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ الْمَطْمَئِنَّةِ، الَّذِينَ لَمْ تَتَعَلَّقْ قُلُوبُهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَلَا مَكَانَ لِإِبْلِيسَ فِي نَفْسِهِمْ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى إِغْوَائِهِمْ وَإِغْرَائِهِمْ وَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ الأعراف/٢٠١، عن الإمام الصادق (ع): (لَا يَخْضُ رَجُلٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَالِدِهِ وَأَهْلِيهِ وَمَالِهِ وَمَنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ) البحار ٧٠ص ٢٤. فائدة: ١- (لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) إشارة إلى أن إغواءه للغاوين ليس بطريق القهر والجبر بل بطريق تزيينه لهم حب الدنيا واتباعهم لوساوس الشيطان بسوء اختيارهم كقوله ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء/٧٦ .

﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣. ٢- (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي) إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَنْزِعٌ عَنْ تَظْلِيلِ خَلْقِهِ إِلَّا أَنْ مَحَاوَلَةَ إِبْلِيسَ لِتَبْرِيرِ ضَلَالِهِ وَتَبَرُّةَ نَفْسِهِ جَعَلَتْهُ يَنْسَبُ الْإِغْوَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَسَاءَ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَيْفَ لَا يَتَجَاوَزُ حُدُودَهُ مَعَ النَّاسِ ؟ وَهَذَا الْمَوْقِفُ الْخَبِيثُ هُوَ طَبِيعَةُ جَمِيعِ الشَّيْطَانِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، فَهَمَّ يَلْقُونَ ذُنُوبَهُمْ عَلَى الْآخِرِينَ ثُمَّ يَبْرُرُونَ أَعْمَالَهُمْ الْقَبِيحَةَ بِأَسَالِبِ قَبِيحَةِ خَبِيثَةٍ ، وَالْإِنْتَاءُ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ ، وَقِيلَ مَعْنَى (بِمَا أَغْوَيْتَنِي) بِمَا كَلَّفْتَنِي أَمْرًا فَعَلْتَ عِنْدَهُ الْمَعْصِيَةَ وَهُوَ السَّجُودُ لِآدَمَ ، فَسَمَّى إِبْلِيسَ ذَلِكَ إِضْلَالًا مِنْهُ لَهُ تَوْسَعًا لِمَدْلُولِ الْإِغْوَاءِ ! عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ لِي مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُرْتَبًا وَلَيْسَ لَهُ مِنْ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كنز العمال خبر ٥٤٦، كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ .

٤١ - ٤٢ ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

قال تعالى : هذا طريق حق مستقيم واضح ودين قيم متين عالي المضامين على الله بيانه والهداية والدعوة إليه ، وهذا إشارة إلى تحصين المخلصين من الشيطان ووساوسه ، وهذا الدين القيم هو القانون والحكم والفرقان بين الهدى والضلال و(عَلَيَّ) أي ثابت عليه تعالى هذا الحفظ والتحصين إذا استقام الإنسان على صراطه المستقيم كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف/١٣. ٤٢- (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) إِنَّ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ (لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) أي تسلط ، لا قوة لك على إضلالهم ولا قدرة لك أن تكرههم على معصية وإتباع سلطانك على مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَا يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مِثْلَهُ وَ (شَبِيهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ، وَالطَّيُّورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ) ، وَهُوَ الْحَقُّودُ الْحَسُودُ الْمَتَعَصِبُ الْمَتَكَبِّرُ الْجَاهِلُ الَّذِي يَبِيعُ الدِّينَ وَالضَّمِيرَ وَالْبِلَادَ لِكُلِّ مَنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ طَرِيقُ الرَّحْمَنِ يَتَلَقَّفُهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُودُهُ إِلَى الْخِذْلَانِ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/٢٩، (إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) استثناء منقطع لأن الغاوين الذين ظلوا عن سبيل الله ليسوا من عباد الله المخلصين فهؤلاء الغاوين صنوف ودرجات ، والغواية ألوان وأشكال ، والعقوبات منازل ودرجات. المعنى : لكن من غوى واتبع الهوى ضلَّ عن سبيل الله ، فلك عليهم تسلط لأنهم يتبعونه باختيارهم وينسجمون مع وسوسته وإغوائه بسوء تصرفهم وغفلتهم عمَّا يراد منهم ، ويتسلط

الشیطان على الشاردين عن الله تعالى ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من الغنم كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إبراهيم/٢٢. فائدة : (إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) بمعنى : فإن أغوى إبليس فيأذن الله أغويت من يستحق الإغواء والإضلال كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥ ، وإن عجزت عن الإغواء فبمشيئتي مُنعت ، لأنَّ إخلاصهم لله أقوى من إغوائك لهم ، والذي أفضيه لك هو طريق حقِّ عليٍّ أن أراعيه لأته (صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) لا انحرف عنه.

٤٣ - ٤٤ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ، لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾

وَإِنَّ جَهَنَّمَ مَوْعِدٌ لِبَلِيسٍ وَاتِّبَاعِهِ جَمِيعاً وَهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ بِقِيَادَتِهِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ وَيَتَلَاعَنُونَ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المجادلة/١٩. ٤٤ - (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ) لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم ، وعدد (سبعة) إشارة إلى كثرة أبواب جهنم ، وفيها عدة طبقات طبق فوق طبق وبعضها أشد من بعض (لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) لكل جماعة من أتباع إبليس باب معين معلوم ، وكلُّ يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في طبق معين بما يتناسب معه بحسب مراتبهم من الفساد والإجرام و (الْقِصَاصُ عَلَى قَدَرِ الْجِنَايَةِ ، وَالْجَزَاءُ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ ، وَالنَّاتِئُجُ عَلَى قَدَرِ الْمُقَدِّمَاتِ) فائدة : تشير الآية أن أهل النار فئات ودركات كأهل الجنة منازل ودرجات وهذا هو العدل ، لأن السيئات مراتب والمسيئين درجات ، وكذلك الحسنات والمحسنين منازل ودرجات ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأحقاف/١٩ ، عن النبي (ص) : (لِلنَّارِ بَابٌ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ شَفِي عَيْظُهُ بِسَخَطِ اللَّهِ !) البحار/٨/٢٨٥.

فائدة: كقوله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ق/٣٠ ، خاطب جهنم هل امتلأت؟ ولكنّه لم يخاطب الجنة هل امتلأت؟! للدلالة على أنّ أكثر النَّاسِ إلى جهنم سائرون ! وجهنم ثمناها كبير والجنة تدخلها بسهولة بثمن طاعة الله تعالى وهو دخول بالجمان !

٤٥ - ٤٦ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾

لما أشار سبحانه إلى الشيطان وحزبه وموعدهم جهنم ، عطف عليهم المتقين من أهل الجنة وهم في عزة وكرامة ، المعنى : تقول لهم ملائكة الرحمة ، إنّ الذين اتقوا الفواحش وتجنّبوا السيئات الصغيرة والكبيرة والظاهرة والباطنة لهم مكافأة على حسن أعمالهم في الآخرة ، الجنّات العجيبة الساحرة والبساتين والعيون المتفجرة بالماء والعسل واللبن وكلّ أنواع النعيم المقيم والسعادة الدائمة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧ ، عن ابن عباس : (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ). ٤٦ - (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ) وتحيّة مباركة مسرورين يُقال لهم ادخلوا الجنة ، دار الغنى عن كلّ شيء والأمان من كلّ خوف ، سالمين من كلّ الآفات ومن كلّ

السليبات ، آمنين من الموت ومن جميع المنغصات والمكروهات فلا يكبرون ولا يسقمون ولا يجوعون ولا يعرون ولا يكلفون ولا يحاسبون ، فهي جزاء بلا عمل ، والدنيا عمل بلا جزاء كقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأعراف/٤٣. فائدة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن/١٦ ، التقوى على ثلاثة أوجه: اتقاء عن محارم الله بأوامر الله، واتقاء عن الدنيا وشهواتها بالآخرة ودرجاتها، واتقاء عما سوى الله تعالى، الأول تقوى العوام والثاني تقوى الخواص والثالث تقوى الأخص.

في غرر الحكم: (التَّقْوَى مُنْتَهَى رِضَا اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَاجَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ) والتَّقْوَى : كما أتقى النَّار خوفاً من إحراقها كذلك أتقى الله خوفاً من غضبه وأليم سخطه (مَنْ إِتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته ، والتَّقْوَى : حُلُقُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَمَّةُ الْأَخْلَاقِ وحسن السيرة واستقامة القول والعمل ، وبالتقوى تطمئن القلوب وتنشرح الصدور ويجسن معها العيش. في غرر الحكم : (بِالتَّقْوَى قُرِنَتِ الْعِصْمَةُ)

٤٧ - ٤٨ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ لا يَسْتَهْمُ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿ الغل : الحقد الكامن في القلب والضعينة والعداوة والكراهية والتفور ، والغل عنوان عام لتطهيرهم (مِنْ غَلٍّ) من كل أنواع السليبات لأهل الجنة ، المعنى : أزلنا عن صدور أهل الجنة جميع السليبات وطهرناهم من جميع عاداتهم وتقاليدهم وطبائعهم السيئة التي كانت في الدنيا المادية والمعنوية الكبيرة والصغيرة الظاهرة والباطنة ، فصارت لهم تخلية من جميع العيوب وتخلية من صفات الجمال والجلال والكمال ، وأزلنا عنهم الحقد والبغضاء والشحناء والكراهية ، فلا صراع على مغنم الأرباح ولا تحاسد على مقامات الجاه ولا حرمان من شيء فمن أين يأتي الحقد والغل ؟ (إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) إخوة متحابين متواجهين متقابلين مستبشرين على مجالس الأنس والإكرام والاحترام والعيش الرغيد والسعادة الأبدية ، لا ينظر أحدهم ولا يتابع عورات إخوانه وزلاتهم كما يفعل ذلك من في صدره غل. ٤٨ - (لا يَسْتَهْمُ فِيهَا نَصَبٌ) لا يصيبهم في الجنة (نَصَبٌ) أي تعب نفسي ولا جسدي ، ولا عناء ولا صحب ولا بلاء ولا شقاء ولا شيء فيه إزعاج أبداً لأن أسباب الراحة كلَّها مهياة لهم (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) لا يخرجون منها ، نعيمهم خالد وبقاؤهم دائم وكمالهم متألق وجمالهم متحقق ، فلا عمل إلا بذكر الله ، والذكر لذة المحبين ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت/٤٥ ، وهو نعيم دائم خالد لا يتهده الخوف والزوال لأنَّ تمام النعمة بالخلود ، روي : (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ) روح البيان ٤/٤٧٣ ، وهم في راحة وأنس.

٤٩ - ٥٠ ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿

أخبر يا محمد عبادي المؤمنين عني بأبي واسع العفو والمغفرة والرحمة لمن تاب وأناب. ٥٠ - (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) وأخبرهم أن عذابي شديد لمن أصرَّ على الذنوب فلا تعولوا على المغفرة

والرَّحمة وتنسوا ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ المارج/٢٨ ، وتأتي بعض الآيات بذكر العذاب وحده أو تقديمه. فائدة ١- يقدِّم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب الأليم ، لأنه ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الأنعام/١٢ ، لذلك جاء (وَأَنَّ عَذَابِي) تنبيهه إلى العذاب بلطف ولم يقل (وَأَنَّ الْمَعَذِبَ الْمُؤَلَّم) بعنف وذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة ، ٢- حذَّر سبحانه وبشَّر في آن واحد كيلا ييأس العاصي ولا يغتر العابد ويُعجب بنفسه ، وهذا يعطينا التوازن في الفكر والسلوك وفي العبادات والمعاملات وفي الأمل والعمل ، والإعتدال بين الترغيب والترهيب ، وبين الخوف والرجاء ، وبين التبشير والتحذير كقوله ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر/٩ ، في غرر الحكم : (خَيْرُ الْأَعْمَالِ إِعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ).

ومعنى هذا أن الإنسان لا يكون مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو عن الإمام الصادق (ع) : في قوله (لما يخاف ويرجو) (هُوَ الْخَوْفُ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ نَاقِصًا غَيْرَ مَقْبُولٍ ، وَالرَّجَاءُ أَنْ يَكُونَ كَامِلًا مَرْضِيًّا) تفسير المبين ص ٣٤١

٥١- ٥٦ ﴿وَبَشَّرْنَا عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ، قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ، قَالَ أَلْبَشَّرْتُمْ عَلَى أَنْ مَسَّنِي الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ، قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ، قَالَ وَمَنْ يَفْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾

ضَيْفٌ : يطلق على الواحد والجمع ، وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم وهم الملائكة المكرمين الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وكانوا عشرة على صورة غلمان حسان الوجوه والهيئة ومعهم جبريل. ٥٢- (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا) حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) قال إبراهيم إننا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا.

٥٣- (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ) قالت الملائكة لا تخف إننا رسل ربك جئناك لنبشرك بغلام واسع العلم عظيم الذكاء بتعليم الله ووحيه وهو إسحاق. ٥٤- (قَالَ أَلْبَشَّرْتُمْ عَلَى أَنْ مَسَّنِي الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ) قال إبراهيم متعجباً أَلْبَشَّرْتُمْ بِالْوَلَدِ وَأَنَا رَجُلٌ كَبِيرُ السِّنِّ هَرَمٌ ، فَبَأَي شَيْءٍ تَبَشِّرُونِي ؟ قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِفْهَامِ لِلتَّعْجِبِ ! ٥٥- (قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ) الْقَانِطِينَ : اليائسين ، بشرناك باليقين الثابت والحقيقة الصادقة فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ٥٦- (قَالَ وَمَنْ يَفْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) استفهام إنكاري أي لا يقنط ولا ييأس من رحمة الله إلا (الضَّالُّونَ) المخطئون طريق الصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، ولست أنا بضالٍ وليس سؤالي سؤال قانظٍ مستبعد ، أما القلب العامر بالإيمان المتصل بطاعة الرحمن فلا ييأس ولا يقنط مهما اشتدت عليه الشدائد وضافت به السبل. وكان تعجب إبراهيم (ع) باعتبار العادة دون القدرة ، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير

أبوين فكيف من شيخ عجوز عاقر؟ لذلك أجاهم بذلك الجواب كقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف/٨٧.

٥٧ - ٦٤ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، وَإِلَّا آلُ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ، فَلَمَّا جَاءَ آلُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قَالَ إِبْرَاهِيمَ (فَمَا خَطْبُكُمْ) والخطب هو الأمر الخطير الذي يكثر فيه الخطاب ، ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ ٥٨- (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ) أرسلنا ربنا إلى قوم فاجرين قوم لوط للإنتقام منهم ومن شذوذهم الجنسي الخطير. ٥٩- (إِلَّا آلُ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ) إِلَّا أَتْبَاعَ نَبِيِّ اللَّهِ لُوطٍ وَأَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ فَسَنُنَجِّيهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ أَجْمَعِينَ. ٦٠- (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) إِلَّا امْرَأَةَ لُوطٍ فَقَدَّرَ اللَّهُ (إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) بقاءها في العذاب مع الهالكين لكفرها ونفاقها ولرضاها بفعالهم وإعانتهم عليه وتأمرها على زوجها. ٦١- (فَلَمَّا جَاءَ آلُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) فلما أتى رسل الله لوطاً (ع) وخاصته على صورة شباب حسان الوجوه. ٦٢- (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) مُنْكَرُونَ: تنكرهم نفسي وتجهلهم ، قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون؟

٦٣- (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) قالوا له بل نحن رسل الله جئناك بما كان فيه قومك (يَمْتَرُونَ) يشككون فيه ويجادلون فيه بغير حق ، وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به. ٦٤- (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) وأتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإننا لصادقون فيما نقول. فائدة : ١- يكرر سبحانه قصص الأنبياء ومعاناتهم لتعظ وتعتبر كيف كان عاقبة المكذبين بالحق؟ في غرر الحكم: (الاعتبار يُورثُ الْعِصْمَةَ) وَالَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ صَارَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ، عن الإمام علي (ع): (السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِغَيْرِهِ) البحار ١٠/٩٩. ٢- عدم معرفة لوط لهؤلاء الرسل فأنكرهم ، فهذا دليل من الآية على عدم معرفة الأنبياء (ع) عالم الغيب وإنما علمهم من ذي علم عن طريق الوحي كقوله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن/٢٦-٢٧.

٦٥ - ٧١ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْيَابَهُمْ وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ، وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْحِكِينَ، وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ، قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرَجُوا، قَالُوا أَوْكَيْتُمْ عَنْ الْعَالَمِينَ، قَالَ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

بِقِطْعٍ: بقطعة ، بجزء ، أي فأخرج وسر بأهلك بعد أن يمضي جزء من الليل لا كله ويبقى قطعة منه، أي سر وقت السحر والقوم في نوم عميق (وَاتَّبِعْ أذْيَابَهُمْ) كن من ورائهم وسر خلفهم لتطمئن عليهم وتحملهم على السير الخبيث لأتاهم على مرأى منك (وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكَ أَحَدٌ) إلى

الوراء نحو المدينة ليرى ما يحلُّ بهم (وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) سيروا حيث يأمركم الله عز وجل وفيه دلالة على أنه كانت أمامهم هداية إلهية تهديهم وقائد يقودهم. ٦٦- (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيستأصلون عن آخرهم فلا يبقى منهم أحد إذا دخل الصباح ثم هلاكهم. ٦٧- (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) روي أنّ امرأة لوطٍ أخبرتهم وجاء أهل المدينة (وهم قوم لوط الخبثاء الشاذون) مسرعين يستبشرون بأضيافه طمعاً في ارتكاب الفاحشة الشاذة الممقوتة بهم ، لولعهم بالفحشاء وحبهم للفساد وخاصة بالوافدين على بلادهم والتعبير بـ (يَسْتَبْشِرُونَ) يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة والفضاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والشذوذ والفجور في الفاحشة الغريبة العجيبة المريضة الخبيثة ، وأصبح عندهم هذا الشذوذ القبيح الممقوت عادة مألوفة ومعروفة ! وأصبح الزواج الشرعي بالنساء عادة ممقوتة ومرفوضة ! فانقلب عندهم المعروف منكرًا، والمنكر معروفاً ويعتمدونه جهرة وعلانية ، بل ويتجههون لتحصيل الفاحشة ويستبشرون بممارستها ، إنّها حالة خطيرة ومريرة وشاذة عن صفات البشرية السوية لا نظير لها! كقوله ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ النمل/٥٦.

٦٨- (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون) هؤلاء ضيوفي فلا تقصدهم بسوء أفعالكم القبيحة فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم. ٦٩- (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون) خافوا الله أن يجلّ بكم عقابه ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه. ٧٠- (قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال قوم له أولم نهك أن تضيف أحداً من الناس أو تقويه في قريتنا من أي مكانٍ في العالم؟! أو تشفع فيهم أو تدافع عنهم! ٧١- (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) فلما يس لوط منهم قال لقومه : تزوجوا النساء هن أطهر لكم وأسكن لنفوسكم من أجل إلقاء الحجّة عليهم ، ولا تفعلوا ما حرّم الله عليكم من إتيان الرجال الممقوت الشاذ عن الطّبع البشري التسليم ، إن كنتم تريدون قضاء الشهوة. فائدة : ١- وقوله (بَنَاتِي) وقد سمى بنات أمته بناته لأن كلّ نبي يعتبر أباً روحياً لقومه كقوله ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب/٦. ٢- كلمة (الْعَالَمِينَ) تشمل الناس جميعاً من كلّ جنس ومن كلّ أمة على الأرض في جميع أنحاء العالم ، فيكونوا بمثابة تصدير لهذه الفاحشة الشاذة في العالم البشري، فعليهم وزرّها ووزر ممن يعمل بها إلى يوم القيامة !

٧٧- ٧٢ ﴿لَمَنْرَكَ إِلَهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمُ آسَافًا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ، وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَقِيمَةٌ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وحياتك وبقائك يا محمد إنّ قوم لوط لفي (سَكْرَتِهِمْ) لفي ضلالهم وجهلهم وغفلتهم التي جعلتهم غارقون في مستنقع الخبائث وهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (يَعْمَهُونَ) يتحيرون ويتخبطون فلا

يصرون طريق الرشد ولا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء والعذاب والعمه : عمى البصيرة ، والعمى : عمى العين. فائدة : (لَعْمُوكَ) قسماً بحياة الرسول (ص) تكريماً له وتشريفاً ، ولم يُقسم الله بحياة أحدٍ غيره (سَكْرَتِهِمْ) فإن السَّكْرَ المعنوي النفسي كالعمه والضلالة والطغيان أشد قوة وضراً وآثاراً من سكر الخمر والسَّكْرَة : ما يعتري الإنسان من ذهاب عقله بسبب من الأسباب الفاسدة التي تذهب بالعقول ، في نَجْحِ البلاغة حكم ٣١ : (مَنْ كَثُرَ نَزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَمَنْ زَاغَ (انحرف) سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، سَكَّرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ) الذي هو أشدُّ من سكر الخمر ، والهوى يقود إلى العمى ! ٧٣- (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ) أخذتهم صيحة العذاب المهلكة المدمرة وهو الصوت العاصف القاصف المنزل المرعب وقت شروق الشمس ، وهذا مصير من كذَّبَ بالحق منقاداً لشهواته. ٧٤- (فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا) قلبنا الأرض عليهم فجعلنا أعالي منازلهم أسافلها وتطهرت الأرض من قذارتهم ونفوسهم الشاذة وأعمالهم الخبيثة (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) السِّجِّيلُ : الطين المتحجر ، ويقال أنها كلمة غير عربية ، أنزلنا عليهم حجارة معلّمة صغيرة الحجم ثقيلة الوزن ، خارقة ثاقبة لها قدرة على القتل المهيئ لا تحطأ رميتها وهدفها. ٧٥- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) فيما حلَّ بهم من الدمار والعذاب لدلالات وعلامات (لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) للمعتبرين المتأملين بعين البصر والبصيرة ، الذين يخلصون من أثر صغير إلى نتائج وحقائق كبيرة ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/٢ ، في غرر الحكم: (وَمَنْ جَهَلَ قَلَّ اعْتِبَارُهُ) ومن تفكَّر وإستبصر فقد إعتبر.

فائدة : (الْمُتَوَسِّمُونَ) : المعتبرون المتفكرون الواعون المتفلسون الذين يتقبون في نظرهم البعيد فيعرفون حقيقة الشيء بسمته أي بعلامته قبل وقوعه ويحسنون التخمين والحدس والتشخيص للأحداث والتقدير في الأمور العامة ، وهي صفة مهمة مميزة نموذجية أبلغ من القول المسموع والكلام المقروء. عن النبي (ص) : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ تَلَا آيَةَ) كنز الدقائق ٥/٢٧١ ، وعنه (ص) : (إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ ثُمَّ قرأ الآية) مجمع البيان ٦/١٤٤ ، بالسيماء والعلامات وهذا لا يكون إلا عن نظر متفحص ثاقب وبصيرة نافذة كقوله ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الأعراف/٤٦ ، وأحد مصاديق المتوسمين أهل بيت النبي (ع). ٧٦- (وَإِنَّهَا لَسِبِيلٌ مَّقِيمٌ) وإنَّ هذه القرى المهلكة التي جعل الله عليها سافلها وما ظهر فيها من آثار غضب الله وانتقامه (لَسِبِيلٌ مَّقِيمٌ) لطريق ثابت موجود وسنة فاعلة مؤثرة مستمرة بالناس إلى عهد محمد (ص) لم يندرس ، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ وهي مدينة سدوم واقعة بين الحجاز والشام ، فيكون الإحتفاظ بالآثار الماضية عبر ودروس لجميع الأجيال اللاحقة. ٧٧- (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) لعبرة للمؤمنين بالقرآن الكريم المصدقين

بأخباره، وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بها، الَّذِي لَا يَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ وَاِعْظًا لَا تَنْفَعُهُ الْمَوَاعِظُ وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظًا. في نهج البلاغة خطبة ٩٠: (مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاِعْظٌ وَرَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا رَاجِرٌ وَلَا وَاِعْظٌ)

٧٨ - ٧٩ ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ، فَاسْتَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمَامٍ مَبِينٍ﴾

وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب ، وهم أصحاب الأيكة : أي أصحاب الشجر الكثير والكثيف المتلف المتشابك لدلالة على الغنى ووفرة المياه والرّفاهية وكثرة النعم ، كانوا الظالمين بتكذيبهم شعيباً نبيهم ومن ظلمهم كانوا على الشرك وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان وغير ذلك من الفساد النفسي والأخلاقي والعقائدي والاجتماعي والاقتصادي لكنهم بدّلوا نعمة الله كفرًا. ٧٩- (فَاسْتَمْنَا مِنْهُمْ) أهلكتهم بالحرّ الشديد لعدّة أيّام متّصلة وعذاب يوم الظلّة ، بعث الله عليهم سحابة في السّماء كالظلة فالتجأوا إليها واجتمعوا في ظلّها فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ آل عمران/ ٤ ، (وَإِنَّهُمَا لِيَآمَامٍ مَبِينٍ) (لِيَآمَامٍ مَبِينٍ) : لطريق صحيح وسّمي إماماً لأنّه يكون أمامه ، وإنهما أي موطن لوط وموطن شعيب في طريق واضح يراها الناس إلى عهد النبي مُجَدِّ (ص) أفلا تعتبرون بهم (الَّذِي لَا يَعْتَبِرُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) وأخسر الناس من كان عبرة للناس، عن الإمام علي (ع): (السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِتَجَارِبِ غَيْرِهِ) البحار ٩٩/١٠ ، في غرر الحكم: (إِنَّ لِلْبَاقِيْنَ بِالْمَاضِيْنَ مَعْتَبَرًا، إِنَّ لِآخِرِ الْأَوَّلِ مَزْدَجْرًا) عن النبي (ص): (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مَرَّتَيْنِ إِلَّا شُعْبِيًّا ، مَرَّةً إِلَى مَدْيَنَ فَأَحَدَهُمُ اللَّهُ بِالصَّيْحَةِ، وَمَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فَأَحَدَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ) الدر المنثور ٤/١٠٣.

٨٠ - ٨٤ ﴿وَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ

بُيُوتًا آمِنِينَ، فَأَحَدْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مَضْجِحِينَ، فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

وهم قوم ثمود ونبيهم صالح والحجر اسم بلادهم التي كانوا يسكنونها في وادي القرى على طريق القوافل بين المدينة والشّام. المعنى : كذبت ثمود نبيهم صالحاً ، ومن كذّب رسولاً واحداً فقد كذّب جميع المرسلين لأن الكل لهم دعوة واحدة وينطقون بلسان الله وهدفهم واحد لذا قال (الْمُرْسَلِينَ) بالجمع، فصح إطلاق الجمع على المفرد وهو صالح (ع). ٨١- (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة التي خرجت من الجبل بأعجوبة حسب طلبهم فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون فإنها عظيمة الخلقة والشكل فلم يشبهها ناقة (بعير) وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً ، أفلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها لأنّها لا تتفق مع أهوائهم وتقاليدهم الفاسدة فأعرضوا عنها كقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فصلت/١٧، وَأَشَدُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ ، وهكذا الذي يغلب طيشه على عقله ، في نهج البلاغة حكم / ٢١١ ، (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَىِّ أَمِيرٍ) ٨٢- (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)

كان قوم صالح من القوة والقدرة بحيث ينحتون من الجبال بيوتاً من حجر يسكنونها وكانوا آمنين مطمئنين من الغزو ومن خرابها بالسيول والعواصف والزلازل ، دليلاً على تقدمهم وقوتهم وحضارتهم في ذلك العصر ، فأمنوا العقاب فأساءوا الأدب وتجاوزوا الحدود وعطلوا العقول ، وأمنوا مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ . ٨٣- (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ) أخذتهم صيحة الهلاك في وقت الصباح المشرق الوديع . ٨٤- (فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يشيدونه من القصور والحصون، وما نفعتهم ما عندهم من القوة والقدرة والأموال والأولاد حين أراد الله الانتقام منهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ المائدة/٩٥ ، وإِذَا جَاءَ الْقَدْرُ عَمِيَ الْبَصَرُ ، وَقَدْ أُعْذِرَ مَنْ أُنْذِرَ .

٨٥ - ٨٦ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (إِنَّ الْحَقَّ) الذي تقوم به السماوات والأرض له دلالة عميقة المعنى دقيقة المبنى وواسعة الدلالة وعجيبة البلاغة ، إنه يوحي بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود ، وعميق في تكوينه وفي تدييره وتقديره وتأثيره ، وعميق في مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه ، فلا بد أن يكون الحق أصيلاً فيه ، ولا بد أن ينتهي كل شيء فيه إلى الحق الذي بدأ منه وقام عليه ، وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب ويزول لأنه ليس أصيلاً فيه . (أي) وما خلقنا الخلاق صغيرها وكبيرها سماءها وأرضها وما بَيْنَهُمَا إِلَّا (بِالْحَقِّ) أي لحكمة ومصلحة وهدف عظيم ، خلقاً بالحق ومن الحق إلى الحق ومع الحق ولا يخرج من الحق إلا ويعود إلى الحق ، ويتجلى ذلك في لطائف صنعه وعجائب خلقه ودقة تدييره وجمال تقديره وجلال تنظيمه ، لذلك الذي يخرج من نظام الحق ويعرقل مسيرة الحق ويكون شراً على الحق يستحق الخلاص منه وهلاكه بالحق حتى لا يستن سنة سيئة تحاول القضاء على الحق ، و مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَصُرُّهُ الْبَاطِلُ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَا تَصْرُفُوك﴾ يونس/٣٢ ، وقوله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون/١١٥ .

المعنى العام : كل ما خلقنا مبني على الحكمة والمصلحة وحتى تريح عليه رضاه سبحانه والجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة/٧٢ ، ولم نخلق شيئاً عبثاً ، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران/١٩١ ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور في الأرض لذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم وعبرة لمن بقي ويأتي (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) وإن القيامة لآتية لا محالة (وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ) فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وإذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فسرعان الملتقى ، كقوله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء/١٨ ، فإذا كان الخلق بالحق وهناك يوم يحاسبون ويجازون لا ريب فيه ، فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب والاستهزاء . (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) الإعراض المؤدب الحليم العليم واحتمل أذاهم في هذا الظرف المناسب ، ولكن في ظرف آخر ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة/٧٣ ، أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم

الوقور هو العفو بلا عتاب ولا مناقشة ولا جدال أي خالقهم بخلق حسن ولا تشغل نفسك بهم وترفع عن مستوياتهم الهابطة بأسلوب جميل وبأداء جليل متواضع. ٨٦- (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَعَلِيمٌ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُمْ وَهُوَ عَلِيمٌ بِحَالِكَ وَحَالِهِمْ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الصَّفْحَ أَصْلَحَ الْآنَ وَهُوَ فِي مَكَّةَ إِلَى أَنْ تَقْتَضِيَ الْمَصْلِحَةَ فِي حَرْبِهِمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْأُمُورَ مَرهُونَةٌ بِأَوْقَاتِهَا وَمُرْتَبِطَةٌ بِظُرُوفِهَا كَقَوْلِهِ ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ سبأ/٣٠. فائدة : (الْخَلَّاقُ) مبالغة الخلق إشارة إلى أنه يبدع ويتقن ويتفنن فيما خلق ، عن الإمام الرضا (ع) : ((الصَّفْحُ الْجَمِيلُ) الْعَفْوُ مِنْ غَيْرِ عِتَابٍ) نور الثقلين ٢٧/٣.

٨٧ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

الآية موجزة في اللفظ ولها أحسن نظم وأسمى معنى وأدق مبنى وأوسع دلالة. المعنى : ولقد أكرمناك بسبع آيات هي سورة الحمد ، أمُّ الْكِتَابِ ، وجاءت السبع المثاني عدلُ القرآن ، وقدم السبع المثاني على القرآن العظيم لإلفات النظر إلى عظمة السبع المثاني ، فإنها سورة قصيرة في ظاهرها ولكنها عظيمة الدلالة وعالية المضامين في أعماقها ومضمونها. الْمَثَانِي : من التثنية وهو التكرير والإعادة ، عند أكثر المفسرين هي سورة الفاتحة ، وهي سبع آيات ويثنى بها في الصلاة ، وتجمع بين الربوبية والعبودية (تحتوي على أهم مطالب الله وأهم مطالب الإنسان) في سبع في آياتها ، ومثان في صفتها التي تثني بعضها بعضاً وتوضحها وتؤكددها من غير اختلاف ولا تناقض في المعاني ، لأن بعض الآيات توضح البعض الآخر وتلوي وتعطف على بعضها ، لذلك أفضل فهم للقرآن هو من القرآن نفسه وهذا بحاجة إلى القدرة على استنطاق القرآن ، عن الإمام علي (ع) : (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقْهُ، فَإِنَّهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ وَنَاطِقٌ لِمَنْ اسْتَنْطَقَهُ)!

لذلك القرآن يفسر بعضه بعضاً فصار أهم فهم للدين الإسلامي هو المستند على أساس القرآن الكريم (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) عطف على (سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) من عطف الكل العظيم على الجزء ، إلفاتاً إلى أن الجزء هو عظيم أيضاً ، وفي وصف القرآن بالعظيم إشعار بأن تقديم أم الكتاب سورة الحمد (الفاتحة) على القرآن العظيم ، لبيان عظمتها ورفع قدرها فهي جامعة لأهداف القرآن الرئيسية وهي خلاصة القرآن ، وهي قرآن كامل بشكل مضغوط ، فإذا كان القرآن خلاصة كل الرسالات فإن الفاتحة خلاصة القرآن ، وإذا كان القرآن عظيماً لأنه جامع للكمالات فإن الفاتحة عظيمة أيضاً فهي جامعة للكمالات ، لذلك صارت الفاتحة أهم سور القرآن أهم المواضيع كالوعد وأفضلها وأعظمها فائدة : ١- وقوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ الزمر/٢٣ ، فيكون معنى المثاني (القرآن كله) لإطلاق معنى المثاني للكتاب أحسن الحديث ، والمثاني لأنه ثني فيه أي كرر في القرآن أهم المواضيع كالوعد والوعيد والأمر والنهي والثواب والعقاب والقصص ، والتكرار يذكر الشطار ، لأن التكرار من أوصاف القرآن الكريم ، حيث جمع بين كون الكتاب كله متشابهاً يشبه بعض آياته وبعضاً وبين كون آياته مثاني ، فهو يصدق بعضه بعضاً، عن الإمام علي

(ع) : (يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ) و(مَثَانِي) لأنه نزل مرتين على النبي (ص) ولأنه يتكرر قراءة آياته ليحفظه من التحريف (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) دقيق المبني عميق المعنى واسع الدلالة (لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَفْتِي عَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ) ولا تتخلص البشرية من معاناتها إلا به ، لذلك وصل هذا القرآن العظيم بخلق السموات والأرض معاً وما بينهما بالحق، فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق وهو يكشف سنن الله في الآفاق وفي الأنفس ويوجه القلوب إليها بالحق ، فإن من أوتي هذه المَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشيء زائل ومتاع قليل في هذه الأرض. وصفه بـ (الْعَظِيمِ) لأنه يتضمن دستور للبشرية أجمعين، بكل ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا والآخرة ببلاغة عالية، وأوجز لفظ وأحسن نظم وأتم معنى، وهذا بذاته إعجاز وبأدائه إعجاز. ٢- (المَثَانِي) ويقال : مَثَانِي : جمع مثناة وهي من الثناء ، أي أن آيات القرآن تُثني فيها على الله تعالى وهو دعاء خالص لله وتوَكَّد وتوضَّح بعضها بعضاً ، أو المَثَانِي من التثنية أي أن آياته تثني وتكرر فتقرأ مرتين في كل صلاة.

عن النبي (ص): (لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ) ، وأيضاً حقيقة القرآن لها تجلٍ جديد في كل عصر فهو يواكب كل عصر ، لذلك يوصف بالمثاني لانسجامه مع كل زمان ومكان ومع كل جيل. كقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء/٤١ ، صَرَّفْنَا كَرَّرْنَا وبيننا ووضحنا مطالب القرآن بوجوه كثيرة ، وأساليب متنوعة ووسائل متعددة (لِيَذَكَّرُوا) ليتذكروا ويعتبروا وقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف/٥٤.

٨٨ - ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا حَتَّىٰ حَمَلْنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

الأزواج : الأصناف والأشكال ، من الرجال والنساء من الوثنيين والمجوس واليهود والنصارى كقوله ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ ص/٥٨ أي أصناف وقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ يس/٣٦. المعنى : لا تنظرن نظر طموح ورغبة وتعظيم واهتمام إلى ما متعنا به (أزواجاً) أصنافاً قليلة من الكفار والمشركين واليهود والنصارى من زينة الحياة الدنيا وبهجتها القصيرة رجالاً ونساءً امتحاناً وبلاءً كقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابٌ مُّهِينٌ﴾ آل عمران/١٧٨ ، فإستغن بما أعطيت ولا تلتفت إلى متاع الدنيا كقوله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ طه/١٣١ ، والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي (ص) ولكنّه تعليمٌ لأمتّه عن الإمام الصادق (ع): (إن الله بعث نبيّه بإيتائك أعني وإسمعي يا جارة) البحار ٩٢/٣٨١، كما تقدّم مثله كثيراً كقوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ التوبة/١١٧ ، وقوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ يونس/٩٤ ، وقوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ التوبة/٤٣ ، وغيرها ، استغن عنهم ، فإن الذي أعطيناك من النبوة والجاه والقرآن العظيم أعظم منها وأشرف وأكرم ، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة كبيرة ، وكل أصناف الزينة والتعفة الظاهرة والباطنة وأسباب الترف والرفاه التي يتمتع بها الجاحدون وغيرهم ، وإنما هو متاع قليل مؤقت ظاهري ، ولكن نفوسهم معدّبة قلقمة مضطربة تعاني الكآبة والأمراض النفسية والخلقية من الداخل !! فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَحْسَرَ أَهْمَ شَيْءٍ ، وَهِيَ نَفْسِي؟! كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧ ، ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ الإسراء/٢٢ ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ طه/١٢٤ ، عن النبي (ص): (مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أُوتِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِيَ فَقَدْ عَظَّمَ مَا حَفَرَ اللَّهُ وَحَفَرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ) الكافي/٢٠٤/٢ (ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) لا تَحْزَنْ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ لِلنَّعْمِ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي غُرْرِ الْحَكْمِ: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ)

وهو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي ، وإثك في مقام كريم أمين (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) خفض الجناح كناية عن اللين والمرونة واللطف والعطف والرعاية وحسن الخلق والمودة والرحمة وحسن المعاملة والقدرة على الاستيعاب ، فتواضع لهم وتحنن عليهم كالطائر يسط جناحيه ثم يخفضها على فراخه ليحميهم أي وأقصر همك على معاشرتهم وتربيتهم وتأديبهم بأدب الله كقوله ﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المائدة/٥٤ ، ويصوّر القرآن هذه الحالة بمشهد محسوس مألوف فيه فنية في التعبير وبلاغة في التقدير وحركة في التدبير. فائدة: ١ - كقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة/١٢٨ ، عن النبي (ص): (مَنْ رَمَى بِبَصَرِهِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِهِ كَثُرَ هُمُّهُ وَلَمْ يَشْفِ عَيْظُهُ) الصافي/٣/٣٢٧ ، عن الإمام علي (ع): (وَمَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِينًا أَصْبَحَ عَلَى اللَّهِ سَاحِطًا) البحار/٧٧/٤٣ ، وعنه (ص) : (إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَقْرَبَكُمْ مَجْلِسًا، أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَأُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ) البحار/٧٧/١٤٩ وَحَيْرَتُكُمْ مَنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ وَلَا حَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ ! ٢ - (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) العين لا تمتد ، إنما يمتد البصر والنظر أي يتوجّه ، ولكنّ التعبير مجازي تصويري مجسّم يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع ! وهي صورة طريفة حين يتصوّرها المتصوّر ، ليعرف ما يريده الله منه وما تريده النفس كقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر/٣٨ ، فعلينا أن نعيش القدرة على الفرز بين الحق الكبير في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والعطاء الكريم في القرآن العظيم الذي مع الرسول (ص) ، والمتاع الصغير القليل في الدنيا الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل (إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ).

إني أنا الداعي دعوة الحق الواضح بأدلتها العقلية وبراهينها المنطقية القائمة على الدلائل والبراهين العلمية ، وإني نذير للناس من عذاب أليم أن يحلَّ بهم على من طغى وبغى وتشردَّ وتمرد ، وخصَّص الأندار دون التبشير لأنَّه أليق ومتناسب مع قوم يكذبون ويستهزئون ولاهون وغافلون عمَّا يراد منهم . ٩٠ - (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) الكاف للتشبيه ، الْمُقْتَسِمِينَ : أهل الكتاب اليهود والنصارى ، الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه فانقسموا إلى قسمين . المعنى : أنزلنا عليك كتاباً القرآن العظيم كما أنزلنا كتاباً على اليهود التوراة وكتاباً على النصارى الإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن (كلام الله) إلى أقسام وجزؤوه إلى أجزاء ، فأخذوا بعضه وأعرضوا عن بعض كقوله ﴿أَفْتُوْنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ البقرة/٨٥ .

٩١ - (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) فزقوا القرآن أعضاء حق وباطل وأجزاء مقبولة وغير مقبولة وهو صفة للمقتسمين . المعنى : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ الْوَاحِدَ الْمُوَحَّدَ الْمُتَّحِدَ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ ، إِلَى أَعْضَاءٍ مَتَفَرِّقَةً فَأَمَنُوا بِبَعْضِهِ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاهُمْ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ مَا خَالَفَ مَصَالِحَهُمْ وَرَغْبَاتَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) هُم نَفْسُهُمُ الْمُقْتَسِمِينَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَالَفُوا أَهْدَافَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ وَتُوْحِيدُ الْكَلِمَةَ ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ (ص) عَنِ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ بِالْقُرْآنِ بِقَوْلِهِمْ سِحْرٌ وَشَعْرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، فَإِنَّ الْكُفْرَةَ فَعَلُوا بِالْكِتَابِ السَّمَاوِيَةِ كَمَا فَعَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ وَهَذَا فَوْقَ أَنَّهُ كَفَرَ هُوَ سَفَهُ وَحَمَقٌ وَجَهْلٌ بِالْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ مَنَهِجٌ وَاحِدٌ مُوَحَّدٌ مُتَّحِدٌ لَا يَقْبَلُ التَّجْزِئَةَ وَالتَّعَدُّدَ لِأَنَّهُ يَدْعُمُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَإِنَّمَا أَنْ يَقْبَلَ كُلُّهُ أَوْ يَرُدَّ كُلُّهُ ، أَمَّا أَنْ يَقْبَلَ بَعْضُهُ وَيَرُدَّ بَعْضُهُ فَذَلِكَ هُوَ التَّفَاقُ الْعَقْلِيُّ وَالْفَعْلِيُّ الَّذِي يَخُونُ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَيَخَادِعُ مَنْطِقَهُ وَيَعِيشُ التَّذَدْبُذَ وَالتَّقَلُّبَ وَازْدَوَاجَ الشَّخْصِيَّةِ وَهِيَ مَصْدَرُ الْإِنْخِطَاطِ ، وَالْقُرْآنُ يَذُمُّ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ ﴿مُذَبَّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ النساء/١٤٣ .

٩٢ - ٩٣ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ سَأَلُوهُ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أقسم الله بنفسه وأضاف نفسه إلى نبيه تشریفاً له وتنبهياً للخلق على عظيم منزلته عنده ، (لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ) لسألن الخلائق أجمعين لماذا عصيتم ؟ لماذا جهلتم ؟ لماذا اعتديتم ؟ ما هي حجتكم في ذلك ؟ فيفضحهم عند تعذُّر الجواب ! ٩٣ - (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يسألهم عن كلِّ شيء في أقوالهم وأفعالهم في سرِّهم وعلانياتهم ، ومسؤول الإنسان عن سمعه وبصره وقلبه حيث يجب عليه أن لا يقبل أو يرفض شيئاً منهم إلا بعد التأمل والتأكد والرؤية والصحة كقوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦ ، كقوله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٩٤﴾ الكهف/٤٩ ، وكلُّ شيءٍ محفوظ ويعرض مجسّم، وكأنّه على أرض الواقع، ذي ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية.

٩٤ - ٩٦ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

(فَاصْدَعْ) فاجهر بتبليغ رسالة ربك وأعلن كلمة الحق ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ولا تخف لومة لائم من المستهزئين والثرثارين فلن يضروك شيئاً. ٩٥- (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) إِنَّا كَفَيْنَاكَ وخلصناك شرّ المُسْتَهْزِئِينَ منك ومن القرآن وكانوا كثيري السفاهة والأذى لرسول الله (ص) ، وهو تطمين للنبي وعون من الله له على أداء مهمته الثقيلة ، وأن الله سبحانه هو الذي سيتولى حساب هؤلاء الساخرين وهو سبحانه الذي يدير المعركة ، وليس هذا السوء منهم بل إنهم ٩٦- (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) فجرمتمهم جرمتان ، استهزاء بالنبي أظهر الناس وكفر بالله وإشراك به وهو ظلم عظيم وواحدة منهما مهلكة لمقترفها فكيف بمن اقترف الجريمتين معاً ؟ (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) سوء عاقبتهم وفيه تهديد ووعيد لهؤلاء.

٩٧ - ٩٨ ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَاكَ بِيضِقُ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ والتعبير بفعل المستقبل (نَعْلَمُ) مع أن الله سبحانه حاضر في كلّ وقت إشارة إلى أن ما كان من المشركين من استهزاء بالنبي فإن الله يعلمه علماً قديماً قبل أن يكون وعلماً بعد أن يقع وفي أثناء الوقوع ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق/١٢ ، وما يقوله المشركون مما يضيّق به صدر النبي (ص) ويعتصر المألأ لآته إنسان من لحم ودم وعصب، يقولون : شاعر مجنون وساحر من مقولاتهم الحمقاء البلهاء في حق النبي المصطفى (ص). ٩٨- (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) أي إذا نزل بك ضيق وأصابك هم وغم واضطربت نفسك فافزع إلى ربك ونزّهه عما يقول الجاهلون مستعيناً به على كلّ أمر من الأمور ، واستعين به بالصبر والصلاة فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير ، وهو الذي يهديك إلى سبيل الرشاد ويسمو بنفسك إلى المألأ الأعلى كقوله ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق/١٩ ، عن النبي (ص) : (وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ) البحار ١٦٢/٨٥ خاضع حامد وشاكر على ما أنعم عليه من نعمه الظاهرة والباطنة ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إبراهيم/٣٤ ، والذي يسجد لله تعالى فلا يسجد لغيره ، والذي يسجد لله لا يستكبر بل يتواضع ، لأنه يشترك مع السجود الكوني العام للكون والكائنات ! ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الرعد/١٥.

٩٩ - ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

الْيَقِينُ : الموت أحد مصاديق اليقين لأنّه متيقن الوقوع كقوله ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّىٰ أَنَا وَالْيَقِينُ﴾ المدثر/٤٦-٤٧ أي اسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ حَتَّى الْمَوْتِ كَقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿البقرة/١٣٢﴾ ، بمعنى : فلا يأتينا الموت إلا ونحن مسلمون أي مستسلمون لأمر الله ممن وجهه وجهه لله وحده فيكفيه الوجوه كلها ، وعلينا أن نحمل همماً واحداً يكفيننا سبحانه الهموم كلها ، ونحن لا نعلم وقت موتنا فلا بد أن نكون في كل وقت مسلمين حتى عندما يأتينا الموت الذي هو بدرجة اليقين نموت مسلمين. الإنسان عند الموت يلاقي صحوة يطّلع منها على الحقيقة وما وراء الدنيا ، فإذا مات رأى عالم الحق عياناً ، عن النبي (ص): (النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا) روح البيان ١٣٢/٢، فائدة: ثلاث درجات لليقين : علم اليقين : انكشاف المعلوم للقلب علماً بلا رؤية بصر كعلمك بأن في هذا الوادي ماء، وعين اليقين : انكشاف المعلوم فتراه عين البصر دون البصيرة ، وهذه درجة أعلى ، كرؤية الماء في الوادي دون شربه، وحق اليقين : إدراك المعلوم بشكل تام بالبصر والبصيرة معاً وهي القمّة لخلوها من أي شك ، كالشرب منه كقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة/٢٤ ، في نهج البلاغة خطبة/١٥٧ : (بِالْيَقِينِ تُدْرِكُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى). معنى الآية : وَاَعْبُدْ رَبَّكَ دَائِمًا وَأَبْدًا وَتَصَاعَدَ فِي تَحْسَنِ عِبَادَتِكَ مع الله تعالى ومعاملاتك مع الناس حتّى تصل إلى التّكامل البشري (حق اليقين) أعلى درجات اليقين وبها تدرك الغاية القصوى كقوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ مريم/٣١ ، قيل : اليقين : اسم ورسم وعلم وعين وحق ، فالاسم والرّسم للعوام ، والعلم علم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين للأنبياء (ع) وحقيقة (حق اليقين) اختصّ بها نبينا محمّد المصطفى (ص). (ما يفسد اليقين) غلبة الهوى والحرص على الدّنيا والشكّ في الإيمان والجدال في الباطل ، والذي لا ينفعه اليقين يضرّه الشكّ ، وحكى الله تعالى عن أهل التّار أنّهم كما يصفهم القرآن ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ، وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّىٰ أَنَا الْيَقِينِ﴾ المدثر/٤٣-٤٧ . وفي الختام نقول : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام/١٥٥ ، وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ . تمّ بعون الله تعالى (وَعِيُ الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرِ) لسورة الحجر ، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل ، فلله الحمد والمّنة ، وبالحمد تتمّ الصّالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢٥/جمادي الآخرة/١٤٣٧ هـ الموافق ٥/٦/٢٠١٥ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة ، إنّ ربّي سميعٌ مجيب الدُّعاء .

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى

سُورَةُ النَّحْلِ

من مقاصد السورة :

سورة مكية تعالج قضايا العقيدة الكبرى ، الوحي ، البعث والنشور ، دلائل قدرة الله ووحدانيته في ذلك العالم الفسيح في مكوناته المنظمة الكثيرة ، هدف السورة بيان قدرة الله الواحد القهار ، فخاطبت السورة كل حاسة في الإنسان وكل عضو في كيانه البشري ليتجه بعقله إلى ربه ويستنير بما يرى من آثار صنع الله المتقن على عظمة الله سبحانه الحكيم ، وتذكر السورة نتيجة ومخاطر الكفر بنعم الله وعدم القيام بشكرها ، وختمت السورة بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل الله ، وسبب تسمية السورة بـ (سورة النحل) لاشتمالها على تلك العبرة البليغة في النحل والعسل والشفاء التي تشير إلى عجب صنع الله الدالة على وجوده سبحانه. الجزء الرابع عشر ، عدد آياتها (١٢٨) آية ، رقمها (١٦). **فضلها** : عن النبي (ص) : (مَنْ قَرَأَهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللَّهُ بِالنِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ فِي ذَارِ الدُّنْيَا ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ وَأَحْسَنَ الْوَصِيَّةِ وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمٍ تَلَاهَا أَوْ لَيْلَتِهِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ فَأَحْسَنَ الْوَصِيَّةِ) مجمع البيان ١٥٥/٦. **ملاحظة عامة**: كل فضل من فضائل سور القرآن كلها يعتمد على مقدار الصدق والعمل من الإنسان ومقدار الرضا من الله عز وجل تجاه الإنسان وليس بالمني والأماني ، وكل فضل بشرطه وشروطه والالتزام بمنهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

صدر أمر الله وتوجهت إرادته ودبر الموعد المناسب الذي قدره لوقوعه لا يعلمه إلا هو سبحانه، وهو أمر بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين كقوله ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥، ووضع الفعل الماضي وهو (أتى) مكان الفعل المضارع لأنه حقيقة واقعة حتمية لا بد منها وهي آتية وكل آت قريب ، فإذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فسرعان المنتقى . (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) لا تطلبوا حصوله قبل وقته ، فإن سنة الله تجري وفق المشيئة ووقوعه يكون في الوقت المقدر لا يتقدم ساعة ولا يتأخر لحظة كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر/٥ ، وكلُّ مقدر كائن، وكلُّ كائنٍ آتٍ، وكلُّ آتٍ قريب ، وكلُّ قريب كاد أن يكون ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ الشورى/١٨، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَتَرَاهُ قَرِيبًا﴾ المعارج/٦-٧، عن النبي (ص): (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كثر العمال خبره ٤٢٧٤٨، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) سُبْحَانَهُ : ارتفع وتسامى عن منازل العباد وصفاتهم وتنزه الله عما يصفه به الظالمون الذين لا يستحقون أن يخاطبوا لانحطاط أفهامهم ، فهو منزّه في ذاته ومتعال في

صفاته ومحمود في أفعاله ورحيم في قضائه ومشكور في نعمائه وعادل في بلائه، في الدعاء (سُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْتَدِي عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ) فلا تقابلوا رحمته بالعصيان ، فليس أحد وليس شيء شريكاً له وهو الخالق الواحد بلا شريك. فائدة : قوله (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) آخر آية من سورة الحجر وأول آية من سورة النحل (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) وبين البداية والنهاية توافق والتتام وارتباط

٢ - ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

المراد بالروح هنا الوحي وسمي الوحي روحاً لأنه للنفوس هادياً ولقلوب مرشداً كما تحيا بالأرواح الأبدان كقوله ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ غافر/١٥، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الشورى/٥٢ ، أول نعمة سبحانه هو تنزيل الملائكة بالروح بإرادة الله سبحانه على من يشاء من عباده ممن يختارهم للرسالة والنبوة كقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام/١٢٤، والتعبير (بِالرُّوحِ) له معناه وتأثيره في النفس ، فهو حياة ومبعث حياة ، حياة في النفوس والضمائر والعقول والمشاعر وحياة في المجتمع تحفظه من الفساد والانحيار في ظلمات الضلالة ، والروح أول ما ينزله الله تعالى من السماء ليكون للناس نعمة ورحمة وهداية ووقاية ودراية فتحيا به القلوب ، إنها كلمة التوحيد وروح العقيدة وحياة النفوس (أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) هذه هي القاعدة المشتركة لدعوة جميع الأنبياء أن آمنوا بالله الواحد الأحد واتقوا معصيته وخافوا عقوبته ، والتقوى : إصلاح مقام النفس والقول والعمل ، وإصلاح الاعتقاد والسلوك ليصل إلى درجة الورع عن محارم الله بزيادة التلذذ بطاعته سبحانه (أَنْذِرُوا) وقدم الإنذار على البشارة لأن الكلام يدور حول المشركين والمكذبين والجاحدين لنعمة الله والمرتين عن الإيمان ، فالإنذار في هذه الأجواء أليق والدعوة إلى التقوى والخوف من الله أولى في هذا المقام. فائدة : (بِالرُّوحِ) كلمة ظاهرها أليق وباطنها عميق ، وهي كلمة الإيجاد التي يوجد الله سبحانه بها الأشياء بلا مادة ولا زمان ولا مكان ولا تدرج ولا حركة والروح : هو أمر الله تحمله الملائكة إلى رسل الله ، والروح كلماته النافذة المنزلة على الرسل وسميت روحاً لأنَّ فيها تنمية الروح وانتعاشها ، وفي الروح حياة الناس ، فمن لم يأخذ عقله ودينه منها فهو ميت وإن كان في عالم الأحياء ! كقوله ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ الأنعام/١٢٢.

٣ - ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

خلقهما بالحق ولهدف عظيم ، والحق قوام خلقهما وتديبرهما ، وأحكم خلقهما على نهج دقيق ونظام عميق تقتضيه الحكمة ليستدل بها على معرفته ويتوصل بالنظر فيهما إلى العلم بكمال قدرته وحكمته (تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تمجد وتقدس عن الشريك والنظير ، لم يخلقهما عبثاً لم يشركه في إنشائهما شريك ولم يُعنه على ذلك معين فالتليق العبادة إلا له كقوله ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ الكهف/٥١ ، في غرر الحكم: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلُ

لِلْعِثْقِ) ومن قَصَّرَ عن أحكام العبودية أَهْلٌ لِلرِّقِّ ! والذي لا يكون عبداً لله فهو عبداً للشيطان والذي لا يتبع الهدى يأخذه الهوى والأنا.

٤ - ﴿حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾

أول ما خلق الله الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ حقيرة مهينة كريهة نجسة قدرة ليس بها شعور ولا إدراك وهو المني كقوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ المرسلات/٢٠، وآخره جيفة تننة وهو ما بين ذلك ضعيف تؤلمه البقعة وتننته العرقلة وتقتله الشهقة وهو مع ذلك يجادل بغيرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) خَصِيمٌ مخاصم مجادل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم/٣٤ ، فإذا به بعد تكامله بشراً في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، مخاصم لخالقه بوضوح يكابر ويعاند ويجادل ، وقد خلقه الله ليكون عبداً لله لا ضدّاً ولا خصماً ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وأن من قدر على إيجادهِ أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً.

في غرر الحكم: (رَحِمَ اللهُ إِمْرِعاً عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) ، وعنه (ع) في نفس المصدر : (رَحِمَ اللهُ إِمْرِعاً عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَّفَ عِنْدَهُ) والإنسان لا ينحرف عن الطريق المستقيم إلا جهلاً وبالتقليد الأعمى واتباع الهوى والمنى أو لمنفعة شخصية ﴿وَزَيْنٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ ويا لها من نقلة ضخمة معبّرة بين المبدأ والمصير ، وليس بين بدايته من نطفة وصورته إلى مجادل ومخاصم فارق كبير ولا مهلة بعيدة ، وهذه صفة الإنسان الذي لا يهذهبه الدين ، وكان جديراً به أن يرتفع عن متطلبات الشهوة وجاذبية التراب إلى متطلبات العقل وجاذبية الروح و (مَنْ كَبُرَتْ شَهْوَتُهُ صَغُرَ عَقْلُهُ، وَمَنْ كَبُرَ عَقْلُهُ صَغُرَتْ شَهْوَتُهُ). في غرر الحكم: (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ، نَقَصَتْ الشَّهْوَةُ).

٥ - ٦ ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

وخلق الأنعام لمصالحكم المختلفة وهي الإبل (الجمال) والبقر والغنم والمعز (الظأن) ، لكم فيها منافع كثيرة منها تستدفنون به من البرد مما تلبسون وتفترشون مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا (وَمَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ومن منافعها التناسل والتكاثر وتدر الحليب وركوب الظهر وحرارة الأرض ومن لحومها تأكلون ٦- (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) ولكم في هذه الأنعام زينة وجمال حِينَ (تُرِيحُونَ) حين رجوعها عشياً من المرعى ، (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) وحين غدوها صباحاً لترعى وتكبر وتسمن ، وأهل الرِّيف يدركون هذا المعنى أكثر ممَّا يدركه أهل المدينة.

٧ - ٨ ﴿وَتَحْمِلُ أُمْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْأَنْفُسِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْحَيْلُ وَالْبَعَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَرَبِّنَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا (بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) بجهدٍ ومشقة وخاصة إذا كان الطريق على الصَّحراء ، وهذا في وقت لا وسيلة

للنقل إلا الأنعام والإبل ، وبدونها لا تستقيم الحياة. (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) لَرَءُوفٌ : ذو رأفة في إزالة الأذى ودفع التهمة ، رحيم : ذو رحمة على الإنسان الماضي والمعاصر في إرجاع المنفعة وجلب النعمة، وفضل الله على الإنسان المعاصر أجلّ النعم فمهد له السبيل للثورة الصناعية المتنوعة منها صناعة أنواع السيارات والقطارات والطائرات بما وهبه من عقلٍ مفكّر وقدرات تكتشف وطاقت تبثدع ووقر له العناصر والمواد اللازمة والعلوم المتعدّدة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٥١، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/٥٠.

٨- (وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِيَتْرَكُبُوهَا وَزِينَةً) بعد أن أشار سبحانه إلى منافع الأنعام الثلاث أشار إلى منافع الخيل والبغال والحمير ، خلقهم للحمل والركوب وهي كذلك (وَزِينَةً) وجمال ومسخرة لكم ولا تؤكل ، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة، وذكر القرآن للزينة له دلالاته النفسية والتربوية كقوله ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف/٣١ ، فالجمال عنصر أساسي في الحياة ، وليست النعمة مجرد تلبية الضرورات بل هي تلبية للكفايات للأشواق والتسلّيات (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) بلا حدود ولا قيود ، (مَا لَا تَعْلَمُونَ) على الإطلاق ليظل المجال مفتوحاً لتقبل أنماط جديدة للمخلوقات والصناعات على مرور الزمان ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصوّرهم وإدراكهم لوسائل النقل الحديثة المتنوعة البرية والبحرية والجوية ، وهذه من التنبؤات الإعجازية في القرآن ، وهي من تعليم الله للإنسان ، وأيضاً لله مخلوقات لا يحيط العقل بعلمها ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء/٨٥ ، كقوله ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إبراهيم/٣٤ ، لا عدّة لهذه النعم ولا حدّ لتلك المخلوقات كلّها تدلُّ على كمال قدرته وجلال إرادته وجمال تدبيره فهو سبحانه جميل يخلق الجمال ويدافع عنه ويحب الجمال، فلا يخلق شيئاً إلاّ جميلاً بنسبة معينة حتى يكون الجمال ذا مفهوم نسبي متفاوت من أعلى درجات الجمال إلى أدنى درجات الجمال ولكن الله تعالى لا يخلق القبيح ، أمّا المشوّه والمريض والتاقص فهناك خلل في التلقيح والتزواج، فالجمال المطلق لخالق الجمال سبحانه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف/٣٢ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ، يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَنْتَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَيَبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالنَّبَاؤُسَ) كنز العمال خير١٧١٦٦، في الحديث : (جَمَالَ الرَّجُلِ فَصَاحَةُ لِسَانِهِ) كنز العمال خير٢٨٧٧٥، وعنه (ص): (الْجَمَالُ صَوَابُ الْمَقَالِ ، وَالْكَمَالُ حُسْنُ الْفِعَالِ). كنز العمال خير٢٨٧٧٦.

٩ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمَنْهَا جَائِرٌ وَوَسَاءُ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وَعَلَى اللَّهِ تعالى أن يهدي عباده إلى بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ، (وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ) فَصْدُ السَّبِيلِ : السبيل القاصد الذي له هدف نبيل معلوم وهو

الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ الليل/١٢ ، وَقَصْدُ السَّبِيلِ : هُوَ الْبَيَانُ الْوَاضِحُ بِطَبْعِهِ الْمُنْفَعُ الَّذِي يُمَيِّزُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ وَالْخَطَأَ مِنَ الصَّوَابِ وَيُعَالِجُ الشَّبَهَاتِ ، إِذَنْ فَهَنَّاكَ سَبِيلَ مُسْتَقِيمٍ لَا يَلْتَوِي فَكَأَنَّهُ يَقْصِدُ قَصْدًا سَلِيمًا إِلَىٰ غَايَتِهِ فَلَا يَجِيدُ عَنْهَا (وَمِنْهَا جَائِرٌ) وَمِنَ الطَّرِيقِ مَا هُوَ مَائِلٌ عَنِ الْحَقِّ مُنْحَرَفٌ عَنْهُ مَعْوَجٌ ، أَيْ وَهَنَّاكَ سَبِيلَ جَائِرٍ مُنْحَرَفٍ ضَالٍّ عَنِ الْحَقِّ لَا يُوَصِّلُ لِعَايَةِ سَلِيمَةٍ وَلَا يَقِفُ عِنْدَ هِدَايَةٍ وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ مُسْتَعِدًّا لِلْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ وَأَنْ يَدْعَ لِإِرَادَتِهِ الْإِخْتِيَارَ الْحُرَّ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلُكُ السَّبِيلَ الْقَاصِدَ الْمُسْتَقِيمَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلُكُ وَيَخْتَارُ السَّبِيلَ الْجَائِرَ الْمُنْحَرَفَ فِي غَرْرِ الْحَكْمِ: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَصْعُقُ نَفْسَهُ) وَهُوَ مُحَاسِبٌ عَلَىٰ مَا يَخْتَارُ وَكِلَاهُمَا لَا يَخْرُجُ عَلَىٰ مَشِئَةِ اللَّهِ الَّتِي قَضَتْ بِأَنْ تَدْعَ لِلْإِنْسَانَ حُرِيَّةَ الْقَصْدِ وَالِاخْتِيَارِ وَكَقَوْلِهِ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس/٩٩ عَنْ النَّبِيِّ (ص) : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهُدَىٰ شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْنِيْسُ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) رُوحُ الْبَيَانِ ١٣/٥ (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ إِلَىٰ حِلَاوَةِ الْإِيمَانِ جَمِيعَكُمْ لَهَدَاكُمْ فَجَعَلَكُمْ كَالْمَلَائِكَةِ مَفْطُورِينَ مَخْلُوقِينَ مَجْبُرِينَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَتَقْوَى اللَّهِ فَلَا تَتَّجِهَ نَفُوسُكُمْ إِلَى الْعَصِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ ، اقْتَضَتْ حُكْمَتَهُ أَنْ يَدْعَ لِلْإِنْسَانِ حُرِيَّةَ الْإِخْتِيَارِ وَيَحَاسِبَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

كَقَوْلِهِ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/٣ ، وَهَكَذَا الصَّرَاحُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالشَّهْوَةِ ، فَمَنْ تَغَلَّبَتْ شَهْوَتُهُ عَلَى عَقْلِهِ كَانَ أَشْرَ مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَمَنْ تَغَلَّبَ عَقْلُهُ عَلَى شَهْوَتِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَطُورِي لِمَنْ كَبُرَ عَقْلُهُ وَإِيمَانُهُ، وَإِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ، إِذَا صَعُرَ الْعَقْلُ كَبُرَتِ الشَّهْوَةُ! فِي غَرْرِ الْحَكْمِ: (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ، نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ) فَائِدَةٌ : (وَمِنْهَا جَائِرٌ) ضَمِيرٌ مِنْهَا يَعُودُ إِلَى السَّبِيلِ ، لِأَنَّ كَلِمَةَ (جَائِرٌ) تَذَكَّرُ وَتَوَنَّثُ وَهِيَ ذُو دَلَالَةٍ عَامَةٍ مَادِيَّةٍ كَالسَّبِيلِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَالسُّوقِ ، وَمَعْنَوِيَّةٍ كَالْعُلُومِ وَالْأَرَءِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ كَالْإِسْلَامِ وَمِنْهَا مَا هُوَ جَائِرٌ مُنْحَرَفٌ وَمَعْوَجٌ كَالْأَرَءِ الْمُنْحَرِفَةِ وَالْأَدْيَانَ الْمَعْوِجَةَ وَالْأَحْزَابَ الْمَشْبُوهَةَ وَالتَّجْمَعَاتِ الضَّارَّةَ الْمَفْسُودَةَ.. كُلُّهَا أَشَارَ إِلَيْهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِكَلِمَةِ (جَائِرٌ) مِنَ الْجُورِ وَالظُّلْمِ وَالانْحِرَافِ وَتَجَاوُزِ الْحُدُودِ وَأَيْضًا (وَمِنْهَا جَائِرٌ) إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ وَغَيْرِهَا مَا هُوَ مُسْتَجِيبٌ لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ ذَاتٌ طَبِيعَةٌ أَلِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ جَائِرٌ مُنْحَرَفٌ مَتَوَحِّشٌ لَا يَأْلَفُ الْإِنْسَانَ.

١٠ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

مَظْهَرٌ آخَرَ مُحَسَّوسٌ مِنْ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً عَذْبًا فِيهِ حَيَاةٌ كُلِّ حَيٍّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الْأَنْبِيَاءُ/٣٠ ، (لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ) أَنْزَلَهُ عَذْبًا فَرَاتًا

سائغاً للشاربين (وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) وأخرج لكم منه أنواع الشجر والنبات (فِيهِ تُسِيمُونَ) ترعون فيه أنعامكم من غير تكلفة.

١١ - ﴿يَبُتُّ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ورائحتها وأحجامها واختلاف فوائدها (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) ومن كلِّ الفواكه والثمار يخرج لكم أطيب الطعام وأنواع المنافع (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) إِنَّ فيما ذكر من إنزال الماء وغيره لأدلة على أنه لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له لقوم يتدبرون في صنعه فيعتبرون فيؤمنون وتطمئن قلوبهم بذكر الله (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ويتدبرون في صنعه المحكم المتقن العجيب ، وخصَّ المتفكرين لأنهم هم الذين يصلون بتفكيرهم إلى الحقيقة ، إنها بحاجة إلى بحوث علمية ودراسات جامعية لعدد كبير من المتخصصين الذين يدركون حكمة التدبير ودقة التقدير ويعرفون الله المقدر لهذه المقادير المنظمة الفريدة ، عن النبي (ص) : (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) الرعد/١٩) البحار ٣٢٧/٧١ ، وعن الإمام الحسن (ع) : (التَّفَكُّرُ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ) البحار ١١٥/٧٨ . فائدة : الزيتون شجرة مباركة مفيدة غنية بالمنافع ذكرها القرآن لزيادة بركتها كقوله ﴿شَجَرَةٌ مَبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٌ﴾ النور/٣٥.

١٢ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ من مظاهر التدبير في الخلق وظواهر تقدير النعمة المنظمة الكثيرة على البشر ، هو أنه سبحانه سخر أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم ، (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) يدوران لمصالحكم ومنافعكم (وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) والنجوم على كثرتها كلها تجري في أفلاكها بتنظيم من خالقها ومدبرها لتتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، وهذا ردُّ على الماديين الذين يرجعون جميع الحوادث الكونية إلى الطبيعة والصدفة !! (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لقوم يفهمون ويدركون ، وإن الذي يدرك تلك الآيات والحكمة منها وعظمة صنعها وصانعها هم أصحاب العقول السليمة المفكرة ، سئل النبي (ص) : (مَنْ أَحْسَنُ عَقْلاً ؟) قال (ص) : الْمُسَارِعُ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى ، الْمُجْتَنِبُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى) روح البيان ١٧/٥ .

فائدة: ١- فليتصوّر الإنسان نهاراً بلا ليل أو ليلاً بلا نهار ، وليتصوّر الإنسان كيف يتداخل الليل بالنهار ويتداخل النهار بالليل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ لقمان/٢٩ ، وهذه حالة التداخل بين الظلمات والنور ، هو نفس التداخل الذي يحصل بين الهدى والضلال والخير والشّر والشدة والرخاء والضعف والقوة والأمل والعمل والذكر مع الإثني والعسر مع اليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦ ، وهذا يكشف سنة التداخل بين السنن الكونية والسنن الإنسانية وأنّ هناك علاقة مهمة بينهما في حركة مطّردة مشتركة دائمة، فلا عسر مستمر ولا يسر مستمر كما أنه لا ليل مستمر ولا نهار مستمر، ولا ضعف مستمر ولا

قوة مستمرة.. إلخ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/١٤٠. ٢- الآية تذكر الإنسان أن لا يغفل عما أنعم الله عليه ، ولزوم الشكر لله تعالى على كلِّ نعمة (فَلَا تَعْفُلْ فَلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنَّا)، في غرر الحكم: (احذروا الْعُقْلَةَ فَإِنَّمَا مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ). ٣- من الملفت للنظر أن تعبير القرآن له دلالات مهمة : ذكرت الآية (١١) من السورة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وذكرت الآية (١٢) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وذكرت الآية (١٣) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) فإختصت آية الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم بأصحاب العقول (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) من غير تفكّر بل تدرك سريعاً بالبديهة على وجود الصانع، كما اختصت بأن فيها (آيات) بالجمع ، على حين اختصت آية الماء والزروع (بِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فيرون ما وراء هذا الظاهر الذي يجابه حواسهم ، يرون دلائل تدلُّ على قدرة الله وعلمه وحكمته ، ثم كان الإلتفات إلى عالم النبات وإلى اختلاف ألوانه وأشكاله وطعومه آية بعد آية (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) ، فهنالكَ درجة التعقل ودرجة التفكّر ودرجة التذكّر. فتكون درجة التذكّر تجمع التعقل والتفكّر ، ويكون (الدِّينُ الْقَيِّمُ) يعتمد على التفكّر والتعقل والتذكّر.

١٣ - ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

(وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ) وما خلق لكم في الأرض من المخلوقات المتنوعة لقوام أبدانكم من الملابس والمطاعم ومن أنواع الحيوانات والنباتات والمعادن الجامدة والمائعة والجمادات (مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ) على اختلاف ألوانها وأشكالها وأحجامها وكميتها وخواصها ومنافعها ولا يشبه بعضها بعضاً (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) إنّ في هذا الخلق المنظم والتسخير المدبّر دلالات على وجود خالق عظيم منظم حكيم لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) يتعظون ويعتبرون ولا ينسون أنّ يد الله تعالى هي التي خلقت وخبّأت لهم هذه الكنوز الكثيرة في الأرض.

١٤ - ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَكَتَبْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وهو تعالى (بقدرته وحكمته ورحمته) سَخَّرَ أي ذلّل لكم البحر الكبير الضخم المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه والاستفادة منه (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) لتأكلوا منه أنواع السمك الطري النافع الذي تصطادونه من غير أن تبدلوا أدنى جهدٍ في تربيته ، وفي وصفه بالطري تنبيه إلى أنّه ينبغي المسارعة في أكله لأنّه يسرع إليه الفساد ، ومنه السمك الذي يموت وهو في الماء فيطفو ، وأيضاً وصف لحم السمك بأنّه طري إشارة إلى أنّه يختلف عن لحم الحيوان الأحمر ، لأنّ لحم السمك هشّ وسهل المضغ والهضم (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا) وتستخرجون منه أنواع الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ) السفن العملاقة (مَوَاحِرَ) جوارى، تشق مياه البحر الواسعة جارية فيه وهي تحمل أنواع الأمتعة وأنواع الصناعات

والخيرات (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) لتنتفعوا بهذا التنقل (وَلِتَبْتَغُوا) أي ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معاشكم بالتجارة (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل فضله فلا تتخذوا من دونه آلهة أخرى وأنتم تتمتعون بفضله. فائدة : (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ) رؤية البواخر تشق الماء فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعيتها وإلى الجمال في الكون الواسع بجانب السفن العملاقة ، ونلاحظ البحر المالح باعتدال ملوحته، فإذا ازدادت الملوحة انعدمت الحياة فيه وإذا قلت الملوحة تعفن الماء وفسد لأنه ماء غير جارٍ وأصبح ضرراً على الإنسان.

١٥ - ١٦ ﴿وَأَلْفَى فِي الْأَرْضِ مِرْوَاسِيٍّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

نصب فيها (رِوَاسِيٍّ) جبلاً ثوابت راسيات (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) تميل بكم ، لئلا تضطرب بكم حركة الأرض ، ومن أجل أن تتوازن حركتها ، والقرآن يصرح بذلك ولكن العلم الحديث لم يتعرض لهذه الوظيفة المهمة (وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وجعل فيها أنهاراً ينبع الواحد منها من بلد ويجري في أرض العديد من البلاد رزقاً للعباد والبلاد والدواب (وسبلاً) فجاءاً وطرقاً ومسالك طبيعية وصناعية لكي تهتدوا إلى مقاصدكم و(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) إلى الله وتوحدوه. ١٦-(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) وجعل لكم علامات يستدلون بها في سيركم نهاراً على الطرق كالجبال والأنهار ، وبالنجوم يهتدون ليلاً في الصحارى والبحار. فائدة : ١- تشير الآية إلى مراعاة نظام النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة للصلاة وهذا يدعو إلى تعلم علم الفلك. ٢- (في الْأَرْضِ) سميت بالأرض لأنها تأرض أي تأكل أجساد بني آدم. ٣- عن الإمام الصادق (ع) : (وَكَذَلِكَ يَجْرِي لِأَيُّمَةِ الْهُدَى وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِذْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَرْكَانَ الْأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا) تفسير النور ٤/٤٨٢.

١٧ - ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

الاستهزام للإنكار ، هل يستويان ؟ كلا وألف كلا وهناك فارق كبير بينهما ولا وجه للمقارنة ، أفمن يخلق كل شيء باستمرار كائنات متقنة غاية في الجمال والنظام والإبداع ، ينتظم بها الكون وينعم بها عليكم كمن لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ضعيف (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أفلا تميزون بين الخالق والمخلوق ؟ فما يحتاج الأمر لأكثر من تذكّر فيتضح الأمر ويتجلى اليقين وترتفع الشكوك ، ليعلم أن العبادة لا تليق إلا بالخالق المعتم على كمال شيء ، فعليكم أن توحدوه وتشكروه ، فإن من أفضع الأمور المساواة بين الخالق والمخلوق ، ومن أعظم الجرم تفضيل المخلوق على الخالق ومن تجاوز حدوده عبد المخلوق وأنكر الخالق !! ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق ١/ ،

كقوله ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ لقمان/١١ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون/١٤

١٨ - ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

فما من شيء إلا وهو نعمة من نعم الله لا سبيل لإحصائها فالأشياء بعضها نعمة لبعض ، إنكم غارقون في النعم الإلهية الظاهرة والباطنة ، المادية والمعنوية ، المعروفة وغير المعروفة إن تعدوا نعم الله عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطبقوا شكرها (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) غفور لما صدر منكم من تقصير ، رحيم بالعباد حيث ينعم عليكم مع تقصيركم وعصيانكم. فائدة : ١- استعرض سبحانه ألواناً من النعمة وكلها تلزم الشكر لله ، وأكثر النعم لا يدري بها الإنسان لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتردها ، وهذا جسده متى يشعر بما فيه من نعمة إلا حين يدركه المرض فيحس بقيمة الصحة ، فلا يعرف الإنسان قدر النعمة إلا بمقاساة ضدها ، ولكن حجب الجهل وضبابية الغفلة وغلبة الهوى والشهوة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجملة التي كلما خطا العلم الحديث خطوة إلى الأمام انفتحت لنا آفاقاً جديدة في معرفة النعم الإلهية ، وكل ما ندركه قليل مما هو موجود، فهل بإمكان الإنسان المحدود أن يعد ويحصي ما أعطاه الخالق المطلق الحق؟! فكيف تنكرون الله وتتعدون حدوده وهو الحاضر في وجودكم لأنه أسبغ عليكم أنواع النعم ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ النحل/٥٣ ، ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ التكاثر/٨ ، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى/١١ ٢- قال (نِعْمَةَ اللَّهِ) بالمفرد ولم يقل (نعم الله لا تحصوها) بالجمع ، لأن النعمة الواحدة تستبطن النعم الكثيرة ، فمثلاً نعمة البحر نعمة واحدة ولكنه يحتوي على كنوز من النعم وقدرة الإنسان محدودة قاصرة عن الإحاطة بها وهكذا كل النعم كقوله ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ إبراهيم/٣٤.

١٩ - ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

والله يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال ويجازيكم عليها ، فهو يعلم كل شيء الظاهر والباطن ولا يخفى عليه شيء وهو محص ذلك كله عليكم بالصوت والصورة والنية فكيف نعصيه إذا؟ وتقديم السر على العلن لأن علم الله بالسر قبل العلن ، وأن علم الله بالأشياء قبل أن تكون ولو كانت كيف تكون

٢٠ - ٢١ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

من شأن الإله المعبود المستحق للعبادة أن يكون خالقاً لا مخلوقاً ، ولكن المشركين يتركون الخالق ويعبدون المخلوق، وإن الخالق يعلم موعد البعث والنشور لأن البعث تكملة حكمة الخلق، عن النبي (ص) : (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان ٢٢/٣ و(يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) المصدر نفسه خبر ٤٢٧٢٢ ، فالآلهة التي لا تعلم متى يبعث عبادها هي ليست آلهة فكيف يدعونهم ويعبدونهم؟! ٢١- (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ) وهو حكم على هؤلاء المشركين الذين عطلوا

عقولهم فعبدوا غير الله ولم يفرقوا بين ما عبده وبين المستحق للعبادة، هؤلاء الضالون أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ لَأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَائِنِ الْحَيِّ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّمْيِيزِ فَيُؤَثِّرُ وَيَتَأَثَّرُ (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وأنهم لا يشعرون أي شعور ولا يحتملون أي احتمال (أَيَّانَ) متى يبعثون، أن لهم حياة أخرى في عالم الآخرة العلوي غير عالم الدنيا الأرضي السفلي. فائدة: قال (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) أشار إلى المشركين بضمير الغائب ولم يقل بضمير المخاطب (تدعون) وذلك لأنهم ليسوا أهلاً لأن يخاطبوا! كقوله ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ النحل/١٧.

٢٢ - ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكْرَهُ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾
إِلَهُكُمْ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَمَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الزمر/٤٥، (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكْرَهُ) فالذين لا يصدّقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وتنفر من وحدانية الله عز وجل (والذي لا ينسجم مع منهج الرحمن ينسجم مع سبيل الشيطان) (وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ) متكبرون متعالون عن قبول الحق بعدما سطعت الأدلة (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقٌ، وَمَنْ لَّا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَصْرُهُ الشُّكُّ، وَالَّذِي لَّا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْغَوَايَةُ وَالضَّلَالَةُ) فائدة: يجمع السياق بين الإيمان بوحداية الله والإيمان بالآخرة، بل يجعل إحداها دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الحساب والجزاء كقوله ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص/٧٧. ٢- عن الإمام الصادق (ع): (مَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَى الْآخِرِ فَضْلاً فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ) نور الثقلين ٣/٤٨، وعن النبي (ص): (تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) كنز العمال خبر ٥٧٢٢٢، وعنه (ص): (مَنْ تَكَبَّرَ تَعَظُّماً وَضَعَهُ اللَّهُ، مَنْ تَوَاضَعَ لَلَّهِ تَخَشُّعاً رَفَعَهُ اللَّهُ).

٢٣ - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾
(لَا جَرَمَ) بلى وحقاً وهو بمنزلة اليمين إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) يعلم ما يخفون وما يظهرون فيجازيهم به كقوله ﴿وَلَنُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية/٢٢، (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) المتعظمين، المتكبرين على التوحيد والمعاندين والذين يستنكفون عن التسليم للحق والخضوع له ويستحقون العقاب على قدر ما يستكبرون سواء كانوا مشركين أو مسلمين كقوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف/١٤٦، عن النبي (ص): (إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ أَمْثَالُ الدَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَطَّوَّهُمُ النَّاسُ بِأَفْدَانِهِمْ لِتَكْبُرِهِمْ) المراعي ٦٨/١٤

٢٤ - ٢٥ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوا أَوْنَامَهُمْ كَمَا مَلَأَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ أَوْنَامِهِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَسَاءَ مَا يَكْتُمُونَ﴾

وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أي شيء أنزل ربكم على رسوله (ص)؟ قالوا على سبيل الاستهزاء، ما أنزله ليس إلا (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) خرافات وأباطيل الأمم السابقين المسطورة في كتبهم من غير دليل على صحته ليس بكلام رب العالمين، وصفوه بما في عقولهم من جهل وسفه وما في نفوسهم من لؤم وحسد، وفي المقابل إذا سئل المتقون عن القرآن قالوا هو خير، كان المشركون يجلسون على مداخل مكة ينقرون الناس عن رسول الله (ص) إذا سألهم وفد الحجاج ماذا أنزل على محمد؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين الكاذبة الخرافية، وقد صيغت عبارات جذابة لتنتطلي على عوام الناس.

٢٥- (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة دون أن ينقص منها شيء يحكم عليهم بأشد العقوبات التي يستحقونها بلا تخفيف ولا رحمة (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل ولا برهان، فقد كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم (ذنوبهم) وذنوب من أضلوهم فلهم عذابين لا عذاب واحد، الأول على بغيهم وضلالهم، والثاني على إضلالهم وإغوائهم للآخرين التابعين لهم و (الْجَزَاءُ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ)

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) ألا للتنبية أي فانتبهوا أيها القوم بمس الحمل الثقيل الذي حملوه على ظهورهم، والمقصود المبالغة في الزجر، عن النبي (ص): (أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِ ذُنُوبِ) مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبِعْ، فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَجُورِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ) البحار ٢/ص ١٩. فائدة: ١- (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ) اللام (لام التعليل) في ليحملوا، يصور القرآن الكريم في تعبيره البليغ في صورة حركية مجسمة مؤثرة، يصور هذه الذنوب أحمالاً ذات ثقل وساءت أحمالاً وأثقالاً، فهي تنقل النفوس كما تنقل الأحمال الظهور، وهي تتعب وتُنشقي وتُثقل وتوزق كما تتعب الأثقال حاملها، بل هي أدهى وأنكى وأمر! كقوله ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ العنكبوت/١٣. ٢- (يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) إنهم يضلون من لا يعلم أنهم على باطل وفساد، وفي ذلك تنبيه إلى أن كيدهم ومكرهم لا يخفى على أهل العقول، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء الذين ينعقون مع كل ناعق ويتبعون الإتياع الأعمى، إنهم باعوا عقولهم لرؤسائهم وأعطوهم إرادتهم من غير تفكير (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ).

٢٦- ﴿قَدَمَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِ السَّقْفُ مِنْ قَوَائِمِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ المكر: الخديعة والاحتيال، مكر الجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله بأفواههم وحاولوا أن تكون كلمتهم هي العليا، وتحصنوا بالقلاع وخطوط الدفاع ليقوا (فَاتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) قلع بنيان مكرهم الضخم والمحكم والمتين من قواعده وأسسها وهذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من الخدائع بالرسول (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوَائِمِهِمْ) فَخَرَّ: فسقط عليهم سقف بنيانهم فنهدم البناء عليهم فأبطل كيدهم وأفسد مكرهم وماتوا (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) جاءهم

الهلاك والدمار من حيث لا يتوقعون ولا يخطر على بالهم ! فائدة : صوّر المشهد القرآني المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته ولكن هذا كله لم يقف أمام قدرة الله وتديبره ، والله من ورائهم محيط فهو سبحانه يحمي دينه (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ..) هو مشهد للتدمير الكامل الشامل يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالقواعد التي تحمل البناء تحطمت وتهدّمت من أساسها والسقف يطبق عليهم ويدفنهم (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ..) فإذا البناء الذي أحكموه لحمايتهم كان مقبرتهم ! فصار تدميرهم في تديبرهم ، وهذه سنة متحركة تكشف مصير كلّ طاعٍ وبارعٍ على مرور الأزمان، في غرر الحكم: (مَنْ مَكَرَ حَاقَ بِهِ مَكْرُهُ) ﴿وَلَا يَجِيئُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/٤٣ ، والله تعالى يكشف عن سنة دائمة إنه سبحانه هو الذي يدير المعركة بين الإيمان والكفر ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال/١٧ .

٢٧ - ﴿تُدْرِكُ الْقِيَامَةَ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) يفضحهم بالعذاب الذي يتناسب مع إجرامهم ويذلهم (وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ) وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ أَيْنَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ (تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ) تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنين وتوجدون الاختلاف في دين الله من أجل أتباعهم ؟ فلا يتمكنون من الإجابة أحضروهم ليشفّعوا لكم وهذا استهزاء بهم (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) يقول الدعاة إلى الله والعلماء والفضلاء شماتةً بأولئك الأشقياء إنّ الذلّ والهوان والفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وتعذّى الحدود معه وتعذّى على حقوق النَّاسِ، سواء أكان ملحدًا أم غير ملحد، في غرر الحكم: (وَالْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ.

٢٨ - ٢٩ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَوْتَى الْمُكْبِرِينَ﴾

إنّ مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزي وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر، (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله تعالى ومعاصيهم وظلم النَّاسِ وحرموها من الإيمان والاطمئنان ، والظلم أم الرذائل فهو ينغص العيش ويكره الأيام ويقلق النفس ومن ظلم نفسه فقد ظلم غيره (فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) (فَأَلْقَوْا السَّلَمَ) يرسم القرآن الكريم مشهدهم في ساعة الاحتضار ، استسلموا وإنقادوا عند الموت على خلاف عاداتهم في الدنيا من العناد والكبرياء، واعتذروا كما يعتذر الأطفال المشاغبين قائلين (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) كقوله ﴿وَلَكِنْ

ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ فصلت/ ٢٢ ، (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يكذبهم الله ويقول بلى قد كذبتهم وعصيتهم وكنتم مجرمين ، فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمَفْسُدَ مِنَ الْمَصْلُحِ . ٢٩- (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أدخلوا جهنم من أبوابها المخصصة لكم كل واحد بما يتناسب مع عمله وكفره ماكنين فيها أبداً (فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) مَثْوًى : منزل ومسكن ومقام أي أسوأ مقام مقام جهنم فهو مقام الخاسرين المتكبرين عن طاعة الله ولا يعملون للصالح العام ، وهو مشهد محزٍ وموقف مهين بما يتناسب مع كبريائهم كقوله ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا﴾ فاطر/ ٣٦ .

٣٠-٣١ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَكُمْ رَبُّكُمْ فَأَلَّوْا خَيْرَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنًا وَكَذَلِكَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَسَعَدَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ قيل للفريق الثاني الذين اتَّقَوْا (المنصفين) يقابلون الذين ظلموا أنفسهم وتجاوزوا الحدود (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قَالُوا بكل احترام وتعظيم وتلخيص للدعوة ، أنزل (خَيْرًا) وهي كلمة واسعة المعنى جامعة لكل المحاسن مانعة لكل المساوئ ، لأنه أنزل قرآناً يتضمن معارف وشرائع عامة في العمل بها خير الدنيا والآخرة ، وليس الانصاف وقفاً على المسلمين فكل من تحرر من الهوى والتعصب وفهم القرآن على حقيقته يقول هو خير للناس وصلاح بهديه، كان هذا الموقف في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن مُحَمَّدٍ وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنون ويسألهم عن مُحَمَّدٍ وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) هؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم فهي اعتقادات وأعمال حسنة وحياة حسنة ومنتعة حسنة ومكانة حسنة .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة ونعيمها خير وأعظم من دار الدنيا الفانية (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) فلهم طيب الدار والله تعالى يمتدحها بأنها نعم الدار ، ثم يفصل ما أجمل عن هذه الدار فإذا هي ٣١- (جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا) أنواع كثيرة الجنان للإقامة الدائمة والاستقرار الأبدي والنعيم السرمدي (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) يدخلون تلك الجنان بالتكريم والاحترام التي تجري من بين أشجارها وفصولها الأنهار المطردة بأنواع الأشربة دلالة على الرخاء والرفاهية والراحة النفسية (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) لهم في تلك الجنات ما يشتهون وما يرغبون بدون كدٍ ولا تعب ولا انقطاع ولا هم ولا حزن ولا حدود للرزق والتكريم كما في هذه الحياة الدنيا (كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) لأنه لا يضيع عمل عامل من ذكر وأنثى كقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف/ ٧١ ، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾

الرحمن/٦٠ ، ﴿لَمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ الصافات/٦١ ، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/٢٦ ، فائدة: عن الإمام علي (ع): (عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا جَمْعٌ مِنَ الْخَيْرِ وَلَا خَيْرَ غَيْرِهَا وَيُدرِكُ بِهَا مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يُدرِكُ بِغَيْرِهَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ثُمَّ تَلَا آيَةَ) كنز الدقائق/٥/٣٢٥ (وَمَنْ إِنْتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ جَزَاهُ، وَمَنْ نَسِيَ اللَّهَ نَسَاهُ) من رحمته ، عن النبي (ص) : (عَدَنَ دَاؤُ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَحْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ، وَلَا يَسْكُنُهَا غَيْرٌ ثَلَاثَةٌ ، النَّبِيِّنَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ، يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك) روح البيان/٥/٣١.

٣٢ - ﴿الَّذِينَ سَوَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

إنه مشهد الاحتضار والبعث والجزاء ، هم الذين تقبض ملائكة الرحمة أرواحهم بلطف حال كونهم (طَيِّبِينَ) في أقوالهم وأفعالهم وهي كلمة جامعة للفضائل مانعة عن الرذائل ، طيبة نفوسهم بالبر والتقوى ويتطهرون من العيوب والظلم والآثام وحسنت أخلاقهم على الدوام مع الله ومع أنفسهم ومع الناس فأصبحوا راضين مرضيين (يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) يقول لهم أنتم في سلام وأمن واطمئنان، تسلّم عليهم الملائكة بسلام الله وترحب بهم وتهنئهم وتقول ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ النور/٦١ ، وتبشرهم بالجنة بما كنتم تعملون ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين (اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعجيباً لهم بالبشرى بالدخول فيها بعد البعث دخولاً بالأرواح والأبدان ، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب كان ذلك حين التوفي فيكون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ، وهذا في عالم البرزخ.

قبل للإمام الصادق (ع) : صف لنا الموت ، قال (ع) : (لِلْمُؤْمِنِ كَأَطِيبِ رِيحٍ يَشْتُمُهُ فَيَنْعَسُ لِطَيِّبِهِ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ ، وَلِلْكَافِرِ كَلْسَعِ الْأَفَاعِيِّ وَلَدَغِ الْعُقَابِ أَوْ أَشَدَّ) البحار/٦/١٥٢ والتعبير عن موتهم بـ (تَتَوَفَّاهُمْ) للدلالة على التلطف في موتهم فإنهم استوفوا أرزاقهم في الحياة فلم يبق منها شيء حتى نفّسهم معدود عليهم فأخذوه كلّهُ ، ويشير إلى أنّ الموت لا يعني الفناء والعدم أو نهاية كلّ شيء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

٣٣-٣٤ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

عاد الكلام إلى توبيخ المشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بجهلهم وكان الاستفهام إنكارياً. والمعنى : هَلْ يَنْظُرُونَ : هل ينتظرون أي ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين : إما أن تأتي الملائكة لتأخذ أرواحهم أو يأتي أمر ربك بحلول العذاب العاجل بهم (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كذلك صنع من قبلهم من المجرمين مثل فعلهم الخسيس حتى حلّ بهم العذاب و (الَّذِي لَا يَتَعَطَّى

بِالْمَاضِيْنَ كَأَنَّ عِبْرَةً لِّبَاقِيْنَ) (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وما ظلمهم الله بتعديبهم وإهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم عندما عاشوا في ظلمات الجهالة وفي حيرة الضلالة وأغلقوا عقولهم عن الرأي والرأي الآخر ، وفضلوا الضلالة على الهدى ، وهكذا تكون النتائج مثل المَقْدِمَاتِ ، ويكون الجزاء من نفس العمل ، وتكون العقوبة على قدر الجناية ، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ!) (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ..) فقد آتاهم الله حرية التدبر والتفكر والاختيار وعرض عليهم آياته القرآنية والكونية وحدّتهم سوء العاقبة ووكلمهم إلى أنفسهم وأعمالهم وإلى سنة الله الجارية في الإنسانية ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، فعليه تقع مسؤولية بناء مستقبله الدنيوي والأخروي لذلك (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ..). ٣٤- (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا عَمِلُوا) فَأَصَابَهُمْ عِقَابَاتٌ كَفَرَهُمْ وفسادهم وجزاء أعمالهم الخبيثة (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وَحَاقَ بِهِمْ أَي وَأَحَاطَ بِهِمُ الْبَلَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَنَزَلَ بِهِمْ جَزَاءُ سَيِّئَاتِهِمْ وَفَسَادِهِمْ فِي الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ وَاسْتَهْزَأَتْهُمُ بِالْقِيمِ وَالْمَبَادِي وَالْأَخْلَاقِ وَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْقِبُونَ بِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْ ثَمَرَةِ أَعْمَالِهِمُ الذَّاتِيَّةِ ، وَإِنَّهُمْ لِيَصَابُونَ بِجَرَائِرِ سُلُوكِهِمُ التَّلَقَّائِيَّةِ ، فَائِدَةٌ : أَصَابَهُمْ عِقَابُ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَسَمِيَ الْعِقَابُ سَيِّئَةً كَقَوْلِهِ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى/٤٠ ، إِنْهُمْ سِيَلِقُونَ ثَمَرَةَ أَعْمَالِهِمُ الْمُنْحَرِفَةَ عِقَابًا عَادِلًا وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ، وَمَا قَسَا عَلَيْهِمْ فِي الْعُقُوبَةِ وَإِنَّمَا قَسَتْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ أَعْمَالِهِمْ !

٣٥ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَمَا فَعَلْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

وقال أهل الكفر والشرك (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم على إرادة الله ومشيئته فلو شاء الله (في زعمهم) ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله ، وهذه شبهة يكررها القرآن لخطورتها كقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ يس/٤٧ ، بمعنى : إن الله كتب على هؤلاء الفقر ولو شاء الله أن يرزقهم ويطعمهم لما كانوا في حاجة إلى أحد يتصدق عليهم ويطعمهم ، وقال المشركون : لو كان الله لا يريد أن نعبد من دونه شيئاً نحن وآباؤنا لما استطعنا أن نعبد هذه الآلهة من دونه ولا استطعنا أن نحرم غير ما حرمه الله ، لأن إرادة الله فوق إرادتنا ولا يمكن أن يحدث شيء في الوجود إلا إذا أراد الله وأذن له ، إنهم خلطوا بين الإرادة التكوينية القاهرة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١ ، وبين الإرادة التشريعية التي أعطى الله الإنسان حرية الاختيار في الالتزام بها أو الإعراض عنها ، ويبقى الإنسان مسؤولاً عن اختياره محاسباً عليه ، وهكذا المجرم أو المقصر يُلقَى مسؤولية ضلاله

وتخلفه على الله تعالى وعلى القضاء والقدر أو على الآخرين أو على الزمان أو على الصدفة ، أما الذين آمنوا فيكونون هم أدوات القضاء والقدر ، وهم الذين ينساقون مع نظام القضاء والقدر ، ولا يتجاوزون سنن الله العامة ، السنن العامة التي تقول : إن الله جعل في أموال الأغنياء حقوق الفقراء ، ليبتلي الأغنياء بالفقراء ، ويبتلي الفقراء بالصبر ، كقوله ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ مَجْد/٤ ، وفي نهج البلاغة حكم/٥٢٢ : (وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ) ، كقوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/٢ ، والله تعالى أوجب الإنفاق وأثاب عليه فقال : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران/٩٢ ، وقوله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ/٣٩ ، وقوله ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ الحديد/٧ ، في غرر الحكم : (إِنَّكُمْ إِلَى انْفَاقٍ مَا اكْتَسَبْتُمْ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى اكْتِسَابِ مَا تَجْمَعُونَ) ، وفيه أيضاً : (لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ عَلَى أُحْرَاهُ) ، وعن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ مَنَعَ حَقًّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفَقَ فِي بَاطِلٍ مِثْلَيْهِ) الوسائل ٦/ص ٢٥ .

عن النبي (ص) : (مَنْ مَنَعَ مَالَهُ مِنَ الْأَخْيَارِ اخْتِيَارًا صَرَفَ اللَّهُ مَالَهُ إِلَى الْأَشْرَارِ اضْطِرَارًا) البحار ٩٦/ص ١٣١ ، إن هؤلاء جهلوا وتجاهلوا أن الفقر من سوء فعل الإنسان لا من فعل الله ، وينتج الفقر فساد الحكومات وجور الأنظمة الفاسدة ، وعدم إعطاء الزكاة والحقوق الشرعية لمستحقيها عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا اِزْدَوَجَتْ ، اِزْدَوَجَ الْكَسَلُ وَالْعَجْزُ فَتَنَجَ مِنْهُمَا الْفَقْرُ) تحف العقول ص ١٥٨ ، وقال الفيلسوف البريطاني برناتشو : مشكلة الفقر في العالم موجود ما بين رأسي ولحيتي ، فكان أصلع وكثيف اللحية ، وهناك كثرة إنتاج في لحيته وسوء توزيع في صلته ! ثم أن الفقر والغنى يخضعان لقانون الأسباب والمسببات ، في غرر الحكم : (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) كقوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤ ، وهكذا يفعل الضلال بأهله بأسبابه .

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ المائدة/٤١ ، (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) إنهم لم يأتوا بشيء جديد فقد سبقهم آباؤهم على مثل هذا الجهل والافتراء يعملون المنكر ويجيلون ذلك إلى مشيئة الله وإرادته ، وهم يغالطون أنفسهم إن الله يأمرهم بطاعته وينهاهم عن معصيته ، وجعل لهم حرية الاختيار وهم مسؤولون عن اختيارهم ومحاسبون عليه وهكذا أذرتهم رسلهم والقرآن الكريم (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) ليس على جميع رسل الله إلا التبليغ الواضح وإلقاء الحجة القطعية كقوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ق/٤٥ ، وأما أمر الهداية والإيمان فهو استعداد الإنسان وتأيد الرحمن ، إذاً : عمل الإنسان فهو على المكلفين أنفسهم وأن الله لا يتدخل في أفعال العباد ولا يجبرهم على أي عمل ، بل سبحانه يشترع ويبلغ بلسان رسله ويلقي الحجة عليهم بوضوح وعليهم يكون الاختيار ومسؤولون عن اختيارهم ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿النساء/ ١٦٥﴾ ، ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/ ١٠٨ ، في غرر الحكم : (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحَرِيَّةِ أَهْلًا لِلْعَتَقِ ، وَمَنْ قَصَرَ عَنِ أَصُولِ الْحَرِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرَّقِ).

٣٦ - ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾

أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق وإلى كلِّ بلد لإلقاء الحجة عليهم ، وهذا ما يقتضيه العدل ويحكم به العقل وحيث لا عقاب بلا تكليف وبيان كقوله ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/ ٢٥٦ ، بأن أعبدوا الله ووحده ولا تشركوا به شيئاً وإتركوا كلَّ معبود دون الله كالطواغيت ومعنى الطاغوت صيغة مبالغة من الطغيان وتجاوز الحدود المعقولة ، وهو كلُّ معبود من دون الله مادي ومعنوي من شيطان الإنس والجن وكل من دعا إلى الضلال فهو طاغوت سواء أكان صنماً أو زعيماً أو مالاً أو منصباً أو امرأة أو أي شيء من زخرف الحياة الدنِّيا كقوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُنَحِّكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ النساء/ ٦٠ .

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) وجعل البشر على استعداد للهدى والضلال وأن يدع مشيئتهم حرّة في اختيار أي الطريقين ، وزودهم بمعالم الطريق في أنفسهم وفي الآفاق ، وأرسل سبحانه رسلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فآمن قوم عن قناعة وكانوا من المهتدين بإرادتهم ، والله يهدي من يريد الهداية ، ويكون من المقربين عند الله ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التغابن/ ١١ ، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة/ ١٦ ، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/ ١٠١ ، ثم قال (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) وجبت وثبتت باستحقاقهم ، أي جاروا عن قصد السبيل وانحرفوا عن منهج الله باختيارهم فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطواغيت وضلّوا ضلالاً بعيداً كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/ ٥ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ غافر/ ٢٨ ، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فصلت/ ١٧ ، في غرر الحكم: (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَىٰ مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَىٰ؟!) (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ) سيروا وسافروا في أنحاء الأرض ثم أنظروا بوعي آثار غضب الله وعذابه فيمن كذبوا رسلهم من الأمم الماضية ليعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ النازعات/ ٢٦ ، (وَالَّذِي لَا يَعْتَرِ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ).

٣٧ - ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

إن تحرص يا مُجِدِّ على هداية هؤلاء الكفار فلم ينفعهم حرصك شيئاً وإعلم (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) يقرر سنّة الله في الهدى والضلال واعلم أنه تعالى لا يجبر الإنسان على الهداية كما أنه لا يجبر الإنسان على الضلالة لأن الجبر يسقط الجزاء والحساب والجنّة والنار ، يسقط تكريم الله

للإنسان ، ويكون الإنسان كالملائكة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦ ، وليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه فوظيفته البلاغ المبين ، ومجرد الحرص ليس سبباً لوجود الهداية وإنما سبب الهداية هو رغبة الإنسان في الهدى وقدرته عليه وتحزّره من الهوى كما أن السبب بوجود الضلال هو رغبته في الضلال وقدرته عليه ، فرغبة الإنسان هي أساس الهدى والضلال والله لا يلجأ ولا يكره على الهداية أو الضلال كقوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص/٥٦ ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ فقد ثبتت في حقهم الضلالة لإصرارهم عليها، ولا يجتمع الهدى والضلال في قلب المؤمن كقوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب/٤ ، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من دون الله ، ما لهم إلا الندم والتوبة والعودة إلى الله قبل فوات الأوان ، عن النبي (ص) : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزَيَّنًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كثر العمال خبر ٥٤٦ ، كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، وقوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف/١٨٨ .

٣٨ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 حلف المشركون بلا دليل جاهدين وجادّين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين ما وسعهم بأن الله لا يبعث ولا يحي من يموت ! استبعدوا البعث والنشور ورأوه أمراً عسيراً بحسب مستوى عقولهم ولاسيما بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى رداً عليهم (بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا) نعم ليعتثنهم وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بد منه ، ووعده الحق وقوله الصدق والله هو الحق ولا يقول إلا الحق ، إنهم قاسوا قدرة البشر المحدودة بقدرة الله تعالى المطلقة ، إنَّها قدرة خارقة لا تقاس ولا تدركها العقول والحواس ، لأنَّها فوق تصوّرات البشر وطاقتهم ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر/٥٠ ، وقوله ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ لقمان/٢٨ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ الرعد/٣١ ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله التي ليس لها حدود ، فينكرون عالم الغيب والبعث والنشور ، فهم لا يتصورون جمع الأجزاء بعد تفرقتها أهون على الله من خلقها وإيجادها لأن من أوجد شيئاً من لا شيء فبطريق أولى أن يوجدّه ويرجعه من أجزاء متفرقة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف/٢٩ ، عن الإمام زين العابدين (ع) : (عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ) البحار ٤٢/٧ . فائدة : ١ - أصبحت حقيقة الآخرة الموضوع المهم والرئيس في القرآن الكريم لمحاولة تثبيتها في أذهان الناس كافة ، وما ينعكس عنها من تهذيب لنفس الإنسان لتجعله يعيش حالة التوازن والاعتدال في جميع أحواله ، وهذا المنهج السامي يقوده إلى سلّم التكامل وبذلك يكرّم الإنسان نفسه ، في غرر الحكم : (مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَهْنَأْ بِالْمَعْصِيَةِ). ٢ - الشكُّ عند العلماء محفّزٌ وباعثٌ وسببٌ للبحث

والتنقيب للوصول إلى اليقين ، لأنَّ الشكَّ يفسد الدين ، والشكُّ عند الجهلاء ، نفي للحقيقة من جهل إلى جهل عن الإمام علي (ع) : (لَا تَرْتَابُوا فَتَشْكُوا ، وَلَا تَشْكُوا فَتَكْفُرُوا ، وَلَا تَكْفُرُوا فَتَنْدَمُوا ، وَلَا تُرْحَصُوا لِأَنْفُسِكُمْ فَتَنْدَهُنُوا) البحار ٢/٥٤ . ٣- حكمة يوم القيامة من حكمة الخلق وتنظيم الحياة ، وما تنظيم المعاد إلا حلقة أساسية في سلسلة خلق المخلوقات وتنظيمها ، وبالمعاد تظهر للحياة قيمتها وحكمتها ، وللخلق قيمتهم وجمالهم وجلالهم ، ولا يغفل عن ذلك النظام إلا الذين لا يتدبرون حكمة الله ونظامه لانشغالهم في إشباع بطونهم وفروجهم .

٣٩ - ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾

لِيَبَيِّنَ لَهُمُ البعث والنشور الذي جعله الله وعداً عليه حقاً ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي وبين الحق والمبطل وبين الظالم والمظلوم (وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) وهناك يستيقن الذين كفروا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فيما يدعون من مدّعات باطلة في إنكارهم الدين والبعث ، ولكن عرفوا الحقيقة بعد فوات الأوان وندموا على ما فات ، عن النبي (ص) (سَرُّ النَّدَامَةِ ، تَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) البحار ٧٧/١١٥ ، كقوله ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يونس/٥٤ . فائدة: اختلف الناس في ربهم وأنبيائهم وفي عاداتهم وآرائهم وفي العديد من الأشياء ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ولا بد من الحكم والفصل بين الحق والمبطل والطيب والخبيث ، ويوم القيامة هو يوم الحساب بالحق والعدل حيث لا حرج زائفة ولا أعداز كاذبة كقوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ البقرة/٢٨١ .

٤٠ - ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

لا يحتاج الأمر إلى كثير جهد فإننا نقول لأي شيء (إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فهو سبحانه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هود/١٠٧ ، هذا تقريب للأذهان والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان في الحال بمجرد إرادته بغير احتياج إلى لفظ (كُنْ) فهو رهن إشارته كقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الروم/٢٧ .

٤١ - ٤٢ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

تركوا الأوطان والأهل والقرابة وتعروا عما يملكون وعما يجوبون في شأن الله والحفاظ على دين الله في نفوسهم وإبتغاء رضوانه من بعد ما عانوا كثيراً من الظالمين (لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) لنزلهم ولنسكنهم بلدة وداراً حسنة خيراً مما فقدوا ، بأهم حالة وظروف حسنة من الفتح والظفر ، فإنهم إنما هاجروا ليعقدوا مجتمعاً إسلامياً طيباً ليكون قدوة لغيره من المجتمعات لا يُعبد فيه إلا الله ولا يحكم فيه إلا العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى (وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وَلَا جَزَاءَ

الآخِرَةَ أَفْضَلَ مِنْ أَجْرِ الدُّنْيَا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ غافر/٣٩. تصدق الآية على الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة والمدينة وتشمل أيضاً الذين شردوا عن ديارهم وأموالهم قسراً وعدواناً في كلِّ زمان ومكان. ٤٢- (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) هؤلاء الذين هاجروا هم الذين صبروا على أنواع الشدائد وتحملوا أنواع المكاره فهجروا الأوطان وفارقوا الإخوان واحتملوا الغربة (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ) واعتمدوا على الله وحده معتصمين به يبتغون فضله ورحمته ورضوانه ولا يشركون في عبادته أحداً في الاعتماد والتوجه والتكالن ، في غرر الحكم : (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ) وفيه أيضاً (وَمَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ صَانَ يَقِينُهُ) ، فإنهم لو علموا علم المشاهدة لازدادوا في المجاهدة وتحملوا المصابرة فضلاً عن الصبر وأحبوا الموت في سبيل الله على طريق الشهادة ، وليس الخبر كالمعاينة ! كقوله ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ النساء/١٠٠.

٤٣ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قال المعاندون لمحمد (ص) أنت بشر والله فوق البشر باعترافك ومن كان فوق البشر لا يختار رسولاً منهم فإذا ما أنت برسول الله ! فأبطل الله سبحانه زعمهم بأن جميع أنبياء الله ورسله كانوا بشراً من الرجال المختارين مميزين دون النساء لا ملائكة من أهل السماء كقوله ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ النور/٣٧، نوحى إليهم كما أوحينا إليك (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أَهْلَ الذِّكْرِ : العلماء والعارفين بالكتب السماوية والعاملين بها والمبلغين عنها ، الذين يذكرون الناس بالله وكتبه ورسله ، قال أكثر المفسرين إنَّ المراد بالسؤال خاص ومعين بدلالة سياق الآية وهو هل أرسل الله إلى الأمم السابقة بشراً أم ملائكة ؟ وعليه يتعين أن يكون المراد بأهل الذكر المسؤولين هم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل من قبل فسألوهم أكان الرسل رجالاً أم كانوا ملائكة إسألوهم إن كنتم لا تعلمون في أمور دينكم ودنياكم ، وهكذا يرجع الجاهل إلى العالم في كلِّ علم في الحديث : (الْحِكْمَةُ ضَالَّةٌ) (قصد) الْمُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا) البحار/٢/٩٩، وفي غرر الحكم : (سَلَّ عَمَّا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ عِلْمِهِ وَلَا تُعْذِرْ فِي جَهْلِهِ) وفيه أيضاً: (مَنْ أَحْسَنَ السُّؤَالَ عِلْمٌ ، وَمَنْ عَلِمَ أَحْسَنَ السُّؤَالَ) والسؤال عنوان عقل السائل ، وحسن السؤال من حسن العقل ، عن النبي (ص): (الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمِفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ فَاسْأَلُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُجِزُّ فِيهِ أَرْبَعَةٌ : السَّائِلُ ، وَالْمُتَكَلِّمُ ، وَالْمُسْتَمِعُ ، وَالْمُجِيبُ لَهُمْ) كنز العمال خير ٢٨٦٦٢ والآية وإن نزلت في خصوص سبب معين ولكنها تشمل عموم المعنى وسعة المغزى، فيكون المعنى: فإن من الواجب من لا يعلم أمراً أن يسأل عنه أهل العلم

والإختصاص وأهل الخبرة والتجربة فَإِنَّ (قِيمَةً كُلِّ أَمْرٍ عَلَى قَدْرِ خِبْرَتِهِ وَمُقَدَّارِ تَجَرُّبَتِهِ) قبل أن يتعامل به ويجادل فيه. عن النبي (ص) : (لَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ وَلَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ ثم ذكر الآية) ، ينبغي للمؤمن أن يعرف عقيدته وقناعاته وعمله على هدى أم على خلافه، الميزان ٢٨٦/١٢ ، فيكون المراد بأهل الذكر: (معنى عام شامل) أي فاسألوا أهل الاختصاص بالقرآن والإسلام الواعين واجتثوا عنهم وتعلموا منهم عن النبي (ص) : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) البحار ١/١٧٧ ، وهم أهل العلم العاملون الداعون المنصفون سواء أكانوا من أهل الكتاب أم غيرهم ، وفي جميع مجالات العلم وكافة اختصاصاته ، ويجب أن تكون من بين المسلمين علماء في كافة الاختصاصات للرجوع إليهم لتمكنهم من اختصاصهم وإخلاصهم في عملهم لله وللناس ، ومن مصاديق أهل الذكر هم أئمة أهل البيت (ع) حَزَنَةُ عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، فَطَاعَتُهُمْ نِظَامٌ لِلْمِلَّةِ ، وَتَوْحِيدٌ لِلْأُمَّةِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقَعُ بَيْنَهُمُ الْخِلَافُ وَالْإِجْتِهَادُ .

كقوله ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الإسراء/٧١ ، عن الإمام الرضا (ع) : (إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَاحُ الدُّنْيَا وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ) الكافي ١/٢٠٠ وقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة/٢٤ ، عن الإمام الباقر (ع) في الآية : (الدِّكْرُ الْقُرْآنُ وَالرَّسُولُ أَهْلُ الدِّكْرِ وَهُمْ الْمَسْتَوْثُونَ) نور الثقلين ٣/٥٦ ، في غرر الحكم: (علم لا يصلحك ضلال، ومال لا ينفك وبال). وفيه (اِكْتَسَبُوا الْعِلْمَ يَكْسِبْكُمْ الْحَيَاةَ)

٤٤ - ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفَكُونَ﴾

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) متعلق بأرسلنا أي أرسلنا رسلاً (بِالْبَيِّنَاتِ) بالحجج والبراهين الواضحة والعلوم الساطعة والأدلة النافعة الدالة على صدقهم بالنبوة والرسالة (وَالزُّبُرِ) الكتب المقدسة المنزلة عليهم لحفظ تعليماتهم (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) القرآن المدكر بالله تعالى الموقظ للقلوب الغافلة مهيمناً على سائر الكتب السماوية ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل/٨٩ ، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يوسف/١١١ ، ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام/٣٨ ، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ ، وأن الله أنزله بعلمه وأيدك بنصره وبالمؤمنين لأن المعارف الإلهية لا يناها الناس إلا بالواسطة ، فلا بد من بعث واحد من الناس ممن يختارهم الله المؤهلين للتبيين والتعليم الصحيح الواضح. وسمى القرآن (ذِكْرًا) لأن فيه من الآيات البينات ما يذكر الناس بالله تعالى وباليوم الآخر وبعلم القرآن ويلفت قلوبهم وينبه عقولهم إليه كقوله ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الزخرف/٤٤ ، (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) هذه مهمة الأنبياء أو من ينوب عنهم من العلماء خلفاء الرسل وورثة الأنبياء ، وكل الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان مهمتهم الرئيسة أن ينقلوا عن الله للناس كافة بخطاب مؤثر يستوعبهم جميعاً كل بحسبه ومقداره عن النبي (ص) : (أَمْرُنَا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ) ، يعلمهم الحلال والحرام

والثواب والعقاب وَيَهْدِيهِمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، لا أن يتنبأ كل (نبي) وعالم ويجتهد طبقاً لحياله وتوقعاته ويفسر الدين برأيه و (لَا اجْتِهَادَ فِي مَقَابِلِ النَّصِّ) وإلا لتساوى الأنبياء والعلماء على حدٍ سواء ، وهذا يدلُّ أن النبي لا يجتهد ولا يخطأ في جميع شؤون حياته الرسالية والدينية ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم/٣-٤ ، ومطلوب كل إنسان على هذه الأرض أن يحسب أن هذا القرآن هو كتابه المنزل عليه (مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) عليه أن يفقهه ويعلمه ويعمل به ويدعو الناس إليه (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) في آيات الله في القرآن وفي الكون وفي الكائنات وفي الأنفس لعلهم يتعظون ويدركون الأسرار والسنن والأهداف ، والقرآن يدعو دائماً إلى التّفكّر ، فيتبصّروا أنّ ما جئت به حق من عند الله ورحمة بالناس ، والتفكير: ينير العقل ويحي القلب ويوسّع الذهن ويزيل الغفلة ويزيد في الحكمة ويقوّي العبادة لأن العبادة على قدر العقل ، في غرر الحكم : (فَكُرِّ سَاعَةً قَصِيْرَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ طَوِيْلَةٍ). فائدة : (أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ، مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) نزل القرآن الكريم على الرسول المصطفى محمّد (ص) جملة واحدة ، ثمّ نزل بالتدريج لإخبار الناس والإنزال : في اللّغة هو النزول جملة واحدة ، اما (التنزيل) فهو النزول التدريجي الذي استمر (٢٣) سنة حسب المواقع والظروف والأحداث.

٤٥-٤٧ ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تهديد لهؤلاء الذين يكذبون رسول الله ورسالته الهادية ، ويمكرون بالرسول والرسالة بأنواع المؤامرات ويرسمون خططها الخبيثة بالحيلة والخديعة ، فهل آمن هؤلاء أن يخسف الله بهم الأرض كما خسفها بالظالمين من قبلهم ؟ إنّه العذاب الأرضي (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) إنّه العذاب السماوي يأتيهم بغتة وهم آمنون من حيث لا يخطر ببالهم وبأساليب عقابية جديدة لا يعلمون بها كقوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران/٢٨.

٤٦- (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ) إنّه العذاب المفاجئ، أو يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة والسياحة وفي أثناء تنقلهم وفي اشتغالهم بالبيع والشراء ، واكتسابهم الأموال والتمتع بنعيم الحياة وهم في غفلة ، وأخذهم في قلبهم هو أخذهم في مثل ما يتقبلون فيه من السيئات فيأتيهم الخطر من حيث الحذر ! عن الإمام الرضا (ع) (كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون) البحار/٧٣/٣٤٣ من حيث لا تتوقعون ولا تحتسبون (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) فهم في قبضة الله الواحد القهّار وليسوا بناجين من عذاب الله ولا سابقين قضاءه بالهرب، ولا بخارجين عن إرادة الله ولا يبعد عليه مكانهم في حلّهم وترحالهم كقوله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ ، وقوله ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ القلم/٤٥ ،

عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِيَمَهْلٍ) لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ). ثم ذكر قوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) هود/١٠٢ نور الثقلين ٢/٣٩٤ ٤٧- (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) إِنَّهُ عَذَابٌ نَفْسِي أَوْ يَهْلِكُهُمُ اللَّهُ حَالِ كَوْنِهِمْ خَائِفِينَ مَرْتَقِبِينَ لِنُزُولِ الْعَذَابِ ، فالعذاب مع الترقب والتوقع والتخوف أشد بكثير من العذاب على حين غفلة (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ونبههم وأمهلهم لعلمهم يرجعون إلى الله بالمغفرة والتوبة ، في نهج البلاغة خطبة ٣٢: (اتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ). فائدة : ١- أو يأخذهم العذاب على تناقص بأن ينقص الله النعم عنهم واحدة بعد واحدة تدريجياً ، كأخذ الأمن الخارجي والاطمئنان الداخلي ثم الأمطار ثم رخص الأسعار ثم الصحة الجسدية والنفسية وهكذا يأخذهم بالمعاناة المتعددة ، فهو إمهال لهم وفرصة لعلمهم يرشدون كقوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ البقرة/١٥٥ . ٢- الجاهل لا يفهم من درس ولا يتعظ بعبرة ، إنَّ يد الله تعالى تعمل من حوله في كلِّ زمان ومكان وتأخذه أخذ عزيز مقتدر فلا يغني عنه المكر ولا ندفع عنه القوة، وبعد ذلك كله يصير الماكر على مكره ولا يتوقع أن يؤخذ كما أخذ الذين من قبله ، إنَّ القرآن يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليشير حساسيتهم ويوقظهم للخطر المتوقع الذي لا يغفل عنه إلا الخاسرون، والاحتياط سبيل النجاة.

٤٨ - ﴿أَوْ كَمْ بَرُوا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

أَوْ كَمْ يَنْظُرُوا نَظْرَةَ عَبْرَةٍ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ آثَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَأَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ عَلَى إِطْلَاقِهِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ وَالْحَيَوَانَ وَالْبِنَاءِ وَمَنْ سَائَرَ مَا خَلَقَ اللَّهُ (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ) يَتَمِيلُ وَيَنْتَقِلُ ظِلَالُهَا وَفِيئُهَا مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ شَرْقًا وَغَرْبًا وَبَيْنًا وَشِمَالًا حَسَبَ حَرَكَةِ الشَّمْسِ ، سُجَّدًا لِلَّهِ تَذَلُّلاً وَتَعَبُّدًا لَهُ سَبْحَانَهُ أَيَّ مَنَاقِدَةٍ مُسَلِّمَةً لِأَمْرِهِ وَنِظَامِهِ فِي انْتِقَالِهَا وَ (سُجُودٌ كُلٌّ شَيْءٍ فَيُؤُهُ) سَاجِدَةٌ لِلَّهِ سَجُودٌ خُضُوعٌ لِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَلَا تَخْرُجُ عَنْ إِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ (وَهُمْ دَاخِرُونَ) خَاضِعُونَ مَنَاقِدُونَ صَاغِرُونَ ، فَكُلُّ الْأَشْيَاءِ مَنَاقِدَةٌ لِقُدْرَةِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ لِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّسْخِيرِ وَدَلَائِلِ التَّقْدِيرِ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ الأحزاب/٣٨ ، فَكَيْفَ يَتَعَالَى وَيَتَكَبَّرُ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَوْلَئِكَ الْكَافِرُونَ ؟ وَالكَوْنُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِأَمْرِهِ. فائدة : ١- معنى ذلك سجود الظل لله ودورانهم من جانب إلى جانب لأنه مستسلم منقاد مطيع للتسخير فما من أحد إلا وهو تحت رقابة الله وتدييره وتقديره. ٢- والآية الكريمة تعبر عن خضوع الأشياء لسنن الله وقوانينه بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع، والآية وعيد للمشركين واتهام لعقولهم المظلمة التي أخرجتهم عن نظام كلِّ الأشياء في الكون ، فكانوا نشازاً على نظام هذا الوجود ، لا يتناغم وتسبيح كلِّ شيء في هذا الكون ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء/٤٤

، وقد أراهم الله سبحانه صورة محسوسة وقد سجد فيه كلُّ موجود ولاءً لله وخشوعاً له ، فما خلق الله من شيء يروونه في العالم إلا كان له ظل يتبعه ساجداً على الأرض سجود الخاشعين سجود كلِّ شيء بقدره ، وظلُّ كلِّ شيء فيه ، وظلُّ كلِّ شيءٍ سُجُودُهُ (فَالْيَمِينِ) أول النهار (وَالشَّمَائِلِ) آخر النهار ، وأمواج البحر صلواته ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ الرعد/١٣ ، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ الأنبياء/٧٩ ، وجعل سجود غير العاقل بمنزلة سجود من يعقل . فائدة : (يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ) ليس المقصود من ذلك مجرّد الإخبار بأن لكلِّ جسم ظلاً ، وإنما القصد التنبيه إلى نظام الكون بأسره ، وأنّه تعالى أتقن كلَّ شيء ووضعه في فلكه المناسب ، وضرب مثلاً لذلك بالظل ، وأنّه لو لم تكن الشمس تجري في فلكها والأرض مكانها ما كان لكلِّ جسم ظل كقولهِ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس/٤٠ ، عن الإمام السجّاد (ع) في دعائه في التسيّحات :

(سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ . سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الْقِيءِ وَالْهُوَاءِ)! وحركة الفيء حركة لطيفة خفيفة شفافة ذات إحساس عميق ، فهي حركة معنوية تحرك المشاعر بلا استئذان ، لذلك يلفت القرآن النظر إلى هذه الحقيقة الدقيقة التي تراها العيون فتربطك بالملأ الأعلى الذي وضع هذا النظام الدال على عظمة المنظم .

٤٩ - ٥٠ ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأُمَمِ قَدِ ابْتَدَأَ فَكُفْرُ الْبَاطِنِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَسْمَعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

السجود : الخضوع ، هو تكملة لما قرره الآية السابقة من سجود ظلال الأشياء لله ، وأنها ليست وحدها التي تسجد لله سبحانه ، بل كل ما في السموات وما في الأرض من كلِّ دابة تدبُّ وتمشي على الأرض ومن الملائكة يسجدون لله وحده طوعاً لا كرهاً ، (وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) لا يتعالون عن عبادته وذكره وتسيّحه فكلُّ شيء بين يدي صانعه سبحانه ساجدٌ بسجود يلائم حاله ، كما أنّ كلَّ شيء يسبح بحمده تسيّحاً يلائم حاله ، فتسيّح بعضهم بلسان المقال ، وتسيّح بعضهم بلسان الحال ، والله يعلم لسان حالهم كما يعلم لسان مقالهم ، وفي هذا قطع لكلِّ حجة للإنسان ألا يكون بعيداً عن نظام الكائنات الساجدة لله ، فإذا عدّ نفسه سيد الكائنات فإن كل الكائنات في السموات والأرض ساجدة لله كلُّ بقدره ، سجود خضوع لله وتذلُّل له ، أي لله وينقاد خضوعاً وانقياداً عاماً تشريعياً اختيارياً وخضوعاً تكوينياً اضطرارياً ما في السموات والأرض من دابة ، والمستكبرون العصاة من بني آدم هم وحدهم شواذٌ في هذا الكون ، وفي الآية دلالة على وجود كائنات حية في الأجرام السماوية المختلفة !

فائدة: عن الإمام الصادق (ع) : (السُّجُودُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِرَادِيٍّ وَطَبِيعِيٍّ وَالْأَوَّلُ سُجُودُ الْعُقَلَاءِ وَالثَّانِي سُجُودُ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ بِمَعْنَى أَنَّهَا فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ مِنْ بَابِ دَلَالَةِ الْمَصْنُوعِ عَلَى

الصَّانِعِ) التفسير المبين ص ٣٥٢ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الذُّلِّ إِلَّا لَكَ ، وَمِنَ الْفَقْرِ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْخَوْفِ إِلَّا مِنْكَ) وكلُّ شيء في الوجود عاقل وغير عاقل في مقام الخضوع والخشوع والعبادة والسجود لا يخالفون عن أمره ولا يستكبرون عن عبادته ، والعصاة البغاة الطغاة المستكبرون من بني آدم وحدهم الشاردون المتمردون الشواذ في هذا المقام العجيب والنظام الكبير الغريب . ٥٠- (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) يخاف هؤلاء الملائكة في السماء والدواب يمشون في الأرض ربهم أي يخافون مقام ربهم الذي هو من فوقهم بالقوة والقدرة القاهرة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الأنعام/٦١ ، وهم خاضعون لأمره سبحانه ويؤدون حقوقه كاملة ويجتنبون سخطه كقوله ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد/١٥ ، من آمن بالله خافه وأطاع أمره وانتهى عن نهيهِ ، وإن من يعصي الله ويتجاوز حدوده ثم يدعي الإيمان به والخوف منه فهو كاذب في دعواه وقد ظلم نفسه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ . فائدة : وخصت الآية الدواب بالذكر لأنها من مخلوقات الأرض ذات حس وحركة وهي دون الإنسان منزلة ، وخصت الملائكة بالذكر كذلك لأنها من عالم السموات وهي أشرف مخلوقاتهما.

٥١- ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ إِلَّا إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

وقال الله وصرح لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق أحق أن يتبع فهو لا يتعدّد وإن كل من يتعدّد فليس بإله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) له الخلق والتدبير لا شريك له ولا شبيهه (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) خافون دون سواي، ومن عرف الله هابه ومن هاب مقام الله خافه ، إنّه خوف هيبه لا خوف رهبة ، ومن خاف من الله فرّ إليه ومن خاف من الناس فرّ منهم. عن النبي (ص) : (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ أَخْوَفُهُمْ مِنْهُ الْبَحَارُ ٧٧/١٨٠) كقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/٤٦ ، فائدة : عن الإمام علي (ع) : (كُو كَانُ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتَّكَ رُسُلُهُ وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَلِمْتَ أَنَّ أَعْمَالَهُ وَصِفَاتَهُ ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) التفسير المبين ص ٣٥٢ ، وعن النبي (ص) : (مَا عُبِدَ إِلَهٌ أَبْغَضُ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهُوَى) روح البيان ١٩٧/٢ وهو كما في قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ الجاثية/٢٣ ، والهوى إله معبود ، إذا : ١- هناك ربك أن تتخذ إلهين ، لكنك اتخذت آلهة متعددة ، عبدت نفسك الأمانة بالسوء وعبدت هواك ودينياك وطبعك ومرادك وعبدت الخلق وبخست حق الخالق ، فأني تكون موحداً وعن النبي (ص) : (مَا عُبِدَ إِلَهٌ أَبْغَضُ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْهُوَى) روح البيان ١٩٧/٢ ، كقوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب/٤) . ٢- (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ليس لله تعالى نظير ينظره أو شبيهه يقابله فهو إله واحد متفرد بالجلال والجمال والكمال لا يشاركه أحد في كماله وجلاله وجماله وإلا كان ناقصاً . ٣- (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) خافون ، والخوف علامة العارفين وصفة المتقين وشيمة الصالحين ودليل المؤمنين وخوف المؤمن من الله على قدر تقواه ، وأقرب الناس من

الله أشدهم خوفاً منه كقوله ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم/١٤ ، عن النبي (ص) : (أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ) البحار/٧٧/١٨٠ ، وفي غرر الحكم : (أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ).

٥٢ - ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾

فكلُّ شيء مملوك له سبحانه أينما كان وسيكون ، ولا معنى أن يكون كل الوجود مملوكاً لله ثم يستقل عنه بالتدبير ، والله هو المدبر ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ السجدة/٥ ، فهو المدبِّر لكلِّ شيء فيستحق العبادة والطاعة من كلِّ شيء (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً) له سلطة تشريع القوانين دائماً ، وله سبحانه الطاعة الدائمة، الواصب : الخالص المصقَّى من كلِّ شائبة كقوله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ ، الدين النقي الذي يدخل إلى المشاعر بلا استئذان ويؤثر في الضمائر الحية ويحرك الأحاسيس ، لأنه لا يختلط به ما ليس فيه ولا يخالطه شيء غريب عنه يخفف من تأثيره على أهله ، فالله عز وجل طيب ودينه طيب ولا يقبل إلا الطيب ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الأعراف/٢٩ ، (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً) وله الطاعة الخالصة الدائمة، فإن عبادة غيره كفر وعبادته على غير دينه الخالص الذي ارتضاه وأمر به ، ضلال (أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ) الهمة للإنكار، أَفَغَيْرَ اللَّهِ ترجون أن يحقق ما في نفوسكم من أهداف ورغبات وطموحات حقيقية ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تعبدون من حيث تشعرون ومن حيث لا تشعرون، وليس من حقه أن يشرع ديناً فيطاع فيما شرعه. فائدة: الخلاصة: تجب طاعة الله في كلِّ شيء وفي كلِّ الأحوال، ومن أطاعه في صلاة وصوم، وعصاه عند التعامل بالأموال والجمال والجاه وعند كلِّ طمع وجشع، فما هو من دين الله في شيء، عن النبي (ص) في قوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت/٤٥ : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْداً) البحار/٨٢/١٩٨.

٥٣ - ﴿وَمَا بَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ فَإِنَّكُم تَجَارُونَ﴾

(نِعْمَةٌ) جاءت نكرة للدلالة على العموم والإطلاق ، وما بكم من نعمة معنوية أو مادية ، ظاهرة أو باطنة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان/٢٠ ، صغيرة أو كبيرة دائمة أو مؤقتة داخلية أو خارجية محسوسة وغير محسوسة، وكل ما تفضّل الله عليكم من رزق ونعمة وعافية وعلم وعمل وموهبة واختصاص وجاه وعافية وقوة وقدرة ورفعة ونصر.. وغيرها (فَمِنَ اللَّهِ) ورحمته وفضله وإحسانه لا من سواه (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ) الجوار هو صوت الوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم ، ثم استعملت كناية عن كلِّ الأهات غير الاختيارية النابعة عن ضيق أو ألم بمعنى تتضرعون بالدعاء والاستغاثة ثم إذا أصابكم شيء يسير من الضر من فقر ومرض وشدة فإليه وحده (تَجَارُونَ) تستغيثون وتصرخون وتتوجهون وتتضرعون بالدعاء والإنقطاع إليه مضطرين ساعة

العسرة والضيق ، علماً منكم بأن الله وحده الذي يدفعه ، وهنا مكان الغرابة : تلجأون إلى الله مضطرين وتبتعدون عن طاعته مختارين !! فيأتي الدين فيهدب عند الإنسان هذه الحالة المتقلبة السلبية ، فيعلمنا الثبات على الصراط المستقيم في جميع الأحوال في الشدة والرخاء ، وبينانا عن التقلب والتلون والتذبذب والنفاق ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١، و﴿مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي الرَّحَاءِ، ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ وَقَتَّ الشِّدَّةَ﴾. وفي غرر الحكم : (في الذكر حياة القلوب).

٥٤-٥٦ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَسْعُوا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ، وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾

إذا رفع عنكم ربكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراف بالله ، فيتعلقون بالأسباب ويتركون مسبب الأسباب سبحانه ويعزون كشف الضر لغيره سبحانه ، وفي معنى الكلام تعجب من هذا التقلب. ٥٥- (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) واللام للعاقبة ليجحدا نعمته تعالى في كشف الضر والبلاء المراد بالكفر هنا كفران النعمة وليس كفر ونكران عقيدة (فَتَمَتَّعُوا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ) تَمَتَّعُوا بما أنعم الله عليكم وكل متاع الدنيا قليل مهما كثر فسوف تعلمون سوء عاقبة أمركم الوخيمة ، وفيها تهديد ووعيد وتندمون حيث لا ينفع الندم. ٥٦- (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) وَيَجْعَلُونَ أهل الجاهلية للأصنام التي لا يَعْلَمُونَ ربوبيتها بيهان ولا بيان ، والتي لا علم لها نصيباً مما أعطاهم الله من أموالهم وأنعامهم تقرباً إليها (تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) والله لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ (تَفْتَرُونَ) تخادعون أنفسكم وتخادعون الناس وتكذبون على الله من أنها آلهة حقيقية من الواجب التقرب إليها، وهو سؤال توبيخ.

عن الإمام علي (ع): (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) البحار ٧٧/٢٩٣. فائدة : (بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) ومن الشرك الالتجاء إلى غير الله في كل حال ولاسيما في ساعة العسرة ، كالتجاء إلى روضات الأولياء والأنبياء والأوصياء يطلبون منهم قضاء الحاجة مباشرة من دون الله ، بحجة أنها نفوس طاهرة ذات منزلة عند الله ، فالطلب من أي مخلوق دون الخالق شرك في العبادة كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦، ويمكن الطلب من الله تعالى مباشرة أو نقول ياالله بجاههم ومنزلتهم الرفيعة عندك اقض لي ياالله هذه الحاجة ، فالله تعالى هو قاضي الحاجات وحده ، في دعاء التوسل : (يَا وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ إِشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ). كقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) البقرة/٢٥٥

٥٧-٥٩ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَكَّرُ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي السَّرَابِ الْأَسَاءِ مَا يَحْكُمُونَ﴾

ومن جهل وسذاجة هؤلاء المشركين أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين (سُبْحَانَهُ) تنزه الله وتعظم عن هذا الكذب والبهتان فهم يرضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم (وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) لأنفسهم من الذكور. ٥٨- يرسم القرآن صورة منكرة لعادات الجاهلية ، (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ) إذا أخبر أحدهم بولادة بنت (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) كناية عن الغم والحزن والكآبة والحياء من الناس وليس يريد السواد ، والعرب تقول من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه من شدة غضبه (وَهُوَ كَظِيمٌ) مملوء غيظاً وغماً وهماً شديداً لا يظهره من أنه رزق بنتاً. ٥٩-(يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت وكأها نقمة وبلية وليست نعمة وهبة إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع (أَيَّمْسِكُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) أيتقي هذه الأنتى المشؤومة على (هُونٍ) على ذل وهوان صابراً على هذه المحنة أم يدفنها في التراب حية كما كان العرف في الجاهلية؟! (أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) ألا ساء فعلهم وخبث حكمهم وقست قلوبهم كقوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ التكوير/٨-٩ ، أما المؤمن فهو يرضى بما قسم الله له ويشكر الله عليه ، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه كقوله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ الشورى/٤٩ ، قدّم الإناث على الذكور ، واعتبر الأنثى هبة ورحمة من الله كما اعتبر الذكر هبة ونعمة ، إذ لا فضل للذكورة على الأنوثة لأنّ النساء شقائق الرجال ، والمؤمن كفؤ المؤمنة عن النبي (ص) : (لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّنِي أَنبِئُ الْبَنَاتِ) روح البيان/٥/٤٥ ، وعن الإمام الصادق (ع) : (مِنْ أَحْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ حُبُّ النِّسَاءِ) فروع الكافي/٥/٣٢٠ ، وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ النساء/١٩.

٦٠-٦١ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَكَأَيُّوَاخِذِ اللَّهِ النَّاسِ يَظْلِمُهُمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ دَابِغَةٍ لَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

وهنا تقترن قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة ، لأنهما ينبعان من معين واحد وانحراف واحد ويختلطان في الضمير البشري ، وينشآن آثارهما السيئة في النفس والحياة العامة ، لأن الإيمان بالآخرة والجزاء هو الأصل الوحيد لتزكية النفس واستقامتها وعدم إقتراف السيئات، و(الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) (مَثَلُ السَّوْءِ) صفة السوء العامة هم مثل ومثال كل سوء وقبح ونقص قاتل الأطفال والاعتداء والسلب والنهب والسفه.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) الذي لا يقابل بمثل ولا يقارن بينه وبين أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ، والله الوصف العالي والمثل السامي والكمال المطلق وصفات الجلال والجمال والرحمة والعدل والوحدانية ويتعالى عن صفات المخلوقين (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العزيز في ملكه الذي لا تعتريه ذلّة، الحكيم في تدبيره الذي لا تعترضه جهالة ، ويحكم ليقدر كل شيء في مكانه بالحق والحكمة، ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ٦١- (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ

بِظُلْمِهِمْ) النَّاسَ المراد منهم العصاة ، لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة على كل ذنب ، والظالم لا يضُرُّ إلا نفسه ، ومن ظلم نفسه فقد ظلم غيره ، (مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) ما ترك على الأرض أحداً يدب ويمشي على الأرض هلك الإنسان والحيوان كقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الرعد/٦ ، (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) ولكن يؤخرهم إلى (أَجَلٍ مُّسَمًّى) إلى وقت معين تقتضيه الحكمة والمصلحة كقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد/٣٨ ، ومن هذه الحكمة والمصلحة لتظهر أفعالهم التي يستحقون عليها الثواب والعقاب بعد تراكم الأدلة وتكريرها وقيام الحجة ولزومها وفتح باب التوبة على مصراعيه ، ولكن الناس يغترون بهذا الإمهال فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته بهم.

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم لا يتأخرون (سَاعَةً) أي برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها وهي مثل في قلة المدة كقوله ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ الكهف/٥٩ وقوله (وَاتَّفَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الأنفال/٢٥ ، عن النبي (ص): (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّائِهِمْ) فائدة : ١- اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، ولو كان الجزاء من الله تعالى في دار الدنيا لكانت الآخرة ليس لها مبرر وانتفت الحكمة من الجزاء ، إضافة إلى أن الخضوع بالقوة والإكراه لا يعد طاعة ومنقبة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة/٢٠٦ . ٢- وفي التعميم الذي شمل الناس جميعاً إشارة إلى أن رحمة الله لم تتخل عن الناس ، حتى في مواقع البلاء والعناء ، يمهلهم ولا يمهلهم حتى يفسح لهم فرصة لإصلاح ما أفسدوا والرجوع إلى ربهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَرْقُ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الحشر/١٨ . ٣- (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) الأجل المسمى بالنسبة إلى الفرد من الإنسان يوم موته المحتوم ، وبالنسبة إلى الأمة يوم موتها وانقراضها ، وبالنسبة إلى عامة البشر يوم نفخ الصور وقيام الساعة والحساب.

٦٢ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جِرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ وهذا تأكيد لما سبق من التوبيخ ، يجعلون لله تعالى البنات لأنهن مكروهات في نظرهم ويجعلون لله شركاء في الملك ويعملون على إهانة الرّسل (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) والتعبير يجعل ألسنتهم ذاتها كآثام الكذب ذاته أو كآثام صورة له يحكيه وتصفه بذاتها حتى صارت رمزاً عليه، يفترون على الله الكذب ويزعمون أن لهم العقاب الحسنى عند الله وأنهم من أهل الجنة على فرض صحة البعث وصدق الأنبياء فيما يخبرونه (لَا جِرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ) لا جرم : حقاً ، لا شك ، لا محالة ، أي حقاً إن لهم مكاناً يستحقونه في نار جهنم (وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ) معجلون إليها السابقون إلى النار قبل سواهم لأنهم مسرفون في الذنوب، ومفراطون بفتح الراء من فرط بمعنى سبق لا من الإفراط بمعنى التجاوز للحدود.

٦٣ - ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَمَرْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقًا لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ فَهُوَ وَيْلُهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم (فَرِيقًا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ) فحسّن الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمُ القبيحة فأرأوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً فقلب عليهم المقاييس الصحيحة فأعرضوا عن الرسل وإتبعوا الشيطان وأطاعوه وأصروا على الضلال والفساد وعارضوا الرسل والرسالات ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/ ٣٨ ، (فَهُوَ وَيْلُهُمُ الْيَوْمَ) فالشيطان قائدهم وموجههم اليوم في الدنيا يأمرهم وينهاهم بعد أن سلموه زمام أمورهم وبس القائد كقوله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ الفرقان/ ٢٩ ، (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، فهون عليك يا محمد ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف/ ٣٥ .

٦٤ - ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ فَيَعْرِفُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وتقيم عليهم الحجة والبيان الذي بعثك الله بها وليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم ويزيل حجاب النفس الأمارة بالسوء عن الحقائق لتصل إلى منزلة النفس المطمئنة الراضية المرضية (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وأنزلنا القرآن هداية للقلوب ورحمة وشفاء لمن آمن به وعمل على ضوئه ، وتخصيص المؤمنين لأنهم المنتفعين بالقرآن قبل غيرهم. فائدة : تشير الآية إلى أن الله سبحانه أنزل القرآن على محمد (ص) لغايات ثلاث: الأولى: أن يرد إليه كل قضية دينية يختلف فيها اثنان ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى/ ١٠ ، الثانية : أن يهدي به من ضلّ عن سبيل الله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة/ ١٦ ، الثالثة: إنّه شريعة عدل ورحمة للعالمين ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكويد/ ٢٧ ، لأن أحكام القرآن تهدف إلى جلب المصلحة ودفع المفسدة ، فما من شيء فيه خير وصلاح إلا أمرت به ، وما من شيء فيه شرّ وفساد إلا ونهت عنه كقوله ﴿فَإِنْ تَنَارَخْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النساء/ ٥٩ عن النبي (ص): (كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ) روح البيان ٤٧/٥ ، وعنه (ص): (الْقُرْآنُ مَا دُبُّهُ اللَّهُ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَا دُبُّبِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ) البحار ٩٢ ص ١٩ .

٦٥ - ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

كلنا يعلم أنه لا حياة بلا ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ الأنبياء/ ٣٠ ، قال (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) ولم يقل مطراً لأن كلمة المطر تشمل التّقمة كقوله ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ النمل/ ٥٨ ، ولكنّ القرآن يذكر بنعم الله من له أذن تسمع وقلب يخشع ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/ ٥٥ ، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) إنّ في هذا الإحياء لدليل باهر على عظيم قدرة الله الدّالة على التوحيد والبعث لقوم يسمعون التذكير ويعقلونه، فكأنّ

من ليس كذلك أصم لا يسمع ، والذي يحوّل الموت إلى حياة هو الذي يستحق أن يكون إلهاً يُعبد كقوله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون/١٤ ، عن الإمام علي (ع) : (بصنع الله يُستدلُّ عَلَيْهِ، وبالعقول يُعتقَدُ معرفتهُ ، وبالفطرة تُنبُتُ حُجَّتُهُ) التوحيد ص ٣٥.

٦٦- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾
وإنَّ لكم أيها الناس في الأنعام (الإبل (الجمال) والبقر والغنم والمعز) وغيرها (لعبرة) لعظة وعبرة يعتبر بها العقلاء ، ومن تفكّر استبصر واعتبر ومن جهل قلّ اعتبره ، ففي خلقها وتسخيرها دلالة على قدرة الله كقوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الأنعام/٣٨ (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام (من بين فرثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا) من بين الروث الوسخ والدم النجس ذلك الحليب الطيب المفيد الخالص النقي من كلّ شائبة ومواد غريبة واللبن النافع ، فإن الله سبحانه يخلق الحليب وسطاً بين الفرث والدم، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى أحدهما على الحليب بلون ولا طعم ولا رائحة من الفرث والدم ، فسبحان الله ما أعظم قدرته لمن تفكّر وتأمل (سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) سَائِغًا : سهل تناول والبلع لذيد الطعم مفيد للجسم ، يزيد العقل ويصقّي الذهن ويقوّي النظر والقلب جامع لأهم الفيتامينات وهو متولد من أكل الحشائش ويسير من بين فرث ودم ، والذي يقوم بذلك قادر على بعث الإنسان إلى العالم الآخر ولو تحوّلت عظامه إلى رميم أو تراب ، وبهذا البعث والنشور يتحقق فلسفة الخلق ، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ !

فائدة: (الفرث) ما يُهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى (فَرثًا) وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثًا). (بُطُونِهِ) استخدم ضمير المفرد مع أنّ كلمة (الأنعام) جمع ولم يقل (في بطونها) لأنّ المقصود هو كلّ واحد من الأنعام الإناث دون الذكور.

٦٧- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ تَخْذُونَ مِنْهُ سُكْرًا وَمِرْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
السُّكْرُ : الخمر بفتح السين ، السُّكْرُ : بضم السين المادة الحلوة في التمر والعنب ، الرزق الحسن: ما يؤكل منها كالتمر والزبيب والدبس والخل وغير ذلك. نزلت الآية في مكة قبل تحريم الخمر في المدينة فهي من الآيات التي تقدّمت في النزول ، وكان الخمر قيمة وتجارة اقتصادية مربحة في الجاهلية وبينت أن الخمر ليس رزقاً حسناً.

وليس في الآية إشارة إلى حلية الخمر ، بل بالعكس فيها من الدلائل الأولية التمهيدية على تحريم الخمر ، بالتلميح وليس بالتصريح و (رُبَّ تَلْمِيحٍ أْبْلَغُ مِنْ تَصْرِيحٍ) ثم أن بعد هذه الآية جاءت آيات تحريم الخمر المتسلسلة. إنه سبحانه ميّز بين الخمر وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر والخمر رزقاً حسناً ، وفي هذا تمهيد لما جاء بعد من تحريمها ، هذه أول آية تنزل في الخمر وتحقره عندما تعزله عن الحسن من الرزق ، وكل ما تسبب في السكر فليس برزق طيب وحسن كقوله ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿ المائدة/٩٠ ، عن النبي (ص): (الْحَمْرُ أُمَّ الْقَوَاحِشِ، وَأَكْبَرُ الْكِبَائِرِ) كثر العمال خبر ١٣١٨٢ وأم الخبائث، وجماع الإثم، ومفتاح الشر، وعنه (ص) : (لَا يَجْتَمِعُ الْحَمْرُ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ رَجُلٍ أَبَدًا) البحار ١٥٢/٧٩. معنى سَكَرَ : الظاهر من (سَكَرَ) هنا على الإطلاق والعموم وهو كل شراب مسكر خمرًا كان أو غيره، والآية لا تتحدث عن حكم المسكر أهو حلال أم حرام ، ولم تفتح حكم الخمر لا من قريب ولا من بعيد ، وإنما تحدثت الآية عن واقع الناس الجاهلي آنذاك المنحرف وعاداتهم الضالة وأعرافهم الفاسدة إنهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب المفيدة شراباً مسكراً.

إذن: الآية في معرض الوصف والتشخيص وليس في معرض الحكم والتشريع ولا التحليل ولا التحريم. إنهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب شراباً مسكراً يستخدمونه فيما يضرهم ولا ينفعهم، الذي فيه ضرر على الفرد والأسرة والمجتمع وضرر مادي ومعنوي ونفسي في الدنيا والآخرة من جميع النواحي كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إبراهيم/٢٨، بدلاً من أن يشكروا هذه النعم فهم يكفرونها ، وَالَّذِي لَا يَشْكُرُ اللَّهَ يُكَفِّرْ ، وَالَّذِي لَا يُقَدِّرُ النِّعْمَةَ فَهُوَ لَا يُقَدِّرُ الْمُنْعَمَ ، وَالَّذِي لَا يُقَدِّرُ الْمُنْعَمَ يُسِيءُ إِلَى نَفْسِهِ وَمَنْ يَعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِهِ ، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ يَتَعَدَّ طَوْزَهُ فِي غُرِّ الْحَكَمِ: (رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) و (رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ حُدَّةَ قَوْفِ عِنْدَهُ) وبدلاً من استخدام ثمرات النخيل والأعناب في السكر والخمر الضار في كل الوجوه ، يمكن استخدامها فيما ينفع الجميع وتحواء النفوس وهو تصنيعها بفنون الصناعات المتنوعة، واستخراج منها أنواع الأدوية والفواكه المجففة النافعة وما أشبهها ، والزبيب الفاخر فيكون رزقاً حسناً (وَرِزْقًا حَسَنًا)

وإنّ الخمر ليس رزقاً حسناً ولا يوجد نص يحلل الخمر والرزق الحسن ما يستخدم استخداماً حسناً من الإنسان الأحسن ، الذي يستخدمه فيما ينفع ولا يضر ، والذي يصنع هذا الرزق الحسن هو الذي يستحق العبادة الخالصة وهو الله تعالى ، عن ابن عباس : (السَّكْرُ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أُحِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهَا) من ثمرات النخيل والأعناب، المراغي ١٠٢/١٤ ولا فرق بين (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكْرًا) وبين قوله ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ﴾ النحل/٩٢، بمعنى: تتخذون أيمانكم سبباً ووسيلة بينكم للغدر والخيانة والمكر! واستعمل القرآن (تَتَّخِذُونَ) في الاستعمالات السلبية كقوله ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ مريم/٨١ ، وكقوله ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ الشعراء/١٢٩. أخبر سبحانه أنه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها ويشكروا الله عليها وعلى كلّ نعمة فهو الذي يستحق أن تتوجه إليه الوجوه بالعبادة والطاعة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي آية باهرة ودلالة واضحة على دقة تعابير القرآن لقوم يتدبرون بعقولهم، وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان فيجب المحافظة عليه ، ولهذا حرم الله الخمر صيانة لعقول الناس لأنّ الخمر تخمر العقل فتغلفه وتحجز عليه وتمنعه عن التصرف الصحيح ، العقل ينهى عن

المنكر ويأمر بالمعروف ويُستدل على حجم العقل من كيفية الفعل ، وعمل الإنسان ميزان عقله ، فكلما كبر العقل استقام السلوك ، وكلما صغر العقل انحرف السلوك وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها وحفظاً لكرامتها وسلامة لفظرتها وهضة لتقدمها الحضاري المتنوع عن النبي (ص): (عَلَى قَدْرِ الْعَقْلِ تَكُونُ الْعِبَادَةُ) مشكاة الأنوار ص ٢٥١ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة/٢٦٩ ، ومن شرب المسكر ولو قليلاً فهو خاطر بالغاء عقله ولو قليلاً ، ومن ألغى عقله قليلاً دعم هواه ونفسه الأتارة بالسوء وأهان إنسانيته وذلك كرامته كثيراً ، ومن شرب القليل تحفز لشرب الكثير ولا يجوز للمؤمن أن يذل نفسه عن الإمام الهادي (ع): (وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص ٣٥٨.

٦٨ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

المراد من الوحي : الفطرة الخالصة والغريزة والإلهام والهداية الذاتية التي منحها الله للنحل (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) النحل تعمل بنظام وتربية ربك لها أي أهمها مصالحتها وأرشدتها إرشاداً غريزياً التي أودعها الله فيها إلى بناء بيوتها المسدسة الشمعية المنتظمة الهندسية العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال والشجر والأكوار التي بينها الناس ، لأن الحيوان لا يفكر ولا يخطط بعقل بل بغريزة تقوده آلياً وتلقائياً إلى عمل ما هو واجب عمله دون تقصير وتكاسل لبقاء حياته ، مثل الكون تسيره وتتحكم به قوانين الطبيعة التي أودعها الله فيه ، والنحل نوع بري لا يتعهده أحد ويسكن في الجبال وعلى الشجر كقوله (أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) ومنه ونوع حضري يترى في البيوت كقوله (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) أي ما بينون لبيوت العسل من الناس المتخصصين من صناديق مشقوفة خاصة.

وعن الإمام علي (ع): (الوحي في كتاب الله ثمانية أوجه : منه وحي النبوة ومنه وحي الإلهام ومنه وحي الإشارة ومنه وحي أمر ومنه وحي الكذب (أو إيصال رسالة بشكل خفي) منه وحي تقدير ومنه وحي الرسالة ومنه وحي الخبر ، فأما وحي النبوة والرسالة قوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ النساء/١٦٣ ، وأما وحي الإلهام فقوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ النحل/٦٨ ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ القصص/٧ ، وحي الإشارة : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ مريم/١١ وحي التقدير : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ فصلت/١٢ ، وحي الأمر : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ المائدة/١١١ ، وأما وحي الكذب أو إيصال رسالة بشكل خفي : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام/١١٢ ، وأما وحي الخبر ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ الأنبياء/٧٣ ، فائدة : ١- اختارت النحل الشكل المسدس من الشمع لبناء بيوتها لأنه أوسع من المثلث والمربع والمخمس ولا يبقى بينهم فرج خالية كما تبقى بين

المدورات وما سواها. ٢- جمع الله تعالى في النحلة السَّم والعسل والعمل دليلاً على كمال قدرته ، وأخرج منها العسل ممزوجاً بالشمع ، كذلك عمل المؤمن ممزوج بالخوف والرجاء ، كونوا كالنحلة تأكل طيباً وتصنع طيباً وتعطي طيباً. ٣- عن عبد الله بن مسعود: (عَلَيْكُمْ بِالشِّفَائِينَ العَسَلِ وَالْقُرْآنِ) مجمع البيان ٦/٢٠٤. ٤- إلهام النَّحْلِ نظام ربِّها هو لون من الوحي تعمل بمقتضاه ، وعلمها أعمالاً يتخيَّل منها أنَّها ذوات عقول ! وهي تعمل بدقَّة منظمة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكِّر في تقسيم العمل بينها على أساس نظام الخلايا بين الذكور والإناث ، وفي بناء خلاياها الهندسية وفي طريقة إفرازها للعسل الشافي المصقَّى ، وفي أسلوب دفاعها عن مملكتها وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور ، وسميت أعشاش النحل بيوتاً لأنَّها قائمة على نظام بالغ في الدقَّة والبداعة تحكمه هندسة دقيقة بارعة يحار في نظامها عقل الإنسان المفكِّر ، وسميت نحلاً مشتقة من النَّحْلَة وهي العطية والهبة والهدية الثمينة كقوله ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ النساء/٤ ، وكفاها شرفاً أنَّ الله أوحى لها كما أوحى إلى أعزَّ خلقه وهم أنبياءه. ٥- يمكن تشبيه أولياء الله بالنحل ، فلم يخرج من أولياء الله إلاَّ الإيمان والعمل الصالح ومن أفواههم سوى الحكمة ولذَّة النَّصيحة وجمال العلم والمعرفة والحلاوة المعنوية الأخلاقية الصافية النَّافعة للناس كقوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يونس/٦٢-٦٣.

٦٩ - ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) الأزهار والثمار الطيبة اللبنة التي تشتهينها من الحلو والحامض ومختلف الطعوم والروائح فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل مفيد نافع (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا) سيري أتي تشائين فكل الطرق سالكة أمامك وممهدة من قبل الله ربها لها ومذلة لا تضلين في الذهاب أو الإياب (يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) تلقي من فمها عسل غني مملوء بالمنافع متنوع الألوان والفوائد منه أحمر وأبيض وأصفر تبعاً لاختلاف المرعى ، (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) كل الناس بلا تمييز بالإنسانية ، شفاء من بعض الأمراض كقفر الدم وسوء الهضم والتهاب الفم والرئة والمثانة وأمراض الكبد وهو علاج للصحة الجمالية وغيرها ، وكثيراً ما يدخل العسل في تركيب الأدوية المتنوعة المغذية والمقوية والمعالجة (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) لآية أي لحجة ظاهرة وعبرة بالغة لقوم يحسنون التفكر في عظيم قدرة الله وبديع صنعه وجمال تدبيره ، هو الواحد القهار الذي ليس كمثلته شيء وهو يجير ولا يجار عليه لا شريك له في الملك. فائدة : ١- عجيب أمر النحلة حياتها تتضمن دقائق عجيبة لا تنكشف إلاَّ بالإمعان في التفكر فيا فوز المتفكرين والباحثين بعلم ودراسة وإيمان ، الذين يستدلون بعجائب صنع المخلوق على عظمة الخالق الحكيم. ٢- ومن

طبيعة النحل لا تترك عندها بطالاً واحداً وعاطلاً عن العمل إلا نفته وأقصته عن الخلية ، وإمّا يعمل النشيط المنتج لا الكسول المستهلك، ويشارك في إنتاج العسل النافع للجميع الذكور والإناث والجنود والعمال والملكة ورعيتهما، عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا أَرْدَوْجَتْ ، أَرْدَوْجَ الْكَسَلِ وَالْعَجْزِ فَتَنَجَّ مِنْهُمَا الْفُقْرُ) البحار ٧٨ ص ٥٩ . ٣- قال القرآن (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) وجاء (شفاء) نكرة ولم تجيء (فيه الشفاء للناس) والذي يدل بتعريفه على عموم الشفاء وشمول الدواء والعلاج ثم الأخص فالأخص ، وهذا من حكمة الحكيم العليم البليغ في تعبيره ، فلو كان شراب التحل العسل شفاءً من كلِّ داء على الإطلاق ، لأدخل الخلل على نظام الحياة الإنسانية التي لا تستقيم إلا مع الصحّة والمرض والدواء معاً ، وهكذا سنّة التداخل العامة ، في الأشياء بين الليل والنهار والذكر والأنثى والعزّة والدّلة والضعف والقوة والصحّة والمرض والدواء والداء والروح والجسد والدنيا والآخرة والأمل والعمل والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦ . في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (عن القرآن) (فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ ، وَالْعَيْ وَالصَّلَافُ) .

٧٠ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ الآية تعرض صورة واقعية متحركة ترد النفس إلى شيء من التأمل في حقيقة أطوار الحياة وأطوار الممات، وقد قضت حكمة الله أن يقرن الحياة بالموت لأنّ الموت صديق الحياة ، ومن أحبّ الحياة وكره الموت يعيش أنصاف الحياة لأنّه أحبّ أحد الصديقين وكره الآخر! من دعاء فاطمة الزهراء (ع): (اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي)، وأردل العمر ليس له حد معلوم ، فهو مفهوم نسبي يتفاوت بين البنية الجسدية للناس ، واختلاف أزمأنهم وأماكن عيشهم وظروفهم الحياتية، وكلّ ذلك قائم على أساس علم الله وتقديره وتدييره. المعنى : والله خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند إنقضاء آجالكم ومنكم من يموت في شبابه أو كهولته أو شيخوخته (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) ومنكم من يعمر فيبلغ (أَرْدَلًا) وأردأ وأسوأ مراحل العمر وأحقره وأذله وهو الهرم والحرف الذي يضعف معه الجسم والعقل والذاكرة وبقية الحواس الظاهرة والأعضاء الباطنة ، ومتى ضعف وهرم عضواً من أعضاء الجسم الظاهرة والباطنة يرجع كما كان أيام طفولته حتى كأنه لم يتعلم شيئاً ربّنا لا تردّنا إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) عليم بتدبير خلقه (قدير) على ما يريد ، فكما قدر الله تعالى على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل ومن القوة إلى الضعف ، فإنه قادرٌ على إحيائه بعد إمامته وهو على كلّ شيء قدير. فائدة : ١- في الحديث : (مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) روح البيان ٥٥/٥ - ٢- كقوله ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس/٦٨ ، في غرر الحكم: (رحم

الله امرأ عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ) ٣- في الآية دلالة على أنّ حياتكم وموتكم وقوتكم وضعفكم وشبابكم وهرمكم ليست بقدرتكم ولا بأيديكم ، وإلاّ اخترتم البقاء على الموت والعلم على الجهل ، بل ذلك من تقدير وتدبير وتنظيم الله تعالى للأشياء كقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/٢.

٧١ - ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) والله فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غني وذاك فقير ، وأسند الرزق إلى الله تعالى لأنه جرى على الأسباب التي تنتهي إليه باعتبار (لكلّ شيء سبب) والله مسبب الأسباب الخاضعة لسنة الله في الأشياء ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤-٨٥ ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/٢ ، بنظام وحكمة ، وربط الله سبحانه رزق الدنيا والآخرة بإرادة الإنسان ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الشورى/٢٠ ، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ، كَلَّا مِمْدُ هُوَلاءَ وَهُوَلاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الإسراء/١٨-٢٠ ، فليس شيء في ذلك التفاوت في الرزق جاء عبثاً وجزافاً وليس له علاقة بالإيمان والعصيان ، وقد يكون الإنسان عالماً مفكراً ولكن موهبته في تحصيل الرزق محدودة لأن له مواهب في ميادين أخرى ، ونلاحظ العكس قد يبدو جاهلاً ساذجاً ولكن يأتيه المال من كلّ مكان، ولكن لا طبقات في الإسلام على أساس المال والجاه والأنساب ، وقيمة كلّ امرئ على قدر تجربته، ومقدار علمه وخبرته ، في نهج البلاغة حكم ٨١: (قيمة كلّ امرئ ما يحسنه).

عن الإمام الصادق (ع): (إنّ الله تعالى وسّع أرزاق الحمقى ليغتبر العقلاء ويعلموا أنّ الدنيا ليس فيها ما يُنال بالاحتئال) البحار ١٠٣ ص ٣٤ والناس تتفاوت في العلم وفي المواهب والطاقات والقدرات وتتفاوت في الجمال والأشكال وحسن الحال ، وتتفاوت في الذكاء والدهاء والعطاء والنماء وتتفاوت في الرزق المادي والمعنوي وفي الرؤى والقناعات والاختصاصات ، وتتفاوت في الطباع والعادات والتقاليد ، وتتفاوت في كلّ شيء. كذلك تتفاوت في الرزق حتى تستمر حركة الحياة بتنوع الكفاءات وبدائع المهارات ، ولو تساوت لهلكت ، ولو كان الناس كلّهم أغنياء لتوقفت عجلة الحياة ! كقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ الزخرف/٣٢ ، عن الإمام علي (ع): (كم من متعب نفسه مقتتر عليه ، ومفتصد في الطلب قد ساعدته المقادير)

البحار ١٠٣ ص ٢٥ وعنه (ع): (وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَمَهَا عَلَى الصَّيْقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَسْئُورِهَا وَمَعْسُورِهَا وَلِيَحْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا) نَجح البلاغة خطبة ٩١، وعن الإمام العسكري (ع): (لَا يَشْغَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨ فبعضكم مستقل في التصرف وبعضكم تبع لغيره لا يتصرف إلا بإذن، (فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) ليس هؤلاء الأغنياء يشركون عبيدهم الذين يملكونهم فيما رزقهم الله من الأموال حتى يتساووا في غناهم مع عبيدهم، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فإن لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم فكيف يشركون عبيدي معي في الألوهية؟ (أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) الحجود: إنكار ما استيقنته النفس، الاستفهام للإنكار أي أيشركون مع الله غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟ فائدة: فالأمم المعاصرة وإن ألغت عادة استرقاق العبيد وشراءهم فإن الناس لا يزالون يحترمون معناها وإن ألغوا صورتها ويستعملون صفتها وإن تركوا شكلها، ويطبقون مسماتها وعاداتها وإن هجروا اسمها، إذن: أين قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠، عن النبي (ص): (إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَيْدُهُ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ).

٧٢ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرَمْرَفَةً مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) إنه تعبير قرآني دقيق المبني عميق المعنى فريد جذاب وتفيض منه روعة الحياة والبلاغة والحيوية والمعاني، إنه الاقتران المنظم المرتب المتجانس بين الزوجين المتكافئين (مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) من بعض أنفسكم خلق لكم أزواجاً، في وحدة نفس واحدة موحدة متحدة، فهنّ من أنفسكم فكأنما وحدة النفس بين الزوجين تنشطر نصفين منذ التكوين بقدرة الله تعالى القادر، فيكون الزوجان جسمين بنفس واحدة وبروح متحدة يتقاسم الزوجان بالعدل طعم الحياة المشتركة ينجذب أحدهما للآخر انجذاب الأصل إلى أصله بعلاقة منظمة مبنية على عدّة عوامل منظمة ومقدّرة ومدبّرة والتي منها التقارب والتحابب والتجاذب والتكافؤ والتآلف ووحدة النفس ووحدة السكن ووحدة الاستقرار المشترك فيكون بينهما تعدّد أدوار ووحدة هدف سامية، وتمتد منهما ذرية صالحة وتستمر الحياة من السلف إلى الخلف وما مات من خلف صالحاً، يكون رقماً مؤثراً نافعاً في مسيرة الإنسانية الصاعدة وفاعلاً في حركة التاريخ (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ) جعل لكم من هؤلاء الزوجات (بَيْنَ وَحَدَّةٍ) الأولاد وأولاد الأولاد، وسمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم، فهم من النعم الإلهية على الإنسان وزينة الحياة الدنيا إذا كانوا صالحين، أما إذا أصبحوا طالحين أصبحوا نقمة وعذاب وفساد وعناء على العائلة فعند ذلك تحلّ العزوبة، ويكون التعفف عن الزواج أفضل من الزواج الفاشل، روي:

الَّذِينَ يَأْتُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ : (قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَرْتَنَا بِالتَّزْوِجِ قَالَ (ص) بَلَى وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ فَهَلَاكَ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ ، يُكَلِّفُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ حَتَّى يُورِدُوهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ !)

التفسير المبين ص ٣٥٥ ، (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) المتنوعة في الطعام والشراب والمسكن والملبس والرِّفاه والزواج وغير ذلك من الطيبات اللذيذة ، ويضم هبة الأبناء والأحفاد إلى هبة الطيبات من الرزق للمشاركة بين الرزقين النموذجيين ليعقب عليهما بسؤال استنكاري (أَقْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) أبعث تحقق لهم أنواع النعم من هبة الرحمن يعبدون الشيطان ويكفرون بالله ، (وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) نعم كثيرة يحسونها ويتمتعون بها ثم يحدونها والذي يحدد النعمة يحدد المنعم ! حيث يأكلون رزقه ويعبدون غيره ! وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْبَاطِلُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ ، وَالَّذِي لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ (وَالَّذِي لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح النهج ٩١/٢ .

٧٤ - ٧٣ ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ مِنْ قَرْنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ، فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿

ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال الماء من السماء ، ولا على إخراج زرع أو شجر ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت. ٧٤- (فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) إنه ليس لله مثال حتى يضربوا له الأمثال ، ولا تصفوه سبحانه بأوصاف التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ، فلا تجعلوا لله أمثالاً وأشباهاً في الخلق والألوهية كقولهم إن له البنات والملائكة بناته (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) والله يعلم كل شيء وأنتم لا تعلمون شيء إلا ما يعلمكم الله ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/٥ ، من أجل علمه المطلق سبحانه وجهلكم يستوجب أن لا تفعلوا ولا تقولوا شيئاً إلا بعلم ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦ .

فائدة: تشير الآية إلى منطق المشركين المتخلف في عصر الجاهلية القديمة وهناك مثله في الجاهلية الحديثة حيث كانوا يقولون إنما نعبد الأصنام لأننا لا نمتلك الأهلية لعبادة الله فنعبدها لتقرِّبنا إلى الله زلفى! ويقولون: إن الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلا الوزراء والخواص وما على عوام الناس إلا التقرب للحاشية والخواص لتكون وسيطاً إلى خدمة الله!! وهذا تفكير المشركين، أما الموحدون لله فيعملون بأمر الله تعالى في كتابه العزيز الذي يدعوننا إلى عبادة الله مباشرة دون واسطة كقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة/٥، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر/٦٠، ادعوني مباشرة دون وسيلة وواسطة وهكذا نهج القرآن الكريم ، أما قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة/٣٥، راجع بها تفسيرنا.

٧٥ - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رَبِّ قَاتِلًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

تضرب الأمثال للاعتبار. هذا مثل حركي مأخوذ عن واقعهم الجاهلي للأصنام التي يصنعها الوثنيون بأيديهم ثم يعبدونها ، إنها كالعبد المملوك الذي لا يرجى خيره ولا يخشى شره (وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا) هذا مثل لِحِرِّ غني قوي كريم يتصرّف في نفسه وماله كيف يشاء (هَلْ يَسْتَوُونَ) الحر القادر والعبد العاجز، والفترة ترفض هذه المساواة ، فكيف صحّ في أفهام الوثنيين أن يساوا بين الخالق الرازق وبين وثنهم العاجز ؟ وكلّ دين أو فكر أو مبدأ أو حزب إذا خالف الفطرة ولم يخدم الإنسان ولم يتوجه إلى الله ولم يتجاوب مع متطلبات الحياة الحضارية ولم يجرّ المجتمع من الفقر ولم يخلصه من وسائل تخلفه وضلاله فهو جهالة وضلالة عن الإمام علي (ع): (وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا) البحار ٢١٤/٧٧ والعبودية لله حرّية وعزة ، والعبودية لغير الله ذلّة ومهانة (الْحَمْدُ لِلَّهِ) لله الشناء خالصاً على وضوح الحق وبيان الحجة والله الذي لا يستحق الحمد سواه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣، والله كلّ صفة يحمد عليها ولكن المشركين يجهلهم المركب يسوون بين الخالق والمخلوق (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أنّ النعمة كلّها لله ولا يملك غيره شيئاً ولا يقدر على خلق شيء.

٧٦ - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وهذا مثل آخر للاعتبار ، يصوّر أنّ هناك بين الحق والباطل من تفاوت كبير ، هذان رجلان أما أحدهما فأبكم ولد أخرس لا يسمع ولا ينطق وهو مغلق الحواس والمشاعر لا يفهم شيئاً لنقص قواه العقلية ولا يُحسن شيئاً إنه يُقاد كما تُقاد الحيوانات (وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) كَلٌّ : عالة لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه وهو ثقيل على سيده (أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ) حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس بليد ضعيف (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) هل يتساوى هذا الأخرس مع ذلك الرجل التام في عقله الرشيد البليغ العالم المعلم بالحق ويأمر بالعدل والإحسان وهو على طريق الاستقامة مستنير بنور القرآن ؟ لا يستويان مثلاً ، فكيف ساويتم أيها الوثنيون في العبادة بين الله تعالى الجامع لصفات الكمال وبين أصنام صم بكم عمي ؟

٧٧ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ أَوَّلِ السَّاعَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك حصيلة النظر في هذين المثلين السابقين ، هو سبحانه المختص بعلم الغيب كقوله ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام/٥٩ ، يعلم كل ما غاب عن الأبصار والحواس في السموات والأرض التي لا سبيل إلى إدراكها حساً ولا إلى فهمها عقلاً ، فكلُّ سرٍّ عنده علانية وكلُّ غيب عنده شهادة ويستوي عنده السرُّ والعلانية (وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ أَوَّلِ السَّاعَةِ) هُوَ

أَقْرَبُ) وما شأن يوم القيامة في سرعة المحييء إلا كمنظرة سريعة بطرف العين بل هو أقرب أو بعبارة أخرى : إن إعادة الخلق بعد فئائه أيسر عند الله من ردّ الطرف عندنا لأنه ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هود/١٠٧ ، يقول لِلشَّيْءِ إِذَا أَرَادَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ (كُنْ) فَيَكُونُ (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ كقوله ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر/٥٠ ، وإِذَا يَسْتَعْصَبُ المعاد من يقيسون بقياس البشر ومن هنا يخطئون التصوّر والتقدير ، وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا الغيب والساعة ولو علموا وقت الساعة لتوقفت عجلة الحياة أو اختلت مسيرتها. فائدة :

١- أصبحت (حقيقة الآخرة) الموضوع المهم والرئيس في القرآن الكريم، لمحاولة تثبيتها في أذهان الناس كافة وما ينعكس عنها من تركية النفس وتهذيبها لتجعل الإنسان يعيش حالة التوازن في جميع أحواله وأقواله وأفعاله ، وهذا منهج سام يقوده إلى سلّم التكامل ، وبذلك يُكرم الإنسان نفسه ويعرف قدره ولا يتعدى طوره ويكون أفضل المخلوقات وسيد هذا الكون في الدنيا وكذلك ينال في الآخرة المنازل العليا المتناسبة مع عمله! في غرر الحكم: (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَبَالُهَا إِلَّا ذُوُّ التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ). ٢- (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ) سمّيت الساعة بيوم القيامة لأنها تفاجئ الإنسان في ساعة ما غائبة عنه ، عن النبي (ص) : (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كثر العمال خبر ٤٢١٢٣ ، وعنه (ص) (يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَرْءَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كثر العمال خبر ٤٢٧٢٢ .

٧٨ - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آية تلفت النظر وتحرك المشاعر إلى قدرة الله تعالى ، أتخسب أنك جرمٌ صغير - وفيك انطوى العالم الأكبر ، أطوار الجنين قد يراها الناس ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ نوح/١٤ ، ولكنهم لا يعلمون كيف تصنع يد القدرة (من بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) لأن سر الخلق هو سر الحياة المكنون وهو من عمل الخالق (لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) يخرج الإنسان من رحم أمه صحيفة بيضاء وفطرة نقية لا يعلم شيئاً إلا من الهداية لاجترار الغذاء من صدر أمه ولكن الله سبحانه زوده بأدوات المعرفة الحسية (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) خلق لكم الحواس الدقيقة التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون وعبر عن الأفئدة وهي العقل والفطرة.

(السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) إنها آلات رئيسة تدركون بها ما يحيط بكم من الكائنات ، ويعبر القرآن بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع حواس ومدارك الإنسان الواعية ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٥١ ، (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لتشكروه على نعمه الربانية الجليلة التي ليس لها ثمن هي فوق الثمن، فلا بد من توجيه للقوى المدركة في الإنسان أن تؤدي وظيفتها فيه لتهديه إلى صراط الله المستقيم وهذا شكرها أي استعمالها فيما خلقت لأجله ، والشكر العملي أبلغ من الشكر القولي ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣ ، في غرر الحكم: (وَلِسَانُ الْحَالِ أْبْلَغُ مِنْ لِسَانِ الْمُقَالِ) فائدة: ١- في السياق القرآني قدّم السمع على البصر : لأنه أولى منه ، وقد يزيغ (ينخدع)

البصر ولكن لا ينخدع السمع ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَهْدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ الجن/١٣ ، وقد يشتهه البصر في ظاهرة انكسار الأشياء في الماء ، والسمع طريق تلقي الوحي لذا ابتلي بعض الأنبياء بالعمى كيعقوب (ع) دون الصمم ، والسمع يدرك الأصوات ويميزها من جميع الإتجاهات ويسمع في داخل بطن أمه وخارجها ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ ق/٤٢ ، وإدراك البصر من جهة واحدة ، ونرى الوليد يتأخر انفتاح عينيه بينما سمعه يعمل وهو في بطن أمه ، يمكن أن يتعلم الإنسان بالقراءة ، ولكنها ليست عامة لكل الناس وسماع الكلمات أمر عام وفي جميع مراحل العمر ، ومن لا يسمع لا يتكلم وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق ، وإذا ذهب البصر قويت البصيرة ، وفي القرآن قد تأتي (الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) بالجمع ويأتي السمع بصيغة المفرد دائماً والسبب : تستعمل السمع اسم جمع بمعنى المصدر ، والمصدر يدل على الكثير والقليل فلا حاجة إلى جمعه.

٧٩ - ﴿الْمُرِيرَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ألم يشاهدوا الطيور مذلات لأمر الله مهينات للطيران بأجنحتها (في جَوِّ السَّمَاءِ) في ذلك الفضاء الواسع إنه مشهد مألوف مع ما فيه من عجب ، ولا يستيقظ القلب إلا حين التفكر والتدبر ، (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) ما يمنعهن من السقوط على الأرض عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا الله سبحانه (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن فيما ذكر آيات ظاهرة وعلامات باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدقون بمنهج الله تعالى ، لأنهم هم الذين ينتفعون بأمثال هذه المشاهدات ويعرفون عظمة الله الخالق من عظمة بدائع مخلوقاته. فائدة : إن الله يجري الأمور على أسبابها ويسندھا إليه لأنه مسبب الأسباب ، وإذا أراد الله أمراً هيئ أسبابه والمعنى : إن الله خلق للطير جناحين وزوده بكل معدات الطيران وأدوات الإقلاع ويخرج بها عن جاذبية الأرض ، وهذا الخلق المقدر والمدبر دليل واضح على وجود الخالق المدبر ، وهكذا كل الإختراعات المتنوعة التي عاشت مع الإنسان من الإبرة إلى السفن الفضائية هي من اختراع العقل الذي علّمه الله ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/٥ ، وبالعقل تصلح الأمور وتحفظ العلوم وتتوسع المدارك ويستقيم الفكر والسلوك ، والعقل بعض آيات الله الدالة على وجوده وقدرته سبحانه.

٨٠ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَمِئَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾

سميت البيوت التي نعيش فيها سكناً لأنها سكيّنة واستقرار وطمأنينة للنفس والسكيّنة من أكبر النعم المعنوية ، لا يقدرها حق قدرها إلا الذين لا بيوت لهم من المشرّدين والنازحين ، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة المنسية ، نتساءل : هل أوجد سبحانه السكن بيده أو أرسل لبنائه ملائكة ؟ كلا وإنما وهبنا العقل والعلم وقال ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ سبأ/٥١ ، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/١٥١ ، (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ

بُيُوتًا) وَجَعَلَ لَكُمْ بُيُوتًا أُخْرَى مَتْنَقَلَةً وَهِيَ الْخِيَامُ مِنَ الشَّعْرِ وَالصَّوْفِ (تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) تَسْتَخْفُونَ حَمَلَهَا وَنَقَلَهَا فِي يَوْمِ (ظَعْنِكُمْ) أَي أَسْفَارِكُمْ وَيَوْمَ مَكْتَمِكُمْ لِأَنَّهَا خَفِيفَةُ الْوِزْنِ (وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا) أَثَاثًا الْحَاجَاتُ الْمَنْزِلِيَّةُ الْكَثِيرَةُ ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ صَوْفِ الْغَنَمِ وَوَبَرِ الْإِبِلِ وَشَعْرِ الْمَعَزِ مَا تَلْبَسُونَ وَتَفْرَشُونَ بِهِ بُيُوتَكُمْ ، وَذَكَرَ الْجُلُودَ (مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ) لِأَنَّهَا كَانَتْ هِيَ الْغَالِبَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ (وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) تَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَتَتَنَفَّعُونَ إِلَى مَدَّةٍ مَعِينَةٍ مِنَ الزَّمَانِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مَتَعَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا مُؤَقَّتَةٌ لَا دَوَامَ لَهَا وَلَا قَرَارَ . فَائِدَةٌ : (بُيُوتَكُمْ سَكْنًا) وَلِلْبَيْتِ حَرَمَتُهُ فِي الْإِسْلَامِ فَلَا يَدْخُلُ إِنْسَانٌ بَيْتًا حَتَّى يَسْتَأْذِنَ أَهْلَهُ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ النور/٢٨ .

٨١ - ٨٣ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ، يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ تُبَيِّنُهَا وَأَكْثَرُ هَذَا الْكَافِرُونَ﴾

ظِلَالًا : جَمْعُ ظَلٍّ أَي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَبْنِيَّةِ وَغَيْرِهَا (ظِلَالًا) جَمْعُ ظَلٍّ وَهُوَ مَا يَسْتُظِلُّ بِهِ أَي تَتَّقُونَ بِهَا حَرَّ الشَّمْسِ (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) وَهِيَ مَوَاضِعُ تَسْكُونُونَ فِيهَا كَالْكَهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ وَالْحِصُونِ وَالْبُيُوتِ الْمُنْحَوْتَةِ فِي الْجِبَالِ ، وَهِيَ بَارِدَةٌ فِي الصَّيْفِ وَدَافِئَةٌ فِي الشِّتَاءِ ، وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ شَدِيدَةَ الْحَرِّ وَحَاجَتَهُمْ إِلَى الظِّلِّ وَدَفَعَ الْحَرَّ شَدِيدَةً فَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَعْرِضِ النِّعْمَةِ (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) جَعَلَ لَكُمْ (سَرَابِيلَ) أَي الثِّيَابَ مِنَ الْقَطَنِ وَالصَّوْفِ وَالْكَتَانِ لِتَحْفَظْكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَذَكَرَ الْحَرَّ دُونَ الْبَرْدِ ، لِأَنَّ ذَكَرَ أَحَدَهُمَا مَغْنِيًا عَنِ ذَكَرِ الْآخَرَ (وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ) بَأْسَكُمْ : الشَّدَائِدُ وَالْحُرُوبُ ، أَي وَدَرُوعًا تُشَبِّهُ الثِّيَابَ وَهِيَ لِبَاسُ الْحَرْبِ تَتَّقُونَ بِهَا شَرَّ أَعْدَائِكُمْ فِي الْحَرْبِ (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ) مِثْلُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمِ فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ نِعْمَةَ الدُّنْيَا بِالتَّطَوُّرِ الْحَضَارِيِّ وَالتَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ الْمُنْتَوِعِ عَلَى أَسَاسِ دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ (لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) وَتَدْخُلُونَ الْإِسْلَامَ ، وَالْإِسْلَامُ هُنَا بِمَعْنَى التَّسْلِيمِ وَالتَّانِقِيَادِ أَي تَسْتَسْلِمُونَ وَتَخْضَعُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَتُوجِّهُوهُ وَجُوهَكُمْ إِلَيْهِ وَتَخْلُصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَلَا تَقَابِلُوهُ بِالْعَصِيَانِ وَالطَّغْيَانِ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إِبْرَاهِيمَ/٣٤ ، فَمَنْ يَعْرِفُ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْدِرَ الْمُنْعَمَ وَيَسْلَمَ لِإِرَادَتِهِ ، لِأَنَّ هَذَا الْمُنْعَمَ الْكَرِيمَ الرَّحِيمَ لَا يَرِيدُ بِكُمْ سُوءًا .

٨٢ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِكَ مَعَ الْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ فَلَا ضَرَرَ عَلَيْكَ لِأَنَّ وَظِيفَتَكَ التَّبْلِيغَ الْوَاضِحَ وَقَدْ بَلَغْتَ وَأَحْسَنْتَ الْبَلَاغَ ، فَلَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَى خَلْقِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَالَّذِي لَا يَلِيْقُ بِهِ الْإِيمَانُ يَلِيْقُ بِهِ الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبَبَ هَذَا الْإِعْرَاضِ هُوَ الْاسْتِكْبَارُ وَالْإِنْكَارُ فَقَالَ ٨٣ - (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ

الْكَافِرُونَ) يعرفونها بأقوالهم ويتمتعون بها وينكرونها بأفعالهم والذين ينكرون النعم ينكرون المنعم ، لأنهم لا يؤدون حقها من الشكر بل شكروا وأشركوا غيره معه ! كقوله ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ إبراهيم/ ٢٨ ، وقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/ ١٤ ، معاندون ومموتون على الكفر والفساد ، ومن ضاق عليه الحق فالكفر عليه أضيقت ! وإثم ينكرون نعمة الله عملياً بعبادتهم غير الذي منحهم إياها ، ويزيدون على الكفر العمل ضد الحق الرسالي والصد عن سبيل الله ومنع هداية الناس .

٨٥ - ٨٤ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ، وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

الشَّهِيد : الشاهد لهم أو عليهم ، ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيها يشهد عليها بواقعها على أعمالها كقوله ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ النساء/ ١٤٣ ، فإن لم يكن نبياً في زمان الإنسان فالإمام العادل أو العالم بدين الله أو المبلغ الكفو النزيه وإنه يشهد عليها أو يشهد لها بما أجابت وفعلت حين أبلغها رسالة الله سبحانه وبشّر وأنذر كقوله ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ الإسراء/ ٧١ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لِكُلِّ زَمَانٍ وَأُمَّةٍ إِمَامٌ ، تُبْعَثُ كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ إِمَامٍهَا) تفسير الميزان ٣٢٦/١٢ ، وعن الإمام علي (ع) : (لَا يَتَحَمَّلُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ وَالْبَصْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْأَمْرِ) ، (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) في الاعتذار والرد بعد أن قامت الحجة عليهم بشهادة الرسول أو بشهادة العدول (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) لا يُطلب منهم ما يوجب العتبي وهي الرضى ولا أن يسترضوا بهم بقول أو عمل وتوبة واستغفار فقد فات أوان الاسترضاء والعتاب وفات وقت الاعتذار حيث لا عذر لهم في يوم القيامة ، وجاء وقت الحساب والعقاب والجزاء .

٨٥- (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ) وإذا رأى الظالمون المعتدون على حقوق الناس عذاب جهنم فلا يُفتر عنهم بنقصانه ويأخذهم الله بما يستحقون ولا يرحمهم ، ورحمة الله تعالى وإن اتسعت لكل شيء فإنها تضيق بالظالم فلا يستحق الرحمة (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) لا يمهلون ولا يؤخرون بل يسرعون إلى جهنم كقوله ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة/ ٨٦ .

٨٦ - ٨٨ ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ، وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ، الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ نَزَدَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

هذا مشهد واقعي من مشاهد يوم القيامة ، ضمير (أَلْقُوا) يعود إلى آلهة المشركين ، وضمير (إِلَيْهِمْ) يعود إلى المشركين أنفسهم . المعنى : وإذا أبصر المشركون شُرَكَاءَهُمْ (مهما كانوا أصنام حجرية أو أصنام بشرية متنفذة ويتبعوهم إتباعاً أعمى) الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم

شركاء الله في الألوهية فارتفع عتاً بعض العذاب واجعله عليهم ! وتدل هذه الآية أن معبود الشرك يُحشر معه يوم القيامة حتى ولو كانوا حجراً تأكيداً للحجة عليه كقوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ مريم/٨١-٨٢ ، عن الإمام الباقر (ع) : (لَوْ أَحْبَبْنَا حَجَرًا حَشَرَهُ اللَّهُ مَعَنَا ، وَهَلَّ الدِّينُ إِلَّا الحُبُّ) البحار ٢٣٧/٦٩ (المرء مع من أحب) كنز العمال خبر ٢٤٦٨٤ (قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ) هؤلاء الذين عهدناهم من دونك (فَأَلْفَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا فما كنتم تعبدوننا ولكن كنتم تعبدون أهواءكم وأموالكم وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم كقوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فاطر/١٤ . ٨٧- (وَأَلْفَقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ) استسلم وانقاد أولئك المشركون الظالمون لحكم الله تعالى مدعين لجلاله وكماله بعد الاستكبار في الدنيا وإن كانوا يدعون أنهم على الإسلام في الهوية (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) بطل وضاع منهم ما كانوا يؤملون من آهتهم وقادتهم تشفع لهم عند الله . ٨٨- (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الذين كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام بكل الأساليب الخبيثة المتاحة من الترغيب والترهيب والتضليل بأنواعه الإعلامية المختلفة (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فِي جَهَنَّمَ فَوْقَ عَذَابِ الكُفْرِ لأنهم ارتكبوا جريمة كبيرة صدُّ الناس ومنعهم عن الهداية فوق جريمة الكفر والفساد في الأرض بمنع قيام مجتمع صالح ، فكان عقابهم من نفس عملهم ، والعقوبة على قدر الجناية (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) بسبب إفسادهم بالكفر والمعاصي وضلال الناس عن دينهم كقوله ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ العنكبوت/١٣ ، عن النبي (ص) : (مَنْ اسْتَنَّ بِسُنَّةِ عَدْلٍ فَاتَّبَعَ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَفَعَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ اسْتَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَاتَّبَعَ ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَفَعَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) الأمل ٢٦٢/٨ .

٨٩ - ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَمَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

وهو مشهد من مشاهد يوم القيامة في القرآن ، واذكر يا مُجَدِّد للناس وذكركم ذلك اليوم وأهواله الرهيبة حين نبعث في كل أمة نبيها وإمامها أو قائدها أو عالمها من أنفسهم في زمانهم ليشهد على أعمالهم الصالحة أو الطالحة لإتمام الحجة عليهم ، وإن قيمة الشهيد والشاهد من نفس الأمة له أهمية كبيرة لأنه نشأ في وسطهم فكان منهم ومعهم وفيهم ، سواء أكان نبياً أو غيره فيعرف تفاصيل حياتهم ولا يكتفي بظواهرها بل ينفذ إلى بواطنها قطعاً لمعذرتهم سؤال : لماذا هؤلاء الشهود والله قد أحاط بكل شيء رحمة وعلماً ؟ الجواب : لتأكيد علمه سبحانه بالحجة والمراقبة

الكاملة ، وهذا دليل على وجود الشاهد والهادي والحجة العادلة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧ ، ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/١٨١ ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ النحل/٣٦ ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ (وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدٌ شَهِيداً عَلَى أُمَّتِكَ) وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْمُنِيرَ الْمُبَارَكُ بَيَاناً شَافِئاً وَدَسْتوراً بليغاً حكيماً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين والدنيا فلا حجة بعده لمحتج ولا عذر معه لمعتذر ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام/١٥٥ ، عن الإمام الباقر (ع) قال لأصحابه : (إِذَا حَدَّثْتُمْ بِشَيْءٍ فَاسْأَلُوْنِي أَيْنَ هُوَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ) نور الثقلين ٣/٧٤ ، وعن النبي (ص): (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر ٢٤٥٤ ، ليتدبر ويتعمق ويبحث في أدبار وأبعاد معانيه (وَهْدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) هداية للقلوب ورحمة للعباد وبشارة للمهتدين الذين أسلموا وجههم لله واستسلموا لمنهج الله ، إثم وجهوا وجوههم لوجه واحد فكفاهم الوجوه كلها ، وتحملوا همّاً واحداً فكفاهم الهموم كلها ، وخصّ المسلمون بالذكر لأنهم الذين أسلموا وجوههم وخضعوا لله من كافة الأديان السماوية.

فائدة: ١- القرآن الكريم دستور علمي للناس كافة ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكويد/٢٧ ، وحكماً يحتكمون إليه ومصدر هداية يهتدون بنوره فهو خزائن العلوم كلها ما عرفت الإنسانية وما لم تعرف كقوله ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام/٣٨ ، وفيه ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يوسف/١١١ ، وقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ ، والعلم يلتقي مع القرآن مهما تطوّر العلم ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ الكهف/١٠٩ ، والقرآن الكريم كتاب هداية ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/٢ ، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ ، قبل أن يكون كتاب العلوم الطبية والهندسية والفلكية.. إلخ ، مهمة القرآن أن يصنع الإنسان المستقيم المتكامل المتوازن بين العاطفة والعلم وبين القول والعمل وبين العبادات والمعاملات وبين الأمل والعمل وبين الروح والجسد وبين الحياة والموت وبين الدنيا والآخرة ، ويتضح لنا أن المقصود من (كُلِّ شَيْءٍ) للتكثير والشمول أي جامع كل الأمور اللازمة (للهداية) للوصول إلى طريق التكامل ، وليس من الضروري أن يكون المراد بـ (كُلِّ شَيْءٍ) يشمل كل العلوم المتنوعة بتفاصيلها لأن ذلك ليس من أهداف الرسالة ولا من مسؤولية المرسلين.

٢- ولما كان القرآن (تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ) صار حجة الله على العباد كلهم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان/١ ، وتبيان القرآن عن طريق الرسول (ص) وآله الطاهرين (ع) والرواة العادلين بأخذ ما ورد عنهم من روايات، فتعرض على كتاب الله فما وافقه فخذوه وما خالفه فهو ﴿زُحْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ الأنعام/١١٢ ، فنضرب به عرض الحائط كائناً من كان ، فكلامهم مُجَدُّ وآله (ع) مع القرآن وهم حملته والأمناء عليه ولم يقولوا شيئاً يخالف القرآن ،

في نهج البلاغة حكم ٩٨ : (إِعْقِلُوا الْحَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ زُرُوءَةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ)، عن النبي (ص) (همة العلماء الوعاية (الدراية)، وهمة السفهاء (الجهلاء) الرواية) كنز العمال خبر ٢٩٣٣٧، عن الإمام علي (ع) (عليكم بالدرايات لا بالروايات) البحار ١٦٠/٢، كقوله (وَتَعْيِبَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) الحاققة/١٢، وعن الإمام الصادق (ع): (مَا لَمْ يُؤَافِقْ مِنَ الْحَدِيثِ الْقُرْآنَ فَهُوَ زُخْرُفٌ) الكافي ١/٦٩. ٣- من كلام الهدهد لسليمان (ع): ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ النمل/٢٣، (كُلُّ شَيْءٍ) كناية عن التكثر والعموم في عظمة ملكها، وأوتيت كلَّ شَيْءٍ يحتاج إليه الملوك، عن الإمام الباقر (ع) : (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَدَعْ شَيْئًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَّهُ لِرَسُولِهِ (ص)) الكافي ١/٥٩، وعن الإمام الصادق (ع) : (مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْتَلِفُ فِيهِ إِثْنَانٍ إِلَّا وَهُوَ أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنْ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُ الرِّجَالِ) نور الثقلين ٧٥/٢ العاديين، لا يبلغه إلا الراسخون في العلم، أي أصحاب الاختصاص.

٩٠ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْغَيْبِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

في هذه الآية بيان لبعض ما في الكتاب من الأخلاق والهدى والرحمة والبشرى فيه الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام.. والقرآن كله دعوة جامعة مانعة إلى مضمون هذه الآية، أمر الله سبحانه بثلاث خصال حميدة واسعة المعنى، ونهى عن ثلاث خصال قبيحة شاملة المعنى، أمر بالعدل : وهو المساواة في المكافأة والعطاء والقضاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر، في غرر الحكم : (بِالْعَدْلِ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ)، وبالعدل قامت السموات والأرض والعدل فردي واجتماعي وهو حفظ الحقوق العامة والخاصة وأن يعامل كل فرد من المجتمع بما يستحقه من تكريم وإحترام فهو يكيل بميزان العدل وهو ميزان واحد للجميع، والعدل : الإنصاف وهو أساس الحياة و(العدل: أساس الملك، وحياة الأحكام، وزينة الايمان، وفضيلة الإنسان) لأن العدل لا ظلم فيه وبه تقام الأحكام ويصلح المجتمع وتتضاعف البركات وتعمر البلاد وتسعد العباد وتطمئن النفوس وتستثمر الطاقات، ومن كان عادلاً على نفسه كان عادلاً مع ربه ومع الناس، وأفضل العدل ردُّ المظالم وأداء الأمانات وإعطاء الحقوق (وَالْإِحْسَانِ) هو التفضل ومقابلة الخير بأكثر منه، وهو أوسع مدلولاً من العدل وهو إيصال الخير إلى الفرد والمجتمع لا على سبيل المقابلة والمجازاة بل إصلاح الحال إلى أحسن حال، وهذا ما ينشر المحبة والأمن والسلامة بين الناس، وجاء الأمر بالعدل والإحسان مطلقاً ليشمل كل قول وعمل مادي ومعنوي للدلالة على الدقة في القول وإتقان العمل كقوله ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة/١٩٥.

(وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) مواسة الأقرباء وهو العناية المميزة المادية والمعنوية بالأقرباء وهو المجتمع الصغير المقرب لك نسباً وحسباً مقدمة للاهتمام بالمجتمع الكبير، لذلك صلة الرحم من مظاهر الإحسان

وأعلى درجاته كقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ النساء/١ ، (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وينهى عن كل قبيح في السر والعلانية من قول أو فعل ، وَالْفَحْشَاءِ : كل ما تنهى قبحه كالزنى وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة أي ينهى عن الكبائر من الفعل والقول ، وَالْمُنْكَرِ : كل ما تنكره العقول السليمة وما تنفر منه الفطرة وما يعارضه الشرع على من يفعله سواء أكان قولاً أو فعلاً ، وهو ما لا يعرفه الناس وما يتعلمونه في مجتمعهم من القبائح والآثام ككشف العورة وإشاعة الفسق والفساد بأنواعه ، وَالْبَغْيِ : الاعتداء على حق من حقوق الناس صغيراً أو كبيراً بأي شكل من أشكال الاعتداء وهو من أكبر الكبائر ، لأنه استكبار وطغيان وظلم وجور على الفرد والمجتمع ، فهو يمزق المجتمع ويفكك شبكة أواصره وعلاقاته بسبب تحلله وفساده (يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فتحافظون على سلامة الفطرة في أنفسكم فتتعظون أو يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بشريعة الله التي فيها حياتكم وسعادتكم، عن النبي (ص) : (جَمَاعُ التَّقْوَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ غَيْرُ هَذِهِ الْآيَةِ، لَصَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ) نور الثقلين ٣/٣٨٧.

٩١ - ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ حافظوا أيها المؤمنون على العهود التي عاهدتم عليها الله والرسول وأدوها على الوفاء والتمام (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) لأن من آمن بالله والرسول والرسالة فقد أعطاه سبحانه عهداً أن يأتى بأمره وينتهي عن نهيهِ ، ومن يعص الله فهو من الناكثين الناقضين لعهد الله تعالى ، ويشمل كل عهد ووعد وعقد يلتزمه الإنسان مع أخيه الإنسان باختياره مسلماً كان أو غير مسلم ، والوفاء بالعهد هو الضمان لبقاء عنصر الثقة بين الناس وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ولا تنهض إنسانية (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)

لا تَنْقُضُوا: لا تفكوا ، الْأَيْمَانَ : الحلف ، تَوْكِيدِهَا : عقدها وتوثيقها أي ولا تخالفوا أيمان البيعة ولا حلفكم بالله تعالى بعد إحكامه بالقصد والعزم وكونه لأمر راجح أو بعد توثيقها بذكر الله ثم تكذبوا وتكثروا بعد عقده (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ (كَفِيلًا) ضامناً بالوفاء شاهداً وريباً على تلك البيعة ، وكل من حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً وضامناً للوفاء فإن أخلف فقد خان الله الكفيل فاستحق العقاب (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) وسيجازيكم عليها فيثيب الوفي ويعاقب الناقض ، عن النبي (ص): (الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ فِيمَا أَحَلَّ) كنز العمال خبر ١٠٩١٩ ، وعنه (ص): (إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدْوَهُمْ) البحار ١٠٠ص ٤٥ ، وقال تعالى ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٤ . فائدة : يشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً لأنها قاعدة الثقة المتبادلة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم.

٩٢ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَيَكَيِّبُنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

هذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده ونقض وعده وتخلّى عنه ، شبهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويرم عهده ويوثقه ثم ينقضه ، بالمرأة الحمقاء تغزل غزلها وتفتله بقوة وتنسجه بإحكام (نَقَضَتْ غَزْلَهَا) ثم تحله وتفكه أنكاثاً وتفله لا فتل فيه كأثما لم تفعل شيئاً (تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) يجعلون حلفكم (دَخَلًا) خديعةً وغروراً وغشاً وغدرًا ومكرًا وخيانة ، وأصل الدخّل ما يدخل في الشيء وليس منه وهو كل شيء غير صحيح ، ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر والخيانة وترك الوفاء بالعهد تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونونهم وتخدعونهم بنقضها (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ) لأجل أن تكون أمة (أَرْبَىٰ) أي أكثر عددًا وأوفر مالاً وهم الحالفون من أمة أو جماعة غيرها وهم المحلوف لهم ، وهذا يعمل الطبقة الاجتماعية ، كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون أكثر منهم وأعزّ وأقوى ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك ، فنهى الله تعالى عن هذا وأنكره (إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ) إنما يختبركم الله بذلك بما أمركم به من الوفاء بالعهد والوعد واليمين ليميز المطيع من العاصي والطيب من الخبيث (وَلْيَكَيِّبُنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) وأقسم وليكيبنن لكم يومئذٍ من الضال ومن المهتدي، ليجازي كلّ عامل بعمله من خير أو شر ، والجزاء من جنس العمل كقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود/١١٨-١١٩ .

٩٣ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مِنْ شَاءٍ وَيَهْدِي مِنْ شَاءٍ وَكَسَلْنَا عَنْكُمْ كُفْرًا تَعْمَلُونَ﴾

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ (مشيئة تكوينية) لخلق الناس باستعداد واحد وجعلهم أهل ملة واحدة مهتدية كالملائكة لا يختلفون ولا يتفرقون بالفسر والجبر والإكراه على الإيمان ، ولكنه سبحانه خلقهم باستعدادات متفاوتة ترك الإنسان وما يختار لنفسه وهو مسؤول ومحاسب على اختياره كقوله ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصافات/٢٤ ، (وَلَكِنْ يَضِلُّ مِنْ شَاءٍ وَيَهْدِي مِنْ شَاءٍ) وَلَكِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ الضلال ويريده ويختار المعصية ويرفض الهداية ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الهداية ويريدها ويختار الطاعة ويرفض الضلال ، فإسناد الضلال والهدى إلى الله لأته مسبب الأسباب ، وهذا لا يبطل تأثيركم في اختيار ما تريدون وبغير ذلك تبطل الرسالة وتلغى الدعوة بل يعطيكم ما تختارون لأنفسكم كقوله ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨ ، عن النبي (ص) : (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهُدَىٰ شَيْءٌ وَخَلِيقٌ إِبْلِيسُ مُرِيَّتًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كثر العمال خبره ٥٤٦ كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨ ولو أجبره الله على الضلالة أو الهداية لما صحّ أن يسأله ويحاسبه لذلك قال بلا فاصل

(وَلْتَسَأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَلْتَسَأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَيَكُونُ جَزَاؤَكُمْ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْتَبِرُ الْإِنْسَانَ ضَالًّا بَعْدَ أَنْ يَسْلُكَ مَخْتَارًا طَرِيقَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ عَنِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦ ، وَيَعْتَبِرُهُ مَهْتَدِيًّا مَتَى سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ مَخْتَارًا مُسْتَقِيمًا عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١ .

٩٤ - ﴿وَلَا تَخْذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

تَقْدِمُ فِي الْآيَةِ ٩٢ مِنَ السُّورَةِ ، يَمِضُ السِّيَاقُ الْقُرْآنِي فِي تَوْكِيدِهِ لِلْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَالْأَيْمَانِ أَيْ (وَلَا تَخْذُوا أَيْمَانَكُمْ) أَيْ حَلْفَكُمْ (دَخَلًا بَيْنَكُمْ) وَسَبِيلَةً لِلخُدَيْعَةِ وَالغِشِّ وَالغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالخِيَانَةِ بَيْنَكُمْ وَبِثِ الطَّمَأِينَةِ الْكَاذِبَةِ الْمُؤَقَّتَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَنْحَرِفُ مَسِيرَةَ حَيَاتِكُمْ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بَعْدَ ثُبُوتِهَا عَلَيْهِ ، وَتَعْتَوْنَ بِهَذَا الْغِشِّ وَالْكَذْبِ النَّاسَ لِتَحْصُلُوا عَلَى بَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا الَّتِي لَدَاتِهَا قَصِيرَةٌ وَتَبْعَاتُهَا طَوِيلَةٌ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ النحل/١٠٥ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْاسْتِخْفَافِ بِهَذِهِ الْعَهْدِ ﴿وَلَا تَخْذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ الْبَقَرَةُ/٢٣١ ، (فَتَزِلَّ قَدَمٌ) وَجَاءَتْ قَدَمٌ نَكَرَةٌ وَبَصِيغَةٌ الْمَفْرَدُ لِلتَّنْبِيهِ بِأَنْ زَلَّ قَدَمٌ وَاحِدَةٌ أَيْ قَدَمٌ كَانَتْ عَزَّتْ أَوْ هَانَتْ مَحْذُورٌ عَظِيمٌ فَكَيْفَ بَزَلُّ أَقْدَامٍ كَثِيرَةٌ؟! ، وَكَرَّرَ سَبْحَانَهُ لِيَهْدِدَ الْمَاكِرَ الْغَادِرَ مَبَالِغَةً فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ الْعَهْدِ وَالْأَيْمَانِ (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)

فَتَزِلَّ: فَتَسْقُطُ وَتَنْزَلِقُ أَقْدَامَكُمْ وَتَنْحَرِفُ عَنْ طَرِيقِ الْاسْتِقَامَةِ بَعْدَ رَسُوخِهَا فِيهِ ، فَزَلَةُ الْقَدَمِ بَعْدَ ثُبُوتِهَا مِثْلُ لِنْقُضِ الْيَمِينِ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ فَإِنَّهُ يَنْقَلِقُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَالِ الْخَيْرِ إِلَى حَالِ الشَّرِّ وَهُوَ مَزْلِقٌ خَطِيرٌ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِحْدَادِ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى الْمُؤْمِنَ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ وَثُوقٌ بِالذِّينِ ، وَاتَّخَذَ الْأَيْمَانَ غِشًّا وَخُدَاعًا يَزْعُزِعُ الْعَقِيدَةَ فِي ضَمِيرِ النَّاسِ وَلَا يَثْبُتُ لَهُمْ قَدَمٌ عَلَى الْحَقِّ (وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وَيَصِيبِكُمُ الْعِقَابُ الدِّينِيَّ الْعَاجِلَ الَّذِي يَسُوؤُكُمْ وَيُؤْذِيكُمْ لِأَنَّكُمْ صَرْتُمْ مَوَانِعَ تَصُدُّكُمْ عَنْ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ نَقْضِ الْعَهْدِ وَزَلْلِ الْأَقْدَامِ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ تَرَكَ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ وَالْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ وَالْهَوَى ، كُلٌّ مِنْ صَدٍّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَجِبَ رَدْعُهُ بِالْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ وَالنَّصَاحِ أَوْلَى فَإِنْ تَابَ وَأَنَابَ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ وَإِلَّا وَجِبَ جِهَادُهُ وَمَقَاوِمَتُهُ وَإِحْسَاسُهُ بِقُدْرَةِ فِي الدُّنْيَا (وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ كَبِيرٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . فَائِدَةٌ: وَقَدْ دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ جَمَاعَاتٌ وَشُعُوبٌ بِسَبَبِ مَا رَأَوْا مِنْ وِفَاءِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهُمْ وَوَعْدِهِمْ ، وَمِنْ إِخْلَاصِهِمْ فِي أَيْمَانِهِمْ وَحَلْفِهِمْ ، وَمِنْ نِظَافَتِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ .

٩٥ - ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

هو تحذير بعد تحذير من الاستخفاف بعهد الله والاستخفاف بالأيمان التي يلحف بها الحالفون باسمه تعالى. المعنى : لا تستبدلوا ولا تبيعوا عهد الله ورسوله وعهد الناس بثمن ومتاع قليل، والدنيا كلها متاع قليل مهما كثر المتاع فهو تافه زهيد ، لأن لذاته قصيرة وهمومه كثيرة وتبعاته طويلة وتنقضوا العهد الموثق لأجل متاع قليل ! (إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ما عند الله من الأجر والتكريم على الوفاء بالعهد خير لكم من متاع الدنيا العاجل المؤقت إذا كنتم تعلمون الحقيقة التي تقول : لا تؤثروا منافعكم الخاصة وتفضلوها على الحق العام فتبيعوه بالمال أو الجاه أو أي متاع فإن الدنيا ليست بشيء في جنب ما أعده الله في الآخرة للمطيعين في الدنيا ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى/١٦-١٧ ، في غرر الحكم: (مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلَا يَحْزَنُكُمْ الكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ!؟)

٩٦ - ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 مَا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ مَتَعِ الدُّنْيَا (يَنْفَدُ) يَفْنَى وَيَزُولُ لِأَنَّ حَيَاتِكُمْ الْمَادِيَةَ قَائِمَةٌ عَلَى التَّحَوُّلِ وَالتَّبَدُّلِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَكُلُّ مَنفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مُؤَقَّتَةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ ، أَمَا الْمَنفَعَةُ الْآخِرَوِيَّةُ خَالِصَةٌ مِنْ كُلِّ مَنَعَصٍ (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) فَإِنَّهُ بَاقٍ دَائِمٌ فَآثَرُوا مَا يَبْقَى فِي الْآجِلِ عَلَى مَا يَفْنَى فِي الْعَاجِلِ (وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ) لِمَانَعَتِهِمْ هُوَ أَنْفُسُهُمْ فَصَبَرُوا عَلَى الْمَعَاصِي وَعِنْدَ الْمَصَائِبِ وَعَلَى الطَّاعَاتِ لَوَجْهِ اللَّهِ وَفِي جَنْبِ اللَّهِ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَيْضاً فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فَيَرَى اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَيَجْزِيَهُمْ بِأَحْسَنِهَا وَيُثَبِّتُهُمْ أَجْمَلَ الثَّوَابِ كَقَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الأحقاف/١٦ ، لِأَنَّ الصَّبْرَ فِي اللَّهِ يُوْجِبُ كَمَالَ أَجْرِ الْعَامِلِينَ ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ).

٩٧ - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 مِنْ فِعْلِ الصَّالِحَاتِ بِأَيَّةِ نَسْبَةٍ كَانَتْ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى بِشَرَطِ الْإِيمَانِ (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لِأَنَّ الْعَمَلَ بِلَا إِيمَانٍ حَابِطٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا أَثَرَ وَلَا وَزْنَ فِي مِيزَانِ اللَّهِ (مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ الْمُؤْمِنَانِ مُتَسَاوِيَانِ فِي قَاعِدَةِ الْعَمَلِ وَفِي التَّكْلِيفِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْعَقُوبَاتِ وَالْمَكْفَأَةِ وَالْجَزَاءِ وَفِي صَلْتِهِمَا بِاللَّهِ وَفِي جَزَائِهِمَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ ، مَعَ أَنَّ لَفْظَ (مَنْ) حِينَ يُطْلَقُ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِلَّا أَنَّ النَّصَّ يَفْصَلُ (مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْمَهْمَةِ الْمُؤَثِّرَةِ لِأَنَّ الْكُلَّ مِنْ آدَمَ مِنْ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) الْعَمَلُ الصَّالِحُ لَا يَبْدُ لَهُ مِنْ قَاعِدَةٍ أَصِيلَةٍ يَتَكَبَّرُ عَلَيْهَا وَهِيَ قَاعِدَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ التَّوْحِيدِيَّةُ الْخَالِصَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ قِيَمَتَهُ وَتَحَدِّدُ غَايَتَهُ ، وَالْقُرْآنُ دَائِمًا يَقْرُنُ الْإِيمَانَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الدِّينَ حُسْنَ الْعِبَادَاتِ وَحُسْنَ الْمَعَامَلَاتِ أَي (أَخْلَاقٍ) عَنِ النَّبِيِّ (ص): (الْإِسْلَامُ حُسْنُ الْخُلُقِ) كَنَزِ الْعَمَالِ خَيْرِ ٥٢١٥ ، وَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ مَعَ الْإِيمَانِ جَزَاؤُهُ (حَيَاةً طَيِّبَةً) عَلَى إِطْلَاقِ مَعْنَاهَا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى عَلَى السَّوَاءِ ، وَلَا تَتَحَدَّدُ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ بِالثَّرَاءِ الْمَالِيِّ فَقَدْ تَكُونُ بِهِ وَقَدْ لَا

تكون (وقليل يكفي خير من كثير يلهي) ولكن تتحدّد بالجانب النفسي والاطمئنان الروحي والعلاقة الإيمانية الطيبة المتبادلة بين العبد وربّه كقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ النساء/ ١٣٤ ، (فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) حياة الاعتدال والاستقامة والتوازن بين مطالب الدنيا والآخرة ومطالب الرّوح والجسد والأمل والعمل والحياة والموت، حياة مشتركة في الدنيا بالقناعة والرّزق الحلال والاستقامة في القول والعمل واطمئنان القلب وانسراح الصدر والتوفيق لصالح الأعمال والرضا بما قسم الله (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي وفقاً لأحسن عمل عملوه في حياتهم دون سواه، وما تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة و(لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ). فائدة : دلّت الآية على أن كلاً من الذكر والأنثى يقاس بعمله عند الله، وأنه لا فضل للرجل على المرأة إلاّ بالتقوى ﴿إِنَّ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال/ ٣٤ ، فإن اتّقت هي وعصى هو فهي خير منه عند الله كقوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/ ١٣ ، (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ) هو حكم بالجزاء الأحسن على العمل الصالح مطلقاً ، بعد الحكم الخاص بالجزاء الحسن على الوفاء بالعهد ، والصبر على احتمال تبعات الوفاء به.

٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

إذا أردت تلاوة القرآن الكريم فأطلب من الله (قبل التلاوة ، وبعدها وما دمت تقرأه) أن يعيدك ويجيرك ويحميك ويطهر الأجواء النفسية وأجواء التلاوة من وسوسة الشيطان الرجيم لتسلم في التلاوة من الزلل والخطأ في الفهم والتأويل (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) الاستعاذة : الاعتصام بالله والالتجاء إليه فإسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان (الرجيم) المطرود المُبعد عن رحمة الله كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدقك عن التدبّر في آيات القرآن والعمل بما فيه كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/ ٢٠١. فائدة : الاستعاذة من الشيطان الرجيم راجحة ومستحبة في كلّ الأحوال والأعمال بخاصة عند تلاوة القرآن ، والاستعاذة تُرجم الشيطان بمشاعر الإيمان التي يستحضرها القارئ للقرآن ويستعين على ذلك بالله وبهذا تؤثر كلمات الله أثرها الطيب في نفسه ، والسلاح الأقوى للسيطرة على وساوس الشيطان وحزبه من الجن والإنس هو الإخلاص في الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/ ٣، عن الإمام علي (ع): (بِالإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخُلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠ كقوله ﴿لَا غُوبِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ص/ ٨٢-٨٣

٩٩ - ١٠٠ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ (سُلْطَانٌ) تسلّط وقدرة على المؤمنين بالإغراء والإغواء لأنهم في حفظ الرحمن ويغلقوا منافذ الشيطان ولا يتبعوا أهواءهم وأنفسهم الأمارة بالسوء ولا يقبلون وساوس الشيطان (وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يعتمدون على الله في كلِّ الأحوال وفيما ناهم من شدائد. ١٠٠- (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) إِنَّمَا تَسْلُطُهُ وَسِطْرَتُهُ عَلَى الَّذِينَ (يَتَوَلَّوْنَهُ) أي يطيعونه ويتخذونه ولياً وناصراً يدبّر أمورهم كما يريد وهم يطيعونه ويستسلمون له بشهواتهم (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم ، فالشيطان متسلط على كلا الفريقين المشركين والعاصين، (هُمْ بِهِ) بسبب طاعة الشيطان (مُشْرِكُونَ) بالله ، وليس من الضروري أن يجعلوا الشيطان مع الله إلهاً آخر بشكل صريح ، فإن يسير الرياء شرك ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨. فائدة: ١- سؤال : نلاحظ أثر الشيطان وسلطانه وقدرته على بعض المؤمنين ؟ قلنا : أجل عن جهل وغفلة ودافع هوى ولكن المؤمن حقاً وصدقاً إذا عصى تاب وندم وأتاب ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الشورى/٢٥. ٢- ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/٣، ومن توكل على الله كفاه لأنه وكيله ، ومن لم يتوكل على الله فهو من أولياء الشيطان وأنصاره وأعوانه لأن الشيطان كفيله ووكيله كقوله ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف/٣٦ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ التَّعَوُّذَ تَطْهِيرُ الْقَلْبِ مِنَ الْكُذْبِ وَالْغَيْبَةِ وَالْبُهْتَانِ ، تَعْظِيمًا لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ) وعنه (ص): (أغلقوا أبواب المعصية بالاستعاذة، وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية) البحار ٣١٦/٩٢، وفي الخبر : (مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فِي الْيَوْمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا يَرُدُّ عَنْهُ الشَّيَاطِينَ).

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُتَّبِعٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت عليها الأمة، وعلى ضوء الحكمة والمصلحة لتبدل الأحوال التي دعت إليها ، وانتهى أجل الأولى واستنفذت أغراضها (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلِحُ لِلْعِبَادِ وَمَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَفْسُدُهُمْ ، فإن مثل هذا الكتاب كمثل الدواء يُعْطَى مِنْهُ لِلْمَرِيضِ فِي حَالَةٍ مَعِينَةٍ حَتَّى يَتِمَّ الشِّفَاءُ ، ثم يستبدل بدواء آخر في حالة أخرى بما يصلح أمره ، فكما يستبدل دواءه كذلك يستبدل طعامه من حالة إلى حالة أخرى مع تغيّر الأحوال والأزمان ، وهكذا الشرائع تتغيّر مع تغيّر الأحوال والظروف وتطوّر عقول الناس ، وكذلك القوانين الوضعية تتغيّر آناً بعد آناً لما هو أصلح للإنسان ، أمّا القرآن الكريم فهو حكم ثابت مع تغيّر الأزمان والأحوال لأنه قَمَّةُ الْقَمَمِ وَذَمَّةُ الدَّمَمِ فهو تشريع يرقى بالأمم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة.

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) قال الجاهلون إِنَّمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَاذِبٌ عَلَى اللَّهِ تَأْمُرُ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ ثُمَّ تَنْهَى عَنْهُ غَدًا وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَا تَبَدَّلَ وَلَا تَغَيَّرَ شَيْءٌ ! (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي هَذَا التَّبَدُّلِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مِنَ الْمَصْلُحَةِ أَنْ تَتَبَدَّلَ بَعْضُ الْأَحْكَامِ بِتَبَدُّلِ الزَّمَانِ وَالْأَحْوَالِ ، فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً. فائدة : لله سبحانه أحكام أبدية تبقى ما بقي الناس لا

يجوز فيها النسخ والتغيير ولا خلاف ولا اجتهاد فيها كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والصلاة والصيام والحج والزكاة .. وأيضاً لله سبحانه أحكام أممية لا أبدية ، أي لها أمدٌ معيّن تستدعي الحكمة أن يشرعها لظروف معينة ، وأيضاً تستدعي الحكمة أن لا يصرّح سبحانه بهذا الأمر عند إنشاء الحكم حتى إذا انتهى الأمر ارتفع الحكم وشرّح حكماً آخر مكانه على وفق الحكمة والمصلحة أيضاً ، ويسمى هذا نسخاً كقوله ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِنْهَا﴾ البقرة/١٠٦ ، إنّ الله هو الطبيب والقرآن هو الدواء يعالج به من مرض القلوب ﴿وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يونس/٥٧ ، ويعالج الله عز وجل قلوب العباد بتبديل آية وانزل آية مكانها ، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/٨٢ .

١٠٢ - ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

قل يا محمد لهؤلاء الغافلين الذين لا يعلمون قُلْ لهم إنما نَزَّلَ القرآن (رُوحُ الْقُدُسِ) جبريل الأمين الطاهر من أثقال المادة ، المنزّه عن الخطأ ، نَزَّلَهُ من عند الله بالصدق والعدل ، وَلُقِّبَ جبريل بِرُوحِ الْقُدُسِ لأنه نَزَلَ بِأَقْدَسِ الأَقْدَاسِ الذي يطهّر النفوس وهو (القرآن الكريم) على مُحَمَّدٍ (ص) (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) لِيُثَبِّتَ المؤمنين على منهج الله بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ، مع إيمانهم ، يثبتهم لأن قلوبهم ثابتة وموصولة بالله فهي تدرك أنه من عند الله فتثبت على الحق وتطمئن على الصدق (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (هُدًى) كتاب هداية و﴿يَهْدِي لِيَّ هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء/٩ ، (وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا واستسلموا لحكمه تعالى بعلم من غير اعتراض ، فائدة : هناك إيمان ثابت أصيل لا يتغير ولا يتحوّل لأنه قائم على الفهم والعلم وإيمان صحيح وقلب سليم ، وهناك إيمان متزلزل ومتذبذب متغيّر متقلّب مع تغيّر الأحوال كقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ رَأَلَتْ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار/٢/١٠٥ ، والحق والباطل لا يعرفان بالرجال .

١٠٣ - ﴿وَلَقَدْ عَلَّمَهُمُ الْقُرْآنَ لِيُثَبِّتَ بِهِ لُغَتَهُمْ وَلِيُتَقَدَّرَ بِهِ أَسْمَاءُهُمْ وَلِيُؤْتُوا بِهَا كَلِمَاتٍ مَبْدُوعَةٍ وَكَلِمَاتٍ مَعْرُوفَةٍ وَوَصَّيْنَاهُمْ لَعَلَّ يَتَّقُونَ﴾

قد علمنا دعوى المشركين إنّ هذا القرآن تعلمه مُحَمَّدٌ من فلان الفلاني ثمّ ينسبه هو إلى الله افتراء عليه فردّ سبحانه عليهم بقوله (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) (لِسَانُ) (اللغة والكلام) الَّذِي (يُلْحِدُونَ) يميلون عن القصد وينسبون إليه أنه يعلمه ، الأَعْجَمِيٌّ : في لسانه لكنته أي لا يفصح في كلامه والعجمي منسوب لبلاد العجم غير العرب ، يزعمون أنه علّمه وينسبون إليه التعليم هو أعجمي يجهل اللغة العربية (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) وَهَذَا الْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ وَاضِحٌ بل في غاية البلاغة والفصاحة ودقة في البيان والعلوم والأحكام ، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي

وهو عبد رومي فيما يزعمون ، أنه يعلم مُجَدِّدًا هذا الكتاب العربي المتسامي في بلاغته ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق فنون بلاغة هذا الكتاب المعجز؟!

١٠٤ - ١٠٥ ﴿لِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿

إنَّ الذين لا يصدقون بهذا القرآن ولا بنبوَّة محمد (ص) بعد الحجَّة الدامغة والبرهان القاطع (لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ) لا يوفقههم الله لإصابة الحق ولا يَهْدِيهِمُ للتي هي أقوم ولا يثبتهم بدليل ، لأن الهداية متعلقة بالإيمان بآيات الله ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التغابن/١١ ، فالذي لا يمتلك مقدمات الهداية لا يحصل عليها ولا يستحقها كقوله ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَأِنَّمَا أَصِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ سبأ/٥٠ ، في غرر الحكم : (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهَدَى مَنْ يَعْلِبُهُ الْهُوَى ؟!) ، (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولهم في الآخرة عذاب موجه وهذا تهديد على كفرهم . ١٠٥ - (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) إِنَّمَا يَخْتَرَعُ الكذب ويتفنن بممارسته ويتفترس به وله القدرة على محادعة النَّاسِ ، ويتقوَّل الأباطيل الذين لا يصدقون بدلائل الله تعالى وآياته المنتشرة في الآفاق والأنفس لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ، فالكذب جريمة فاحشة يحق الإيمان ومفتاح كلِّ شرِّ لا يقدم عليه مؤمن لأنه ينافي الإيمان (وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) فهم أصلٌ في الكذب ومن سواهم تبع لهم ، عن النبي (ص): (لَا يَكْذِبُ الْكَاذِبُ إِلَّا مِنْ مَهَانَةٍ نَفْسِهِ عَلَيْهِ) البحار ٧٧/٢١٢ . فائدة : والفرق بين الافتراء والكذب: إنَّ الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه الأمانة بالسوء ومهارته الفنية فيه ، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه بلا مهارة ولا فن .

١٠٦ - ١٠٩ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ، لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿

من تلفظ بالكفر وارتد عن الدين بعدما دخل فيه ، واستثنى من ذلك الحكم الدامغ برخصة شرعية ضمن ظروف موضوعية ضاغطة تسمى (التقيية) (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) إلا من تلفظ بكلمة الكفر مُكْرَهًا وقلبه مملوء بالإيمان ومطمئن بذكر الله والتصديق بمنهج الله ، والآية تغليظ لجريمة المرتد لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتد عنه إثارةً للحياة الدنيا على الآخرة. سبب النزول : أخذ المشركون عمار بن ياسر الصحابي المؤمن فلم يتركوه حتى سب النبي (ص) وذكر آهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى رسول الله (ص)

قال ما وراءك شيء ؟ قال شرُّ ما تركت حتى نلت منك وذكرت آهتهم بخير قال كَيْفَ بَجَدُ قَلْبَكَ ؟ قال مطمئن بالإيمان قال إن عادوا فعد ، إِنَّ عَمَّارًا مُلِئَ بِالْإِيمَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاخْتَلَطَ

الإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ فَنزَلَتْ، الأمثل ٨/٣٠٣، عن ابن عباس : في الآية (فَأَمَّا مَنْ أُكْرِهَ فَتَكَلَّمَ بِلِسَانِهِ وَخَالَفَهُ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ لِيُنْجُوَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُؤَاخِذُ الْعِبَادَ بِمَا عَقَدَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ) عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ التَّقِيَّةَ تُرْسُ الْمُؤْمِنِ (حماية المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له) نور الثقلين ٨٩/٣ (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا) أقبلت نفسه على الكفر وانشرح صدره له وانسجم معه طائعاً مختاراً (ومن لا يليق به الإيمان يليق به الكفر) ! (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ولهم غضب شديد مع عذاب جهنم. ١٠٧- (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) ذلك العذاب والغضب بسبب أنهم آثروا الحياة الدنيا العاجلة واختاروها على نعم الآخرة الآجلة ، لأنهم لا يدينون بمبدأ أو ضمير ولا يفهمون ويتكلمون إلا لغة المنافع والأرباح ولا يفكرون بحلال الله وحرامه.. أولئك شرُّ أهل الأرض في نفوسهم وفي أقوالهم وأفعالهم (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الضلال والفساد لأنه لا يعترفهم مهتدين بعد أن استحبوا الكفر على الإيمان ، ولا يهديهم بمعنى لا نصيب لهم عنده.

١٠٨- (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) ختم على قلوبهم فلا يعقلون حجةً يهتدون بها إلى الآخرة ، وختم على سمعهم فلا تسمع علم يصلحهم ويحييهم ، وعلى أبصارهم فلا يرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ليتعضوا بها عن النبي (ص) : في قوله (طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (الطَّابِعُ مُعَلِّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَإِذَا انْتَهَكَتِ الْحُرْمَةُ وَعُمِلَ بِالْمَعَاصِي وَاجْتَرَى عَلَى اللَّهِ بَعَثَ اللَّهُ الطَّابِعَ عَلَى قَلْبِ الْعَاصِي (فيختم عليه ويقفل) فَلَا يَعْقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا) كثر العمال خبر ١٠٢١٣ كقوله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ مجذ/ ٢٤ ، فجعل عليها غلافاً حاجزاً يحجز بينهم وبين الهداية فلا تدعن للحق ولا تسمعه ولا تبصره (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) عمّا يراد بهم في الآخرة المستغرقون في الغفلة ، حيث أخذتهم شهوات الدنيا المؤقتة عن التدبّر بعواقب الأمور (لَا تَعْمَلُوا فُلَيْسَ بِمَعْقُولٍ عَنْكُمْ) وَالْعَقْلُ مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ. ١٠٩- (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ) حقاً ولا شك ولا ريب وهم بمنزلة اليمين أنهم الخاسرون من كلِّ الوجوه في الآخرة لأنهم ضيعوا عمرهم الثمين رأس مالهم في الدنيا، عن النبي (ص) : (الْخَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩.

في نهج البلاغة كتاب ٣١: (مِنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ)

فائدة: ١- (طَبَعَ اللَّهُ..) سبب الختم على قلوبهم أي أغلق قلوبهم وأقفلها لأنهم اختاروا الدنيا غاية لأنفسهم فوقفت حواسهم وعقولهم عندها لا تتخطاها ، فأصبحوا لا يدينون بمبدأ أو ضمير ولا يتكلمون إلا لغة المنافع والأرباح أولئك شرُّ أهل الأرض ذاتاً وعملاً ، فاستحقوا الطبع على قلوبهم. ٢- (مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا) انقبضت نفسه للإيمان بينما انشרכת للكفر ، وصفهم

الله تعالى بستِ صفات: الغضب من الله، والعذاب العظيم، واختيارهم الدنيا ومحرماتها على الآخرة وتكريمها، وحرمانهم الهدى، والطبع على قلوبهم، وجعلهم من الغافلين. ٣- خطورة الارتداد: ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة وحساب للربح والخسارة، ومتى آمن القلب بالله واستدوق جمال العلاقة معه سبحانه فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر سلبي من مؤثرات هذه الأرض، فللأرض موازينها وللعقيدة موازينها ولا يتداخلان، وليست العقيدة الإسلامية ثوباً يلبسه الإنسان زمناً ثم يخلعه ويستبدله بغيره وإنما هو أشبه بجلد الإنسان الثابت معه والخاص به وبصورته وشكله وبالصبغة التي صبغها الله عليها فهو لون واحد لا يتغير ولا يتبدل ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران/٨٥. ٤- هناك نوعان من الكافرين بعد إيمانهم: أ- إعلان كفرهم وبراءتهم من الإسلام وهو مكره وقلبه مطمئن بالإيمان، إنهم مارسوا التقية كقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران/٢٨، عن النبي (ص): (رفع عن أمي أربعة خصال: ما أخطأوا وما نسوا وما أكرهوا عليه وما لم يطيقوا كقوله (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)) الميزان ٣٥٩/١٢.

والتقية: رخصة شرعية عند الضرورة ولها أحكامها الفقهية كقوله ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ غافر/٢٨، وَعِنْدَ الضَّرُورَاتِ تُبَاحُ الْمَحْضُورَاتِ عَنْ النَّبِيِّ (ص): (رُفِعَ عَنِ أُمَّيَّيَ أَرْبَعَةٌ خِصَالٌ: مَا أَخْطَأُوا، وَمَا نَسُوا، وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ، وَمَا لَمْ يُطِيقُوا كَقَوْلِهِ (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (النحل/١٠٦) الميزان ٣٥٩/١٢، والتقية: (ليحقن بها الدم فإذا بلغت التقية الدم فلا تقية) عن الإمام الصادق (ع) وسائل الشيعة ٣٨٣/١١، ب- الذين تنشرح صدورهم للكفر وتنقبض عن الإيمان وعليهم حكم المرتدين. ٥- عن النبي (ص): (جَآمِلُوا الْأَشْرَارَ بِأَخْلَاقِهِمْ تَسَلَّمُوا مِنْ غَوَائِلِهِمْ وَحَفْدِهِمْ وَبَابِنُوهُمْ) (خالفوهم) بِأَعْمَالِكُمْ كَيْلًا تَكُونُوا مِنْهُمْ) البحار ١٩٩/٧٤.

٦- روي: (أَنَّ مَسِيلَةَ الْكُذَّابِ أَخَذَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، فَمَا تَقُولُ فِيَّ؟ فَقَالَ أَنْتَ أَيْضاً فَخَلَّى سَبِيلَهُ، ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِ مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ فَمَا تَقُولُ فِيَّ؟ قَالَ أَنَا أَصَمُّ فَقَتَلَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (ص) فَقَالَ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ أَحَدَ بِرُخْصَةِ اللَّهِ تَعَالَى (التقية) وَأَمَّا الثَّانِي فَقَدْ صَدَعَ بِالْحَقِّ فَهَيِّنًا لَهُ) التفسير القرآني للقرآن ٣٧٦.١/٤

١١٠ - ﴿لَمَّا أَنْ مَرَّ بِكَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا فَجَاهَدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفْعٌ مَرْحِمٌ﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدٌ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا الْمُشْرِكُونَ أَيْ عَدْبِهِمُ الطَّغَاةَ وَصَدْوَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ بِالْعَذَابِ النَّفْسِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ وَالْمَالِيِّ قَبْلَ الْهَجْرَةِ (ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبِرُوا) عَلَى الْمَشَاقِّ وَتَحْمَلِ مَعَانَاةِ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ بَعْدَ أَنْ سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةَ (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفْعٌ مَرْحِمٌ) أَي بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْهَجْرَةِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى الْجَرِيمَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ

عَزِيْرٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ المائدة/٩٥ ، الخلاصة : من آمن برسول الله (ص) وبقي في مكة ولم يهاجر إلى المدينة لالتحاق بالرسول بسبب استضعافه وعجزه ، وأعطى المشركين بعض ما أرادوا منه من كلمة الكفر بألسنتهم وقلبه مطمئن بالإيمان ثم تاب وهاجر وجاهد بين يدي النبي (ص) فإن الله يغفر لهم ذلك التقصير ويرحمهم ، عن النبي (ص) : (أَفْضَلُ الْهَجْرَةِ أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ اللَّهُ) كثر العمال خير ٤٦٢٦٣ . فائدة : (حكم المرتد) الآية تقبل توبة المرتد وتشير إلى من كان مسلماً ثم ارتد ، وهو المرتد عن الفطرة ويسمى المرتد الفطري ، ويكون هذا غدة سرطانية في المجتمع ويعمل على تفكيك المجتمع الإسلامي ويضع الشكوك والشبهات في عقيدة المسلمين لذلك حكمه القتل ، وهناك مرتد عن الملة وهو في الأصل من أبوين غير مسلمين ثم أسلم ثم ارتد ، هذا حكمه أخف فيطلب منه التوبة أو يخرج من بلاد المسلمين أو يُقتل لأنه يكون ضراً وخطراً على عقيدة المجتمع الإسلامي . كقوله (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) البقرة/٢١٧

١١١ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يَظْلُمُونَ﴾

ذكرهم يوم القيامة حين تخاصم كلُّ نفس وتدافع عن ذاتها سعياً في خلاصها ولا يهتمها شأن غيرها كقوله ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ عبس/٣٧ ، (وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ) تعطي كلُّ نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان (وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ) لا ينقصون أجورهم بل يعطونها كاملة وافية ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب ، يروى : (ينادي يوم القيامة) ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف/٤٤) والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة ، ومن ظلم كرهت أيامه وتنغص عيشه .

١١٢ - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ

لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

الأمثال تُضْرَبُ لِلإعتبار ، إنه مثل وإن نزل بخصوص السبب ولكن أريد له عموم المعنى ، لبيان سنة الله الجارية على الجميع في الماضي والحاضر . الخلاصة : إنهم مجتمع أنعم الله عليه بأنواع النعم في غنى ورفاهية (كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً) كان المجتمع يعيش في أمن في البلاد وطمانينة في نفوس العباد ، فيكون الأمن من خارج النفوس ، والطمانينة من داخلها لا يخيفها شيء من مخاطر الطبيعة أو من مخاطر البشر (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) تأتيها الخيرات والأرزاق (رَغَدًا) بسعة وكثرة من كلِّ الجهات ونوعيات طيبة وجيدة ومفيدة ورخيصة (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) فكفروا بالنعم والمنعم وبطروا وفسدوا وظلموا ولم يشكروا الله على ما رزقهم من الخيرات كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/١٨٢) ، (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْحَوْفِ) سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان وبدل الله نعمتهم نقمة وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان الدائم المتصل بالتعقيدات والمنغصات (بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) بسبب كفرهم ومعاصيهم وظلمهم ، فتكون العُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ الْجِنَايَةِ ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَالَّذِي لَا يُقَدَّرُ النِّعْمَةُ لَا يُقَدَّرُ الْمُنْعَمُ كقوله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الأنبياء/١١ ، وقوله ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ الكهف/٥٩ ، وقوله ﴿وَكَايِنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنِّي الْمَصِيرُ﴾ الحج/٤٨ ، بالشكر تدوم النِّعْمُ وبالمعاصي تزول النِّعْمُ ولو بعد حين. فائدة :١- كان أهل القرية آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي فإذا امتنوا موارد العيش اطمأنوا !! وكان يأتيهم الرزق الكثير من سائر البلدان للدلالة على الرفاهية ولكنهم ﴿بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إبراهيم/٢٨ ، (فَأَذَاقَهَا) فعمهم الله بالجوع وَالْحَوْفِ ، ويجسّم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباساً يستذوقونه ! لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجسد ، وأصل الذوق بالفم ثم استعير للبلاء والاختبار ، فكما استذوق الطعام المادي كذلك استذوق البلاء المعنوي والحسي ، وذلك أن الطغاة من أهل مكة أذاقوا النبي (ص) ألواناً من الأذى فدعا عليهم (اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَيْنِ يُوسُفَ) ، فاستجاب الله دعوته وأصابهم شدة أذهبت كل شيء ، فأكلوا الكلاب والجيف ، تفسير الكاشف ٤/٥٥٩ ، أما الخوف فقد كان من قوة جيش المسلمين ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال/٦٠ ، وعنه (ص) : (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ). ٢- (الاستدراج) كقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ آل عمران/١٧٨ في نهج البلاغة حكم ٢٥ : (يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ) ، وعنه (ع) : (اتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ) نهج البلاغة خطبة ١٥١ . ٣- (لباس الجوع) سُمِّيَ الجوع والخوف لباساً لأنه يظهر من الهزال وشحوب اللون وضيق الحال ما هو كاللباس الذي يحيط بالبدن وكذلك الجوع والخوف يحيطان بكل جزء من حياة الإنسان.

١١٣ - ١١٤ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَكَلُوا مِنَّا مَرَرَةً كَمَا اللَّهُ حَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَنَا تُعْبَدُونَ﴾

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ (ص) بِالآيَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَهُوَ (رَسُولٌ مِنْهُمْ) يعرفون أصله ونسبه وصدقه ، ويدرون أنه إنما يدعوهم لأمرٍ رسالي عالي المضامين ويهديهم إلى سبيل الرِّشَادِ وَيُرِّي نَفْسَهُمْ مِنْ مَخَلَّفَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) وكل من ظلم نفسه ظلم غيره ، وترتيب العذاب على التكذيب جرى على سنة الله كقوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء/١٥ ، فأصابتهم الشدائد والنكبات وَهُمْ ظَالِمُونَ لأنفسهم بارتكاب المعاصي وَظَالِمُونَ

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا) كُلُوا من نعم الله التي أباحها لكم كونها حلالاً طيباً (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أشكروا الله على نعمه الجليلة إن كُنتُمْ مخلصين في إيمانكم.

فائدة: ١- روي: (إن رؤساء مكة كاتبوا رسول الله (ص) حين جهدوا وجاعوا وقالوا هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان؟ فدعا لهم رسول الله (ص) وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون). ٢- الظلم ثلاثة: ١- ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى كقوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣، ٢- ظلم بينه وبين الناس كقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى/٤٠، ٣- وظلم بينه وبين نفسه كقوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فاطر/٣٢. مفردات الراغب الأصفهاني ٣٢٨.

١١٥ - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدّم ولحم الخنزير وما سواها حرمها النبي (ص) بأمر من ربه (وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإن فيه أذى معنوي للنفس وتلوّث للروح وله انعكاسات سلبية على الفكر والسلوك وأصل الإهلال: الصياح لرؤية الهلال ثم أطلق على تكبير الله (فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (بَاغٍ) الباغى الذي يفعل الحرام من غير ضرورة، (عَادٍ) العادي من تعدّى على مقدار الضرورة وسدّ الجوع، فَمَنْ اضْطُرَّ لأكل ما حرّم الله من المذكورات حفاظاً على حياته، من غَيْرِ بَغْيٍ ولا عدوان فَإِنَّ اللَّهَ لَن يُوَاحِدَهُ على ذلك لأنه واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً و (عِنْدَ الصُّرُورَاتِ تُبَاحُ الْمَحْضُورَاتِ) كقوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/٧٨. فائدة: ١- (وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) كلُّ ما أكل يذكر عليه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تنتظم خلاياه وتحصل الاستفادة منه وتنفي سلبياته وتخلص من أضراره ما عدا السام القاتل. ٢- ذكرت الآية بعض المحرّمات والرسول الكريم (ص) حرّم غيرها وفصل المحرّمات وبين أسباب حرمتها الصحيّة والاقتصادية والنفسية.

١١٦ - ١١٧ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكَ الْكُذْبَ هَذَا حَلالًا وَهَذَا حَرَامٌ لَتتَّبِعُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فلا تكذبوا على الله فتقولوا هذا حلالٌ وهذا حرامٌ من هوى أنفسكم من غير حجة ولا برهان، ولم تكونوا تعلموا بدين الله ولم تحتكموا فيها إلى شرع أو عقل سليم وذلك البدعة في الدين (لَتتَّبِعُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ) لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ) إِنَّ الَّذِينَ يَخْتلقون الكذب على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم وهو خسارة في الدنيا والآخرة. ١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل وكلُّ

متاع الدنيا قليل مهما كثر وتنوع ، لأنه مشوب بالمنغصات وهو مؤقت ولهم في الآخرة عذاب مؤلم كقوله ﴿مُتَعَمِّمٌ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لقمان/٢٤. فائدة : الحلال ما أحله الله والحرام ما حرّمه الله ولا يجوز لأحد أن يقول هذا حلال أو حرام بلا دليل ولا برهان ولا كتاب ولا سنة ، فلا بد من العلم بدين الله ومن قال برأيه وما تشتهي نفسه أي يفسر الدين برأيه ، فقد اكتسب إثماً كبيراً وهذا نهي عن القول بالجهل في جميع الأحوال ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦ ، وعن النبي (ص) : (أَجْرُكُمْ عَلَى الْفَتْوَىٰ أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ!) البحار/٢/١٢٣ ، في غرر الحكم : (الْعِلْمُ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَبِأَلِّ ، وَالْعَمَلُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ضَلَالٌ) ، وهذا تنبيه للقضاة والمفتين كيلا يقولوا بلا علم في دين الله تعالى ، وكل من أسند إلى الله حكماً أو قولاً بلا علم أو فسر القرآن برأيه ، فقد افترى وتجراً على الله الكذب وأساء أدبه معه وتعدي حدوده ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١.

١١٨-١١٩ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنُفُورٌ مَرْحِمٌ﴾

هَادُوا : اليهود الذين هادوا أي رجعوا عن عبادة العجل. المعنى : وعلى اليهود خاصة حرّمنا عليهم ما ذكرناه لك من قبل في سورة الأنعام/١٤٦ (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وما ظلمناهم بتحريم الطيبات (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بارتكاب المعاصي والإصرار عليها وكانوا يعتدون ، فأدى ذلك إلى تحريم الطيبات عليهم عقوبة لهم ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١. ١١٩- (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) الجهالة : هم جاهلون بحقيقة الذنب وآثاره ، السوء : المعصية التي تسوء الإنسان وتضره ، وهي دعوة عامة للعودة إلى الله تعالى ، الجهل والجهالة بمعنى واحد وهو مقابلة العلم لكن الجهالة كثيراً ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع من شيء من العلم كحال من يقترب المحرمات وهو يعلم بجرمتها ولكن الأهواء والشهوات والطيش وعدم التفكير في العاقبة تغلبه ولا تدعه يفكر بشكل صحيح فله علم بما ارتكب ولذلك يؤاخذ ويعاقب وهو مع ذلك جاهل بحقيقة الأمر ولو تبصّر تمام التبصر لم يرتكب ما ارتكب ، قيل : كل من عصى الله فهو جاهل ! كقوله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٢٩.

وفي غرر الحكم : (الْجَاهِلُ مَنْ اخْتَدَعَ لُحُوهَ وَغُرُورَهُ) ، ولكن لو فعلوا الجهالة (ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) ورجعوا إلى الله بالتوبة (وَأَصْلَحُوا) ما أفسدوه بجهالتهم حتى تتبين التوبة وتظهر آثارها على أرض الواقع لا مجرد إدعاء ، توبة صادقة لا مجرد صورة خالية من المعنى كقوله ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران/١٣٥ ، وقوله ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ النساء/١٧ ،

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) من بعد التوبة واسع المغفرة عظيم الرحمة يرفع الحظر عنهم ويأذن لهم فيما منعهم عنه كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة/٢٢٢. فائدة: (بِجَهَالَةٍ) تشير الآية إلى أن من يأتي الذنوب قلما يفكر بعقله ولا يحسب حساب عاقبته لغبلة الشهوة والهوى والأنا عليه أو لجهالة الشباب وطيش المراهقة كقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦.

١٢٠ - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَمَا يَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يرسم القرآن الكريم إبراهيم (ع) نموذجاً للإنسان العظيم الذي يتعدى صفات الفرد فيتحلّى بصفات أمة جامعة للمحاسن مانعة للمساوى ، ويكون قدوة للهداية وأسوة للطاعة ومعلماً للشكر والإنابة إلى الله في ظروف جاهلية ضاغطة قاسية منحرفة شاملة ، وهو قيادة حسنة للعباد لأن آلة القيادة سعة الصدر ودقة تشخيص الواقع ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/٢٦ ، ولهذا فليتنسابق المتسابقون. المعنى : كَانَ أُمَّةً : كان إبراهيم مجتمعاً نموذجياً مميزاً وحده ! كان يعمل عمل أمة يريد إصلاح أمة ، ويحمل إرادة أمة ، ويحمل همّ الأمة ، كان (ع) لا يفكر بنفسه بقدر ما يفكر بأتمته كيف يصلحها ؟ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ لَاسْتِجْمَاعَهُ الْفَضَائِلَ الْمُتَنَوِّعَةَ وهو إمامٌ عظيمٌ يقتدى به ولكونه الموحّد لله حيث لم يكن على الأرض موحّدٌ لله غيره مع لوط (ع) ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَحْمِلُ صِفَاتِ أُمَّةٍ ، وعلم وعمل أمةً فهو بمثابة أمةٍ وحده ، ويعدل أو يتّصف بخصائص أمة ، وهكذا الإنسان عندما يحمل هموم العقيدة وتبليغها الواعي وهو يشتغل في القضايا الكبرى ويعطي اهتمامه الكبير لما هو أهم، في غرر الحكم: (مَنْ اسْتَعْلَلَ بِالْمُهْمِ ضَيِّعَ الْأَهْمِ) فيتحوّل الإنسان من دائرة الفرد وتأثيره المحدود إلى خط الأمة وتأثيرها الممدود ، من اهتمام الشخص بذاته إلى الاهتمام بالإنسان في العالم كلّ ، فهو فردٌ بذاته ولكنه يحمل قوة مجتمع بأكمله ، فهو ينتقل من دائرة الفعل والتأثير الخاص إلى آفاق الاهتمام القوة والتأثير العام.

في غرر الحكم: (أَصْلُ قُوَّةِ الْقَلْبِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ) ، فهو (ع) حقق الملة التي أرادها الله لعباده التي تحلّل الطيبات وتحرم الخبائث فيتخذها الله خليلاً ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ النساء/١٢٥ ، قَانِتًا لِلَّهِ مطيعاً لربه قائماً بأمره مداوماً على عبادته بخشوع (حنيفاً) مائلاً عن كلّ إفراط وتفریط وكل انحراف وفساد وشرك في عصره إلى حال الوسط والاستقامة والاعتدال ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/١٩ ، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ الحج/٧٨ الإسلام العام والإسلام الخاص ، الإسلام العام بمعنى الاستسلام لأمر الله وتوجيه الوجه لله وهو إسلام جاؤوا به كلّ الأنبياء (ع).

أما الإسلام الخاص والمفصل والجامع والخاتم هو ما جاء به المصطفى محمد (ص) (وَمَنْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) لم يشرك بالله طرفة عين ، لم يشرك بالله لا في الفكر ولا في عقيدة ولا في قول ولا في

عمل ولا في شكل ولا في مضمون ولا في الشدة ولا في الرخاء ولا في شرك جلي ولا شرك خفي كقوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء/١١٦، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣، سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال: (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ وَأَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/٢/٣٩٧، واحذر من الشرك الخفي الخطير والمرير كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦، إنه شرك طاعة وليس شرك عبادة. فائدة: (حَنِيفًا) الحنيف: مصطلح قرآني علمي حركي مقاوم، وهو ضد الزيف والانحراف، والحنيف: المائل عن كل سوء، والمقاوم لكل فساد، والثابت على كل خير، ويعيش الاعتدال والاستقامة في قوله وفعله، وهو يتحمل معاناة مجتمع جاهلي متخلف يعيش فيه، ولكن يغلب دينه الخالص على الواقع الجاهلي المنحرف، ويبقى الحنيف يقاوم الانحراف والضلال والفساد كما قاومه إبراهيم (ع)، ويحافظ على دينه المستقيم الخالص كقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النساء/١٢٥، إذن: الحنيف في المصطلح المعاصر هو (المعارضة) والمقاومة الواعية للفساد والمفسدين ولو لوحده، ويعارض في الواقع الضال الفاسد المنتشر بمفرده.

١٢١ - ١٢٤ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَكَانَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّمَا جَعَلِ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْتُمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وكان إبراهيم (ع) شاكراً لأنعمه سبحانه الكثيرة الظاهرة والباطنة والصغيرة والكبيرة والمادية والمعنوية في القول والعمل ويشكر الله بالعمل، الشكر العملي ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣، مع الشكر اللفظي (وَالَّذِي لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ) وحقيقة الشكر: إخلاص العبودية لله وتعتقد أنه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣، (اجْتِبَاءً) اصطفاها واختاره للرسالة وإبلاغ دعوته وقد حفظه الله ونجاه من كل سوء وانحراف وأخلصه لنفسه (وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) طريق واضح لا يضلُّ سالكه، هو دين الإسلام يسعد به في الدنيا والآخرة ويوصله إلى رضوانه تعالى وحفظه من انحرافات الجاهلية. ١٢٢- (وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) الحسنة واسعة المعنى وهي على أفرادها وتنكيرها تسع بركاتها وخيرها للناس جميعاً، جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا لأن جميع أهل الأديان تعترف بنبوته ومكانته والمعيشة الحسنة الطيبة بسلامة قلبه واطمئنانه وكان مرفهاً غنياً كثير المال فجمع خير الدنيا والآخرة، وأعطاه الله تعالى بدناً قوياً وقدرة وإرادة صابرة ولساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة سالحة وعمراً طويلاً وذرية طيبة، إن الصلاة عليه مقرونة بصلاة النبي (ص) (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) لمن الكاملين في الصلاح الذاتي فهو صالح بذاته ومصالح لغيره وقدوة للمجتمع البشري لأنه مقاوم للمجتمع الجاهلي ولكل انحراف وفساد في عصره، فهو في الصف الأول مع النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. ١٢٣- (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) لما وصف الله تعالى إبراهيم (ع) بتلك الأوصاف الشريفة أمر

نبيه مُحَمَّد (ص) أن يتبع ملته (دينه) دين الفطرة والتوحيد دين الاعتدال بلا تطرف ، دين الحنيفية السهلة السمحة ، والآية صريحة بأن دين الإسلام المحمّدي وديانة إبراهيم ديانة واحدة موحدة متحدة ، (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) مَا كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَإِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا .

١٢٤- (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ وفرض تعظيمه وترك العمل فيه عقاباً لليهود الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ على نبيهم موسى (ع) حيث أمرهم بتعظيم الجمعة وأن يجعلوه يوم عيدهم وراحتهم عن العمل فأبوا إلا السبت فألزموه وشدّد عليهم فيه لعنة ومسحاً (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) سيفصل الله بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيكون الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

١٢٥- ﴿اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنُّوعِطَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَاتِيٍّ مِمَّنْ أَحْسَنَ لِنَاسٍ إِنْ رُبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
 مقدمة : الدعوة إلى سبيل الله هو سبيل الإسلام ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الذي اصطفاه الله لنفسه واصطنعه على عينه ، إنه دعوة إلى توحيد الكلمة وكلمة التوحيد ، دعوة الله تعالى لا لشخص الداعي ولا لقومه ، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله لا فضل له يتحدّث به لا أجر على الدعوة ولا أجر على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله تعالى بمقدار إخلاصه له ، وأن يبدأ الحديث أولاً من نقاط الاتفاق وتحديد مقدار الاختلاف المحدود ، وسوف نعرف أن نقاط الاتفاق كثيرة ووحدة الكلمة مهمة ، وأن نقاط الاختلاف قليلة وطفيفة ، ومن الأفضل تأخيرها وتقديم الكلام بنقاط الاتفاق ، وأن نختار معاً الوقت المناسب والمكان المناسب والإنسان المناسب والحديث المناسب بالأسلوب المناسب ، وعند الاختلاف نرجع إلى دستورنا العظيم القرآن الكريم كقوله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى/١٠ ، وعلينا أن نتفق ونرغب على أن نتفق في سبيل رضا الله ، وإلا سوف يتفق أعداؤنا على القضاء علينا وعلى ديننا، ثم التحدّث عن مخاطر الاختلاف والتنازع كقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران/١٠٥ ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم/٣٢ ، عن الإمام علي (ع) (إِيَّاكُمْ وَالتَّلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِنْ مَضَى وَلَا مِنْ بَقِيٍّ) شرح النهج/١٠/٣٣ .

المعنى: آداب الدعوة والدعاة إلى سبيل رَبِّكَ لتحقيق مرضاته سبحانه فهي في الطرق الثلاث المذكورة ، والهدف منها أن تتعلّم أصول الحوار وقواعد الجدل وآداب النقاش وكيف يستوعب أحدنا الآخر ويتفهمه ، والهدف الأول من المناظرة العلمية سعة الصدر لأنّ أساس الحوار العلمي سعة الصدر ، أن تبدأ مع الذي تحاوره من حيث يجب حتى تنتهي إلى حيث تحب ! واستمرار التواصل يقوِّي الأواصر وتتوسع الآفاق الذهنية ، وبالحوار تنضج الأفكار ، كقوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ

لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ، وقوله ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ آل عمران/ ٦٤ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ) كنز العمال خبر ٢٨٨٨٦.

وقوله ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ﴾ يونس/ ٣٢ ، فالمناظرة الناجحة التي تعتمد أسلوب البحث يتقدّم على مادة البحث ، أي يتقدّم الخُلق واللّين والمهارة والكفاءة والتّزاهة في الحوار ، على أسس الحجّة والبرهان ، وأن تعتمد المناظرة إظهار الحق و (الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) ويقتنع به الطرف الثاني ، والبرهان يقطع الخصام ، بحيث إذا أصرّ على الإنكار فهو معاند والمعاند لا يصحّ معه الجدل ، وذكر الله سبحانه ثلاثة شروط للمناظرة الناجحة المثمرة ١- أن تكون (بِالْحِكْمَةِ) بالعلم والمنطق المؤثر والاستدلال ، وهي الحجّة المحكمة والبرهان الواضح والأسلوب المؤثر الذي لا شك فيه ولا إبهام ، وأصل الحكمة بمعنى المنع ، وقد أطلقت على العلم والمنطق والاستدلال لمنعها الفساد والانحراف ، لأنّ الحكمة تعالج الضلال فتكون (الحكمة) تعتمد البعد العقلي (وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) تتعامل مع البعد العاطفي للإنسان ، فإذا اجتمع الجانب العقلي مع الجانب العاطفي فقد اقتربت أصول التكامل والاستقامة نحو النتيجة المطلوبة بنجاح ، ٢- (وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) البيان الأخلاقي المؤثر الذي تليّن به النفس والأسلوب الذي يرق له القلب لما فيه من صلاح السامع ومنافعه، وهو أن يتجرّد المناظر عن كلّ هوى وميل بحيث يفهم الطرف الآخر أن الذي يناظره من الناصحين والمخلصين له وللحقيقة ولا يقصد المباهاة وعرض العضلات ولا إنتقاص الآخر.

٣- (وَجَادِثُهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) بالاسلوب الأحسن، هو الجدل الحمود: الذي يعالج الشبهات ونقاط الاختلاف ، واختلاف الرأي لا يفسد الود ولا يزعج النفوس ولا يقطع الصّلة ، هو بيان الحقيقة مع من تكون ومن كان الأسبق في معرفتها ، والحقيقة هي الحجّة القاطعة التي تبهت الخصم عما يصير عليه ، دون مؤاخذته ودون خصام وعناد وأساليب الإثارة والعصبية ، والذي يجادل بآلتي هِيَ أَحْسَنُ هو الأحسن ، الذي يعتمد الرفق والخُلق واللين والقول السديد لأنّه يريد الوصول إلى الحق بأساليب العدل والإنصاف ، والمحافظة على آداب الحوار وهدوء النفس في الأجواء العامّة كما قال سبحانه لموسى وهارون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه/ ٤٤ ، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَبِيٍّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت/ ٣٤-٣٥ ، وشهد الله سبحانه لنبيه محمّد (ص) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُّمَ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران/ ١٥٩ ، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/ ٤ .

عن النبي (ص) : (الإسلامُ حُسْنُ الخُلُقِ) كنز العمال خبر ٥٢١٥ ، ثم قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ مَنْ سِيْهْتَدِي وَمَنْ سِيْظَلُّ وَمَنْ يَعَانِدُ

ويبقى على ظلاله، ليس عليك هداهم إنما عليك البلاغ المبين وعلينا الحساب ، وهو تهديد لأولئك الذين يجادلون بغير علم جدالاً مذموماً ينفر ولا يبشّر ، يعسر ولا يسّر ، يكره ولا يحب ، يباعد ولا يقارب ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ غافر/٥ ، عن النبي (ص) : (مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أَوْتَفُوا الْجَدَلَ) البحار ١٣٨/٢ .

فائدة: الجدل الباطني هي أحسن بلا تحامل على المخالف والاستهزاء به ، حتى يطمئن في الحوار وأجواء الحوار الهادئة، ويطمئن إلى الداعي ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن هدفه الإقناع والوصول إلى الحق الواحد الموحد المتحد ، الذي لا يتعدّد ولا يتجزأ ولا يتحول ولا يتبدّل ولا يتغيّر ، هذا هو منهج الدعوة إلى الله تعالى ، ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة والبيان ، فأما إذا وقع اعتداء على أهل الدعوة فإنّ الموقف يتغيّر ، فالاعتداء عمل إجرامي مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق ودفعاً لغلبة الباطل ، وحين يكون المسلمون قادرين على دفع الشرّ ووقف العدوان على قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر في الحالات التي يكون فيها العفو والصبر أعمق أثراً وأكثر فائدة للدعوة وعدم التصعيد ، والصبر يحتاج إلى مقاومة الإنفعال وضبط العواطف في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) والله يحب الصابرين .

١٢٦ - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَنْ ظَلَمَكُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَعَامِلُوهُ بِالمِثْلِ وَلَا تَزِيدُوا انتقاماً منهم ، فإنّ الزيادة ظلم والظلم لا يحبه الله والظلم ظلمات يوم القيامة ، وظلمات في النفوس ، وَالْعِقَابُ عَلَى قَدَرِ الجُنَايَةِ ، والجَزَاءُ مِنْ نَفْسِ الْعَمَلِ ، هذا هو العدل في القصاص لا زيادة في العقوبة إطلاقاً بل يستحب النقصان ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة/٢٣٧ ، وإليه أشار قوله تعالى (وَلَكِنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل وهذا حثٌّ على الصبر الجميل الذي يكون في موضعه المناسب بلا شكوى وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل لأنّ دفع الشرّ بالخير أفضل من دفعه بالشرّ أحياناً كقوله ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر/٨٥ ، في غرر الحكم : (أَحْلَطِ الشَّدَّةَ بِرِفْقٍ ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَوْفَقَ) ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشدّ مما كان ينتقم منه لنفسه، وإنّ تقديم رضا الله وثوابه على رضا أنفسكم بالانتقام والتشقي فيكون العمل خالصاً لوجه الله الكريم ، وإنّ للصفح والعفو آثاراً جميلةً ولا سيما إذا كان من موقع القوة والقدرة ، وهذا العفو يعود إلى الحق الخاص دون الحق العام. سبب النزول : يوم قتل حمزة مثّلوا به فقال المسلمون لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات فنزلت الآية بالنهي ، عن الإمام الحسن بن علي (ع) : (لَا تُعَاجِلِ الدُّنْبَ بِالْعُقُوبَةِ وَاجْعَلْ بَيْنَهُمَا لِلِإِعْتِدَارِ طَرِيقاً) البحار ١١٥/٧٨ ، ونهى النبي (ص) عن المثلة ولو بالكلب العقور .

١٢٧ - ١٢٨ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوبٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) واصر وصابر وتحمل المعاناة أيها النبي الكريم على ما ينالك من الأذى في سبيل الله، وما صبرك إلا بتوفيق الله وبجوله وقوته وتثبيتته لك فإنها مرتبة رفيعة تناولها بمعونة الله، في غرر الحكم: (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) فقال النبي (ص) نصبر ولا نعاقب (وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ) ولا تحزن على الكافرين لتماديهم في الضلال (وَلَا تَكُ فِي صَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) ولا يضيق صدرك وتكون في همٍّ وغم بما يقولون من السفه والجهل ولا بما يدبرون من المكائد والمؤامرات (يُدْبِرُونَ الْمُدْبِرُونَ وَالْقَضَاءُ يَصْحَكُ) لأن ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/٨٣. ١٢٨ - (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بمعونته ونصره و (مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) والتقوى من الوقاية والنزاهة والترفع عن ارتكاب الشر والكف عن الحرام والشبهات وتجاوز الحدود ، وعلى قدر الإيمان تكون التقوى ، أما الْمُحْسِنُونَ المقربون فيرعاهم ويحفظهم الله بحفظه ويهديهم بهدائه ، فهم الذين يأتون بالأعمال الصالحة على أحسن وجه ولا يكتفون بالقدر الواجب منها ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف/٥٦ ، يقفون مع كلّ مظلوم ومحروم ويجرون كلّ كسير وفقير ، وإنّ كلاً من المتقين والمحسنين لهما الشرف في (المعية) مع الله وإن كان المحسنون أقرب قرباً وأكثر عطاءً ، وعلى قدر التقوى يكون الإحسان، و (مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ) وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَمَنْ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَنْ يَكُونُ مَعَهُ؟! فائدة: ١ - (الإحسان): ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن/٦٠، في غرر الحكم: (أَحَقُّ النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ مَنْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَبَسَطَ بِالْقُدْرَةِ يَدَيْهِ) والإحسان : محبة وعلم وإيمان وحُلقُ كريم وبه تملك القلوب ، عن النبي (ص) : (جَبَلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغِضَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا) تحف العقول ص ٣٢ .
وفي الختام نقول ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الجاثية/٢٩ .

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ . تم بعون الله تعالى (وَعِيُ الْقُرْآنِ الْمُسَرِّ) لسورة النحل ، بقدرتي لا بقدرها، بجهد متواصل ، فلله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وترداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢٣/رجب/١٤٣٨ هـ الموافق ٢٠١٦/٩/٨ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يُعِينَنَا عَلَى تَكْمِلَةِ بَقِيَّةِ السُّورِ الْقُرْآنِيَةِ الْكَرِيمَةِ ، إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ مَجِيبُ الدُّعَاءِ .

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادى

الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم



من مقاصد السورة :

وتسمى سورة بني إسرائيل ، سورة مكة تعنى بأصول الدين وشؤون العقيدة وشخصية الرسول ومعجزاته (ص) والعناية بأصول الدين ، التوحيد وأهمية النبوة والرسالة والبعث واليوم الآخر ، عرضت السورة معجزة الإسراء التي كانت مظهراً من مظاهر تكريم الله لخاتم الأنبياء (ص) وآية باهرة تدلّ على قدرة الله عزّ وجلّ ، وتحدّثت عن تشردّ بني إسرائيل في الأرض مرتين بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ، وتحدّثت عن بعض الآيات الكونية في نظام الليل والنهار ، وتعرّضت إلى بعض الآداب الإجتماعية والأخلاق الفاضلة الكريمة ، وتحدّثت عن ضلالات المشركين ، وأهمية المعاد والجزاء والقرآن العظيم ، وسميت بسورة الإسراء بسبب معجزة الإسراء الخاصة بالنبي الكريم (ص). ابتدأت السورة بالتسبيح وانتهت بالحمد لله الجزء الخامس عشر ، عدد آياتها ١١١ ، رقمها (١٧). فضلها : عن الإمام الصادق (ع) : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةً لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُدْرِكَ الْقَائِمَ (عج) وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِهِ) مجمع البيان ٦/٢٤٤ ، تفيد الروايات أنّ تلاوة آخر آيات من سورة الإسراء مفيدة لرفع الدّين ورفع وسوسة، ونفي الفقر والمرض وكل فضل من فضائل سور القرآن كلّها يعتمد على مقدار الصدق والعمل من الإنسان ومقدار رضا الله عن الإنسان ، وليس بالمنى والأمانى. ملاحظة عامة : هذه الفضائل بشرطها وشروطها والالتزام بمنهج الله من شروطها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الإسراء والمعراج) تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع أجواء الإسراء اللطيف السماوي العجيب، وهذه نقلة تصويرية عجيبة غريبة إلى مألوف البشر ، إنّها رحلة مختارة نموذجية ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان وأوسع من حدود المادّة والحواس ، إنّها رحلة أياً كانت صورتها وكيفيتها آية من آيات الله تفتح القلب على آفاق عجيبة في آفاق هذا الوجود المنظم (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى) تنزه الله سبحانه وتقدّس عمّا لا يليق بجلاله (بِعَبْدِهِ لَيْلًا) الذي انتقل بعبدته ونبيه محمّد (ص) في جزء قليل من الليل ، وإنّما قال (لَيْلًا) بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء

وقطع المسافة الطويلة بمدة قصيرة بطريقة إعجازية خارقة لذلك بدأت السورة بـ (سُبْحَانَ) الدال على كمال القدرة وبالغ الحكمة، وأنه سبحانه منزه عن صفات المخلوقين (أَسْرَى) الإسراء هو السير ليلاً لا نهاراً ، (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) من مكة المكرمة إلى (الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) بيت المقدس في فلسطين راكباً البراق ، وسمي بالأقصى لبعدها المسافة بينهما ، وكان الإسراء بالروح والجسد، لأنَّ العبد مجموع الرُّوح والجسد ، يقظة وحقيقة لا مناماً (وبعد ذلك حصل المعراج) (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) بأنواع الخيرات والبركات الحسية والمعنوية الدنيوية والدنيوية ، وبخصوبة الأرض وعدوبة المياه والأنهار والعيون وأنواع الثمار والأشجار ، ونقاوة الهواء وجمال الأجواء وبكونه مهد الرسالات ومقر الأنبياء التي خصَّ الله بها بلاد الشام (لِئْرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) من تلك الرحلة الغريبة العجيبة العظيمة ونطلعه على بعض العوالم العليا وملكوت السموات والأرض ، فقد رأى (ص) الجنة والنار ، وسدرة المنتهى وشجرة طوبى والملائكة والأنبياء (ع) وغير ذلك من العجائب ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ النجم/١٨ .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) السميع للأقوال ولو بلسان الحَالِ قَبْلَ لِسَانِ الْمَقَالِ ، البصير بالأفعال من الإسراء والمعراج. فائدة : ١- (أَسْرَى بِعَبْدِهِ) تثبتت صفة العبودية في هذه الرحلة الإعجازية وتقديمتها على صفة النبوة للدلالة أنه (ص) بأعلى صفات العبودية نال شرف النبوة والقرب من رضا المولى سبحانه. ٢- حركة الإسراء بالسرعة الفائقة يؤكدتها القرآن ويدعمها العلم الحديث ولا ينكرها العقل، إنَّ الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمح البصر ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل/٣٩ . ٣- الإسراء رحلة أرضية وإستضافة من الله الكريم إلى نبيه العزيز في رحاب ملكوته وهي رحلة إعجازية خاصة به (ص). ٤- (المعراج) : عروج النبي (ص) أي صعوده من بيت المقدس إلى السماء العليا كما جاء في أول سورة النجم. ٥- الدرس البليغ في رحلتي الإسراء والمعراج هو حضُّ العقول على النَّظَرِ فِي عَجَائِبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَعَظَمَتِهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/٢٠-٢١ ، في نهج البلاغة حكم ١٢٦: (عَجِبْتُ لِمَنْ شَكَ فِي اللَّهِ، وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ).

٢ - ٣ ﴿وَأَنبَأْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا، ذُمْرَةً مِنْ حَمَلْنَا مَع نُوْحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

وأعطينا موسى التوراة فيها هدى ونور لبني إسرائيل ، وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ليخرجهم من ظلمات الضلالة وحيرة الجهالة إلى نور العلم والإيمان (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا) وكَيْلًا : نصيراً ومعبوداً وكفياً ورباً توكل إليه أموركم كقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾

النساء/٤٥ ، في غرر الحكم: (مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ) وفيه ايضاً (حَسَنَ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرٍ يَثِقُ بِهِ) أي : لا تَتَّخِذُوا لَكُمْ أَرْبَابًا تَكُونُ إِلَيْهِمْ أُمُورُكُمْ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ ، لَأَنَّ تَتَّخِذُوا سِوَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ الَّذِي أَرْحَمَ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ حَرَّفُوا كَلَامَ اللَّهِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ. ٣- (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) يا أبناء المؤمنين الذين كانوا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ لَقَدْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الْغَرَقِ فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى إِعْنَامِهِ ، وَهَذَا تَذَكِيرٌ لَهُمْ بِجَدِّهِمُ الْأَكْبَرِ نُوحٍ (ع) كَقَوْلِهِ ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى/٩) ، (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) إِنَّ نُوحًا كَانَ كَثِيرَ الشُّكْرِ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَاقْتَدُوا بِهِ فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى إِعْنَامِهِ. فائدة : (حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) فعلنا ذلك لموسى وبني إسرائيل بسببين : أولاً : لأَنَّهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ (ع) وَقَدْ وَعَدْنَاهُمْ عِنْدَ هَبُوطِهِمْ مِنَ السَّفِينَةِ بِالسَّلَامِ وَالْبَرَكَاتِ ، ثَانِيًا : إِنَّا جَزَيْنَا نُوحًا لِأَنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا لَنَا ، لِيُرَدَّهُمْ إِلَى هَذَا النِّسْبِ الْمُؤْمَنِ الْعَرِيقِ وَهَذَا الْفَضْلُ فِي النِّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ لِيَتَأَسَّوْا بِنُوحٍ (ع).

٤ - ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾
 هذه الآية والتي تليها من المتشابهات غير قطعية دلالتها (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ) ، أي أخبرناهم إخباراً قطعاً وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) اللام (لَتُفْسِدُنَّ) لام القسم أي أقسم أنكم يا شعب إسرائيل سيصدر منكم أعمالاً غريبة في أنواع الفساد تدل على حقيقتكم وخبائثة نفوسكم وغرابة طبائعكم ، الخطاب للماضين والمراد نسلهم وخلفهم من الحاضرين ، لأن هؤلاء امتداد الفساد لأولئك ، والمقصود بالإنفساد في أرض فلسطين وما يتبعها مرتين أولاًهما تكذيبهم الأنبياء وقتلهم الآخرين والثانية في ظروف أخرى قتلهم أنبياء آخرين كزكريا ويحيى ومحاولة قتلهم عيسى (ع) ونجاه الله منهم ، والمقصود بالإنفساد أيضاً سلطان البغي والعدوان والسيطرة على البلاد والعباد والسعي لإطفاء نور الله في الأرض (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) ولتستكبرن استكباراً عظيماً ، وتطغون في الأرض طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان ونشر أنواع الفساد وانتهاك محارم الله ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ ص/٥٥. فائدة ١- (وَقَضَيْنَا) أعلمنا لا القضاء بمعنى الحكم والالتزام وإنما هو إخبار بما سيكون منهم باختيارهم كما هو في علم الله وليس بسبب الله ، ولم ينص القرآن على مكان وزمان إفسادهم الكبير للدلالة على عموم الفساد وشموله في الأرض ، وقيل : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَغَارُوا عَلَى فِلَسْطِينَ بَعْدَ التَّيَّةِ بِقِيَادَةِ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ خَلِيفَةَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَاحْتَلَوْهَا وَاسْتَوْلُوا عَلَى جَمِيعِ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ وَثَرَاتٍ بَعْدَ أَنْ أَبَادُوا مَعْظَمَ أَهْلِهَا الْكَنْعَانِيِّينَ وَاسْتَعْبَدُوا مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ ، وَكَانَتْ سِيرَتُهُمْ مَعَ يَوْشَعَ كَسِيرَتِهِمْ مَعَ مُوسَى : الْعَصِيَانَ وَالْعِنَادَ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى أَمَّا الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ : يُقَالُ أَهْمَا سَتَقَعَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فِي فِلَسْطِينَ ، ذَكَرَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ بِاسْمِ الْمَسْجِدِ (وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَسْجِدًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي فِلَسْطِينَ خِلَافًا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ تُشْرَ الْآيَةُ الْأُولَى إِلَى الْمَسْجِدِ بَلْ جَاءَتْ (فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ) لِذَلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ

جِنَّا بِكُمْ لَفِيْفًا ﴿١٠٤﴾ الإسراء/١٠٤ ، لَفِيْفًا : مجتمعين من هنا وهناك مختلطين لا يعرف لا الأشخاص ولا من أي قبيلة هم. وفي الروايات القضاء على اليهود المعتدين في عصر ظهور الإمام المهدي (ع) وقبل الظهور تمهيد لظهوره. ٢- وشهد بطغيان الدولة اليهودية جماعة من الفلاسفة والمؤلفين منهم الفيلسوف الهولندي اليهودي سبينوزا فقد أطل الحديث عن فساد وإفساد الدولة اليهودية ، وكتب كثير من المؤلفين عن هذا الموضوع بأدلة قاطعة أن اليهود الذين يحتلون الآن أرض فلسطين ليسوا من بني إسرائيل يعقوب النبي بن اسحاق في شيء ، وإنما هم أشتات لا ربط بينهم وقد تجمّعوا فرقا من هنا وهناك وتستروا وراء إسرائيل بوقاحة وصلافة لا حد لها. ٣- اليهود الصهاينة طبيعتهم الفساد ودائما يفسدون أينما حلّوا ورحلوا في كل زمان ومكان ، ولا يصدر من الفاسدين إلا الفساد بأنواعه وأهمّه إطفاء نور الله ! ولكن ذكر القرآن (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) لا تعني مرتان بالعدد وإنما تعني مبالغة الفساد وأبرزها فسادين بارزين ، أي عندما يتحوّل فسادهم إلى حالة ورم معدي خطير وممير على مصير الإنسانية ، مثل زرع الغدّة السرطانية الإسرائيلية الخطيرة في جسد الأمة الإسلامية.

٥ - ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ فَإِذَا جَاءَ وقت عقوبة أولى المرتين في الإفساد (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا) سلطنا عَلَيْكُمْ من جندنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾ الصافات/١٧٣ ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ المدثر/٣١ ، (أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) أصحاب قوة وقدرة وعدة وعدد وبطش شديد في الحرب كقوله ﴿تَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة/٥٤ ، ليدلّوكم ولينتقموا من أعمالكم الفاسدة ومن قتلتموهم من النبيين والمصلحين والمظلومين في دار الدنيا حسماً لبؤرة الفساد وتحلّوا من الغدّة السرطانية في جسم الأمة الإسلامية وقيل : إنّ بني إسرائيل لما استحلّوا المحارم وسفكوا الدماء سلّط الله عليهم بختنصر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده ، وذلك أول الفسادين (فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ) جَاسُوا : دخلوا وطلبوا، فدخلوا أرضكم وبيوتكم يروحون ويغدون (خِلَالَ الدِّيَارِ) وسط الديار للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد فأذلّوكم وأذهبوا استقلالكم (وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) كَانَ ذَلِكَ الظفر والتسليط والانتقام منهم قضاءً جزماً ووعداً حتماً لا ريب فيه كقوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ النساء/١٢٢.

٦ - ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ رَيبِيْنٍ وَجَعَلْنَا كُفْرًا تَكْرِمًا﴾ في سنة ٥٣٨ قبل الميلاد فتح ملك الفرس بلاد بابل وحرّر من فيها من الأسرى الإسرائيليين ، يعني كانت الكُرَّةُ (الغلبة) من الإسرائيليين على البابليين بواسطة ملك الفرس فلما غلب ملك الفرس بابل تزوج امرأة من بني إسرائيل فطلبت منه أن يرّد قومها إلى بيت المقدس ففعل ، ولما عاد

بنو إسرائيل إلى فلسطين أمدهم الله بالمال وجعلهم أكثر عدداً وأنصاراً مما كانوا عليه وهذا قوله (وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) نَفِيراً : عدداً لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم، ولكن ما إن استردوا قوتهم عادوا إلى الانحراف والفساد والإعتداء وقتلوا زكريا ويحيى وهموا بقتل المسيح (ع) !!

٧ - ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾

كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فصلت/٤٦ ، وقوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ البقرة/٢٨٦. المعنى : تكشف الآية عن سنة الله الحركية الدائمة في أرضه ، (إِنْ أَحْسَنْتُمْ) في سرهم وعلايتكم وفي أقوالكم وأفعالكم وأطعمتم الله وتركتم نواهيهِ (أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) لأنكم تنفعونها في دنياها وآخرتها ، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء وينمي أموالكم ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما في الآخرة : فإن الله يثيبكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) يرجع الضرر عليها ولها العقوبة ، وكلّ من يفعل الشر يأخذ الشيطان منه دينه وعقله وإنسانيته وكرامته وآخرفته ويصبح من الخاسرين ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٢ ، عن النبي (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص٣٥٩ ، في غرر الحكم: (مَنْ أَفْنَى عُمْرُهُ فِي غَيْرِ مَا يُنْجِيهِ، فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ) (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) فَإِذَا جَاءَ وقت عقوبة الآخرة المناسبة في الوقت المناسب في المكان المناسب في الكيفية المناسبة (لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) تعبير مجازي كناية عن محتهم وإذلالهم ، الخطاب لبني إسرائيل ، وضمير يسوءوا راجع إلى المبعوثين لكي ينزلوا الحنة بالإسرائيليين المفسدين بعثنا عليكم جمعاً من عبادنا ليهينوكم ويدلوكم ويجعلوا آثار السوء والكآبة والحزن والانزعاج بادية على وُجُوهكم بالإذلال والقهر وبما يرتكبون فيكم من القتل الذريع والسبي المريع والنهب الفضيع كقوله ﴿سَيَبُتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الملك/٢٧ ، (وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وَلْيَدْخُلُوا بيت المقدس (المسجد الأقصى) فيخربوه ويفسدوا فيه كما خربوه وأفسدوا فيه أول مرة (وَلْيَتَبَرَّوا مَا عَلَوْا تَتَبَرَّراً) وليدمروا ويهلكوا (مَا عَلَوْا) ما غلبوا عليه وسيطروا في مدة علوهم (تَتَبَرَّراً) تدميراً ، وهكذا اليهود إذا ملكوا وحكموا أهللكوا الحرث والتسل ودمروا كل ما يقدر على فيدمروه وهلكوا الناس مدة غلبتهم إهلاكاً ، فيقتلوا النفوس ويحرقوا الأموال ويشعلوا الحروب ويهدموا الأبنية ويحترقوا البلاد والعباد !! فكان وعد الآخرة أشد من الأولى بكثير ، فإن الأولى كانت هزيمة فقط ، والآخرة كانت تدميراً وخراباً واستتصلاً. فائدة: (أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) كل من يفعل الخير لوجه الخير ولنفع الناس ، في غرر الحكم: (خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ) يأخذ من الله ومن الناس أكثر مما فعل وأعطى ، ولا

يذهب المعروف بين الله والناس كقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ البقرة/٢٧٢ ، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ سبأ/٣٩ ، (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) والذي يسيء إلى الناس يبدأ أولاً بالإساءة لنفسه في غرر الحكم: (شَرُّ النَّاسِ مَنْ (يُظَلِّم) يَضَرُّ النَّاسَ) هذه قاعدة قرآنية عامة تجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، فإن أحسن فليحمد الله وإن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

٨ - ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

لعلَّ الله ربكم يا بني إسرائيل (أَنْ يُرَحِّمَكُمْ) ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم وتراحمتم لأن من لا يرحم لا يُرحم ، وهذا وعدٌ من الله تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله بعد المرة الثانية (وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا) وَإِنْ عُذْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ وَالْإِجْرَامِ عُدْنَا إِلَى الْعُقُوبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ مَرَّةً ثَلَاثَةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ آل عمران/٤ ، إنهم عادوا إلى الإفساد فسَلَّطَ اللهُ عليهم (هتلر) ثم عادوا إلى الإفساد في صورة دويلة إسرائيل الغدَّة السرطانية في المجتمع الإسلامي، فسَلَّطَ اللهُ عليهم حزب الله في لبنان تصديقاً لوعد الله القاطع فحطَّم أسطورة الجيش الذي لا يقهر وفقاً لسنة الله التي لا تختلف كقوله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/٢٣ !! أما في الآخرة (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) حَصِيرًا: من الحصر والضيق أي سجنًا ومحبسًا محصورين فيه لا يقدرُونَ على الخروج منه.

٩ - ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

وظيفة القرآن الكريم يهدي على الدوام ، لكنَّه لا يهدي بالإجبار ويهدي بالاختيار والانفتاح ، فصار دور القرآن يهدي من يريد الهداية ، فعلى الإنسان أن يستجيب لنعمة الهداية بلسان الحال أو بلسان المقال. القرآن الكريم (يَهْدِي) لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحِ السَّبِيلِ وَأَفْضَلِ الْخِيَارَاتِ وَأَعْدَلَ الْحُكْمِ وَالْقُرْآنَ يَهْدِي لِمَنْ يَرِيدُ الْهُدَايَةَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ الحج/١٦ ، وفي غرر الحكم : (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَغْلِبُهُ الْهُوَى !؟) ، (أَقْوَمُ) : صيغة مبالغة من قيام بمعنى القيام بالأمر ، القيام بالمسؤولية على إطلاق معناها على أقصى درجات الكمال والجمال والجلال ، ويهدي للاعتدال والثبات، ويهدي للحق والعدل والإنصاف ، ويهدي للعقيدة الأقوم الخالية من الخرافات والانحرافات والغلو، ويرشد لأصلح الخيارات في كلِّ شيء وفي كلِّ زمان ومكان ولكلِّ إنسان ، فهو يهدي إلى الاستقامة والدينُ الْقَيِّمُ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم/٣٠ ، ويهدي إلى التوازن في كلِّ شيء فلا يطغى جانب على جانب كقوله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾ يونس/٩ ، وقوله ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ البقرة/١٢٠ ، فَيَهْدِي لِمَا هُوَ (أَقْوَمُ) أحسن وأفضل وأتم وأكمل وأجمل وأجل ، فيوازن بين مطالب الروح والجسد وظاهر الإنسان وباطنه ومشاعره وسلوكه وعقيدته وعمله ، ويوازن بين الأمل والعمل والدنيا والآخرة والحياة والموت وحياة الفرد مع المجتمع ، ويوازن بين العلم

(والإيمان) والعمل ، والعبادات والمعاملات والأقوال والأفعال ، الأول طرف التوازن مبتور لم يبلغ تمامه ، **والطرف الثاني** في معادلة التوازن لا ركيزة له ، وبهما معاً تسير الحياة متوازنة تهدي للتي هي أَقْوَمُ ، وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن ، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأميزهم كقوله ﴿ **فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ يونس/١٠٨ ، عن النبي (ص) : (الْقُرْآنُ مَأْدِبُهُ اللَّهُ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ) البحار ٩٢ص١٩ ، وعنه (ص) : (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كثر العمال خبر ٢٤٥٤ ، وهذه الهداية القرآنية وطريقة القرآن في التربية تختلف اختلافاً جذرياً مع تربية المبادئ الوضعية كلها لأنّ القرآن أكمل الكتب السماوية السابقة ، وإسلام النبي مُحَمَّد (ص) أكمل وأشمل من إسلام كل الأنبياء (ع) ويشمل الإسلام كلّ المعارف الإلهية على أقصى ما تتحمّله الطاقة البشرية ، (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) هذه هي القاعدة الأصيلة التي تدمج بين النظرية والتطبيق فلا فاصل بين الإيمان والعمل الصالح ، فلا إيمان بلا عمل صالح ولا عمل صالح بلا إيمان وهذه مدرسة القرآن ، أفعال مطابقة للأقوال ولا تختلف الأقوال عن الأعمال وإلا كقوله تعالى ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ الصف/٣ .

المعنى: وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ المستقيمين في كلّ الأحوال على نهجه بالأجر الكبير ، الأجر على إطلاق معناه فيشمل خيره في الدنيا والآخرة، على سعة حجمه فهو كبير أي كبير في مقياس الله فكيف بمقياس الناس؟ **فائدة: ١- (يَهْدِي)** الفعل المضارع المستمر للدلالة على استمرارية الهداية ، الهداية على الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ومقدار ما يهديهم ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَىٰ** ﴾ الأعلى/٣ ، فهدي الفرد المؤهل والجماعة المؤهلة والمجتمع المؤهل بلا حدود من زمان ومكان ، (يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ) في عالم الضمير والشعور ، يهدي للعقيدة الربانية الأصيلة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، يهدي الرّوح للربط بين السنن الكونية والسنن الفطرية البشرية في تناسق واتساق ، (يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ) في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبين مشاعره وسلوكه وبين عقيدته وعمله ، وبين العبادات والمعاملات ، وبين الأقوال والأفعال.

(يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ) في علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً وحكومات وشعوباً ودولاً، (يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ) من تأسيس الأنظمة السياسية الداخلية والخارجية وتأسيس نظام الحكم ونظام المال ونظام الإجتماع ونظام الصحة ونظام الاقتصاد والاستثمار، ونظام القضاء ونظام التعليم ونظام المكافأة ونظام العقوبات.. وهكذا يهدي القرآن للنهضة الحضارية ، وإذا كان القرآن يهدي بهذه الدقة وبهذا الشمول فهو يهدي من يستحق الهداية ويلعن من يستحق اللعن ، عن النبي (ص): (رَبِّ قَارِيٍّ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ) البحار ٩٢/١٨٤ ، وعنه (ص): (مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ

قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ حَلْفَهُ قَادَهُ إِلَى النَّارِ) كنز العمال خبر ٤٠٢٧، فإذا كان القرآن يهدي هذا ويلعن ذاك، إذن: هو يعرف الناس حق المعرفة فيميّز بدقة بينهم ، وهذه صفات الكائن الحي القائد الحاذق النموذجي الذي يعرف الناس أكثر ممّا يعرفونه فعلينا أن نتعامل مع القرآن بهذه الدقّة ، لذلك صارت شفاعاة القرآن مقبولة عند الله ، عن النبي (ص) : (الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ) كنز العمال خبر ٤٠٢٧، وهكذا يجعل القرآن الأمة القرآنية في الوسط في المركز الوسط بين الإفراط والتفريط ، وفي موقع الاعتدال بين الإسراف والبخل وبين الضعف والتعالي .. إلخ كقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ البقرة/١٤٣. ٢- أما الذين لا يهتدون بمدى القرآن فهم متروكون لهوى الإنسان ولعداوة الشيطان ، والهوى مدخل الشيطان إلى النفس. ٣- وظيفة القرآن الكريم يهدي على الدوام ولكنه لا يهدي بالإجبار ويهدي بالاختيار ، فصار دور القرآن يهدي من يريد الهداية، ويتزيّن بها وتزيّن به ، فعلى الإنسان أن يستجيب برغبة لنعمة الهداية سواء بلسان الحال أو بلسان المقال.

١٠ - ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَابْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

كذلك يبشر المؤمنين العاملين بأن أولئك الذين خرجوا عن منهج الله تعالى وتعدّوا حدوده وكفروا به ويرسوله ، فلم يعرفوا قدرهم فتعدّوا أطوارهم فأعدّ الله لهم العقاب الأليم المتناسب مع تجاوزاتهم ، وهكذا يكون الجزء من نفس العمل ، وقد جمعت الآيتان ٩-١٠ بين الترغيب والترهيب.

١١ - ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾

ويدعو الإنسان على نفسه بالشر في بعض الأحيان وهو لا يعلم أنه شر في عاقبة أمره كدعائه لها بالخير كقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الرعد/٦ ، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك ، وقد يدعو الإنسان على نفسه وولده عند الضجر بما لا يجب أن يستجاب له اللهم أهلكه ونحوه ، ويأتي الدعاء هنا هو مطلق الطلب ، سواء أكان بلفظ الدعاء أو بطلب أو بأمل ، فالإنسان يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فيتعلّق به هوام من غير تمييز بين الخير والشر ، وقد يطلب الشر كما يطلب الخير ، ويهجم على الباطل كما يهجم على الحق ولا يحسب حساب للعواقب ، ولا ينبغي له أن يستعجل ويطلب كل ما يهواه ويشتهي كقوله ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ يونس/١١ ، (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) ومن طبع الإنسان العامي العجلة ، يتعجّل بالدعاء على نفسه متعامياً عن ضرره ويسارع لكل ما يخطر بباله دون النظر في عاقبته ، لا يقدرّ نعمة الهداية الإلهية حق قدرها ، في نهج البلاغة: (وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ) التفسير المبين ص٣٦٦، في نهج البلاغة خطبة ١٥٠: (فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْتَهُ لَمْ يُدْرِكْهُ). تكشف الآية بعض أفراد الناس وليس كل الناس ،

بل هي حالة من حالات أغلب الناس الذين لم يركبوا أنفسهم ، وتأتي هنا رسالة الدين الضرورية لتهدب عندهم هذه الحالة وهذه الطبيعة أو العادة السيئة ، وهكذا أكثر الناس كقوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى/١٦-١٧ ، كقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ الأنبياء/٣٧ ، فأين هذا الطبع العجول من هدى القرآن الهادي المهدي ، إنهما طريقان مختلفان لا يقتربان ، هدى القرآن وهوى الإنسان ! في غرر الحكم : (كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْهُدَى مَنْ يَعْلِبُهُ الْهُوَى ؟!) ، في نهج البلاغة كتاب ٣١ : (الهُوَى شَرِيكُ الْعَمَى) ، عن الإمام الصادق (ع) : (مَعَ التَّثَبُّتِ تَكُونُ السَّلَامَةُ ، وَمَعَ الْعَجَلَةِ تَكُونُ النَّدَامَةُ) البحار ٣٣٨/٧١ . فائدة: ١- وتشير هذه الآية إلى الجبان الضعيف الذي ينهار لأدنى حادث مؤسف ويدعو على نفسه بالموت كما يتمنى لها طول البقاء ساعة اليسر والرفاه ، إنه يجهل فلسفة الحياة ولا يعرف نظام الخلق ويجهل مصائر الأمور وعواقب الأشياء والأمور متعلقة بالخواتيم.

في الحديث: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُؤَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةَ يَسْتَجِيبُ فِيهَا) المراغي ١٥ص ١٨٠. تشير الآية : إلى أنّ القرآن الكريم يدعو لئلي هي أقوم ، ويأبي الظالون عن سبيل الله إلا التي هي ألوم. وكلمة (يدعو) هنا لها معنى واسع يشمل كل طلب وحاجة بلسان الحال أو بلسان المقال ، أمّا اقتصار المعنى على الدعاء اللفظي من قبيل المصداق كما عن الإمام الصادق (ع) : (إِعْرِفْ طَرِيقَ نَجَاتِكَ وَهَلَاكِكَ كَيْ لَا تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ عَسَى فِيهِ هَلَاكُكَ ، وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ فِيهِ نَجَاتُكَ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) كنز الدقائق ٥/٤٨٠ . ٢- والروايات تؤكد في تعجيل فعل الخير ، وخير البر عاجله ، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُعَجَّلُ) الكافي ٢/١٤٢ ، كقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء/٣٧ ، أي طبيعة الإنسان عجول ويحبُّ العجلة ويحبُّ أن يصل بسرعة أو ينجز الأعمال بسرعة ولكن لا تستعجلون بتهوّر العمل قبل أوانه وقبل إتقانه فئساء صناعته وتقلُّ جودته (أَتَقِنَ عَمَلَكَ تَنَلَّ أَمَلَكَ) ، وصنع الإنسان الآلات والسيارات وغيرها من أجل اختصار الزمن وحبّه للعجلة العلمية المنظمة بلا تهوّر للوصول للمطلوب. والقرآن يحثُّ على العجلة في عمل الصالحات ولاسيما في أداء الصلاة في وقت فضيلتها ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ طه/٨٤

١٢ - ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَكَلَّمُوا عِدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَلْنَا نَفْسِيلاً﴾

علامتين عظيمتين على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته الذي وضع نظام ثابت يدل على وجود منظم حكيم عليهم (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) فجعلنا الليل محو الضوء مظلم لتسكنوا فيه (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) وجعلنا النهار مضيئاً ليحصل به الإبصار أي فمحونا ظلمة الليل بضوء النهار ومحونا ضوء النهار بظلمة الليل (لِتَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ) لتطلبوا في النهار أسباب معاشكم

ورفاهكم (وَلْتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، ولتعلموا حساب المواعيد بينكم والمعاملات المتنوعة (وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) وكل أمر من أمور الدنيا والدين بيناه أحسن تبين. (وَكُلُّ شَيْءٍ) للدلالة على الكثرة. فائدة : ١- كما يحو الله الليل ويبقي النهار مضيئاً، كذلك على الإنسان أن يحو من نفسه باستمرار الطباع السيئة ويثبت الطباع الحسنة عن طريق محاسبة النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٩-١٠، ليس شيء بهذا الوجود متروكاً للصدفة، فإن كل أمر جارٍ على سنته سبحانه بدقة التدبير والتقدير والتفصيل وهي عليه شاهدٌ ودليل. ٢- إن تداخل الليل والنهار على الدوام للدلالة على تداخل السنن الكونية مع السنن الإنسانية لوجود علاقة نسبية مقدرة بينهما ، فكما يتداخل الليل والنهار يتداخل النور والظلمات والضعف والقوة والخير والشر ، والدنيا والآخرة والحياة والموت والصحة والمرض والفرح والحزن والأمل والعمل والروح والجسد والعزة والذلة والعسر واليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح/٥-٦ ، والليل والنهار ليسا ضدّين بل صديقان متعاونان بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف سامية، وهكذا الحياة والموت وهكذا يتحرك نظام التداخل العام كقوله ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يونس/٥، غالباً ما يقدم القرآن الليل على النهار للدلالة أنّ ظلمة الأرض من ذاتها وأما نورها فمن الشمس. ٣- (فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) و﴿كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ مُبَاشِرَةٌ أَوْ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ فِي مَصَالِحِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ قَدْ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ، أَي بَيَّنَّاهُ بَيَانًا فِي الْقُرْآنِ بَلِيغًا وَاضِحًا لَيْسَ فِيهِ غُمُوضٌ بَحِيثٌ لَوْ صُمِمَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَدْرُسَ وَيُبْحَثَ أَي شَيْءٍ لَانْفَتَحَتْ إِلَيْهِ أَبْوَابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ كَقَوْلِهِ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه/١١٤، وقوله ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل/٨٩، ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الإنعام/٣٨

١٣ - ١٤ ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

تعبير القرآن بلاغي فني مؤثر في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية حيّة متحركة ، الإنسان مرهون بعمله مجزي به ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ الطور/٢١ ، وعمله ملازم له من خير أو شر لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبداً (أَلزَمْنَاهُ طَائِرَهُ) : أوجبنا عليه وأخذنا منه ، طَائِرُهُ : عمله وما قدر له يطير عنه ليحفظ عليه في صحيفة أعماله أي أنّه بعد أن يبعث الإنسان يجد هذا الطائر قد أصبح كتاباً منشوراً ، كأنّ عمله (طَائِرُهُ) طير له من عش الغيب وكر القدر في عُنُقِهِ ملازم له لأنه حصيلة سعيه وثمره حياته وعمره ، هنا الربط الدقيق بين العمل والجزاء لأن عمله الصادر منه الطائر عنه بإرادته واختياره فهو مسؤول عنه ، فكان طائر كل إنسان مكلف ما يطير له من عمله، أي ما يقسم له من العمل وهو كناية عما يعمل من خير أو شر ، وإلزامه له في عنقه

تصوير حي للزومه إياه وعدم مفارقتة وهو وحده المسؤول عن عمله عن الإمام علي (ع): (وَمَنْ قَصَرَ بِالْعَمَلِ أُبْتَلِيَ بِهِمْ) شرح النهج ٣١٧/١٨ (وُخْرِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته ، فيرى عمله مكشوفاً حقيقياً واضحاً لا يملك إخفائه أو تجاهله. ١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) اقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم محاسباً لنفسك بما في هذا الكتاب ، وتكون اليوم شهيداً بما عملت شاهداً بِنَفْسِكَ لا تحتاج إلى شاهد آخر أو حسيب أو رقيب غيرك، ويتجسّم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور فإذا هو أعمق أثراً وتأثيراً في النفس وأشدُّ تحريكاً في الحس. وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويعترف بذلك العمل ويلحظ هذا الكتاب وهو في حالة فرح وخوف من ذلك اليوم العصيب الرهيب الحاسم الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب، إنها حقيقة كبرى في عالم الغيب ولكن القرآن يختصر الزمن ويعرض أمر هذه الحقيقة وكأَنَّهَا بين يديك! عن النبي (ص): (مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا، هَانَ حِسَابُهُ فِي الْآخِرَةِ) تفسير النور ٢٣/٥، وكقوله ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية ٢٩، وكل شيء محفوظ بالصورة والصوت والنية وكأَنَّهَا فلم مصوّر حي لواقع كل إنسان في كل تفصيلات حياته بصورة لا تخفى خافية! في غرر الحكم: (أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لُزُومُ الْحَقِّ ، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ) في نهج البلاغة حكم ٢٤٩، (أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ عَلَيْهِ نَفْسَكَ). فائدة: (فِي عُنُقِهِ) وخصّ السِّياق القرآني العنق لآته يظهر عليه ما يزيّن المرء كالقلائد والأطواق أو ما يشينه كالأغلال والحبال لإذلاله ، وهكذا عمل الإنسان إتما يسعده وإتما يجعله في خسران كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ الجاثية ١٥، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ يُوزَنُ بِقَوْلِهِ وَيَقْوَمُ بِفِعْلِهِ).

١٥ - ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

مَنْ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَإِلَىٰ الْحَقِّ وَاسْتِقَامَ مَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ رَبِّهِ فَمِنْ مَنفَعَةِ ذَلِكَ تَعُودُ إِلَيْهِ (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) ومن انحراف عن دين الله وتعدّد حدود الله فالضرر واقع عليه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق ١، فكما يزرع يحصد (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الوزر : الذنب والخطأ ، لا يحمل أحد ذنب أحد إنما يسأل كلٌّ عن عمله ويجزى كلٌّ بعمله ولا يعاقب أحدٌ بذنوب غيره وكلٌّ إنسانٍ مسؤول عن عمله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المائدة ٣٨ ، ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ المعارج ١٠ ، الحميم : الصديق أو القريب المخلص ، ولا يجني معتدٍ على الناس إلا بالضرر على نفسه ويأتي معنى (الوزر) الحمل المعنوي الثقيل قيل للوزير وزيراً لتحمله المسؤولية الثقيلة، بمعنى: لا يحمل أحد مسؤولية عمل أحد إنما كل امرئ مسؤول عن عمله

ومحاسب عليه فيكون عبثاً وثقلاً عليه بما يصيبه من عناءٍ في حمله ، (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) مذكّر ومنذر يبين لهم الحق من الباطل فتقوم عليهم الحجة بالدلائل التي تقطع عذرهم ، فلا عقاب بلا بيان كقوله ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ ، عن النبي (ص) : (رُفِعَ عَنِّي مَا لَا يَعْلَمُونَ) الكافي/٢/٤٦٣ ، عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ اللَّهَ إِحْتَجَّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَرَّفَهُمْ) التوحيد ص ٤١٠ ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة/٧-٨.

١٦ - ﴿وَإِذَا أَمَرْنَا لُؤْلُؤًا مِثْقَالًا أَنْ يُكْفِرَ اللَّهُ بِهِ فَيَحْتَفِظْ عَلَيْهَا نَسُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

الآية الكريمة تسلط الأضواء على سنّة الله في إهلاك القرى الفاسقة ، وحركة هذه السنّة الإلهية تهلك أولاً روحياً ومعنوياً ونفسياً قبل أن تهلك مادياً وجسدياً كقوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال/٢٥ ، وهذه السنّة الإلهية متصلة بذلك القانون الكوني الذي يصرف وينظم حركة الليل والنهار ، بسبب ارتباط السنن الكونية بالسنن الإنسانية بوحدة نظام مقدر ومشارك ، وتبين الآية الكريمة كيف يقع العذاب بعد بعثة الرّسل وتثبيت الحجة على الناس . المعنى : وإذا أردنا هلاك قومٍ من الأقسام بسبب سوء فعل أهله (أمرنا فترفيها) أي أكثرنا مترفيها ملاً ونعماً ففسقوا فيها كقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَتْلِي هُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا مَتْلِي هُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ آل عمران/١٧٨ ، وقوله ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ إبراهيم/٢٨ ، أو أمرنا المتنعمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة والاستقامة على لسان رسلنا ، فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا واستهتروا وشدّوا في الانسياق وراء شهواتهم كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/١٨٢ ، معنى الاستدراج أن يكثر الله عليهم النعم وهم يكثرن الذنوب والعيوب ولا يشكرون الله (فترفيها) الأغنياء وأصحاب الجاه والمسؤولية وأطلقت الآية كلمة المترفين على جميع أهل القرية أي (ذلك المجتمع) بلا استثناء لأن الأمر بالحق والعدل يعم ويشمل الفقراء والأغنياء ، وخصّ سبحانه المترفين بالذكر لأنهم إلى المعصية أسرع ولأنهم قيادات متنفذة في المجتمع عادة .

ومتبوعون : الناس تتبعهم لا تابعون إلى أحد سئل النبي (ص) : (أهلك وفينا صالحون ؟) قال (ص) نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحُبُّ) تفسير المراغي ١٦ ص ٢٠ ، وكقوله ﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء/٢٢٧ ، عن الإمام علي (ع) : (الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ ثَلَاثَةٌ) البحار ٣١٢/٧٥ ، والساكت عنه والحاضن إليه أيضاً (فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً) فحقّ : فوجب عليهم العذاب والهلاك فأهلكناهم إهلاكاً مريعاً فائدة: ١- لا عقوبة بلا إلقاء الحجة ، بإرسال الرّسل يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ويبشرون وينذرون فإذا عصوا ما أمروا به أنزل

الله بهم الهلاك كأنها أخذت بأسباب الهلاك ، ومعنى هذا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المحك الذي أظهر فسادهم وعنادهم وفسقهم فحقت عليهم كلمة العذاب إما بالاستئصال الكلي أو الجزئي أو بالعذاب النفسي (الكآبة) كقوله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء/٢١٣. ٢- تكشف الآية عن سنة الله في العباد الجارية عليهم ضمن قانون الأسباب والمسببات، فإذا أراد الله سبحانه أمراً هيباً أسبابه ثم أجره على هذه الأسباب التي يصنعها الإنسان باختياره ، وليست الأسباب من القدرة وإنما هي بالحجة والاستحقاق وهي في ذاتها من عمل القدرة والإبداع ، في غرر الحكم : (قُوَّةُ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ سُلْطَانِ الْقُدْرَةِ).

٣- كقوله ﴿لَيْتَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ ، تشير الآية إلى قضاء الله التآخذ في عباده وسنته الجارية فيهم ، أي إنَّ الله جعل للحياة البشرية قوانين ثابتة لا تتحوّل ولا تتغيّر وسنناً لا تتبدّل ، وإذا أراد الله تعالى أمراً استدعى له أسبابه ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتتحقق إرادة الله وتحق كلمته ، فإرادة الله هنا ليست إرادة قهريّة تُنشئ السبب ولكّنها ترتب النتيجة على السبب الذي يصنعه الإنسان كقوله ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/٤٣ ، وهذه الأمة مسؤولة عما يحلّ بها لأنّها أيّدت الفساد والمفسدين أو سكّنت عنه أو ساهمت في الفساد أو رضيت عنه أو ساعدته ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بفساد المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا و تجاوزوا الحدود، واستهزؤوا بالقيم والمبادئ والأخلاق التي لا تعيش الشعوب إلاّ بها ولها ، ثم تتحلل الأمة وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك أولاً بأزمات نفسية زعمانة روحية من مرض الكآبة وغيرها قبل أن تهلك مادياً وجسدياً كقوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال/٢٥.

١٧ - ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

القرن : كلّ أمة هلكت فلم يبق منها أحد ومعنى (القرن) أيضاً الجماعة التي تعيش في عصر واحد، أي وكثير من الأمم المكذبة الطاغية مع الرسل ومع الناس أهلكتهم مِنْ بَعْدِ نُوحٍ فسنة الإهلاك جارية ولن تتوقف لمن استحق الهلاك ، وهذا تهديد ووعيد للكافرين الذين كذبوا مُجَدِّاً آنذاك فلستم أكرم على الله منهم كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/٢٣، (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَا مُجَدِّ رَقِيماً على أعمال العباد ويدرك بواطنهم وظواهرهم ويجازيهم عليها فهو خبير بأعمالهم بصير محيط بهم ، عن الإمام علي (ع) : (لَنْ يَرْضَىٰ عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخَطَهُ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسَخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) تفسير الكاشف/٣٢/٥. فائدة : ١- الله تعالى محيط بكل ما عمل الناس وخصّ الذنوب بالعلم لأنّها هي الخطر الذي يتهدّد النَّاسُ، فإذا توقى الإنسان الذنوب استقام على الحق

والخير ، في غرر الحكم : (اجْتَنَبْتُ السَّيِّئَاتِ أَوْلَى مِنْ اِكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ). ٢- (خَيْراً بَصِيراً) تقديم (الْحَبِيرِ) لأنه يحيط بالأمر الغيبية والباطنية الخفية و(الْبَصِيرِ) يعرف الأمور الظاهرة.

١٨ - ١٩ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَذْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾

قسّم الله تعالى عباده منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة فيعطيه الله الدنيا والآخرة ، أي من كان يريد بعمله الدنيا (الْعَاجِلَةَ) فقط ولها يسعى ليس له همٌّ إلا حبُّ الدنيا وهو التعميم العاجل ، ولا يتطلّع إلى آفاق أعلى من جاذبية الأرض (عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ) تعجيله من نعيمها لا كل ما يريد و(لِمَنْ نُرِيدُ) التعجيل له أي ليس كل من طلب الدنيا بمدركها إلا أن يشاء الله (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَذْحُوراً) يدخل جهنم (يَصْلَاهَا) يخرق بناها (مَذْمُوماً) ملوماً مهاناً حقيراً بما ارتكب من شنائع الجرائم ، في الحديث (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ حَاطِيئَةٍ) البحار ٧٣ص٧ مطروداً من رحمة الله المخذول بما انتهى إليه من عذاب مناسب في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) أما الدين عنده سلماً للدنيا.

في غرر الحكم: (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ)! وفي غرر الحكم : (مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ حَادِمًا لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ حَادِمًا لِمُلْكِهِ طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ). ١٩- (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) والذي يريد الآخرة وهو التعميم الآجل لا بد أن يسعى لها سعيها المناسب معها فيؤدي تكاليفها وينهض بمسؤوليتها ويقوم سعيه لها (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) على أساس الإيمان والعمل الصالح وليس الإيمان بالتمني ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل ، والعمل وإن كان حسناً لا يقبل عند الله تعالى إلا إذا زكاه الإيمان بالله ومبتغى به مرضاته ، والسعي للآخرة لا يتعارض مع طيبات الدنيا، وإنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى وإلى قيم كبرى فلا يقتصر على متاع الدنيا وليست هي هدفه وغايته وإنما (الدُّنْيَا مَرْزَعَةُ الْآخِرَةِ) وهي ممرٌ لمقر كقوله ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت/٦٤ ، وقوله ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص/٧٧ ، وكان حقاً على الله أن لا يدخل الجنة من دخل جوفه شيء من الحرام ، والشهيد في سبيل الله لا يدخل الجنة إذا عليه دين من أحد، وفي يوم الحساب والجزاء يقدم الله تعالى حقوق الناس على حقه الخاص سبحانه لكرامة الإنسان على الله ، ولا يخدع الله عن جنته (فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً) على سعة معناه بحيث يتلقى التكريم في الملاء الأعلى ، فَأُولَئِكَ الجامعون للصفات الحميدة من الإيمان والعمل الصالح والاستقامة مع الإخلاص لله تعالى كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول ومثاباً عليه برفع الدرجات فائدة: إذا كان العيش لهدف الدنيا فهي دنيا

الحياة، دنيا الجسد دنيا المادة البعيدة عن قيم الرّوح ، فهي حياة تليق بالديدان والحشرات والحيوانات ، فهي حياة لا تعادل عند الله جناح بعوضة فأما الحياة للآخرة فهي عليا الحياة أسمى أنواعها ، حياة معنوية روحية عالية المضامين الحياة السامية الكريمة على الله لا ينالها إلا من له مؤهلات سامية كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل/٩٧ ، في غرر الحكم: (ذَرُوهُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالَهَا إِلَّا ذُوُّوُ التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ) ، عن الإمام الكاظم (ع) : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ ذُنْيَاهُ لِذُنْبِهِ أَوْ تَرَكَ ذُنْبَهُ لِذُنْيَاهُ) البحار ٣٢١/٧٨ ، وعن النبي (ص): (أَعْظَمُ النَّاسِ هَمًّا الْمُؤْمِنُ يَهْتَمُّ بِأَمْرِ ذُنْيَاهُ وَأَمْرٍ آخِرْتِهِ) تنبيه الخواطر ص ٤ ، وعنه (ص): (إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيَبْغِضُ، وَلَا يُعْطِي الآخِرَةَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ) البحار ١٨٨/٧٧ في غرر الحكم: (مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ ، وَلَا يَجْزِيكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ!؟)

٢٠ - ﴿كُلُّ أُنْبِدُ هَوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

كلّ واحدٍ من الفريقين الذين أرادوا الدنيا دون الآخرة والذين أرادوا الآخرة نعطيه من عطائنا الواسع ما يحتاج إليه في وجوده وبقائه ، تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي للمؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي على مقتضى الحكمة والمصلحة لأنّ ذلك حق الخلق والإيجاد (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) ما كان عطاؤه تعالى (مَحْظُورًا) محجوباً ممنوعاً عن أحد لمن يطلبه بلسان الحال أو لسان المقال من البر والفاجر. فائدة : ١- كل من يعمل للدنيا دون الآخرة كان ظالماً لنفسه وكان أخسر الناس ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ آل عمران/١٨٥ ، عن النبي (ص): (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، وكل من يعمل للآخرة فهو يعمل للدنيا والآخرة بشكلٍ متوازن ، فيعطي للدنيا حقّها وللآخرة حقّها ، وهكذا يوازن بين مطالب الرّوح والجسد والحياة والموت والأمل والعمل ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ آل عمران/١٤٨ .

٢- خذ من الدنيا ما يبلغك أعلى منازل الآخرة ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك خير الآخرة كقوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف/ ٣٢ ، عن النبي (ص): (إِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ عَدًّا فِي الدَّرَجَاتِ وَيَنَالُونَ الرُّتَبَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ قَدْرِ عَمَلِهِمْ) نور الثقلين ٣/١٤٧ .

٢١ - ٢٢ ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾

انظُرْ يا مُجِدِّ (انظر أيها الإنسان) نظرة اعتبار ، ألم تعلم علم اليقين ، كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأشْكَالِ وَالْجَمَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَلالِ وَالْمَالِ وَحَسَنِ الْحَالِ وَالْجَاهِ وَالْوَلَدِ وَالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ

والكفاءة والموهبة والرئاسة والقبول عند الناس.. على حساب ما علمناه من المصالح العامة المستندة على قاعدة التوازن العام والأسباب والمسببات كقوله ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ الزخرف/٣٣. المعنى: إشارة إلى تفاوت الدرجات على أساس تفاوت القدرات والخبرات والكفاءات والمواهب والمجاهدات واختلاف السعي بجد واجتهاد وعفة وسداد ، والتفضيل في الدنيا ليس بمعنى الأحسن والأكمل بل بمعنى الزيادة المادية في المتاع والأموال والأولاد والجاه والصحة والموهبة والرياسة يكون ذلك بمقدار السعي والإمكانات والظروف المساعدة والوسائل المحفزة وغير ذلك من أسباب الدنيا ، والتفاوت بالأحسن والأفضل والتميز الحقيقي إنما يكون نتيجة الأعمال في الدنيا ، فمرتبة الطبيب الإنساني الحاذق أفضل من مرتبة الطبيب المادي المتكبر ، ومرتبة المؤمن الذي يموت حتف أنفه غير مرتبة المؤمن الشهيد المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله فائدة : لا طبقات عند الله على أساس المال والجمال والأشكال وحسن الحال والجاه والنسب وإنما الأساس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين/٢٦.

أما المال الحرام والعيش المرفه على حساب فقر الآخرين فهو ليس من رزق الله وجريمة في حق المجتمع وعقوبته شديدة ودافعه الشيطان وهوى الإنسان وليس من الرحمن (وَلَا آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذه الدنيا بما لا يقاس، فلا يتوهم متوهم أن أهل الآخرة في عيشتهم ومنازلهم سواء ، وذلك لأن الدنيا محدودة والآخرة عالم أبدي غير محدود، تتفاوت المراتب في الآخرة تفاوتاً كبيراً فيكون ما بين كل درجتين كما بين السموات والأرض، تتفاوت الدرجات حسب تفاوت الكفاءات من العلم والإيمان والعمل الصالح، في غرر الحكم: (أَحْوَالُ الدُّنْيَا تَتَّبِعُ الإِتِّفَاقَ، وَأَحْوَالُ الآخِرَةِ تَتَّبِعُ الإِسْتِحْقَاقَ)، وعنه (ع) في غرر الحكم: (مَنْ عَمَرَ دُنْيَاهُ حَرَّبَ مَالَهُ (ما سيؤول إليه) وَمَنْ عَمَرَ آخِرَتَهُ بَلَغَ آمَالَهُ)، وقد تكون دنيا الأشرار أفضل من دنيا الأخيار بالأشكال والأموال والجاه وحسن الحال ، ولكن حقيقتهم في قلق نفسي وأرق ليلي وعيش منعص كقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ طه/١٢٤.

٢٢- (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) الآية تنهى عن الشرك بكافة ألوانه والتحذير الشديد من عاقبته ، والخطاب خاصٌ بالنبي (ص) ولكن أريد به العموم أي خطاب لعامة الناس لكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أن نقاء التوحيد أمر خاص به ، فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، فإن ساء اعتقاده ساء فكره وقوله وسلوكه وساءت عاقبته ، وكل فرد ينحرف عن عقيدة التوحيد فيجعل مع الله شريكاً في عبادته ، سواء أكان هذا الشريك هوى أو غيره فيقع في الشرك الخفي أو الجلي ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦ ، فسوف تساء

خاتمته المعنى : لا تجعل مع الله (بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ) إلهاً آخر شريكاً له في العبادة لا في العقيدة ولا في العمل ولا في الدعاء (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) فيحبط عملك ويساء مصيرك وأنت لا تشعر ، ثم لا يأتيك من الشرك الخفي أو الجلي غير الدّم والتأنيب والخذلان والخيبة والخسران ولو بعد حين كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/١٠٣-١٠٤ ، (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا) ولفظ (فَتَقْعُدَ) فتصير ، يصوّر هيئة المذموم المخذول وقد حطّ به الخذلان فقعد ضعيفاً عاجزاً مكسوراً تأتيه المذمة من كلّ جانب ومكان ، فالقعود أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً ويشير إلى فداحة الخطب من التّاحية المادّية والمعنوية (مَخْذُولًا) لا ناصر له لأنه منبوذ مكروه يأتيه الخذلان من كلّ مكان، فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه ، فإنّ من لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه. كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣.

٢٣ - ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا بَلَغْنَا عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهِمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْ وَلَا تَهْرَمَاهُ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

وصّى ربُّك وحكم وأمر أمراً قاطعاً لا جدال فيه ، بأن تعبدوه وحده وتوحدوه ولا تعبّدوا إلهاً غيره بقصد أو بدون قصد ولا تشركوا في عبادته أحداً سواء أكان شرك خفي أو شرك جلي ، ومن التوحيد أن لا تتوهمه سبحانه ، بأن تكون العبادة خالصة لله لا شائبة فيها لسواه ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ ، ومن ثمّ يربط السياق القرآني بر الوالدين بعبادة الله لبيان قيمة هذا الأمر عند الله (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أن يعاملا معاملة حسنة في جميع الأوقات والحالات لسعة معنى الحسنه ، وقد قرن سبحانه شكر الوالدين بشكره وقرن برهما بطاعته كما قرن النبوة بالألوهية والزكاة بالصلاة والعمل الصّالح بالإيمان في العديد من آياته سبحانه ، وأوجب البرّ بهما والإحسان إليهما لبيان حقهما العظيم على الأولاد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ، وهي أوّل مرتبة من مراتب البرّ والرعاية والأدب وفيه دلالة : أن لبرّ الوالدين أكرم المنازل عند الله وأفضلهما كما أن عقوقهما من الكبائر ، ومن دعاء الإمام السجّاد (ع) لوالديه في الصحيفة السجّادية : (أَيُّنَ إِذَا يَا إِلَهِي طُولُ شُعْلِهِمَا بِنَّرِيَّتِي ؟ وَأَيُّنَ شِدَّةُ تَعَبِيهِمَا فِي حِرَاسَتِي ؟ وَأَيُّنَ إِفْتَارُهُمَا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمَا لِلتَّوَسُّعَةِ عَلَيَّ ؟ هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوْفِيَانِ مِنِّي حَقَّهُمَا ، وَلَا أَدْرِكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهُمَا وَلَا أَنَا بِقَاضٍ وَظِيْفَةٌ خَدَمْتِيهِمَا) (إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) وأوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما ، وإِنَّمَا خَصَّ حَالَةَ الْكِبَرِ لِأَنَّهُمَا حِينَئِذٍ أَحْوَجُ إِلَى الْبِرِّ وَالْقِيَامِ بِحَقُوقِهِمَا لضعفهما ومعنى (عِنْدَكَ) في كفالتك وحمايتك ومسؤوليتك (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) أُفٍّ : لفظ يدلُّ على التضرُّج والاستئفال أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة (أُفٍّ) ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى بكلمة التأنف، عن الإمام الصادق(ع): (لَوْ عَلِمَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ الْعُقُوقِ أَدْنَى مِنْ (أُفٍّ) لَحَرَمَهُ) مجمع

البيان ٢٧٥/٦، والعقوق من كبائر الذنوب وأشد العيوب ونكران الجميل ، ولها أضرار عاجلة وآجلة عن الإمام الصادق (ع) : (يُرْوَأُ آبَاءَكُمْ يَبْرُكُكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ) تحف العقول ص ٢٦٤ وبالعكس عثوا آبائكم يعقكم أبناءكم ، وعنه: (مَا بَرَّ أَبَاهُ مَنْ حَدَّ إِلَيْهِ الطَّرْفَ) الأمل ٣٩٩/٨ (خزرها ببصره) (وَلَا تَنْهَرُهَا) لا تزجرهما بإغلاظ الكلام معهما ورفع الصوت عليهما فيما لا يعجبك منهما مما يدل على الضجر والضييق (وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) كريماً ذا كرم وجمال وتأثير أي قولاً حسناً ليناً طيباً بأدب واحترام ووقار ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الأحزاب/٧٠ ، قولوا لهما أحسن ما تحبون أن يقال لكم ، وهي التوصية بحسن المعاشرة كقوله ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ لقمان/١٥ ، من علامات برّ الوالدين : أن لا يسبقهما في المشي ولا يرفع صوته عليهما ولا يسميها باسمهما ولا يفعل شيئاً يغيضهما وأن يعطيها ما يريدان قبل أن يسألاه ، وإن ضرباك فاستغفر لهما ، وإن اختلفت معهما في الرأي فإنّ اختلاف الرأي لا يفسد الودّ ولا يقطع الصلّة.

٢٤ - ﴿وَخَفِضْ لَّهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

خفض الجناح : كناية عن التواضع والتذلل ولطف المعاشرة ورقة الحديث ، أي بالغ في التواضع لهما والخضوع قولاً وفعلاً بلا تكلف ولا تصنع كما يخفض الطائر الصغير جناحيه ليستعطف أمه لتغذيته، وكان للذل جناحاً كجناح الطائر يضمّه ويخفضه تعبيراً عن السلام لهما والاستسلام لإرادتهما وبرهما وكسب رضاها ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا تَمَلَأْ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمَا إِلَّا بِرَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ أَصْوَاتِهِمَا وَلَا يَدَيْكَ فَوْقَ أَيْدِيهِمَا وَلَا تَتَقَدَّمْ قُدَّامَهُمَا) نور الثقلين ١٤٩/٣ وبعد موتهما استغفر لهما ونقذ وصيتهما وأكرم صديقيهما وصلّة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي وَرَبَّيَانِي صَغِيرًا، فأنا عاجز عن مكافأتهما بما يناسب برهما بي وقت الطفولة ، وفيه تذكير للولد بأنه كان طفلاً في رعاية أبويه ، وأن أبويه الآن في حاجة إلى رعاية في كبر سنهما مثل تلك الرعاية ، ثم يتوجه إلى الله سبحانه ويطلب منه الرحمة لهما لأن رحمته وسعت كلّ شيء ، فرحمته سبحانه لهما أوسع من كلّ شيء ورعايته أشمل ، والله سبحانه أقدر على الجزاء بما بذلا من جهدٍ في سبيله لا يقدر على جزائه الأبناء ، وهذه وصايا جعلها الله من رحمته بهما مقرونةً بوجدانيتها وعدم الشرك به.

٢٥ - ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾

رَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَأَعْلَمُ بِالتَّوَايَا مِنْ تَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَبِرِّهْمَا وَأَعْلَمُ بِالاسْتِخْفَافِ بِحَقُوقِهِمَا وَهُوَ بِمَجَازِيكُمْ عَلَى حَسَنِ ذَلِكَ وَسَيِّئِهِ فَاحْذَرُوا أَنْ تَضْمُرُوا سُوءًا وَعَقُوقًا (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) إِنْ تَكُونُوا قَاصِدِينَ لِلْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَلَمْ تَقْصِدُوا الْعُقُوقَ بِأَيَّةِ بَادِرَةٍ ظَهَرَتْ مِنْكُمْ عَلَى وَالِدَيْكُمْ لَسَبِّبٍ أَوْ لِآخِرٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ (لِلأَوَّابِينَ) : التوابين ، أي مبالغة أوّاب وتعّدّد عوامل الرجوع إلى الله

(غَفُوراً) متجاوز عن ذنوبهم ، أي الذين كلما أخطأوا غافلين عادوا ورجعوا إلى ربهم مستغفرين نادمين مصلحين كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) البقرة/ ٢٢٢ في غرر الحكم : (التَّوْبَةُ تُطَهِّرُ الْقُلُوبَ ، وَتَغْسِلُ الدُّنُوبَ).

٢٦ - ﴿وَأْتِذَا الْقُرُىَّ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾

أعط كل من له قرابة بك (حَقُّهُ) من البرِّ والإحسان وصله الرحم والإنفاق وقضاء الحوائج كل إنسان بقدر وسعه ، فليس هذا العطاء تفضلاً من أحدٍ على أحد ، إنما هو الحق على إطلاق معناه الذي فرضه الله ووصله بعبادته وتوحيده ، (وَالْمَسْكِينِ) وأعط للمسكين المحتاج لكثرة فقره ، (وَابْنَ السَّبِيلِ) المسافر الغريب المحتاج المنقطع عن أهله وماله في سفره حقه أيضاً ، ولهما حق لازم في الزكاة بنص قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/ ٦٠ ، (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) التبذير : الإسراف بغير حق ، وهو تجاوز حد المعقول والاعتدال والتبذير : هو الإنفاق في غير الوجه المعروف لدى العقلاء أي في غير موضعه المناسب. المعنى : لا تنفق مالك في غير طاعة الله فتكون مبدراً ، لو أنفق إنسان الكثير في موضعه في طاعة الله لم يكن مبدراً لأنه في الحق والخير وما ينفع الناس يرضي الله ولو أنفق قليلاً بغير حق كان مبدراً ، فليست مسألة التبذير هي الكثرة والقلة في الإنفاق وإنما هو موضع الإنفاق المناسب وفي مكانه المناسب وقصده السليم ، وأن يكون الإنفاق الطريق الوسط المعتدل كقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان/ ٦٧ ، وقوله ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف/ ٣١ ، في نهج البلاغة خطبة ١٢٦ : (أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ).

فائدة: (الْقُرْبَى حَقُّهُ) فليس هذا العطاء تفضلاً ، إنما هو حقه لهم وهو أمين على هذا الحق ، كقوله ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ الحديد/ ٧ ، فإذا آذاه لهم فإتأ يودّي ديناً عليه في ذمته ، إنما هو الحق الذي فرضه الله وجعله أفضل عبادة وأحسن قربى إلى الله تعالى. وقد أطلق الحق (حَقُّهُ) ليشمل كل ما هو مطلوب ومرغوب حسب الأحوال الداعية له في الحديث : (إِنَّ الْبِرَّ وَالصَّلَاةَ لَيُطِيلَانِ الْأَعْمَارَ ، وَيُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ ، وَيُكْثِرَانِ الْأَمْوَالَ) روح البيان ١٥٠/٥ ، (وَالْمَسْكِينِ وَالْفَقِيرِ) المسكين أسوأ حالاً من الفقير ، والمسكين من لا شيء له ، والفقير من له شيء وعنده قوت سنته، وهما مصطلحان نسيبان متفاوتان حسب عصرهما وظروف عيشهما وظروف بلدهما ، ورب فقير في بلد غني يكون حاله غنياً في بلد فقير.. وهكذا.

٢٧ - ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

هذا تعليل للنهي من عدم التبذير وهو غاية في الذم والنهي المبذرون هم المسرفون ، أي إنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا (وما زالوا) إِخْوَانًا وَأَعْوَانًا وَأَصْدِقَاءَ وَأَتْبَاعًا وَأَمْثَالَ الشَّيَاطِينِ فِي ضَرَرِهِمْ وَأَشْبَاهَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَلْزَمُوهُمْ وَلَا يَتْرَكُوهُمْ فِي الْإِفْسَادِ لَهُمْ يَنْفَقُونَ فِي الْبَاطِلِ وَالْمَعَاصِي وَالطَّرِيقِ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ، وَكُلٌّ مِنْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ وَالْمَعْقُولَ فِي النَّفَقَةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا فَهُوَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف/ ٣٦ ، يَعْشُ : يُعْرِضُ ، (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا) وَكَانَ إبليس أبو الشياطين مبالغاً في كفران النعمة ولا يؤدي حق النعمة ولا حق منعها فلا يشكر المنعم ويعمل خلاف ما يرضيه ، حيث يصرف ما آتاه الله من التعم والقوة والذكاء الخارق للعادة في إغواء الناس وإضلالهم وحملهم على المعصية حتى يبدلوا نعمة الله كفرًا، كذلك إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ الْمُبَدِّرُونَ لَا يُؤَدُّونَ حَقَّ النِّعْمَةِ وَمَنْعِهَا، وَحَقِّهَا أَنْ يَنْفَقُوهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فِي قِضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ غَيْرِ مُبَدِّرِينَ وَلَا مُسْرِفِينَ ، والتبذير: هو كفر بالنعمة والشيطان أول الكافرين بنعمة الله.

عن الإمام علي (ع): (كُنْ سَمْحًا وَلَا تَكُنْ مُبَدِّرًا، وَكُنْ مُقَدِّرًا وَلَا تَكُنْ مُفْتِرًا) شرح النهج ١٨/١٥٠، وعنه (ع) : (الإِسْرَافُ مَذْمُومٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ) فِي غِرِّ الْحَكْمِ، وَعَنِ النَّبِيِّ (ص): (لَا خَيْرَ فِي السَّرْفِ، وَلَا سَرْفَ فِي الْخَيْرِ) البحار ٧٧/١٦٩. فائدة: التبذير : ينهى القرآن عن التبذير ومعناه الإنفاق في غير حق وفي موارد غير مناسبة ، هؤلاء تجاوزوا مرحلة وسأوس الشيطان وأصبحوا (إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) فِي مَرِحَلَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّنْسِيقِ مَعَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، كَقَوْلِهِ ﴿وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنَا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فصلت/ ٢٥ ، (ومن معاني التبذير) فيشمل الجانب المادي والمعنوي ، كهدر العمر في الفراغ وما لا ينفع ، إيكال مسؤوليات مهمة للفاسدين ، تعليم أعمال فاسدة ويضر تعلّمها لنفسه وللناس ، ومن الإسراف في العمر العمل مع الفاسدين والتعاون معهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومن التبذير صرف الأموال العامّة في القضايا الخاصة أو صرفها في أمور غير مهمّة ، أو صرفها في المهم وترك الأهم.

٢٨ - ﴿وَمَا تُرْضَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾

إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيتهم إنتظاراً لتوسعة الله عليك لتصلهم بها (ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا) ابْتِغَاءَ : طلب الرحمة والرزق من ربك تأملها (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) على سعة معناه ودلالاته ، فقل لهم قولاً سهلاً ليناً طيباً وعددهم وعدداً جميلاً وإدع لهم بالتوفيق وتلطّف في ردّهم وقل اللهم أرزقهم وإيانا من فضلك ، فإن في الكلام الطيب تسليّة لهذا السائل عن النبي (ص): (الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ) البحار ٨٣/٣٦٩، فِي الْحَدِيثِ : (إِنْ لَمْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ) تفسير الكاشف ٥/٤٠.

٢٩ - ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾

الإسلام دين الاعتدال والوسط ، الطريقة المثلى في الإنفاق هو التوازن والاعتدال لا إسراف ولا بخل، (مَغْلُولَةً) بخيلة أي مشدودة بالغل وهو قيد يوضع في اليدين والرقبة بمعنى ولا تجعل يديك مشدودة إلى عنقك من شدة البخل، ولا تفتحهما كلَّ الفتح فلا يبقى لنفسك شيء من كثرة الإنفاق ، عن النبي (ص): (مَا عَالَ امرءٌ (افتقر) مَنْ اِقْتَصَدَ) البحار ٣٤٧/٧١ والتدبير نصف المعيشة ، والخلو (البخل) والإسراف والتبذير، والبخل يعمل تخلخل بالتوازن في الإنفاق ، المعنى : لا تكن ممن لا يعطي شيئاً فتكون بمنزلة من كانت يده مغلولة إلى عنقه ، فيعيش عيش الفقراء ويحاسب عند الله حساب الأغنياء ، عن الإمام علي (ع) : (الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ) البحار ٣٠٧/٧٣، وهذه صورة مبالغة في النهي عن البخل كمن حبست يده عن الإنفاق وشدت إلى عنقه (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) تمثيل للتبذير أي لا تعط أكثر من المطلوب أو تعطي جميع ما عندك فتكون بمنزلة من بسط يده فلا يستقر بما شيء ولا يبقى معها مال ، وهو كناية عن الإسراف المذموم وصورة من صوره الكريهة (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) فتصير مذموماً من الخلق والخالق وتلوم نفسك ، ويلومك الناس على إسرافك وإضرارك بنفسك ، والمحسور : المتحسر والمغموم والعاجز النادم ، المنقطع ، فيكون منقطعاً من المال نادماً على ما فرطت مغموماً حزيناً لعجزك عن أداء واجباتك ، فتكون ملوماً في الحالتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور أوساطها ، وقيل : حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف. فائدة : والتعبير القرآني الفني في التصوير يرسم البخل يداً مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف بقوله (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) إنها نهاية مأساوية سوداء قائمة في الحال وفي المال.

٣٠ - ﴿لَنْ مَرَبِّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهٗ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ) هذا سبيل ربك وسنته الجارية ضمن الحكمة والمصلحة ، أي يوسّع الرزق والعطاء لمن يشاء بأسبابه الموجبة كالسعي والخبرة والكفاءة والاختصاص والتجربة والميراث والهبة وحسن التدبير والتقدير وحسن المبادرة، وأيضاً (يَقْدِرُ) يضيق ويمنع الرزق ويقدره تبعاً لأسبابه الموجبة للحكمة والمصلحة والسنن المتبعة التي توجب المنع والحرمان كترك السعي والجهل في أي عمل وفقدان الخبرة والتجربة وعدم الإختصاص والكفاءة والميراث والهبة وسوء التدبير والتبذير في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عَلَى قَدَرِ تَجْرِبَتِهِ وَمُقَدَّارِ عِلْمِهِ وَخِبْرَتِهِ ، كقوله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام/٨٣ ، عن الإمام الحسن العسكري (ع): (لَا يَشْغَلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ) البحار ٣٨٤/٧٨ ، (إِنَّهٗ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) إنه عالم بمصالح العباد ، الخبير : المحيط بالأمور الغيبية والخفية ، والبصير : محيط

بالأمور الظاهرة ، والتفاوت في الأرزاق كالتفاوت في الأشكال والجمال وحسن الحال، وكالتفاوت بين الناس في كل شيء في القوة والضعف في الصحة والمرض في الذكاء والغباء في الدهاء والشيطنة.. إلخ ، فلا يبسط الله تعالى الرزق كل البسط ولا يمسكه كل الإمساك رعاية لمصالح العباد فإنه كان عباده خبيراً بصيراً، ينبغي لك التشبه بأخلاق الله واتخاذ طريق الاعتدال وتجنب الإفراط والتفريط ، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً والفقر عقوبة! في نهج البلاغة خطبة ٩١ : (وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَمَهَا عَلَى الصِّيقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا وَلِيَحْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَيْرِهَا وَفَقِيرِهَا) وخير العيش ما يكفيك ويغنيك ولا يطغيك ولا يلهيك ولا ينسيك ! فائدة : ينبغي الاستقامة في التفقة وفي كل شيء وتجنب الإفراط والتفريط فإن معطي الرزق ومنظمه هو الأمر بالتوسط في الإنفاق ، وخير الأمور أوسطها فإن الله تعالى يغني ويفقر ويبسط ويقدر ، ولو أغناهم جميعاً لطفوا ولو أفقرهم جميعاً لنسوا وعانوا وشقوا كقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى/٢٧ ، عن الإمام الصادق (ع) : (كثرت السُّحتِ (أكل الحرام) يَحْقُ الرِّزْقِ) البحار ٢٧٨/٢٥٦ ، وقوله ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ القصص/٢٤ ، عن الإمام علي (ع) : (كَمْ مِنْ مُتَعَبٍ نَفْسَهُ مُقْتَرٌ عَلَيْهِ ، وَمُقْتَصِدٍ فِي الطَّلَبِ قَدْ سَاعَدَتْهُ الْمَقَادِيرُ) البحار ١٠٣ص ٢٥ ، كما أن الأجل محدد للإنسان فلا بد أن يتحدد رزقه على مقدار عمره ، عن النبي (ص) : (إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ) البحار ١٠٣ص ٣٣ ، وعنه (ص) : (مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْلَى) البحار ٧٧/١١٥ .

٣١ - ٣٢ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نُنزِلُ قَهْرُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ، وَلَا تَقْرُبُوا الزَّهْرَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

لا تُقدموا على جريمة قتل أولادكم أي بناتكم (حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ) خوفاً من أن تبتلوا بالفقر والحاجة فيؤد بكم ذلك إلى ذل السؤال ، وفيه إشارة : إلى سوء الأحوال المعيشية في الجاهلية وإلى قسوة القلوب، ويؤدي هذا القتل إلى انقطاع النسل أو تزويج بناتكم من غير الأكفاء أو أسرهن لفقرن وفي ذلك عار أيما عار على الأسرة (نَحْنُ نُنزِلُ قَهْرُكُمْ وَإِيَّاكُمْ) رزقهم علينا لا عليكم ، فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم (إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) إن قتلهم ذنب عظيم وجرم خطير وله عواقب سيئة. ٣٢- (وَلَا تَقْرُبُوا الزَّهْرَى) ولم يقل (لا تزنوا) أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من (لا تزنوا) لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللمس والقلبة والنظر بشهوة وغير ذلك مما يجز إلى الزنى ، فاتصال الرجل بغير زوجته والمرأة بغير زوجها فيه عدوان على هذه الحرمة وتلويث لهذه العلاقة الشريفة بين الزوجين ، ما فشا الزنى في مجتمع إلا كان مصيره إلى الانحلال والفساد وضياع الأنساب وابتلى بالأمراض النفسية (الكآبة) ، فهو من كبائر الذنوب ويضر الفرد والمجتمع ويؤدي

إلى موت الفجأة، وضيق الصدر، وتنغيص العيش، وكراهة الأيام ، في نوح البلاغة حكم ٣٠٥: (مَا زَيَّ عَيْوُورٌ قَطُّ) (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) فعل الزنا قبيح متناهٍ في القبح وهو كربه متناهٍ في الكراهية الذي ينطق بالخيانة والعدوان ، فإنه من زنى زُني به ، ومن طرُق باب الناس طرقت بابه ، كما تدين تدان (وَسَاءَ سَبِيلًا) فهو سبيل سيء ويؤدي إلى السوء ، فهو سيء في ذاته وسيء مع غيره ، ولا يسلكه إلا السيء ، فهو يخرّب النفوس والعلاقة الزوجية الشريفة ويفسد المال والعيال ، ويفتح باب الهرج والمرج وسوء الأخلاق والاضطراب الاجتماعي وفقدان الثقة بين الناس ، عن النبي (ص) : (مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشَّرْكِ أَكْبَهَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لَا يَحِلُّ لَهُ) البحار ٧٩ ص ٢٩ .

فائدة : ١- (الزنى بين قتلين) توسط النهي عن الزنا بين (قتلين) النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس ، فيكون الزنى في المنظور القرآني بين قتلين ! إن في الزنا قتلاً من نواحي شتى قتلاً مادياً ومعنوياً ، أولاً يقتل الحياء ، والحياء من الدين فهو يقتل الدين ، ولا إيمان لمن لا حياء له ، وفي غرر الحكم : (عَلَى قَدَرِ الْحَيَاءِ تَكُونُ الْعَقَّةُ) فالزنى يقتل التعقّف ، عن الإمام الصادق (ع) : (عُقُوقُ عَن نِسَاءِ النَّاسِ تَعْفُ نِسَائِكُمْ) البحار ٧١/٢٧٠ ، ومن لم يستح من الناس ، لم يستح من الله سبحانه ، عن النبي (ص) : (مَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ اللَّهِ فِي الْعَلَانِيَةِ ، لَمْ يَسْتَحِ مِنْهُ فِي السِّرِّ) كنز العمال خبر ٥٧٨٩ والزاني يسعى إلى قتل الجنين ، والذي يسهل عليه قتل الصغير يسهل عليه قتل الكبير ! وإذا ترك الجنين حياً عاش حياة مملوءة بالشر والعقد النفسية (الكآبة) وكراهية الإنسان وبغض المجتمع وهو قتل معنوي بطيء وخطير ومرير للجماعة التي يعيش فيها ، وتذهب الثقة بين الناس وتتفكك علاقات المجتمع الطيبة. ٢- (حَشِيَّةٌ إِمْلَاقٍ) خوف الفقر وفيه إشارة إلى أوهام المستقبل دون الحقيقة كقوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ البقرة/٢٦٨ .

٣٣ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

الإسلام دين الحياة والسلام والأمان والاطمئنان ، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا في الحدود التي يرسمها كقوله ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ المائدة/٣٢ ، عن النبي (ص) : (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعَرَضُهُ وَمَالُهُ) وهذه الآية أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكّية. المعنى : وَلَا تَقْتُلُوا نَفْسًا إِنْسَانِيَةً حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا بِغَيْرِ حَقِّ شَرْعِيٍّ مُوجِبٍ لِلْقَتْلِ كَالْقَاتِلِ عَمْدًا وَالزَّانِيِ الْمُحْصَنِ (المتزوج) والمرتد عن دينه (إِلَّا بِالْحَقِّ) إلا إذا كان مستحقاً للقتل (وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا) وَمَنْ قَتَلَ ظَلَمًا وَعَدْوَانًا بِغَيْرِ حَقِّ فَقَدْ جَعَلْنَا (لَوْلِيهِ) لوارثه وقرابته من أبيه (سُلْطَانًا) حقاً سلطة على القاتل بالقصاص منه أو أخذ الدية أو العفو لقوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴿البقرة/١٧٨﴾، (فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) ومعنى الإسراف في القتل : لا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يُمثَّل به أو يقتل اثنين بواحد ، فحسبه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ، فالعدل أساس كلِّ خير (إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) على أي حال ، ومحققاً في القصاص ، لأنَّ الله نصر الولي بأن أوجب له القصاص ، بأن يدفع القاتل إلى أولياء المقتول فيقتله ولا تبعة يلزمه في قتله في دين ولا دنيا كقوله ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ النساء/٩٣ ، عن النبي (ص) : (أَعْتَى النَّاسِ مَنْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ أَوْ ضَرَبَ غَيْرَ ضَارِبِهِ) أمالي المفيد ص١٢٦ ، هذا موقف الإمام علي (ع) من ابن ملجم طاعنه، قال (إن عشتُ فأنا صاحب الحق إن شئتُ أخذت بحقي، وإن شئتُ عفوت وإن متُّ فضرِبَةٌ بضْرِبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ) فالتمثيل بالقاتل هو من الإسراف في القتل. تفسير القرآني للقرآن ٤٨٤/١٥.

٣٤ - ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِاتِّبَاعٍ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾

(وَلَا تَقْرُبُوا) ولا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسنُ وهي حفظه واستثماره بصدق وخبرة وتجربة (حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) حَتَّىٰ يَبْلُغَ اليتيم سنَّ الرشد ويحسن التصرف في ماله حيث يرتفع عنه اليتيم في سنَّ الرشد والوعي لقوله ﴿وَإِنْ تَحَالَطَوْهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ البقرة/٢٢٠ ، (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) أَوْفُوا بالعهود والعقود والوعود سواء أكانت مع الله أو مع الناس ولاسيما عهد الأوصياء على الأيتام لأنكم تسألون عنها يوم القيامة ويحاسب من ينقضها وخيانة لتلك الأمانة ، فأعماله تتمثل أمامه وتشهد عليه وكأنه فلم حقيقي بالصورة والصوت والنية. فائدة : (وَلَا تَقْرُبُوا) نهي عن الاقتراب من هذا الخطر مبالغة في حرمة أكله ، حيث نوازع النفس إليه ودواعي الطمع فيه ، وهو من كبائر الذنوب التي وعد الله عليها النار . ٢- كلُّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، فالعهد إذن له معانٍ واسعة ، عن النبي (ص) : (لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) البحار ١٩٨/٧٢ ، في غرر الحكم : (لَا تَنْفَعَنَّ بِعَهْدٍ مَنْ لَا دِينَ لَهُ) ، ومن العهد الإنسان مع ربِّه حين يقع في بلية أن يتوب ويؤمن ، والعهد الذي أخذه الله تعالى من الناس عن طريق أنبيائهم ورسالاتهم بالالتزام بالتكاليف الدينية. في غرر الحكم : (مَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ، لَا أَمَانَةَ لَهُ).

٣٥ - ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

أَمَّوْا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ لغيركم من غير تطفيف ولا بحس ولا تنقيص في الميزان كقوله ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ هود/٨٥ ، (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) وَزِنُوا (بِالْقِسْطَاسِ) بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا خديعة كقوله ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن/٩ ، (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ذَلِكَ خَيْرٌ مَالًا وعاقبة لكم ، أي وفاء

الكيل وإقامة الوزن الحق خير وبركة ويؤدي إلى توافر الثقة بينكم ويعمل على التهضة الحضارية في المجتمع ، واستقرار اقتصادكم وأمنكم وأمانكم واطمئنانكم النفسي في الدنيا وأحسن عاقبة في الآخرة فائدة : ١- الوفاء بالوزن هو رعاية الحقوق العامة المادية والمعنوية واجب شرعاً وعرفاً وقانوناً وإنسانياً ولا يختص بدين دون دين ، والطمع في الوزن والتلاعب فيه قذارة في النفس وخسنة في الطبع وخيانة في التعامل وتزعزع الثقة بين الناس ، وترفع البركة عنهم وأضراره أكثر من منافعه !

٢- (تأويلاً) التأويل : العاقبة وهو ما سيؤول إليه الأمر وما تنكشف حقيقته مع الزمن.

٣٦ - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

وَلَا تَقْفُ : لا تتبع ولا تقل ولا تفعل ما ليس لك به علم يقيني في أمور الدنيا ، أي لا تشهد ولا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ، والآية أيضاً نهي عن القول بلا علم وعن الحكم بالتهمة والظن ، وعن القطع باللحمة وعن الرجم بالظنة ، ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تثبت من صحته من قول يقال أو رواية تروى ، فلا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم (قُلْ خَيْرًا أَوْ إِصْمِتْ) ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق/١٨ ، في غرر الحكم: (العَاقِلُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِحَاجَتِهِ أَوْ حُجَّتِهِ) ، (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) إِنَّ الإنسان يسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه وبصره ولسانه وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ، وهي أدوات الإنسان في تحصيل العلم وتحمل المسؤولية ، (كُلُّ أُولَئِكَ) كل واحد من هذه الجوارح فأجراها مجرى العقلاء لأنها مسؤولة عن أعمالها ، أي كل تلك الأعضاء سيسألها الله عن عملك لا محالة وستشهد عليك فيما اتبعته واعتمدهت ولم يكن لك به علم ، ولن يقبل لك حينئذ عذر.

كقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصلت/٢٠-٢١ . فائدة: ١- عن الإمام السجّاد (ع) : (لَيْسَ لَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِمَا شِئْتَ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وَلَئِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قَالَ رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ أَوْ صَمِتَ فَسَلِمَ وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَسْمَعَ مَا شِئْتَ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) وسائل الشيعة ١٨ص ١٧ ، عن الإمام الصادق (ع) في الآية: (يُسْأَلُ السَّمْعُ مَا وَعَى ، وَالْبَصَرُ مَا رَأَى ، وَالْفُؤَادُ عَلَى مَا عَقِدَ عَلَيْهِ) الكافي ٣٧/٢ ، ٢- وهذا يطابق الفطرة التي تدعو الإنسان أن لا يتخطى العلم في سير حياته ، ولا يعتمد شيئاً على الظن أو الوهم أو الشبهة ، ٣- إنها كلمات قليلة ولكنها منهج حياة أخلاقي تربوي متكامل عالي المضامين لسلامة القلب وحفظ العقل ومراقبة الحواس، إنه منهج القرآن الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل والفكر على هذا المنهج المستقيم استقام السلوك، لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، وأيضاً لا تبني وأنت في حالة شكٍ أو شبهة ولا تقطع وأنت في حالة الظن والوهم كقوله ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنْ

الظَّنَّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾ الحجرات/١٢، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يونس/٣٦ ، في الحديث : (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) وسائل الشيعة ١٨ص ٣٨ وظن الإنسان على قدر سعة عقله وميزان وعيه وورعه ٤- الآية دعوة أمرة إلى إيقاظ مشاعر الإنسان وتوجيه ملكاته وتربية مواهبه الشخصية ، إنها دعوة التثبيت والتأكد من كلِّ خبر ومن كلِّ ظاهرة ومن كلِّ حركة ومن كلِّ تقييم للفرد أو المجتمع قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدقيق كقوله ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات/٦ ، إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش الوجدان لذقتها وجسامتها ، إنها مسؤولية كبيرة أن يُسأل الإنسان عن كلِّ شيء ، فليعدَّ لكلِّ سؤال جواباً! ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصافات/٢٤ ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة/٧-٨.

٣٧ - ﴿وَلَا تَنْشُرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾

الإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القادر القاهر فوق عباده ، تأخذه الخيلاء الفارغ والكبر الكاذب بما يبلغه من جاه وسلطان وغنى وقوة وجمال المعنى : لا تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ (مَرَحًا) والمرح هو شدة الفرح بالباطل ، وأيضاً مرحاً بطراً كمشي الجبارين ، أي لا تَمْشِ مَخْتَالًا فخوراً مشية المعجب المتكبر (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) فإنك لن تستطيع أن تشق الأرض بقدميك، ولن تجعل فيها خرقاً بشدة وطأتك ، فهي أقوى منك، ولن تستطيع أن تطاول الجبال في شموخها فهي أطول منك ، فأنت محوط بنوعين من الجماد بين حجارة وجماد أنت أضعف منهما ، والضعيف المحصور لا يلبق به التكبر ، وكيف يَتَكَبَّرُ وَاوَّلُهُ نُطْقَةٌ قَدْرَةٌ، وَآخِرُهُ حَيْفَةٌ تَبْتَةٌ، وَهُوَ بَيْنَهُمَا حَامِلُ الْعَذْرَةِ؟ في نهج البلاغة حكم ١٢٦: (عجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة، ويكون غداً حيفة)! وهو قائم بينهما وعاء للغائط، وعن الإمام الصادق (ع) وعاء الغائط تصغير لابن آدم لكي لا يتكبر، وهو يحمل غائطه معه) مستدرك الوسائل ١/٢٣٥ وفي الآية من التقرير والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك ، فاعرف قدرك ولا تتعدَّ طورك، واعرف حدك وقف عندك، في غرر الحكم: (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) والآية كناية عن ضعف الإنسان وعجزه وأنه محاط بكائنات ومؤثرات عديدة من نفسه ، من فوقه ومن تحته وأمامه وورائه وعن يمينه وشماله وهي أقوى منه وأعظم فكيف تتكبر وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ هذا تقرير للمتكبرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/٣٧ ، في الحديث : (مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَغَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ) كثر العمال خبر ٥٧٣٧. فائدة: حين يخلو قلب الإنسان من الشعور بالخالق وقربه منه يملؤه الشيطان بالغرور وحبُّ النفس والأنا ، وتأخذه الخيلاء بما عنده من مال وجمال وحسن حال ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام قدرة الله لتواضع في نفسه ولربه وللناس فهو

عزير بعزة الله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فاطر/١٠ ، عن الإمام علي (ع) : (كُلُّ عَزِيزٍ دَاخِلٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ فَذَلِيلٌ) تحف العقول ص ١٥٣ .

٣٨ - ٣٩ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ، ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾

كُلُّ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ (كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) كَانَ عَمَلُهُ قَبِيحًا وَمَبْغُوضًا وَمَحْرَمًا عِنْدَ اللَّهِ رَبِّكَ الَّذِي رَبَّنَا وَعَلَّمَنَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْعِقَابَ وَالْعَذَابَ .
٣٩- (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) الْحِكْمَةُ : الْكَلَامُ الْمَحْكَمُ الْعَالِي الْمَضَامِينِ ، وَالْحِكْمَةُ تَهْدِي إِلَى الْعِصْمَةِ فِي غَرْرِ الْحِكْمِ : (لَا حِكْمَةَ إِلَّا لِبَعْضِمَةٍ) ، وَأَيْضًا الْمَقْصُودُ الْحِكْمَةُ النَّظَرِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ ، وَالْحِكْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ التَّرْبُويَّةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ ، ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنَ الْأَدَابِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْأَحْكَامِ بَعْضُ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْكَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الْحِكْمَةِ وَهِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة/٢٦٩ ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) : (كَأَدَ الْحَكِيمِ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا) كُنز العمال خبر ٤٤١٢٣ ، وَإِنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي مَحَلِّهَا وَإِنَّ مِنْ أَخْذِهَا فَقَدْ هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) وَالخَطَابُ لِلرَّسُولِ (ص) وَالْمُرَادُ بِهِ أُمَّتُهُ عَلَى قَاعِدَةٍ (إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) وَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْكَافِيَّةِ ٦٣١/٢ ، وَلَا تَتَّخِذْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا فِي الْعَقِيدَةِ وَلَا فِي الْعَمَلِ وَلَا فِي الْقَوْلِ وَلَا فِي الدُّعَاءِ ، وَلَا تَشْرِكْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ سِوَاءِ أَكْوَافِ الشَّرِكِ خَفِيًّا أَوْ جَلِيًّا وَاضِحًا مِنْ هَوَى مَتَبِعٍ أَوْ بَشَرٍ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ (فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا) تَلُومُ نَفْسِكَ وَيَلُومُكَ اللَّهُ وَالخَلْقُ (مَدْحُورًا) مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .
فَائِدَةٌ : أَكَّدَ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالنَّهْيِ عَنِ الشَّرِكِ فِي آيَةِ ٢٢ وَكَرَّرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ (التَّوْحِيدَ) أَسَاسَ الْحَيَاةِ وَرَأْسَ الدِّينِ وَقِمَّةَ الْحِكْمَةِ وَمَنْطِقَ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكُلَّ عَقِيدَةٍ سَمَاوِيَّةٍ ، وَمَبْدَأَ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَمَنْتَهَاهَا ، وَالتَّوْحِيدَ أَسَاسَ كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وَالْأَعْمَالَ كُلِّهَا بِدُونِهِ بَاطِلَةٌ كَمَا لَا يَصْلُحُ مَعَ الشَّرِكِ عَمَلٌ . ٢- (مَكْرُوهًا) وَصَفَ هَذِهِ الْعِيُوبَ وَالذُّنُوبَ بِالْكَرَاهَةِ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَهَا مِنَ الْكِبَائِرِ لِلدَّلَالَةِ إِلَى أَنَّ مِنْ تَسَاهُلٍ فِي عَمَلِ الْمَكْرُوهِ وَقَعٌ فِي الْحَرَمِ ، وَمِنْ اسْتِهَانٍ بِصَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَقَعٌ فِي الْكِبَائِرِ ، لِأَنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى الصَّغَائِرِ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَالْكَرَاهَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَكْفِي فِي وَجُوبِ الْكُفِّ وَالْإِمْتِنَاعِ عَنْ ذَلِكَ .

٤٠ - ٤١ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا

الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

(أَفَأَصْفَاكُمْ) أَفْخَصَكُمْ رَبُّكُمْ بِالذُّكُورِ وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ كَمَا تَزْعُمُونَ ؟ خَطَابٌ فِيهِ تَوْبِيخٌ !
تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْوَالِدِ وَالصَّاحِبَةِ كَمَا تَعَالَى عَنِ التَّشْبِيهِ وَالشَّرِكِ (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) فِي

شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات أي تجعلون لله ما تكرهون. ٤١- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا) وأقسم لقد (صَرَّفْنَا) أي كررنا وبيّنا وأوضحنا بوجوه كثيرة وأساليب متنوعة ووسائل متعدّدة، في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ والقصص والوعد والوعيد والترغيب والترهيب وفي أمر التوحيد ونفي الشرك باستدلالات منطقية ليتذكروا ويعتبروا ويتعظوا ويستقيموا على منهج الله التي بتذكرها يهتدي الإنسان إلى معرفة الحق وتمييزه عن الباطل ، فإنّ التكرار يذكّر الشطّار ، ويقتضي الإذعان ويحرّك الأذهان ويعمل على اطمئنان النفس (ليذكّروا) فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكّر والرجوع إلى أصل الفطرة السليمة ومنطقها النبيل كقوله ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥.

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ الأعلى/٩ ، (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) فما يزيدهم هذا التكرير والتذكير (إِلَّا نُفُورًا) إِلَّا انزعاجاً وتباعداً عن الحق وإصراراً على الضلال والتقاليد الفاسدة ، ومع ذلك ينزل القرآن لإلقاء الحجة عليهم كقوله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلٍّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ ، فتهتدي جماعة وتضل أخرى ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨.

٤٢ - ٤٣ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عَلَوتًا كَبِيرًا﴾
لو فرضنا (وفرض الحال ليس بمحال) أن مع الله آلهة أخرى مهما كان شكلها كما يزعم هؤلاء المشركون (إِذَا لَابْتَغَوْا) لطلب أولئك الآلهة سبيلاً إليه (إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) العرش : كناية عن الملك العظيم أي أئهم سيعثرون على طريق يؤدّي بهم إلى صاحب العرش ، ليعلبوه وينتصروا عليه وينالوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ، فيعزلوه ويستولوا على عرشه ويزدادوا بذلك ملكاً إلى ملكهم لكن لا سبيل لأحدٍ إليه ، وحب المُلْك مغرور في كلّ موجود. ٤٣ - (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عَلَوتًا كَبِيرًا) تنزّه وتقدّس الله تعالى عما يقول أولئك الظالمون من الزور والبهتان تعالياً كبيراً ، فاستشفعوا إنتم لدى الله بالسمع والطاعة مباشرة لا بالأصنام الحجرية أو البشرية. فائدة : (ذِي الْعَرْشِ) ذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعونها آلهة مع الله وهي تحت عرشه وقدرته وليست معه.

٤٤ - ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْتَهُونَ تَسْبِيحَهُ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
تُسَبِّحُ لَهُ : تنزهه عن النقائص وتقدّسه ، أي يسبّح له الكون الكائنات وتنزهه وتقدّسه الأرض والسموات ومن فيهن من المخلوقات عاقلة وغير عاقلة وتسبّح كلّ شيء بحسبه وقدره ومقداره وكيفيته كقوله ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم/٩٣ ، فالعقل يسبّح بلسان المقال وغيره بلسان الحال ، وكأنته يقول أو من بمن خلقتني وأوجدني وأنزهه عن كلّ

عجزٍ ونقص (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وما من شيء إلا وينزهه عن النقص ويحمده على جميل صفاته وكمال أفعاله وجلال ذاته وتسييح الموجودات يصاحب الحمد كقوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ النصر/٣ وكلُّ شيء ناطقٌ بعظمة الله شاهدٌ على وحدانيته عز وجلّ كقوله ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصلت/٢١ ، السماوات تسبح الله في رزقها بقدرها والحقول في خضرتها والبساتين في نضرتها والأشجار في حفيفها والمياه في جريانها والبحار في أمواجها والطيور في تغريدها والشمس في شروقها وغروبها والسحب في أمطارها كلّها تسبح لله بطريقتها الخاصة وتتوجّه إليه سبحانه في علاه (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ولكن لا تفهمون تنزيههم وتحميدهم وتمجيدهم لأنها ليست بلغاتكم وليست من جنس تسييحكم ، وكل من كان له عقل فاعل يفهم عن الله سبحانه ما أقام من البينات على وجوده وعظيم قدرته ، جاء في مناجاة الذاكرين للإمام زين العابدين (ع) ما يقارب ذلك (يَا مُسَبِّحًا بِكُلِّ لِسَانٍ، وَيَا مَذْكُورًا بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَا مَعْبُودًا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيَا مَوْجُودًا فِي كُلِّ أَوَانٍ ، وَيَا مُعْظَمًا فِي كُلِّ جَنَانٍ) (قلب) (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) إنه تعالى حلیم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة غفور لمن تاب وأتاب ، ذكر الحلم والغفران هنا بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل الموكب الكوني المنظم والمقدّر والمدبّر المسبّح كله بحمد الله ، بينما البشر في جحود وجهل وغفلة عمّا يراد منه .

فائدة : ١- إنه مشهد كوني حركي مؤثر نافذ في صورة مجسّمة عالية المضامين ، فإذا الكون كلّهُ والكائنات كلّها في حركة نامية ذاكرة وحياة مستمرة ، وهذا كلّهُ في منظر عظيم مهيب حين يتصوّر الإنسان كلّ شيء يسبح الله عاقل وغير العاقل الصغير والكبير الصامت والناطق ، تسييح ولاء وانتماء ووفاء واتباع وخضوع وطاعة ، كل حصاة وحجر يسبح وكلّ حبة وورقة كلّ زهرة وثمره كل نبتة وشجرة كلّ حشرة زاحفة وكل إنسان وحيوان ونبات وكل دابة على الأرض وسابحة في الماء والهواء.. كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه ، وإذا الوجود كلّهُ تسييحة واحدة متناسقة ترتفع إلى الله ، وكل يسبحه بلغته وطريقته وكيفيته ويجد الوسيلة إليه وحده سبحانه. ٢- عن النبي (ص) : (صَوْتُ الدِّيكِ صَلَاتُهُ وَضَرْبُهُ بِجَنَاحَيْهِ سُجُودُهُ وَرُكُوعُهُ ثُمَّ تَلَا آيَةَ).

٣- (لَا تَفْقَهُونَ) لا تفهمون حقيقة الشيء ، إشارة إلى أن هذا التسييح لا يدركه إلا من فقه فلسفة الحياة وعرف دين الله القيم الذي هو الحياة النامية ، وعلم إنّ هذا الوجود المنظم أكبر من ظاهره المشهود ، وأدرك أن حركة كلّ شيء تسبح لله بطريقتها وبقدرها وتقديرها كقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق/٧ ، وقوله ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ الأنبياء/٧٩ ، وعن الإمام الصادق (ع) : (إِذَا قَرَأَ دَاوُدُ (ع) الرَّبُّورَ لَا يَبْقَى جَبَلٌ وَلَا حَجْرٌ وَلَا طَائِرٌ إِلَّا جَاوَبَهُ!) نور الثقلين/٣/٤٤٤٤ . ٤- حين تصفو الرّوح وتطهر وتشف النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا﴾ الشمس/٩ ، فإنّها تتهيّئ وتتأهل للإلتصال بالملا الأعلى فترتبط مع النظام الكوني العام ،

لارتباط السنن الكونية بالسنن الإنسانية ، وسوف تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الجاهلون والغافلون في غرر الحكم: (ذُرُوءُ الْعَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ). وكان الإمام علي بن الحسين (ع) زين العابدين، عندما يدعو الله تعالى يُحَلِّقُ بروحه إلى آفاق سامية، وصلتنا منه الصحيفة السجادية (زبور آل مُحَمَّد) لتزكية النفس، وتهذيب الطباع والعادات، وتصحيح الفكر والسلوك.

٤٥ - ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾

وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَصْدُقُونَ بِالْآخِرَةِ ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ (حِجَابًا مَسْتُورًا) حِجَابًا خَفِيًّا وَحَاجِزًا نَفْسِيًّا مَعْنَوِيًّا غَيْرَ مَحْسُوسٍ ، إِنَّهُ حِجَابٌ مَضْرُوبٌ عَلَى آذَانِهِمْ فَلَا تَسْمَعُ وَعَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا تَعْقِلُ ، يَحْجُبُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ وَعَدَمَ إِدْرَاكِ أَسْرَارِهِ وَحُكْمِهِ عَقُوبَةَ عَلَى عِنَادِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ ، (وَالَّذِينَ لَا تَنْفَعُهُ الْهُدَايَةُ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ) إِنَّهُمْ يَجَاهِدُونَ قُلُوبَهُمْ أَلَّا تَرُقَ لَهُ وَيَمَانَعُونَ فَطْرَتَهُمْ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّسُولِ حِجَابًا خَفِيًّا كَقَوْلِهِ ﴿كَأَلَّا بَلَّ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/١٤ ، وَقَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥. كان النبي (ص) إذا قرأ القرآن يتصدى له المشركون بالأذى ويسخرون منه ومما يتلو ، فقال سبحانه لنبيه إمض في قراءة القرآن والدعوة إلى الله وهو سبحانه يحبهم عنك بحاجز مانع خفي بينك وبينهم حتى لا يؤذوه.

٤٦ - ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

وَجَعَلْنَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْحِجَابِ الْمَسْتُورِ ، عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ (أَكِنَّةً) أَغْطِيَةً مَعْنَوِيَّةً مَانِعَةً لِّئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ وَجَعَلْنَا أَيْضًا (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) وَقْرًا : صَمَمًا وَثِقَلًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِسْتِمَاعِهِ عَقُوبَةَ عَلَى عِنَادِهِمْ وَجُحُودِهِمْ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ الصَّبَاحِي الْخَالِصَ لَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِي الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ الْخَالِصَةِ (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) وَإِذَا وَحَدَّتْ اللَّهُ وَأَنْتَ تَتْلُو الْقُرْآنَ فَرَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذَلِكَ هَرْبًا مِنْ اسْتِمَاعِ التَّوْحِيدِ ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ يَلْقَوْنَهُ مِنْكَ مَنكِرِينَ مَذْعُورِينَ وَإِذَا وَقَعَ عَلَى آذَانِهِمْ (وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) أَيِ ارْتَدُّوا إِلَى الْوَرَاءِ مَنْزَعَجِينَ كَمَا تَرْتَدُّ الْكُرَّةُ إِذَا اصْطَدَمَتْ بِحَائِطٍ ، لَا شَيْءَ أَشَدَّ وَأَثْقَلَ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) عَلَى قُلُوبِ الْجَبَابِرَةِ الطَّغَاةِ الْبَغَاةِ الْقَسَاةِ الَّتِي تَهْدَدُ وَضَعَهُمُ الْاجْتِمَاعِي ، وَلَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَسَاوَاةَ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِي الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ ، لَا فَوَارِقَ طَبَقِيَّةَ بَيْنَ النَّاسِ ، لَا أَسْوَدَ وَلَا أَيْضَ وَلَا غَنِيَّ وَلَا فَقِيرَ وَلَا عَرَبِيَّ وَلَا أَعْجَمِيَّ إِلَّا بِالتَّقْوَى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ حَكْمٌ ٨١: (قِيَمَةُ كُلِّ إِفْرِيٍّ مَا يُحْسِنُهُ). فائدة: (وَقْرًا) أَسْنَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَطَاءُ وَالصَّمَمُ إِلَيْهِ عَلَى قَاعِدَةِ الْأَسْبَابِ

والمسيبات، باعتبار (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) والأسباب بيد الإنسان تكريماً له والمسيبات بيد الله على ضوء توفر السبب ولا يعمل المسبب إلا بوجود السبب كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/٦٣، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر ، فليست عصا موسى التي فلقت البحر ، وإنما بسبب عصاه تحرك المسبب ففلق الله البحر، أي فاعمل بالمستطاع بلا تقصير والبقية على الله تعالى ، فهو سبحانه هو الذي خلق القلوب والأذان فاستعملوها في غير ما ينفعهم وفي غير ما خلقت من أجله فصارت عليها حُجب تمنع من نفوذ الهداية إلى قلوبهم فأصبحوا كالأموات غير أحياء بسبب تعطيلهم أجهزتهم الحسية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج/٤٦ ، عن الإمام علي (ع) : (إِنَّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ١٩/٢ .

٤٧ - ٤٨ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

نَحْنُ أَعْلَمُ بِالْغَايَةِ الَّتِي يَسْتَمِعُونَ مِنْ أَجْلِهَا الْقُرْآنَ وَهِيَ الِاسْتِهْزَاءُ وَالسَّخِرِيَّةُ وَالِصَّاقُ التَّهْمُ (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) حين يَسْتَمِعُونَ إلى قراءتك يا مُحَمَّدٌ ثم يتناجون أي يتحدثون ويتشاورون بينهم سراً حذراً من رفع الصوت ويتفقون على رأي موحد (إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) حين يقول أولئك الفجرة ما تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا سِحْرَ فُجْرٍ فَاخْتَلَطَ كَلَامُهُ حَتَّى يَبْعُدُوا النَّاسَ عَنْكَ وَعَنِ الْقُرْآنِ إِنْ اسْتَطَاعُوا. ٤٨ - (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا) تأمل يا مُحَمَّدٌ إلى ضلالهم وتعجب من تصرفهم (كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) الأمثلة التي ضربوها كيف مثوك وشبهوك بالساحر وتارة يقولون إنك شاعر وتارة إنك مجنون وكاهن وقد ضلوا بهذا الكذب والبهتان الضلال البعيد الذي ألقى بهم في متاهات الحيرة لا يستطيعون الخروج منها ، إنهم في حيرة مطبقة خانقة ، وهذا ما يشير إليه قوله.

(فَضَلُّوا) فلا يجدون طريقاً مستقيماً إلى الهدى والحق المبين لبعدهم عنه ، وهكذا الحال الحق عند المبطلين والصالح عند المفسدين في كل زمان ومكان (فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) إلى تكذيب الصادق الأمين إلا بالتضليل والافتراءات واللدس والمؤامرات ، والسبب في ذلك لأنه نطق بالحق ولم يحش لومة لائم من أجل نصره الحق. فائدة : (ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) وفي قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء/٩٨ ، هذا هو المثل الذي ضربوه ، وهو مثل واحد قد سمي (أمثالاً) لأنه يحتوي منكرراً غليظاً وخطيراً تتوَلَّدُ منه منكرات ، إذا هو ينكر البعث أولاً ، وينكر قدرة الله ثانياً ثم يتوَلَّدُ من هذا وذاك ما يتوَلَّدُ منه كفر وضلال وشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/١٣٠

٤٩ - ٥١ ﴿وَقَالُوا أَتَدَّ كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا أَتِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾

استفهام تعجب واستنكار ، رِفَاتًا : فتاتًا ، أي قال المشركون المعاندون إذا صرنا عظاماً نخرة وذرات ترابية متفتتة متناثرة في كل مكان (أَتِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) هل سُبُعث وتُخْلَق خلقاً جديداً بعد أن بلى جسمنا وفنى ؟ إنَّ النَّشأة الآخرة ليست أَعسر من النَّشأة الأولى ، وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أَعسر من شيء وأداة الخلق القادرة واحدة في كل شيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس/٨٢ ، والحياة الدُّنيا بلا حياة آخرة تكون حياة ناقصة تافهة فهي دنيا الحياة ، والحياة في الآخرة عليا الحياة وهي التي تعطي للدنيا قيمتها و(لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ) عن ابن عباس: (وليس في الدُّنيا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ) المراغي ١٣٥/٣٠ . ٥٠ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) قل لهم يا مُحَمَّد لتكونوا شيئاً أشدَّ من العظام والرِّفات لو كنتم حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا لقدّر الله على بعثكم وإحيائكم ، فالحِجَارَةُ أَوْ الْحَدِيدُ أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر على إعادتكم للحساب إذا كُنتم عِظَامًا وَرِفَاتًا ؟ والله لا يعجزه شيء .

٥١ - (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) خلقاً يستبعد قبوله للحياة أو كونوا خلقاً آخر بعيداً كلَّ البعد عن الحياة من الحِجَارَةِ أَوْ الْحَدِيدِ مما يصعب في نفوسكم تصوّر الحياة فيه فسيبعثكم الله أحياء لا محالة لأنَّ فلسفة البعث والنَّشور سلسلة من فلسفة الحياة الدُّنيا والوجود وفي هذا إشارة من بعيد إلى ما في صدورهم من جمود وما في عقولهم من تحجر! ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف/٢٩ ، (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا) من الذي يردُّنا إلى الحياة بعد فنائنا (قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) قُلْ لهم يعيدكم القادر العظيم الفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ الَّذِي (فَطَرَكُمْ) خلقكم وأنشأكم من العدم أَوَّلَ مَرَّةٍ (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ) فسيحركون إليك رُءُوسَهُمْ متعجبين مستهزئين وَيَقُولُونَ استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والنشور ؟ (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) لعله يَكُونُ قَرِيبًا ، فإن كُلُّ مُقَدَّرٍ كَاتِبٌ وَكُلُّ كَاتِبٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ، وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَنُ ، وَكُلُّ قَرِيبٍ كَادٌ أَنْ يَكُونَ ، لا سبيل إلى العلم به فلا يعلمه إلاَّ الله فهو من عالم الغيب كقوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ المعارج/٦-٧ .

عن النبي (ص): (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) كنز العمال خبر ٤٢١٢٣ ، وعنه (ص): (يَبْعَثُ كُلَّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خبر ٤٢٧٢٢ . فائدة: ١ - سؤال: لماذا أكَّد القرآن على يوم القيامة ؟ والجواب : التأكيد المستمر على الشيء دليل أهميته الكبرى في حياة الإنسان وإلفات النَّظر إليه ، والشخصية الإنسان الذي يؤمن بالآخرة ويستعد لها تراه يختلف تماماً عن الشخصية التي تنكرها ، فالشخصية المؤمنة تختلف في رؤاها وتصوراتها وفهمها للحياة وللإنسان وتختلف في فهمها للخير والشر والفضائل والرذائل ، وتختلف في طريقة معيشتها وتعاملها في جدّها

وهزها ، وتختلف في معرفة حدودها وتختلف كيف تكرم نفسها وتعزها ، وتختلف كيف تحيا وكيف تموت ، فلم يبق بينهما إلا الأشكال الإنسانية أما معانيها وحقيقتها فهناك فوارق كثيرة وكبيرة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم/٢٧ ، عن الإمام السجّاد (ع) : (العَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى) البحار ٧ ص ٤٢٠ . ٢ - روي: (لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحِشَّةٌ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِي الْقَبْرِ وَلَا فِي الْحَشْرِ وَكَأَنِّي بِأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ التُّرَابِ وَيَقُولُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ) تفسير المراغي ١٥/٥٧ .

٥٢ - ﴿يُؤَيِّدُكُم مِّنْ فَتْنَتِهِمْ يَوْمَ يُفْتَنُونَ إِنَّ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

يوم يدعوكم رب العالمين أولئك المكذّبين للاجتماع في المحشر للجزاء فتستحيون لأمره ناهضين حامدين لله تعالى طائعين منقادين ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ القمر/٧ ، (وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) وتظنون لهول ما ترون إذا رأيتم هول وشدايد ذلك اليوم أنكم ما أقمتم في الحياة الدنيا إلا زمنًا قليلًا ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ المؤمنون/١١٢-١١٣ ، فائدة : (بِحَمْدِهِ) يعدون البعث والإعادة للحساب منه تعالى فعلاً جميلاً وجليلاً يُحمد الله عليه حمداً تكوينياً بلسان الحال أو بلسان المقال على نعمة البعث لأن الحقائق تنكشف لكم بكل وضوح وبلا غموض ولا شكوك في ذلك اليوم الحاسم الحق لذلك صار الموت حق والحساب حق والمعاد حق كما أنّ الحياة حق .

٥٣ - ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بِهَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

وقُلْ لِعِبَادِي المؤمنين وغيرهم يضيفهم الله إليه إضافة تكريم (عِبَادِي) يَقُولُوا في مخاطبتهم الناس ومحاوراتهم في النقاش والجدال المحمود من صفات هؤلاء العباد أن (يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) على وجه الإطلاق في كلِّ مجال ، فيختاروا أحسن الأفكار وأحسن الأساليب وأحسن ما يُقال ليقولوه ، يَقُولُوا الكلمة الطيبة الحكيمة المؤثرة الأخلاقية التي توضع في محلها اللائق في كلِّ مجال ويختاروا من الكلام اللطيف وأحسنه وينطقوا بالحسنى ، فإن الذي يقول الأَحْسَنُ هو الأَحْسَنُ ، وهو الذي يتمكن من إلقاء الحجّة الإلهية عليهم بالأسلوب الجميل والحجّة القطعية المؤثرة لذلك لا تخاشنهم ولا تشاتمهم، قل خيراً أو اصمت ، وبذلك يتقون ويجذرون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة وصلة كقوله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ الحجر/٤٢ ، وقوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨ (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ) أي يدخل الشيطان (يَنْزِعُ) يوسوس ويفسد النفوس ويهيج بين الناس الشرور ويشعل نار الفتنة والكرهية والحقد والحسد بالكلمة الخشنة أو عثرة تصدر من اللسان فتشتد النفرة ويزداد العناد والفساد (إِنَّ

الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقطات لسانه ليحدث العداوة والبغضاء بين الأخ وأخيه والصديق وصديقه ، والقريب وقريبه ، فالكلمة الطيبة والخلق الرفيع يحرك المشاعر ويزيل الحواجز ويطري النفوس ويغلق مداخل الشيطان ويسدُّ عليه الثغرات ويحفظ حرم الأخوة أمنًا من وساوسه ونزغاته ، كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/٢٠١ ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ النحل/١٢٥ ومن مصاديق القول الأحسن وأن يكون في الزمان الأحسن والمكان الأحسن للإنسان الأحسن أن أقول كلمة حقٍ عند سلطانٍ جائر ، وكلمة عدل في مجتمع فاسد ، ومن تكلم كلمة في غير محلها فهي من السفاهة والجهالة، ومن بادر إلى الكلام عن كل ما يخطر بقلبه فقد استخف بنفسه واحتقرها كقوله ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة/٨٣ ، ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الأحزاب/٧٠ ، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق/١٨ ، وعن النبي (ص) (من حُسنِ إسلامِ المرءِ تزكُّهُ الكلامُ فيما لا يعنيه) البحار ١٣٦/٢ ، وفي غرر الحكم : (أحسنُ الكلامِ ما زانهُ حُسنُ النِّظامِ وفهمهُ الخَاصُّ والعَالمُ) (حَيَّرَ الكَلَامَ مَا قَلَّ وَدَلَّ وَلَا يُمْلُ) ، في نهج البلاغة حكم ٣٨٢ : (لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ) ، عن النبي (ص) : (المُسلِمُ أخُو المُسلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَجْذُلُهُ) تفسير المراعي ١٥/١٩ روي: (مَا تَوَادَّ رَجُلَانِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا حَدَّثَ يُحَدِّثُهُ أَحَدُهُمَا، وَالْمُحَدِّثُ شَرٌّ، وَالْمُحَدَّثُ شَرٌّ) كقوله ﴿وَرَبِّنَّ هُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/٤٣ .

٥٤ - ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَائِرَ حِكْمِكُمْ أَوْ إِنْ يَسَائِرُ عَذَابِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ أيها الناس بخفايا نفوسكم وهو يقضي فيكم (إِنْ يَسَاءُ يَرْحَمُكُمْ) بالتوفيق والإيمان والعمل الصالح ، بمقتضى علمه المطلق وحكمته إنكم أهل لرحمته لأنكم سلكتم طريقها باختياركم (أَوْ إِنْ يَسَاءُ يُعَذِّبُكُمْ) بسبب سوء أعمالكم باختياركم فتموتون على الكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ ، كما خلقكم الله بيده أقامكم بعدله وحكمته فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك/١٤ ، وعند البلاغ المبين تنتهي وظيفة الرسول (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) وما جعلناك يا مُجِدِّ (وَكِيلًا) رقيباً وحفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتجبرهم على الإيمان ، فمهمتك إلقاء الحججة الرسالية الواضحة عليهم كقوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، وقوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف/١٨٨ ، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ) روح البيان ٥/١٧٢ .

٥٥ - ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآيَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

انتقال من الخصوص إلى العموم ، وكيف لا يكون أعلم بكل الناس وهو أعلم بأحوال مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف/٥٤ ، (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) بحسب أعمالهم وقدراتهم ومهامهم وبحسب علم الله بهم وحكمته وخصصناهم بمزايا فريدة فاصطفينا إبراهيم (ع) خليلاً وموسى (ع) كليمًا وعيسى (ع) رُوحًا أميناً ومُحَمَّد (ص) رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) زَبُورًا : كتاباً اسمه الزبور أي وأنزلنا الزبور على داود (ع) المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب وفي الزبور أحسن كلمات الحمد والمناجاة والدعاء والمواعظ والأخلاق ، ولكنه نزل بعد التوراة ، فعلى المؤمنين أن يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، والذي يقول الْأَحْسَنُ هو الْأَحْسَنُ ، فتكون الكتب السماوية أبقى وأحفظ من الخوارق والمعاجز المادية المؤقتة التي يراها بعض الناس في ظرف معين من الزمن كقوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/١٠٥. فائدة : ١- كلُّ الأنبياء في طاعتهم لله وعصمتهم عن الخطأ والخطيئة بمنزلة واحدة ، والتفاوت في الدرجة والمنزلة ، كما تقول عالمٌ وأعلم ، جميلٌ وأجمل (ولكلِّ شيءٍ سبب) فكما جعلهم مختلفين في الأحوال والأشكال والجمال ومختلفين في القدرات والكفاءات والاختصاصات والمهام كما اقتضته الحكمة والمصلحة كذلك فَضَّلَ بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ. ٢- مكتوب في زبور داود (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا مَلِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَأَيُّمَا قَوْمٍ كَانُوا عَلَى طَاعَةٍ جَعَلْتُ الْمُلُوكَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةً، وَأَيُّمَا قَوْمٍ كَانُوا عَلَى مَعْصِيَةٍ جَعَلْتُ الْمُلُوكَ عَلَيْهِمْ نِقْمَةً ، لَا تَشْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ وَلَا تَتُوبُوا إِلَيْهِمْ، تُوبُوا إِلَيَّ أَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكُمْ)!

٥٦-٥٧ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُومًا﴾ قُلْ يَا مُحَمَّد ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ آلهة تطاع من دُونِ اللَّهِ من الملائكة والجنِّ والإنس ، وقيل نزلت الآية في الذين عبدوا هؤلاء (فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ولا يستطيعون أن يجلبوا لكم نفعاً. ٥٧- (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) أُولَئِكَ الْآلِهَةُ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِالشَّرِكِ الْجَلِيِّ أَوْ الْخَفِيِّ هُم بِالذَّاتِ.

(يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) يَبْتَغُونَ : يطلبون إلى الله يتوسلون إليه سبحانه فكيف تؤهون عبداً ضعافاً أمثالكم ؟ وكيف تعبدونهم مع الله عزَّ وجلَّ ؟ إذا أصابكم الضرُّ كالفقر أو المرض فاسأل هؤلاء الذين يعبدهم من دون الله أن يكشفوا عنكم ذلك ، ثمَّ أنظروا هل يقدرُوا على دفع الضَّرِّ أو تحويله إلى غيرك ؟ هم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم ؟! (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)

إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ كَعِيسَى وَأُمِّهِ (ع) وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةَ وَعُزَيْرَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ هُمْ يَطْلُبُونَ (وَيَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) ويحرص كلٌّ منهم أن يكون الأقرب إلى رضا الله تعالى من الآخر في الطاعة والعبادة والاستقامة والاجتهاد وزيادة عمل الخير والصلاح ويتسابقون إلى رضاه سبحانه كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة/٣٥) (راجع تفسيرها) ، معنى الوسيلة : ذات مفهوم واسع ولها دلالات متنوعة ، كلُّها تعني التقرب إلى الله تعالى بحسن العبادات وحسن المعاملات أمَّا التَّقَرُّبُ إلى مشاهد النبي وآله فهم مقربون إلى الله تعالى وبجاههم ومنزلتهم عنده سبحانه نطلب من الله أن يستشفعوا لنا إلى الله لقضاء الحوائج، والذي يقضي الحوائج هو الله تعالى وهم وسائط صالحة إليه ، ولا يجوز الطلب منهم بشكل مستقل من دون الله كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦ ، (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ) وعفوه وقربه أكثر مما ترجون (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) وغضبه أكثر مما يخافون فكيف يزعمون أنهم آلهة ؟ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ يَنْبَغِي أَنْ يُخَافَ وَيُحْذَرُ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ وَيُبْعَدُ عَنْهُ ، فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران/٣٠ ، كما يتوجه إليه من تدعوهم آلهة وأولياء من دونه وهم عباد الله يبتغون رضاه ، عن النبي (ص) : (سَلُّوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ؟ قَالُوا وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قَالَ (ص) الْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ قرأ الآية) تفسير المراغي ١٥/٦٣ .

فائدة: ١- ابتغاء الوسيلة : طلبها وإدراكها وهي ما يتوسل به ويتقرب إلى الله من عبادات وقربات وكلما قرب العبد من ربه اشتدت معرفته به سبحانه وازدادت هيئته وخشيته له وخوفه منه فيحرص على مرضاته ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن/٤٦ ، عن النبي (ص) : (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ) البحار ٧٧/١٣٣ ، في غرر الحكم : (الْحَشْيَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئَةُ الْمُتَّقِينَ). ٢- (أَوْلِيكَ) قيل اسم الإشارة يعود إلى المؤمنين الذين يعبدون الله كعيسى وأمّه (ع) (يَدْعُونَ) من ينبغي أن يُدعى وهو الله تعالى .

(يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) يبتغون المؤمنين إلى ربهم (الْوَسِيلَةَ) طلبها وإدراكها وهي الوسيلة التي يتوسل بها ويتقرب إلى الله من أنواع العبادات والقربات (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) إلى ربه أكثر توسلاً إليه بأقرب الطاعات وأخلص العبادات ، وكلما ازداد من الله طاعة ازداد خشوعاً وقرباً ، والدافع لابتغاء الوسيلة إليه سبحانه (يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ) و (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) وهي منزلة الاعتدال بين الرجاء والخوف كقوله ﴿يُحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر/٩ ، عن الإمام الصادق (ع) : (أَرْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَا يُجْرِيكَ عَلَى مَعَاصِيهِ وَخَفَ اللَّهُ خَوْفًا لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ) البحار ٧٠/٣٨٤ .

٥٨ - ﴿وَلَنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مَعَدُّوهُمَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ المراد بالقربة ﴿الْقَرْبَةُ الظَّالِمِ أَهْلِهَا﴾ النساء/٧٥ ، أيّة مدينة أو محافظة أو مجتمع فاسد الذي يغلب فسادُه على صلاحه الذي عصي وتعدّد حدود الله وكذب رسله ورسالة ربهم بلسان الحال قبل لسان

المقال ، هذا المجتمع سيهلكه الله قبل يوم القيامة بأية وسيلة من وسائل الهلاك المادي السريع أو المعنوي (النفسي) البطيء ، إِمَّا بالاستئصال الكلي أو الجزئي أو بالعذاب الشديد لأهله بالخن والغلاء والأمراض النفسية والأوبئة الفتاكة أو بالموت البطيء أو الحروب الأهلية الإرهابية والمعاناة المختلفة وخراب البلاد والعباد بسبب فساد أهلها وفسق مترفيها ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل/١١٨، وقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧، (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) كان ذلك الحكم وما جرى به القلم والقضاء مثبتاً في علم الله مسطراً مكتوباً في اللوح المحفوظ لا يتغير كقوله ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ القمر/٥٣ ، في الحديث: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ثُمَّ خَلَقَ الدَّوَاةَ ثُمَّ قَالَ أَكْتُبْ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) روح البيان ٥/١٧٦، أو يكون المعنى: فقد قدر الله أن يجيء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة، فالهلاك ينتظر كل حي قبل ذلك اليوم الموعود كقوله ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يس/٢٩، ومعنى إهلاك القرى هو تركها ينخر بها الزمن بالفساد يفعل فيها ما يفعل في الأحياء، (وَإِذَا كَانَ الْأَجَلُ فِي إِقْبَالٍ، وَالْعُمُرُ فِي إِدْبَارٍ فَسُرْعَانَ الْمُتَّقَى!) في نهج البلاغة حكم ٢٩: (إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُتَّقَى) كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ النمل/٤ ، يَعْمَهُونَ: العمه عمى البصيرة في القلب، عن النبي (ص) (شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ٧٧/١٤٤، والعمى يصيب العيون.

٥٩ - ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾
 وَمَا مَنَعَنَا مِنْ إِسْرَالِ (الآيَاتِ) المعجزات والحوارق التي اقترحتها قومك كقولهم إجعل لنا جبل الصفا ذهباً وأن يزيح عنهم الجبال فيزرعون.. إلخ ، إلا تكذيب من سبقهم من الأمم الذين هم أمثالهم في الطبع، أي إن السابقين اقترحوا معاجز فاستجبنا إليهم فكذبوا بها فاستحقوا الهلاك ﴿وَإِنْ يَعْوُدُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ﴾ الأنفال/٣٨ ، لكن الله قضى على هذه الأمة أن لا يعاجلهم بالعقوبة ولا يعذبهم عذاب استئصال كلي إلا بعد مهلة كافية وضرب الله مثلاً على ذلك (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) وأعطينا قوم صالح النَّاقَةَ (الجمل) التي اقترحوها (مُبْصِرَةً) آية واضحة ومعجزة ساطعة تبصر كل من تأملها فكفروا بها فعقروها فأهلكهم الله بذنوبهم (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ المقترحة لآتاً لا نريد أن نعذبهم بعذاب الاستئصال ، يَخَوْفُ اللَّهُ سبحانه عبادَه بما يشاء من الآيات لعلمهم يتعظون ويتقون ويرجعون إلى الله (وَالَّذِي لَا يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِزَّةً لِلْبَاقِيْنَ) في غرر الحكم: (مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِالنَّاسِ، وَعَظَّ اللَّهُ النَّاسَ بِهِ) عن النبي (ص): (السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بَعِيْرِهِ) البحار ٧١/٣٢٤. فائدة: (إِلَّا تَخْوِيفًا) وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل وقلة المياه إلا زجرًا للناس وعظةً ليتقوا الله وليحذروا بمشاهدتها ما هو أشد وأفظع منها ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ المعارج/٢ ، وليس له رافع.

٦٢- (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) قَالَ إبليس اللعين جرأة على الرب العزيز وإساءة الأدب معه وكفراً به ، أترى أو أخبرني هذا المخلوق الذي فضلته عليّ وجعلته أكرم مني عندك ؟ كقوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الأنبياء/٧٠ ، وجعل الشيطان عليه اللعنة إلى يوم الدين ، وهل يوجد ما يدعو إلى تفضيله عليّ ؟ (لَئِن أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) لَأُحْتَنِكَنَّ: لأستوليَنَّ لأحتويَنَّ لأسيطرَنَّ لأضلنَّ لأفودنَّ ، وأصلها من قولهم حنك الدابة إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به كأنه يملكهم ويسيطر عليهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ويسيطر عليه. المعنى : أقسم إبليس أن ينتقم لنفسه من ذرية آدم ، لَئِن أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وهو مدة مكث بني آدم في الأرض - لألجمنَّ ذُرِّيَّتَهُ ولأملكنَّ زمامهم ولأجعلنهم في قبضتي وتحت إرادتي ، وأفودهم إلى أنواع المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها إذا شدَّ فيها حبل اللجام تُشدُّ به إلاَّ القليلُ منهم وهم المُخْلِصُونَ كقوله ﴿ قَالَ فِعْرَتِكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ ص/٨٢-٨٣ ، عن الإمام علي (ع) : (فِي الْإِخْلَاصِ يَكُونُ الْخَلَاصُ) تنبيه الخواطر ص ٣٩٠ ، وعن النبي (ص): (بِالْإِخْلَاصِ تَتَفَاضَلُ مَرَاتِبُ الْمُؤْمِنِينَ) تنبيه الخواطر ص ٣٦٠ ، وعنه (ص) : (الْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ هَلَكَى إِلَّا الْعَامِلُونَ وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلَكَى إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى حَظَرٍ!) تنبيه الخواطر ص ٣٥٨. فائدة : ١- إذا كان الله عز وجل يتحاور مع إبليس في ساعة التمرّد على أوامره ويجادله بالتي هي أحسنُ ، فكيف بنا نعجز عن محاوره الآخرين؟ فنحن اختلفنا وتنازعنا ففشلنا! ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ الأنفال/٤٦ ، إلى متى نستمر بهذا الفشل ؟ ٢- غفل إبليس عن فلسفة تكريم الإنسان بسبب استعداده للخير والشر فمن تغلّب عقله على شهوته كان خيراً من الملائكة ومن تغلّبت شهوته على عقله كان شراً من البهائم (وَإِذَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَعُرَتِ الشَّهْوَةُ) وبالعكس إذا كَبُرَتِ الشَّهْوَةُ صَعُرَ الْعَقْلُ. في غرر الحكم: (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتِ الشَّهْوَةُ)

٦٣ - ٦٤ ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ، وَاسْتَفْرَضْنَا مَنْ اسْتَعْلَمَتْ مِنْهُمْ بَصُوتَكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَاكَرَكَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلشَّيْطَانِ (أَذْهَبْ) وابدل جهدك وحاول محاولتك (أَذْهَبْ) مأذوناً في إغوائهم وهو أمر إهانة ، فهم على استعداد مزدوج للهداية والغواية فهم مزودون بالعقل والإرادة ويملكون إرادة الاختيار أن يتبعوك أو يخالفوك ويعرضوا عنك ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، وينهى الله تعالى عن الغواية ويأمر بالهداية ، والله سبحانه وهب للإنسان القدرة والعقل والإرادة الحرّة ، وبيّن له الخير وأمره به وأثابه عليه ، وبيّن له الشرّ ونهاه عنه وعاقبه عليه ، فمن أطاع أصاب سبيل السلامة ، ومن عصى سلك سبيل الندامة كقوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/٣ ،

عن الإمام الصادق (ع):

(اللَّهُ سبحانه وتعالى يَحْتَجُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَزَفَهُمْ) التوحيد ص ٤١٠ ، وأصبح الإنسان مسؤولاً عن مستقبله الدنيوي القصير ومستقبله الأبدي (الْإِنْسَانُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) ، فمن تبعك منهم

معرضاً عن الرحمن إلى الشيطان فإن جهنم جَزَأُوكُمْ أَنْتِ وَتَابِعِيكَ جَزَاءً مَوْفُوراً تاماً وافراً كاملاً لا ينقص منه شيء ، في غرر الحكم: (النَّارُ عَايَةُ الْمُفْرِطِينَ). ٦٤- (وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ) (اسْتَفْزِرْ): استخف واستجهل وهيج وحرك (بِصَوْتِكَ) بوسوستك وقدرتك وإغوائك وإغرائك ، كناية عن استخفاف المؤمنين المخلصين بأنواع الوسواس الباطلة ، وتمثيل بما يساق الغنم وغيره بالنعيق والزجر وهو صوت لا معنى له من أصوات الشيطان وإغوائه، وكل دعوة مشبوهة وملغومة ومقالة خادعة أو فلم سينمائي مضل أو خطة فاسدة ومنها الأفلام الإباحية والأقلام المنحرفة ووسائل الإعلام المختلفة المأجورة المغرضة.. إلخ هي صوت إبليس (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) من الجلبة وهي التهويل عليهم بالأكاذيب الخادعة وضح عليهم وثير عليهم الأجواء وشوش عليهم الرؤية الصحيحة ! (بِحَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) بِحَيْلِكَ: بفرسانك وجيوشك (وَرَجْلِكَ) ورجالتك وأعوانك ولا جنود لإبليس ، بعضهم فارس وآخر راجل وإنما هو كناية تشبيهية عن تعاون أهل الشر وأعوان الفساد ، والفارس من كان للشيطان أطوع وأسمع كقوله ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ الشعراء/ ٩٥ ، وكأما جيشه رجال وركبان يعني يأتيهم بأساليب مغرية متعددة وهي من خطوات الشيطان الخبيثة (وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ) بكسبها من الحرام وإنفاقها في الآثام (وَالْأَوْلَادِ) كناية عن أولاد الزنا والتربية الفاسدة أو بإهمال تربيتهم على الصلاح ، ففيه شركة للشيطان (وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) خداعاً بإظهار الخطأ في صورة الصواب ، ووعد الغرور هي كلمة حق يراد بها باطل ، مثلاً يقول لا تحف من المعصية فإن الله كريم وغفار وما زلت في مقتبل العمر وغداً تستغفر وتتوب ! هذا تجسيم حركي واسع الدلالة لوسائل الغواية لإبليس ومحاولة الإحاطة بالناس والاستيلاء على قلوبهم ومشاعرهم وضمائرهم وعقولهم بشتى الوسائل والأساليب المغرية التي ظاهرها يعرُّ ويسرُّ وباطنها يضرُّ، فهي المعركة المعنوية النفسية الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والمغريات والخيل والرجال والعدّة والعدد ، على طريقة المعارك والمبارزات يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء بالإغواء والإغراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال والجيوش!

(وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) والتعبير يصوّر في عمومته شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة وزينتها فينصصها الشيطان ، وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ومنها الوعود المغرية الخادعة الكاذبة (وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) وعدهم المواعيد الباطلة.

(وَمَا يَعِدُهُمْ) جاءت بالمضارع المستمر للدلالة على أنّ أساليبه متغيّرة ومتقلّبة وخطواته متلونة وخادعة ومستمرّة وخبيثة كالوعد بالإفلات من العقوبة في الدنيا والآخرة ، والوعد بالغنى من المال الحرام والوعد بالغبلة والفوز بالوسائل القدرة والأساليب الخسيسة.. وهكذا. فائدة : ١-

(بِصَوْتِكَ) من أصوات الشيطان الغناء واللهو المحرّم والطرب الماجن والملاهي الليلية وكل صوت

يدعو إلى الفساد والإفساد. ٢- كل هذا الهجوم الشيطاني يبني على الوسوسة والإغراء وليس على الإجبار والإكراه ، فهو يدعو والإنسان يستجيب فيكون كيده ضعيفاً ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ النساء/ ٧٦ ، كقوله ﴿دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إبراهيم/ ٢٢. ٣- ﴿بِحَيْلِكَ وَوَجَلِكَ﴾ كلام فيه تمثل وتقريب للواقع أن أعوان الشيطان منهم من يعمل بسرعة كما الفرسان في الحرب ومنهم من يعمل ببطء كما الرجال ، فلا يغتر بالشيطان ووساوسه إلا من هو على شاكلته بغياً وغياً وفساداً ، والطيور على أشكالها تقع.

٦٥ - ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا﴾

إِنَّ عِبَادِي الْمَخْلَصِينَ وَنَسَبَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ أَخْلَصُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ فَأَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَاصْطَفَاهُمْ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ كَقَوْلِهِ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الزمر/ ١١-١٢ ، هؤلاء لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ تَسَلِّطْ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَى إِغْوَائِهِمْ لِأَنَّهُمْ مَزُودُونَ بِحِصَانَةٍ ذَاتِيَةِ إِيمَانِيَّةٍ قَوِيَّةٍ تَمْنَعُهُمْ مِنْ مَوْامِرَاتِهِ كُلِّهَا إِلَّا مِنْ اتَّبَعَكَ مَخْتَاراً (وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا) حافظاً وعاصماً من كيدك وشركك لمن التجأ إليه سبحانه وتوكل عليه (وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَقَّاهُ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ حَصِّنْ حَصِينٌ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة/ ٥١ ، فمتى اتصل القلب بالله واستذوق حلاوة قربه ولذته حبه وجمال جذبه ، صغرت الدنيا في عينه وارتبطت بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا كَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة/ ١٦٥ ، في نهج البلاغة خطبة ١٩٣: (عَظْمُ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَعُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) والقلب الموصول بالله هو القلب المفصول عن الشيطان واستذوق حلاوة الإيمان وكان من عباد الرحمن فما للشيطان عليه من سلطان! كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف/ ٢٠١، كما جاء في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة : (إِلَهِي أَطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ) ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا يَمَحُضُ رَجُلٌ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَالِدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمَنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ) البحار ٧٠ ص ٢٤.

٦٦ - ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾

ثم ذكر تعالى عباده بنعمه وإحسانه عليهم وآثار قدرته وعظمته فقال ربكم هو الذي (يُرْجِي) يسوق ويدفع برفق ويُسَيِّرُ لكم (الْفُلْكَ) أنواع السفن في الْبَحْرِ (لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ) لتطلبوا من رزقه في تجاراتكم وسفراتكم والحصول على ما ليس لكم من نعم الأمم الأخرى (إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) سهّل لكم أسباب ذلك، وسهّل لكم علم كل شيء ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/ ٥، فهو سبحانه رحيم بالعباد معينهم. فائدة : الحكمة في ذكر الفلك في البحر هي أن يكون الإنسان

دائماً على ذكر بأن الله هو الفاعل المتصرف في الكون وليست الطبيعة (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) فالرحمة في ظروف الرهبة هي أظهر ما تستشعره القلوب الخائفة.

٦٧ - ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

كَنُفُورًا﴾

إِنَّهُ مشهد يحسُّ به من كابده ، وإذا أصابتكم الشدة والخطورة وخفتم الغرق في البحر (ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ) غاب عن خاطرهم كلُّ الآلهة والأسباب التي تدعوها ولم يبق أمامكم إلا الله وحده المنقذ والمغيث ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هود/١٠٧ ، ويكون الانقطاع والتضرع إليه سبحانه بالقلب وكامل التوجه ، ولسان الحال أصدق من لسان المقال ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل/٦٢ ، (فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) فَلَمَّا نَجَّكُمُ من الغرق أَعْرَضْتُمْ عن الإيمان والتضرع ، وهذه صفة الذين لم يهذبهم دين الله فهم في الشدة يدعون الله للنجاة وفي الرخاء والأمان ينسون الله تعالى ، ومن نسي الله تلقفه الشيطان (وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) ومن طبيعة الإنسان المتبع للشيطان جحود لنعم الرحمن كقوله ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء/٣٨ ، ولكن طبيعة المؤمن الصادق يكون مع الرحمن ويستقيم على منهجه في الشدة والرخاء وفي كلِّ الأحوال والأشكال ، عن النبي (ص): (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُ مَا كُنْتَ) كنز العمال خبر ٦٦.

فائدة: (خطورة الشرك الخفي) قد يشتدُّ انحراف فطرة بعض النَّاسِ فإذا بهم في ساعة العسرة والشدة لا يلتجئ إلى الله مباشرة ، ولكن يلتجئ إلى بعض مخلوقاته يدعوها من دون الله للتصرة والإنقاذ والتجاة لكونها ذات منزلة عالية عند الله ! كالذين يدعون أولياء الله في حضراتهم من دون الله كالأنبياء والأئمة من أهل بيت النبي مُحَمَّد (ص) لإنقاذهم من مرضهم وشدهم ! وكلُّ دعوة من دون الله دعوة شرك خفي كقوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦ ، ويمكن القول في روضات الأنبياء والأئمة (ع) : اللهم بجاههم عندك سخر لي أسباب النجاة وقضاء الحاجات ، لأنَّ الله تعالى هو قاضي الحاجات وهم وسائل شريفة مقربة إلى الله تعالى ، كما جاء في دعاء التوسل : (يَا وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ إِشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ) ، كقوله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/٤٩ .

٦٨ - ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْجَانِبُ الْبَرُّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا﴾

الاستفهام إنكاري ، أم أمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض وهما عنده بمنزلة سواء فيخفيكم في باطنها فيجعل عالي الأرض سافلها ؟ إنكم في قبضة الله في كلِّ لحظة وتحت قدرة الله في كلِّ مكان حتى لو تحصنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، فكيف تأمنون بطش

اللَّهُ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البروج/١٢، فينتقم منكم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ المائدة/٩٥، بزلزال أو رجفة أو بركان أو مرض عضال؟ (أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) أي ريحاً شديدة حاصبة أي ترمي بالحصباء وهي الحصى القاتلة فيهلككم بذلك كما فعل بقوم لوط (تُمْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) وَكِيلًا : ناصراً وحافظاً ، أي لا تَجِدُوا من يقوم بأموركم ، وَكِيلًا يحفظكم من عذابه تعالى ويحميكم ويدفع عنكم البلاء كيف أمنوا مكر الله؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩

٦٩ - ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا تَبِيعًا﴾

أَمْ أَمِنْتُمْ بنجاتكم إلى البر أن يُعِيدَكُمُ اللهُ فِي الْبَحْرِ تَارَةً أُخْرَى بسبب من الأسباب (فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ) فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (قَاصِفًا) ريحاً عاصفة قاصفة مدمرة انتقامية لا تمر على شيء إلا قصفته وحطّمته وكسرتَه (فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ) فَيُغْرِقَكُمُ بسبب كفركم وفسادكم (تُمْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا تَبِيعًا) يتابعنا أي لا تَجِدُوا من يطالبنا بتبعة إغراقكم ويسألنا لم فعلنا هذا بكم ؟ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء/٢٣ ، كقوله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ ، إنها الغفلة عن سنن الله أن يتوجّه الناس إلى الله في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة وكأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله تعالى ! كقوله ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق/٢٢ ، وعادة الغفلة من فساد الحس، وكفى بها ضلالة وجهالة، (فَلَا تَعْقُلْ فَلَسْتَ بِمَعْقُولٍ عَنْكَ). في غرر الحكم: (احذروا العفلة فإنها من فسَادِ الْحَسَنِ)

٧٠ - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَمَيْنَاهُمْ مِنَ الْعَالَمَاتِ الْغَابِيَاتِ وَضَعْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ حَلَقَاتِنَا تَفْصِيلًا﴾
وَلَقَدْ (كَرَّمْنَا) شَرَّفْنَا ذرية آدم تكريماً شاملاً واسع الدلالة برّهم وفاجرهم على جميع المخلوقات ، وميّزناهم بكثير من المزايا التمودجية كالعقل والعلم والحلم والطموح والنطق وحسن الصورة وتسخير الأشياء له ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين/٤ ، وفي أعقد تركيب ، وكرّمه أحسن تكريم وجعله خليفة الله في أرضه وبمعرفة اللغات وأنواع الصناعات وحبّ الجديد والتطلع إلى الأحسن وغير ذلك.

والتكريم تكويني ذاتي هو تكريم طارئ ومكتسب ، أما التكريم التكويني (الذاتي) لابن آدم ذكراً كان أم أنثى ، أسود أم أبيض ، مؤمن أم ملحد ، فهو كرامة ذاتية تخلق معه منذ التكوين والولادة ، وكرامة مكتسبة طارئة يحصل عليها بسعيه وعلمه وقدراته وكفاءاته وإرادته ، ومن آثار الكرامة التكوينية: حقه في الحياة وحفظ حقوقه وصيانتته من الاعتداء والأذى ومن آثار الكرامة

المكتسبة: كرامة الإخلاص والتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/١٣ ، وكرامة العلم ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة/١١ ، الذين ينفعون الناس بعلمهم ، وكرامة العمل ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الأنعام/١٣٢ ، وكرامة القدرات والاستعدادات المتنوعة التي أودعها في فطرته والتي جعلته مؤهلاً بما الخلافة لله تعالى في أرضه ، وكرمه أيضاً بتسخير كل الكون والكائنات له ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تَنْفُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُدُوا﴾ الرحمن/٣٣ وكرمه بسجود الملائكة له ، وكرمه في كل شيء في حياته وبعد مماته فيحفظ حقه في ثلث ماله في كتابة الوصية ، وكرمه في زواجه فجعل زوجته من نفسه في نظام نفس واحدة موحدة متحدة ، وكرمه في حقوقه فجعل حق الناس مقدّم على حق الله! وكرمه في أكله وشربه ، في منامه ويقضته ، وكرمه في طموحه والتطلع نحو الأفضل والطموح ميزة ينفرد بها الإنسان عن كل الكائنات ، كرمه بالعزة فحرم عليه الذلة ، في غرر الحكم: (سَاعَةٌ ذُلٌّ لَا تَفِي بِعِزِّ الدَّهْرِ) عن الإمام الهادي (ع): (مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ) تحف العقول ص٣٥٨ ، كرمه في صحته ومرضه فجعل لكل داء دواء ولكل مرض شفاء ، وكرمه باختياره وأعطاه القدرة على التمييز ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦ ، وهو مسؤول عما يختار ومحاسب عليه.. وغيرها (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) حملناهم بتسخير القوانين الكونية وجعلها موافقة لطبيعة القوانين والسنن في الحياة الإنسانية لوجود العلاقة المتجاذبة المترابطة بينهما ، وجعل الله سبحانه الإنسان مزوداً بمؤهلات متعدّدة قادرة على اكتشاف أسرار الوجود ورؤية عجائب الكون والكائنات كقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت/٥٣ ، إنه الحق في هذا الدين الإسلامي وفي هذا القرآن الكريم ، وفي هذا المنهج المستقيم، أي وحملناهم على مختلف وسائل النقل القديمة والحديثة في البر والبحر والتّهر والجو بالطائرات الحديثة وحملناهم بالمكنوك الفضائي ليصل إلى القمر والمريخ والزّهرة.. إلخ (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) من لذيذ المطاعم والمشارب وأنواع اللحوم والسمك والطيور وأنواع العسل والزبد والتمر.. وغيرها وجعلنا رزق الحيوان التبن واللحوم والحشائش.

عن الإمام الصادق (ع) : (الرِّزْقُ الطَّيِّبُ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ) والعلم النافع مع حياة القلوب، وَهُوَ مِنَ الْمَصَادِقِ.

في غرر الحكم: (اكتسبوا العلمَ يَكْسِبْكُمْ الْحَيَاةَ) ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/٥٣ ، والإنسان الذي لم يهدّبه دين الله ينسى ما رزقه الله من النعم الطيبة الكثيرة بطول الألفة فلا يتذكر فضل الله عليه بهذه الطيبات إلا حين يحرم منها ! (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) عظيماً ، وَفَضَّلْنَاهُمْ كَمُؤْمِنِينَ صَالِحِينَ نَافِعِينَ (عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا) من غير المؤمنين من الإنس

والجن والحيوان تَفْضِيلاً بِنَاءً ، هذه الفضائل تجعل الإنسان فِئْداً ومخلوقاً مُمَيَّزاً نموذجياً بين الخلائق المتنوعة في ملك الله الواسع. بمعنى: الإنسان خليفة الله على الأرض فمن قبل الخلافة استقام على منهج الله وكان أفضل المخلوقات عموماً بعقله وإيمانه وكان مكرماً واحترام نفسه في غرر الحكم: (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرِيَّ عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ) وفيه (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) وفيه (رَجِمَ اللَّهُ إِمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوْقَ عِنْدِهِ) ، والله تعالى أكرم الإنسان فعليه أن يكرم نفسه ويحافظ على كرامته، في غرر الحكم: (مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يُهِنَّهَا بِالْمَعْصِيَةِ) ومن انخرق عن منهج الله بمعنى رفض الخلافة فلم يكن مكرماً ومفضلاً، بل كانت المخلوقات المطيعة لله أفضل منه كقوله ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ الحج/١٨، في غرر الحكم: (مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ مَلَكَهَا، وَمَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ أَهْلَكَهَا)، عن النبي (ص): (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُعْرِفُ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَهْلَهُ وَوُلْدَهُ، وَإِنَّهُ لَا كَرُمَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ) البحار ٦٨ ص ١٩، وفي الحديث القدسي: (يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي) (وَمَا تَسْعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ). فائدة: الإنسان سيّد المخلوقات كلّها في هذا العالم ، ما دام محتفظاً بكرامته الإنسانية عاملاً على الارتقاء بوجوده فيكون الإنسان بين جاذبيتين ، بين جاذبية الجسد المادّي وما فيه من شهوات ومطالب لذات تشدّه إلى جاذبية الأرض وتعمل على حجبها إلى التطلع نحو آفاق عليا ، وهناك جاذبية الرّوح والنفس والعقل والفكر وما فيها من استعدادات وملكات إذا الإنسان هدّبها فسوف تريك ما وراء المراتب في آفاق السماء العليا وقيمها المثلى، في غرر الحكم: (ذَرُوهُ الْعَالِيَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُوُّ التَّهْدِيْبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ!) كما قيل : غصوا أبصاركم عمّا حرّم الله عليكم، فسوف ترون العجائب، وتكشف لكم الأسرار، وتنسّقون مع الأقدار !

٧١ - ﴿يُورِدُكُمْ كُلُّ نَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَتْرَعُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾

مشهد يصوّر كلمة (إمام) في هذا المكان لها معنى واسع يشمل أئمة الهدى وأئمة الضلال ويشمل أيضاً الكتاب والسنة ، وفي ذلك تحذير للبشرية كي تدقق في انتخاب قيادتها وقودتها ، وأيضاً المشهد يصوّر الخلائق محشورة في ساحة المحشر وكلّ جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته أو الرسول الذي إقتدت به أو الإمام الذي إتممت به في الحياة الدّنيا ، تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدّار الآخرة ويشمل هذا الكتاب الصورة والصوت والنبية وكأتما حياة الإنسان فلم مجسّم متحرّك واقعي يعطيك تفصيل كلّ شيء كقوله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف/٤٩ ، إمامهم كتابهم كقوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يس/١٢.

وإمامهم: رئيسهم وقائدهم وقادتهم وصاحب الكلمة المؤثرة فيهم إما إمام هدى ﴿أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الأنبياء/٧٣ ، وإما إمام ضلال ﴿أئمةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ القصص/٤١ ، يوم القيامة (هذه الحقيقة الكبرى) وهذا اليوم الحاسم فيه ينادي المناادي الأئمة والمؤمنين بهم ، وإذا كل جماعة مع رئيسها وإمامها وقائدها وقادتها التي كانت تتبعه وتنقاد له سواء أكان إمام حق أو إمام باطل ، فيأتي أتباع الأنبياء مع أنبيائهم وأتباع الضلال مع أئمتهم ، المشركون ومن أضلهم ، والملحدون ومن أغرهم ، والمفسدون ومن أفسدهم واليهود مع موسى (ع) والنصارى مع عيسى (ع) والمسلمون مع محمد (ص) ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الزمر/٦٩ ، ولا ذكر للأنساب حينئذٍ لأنها مقطوعة كقوله ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ المؤمنون/١٠١ ، وعن النبي (ص) : (مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) كثر العمال ١٠٣/١ ويجري الحساب والسؤال والجواب على كل صغيرة وكبيرة فينتفرون حينئذٍ فريقين ، (فَمَنْ أُوِّقِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) فمن اتبع إمام الهدى واستقام على الحق وأحسن قولاً وعملاً (فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ وَكُتِبَ لَهُمْ) ويرون فيه أجرهم وثوابهم فيفرحون ويستبشرون (وَلَا يُظَلَمُونَ فَتِيلاً) ولا ينقصون من حقهم ومن أجور أعمالهم مقدار (فتيل) أي خيط صغير نحيف في شق نواة التمر ، ويكتفى به عن الشيء القليل الذي لا قيمة له ، بل يوقون أجورهم كاملة كقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّقِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ الإنشاق/٧-٩ ، والتقرير : النقطة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة عليها

٧٢ - ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهِيَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا (أَعْمَى) ليس أعمى العين وإنما أعمى القلب (أعمى البصيرة) عن النبي (ص) : (شَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ) البحار ١٤٤/٧٧ لا يعرف إمام الحق ولا يستقيم في أقواله وأفعاله ولا يسلك سبيل الهداية ، ومشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزء فيه الرهبة ويحرك المشاعر ويؤثر في القلوب (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) فهو في الآخرة أشدُّ عمى وضلالاً عن طريق النجاة وأضل طريقاً عن المغفرة والرحمة ، بمعنى : من كان في هذه الدنيا أعمى فلا يشعر بنعم الله وعجائب خلقه ودلائل وجوده سبحانه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشدُّ عمىً وأضلُّ طريقاً ، لأنَّ الرُّوحَ الباقي بعد الموت هو الرُّوحَ الذي كان في هذه الحياة الدنيا ، إذاً الدنيا لا تعارض الآخرة بل هما متلازمتان متلازمتان ، فالخير في الدنيا خير في الآخرة والشرُّ في الدنيا شرُّ في الآخرة على فاعله.

و(الدُّنْيَا مَرْزَعَةُ الْآخِرَةِ) كقوله ﴿فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ لقمان/٣٣ ، وقوله ﴿يَوْمَ نَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ آل عمران/٣٠ ، عن الإمام الصادق (ع) : (لَا يَتْرُكُ اللَّهُ الْأَرْضَ بِغَيْرِ إِمَامٍ يُجِلُّ

حَلَالِ اللَّهِ وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، الميزان ١٣/١٧١، عن النبي (ص) : (مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً) كثر العمال ١٠٣/١ وهكذا من ساء فكره ساء عمله في الدنيا وساء مصيره في الآخرة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرد/٧. فائدة: ١- لم تذكر الآية أصحاب الشمال ذكراً صريحاً وإنما دللت عليهم بأوصافهم فهم عمى القلوب يوم القيامة لما يغشاهم من غموم وهوم هذا اليوم يكونوا كالعميان ، عن الإمام الباقر (ع) : (مَنْ لَمْ يَدُلَّهُ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَدَوْرَانِ الْفُلْكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْآيَاتِ الْعَجِيبَاتِ عَلَى أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ أَمْرٌ أَعْظَمُ مِنْهُ، (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) توحيد الصدوق ص ٤٥٥.

٢- سؤال : قوله تعالى ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء/١٤ ، وهنا قوله (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى) كيف يقرأ وهو أعمى ؟ الجواب : فهو أعمى القلب في الدنيا والآخرة، أعمى البصيرة وليس أعمى العين.

٧٣ - ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

ثم يحذر السياق القرآني الرسول الكريم (ص) من وساوس ومكر أرباب الضلال والخديعة من مخاطر مكربهم. المعنى : وقد أوشك هؤلاء الكافرون وقاربوا (لَيَفْتِنُونَكَ) ليقعونك في الزلل وأن يصرفونك عن الذي أوحيناه إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي (لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ) لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتحالف تعاليمه ، وهو (ص) الصادق والأمين العام على الرسالة (وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك صاحباً وصديقاً فعصمه الله من الزلل وسدده في القول والعمل، وعصمه الله من الخطأ وأخبر سبحانه أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره لأنه توكل على الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/٣.

٧٤ - ٧٥ ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذَا لَا دَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) على الحق بعصمتنا إياك في غرر الحكم : (بِالتَّفْوَى قُرْنَتْ الْعِصْمَةُ) ، (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) الركون : أدنى الميل ، كِدْتَ : حاولت أي لَقَدْ كِدْتَ تميل إليهم ميلاً قليلاً وتسايروهم على بعض ما طلبوا طمعاً في استقامتهم وهدايتهم ، فالعصمة هي التي منعتك عن الاستجابة ٧٥- (إِذَا لَا دَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) لكننا ثبتناك فلم تقرب من أدنى الميل إليهم فضلاً عن إجابتهم إلى ما سألوا ، أرادوا أن يتخذوه ولياً وصديقاً بشرط أن يتنازل عن بعض ما يريدون بأن يحترم آهنتهم ويترك التنديد بها ففرض (ص) وهذا يدل أن الله سبحانه هو الذي يتولى رعاية نبيه محمد (ص) ويحفظه من كل سوء ، ولا يكله إلى نفسه ولا إلى أي مخلوق كقوله ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء/١١٣ ، ولو تخلى عنه تثبتت الله وعصمته الذاتية

والخارجية له لركن إليهم فاتخذوه خليلاً عندئذٍ خرجت من ولاية الله كقوله ﴿فَلَا تُطْعِ الْمُكذِبِينَ ،
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ القلم/٨-٩ .

(لولا) حالة شرطية أي لولا أن حميناك لربما ملت إليهم ولكن حمايتنا وتثبيتنا لك بالعصمة لم يحصل ميلك إليهم ولو قليلاً ، ولو بنية أن تكسبهم (وَلَوْلَا أَنْ تُبْتِنَاكَ) ولو كذت تميل إليهم بعض الميل وتسايروهم على ما طلبوا إذاً لَأَدْقَتَاكَ (ضِعْفَ الْحَيَاةِ) الضِعْفَ من العذاب الذي نعذب به المجرمين في حياتهم الدنيا (وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) والضِعْفَ مما نعذبهم حين مماتهم في الآخرة أي في القبر وبعد البعث (أي ضعف عذاب غيرك في الدنيا والآخرة) وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك ، لأن عقوبة العظماء تكون على مقدار عظمتهم ومكانتهم لأنهم قدوة لغيرهم ، وهذا مجرد فرض (وفرض المحال ليس بمحال). فائدة : ١ - الغرض من الآية : بيان فضل الله على الرسول في كل حياته ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/١٠١ ، في غرر الحكم: (مَنْ أُلْهِمَ الْعِصْمَةَ أَمِنَ الزَّلْزَلَةَ) ، و(لولا) حرف امتناع لوجود (تُبْتِنَاكَ) أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، وكان الرسول (ص) يدعو (اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا) وهكذا يصنع الله لأوليائه وأحبابه يثبتهم على دينه كقوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧ ، (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) ثم لا تجد من ينصرك أو يدفع عنك عذابنا. ٢- النص يشير إلى محاولات ولا يفصلها ولكن أصحاب السلطان لا يطلبون من النبي (ص) أن يترك دعوته كلية إنما يطلبون تعديلات وتغيرات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة فيصوّر له أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانبٍ منها ! ولكن الانحراف الطفيف القليل في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكبير في نهاية الطريق ! كقوله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ الإسراء/٨٠. عن الإمام علي (ع) (رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَ عَرَفَ مِنْ أَيْنَ، وَفِي أَيْنَ، وَإِلَى أَيْنَ)

٧٦ - ٧٧ ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ، سَنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

وقد أوْشك المشركون (لَيَسْتَفِزُّوكَ) ليزعجوك ويقلقوك ويحاصروك ويضيقوا عليك بمعاداتهم ليخرجوك من أرض مكة، عندما عجزوا عن استدراجك وإيقاعك في هذه الفتنة من المساومة والمداهنة (وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) لو أخرجوك (لَا يَلْبُثُونَ) لا يبقون (خِلَافَكَ) بعد خروجك إلا زمناً يسيراً يتنصص عيشهم وتكره أيامهم وثقل نفوسهم ويساء عمرهم ويقتررب أجلهم ، وفق سنة الله الثابتة التي لا تبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم ، ولكن الله منعهم من

إخراجه حتى حانت الفرصة فأمره بالخروج كقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الأنفال/٣٣
 ٧٧- (سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا) هذه طريقة الله تعالى وقانونه الثابت مع رسله في
 إهلاك كل أمةٍ أخرجت رسولها الهادي المنقذ لها من بين أظهرهم وهي كبيرة تستحق التأديب
 الحاسم (وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) وهذا قانون ثابت لا يتبدل ولا يتغير ولا يتحوّل كقوله ﴿وَلَنْ تَجِدَ
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/٦٢ ، إنّه قانون الحكمة والمصلحة في كلّ زمانٍ ومكان.

٧٨ - ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ شَهَادًا﴾

لِدُلُوكِ : لزوال، أقيم الصلّاة في أوقات فضيلتها عن زوال الشّمس إلى (غَسَقِ) ظلمة اللّيل
 ومنتصفه، وذكر وقتين بأربع صلواتٍ وهي (الظهر والعصر) (المغرب والعشاء) (وقُرْآنَ الْفَجْرِ)
 وأقم صلاة الفجر الوقت الثالث، وإتّما عبّر عنها بقُرْآنِ الْفَجْرِ لأنه يستحب في وقت الفجر إطالة
 قراءة القرآن في أثناء الصلاة وغيره (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) إنّ صلاة الفجر تشهدا
 ملائكة الليل وملائكة النهار، فائدة: الآية إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ
 كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء/١٠٣، عن الإمام علي (ع): (الصَّلَاةُ مِيزَانٌ فَمَنْ وَتَى ،
 اسْتَوَى) البحار ٢٦٤/٨٤، فِدُلُوكِ الشَّمْسِ (الظهر والعصر) وَغَسَقِ اللَّيْلِ (المغرب والعشاء) وَقُرْآنَ
 الْفَجْرِ صلاة الْفَجْرِ، فذكر إقامة الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات وهذا إشارة إلى الجمع بين
 الصلاتين للتخفيف على المسلمين، والجمع رخصة شرعية والتفريق أفضل كقوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
 طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ هود/١١٤، وأشار سبحانه إلى الزوال بالدلوك، وإلى الغروب بالغسق
 ، ومعنى زوال الشّمس أي زوالها وتحركها عن دائرة نصف النهار، فائدة: ١- في غرر الحكم:
 (اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاَعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا) وتداول الليل والنهار لهما
 وقع عميق في النفس ويؤثر في المشاعر ويحرك الضمائر وكلاهما مجال للتفكير، والتفكير يزيد الحكمة
 وينير اللب ويحيي القلب ويزيل الغفلة ويهدي إلى الرشد. ٢- قال تعالى (أَقِمِ الصَّلَاةَ) يدعو
 القرآن دائماً إلى إقامة الصلّاة في وقت فضيلتها، ولم يقل (صلّوا)، لأنّ إقامة الصلّاة تؤدّي بشرطها
 وشروطها وحضور القلب من شروطها. ٣- (وقُرْآنَ الْفَجْرِ) وسميت صلاة الصبح قرآناً لأنّ قراءة
 القرآن بارزة في أدائها، وقد أفردت وحدها لما فيها من مشقّة، ولما في وقتها من افتتاح خير وبركة
 ورحمة. ٤- كقوله (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) مريم/٥٥، والصلاة أحبّ الأعمال إلى الله عز
 وجل، عن النبي (ص): (الصلاة: مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، وفيها مرضاة الرّب عز وجل، فهي منهج
 الأنبياء) البحار ٢٣١/٨٢.

٧٩ - ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَخْمُودًا﴾

التَهَجُّدُ : الاستيقاظ من التَّوْمِ لصلاة اللَّيْلِ ، أي إنّ الله تعالى فرض عليك يا مُجَدُّ (ص) صلاة أخرى (تَافِلَةٌ لَكَ) تصليها في الليل زيادة على الصلوات الخمس المفروضة عليك وعلى غيرك ، والنوافل داعمة للفرائض ومحصنة لها ، وقيل : النوافل درع الواجبات ، وتسمى هذه الصلاة (صلاة الليل) ووقتها من منتصف الليل إلى وقت أذان الفجر، والمعنى : ومن الليل قم بعد النوم متهجداً بالقرآن الكريم وبصلاة اللَّيْلِ فضيلة وتطوعاً لك كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ المزمّل/١-٢ ، وقوله ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الذاريات/١٨ ، (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) عسى تدل على الرجاء في كلام المخلوق وعلى الوجوب في كلام الخالق ، عسى ربك يا مُجَدُّ يقيمك يوم القيامة (بصلاة اللَّيْلِ وقراءة القرآن في اللَّيْلِ) مقاماً محموداً يحمذك فيه الأولون والآخرون ، وهو مقام جليل سامٍ عالٍ جامع للفضائل والمحاسن منه الشفاعة الكبرى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى/٥ ، بمعنى : عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ بهذه الصلاة والقرآن والسهر من أجلهما مقاماً سامياً نموذجياً مميّزاً محموداً مشكوراً ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ المزمّل/٦ ، عن النبي (ص): (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاطَةٌ عَنِ الْإِثْمِ وَمَصْحَةٌ لِلْبَدَنِ) كنز العمال خير/٢٨٤٢٨ ، وعنه (ص) : (أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ) البحار/٩٢/١٧٧ .

٨٠ - ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾

وهو دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به ، وهو دعاء عملي حركي شامل واسع الدلالة عالي المضامين ، يسع كلّ أمر حق كيف تدخل فيه وكيف تعمل وكيف تنفع نفسك وأهلك والناس وترضي ربك وكيف تخرج منه سالماً غانماً بلا آثام ، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وتتجه إليه وتستعين به ، دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج كناية عن صدق رحلة العمر كلّها من أولها إلى آخرها ، وللصدق هنا قيمته السامية فهو صلاح كلّ شيء ، فهو يعطي الثبات في القدم والاطمئنان في القلب والنظافة في العمل بعيداً عن الغش والفساد.

المعنى: (وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي) في أي عملٍ أعمله (مَدْخَلَ صِدْقٍ) مبني على العلم والخبرة والتجربة والاختصاص والجِدِّ والاجتهاد ، (وَأَخْرِجْنِي) منه مُخْرَجَ صِدْقٍ) كما دخلت بصدق بحيث لا يختلف مدخلي عن مخرجي ، فأقول ما أفعل وأفعل ما أقول ، ولا أقول ولا أفعل إلا ما أراه صائباً وأعتقد به نفع الناس ورضا الله ، ولا يختلف قولي عن فعلي ولا فعلي عن قولي ، ولا أقول ما لا أفعل ، ولا يتناقض القول عن الفعل لأنّ شرّ القول ما نقض بعضه بعضاً (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) وَاجْعَلْ لِي قوة وقدرة وهيبة تنصرتي بها على ما أهمُّ به من الأمور ، وأشتغل به من الأعمال واجعل لي (مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا) تسلطاً بالحجة الواضحة والقدرة المناسبة (نَصِيرًا) الناصر والمعين ، فلا أغلب في دعوتي بحجة باطلة ولا أفتن بفتنة أو مكر يمكره بي أعداؤك ولا أضل باتباع هوى

نفسى وبنزغ شيطان ووسوسته ، يجد الحراسة القوية الأمانة التي تدفع عنه كلّ عارض من وهن أو ضعف أو خذلان.

وكلمة (مَنْ لَدُنْكَ) تصوّر حالة القرب والحب والجذب والإتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه ، بهذا السلطان الذي يمدّه الله به يجد الحراسة القوية الأمانة التي تدفع عنه كل عارض كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٨. فائدة : ١- عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ الَّذِي إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنْ حَقِّ ، وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ ، وَإِذَا قَدِرَ لَمْ يَأْخُذْ أَكْثَرَ مِنْ مَا لَهُ) البحار ٧١/٢٨٩ . ٢- (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) أعزّ به الحق وأهله ، وأذلّ به الباطل وأهله ، إذ لا حقّ مؤثر بين الناس بلا قوة ولا سلطان. ٣- فالدخول إلى أي أمر هو مباشرته والخروج منه هو الفراغ منه ، وإذا بُني الدخول في أيّ أمر على الصدق والخروج منه على الصدق أي بني على التّكامل والتفاضل كقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ مريم/٥٠ ، وفي نهج البلاغة خطبة ٨٧: (كيف تعمهون (تتحيرون) وبينكم عترة نبيكم وهم أزيمة الحق وأعلام الدّين وألسنة الصّدق) ، عن الإمام الصادق (ع): (إِذَا دَخَلْتَ مَدْخَلًا نَحَافُهُ فَاقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَإِذَا عَايَنْتَ الَّذِي نَحَافُهُ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ) كنز الدقائق ٥/٥٩٨ ، عن الإمام الصادق (ع): (قِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ، قَبْلَ أَنْ تَفْعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ) البحار ٧٨/٢٨٣ عن الإمام علي (ع): (رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ مِنْ أَيْنَ، وَفِي أَيْنَ، وَإِلَى أَيْنَ).

٨١ - ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

بهذا السلطان المستمد من الله تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ الإسراء/٨٠ ، جاء قوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) بمعنى الثابت والباقي والمؤثر ، هذا إعلان أولي وبشارة مقدمة بانتصار الحق بقوته الذاتية وصدقه الأصيل المؤثر وثباته العميق ، الذي يدعو إليه النبي (ص) ويعمل له وهو (الإسلام) على أساس القرآن وهداية النّاس إلى صراطِ الله العزیز الحَمِيد ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كَلِمَةً وَيُقِيمُ دَعَائِمَهُ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ كقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/٣٣ ، (وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) بطل واضمحل لأنّ الباطل أضعف نصير وإن كان ظاهره يغرّ ويسرّ ولكنّ باطنه يضر ﴿يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ الشورى/٢٤ ، بحضور نصر الله والفتح (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) إنّ الباطل مضمحل لا بقاء له ولا ثبات لأنه يتلاشى ويزول ، وإن كانت له صولة وجولة ولكن للحق دولة مستقلة ، فسرعان ما يزول الباطل لأنه ليس له جذور ثابتة في البلاد والعباد ، كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تحبو سريعاً وتحمد كقوله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء/١٨ ، في غرر الحكم : (ظَلَمَ الْحَقُّ مَنْ نَصَرَ الْبَاطِلَ) ، والباطل من ورائه هوى الإنسان

ودوافع السلطان ووساوس الشيطان، والحق يدعمه الحق والعدل والرحمن ، والحق أقوى ظهور وأفضل نصير فهو قوي بذاته ومقوي لغيره، في غرر الحكم: (المَعْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ ، الْعَالِبُ بِالشَّرِّ مَعْلُوبٌ!) . فائدة: ١- عن الإمام الصادق (ع) : (لَا يَسْتَيَقِنُ الْقَلْبُ أَنَّ الْحَقَّ بَاطِلٌ أَبَدًا ، وَلَا يَسْتَيَقِنُ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ أَبَدًا) البحار ٥٨/٧٠ . ٢- قوله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/٤٢ ، وفي غرر الحكم: (كَمْ مِنْ ضَلَالَةٍ زُحِرَتْ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، كَمَا يُزْحَرُفُ الدَّرْهَمُ النُّحَاسُ بِالْفِضَّةِ الْمُمَوَّهَةِ). ٣- (جَاءَ الْحَقُّ) من مصاديقها دولة الإمام المهدي (عج)، عن الإمام الباقر(ع)(إِذَا قَامَ الْقَائِمُ ذَهَبَتْ ذَوْلَةُ الْبَاطِلِ) ولو بعد حين، نور الثقلين ٢١٢/٣ .

٨٢ - ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَمَرْحَمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْبِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

(مِنَ الْقُرْآنِ) مِنْ : بيانية وليست تبعيضية ، تبيّن وتدلل على أنّ كل ما تنزل من القرآن هو شفاء . المعنى : ونزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والتجاهل والغفلة والتغافل، وما يزكي من الصدور ويطهرها من أمراض الشكوك والظنون والارتباب ومن الأوهام والجهل والشيطان ، ويخلص الإنسان من الهوى والأنا والضلال والبخل والحقد والحسد ، والقرآن دواء وشفاء من كلّ رذيلة ومن العقائد الفاسدة والحرافات والانحرافات والعلو والأخلاق الذميمة التي تجلب للإنسان الشقاء والعناء والبلاء وتحرمه خير الدنيا والآخرة (وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) بما فيه من نعمة الإيمان والإيقان والخير والأمان ، والقرآن يعيد إليهم ما افتقدوه من الصحة الروحية والاستقامة الفطرية في القول والعمل (وَرَحْمَةٌ) تفيض عليهم ما ترتفع به حاجتهم ويتم به نقصهم ، والقرآن ينور القلوب بنور العلم واليقين ويحليها بالملكات الفاضلة والأخلاق العالية (وَلَا يَرْبِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) بسبب كفرهم به لا يزيدهم إلا خساراً على خساراً لأنهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة ، ولأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا طغياناً وعناداً وكفراً لأنه طبع على قلوبهم القاسية فهم لا يفقهون كقوله ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فصلت/٤٤

فائدة: ١- في نهج البلاغة خطبة ١٧٦: (إِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْعَبْثُ وَالضَّلَالُ). ٢- كل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين خاصة ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ عامة ، وكل القرآن لا يزيد الظالمين المنحرفين إلا خساراً على خسار (وَالَّذِينَ لَا تَلِيْقُ بِهِ الْهُدَايَةُ تَلِيْقُ بِهِ الْغَوَايَةُ) والقرآن أرقى علاج نفسي وأفضل دواءٍ روحي عن النبي (ص) : (مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فَلَا شِفَاءَهُ اللَّهُ) روح البيان ١٩٤/٥ الشفاء المعنوي. ٣- في القرآن شفاء ورحمة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وفي القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والأرق والحيرة ، فهو يصل القلب بالله ليطمئن ويرضى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الزعد/٢٨ ، والرضا حياة القلوب والقلق مرض نفسي، والحيرة تعب معنوي والوسوسة داء الشيطان والقلق نتيجة العصيان، وفي القرآن شفاء من الهوى والطمع وحب

الدنيا ونزغات الشيطان ، والقرآن شفاء من كل انحراف في الفكر والقول والعمل ، فهو يعصم من الزلل ويسدد في القول والعمل ، والقرآن شفاء للنفس وللمجتمع كقوله ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ فضلت/٤٤ .

وقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يونس/٥٧ ، والقرآن الكريم مصدر رئيس للسعادة والاستقامة ، وبه يكشف الله الظلمات والمعاناة عن البشرية ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ الفجر/٢٧-٢٨ . ٤- والقرآن شفاء من كل الاتجاهات السياسية والعقائدية والاجتماعية والاقتصادية .. وغيرها المنحرفة ، فهو يعصم العقل من كل خلل في رواية وحديث شريف وسيرة خاطئة ، اعرضوها على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو زخرف أي باطل فإتركوه بقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام/١١٢ ، فإن محمداً (ص) وأهل بيته (ع) لم يقولوا شيئاً يخالف القرآن لأنهم مع القرآن والقرآن معهم ، وما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه أرموا به عرض الحائط، فصار القرآن كالمصفاة الذي ينقي الأفكار من كل الشوائب العالقة ومن كل القناعات الخاطئة ، ويخلص من كل شيء دخل عليه ما ليس فيه ، إذاً فالقرآن مصدر شفاء ورحمة. ٥- (وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ) إنما ينزل القرآن بالتدرج حسب حركة الواقع ولم ينزل جملة ودفعة واحدة ، لذلك لا يمكن أن يفهم القرآن حق الفهم إلا من وعى القرآن الكريم من خلال حركة الواقع ، فحركة الواقع تبين أبعاد القرآن ، ودلالات القرآن تتبين من خلال الإمام بحركة الواقع العام ، فمن وعى واقعه بالكامل كان القرآن له شفاء. ٦- (الفرق بين الشفاء والرحمة) : (الشفاء) من الأمراض والعيوب والنواقص السلبية (والرحمة) هي مرحلة التسامي بالأخلاق والفضائل والكمالات الإيجابية ، فيكون الشفاء (تحلية) من العيوب والنواقص أولاً والرحمة (تحلية) بمكارم الأخلاق والاستقامة ثانياً.

٨٣ - ﴿وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

النعمة تطغي وتبطر الإنسان ما لم يذكر منعمها بالشكر ، والشدة تُثبِّس وتقطط ما لم يتصل الإنسان بالله مفرج الهموم، وفي الحالتين تتجلى قيمة الإيمان العليا للإنسان وما فيه من رحمة في السراء والضراء. المعنى العام : ومن أكثر أمراض القلب المعنوية المنتشرة بين الناس هو أننا إذا أنعمنا على الإنسان بالنعم الكثيرة الدنيوية المادية والمعنوية كالصحة والغنى والجمال والقوة والجاه .. وغير ذلك ، اشتغل بظواهر الأسباب وتعلق قلبه بها و (مَنْ اِسْتَعْلَىٰ بِأَلْمُهُمْ ضَيَّعَ الْأَهَمَّ) فلم تدع له فراغاً يذكر الله ويشكره، (أَغْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ) فأعرض عن الله ونأى وبعُد بنفسه عن ربه تكبراً وعناداً ، كأنه مستغن عن الله ، أخذته الدنيا بغرورها ونفسه بشهواتها كقوله ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَعَىٰ ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْفَىٰ﴾ العلق/٦-٧ ، (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) وإذا أصابه الشر والشدائد والحزن إصابة

خفيفة كأنها مسته ولمسته بشكل مباشر أو غير مباشر ولم تصبه بالعمق ، وسلب عنه بعض النعم الموهوبة وزالت عنه أسباب هذه النعم، كان شديد اليأس من الخير لكونه متعلقاً بأسباب هذه النعم وهو يرى بطلان أسبابه والله مسبب الأسباب ولا يرى لربه في ذلك صنعاً ، في نهج البلاغة حكم ١٥٠: (إِنْ اسْتَعْنَى بَطَرَ وَفُتِنَ، وَإِنْ إِفْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهِنَ). **فائدة** : تصف الآية الإنسان إذا فقد نعمة الإيمان يضطرب ويتقلّب مع تقلّب الأحوال ، بينما الإنسان المؤمن (الذي زكى نفسه) يثق بالله في كل الأحوال فتراه يستقيم مهما تغيّرت به الأيام وتعمّرت به الظروف كقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ المارج/١٩-٢٢ .

وهنا تأتي رسالة دين الله الحاجة الضرورية الماسة للإنسان فيكون الدين كالحياة كما يقول الإمام علي (ع) (لَا حَيَاةَ إِلَّا بِالَّذِينَ) الإرشاد للمفيد ص١٥٧، في غرر الحكم : (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) ، وفي غرر الحكم : (مَنْ جَعَلَ مَلَكَهُ خَادِماً لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ خَادِماً لِمَلِكِهِ طَمِعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ) !

٨٤ - ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُكُمُ أَغْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾

شَاكِلَتِهِ : طبيعته وطريقته ونهجه ومذهبه وقناعته ونيته ، أي كلٌّ يعمل على (شَاكِلَتِهِ) نيته وقصده وطريقته التي تعبر عن طبيعته النفسية والعقائدية والتربوية والأخلاقية التي تمثل قناعته في الهدى والضلال، فإذا كانت نفس الإنسان مشرقة متفائلة صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة جميلة نافعة، وإن كانت نفسه ظلمائية فاجرة متشائمة صدرت عنه أفعال سيئة شريرة و (الإِنَاءُ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ) (فَرُبُّكُمْ أَغْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) وإضافة الناس جميعاً إلى ربهم ليعودوا إلى رشدهم ونهج ربهم ، فربكم أعلم بالنوايا والاتجاهات ، أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضلّ عنه ويكون الجزاء على ضوء العمل. **فائدة** : (شَاكِلَتِهِ) تشير الآية إلى (الشاكلة) وهي الطبيعة والعادة التي يكون عليها الإنسان ويألفها ويتطبّع عليها فتكون هي قصده ونيته وهي التي تحدّد طريقته ومذهبه في الحياة ، فالأعمال مشاكلة ومشابهة لنية أصحابها ، فإذا ساءت الأعمال من سوء النوايا وكان أهلها أهل سوء وإذا صلحت الأعمال من صلاح النوايا وكان أهلها أهل صلاح ، (شَاكِلَتِهِ) أي على فطرته وكل إنسان يولد على فطرة سليمة لكن أبويه قد يلوثان هذه الفطرة ، فتفاوت اتجاهاته ودوافعه وأخلاقه وطبائعه وقناعاته وعاداته ونفسيته ومزاجه وأعماله وأقواله تتفاوت بين إنسان وآخر، عن الإمام الصادق (ع) : (النَّبِيُّ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ أَلَا وَأَنَّ النَّبِيَّةَ هِيَ الْعَمَلُ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ) نور الثقلين ٣/٢١٤ ، والإنسان كما خلقه الله جسداً طوراً بعد طور ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ نوح/١٤ ، كذلك خلق طبيعته النفسية وطبعه وحُلُقُه وقناعاته وعاداته أطواراً طوراً بعد طور ، فكلُّ طبيعة منه مستقلة بنفسه كما يستقل في بصمات أصابعه وفي قرنية عينه ، فيكون كل إنسان نسخة مفردة مستقلة بذاتها لا يشترك معه في خصائصها أحد ، وليس له مثيل في روحه

وجسده، في طبيعته وشكله وشاكلته وصورته وفي لحن صوته ، فمع تغير ذوات النَّاس على كثرتهم
(فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا).

٨٥ - **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾**

للروح ثلاثة معاني : ١- القرآن كقوله **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾** الشورى/٥٢ ، ٢-
 جبريل (ع) كقوله **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ﴾** الشعراء/١٩٤-١٩٥ ، ٣- الروح الذي
 يحيا به بدن الإنسان كقوله **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾** ص/٧٢. **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)** الروح
 غيب من غيب الله لا يدركه إلا الله ، وسرٌّ من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وأودعه
 في بعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ولكنه وقف
 حسيراً حائراً أمام ذلك السر النظيف الخفيف الشفاف اللطيف **(الرُّوحِ)** لا يدري ما هو وكيف
 هو ؟ ولا كيف جاء ولا كيف يعمل ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ويكون إلا ما يخبر به العليم
 الخبير في قرآنه الكريم. والروح هي الحياة الذي يحاط بها البدن ، بل هي المحركة لهذا البدن ، وأصبح
 للبدن قيمته وكرامته من خلال وجود الرُّوح فيه ، منذ القديم حاول العلماء أن يعرفوا الحياة وأصلها
 فلم يصلوا إلى شيء وقالوا علينا أن نترك الحديث عن أصل الحياة ! فهم أعجز من أن ينجحوا في
 تركيب خلية حية من خلايا الذبابة، تتصف بالميزات المتوافرة في الخلية الطبيعية ، فكيف يستطيعون
 خلق ذبابة نفسها؟ **والروح:** هو فعل الله المختص به سبحانه الذي لا تتوسط فيه الأسباب ، ولا
 يتقدَّر بزمان أو مكان أو غير ذلك ، وما عندكم من العلم بالرُّوح والكون والكائنات الكثيرة إلا
 قليلاً من العلم ، فإنكم لا زلتم مع تقدّم العلم تعلمون القليل وتجهلون الكثير كقوله **﴿وَقُلْ رَبِّ
 زِدْنِي عِلْمًا﴾** طه/١١٤ ، والإنسان يجهل نفسه التي بين جنبيه ، فإن للروح موقعاً من الوجود ولها
 خواص وآثاراً في الكون عجيبة بديعة أنتم محجوبون عنها. وليس في هذا حجر على العقل البشري
 أن يعمل ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه. **(الرُّوح) :** في
 اللّغة تعني النَّفس والرُّوح مشتقة من الرِّيح، لأنّ النفس والرِّيح غير مرئية وغير مادية في غرر الحكم:
(مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) والروح كيان نوراني حي شفاف متحرك خفيف نافذ في الأشياء ،
 سامي القدر من العالم الغيبي العلوي المعنوي مخالف لهذا الجسم المادي المحدود الثقيل المحسوس ،
 سارٍ فيه سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم لا يقبل التبدّل والتحوّل
 والنغيّر والتمزق والتمزق، فأعطت هذه الرُّوح القيمة للجسد، لذلك أمر الله الملائكة بالسجود
 لآدم بعد أن نفخ من روحه فيه كقوله **﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**
 ص/٧٢ ، **والرُّوح :** من أمر ربي قد استأثر بعلمه لا يعلمه إلا هو .

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) إنّه سبحانه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل تستفيدونه من
 طرق الحواس، فالعلم الذي أوتيته العباد وإن كان كثيراً في نفسه وعدده ولكنه قليل في حقيقته ، فما
 دامت الحياة بلا حدود كذلك العلم بلا حدود كقوله **﴿وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾**

البقرة/١٥١، وجاء (يُعَلِّمُكُمْ) بالفعل المضارع للدلالة على استمرارية التعليم ، عن الإمام علي (ع): (عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ (ص) أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ يَفْتَحُ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ) ، فإنكم ما بلغت من العلم الحديث من التطور ولكنكم أعجز من أن تنجحوا في تركيب خلية من خلايا الكائن الحي، ولا تستطيعوا أن تصنعوا خلية حية واحدة التي هي نواة الكائن الحي وهي متناهية في الصغر. فائدة: عن النبي (ص): (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا إِتْتَلَفَ وَمَا تَنَازَرَ مِنْهَا اِخْتَلَفَ) كثر العمال خير ٢٤٧٤٠، وعن الإمام علي (ع): (لِلْجِسْمِ سِتَّةُ أَحْوَالٍ : الصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ وَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ وَالنَّوْمُ وَالْيَقِظَةُ) ، كذلك (الرُّوحُ) فحياتها علمها وموتها جهلها ومرضاها شكها وصحتها يقينها ونومها غفلتها ويقظتها حفظها البحار ٦١ ص ٤٠، وعن الإمامين الباقر والصادق (ع) في الآية: (الرُّوحُ مِنَ الْمَلَكُوتِ ، مِنَ الْقُدْرَةِ ، إِنَّمَا الرُّوحُ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ لَهُ بَصَرٌ وَقُوَّةٌ وَتَأْيِيدٌ ، يَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ) تفسير العياشي ٣١٦/٢.

٨٦ - ٨٧ ﴿وَلَكِنْ سِتْنَا كَذَهَبٍ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَمْ يَجِدْ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكَيْلًا، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

والروح النازل عليك الملقى بالقرآن إليك من أمرنا غير خارج من قدرتنا ، ولو شئنا لسلبنا هذه النعمة عنك ، وأقسم (لئن شئنا لنذهبن) بهذا الروح الذي هو كلمتنا الملقاة إليك ولو شاء لسلب هذه النعمة عنك ولكنه سبحانه لم يشأ أن يقع هذا ، فاشكر الواهب على هبته سبحانه واشكره على بقائها واستمرارها وتأثيرها ، وبالشكر وتدوم النعم (ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً) ثم لا تجد من يكون وكيلاً به علينا يدافع عنك وتعتمد عليه في رد ما نأخذه منك وإرجاعه إليك. ٨٧- (إلا رحمة من ربك) وما أعطيت من نزول الروح وملازمته إياك إلا رحمة من ربك ساعدناك على حفظه في صدرك وصدر بعض أصحابك كقوله ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت/٤٩ ، (إن فضل الله كان عليك كبيراً) فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن الكريم وأعطاك المقام المحمود ونصرك بالرعب وجعلك سيد المرسلين ورحمة للناس أجمعين ، والمقصود الامتنان على الرسول (ص) في كل شيء صغيره وكبيره ، والخطاب للنبي (ص) والمراد منه أمته.

٨٨ - ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾
قل يا محمد للذين يتوهمون أنهم قادرون على الإتيان بمثل هذا القرآن ، والقرآن صيغة بلاغية معلوماتية فنية من صنع الله لا يملك البشر أن يؤتوا بمثله ولو تعاون البشر في هذه المحاولة ! قل لهم إتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان من الإنس والجن من الأولين والآخرين وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن بكل فصاحته وبلاغته وعلومه وإعجازه ونظمه وجودة المعاني وتهذيب العبارة والخلو من التناقض إلى آخر وجوه الإعجاز لما أطافوا ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) معيناً

أي ولو تعاونوا على ذلك جميعاً فإن هذا ليس بمقدور أحد ، فكما أن الروح من أمر ربي كذلك القرآن من صنع الله وقد تجلّى سبحانه بهذا القرآن لخلقه ، فهو سرٌّ من أسرار الله وحجته على عباده، ودستور حياة الإنسان في العالم البشري وما زال هذا التحدي قائماً في كل عصر وإلى آخر أيام الدنيا ، لأنّ القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يأتوا بمثلها ، إنّما هو كسائر صنع الله وما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ النمل/٨٨ ، إنّ إعجاز القرآن بروح معانيه وأبعاد إيجاءاته وسعة دلالاته فهو أبعد مدى من إعجاز نظمه وقوالب لغته ودقّة معانيه ، كقوله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/٨٢ ، وقوله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف/١٠٩ .

٨٩ - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) : كررنا وبيننا بأساليب مختلفة البيان القرآني ، ولقد بيننا وكررنا للناس الحجج والبراهين القاطعة ووضحنا لهم الحق (في هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) يوضح لهم الخير ويدعوهم إلى الإيمان بالله والشكر لنعمائه ، وعلى وجوه شتى من العرض من قصص وحكم وعلوم وأمثال ومواظب بالآيات والدلالات وبالترغيب والترهيب وبكل أسلوب حكيم بليغ مؤثر ، وبأساليب متنوعة مؤثرة تتناسب مع مختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.. إلخ للناس كقوله ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/١٣٨ ، أي لمن أراد أن يتقي الله (فَمَنْ إِيْتَقَى اللَّهَ وَقَاهُ) (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) ونفوراً عن الحق وانغماسهم في الباطل، لأن الحق مسؤولية ثقيلة لا يصبر عليها إلا الْمُتَّقُونَ وهم أحق بها وأهلها كقوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام/١٠٤ ، عن الإمام الصادق (ع): (إِنَّ الْخَيْرَ ثَقُلَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ ثِقَلِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الشَّرَّ خَفَّ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ خِفَّتِهِ فِي مَوَازِينِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) البحار ٧١/٢١٥ .

٩٠ - ٩٣ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَجِيرًا، أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُرْحٍ رَبِّي أَوْ تُرْفَى فِي السَّمَاءِ وَكُنْ مِنْ زُرْحِ رَبِّي حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا قُرْؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾

لما عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولزمتهم الحجة أخذوا يتعللون بإقتراح الآيات الخوارق والمعجز الغرائب، والمعنى: قال المشركون في تعنتهم لن نصدّقك يا مُحمَّد حتى تشقّ لنا من أرض مكة (يَنْبُوعًا) عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء ونعيش في زراعة ورفاهية. ٩١- (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ) أو يكون لك بستان فيه أنواع من الأشجار والثمار (فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَجِيرًا) تجعل الأنهار تسير وسطها بقوة وغزارة. ٩٢- (أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا) تجعل

السماء تتساقط علينا (كِسْفًا) قطعاً قطعاً كما كنت تخوفنا أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك (أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) أو تحضر لنا الله وملائكته (قَبِيلًا) مقابلة وعياناً وجهاً لوجه فنراهم.

٩٣- (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ) أو يكون لك قصر مشيّد عظيم (مِنْ زُخْرَفٍ) من ذهب لا من حجر أو طين (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ) هذا هو الاقتراح السادس والأخير (أَوْ تَرْقَى) أو تصعد يا مُجَدِّد إلى السماء بمعجزة ونراك ولن نصدقك بمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله يشهد أنك رسوله ونقرؤه بأنفسنا يشهد لك بصدق النبوة! (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) سبحان الله (متعجباً) هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات؟ ما أنا إلا رسول من البشر أبلغ رسالة ربي يقف عند حدود بشريته وبعد ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آل عمران/١٢٨ ، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/٤٩ ، وقوله فَلِمَ هذا الجحود والعناد؟! وهذا الطراز من المعاندين موجود في كل زمان ومكان ، وهكذا إذا قست القلوب عمت وتعمّدت (وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب) كقوله ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الروم/٢٩ ، عن النبي (ص) : (مَا عُبِدَ إِلَهٌ إِلَّا مَا أَبْغَضَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْهَوَى) لِأَنَّ الْهَوَى إِلَهٌ يَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

٩٤ - ٩٦ ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمشونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكَامَ رَسُولًا، قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بَعِيدًا خَبِيرًا﴾ (شبهة ورودها) إنَّ السبب الذي منع المشركين من الإيمان بالإسلام بعد وضوح المعجزات ، هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً كقوله ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا خَاسِرُونَ﴾ المؤمنون/٣٤ ، وهذا منطق الجاهل المنتسك الذي لا دين له ونعوذ بالله من هؤلاء وردّ الله تعالى عليهم ٩٥- (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَامَ رَسُولًا) لقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يبعث رسله إلى خلقه من جنسهم ، فإن كانوا بشراً فرسولهم منهم وإليهم وكذلك لو كانوا ملائكة لكان رسولهم منهم قدوة لهم وأسوة حسنة ، لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، لإلقاء الحجّة عليهم فيمكنهم إدراكه والتلقّي منه ، أمّا إرسال الملك (الوحي) إلى النبي (ص) فلتمكنه من ذلك لقوة نفسه ونجاح رسالته. فائدة : (مُطْمَئِنِّينَ) ساكنين مستقرين في الأرض ، لأن العناية الإلهية تعلقّت بهداية أهل الأرض بوحي من السماء كقوله ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَامَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ الأنعام/٩ ، ونزول الملائكة لا تصلح للإجماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم لبعد ما بين الملك وما بينهم.

٩٦- (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا على صدقي وأنت رحمة للعالمين والله خير الشاهدين (إِنَّهُ كَانَ بَعِيدًا خَبِيرًا بَصِيرًا) هو سبحانه خبير عالم بأحوال العباد ظاهرهم

يتفكروا أَوْلم يعلموا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي لَا حَدَّ لِقُدْرَتِهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ والإعادة أهون من الابتداء وإذا لم يحدث هذا الأمر بسرعة (وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ) فذلك بسبب أن الله جعلَ لَهُمْ أَجَلاً مقدراً حتماً لا شك فيه هو الموت أو القيامة وهذا قوله (فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً)

فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا جحوداً للحق مع وضوحه بعد إقامة الحجة عليهم ، وهكذا الجاهل كالطفل يتعامل مع القضايا الكبرى كما يتعامل الطفل مع الجوهرة على أنها حصي (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ قَالَ بَاطِلٌ عَلَيْهِ أَصِيْقٌ) عن النبي (ص): (بُعِثْتُ دَاعِيًا وَمُبَلِّغًا وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُرِيئًا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالِ شَيْءٌ) كثر العمال خبر ٥٤٦ كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/ ١٢٨ فائدة: لقد جعل الله للهدى والضلال سنناً وترك الناس لهذه السنن يسرون وفقها ويتعرضون لعواقبها كقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/ ٢٣، ومن هذه السنن أن الإنسان مهياً للهدى والضلال وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال ، فالذي يستحق هداية الله هو المتبع لمنهج الله يهديه الله وهذا هو المهتدي حقاً وصدقاً ، والذين يستحقون الضلال هم المعرضون عن دلائل الهدى كقوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/ ٣ ، وقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/ ٧-١٠ ، وقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ التغابن/ ٢ ، وقوله ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/ ١٠ ، ذلك على طريقة القرآن في تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها المحرك للقلوب والمشاعر قبل فوات الأوان.

١٠٠ - ﴿قُلْ لَوِ اتَّبَعْتُ لَوْلَايَ مَا كُنْتُ خَازِنًا رَحْمَةً مِّنِّي إِذَا لَمْ سَكُتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ هي صورة متحركة بالغة الشخ والبخل في طبيعة البخل ، فإن رحمة الله وسعت كل شيء ولا يخشى نفاذها ولا نقصها ، ولكن نفوسهم البخيلة تمنع هذه الرحمة لو أنهم كانوا هم خزائنها !! المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المقترحين للخوارق والمعجزات ، لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونعمه الكثيرة المادية والمعنوية التي لا نفاذ لها التي أفاضها على الناس كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الحجر/ ٢١ ، (إِذَا لَأْمَسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) إِذَا (لَأْمَسَكْتُمْ) لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفاذها (وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) بخيلاً شحيحاً مبالغاً في البخل ومن طبع الإنسان البخل على من سواه لأنه يشعر بالحاجة لما في يده ويلحظ العوض عما يبذله ، ورحمة الله وسعت كل شيء ، وهذا وصف للإنسان البخيل في بعض مواقفه كما قال ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النساء/ ٥٣ ، أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير نقير صغير لعدم توكلهم على الله ، وحتى

يكونوا السادة النموذجيين اللوردات بين الناس عن النبي (ص): (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى تَأَلُّثًا) التفسير القرآني للقرآن ١٥/٥٥٨، وفي هذا إشارة إلى أن الله لا يجيبهم إلى هذه الخوارق للحكمة والمصلحة لأنه لو أجابهم وكفروا لاستحقوا الهلاك ، ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى (ع) فقال :

١٠١- ١٠٤ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَابِّنٍ لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَحْبُورًا ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ، وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾

لَقَدْ أَعْطَيْنَا مُوسَى (ع) تِسْعَ معجزات خارقات واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وإنفلاق البحر والسنين أي (الجفاف) كقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/١٤ ، (فَأَسْأَلُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ) فإسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون موجود عندهم في التوراة ليظهر للمشركين صدقك (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) قد سُحرت فإختل عقلك ، فالذي يريد أن يؤمن قليل الدليل يكفيه والذي لا يريد أن يؤمن فلا يكفيه كل دليل ودليل. ١٠٢- (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ) قَالَ لَهُ مُوسَى (ع) توبيخاً لَقَدْ تيقنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها وصنعها إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (بِصَافِرٍ) دلائل تبصر الحق شاهدة بصيرة على صدقي ، والناس تبصر قدرة الله ولكنك مكابر ومعاند (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) وَإِنِّي لَأَعْتَقُكَ يَا فِرْعَوْنُ (مَثْبُورًا) هالكاً خاسراً. ١٠٣- (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ) يَزْعَجُهُمْ : يزعجهم ويستخفهم ، فَأَرَادَ فرعون بظلمه وجوره أَنْ يَسْتَفِرَّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَنْ يَزْعَجَهُمْ وَيَسْتَخَفَ بِهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ (فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) فِي الْبَحْرِ وَأَصْبَحَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ ، أَحْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عَيْبَةً لِلنَّاسِ. ١٠٤- (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ) وَقُلْنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ بَعْدَ إِغْرَاقِ فرعون وجنده أُسْكُنُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْضَ بِلَادِ الشَّامِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَالَّتِي كَانَ يَمْنَعُكُمْ مِنْهَا فرعون والبنو فيها فكان عليهم أن يشكروا الله ولكنهم طغوا وبغوا كقوله ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إبراهيم/٢٨ ، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) فَإِذَا جَاءَتْ وَقْتُ عَقُوبَةِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ (لَفِيفًا) مجتمعين من فئات وقبائل وبلدان شتى مختلطين فيكم المؤمن والكافر والبر والفاجر ، بحيث لا يعرف نسبهم وحسبهم ولا من أي قبيلة هم ولا يتعارفون ، ثم فصل بينكم ونمى السعداء المؤمنين من الأشقياء الفاسدين.

فائدة: ١- (اسْكُنُوا الْأَرْضَ) مطلق الأرض وهذا يعني قدرهم أن يتبعثر بنو إسرائيل ويتشتتوا في وجوه الأرض كلها ، وصار بلاؤهم على قدر طبائعهم لأنَّ (الْبَلَاءُ عَلَى قَدَرِ الطَّبَاعِ) ! كقوله

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ الأعراف/١٦٨ ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَهُمْ﴾ الإسراء/٧ ، فيجتمعوا ويتفرقوا فإذا اجتمعوا قامت لهم دولة فساد وإفساد فيسلط الله سبحانه عليهم ﴿عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء/٥ ، يَسُوءُوا وُجُوهَهُمْ ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ الإسراء/٥ ، وبهذا تكون بداية نهايتهم.

١٠٥ - ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

الحقّ : الثابت المؤثر الذي لا يزول ولا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتحوّل ، والحياة قامت على الحقّ ، لقد أنزل الله هذا القرآن الكريم ثابتاً قائماً على الحق ، فالقرآن الكريم (كتاب الله) حقٌّ بذاته وحقٌّ بإنزاله وحقٌّ لغيره وحقٌّ في تأثيره وهدايته فهو حقٌّ في إنزاله وحقٌّ في نزوله ، ونزل القرآن بالحق وبالصدق والخير من عند الله لخير الناس كافةً ولتحقيق مصلحتهم في سعادة الدنيا والآخرة ، فلا تكون الدنيا على حساب خسارة الآخرة ، ولا تكون الآخرة على حساب خسارة الدنيا كقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ النساء/١٣٤ ، أمّا ابتداء نزوله كان في ليلة القدر بقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر/١ .

المعنى : (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ) فنزل بالحق ليقر الحق في الأرض ويثبت في النفوس ليتأصل في الحياة وتنمو الحياة وتتعمش (وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ) فهو صدر من الله الحق وهو بذاته حق وبأهدافه حق ، فالحق مادته والحق وسيلته وغايته ومن الحق قوامه وبالحق اهتمامه وكلُّ ما في القرآن حق وصدق وخير للناس كافة لأنه نزل لمصلحتهم ، ويقر القرآن أيضاً كل ما هو حق وخير وصلاح ، على إطلاق معنى الحق والخير والصلاح ، وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء/٩ ، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتْ فِي الْأَرْضِ﴾ الرعد/١٧ ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة/١٨٥ .

وعن الإمام الصادق (ع) : (كُلُّ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لِلنَّاسِ بِجَهَةٍ مِّنَ الْجِهَاتِ فَهُوَ جَائِزٌ) الكاشف/٩٥/٥ ، ما لم يكن نص فيه ، والقرآن حق أصيل في نظام هذا الوجود يشير إليه ويدلُّ عليه وهو طرف منه ، فالحق الذي نزل به هو ذات الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض ومن فيهن!! فهناك علاقة بين كتاب القرآن وكتاب الأكوان كما أن هناك علاقة بين السنن الإنسانية والسنن الكونية ، والقرآن حق ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ فصلت/٤٢ ، وليس في القرآن هو ولغو ولا تناقض فيه ولا خطأ ولا ضعف ولا خلل ، ولا في داخله شيء يمكن أن يفسد مع مرور الأيام ، ولا يشارك الله أحد فينسخه في وقت من الأوقات ، ولا يزيد ولا ينقص منه شيء ولا يحق لأحد أن يؤوله برأيه الخاص ، ويفسر القرآن برأيه دون حجة ، فيتجرأ على الله ويتعدّد حدوده ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ومهمة الرسول ومسؤوليته إبلاغ هذا الكتاب (مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) أن يبشر المؤمنين الصالحين بالجنة وينذر المعاندين

العصاة بالنار ، فيكون الإنسان المناسب في المكان المناسب ، وليس من حق أحد أن يتصرف بالقرآن بزيادة أو نقصان أو يعرض عنه أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض كقوله ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ البقرة/٨٥.

فائدة : (هدف القرآن) لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ويهدي الناس ويقيم لهم نظاماً عادلاً فتحمله هذه الأمة المنتخبة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، جاء القرآن ليكون منهجاً عملياً لا نظرية مجردة تُعرض للإستمتاع الذهني ، نزل القرآن ليحقق الحق بكلماته ، لأن القرآن مرتبط بنظام هذا الوجود المخلوق بالحق ، والقرآن أداة رابطة بين سنن الله وسنن الوجود وسنن الإنسان، لذلك تجلّى الله لعباده بكتابه ، فهو خلاصة رسالات الأنبياء فهو مادة علمية ضخمة ميسرة فتعلّموا منها ما استطعتم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/١٧، وعن النبي (ص): (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر ٢٤٥٤ (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ) الضمير في (أَنْزَلْنَاهُ) يعود إلى القرآن ، وفي هذا إشارة إلى علوم القرآن وأنه أظهر وأشهر من أن يذكر للدلالة عليه ، وأنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق والعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن جميع الظلم والمساوئ والنقائص، واعتمد التوحيد والنبوة والرسالة والقيامة وحماية الدين وأهله. (وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ) القرآن محفوظاً بحفظ الله له محروساً لم يدخل فيه ما ليس فيه ، ولم يحصل فيه زيادة ونقصان ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ الشعراء/١٩٣-١٩٤ ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/٩ فالمراد بالحق في كلّ الموضوعين من الآية معنى يغير للآخر ، فلا يرد أنّ الثاني تأكيد للأول، وإتّما الحق الأول يكون مادة القرآن ومحتواه هو الحق ، والحق الثاني ثمرته ونتيجته هي الحق أيضاً ، وهي هداية للناس ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ البقرة/١٨٥ ، أي فهو محفوظ في ذاته ومحفوظ في محتواه ومحفوظ في هدايته ومحفوظ في تأثيره، ولم تستطع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه لأنه محفوظ بحفظ الله. سؤال: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرسول (ص)؟ والجواب : في قوله ﴿لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان/٣٢ ، فالنزول التدريجي لآيات القرآن هو ارتباط العلم بنزولها مع العمل بها ، ولو نزل القرآن دفعة واحدة لما كان له هذا التأثير التربوي كما لو نزل مفترقاً ، ربّما أهمل الكثيرون من الناس قراءته نتيجة أشغالهم، فقد كان النبي (ص) يعلم أسرى بدر عشر آياتٍ بعد عشر آياتٍ. معنى الباء في قوله (بِالْحَقِّ) الباء حرف جر للإستعانة أي إنّ الحق محتوى القرآن وجوهه ، وكلّ آية فيه دليل حق ، لأنّ القرآن جاء لإحقاق الحق كلّه ليعين الحق على إحقاقه كقوله ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ الأنفال/٧.

١٠٦ - ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ) أنزلناه مفرقاً منجماً على دفعات آية آية وسورة سورة ، ولم ينزل دفعة واحدة كما نزلت الكتب قبله (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ) على مهل وإمعان ليكون فهمه وحفظه أسهل وتأمله أحسن ، وتدبره أفضل والوقوف على دقائقه وأسراره أيسر (وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) نزلناه شيئاً بعد شيء حسب الأحوال والاحداث والظروف والمواقف والمصالح ، ونزل القرآن من خلال حركة الواقع فلا يحيط به علماً إلا من فهم القرآن من خلال حركة الواقع! وهذا يدل على حركية القرآن الكريم ليقترن العلم بالعمل والأخلاق ، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام/١٥٥. فائدة: ١- أما قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر/١، ابتداء النزول كان في هذه الليلة واستمر لمدة ثلاثة وعشرين عاماً حتى يسهل فهمه وتطبيقه ، عن النبي (ص) : (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالتَّلَاوَةِ وَلَا الْعِلْمُ بِالتَّوَاتُؤِ ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالتَّهَادِيَةِ وَالْعِلْمَ بِالتَّوَاتُؤِ) كثر العمال خبر ٢٤٦٢ ، وعن الإمام علي (ع) : (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، فَإِنَّهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ، وَنَاطِقٌ لِمَنْ اسْتَنْطَقَهُ) ، عن الإمام الحسن (ع) : (وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُ ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُهُ) إرشاد القلوب للدليمي ص ٧٩. ٢- قال تعالى : (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ) ولم يق (لتقرأه للناس) إشارة إلى علو هذا القرآن ، وأنه بحيث يشرف عليهم من عليائه فيملاً نفوسهم هدايةً ونوراً (وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) نزل شيئاً فشيئاً ، في الوقت المناسب والمكان المناسب والحدث المناسب والآية المناسبة للإنسان المناسب ، ليكون القرآن الدستور المناسب الدائم والهادي والأمين العام على قانون الحكمة والاستقامة ، الفرق بين (أَنْزَلْنَاهُ وَنَزَّلْنَاهُ) أَنْزَلْنَاهُ مرة واحدة ، (وَنَزَّلْنَاهُ) على دفعات ، ويقال أنّ القرآن نزل مرتين على قلب رسول الله (ص) مرة في ليلة القدر (دفعة واحدة) فإطلع عليه بشكل عام ، والمرة الأخرى على دفعات مناسبة خلال ثلاث وعشرين سنة ، فنزلت الآية المناسبة في الوقت المناسب في الظرف المناسب في الحدث المناسب في المكان المناسب مع الإنسان المناسب أو الجماعة المناسبة.

١٠٧ - ١٠٩ ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ فِيهِمْ يَدُهُمْ خُشُوعًا﴾

خطاب على وجه التهديد والوعيد أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين والجاحدين بلا عناية بهم ولا مبالاة بشأنهم من أتم؟ وما هو محلّكم من الإعراب؟ سواء أتمتم بهذا القرآن أو لا تؤمنوا ، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ولا يزيدني ثقة بديني ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ولا يكون حجة عليّ ولا على القرآن ، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة المؤثرة وإن جهلها الجاهلون (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) وهم العلماء الذين أسلموا وآمنوا بالإسلام قرأوا الكتب الماضية من صالح أهل الكتاب يعلمون حقيقة الأديان وأهدافها النبيلة من قبل نزول القرآن ، استعدوا لفهم كلمة الحق وقبولها

وأورثهم علم الكتب السماوية حباً إليها وخشوعاً لها ، ويزيدهم القرآن خشوعاً إلى خشوعهم ، (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) إذا سمعوا القرآن خشعوا وتأثروا وشكروا الله على نعمة الهداية إلى الإسلام العام وهي من أكبر النعم ، الإسلام الذي هو بمعنى الاستسلام لمنهج الله وتوجيه وجوههم إليه سبحانه ، (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) فخرؤا ساجدين خاضعين لله رب العالمين ، والجملة تعليل لما تقدم. أي إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم. ١٠٨- (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) ويقولون في سجودهم تنزه ربنا عن كل نقص وخطأ وخاصة عن خلف الوعد ببعث نبي في آخر الزمان ونزول كلام الله تعالى معه ، وبالقرآن يتجلى الله تعالى لخلقه ، ويكون القرآن خلاصة رسالات جميع الأنبياء (ع) كما وعد في كتبه السماوية إنه كان وعد ربنا كائناً نافذاً لا محالة. ١٠٩- (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) الأذقان : الوجوه أي يسقطون على وجوههم وجباههم فعبّر عن الكلّ بالجزء مجازاً، ويسجدون على وجوههم لا يتمالكون أنفسهم خاشعين خاضعين في تحريك مشاعرهم من عظمة الله تعالى ، باكين عند استماع القرآن وخوفاً من التقصير في عبادة الله ، وَيَزِيدُهُمْ (خُشُوعًا) وخضوعاً تواضعاً لله واستسلاماً لأمره.

فائدة ١- (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ) كرّر سبحانه السجود لأن الأول كان تعظيماً لله ، والثاني شكر تأثير القرآن في نفوسهم وتفاعلهم معه ، عن النبي (ص) : (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَأْتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ميزان الحكمة ١٣٤/٢. ٢- مشهد واقعي للسجود يرسم هذا القرآن في تحريكه للقلوب المنفتحة لاستقبال خيره وفيضه ، القلوب العارفة بطبيعته وقيمه بسبب ما أوتيت من العلم قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله ، والمقصود بهم المنصفون من أهل الكتاب المعتدلون أصحاب الفطرة السليمة الذين يطلبون الحق أينما كان كقوله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء/٨٩ ، وكقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ آل عمران/١٩٩ ، وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة/٦٩ ، وهذا يدلُّ أنّ الفرقة النَّاجية ليست محددة بجهة معينة ، وإتّما من أحسنت الإيمان والعمل الصّالح وأخلصت مع الله وصدقت مع النَّاس ، هذه هي الفرقة النَّاجية كما يقول تعالى في وصفه للقسيسين والرهبان من النصارى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ المائدة/٨٣. ٣- (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) إشارة وكناية إلى عظم وقع القرآن على قلوبهم ، وأهمّ إذا تليت عليهم آياته استولت عليهم حالة من الخشية حرّكت كيانهم كلّهُ ، فألقوا بثقل أجسامهم ساجدين على الأرض

ذاكرين الله كثيراً كقوله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ الشورى/١٣ ، وهذه حالة متألقة نموذجية مميّزة في الشخصية الإنسانية المؤمنة النخبة.

١١٠ - ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ

سَبِيلًا﴾

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) نادوا ربكم بجلاله وجماله وكماله باسم (الله) أو باسم (الرحمن) (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) بأي هذين الاسمين ناديتموه ودعوتموه فهو حسن لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان الإسمان من أبرزها، لأن الرحمن صفة لله وصفاته عين ذاته ، وكلُّ أسمائه وصفاته تعالى على مستوى واحد حسناً وكمالاً ، فلا حسن وأحسن ولا كامل وأكمل عند الله ، فأى وصف من أوصاف الكمال هو لله سبحانه وهو اسم وصفة معاً لذاته ، وكلُّ أسمائه فيها التعظيم والدعاء والعبادة وهو إقرار بالعبودية ، بأية لغة وبأي لسان وبأي مكان وفي جميع الظروف فهو تقديس لخالق الوجود الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ، (وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهَا) (وَلَا تَجْهَرُوا) في كلِّ صلاة أي ولا ترفع صوتك بالقراءة في الصلاة والدعاء فتبالغ في رفعه وذلك يعمل على إزعاج الآخرين (وَلَا تُخَافُوا) ولا تخفض صوتك بها بحيث لا تسمع أذنك فلا تعد قارئاً ، وهذا نهي عن المبالغة في رفع الصّوت وإخفاته (وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) وأطلب بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وسطاً هو الاعتدال في القراءة فهو أليق بالوقوف في حضرة الله ، والآية تشير إلى الاعتدال في جميع الأمور بعيدة عن الإفراط والتفريط ، فإنَّ خير الأمور أوسطها ، والإسلام دين الوسطية، عن الإمام الصادق (ع) في الآية: (الْجَهْرُ بِهَا رَفْعُ الصَّوْتِ ، وَالْمُخَافَةُ مَا لَمْ تَسْمَعْ أُذُنَيْكَ ، وَإِقْرَأْ قِرَاءَةً بَيْنَهُمَا) كنز الدقائق/٥/٦٣٨ .

١١١ - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ كُودًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ

تَكْبِيرًا﴾

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) عز وجل على عظيم إحسانه وجميع أفعاله وجزيل عطائه وتظاهر نعمائه وحسن بلائه ، والحمد لله على كلِّ حال ، الله تعالى الذي لم يجعل لنفسه ولداً (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) ولم يكن له شريك يشاركه في الألوهية (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) ولم يكن له ولي يواليه للمعونة من أجل ذلة يدفعها عنه ، ولا ولي ينصره ويفتقر إليه ويحتاجه ، لأنه تعالى الغني بذاته وصفاته والمعني لغيره ولا يفتقر إلى شيء وكل شيء يفتقر إليه في وجوده وبقائه (وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا) والله أكبر ، فهو أكبر من أن يوصف ، تكبيراً مطلقاً من غير مقايسة ولا مفاضلة ، الكبير في كلِّ شيء وفي كلِّ مقام ، الكبير المتعال الذي هو أكبر من أن يقاس وأكبر من أن تدركه العقول والحواس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ، وكل قوي عنده ضعيف وكل عزيز لديه ذليل ، وبالتالي فإن الله

أكبر شأنًا وأعلى مكاناً من أن يصف عظمته الواصفون ويؤدي حقه الشاكرون ، افتتحت السورة بالتسبيح والتنزيه والتحميد ، وختمت بالتكبير والتقديس والتحميد وأرادت تهذيب النفس ونفي الشرك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٩-١٠ .

وفي الختام نقول : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف/١٠٨ ، وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ .

تمّ بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَّرُ) لسورة الإسراء وتسمى (سورة بني إسرائيل) ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتمّ الصّالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢١/شعبان/١٤٣٨ هـ الموافق ٩/١٠/٢٠١٦ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة، إنَّ رَبِّي سَمِيعٌ عَجِيبُ الدُّعَاءِ.

بقلم الباحث : مكّي قاسم البغدادي



من مقاصد السّورة :

سورة مكية ، إحدى السور الخمس التي بدأت ب (الحمد لله) وهي (الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر) تعرضت لأربع قصص نموذجية مميّزة (قصة أصحاب الكهف) (قصة رجلين جعلنا لأحدهما جنتين) (قصة موسى (ع) والخضر) (قصة ذي القرنين) وإثّما لم تتكرّر في مكان آخر من القرآن الكريم ، أهداف هذه القصص ، قصّة الكهف من أجل الإيمان ، وقصّة الجنتين من أجل عدم الاغترار بزخارف الدّنيا ، وقصّة موسى والخضر (ع) في طلب العلم، وقصّة ذي القرنين ملك الدّنيا ولم تملكه، بينت القصص الأربع أنّ الحقّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان والجاه وإثّما هو مرتبط بالعقيدة الصادقة، وسمّيت (بسورة الكهف) لما فيها من المعجزة الرّبّانية في قصّة أصحاب الكهف. الجزء الخامس عشر، عدد آياتها ١١٠ ، رقمها (١٨). فضلها : عن النبي (ص) : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إِلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ، فَمَنْ خَرَجَ الدَّجَالَ عَصَمَ مِنْهُ) كنز الدقائق ٦ص٦٦، وعن الإمام الصادق (ع): (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ لَمْ يَمُتْ إِلَّا شَهِيدًا وَحَسْرَةً اللَّهُ مَعَ الشُّهَدَاءِ) جمع البيان ٦/٣٥٢. ملاحظة عامة : هذه الفضائل بشرطها وشروطها والالتزام بمنهج الله من شروطها ، وكل فضل من فضائل سور القرآن كلّها يعتمد على مقدار الصدق والعمل الصالح من الإنسان ومقدار رضا الله عن الإنسان، وليس بالمني والأمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَكَ مِجْعَلٌ لَهُ عِوَجًا﴾

(الْحَمْدُ لِلَّهِ..) الثناء والشكر المطلق مع التعظيم والإجلال لله تعالى المستحق للحمد (الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بَعْضُهُ يَصَدِّقُ بَعْضًا ، ويحفظ إنسانية الإنسان (الْكِتَابَ) القرآن ، نعمة كبرى عليه وعلى الناس أجمعين باعتبار القرآن منهج عالمي ودستور للإنسان - كلُّ إنسان - ومنسجم مع الفطرة السليمة الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكويد/٢٧ ، (وَمَا يَجْعَلُ لَهُ عِوَجًا) العوج : الانحراف بكلِّ أشكاله ، أي لا عوج في أحكامه ولا خلل في نظامه ولا ضعف في ألفاظه ولا تناقض في معانيه ليس فيه خطأ ولا اختلاف ، ولا يوجد فيه تأخر ولا تخلف ، مصيباً في حججه دقيقاً في براهينه علمياً في دلالاته صادقاً فيما يقصه من قصص وأخبار ، فهو كامل في ذاته ومكمل لغيره ، فهو منهج مستقيم رقيق دقيق جذاب ، ودستور حياة عميق أنيق شفاف مناسب ، فهو يحرك المشاعر ويؤثر في النفوس بلا استئذان (ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقُضِي عَرَائِبُهُ وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/٣٢ ، عن النبي (ص) (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ!) كنز العمال خبر ٢٤٥٤ ، يثور: يتعمق ويبحث بعلم. فائدة: ١- والغرض من ذلك أن يبين الله سبحانه أنه أنزل القرآن لنسير على منهجه لا لنحفظ آياته وكلماته بلا معرفة معانيه. عن الإمام الحسن (ع): (إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظْهُ ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ!) إرشاد القلوب للدليمي ص ٧٩ وعن النبي (ص): (لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالتَّلَاوَةِ وَلَا الْعِلْمُ بِالرُّوَايَةِ ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ بِالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمُ بِالدِّرَايَةِ) كنز العمال خبر ٢٤٦٢ . ٢- (عَلَى عَبْدِهِ) ذكرته الآية (ص) بالعبودية تكريماً له من ربه إذ جعله عبداً خالصاً إليه قبل النبوة استحق أن يضاف إليه سبحانه! ٣- (الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد قولي وفعلي وحالي ، أما القولي فحمد اللسان ، وأما الفعلي بالعبادات والخيرات و(الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهُ سِوَاهُ) ، والحمد الفعلي مثل الشكر العملي كقوله ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ سبأ/١٣ ، وأما الحمد الحالي فهو حمد يتناسب مع توجه النفس وإقبال القلب ومقدار الكمالات والمؤهلات والملكات والتألقات في نفوسهم.

٢ - ٣ ﴿قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَا كُنَّ فِيهِ أُنْدَادًا﴾ (قِيَمًا) القِيم والقيوم والقوام والقيام صفة مبالغة من فعل قام أي القائم بالمسؤولية بإتقان ، والقِيم على الدِّين والحافظ له ، فهي كلمة ذات دلالات واسعة تدلُّ على كماله (قِيَمًا) قرآناً مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيما اشتمل عليه من تكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه فلا يهمل أي أمر تمس الحاجة إليه سواء بالتصريح أو بالتلميح (والقِيم) المهيم على غيره والقادر عليه والتمكن منه والمسيطر على كلِّ ما ينتجه البشر من أنظمة ونظريات وأحزاب كقوله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة/٤٨ ، (قِيَمًا) قرآناً قوياً قادراً وتمكناً على إدارة

المجتمع البشري نحو سلّم الحضارة والتطوّر المادّي والمعنوي والعسكري والأخلاقي.. فيبني نظام محكم قوي قادر مهيب غير مضطرب وغير متذبذب فيه الهدى بلا ضلال ، والحق بلا باطل (قِيَمًا) قرآنًا مستقيمًا، يتكرر معنى الاستقامة بإسلوب شفاف مشرق مرة عن طريق نفي العوج عن القرآن ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة إليه بمعناها الشامل ، فحقق بذلك التخلية من كل السلبيات والتحلية بكل الإيجابيات (لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ) بِأَسَاءٍ عَذَابًا ، لِيُنذِرَ مَنْ عَصَى وَبَغَى وَطَغَى وَظَلَمَ مِنْ عَذَابِ شَدِيدٍ صَادِرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الجن/١٧، (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ) ويبشّر المصدّقين بالقرآن ويعملون على نهجه بقدر استطاعتهم (أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) أَنْ لَهُمْ نَعِيمَ الْجَنَّةِ. ٣- (مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبْدًا) مَا كَثِيرٌ : لاثنين مقيمين في ذلك النعيم الحسن الخالد بلا إنقطاع ولا زوال ، النعيم الحسن بميزان الله فكيف بميزان الناس؟

٤ - ٥ ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابْنِهِ كِبَرٌ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ وَيُنذِرَ خَاصَّةً الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ، وَعَزِيرَ ابْنَ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ذَلِكَ يَجْهَلُونَ اللَّهَ وَمَنْ جَهِلَ اللَّهُ جَهِلَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ فِي غُرْرِ الْحُكْمِ: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ). ٥- (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) مَا لَهُمْ بِذَلِكَ الْجَهْلِ الْفُطَيْعِ وَالْإِفْتِرَاءِ الشَّنِيعِ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ وَإِنَّمَا صَدَرَ مِنْهُمْ عَنِ الْجَهْلِ وَتَقْلِيدِ وَاتِّبَاعِ أَعْمَى (وَلَا لِابْنِهِمْ) الَّذِينَ قَلَدُوهُمْ فَتَاهُوا مَعَهُمْ وَعَانُوا مِنْ حَيْرَةِ الضَّلَالَةِ وَمِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) عَظُمَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ الشَّنِيعَةُ وَالْكَلِمَةُ الْقَبِيحَةُ وَعَظُمَ جَرْمُهَا وَعَقَابُهَا؟ خَرَجَتْ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَجْرِمِينَ وَهِيَ فِي غَايَةِ الْبُطْلَانِ وَالْفُسَادِ (إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) وَسَفَهًا وَزُورًا ، فَنَسَبَةُ الشَّرِيكِ اجْتِرَاءً عَظِيمًا عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ ﴿لَكِنَّ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر/٦٥.

٦ - ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ مُفسَكٌ عَلَىٰ آثَامِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فَلَعَلَّكَ يَا مُحَمَّدٌ (بَاخِعٌ) مَهْلِكٌ نَفْسَكَ أَوْ تَكَادَ تَهْلِكُهَا بِالْغَمِّ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْأَسْفِ عَلَىٰ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ (إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) الْأَسْفُ : شِدَّةُ الْحُزْنِ ، أَيِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ حَسْرَةً وَأَسْفًا عَلَيْهِمْ ، فَمَا يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ أَنْ تَحْزَنَ وَتَأْسَفَ عَلَيْهِمْ دَعْوَاهُمْ وَشَأْنُهُمْ وَضَلَالَتُهُمْ وَأَرْفَقَ بِنَفْسِكَ وَلَا تَقْهَرُهَا وَلَا تَوْذِيحُهَا ، وَالآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ (ص) وَعِبْرَةٌ لِلدَّعَاةِ وَالْمُبَلِّغِينَ ، عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِالْقَدْرِ الْمُمْكِنِ وَاللَّازِمِ وَبِالْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَالنَتَائِجَ لَيْسُوا مَكْتَلِفِينَ عَنْهَا وَلَا مُحَاسِبِينَ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥.

٧ - ٨ ﴿بِأَنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُتْلَوْهُمُ أَهْمُ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُومًا﴾

لا تحزن ولا تأسف عليهم إذا عرضوا عن دعوتك ، فإنّ البديل عن دعوتك حبّ الدّنيا ومتع الحياة المؤقتة ، إنّ الله جعل (مَا عَلَى الْأَرْضِ) من زخارف ومتاع وذهب وفضة ومال وأولاد وجاه.. وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب (مَا عَلَى الْأَرْضِ) لها دلالة واسعة مادية ومعنوية وأنواع العلوم والعلماء منها (لِنَبُلُوهُمْ أَلِيَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) لنتخبر الخلق بهذه الزينة المتنوعة أَلِيَّهُمْ أطوع لله وَأَحْسَنُ عقلاً وقولاً وعملاً في دنياه وآخرته ، وبهذه المغريات هي الامتحان والبلاء الذي يميز الخبيث من الطيب ، فمن قنع بنصيبه وعاش بكده وتورّع عن محارم الله فهو طيب كريم ، ومن حاول أن يعتدي على الآخرين ويحتكر لنفسه ما يريد ويعيش على حساب فقر غيره فهو خبيث ، قال (أَحْسَنُ عَمَلًا) ولم يقل (أكثر عملاً) الميزان والمعيار عند الله بالكيفية وليس بالكمية، وإذا أجمعنا كان الأحسن، في نهج البلاغة حكم ٨١: (قِيَمَةُ كُلِّ إِمْرِيٍّ مَا يُحْسِنُهُ) وليس ما يملكه. ٨- (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) الصعيد : التراب ، والجرز : الأرض الجرداء لا نبات فيها ، أي سنجعل ما عليها من الزينة المغرية والتعيم الجذاب نجعله حطاماً وركاماً حتى تصبح (صَعِيدًا) كالأرض المستوية الجرداء (جُرُزًا) التي لا نبات فيها ولا حياة وسيهلك كلُّ ما عليها ، ونهاية هذه الزينة محتومة وإنّ المرجع إلى الله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن/٢٦-٢٧ ، عن الإمام العسكري (ع) : (مَا مِنْ بَلِيَّةٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا!) البحار ٧٨ص ٣٧٤ يقال : فِي الْمَحَنِ مَنَحٌ مِنَ اللَّهِ ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَيْرَاتٌ ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ ، وَفِي الْبَلَايَا بَدَائِيَاتٌ نَهَائِيَّتُهَا الْكِرَامَاتُ ! كقوله ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران/١٥٤.

٩ - ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

الْكَهْفِ : الغار المتسع في الجبل ، والصغير يقال لها مغارة ، الرَّقِيم : اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف، أو هو اسم الجبل والمدينة التي كان فيها الكهف ، كانوا آية من أعجب آياتنا الإعجازية على وجود المعاد إلى يوم القيامة. المعنى : (أَمْ حَسِبْتَ) لا تظننّ يا مُجَّد أن قصة أهل الكهف على غرابتها هي أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف. قصة أصحاب الكهف : هُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَزَادَهُمُ اللَّهُ هُدًى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس/٩ ، إثم فضّلوا زينة الإيمان واطمأنوا إليه وآثروه على زينة الأرض ومتاعها !! وعرفوا بفطرتهم السليمة ضلال عقيدة مجتمعهم وفساده في عبادة الأصنام ، ورفضوا ما يعبد آباؤهم ومجتمعهم فحاول قومهم الوثنيون أن يقتلوا هؤلاء الفتية أو يفتنوهم عن دينهم ، ولما تضايقوا وإغلقت عليهم السبل لجأوا إلى الكهف وأووا إليه وطلبوا من الله تعالى أن يرحمهم ويعينهم ويجعل لهم فرجاً ومخرجاً.

زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ مُحَمَّد/١٧ في غرر الحكم : (مَنْ اسْتَرْشَدَ عَلِيمٌ، وَمَنْ عَلِمَ اهْتَدَى ، وَمَنْ اهْتَدَى نَجَّى).

١٤ - ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾
 وَرَبَطْنَا : شددنا وقوينا ، أي وقوينا قُلُوبَهُمْ بسلب القلق والخوف والاضطراب عنها وألهمناهم العزيمة وقوة الإرادة ودعماهم بالصبر والإيمان حتى تثبت قلوبهم وتطمئن بذكر الله ووطنوا أنفسهم على إعلان الحق والثبات على دين الله القيم ، والدعوة إلى الله عز وجل في هذا المجتمع الوثني الفاسد كقوله ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/١٨٦ ، وقوله عن أم موسى ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ القصص/١٠ ، عن النبي (ص) : (وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كثر العمال خير ٤٣٥٨٨ ، فوطنوا أنفسهم على المشاق في سبيل الله وأعطوا الله كل ما يملكون وأعز ما يحتفظون فأعطاهم الله كلما يريدون وفوق ما يريدون فجعلهم آية من آياته ! (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) حين قَامُوا بعزم وثبات وقوة بين يدي الملك الكافر الطاغية الجبار الذي يدعي الألوهية كفرعون الطاغية من غير مبالاة بردود الأفعال ، فَقَالُوا رَبُّنَا هو خالق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ إِهْلًا (لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِهْلًا) لن نشرك مع الله غيره فهو إله واحد أحد لا شريك له (لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا) الشطط: الإفراط في البعد عن الحقيقة والخروج عن الحد المعقول والمقبول، أي لئن عبدنا غيره سبحانه وقلنا بوجود شركاء له كان قولنا مفرطاً في الجهل والظلم والضلال والبعد عن الحق والحقيقة والصواب. فائدة : ثاروا على التقليد الأعمى العام للوثنيين ونطقوا بكلمة التوحيد المثلى وصاروا حنفاء واستقاموا في وسط مجتمع جاهلي وثني فاسد ، وهذه صورة مشرفة متحركة يرسمها القرآن الكريم للشباب المؤمن الرسالي الذي يرفض الضلال والفساد حتى ولو ملأ المجتمع كقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤ ، وقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧ ، في نهج البلاغة : (لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ) خطبة ٢٠١ .

١٥ - ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾
 هَؤُلَاءِ أهل بلدنا عبدوا الأصنام مِنْ دُونِ اللَّهِ من غير حجة وعطّلوا العقول (لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيْنَ) كأهم قالوا إهم لا يستطيعون أن يأتوا (بِسُلْطَانٍ بَيْنَ) بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذا كذبوا على الله وعلى أنفسهم وعلى المجتمع ، والافتراء ظلم ، ولاسيما في حق الله يكون أعظم الظلم (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم من كذب على الله بنسبة الشريك إليه سبحانه. فائدة : طريق الاعتقاد لابد أن يكون للإنسان دليل مقنع يستند إليه ، وبرهان قوي له سلطان على العقول ويؤثر في النفوس كقوله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة/١١١ ، وإلا فهو كذب الإنسان على نفسه وربه والناس ، وفي هذا نهي عن الإتياع الأعمى ، فلا يجوز أن أقبل حزب أو منظمة أو كيان أو أي حالة إتياع إلا

بحجة واضحة مستقيمة مرجحة تبعث على الاطمئنان وترضي الله وتنفع الفرد وتطور المجتمع حضارياً.

١٦ - ﴿وَإِذْ اغْتَرَبْتُمُوهُنَّ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْتِكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا﴾

الخطاب من بعض فنية أهل الكهف لبعض ، الاعتزال : التنحي ، ضاقت بالفنية المؤمنين الطرق من مضايقة قومهم فحاروا في أمرهم ، أين المفر إلى أين الاتجاه وما الحيلة؟ والمعنى: ما دتم قد تركتم قومكم والأصنام التي يعبدونها من دون الله المشار إليها بقولهم (وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) أي غير الله ما دتم على هذا القرار (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) فالتجأوا إلى الكهف حيث لا نملك مقرأً سواه ، وفضلوه على زينة الحياة الدنيا ، فدخلوه وأكلوا أمرهم إلى الله (يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) ييسر ربكم ويوسع عليكم من رحمته وإنعامه وفضله ويشملكم بألطافه المعنوية ، ولفظة (يَنْشُرْ) يلقي معاني السعة والانفساح النفسي وإنفتاح الأمل ، فإذا الكهف مع حرية العبادة لله فسيح فسيح ، وإذا الأرض بما رحبت ضاقت عليهم سعتها مع قيود الكفر و الإلحاد !! وقد يتحوّل القصر قفصاً مع ضيق النفوس ، وقد يكون القفص قصراً مع انفساح الأمل ، وهذه الحقيقة يكشف عنها القرآن بقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ طه/١٢٤ ، ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدَآءُ﴾ الجن/١٧ ، وكان غار (حراء) كهفٌ يضلُّ الرسول (ص) مثل كهف أصحاب الكهف ، فانطلقت من غار حراء رسالة إسلامية وصلت إلى الصين، كما انطلقت من كهف أصحاب الكهف رسالة عقائدية توحيدية دالة على الإيمان بالمعاد إلى يوم القيامة (وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا)

مِرْقًا: ما ترفقون به أي من اللطف والرفق ، ما تنتفعون به للخلاص من أعدائكم ويصلح لكم من أمر معاشكم ويسهل أسباب أرزاقكم ، ويهديكم سبيل النجاة برفق وسننقدكم من محنتكم إنه نعم المولى ونعم النصير كقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/٤٧ ، وعندئذٍ قرروا دخول الكهف متوكلين على الله راضين بما يختاره لهم. فائدة : في الآية دلالة على أهمية الهجرة في الدين عند الضرورة القصوى إلى أرض الله الواسعة ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ العنكبوت/٥٦ ، في هذه الآية يحدد القرآن الهدف النبيل الرئيس عبادة الله الخالصة (فَأِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) ويطلق الوسائل المتعددة لهذا الهدف النبيل ، فكل إنسان مع ظروفه الخاصة في الهجرة حسب قدرته وحاجته ومقدار تضحيته ، تقول الآية بلطف أتم عبادي وهذه أرضي واسعة فهاجروا فيها تجدوا خيراً كثيراً ، فلا مبرر للبقاء في الوطن الذي فيه إذلالكم ويضيق عليكم ويهين كرامتكم ، وفي نهج البلاغة حكم ٥٦: (الْعَنَى فِي الْعُرْبَةِ وَطَنٌ ، وَالْقَمَرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ) ، وفيه أيضاً حكم ٤٤٢: (لَيْسَ بَلَدٌ أَحَقُّ بِكَ مِنْ بَلَدِكَ ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ) وخير الأوطان ما فيه الأمن في البلد

والاطمئنان في القلب، وشئ الأوطان ما لم يأمن فيه المواطن، وشئ الأوطان ما تُهان فيه كرامة الإنسان، وإنَّ الله كرم الإنسان فعليه أن يكرم نفسه، فلا يحقُّ له أن يذلَّ نفسه.

١٧ - ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾

وترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت (تزاور) تتنحى تميل عن كهفهم جهة اليمين بطريقة إعجازية (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) وإذا غربت (تقرضهم) تتجاوزهم وتتعد عنهم وتميل جهة الشمال وكأنها مأمورة بذلك بسبب رعاية وحماية الله لهم ! حتى لا يؤذيهم شعاعها وتبلى ثيابهم وتعرق أجسامهم ، بل الشمس تعدل هواء الكهف وتنقيه من الرطوبة والعفونة (وهم في فجوة منه) وهم في (فجوة) فضاء متسع من الكهف وله نافذة يدخل منها النسيم والهواء اللطيف ولا تنالهم الشمس لا أول النهار عند شروقها ولا في آخره عند غروبها ، إنهم كانوا في مكان من الكهف لا يصل إليه نورها ، عن ابن عباس : (لَوْ أَنَّ الشَّمْسَ تَطَّلَعُ عَلَيْهِمْ لَأَحْرَقَتْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ لَا يُقَلَّبُونَ لَأَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ) ، (ذلك من آيات الله) ذلك التدبير لم يأت صدفة بل هو من تدبير الله وقدرته ، إنهم في مكانهم لا يموتون ولا يتحركون ولا يمرضون ولا يهرمون ولا يأكلون ولا يشربون ، وإذا أراد الله شيئاً هيئ أسبابه ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ السجدة/ه ، أما مكان أصحاب الكهف فهم إما في جبل قاسيون في دمشق وإما في جبل في عمان عاصمة الأردن. (من يهد الله فهو المهتد) من يوفقه الله للهداية إلى الحق وكل خير في دنياه وآخرته ، لحسن استعداده واختياره وإقباله كأصحاب الكهف (فهو المهتد) الذي أصاب سبيل الحق وفاز بالخط الأوفر في دنياه وآخرته (ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً) ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد فلن تجد له أبداً صديقاً يرشده إلى الحق ويخلصه من الضلال ، كالذين أرادوا التنكيل بأهل الكهف.

في نهج البلاغة خطبة ٩٠ : (من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها وأعظ وزاجر لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا أعظ) في نهج البلاغة حكم ٨٩ : (ومن كان له من نفسه وأعظ ، كان عليه من الله حافظ) إذاً: للهدى والضلال أسباب ومسببات ، في غرر الحكم: (لكل شيء سبب) والأسباب يصنعها الإنسان تكريماً له والمسببات بيد الله تجري على ضوء الأسباب فلا مسبب دون سبب، كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/٦٣، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر ، فليست عصا موسى التي فلقت البحر ، وإنما بسبب عصاه تحرك المسبب ففلق الله البحر ، أي فإعمل بالاستطاعة اللازمة والبقية على الله تعالى .

١٨ - ﴿وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ مَرْفُودٌ وَقِيلَ لَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتْ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾

لو رأيتم أيها الناظر لظننتهم (أَيْقَاطًا) متنبهين لأن أعينهم كانت مفتوحة وَهُمْ (مَرْفُودٌ) نائمون في الحقيقة وكانوا في حفظ الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف/٦٤، (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) وَنُقَلِّبُهُمْ إِلَى جنب اليمين وَجنب الشمال كي لا تأكل الأرض أجسامهم ويجري الدم في عروقهم ولا تبلى ثيابهم ولا تبطل قواهم البدنية بالركود والسبات الطويل كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ الانفطار/١٠، (وَكَالْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) وَكَالْبُهُمْ مَا ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ : بالفناء أو بالباب أي قريباً من باب وفتحة الكهف كأنه يحرسهم والأمين عليهم (لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتْ مِنْهُمْ رُغْبًا) كان لهم منظر موحش فظيع وكانوا في حالة عجيبة غريبة غير مألوفة وغير معروفة فأحاطهم الله بصورة من المهابة النفسية والرّهبة المرعبة ، وإذا أراد الله شيئاً هيئ أسبابه ، فلو اطَّلعت عليهم لهربت منهم خوفاً من خطر رهيب وملتئ قلبك فرعاً وسرى إلى جميع جوارحك فملاً كيانتك رعباً ، والرَّعب أشدُّ أنواع الخوف ، حتى لا يعبت بهم عابث (وذلك من تدبير الله كي لا يصل إليهم أحد حتى يحين الوقت المعلوم) ! كقوله ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ الأنعام/٦٧.

فائدة : ١- من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في قرآنه وعن النبي (ص) : (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) كثر العمال خير ٢٤٦٨٤ ، وكتب وفي أمين خير من صاحب خائن، وصديق جاهل. ٢- في الكلب عشر خصال ينبغي لكل مؤمن أن تكون فيه: ١- أن يكون جائعاً فإنه من دأب الصالحين، ٢- أن لا يكون له مكان معروف وذلك من علامات المتوكلين ، ٣- أن لا ينام في الليل إلا قليلاً وذلك من علامات المحبين ، ٤- إذا مات لا يكون له ميراث وذلك من صفات المتزهدين، ٥- لا يترك صاحبه وإن ضربه وجفاه وذلك من علامات المريدين الصادقين ، ٦- أنه يرضى من الأرض بأدنى الأماكن وذلك من علامات المتواضعين ، ٧- إذا تغلب على مكانه تركه وانصرف إلى غيره وهذه من علامات الراضين القانعين ، ٨- إذا ضرب وطرده وجفي عليه وطرح له كسرة خبز أوجب ولم يحقد على ما مضى وذلك من علامات الخاشعين ، ٩- إذا حضر الأكل جلس بعيداً ينظر ويتعطف وهذه من خصال المساكين ، ١٠- إذا رحل من مكان لا يلتفت إليه وهذه من علامات المحزونين ، تفسير روح البيان ج ٥ ص ٢٢٦-٢٢٧.

١٩ - ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا هَارُونَ بِآيَاتِهِ إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ هَارُونَ قَالَ يَا هَارُونَ إِنَّي خَشيتُ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْكُفْرَانِ أَجْرٌ وَإِنِّي لَأَخشى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْكُفْرَانِ أَجْرٌ وَإِنِّي لَأَخشى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْكُفْرَانِ أَجْرٌ﴾

كما أمتناهم بقدرتنا بطريقة إعجازية كذلك بعثناهم من النوم في الوقت المناسب ، وأيقظناهم بقدرتنا بعد تلك الرقدة الطويلة العجيبة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار وكأما يحسّوا بآثار نومٍ طويل! (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قَالَ أَحَدُهُمْ كَمْ مَكثْنَا نَائِمِينَ قَالُوا مَكثْنَا فِيهِ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فلم يتغير فيهم شيء من أجسامهم وأشكالهم كالتطول والشعر والأظافر مع طول المدة وبقوا على الحالة التي ناموا فيها! (قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) قال بعضهم الله أعلم بمدّة إقامتنا فخذوا ما هو أهم وأنفع لكم فحنن الآن جياح (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ) فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة (بِوَرِقِكُمْ) بهذه النقود الفضية (فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) فليختر لنا (أَزْكَى طَعَاماً) أحلّ وأطيب وأظهر وأنفع الأطعمة فليشتر لنا منه (وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) وَلْيَتَلَطَّفْ ويتخفّى ويترقق في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد. فائدة: ١- اللحوم إذا كانت فيها ريبة شرعية وشكٌّ في حليتها فمن الورع ترك ما يريبك إلى ما لا يريبك. ٢- وهكذا طبيعة الإنسان كم يعيش في الدنيا من عمرٍ طويل فاتّه لم يشعر به كقوله ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ النازعات/٤٦

٢٠ - ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) إِنَّهُمْ إِنْ يَطَّلَعُوا عَلَيْكُمْ ويعلموا مكانكم (يَرْجُمُوكُمْ) يقتلوكم رجماً بالحجارة (وهو أفسى أنواع القتل الذي يسمّى (القتل صبراً) الموت البطيء الأليم الدليل) أو يرجعوكم إلى دينهم الباطل (وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) ولن تفوزوا بخير أبداً ، وهم لا يدرون أنهم في أمة غير أمتهم وفي عالم غير عالمهم وقد تغيّرت الأحوال وتبدّلت الظروف بمرور ثلاثة قرون على دخولهم الكهف ، وانقضت سلطة الشّرك في عصر الرّومان ، وألقي زمام المجتمع إلى الإيمان بالتوحيد وهو لا يدري ، لم يلبث أن ظهر أمره وشاع خبره بسبب درهم الفضة الأثري ، فاجتمع عليه الناس وعرفوا قصّتهم وحصلت الدلالة الإلهية ، ثم إنّ الله تعالى قبضهم إليه فلم يلبثوا أحياء بعد إيقاظهم إلا سويعات !

٢١ - ﴿وكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذِ اتَّانَزَعُونَ بِبَهِمِهِمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَئِبُهُمْ أَعْلَمُ هَذَا الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾

في الحديث : (كَمَا تَنَامُونَ مُتَوْتُونَ، وَكَمَا تَسْتَيْقِظُونَ تُبْعَثُونَ) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٠، أي كما زدناهم هدىً وربطنا على قلوبهم وأمتناهم ثم أيقظناهم أي بعثناهم من نومهم الطويل الثقيل كذلك (أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ) أهل مدينتهم أي أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث والنشور ويوقنوا أن القيامة حقٌ وحقيقة لا شك فيها ، فإن القادر على بعث أهل الكهف وإيقاظهم بعد نومهم

الذي طال (٣٠٩) عام قادر على البعث ونشور الخلق بعد مماتهم ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الكهف/١٧ ، كقوله ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف/٢٩ ، إنه مثل واقعي حسي قريب منظور فيعلموا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ بِالْبَعْثِ حَقًّا (وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) (إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) حين اطّلع الناس على حقيقتهم في وقت كان الناس يتنازعون بينهم في حقيقة البعث أيكون بالأرواح دون الأجساد أم بهما معاً ، أم لا بعث أصلاً ؟ فلرفع هذا الخلاف أطلعناهم على أهل الكهف فلما رأوهم قال بعض المشككين ابنوا عليهم بنياناً لا يحدد عقيدتهم وليكون علماً دالاً عليهم وإتركوهم على حالهم حتى ينقطع عنهم الناس ، فإنّ قصّتهم معقدة ومصيرهم محاط بالألغاز ! والله أعلم بحالهم وهذا قوله (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) فإنّ ربهم أعلم بهم بما كانوا عليه من العقيدة ، أي حاولوا أن يعيّبوا إيمانهم بالله ويطمسوا الدليل القاطع للبعث ، (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) وقال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة الحاكمة المؤمنة بالتوحيد لتتخذن على باب الكهف مسجداً للعبادة فنصّلني ونسجد لله تعالى ويقيمى به ذكرهم على مدى الأيام كقوله ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق/١٩ ، ويكون مسجد خير وبركة.

فائدة : ١- بعد أن انكشف أمرهم تضرّعوا إلى الله أن يشملهم برحمته ويختار لهم ما فيه رضاه فقبضهم الله إليه ! إنها مفاجأة ضخمة إعترت الفتية المؤمنة وأن الدنيا قد تبدّلت من حولهم وأنهم من جيل قديم وأنهم أعجوبة لأن تجربتهم فوق البشر وكل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات كله قد تقطّع فهم أشبه بالذكرى فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم ، قال أهل المدينة إنّ الله سبحانه أعترا على أصحاب الكهف أحياء لنؤمن بالبعث. ٢- (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) السياق القرآني يدل على موافقة بناء المسجد على قبورهم، وفيه احترام لهم وقُدوة للناس وعبرة لمن يعتبر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ المدثر/٣١ ، فليس هناك تعارض بين بناء المساجد لله وأضرحة الأولياء وتوحيد الله بعبادة ودعاء وصلاة يرضاها الله وأمرونا بها ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ الزمر/٣. ٣- اعتمد هؤلاء الفتية (التقية) وعدم إطلاع أهل مدينتهم على إيمانهم كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه كقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران/٢٨ ، عن الإمام الباقر (ع) : (التَّقِيَّةُ فِي كُلِّ ضَرُورَةٍ) البحار/٧٥/٣٩٩. ٤- سؤال: العمر الطويل غير مألوف فكيف يصحّ تصويره للناس نيام كأصحاب الكهف؟

نقول: في عالم الطبيعة أحياء تنام في فصل الشتاء نوم سبات ، وهناك القوة الغيبية الخفية القادرة الفعالة لما تريد كانت ترعاهم (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ). ٥- نوم أهل الكهف والآخرة : الدنيا لا تناقض الآخرة بل الدنيا مكملة للآخرة ، وحلقة من حلقاتها ولا انفصال بينهما ، والدنيا ممر لمقر وهي مزرعة الآخرة ، والدنيا والآخرة حياتان متلازمتان متلازمتان ، فالخير في الدنيا خير في الآخرة والشر في

الدنيا شرٌّ في الآخرة على فاعله، والفرق بين الحياتين هو بتركيز الحياة ونمذجيتها وكما لها وجماها وجمالها ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت/٦٤ ، والحيوان : مبالغة الحياة لشدة ما فيها من الحيوية والنعيم المقيم حياة بلا سلبيات ولا منغصات ، فالحياة في الدنيا دنيا الحياة، والحياة في الآخرة عليا الحياة ، لذلك صارت الآخرة خير من الدنيا لأن حياة الآخرة أرقى بالفعل والقوة من الحياة الدنيا ، وأرقى في الشكل والمضمون ، وأرقى في الحاجات والمسؤوليات وفي كل شيء ، لذلك صارت الآخرة دار الإقامة الدائمة الخالدة (وَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ)، ويقال : عالم البرزخ (عالم القبر) عالم أرقى من عالم الدنيا لأنه عالم تحرر الروح من حدود الجسد وقيود المادة.

عن النبي (ص) (أَوَّلُ عَدَلِ الْآخِرَةِ الْقَبُورُ، لا يعرف فيها غني من فقير) مستدرك الوسائل ١/٤٨

٢٢ - ٢٤ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْنَاهُمْ كَلْبُهُمْ وَبِقَوْلِهِمْ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَنَاهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾

سيقول المتكلمون في أهل الكهف أنهم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ) ويقولون خمسة رجال سادسهم كلبهم ظناً بدون علم من غير يقين (وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَنَاهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) قل الله أعلم بحقيقة عددهم (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ من أهل العلم والدراية (فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) فَلَا تُمَارَ : فلا تجادل في عددهم إلا جدالاً يسيراً بلا تعمق ولا تحقق و (مَنْ اشْتَعَلَ بِأَلْمِهِمْ ضَيَّعَ الْأَهْمَ) (وَلَا تَسْتَنَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (فِيهِمْ) في شأنهم ، لا تسأل أحداً عن قصتهم (مِنْهُمْ) من أهل الكتاب أو غيرهم من الخائضين في موضوعهم فإن فيما أوحى إليك في القرآن الكريم في شأنهم ما فيه الكفاية. ٢٣- (وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً) نهي تأديب ، وَلَا تَقُولَنَّ لِأَمْرٍ عَزَمْتَ عَلَيْهِ إِنِّي سَأَفْعَلُهُ عَدَاً بنية القطع وبقصد الجرم والحسم بعيداً من المفاجآت والمخبات وكأن المستقبل بيدك.

٢٤- (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) إِلَّا أَنْ تَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ التكوير/٢٩ ، بمعنى : علق عزمك على فعل أي شيء إلى مشيئة علام الغيوب ، فعلى الإنسان العارف بمقام ربه أن لا يرى نفسه سبباً مستقلاً في فعل الأفعال وإنما الله مسبب أسبابها له ، فهي بمشيئته والأفعال بإذنه ، وكل شيء مرهون بإرادة الله ، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الغيب ، فعليه أن يستعين بالله وينذل كل طاقته في الفكر والخبرة والتجربة والعلوم والكفاءة والاختصاص بحيث لا يقصر في واجبه ويتوكل على الله (وَإِذْ كُنتَ مِنْكُمْ إِذَا نَسِيتَ) الإنسان معرّض في كل وقت للتسيان ، أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله في أي أمر من أمورك ثم تذكرت فقلها ، لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله (وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح وأنفع في أمر ديني ودنياي من هذا المنسي أو يرشدني إلى الذكر الدائم من غير نسيان ، عن النبي

(ص): (آفَةُ الْعِلْمِ التَّسْيَانُ) كنز العمال خير ٤٤٠٩ والنسيان نعمة إذا كان في موضعه المناسب وضمن حالة ونسبة معينة كقوله ﴿سَنْقُرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿الاعلى/٦-٧ ، وإذا ازدادت نسبة النسيان الطبيعية عندئذ تكون حالة مرضية ضارة.

٢٥ - ٢٦ ﴿وَلَيْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَانذَرُوا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿

ومكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين كما كانت مدة دعوة نوح (ع) ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ العنكبوت/١٤ ، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قُلْ لِمَنْ يَجَادِلُكَ فِيهِمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا مَكَثُوا عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله تعالى عنده مفاتيح الغيب في السموات والأرض لا يعلمها إلا هو ، يعلم ما خفي من أحوال أهلها (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) ما أبصره الله بكل موجود وما أبصره بكل ما يحدث في ملكه ، وما أسمع الله لكل مسموع وما أسمع لما يدور بين الناس ، فإن الله يدرك كل شيء يدرك المخفيات كما يدرك الواضحات (مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ) ليس للخلق ناصر ولا معين ولا ولي يتولى أمورهم غير الله تعالى (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) وليس له شريك ولا مثيل ولا نظير في خلقه وصنعه ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً يستشيره لعزته وغناه ، لأن المستشار شريك في الحكم ، والله تعالى غني عما سواه ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ﴾ الرعد/٤١ ، ﴿لِللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الروم/٤. فائدة: ١- (ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَانذَرُوا ذُرِّيَّتَهُمْ) كان حساب أهل الكتاب ثلاثمائة سنة بسني الشمس ، وتسعاً زائدة على حسابهم وحساب قومك بسني القمر ، أي تسع سنوات هي الفرق بين السنين الشمسية والقمرية، وهذه معجزة لرسول الله النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له العلم أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوماً على السنة القمرية؟! لا شك أنه قد أعلمه الله اللطيف الخبير بما أوحاه إليه (ص).

٢- جوانب تربوية لقصة أصحاب الكهف : ١- الابتعاد عن التقليد الأعمى في مجتمع فاسد والبقاء على الاستقامة حَيِّفًا مُسْلِمًا مع شدة المعاناة ، ٢- عند الضرورة تجب الهجرة عن الأوطان التي تُهان بها كرامة الإنسان، فتركوا مناصبهم وقصورهم ورضوا بالمعيشة في الكهف مع الحرية على حياة القصور مع الكفر، ٣- استعملوا التقية ولم يستطيعوا أن يجهروا بإيمانهم وصاروا مثل مؤمن آل فرعون يكتُم إيمانه، ٤- إِيَّاهُمْ كَانُوا إِخْوَةً ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/١٠، فالوزير كان إلى جانب الراعي وإلى جانب الكلب الذي يجرسهم، ٥- الإمدادات الإلهية العجيبة لأهل الكهف وللمؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج/٣٩ ، ٦- (أَرْزُقِي طَعَامًا) العناية بالطعام الطاهر الطري الجديد الحلال النافع ، ٧- الإيمان بالمعاد الجسماني والبعث والنشور.

٢٧ - ﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَسَدِّدًا﴾

إقرأ يا مُحَمَّد ما أوحاه إِلَيْكَ ربك من آيات الذكر الحكيم للتقرب إلى الله تعالى بتلاوته والعمل بموجبه والاطلاع على أسراره (لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) لا يقدر أحد أن يغيّر أو يبدّل أو يحوّل كلام الله وقرآنه فهو محفوظ في اللوح المحفوظ (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) مُلْتَحَدًا : ملتجئاً ، ولن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً تلتجئ إليه إن لم تتبع القرآن الكريم كدستور لحياتك.

٢٨ - ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

النزول : إنهما نزلت في زعماء قريش حين طلبوا من مُحَمَّد (ص) أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب فكان يطمع (ص) في إيمان هؤلاء الرؤساء وأتباعهم أو أن يجعل لهم مجلساً خاصاً غير مجلس هؤلاء الفقراء لأن عليهم ألبسة تفوح منها رائحة العرق فتؤذي السادة الزعماء كما قال القوم لنوح (ع) ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ الشعراء/١١١ ، فأجابه ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هود/٢٩ ، فحدثته نفسه (ص) فيما طلبوا فانزل الله شتان ما بين هؤلاء وأولئك ! (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) إضبط نَفْسَكَ مَعَ الضعفاء المؤمنين والفقراء من المسلمين الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ (بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) بالصباح والمساء وفي جميع أوقاتهم كناية عن الدوام والاستمرار في الذكر، لا يتحولون عنه (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) ولا يبتغون إلاّ رضاه سبحانه ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ففيهم الخير وعلى مثلهم تقوم الدعوات.

عن النبي (ص): (إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ) الدر المشور/١/٢٣٧، (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) ولا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والجاه (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ولا يتحوّل اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة ، ولم يكن (ص) مريداً لزينة الدنيا ، وإنما كان حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا) ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا حين إتجه إلى تجسيد ذاته ولذاته وأبنائه وماله وشهوته فلم يعد في قلبه متسع لله تعالى فهم وقولهم سفه ضائع لا يستحق إلاّ الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله ولا خير فيمن عاش لذاته ، ومن عاش لذاته عاش للذاته ولا خير فيمن عاش لذاته وللذاته!

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) وسار مع رغباته ولذاته وترك أمر الله (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) من الإفراط وتجاوز الحد في الأقوال والأفعال ، تجاوزاً للحق وساقطاً في مستنقع الباطل كقوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر/٨٨ ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦ ، في نهج البلاغة كتاب ٣١: (الهُوَى شَرِيكُ الْعَمَى) فائدة : (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) لا تُعرض عن المؤمنين ، ويستحيل في حق النبي أن يُهمل أحداً من المؤمنين كي يخاطب بالنهي عن ذلك ، كيف و الله سبحانه وتعالى يشهد أنّ مُحَمَّدًا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ ﴿ التوبة/١٢٨ ، فعليه المراد بالتهي هنا على قاعدة (إِيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا جارة) البحار ٣٨١/٩٢ ، عن الإمام الصادق (ع) أي التنويه بحرمة المؤمن وفضله ومكانته السامية عند الله تعالى هي أرفع وأفضل من مكانة أهل الجاه والمال من أصحاب الدنيا ، عن الإمام الصادق (ع) : (الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكُفَّةِ) كنز العمال ج ١ ص ١٦٤ ، لأن الله حرّم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة : ماله ودمه وأن يظن به ظن السوء ، وعن النبي (ص) : (الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ الْمُقْرَبِينَ) كنز العمال خبر ٨٢١ ، وفي الحديث القدسي : (مَا تَسْعَى لَأَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسْعَى قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ) في الحديث القدسي : (خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ ، وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي)

٢٩ - ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِسُورٍ شَرَابٍ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

ظاهر الآية أمر وحقيقته وعيد وتهديد للطّاعين والمعاندين والعاصين. قُلْ يَا مُحَمَّدُ هُوَلاء الغافلين عن ذكر الله (قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) فيه دلالة على حرّية الاعتقاد ، فهو سبحانه حق ومنه الحق وإليه الحق ويدعو بالحق فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم لها ، لقد ظهر الحق وقد تبين الرشد من الغي والخير من الشر فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ (أي عن إيمانكم) وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الزمر/٧ ، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فصلت/٤٠ ، إنّها العزة والصراحة الرسالية بالحق ، فالحق لا ينحني ولا ينثني فهو ثابت في تأثيره مهما طال الزمان ، فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيّق ، ومن لا تنفعه الهداية تضربه الضلالة ، فلا مساومة على حساب العقيدة كقوله ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ القلم/٩ ، ولكل إنسان أن يختار لنفسه ما أحبّ لها وهو مسؤول ومحاسب على اختياره ، فليختاروا ما شاؤوا والذي يشاء الهداية هو الأحسن والذي يشاء الضلال هو الأسوء كقوله ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد/١٠ ، وقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/٧-١٠ .

وقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٍ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ التغابن/٢ ، وقوله ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام/١٠٤ ، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ الإسراء/٨٤ ، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/٣ ، عن الإمام الصادق (ع) : (اللَّهُ يَخْتَجُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَرَفَهُمْ) الكافي ١٦٣/١ فمن آتاه مأل يسأله هل أدى ما فيه من حق؟ ومن آتاه علم هل عمل بموجبه وعلم الناس؟ ومن آتاه جاه وسلطان هل أقام به حقاً وأنصف مظلوماً من ظالمه؟

ويقول سبحانه لكل عاقل قادر : منحتك العقل والقدرة والحرية والإرادة وأوضحت لك طريق الخير والشر بأدلة العقل والوحي ونهيتك عن السوء وأعاقبك عليه وأمرتك بالاستقامة وأثبتك

عليها، فَمَنْ عمل بطاعته فاز بفضله ومرضاته ، ومن عمل بالهوى والضلال فقد إبتعد عن الهدى والاستقامة ، ومن اتبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الروم/٢٩ ، عن النبي (ص) : (مَا عُبِدَ إِلَهٌ أَنْعَضُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْهُوَى) روح البيان ١٩٧/٢ ، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ) هو مسؤول عن بناء مستقبله الديني والأخروي (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) سورها ، إنه مشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، أي هيأنا للظالمين كل الظالمين من كفر بالله ومن ظلم نفسه وظلم غيره ، وكل من ظلم نفسه وظلم غيره ، أعتدنا لهم ناراً حامية شديدة أحاط بهم سورها بإحكام كإحاطة السوار بالمعصم ، فلا سبيل إلى الهرب ولا مطمع في منفذ للخلاص (وَإِنْ يَسْتَعْجِبُوكَ يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) وإن يستغيثوا من شدة العطش والحرارة يعاثوا (بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) شديد الحرارة كالنحاس المذاب يشوي وجوههم إذا قرب منهم من شدة حرّه فكيف بالحلوق والبطون تتجرعه؟! (بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) منزلاً : بئس الشراب الذي يعاث به الملهوفون من الحريق وساءت جهنم منزلاً وفراشاً يجتمع عليه أهل النار ، وبالسوء جهنم مكاناً لا اجتماع الأصدقاء الخبثاء المعدّين !! (وبئس العيش عيشهم).

٣٠ - ٣١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْشَاتُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

لما ذكر القرآن حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن في تربيته النموذجية المميزة في الترغيب والترهيب. المعنى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) على إطلاق معناها ومستوياتهما بحيث لا ينفصل إيمانهم عن عملهم الصالح كما لا ينفصل قولهم الطيب عن عملهم العام ، هؤلاء الذين أحسنوا في كل ما عملوا وقالوا فهم محسنون ، والذي يعمل الأحسن هو الأحسن هؤلاء إنَّما لا نُضِيعُ ثواب مَنْ أَحْسَنَ عمله ونيته وأخلص فيه بل نزيده وننميه. ٣١- (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) لهم جنات اقامة واستقرار مع تكريم وإحترام وخلود تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة التي فيها أنواع الأشربة (يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) ويتزينون فيها بلبس أساور من ذهب (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) ويلبسون ثياباً بألوان من الحرير الناعم الخفيف وهو (السندس) والحرير الكثيف السميك وهو (الاستبرق) (مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى (الْأَرَائِكِ) الأسرة المزينة بالذهب والدرّ والياقوت كهيئة الملوك (نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) نِعْمَ الجزاء من الله وَحَسُنَتْ الجنة مكاناً و(مُرْتَفَقًا) منزلاً ، محلاً لالتقاء الإخوان المترافقين والأصدقاء المتحابين كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧ ، عن النبي (ص) : (مَنْ

إِشْتَأَقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارِعًا فِي الْخَيْرَاتِ) البحار ٧٧ ص ٩٤ ، نوح البلاغة حكم ٤٥٦ : (إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَتَّبِعُوهَا إِلَّا بِهَا). **فائدة :** (ثِيَابًا خَضِرًا) اختير اللون الأخضر لأنه أرقف بالأبصار وأشرح للنفس ، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار ، وقد أحسن من قال : ثَلَاثَةٌ مُدْهِبَةٌ لِلْحُزْنِ : الْمَاءُ وَالْخَضْرَاءُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ وَالْحُلُقُ الْجَمِيلُ).

٣٣ - ٣٢ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا نَهْرًا ، وَكَانَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا﴾

الأمثال تضرب للعبارة ، إنها قصّة الرجلين والجنّتين تُضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين مختلفين ، مختلفين للنفس المعتزّة بزينة الحياة والنفس المعتزّة بالله تعالى ، هذه الحالة يصوّرها القرآن الكريم بسياقه البلاغي ، يحرك المشاعر والضمائر وكأنّها حالة مجسّمة متحركة واقعية حية يمكن ان تقع في كلّ زمانٍ ومكان ليأخذ المؤمن منه العبرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ النازعات/٢٦ ، وَاضْرِبْ مَثَلًا لِلطَّغَاةِ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ عن مجالسة الفقراء والمساكين ، والذين قالوا لك أطرمدن عندك المؤمنين الضعفاء ، هؤلاء الذين تولّعوا بزينة الحياة الدُّنيا ، المعرضين عن ذكر الله ، إِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِيَتَّبِعِينَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعِيشُونَ الْأَمَانِي الْكَاذِبَةَ وَتَعَلَّقُوا بِسَرَابٍ ! الْخِلَاصَةُ : هما أخوان من بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر ، ورثا مالا من أبيهما فاشتري الكافر بماله حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفذ ماله فعيّر الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر وهو ظالم لنفسه متجاوز للحدود فأخذ يُضِلُّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَضُرِبَ هَذَا مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ/٣٩ ، في نوح البلاغة حكم ١٣٨ : (مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادًا بِالْعَطِيَّةِ). والكافر الذي وسّع الله عليه في الرزق وأبطرته النعمة فينسى الله ويكفر به ويحسب هذه النعمة لا تفتي ، وهكذا الذي لا يَعْرِفُ قَدْرَهُ يَتَعَدَّى طَوْرَهُ ، أما أخوه المؤمن فيرى النعمة دليلاً على شكر المنعم وذكره والعمل بطاعته لتحصيل رضاه (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) جعلنا للكافر (جَنَّتَيْنِ) بستانين من شجر العنب ، وسمّيت الجنّة بالجنّة لاجتنان أرضها أي استنارها بظلّ الشجر ، (وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) أحطناها بسياج من شجر النخيل (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً كالخضار والحبوب ويتفجّر بينهما نهر ، وهو تصوير لمنظر بهيج يسر الناظرين.

٣٣ - (كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) كل واحدة من الحديقتين أخرجت (أُكُلَهَا) ثمرها يانعاً طيباً ولم تنقص منه شيئاً (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا) يجري بطبيعته بلا آلة ومن غير تكلفة ويزيدهما جمالاً وبهجة ، هذا صاحب الجنّتين تمتلئ نفسه بهما فيحسّ بالزهو ويتنفش كالديك ويحتال كالطاووس ويتعالى كالمتكبر على صاحبه الفقير المؤمن ، فالرجلان بهذا الوضع يمثلان

الإنسانية كلها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إذا كان النَّاسُ مؤمنين وكافرين ، فرأى الكافر بعض المؤمنين في فقرٍ وعسرة وهو مع كفره في غنىٍ وسعة ، فقال فلم الإيمان بالله إذن؟! والمؤمنون في حاجة؟ هذه هي الشبهة التي بثها هذا الكافر المغرور بماله الذي هو مال الله أمانة عنده ، وهو لا يعلم أنه مبتلى بهذا المال ومسؤول عنه ومحاسب عليه ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الصافات/٢٤ ، وهو لا يعلم أيضاً أنَّ الفقر ليس دليلاً للذلة ولا الغنى والثروة دليلاً للعزة، عن النبي (ص): (فإنَّ الْمَسْئُولَ مَنْ سُلِبَ دَيْنُهُ، وَالْمَحْرُوبَ مَنْ حُرِّبَ دَيْنُهُ) كثر العمال خبر ٤٣٦٠١، والمُصِيبَةُ فِي الدِّينِ مِنْ أَشَدِّ الْمَصَائِبِ ، في غرر الحكم : (لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ) !

٣٤ - ٣٥ ﴿وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾

وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والأموال والثمار (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) قال صاحب الجنتين لأخيه المؤمن وهو يناقشه ويحاوره ويراجعه في الكلام ويفتخر عليه ويتكبر أنا أغنى منك وأشرف وأكثر (نَفَرًا) أنصاراً وخداماً ينفرون للدفاع عني لأبي جدير بذلك كقوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص/٧٨. ٣٥ - (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار، فهو لم يملك النعمة وإنما هي ملكته واستعبده فجعلته ظالماً لِنَفْسِهِ بغطرسته بعدم تقدير النعمة ولم يشكر المنعم ، بل صار متكبراً على غيره مغروراً بنفسه وبشرکه بالله واعتماده فقط على الأسباب الظاهرية وهذا نفس المتغترسين ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١، (قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) ما أعتقد أن تفتي هذه الحديقة أبداً كقوله ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر/٣، وكأما الدنيا محفوظة لهم كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩، عن الإمام علي (ع): (الْأَمَانِيُّ تُعْمِي عِيُونَ الْبَصَائِرِ) ! فظاهر الدنيا يعرُّ ويسرُّ وباطنها يضُرُّ ، عن الإمام علي (ع): (مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا بَصَرْتَهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ) البحار ٧٨ ص ٤

٣٦ - ٣٨ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدُّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ سَوَّاكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

وما أعتقد القيامة حاصلة ، وهكذا يصنع البطر والتخمة والغرور والوهم بأصحابها بأنَّ التَّعْمَةَ خالدة لا يفنيها شيء كقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد/١٤ ، (وَلَئِنْ رُدُّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) وأقسم ولئن كان هناك بعث

ونشور - على سبيل الفرض كما تزعم - فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل (مُنْقَلَباً) مرجعاً وعاقبة ، على فرض أنّ هناك جنة ونار أي فكما أعطاني هذا النعيم في الدنيا فسيُعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ! وهكذا المعرور يعيش الأمامي الكاذبة يرى الخطأ صواباً والصواب خطأً ، وهكذا يفعل الضلال بأهله ٣٧- (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) قال ذلك المؤمن المنفق من ماله وهو يحاور أخاه الكافر وينظره ويناقشه واعظاً وزاجراً له ، وهذا من فنون الحوار في القرآن (أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من مني وأصله من الأغذية ثم سَوَّاكَ إنساناً سوياً في غرر الحكم: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) وعظمة الخلق دليل على عظمة الخالق؟ والاستفهام للتوبيخ ، لأنه لا يعلم أنّ تتابع التعم عليه وهو في معصية الله بعيداً عن شكره فإنه استدراج كقوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف/ ١٨٢ ، وقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَالَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ آل عمران/ ١٧٨ . ٣٨- (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) (لَكِنَّا) أصلها (لكن إن) أي لكن أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ومدبر أمري (وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) ولا أشرك مع الله غيره ، سواء أكان شركاً جليلاً أو شركاً خفياً كقوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/ ١٣ ، فهو الَّذِي خَلَقَ فَأَبَدَعُ وَأَتَقَنَ صُنْعَ مَا صَنَعَ . سئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال (ع) : (مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا فَأَحَبَّ عَلَيْهِ وَ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي/ ٢/ ٣٩٧ ، عن النبي (ص) : (إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ فَإِنَّ فِيهِ الشِّرْكَ الْخَفِيَّ) البحار/ ٧٨٧ ص ٢٠٠ ، عن النبي (ص) : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُهُ) كنز العمال خير ٨٨٤٩ .

٣٩ - ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنًا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ وُلِدَا﴾

فهلّا كنت من ذوي الرشد والبصيرة حين دَخَلْتَ (جَنَّتِكَ) حديقتك وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار لأدرت أنّ الخير من الله وحده قُلْتَ (مَا شَاءَ اللَّهُ) هذا من فضل الله ونعمته ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/ ٥٣ ، وكقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ التكويد/ ٢٩ ، (فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) (لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ، والله في عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ نَفْسِهِ وَأَخِيهِ وَجُمُعَتِهِ (وبالشكر تدوم النعم) والمعاصي تنزيل النعم (إِنْ تَرْنًا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ وُلِدَا) قال المؤمن للكافر إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتر عليّ بكثرة مالك وأولادك فلا ما نع من ذلك فإني غير محتاج ، وإلى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ فهو المدبّر المقدر ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/ ٢ ، ما يدريك أن يجعلني غنياً بعد الفقر، ويجعلك فقيراً بعد الغنى بسبب من الأسباب ، بمعنى : لو كنت من ذوي الرشد والبصيرة لأدرت أنّ الخير والفضل والنعمة من الله وحده فعليك أن تقدر النعمة وتشكر الله عليها لا أن

تتعالى على الناس ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَيِّيٌ كَرِيمٌ﴾ النمل/٤٠ ، وعن النبي (ص) : (مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ أَوْ مَالٍ فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ (مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) لَمْ يَرِ فِيهِ مَكْرُوهًا) روح البيان ٢٤٧/٥ ، وعنه (ص) : (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ) تفسير النور/١٦٠ ، لأنَّ الله يدفع بها البلاء ويديم النعم ، وفسر النبي (ص) معنى (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) (لَا حَوْلَ) تحول عن المعاصي إِلَّا بعصمة الله (وَلَا قُوَّةَ) على طاعة الله إِلَّا بالله تعالى ، وعنه (ص) : (مَنْ رَأَى شَيْئًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : (مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) لَمْ تَصُرَّهُ الْعَيْنُ) الحاسد ، روح البيان ٢٤٧/٥ .

٤٠ - ٤١ ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾

(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) عاجلاً أو آجلاً (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا (حُسْبَانًا) عذاباً انتقامياً ، أي مبالغة الحساب وأنه من تقدير الله وواقع بحساب وقدر ، آفة تجتاحها أو ريح عاتية تلتفها ، أو صواعق مِنْ السَّمَاءِ تدمرها (فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا) فَتُصْبِحُ الحديقة الغناء (صَعِيدًا) أرضاً جرداء (زَلَقًا) ملساء تزلق عليها القدم ، وهي أرض لا نبات فيها ولا شجر ، في نهج البلاغة حكم ٤٥٢ : (الغنى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ سبحانه) عن النبي (ص) : (خَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) البحار ١٠٦/٧٥ . ٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا (غَوْرًا) أي غائراً ذاهباً في باطن الأرض فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أن تطلبه لعمقه في داخل الأرض ، فيموت كل ما فيها من زرع وشجر ، هل أنت في مأمن من المفاجأة والمخبة ؟ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الأنفال/٥٣ ، عن الإمام علي (ع) : (أَحْسِنُوا صُحْبَةَ النِّعَمِ قَبْلَ فِرَاقِهَا فَإِنَّهَا تَزُولُ وَتَشْهَدُ عَلَى صَاحِبِهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا) البحار ٧١ص ٥١ ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة ، فينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ، فلقد كان ما توقعه الأخ المؤمن .

٤٢ - ٤٣ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا تَبَّتْ أَيْدِييَ لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ، وَلَوْلَا كُنْ لَهُ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) رغم تلك الموعظة البليغة لم يتعظ صاحب الجنين ! وتحقق ما قاله صاحبه وأبيد ماله كاملاً ! وأهلك حديقته بالكامل واستولى عليها الخراب والدمار في الأشجار والثمار ، وكم من لذة قصيرة لها تبعات مريرة وطويلة (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) يقَلِّبُ كَفِّهِ ظهراً لبطن كناية عن الندم الشديد ، وعلى الأسف والحسرة والحزن على ماله الضائع وجهده الذاهب (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) خالية خربة مهذمة وهي مهشمة محطمة وقد سقطت (عُرُوشِهَا)

سقفوها وأعمدها على الجدران فأصبحت خراباً (وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) وهو نادى على ضلاله وإشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، شعر بالندم في وقت لا ينفع الندم ، وكأنه تذكر موعظة أخيه المؤمن ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه/٤٤ . ومع أنه لم يصح بكلمة الشرك ولكنّه كان يعيش الشرك بلسان الحال قبل لسان المقال ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان بالله كان شركاً ينكره الآن ويندم عليه. ٤٣- (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك (وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) وَمَا كَانَ بنفسه بقوته الذاتية ممنوعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والأولاد حين إعتز بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ، وهذه سنة تاريخية جارية كانت وتستمر وهي تبين مصير الطغاة البغاة والعتاة مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ غافر/٨٥ .
فائدة: ١- وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْمَلُ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلُ ، وَسَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ غَفْرٌ ، وَأَنْدَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَغْدَرُ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف/٩٩ . ٢- من فوائد القصة : الاعتماد على عقيدة التوحيد (الاستقامة) وترك حب الدنيا سبب للنجاة في الدنيا والآخرة كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فصلت/٣٠ ، والشرك والفساد والعصيان وحب الدنيا سبب للهلاك والخسران في الدارين كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/١٠٣-١٠٤ .

٤٤ - ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

الولاية : ملك التدبير وجمال التقدير وكمال النصر والقدرة ، أي في تلك الحال وعند سقوط الأسباب عن التأثير وتبين عجز الإنسان يظهر أن ولاية أمر الإنسان وولاية كل شيء وملكه وتديبه وتقديره وحسن إدارته بيد الله تعالى وحده فهي ولاية خالصة لله سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الحج/٦٢ ، وغيره سبحانه من الأسباب الظاهرية باطل في نفسه وباطل مع غيره فلا يملك شيئاً من الأثر إلا ما أذن الله له (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) والله خير ثواباً لأولياؤه في الدنيا والآخرة من ثواب غيره وهو خير (عُقْبًا) عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه واستقام على منهجه. فائدة : ١- دلالة الآية إنّ طاعة الله والقناعة في الدنيا سبب النجاة في الدارين، والضلال وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ٢- عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ بِالْمَوَاهِبِ فَلَمْ يَشْكُرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ وَبَالًا ، وَابْتَلَى قَوْمًا بِالْمَصَائِبِ فَصَبَرُوا فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً!) البحار ٧١ ص ٤١ ٣- الله تعالى الولاية في كل شيء ولكن هنالك

تتركز الأضواء على مشهد الأولايه الحقيق الخاصة الذي ينفرد الله بها، فلا قوة إلا قوته ولا نصر إلا نصره، وثوابه خير ثواباً، وخاتمته حسن العاقبة.

٤٥ - ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخُتِلَتْ بِهِ بُنَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

هذا مثل آخر في وصف الدنيا وزخارفها الخادعة يشبه مثل الجنين في الفناء والزوال، والمعنى: إضرب يا محمد للناس عامة المتعلقين بحب الدنيا والمعرضين عن ذكر الله، مثل هذه الحياة الدنيا في نضرتها وهضمتها وبهجتها وفي سرعة تقلبها وزوالها وفنائها، بماء نزل من السماء فخرج به النبات من كل مكان وافيًا وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه أي امتزج الماء بالنبات وظهر الزرع بأجل زينة وبعد مدة معينة (فأصبح هشيماً تذروه الرياح) صار النبات (بعد مدة) متكسراً من اليبس متفتتاً (تذروه) تفرقه تنسفه الرياح في كل مكان لحفته، فتكون الدنيا كالسوق ربح فيه قوم وخسر آخرون (وكان الله على كل شيء مقتديراً) قادراً على الإفناء والإحياء فيخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وكذلك يخلق الناس من تراب ثم يعيدهم تراباً ثم يبعثهم للحساب بشراً سوياً! كيفما تحلوا وصاروا. فائدة: ١- هذا المشهد يصور الدنيا خطفة سريعة فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل لكن يختلط به نبات الأرض، والنبات لا ينمو ولا ينضج ولكنه يصبح يابساً هشيماً تذروه الرياح ثم ينتهي شريط الحياة، فما أقصرها حياة وما أهنأها حياة أي الحياة الدنيا دنيا الحياة، والحياة الآخرة عليها الحياة، خذ من الدنيا ما يبلغك أعلى منازل الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك خير الآخرة. ٢- عن الإمام علي (ع): (إِنَّمَا الدُّنْيَا كَالسُّمِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ) البحار ٧٣ ص ٨٨، وعنه (ع): (إِنَّمَا الدُّنْيَا شَرْكٌ وَقَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ) في غرر الحكم، وعن الإمام الكاظم (ع): (مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ زِدَادَ عَطْشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ)! الكافي ٧٨ ص ٣١١. ٣- روي: (إِعْمَلْ لِلدُّنْيَا بِقَدَرِ عُمْرِكَ فِيهَا، وَإِعْمَلْ لِالْآخِرَةِ بِقَدَرِ بَقَائِكَ فِيهَا، وَإِعْمَلْ لِلْجَنَّةِ بِقَدَرِ إِيمَانِكَ بِهَا وَحُبِّكَ لَهَا، وَإِعْمَلْ لِلنَّارِ بِقَدَرِ خَوْفِكَ مِنْهَا وَصَبْرِكَ عَلَيْهَا)

٤٦ - ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾

هناك قيم مؤقتة زائلة لها أمد محدود في الحياة، وقيم باقية نافعة مؤثرة في النفوس على الدوام هي التي تستحق الاهتمام ويتربح المؤمنون نتائجها وثمارها بيوم الجزاء. الزينة: كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين من الظاهر والباطن من الماديات والمعنويات، من مأكّل طيب وملبس جيد وزوجة صالحة وصحة كاملة ومنزلة عالية وأمن واطمئنان.. كل ذلك حلال بشرط أن لا يختلط به الحرام وأن لا يكون على حساب الآخرين، في غرر الحكم (الزينة بحسن الصواب، لا بحسن الثياب)، وزين الرياسة بحسن السياسة، وزين الأمراء من كان على نفسه الأمانة أميراً، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ

اللَّهُ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الأعراف/٣٢﴾، عن النبي (ص) : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا حَرَجَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَخِيهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ وَأَنْ يَتَجَمَّلَ) البحار ٧٩ ص ٣٠٧.

وَالْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةٌ وَنِعْمَةٌ لَكُنْتَهُمَا لَيْسَ بِهَا قِيمَةٌ عَلَيَّا كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن/١٤ ، وقوله ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ نوح/٢١ ، وإحما متاع ومسؤولية ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ التوبة/٣٨ ، فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسها في الحياة لأن (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ) في نوح البلاغة حكم ٨١ ، وليس قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يَمْلِكُهُ ، في غرر الحكم : (مَا تَزَيَّنَ مُتَزَيِّنٌ بِمِثْلِ طَاعَةِ اللَّهِ) ، إنما القيمة الحقة الدائمة قوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا) : رجاء ، إنها كلمة رائدة قائدة ، وعبارة نموذجية ناهضة ومميّزة تهدي للتي هي أقوم ، ومثلها في سورة مريم الآية ٧٦ وفي آخر الآية (وَخَيْرٌ مَرَدًّا) بدلاً من (وَخَيْرٌ أَمْلًا) (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) من الأعمال والأقوال والعبادات الصالحة التي تبقى ثمرتها وفوائدها ، وتستمر منافعتها ولا تزول فهي (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) خير ما يدخره ويؤمله الإنسان ويرجوه عند الله لبقاء خيرها عند الناس وثوابها عند الله فهي أفضل من سائر زينة الحياة الدنيا (وَخَيْرٌ أَمْلًا) أصدق أملاً من زينة الدنيا التي لا تفي للإنسان في أكثر مما تعد ، وهي تحقق أملاً فاعلاً من الآمال الطيبة وأمنية من الأمانى النافعة الصادقة في الحياة وبعد الممات ، فتكون صدقة جارية له كالولد الصالح يدعو له والكتاب النافع والمشاريع الخيرية المتنوعة التي تسد الحاجات الضرورية والكمالية للفرد والمجتمع ، وعمل نهضة حضارية شاملة ، وتدعيم العبادات المفروضة وأهمها الصلاة ، عن النبي (ص) : (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ الْمَقَدِمَاتُ، وَهِنَّ الْمَنْجِيَاتُ، وَهِنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) كثر الدقائق ٥٩/٦ ، وهذا مصداق للآية ، وإذا كان الناس يتعلقون بالأموال والبنين كقوله ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ الإسراء/٦٤ ، وقوله ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر/٢٠ ، عندما تتعلق بها القلوب ويناط بها الرجاء والأمل فإن كل الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ عِنْدَ رَبِّكَ جزاء وثواب من سائر زينة الدنيا وَخَيْرٌ أَمْلًا. فائدة : ١ - في غرر الحكم : (زِينَةُ الْبَوَاطِنِ أَجْمَلُ مِنْ زِينَةِ الظُّوَاهِرِ). عن الإمام علي (ع) أنواع الزينة : (الْعِفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى، وَالصَّبْرُ زِينَةُ الْبَلَاءِ، وَالتَّوَاضُّعُ زِينَةُ الْحَسَبِ، وَالْفَصَاحَةُ زِينَةُ الْكَلَامِ، وَالْعَدْلُ زِينَةُ الْإِيمَانِ، وَالسَّكِينَةُ زِينَةُ الْعِبَادَةِ، وَالْحِفْظُ زِينَةُ الرِّوَايَةِ، وَحَفْضُ الْجَنَاحِ زِينَةُ الْعِلْمِ (يعني التواضع) ، وَحُسْنُ الْأَدَبِ زِينَةُ الْعَقْلِ، وَبَسْطُ الْوَجْهِ زِينَةُ الْحِلْمِ، وَالْإِيثَارُ زِينَةُ الرُّهْدِ، وَبَدَلُ الْمَجْهُودِ زِينَةُ النَّفْسِ، وَكَثْرَةُ الْبُكَاءِ زِينَةُ الْخَوْفِ، وَالتَّقَلُّبُ زِينَةُ الْفَنَاعَةِ، وَتَرْكُ الْمَسْرِ زِينَةُ الْمَعْرِوفِ، وَالْحَشُّوعُ زِينَةُ الصَّلَاةِ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِي زِينَةُ الْوَرَعِ) البحار ٧٨ ص ٨٠ ، ٢ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ) أي (القوة الاقتصادية والقوة البشرية) وهما أهم أنواع الزينة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾ الكهف/٣٤ ، وقدّم المال على البنين لأنّ المال أهم

والحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ولأنه زينة بدوهم دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو في عناءٍ وشقاءٍ ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ التغابن/١٥ ، في نهج البلاغة خطبة ٢٣ ص ٦٤ : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ حَرْثُ الدُّنْيَا وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَرْثُ الْآخِرَةِ ، وَقَدْ جَمَعَهُمَا اللَّهُ لِأَقْوَامٍ) ، كقوله ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء/٨٨-٨٩ . ٣ - (الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ) وصف الباقيات بالصالحات أي هناك باقيات غير صالحات ، فتكون الأولى ذخر والثانية ضلال ، في الحديث: (قال الله تعالى : يَفْرُحُ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ إِذَا بَسَطْتُ لَهُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَبْعَدُ لَهُ مَيِّئًا ، وَيَحْزَنُ إِذَا قَتَّرْتُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَقْرَبُ لَهُ مَيِّئًا ثُمَّ تَلَا آيَةَ ﴿ أَلْيَسْبُونَ أَنَّمَا تُمَدِّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ المؤمنون/٥٥-٥٦) روح البيان ٢٥١/٥ ، عن الإمام الصادق (ع): (لَا تَسْتَصْغِرْ مَوَدَّتَنَا فَإِنَّهَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ) كنز الدقائق ٦/٦١ .

٤٧ - ﴿ وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي وإذكر يَوْمَ (نُسِفَ) نقلت ونزيت الجبال من أماكنها ونسبها كما نسب السحاب في الجو بعد تحميمها وجعلها هباءً منثوراً كقوله ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ المرسلات/١٠ ، فكيف حال القلوب آنذاك ؟ فهي تتكشف على حقيقتها فلا تخفى منها خافية ! (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) وَتَرَى الْأَرْضَ (بَارِزَةً) ظاهرة للعيان ليس عليها جبل ولا شجر ولا بنيان فقد تهدم كل ما عليها فهي بارزة ظاهرة ، وتبقى الأرض مستوية مسطحة وهذا يدلُّ سوف يتغير نظامها ونظام العالم كله (وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) جمعنا الأولين والآخرين من الحيِّ والإنس لموقف الحساب والجزاء على جميع الأعمال والأقوال ، فلم (نَعَادِرْ) نترك أحداً منهم كقوله ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ القمر/٧ ، عن النبي (ص) : (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عَرَاةٍ عَزْلًا) (غير محتونين) فُقِلْتُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ قَالَ (ص) : (الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهْمُّهُمْ ذَلِكَ) ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴾ عبس/٣٧) المرآغي ١٥٧/١٥ وعنه (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ عَفَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، في غرر الحكم: (مَنْ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا يَنْجِيهِ فَقَدْ أَضَاعَ مَطْلَبَهُ)

٤٨ - ﴿ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَاةً جَسُونًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قُلْ نَزَعْتُمْ أَلْسِنًا نَجْوًا لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾

يجمع الله الأولين والآخرين منذ بداية الحياة حتى ساعة الحشر ، تعرض كلها محشورة صفًا بعد صف في ساحة المحشر كصفوف الصلاة ، كلُّ أمة وزمرة وملة صفًا كقوله ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ الإسراء/٧١ ، لا يحجب أحدٌ أحداً ولا تفاضل بينهم بنسب أو مال أو جاه دنيوي ، ويقف الخلائق بالكامل بين يدي الخالق بنظام محكم فاعل دقيق بلا فوضى وعرقلة سير لم يتخلف منهم أحد (لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) لَقَدْ جِئْتُمُونَا للحساب والجزاء حفاة عراة ليس معكم مال ولا ولد ولا مناصب ولا جاه ، جئتمونا كهيتتكم حين خلقناكم أول مرة لتسألوا عما

كنتم تفعلون (بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا) بل زعتم بلسان الحال أو بلسان المقال أن لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب والدليل عليه أنكم لم تستعدوا إلى لقاء الله تعالى ، فائدة : (وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا) إنه عرض شامل يجمع الإنسانية كلها ومع هذا الحشد الهائل المكتظ ، هو عرضٌ مُميز واقعي نموذجي ينكشف فيه كلُّ إنسانٍ على حقيقته ، فلا يخفى أحد في زحمة الحشود ، فهم جميعاً في عين الله وقدرته صفٌّ واحد يأخذ كلُّ مكانه ويلقى حسابه وجزاءه ولو كانوا على شكل صفوف ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ الحاقة/ ١٨ ، ثم أن (صَفًّا) بالمفرد ولكنه ينزل منزلة الجمع كقوله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ظِفْلًا﴾ غافر/ ٦٧ ، والمعنى : صفوفاً مرتبة ومنظمة بدقة متناهية وبهذا يفتح سبحانه جلسة المحاكمة: قلتم في الحياة الدنيا من مات فقد فات ، والآن ماذا ترون؟! ثم يبدأ الحساب بقوله

٤٩ - ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

إنه مشهد دقيق من مشاهد يوم القيامة الحاسم عالي المضامين ، إنه مشهد مجسم يحرك المشاعر ويؤثر في الضمائر بلا استئذان ، ظاهره أنيق دقيق جذاب ، وباطنه رقيق عميق مناسب ، وكلما تتأمل فيه يأتيك بجديد ومفيد وكأما تعكس لوحة واقعية تُدهش الناظرين هذا سجل أعمال جميع الناس يوضع أمامهم للحساب ، الكتب ثلاثة في كتاب الله : كتاب لكلِّ البشر كقوله (وَوَضِعَ الْكِتَابَ) ، وكتاب لكلِّ أمة أو ملة كقوله ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ الجاثية/ ٢٨ ، وكتاب لكلِّ إنسان يحصي عليه جميع أعماله كقوله ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ الإسراء/ ١٣ ، (فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) مُشْفِقِينَ : خائفين ، والإشفاق خوفٌ مقرون برجاء ، أي فترى المجرمين خائفين مضطربين قلقين مما عليهم من الجرائم والذنوب الكبيرة المخزية.

(وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا) كلمة جزع وتحسّر وشدة وندامة ، أي يا حسرتنا يا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا (مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) لا يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها بدقة ، لا يغادر من أمورنا ولا يبقى صغيرة لصغرها ودقتها ولا كبيرة لكبرها ووضوحها إلا ضبطها وأحاط بها بالصورة والصوت والنية وكلها محفوظة على شكل فلاشات صغيرة كما عليه علمنا اليوم الألكتروني كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الإنفطار/ ١٠-١٢ ، وقوله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية/ ٢٩ ، (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) ووجدوا - مضافاً إلى المدون في كتاب الأعمال - ما عملوا حاضراً عندهم مثبتاً من غير زيادة ولا نقصان على صورته الحقيقية المجسمة ، صورة تتحرك على أرض الواقع وهم لا يستطيعون هرباً ولا تخلصاً ولا مداورة ولا مغالطة كقوله ﴿يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ آل

عمران/٣٠ ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لا يعاقب إنساناً بغير جرم ولا يُنقص من ثواب المحسن كقوله ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الأنبياء/٤٧ .

فائدة : ١- كقوله ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء/١٤ العاقل ينبغي أن لا يتسرع في حكمه على الحقائق الكبرى كيوم القيامة ولا يجزم بما هو فوق تصوّره وإدراكه نفيًا أو إثباتًا ، بل يضعه في عالم الإمكان حتى يصدقه أو يكذبه الدليل والبرهان ، والبرهان يقطع الشك ، وهناك شواهد على هذه الحقيقة ، من كان يتصوّر أن الإنسان يصعد إلى القمر والمريخ وهو الآن من الأشياء العادية ، إذن : فالكثير مما هو فوق التصوّر في زمنٍ معيّن يمكن وجوده وتحققه في زمنٍ آخر . ٢- من حكمة يوم القيامة : نظام الكون الموزون الدقيق الشامل والعام لدليل على قدرة الله عزّ وجلّ المطلقة على إحياء الموتى ، ولا يعقل أن يكون الهدف منه هذه الأيام والسنين المحدودة لحياتنا الدنيا ، وليس من الحكمة أن يكون كلُّ هذا الخلق العظيم المنظم والدقيق من أجل اكتفاء الناس بالأكل والشرب والتوم والعمل ، ضمن العمر المحدود في الدنيا وينتهي كلُّ شيء ، فلا بدّ ومن الحكمة أن يمتدّ هذا النظام العظيم حتى ينتهي لهدف عظيم وغاية سامية تتناسب مع حكمة الله تعالى في خلقه كقوله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون/١١٥ .

٥٠ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِدَلَالٍ﴾

واذكر لهم يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم فهو سجد تحية وتكريم واستجابة لأمر الله ، وهو سجد لأمر الله لا سجد لجسد آدم لا سجد عبادة (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) سجّد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجنّ (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) خرج وتمرد عن طاعة ربّه (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) تحذير للناس من هذا العدوّ الخطير المرير ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ يَا بَنِي آدَمَ هُوَ وَذُرِّيَّتُهُ وَأَوْلَادُهُ الشياطين (أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) آلهة وأرباباً وأنصاراً وقادةً مِنْ دُونِ اللَّهِ تعبدونهم وتطيعونهم وتتقربون إليهم ليوجهوكم ويدبروا أموركم (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ)؟! فأبي عاقل يحترم نفسه يقبل أن يتخذ من عدوّه اللدود الذي ناصبه العداوة الشديد من أوّل يوم ، أن يتخذ ولياً وقائداً ومرشداً وناصرًا ودليلاً ومعتمداً وعيناً؟! كقوله ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المجادلة/١٩ ، (بَسَسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) بسس للذم والتوبيخ ، والظالمون: كل من قدّم الأذى وترك الأولى ، وهم أيضاً كل من استبدل طاعة الشيطان وأوليائه وفضّلوها على طاعة الرحمن وكتبه وأنبيائه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤ .

فائدة : ١- المراد (بذرية الشيطان) حزبه وأنصاره وأعوانه من الجنّ والإنس وهم الذين يضلون الناس عن الحق والهدى ، وكل من يسمع لهم ويطيع فقد اتخذهم أولياءً وأنصاراً مِنْ دُونِ اللَّهِ ثُمَّ

يَبَيِّنُ السَّبَبَ فِي عَدَمِ اسْتِحْقَاقِ إِبْلِيسَ وَذَرِيَّتِهِ هَذِهِ الْوَلَايَةَ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ بَيَانِ خِبَائَةِ أَصْلِهِمْ وَسُوءِ قَصْدِهِمْ. ٢- (اسْجُدُوا لِآدَمَ) السُّجُودُ بِمَعْنَى الْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ، وَالسُّجُودُ قِسْمَانِ: سُجُودَ الْعُقَلَاءِ تَعَبُّدًا لِلَّهِ وَخُضُوعًا لَهُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَسُجُودَ غَيْرِ الْعُقَلَاءِ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّ مَخْلُوقٍ بِقَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةَ بِهِ كَقَوْلِهِ ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ الرَّحْمَنُ/٦، يَنْقَادَانِ لِأَمْرِهِ (النَّجْمِ) النَّبَاتِ لَا سَاقَ لَهُ كَالْخِيَارِ وَالْيَقْطِينِ (وَالشَّجَرِ) هُوَ النَّبَاتُ الَّذِي لَهُ سَاقٌ، وَكُلِّ مَخْلُوقٍ يَسْجُدُ وَيَسْبُحُ لِلَّهِ بِطَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةَ الْمَجْبُولِ عَلَيْهَا، وَيُمْكِنُ الْمَعْنَى: نَجُومُ السَّمَاءِ وَأَشْجَارُ الْأَرْضِ وَكُلِّ الْكَائِنَاتِ تَسْجُدُ لِلَّهِ وَتَطِيعُ وَتَنْقَادُ لِمَا سَخَّرَهَا اللَّهُ لَهَا مِنْ إِنْتَاجِ مَا فِيهِ مَصَالِحُ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِهِمْ.

٥١- ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُ الْمُضِلِّينَ عُضْدًا﴾

ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ لِدَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَيِّنُ السَّبَبِ مِنْ عَدَمِ اسْتِحْقَاقِ إِبْلِيسَ وَذَرِيَّتِهِ هَذِهِ الْوَلَايَةَ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ بَيَانِ خِبَائَةِ أَصْلِهِمْ فَقَالَ: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ) مَا أَحْضَرْتَهُمْ أَيُّ مَا أَحْضَرْتَهُمْ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ عَبَدْتُمُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا أَشْهَدْتُهُمْ وَلَا أَحْضَرْتَهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَا الْمُهَيِّمُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ وَالْكَائِنَاتِ وَلَيْسَ مَعِيَ نَظِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ (وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ) وَلَا أَحْضَرْتَهُمْ وَلَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ فَيَطْلَعُهُمْ عَلَى غَيْبِهِ وَلَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ سَبْحَانَهُ، وَلَا أَشْهَدْتُ بَعْضَهُمْ خَلْقَ بَعْضٍ، فَمَا حَضَرَ إِبْلِيسَ وَجُودَهُ الْخَلْقِ وَلَمْ يَعَايِنُوهُ، وَلَمْ يَحْضُرْ أَحَدًا حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَاتَّقَى الْأَتْقِيَاءَ، فَهَمَّ عِبِيدَ أَمْثَالِكُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَيْسَتْ لَدَيْهِمْ إِحَاطَةٌ عِلْمِيَّةٌ بِشَيْءٍ حَتَّى يَسْتَطِيعُوا تَدْبِيرَهُ وَتَقْدِيرَهُ كَقَوْلِهِ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يُونُسُ/٤٩، فَلَمْ يَكُنْ مَعِيَ حِينَ أُوجِدْتُ وَأَبْدَعْتُ نَظِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ وَلَا شَاهِدٌ وَلَا نَازِرٌ وَلَا حَاضِرٌ! ثُمَّ إِنَّ الشَّيَاطِينِ وَأَعْوَانَهُمْ بِطَبِيعَتِهِمْ أَشْرَارٌ مَفْسُدُونَ مُضِلُّونَ (وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُ الْمُضِلِّينَ عُضْدًا) أَعْوَانًا وَلَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ وَلَا طَرِيقَتِهِ أَنْ يَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ أَعْوَانًا حَتَّى يَفُوضَ إِلَيْهِمْ تَدْبِيرَ بَعْضِ الْأُمُورِ، فَعَلَامٌ تَتَّخِذُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَشُرَكَاءَ لِي فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ؟! كَيْفَ وَاللَّهِ يَعِينُ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ؟ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالْمَغْنِيُّ لِنَفْسِهِ وَهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، وَنَفْرُضُ وَفَرَضُ الْمَحَالِ لَيْسَ بِمَحَالٍ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَّخِذًا لَهُ مَسَاعِدِينَ لِمَا اخْتَارَهُمْ مِنَ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ، وَاللَّهُ يَكْرَهُ الضَّلَالَاتِ وَالْمُضِلِّينَ. فَائِدَةٌ: فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ مِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا عَلَى مَنَهْجِ اللَّهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَعِينُ بِالْمُنْحَرِفِينَ وَالْمُفْسِدِينَ الطَّغَاةِ أَصْحَابِ الْقِرَارِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْحَفَاطَةُ عَلَى اسْتِقَامَتِهِ عَلَى مَنَهْجِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ نَشَاطَاتِهِ الْعَامَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ.. وَفِي كُلِّ الْأُمُورِ مَعَ شِدَّةِ الصُّعُوبَاتِ وَكَثْرَةِ الْمَعَانَاةِ، فَإِنَّ فِي الْاسْتِقَامَةِ السَّلَامَةَ وَالْكَرَامَةَ بِلَا آيَةٍ نَدَامَةٍ وَلَا مَلَامَةٍ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الْأَحْقَافُ/١٣.

٥٢ - ٥٣ ﴿يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا، وَمَرَأَى

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِنُوهَا وَكَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾

مشهدً من مشاهد يوم القيامة ، وَيَوْمَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ عَلَى سَبِيلِ التَّائِبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ العَصِيب ، نَادُوا لِيُنقذكم مما أنتم فيه من زَعَمْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ شُرَكَائِي وَشَفَعَاؤُكُمْ ، والمراد كل ما عبد دون الله (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) فاستغاثوا بهم فَلَمْ يَغِيثُوهُمْ ولو استجابوا لأنكروهم وتبرأوا منهم (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا) مهلكاً ، أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكة لا يجتازها هؤلاء وهي النار . ٥٣- (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) الظنّ هنا بمعنى العلم اليقين ، حين رأى الْمُجْرِمُونَ جهنم أيقنوا (أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) واقعون فيها ، أي بأن الواقعة واقعةً على رؤوسهم لا محالة وأنهم داخلوها لا بد منه لأنها لهم بالمرصاد ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ النبأ/ ٢١ ، (وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) مهرباً فإن جهنم أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدرُوا على الهرب منها، كيف الهرب والله هو طالبهم ؟ فائدة : وهكذا كل تابع ومتبوع على ضلال ، وكل قائد وجماهيره على فساد ، فالبداية خطأ والعمل خطأ والنتيجة خطأ ، فما الفائدة من دنيا تغرُّ وتسرُّ ولكن عاقبتها تضرُّ ؟ كقوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/ ١٠٣-١٠٤ .

٥٤ - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

وأقسم (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) نوّعنا الخطاب ، لقد كررنا على وجوه شتى وبأساليب مختلفة من البيان في هذا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ (مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) من كلِّ شيءٍ يحتاجون إليه يدعوهم إلى الإيمان بنا ، من قصص ومواعظ وحجج وأمثال واستدلالات وترغيب وترهيب وعقائد وشرائع وأخلاق وبأساليب متنوعة تتناسب مع مختلف العقول كقوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء/ ٤١ ، (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) خصومة ! وبالرغم من كل هذا التركيز على الهداية فإن أكثر الناس لم يؤمنوا أبداً ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف/ ١٠٣ ، وطبيعة الإنسان غير المؤمن يتبنّى الجدل المذموم والخصومة التي تولد الكراهية والثغرة ولا ينبىء إلى الحق ولا ينزجر لموعظة ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ الْكَائِنَاتِ جَدَلًا بِالْبَاطِلِ (الجدل العقيم) المذموم ، الذي يضر ولا ينفع ويفرّق ولا يؤلّف .

كقوله ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ غافر/ ٥ ، عن النبي (ص) (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَّا أَوْثُوا الْجَدَالَ) البحار ١٣٨/٢ ، وعنه (ص) : (لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ) (الجدل المذموم) وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا (البحار ١٣٨/٢) وإن كان الجدل الممدوح مع أهل العلم والاختصاص بحث عليه القرآن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل/ ١٢٤ ، فائدة: ١- يمتلك الإنسان في طبيعته الإيجابيات كالعقل المفكر والتكريم الإلهي والخلافة على الأرض ويمتلك السلبيات (إنه ظلوم جهول جزوع هلوع منوع لفي خسر ، أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) . ٢- (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) ويعبر السياق عن الإنسان بأنه (شَيْءٍ) في هذا المقام ، ذلك لكي

يَعْرِفَ الْإِنْسَانَ قَدْرَهُ وَلَا يَتَعَدَّ طَوْرَهُ ، وهذه دعوة إلى تهذيب ذات الإنسان وتزكية نفسه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس/ ٩ ، وأن يقلل من غروره ومن عيوبه إنّه مخاصم بل أكثر الخلاق جدلاً .

٥٥ - ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَوْ آيَاتُهُمُ الْعَذَابُ فُبُكَرُوا﴾

يعرض القرآن الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للإهداء ، المعنى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْإِيمَانِ حِينَ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) وما منعهم من الاستغفار من ذنوبهم (إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ) إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين الجارية باستمرار ، وهي طريقة الله التي أجراها على الأمم السابقة ، وهي الهلاك والاستئصال كما أهلكت هذه السنة الماضين العاصين (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا) يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ (قُبُلًا) مواجهةً عياناً ومقابلةً ويرون أنه سيقع بهم عندئذ يؤمنون اضطراراً في وقت لا ينفعهم الإيمان كرفعون الذي آمن بالله لما أيقن بالغرق. فائدة : الموعظة والاستدلال لا ينفعان دائماً بل لابد من هزة موقضة للضمائر مناسبة من العقوبة على قدر الجناية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة/١٧٩ .

٥٦ - ﴿وَمَا نَزَّلْنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْعَقْلَ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾

هذه هي مهمة الرسل جميعاً (وَالْهَيْمَةُ عَلَى قَدْرِ الْمُهَيْمَةِ) تبشير من أطاع بالنعيم وإنذار من عصى بالجحيم (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) أوضح الله الحق و (الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) وأثبتته بالبينات والبراهين والدلائل المتنوعة ولكن الذين كفروا خصموه وجادلوا فيه (لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) القرآن أو الدين القويم ، وحاولوا دحضه وإبطاله بالكذب والسخرية ويزيلوا بجدهم الحق ويغلبوه، في غرر الحكم: (وَالْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ)! عن الإمام علي (ع): (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَىٰ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشُّكُّ) البحار/٧٧/٢٩٣ (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) سخرية أي واتخذ المجرمون القرآن وما خوفوا به العذاب والإنذار موضوعاً للهو واللعب والاستهزاء ، وكل من عرف الحق ولم يعمل به فقد اتخذ دين الله هزواً ولعباً (بِلِسَانِ الْخَالِ قَبْلَ لِسَانِ الْمَقَالِ) ويقول القرآن ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ البقرة/٢٣١ ، وجاء الفعل (يُجَادِلُ) بالمضارع المستمر للدلالة أن الجدل والصراع بين الحق والباطل مستمر دائم كقولهم ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الأنفال/٣١ .

٥٧ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَى قَلْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

أَذَانِهِمْ وَقُرْآنًا وَلَكِنْ نَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

(وَمَنْ أَظْلَمُ) ومن أعظم ظلماً وإجراماً أو لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله البينة وحججه الساطعة في كتاب القرآن أو في كتاب الأكوان أو في أعماق فطرته فأعرض عنها ولم يتدبرها

وتعامى عنها وتناساها ولم يلق لها بالاً ولا اهتماماً ولا عناية ، لأن الحق عنده شهوراته ولذاته وهواه ومناه (وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ويستهين بكل الأفعال القبيحة الكبائر والصغائر وكأنها حلال زلال ولم يتفكر بعاقبة أمره (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) يفهموه أي إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ (أَكِنَّةً) حجب ساترة وأغطية تحول وتمنع دون فقهه (فهم) هذا القرآن وإدراك معانيه المفيدة (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) وفي آذانهم صمماً وثقلاً معنوياً يمنعهم أن يسمعه سماع تفهم وانتفاع كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ محمد/٢٣ ، (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) وَإِنْ دَعَوْتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ فَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ أَبَدًا بعد أن ختم (طبع) على قلوبهم القاسية لأنهم معاندون لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى استعدادات ذاتية وقلوب متفتحة مؤهلة للإيمان مستعدة للتلقي وهؤلاء قلوبهم مغلقة قاسية لا تقبل نور الإيمان ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف/١٧٩ ، لأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشد كقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/١٤ ، وقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/٥. فائدة : ١- (ذُكِرَ) من التذکر إشارة إلى أن الإنسان مدرك لله في مشاعره في الحس السادس في أعماقه لكنه غافل عنه فتأتي التذكرة لإزالة حجب الغفلة عنه ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ الأعلى/٩ ، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/٥٥ ، ٢- الإعراض عن آيات الله وهده من أكبر الظلم لأنه يبدأ بظلم نفسه أي ضلالها ، والإنسان الذي لا يقبل هدى الله تراه يقبل هوى نفسه والشيطان فهو قاسي القلب عن الإمام علي (ع): (وَمَا فَسَّتِ الْقُلُوبُ إِلَّا لِكثْرَةِ الدُّنُوبِ) البحار/٧٣/٣٥٤ ، والقلب القاسي هو القلب المقفل ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ مجذ/٢٤ ، صحيح كانت على قلوبهم أكنة وأغطية ولكن بسبب (مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وبسبب (ذُكِرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) !

٥٨ - ﴿وَمَرْبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ وَرَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد وينعم عليهم جميعهم مع تقصيرهم وعصيانهم فلم يُعَجِّلْ لَهُمُ الْعَذَابَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ يعطي فرص كافية وافية للمذنبين لعلهم يعودوا إلى رشدهم ، وقدم المغفرة على الرحمة لأنها من مقدمات الرحمة وزيادتها ورفع الموانع عنها كقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الرعد/٦ ، (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) لَوْ يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي الكبيرة والتجاوزات الخطيرة لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ في الدنيا ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم رحمة بهم عسى أن يرجعوا إلى السمع والطاعة ، والله سبحانه لقد أمهلَ حَتَّى كَانَتْهُ أَهْمَلُ ، ولقد سَتَرَ حَتَّى كَانَتْهُ عَفْرَ ، وَأَنْذَرَ حَتَّى كَانَتْهُ أَعْدَرَ !! (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا) ملجأ ومنجى ومهرب ، أي لَهُمْ مَوْعِدٌ آخر في يوم القيامة يرون فيه الأهل ، لَنْ يَجِدُوا لَهُمْ

أمامها ملجأ ولا منجى ولا مهرب، وتوفى فيه كل نفسٍ ما كسبت ، كقوله ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فاطر/٤٥. فائدة : (الغفور) إيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبية على كثرة الذنوب.

٥٩ - ﴿وَلِكِ الْقُرَىٰ أَهْلِكَ نَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾

تلك هي أخبار الأمم السابقة كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكتناهم حين ظلموا وتعذّوا الحدود ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ ، فلا يعزّهم إمهال الله لهم (وجعلنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) وجعلنا هلاكهم وقتاً محددًا ثابتاً معلوماً لا يتغيّر كقوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر/٤٣ ، وسنة الله جارية لا تتخلف، في نوح البلاغة خطبة ٣٢ : (تعظوا بمن كان قبلكم أن يتعظ بكم من بعدكم)، عن النبي (ص): (السعيد من وعظ بغيره) البحار ٣٢٤/٧١، في الحديث: (المُلكُ يبقَى مع الكُفرِ وَ لا يبقَى مع الظُّلمِ) كقوله (وَكذلك نُؤيِّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) الأنعام/١٢٩، روح البيان ٥/٢٦٢، ولكنه يبقى مع العدل (العدلُ أساسُ المُلكِ)، كقوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف/٣٤ كقوله (لكلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) الرعد/٣٨

٦٠ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾

واذكر حين قال موسى بن عمران (لفتاه) وسمي فتىً لأنّه حديث السن وكبير القدر ، أي لصاحبه يوشع بن نون أو خادمه ثم عينه لقيادة بني إسرائيل ثم خليفة له (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين) لا أبرح : لا أزال سائراً حتى أصل إلى مجمع البحرين وهو ملتقى البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، أو هو محلّ إتصال خليج العقبة بخليج السويس في جنوب سيناء (أو أَمْضِيَ حُقْبًا) زمناً طويلاً ، الحقب : ثمانون سنة ، أي أبقى أسير إلى ما شاء الله إلى أن أبلغ ذلك المكان الذي فيه ينبوع العلم ، (الهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهِمَّةِ). كان لموسى (ع) هدف من رحلته هذه ويعلن تصميمه على بلوغ (مجمع البحرين) لتحصيل العلم الخاص (العلم اللدني) مهما كانت المشقة وهو يعبر عن تصميمه (أو أَمْضِيَ حُقْبًا) في طلب العلم الخاص، لأنّ العلم حياة وتنمية الحياة ، وتعرف قيمة الحياة بطلب العلم ، لأن هذه المنطقة تشرح تاريخ بني إسرائيل.

خلاصة القصة: والسبب في تصميم موسى (ع) لطلب العلم الخاص ، هو سؤال سئل إليه أي الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فأوحى الله إليه إنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك فأحبّ أن يرحل إليه ، فأراد الله سبحانه أن يعلم موسى التواضع وأنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/٧٦ ، فعلامة وجود هذا العالم في مكان تفقد فيه الحوت (السمكة) ، فحمل موسى الحوت (السمكة) واصطحب معه فتاه وجداً في السير حتى بلغا مجمع البحرين ، أخذت موسى سنةً ونام ، وفي أثناء

نومه انتفض الحوت وهو ميت وقفز إلى البحر بطريقة إعجازية عجيبة نادرة كقوله ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ الكهف/٦٣ ، فكانت هذه آية من آيات الله لموسى (ع). فائدة : (أَوْ أَمْضِي حُقْبًا) موسى (ع) من أنبياء أولي العزم وقد آتاه الله العلم الكثير ، وهو لا يبرح أي لا يزال يحرص على طلب العلم ويبذل الجهد الكثير في تحصيله ، ويسعى للاستزادة منه والبحث عن أحسنه الذي يهدي للخير والصلاح العام ، فإن العلم أفضل القربات إلى الله تعالى ، عن النبي (ص): (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) البحار/١٧٧ وبالعالم ترقى النفوس وتنهض الشعوب كقوله ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة/١١ .

٦١ - ٦٤ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حَوْتُهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ، فَلَمَّا جَاوَرَا قَالَ لَقِنَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ، قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾

فَلَمَّا بَلَغَ موسى وفناه جَمَعَ الْبَحْرَيْنِ (نَسِيًا حَوْتُهُمَا) أي تركاه ذهولاً عنه الذي أعداه لغدائهما ، أي نسي يوشع بن نون أن يخبر موسى بأمر الحوت (السمكة) وما شاهده منه من الأمر العجيب (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) أي منحدرًا ، فَاتَّخَذَ الْحَوْتَ (السمكة) سلك تلقائياً سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ (سَرَبًا) السرب هو السير في الطريق المنحدر ، ورجعت إلى الماء وهي حية بعد ما كانت ميتة بطريقة إعجازية! ٦٢- (فَلَمَّا جَاوَرَا قَالَ لَقِنَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا) فَلَمَّا (جَاوَرَا) قطعاً جَمَعَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ موسى (ع) لَقِنَاهُ أَعْطَانَا طَعَامَ الْغَدَاءِ (لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) لقينا في هذا السفر (نَصَبًا) عناءً وتعباً. ٦٣- (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ) قال الفتى يوشع بن نون حين طلب منه السمكة للغداء (قَالَ أَرَأَيْتَ) أوتدري حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها حدث أمر عجيب ، (فَأِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ) خرج الحوت (السمكة) وهي ميتة مشوية من مكانها ودخلت البحر وهي حية ! وقد نسيْتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ ذَلِكَ حين استيقظت (وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة أو سهوت عنه (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) واتخذت وسارت الحوت (السمكة) طريقه في الْبَحْرِ ودخل فيه بإعجاز وكان أمره عَجَبًا ، لأنه كان حوتاً مُملحاً مشوياً فدبت فيه الحياة بأعجوبة ودخل البحر وموسى نائم ، فإن إحياء السمكة بطريقة إعجازية حالة إستثنائية غريبة عبّر عنها القرآن (عَجَبًا) وهذا العجب موقف خاص في حالة خاصة في إعجاز خاص لأهداف خاصة لا يمكن أن تكون قاعدة عامة لكل الناس ، لأن هذه التصرفات بحسب ظاهرها تصطدم بالمنطق العقلي وبالآحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المعيّبة وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار!

٦٤- (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ) نَبْغُ : نطلب ، قَالَ موسى هذا الذي نطلبه ونريده أي فقدان الحوت لأنه علامة على غرضنا وهو لُقينا الرجل الصالح (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) القصص :

تتبع الأثر ، أي رجعا في طريقهما الذي جاء منه يتبعان آثار أقدمهما (قَصَصاً) أي رجوعاً من حيث جاء ، أي يقصّان آثارهما إتباعاً ويتفحصان تفحصاً الطريق الأول لئلا يخرجوا عن الطريق الصحيح للقاء الرجل الصالح.

فائدة: ١- قيل المعنى العرفاني لِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هو ملتقى بحر موسى والخضر ، فموسى (ع) بحر الحكمة الظاهرية ، والخضر بحر الحكمة الباطنية. ٢- يشير القرآن أن بعض الحيوانات تشكّل علامة إعجازية في المسيرة البشرية كإخبار الهدهد لسليمان ، وكذلك في إحياء السمكة ، والعنكبوت التي بنت البيت للمحافظة على النبي (ص) وكذلك دور الكلب في المحافظة على أصحاب الكهف كقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ المدثر/٣١. ٣- سفر موسى (ع) لطلب العلم للدلالة على أهميته البالغة ، عن الإمام الصادق (ع) : (أُطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِجَوْضِ اللَّجَجِ، وَشَقِّ الْمُهْجِ) البحار/٧٨/٢٧٧ ، في غرر الحكم: (اِكْتَسَبُوا الْعِلْمَ يُكْسِبْكُمْ الْحَيَاةَ) ٤- الرحلة كلها مفاجآت ومحبات غيبية وإحياء السمكة المشوية إحداها.

٦٥ - ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾

فَوَجَدَا (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) المعلم الكبير القدير الاختصاص بعلم الغيب اللدنيّ التّمودجي المميّز النادر، (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) أفضل فخر للإنسان أن يكون عبداً خالصاً لله تعالى ، وعلى قدر العبودية تكون الرّحمة ويكون رضا الله تعالى ، فوجدا الخضر (ع) عند الصخرة التي فقد عندها الحوت (السمكة) فسلمّا على الخضر فرد عليهما السلام بأحسن منه (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) الرّحمة : النبوة كمصدق ، وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه وهو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين آتاه الله من علم الغيب الخاص بالوحي والإلهام وهذه من صفات النبي كقوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الكهف/٨٢ ، (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) علماً خاصاً بتوفيق الله هو علم الغيوب ، علماً ربانياً عظيماً لا ينال بالأسباب العادية وهو العلم بالأسرار والمغيّبات وتأويل الحوادث وثمرته الإخلاص والتقوى ويسمى (العلم اللدنيّ) علم خاص نادر مميّز نموذجي يورثه الله لمن أخلص العبودية له فيخصه الله تعالى بالقرب والحب والجذب والكرامة الخاصّة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ القصص/١٤ ، وهذا يدل أن أمثال الخضر بكفاءات متنوعة يوجد من كلّ مجتمع وهذه سنّة الله في المسيرة البشرية على مدار حركة التاريخ في المنظور القرآني كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/٧.

وقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/٢٤ ، وقوله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/٧٦ ، وقوله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف/١٨١ ، ويظهر الخضر في هذا المشهد أستاذاً كبيراً وقديراً يعلم نبياً من أنبياء الله تعالى من أولي العزم وقد آتاه الله علماً لدنياً خاصاً مميّزاً يهدي إلى الحق ، كما ورد : غَضُوا أَبْصَارَكُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

ترون العجائب وتنكشف لكم الأسرار وتنسّقون مع الأقدار ! عن الإمام الصادق (ع) : (كَانَ مُوسَى (ع) أَعْلَمُ مِنَ الْخُضْرِ) تفسير النور ١٨٣/٥، أي أن موسى أعلم من الخضر في علم الشريعة ، ولكن الخضر كان أعلم منه بالحقائق الغيبية الخاصة وفي أمور العلم اللدني الخاص المميز ، ويبدو أن ذلك اللقاء كان سرّاً لموسى وحده مع ربه فلم يطلع عليه فتاه ، ثم ينفرد موسى (ع) والعبد الصالح في المشاهدة التالية للقصة.

٦٦ - ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾

رُشْدًا : لها دلالة واسعة المعنى ، أي علماً نموذجياً يزيدني وعياً وعلماً وهداية واستقامة في القول والعمل ، وأصيب به الخير الكثير ، قال موسى للخضر أنت بغيتي وغايتي والغاية من سفرتي ، فهل تصحبنى معك (هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا) والني لا يتعلّم من غير النبي ، هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك (رُشْدًا) ما يرشدني في حياتي ؟ وهذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع واستئذان من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان متواضعاً خاضعاً مع من يريد ان يتعلّم منه ، وموسى كليم الله ومن أولي العزم لا يستنكف أن يتعلّم ما خفي عنه علماً راشداً ، والعالم يسمّى عالماً ما يزال يطلب علماً على الدوام فإن قال اكتفيت فقد جهل ! فالعلم كثير والعمر قصير فخذ من العلم ما يكفي قليله وأهمه الكثير من المنافع. فائدة : ١ - (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) العلم واسع الآفاق متعدّد الاختصاصات فلا يتمكن الإنسان أن يحصه كلّ مع تنوعه وتجده ، لذا على العلماء ألا يغتروا بعلومهم ، وعليه يكون مصطلح (الأعلم) غير علمي لأنّه لا يحصي كلّ علوم زمانه ولا حتّى كل علوم اختصاصه ، وهذا يعارض قوله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/٧٦. في غرر الحكم : (العِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ)، وعن الإمام الباقر (ع) : (مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) البحار ١٨٩/٧٨، وعن النبي (ص) : (أَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَىٰ عِلْمِهِ) البحار ١١٢/٧٧. ٢ - إنّ الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقها في أنفسها ، وهذا لا يمكن تعلّمه إلا من الله تعالى بصفات مميّزة خاصّة منها تزكية النفس من العيوب والنقائص وتطهير القلب ، في غرر الحكم : (ذُرُوءُ الْعَالِيَاتِ، لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذُرُوءُ التَّهْدِيبِ وَالْمُجَاهِدَاتِ).

٦٧ - ٧٠ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا، قَالَ سَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

قَالَ الخضر يا موسى إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الصبر بمرافقتي على ما ترى ظاهر الأمور ، لأنني وكتلت بأمر وبعلم مميّز خاص لم تتعلّمه ولا تطيقه. ٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ أَمْرٍ ظَاهِرُهُ مَنكَرٌ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ بَاطِنَهُ وَحَقِيقَتَهُ وَلَا تَعْلَمُ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِيهِ ؟ لأن كلينا

يعلم ما لا يعلمه الآخر وموكل بأمر لا يطيقه الآخر. ٦٩- (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) قَالَ مُوسَى سَتَرَانِي صَابِرًا إِن شَاءَ اللَّهُ وَلَا أَعْصِي أَمْرًا. ٧٠- (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته الغريبة العجيبة التي يختلف ظاهرها عن باطنها ، حتى يكشف له سرّها بنفسه، فقبل موسى شرطه رعايةً لأدب المتعلّم مع العالم وودّع فتاه وذهب مع الخضر (ع). فائدة : علّم الخضر علم لديّ بالغيب أطلع الله عليه بصورة خاصة ، بالقدر الذي أرادته وللحكمة التي أرادها فلا طاقة لموسى (ع) بالصبر على الخضر وتصرفاته ولو كان موسى نبياً رسولاً ، لأن هذه التصرفات الغريبة حسب ظاهرها تصطدم بالمنطق العقلي وتحالف المشاعر البشرية الظاهرة ووراءها حكمة مغيبة، وهي حالة خاصة نموذجية لا تتكرر بخصائصها ولا يمكن القياس عليها لعدم وجود الأمر الإلهي فيها ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الكهف/٨٢.

٧١-٧٣ ﴿فَانظُرْنَا حَتَّىٰ إِذَا مَرَكَبْنَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، قَالَ لَا تَأْخُذْ بِنِآسَتِمْ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾

انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوها بدون أجر فلما رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ (خَرَقَهَا) ثقبها أي عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر بلا مبرر وسبب ظاهر ! (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) قَالَ له موسى مستنكراً : أَخَرَقْتَ السَّفِينَةَ لِتُغْرِقَ رِكَابَهَا ؟ (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) ففعلت شيئاً (إمراً) عجباً فضيحاً منكراً ترفضه النفوس. ٧٢- (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) أَلَمْ أَخْبِرْكَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا تَرَى مِنْ أَعْيَالِي ؟ ذَكَرَهُ بِلُطْفٍ فِي مَخَالَفَتِهِ الشَّرْطِ. ٧٣- (قَالَ لَا تَأْخُذْ بِنِآسَتِمْ بِمَا نَسِيتُ) قَالَ مُوسَى مُعْتَذِرًا لِلخَضْرَاءِ لَا تَأْخُذْ بِنِآسَتِمْ بِمَخَالَفَتِي الشَّرْطِ وَنِسْيَانِي الْعَهْدِ وَغَفَلَتِي عَنْهُ (وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) لَا تَرْهَقْنِي : لَا تَضَيِّقْ عَلَيَّ أَيَّ لَا تَكْلِفْنِي مَشَقَّةً فِي صَحْبَتِي إِتَاكَ بِالْمُؤَاخَذَةِ فَتَعَسَّرَ عَلَيَّ مِتَابَعَتُكَ وَعَامَلَنِي بِالْيَسْرِ وَالْمَسَاحِمَةِ. فائدة : ١- تدل الآيات بظواهرها أن النسيان والهفوة والغفلة والسّهو في غير تبليغ الرسالة الإلهية جائز وطارئ وأمر استثنائي على الأنبياء في شؤونهم الدنيوية، أما في حالة التبليغ فمستحيل لأن النبي معصوم عن الخطأ وهو لسان الله وبيان رسالته كقوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم/٣-٤ ، وقوله ﴿سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنْسَى ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعلى/٦-٧ ، هذا موقف ثانٍ للنسيان يعيشه موسى (ع) لأنّ النسيان حالة إنسانية طبيعية وليست اختيارية ! ٢- ظاهر أن هذه الفعلة الغريبة تعرّض السفينة وركابها للخطر وتؤدي بهم إلى الغرق والهلاك ، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر الذي لا مبرر له في المنطق العقلي؟ والإنسان قد يتصوّر في ذهنه أنه يملك مشاعره وإرادته قبل

الوقوع في الأمر ولكنه عندما يصطدم بالواقع والتطبيق العملي يحس ويعرف شيئاً لم يكن في ذهنه وتصوّره ، فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصوّر النظري المجرد لذلك قال الخضر لموسى (قَالَ أَمْ أَقُلُّ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ؟

٧٤ - ٧٦ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرّا بغلمان يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة دون سنّ البلوغ ولم يبلغ الحلم فقتله الخضر ! وهذه فعلة أشدّ من سابقتها وأفضع ، وهذا الغلام بلاء على نفسه وبلاء على مجتمعه في مستقبله القريب فموته كان رحمة قبل سنّ التكليف ، ثار موسى على خرق السفينة فكيف بقتل نفس لذا غضب وقال (أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) قال موسى للخضر أقتلت نفساً (زَكِيَّةً) طاهرة بريئة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تُقتل به ومعنى بِغَيْرِ نَفْسٍ : بغير حق قصاص لك عليها (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) هكذا يتهم أستاذه بهذا الاتهام الصريح، لَقَدْ فعلت شيئاً منكراً ينكره الدين والعقل والقانون ويحرمه الله والناس ، وجريمة صارخة فضيحة لا يمكن السكوت عنها. فائدة : ١- ذكر مع قتل الغلام (نُّكْرًا) منكراً فظيماً لأنّ قتل الغلام أقبح من خرق السفينة، ونكراً وهو القبيح بذاته والقبيح لغيره لذلك ينكره الجميع تنكره العقول وتنفر منه النفوس لفضاعته وشناعته وعدم إصلاحه وأثره أقوى من كلمة (إِمْرًا) في قوله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ الكهف/٧١، أي منكراً في مورد ثقب السفينة فسرعان ما تداركوا الخطر وأغلقوا الثقب ووصلوا للساحل، ٢- لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصداً أن ينكر المنكر ويعترض عليه الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده، ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذي شرطه عليه. ٧٥- (قَالَ أَمْ أَقُلُّ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) زاد كلمة (لَكَ) على سابقه لتشديد العتاب وعدم العذر هنا (لَكَ) أتت على التعيين والتحديد ، إنّك طلبت الصحبة وقبلت الشرط والآن رفضت شروط الصحبة ! ويعود موسى إلى نفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ونسي ما تعهده به بعد التذكير والتفكير فيقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة أمامه. ٧٦- (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) قَالَ موسى وقد خجل منه إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ الْآنَ فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ (بَلَغْتَ) وجدت من قبلي عذراً في مقاطعتي لأتني الذي لم أترم بشرط مصاحبتك.

الجزء السادس عشر من القرآن الكريم

٧٧-٧٨ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَبِؤَاءُ أَنْ يَضِيفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَّقَضَ أَفْئَامَهُ قَالُوا لَوْ شِئْنَا لَاتَّخَذْنَا عَلَيْهِ أَجْرًا ، قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْتِيكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

مشيا حتى وصلا إلى قَرْيَةٍ (مدينة) وهما منهكان من التعب والجوع (اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا) طلبا من أهلها أن يطعموهما فرفضوا أن يضيفوهما بجلاً ولؤماً ، فلا يرُدُّ الضيف الكريم والغريب إلاّ اللّيم

البخيل (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ) فَوَجَدَا فِيهَا حَائِطاً (يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ) يكاد أن يسقط فاقامه الخضر وبناه وساعده موسى (ع) ورمه بلا مقابل ! بحضور أهل القرية (قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً) فقال له موسى متعجباً لَوْ شِئْتَ لتقاضيت منهم أجراً على إعادة بنائه فنشترى به شيئاً من الطعام نسدُ به جوعنا. ٧٨- (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ) قَالَ لَهُ الْخَضِرُ هَذَا وَقْتُ الْفِرَاقِ بَيْنَنَا حَسَبَ قَوْلِكَ وَوَعْدِكَ (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) سأخبرك بحكمة وعاقبة ومصالحة هذه المواقف الثلاثة التي أنكرتها عليّ ولم تستطع تحملها. فائدة : ١- لا يطرد الضيف إلاّ اللقيم. ٢- يجب إصلاح العيوب في البيت (جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ). ٣- ليس من العيب أن نعمل أجراء وأن نأخذ أجره أعمالنا. ٤- بعض الحوادث الظاهرية قد يكون لها أبعاد باطنية وأسرار غيبية لا يعرفها إلاّ ذو حظٍ عظيم (بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ..). ٥- (بِتَأْوِيلِ) التأويل : مأخوذ من آل إذا رجع ، ويقال تأول فلان الآية أي نظر إلى ما يؤول إليه معناها الدقيق، فالتأويل ينقل المعنى من ظاهره إلى معنى أخفى منه وأشمل ، وهو بيان ما تقول إليه الأفعال كقوله ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ يوسف/١٠٠.

٧٩ - ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ هذا بيان وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يتحملها واعترض عليها واستنكرها ، المعنى : أما السفينة فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة وكانوا يؤجرونها ويكتسبون قوتهم وعيالهم منها (فَأرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) أردتُ بخرقها أن أجعلها معيبة بالشق لئلا يغتصبها الملك الظالم (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) كَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ ظالم يغتصب بالقوة كلّ سفينة صالحة لا عيب فيها لمصالحه الخاصة ويدع كلّ معيبة لأهلها ، فعبتها لئلا يأخذها ! فأنقذتها بهذا العمل من المصادرة ، فدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف فكان الضرر الصغير الذي أصابها إتقاء للضرر الكبير ! لم يخرق الخضر السفينة بنحو يسبب دخول الماء فيها بحيث لا يستفاد منها ويؤدي إلى إغراقها بل المطلوب أن يعيبها فقط ليتحقق الغرض منه هو حرمان الحاكم الظالم الغاصب من الاستيلاء على أموال المساكين ، وأيضاً ما فعله الخضر كان بأمر من الله (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) ولكن للأدب نسبها إلى نفسه (أَعِيبَهَا). فائدة : (وَورَاءَهُمْ) أمامهم كقوله ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ المؤمنون/١٠٠ ، ووراءهم لا تعني المكان وإنما تعني الإحاطة أي الخطر المحيط بهم المجهول عنهم.

٨٠ - ٨١ ﴿وَأَمَّا الْعُلَاهُ فَكَانَ أَبْوَابُ الْمُؤْمِنِينَ فَنشِيتَا أَنْ يَرْمِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأرَدْنَا أَنْ يُدِلَّهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْ كَآفٍ وَأَقْرَبَ مَرْحَمًا﴾ وَأَمَّا الْعُلَاهُ الذي قتله فظاهرة لا يستحق القتل ولكن باطنه وحقيقته البعيدة ، خبيثة معاندة ، قد كفر بالله وعاث في الأرض فساداً وفي طبيعته طغيان ، وتزيد هذه الطبيعة الخسيسة وتتنامي على

مرور الزمن فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين الصالحين بكفره وطغيانه وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه ، ولكانا معه كافرين بالتضليل عن الإمام الصادق (ع) : (إِنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ جَاهِدًا لِحِمْلِ أَبِيهِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ) الكاشف ١٥٠/٥ ، فليرضَ امرؤُ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب (في بعض الأحيان) ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء/ ١٩ ، في الحديث : (لَا يَقْضِي اللَّهُ لِمُؤْمِنٍ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ) البحار ٣٣١/٧٢ (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) فحفظنا أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال أو يرهق والديه بالعقوق طاغياً عليهما كافرين ببعثتهما ولهذا استحقَّ القتل كما قال الإمام علي (ع) : (مَا زَالَ الرَّبُّ يُرِي مَعْنَا حَتَّى أَدْرَكَ فَرَحَهُ عَبْدُ اللَّهِ (المشؤوم)) الكاشف ١٥٠/٥ . ٨١- (فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) فرجونا الله سبحانه أن يرزقهما ربهما خيراً منه ، ولدأ صالحاً مطيعاً لله مستقيماً مع الناس باراً بوالديه نافعاً لأمته ، والولد الصالح من أكبر النعم على والديه وعلى الناس (زَكَاةً) ولدأ طاهراً مؤمناً صالحاً (وَأَقْرَبَ رُحْمًا) وأقرب برأ ورحمة بوالديه وأوصل للرحم والقربة ، لأن القريب من قربه الدين والخلق الكريم لا من قربه النسب أو الحسب أو السبب. فائدة: ١- لله تعالى عناية خاصة بالأبوين المؤمنين (أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ). ٢- (يُرْهِقُهُمَا طُغْيَانًا) يجب أن يكون الجسم خدمة للعقل وفداء للفكر وتضحية للإيمان ونصرة للقيم والمبادئ ولو على جناح الشهادة في سبيل الله في ظروف موضوعية مناسبة كقوله ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ﴾ مجد/٤ .

عن النبي (ص): (أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ) البحار ١٠٠ص٨ ، وأن تكون الحياة مع العزة والكرامة والاستقامة أفضل من الحياة مع الذلة والفساد والضلال ، عن الإمام علي (ع): (مَوْتُ فِي عِرٍّ، خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذُلٍّ) البحار ١٩٢/٤٤ (لئن كان الناس يعبرون إلى الموت عن طريق الحياة ، إنَّ الشهيد يعبر إلى الحياة عن طريق الموت المقدس). ٣- هذه القصة حالة خاصة لا يمكن تطبيقها ويقاس عليها لأنها استثنائية فلا يوجد عندنا مثل الخضر وموسى ، ولا يوجد عندنا أيضاً أمر إلهي في ذلك ، (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) ولا يوجد عندنا من يمتلك العلم اللدني الخاص! ومن تكشف له عوالم الغيوب. ٤- العبرة أنه لا يوجد من يعلم كل شيء ويحيط بكل شيء ويكون (الأعلم) في أتمته وفي زمانه ويقول القرآن ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/ ٧٦ ، والعلم مفهوم نسبي لا يمكن أن يحيط الإنسان بكل العلوم ، فيكون مفهوم (تقليد الأعلم) ينبغي إعادة النظر فيه كقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/٤٣ .

٨٢- ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

وَأَمَّا الْجِدَارُ الَّذِي أَقَمْتَهُ وَأَصْلَحْتَهُ دُونَ أَجْرَةٍ وَالَّذِي كَانَ يَوْشِكُ أَنْ يَسْقُطَ فَقَدْ حُجِّيَ تَحْتَهُ كَنْزٌ ثَمِينٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، رَوَى: أَنَّهُ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ كَلِمَاتٌ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ وَمَتَى سَقَطَ الْجِدَارُ ظَهَرَ الْمَالُ لِلْعَيَانِ وَتَرَكَ لِلغُصْبِ وَالنَّهْبِ، فَأَقَمْتَهُ حَرَصاً عَلَى الْمَالِ لِحِفْظِهِ لِلْيَتِيمَيْنِ وَإِقَامَةَ الْجِدَارِ تَفَضُّلاً وَإِحْسَاناً عَلَى كُلِّ الْفُرُوضِ وَالتَّقَادِيرِ، قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ ٧٧ (أَتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) وَقَالَ هُنَا (فِي الْمَدِينَةِ) وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقَرْيَةَ تَطْلُقُ عَلَى الْمَدِينَةِ (الْمَجْتَمَعِ) أَوْ الْعَاصِمَةِ (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) تَقِيّاً (وَمَنْ إِتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ) فَحَفِظَ اللَّهُ لهُمَا الْكَنْزَ لِصَلَاحِ أَبُوَيْهِمَا، لِأَنَّ صَلَاحَ الْآبَاءِ يَنْفَعُ الْإِبْنَاءَ، عَنِ النَّبِيِّ (ص): (إِنَّ اللَّهَ لِيُصَلِّحُ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُورَتِهِ (مَحَلَّتِهِ) وَأَهْلَ الدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ (يُصَلِّحُ بِهِ بِلَادَهُ وَعِبَادَهُ) فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ لِكِرَامَتِهِ عَلَى اللَّهِ) جَمَعَ الْبَيَانُ ٤٣٢/٦، (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا) فَأَرَادَ اللَّهُ رَبُّكَ الَّذِي يَرِيكَ وَيُرْعَاكَ أَنْ يَبْلُغَا (أَشُدَّهُمَا) سَنَ الْحَلْمِ وَالرَّشْدِ وَتَمَامَ عَقْلِهِمَا وَقُوَّتِهِمَا وَيَتَوَلَّيَا اسْتِخْرَاجَ كَنْزِهِمَا مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) بِهَمَا لِصَلَاحِ أَبِيهِمَا وَالْأَمْرُ كُلَّهُ قَائِمٌ عَلَى الرَّحْمَةِ ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الْبَقَرَةُ/١٠٥، فِي الْحَدِيثِ: (بُرُؤُ آبَاءِكُمْ يَبْرِكُكُمْ أَبْنَاءِكُمْ) تَحْفَ الْعُقُولِ ص ٢٦٤، وَبِالْعَكْسِ عَقُّوا آبَاءَكُمْ يَعْقُكُمْ أَبْنَاءَكُمْ! (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) مَا فَعَلْتُ مَا رَأَيْتَ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ عَنِ رَأْيِي وَاجْتِهَادِي الْخَاصِّ بِلِ فَعَلْتَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ وَالْهَامِهِ (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) ذَلِكَ (تَأْوِيلُ) تَفْسِيرِ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعِ الصَّبْرَ عَلَيْهَا بَعْدَ عِلْمِكَ بِأَهْدَافِهَا وَعَارَضْتَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ أَخْبِرَكَ بِتَفْسِيرِهَا.

فائدة: من دروس هذه القصة: ١- يجوز إِدْخَارُ ثَرَوَةِ الْآبَاءِ إِلَى الْإِبْنَاءِ بَعْدَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا حَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فِي غَرْرِ الْحِكْمِ: (شَرُّ الْمَالِ مَا لَمْ يُنْفَقْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْهُ، وَلَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ). ٢- رَوَى: (أَنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَفَارِقَ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ أَوْصِنِي يَا نَبِيَّ اللَّهِ: قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: لَا تَطْلُبِ الْعِلْمَ لِتُحَدِّثَ بِهِ النَّاسَ وَأَطْلُبْهُ لِتَعْمَلَ بِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي حَدِيثِهِ بَلْ نَفْعَهُ يَعُودُ إِلَى غَيْرِهِ) رُوحِ الْبَيَانِ ٢٨٧/٥. ٣- هَذِهِ الْقِصَّةُ خَاصَّةٌ وَلَا يَجُوزُ تَعْمِيمُهَا فِي وَقَائِعٍ أُخْرَى، تَمَّتْ بِوَحْيِ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ لِإِثْبَاتِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْمَسِيرَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يُوسُفُ/٧٦، (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) وَليست قَاعِدَةٌ لِلتَّحْرُكِ وَليست فِيهَا مَجَالٌ لِلاِجْتِهَادِ لِأَنَّهَا لِأَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ الْعِرْفَانِيُّ الرَّوْحَانِيُّ النَّمُودَجِيُّ الْخَاصُّ الْمُمَيِّزُ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الْكُهْفِ/٦٥، وَهَذَا الْعِلْمُ الْخَاصُّ يَصْعَبُ تَخْصِيصُ أَهْلِهِ. ٤- كِرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ ثَابِتَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا فِي حَقِّ مَرْيَمَ كَانَتْ تَنْزَلُ عَلَيْهَا الْفَوَاكِهُ الشَّتْوِيَّةُ فِي الصَّيْفِ، وَالصَّيْفِيَّةُ فِي الشِّتَاءِ، وَحَيْثُ هَزَّتِ النَّخْلَةَ الْيَابِسَةَ فَاتَّمَرَتْ، فَلَا أَمْرَ لِأَيِّ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامٍ أَوْ وَليٍّ مَعَ أَمْرِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ آلِ عِمْرَانَ/١٢٨. ٥- أَهْمِيَّةُ الْعَثُورِ عَلَى قَائِدِ وَعَالِمٍ وَقُدُوةٌ حَسَنَةٌ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ. ٦- (عِبَادًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ) بِمَقْدَارِ الْعِبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَنَالِ الْعِلْمَ اللَّدُنِّيَّ الْخَاصَّ، وَبِمَقْدَارِ الْإِخْلَاصِ الْخَالِصِ. ٧- التَّوَاضُعُ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ (هَلْ أَتَّبِعُكَ).

٨- عن النبي (ص) : (لَوْ أَنَّ مُوسَى صَبَرَ عَلَى الْخِضْرِ لَرَأَى الْعَجَائِبَ) الكثيرة. ٩- أولياء الله الذين يبلغون رسالات الله ، لا يعملون مقابل أجر ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس/٢١.

٨٣ - ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُمْ عَلَىٰ كُفْرٍ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

يسألك اليهود عن ذي القرنين ما قصته ؟ (قُلْ سَأَلْتُمْ عَلَىٰ كُفْرٍ مِنْهُ ذِكْرًا) قل لهم سأقص عليكم من الله من خبره قرآناً ووحياً ، عن الإمام علي (ع) : (ذَا الْقَرْنَيْنِ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا، وَكَانَ عَبْدًا صَالِحًا، أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحَبَّهُ، وَتَأَصَّحَ لِلَّهِ فَتَصَحَّه) تفسير العياشي ٢/٣٤٠ أي نصح الناس في سبيل الله فنصحه أي أيده ودعمه تعريف بذي القرنين : ملك مسلم عادل من ملوك اليمن وهو الإسكندر المقدوني أعطي العلم والحكمة والصلاح في الفكر والسلوك ، وسمي بذي القرنين لأنه ملك قربي الأرض أي مشارقتها ومغارها ، أي سيطر على العالم كله بالعدل ، فهو استخدم المقدمات اللازمة التي توصله إلى هذه النتيجة المطلوبة، وإتبع الأسباب والوسائل التي توصله إلى هذه الغاية باعتبار (لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) في غرر الحكم، كقوله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ النجم/٣٩-٤١ ، والأخذ بالأسباب قاعدة عامة لكل من طبقتها وصل إلى أهدافه لأنها من سنن الله في خلقه ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/٨٤ لذلك يجب اكتشاف القوانين الحاكمة في الطبيعة واستثمارها.

٨٤ - ٨٥ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتَى سَبَبًا﴾

سَبَبًا : وسيلة علمية وطريقاً هادياً عملياً يوصله إلى هدفه. المعنى : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) أعطاه الله جلّ في علاه في الدنيا الملك العظيم الواسع وهياً له من أسباب القوة والقدرة والإمكانات والسيطرة كلّ سبب من العدة والعدد (وَأَتَيْنَاهُ) وثبتنا له ملكه فلا يتزعزع وأطلقنا له حرية التصرف في الأرض حتى استولى عليها كيفما يشاء ووفرننا له الطرق الميسورة التي توصله إلى مقصده النبيل ، من العقل الكبير والجسم القوي والعلم الدقيق والدين الصحيح وكثرة المال والجنود وسعة الملك وهيبة السلطان وحسن التدبير والتقدير.. إلخ وفوق ذلك توفيق الله وتسديده وعنايته الذي أعطاه (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) وسيلة تمكنه من الفوز في ديمومة حكومته الحضارية الرشيدة الصالحة والفوز في نعيم هذه الحياة الدنيا دنيا الحياة ، التي تدلنا على الحياة الأخرى عليا الحياة كقوله ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ الأنعام/٦ ، عن الإمام علي (ع) : (كَأَنَّ لِذِي الْقَرْنَيْنِ عَلَائِمَ الْمُلْكِ وَالنَّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللَّهَ آتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِفُ بِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ وَإِنَّ اللَّهَ طَوَى لَهُ الْبِلَادَ وَذَلَّلَ لَهُ الْعِبَادَ) تفسير النور/٥/٢٠٢، وعنه (ع): (سَحَّرَ لَهُ السَّحَابَ وَقَدَّرَ لَهُ الْأَسْبَابَ وَبَسَطَ لَهُ الْيَدَ) جمع البيان/٦/٤٣٦، روي : (مَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ أَرْبَعَةَ مُؤْمِنَانٍ وَكَافِرَانِ، أَمَّا الْمُؤْمِنَانِ فَسُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ وَأَمَّا الْكَافِرَانِ فَنَمْرُودٌ وَبُحْتَنَصَّرٌ) كنز الدقائق/٦/١١٣.

(فَاتَّبَعَ سَبَبًا) فَاتَّبَعَ : فاتبع ، فلحق سبباً صحيحاً واتَّخَذَ وسيلة مدروسة مناسبة يسير بها نحو جهة مغرب الشمس ، استعمل أسباب القوة والقدرة في مواضعهما الصحيحة بدقة وحكمة وانطلق تحركه من العدل ، **والعدل** : أَسَاسُ الْمُلْكِ وَحَيَاةُ النَّفْسِ ، وزينة الإيمان ونظام الأمر وعمارة البلاد واستقامة العباد وتضاعف البركات عن الإمام علي (ع) : (فِي الْعَدْلِ الْإِفْتِدَاءُ بِسُنَّةِ اللَّهِ) مستدرك الوسائل ٢/٣١٠ ، لذلك توسَّع ملكه وعمَّ خيريه وخلد أثره ، عن ابن عباس: (جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا يُرِيدُ) مجمع البيان ٦/٤٣٦ . **فائدة: ١ -** تدل الآية أن الله سبحانه يوجد الأشياء بأسبابها ضمن نظام الأسباب والمسببات ، باعتبار (لكلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ) في غرر الحكم ، في مسيرة السنن الإنسانية ، والأسباب بيد الإنسان تكريماً له والمسببات بيد الله تعالى ، ولا تمضي المسببات إلا على ضوء وجود الأسباب ، فكانت عصا موسى سبباً لفلق البحر كقوله ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الشعراء/٦٣ ، لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر ، فليست عصا موسى التي فلقت البحر ، وإنما بسبب عصاه تحرك المسبب ففلق الله البحر ، والمسبب لهذه المعجزة هو الله ، فكلُّ شيء له سبب لا بد من معرفته والسعي وراءه (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَاتَّبَعَ سَبَبًا) في غرر الحكم: (سَبَبٌ التَّدْمِيرُ سُوءُ التَّدْبِيرِ) ، وبالعكس سبب التعمير حسن التدبير ودقة التقدير والتفكير .

٨٦ - ﴿إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

إنَّ ذا القرنين في رحلته الأولى إلى مغرب الأرض بلغ بلاداً أقصى الأرض لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس ، فوصل إلى المحيط الأطلسي فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، **المعنى** : مغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) **عَيْنٍ حَمِئَةٍ**: ذات حمأة وهي الطين الأسود على ساحل البحر ، **بمعنى** : فلما وصل إلى المحيط الأطلسي فوجد الشمس كأنها تغرب في عَيْنٍ حَمِئَةٍ منطقة مظلمة وكان ساحله طين أسود كما تنخدع العين، ولكن الحقيقة غير ذلك كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر وفي الحقيقة تغيب وراء البحر، ومن كان في البر يراها كأنها تغرب في الأرض! (وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) أمة ضالة كافرة (قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا) قلنا له بطريق الإلهام أو بطريق الوحي إذاً هو نبي ، يا ذا القرنين ما تريد أن تفعل بهم؟ مع ترجيح التعامل بالحسنى ، وقد ترك الله لذي القرنين حرية التصرف في أمر تلك البلاد لعلمه بإيمان ذي القرنين وعدله وأنه لا يخرج عن دائرة الحق ، **والمعنى** : تدعو يا ذا القرنين هذه الأمة الضالة إلى الإيمان وصالح الأعمال فمن استجاب فلا سبيل لك عليه ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة/١٩٣ ، ومن أصر على الكفر والضلال والفساد فأنت مخير بين عقابه وإمهاله عسى أن يتوب ويرجع إلى الرشد ، وفي الآية إشارة (تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا) إلى التفاعل مع المجتمع والتأثير بهم وعدم الابتعاد عنهم ، بعد أن سافر ذو القرنين إلى الغرب أقام النظام الديني العادل بين أهل الساحل ، وفعل نحو ذلك نحو المشرق .

٨٧ - ٨٩ ﴿قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعْتَبُكَ ثُمَّ يَكْفُرُ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ، وَأَمَا مِنْ آمَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ، ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾

بعد قول القوم قال ذو القرنين أما من ظلم نفسه بالشرك والإصرار على الفساد والضلال فسوف نعذبه في الدنيا بما يستحق (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) ثم يرُدُّ إلى ربه في الآخرة فيحاسبه ويعاقبه ويعذِّبه عذاباً (نُكْرًا) منكرًا فظيماً لا عهد له به ولا يخطر على باله ولا يعرفه البشر. ٨٨- (وَأَمَا مِنْ آمَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ) وَأَمَا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلِ وَاسْتَقَامَ فِي قَوْلِهِ وَفَعَلَهُ ، وفي الاستقامة السلامة والكرامة بلا أيَّة ندامة ولا ملامة، فجزاؤه المثوبة الحسنى على إطلاق معناها للدلالة على التضخيم ولا يكفي إيمان من دون عمل صالح (لأن الإيمان عملٌ كلُّه والقول بعضه) (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) وسنأمره بما يسهل عليه القيام به من التكليف ولا يصعب عليه مع معونته وتكريمه وحسن معاملته كقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الليل ٥-٧، هذه هي الشريعة السهلة السمحة، وهذا هو الحق والعدل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة ٧-٨. ٨٩- (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا) ثم سلك طريقاً آخر ، ثم هيئ السبب اللازم والمطلوب له واتبع طريقاً مدروساً بجنده وعدده وعدته يوصله إلى بلاد الشرق مجاهداً في سبيل الله، وهكذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي ، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ! ، في غرر الحكم: (الْمَرْءُ حَيْثُ يَصْعَقُ نَفْسَهُ) (وهذا دليل على أن الأمور تجري بأسبابها الطبيعية، وليس عن طريق المعاجز والخوارق).

٩٠ - ٩٢ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ غَوِيٍّ فَكَرِهَتْ لِمْ تَجْعَلَ لَهُمُ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ، كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ، ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾

في رحلته الثانية انتقل من بلاد الغرب إلى بلاد الشرق مجاهداً في سبيل الله ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَطَّلِعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوَّلًا مِنْ الْأَرْضِ وَهُوَ أَقْصَى الْمَعْمُورَةِ حَيْثُ تَشْرُقُ الشَّمْسُ فِي عَيْنِ الرَّائِي (وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) وجد الشمس تشرق على قوم عراة بدائيون متخلفون أشبه شيء بوحوش الفلوات (لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) لا بيوت تسترهم ولا أشجار تظلمهم من الشمس ولا لباس يحميهم ، ولم يذكر الله سبحانه ماذا فعل ذو القرنين بهؤلاء. ٩١- (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) كذلك كان أمر ذي القرنين في علو القدر وسعة الملك ورجاحة العقل وقوة الإرادة وكثرة الجند والعتاد والخبرة والتجربة والكفاءة والنزاهة ، في غرر الحكم : (مَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ) ، (خَيْرُ الْأَمْوَاءِ مَنْ كَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَمِيرًا) ، (مَنْ سَأَسَ نَفْسَهُ أَذْرَكَ السِّيَاسَةَ) ، (أَلَّةُ السِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ) ، وقد أحاط الله بأخباره وأحواله والله أحاط بكلِّ شيء علماً. ٩٢- (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا) ثم هيئ الأسباب للسير في رحلته الثالثة ، وسلك طريقاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة

٩٣ - ٩٤ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ، قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

في رحلته الثالثة ، حتى إذا وصل إلى منطقة فيها شق أو فتحة بين الجبلين سد ما بينهما في أرض القوقاز ، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع شرهم واعتداءاتهم عنهم (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) وجد قريباً منهما قوماً بسطاء ساذجين متخلفين لا يكادون يفقهون) يفهمون لغة الكلام ولا يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة فهم بعيدون عن مخالطة الناس ، ولا هم يفهمون لغة ذي القرنين ولا هو يفهم لغتهم ولكنه فهم مطالبهم بالحركات والإشارات أو بواسطة مترجم. ٩٤- (قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) قال القوم لذي القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، للدلالة على عموم إفسادهم وتنوع شروهم بالقتل والسلب والنهب والتخريب والسي ، وكانوا يأكلون ما يمشي على الأرض ويسبح في الماء حتى يأكلون لحوم البشر!! وقيل : يأجوج هم التتر ومأجوج هم المغول وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وتمتد بلاهم من التبت والصين إلى البحر المتجمد ومنهم جنكيز خان وهولاكو اللذان أفسدا الحضارة الإسلامية وخربا البلاد والعباد (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ (خَرْجًا) شيئاً نخرجه من أموالنا كخراج وعطاء وضريبة (عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) لتجعل سداً يحمينا من شرِّ يأجوج ومأجوج، وهذا طلب لقضاء حاجتهم بكل خضوع وأدب، روي عن النبي (ص): (وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ... قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ (ص) نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْثُ) تفسير المراعي ١٦ ص ٢٠.

٩٥ - ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾

قَالَ مَا أَعْطَانِي رَبِّي مِنْ سُلْطَانٍ وَمَلِكٍ وَثَرَةٍ وَمَكَّنِّي فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ اللَّهُ فَأَنْتُمْ إِلَىٰ مَالِكُمْ أَحوج فلا حاجة لي إليه، فردّ عليهم عرضهم المالي وتطوع بإقامة السدّ إحساناً ونشر الخير بين الناس كقول سليمان (ع) ﴿أَمْهَدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ النمل/٣٦، (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) فَأَعِينُونِي بما أتقوى به على بنائه كالرجال والعمّال والمواد والآلات (أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ (رَدْمًا) سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً متراكباً بعضه فوق بعض، والرّدْم: أكبر من السدّ وأوثق، وهذه شهامة منه وتفضل حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السدّ واكتفى بعون الأيدي العاملة.

٩٦ - ٩٧ ﴿أَتُونِي زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَّائِنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَامًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

أعطوني (زبر) قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) الصَّدَفَيْنِ: جانبي الجبلين فجمعوا له قطع الحديد الكثيرة ، فوضع بعضه فوق بعض حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما (قَالَ انْفُخُوا) أنفخوا بالمنافيخ عليه التي صنعها لهذه الغاية من أجل إشعال النار (حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) أعطوني أصبُ عَلَيْهِ (قِطْرًا) النحاس المذاب فصَبَّهُ على الحديد المحمر فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلباً وسدّت الثقوب والفجوات حتى يتماسك ويقوى فلا ينفذ فيه الهواء ولا تؤثر عليه الرطوبة ويحفظ من التآكل والصدأ ، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية صناعة الحديد ومضاعفة مقاومته. ٩٧- (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) فما استطاع يأجوج ومأجوج المفسدون أَنْ (يَظْهَرُوهُ) يصعدوه ويعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) نَقْبًا: خرقاً ، وما استطاعوا أن يخرقوه وينفذو منه من أسفله لصلابته وسماكته ، وبهذا السد المنيع التآريخي أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعفاء فاطمأنوا وآمنوا. فائدة: (فَمَا اسْتَطَاعُوا) (وَمَا اسْتَطَاعُوا) فعل الاستطاعة ببناء المطاوعة مرة، ويجيء بغير التاء مرة أخرى ، وتدلّ التاء على زيادة في الشدة والقسوة.

٩٨- ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾

قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ هَذَا السَّدُّ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (وَحَيَّرَ النَّاسَ مِنْ نَفْعِ النَّاسِ) فِي دَفْعِ شَرِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل/ ٥٣ ، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي لَخُورِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَذَلِكَ قَرَبَ قِيَامِ السَّاعَةِ (جَعَلَهُ دَكَّاءَ) جَعَلَ السَّدَّ مَسْتَوِيًّا مَعَ الْأَرْضِ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي بِخَرَابِ السَّدِّ وَقِيَامِ السَّاعَةِ كَأَنَّ لَا مَحَالَةَ. فائدة: ١- (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) نَظَرَ ذُو الْقَرْنَيْنِ إِلَى السَّدِّ هَذَا الْعَمَلِ الْهَنْدَسِيِّ الضَّخْمِ الَّذِي قَامَ بِهِ فَلَمْ يَأْخُذْهُ الْبَطَرُ وَالْغُرُورُ وَالْإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ وَلَمْ تَسْكُرْهُ نَشْوَةُ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ الَّتِي رَعْتَهُ وَسَدَدَتْهُ فَشَكَرَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَرَدَّ إِلَيْهِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي وَفَّقَهُ إِلَيْهِ وَتَبَرَّأَ مِنْ قُوَّتِهِ إِلَى قُوَّةِ اللَّهِ. ٢- الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ الأنبياء/ ٩٦-٩٧ ، وَهَذَا يَنْتَهِي الْحَدِيثُ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْحَاكِمِ الْعَادِلِ الْمُؤْمَنِ الصَّالِحِ الْمُتَوَاضِعِ ثُمَّ يَفْتَحُ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ الْحَدِيثَ عَنِ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَيِ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَعِلَامَاتِ الْقِيَامَةِ.

٩٩- ﴿وَلَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ لِنُؤْمِنُ فِي بَعْضٍ وَنُخِ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾

الآية من المتشابهات ، ومن الإخبار بالمغيبات وهي ظنية الدلالة ، الآية معطوفة على الآية التي قبلها ٩٨ ، هذا مشهد غريب يرسم حركة الجموع البشرية من كل جنس وأرض وزمان وعصر

مبعوثين منتشرين من غير نظام وفي غير انتباه تندافع جموعهم الكثيرة كتدافع أمواج البحر ! ثم إذا (نُفِخَ فِي الصُّورِ) فإذا هم في الصّف في نظام! أي يوم القيامة أو يوم خروج يأجوج ومأجوج (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) وتركنا الناس بعد خراب السدّ يمج أي يضطرب بمعنى: يضطربون يومئذٍ من شدة الهول ومن كثرتهم وشدّتهم وفرعهم ، كاضطراب أمواج البحر باندفاع بعضه إلى بعض، فيرتفع بينهم النظم وتسقط القوانين وهم يفسدون على الناس حياتهم ويحكم فيهم الهرج والمرج! ويعرض عنهم ربّهم فلا يشملهم برحمته ، وهذا اليوم الرّهب هو خاتمة المطاف للحياة الدّنيا وبداية الحياة الأخرى لذلك جاء قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ النفخة الثانية فَجَمَعْنَاهُمْ للحساب والجزاء في صعيدٍ واحد لم يتخلف منهم أحد، وكلّ يتخيل أن ذلك الذي حصل كأنه فيه منام كما يتخيله المستيقظ! وهذه نهاية الحياة الدنيا. فائدة: نلاحظ السياق القرآني يعقب على ذكر ذي القرنين و(فُنِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) واقتراب الوعد الحق ومشهد يوم القيامة والهرج والمرج، أي يأذن الله سبحانه بزوال هذا السد وينفتح الطريق أمام يأجوج ومأجوج وفسادهم وعندئذٍ يختلطون بالناس فيموج بعضهم في بعض وتعصف بهم عواصف الشر والعدوان والفساد حتى يفني بعضهم بعضاً حال المياه الكثيرة التي تضطرب أمواجها وتتلاطم في جرياتها واندفاعها، إنّه تصوّر قرآني مأساوي يُجسّم الحالة المخيفة بأساليب حسّية دقيقة لتكون أكثر تأثيراً، وبعد ذلك ينفخ في الصُّور.

١٠٠ - ١٠١ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا، الَّذِينَ كَانُوا أُغْيِبُوا فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (وَعَرَضْنَا) وأبرزنا جَهَنَّمَ وأظهرناها لِلْكَافِرِينَ يوم جمع الخلائق حتى شاهدها بأهوالها ، عرضاً مخيفاً مفرعاً قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمّ والحزن لهم فيكتووا بنارين نار الرعب ونار الحريق. ١٠١ - (الَّذِينَ كَانُوا أُغْيِبُوا فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي) عَنْ ذِكْرِي : عن الآيات الموصلة إلى ذكر الله وتوحيده وتمجيده ، أي الذين كانوا عمياً عن الحق فلا يبصرونه وصماً عنه فلا يسمعون ، وكان على عيونهم غطاء وغطاوة محيطة بها ، ولكأن في أسماعهم صمماً، فهم تغافلوا وأعرضوا عن الهدى واعتبروه رجعية فهم لا ينظرون بتدبر ولا يتفكرون بتعقل (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) لا يطيقون أن يسمعوا (القرآن) كلام الله تعالى لقسوة قلوبهم وظلمة نفوسهم كقوله ﴿كَأَنَّ بِلَ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/ ١٤ ، وهذا تمثيل لإعراضهم عن دلائل الله السمعية وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار ، فكأنهم عمي صم كقوله ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام/ ١٠٤ ، وهذا ما نشاهده بالعيان من بعض الناس على أرض الواقع ، وهكذا فلكل من الهوى والتقى أهل ، وهما بعد منهجان مختلفان متضادان ، تعرض عليهم جهنّم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله في الدّنيا ، لقد نزع الغطاء

عن عيونهم نزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقاً كقوله ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ الكهف/٥٣. عن الإمام الباقر (ع): (لَا دِينَ لِمَنْ دَانَ بِطَاعَةِ مَنْ عَصَى اللَّهَ، وَلَا دِينَ لِمَنْ دَانَ بِفِرْيَةِ بَاطِلٍ عَلَى اللَّهِ، وَلَا دِينَ لِمَنْ دَانَ بِجُحُودِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) البحار ٣٩٢/٧٣

١٠٢ - ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

(أَفَحَسِبَ) الاستفهام للتوبيخ أي أظن الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي (أَوْلِيَاءَ) قيادات متنفذة أي أرباباً يتولون تدبير الأمور (مِنْ دُونِي) من دون الله تعالى ينصروهم ويدافعون عنهم وأنا لا أعاقبهم على ذلك؟ سواء أكانوا آلهة من الرؤساء وأصحاب الجاه.. يطيعونهم بتدليل ويعبدونهم يجهل ويتبعونهم بعمى من دون الله، كما عبد المسيح عيسى (ع) والملائكة وعزير وهم دانوا لله بالربوبية ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم، أحسبوا أن ذلك ينفعهم ويدفع عنهم عذاب جهنم إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان، فقد فتنوا بزينة الحياة الدنيا وبشهوات أنفسهم واطمأنوا إلى ظاهر الأسباب الملهمية، وَمَنْ إِشْتَعَلَ بِالْمُهْمِ ضَيْعَ الْأَهْمِ (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) إِنَّا هَيَّأْنَا جَهَنَّمَ وجعلناها (نُزُلًا) منزلاً للضيافة والجزاء لهم كما ينزل الضيف في منزل معد له، وفيه تحكم واستهانة بقدرهم كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آل عمران/٢١. فائدة: ١- تشير الآية من ادعى محبة الله وولاءه لا يتخذ من دون الله أولياء إذ لا تجتمع ولاية الحق وولاية الخلق، ومن كفر بنعمة الولاء واتخذ من دون الله أولياء وأنصار فله جهنم. ٢- العبودية للعباد من دون الله شرك كقوله وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف/١٠٦.

١٠٣ - ١٠٤ ﴿قُلْ كُلٌّ يَتَّبِعُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

تبحث الآية عن القيم والموازن عند الله وعند عامة الناس، وجاء سياق الآية البلاغي على مساق الاستفهام لإثارة الإنتباه إلى أهمية ما وراء هذا الاستفهام من جواب عليه. المعنى: قل أيها الناس هل نخبركم بأخسر الناس عند الله يوم القيامة؟ فلا يوجد من هم أشد منهم خسراناً. ١٠٤- (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ضَلَّ : ضاع سَعِيَهُمْ وبطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا ينفع معه طاعة، والذين يعبدون الله كما يريدون وليس كما يريد الله سبحانه، كالقسيسين والرهبان وأصحاب الغلو والتطرف وأصحاب الاتباع الأعمى.. إلخ (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) ويطنون أنهم محسنون في ميزانهم وأن أفعالهم طاعة، عن الإمام علي (ع): (لَا دِينَ لِمَنْ دَانَ بِطَاعَةِ الْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ) البحار ٣٩٣/٧٣، لأنهم من شدة الغفلة (وَالْعَفْلَةَ مِنْ فَسَادِ الْحَسَنِ) بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى وهدرًا، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الخادع الذي يغر ويسر بظاهره ولكن يضر بباطنه وعاقبته، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ

يَنْتَهِي لَأَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ، عن النبي (ص) : (مَنْ أَرْضَى سُلْطَانًا بِمَا يُسْخِطُ اللَّهَ خَرَجَ مِنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) البحار ٣٩٣/٧٣.

فائدة: ١- أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعيًا من يرى جهله علماً وشراً خيراً وإساءته إحساناً وسفهة حليماً وخذاعه عقلاً وهذره بلاغة وجبنه حذراً ، هؤلاء الهمج الرعاع الذين ينعمون مع كل ناعق ويكونون مع كل صاحب قوة بلا حُلق ولا دين . ٢- في نهج البلاغة خطبة ١٥٤ : (العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق، لا تزيدُهُ سرعة السير إلا بعداً عن الصواب) ، كقوله ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ فاطر/ ٨ ، وقوله ﴿ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يونس/ ١٢ ، كالمشتري سلعة يرجو بها ربحاً فخاب رجاؤه وخسرت تجارتها ، وهكذا تختلف موازين الله عن موازين الناس ، وهكذا تحتل معايير الناس عن معايير الله ، وهكذا الذي لا يوفي الله ، لا يستوفي منه ! ٣- مفهوم الخسران المعنوي الواقعي خسران النفس التي هي رأس المال ، عن السيد المسيح (ع) : (مَأْذًا يَنْتَفِعِ الْإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمُ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ)؟! عن النبي (ص) : (الْحَاسِرُ مَنْ عَفِلَ عَنِ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ ، في نهج البلاغة كتاب ٣١ : (مَنْ الْفَسَادِ إِضَاعَةَ الرَّادِ، وَمُقْسَدَةَ الْمَعَادِ) في غرر الحكم: (أَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ وَلَمْ يَقُلْ) ، قال تعالى (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) بالجمع ولم يقل (الأخسرين عملاً) بالمفرد ، إنهم قد يخسروا في عمل تجاري معين ، بل إن جهلهم المركب كان سبباً لخسارتهم في جميع أعمالهم لأنهم يعتقدون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا كقوله ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام/ ٤٣ ، والآية إشارة إلى أهل الأهواء والبدع وأهل الرياء والسّمة ، فإنّ اليسير من الرياء شرك ، وإنّ الشرك محبط بالأعمال . كقوله ﴿ لَمِنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر/ ٦٥ ، وإنّ هؤلاء القوم يتدعون في العقائد ويراؤون بالأعمال ، فلا يعود وبال البدعة والرياء إلا عليهم كقوله ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ الأنعام/ ١٠٤ ، (والخلاصة) الآية ذات دلالة واسعة في معناها ، أي العمل المقارن بالكفر باطل وحابط وإن كان طاعة، وكذلك العمل المرتبط بالشرك الخفي أو الجلي وإذا كان ما هو طاعة مردوداً لمجاورته المنافي له ، فما ظنك بما هو معصية في نفسه وهو يظنه طاعة! ومثلهم الخوارج الذين خرجوا عن طاعة الإمام علي (ع) الذي هو مع القرآن والقرآن معه، وقال فيهم النبي (ص): (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَحْتَرُّ أَحَدُهُمْ صَلَاتَهُ يَحْتَبِ صَلَاتِهِمْ وَصَوْمَهُ فِي جَنبِ صَوْمِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ تَرَافِيهِمْ)! روح البيان ٣٠٤/٥ سئل الإمام علي (ع) عن أهل هذه الآية (كمصداق لها) : (أُولَئِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَإِيتَدَعُوا فِي دِينِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَمَا أَهْلُ النَّهْرِ وَأَنْ مِنْهُمْ) (الخوارج) بِعَيْدٍ مجمع البيان ٤٥٠/٦ .

١٠٥ - ١٠٦ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُورًا﴾

(أُولَئِكَ) إشارة إلى الأَحْسَرِينَ أَعْمَالًا ، (الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ) سواء بلسان الحال أم بلسان المقال ، سواء أكفروا بالله واليوم الآخر من الأساس أم آمنوا بهما بالكلام ، ولكن رأوا سيئاتهم حسنات وجهالاتهم بينات (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) فبطلت أعمالهم بكفرهم وضلالهم وفسادهم أي أعمالهم التي تنفع النَّاسَ كمساعدة المحتاجين المتنوعة ولكن بقصد لا يرضي الله والنيَّةُ أساسُ الْعَمَلِ ، لأنَّهم عملوا أعمالهم بحسب أهوائهم على خلاف ما أمرهم الله به ، ولم يعملوها لوجه الله ، فيكون عملهم هباء لا وزن له فذهب سدى من غير هدى ، فلا قيمة لهم عند الله تعالى ولا كرامة ولا اعتبار كقوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الفرقان/٢٣ ، فلا يكون للهباء المنثور وزن ولا قيمة. أصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سامٍ من الكَلَأِ ، فتعظم بطونها ومن رآها يظنُّ أنَّها سالمة ممتلئة باللحم ولكنها مسمومة فتموت ، وهو أنسب شيء لوصف أعمال الضَّلال ، فيكون ظاهرها يغر ويسر وباطنها يضر ، وإِنَّمَا سَمِيَتْ بطلان أعمال الإنسان بأَنَّها محبطة لأنَّ الذنوب قد أفسدتها وسممتها وجعلتها منتفخة لا خير فيها وعرضتها للزوال، فبقيت شكل بلا مضمون! (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا) فلا قيمة لهم عند الله ولا كرامة فلا نضع لهم يوم القيامة ميزاناً لأن أعمالهم باطلة لا وزن لها ولا اعتبار ، ذهبت سدى لأنهم لا يريدون وجه الله تعالى ولا يبتغون رضاه، لأنَّ قبول العمل الصالح عند الله تعالى هو الإيمان الصادق كقوله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه/١١٢ ، عن النبي (ص) : (لِيُؤْتِيََنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْعَظِيمِ الطَّوِيلِ الْأَكُولِ الشَّرُوبِ فَلَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعْضَةٍ وَقُرَأَ الْآيَةُ) روح البيان ٣٠٥/٥ (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا). فائدة : وزن الأشخاص والأعمال في ميزان القيامة إِنَّمَا يكون بحسب الصدق والإخلاص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣.

عن النبي (ص): (أَخْلَصَ قَلْبُكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ) البحار ١٧٥/٧٣ ، في غرر الحكم: (مَنْ رَغِبَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ أَخْلَصَ عَمَلُهُ) فمن زاد إخلاصه زاد ثقل ميزانه ، ومن لم يكن في نفسه وفي أعماله إخلاص لله لم يكن له ولا لعمله وزن ولا قيمة. ١٠٦ - (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُورًا) الهزؤُ : السخرية والاحتقار أي مبالغة الاستهزاء ، إنهم كفروا بالله وسخروا من الحق وأهله وهذا منتهى التمرد والفساد والضلال البعيد ، والنار هي المقر لكل ضال ومتمرد ومعاند. فائدة : كل من يدعي العلم بدين الله ويفتي الناس بلا علم كذباً وافتراء فهو ممن اتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُورًا والله تعالى يقول ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُورًا﴾ سبأ/٢٣١ ، عن النبي (ص) : (أَجْرُكُمْ عَلَى الْفِتْوَى أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ) البحار/٢ ص ١٢٣ ، وهو أيضاً من الساخرين المستصغرين

لآيات الله ورسله بمنزلة سواء عند الله ، ومن هزأ بآيات الله فقد هزأ بنفسه وظلمها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق/١ .

١٠٧ - ١٠٨ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾
 بعد أن توعد سبحانه الكافرين بجهنم قابلهم بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة على سنة الله في الترغيب والترهيب ، ودائماً القرآن يقرن الإيمان بالعمل الصالح لأنه لا إيمان من دون عمل صالح ، ولا عمل صالح من دون إيمان ، لأن الأقوال مرتبطة بالأعمال ، والعبادات بالمعاملات ، في غرر الحكم : (الْعِلْمُ يَغَيِّرُ الْعَمَلَ وَبِأَلِّ ، وَالْعَمَلُ يَغَيِّرُ الْعِلْمَ ضَالًّا) (كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) لهم أعلى درجات الجنة وهي الْفِرْدَوْسُ (نُزُلًا) منزلاً ومستقراً ويشمل كل أنواع النعم المادية والمعنوية التي يريدونها وفوق ما يريد كقوله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/١٧ ، وهي أماكن تكريم الله تعالى لأعز أوليائه . ١٠٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) حِوَلًا : تحولاً وانتقالاً ، ماكتن فيها أبداً كقوله ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الفرقان/٧٦ ، أي لا يطلبون عنها تحولاً وتبدلاً إلى غيرها إذ ليس شيء أفضل منها . فائدة : ١ - عن النبي (ص) (الْجَنَّةُ مِائَةٌ دَرَجَةٌ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى فِاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ) كنز الدقائق ١٤٢/٦ . ٢ - (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) : طبيعة النفس تسأم البقاء على حالٍ واحدة ونعيم واحد ومكانٍ واحد ، وهذا يجعله متناسباً مع خلافته للأرض ، فهذا الدور يقتضي تطوير الحياة باستمرار حتى تبلغ الكمال المقدر لها في علم الله ، ومن ثم ركز في الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل بكافة الأشكال والألوان وبذلك ترتقي الحياة وتتطور ، فيبقى دين الله ثابت والحياة متغيرة ومتطورة ، فلا يتعارض كل أنواع التطور والحداثة مع قواعد دين الله ، لأن دين الله قمة التطور ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم/٣٠ ، أما الجنة هي دار الكمال المطلق ، ونعيمها المطلق فلا تعود تبغي التحول والتبدل في الجنة خالدین فيها (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) .

١٠٩ - ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾
 الْبَحْرُ : على إطلاقه وسعته يشمل كل البحار ، وَالْمِدَادُ : الحبر ، وَكَلِمَاتِ رَبِّي : علمه وآياته وحكمته وعجائبه وقدرته على إيجاد كل شيء من لا شيء ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ البروج/١٦ ، المعنى : تمثيل لسعة علم الله وقدرته وقيوميته على كل شيء ، (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا) للقلم الذي تكتب به (لِكَلِمَاتِ رَبِّي) وعلومه ونعمه وعطاؤه ومواعظه وعجائبه لنفذ ماء البحر قبل أن تنفذ تلك الكلمات والعلوم ، لأن علوم الله وحكمته لا نهاية لها كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لقمان/٢٧ ، الآية تصوّر العلم

البشري المحدود بالقياس إلى العلم الإلهي الممدود واللامحدود ، الذي فوق ما نقول ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء/٨٥.

وكلمات الله هي التي تنفّذ مشيئته ، والقرآن يصوّر الحالة بطريقة يُقرّبها إلى تصوّر البشر القاصر بمثال محسوس على طريقة القرآن النموذجية في التربية والتعليم وفي التعبير والتصوير ، وأتت سبحانه قائم وقيوم على كلّ شيء في خلقه ، وإرادته (كُنْ فَيَكُونُ) (لَنفِذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي) لَنفِذَ : انتهى ولفني ماء البحر على كثرته وانتهى وكلام الله لا ينفذ لأنه غير متناهٍ (وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ولو أمددنا هذا البحر ببحر آخر يرفده وهكذا أضعافاً مضاعفة لَنفِذَ أيضاً قبل أن تنفذ كلمات ربي ! **فائدة** : ليس المراد بكلمات الله هنا الألفاظ المؤلفة من الحروف الهجائية وإنما المراد بكلماته سبحانه سعة معناها أي القدرة والسلطان والمنهج والعلم والقضاء والإرادة التي لا حدود لها على إيجاد الأشياء فهي باقية ببقائه ، وكل موجود أو سيوجد فهو منقطع وإلى زوال. والكون ومن فيه وما فيه من فيض قدرته تعالى ، وهي غير ذاته المقدّسة التي لا أول لأولها ولا آخر لآخرها. عن الإمام الصادق (ع) في الآية: (أنه كلام ليس له آخر، ولا غاية ولا ينقطع أبداً) تفسير علي بن إبراهيم ٤٦/٢ ، أي ليس له حدود ولا قيود.

١١٠ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَهُ وَاحِدٍ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ كان الوثنيون يزعمون أنه من ادّعى النبوة فقد ادّعى كينونة إلهية وقدرة غيبية ، لذا كانوا يقترحون على النبي (ص) ما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا الله فردّ الله عليهم بقوله (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) لا أمتاز عنكم بشيء ولا أزيد عنكم بالبشرية في الحقوق والواجبات لا فضل ولا امتياز إلا بالتقوى والعلم والوعي والعمل الصالح النافع ، ولا ادّعى صفات إلهية وقدرة غيبية لا فضل لي عليكم إلا بالوحي والنبوة وهما تكليف ومسؤولية (يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ) أكرمني الله بالوحي وأمرني أن أخبركم وألقي الحجة عليكم ﴿لِنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥ ، أنه الله الواحد الأحد لا شريك له ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/١١ ، يستوي عنده كلّ البشر بالحقوق والواجبات لا فضل أو امتياز إلا بالتقوى والعلم النافع والعمل الصالح كقوله ﴿إِن أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال/٣٤.

(فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) فمن كان (يَرْجُوا) يأمل حسن لقاء ربّه في يوم القيامة ويتبغى عنده مقاماً محموداً (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) خالصاً لوجه الله وحده راجياً رضاه وينفع الناس ، وأفضل عمل كفى الأذى عن المظلومين ، والعمل على تطورهم وسدّ حاجاتهم. وأيضاً يُخلص لله العبادة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر/٣ ، عن النبي (ص): (أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ) كنز العمال خبر ٥٢٥٧ (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) أخلصوا العبادة لله

رَبِّكُمْ ، كل من عمل لغير الله فقد أشرك بعبادته سواء أكان شرك خفي أو شرك جلي أو شرك بلسان الحال أو بلسان المقال أو شرك في العبادة أو في الدعاء.. إلخ ومن الشرك بالله أن يعبد المرء هواه ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الفرقان/٤٣ ، ومن الشرك الرياء في أقواله وأفعاله.

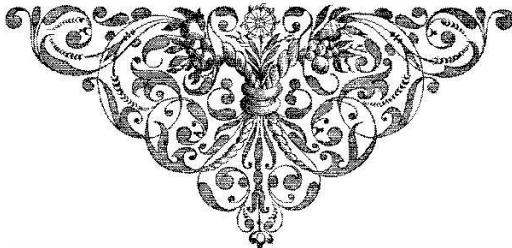
عن النبي (ص): (إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ فِي عَمَلِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِي تَرَكْتُ الْعَمَلَ كُلَّهُ لَهُ ، وَلَمْ أَقْبَلْ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ) الميزان ٤٠٧/١٣ (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ..). عن النبي (ص) : (لَوْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ أُمَّتِي إِلَّا خَاتَمَةُ سُورَةِ الْكَهْفِ لَكَفَّتُهُمْ)! الدر المنثور عن الميزان ٤٠٧/١٣ ، فائدة: ١ - قَدَّمَ قَوْلَهُ (أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ) وَأَخَّرَ (يُوحَى إِلَيَّ) فَقَدَّمَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى الْوَحْيِ ، وَنَحْنُ نَقُولُ فِي الصَّلَاةِ (وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) فَقَدَّمَ الْعِبَادِيَّةَ عَلَى النَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، لِأَنَّهُ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِ الْبَشَرِيَّةِ يَكُونُ الْوَحْيُ ، وَعَلَى مَقْدَارِ صِدْقِ الْعِبَادِيَّةِ تَكُونُ النَّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ وَالْمَنْزِلَةُ وَالدَّرَجَةُ ، فِي غَرْرِ الْحُكْمِ: (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أَهْلًا لِلْعِتْقِ) وَمَنْ قَصَرَ عَنْ أَحْكَامِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيدَ إِلَى الرِّقِّ !! عن النبي (ص): (وَنَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُودُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ) كنز العمال خير ٨٨٤٩ ، فَإِنَّا لَا نَبْتَغِي إِلَّا رِضَاكَ. ٢ - روي : (مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ) روح البيان ٣١١/٥ ، من قرأ عند النوم الآية الأخيرة من سورة الكهف بنية أن يستيقظ في أحب الأوقات إلى الله ويعمل بأحب الأعمال إليه سبحانه ، فإنه سبحانه يوقظه ويكتبه من قوام الليل ، ومثلها مروى عن الإمام الصادق (ع).

قال (ما من عبد يقرأ آخر الكهف إلا تيقظ في الساعة التي يريد) تفسير النور ٢١٩/٥

وفي الختام نقول : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجاثية/٢٠ ،

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠ . تم بعون الله تعالى (وَعِي الْقُرْآنِ الْمَيْسَرِ) لسورة الكهف ، بقدرتي لا بقدرها ، بجهد متواصل ، فله الحمد والمنة ، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢١/شوال/١٤٣٨ هـ الموافق ٨/١١/٢٠١٦ م مع تصحيحها عدّة مرّات وتدقيقها في بغداد-الكاظمية ، داعين الله تعالى أن يُعيننا على تكملة بقية السور القرآنية الكريمة ، إن ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث : مكي قاسم البغدادي



الخاتمة

قال تعالى : ﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ الأنعام/ ١١٥ .
تمّ المجلد الثاني من (وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمُيسَّرِ) بعونه تعالى وتوفيقه ويحتوي : من الجزء (٨ - ١٦) من القرآن الكريم ، من سورة الاعراف إلى نهاية سورة الكهف، من القرآن الكريم بعون الله وتوفيقه ، ونستعين بالله العمل على تكملة بقية أجزاء القرآن الكريم، فإني أكتب (وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمُيسَّرِ) بقدري لا بقدره ، وبمحتواي لا بمحتواه وبمنطلقات قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوير/ ٢٧ ، وأنا أدعو الله أن يعصمني من الزلل ويسددني في القول والعمل .

وتمت كتابته بتاريخ ١٦ / جمادي الآخر / ١٤٤١ هـ، المصادف ١٥ / ٢ / ٢٠٢٠ م

في العراق / بغداد - مدينة الكاظمة

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس/ ١٠

بقلم الباحث مكّي قاسم البغدادي

يُعنى بالدراسات القرآنية





- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الشيخ مُجَدَّ عبد/ شرح نهج البلاغة للإمام علي (ع)/ دار التعارف بيروت وغيرها.
- ٣- ابن أبي الحديد المعتزلي/ شرح نهج البلاغة/ طباعة طهران، وطباعة بيروت.
- ٤- الإمام زين العابدين (ع)/ الصحيفة السجادية الكاملة (زبور آل مُجَدَّ) مؤسسة النعمان بيروت.
- ٥- الشيخ أبو علي الفضل الطبرسي/ مجمع البيان في تفسير القرآن/ دار مكتبة الحياة بيروت.
- ٦- السيد مُجَدَّ حسين الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٣م.
- ٧- الإمام الفخر الرازي/ التفسير الكبير/ دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٣.
- ٨- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل/ مؤسسة البعثة بيروت ط ١ سنة ١٩٩٢م.
- ٩- مُجَدَّ جواد مغنية/ التفسير الكاشف/ دار العلم للملايين بيروت ط ٣ سنة ١٩٨١م.
- ١٠- الشيخ محسن قزويني/ تفسير النور/ دار المؤرخ العربي بيروت ط ١ سنة ٢٠١٤م.
- ١١- السيد مُجَدَّ حسين فضل الله/ تفسير من وحي القرآن/ دار الملاك ط ٢ سنة ١٩٩٨م بيروت.
- ١٢- السيد مُجَدَّ تقي المدرسي/ من هدى القرآن/ الناشر مكتب المدرسي ط ١ سنة ١٤٠٧هـ
- ١٣- الأستاذ الشهيد سيد قطب/ في ظلال القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ ٨ مجلدات ط ٧ سنة ١٩٧١.
- ١٤- الأستاذ أحمد مصطفى المراغي/ تفسير المراغي/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ مكتبة مصطفى الحلبي بمصر، ط ٣ سنة ١٩٦٢م.
- ١٥- الإمام إسماعيل حقي البروسوي/ تفسير روح البيان/ دار الفكر سورية، لبنان.
- ١٦- بن كثير القرشي/ تفسير ابن كثير/ دار الأندلس بيروت ط ١ سنة ١٩٦٦م.
- ١٧- مُجَدَّ بن جرير الطبري/ تفسير الطبري/ دار المعارف بمصر.
- ١٨- الألوسي البغدادي/ روح المعاني في تفسير القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ١٩- أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي/ تفسير الكشاف/ دار المعرفة بيروت.
- ٢٠- د. مصطفى فرج/ التفسير المختصر للقرآن الكريم/ دار الهادي بيروت ط ٢ سنة ٢٠٠٧م.
- ٢١- مُجَدَّ السنزوري العزيزي النجفي/ إرشاد الأذهان إلى تفسير القرآن/ دار التعارف بيروت ط ٣ سنة ٢٠١٤.
- ٢٢- مُجَدَّ جواد مغنية/ التفسير المبين/ دار الكتاب الإسلامي بيروت/ ط ٢ سنة ١٩٨٣م.

- ٢٣- كمال مصطفى شاكر/ الميزان المختصر في التفسير/ ربط المعاني بروح العصر/ طباعة سورية.
- ٢٤- الشيخ أحمد مغنية/ خلاصة التفاسير في أوضح التعابير/ المكتبة الحديثة بيروت/ مقدمة الشهيد محمد باقر الصدر.
- ٢٥- محمد علي الصابوني/ صفوة التفاسير/ دار العلم العربي حلب/، دار النمير بدمشق ط ١٩٩٤م.
- ٢٦- أضواء على متشابهات القرآن/ الشيخ خليل ياسين/ بيروت سنة ١٩٦٩م
- ٢٧- مختصر خواطر محمد متولي الشعراوي/ حول آيات القرآن الكريم/ دار المعارف بمصر ط ٢، سنة ٢٠١٧ إعداد منى الهاشمي.
- ٢٨- عبد الكريم الخطيب/ التفسير القرآني للقرآن/ دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٧٠م.
- ٢٩- جمال الدين القمي الميرزا محمد المشهدي/ تفسير كنز الدقائق/ تفسير روائي مؤسسة النشر الإسلامي إيران جماعة المدرسين بقم.
- ٣٠- العلامة جمعة العروسي الحوزي/ تفسير نور الثقلين/ مطبعة الحكمة - قم - إيران ط ٢.
- ٣١- الفيض الكاشاني/ تفسير الصافي/ مؤسسة الأعلمي بيروت/ طباعة إيران.
- ٣٢- عبد الرحمان الدين السيوطي/ الدر المنثور في التفسير المأثور/ دار الفكر بيروت ط ١ سنة ١٩٨٣م.
- ٣٣- محمد باقر المجلسي/ بحار الأنوار الجامع لدرر الاخبار/ ط حديثة بيروت مؤسسة الوفاء.
- ٣٤- الراغب الاصفهاني/ معجم مفردات ألفاظ القرآن/ دار المعرفة بيروت/ تحقيق محمد سيد كيلاني.
- ٣٥- علاء الدين علي الهندي/ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ومكتبة التراث الإسلامي في حلب.
- ٣٦- ميرزا حسين النوري الطبرسي/ مستدرک الوسائل/ طبعة إيران المكتبة الإسلامية/ والمكتبة العلمية النجف.
- ٣٧- أبو محمد القوي المنذري/ الترغيب والترهيب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٣٨- الحر العاملي/ تحقيق عبد الرحيم الشيرازي/ وسائل الشيعة/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٣٩- أبو جعفر الكليني الرازي/ الكافي/ صححه علي أكبر الغفاري/ دار التعارف بيروت ط ٣.
- ٤٠- ابن عبد الواحد التميمي الآمدي/ غرر الحكم ودرر الكلم للإمام علي (ع)/ ط إيران/ دار الصفوة بيروت سنة ٢٠٠٩.
- ٤١- المحمدي الري شهري/ ميزان الحكمة/ جمع روائي/ مكتبة الاعلام الإسلامي حوزة قم إيران.
- ٤٢- محمد فؤاد عبد الباقي/ معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ دار الأندلس بيروت.
- ٤٣- الحسن بن شعبة الحراني/ تحف العقول/ مؤسسة النشر الإسلامي إيران.
- ٤٤- الشيخ عباس القمي/ سفينة البحار/ ط إيران.
- ٤٥- الشيخ عباس القمي/ مفاتيح الجنان المعرب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

- ٤٦ - مُجَّد بن مرتضى الكاشاني/ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٢م.
- ٤٧ - الشيخ مُجَّد باقر المحمودي/ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، مطبعة النعمان النجف ط ١ سنة ١٩٦٨.
- ٤٨ - ابن عساكر/ تاريخ دمشق/ ترجمة ومكتبة الإمام الحسين (ع).
- ٤٩ - السيد أبو القاسم الخوئي/ تفسير البيان/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٣/ سنة ١٩٧٤م.
- ٥٠ - السيد عبد الأعلى الموسوي السيزواري (مواهب الرحمن في تفسير القرآن)/ منشورات دار التفسير/ إيران - قم ط ٥ سنة ٢٠١٠م.
- ٥١ - ما أملاه الإمام الصادق (ع) للمفضل/ توحيد المفضل/ دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٥٢ - أبو علي الفضل الطبرسي/ الاحتجاج/ مطبعة النعمان النجف.
- ٥٣ - عبد الله الأنصاري القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة أوفسيت.
- ٥٤ - أبو الفضل بن منظور الأفريقي المصري/ لسان العرب/ دار صادر بيروت.
- ٥٥ - د. حيد علي نعمة و د. أحمد علي نعمة/ المعجم القرآني/ دراسة معجمية لأصول الفاظ القرآن الكريم (الجذر اللغوي للمصطلح القرآني، ومعاني الكلمات) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجامعة العراقية سنة ٢٠١٣م، مطبعة السيماء، ط ١ - بغداد - شارع المتنبي.
- ٥٦ - الشيخ المفيد/ الأمالي/ جماعة المدرسين/ الحوزة العلمية بقم.
- ٥٧ - صحيح مسلم/ شرح النووي/ إحياء التراث العربي بيروت ط ٢.
- ٥٨ - لبيب بيضون/ تصنيف نهج البلاغة/ دار أسامة كرم دمشق/ توزيع دار القلم بيروت.
- ٥٩ - وغيرها من المصادر الأخرى التي لم أذكرها لقلّة استعمالي لها.

وآخر دعوانا ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس/ ١٠



فهرس

محتويات

(وَعِي الْقُرْآنِ الْمُيسَّر)

المجلد الثاني

من سورة الأعراف إلى نهاية سورة الكهف
من جزء (٨-١٦) من أجزاء القرآن الكريم

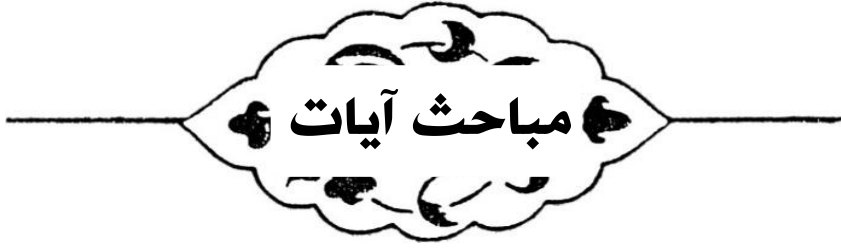
قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧

| الصفحة | | الموضوع | | | | | |
|---------|-----|---------------------------------------|------------|----------------|--------|--------------------------------------------------------|-----------------|
| ٤ | | السيرة الذاتية المختصرة للكتاب | | | | | |
| الصفحات | | الجزء من القرآن وعدد الآيات | عدد آياتها | رقمها وترتيبها | نزولها | اسمها الآخر | اسم السورة |
| إلى | من | | | | | | |
| ٦٠ | ٧ | الجزء الثامن من الآية ١ - ٨٧ | ٢٠٦ | ٧ | مكية | العبيقات ، الميثاق أطول الطولين | سورة الأعراف |
| ١٣٨ | ٦٠ | الجزء التاسع من الآية ٨٨ - ٢٠٦ | | | | | |
| ١٦٦ | ١٣٩ | الجزء التاسع من الآية ١ - ٤٠ | ٧٥ | ٨ | مدنية | سورة بدر | سورة الأنفال |
| ١٩٢ | ١٦٦ | الجزء العاشر من الآية ٤١ - ٧٥ | | | | | |
| ٢٥٢ | ١٩٢ | الجزء العاشر من الآية ١ - ٩٣ | ١٢٩ | ٩ | مكية | المدمومة براءة من النفاق الفاضحة ، المخزية | سورة التوبة |
| ٢٧٨ | ٢٥٢ | الجزء الحادي عشر من الآية ٩٤ - ١٢٩ | | | | | |

| الصفحات | | الجزء من القرآن وعدد الآيات | عدد آياتها | رقمها وترتيبها | نزولها | اسمها الآخر | اسم السورة |
|------------|------------|------------------------------------------------------------------------------|------------|----------------|---------------------|------------------------|---------------------------|
| من | إلى | | | | | | |
| ٣٣٧ | ٢٧٩ | الجزء الحادي عشر من الآية ١ - ١٠٩ | ١٠٩ | ١٠ | مكية | | سورة يونس |
| ٣٤٠ ٣٩٠ | ٣٣٧ ٣٤٠ | الجزء الحادي عشر من الآية ١ - ٥ الجزء الثاني عشر من الآية ٦ - ١٢٣ | ١٢٣ | ١١ | مكية | | سورة هود |
| ٤١٥ ٤٤٠ | ٣٩٠ ٤١٥ | الجزء الثاني عشر من الآية ١ - ٥٢ الجزء الثالث عشر من الآية ٥٣ - ١١١ | ١١١ | ١٢ | مكية | | سورة يوسف الصديق |
| ٤٧٤ | ٤٤٠ | الجزء الثالث عشر من الآية ١ - ٤٣ | ٤٣ | ١٣ | مكية أو مدنية | | سورة الرعد |
| ٥٠١ | ٤٧٤ | الجزء الثالث عشر من الآية ١ - ٥٢ | ٥٢ | ١٤ | مكية | | سورة إبراهيم الخليل |
| ٥٢٦ | ٥٠٢ | الجزء الرابع عشر من الآية ١ - ٩٩ | ٩٩ | ١٥ | مكية | | سورة الحجر |
| ٥٩٢ | ٥٢٧ | الجزء الرابع عشر من الآية ١ - ١٢٨ | ١٢٨ | ١٦ | مكية | سبحان الرعيم | سورة النحل |
| ٦٥٩ | ٥٩٣ | الجزء الخامس عشر من الآية ١ - ١١١ | ١١١ | ١٧ | مكية | بني إسرائيل | سورة الإسراء |
| ٦٩٤ ٧٠٩ | ٦٥٩ ٦٩٤ | الجزء الخامس عشر من الآية ١ - ٧٦ الجزء السادس عشر من الآية ٧٧ - ١١٠ | ١١٠ | ١٨ | مكية | سورة أصحاب الكهف | سورة الكهف |

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

فهرس



(وَعِي الْقُرْآنِ الْمُيسَّر)

المجلد الثاني

من سورة الأعراف إلى نهاية سورة الكهف
من جزء (٨-١٦) من أجزاء القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/١٣٨

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٤ | - السيرة الذاتية المختصرة للكتاب (هوية الكتاب) |
| | من مباحث آيات سورة الأعراف/مكية/ترتيبها ٧/آياتها ٢٠٦/الجزء الثامن من القرآن الكريم |
| ٧ | - من مقاصد السورة وفضلها |
| ١١ | - قوله ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ...﴾ ميزان الدنيا .. وميزان الآخرة |
| ١٨ | - قوله ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ ابتلاء آدم وزوجته .. لبيان سنة الله لعباده هي الابتلاء |
| ٢٢ | - قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ...﴾ (ثوب التقى أشرف الملابس) |
| ٢٧ | - قوله ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ الزينة جمال الأشياء ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ |

| | | | |
|---------------|--------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| | | وَلَا تُسْرِفُوا... ﴿ الإسراف : خروج عن الاعتدال | |
| ٢٨ | ٣٢ | قوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...﴾ أهمية الزينة في حياة الإنسان | - |
| ٢٩ | ٣٣ | قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ حرّم ربي سنة أنواع من الكبائر في هذه الآية | - |
| ٣٠ | ٣٤ | قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...﴾ ما معنى أجل الأمة؟ كيف تنهض الحضارات وكيف تموت؟ | - |
| ٤٦ | ٥٨ | قوله ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ تشبيه لقلب المؤمن وقلب الكافر بالأرض | - |
| ٥٥ | ٨١ | قوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ...﴾ قوم لوط والشذوذ الجنسي الخطير المرير | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الأعراف/مكية/ترتيبها ٧/آياتها ٢٠٦/الجزء التاسع من القرآن الكريم | |
| ٩١ | ١٤٦ | قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ يججبهم الله عن مواقع لطفه | - |
| ٩٩ | ١٥٧ | قوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ معنى أمية الرسول (ص) | - |
| ١١٣ | ١٧٥ | قوله ﴿وَاتِّلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا...﴾ إنها انتكاسة الذي يكبر عقله ويصغر إيمانه | - |
| ١١٦ | ١٧٨ | قوله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ من يستذوق الهداية فهو المهتدي | - |
| ١١٨ | ١٨٠ | قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ أسماء الله الحسنى | - |
| ١٢٠ | ١٨١ | قوله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ إنها سنة تاريخية إنسانية عامة في كل زمان ومكان | - |
| ١٢١ | ١٨٢ | قوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ مكر الله إستدراج إلى الهاوية | - |
| ١٢٦ | ١٨٨ | قوله ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾ | - |
| ١٣٢ | ١٩٩ | قوله ﴿خُذْ الْعَقْمَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ آداب نفسية وأخلاقية عالية المضامين | - |
| ١٣٤ | ٢٠١ | قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا...﴾ الشيطان يعجز عن إقتحام حصن التقوى الحصين | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الأنفال/مدنية/ترتيبها ٨/آياتها ٧٥/الجزء التاسع من القرآن الكريم | |

| | | | |
|---------------|--------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| ١٣٩ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ١٤٨ | ١٧ | قوله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾ إن الله يدير المعركة ويسبب أسباب النصر | - |
| ١٥١ | ٢٢ | قوله ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذين عطلوا أجهزة الإستقبال عندهم | - |
| ١٥٢ | ٢٤ | قوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ حياة وسعادة الدنيا والآخرة ، والروح والجسد | - |
| ١٥٤ | ٢٥ | قوله ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً...﴾ كالفيضان الذي يشمل الجميع ! | - |
| ١٥٨ | ٢٩ | قوله ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾ أي يجعل لكم ملكة ذاتية تفرق بين الحق والباطل ، وقدرة على التمييز عالية النباهة | - |
| ١٦٢ | ٣٦ | قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ | - |
| ١٦٤ | ٣٩ | قوله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ...﴾ يبقى الإسلام يعلو ولا يعلو عليه | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الأنفال/مدنية/ترتيبها ٨/آياتها ٧٥/الجزء العاشر من القرآن الكريم | |
| ١٦٦ | ٤١ | قوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ...﴾ آية الخمس ، بحث تحليلي معاصر | - |
| ١٧٢ | ٤٦ | قوله ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾ الاختلاف يؤدي إلى التنازع والكرهية والتباغض | - |
| ١٧٦ | ٥٣ | قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ (كما تكونوا يولى عليكم) | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة التوبة/مدنية/ترتيبها ٩/آياتها ١٢٩/الجزء العاشر من القرآن الكريم | |
| ١٩٢ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ١٩٧ | ٨ | قوله ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً...﴾ وإن يغلبوكم لا يراعى حلفاً ولا حقاً | - |
| ٢٠٣ | ١٨ | قوله ﴿إِنَّمَا يُعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ مسجد يبنى على التقوى يبارك الله فيه | - |
| ٢٠٧ | ٢٥ | قوله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً...﴾ أخذكم | - |

| | | | |
|---------------|--------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| | | الدرجات عند الله | |
| ٢٦١ | ١٠٧ | قوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ أسسوا مسجداً في ظاهره ولكن كان يحاك الشرك فيه | - |
| ٢٦٤ | ١١١ | قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ...﴾ هؤلاء هم صفوة مختارة مميزة | - |
| ٢٧٠ | ١١٩ | قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يصدق ويصدق ويصدق حتى يكون صديقاً ، النجاة في الصدق | - |
| ٢٧٢ | ١٢٢ | قوله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ...﴾ جماعة متخصصة في علوم الدين وتكون حريصة عليه | - |
| ٢٧٦ | ١٢٨ | قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ...﴾ يحب الناس ويحرص على سعادتهم | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة يونس/كمية/ترتيبها ٨٠/آياتها | |
| ٢٧٩ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٢٩٣ | ٢٤ | قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا...﴾ يدبر المدبرون والقضاء يضحك | - |
| ٢٩٤ | ٢٥ | قوله ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ...﴾ دار الجنة ، ودار السلامة والاستقامة والكرامة ، الدار الخالية من كل السلبات | - |
| ٣١٠ | ٥٧ | قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ...﴾ القرآن شفاء من الكفر والنفاق والفساد والضلال | - |
| ٣١٣ | ٦٢ | قوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الذين يتولون الله بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة | - |
| ٣٢٦ | ٩٤ | قوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُحْتَرَبِينَ...﴾ هذا الشك على سبيل الفرض بقاعدة (إياك أعني وإسمعي يا جارة) | - |
| ٣٣٢ | ١٠٣ | قوله ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعداً حقاً علينا لا نخلفه في وقته المناسب | - |
| ٣٣٥ | ١٠٨ | قوله ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ هذا يدل أن الإنسان مميز مختار ومحاسب على اختياره | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة هود/كمية/ترتيبها ٨١/آياتها ١٢٣/الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم | |

| | | | |
|-----|--------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| ٣٣٧ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٣٤٠ | ٦ | قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ كل مخلوق يحيط الله به علماً وورقاً وحفظاً | - |
| ٣٤١ | ٧ | قوله ﴿يَسْبُلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ أَيْكُمْ أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته | - |
| ٣٤٣ | ٩ | قوله ﴿وَلَنْ أَدْفِنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ تتقلب نفسية الإنسان غير المؤمن مع تقلب حالاته النفسية ومواقفه العملية | - |
| ٣٨٢ | ١١٢ | قوله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...﴾ عن النبي (ص) : (شيتني سورة هود) لأن فيها هذه الآية | - |
| ٣٨٣ | ١١٣ | قوله ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ...﴾ الركوب إلى الظالم ظلم كقوله ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة/٢٥٤ | - |
| ٣٨٤ | ١١٤ | قوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ...﴾ تحدد الآية الصلوات الخمس بثلاث أوقات | - |
| ٣٨٦ | ١١٩-١١٨ | قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ خلقهم ليرحمهم | - |
| | الآية | من مباحث آيات سورة يوسف/مكية/ترتيبها ١٢/آياتها ١٢٣/الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم | |
| ٣٩٠ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٤٠٠ | ٢٤ | قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ...﴾ معنى مراودة امرأة العزيز يوسف الصديق (ع) .. الدروس والعبر | - |
| ٤١٥ | ٥٣ | قوله ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي...﴾ النفس الأتامة بالسوء يقابلها النفس اللوامة على فعل السوء | - |
| ٤٣٣ | ١٠٣ | قوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ عن النبي (ص) : (بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء) | - |
| ٤٣٦ | ١٠٨ | قوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي...﴾ إته المنهج الإسلامي الأصيل الذي يربط الدين بالسياسة ، والسياسة بالدين | - |
| ٤٣٨ | ١١٠ | قوله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَدُّوا أَنْهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا...﴾ (عند تناهي الشدة تكون الفرجة) | - |
| | الآية | من مباحث آيات سورة الرعد/مكية/ترتيبها ١٣/آياتها ٤٣/الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم | |
| ٤٤٠ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |

| | | | |
|---------------|--------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| ٤٤٩ | ١١ | قوله ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ ملائكة تعقب ملائكة كلها لتحفظه بأمر الله وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَوْضَاعَ النَّاسِ إِلَّا إِذَا بَدَّلُوا أَحْوَالَهُمُ النَّفْسِيَّةَ | - |
| ٤٦٢ | ٢٨ | قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ اطمئنان القلوب من أكبر التعم المعنوية على الإنسان | - |
| ٤٦٤ | ٢٩ | قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ الفرقة الناجية في القرآن الكريم | - |
| ٤٧١ | ٣٩ | قوله ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِبُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمْحُو وَيُنْثِبُ حسبما فيه الحكمة والمصلحة | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة إبراهيم/مكية/ترتيبها ١٤/آياتها ٥٢/الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم | |
| ٤٧٤ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٤٨٧ | ٢٢ | قوله ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ...﴾ تدل الآية على أَنَّ الشيطان لا يقدر على أكثر من الوسوسة | - |
| ٤٨٨ | ٢٤ | قوله ﴿أَلَمْ تَرَىٰ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً...﴾ إِنَّهُ تَصْوِيرٌ لِسَنَةِ اللَّهِ الْجَارِيَةِ فِي الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ | - |
| ٤٩٠ | ٢٧ | قوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ القول الثابت : الراسخ في كل الأحوال ولا يتغير | - |
| ٤٩١ | ٢٨ | قوله ﴿أَلَمْ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ فلم يقدرُوا التَّعْمَةَ ونسوا المنعم وجحدوا به وتجاوزوا الحدود | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الحجر/مكية/ترتيبها ١٥/آياتها ٩٩/الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم | |
| ٥٠٢ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٥٠٣ | ٥ | قوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتقدم هلاك الأمة قبل مجيء أوانه | - |
| ٥٠٤ | ٩ | قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ احتوت الآية على ستة أنواع من التأكيد على حفظ القرآن بحفظ الله | - |
| ٥٠٧ | ١٩ | قوله ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قانون التوازن العام | - |
| ٥٢١ | ٨٧ | قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ سورة الحمد عدل القرآن | - |

| الصفحة | الآية | العظيم ، وقدمها على القرآن العظيم لعظمتها |
|--------|-------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| | | من مباحث آيات سورة النحل/مكية/ترتيبها ١٦/آياتها ١٢٨/الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم |
| ٥٢٧ | | - من مقاصد السورة وفضلها |
| ٥٣٤ | ١٧ | - قوله ﴿أَقَمَنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ...﴾ الاستفهام للإنكار ، هناك فارق كبير بينهما |
| ٥٣٥ | ١٨ | - قوله ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ قال (نعمة الله) بالمفرد ولم يقل (نعمة الله لا تحصوها) بالجمع |
| ٥٤١ | ٣٥ | - قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ إنها شبهة خطيرة يكرها القرآن ويستنكرها ويجب عليها |
| ٥٤٦ | ٤٣ | - قوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاسألوا اهل الاختصاص بعلوم القرآن والإسلام وتعلموا منهم |
| ٥٥١ | ٥١ | - قوله ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِمَّا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ إنه التوحيد الخالص الثابت في كل الأحوال |
| ٥٥٧ | ٦٧ | - قوله ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾ إنهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعنب الرزق الحسن ، ولكنهم يتخذونه شراباً مسكراً مضراً |
| ٥٥٩ | ٦٨ | - قوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ أهمها مصالحتها بالغريزة وهو لون من الوحي |
| ٥٧٠ | ٨٩ | - قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً...﴾ القرآن ينظم مطالب الروح مع الجسد والدنيا مع الآخرة |
| ٥٧٢ | ٩٠ | - قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ عن النبي (ص) : (لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء) |
| ٥٧٤ | ٩٣ | - قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ خلق الله الإنسان باستعدادات متفاوتة ، وأعطاه حرية الاختيار ويكون هو المسؤول عن اختياره ومحاسب عليه |
| ٥٨٠ | ١٠٥ | - قوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ الكاذب هو الكافر |
| ٥٨٣ | ١١٢ | - قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً...﴾ الآية لبيان سنة الله الجارية على الجميع في الماضي والحاضر (والسعيد من إتعت بغيره) |
| ٥٨٧ | ١٢٠ | - قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ كيف يتحول الإنسان من قوة فرد إلى خط جماهيري ويكون تيار أمة؟! |

| | | | |
|---------------|--------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| ٥٨٩ | ١٢٥ | قوله ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ آداب الدعوة ، واساليب الحوار ، وقواعد الجدل | - |
| ٥٩١ | ١٢٦ | قوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ العدل في القصاص لا زيادة في العقوبة | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الإسراء/مكية/ترتيبها ١٧/آياتها ١١١/الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم | |
| ٥٩٣ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٥٩٣ | ١ | قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...﴾ قصة الإسراء ، وقصة المعراج في قوله ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى...﴾ النجم/٧-٩ | - |
| ٥٩٥ | ٤ | قوله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾ لا تعني مرتان بالعدد، وإنما تعني مبالغة الفساد ، وأبرزها فسادين كبيرين بارزين اثنين | - |
| ٥٩٨ | ٩ | قوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ يهدي لأقوم الطرق وأفضل الخيارات فيجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة | - |
| ٦٠٤ | ١٦ | قوله ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا...﴾ أكثرنا مترفيها مالا ونعماً ففسقوا واستهتروا فوجب عليهم العذاب | - |
| ٦٠٦ | ١٩-١٨ | قوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ... وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ...﴾ من كان يريد الدنيا أعطيناه من نعمها ما يشاء الله ومن أراد الآخرة ونعيمها فعليه أن يسعى لبذل الجهد المناسب معها وهو مؤمن | - |
| ٦٠٧ | ٢٢ | قوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا...﴾ كل إله آخر مع الله هو شرك وعاقبته سيئة | - |
| ٦١٢ | ٢٩ | قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ...﴾ الإسلام دين الاعتدال الوسط ، والطريقة المثلى في الإنفاق هو التوازن لا إسراف ولا بخل | - |
| ٦١٤ | ٣٣-٣١ | قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ.. وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجِيَّ.. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ...﴾ جاء النهي في القرب عن الزنى وجاء بين قتلين ! بمعنى كل زانٍ له استعداد أن يقتل الطفل في بطن أمه أولاً | - |
| ٦١٧ | ٣٦ | قوله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ...﴾ لا تقبل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم | - |
| ٦١٩ | ٣٩ | قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ...﴾ لا تشرك بالله شيئاً سواء أكان الشرك خفياً أو جلياً | - |
| ٦٢٠ | ٤٤ | قوله ﴿تَسْبِخُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ وتسبيح كل شيء | - |

| | | | |
|---------------|--------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| | | بقدره وحسبه | |
| ٦٣٥ | ٧٠ | قوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ الله كرم الإنسان فعليه أن يكرم نفسه | - |
| ٦٤٢ | ٨٠ | قوله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ...﴾ يدخل في أي عملٍ بصدق ويعمل بصدق ويخرج منه بصدق ، أي الصدق يعطيك التكامل والتفاضل فهو بذاته صدق ولغيره صدق | - |
| ٦٤٤ | ٨٢ | قوله ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ في القرآن ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والغفلة والكفر والشرك والضلال وكل السلبيات .. إلخ | - |
| ٦٤٦ | ٨٤ | قوله ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ...﴾ كل يعمل على طريقته ومذهبه وقناعته ونيته وقصده .. | - |
| ٦٥٢ | ١٠٠ | قوله ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ حَشِيئَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ بخيلاً | - |
| ٦٥٤ | ١٠٥ | قوله ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ...﴾ فالقرآن حق وصدر من الله الحق وهو بذاته حق وبأهدافه حق وبغاياته حق | - |
| ٦٥٥ | ١٠٦ | قوله ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (فرقناه) أنزلناه مفرقاً على دفعات حسب الحاجة على مهل وإمعان ليسهل فهمه وتدبره | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الكهف/مكية/ترتيبها ١٨/آياتها ١١٠/الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم | |
| ٦٥٩ | | من مقاصد السورة وفضلها | - |
| ٦٦١ | ٧ | قوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَّبِعُوهَا...﴾ لنختبر الخلق بهذه الزينة المتنوعة ، أيهم أحسن عملاً | - |
| ٦٧٣ | ٢٩ | قوله ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ فهو سبحانه حق ومنه يصدر الحق وإليه يعود الحق ويدعو بالحق ، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم | - |
| ٦٨٠ | ٤٦ | قوله ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ...﴾ إثمها زينة ونعمة لكنهما ليسا قيمة عليا (والباقيات الصالحات) التي تبقى ثمرتها وفوائدها وتستمر منافعها ﴿خَيْرٌ أَمْلاً﴾ و ﴿خَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مريم/٧٦ | - |
| ٦٨٣ | ٤٩ | قوله ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...﴾ يا حسرتنا مال هذا الكتاب يحفظ علينا كل صغيرة وكبيرة وكل قول وعمل وفي السرّ والعلانية بالصورة والصوت والنية .. ألا نعلم هذه الدقة المتناهية | - |

| | | | |
|---------------|--------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---|
| ٦٨٦ | ٥٤ | قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾ ولقد نوعنا الخطاب وكررناه بأساليب مختلفة لإتمام الحجّة على النَّاسِ ، والتكرار يبيّن الفکر ، ويرفع الغفلة ، والتكرار يعلم الشطّار | - |
| ٦٨٧ | ٥٧ | قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا...﴾ ومن أعظم ظلماً وإجراماً ممن وعظ بآيات الله فأعرض عنها | - |
| ٦٩١ | ٦٥ | قوله ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (العلم اللدني) علم خاص نموذجي تميّز ونادر لمن أخلص العبودية لله ، فيخصه الله بالقرب والحب والجذب ويكرمه كرامة خاصة | - |
| الصفحة | الآية | من مباحث آيات سورة الكهف/مكية/ترتيبها ١٨/آياتها ١١٠/الجزء السادس عشر من القرآن الكريم | |
| ٦٩٨ | ٨٣ | قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ ... إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾ يوجد الله الأشياء بأسبابها وضمن نظام الأسباب والمسببات | - |
| ٧٠٤ | ١٠٤-١٠٣ | قوله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ تبحث الآية عن القيم والموازن عند الله وعند عامّة النَّاسِ ، والاختلاف بينهما | - |
| ٧٠٧ | ١٠٩ | قوله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي...﴾ تمثيل لسعة علم الله وقدرته وقيمومته على كلّ شيء ، ومنه كلام الله لا ينفذ لأنّه غير متناه | - |

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

السيرة الذاتية (المختصرة) للباحث مكي قاسم البغدادي

مواليد: ١٩٥٥ بغداد

الجنسية: عراقي

هاجر إلى خارج العراق في ظروف إرهابية سنة ١٩٨٠م

التحصيل العلمي: خريج معهد الإدارة / الرصافة / قسم المحاسبة / بغداد سنة ١٩٧٨

درس في جامعة الازواقي في بيروت / الدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٧.

الاختصاص: يُعنى بالدراسات القرآنية.

مؤلفاته

- ١- موسوعة الثقافة الاستشهادية (الشهادة تأصيل لاستئصال) دراسة موضوعية معاصرة للنظرية الاستشهادية في المنظور الإسلامي، تتألف من أربعة مجلدات فنية مطبوعة، عدد صفحاتها (٢٢٠٠) صفحة، طبعت سنة ١٩٩٣م، الدار الإسلامية بيروت.
- ٢- أهداف القرآن في أم الكتاب/ دراسة سورة الحمد، تحتوي على جزأين في مجلد في واحد، مطبوع في سنة ٢٠٠٨م، في سوريا، دمشق تضم ٨٥٠ صفحة، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، (سورة الحمد ميزان: فمن وفى، استوفى).
- ٣- دراسة سورة العصر، سبل النجاة من الخسران، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، تضم ٢٤٠ صفحة، طبعت سنة ٢٠٠٨م، دار ضحى للطباعة والنشر في سوريا، دمشق.
- ٤- السكن الزوجي المتكافئ، في المنظور القرآني الفريد، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، يبحث عن فلسفة السكن الزوجي، القاعدة الأساسية في الحياة الزوجية.
- ٥- وَعِيُّ الْقُرْآنِ الْمُبَسَّرُ، الفهم الحيوي للقرآن، وهو دراسة معاصرة واعية لفهم النص القرآني بصورة مُبَسَّرَة ومؤثرة، محرقة للمشاعر، على قاعلة خير الكلام ما قلَّ ودلَّ ولا يملُّ، ولا يبتعد عن القصد، ويعتمد المنهج العلمي للقرآن (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ويعتمد الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، طبع في دار بساتين المعرفة في بغداد، شارع المتنبي، يضم أربعة مجلدات فنية، سنة الطبع ٢٠١٩ ط الأولى.
- ٦- منهج الوصية الشخصية الهادفة، من نظام التكافل في الإسلام.

٧- القِوَامَةُ جَدَلِيَّةٌ بَيْنَ زَوْجَيْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) النساء/٣٤، دراسة قرآنية تحليلية معاصرة، مفهوم إدارة الأسرة بصورة عادلة وكفوءة ومتألّقة، على قاعدة (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء/١٩.

٨- ساهمت في كتابة بحوث قرآنية ومقالات تربوية في عدة صحف ومجلات متنوعة.

٩- شاركت في عدة مؤتمرات علمية ومحلية، ومهرجانات وجمعيات ومنتديات ثقافية، وندوات إسلامية حوارية.

١٠- المنهج العلمي للقرآن، يتناسب معه الخطاب العالمي، ألقى البحث في مؤتمر جامعة الكوفة سنة ٢٠١٣، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر (القرآن وقضايا العصر).

١١- الإمام الكاظم (ع) ونظام الأولويات، ألقى البحث في مؤتمر الإمامين الكاظم والجواد (ع) السنوي الثاني سنة ٢٠١١، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٢- حدود الرخصة الشرعية في تعاون المستضعفين مع الحكومة المستكبرة، بين قواعد الحكم القرآني والسيرة الحركية للإمام الكاظم (ع)، ألقى البحث في المؤتمر الثالث الدولي، الإمام الكاظم (ع) مصدر عطاء خالد للإنسانية سنة ٢٠١٢، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٣- إشكالية الهداية بين القول والعمل، ألقى البحث في مؤتمر العودة إلى القرآن، في سوريا- دمشق سنة ٢٠١٤، ونُشِرَ في مجلة البصائر الثقافية.

١٤- أسلوب البحث يتقدّم على مادة البحث، ألقى البحث في مؤتمر الوحدة الإسلامية في إيران، طهران سنة ١٩٩٣، نشر في مجلة الثقليين.

١٥- أعمل معدّ برامج في إذاعة الخالدون

- البرامج الثابتة ثلاثة:

١- برنامج في الشهادة حياة

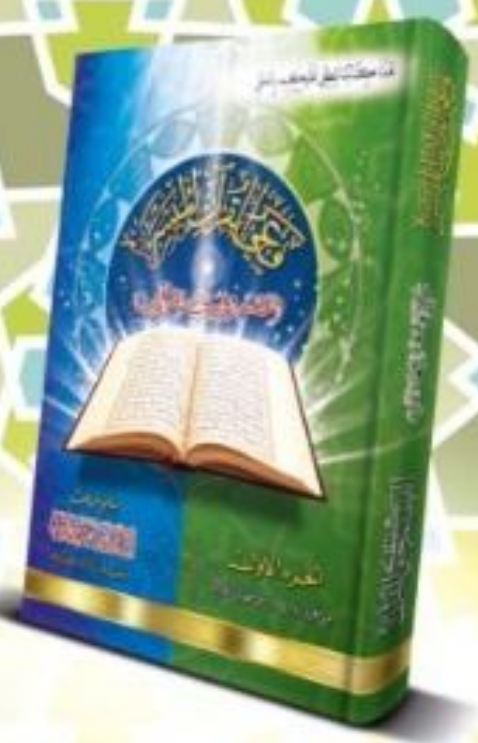
٢- برنامج أنواع النفس في القرآن الكريم

٣- برنامج (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

- وبرامج مختارة غير ثابتة حسب المناسبات في الإذاعات والقنوات الفضائية...

وآخر دعوانا (أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس / ١٠

فَالْعَمَلُ
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾



عن رسول الإنسانية محمد ﷺ
(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مَادِبَةُ اللَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَادِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

في هذا الكتاب

الحمد لله الذي أنزل القرآن بالحق

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ^{١٠٠}
(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) ^{١٠١} وجعله شفاعة لما في الصدور
وهدي ورحمة للمؤمنين ، ومنهaja صالحاً نموذجياً للعلمين ودستوراً هادياً للبشرية أجمعين
(يَهْدِي بِهٖ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) ^{١٠٢}

الهداية : أرقى درجات العلوم ، وأحسن نعمة لاستقرار النفوس ، وبها يحسن الاستبصار ، والقرآن
كتاب هداية للناس أجمعين (هُدًى لِلنَّاسِ) ^{١٠٣} ، وكتاب هداية خاصة للنخبة (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ^{١٠٤}

(إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) ^{١٠٥} فإذا كان ربنا هو رب العالمين ، ونبينا رحمة
للعالمين ، وقرآنا منهج للعالمين ، فصار المرسل والرَّسول والرسالة كلها علمية ، والقرآن قد
اعتمد المنهج العلمي ليصبح دستوراً للناس أجمعين ، فلماذا نعيش نحن المذهبية المحدودة ؟
الفهم الحيوي للقرآن الكريم : هو أسلوب الحياة ويعت على الحياة ، وبذلك يتجنب التفسير
في النفوس . (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِّنْ مُّذَكِّرٍ) ^{١٠٦} الحاجة الحضارية لتفسير
معاصر مُيسر للقرآن الكريم . فإذا كان القرآن نصاً مُيسراً لكل الناس . فللطلب والمرغوب
أن يكون تفسيره مُيسراً أيضاً لكل الناس ، مُيسراً في معناه عميقاً في مغزاه دقيقاً في دلالاته
فهل من مُتذكراً ؟ هذا تفسير ذو موضوعية واعتدال مستوعب للمعنى القرآني للمهم ، سهل
الفهم ذو حيوية فكرية محرّكة للمشاعر بعيداً عن الغموض والتطرف ، يعتمد الدلالة العقلية
الواعية والنقلية الواقعية ، التي تتوافق مع منهج القرآن .

هذا التفسير يُيسر ولا يُفرض ويُؤخذ ولا يُفترق يُحبب ولا يُكره فيحقق وحدة الدين القيم ،
وإخلاص القلوب إلى الله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَقَائِقُ) ^{١٠٧}

هذا هو المنهج القرآني الوسطي المعتدل الذي يتناغم مع الروح وينسجم مع العقل
من حيث النهضة العلمية والحضارية والقرآنية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) ^{١٠٨}
يعتمد التفسير ذكر

الإشارات العلمية والفوائد النافعة في محلها المناسب.

أحوكم مكي قاسم البغدادي